

سلسلة المنشوريات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرباط

٨٣

فقه الأئمة والائمة

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

أسرهم في طبعه بعض المحسنين جزاهم الله خيرا

مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرباط

للشريعة والتوزيع بالرباط

مكتبة دار المنهاج

فقه
الأدعية والأذكار

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن

فقه الأدعية والأذكار. / عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.

الرياض، ١٤٣١هـ

٩٥٢ ص؛ ١٧×٢٤ سم. - (سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج؛ ٨٣)

ردمك: ٨ - ٢٤ - ٨٠٣٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الأدعية والأوراد أ. العنوان ب. السلسلة

١٤٣١/٨٩٣١

ديوي ٢١٢,٩٣

جميع حقوق الطبع محفوظة لدار المنهاج بالرياض

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

المركز الرئيسي - طريق الملك فهد - شمال الجوازات

هاتف ٤٠٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص ب: ٥١٩٢٩١ - الرياض ١١٥٥٣

الفرع - طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقاً) ت: ٣٣٢٢٠٩٥

الذاري الشرقي - مخرج ١٥ - جنوب أسواق المجد - ت: ٤٤٥٦٢٢٩

مكة المكرمة - الجميزة - الطريق النازل للحرم - ت: ٥٧٢١٣٧٧

المدينة النبوية - أمام الجامعة الإسلامية من جهة الجنوب - ت: ٤/٨٤٦٧٩٩٩

حساب الدار في موقع تويتر: @Alminhajj

سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ٨٣

فقه الأئمة والأئمة

تأليف
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع بالرياض

مَحَبَّةُ اللَّهِ وَذِكْرُهُ جَنَّةُ الدُّنْيَا

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ، وَلَا لَذَّةَ، وَلَا ابْتِهَاجَ وَلَا كَمَالَ، إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالْطَّمَأْنِينَةِ بِذِكْرِهِ، وَالْفَرَجِ وَالْإِبْتِهَاجِ بِقُرْبِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ، فَهَذِهِ جَنَّتُهُ الْعَاجِلَةُ، كَمَا أَنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ، فِي الْآخِرَةِ وَلَا فَوْزَ إِلَّا بِجَوَارِهِ، فِي دَارِ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ الْآجِلَةِ فَلَهُ جَنَّتَانِ لَا يَدْخُلُ الثَّانِيَةَ مِنْهُمَا إِنْ لَمْ يَدْخُلِ الْأُولَى، وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ أَبْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةَ مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا، لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة هذه الطبعة

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه حمدَ الشاكرين، وأثني عليه ثناءَ
الذاكرين، لا أحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه
وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه طبعةٌ جديدةٌ لكتابي «فقه الأدعية والأذكار»، مضبوطةٌ بالشكل مُنقَّحةٌ
مُصحَّحةٌ، وكان قد طبع سابقًا في أربعة أجزاء؛ تحدثتُ في الأول منها عن
الذكر: فضائله وأنواعه، وفي الثاني عن الدعاء: منزله وآدابه، وفي الثالث عن
عمل اليوم والليلة، وفي الرابع عن جوامع الأدعية في الكتاب والسنة.

وقد لقي الكتاب - بمن الله وفضله - قبولًا واسعًا؛ فطبع طبعات عديدة
في الداخل والخارج، وقرئ في العديد من المساجد وفي كثير من الإذاعات،
وترجم إلى عددٍ من اللغاتِ مقروءًا ومكتوبًا؛ والله وحده الفضل والمنة ظاهرًا
وباطنًا، وله الحمد والشكر أولًا وآخرًا.

وفي هذه الطبعة إعادةٌ لصف الكتاب من جديد، وتلافٍ لما في الطبعات
السابقة من أخطاءٍ مطبعيةٍ، مع حُسن إخراج ودقةٍ مراجعةٍ وجودةٍ تنسيقٍ
وتنظيم، وضبط بالشكل؛ حتى خرج بهذه الحلة البهية والمظهر الجميل،
مجموعًا بأجزائه الأربعة في مجلدٍ واحدٍ.

شَاكِراً كُلَّ مَنْ بَذَلَ جُهِدًا، أَوْ قَدَّمَ نُصْحًا، أَوْ أَسَدَى فَائِدَةً، أَوْ نَبَّهَ عَلَى
خَطِئًا، أَوْ أَعَانَ فِي تَصْحِيحٍ، وَاللَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.
وَأَخْصُ الشُّكْرِ مَكْتَبَةُ دَارِ الْمِنْهَاجِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ بِالرِّيَاضِ؛ لِمَا بَذَلُوهُ
مِنْ جُهِدٍ فِي صَفِّ الْكِتَابِ وَتَنْضِيدِهِ وَتَنْسِيقِهِ وَتَصْحِيحِهِ، سَائِلًا الرَّبَّ الْكَرِيمَ
سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا أَجْمَعِينَ جُهِدَنَا بِقَبُولِ حَسَنِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً،
وَأَنْ يَصْلِحَ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، وَأَلَّا يَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَنْ يُعْظِمَ الْبَرَكَاتِ
وَالنَّفَعَ بِهَذَا الْكِتَابِ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَوَجْهِهِ خَالصًا وَلِعِبَادِهِ نَافِعًا، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ
وَالنَّجَاحِ، وَيَبْدِئِ الصَّلَاحُ وَالْفَلَاحُ، لَا شَرِيكَ لَهُ.
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ.

وَكَتَبَهُ

عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسَنِ الْبَدْر

عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَقَرَ لَهُ

فِي ١٣/٢/١٤٣٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء
مكتب المفتي العام

من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز الى حضرة الابن الكريم صاحب الفضيلة الشيخ
مبدالرزاق بن عبدالمحسن بن حمد العباد البدر وفقه الله لكل خير وزاده من العلم
والإيمان آمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد :

فقد وصلني كتابكم الكريم وصلكم الله بحبل الهدى والتوفيق وما أشرتكم إليه
حول ما وفقكم الله له من القيام ببرنامج نافع للمسلمين وهو - فقه الأديمة
والأذكار - كان مطلوباً . وقد اطلعت على جملة من ذلك فسررت بها كثيراً لما
تضمنته من شرح الأديمة والأذكار ، وبيان فوائد ومغانيها وما ورد فيها من
الآيات والأحاديث وجملة ما اطلعت عليه خمسة وخمسون موضوعاً آخرها الكلام
على كلمة : لاحول ولا قوة إلا بالله . والذي أوصيكم به هو طبع ما تم من ذلك ونشره
بين الناس ليعم النفع به مع مواصلة الجهود والعمل في هذا البرنامج المفيد النافع
للمسلمين . ضاعف الله مثوبتكم وأمدكم بمعونه وتوفيقه ونفع بجهودكم جميع
المسلمين إنه سميع قريب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مفتي عام المملكة العربية السعودية

ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء



الرقم :- ١٧٧ في التاريخ : ١٤/٩/١٤١٩ هـ المشفوعات : ١

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فلا ريب أن ذكرَ الله ودعاءهُ هو خيرُ ما أمضيَتْ فيه الأوقات، وصُرفت فيه الأنفاس، وأفضلُ ما تقَرَّب به العبدُ إلى ربه ﷻ، وهو مفتاحٌ لكلِّ خيرٍ يناله العبدُ في الدنيا والآخرة؛ «فمتى أعطى (اللهُ) العبدَ هذا المفتاحَ، فقد أراد أن يفتَحَ له، ومتى أضلَّه بقي بابُ الخيرِ مُرتَجًّا دونه»^(١)؛ فيبقى مضطربَ القلب، مشوشَ الفؤاد، مشتتَ الفكر، كثيرَ القلق، ضعيفَ الهمة والإرادة. أما إذا كان محافظًا على ذكرِ الله ودعاءهِ وكثرة اللجأِ إليه، فإن قلبه يكون مطمئنًا بذكره لربه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وينال من الفوائد والفضائل والثمار الكريمة اليانعة في الدنيا والآخرة ما لا يحصيه إلا الله تعالى.

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص ١٢٧).

يُزِيلُ الشَّقَا وَالْهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ
وإنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشْرِدُ
بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ
عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرُ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ
وقد كَانَ فِي حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ
تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسَعِدُ
بِجَنَاتِ عَدْنٍ وَالْمَسَاكِينِ تُمَهِّدُ
وَمَعَهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ يُسَدِّدُ
وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخْلَدُوا
طَرِيقُ إِلَى حُبِّ الْإِلَهِ وَمُرْشِدُ
وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدُ
بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ نِعَمَ الْمُوَحِّدُ
كَمَا قُلْنَا مِنَّا لِلَّهِ التَّعَبُّدُ^(١)

فَذِكْرُ إِلَهٍ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُغْلَنًا
وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وَآجِلًا
فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ
وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلَهَهُ
وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ
بِأَنَّ لَا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ هَلْهَ
وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ عَرْسٌ لِأَهْلِهِ
وَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ
وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ يَبْقَى بِجَنَّةٍ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرُ أَنَّهُ
وَيَنْهَى الْفَتَى عَنْ غَيْبَةٍ وَنَمِيمَةٍ
لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ
وَلَكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا

ولهذا؛ فإنَّ الأذكار الشرعية والأدعية النبوية لها منزلة عالية في الدين، ومكانة خاصة في نفوس المسلمين، وكتبُ الأذكار على تنوعها تلقى في أوساطهم اهتمامًا بالغًا وعنايةً فائقة، ولا يمكن إحصاء ما كتبه أهل العلم قديمًا وحديثًا في الذكر والدعاء؛ لكثرة ما أُلِّفَ في ذلك؛ فمنهم الراوي الأخبارَ بالأسانيد، ومنهم الحاذقُ لها، ومنهم المطوِّلُ المُسَهِّبُ، ومنهم المختصرُ والمتوسِّطُ والمهذبُ، مع تفاوتٍ بينهم في جمع النصوص، وعرض الأدلة، وطرق تبويبها وتصنيفها، والاهتمامِ بشرحها وتوضيحها، إلى غير ذلك.

ناهيك أن أهل الأهواء لهم في هذا الباب مؤلفات كثيرة مشتملة على

(١) ناظم هذه الأبيات هو الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ ضَمَّنَ مَنَظُومَتِهِ النَّافِعَةَ الْمُطْبُوعَةَ مع شرحٍ لي عليها بعنوان (منهج الحق).

الشَّطْطُ والانحرافُ والبُعْدُ عن الحقِّ؛ بسببِ عدمِ تقيُّدِ مؤلِّفيها بالسُّنَّةِ، وإعراضِهِمْ عن الالتزامِ بالمأثورِ.

هذا؛ وقد دَلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ وآثارُ السلفِ على جنسِ المشروعِ والمستحبِّ في ذكرِ الله ودعائِهِ كسائرِ العباداتِ، وبَيَّنَ النبي ﷺ لأُمَّتَهُ ما ينبغي لهم أن يقولوه مِنْ ذِكْرِ ودعاءٍ في الصباحِ والمساء، وفي الصلواتِ وأعقابها، وعند دخولِ المسجدِ، وعند النومِ، وعند الانتباهِ منه، وعند الفَرَجِ فيه، وعند تناولِ الطعامِ وبعْدَهُ، وعند ركوبِ الدابَّةِ، وعند السفرِ، وعند رؤيةِ ما يحبُّهُ المرءُ، وعند رؤيةِ ما يكرهه، وعند المصيبةِ، وعند الهَمِّ والحَزَنِ، وغيرِ ذلك مِنْ أحوالِ المسلمِ وأوقاتهِ المختلفةِ.

كما بيَّنَ - صلوات الله وسلامه عليه - مراتبَ الأذكارِ والأدعيةِ، وأنواعَهَا، وشروطَهَا، وآدابَهَا، أتمَّ البيانِ وأكملَهُ، وتركَ أُمَّتَهُ في هذا البابِ وفي جميعِ أبوابِ الدينِ على مَحَجَّةٍ بيضاءَ، وطريقٍ واضحةٍ، لا يزيغُ عنها بعْدَهُ إلا هالكٌ؛ و«لا ريبَ أن الأذكارَ والدعواتِ مِنْ أَفْضَلِ العباداتِ، والعباداتُ مبناها على التوقيفِ والاتباعِ، لا على الهوى والابتداعِ، فالأدعيةُ والأذكارُ النبويةُ هي أَفْضَلُ ما يَتَحَرَّاهُ المتحرِّيُّ من الذكرِ والدعاءِ، وسالكُها على سبيلِ أمانٍ وسلامةٍ، والفوائدُ والنتائجُ التي تحضُلُ لا يعبرُ عنه لسانُ، ولا يحيطُ به إنسانُ، وما سواها مِنْ الأذكارِ قد يكونُ محرِّمًا، وقد يكونُ مكروهاً، وقد يكونُ فيه شركٌ مما لا يَهْتَدِي إليه أَكْثَرُ الناسِ، وهي جملةٌ يطولُ تفصيلُها»^(١).

فالمشروعُ للمسلمِ هو أن يذكرَ اللهَ بما شرَّعَ، وأن يدعوهُ بالأدعيةِ المأثورةِ، وقد نهى اللهُ عن الاعتداءِ في الدعاءِ؛ فينبغي لنا أن نَتَّبِعَ فيه ما شرَّعَ وَسَنَّ، كما أنه ينبغي لنا ذلك في غيره مِنَ العباداتِ، وأن لَا نَعْدِلَ عن ذلك إلى غيره؛ «وَمِنْ أَشَدِّ الناسِ عيبًا مَنْ يتخذُ حِزْبًا ليس بمأثورٍ عن النبي ﷺ، وإن كان حِزْبًا لبعضِ المشايخِ، ويدَّعِي الأحزابَ النبويةِ التي كان يقولها سيِّدُ بني

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٢/٥١٠، ٥١١).

آدم، وإمام الخلق، وحجة الله على عباده»^(١)؛ فالخير كله في اتباعه، والاهتداء بهديه، وترسُّم خطاه، فهو القدوة والأسوة - صلوات الله وسلامه عليه - وقد كان أكمل الناس ذكراً لله، وأحسنهم قياماً بدعائه سبحانه.

ولهذا فإنه إذا اجتمع للعبد في هذا الباب لزوم الأذكار النبوية والأدعية المأثورة، مع فهم معانيها ومدلولاتها، وحضور قلب عند الذكر؛ فقد كُمل نصيبه من الخير.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأفضل الذكر وأنفعه: ما واطأ القلب للسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»^(٢).

ولما كان الأمر بهذه المنزلة وعلى هذا القدر من الأهمية نشأت عندي رغبة في أن أعدَّ وأقدِّم - مع الاعتراف بالعجز وعدم الأهلية - دراسة في الأذكار والأدعية النبوية في بيان فقهها، وما اشتملت عليه من معاني عظيمة، ومدلولات كبيرة، ودروس جليلة، وعبر مؤثرة، وحكم بالغة، واجتهدت في جمع كلام أهل العلم في ذلك، فاجتمع عندي من ذلك - بحمد الله - فوائد كثيرة، ولطائف عديدة، وتنبيهات دقيقة من كلام أهل العلم المحققين، ولا سيما الإمامين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، رحمهما الله، ثم نظمت ما اجتمع عندي من ذلك وألفت بينه، وجعلته بعنوان:

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

وهو في الأصل حلقات إذاعية قدِّمت عبر إذاعة القرآن الكريم بالملكة العربية السعودية، تلك الإذاعة المباركة التي يُقدَّم فيها من الجهود العظيمة، والمسعاي الحثيثة، والأعمال المشكورة في سبيل نشر دين الله في أنحاء المعمورة ما لا يخفى عظم نفعه وكبر فائده على كل مسلم، فنسأل الله أن يجزي القائمين عليها خير الجزاء، وأن يسدّدهم في أقوالهم وأعمالهم، وأن

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٢/٥٢٥).

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص ٢٤٧).

يُبَارِكُ فِي جُهْدِهِمْ، وَأَنْ يُؤَفِّقَهُمْ لِكُلِّ خَيْرٍ. وَقَدْ رَغِبَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ مُشَايخِي وَإِخْوَانِي أَنْ أَقُومَ بِنَشْرِهِ مَطْبُوعًا لِيَتَنَوَّعَ مَجَالُ نَفْعِهِ، وَلِتَكْثُرَ فَائِدَتُهُ، فَأَجْرَيْتُ عَلَيْهِ تَعْدِيلَاتٍ يَسِيرَةً فِي أَسْلُوبِهِ؛ لِيَكُونَ مَنَاسِبًا لِلنَّشْرِ، وَجَعَلْتُ لِكُلِّ حَلْقَةٍ عَنَوَانًا خَاصًّا يَدُلُّ عَلَى مَضْمُونِهَا، وَيُرْشِدُ إِلَى مَوْضُوعِهَا، وَجَعَلْتُ فِي أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَنَاسِبَةٍ الْحَجْمِ وَالْمَوْضُوعِ، وَهَذَا هُوَ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مِنْهُ، وَإِنِّي لِأَرْجُو اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنِّي هَذَا الْعَمَلُ وَسَائِرَ أَعْمَالِي، وَأَنْ يُبَارِكَ فِيهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ نَافِعًا لِعِبَادِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، وَأَهْلُ الرِّجَاءِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

وَلَا يَفُوتُنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ الدُّعَاءُ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِسَمَاحَةِ الْوَالِدِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، الَّذِي تَفَضَّلَ مَشْكُورًا بِقِرَاءَةِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهِ^(١)، وَالتَّقْدِيمِ لَهُ عَلَى كَثَرَةِ أَعْمَالِهِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ فِي مَوَازِينِ حَسَنَاتِهِ، وَأَنْ يَجْزِيَهُ عَنَّا وَعَنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

كَمَا أَشْكُرُ كُلَّ مَنْ قَدَّمَ لِي أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُسَاعَدَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ؛ سِوَاءَ بَحْثٍ وَتَشْجِيعٍ، أَوْ تَصْحِيحٍ وَمَرَاجَعَةٍ، أَوْ إِبْدَاءٍ وَجَهَةٍ نَظَرٍ أَوْ مَلْحُوظَةٍ، وَمَنْ قَامَ بِصَفِّهِ وَتَنْضِيدِهِ وَعَزَوْ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِيهِ، وَمَنْ تَبَرَّعَ لَطَبْعِهِ وَسَاهَمَ فِي نَشْرِهِ أَوْ عَمِلَ عَلَى تَرْجُمَتِهِ إِلَى لُغَاتٍ أُخْرَى، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَثِيبَ الْجَمِيعَ أَعْظَمَ الثَّوَابِ، وَأَنْ يَجْزِيَهُمْ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

وكتب:

عبد الرزاق البدر

غفر الله له، وعفا عنه، ورحمه

ووالديه وجميع المسلمين

المدينة النبوية ص ب ٦٨

(١) وقد جعلت تعليقاته ﷺ في داخل المتن بين معقوفتين وتحتها سطر: [_____].

القِسْمُ الْأَوَّلُ

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(الذِّكْرُ فَضَائِلُهُ وَأَنْوَاعُهُ)

أَهَمِّيَّةُ الذِّكْرِ وَفَضْلُهُ

غيرُ خافٍ على كلِّ مسلمٍ أَهَمِّيَّةُ الذِّكْرِ وعَظِيمُ فائدتِه؛ إذْ هو مِنْ أَجْلِ المقاصدِ، وأنفعِ الأَعْمَالِ المَقْرَبَةِ إلى الله تعالى، وقد أَمَرَ اللهُ به في القرآن الكريم في مواطنٍ كثيرةٍ، ورَغِبَ فيه، ومدَحَ أهْلَه، وأثنى عليهم أَحْسَنَ الثَّناءِ وأطْيَبَه.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، ويقولُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُم مِّنْ سَكَنُكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ لِكُذِّكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ويقولُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ويقولُ تعالى: ﴿وَالَّذِكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذِكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فأمرُ تعالى في هذه الآياتِ بِذِكْرِهِ بالكثرة؛ وذلك لِشِدَّةِ حاجَةِ العبدِ إلى ذلك، وافتقاره إليه أعظمَ الافتقارِ، وعَدَمِ استغنائه عنه طرفَةً عَيْنٍ، فأَيُّ لحظةٍ خلا فيها العبدُ عن ذِكْرِ اللهِ ﷻ كانت عليه لا له، وكان خسرانُهُ فيها أعظمَ ممَّا ربحَ في غفلتِهِ عن الله، ونَدِمَ على ذلك نَدَمًا شَدِيدًا عندَ لقاءِ اللهِ يومَ القيامةِ.

فقد ثَبَتَ عن النبي ﷺ كما في «سنن أبي داود»، و«مستدرک الحاكم»، من حديثِ أبي هريرة ؓ؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: (مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا وَتَفَرَّقُوا مِنْهُ لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، إِلَّا كَأَنَّمَا تَفَرَّقُوا عَنْ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(١).

(١) «المسند» (٥١٥/٢)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٥)، و«المستدرک» (٤٩١/١ - ٤٩٢) واللفظ له، وصحَّحه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٧).

والسُّنَّةُ مليئةٌ بالأحاديث الدَّالَّةُ على فضل الذِّكْرِ، ورفيع قدره، وعُلُوُّ مكانته، وكثرة عوائده وفوائده على الدَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات.

فقد أخرج الإمام أحمدُ والترمذي، وابن ماجه، والحاكم - وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي - عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (ذِكْرُ اللَّهِ) ^(١).

وروى مسلم في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «(سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ)»، قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ) ^(٢).

وروى البخاري، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) ^(٣).

والأحاديثُ في هذا الباب كثيرةٌ، ولعلَّ مِنَ المناسبِ هنا - والحديثُ ماضٍ بنا في فضل الذكر - أنْ أُلْحِصَ بعضَ ما ذكره أهلُ العلمِ مِنْ فوائدٍ لذكرِ الله تعالى يَجْنِيهَا الذَّاكِرُونَ في حياتهم الدُّنيا ويومَ القيامةِ، وَمِنْ أَحْسَنِ مَنْ رَأَيْتُهُ تَكَلَّمَ في هذا الموضوعِ، وَجَمَعَ أَطْرَافَهُ، وَلَمْ شَتَاتِهِ: الإمامُ العَلَامَةُ ابنُ الْقَيْمِ رحمته الله في كتابهِ الْعَظِيمِ «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ، مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ»، وهو مطبوعٌ طبعاَتٍ كثيرةً، ومُتَدَاوِلٌ بين أهلِ العلمِ وَطُلَّابِهِ؛ فَقَدْ قَالَ رحمته الله في كتابهِ الْمَذْكُورِ ^(٤): «وفي الذِّكْرِ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ فَائِدَةٍ...»، ثُمَّ أَخَذَ يَعِدُّهَا، فَذَكَرَ ما يَزِيدُ على السَّبعينِ فَائِدَةً، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِمُفْرَدِهَا كَافِيَةٌ لِحَفْزِ النُّفُوسِ، وَتَحْرِيكِ الْهَمَمِ لِلِاسْتِغْثَالِ بِالذِّكْرِ، كَيْفَ وَقَدْ اجْتَمَعَتْ تِلْكَ الْفَوَائِدُ الْكُثْرُ

(١) «المسند» (٥/١٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٧٧)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٠)، و«المستدرک» (١/٤٩٦)، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ في «صحيح الجامع» رقم (٢٦٢٩).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٦).

(٤) (ص ٨٤).

(٣) سَيَاتِي تَخْرِيجُهُ (ص ٤٩).

والعوائد الغزار، والأمر فوق ما يصفه الواصفون، ويَعُدُّه العادون؛ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ولعلي أذكر لك - أخي المسلم - هنا فائدة واحدة من فوائد الذكر مما ذكره ﷺ، على أن أستكمل لك بعض هذه الفوائد بعد - إن شاء الله - مع وصيتي لك باقتناء الكتاب المذكور والانتفاع به؛ فهو حقاً كتاب عظيم النفع، كبير الفائدة.

* فَمِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ: أَنَّهُ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَيَقْمَعُهُ وَيَكْسِرُهُ^(١)؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وثبت في «مسند الإمام أحمد»، و«جامع الترمذي»، و«مستدرک الحاكم»، وغيرها، بإسناد صحيح، من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يَبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَى عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِّتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فِيمَا أَنْ تَأْمُرُهُمْ، وَإِمَّا أَنْ أَمُرَهُمْ؟ فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخَسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَمْتَلَأَ الْمَسْجِدَ، وَقَعَدُوا عَلَى الشَّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأُؤْمِرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ...)^(٢).

فذكر أمرهم بالتوحيد، والصلاة، والصيام، والصدقة، ثم ذكر الخامسة، فقال: (وَأُؤْمِرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثْلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ

(١) انظر: «الوابل الصيب» (ص ٨٤).

(٢) «المسند» (٢٠٢/٤)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٨٦٣)، و«المستدرک» (١١٧/١)، ١١٨، (٤٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٧٢٤).

سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى...، إلى آخر هذا الحديث العظيم.

وقد وصفه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ حَدِيثٌ عَظِيمُ الشَّانِ، وينبغي لكلِّ مسلم حِفْظُهُ وتَعَقُّلُهُ^(١).

فهذا الحديث مشتملٌ على فضيلةٍ عظيمةٍ للذكر، وأَنَّهُ يطرُدُ الشَّيْطَانَ، وَيُنْجِي مِنْهُ، وَأَنَّهُ بِمَثَابَةِ الْحِصْنِ الْحَصِينِ، وَالْحِرْزِ الْمَكِينِ، الَّذِي لَا يُحْرِزُ الْعَبْدُ نَفْسَهُ مِنْ هَذَا الْعَدُوِّ اللَّدُونِ إِلَّا بِهِ، وهذه - ولا ريب - فضيلةٌ عظيمةٌ للذكر؛ ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقًا بالعبد أن لَا يَفْتَرَّ لِسَانُهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ لَا يَزَالَ لَهْجًا بذكره؛ فَإِنَّهُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنْ عَدُوِّهِ إِلَّا بِالذِّكْرِ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ إِلَّا مِنْ بَابِ الْغَفْلَةِ؛ فَهُوَ يَرُصُّهُ، فَإِذَا غَفَلَ وَتَبَّ عَلَيْهِ وَافْتَرَسَهُ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى انْخَسَ عَدُوُّ اللَّهِ وَتَصَاعَرَ وَانْقَمَعَ، حَتَّى يَكُونَ كَالْوَصْعِ^(٢) وَكَالذُّبَابِ؛ وَلِهَذَا سُمِّيَ «الْوَسْوَاسَ الْخَنَاسَ»؛ أَي: يوسوسُ في الصدور، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَسَّ؛ أَي: كَفَّ وَانْقَبَضَ.

وقال ابن عَبَّاسٍ رَحِمَهُمَا: الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسَّسَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَسَّ^(٣).

فنسأل الله تعالى أَنْ يُعِيدَنَا مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَه، وَمِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ قَرِيبٌ.



(١) «الوابل الصَّيْبُ» (ص ٣١).

(٢) الْوَصْعُ: طائرٌ أصغرُ من العصفور. «القاموس المحيط»، مادة: (وصع).

(٣) «الوابل الصَّيْبُ» (ص ٧٢). وأثر ابن عباس رَوَاهُ ابن أبي شَيْبَةَ فِي «المصنَّف» (١٣٥/٧) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

مِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ

لا يزال الحديث موصولاً في بيانِ فوائدِ الذِّكرِ، وقد مرَّ معنا فيما سبق ذكرُ فائدةٍ واحدةٍ له؛ وهي: أَنَّهُ حِرْزٌ لصاحبه مِنَ الشَّيْطَانِ، فمن خلا مِنَ الذِّكْرِ لازمه الشَّيْطَانُ ملازمةَ الظِّلِّ، والله يقول: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، ولا يستطيع العبدُ أن يُحرِزَ نفسه من الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تعالى، وهذه فائدةٌ جليلةٌ مِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ العديدة.

وكما مرَّ بنا، فإنَّ الإمام العلامة ابنَ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عَدَّ في كتابه القيم «الوابل الصَّيْب» مَا يَنيفُ عَلَى السَّبْعِينَ فائدةً للذِّكرِ، ونستكملُ هنا بعضَ تلك الفوائد العظيمة، ممَّا أورده رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه المُشار إليه آنفاً^(١).

* فمن فوائد ذكرِ اللَّهِ العظيمة: أَنَّهُ يَجْلِبُ لِقَابِ الذَّاكِرِ الفَرَحَ والسُّرُورَ والرَّاحَةَ، وَيُورِثُ الْقَلْبَ السَّكُونَ والطَّمَأْنِينَةَ؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: يزولُ ما فيها مِنْ قلقٍ أو اضطرابٍ، ويكون فيها بدلُ ذلك الأُنْسُ والفَرَحُ والرَّاحَةُ، وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾؛ أي: حقيقٌ بها وحرِيٌّ أن لَا تَطْمَئِنَّ لشيءٍ سوى ذكره تبارك وتعالى.

* بل إنَّ الذِّكْرَ هو حياةُ القلبِ حقيقةً، وهو قُوَّةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، فإذا فقدَ العبدُ، صارَ بمنزلةِ الجسمِ إذا حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُوَّتِهِ؛ فلا حياةَ للقلبِ حقيقةً إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذِّكْرُ لِلْقَلْبِ مِثْلُ الْمَاءِ لِلسَّمَكِ؛ فكيف يكونُ حالُ السَّمَكِ إذا فارقَ الماءَ؟!»^(٢).

* ومن فوائدِ ذكرِ العبدِ لِلَّهِ: أَنَّهُ يُورِثُهُ ذِكْرَ اللَّهِ له؛ كما قال تعالى:

(١) انظر: «الوابل الصَّيْب» (ص ٨٤ - ١٠٠، ١٤٥).

(٢) انظر: «الوابل الصَّيْب» (ص ٨٥).

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: (إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأِ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأِ خَيْرٍ مِنْهُمْ)^(١).

* ومن فوائده: أَنَّهُ يَحُطُّ الْخَطَايَا وَيُذْهِبُهَا، وَيُنْجِي الذَّاكِرَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؛ ففي «المسند»، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا عَمِلَ آدَمِيَّ عَمَلًا قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى)^(٢).

* ومن فوائده الذِّكْرُ: أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْثَوَابِ وَالْفَضْلِ مَا لَا يَتَرْتَّبُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، مَعَ أَنَّهُ أَيْسَرُ الْعِبَادَاتِ؛ فَإِنَّ حَرَكَةَ اللِّسَانِ أَخَفُّ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ وَأَيْسَرُهَا، وَلَوْ تَحَرَّكَ عَضْوٌ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ بِقَدْرِ حَرَكَةِ لِسَانِهِ، لَشَقَّ عَلَيْهِ غَايَةُ الْمَشَقَّةِ، بَلْ لَا يُمْكِنُهُ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا فَلَأَجُورُ الْمُرْتَبَّةُ عَلَيْهِ عَظِيمَةٌ، وَالثَّوَابُ جَزِيلٌ.

ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرَ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِزْرًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ)^(٣).

وفي «الصحيحين» أيضًا، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ)^(٤).

وفي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٤٠٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٥).

(٢) «المسند» (٢٣٩/٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٤٤).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩١).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩١).

طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ^(١)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

* وَمِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ: أَنَّهُ غِرَاسُ الْجَنَّةِ؛ فَالْجَنَّةُ - كما جاء في الحديث - قِيعَانٌ، وهي طَبِيبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَغِرَاسُهَا ذِكْرُ اللَّهِ؛ فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَقِيتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عليه السلام)، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرَيْتُ أَمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَبِيبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٢).

ورواه الإمام أحمد، من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ولفظه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، مَرَّ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: (مَنْ مَعَكَ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا مُحَمَّدٌ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: مُرْ أَمَّتَكَ فَلْيُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ تُرْبَتَهَا طَبِيبَةٌ، وَأَرْضُهَا وَسِيعَةٌ، قَالَ: وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)»^(٣).

وروى التِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ) قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٤).

ورواه الإمام أحمد، مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، نَبَتْ لَهُ غَرْسٌ فِي الْجَنَّةِ)^(٥).

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٥).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٦٢)، وحسنه أيضًا الألباني لما له من الشواهد في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٠٥).

(٣) «المسند» (٤١٨/٥)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٢١)، وحسنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١٠٠/١).

(٤) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٦٤)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٢٦، ٨٢٧)، و«مستدرک الحاكم» (٥٠١/١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٦٤) وله شاهدان: أحدهما: مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه مَوْقُوفًا؛ خَرَّجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٥٦/٦). والآخر: مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ سَهْلٍ مَرْفُوعًا؛ خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٤٤٠/٣).

(٥) «المسند» (٤٤٠/٣)، وفي سنده زَبَّانٌ بَنُ فَائِدٍ؛ وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَلَكِنْ لِلْحَدِيثِ شَوَاهِدٌ يَتَقَوَّى بِهَا.

* **وَمِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ:** أَنَّهُ يَكُونُ نُورًا لِلذَّاكِرِ فِي الدُّنْيَا، وَنُورًا لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنُورًا لَهُ فِي مَعَادِهِ، يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ، فَمَا اسْتَنَارَتِ الْقُلُوبُ وَالْقُبُورُ بِمَثَلِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

• **فَالأَوَّلُ:** هُوَ الْمُؤْمِنُ؛ اسْتَنَارَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ.

• **وَالْآخِرُ:** هُوَ الْغَافِلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، الْمُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِهِ وَمَحَبَّتِهِ.

وَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ، وَالْفَلَاحُ كُلُّ الْفَلَاحِ فِي النُّورِ، وَالشَّقَاءُ كُلُّ الشَّقَاءِ فِي فَوَاتِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ سُؤَالِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ بَأَن يَجْعَلَهُ فِي كُلِّ ذَرَاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَأَن يَجْعَلَهُ مُحِيطًا بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، وَأَن يَجْعَلَ ذَاتَهُ وَجَمَلَتَهُ نُورًا.

فَقَدْ خَرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي ذِكْرِ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِاللَّيْلِ؛ قَالَ: «وَكَانَ فِي دَعَائِهِ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَعَظَمَ لِي نُورًا)»، قَالَ كُرَيْبٌ - أَحَدُ رَوَاةِ الْحَدِيثِ -: وَسَبْعًا فِي التَّابُوتِ. فَلَقِيتُ بَعْضَ وَلَدِ الْعَبَّاسِ، فَحَدَّثَنِي بِهِ، فَذَكَرَ: عَصْبِي، وَلَحْمِي، وَدَمِي، وَشَعْرِي، وَبَشْرِي، وَذَكَرَ خَصْلَتَيْنِ^(١).

فَالذِّكْرُ نُورٌ لِقَلْبِ الذَّاكِرِ وَوَجْهِهِ وَأَعْضَائِهِ، وَنُورٌ لَهُ فِي دُنْيَاهُ، وَفِي الْبَرْزَخِ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

* **وَمِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ:** أَنَّهُ يَوْجِبُ صَلَاةَ اللَّهِ ﷻ وَمَلَائِكَتِهِ عَلَى الذَّاكِرِ، وَمَنْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ، فَقَدْ أَفْلَحَ كُلَّ الْفَلَاحِ، وَفَازَ كُلَّ الْفَوْزِ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوا بِكُرْهِ وَأَصِيلًا ۖ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

(١) رواه البخاري رقم (٦٣١٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٦٣).

فَوَائِدُ أُخْرَى لِلذِّكْرِ

نواصل الحديث في عَدِّ بعضِ فوائِدِ الذِّكْرِ، وَذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ مَنَافِعِهِ وَعَوَائِدِهِ عَلَى الذَّاكِرِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ»^(١).

*** فمن فوائده:** أَنَّ الذِّكْرَ سَبَبٌ لِتَصْدِيقِ الرَّبِّ ﷻ عَبْدَهُ؛ فَإِنَّ الذَّاكِرَ يُخْبِرُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى بِأَوْصَافِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ، فَإِذَا أَخْبَرَ بِهَا الْعَبْدُ صَدَقَهُ رَبُّهُ، وَمَنْ صَدَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يُحْشَرْ مَعَ الْكَاذِبِينَ، وَرُجِيَ لَهُ أَنْ يُحْشَرَ مَعَ الصَّادِقِينَ.

رَوَى ابْنُ مَاجَهَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالحَاكِمُ، وَغَيْرُهُمْ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ الْأَعْرُثِيِّ أَبِي مُسْلِمٍ، أَنَّهُ شَهِدَ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَخَلْدِي، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لَا شَرِيكَ لِي، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِي الْمُلْكُ وَلِي الْحَمْدُ، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي).

(١) انظر: «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ» (ص ١٣٢، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٤).

ثُمَّ قَالَ الْأَعْرُ شَيْئًا لَمْ أَفْهَمْهُ، قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ: مَا قَالَ؟ قَالَ: (مَنْ رَزَقَهُنَّ عِنْدَ مَوْتِهِ، لَمْ تَمْسَهُ النَّارُ)^(١).

* ومن فوائده: أَنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ أَمَانٌ مِنَ النِّفَاقِ؛ فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ قَلِيلُو الذِّكْرِ ﷻ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

قَالَ كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ ﷻ، بَرِيَ مِنَ النِّفَاقِ». وَلَعَلَّهُ لِأَجْلِ هَذَا خَتَمَ اللَّهُ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فإِنَّ فِي ذَلِكَ تَحْذِيرًا مِنَ فِتْنَةِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ غَفَلُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ، فَوَقَعُوا فِي النِّفَاقِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَقَدْ سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْخَوَارِجِ: مُنَافِقُونَ هُمْ؟ فَقَالَ: «الْمُنَافِقُونَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا».

فلهذا مِنْ عِلَامَةِ النِّفَاقِ: قِلَّةُ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ؛ وَعَلَى هَذَا: فَكثْرَةُ ذِكْرِهِ تَعَالَى أَمَانٌ مِنَ النِّفَاقِ، وَاللَّهُ ﷻ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَبْتَلِيَ قَلْبًا ذَاكِرًا بِالنِّفَاقِ؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِقُلُوبٍ غَفَلَتْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ.

* وَمِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ: أَنَّهُ شِفَاءٌ لِلْقَلْبِ، وَدَوَاءٌ لَأَمْرَاضِهِ؛ قَالَ مَكْحُولُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى شِفَاءٌ، وَذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ».

ثُمَّ إِنَّ الذِّكْرَ أَيْضًا يُذْهِبُ قَسْوَةَ الْقَلْبِ؛ ففِي الْقَلْبِ قَسْوَةٌ لَا يُذِيبُهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى؛ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَشْكُو إِلَيْكَ قَسْوَةَ قَلْبِي، قَالَ: «أَذِبْهُ بِالذِّكْرِ».

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٣٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٤)، واللفظ له، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٥١)، و«مستدرک الحاكم» (٥/١)، وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وهو حديث صحيح. «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٩٠).

* **وَمِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ:** أَنَّ الذَّاكِرَ قَرِيبٌ مِنْ مَذْكُورِهِ، وَمَذْكُورُهُ مَعَهُ، وَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ غَيْرُ مَعِيَّةِ الْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ الْعَامَّةِ؛ فَهِيَ مَعِيَّةٌ بِالْقُرْبِ وَالْوَلَايَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْإِعَانَةِ وَالتَّوْفِيقِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فَالذَّاكِرُ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعِيَّةِ النَّصِيبُ الْوَافِرُ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْإِلَهِيِّ: (أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ)؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ خَالٍ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَالحَاكِمُ، وَغَيْرُهُمْ^(١).

* **وَمِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ:** أَنَّهُ جَلَّابٌ لِلنَّعْمِ، دَافِعٌ لِلنَّقَمِ، فَمَا اسْتُجْلِبَتْ نِعْمَةٌ، وَلَا اسْتُدْفِعَتْ نِقْمَةٌ بِمَثَلِ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]؛ فِدْفَاعُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمْ هُوَ بِحَسَبِ قُوَّةِ إِيْمَانِهِمْ وَكَمَالِهِ، وَمَادَّةُ الْإِيْمَانِ وَقُوَّتُهُ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ كَانَ إِيْمَانُهُ أَكْمَلَ، وَذَكَرَهُ اللَّهُ أَكْثَرَ، كَانَ نَصِيبُهُ مِنْ دِفَاعِ اللَّهِ عَنْهُ أَعْظَمَ، وَحُظُّهُ مِنْهُ أَوْفَرَ، وَمَنْ نَقَصَ نَقْصًا؛ ذَكَرًا بِذِكْرٍ، وَنَسِيَانًا بِنَسِيَانٍ.

* **وَمِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ:** أَنَّ إِدَامَتَهُ تَنْوُبُ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَتَقُومُ مَقَامَهَا؛ سِوَاءَ كَانَتْ بَدَنِيَّةً أَوْ مَالِيَّةً، أَوْ بَدَنِيَّةً مَالِيَّةً؛ كَحِجِّ التَّطَوُّعِ.

وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ وَالتَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلُ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ، وَيَجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، فَقَالَ: (أَلَا أَعْلَمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا أَحَدٌ

(١) «المسند» (٢/٥٤٠)، و«صحيح البخاري» (٨/٥٧٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٢)، و«مستدرک الحاکم» (١/٤٩٦).

يَكُونُ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مَا صَنَعْتُمْ؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ...)» إلى آخر الحديث، وهو متفق عليه^(١).

فَجَعَلَ الذِّكْرَ عَوْضًا لَهُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْجِهَادِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَسْبِقُونَهُمْ بِهَذَا الذِّكْرِ؛ فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِذَلِكَ عَمِلُوا بِهِ، فَازْدَادُوا إِلَى صِدْقَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ بِمَالِهِمُ التَّعَبُّدَ بِهَذَا الذِّكْرِ، فَحَازُوا الْفَضِيلَتَيْنِ، فَنَافَسَهُمُ الْفُقَرَاءُ، وَأَخْبَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّهُمْ قَدْ شَارَكُوهُمْ فِي ذَلِكَ، فَاغْتَرَبُوا عَنْهُمْ بِمَا لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ).

وفي حديث عبد الله بن بُسَيْرٍ رضي الله عنه الذي خرَّجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم، قال: «جاء أعرابيٌّ، فقال: يا رسول الله، إنَّ شرائع الإسلام قد كثُرَتْ عليَّ، فأخبرني بشيءٍ أَتَشَبُّثُ بِهِ، قال: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)»^(٢).

فَدَلَّه النَّاصِحُ رضي الله عنه عَلَى شَيْءٍ يَعِينُهُ عَلَى شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَالْجِرْصِ عَلَيْهَا، وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا؛ فَإِنَّهُ إِذَا اتَّخَذَ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى شِعَارَهُ، أَحَبَّهُ وَأَحَبَّ مَا يَحِبُّ، فَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ التَّقَرُّبِ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، فَبَيَّنَ لَهُ رضي الله عنه مَا يَتِمَكَّنُ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَتَسَهِّلُ بِهِ عَلَيْهِ، فَالذِّكْرُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّهَا إِلَى الْعَبْدِ وَيُسَهِّلُهَا عَلَيْهِ، وَيُلَدِّدُهَا لَهُ، بِحَيْثُ لَا يَجِدُ لَهَا مِنْ الْكُلْفَةِ وَالْمَشَقَّةِ وَالثَّقَلِ مَا يَجِدُهُ الْغَافِلُ.

ثم هو أيضًا يُسَهِّلُ الصَّعْبَ، وَيُسِّرُ الْعَسِيرَ، وَيُخَفِّفُ الْمَشَاقَّ، فَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَى صَعْبٍ إِلَّا هَانَ، وَلَا عَلَى عَسِيرٍ إِلَّا تيسَّرَ، وَلَا مَشَقَّةٌ إِلَّا خَفَّتْ، وَلَا شِدَّةٌ إِلَّا زَالَتْ، وَلَا كُرْبَةٌ إِلَّا انْفَرَجَتْ، فَذَكَرَ اللَّهُ هُوَ الْفَرْجُ بَعْدَ الشَّدَّةِ، وَالْيُسْرُ بَعْدَ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٤٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٩٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٨٨/٤)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٧٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٣)، و«مستدرک الحاكم» (٤٩٥/١).

العسر، والفرح بعد الغم؛ فاللَّهُمَّ إياك نسأل، وبأسمائك وصفاتك نتوسَّلُ: أن
تجعلنا من عبادك الذاكرين، وأن تُعِيدَنا برحمتك من سبيلِ المُعْرِضِينَ الغافلين؛
إنَّكَ على كلِّ شيءٍ قدير.



فَضْلُ مَجَالِسِ الذِّكْرِ

لقد مرَّ معنا شيءٌ يسيرٌ مِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ، وَأَنَّهَا كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى، وَعَدِيدَةٌ لَا تُسْتَقْصَى، يَعْجِزُ عَنْ إِحْصَائِهَا الْمُحْصُونَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى عَدِّهَا الْعَادُّونَ، وَلَا يَحِيطُ بِهَا إِنْسَانٌ، وَلَا يُعْبِّرُ عَنْهَا لِسَانٌ، كَيْفَ لَا وَهُوَ مِنْ أَجْلِ الْقُرْبَاتِ، وَأَفْضَلِ الطَّاعَاتِ. وَكَمْ لِلذِّكْرِ مِنْ فَوَائِدَ مَغْدَقَةٍ، وَثَمَارٍ يَانِعَةٍ، وَجَنَى لَذِيذٍ، وَأُكْلٍ دَائِمٍ، وَخَيْرٍ مُسْتَمَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَمَجَالِسُ الذِّكْرِ هِيَ أَزْكَى الْمَجَالِسِ وَأَشْرَفُهَا، وَأَنْفَعُهَا وَأَرْفَعُهَا، وَهِيَ أَعْلَى الْمَجَالِسِ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَجْلَاهَا مَكَانَةً عِنْدَهُ.

وَقَدْ وَرَدَتْ نصوصٌ كَثِيرَةٌ فِي فَضْلِ مَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَأَنَّهَا حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ، وَنَمَاءٌ لِلْإِيمَانِ، وَصَلَاحٌ وَزَكَاةٌ لِلْعَبْدِ، بِخِلَافِ مَجَالِسِ الْغَفْلَةِ، الَّتِي لَا يَقُومُ مِنْهَا الْجَالِسُ إِلَّا بِنَقْصٍ فِي الْإِيمَانِ، وَوَهَاءٍ فِي الْقَلْبِ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ.

وَكَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَهْتَمُّونَ بِمَجَالِسِ الذِّكْرِ أَعْظَمَ الْإِهْتِمَامِ، وَيَعْتَنُونَ بِهَا غَايَةَ الْعَنَاءِ؛ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه يَأْخُذُ بِيَدِ التَّفَرُّقِ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَيَقُولُ: «تَعَالَوْا نَوْمُنْ سَاعَةً، تَعَالَوْا فَلْنَذْكُرِ اللَّهَ، وَنَزِدَادُ إِيْمَانًا بِطَاعَتِهِ، لَعَلَّهُ يَذْكُرُنَا بِمَغْفِرَتِهِ».

وَكَانَ عُمَيْرُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَطْمِيُّ رضي الله عنه يَقُولُ: «الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فَكَيْفَ؟ وَمَا زِيَادَتُهُ وَنَقْصَانُهُ؟ قَالَ: إِذَا ذَكَّرْنَا اللَّهَ عز وجل وَحَمِدْنَاهُ وَسَبَّحْنَاهُ، فَذَلِكَ زِيَادَتُهُ، وَإِذَا غَفَلْنَا وَضَيَّعْنَا وَنَسِينَا، فَذَلِكَ نَقْصَانُهُ»، وَالْآثَارُ عَنْهُمْ فِي هَذَا

المعنى كثيرة^(١).

إِنَّ مَجَالِسَ الذِّكْرِ هِيَ رِيَاضُ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا؛ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا»، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: (حِلَقُ الذِّكْرِ)^(٢).

ورواه ابن أبي الدنيا، والحاكم، وغيرهما، مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْتَعُوا فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ)، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: (مَجَالِسُ الذِّكْرِ)، ثُمَّ قَالَ: (اغْدُوا وَرَوْحُوا وَادْكُرُوا، فَمَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ)^(٣). وَهُوَ حَسَنُ بِهِذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ^(٤).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمته الله: «مَنْ شَاءَ أَنْ يَسْكُنَ رِيَاضَ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا، فَلْيَسْتَوِطِنْ مَجَالِسَ الذِّكْرِ؛ فَإِنَّهَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ»^(٥).

*** وَمَجَالِسُ الذِّكْرِ هِيَ مَجَالِسُ الْمَلَائِكَةِ، فَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِ الدُّنْيَا مَجْلِسٌ إِلَّا مَجْلِسٌ يُذَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً فَضْلًا؛ يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَيْنَا حَاجَتُكُمْ، قَالَ: فَيَحْفُونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ**

(١) انظر كثيرًا من هذه الآثار مخرّجة في كتابي: «زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه» (ص ١٠٦ وما بعدها).

(٢) «المسند» (١٥٠/٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥١٠).

(٣) «المستدرک» (٤٩٤/١).

(٤) وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٢٥٦٢).

(٥) «الوابل الصيب» (ص ١٤٥).

وَيَحْمَدُونَكَ وَيُحِبُّونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَحْمِيدًا وَتَمَجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: فَيَقُولُ: مَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَمِمَّ يَتَعَوَّدُونَ؟ قَالَ: مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: يَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ عَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فَلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ^(١).

فمجالسُ الذِّكْرِ مجالسُ الملائكةِ، ومجالسُ اللَّغْوِ والغفلةِ مجالسُ الشَّيَاطِينِ، وكلُّ مضافٍ إلى شكله، وكلُّ امرئٍ يصيرُ إلى ما يناسبه، فليخترِ العبدُ أعجبهما إليه، وأولاهُما به، والذَّاكِرُ يَسْعُدُ به جليسهُ بخلافِ الغافلِ واللاغي؛ فإنه يشقى به جليسهُ ويتضرَّر^(٢).

* ومجالسُ الذِّكْرِ تُؤَمِّنُ العبدَ مِنَ الحَسْرَةِ والنَّدَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بخلافِ مجالسِ اللَّغْوِ والغفلةِ؛ فإنَّها تكونُ على صاحبها حَسْرَةً ونَّدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فقد روى أبو داود، بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: (مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ، كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تِرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مُضْطَجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ، كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تِرَةٌ)^(٣)؛ أي: نقصٌ وتبعةٌ وحسرةٌ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٨٩).

(٢) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص ١٤٦ - ١٤٨).

(٣) «سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٦)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٨).

* وَمِنْ شَرَفِ مَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَعُلُوِّ مَكَانِهَا عِنْدَ اللَّهِ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُبَاهِي بِالذَّاكِرِينَ مَلَائِكَتَهُ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: «خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلَقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، قَالَ: أَلَلَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: (مَا أَجْلَسَكُمْ؟)، قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: (أَلَلَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟)، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: (أَمَّا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ)»^(١).

فهذه المباهاة مِنَ الرَّبِّ دَلِيلٌ عَلَى شَرَفِ الذِّكْرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَأَنَّ لَهُ مَزِيَّةً عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ^(٢).

* وَمَجَالِسُ الذِّكْرِ سَبَبٌ لِنَزُولِ السَّكِينَةِ، وَغَشْيَانِ الرَّحْمَةِ، وَحُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ بِالذَّاكِرِينَ؛ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَعْرُورِيِّ، قَالَ: «أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ، أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)»^(٣).

* وَمَجَالِسُ الذِّكْرِ سَبَبٌ عَظِيمٌ مِنْ أَسْبَابِ حِفْظِ اللِّسَانِ، وَصَوْنِهِ عَنِ الْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَالْكَذِبِ وَالْفُحْشِ وَالْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرِ أَمْرِهِ وَبِالْخَيْرِ وَالْفَائِدَةِ، تَكَلَّمَ - وَلَا بُدَّ - بِهَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ أَوْ بَعْضِهَا؛ فَمَنْ عَوَّدَ لِسَانَهُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ، صَانَ لِسَانَهُ عَنِ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠١).

(٢) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص ١٤٨، ١٤٩).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٠).

الباطلِ واللَّغو، ومن يَسِرَ لسانُهُ عن ذِكْرِ اللَّهِ، نَطَقَ بكلِّ باطلٍ ولغوٍ وفحشٍ^(١).
واللهُ المسؤولُ أن يَعمُرَ أوقاتنا بطاعته، وأن يَشغَلَ مجالسنا بذكرِهِ وشكرِهِ
وَحُسْنِ عبادته، وأن يَقِينَا من مجالسِ الغفلةِ واللَّهوِ والباطلِ؛ فَإِنَّهُ خَيْرُ مَسْئُولٍ،
وهو وحده المستعان، ولا حول ولا قوَّةَ إِلَّا بِهِ.



(١) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص ١٦٦).

ذِكْرُ اللَّهِ هُوَ أَزْكَى الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلُهَا

إِنَّ ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ أَزْكَى الْأَعْمَالِ وَخَيْرُهَا وَأَفْضَلُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَد»، وَ«جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»، وَ«سُنَنِ ابْنِ مَاجَه»، وَ«مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ»، وَغَيْرِهَا، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَلَا أُتَبِّتُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ ﷻ ^(١).

فَهَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ أَفَادَ فَضِيلَةَ الذِّكْرِ، وَأَنَّهُ يَعْدِلُ عِتْقَ الرِّقَابِ، وَنَفَقَةَ الْأَمْوَالِ، وَالْحَمْلَ عَلَى الْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ، وَيَعْدِلُ الضَّرْبَ بِالسِّيفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ.

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ تَكَاثَرَتِ النُّصُوصُ بِتَفْضِيلِ الذِّكْرِ عَلَى الصَّدَقَةِ بِالْمَالِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ» ^(٢). ثُمَّ أوردَ حَدِيثَ أَبِي الدَّرْدَاءِ الْمُتَقَدِّمَ، وَجَمَلَةً مِنَ الْأَحَادِيثِ الْأُخْرَى الدَّالَّةِ عَلَى الْمَعْنَى نَفْسِهِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا - كَمَا فِي «التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ» لِلْمُنْذَرِيِّ ^(٣)، وَقَالَ: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ - عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، قَالَ: «قِيلَ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَجُلًا أَعْتَقَ مِائَةَ نَسَمَةٍ، قَالَ: إِنَّ مِائَةَ نَسَمَةٍ مِنْ مَالِ رَجُلٍ كَثِيرٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ إِيْمَانٌ مَلْزُومٌ بِاللَّيْلِ وَالتَّهَارِ، وَأَنْ لَا يَزَالَ لِسَانُ أَحَدِكُمْ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ».

(١) تقدم تخريجه (ص ١٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٢٥). (٣) (٢/٣٩٥).

فَبَيَّنَ ﷺ فَضْلَ عَتَقِ الرَّقَابِ، وَأَنَّهُ - مَعَ عِظَمِ فَضْلِهِ - لَا يَعْدِلُ مِلَازِمَةَ الذِّكْرِ وَالْمَدَاوِمَةَ عَلَيْهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْمَعْنَى آثَارٌ كَثِيرَةٌ عَنِ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «لَأَنْ أُسَبِّحَ اللَّهَ تَعَالَى تَسْبِيحَاتٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَنْفَقَ عِدَدَهُنَّ دَنَانِيرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وَجَلَسَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَخُذَ فِي طَرِيقٍ أَقُولُ فِيهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَنْفَقَ عِدَدَهُنَّ دَنَانِيرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ»، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: «لَأَنْ أَخُذَ فِي طَرِيقٍ، فَأَقُولَهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْمِلَ عِدَدَهُنَّ عَلَى الْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ».

وكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ: إِنَّ الذِّكْرَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ مِنَ الْمَالِ^(١).

وَالْآثَارُ فِي هَذَا الْمَعْنَى عَنْهُمْ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ لَا تَعْنِي - لَا مِنْ قَرِيبٍ وَلَا مِنْ بَعِيدٍ - التَّقْلِيلَ مِنْ شَأْنِ التَّفَقُّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْحَمْلَ عَلَى الْخَيْلِ فِي سَبِيلِهِ، وَعَتَقِ الرَّقَابِ فِي سَبِيلِهِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا تَعْلِيَةُ شَأْنِ الذِّكْرِ، وَبَيَانُ عَظِيمِ قَدْرِهِ، وَرِفْعَةُ مَكَانَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، بَلْ إِنَّ الْأَعْمَالَ كُلَّهَا وَالطَّاعَاتِ جَمِيعَهَا إِنَّمَا شُرِعَتْ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالْمَقْصُودُ بِهَا تَحْصِيلُ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلِهَذَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]؛ أَي: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِأَجْلِ ذِكْرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا. وَفِي هَذَا تَنْبِيْهُ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ؛ إِذْ هِيَ تَضَرُّعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَسُؤَالٌ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِقَامَةٌ لَذِكْرِهِ؛ وَعَلَى هَذَا: فَالصَّلَاةُ هِيَ الذِّكْرُ، وَقَدْ سَمَّاها اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرًا؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعْتُمْ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]،

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٢٢٥، ٢٢٦).

فَسَمَّى الصَّلَاةَ هُنَا ذِكْرًا؛ لِأَنَّ الذِّكْرَ هُوَ رُوحُهَا وَلُبُّهَا وَحَقِيقَتُهَا، وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ أَقْوَاهُمْ وَأَشَدُّهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فِيهَا ذِكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَهَكَذَا الشَّأْنُ فِي كُلِّ طَاعَةٍ وَعِبَادَةٍ يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالطَّبْرَانِيُّ، مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لَهِيْعَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا زَبَّانُ بْنُ فَائِدٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَنَسِ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ، فَقَالَ: أَيُّ الْمَجَاهِدِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: (أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا)، فَقَالَ: فَأَيُّ الصَّائِمِينَ أَكْثَرُهُمْ أَجْرًا؟ قَالَ: (أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا)، ثُمَّ ذَكَرَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالصَّدَقَةَ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَجَلٌ)»^(١).

قال الهيثمي رحمه الله: «وفيه زَبَّانُ بْنُ فَائِدٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ وَقَدْ وُثِّقَ، وَكَذَلِكَ ابْنُ لَهِيْعَةَ»^(٢). اهـ.

لَكُنْ لَهُ شَاهِدٌ مُرْسَلٌ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الزُّهْدِ»؛ قَالَ: أَخْبَرَنِي حَيَّوَةُ، قَالَ: حَدَّثَنِي زُهْرَةُ بْنُ مَعْبُدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيَّ يَقُولُ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الْحَاجِّ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: (أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا)، قَالَ: فَأَيُّ الْمَصْلِيِّينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: (أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا)، قَالَ: فَأَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: (أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا)، قَالَ: فَأَيُّ الْمَجَاهِدِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ فَقَالَ: (أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا). قَالَ زُهْرَةُ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ»^(٣).

وله شاهدٌ آخر أورده ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب»، قال: وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلًا، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ أَهْلِ الْمَسْجِدِ خَيْرٌ؟ قَالَ: (أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ)، قِيلَ: أَيُّ أَهْلِ الْجَنَازَةِ خَيْرٌ؟ قَالَ: (أَكْثَرُهُمْ

(١) «المسند» (٤٣٨/٣)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٠/ رقم ٤٠٧).

(٢) «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٤). (٣) «الزهد» رقم (١٤٢٩).

ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ، قيل: فأَيُّ المجاهدين خير؟ قال: (أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ)،
 قيل: فأَيُّ الحُجَّاجِ خير؟ قال: (أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ)، قيل: وأَيُّ العَوَادِ خير؟
 قال: (أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ)، قال أبو بكرٍ: ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِالْخَيْرِ كُلِّهِ^(١).

فالحديثُ بشاهديهِ صالحٌ للاحتجاج - إن شاء الله - ومعناه الذي دلَّ عليه
 حَقٌّ لَا رَيْبَ فِي صَحَّتِهِ؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ أَفْضَلَ أَهْلِ كُلِّ عَمَلٍ
 أَكْثَرُهُمْ فِيهِ ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ، فَأَفْضَلُ الصُّوَامِ أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ فِي صَوْمِهِمْ،
 وَأَفْضَلُ الْمُتَصَدِّقِينَ أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ، وَأَفْضَلُ الْحُجَّاجِ أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ ﷻ،
 وَهَكَذَا سَائِرُ الْأَعْمَالِ»^(٢)، ثُمَّ أورد الحديثَ المَتَقَدِّمَ، وَأوردَ عَقِبَهُ عَنْ
 عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَكُمْ هَذَا اللَّيْلُ أَنْ تُكَابِدُوهُ، وَبَخِلْتُمْ
 بِالْمَالِ أَنْ تَنْفِقُوهُ، وَجَبْتُمْ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ تَقَاتِلُوهُ، فَأَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ»^(٣).

فَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ يَقُولُ اللَّهُ
 جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِئَلَّا تُصَلِّتَ عَنْ
 عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ أَيُّ: ذِكْرُ اللَّهِ لَكُمْ
 أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ لَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ وَصَلَوَاتِكُمْ، وَهُوَ ذَاكِرٌ مَنْ ذَكَرَهُ؛ قَالَ مَعْنَاهُ
 ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَأَبُو قُرَّةٍ، وَسَلْمَانُ، وَالْحَسَنُ،
 وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ. وَقِيلَ: ذِكْرُكُمْ اللَّهَ فِي صَلَاتِكُمْ وَفِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ
 أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَقَتَادَةُ: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»؛ أَيُّ:
 أَفْضَلُ مِنَ الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا بغيرِ ذِكْرٍ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ أَكْبَرُ مَعَ
 الْمَدَاوِمَةِ مِنَ الصَّلَاةِ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

(١) «الوابل الصيب» (ص ١٥٢). لم أجده في شيء من كتب ابن أبي الدنيا المطبوعة، وقد
 رواه أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» رقم (١٣٦٦)، والبيهقي في «الشعب»
 رقم (٥٥٤)، كلاهما من طريق ابن أبي الدنيا، حدثنا محمد بن الفرج الفراء، حدثنا
 محمد بن الزبير، عن ثور بن زيد، عن أبي بكر، والضحاك كلاهما من أهل الشام، قالوا:
 سئل رسول الله ﷺ أي أهل المسجد خير؟... الحديث.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ١٥٢).

(٣) وقد ورد هذا المعنى في حديث مرفوع. انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٢٧١٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّحِيحُ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا مَقْصُودَانِ عَظِيمَانِ، وَأَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ؛ فَإِنَّهَا تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمَّا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ نَهْيِهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد سُئِلَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: أَمَّا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]».

وذكرَ ابنُ أبي الدنيا عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»^(٢).

فَاللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، مِلْءُ سَمَوَاتِهِ، وَمِلْءُ أَرْضِهِ، وَمِلْءُ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءُ مَا شَاءَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، لَا يَنْقُطُ، وَلَا يَبِيدُ، وَلَا يَفْنَى، عَدَدَ مَا حَمِدَهُ الْحَامِدُونَ، وَعَدَدَ مَا غَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِينَةِ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ.



(١) نقله ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص ١٥٢).

(٢) وانظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص ١٤٩ - ١٥٣).

فَضْلُ الْإِكْتَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ

لقد أَمَرَ اللهُ في كتابه عباده المؤمنين بالإكثارِ مِنْ ذكره قيامًا وقعودًا وعلى الجنوب، بالليل والنَّهَار، وفي البرِّ والبحر، وفي السَّفَرِ والحَضَر، وفي الغنى والفقر، وفي الصَّحَّةِ والسُّقْم، وفي السَّرِّ والعَلَن، وفي كلِّ حال، ورَتَّبَ لهم على ذلك جزيلَ الأجر، وعظيمَ الثَّواب، وجميلَ المآب.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب].

ففي هذه الآية الحثُّ على الإكثارِ من ذكر الله تعالى، وبيانُ ما يترتَّبُ على ذلك مِنْ أَجرٍ عظيم، وخيرٍ عظيم.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ فيه أعظمُ الترغيبِ في الإكثارِ من ذكرِ الله، وأحسنُ حُضٍّ على ذلك؛ أي: إِنَّه سبحانه يذكركُمْ فاذكروه أنتم، وهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة]، فالجزاء مِنْ جنس العمل؛ فمَنْ ذَكَرَ الله في نفسه ذَكَرَهُ اللهُ في نفسه، وَمَنْ ذَكَرَ الله في مَلَأٍ ذَكَرَهُ اللهُ في مَلَأٍ خيرٍ منهم، وَمَنْ نَسِيَ الله نَسِيَهُ اللهُ.

فالمُكثِّرونَ من ذكرِ الله لهم الحظُّ الأوفر، والنصيبُ الأكملُ من ذكرِ الله لهم، وصلاته عليهم وملائكته. رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ - أَي: أَكثَرْتُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْكُمْ هو وملائكته»^(١).

(١) «تفسير ابن جرير» (١٩/١٢٤).

وصلاة الله على عباده الذاكرين له هي ثناؤه عليهم في الملاء الأعلى عند الملائكة الكرام البررة، وصلاة الملائكة عليهم هي بمعنى الدعاء لهم والاستغفار؛ كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[غافر].

وقد حكى البخاري في «صحيحه»، عن أبي العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، «صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء»^(١).

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ الْذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَدَعَائِ مَلَائِكَتِهِ لَهُمْ - يَخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نَوْرِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحيماً ۝٤٣﴾؛ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ أَمَّا فِي الدُّنْيَا: فَإِنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي جَهِلَهُ غَيْرُهُمْ، وَبَصَّرَهُمُ الطَّرِيقَ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ وَحَادَ عَنْهُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الدَّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ الْبِدْعَةِ أَوْ الْبَاطِلِ. وَأَمَّا رَحْمَتُهُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ: فَأَمَنَهُمْ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ بِتَلْقُونَهُمْ بِالْبَشَارَةِ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْهُمْ.

وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى مَبِينًا فَضْلَ الْذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالدَّائِرَاتِ، مَنْوَّهَا بِشَأْنِهِمْ، مُعْلِيًا لَذِكْرِهِمْ، مَبِينًا لِعَظِيمِ أَجْرِهِمْ وَثَوَابِهِمْ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ

(١) «صحيح البخاري» كتاب التفسير (٣٢٦/٦).

وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [الأحزاب: ٣٥].

أي: هيًّا لذنوبهم الصَّفْحَ والغُفْرانَ، ولأعمالهم الصالحة الأَجَرَ العظيمَ والدرجاتِ العاليةِ في الجنانِ، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ إنسان.

إنَّ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ هُمُ الْمُفْرَدُونَ السابقونَ إلى الخيراتِ، المحظوظونَ بأرفعِ الدرجاتِ وأعلى المقاماتِ؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ الله ﷺ يَسِيرُ في طريقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ على جبلٍ يقالُ له: جُمْدَانُ، فقال: (سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ)، قالوا: وما المُفْرَدُونَ؟ قال: (الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتُ)»^(١).

وقد فسَّرَ رسولُ الله ﷺ الْمُفْرَدِينَ بأنَّهم الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ، وأصلُ المُفْرَدِينَ - كما يقول ابن قتيبة وغيره -: «الذين هَلَكَ أَقْرَانُهُمْ، وانفردوا عنهم، فَبَقُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى»^(٢).

إنَّ مَنْ يَتَأَمَّلُ هذه النصوصَ وَغَيْرَهَا مِنَ النصوصِ الكثيرةِ الواردةِ في بيانِ عَظِيمِ أَجْرِ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ، وَجَزِيلِ ثَوَابِهِمْ، وما أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النعيمِ المقيمِ والثوابِ الكبيرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لَتَتَحَرَّكَ نَفْسُهُ شَوْقًا وَطَمَعًا، وَيَهْتَزُّ قَلْبُهُ حُبًّا وَرَغْبًا في أَنْ يَكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ، أَهْلِ هَذَا الْمَقَامِ الرَّفِيعِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ.

ولكنَّ بِمَ يَنَالُ الْعَبْدُ ذَلِكَ؟ وَهَذَا سُؤَالٌ عَظِيمٌ يَجْدُرُ بِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ، وَيَعْرِفَ جَوَابَهُ. وَقَدْ جَاءَ عَنِ السَّلَفِ فِي مَعْنَى الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ نَقُولٌ عَدِيدَةٌ؛ مِنْهَا:

(١) تقدم تخريجه (ص ١٦).

(٢) انظر: «شرح مسلم» للنووي (٤/١٧).

ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «المراد: يَذْكُرُونَ الله في أدبار الصلوات، وُعْدُوا وعشيًا، وفي المضاجع، وكلما استيقظ من نومه، وكلما غدا أو راح من منزله ذكر الله تعالى».

وقال مجاهد رحمته الله: «لا يكون من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات حتى يَذْكُر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا».

وقال عطاء رحمته الله: «مَنْ صَلَّى الصلوات الخمس بحقوقها، فهو داخل في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذِّكْرُ﴾ [الأحزاب: ٣٥]»^(١).

ومن صفة هؤلاء: الصلاة من الليل؛ فقد روى أبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم، بإسناد صحيح، صححه الحاكم، والذهبي، والنووي، والعراقي، وغيرهم، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أَبْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّى أَوْ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ)^(٢).

وقد سئل أبو عمرو بن الصلاح رحمته الله - فيما نقله النووي رحمته الله عنه في كتاب الأذكار - عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات؟ فقال: «إذا واطب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحًا ومساءً، في الأوقات والأحوال المختلفة، ليلاً ونهاراً، وهي مبينة في كتاب «عمل اليوم والليلة»، كان من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات»^(٣).

ويقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمته الله: «وأقل ذلك: أن يُلَازِمَ الإنسان أوراذاً الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال؛ فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبة الله

(١) انظر هذه الآثار في «الأذكار» للنووي (ص ٩، ١٠).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (١٣٠٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٣٣٥)، و«مستدرک الحاكم» (٣/١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٣٠).

(٣) «الأذكار» للنووي (ص ١٠).

ومعرفته، وعونٌ على الخير، وكفُّ اللِّسَانِ عن الكلامِ القبيحِ»^(١). اهـ
كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وَأَسْأَلُ اللهَ سبحانه بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ، الَّذِينَ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا، إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرٌ،
وبالِإِجَابَةِ جَدِيرٌ.



(١) «تيسير الكريم الرّحمن» (١١٢/٦).

تَنَوُّعُ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضْلِ الذِّكْرِ

مَرَّ معنا فضيلةُ الذِّكْرِ وعظيمُ أجره، وبيانُ ما أعدَّه اللهُ لأهله من جميلِ الثَّوَابِ، وكريمِ المآبِ، وحُسْنِ العاقبةِ، وهناءِ العيشِ، ومَرَّ معنا شيءٌ يسيرٌ من فوائده العَظيمةِ، وثمارِهِ الكريمةِ اليانعةِ، وعواقِبِهِ الحميدةِ في الدنيا والآخرة.

ولمَّا كان الذِّكْرُ بهذه المنزلةِ الرَّفِيعَةِ والدَّرَجَةِ العَالِيَةِ، فإنَّ دَلالاتِ النصوصِ المبيِّنةَ لفضليهِ جاءتْ متنوِّعةً، وكان مجيئُهُ في القرآنِ الكريمِ على وجوهٍ كثيرةٍ، وهي بمجموعِها وأفرادِها تدلُّ على عظيمِ شأنِ الذِّكْرِ، وجليلِ قدره.

وقد ذَكَرَ الإمامُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «مدارج السالكين»^(١): أَنَّ الذِّكْرَ وَرَدَ في القرآنِ الكريمِ على عَشْرَةِ أَوْجِهٍ، ذَكَرَها مجملَةً، ثُمَّ أوردَ بعد ذلك تفصيلَها؛ قال رَحِمَهُ اللهُ:

الأوَّل: الأمرُ به مطلقًا ومقيَّدًا.

الثاني: التَّهْيُ عن ضدِّهِ من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليقُ الفلاحِ باستدامتِهِ وكثرتِهِ.

الرابع: الشَّناءُ على أهلِهِ، والإخبارُ بما أعدَّ اللهُ لهم من الجنَّةِ والمغفرة.

الخامس: الإخبارُ عن خسرانِ مَنْ لها عنه بغيرِهِ.

السادس: أَنَّهُ سبحانه جعلَ ذِكْرَهُ لهم جزاءً لِدِكرِهِم له.

(١) انظره: (٢/٤٢٤ وما بعدها).

السابع: الإخبار بأنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتى عَدِمَتْهُ كانت كالجسد بلا روح.

ثم قال ﷺ في بيان تفصيل هذه الأوجه العشرة:

* أَمَّا الْأَوَّلُ: وهو الأمرُ به مطلقاً ومقيّداً؛ فكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ﴾ (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿[الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ نَضْرَعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

* وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ ضِدِّهِ؛ فكقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

* وَأَمَّا تَعْلِيْقُ الْفَلَاحِ بِالْإِكْثَارِ مِنْهُ؛ فكقوله: ﴿وَإِذْ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

* وَأَمَّا الثَّنَاءُ عَلَى أَهْلِهِ، وَحُسْنُ جَزَائِهِمْ؛ فكقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾، إلى قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

* وَأَمَّا حُسْرَانُ مَنْ لَهَا عَنْهُ؛ فكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

* وَأَمَّا جَعْلُ ذِكْرِهِ لَهُمْ جَزَاءً لِّذِكْرِهِمْ لَهُ؛ فكقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ وَذِكْرُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ مُحْفُوفٌ بِذِكْرَيْنِ مِنْ رَبِّهِ لَهُ: ذِكْرٌ قَبْلَهُ بِهِ صَارَ الْعَبْدُ ذَاكِرًا لَهُ، وَذِكْرٌ بَعْدَهُ بِهِ صَارَ الْعَبْدُ مَذْكُورًا، فَذِكْرُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ نَوْعَانِ: نَوْعٌ قَبْلَ ذِكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَنَوْعٌ بَعْدَهُ.

* وَأَمَّا الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* وَأَمَّا خَتْمُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِهِ؛ فَكَمَا خَتَمَ بِهِ عَمَلَ الصِّيَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَخَتَمَ بِهِ الْحَجَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وَخَتَمَ بِهِ الصَّلَاةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَى جُوبِئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وَخَتَمَ بِهِ الْجُمُعَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]؛ وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِذَا كَانَ آخِرَ كَلَامِ الْعَبْدِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.

* وَأَمَّا اخْتِصَاصُ الذَّاكِرِينَ بِالِانْتِفَاعِ بِآيَاتِهِ، وَهُمْ أَوْلُو الْأَبَابِ وَالْعُقُولِ؛ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١٩٦] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَى جُوبِئِهِمْ﴾ [آل عمران].

* وَأَمَّا مَصَاحِبَتُهُ لَجَمِيعِ الْأَعْمَالِ، وَاقْتِرَانُهُ بِهَا، وَأَنَّهُ رُوحُهَا؛ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ قَرَنَهُ بِالصَّلَاةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وَقَرَنَهُ بِالصِّيَامِ وَبِالْحَجِّ وَمَنَاسِكَهِ، بَلْ هُوَ رُوحُ الْحَجِّ وَلُبُّهُ وَمَقْصُودُهُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: (إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ: لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ)^(١). وَقَرَنَهُ بِالْجِهَادِ، وَأَمَرَ بِذِكْرِهِ عِنْدَ مَلَاقَةِ الْأَقْرَانِ، وَمُكَافَحَةِ الْأَعْدَاءِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه وجوهٌ عَشْرَةٌ وَرَدَ فِيهَا الذِّكْرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَذَكَرَ لِكُلِّ وَجْهِ مِنْهَا

(١) رواه أحمد في «المسند» (٧٥/٦)، وأبو داود رقم (١٨٨٨)، والترمذي رقم (٩٠٢)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (٤٥٩/١)، وصحَّحه أيضًا ابن خزيمة رقم (٢٨٨٢).

بعضُ الشواهد من الآيات القرآنية، والقرآن الكريم مليءٌ بالآياتِ المندرجة تحت هذه الأنواع، وهي يسيرةُ الحصول، قريبةُ المتناولِ لِمَنْ قرأ القرآن الكريم وتَدَبَّرَ آيَاتِهِ.

وما أَحْسَنَ وأرَوَعَ ما قاله الإمام الشُّوكاني رَحِمَهُ اللهُ في سياق آخر، وهو ينطبق على سياقنا هذا تمامَ الانطباق؛ حيثُ قال رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن إيراد الآيات القرآنية على إثبات كلِّ مقصدٍ مِنْ هذه المقاصدِ لا يَحْتَاجُ إليه مَنْ يقرأ القرآن العظيم؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَخَذَ المصحفَ الكريمَ وَقَفَ على ذلك في أيِّ موضعٍ شاء، وَمِنْ أيِّ مكانٍ أَحَبَّ، وفي أيِّ محلٍّ أَرَادَ، ووجَدَهُ مشحونًا به مِنْ فاتحتهِ إلى خاتمتهِ»^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

بل إنَّ القرآنَ الكريمَ كلُّه كتابٌ ذِكْرٍ لله؛ فذِكْرُ الله تعالى هو لبُّ القرآن وروحه وحيقيقته وغايةُ مقصوده؛ يقول الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرة.

وقد سَمَّى اللهُ ﷻ كتابَهُ العزيزَ ذِكْرًا؛ فقال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَنْتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوْعِظْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ

عَزِيزٌ ﴿٤٦﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿فصلت﴾، وفي هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن الكريم.

قال سفيان الثوري رحمه الله: «سمعنا أن قراءة القرآن أفضل الذكر إذا عُمِلَ به»^(١)، وروى الطبري بإسناده إلى عون بن عبد الله، قال: «أتينا أم الدرداء نتحدث إليها، قال: ثم قلت: يا أم الدرداء، لعلنا أملكناك؟ قالت: أملتُموني والله، لقد التمسْتُ العبادة في كل شيء، فما وجدتُ شيئاً أشفى لنفسي من مجلس ذكرٍ، قال: ثم اختبأتُ، ثم قالت لرجلٍ: اقرأ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]».

رَحِمَ اللهُ أم الدرداء، وَرَحِمَ اللهُ السَّلَفَ الصَّالِحَ أَجْمَعِينَ؛ كَيْفَ حَفِظُوا أَوْقَاتَهُمْ وَأَعْمَارَهُمْ، وَعَمَرُوهَا بِذِكْرِ اللهِ وَمَا يُقَرِّبُ إِلَيْهِ، وَلَمْ تَتَرَدَّدْ رَحِمَهَا اللهُ عِنْدَمَا سَأَلَهَا: لَعَلَّنَا أَمْلَلْنَاكَ؟ أَنْ تَقُولَ: نَعَمْ أَمْلَلْتُمُونِي وَاللهُ؛ فَهِيَ الْحَافِظَةُ لَوْقَتِهَا، الْحَرِيصَةُ عَلَى كَمَالِ دِينِهَا وَتَمَامِهِ؛ فَلِلَّهِ مَا أَزْكَاهَا مِنْ أَلْفَاظٍ صَادِقَةٍ، وَأَنْفَاسٍ عَطْرَةٍ، وَإِيمَانِيَّاتٍ مُؤَثِّرَةٍ، وَخَيْرٍ مُتَدَفِّقٍ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَهُوَ حُسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.



(١) أورد هذا الأثر والذي بعده القرطبي في «التذكار في فضل الأذكار» (ص ٥٥، ٥٩).

ذَمُّ الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

إن الله تبارك وتعالى لَمَّا أَمَرَ بِذِكْرِهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ مِنْهُ، حَذَّرَ أَيْضًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي ضِدِّهِ، وَهُوَ الْغَفْلَةُ؛ إِذْ لَا يَتِمُّ الذِّكْرُ لِلَّهِ حَقِيقَةً إِلَّا بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْبَعْدِ عَنْهَا، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ - أَعْنِي: الْأَمْرَ بِالذِّكْرِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْغَفْلَةِ - وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [٢٠٥].

والمرادُ بقوله في الآية: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾؛ أَي: مِنَ الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ حُرِّمُوا خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعْرَضُوا عَمَّنْ كُلُّ السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ فِي ذِكْرِهِ وَعِبُودِيَّتِهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى مَنْ كُلُّ الشَّقَاوَةِ وَالْخِيبَةِ فِي الْإِشْتَغَالِ بِهِ، وَفِي الْآيَةِ أَمْرٌ بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاطَبَةِ عَلَيْهِ، وَتَحْذِيرٌ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَتَحْذِيرٌ مِنْ سَبِيلِ الْغَافِلِينَ.

والغفلة داءٌ خطير؛ إِذَا اعْتَرَى الْإِنْسَانَ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ، لَمْ يَشْتَغِلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ، بَلْ يَشْتَغِلُ بِالْأُمُورِ الْمَلْهِيَةِ الْمُبْعَدَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَإِنْ عَمِلَ أَعْمَالًا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي مِنْهُ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ وَوَضْعٍ غَيْرِ حَسَنٍ، فَتَكُونُ أَعْمَالُهُ عَارِيَةً مِنَ الْخَشُوعِ وَالْخُضُوعِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالطَّمَأْنِينَةِ وَالْخَشْيَةِ وَالصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ.

ولهذا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْهُ التَّحْذِيرُ مِنْهَا وَذَمُّهَا، وَبَيَانُ سُوءِ عَاقِبَتِهَا، وَأَنَّهَا مِنْ خِصَالِ الْكَافِرِينَ، وَصِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الْمُعْرِضِينَ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ

هُمْ الْغَافِلُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٩]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس]، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

إنَّ مَثَلَ الْغَافِلِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ مَثَلُ الْمَيِّتِ، وقد تقدَّم معنا أنَّ الذَّكَرَ هو حياة القلوب حقيقة؛ فلا حياة لها بدونه، وحاجتها إليه أعظم من حاجة السمك إلى الماء؛ فالقلب الذَّاكِرُ هو القلبُ الحيُّ، والقلبُ الغافلُ هو القلبُ الميِّتُ.

وفي «الصحيحين»، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)، ولفظ مسلم: (مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) ^(١).

ففي هذا التمثيل - كما يقول الشوكاني رحمته الله -: «مَنْقِبَةُ لِلذَّاكِرِ جَلِيلَةٌ، وَفَضِيلَةٌ لَهُ نَبِيلَةٌ، وَأَنَّهُ بِمَا يَقَعُ مِنْهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عز وجل فِي حَيَاةٍ ذَاتِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ لِّمَا يَغْشَاهُ مِنَ الْأَنْوَارِ، وَلِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَجُورِ، كَمَا أَنَّ التَّارِكَ لِلذَّكَرِ - وَإِنْ كَانَ فِي حَيَاةٍ ذَاتِيَّةٍ - فَلَيْسَ لَهَا اعْتِبَارٌ، بَلْ هُوَ شَبِيهُ بِالْأَمْوَاتِ» ^(٢).

لقد جعل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بيتَ الذَّاكِرِ بمنزلة بيتِ الحيِّ، وبيتَ الغافلِ بمنزلة بيتِ الميِّتِ، وهو القبر، وفي اللفظ الأوَّلِ جعلَ الذَّاكِرَ نفسَهُ بمنزلة الحيِّ، والغافلَ بمنزلة الميِّتِ، فتضمَّنَ الحديثُ بمجموع لفظيه: أَنَّ الْقَلْبَ الذَّاكِرَ كَالْحَيِّ فِي بَيُوتِ الْأَحْيَاءِ، وَالْقَلْبَ الْغَافِلَ كَالْمَيِّتِ فِي بَيُوتِ الْأَمْوَاتِ؛ وعلى هذا: فَإِنَّ أَبْدَانَ الْغَافِلِينَ قُبُورٌ لِّقُلُوبِهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ فِيهَا كَالْأَمْوَاتِ فِي الْقُبُورِ؛ ولهذا قيل:

فَنَسِيَانُ ذِكْرَ اللَّهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمْ وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورٌ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورٌ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٧٩).

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص ١٥).

وقيل:

فَنَسِيَانُ ذِكْرِ اللَّهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمْ وَأَجْسَامُهُمْ فَهِيَ الْقُبُورُ الدَّوَارِسُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَخْشَةٍ مِنْ حَبِيبِهِمْ وَلَكِنَّهَا عِنْدَ الْخَبِيثِ أَوَانِسُ^(١)

ولهذا صحَّ في الحديث عن النبي ﷺ: النهي عن جعل البيوت قبوراً؛ أي: لا يصلّى فيها، ولا يُذكرُ فيها الله تعالى؛ ففي «الصحيحين»، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَخْذُلُوهَا قُبُورًا)^(٢).

وروى مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يَسْمَعُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ تُقْرَأُ فِيهِ)^(٣).

وفي «سنن أبي داود» وغيره، بإسناد حسن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)^(٤)؛ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَام أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ مَعْنَى قَوْلِهِ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا) قَالَ: «أَي: لَا تُعْطِلُوهَا عَنِ الصَّلَاةِ فِيهَا وَالِدَعَاءِ وَالْقِرَاءَةِ، فَتَكُونَ بِمَنْزِلَةِ الْقُبُورِ، فَأَمَرَ بِتَحْرِيرِ الْعِبَادَةِ فِي الْبُيُوتِ، وَنَهَى عَنِ تَحْرِيرِهَا عِنْدَ الْقُبُورِ، عَكْسَ مَا يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّصَارَى وَمَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ»^(٥). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَلَمَّا كَانَ الْقَلْبُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ وَضِدُّهَا، انْقَسَمَتِ الْقُلُوبُ بِحَسَبِ ذَلِكَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ^(٦):

- (١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٤٢٩، ٤٣٠).
- (٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٧٧).
- (٣) «صحيح مسلم» رقم (٧٨٠).
- (٤) رواه أحمد في «المسند» (٢/٣٦٧)، و«سنن أبي داود» رقم (٢٠٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٢٢٦).
- (٥) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٦٦٢).
- (٦) انظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/١٣ - ١٥).

الأول: القلبُ السليم، وهو الذي سَلِمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لغيرِ الله فيه شِرْكٌ بوجهٍ ما، بل قد خَلَصَتْ عبودِيَّتُهُ لله تعالى إرادةً ومحبةً، وتوكلًا وإِنابةً، وإِخباتًا وخشيةً ورجاءً، وَخَلَصَ عملُهُ لله؛ فَإِنْ أَحَبَّ أَحَبَّ فِي الله، وَإِنْ أَبْغَضَ أَبْغَضَ فِي الله، وَإِنْ أَعْطَى أَعْطَى الله، وَإِنْ مَنَعَ مَنَعَ الله، وَيَكُونُ الحاكمُ عليه في أموره كُلِّها هو ما جاء به رسولُ الله ﷺ؛ فلا يَتَقَدَّمُ بين يديه بعقيدةٍ ولا قولٍ ولا عملٍ.

الثاني: ضِدُّ هذا؛ وهو القلبُ الميِّتُ، الذي لا حياةَ به؛ فهو لا يعرفُ ربَّه، ولا يعبدُهُ، ولا يمثُلُ أمره، ولا يفعلُ ما يحبُّه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سَخَطُ ربِّه وغضبه، فهو مُتَعَبِّدٌ لغيرِ الله حبًّا وخوفًا ورجاءً، ورضا وسُخْطًا وتعظيمًا ودُّلاً؛ إِنْ أَحَبَّ أَحَبَّ لهواه، وَإِنْ أَبْغَضَ أَبْغَضَ لهواه، وَإِنْ أَعْطَى أَعْطَى لهواه، وَإِنْ مَنَعَ مَنَعَ لهواه؛ فهو آثِرٌ عنده وأحِبُّ إليه مِنْ رضا مولاه، فالهوى إمامُه، والشهوة قائده، والجهلُ سائقُه، والغفلةُ مَرَكَبُهُ.

الثالث: قلبٌ له حياةٌ، وبه عِلَّةٌ، فله مادَّتَانِ: تُمِدُّهُ هذه مرَّةً، وهذه أخرى، وهو لِمَا غَلَبَ عليه منهما، ففيه مِنْ محبَّةِ الله تعالى، والإيمانِ به، والإخلاصِ له، والتوكلِ عليه: ما هو مادةٌ حياته، وفيه مِنْ محبَّةِ الشهواتِ، وإيثارِها، والحرصِ على تحصيلها، وَمِنْ الحَسَدِ، والكِبَرِ، والعُجْبِ، وَحُبِّ العُلُوِّ: ما هو مادةٌ هلاكِهِ وَعَظَمِهِ.

فالقلبُ الأولُ: حيٌّ مُخْبِتٌ لِيْنٍ، والثاني: يابسٌ ميِّتٌ، والثالث: مريضٌ؛ فإِذَا إِلَى السَّلامَةِ أَدْنَى، وَإِذَا إِلَى الْعَظَمِ أَدْنَى.

وعلى هذا: فَإِنَّ القلبَ - لكي تبقى له حياته، وتزولَ عنه غفلته، وتتمَّ له استقامتُهُ - محتاجٌ إِلَى ما يحفظُ عليه قُوَّتَهُ، وهو الإيمانُ، وأورادُ الطاعاتِ، والمحافظةُ على ذكرِ الله، والبعدُ عن كُلِّ ما يُسَخِّطُهُ تبارك وتعالى، ولا سعادةَ للقلبِ ولا لَذَّةَ ولا نعيمَ ولا صلاحَ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللهُ وحده إِلَهُهُ وفاطرُهُ ومعبودُهُ وغايةَ مطلوبه، وأحِبَّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ما سواه؛ فبهذا تكونُ نِجاةُ القلبِ مِنَ الغفلةِ، وسلامتُهُ مِنَ الهَلَكَةِ؛ وبهذا تَسْرِي فيه الحياة، والتوفيقُ بيدِ الله وحده.

مِنْ آدَابِ الذِّكْرِ

تَقَدَّمَ معنا قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وبيان ما اشتملت عليه الآيةُ الكريمةُ من الجمع بين الأمر بذكر الله والنهي عن ضده، وهو الغفلة، وهذه الآيةُ إضافةٌ إلى دلالتها على ذلك - فقد اشتملت على جملةٍ طيبةٍ من الآدابِ الكريمةِ التي ينبغي أن يتحلَّى بها الذاكر؛ فمن هذه الآداب: **أولاً:** أن يكون الذكرُ في نفسه؛ لأنَّ الإخفاءَ أدخلُ في الإخلاص، وأقربُ إلى الإجابة، وأبعدُ من الرياء.

ثانياً: أن يكونَ على سبيل التضرُّع، وهو التذللُ والخضوعُ والاعترافُ بالتقصير؛ ليتحقَّقَ فيه ذلَّةُ العبوديَّةِ، والانكسارُ لعظمةِ الربوبيةِ.

ثالثاً: أن يكونَ على وجهِ الخيفةِ؛ أي: الخوفِ مِنَ المؤاخذةِ على التقصيرِ في العمل، والخشيةِ مِنَ الرَّدِّ، وعدمِ القبول؛ قال الله تعالى في صفةِ المؤمنين، المسارعينَ في الخيرات، السابقينَ لأرفعِ الدَّرَجَاتِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [١] أولئك يسرعونَ في الخيراتِ وهم لها سيقونَ [المؤمنون].

وقد ثبتَ في «المسند» وغيره، عن عائشة رضي الله عنها، أنها سألتَ النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء، «فقلت: يا رسولَ الله، أهو الرجلُ يزني ويسرقُ ويشربُ الخمرَ، ويخافُ أن يُعَذَّبَ؟ قال: (لَا)، يا ابنةَ الصِّديقِ، ولكنَّهُ الرجلُ يصلي ويصومُ ويتصدقُ، ويخافُ أن لا يُقَبَّلَ مِنْهُ» ^(١).

(١) «المسند» (٦/١٥٩، ٢٠٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣١٧٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤١٩).

رابعاً: أن يكون دون الجهر؛ لأنه أقرب إلى حُسن التفكر؛ قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وهكذا يُسْتَحَبُّ أن يكون الذِّكْرُ؛ لا يكون نداءً وجهراً بليغاً»^(١)، وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالْإِعْزَازِ فِي بَعْضِ الْأَسْفَارِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْزُقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا)»^(٢).

خامساً: أن يكون باللسان لا بالقلب وحده، وهو مستفاد من قوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾؛ لأنَّ معناه: ومُتَكَلِّمًا كَلَامًا دُونَ الْجَهْرِ، ويكون المراد بالآية الأمر بالجمع في الذِّكْرِ بين اللسان والقلب، وقد يقال: هو ذكره في قلبه بلا لسانه؛ لقوله بعد ذلك: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ إِلَّا أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْأَصَحُّ؛ كَمَا حَقَّقَ ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وقد نَظَرَ لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ رَبِّهِ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَا ذَكَرْتُهُ فِي مَلَا خَيْرٍ مِنْهُمْ)^(٣)، قال: «وهذا يَدْخُلُ فِيهِ ذِكْرُهُ بِاللِّسَانِ فِي نَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَهُ قَسِيمَ الذِّكْرِ فِي الْمَلَا، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ وَالْأَوَّلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ الْمَشْرُوعَ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجَ الصَّلَاةِ هُوَ بِاللِّسَانِ مَعَ الْقَلْبِ، مِثْلُ صَلَاتَيِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ، وَالذِّكْرُ الْمَشْرُوعُ عَقِبَ الصَّلَاتَيْنِ، وَمَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَّمَهُ وَفَعَلَهُ مِنَ الْأَذْكَارِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ مِنْ عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلِ الْمَشْرُوعَةِ طَرَفَيِ النَّهَارِ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ»^(٤).

سادساً: أن يكون بالغدو والأصال؛ أي: في البُكْرَةِ وَالْعِشِيِّ؛ فَتَدُلُّ الْآيَةُ عَلَى مَزِيَّةِ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ؛ لِأَنَّهُمَا وَقْتُ سَكُونٍ وَدَعَةٍ وَتَعَبُدٍ وَاجْتِهَادٍ، وَمَا بَيْنَهُمَا

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥٤٤/٣).

(٢) سيأتي الحديث بتمامه (ص ٢٤٨).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٦/١٥ - ٣٦).

الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش، وقد رُوِيَ أَنَّ عَمَلَ الْعَبْدِ يَضَعْدُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ؛ فَطَلِبُ الذِّكْرِ فِيهِمَا لِيَكُونَ ابْتِدَاءَ عَمَلِهِ وَاخْتِمَامُهُ بِالذِّكْرِ.

ففي «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، يَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ^(١)).

سابعًا: النهي عن الغفلة عن ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ أي: مِنَ الَّذِينَ يَغْفُلُونَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَيَلْهُونَ عَنْهُ، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى والاستمرار عليه، وَ(أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ ﷻ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ)^(٢).

فهذه سبعة آداب عظيمة اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، ذكرها القاسمي رحمته الله في كتاب «محاسن التأويل»^(٣)، وللذكر آداب كثيرة أخرى، سيأتي معنا شيء منها لاحقًا - إن شاء الله -.

ثم إنَّ الله تبارك وتعالى لَمَّا حَثَّ عَلَى الذِّكْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، وَحَذَّرَ مِنْ ضِدِّهِ، وَهُوَ الْغَفْلَةُ، ذَكَرَ عَقِبَهَا فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا مَا يُقَوِّي دَوَاعِيَ الذِّكْرِ، وَيُنْهَضُ الْهَمَمَ إِلَيْهِ بِمَدْحِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والمراد بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ أي: الْمَلَائِكَةُ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِعَدَمِ الْاسْتِكْبَارِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ،

(١) رواه البخاري رقم (٥٥٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٦٣٢).

(٢) رواه البخاري رقم (٥٨٦١)، ومسلم رقم (٢١٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) (٢٩٣٦/٧، ٢٩٣٧).

وهذا فيه حثٌّ للمؤمنين وترغيبٌ لهم في أن يقتدوا بهم فيما ذكّر عنهم؛ لأنّه إذا كان أولئك - وهم معصومون من الذّنْب والخطأ - هذه حالهم في التسبيح والذكر والعبادة؛ فكيف ينبغي أن يكون غيرهم؟!

ولهذا يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وإنّما ذكرهم بهذا لِيُتَشَبَّهَ بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شُرِعَ لنا السجودُ ها هنا لَمَّا ذَكَرَ سَجُودَهُمْ لله وَرَبِّكَ؛ كما جاء في الحديث: (أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟! يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأَوَّلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ)»^(١)، وهذه أَوَّلُ سَجْدَةٍ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يُشْرَعُ لَتَالِيهَا وَمُسْتَمْعِيهَا السَّجُودُ بِالْإِجْمَاعِ»^(٢).

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «ثم ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ عِبَادًا مُسْتَدِيمِينَ لِعِبَادَتِهِ، مُلَازِمِينَ لِخِدْمَتِهِ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ؛ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَرِيدُ أَنْ يَتَكَثَّرَ عِبَادَتُكُمْ مِنْ قِلَّةٍ، وَلَا لِيَتَعَزَّزَ بِهَا مِنْ ذَلَّةٍ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ نَفْعَ أَنْفُسِكُمْ، وَأَنْ تَرْبِحُوا عَلَيْهِ أَضْعَافَ أَضْعَافٍ مَا عَمِلْتُمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين، وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ وَالْكُرُوبِيِّينَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، بَلْ يُذْعِنُونَ لَهَا، وَيَنْقَادُونَ لِأَمْرِ رَبِّهِمْ، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، ﴿وَلَهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾؛ فَلْيَقْتَدِ الْعِبَادُ بِهَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ، وَلِيَدَاوِمُوا عَلَى عِبَادَةِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ»^(٣). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

والمقصود: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا نَهَى عِبَادَهُ عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْغَافِلِينَ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مَثَالًا مِنْ اجْتِهَادِ الْمَلَائِكَةِ لِيُحْتَذَى، وَلِيَبْعَثَ عَلَى الْجِدِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.



(١) رواه مسلم رقم (٤٣٠).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٤٤).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/٦٨).

أَفْضَلُ الذِّكْرِ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

إِنَّ خَيْرَ مَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ بِهِ هُوَ كَلَامُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، الَّذِي هُوَ خَيْرُ الْكَلَامِ وَأَحْسَنُهُ وَأَصْدَقُهُ وَأَنْفَعُهُ، وَهُوَ وَحْيُ اللَّهِ وَتَنْزِيلُهُ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَهُوَ أَفْضَلُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى أَفْضَلِ رُسُلٍ، عَلَى عَبْدِهِ وَمُصْطَفَاهُ وَخَيْرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

يقول الله تعالى في بيان شرف هذا القرآن الكريم وفضله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرٍ﴾ [الفرقان: ٣٣]؛ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي هَذَا اعْتِنَاءٌ كَبِيرٌ لِشَرَفِ الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ حَيْثُ كَانَ يَأْتِيهِ الْمَلَكُ بِالْقُرْآنِ، صَبَاحًا وَمَسَاءً، سَفَرًا وَحَضْرًا، فَكُلَّ مَرَّةٍ كَانَ يَأْتِيهِ الْمَلَكُ بِالْقُرْآنِ لَا كإِنزَالِ الْكِتَابِ مِمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْكِتَابِ الْمَتَّقِمَةِ، فَهَذَا الْمَقَامُ أَعْلَى وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مَكَانَةً مِنْ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ؛ فَالْقُرْآنُ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أَعْظَمُ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى»^(١). اهـ.

إِنَّ فَضْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَشَرَفَهُ وَرَفِيعَ قَدْرِهِ وَعُلُوَّ مَكَانَتِهِ أَمْرٌ لَا يَخْفَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ فَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَلَامُ خَالِقِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَنَا، وَخَبَرٌ مَا بَعْدَنَا، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَنَا، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهَدْيَ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ،

وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَهُوَ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَعَنْ فَرْوَةَ بْنِ نَوْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَخَذَ حَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ بِيَدِي، فَقَالَ: يَا هَذَا! تَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بِمَا اسْتَطَعْتَ؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ تَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ»^(١).

إِنَّ قَدَرَ الْقُرْآنِ وَفَضْلَهُ هُوَ بِقَدْرِ الْمَوْصُوفِ بِهِ وَفَضْلِهِ؛ فَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ وَصِفَتُهُ، وَكَمَا أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا شَبِيهَ لَهُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَلَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا شَبِيهَ لَهُ فِي كَلَامِهِ، فَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يَشْبَهُهُ هُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنِ الشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وَالْفَرْقُ بَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِينَ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ الرَّبِّ عَلَى خَلْقِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْهُ»^(٢).

وَقَدْ رَوَى هَذَا اللَّفْظَ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا أَنَّ رَفْعَهُ لَا يَثْبُتُ؛ كَمَا أَوْضَحَ ذَلِكَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ: «خَلْقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ»^(٣) وَغَيْرُهُ مِنْ أَيْمَةِ الْعِلْمِ.

وَأَمَّا مَعْنَاهُ، فَحَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَا رَيْبَ فِي حُسْنِهِ وَقُوَّتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ وَجَمَالِ مَدْلُولِهِ، وَقَدْ اسْتَشْهَدَ أَهْلُ الْعِلْمِ لَصَحَّةِ مَعْنَاهُ بِنُصُوصٍ عَدِيدَةٍ، بَلْ إِنَّ الْإِمَامَ الْبُخَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَعَلَهُ عُنْوَانًا لِأَحَدِ تَرَاجُمِ أَبْوَابِ كِتَابِ فُضَائِلِ الْقُرْآنِ مِنْ «صَحِيحِهِ»، فَقَالَ فِي الْبَابِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْهُ: «بَابُ فَضْلِ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ»، وَأُورِدَ تَحْتَ هَذَا الْبَابِ حَدِيثَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

(١) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي «السُّنَّةِ» رَقْمَ (١١١)، وَاللَّالِكَاثِيُّ فِي «شرح أصول الاعتقاد» (٥٥٨) وَغَيْرُهُمَا، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٢) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» (٥٠٤/١).

(٣) (ص ١٦٢)، وَانْظُرْ: «السَّلْسَلَةُ الضَّعِيفَةُ» لِلْأَلْبَانِيِّ (٣/٥٠٥).

الأول: حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأَثْرَجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الثَّمَرَةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَلَا رِيحَ فِيهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ؛ طَعْمُهَا مُرٌّ، وَلَا رِيحَ لَهَا) ^(١).

قال ابن كثير رحمته الله في كتاب «فضائل القرآن»، - وهو عبارة عن شرح مختصر وعظيم الفائدة لكتاب «فضائل القرآن» من «صحيح البخاري» -: «وجه مناسبة الباب لهذا الحديث: أَنَّ طِيبَ الرَّائِحَةِ دَارَ مَعَ الْقُرْآنِ وَجُودًا وَعَدَمًا؛ فَذَلَّ عَلَى شَرْفِهِ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْكَلَامِ الصَّادِرِ مِنَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ» ^(٢).

والحديث الثاني: حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: (إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مَنْ خَلَا مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَمَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عَمَلًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى الْعَصْرِ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا، وَأَقْلُ عَطَاءً! قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَذَاكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ شِئْتُ) ^(٣).

قال ابن كثير رحمته الله: «ومناسبتُهُ للترجمة: أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ - مَعَ قِصْرِ مُدَّتِهَا - فَضَلَّتِ الْأُمَّةَ الْمَاضِيَةَ مَعَ طَوْلِ مُدَّتِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَفِي «الْمُسْنَدِ»، وَ«السُّنَنِ»، عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَنْتُمْ تُؤَفَّقُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٠٢٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٩٧).

(٢) «فضائل القرآن» (ص ١٠١).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٠٢١).

وَأَكْرَمَهَا عَلَى اللَّهِ^(١)، وَإِنَّمَا فَازُوا بِهَذَا بِبَرَكََةِ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ: الْقُرْآنِ الَّذِي شَرَّفَهُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، وَجَعَلَهُ مَهِيْمًا عَلَيْهِ، وَنَاسَخًا لَهُ، وَخَاتَمًا لَهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ الْكُتُبِ الْمَتَقَدِّمَةِ نَزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ جَمْلَةً وَاحِدَةً، وَهَذَا الْقُرْآنُ نَزَلَ مُنْجَمًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ لِشِدَّةِ الْإِعْتِنَاءِ بِهِ وَبِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَكُلُّ مَرَّةٍ كُنْزُولِ كِتَابٍ مِنَ الْكُتُبِ الْمَتَقَدِّمَةِ.

وَأَعْظَمُ الْأُمَمِ الْمَتَقَدِّمَةِ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ فَالْيَهُودُ اسْتَعْمَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ لَدُنْ مُوسَى إِلَى زَمَنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالنَّصَارَى مِنْ تَمَّ إِلَى أَنْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ أُمَّتَهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهُوَ الْمُشَبَّهُ بِآخِرِ النَّهَارِ، وَأَعْطَى الْمَتَقَدِّمِينَ قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَأَعْطَى هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، ضِعْفَيْنِ مَا أُعْطِيَ أُولَئِكَ، فَقَالُوا: أَيُّ رَبَّنَا، مَا لَنَا أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ أَجْرًا؟ فَقَالَ: هَلْ ظَلَمْتُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَذَاكَ فَضْلِي؛ أَيُّ: الزَّائِدُ عَلَى مَا أُعْطِيتُمْ - أَوْتِيهِ مَنْ أَشَاءَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٨﴾ لِكُلِّ أَمَلٍ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨].

❏ إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نُعَظَّمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، الَّذِي هُوَ مُصَدَّرُ عِزِّنَا، وَسَبِيلُ سَعَادَتِنَا، وَنَحْفَظَ لَهُ مَنَزَلَتَهُ وَمَكَانَتَهُ، وَنُقَدِّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، [وَنُعْمَلَ بِهِ].
يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ، فَلْيَعْرِضْ نَفْسَهُ عَلَى الْقُرْآنِ؛ فَإِنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ؛ فَإِنَّمَا الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ». ويقول رضي الله عنه: «الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ؛ فَمَنْ رَدَّ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّمَا يَرُدُّ عَلَى اللَّهِ». والآثَارُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ، فَسَأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يَغْمُرَ قُلُوبَنَا بِحَبِّ الْقُرْآنِ وَتَعْظِيمِهِ وَتَوْقِيرِهِ [وَالْعَمَلُ بِهِ]، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ.

(١) «المسند» (٣/٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٠٠١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤٢٨٨)، وَحَسَنُهُ الْأَلْبَانِي فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رقم (٢٣٠١).

(٢) «فضائل القرآن» (ص ١٠٢، ١٠٣).

لا رَيْبَ أَنَّ [مِنْ] أَجَلَ نِعَمِ اللَّهِ وَأَشْرَفِهَا وَأَعْظَمِهَا نِعْمَةً أَنْزَلَهُ الْكِتَابَ الْعَظِيمَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فهذه نِعْمَةٌ عَظُمَى، وَمِنَّةٌ كَبْرَى، اِمْتَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَحَمِدَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا، وَتَمَدَّحَ إِلَى عِبَادِهِ بِهَا، وَبَيَّنَّ عِظَمَ شَأْنِهَا فِي آيٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

يقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ويقول تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٣﴾ [الزمر]، ويقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٩٧﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٩﴾ بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ ﴿٢٠٠﴾ [الشعراء]، ويقول تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إِنَّ لَشَهْرَ رَمَضَانَ الْكَرِيمِ شَهْرَ الصَّوْمِ خُصُوصِيَّةً بِالْقُرْآنِ؛ فَهُوَ الشَّهْرُ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَقَدْ اِمْتَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ شَهْرَ الصِّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ بِأَنْ اخْتَارَهُ مِنْ بَيْنِهَا لِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، بَلْ قَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ بَأَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِي كَانَتْ الْكِتَابُ الْإِلَهِيَّةُ تَنْزِلُ فِيهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، فِي «الْمُسْنَدِ» لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَ«الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ» لِلطَّبْرَانِيِّ، مِنْ حَدِيثِ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لَيْسَتْ مَضِينٌ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ) ^(١).

(١) «المسند» (١٠٧/٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٢/١٨٥)، قال الهيثمي في «مجمع =

فالحديثُ يَدُلُّ على أَنَّ شهرَ رمضانَ هو الشهرُ الذي كانت تنزلُ فيه الكتبُ الإلهيةُ على الرسل ﷺ؛ إِلَّا أَنَّهَا كانت تنزلُ على النبي الذي أُنزلت عليه جملةٌ واحدةٌ، وأمَّا القرآن الكريم - فلمزيد شرفه، وعظيم فضله - فَإِنَّمَا نَزَلَ جملةً واحدةً إلى بيتِ العِزَّةِ في السماءِ الدنيا، وكان ذلك في ليلةِ القَدَرِ من شهرِ رمضانَ المبارك؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ﴾ [القدر: ١]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ فَذَكَتْ هذه الآياتُ الثلاثُ على أَنَّ القرآن الكريم أُنزلَ في ليلةٍ واحدةٍ، توصف بأنها ليلةٌ مباركةٌ، وهي ليلةُ القَدَرِ، وهي مِنْ ليالي شهرِ رمضانَ المبارك، ثم بعد ذلك نَزَلَ مفرَّقًا على مواقعِ النُّجُومِ يتلو بعضُهُ بعضًا، هكذا رُوِيَ عن ابن عباس ؓ من غير وجه:

فروى الحاكمُ عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عن ابن عباس ؓ، قال: «أُنزلَ القرآنُ جملةً واحدةً في ليلةِ القدرِ إلى السماءِ الدنيا، وكان بموقعِ النُّجُومِ، وكان الله يُنزلُهُ على رسولِ الله ﷺ بعضُهُ في إثرِ بعضٍ»^(١).

ورَوَى أيضًا عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس ؓ، أنه قال: «أُنزلَ القرآنُ جملةً واحدةً إلى سماءِ الدنيا ليلةَ القدرِ، ثم أُنزلَ بعد ذلك في عِشْرِينَ سَنَةً، ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿وَقَرَأْنَا لَهُمْهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنُنَزِّلُ لَكَ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]»^(٢).

وروى ابنُ أبي حاتمٍ، عن ابن عباس، أَنَّهُ سَأَلَهُ عَطِيَّةُ بْنُ الْأَسْوَدِ، فقال:

= الزوائد (١٩٧/١): «فيه عمران بن داود القطان؛ ضَعَفَهُ يحيى، ووَثَّقَهُ ابن حبان، وقال أحمد: أرجو أن يكون صالح الحديث، وبقيّة رجاله ثقات».

وله شاهد من حديث جابر ؓ؛ أخرجه أبو يعلى في «مسنده» رقم (٢١٨٧) بنحوه، وفي إسناده سفيان بن وكيع؛ وهو ضعيف.

وله شاهد آخر من حديث ابن عباس ؓ؛ أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠٢/٦)، وفي إسناده علي بن أبي طلحة وفي سماعه من ابن عباس مقال.

والحديث أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٧٥).

(١) «المستدرک» (٢٢٢/٢). (٢) «المستدرک» (٢٢٢/٢).

«وَقَعَ فِي قَلْبِي الشُّكُّ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وَقَدْ أُنْزِلَ فِي شَوَّالٍ، وَفِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَفِي ذِي الْحِجَّةِ، وَفِي الْمَحَرَّمِ، وَصَفَرٍ، وَشَهْرِ رَبِيعٍ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّهُ نَزَلَ فِي رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَفِي لَيْلَةٍ مَبَارَكَةٍ جَمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَى مَوَاقِعِ النُّجُومِ تَرْتِيلًا فِي الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ»^(١).

إِنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ هَذَا النُّزُولِ هِيَ تَعْظِيمُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَعْظِيمُ أَمْرِ مَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَعْظِيمُ الشَّهْرِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ، وَهُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَتَعْظِيمُ اللَّيْلَةِ الَّتِي نَزَلَ فِيهَا، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر].

ثُمَّ إِنَّ مَا تَقَدَّمَ لِيَدُلُّ أَعْظَمَ دَلَالَةٍ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ شَهْرِ الصُّومِ، شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، وَأَنَّ لَهُ خُصُوصِيَّةً بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ إِذْ فِيهِ حَصَلَ لِلْأُمَّةِ مِنَ اللَّهِ هَذَا الْفَضْلُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ نَزُولُ وَحْيِهِ الْعَظِيمِ، وَكَلَامِهِ الْكَرِيمِ الْمَشْتَمِلِ عَلَى الْهَدَايَةِ؛ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ الْهَدَايَةُ لِمَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَفِيهِ تَبَيُّانُ الْحَقِّ بِأَوْضَحِ بَيَانٍ، وَفِيهِ الْفَرْقَانُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ.

❏ فَحَقِيقُ بِشَهْرِ هَذَا فَضْلُهُ، وَهَذَا إِحْسَانُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِيهِ: أَنْ يُعْظِمَهُ الْعِبَادَ، وَأَنْ يَكُونَ مُوسِمًا لَهُمْ لِلْعِبَادَةِ وَزَادًا لِيَوْمِ الْمَعَادِ.

وَهَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ بِالْغَةِ عَلَى اسْتِحْبَابِ دِرَاسَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، وَالْاجْتِهَادِ فِي ذَلِكَ، وَالْإِكْتِنَارِ مِنْ تِلَاوَتِهِ فِيهِ، وَعَرْضِ الْقُرْآنِ عَلَى مَنْ هُوَ أَحْفَظُ لَهُ، وَالزِّيَادَةِ فِي مَدَارَسَتِهِ.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/٣١٠).

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»^(١).

وقد كان ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره، وهذا أمر يُشْرَع لكل من أراد أن يزيد في القراءة ويطيل وكان يصلي لنفسه فليطوّل ما شاء، وكذلك من صلى بجماعة يَرْضَوْنَ بصلاته، وأمّا سوى ذلك، فالمشروع التخفيف؛ قال الإمام أحمد رحمته الله لبعض أصحابه، وكان يصلي بهم في رمضان: «هؤلاء قوم ضَعْفَى، اقرأ خمسا، ستّا، سبعا، قال: فقرأت فختمت ليلة سبع وعشرين»^(٢)، فأرشده رحمته الله إلى أن يراعي حال المأمومين، فلا يشقّ عليهم.

وكان السلف رحمهم الله يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها:

- فكان الأسود رحمته الله يقرأ القرآن في كلّ ليلتين في رمضان.
- وكان النخعي رحمته الله يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصّة، وفي بقية الشهر في ثلاث.
- وكان قتادة رحمته الله يختم في كلّ سبع دائماً، وفي رمضان في كلّ ثلاث، وفي العشر الأواخر كلّ ليلة.
- وكان الزهري رحمته الله إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام.
- وكان مالك رحمته الله إذا دخل رمضان يفرّ من قراءة الحديث، ومجالسة أهل العلم، ويُقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٢٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٣٠٨).

(٢) ذكره ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص ١٨٠).

- وكان فتادة رَحِمَهُ اللهُ يَدْرُسُ القرآنَ في شهرِ رمضان.
 - وكان سفيانُ الثوريُّ رَحِمَهُ اللهُ إذا دَخَلَ رمضانُ تَرَكَ جميعَ العبادَةِ، وأَقْبَلَ على تلاوةِ القرآن.
- والآثارُ عنهم في هذا المعنى كثيرةٌ^(١)، رَزَقَنَا اللهُ حُسْنَ اتِّبَاعِهِمْ، والسيرَ على آثارِهِمْ، ونَسْأَلُهُ تبارك وتعالى بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وصفاتِهِ الْعَلِيَا أنْ يجعلَ القرآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا، وَنُورَ صُدُورِنَا، وَجِلَاءَ أَحْزَانِنَا، وَذَهَابَ هُمُومِنَا وَغَمُومِنَا، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.



(١) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب (ص ١٨١).

الْمَطْلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ: فَهْمُ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر].

إنَّ تلاوةَ القرآنِ وتدبُّرَهُ أعظمُ أبوابِ الهداية؛ فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى قد أنزلَ كتابَهُ المبينَ على عبادِهِ هُدىً ورحمةً، وضياءً ونورًا، وبُشْرَىً وذِكْرَىً للذاكرين، وجعلَهُ مبارَكًا وهُدىً للعالمين، وجعلَ فيه شفاءً من الأسقام، ولا سِيَّما أسقامَ القلوبِ وأمراضِها مِنْ شُبُهَاتٍ وشَهَوَاتٍ، وجعلَهُ رحمةً للعالمين، يهدي للتي هي أقوم، وصَرَّفَ فيه مِنَ الآياتِ والوعيدِ لعلَّهُم يَتَّقُونَ أو يُحَدِّثَ لَهُمْ ذِكْرَى.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىً لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولهذا، فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى أمرَ عبادَهُ وحَثَّهم على قراءةِ القرآنِ وتدبُّرِهِ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ

لَوْجَدُوا فِيهِ أَخْبِلْنَا كَثِيرًا» [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وأخبر سبحانه أنه إنما أنزله لتتدبر آياته؛ فقال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وبين سبحانه أن سبب عدم هداية من ضلَّ عن الصراط المستقيم هو ترك تدبر القرآن، والاستكبار عن سماعه؛ فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنتَلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾ أَفَلَمْ يَذَبَرُوا أَلَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٦]؛ أي: أنهم لو تدبروا القرآن، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر والعصيان؛ فدل ذلك على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر.

ووصف الله القرآن بأنه أحسن الحديث، وأنه تعالى ثنى فيه من الآيات، وردد القول فيه ليفهم، وأن جلود الأبرار عند سماعه تقشعر خشية وخوفاً؛ فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وعاتب سبحانه المؤمنين على عدم خشوعهم عند سماع القرآن، وحذرهم من مشابهة الكفار في ذلك؛ فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وأخبر سبحانه عن القرآن أنه يزيد المؤمنين إيماناً إذا قرؤوه وتدبروا آياته؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وأخبر عن صالحى أهل الكتاب أن القرآن إذا تلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويكونون ويزيدهم خشوعاً وإيماناً وتسليماً؛ فقال سبحانه: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكَبُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وأخبر سبحانه بأنه لو أنزل القرآن الكريم على جبل، لخشع وتصدّع من خشية الله ﷻ، وجعلَ هذا مثلاً للناسِ يبيّن لهم عظمة القرآن وقُوّة أثره؛ فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ثم مع هذا، فإنَّ الله تعالى قد حذّر عباده من الإعراض عن القرآن الكريم أشدّ التحذير، وبيّن لهم خطورة ذلك وما يجنيه من فعل ذلك من الإثم والوزر الذي يحمله معه يوم القيامة بسبب إعراضه عن القرآن وعدم تلقّيه بالقبول والتسليم؛ يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۚ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۝﴾ [طه]، فإذا كان القرآن ذكراً لرسول الله ﷺ ولأمّته، فيجب تلقّيه بالقبول والتسليم، والانقياد والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يُقبل عليه بالتعلّم والتعليم، وأمّا مقابلته بالإعراض والصدود، أو بما هو [أخطر] من ذلك من الإنكار والجحود، فإنّه كُفّر لهذه النعمة يستحقّ فاعله العقوبة.

ولهذا قال تعالى: ﴿مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۚ﴾، وقوله في الآية: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ فيه وصف للقرآن الكريم بأنه ذكّر، وقد مرّ معنا آيات كثيرة في هذا المعنى، وهذا يعني أنّ القرآن الكريم فيه ذكّر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكّر يُتذكّر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويُتذكّر به أحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء، وهذا أيضاً ممّا يدلّ على أنّ القرآن مشتملٌ على أحسن ما يكون من الأحكام التي تشهد العقول والفطر بحُسنها وكَمالها.

﴿إِنَّ كِتَابًا هَذَا بَعْضُ شَأْنِهِ لَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُعْظِمَهُ وَيَقْدِرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَيَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ بِتَدْبِيرِ آيَاتِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَالتَّعَقُّلِ لِمَعَانِيهِ، وَبِالْعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِيهِ، وَكَمَا يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَا شَيْءَ أَفْنَعُ لِلْقَلْبِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ؛ فَإِنَّهُ جَامِعٌ لَجَمِيعِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ، وَأَحْوَالِ الْعَامِلِينَ،

ومقاماتِ العارفين، وهو الذي يُورثُ المحبةَ والشوقَ، والخوفَ والرجاءَ، والإنابةَ والتوكلَ، والرضا والتفويضَ، والشُّكْرَ والصبرَ، وسائرَ الأحوالِ، التي بها حياةُ القلبِ وكمالُهُ، وكذلك يَزْجُرُ عن جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومةِ، التي بها فسادُ القلبِ وهلاكُهُ. فلو عَلِمَ النَّاسُ ما في قراءةِ القرآنِ بالتدبُّرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكيرٍ حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبه كرَّرها ولو مائةَ مرَّةٍ، ولو ليلةً، فقراءةُ آيةٍ بتفكيرٍ وتفهُمٍ خيرٌ مِنْ قراءةِ ختمَةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وتفهُمٍ، وأنفعُ للقلبِ، وأدعى إلى حصولِ الإيمانِ، وذوقِ حلاوةِ القرآنِ»^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وهو - كما ترى - وافي الدَّلالةِ، عظيمُ الفائدةِ، وَمَنْ كان في قراءتِهِ للقرآنِ على هذا الوصفِ أَثَّرَ فيه القرآنُ غايةَ التأثيرِ، وانتَفَعَ بتلاوتِهِ تمامَ الانتفاعِ، وكان بذلك مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ الرَّاسخينِ، وهذا هو مقصودُ القرآنِ وغايَةُ مطلوبه؛ ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «المطلوبُ من القرآنِ هو فَهْمُ مَعَانِيهِ وَالْعَمَلُ بِهِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ حَافِظِهِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْدِينِ»^(٢).

اللَّهُمَّ وَفَّقْنَا لِحَقِيقِ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيكَ عَنَّا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.



(١) «مفتاح دار السعادة» (ص ٢٠٤).

(٢) «الفتاوى الكبرى» (١/٢١٣).

آدَابُ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ

لقد مرَّ معنا بيانُ فضلِ القرآنِ الكريمِ، كلامِ رَبِّ العالمينَ، وعِظَمِ شأنِ تلاوتهِ وتدبُّره، وما يترتَّبُ على ذلكِ مِنْ أجورٍ عظيمةٍ، وأفضالٍ كريمةٍ، وخيراتٍ عميمةٍ في الدنيا والآخرة، وسيكون الحديثُ هنا - بإذنِ الله - عن أخلاقِ حَمَلَةِ القرآنِ، التي ينبغي أن يتحلَّوا بها، وآدابِ أهلِهِ وصفَاتِهِمُ التي ينبغي أن يتأدَّبوا بها، ولا ريبَ في شَرَفِ هذا الموضوعِ وعِظَمِ شأنه، وحاجتنا دائماً إلى تذكُّره ومدارسته.

وقد كان أهلُ العلمِ وأئمةُ الفضلِ والخيرِ يُولِّونَ هذا الموضوعَ عنايةً خاصَّةً، ويعتنون به عنايةً فائقةً؛ إذ به تأتي ثَمَرَةُ القرآنِ، ويُنالُ ما يترتَّبُ عليه من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ وإحسان، وبدونِ هذه الآدابِ لا ينالُ التالي الثمرةَ المرجوَّةَ، ولا يُحصِّلُ الخيرَ العظيمَ والثوابَ الجزيلَ المأمولَ، بل ربَّما كان القرآنُ حُجَّةً عليه، وخصيماً له يومَ القيامةِ.

فقد ثَبَتَ عن النبي ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ)^(١)، وثَبَتَ عنه ﷺ أنه قال: (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)^(٢)؛ وكلاهما في «صحيح مسلم».

فالقرآنُ حُجَّةٌ لمن عَمِلَ به وتأدَّبَ بآدابه، وأمَّا مَنْ ضَيَّعَ حدودَهُ، وأهملَ حقوقَهُ، وفَرَّطَ في واجباته، فإنَّ القرآنَ يكونُ حُجَّةً عليه يومَ القيامةِ.

ولهذا يقولُ قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لم يجالسْ هذا القرآنَ أحدٌ إلَّا قامَ عنه بزيادةٍ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٨١٧).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٣).

أو نقصان»^(١)؛ أي: بزيادة في الإيمان والخير إن عمل به، أو نقصانٍ مِنْ ذلك إن أهمله وضيع حقوقه.

لقد كتبَ أهلُ العلم في هذا الموضوع - آدابِ وأخلاقِ حَمَلَةِ القرآن - كتاباتٍ عظيمةً، وألّفوا في هذا البابِ مؤلّفاتٍ قيّمةً نافعةً، وهي عديدةٌ ومتنوعةٌ، إلّا أنّ مِنْ أحسنها وفاءً بهذا الموضوع كتاب «أخلاقِ حَمَلَةِ القرآن» للإمام العلامة أبي بكرٍ محمّد بن الحسين الأجرّي، المتوفى سنة (٣٦٠هـ)؛ فهو كتابٌ عظيمُ القدر، جليلُ الفائدة، وحرّى بكلِّ حافظٍ للقرآن الكريم، بل بكلِّ مسلم، أن يقفَ عليه ويُفيدَ منه.

وقد تحدّث فيه مؤلّفه رَحِمَهُ اللهُ - قبل بيانه لآدابِ حَمَلَةِ القرآن - عن فضلِ حملة القرآن، وفضلِ مَنْ تعلّم القرآن وعلمه، وفضلِ الاجتماعِ في المسجدِ لدرسِ القرآن، وقصدَ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ البدءِ بهذه الأبوابِ التّرجيبِ في تلاوة القرآن، والعملِ به، والاجتماعِ لمدارسته، ثُمَّ شرّعَ بعد ذلك في بيانِ آدابِ حَمَلَةِ القرآن، مستدلاً على كلّ ما يقولُ بالنُّصوصِ القرآنيّة، والأحاديثِ النّبويّة، والآثارِ المرويّة عن سلفِ الأُمّة.

ولعلّنا نأتي هنا على جملةٍ طيّبةٍ مِنْ هذه الآدابِ الكريمة، والخلالِ العظيمة، التي ينبغي أن يتحلّى بها أهلُ القرآن وحَمَلَتُهُ، بل ينبغي أن يتحلّى بها المسلمون جميعهم.

* فَمِنْ هذه الآدابِ^(٢): أن يتحلّى صاحبُ القرآن بتقوى الله في سرّه وعَلَنه، ويقصدَ بعلمه وعمله وجهَ الله تعالى، ويريدَ بتلاوته وحفظه القُرْبَ منه سبحانه.

جاء عن عُمَرَ بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لقد أتى علينا حينٌ وما نرى أنّ أحداً يتعلّم القرآن يريدُ به إلّا الله عَزَّ وَجَلَّ، فلمّا كان ها هنا بأخِرَةِ خشيتُ أنّ

(١) رواه الأجرى في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٣).

(٢) انظر: «أخلاق حملة القرآن» للأجرى (ص ٢٤ وما بعدها).

رجالاً يَتَعَلَّمُونَهُ يريدونَ به النَّاسَ وما عندهم؛ فَأَرِيدُوا اللَّهَ بقراءتكم وأعمالكم».

* وَمِنْ هَذِهِ الْآدَابِ: أَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ الشَّرِيفَةِ، وَيَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِ الْكَرِيمَةِ، وَيَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِبْعًا لِقَلْبِهِ يَغْمُرُ بِهِ مَا خَرِبَ مِنْ قَلْبِهِ، وَيُصْلِحُ بِهِ مَا فَسَدَ مِنْهُ، يُؤَدِّبُ نَفْسَهُ بِالْقُرْآنِ، وَيُصْلِحُ بِهِ حَالَهُ، وَيُقَوِّي بِهِ إِيْمَانَهُ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة].

فحاملُ الْقُرْآنِ يجعلُ الْقُرْآنَ دَلِيلَهُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَرَائِدَهُ إِلَى كُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ، حَافِظًا لَجَمِيعِ جَوَارِحِهِ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ؛ إِنْ مَشَى مَشَى بِعِلْمٍ، وَإِنْ قَعَدَ قَعَدَ بِعِلْمٍ، وَإِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِعِلْمٍ، وَإِنْ شَرِبَ شَرِبَ بِعِلْمٍ، وَإِنْ أَكَلَ أَكَلَ بِعِلْمٍ، يَتَصَفَّحُ الْقُرْآنَ وَيَقْرُؤُهُ؛ لِيُؤَدِّبَ نَفْسَهُ، وَلِيَهْدِبَ بِهِ سُلُوكَهُ، وَلِيَزَيِّنَ بِهِ عَمَلَهُ، وَلِيُقَوِّيَ بِهِ إِيْمَانَهُ.

لهذا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَلَمْ يُنْزَلْ لِلْقِرَاءَةِ وَالتَّلَاوَةِ فَقَطْ بَدُونِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ قَالَ الْفُضَيْلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلًا»^(١).

ومعنى قوله: «لِيُعْمَلَ بِهِ»؛ أَي: لِيُحِلُّوا حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُوا حَرَامَهُ، «فَاتَّخَذَ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلًا»؛ أَي: لَا يَتَدَبَّرُونَهُ، وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ.

* وَمِنْ هَذِهِ الْآدَابِ: أَنْ تَكُونَ هِمَّةً مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ إِيْقَاعَ الْفَهْمِ لِمَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ، وَالانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى، لَيْسَ هِمَّتُهُ مَتَى أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ وَإِنَّمَا هِمَّتُهُ مَتَى أَسْتَغْنِي بِاللَّهِ عَنْ غَيْرِهِ؟ مَتَى أَكُونُ مِنَ الْمُتَّقِينَ؟ مَتَى أَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؟ مَتَى أَكُونُ مِنَ الْخَاشِعِينَ؟ مَتَى أَكُونُ مِنَ الصَّادِقِينَ؟ مَتَى أَعْرِفُ قَدَرَ النِّعَمِ الْمُتَوَاتِرَةِ؟ مَتَى أَشْكُرُ اللَّهَ عَلَيْهَا؟ مَتَى أَتُوبُ مِنَ الذُّنُوبِ؟ مَتَى أَعْقِلُ عَنِ اللَّهِ الْخَطَابِ؟ مَتَى أَفْقَهُ مَا أَتْلُو؟ مَتَى أَكُونُ بِزَجْرِ الْقُرْآنِ مُتَّعِظًا؟ مَتَى أَكُونُ بِذِكْرِ اللَّهِ

(١) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٤٣).

عن ذكرٍ غيرِهِ مُشْتَغِلًا؟ متى أَحَبُّ ما أَحَبَّ وأُبْغِضُ ما أَبْغَضَ؟ فهذه هِمَّتُهُ عند تلاوة القرآن.

يقول الإمام الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من أَجَلَّةِ التابعين، يصف بعض قُرَّاءِ زمانِهِ، وهو بصدد بيان أَهَمِّيَّةِ تدبُّرِ القرآنِ والتفكُّهِ فيه، يقول: «أما والله ما هو بحفظِ حروفِهِ وإضاعةِ حدودِهِ، حتى إِنَّ أَحَدَهُمْ ليقولُ: لقد قرأتُ القرآنَ فما أسقطْتُ منه حرفًا، وقد والله أسقطَهُ كُلَّهُ، ما يُرى له القرآنُ في خُلُقٍ ولا عملٍ، حتى إِنَّ أَحَدَهُمْ ليقولُ: إِنِّي لأقرأُ السورةَ في نَفْسٍ، والله ما هؤلاء بالقُرَّاءِ ولا العلماءِ، ولا الحُكَماءِ ولا الورَعََةِ، متى كانتِ القُرَّاءُ مثَلِ هذا، لا كَثُرَ اللهُ في الناسِ مثَلُ هؤلاء!»^(١).

هذه بعضُ آدابِ حَمَلَةِ القرآنِ ممَّا أوردَهُ الأَجْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه المشارِ إليه، وقد أَنهى ذِكْرَهُ لتلكِ الآدابِ بقوله: «فالمؤمنُ العاقلُ إذا تلا القرآنَ، استعرضَ القرآنَ، فكان كالمرآةِ يرى بها ما حَسَنَ مِنْ فِعْلِهِ، وما قَبَحَ مِنْهُ؛ فما حَذَرَهُ مَوْلَاهُ حَذَرَهُ، وما خَوَّفَهُ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ خَافَهُ، وما رَغَبَهُ فِيهِ مَوْلَاهُ رَغَبَ فِيهِ ورجاه، فَمَنْ كانتِ هذه صِفَتُهُ، أو ما قاربَ هذه الصِّفَةَ، فقد تلاه حَقَّ تلاوتِهِ، ورعاه حَقَّ رعايَتِهِ، وكان له القرآنُ شاهدًا وشفيعًا، وأنيسًا وجرزًا، وَمَنْ كان هذا وَصْفُهُ، نَفَعَ نَفْسَهُ وَنَفَعَ أَهْلَهُ، وعاد على والدَيْهِ وعلى وَلَدِهِ كُلِّ خَيْرٍ في الدنيا والآخرة»^(٢).

واللهُ المرجوُّ أن يوفِّقنا لذلك ولكلِّ خَيْرٍ، والله وحده المستعان.



(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣/٣٦٣)، والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٤١).

(٢) «أخلاق حملة القرآن» (ص ٢٩).

تَفَاضُلُ سُورِ الْقُرْآنِ، وَفَضْلُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

مَرَّ معنا فيما سَبَقَ بيانُ فضلِ القرآنِ الكريمِ، سُورِهِ وآيَاتِهِ وحروفِهِ، وبيانُ شرفِهِ وخيرِيَّتِهِ وعَظِيمِ قَدْرِهِ وَفَضْلِهِ على سائرِ الكلامِ؛ إذْ هو كلامُ الربِّ تبارك وتعالى ووحيُّه وتنزيلُّه، ولعلَّ مِنَ الحَسَنِ - والحديثُ ماضٍ بنا في ذلك - أَنْ أُشيرَ إلى ما وَرَدَ مِنَ النُّصوصِ في تفضيلِ بعضِ سُورِ القرآنِ الكريمِ وآيَاتِهِ؛ فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ - تبارك وتعالى - بتلاوتِها وتَدَبُّرِها يَتَرَتَّبُ عليه مِنَ الأجرِ والثوابِ ما لا يَتَرَتَّبُ على غيرها؛ لِعَظَمِ مدلولاتِها، وَقُوَّةِ مُتَعَلِّقِها؛ فَإِنَّ القرآنَ الكريمَ - وإنْ كانَ كُلُّهُ كلامَ اللَّهِ - إِلَّا أَنَّ الكلامَ نوعان: إمَّا إنشَاءً، وإمَّا إخبارًا، والإخبارُ: إمَّا خبرٌ عن الخالقِ، وإمَّا خبرٌ عن المخلوقِ، فالإنشاءُ: هو الأحكامُ كالأمرِ والنهي، والخبرُ عن المخلوقِ هو القَصَصُ، والخبرُ عن الخالقِ هو ذِكْرُ أسمائِهِ وصفاتِهِ. وما مِنْ رَيْبٍ في أَنَّ النصوصَ القرآنيَّةَ المشتملةَ على توحيدِ اللَّهِ والخبرِ عن أسمائِهِ وصفاتِهِ أَفضلُ مِنْ غيرها^(١)؛ كما قال أحدُ أهلِ العلمِ: كلامُ اللَّهِ في اللَّهِ أَفضلُ مِنْ كلامِهِ في غيره؛ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَفضلُ مِنْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وهذا التفاضلُ بين السُّورِ والآياتِ ليس باعتبارِ نسبتهِ إلى المتكَلِّمِ؛ فَإِنَّ المتكَلِّمَ بهِ واحدٌ، وهو اللَّهُ سبحانه، ولكنْ باعتبارِ معانيهِ التي تكلَّمُ بها، وباعتبارِ ألفاظِهِ المبيِّنة لمعانيهِ، والنصوصُ والآثارُ في تفضيلِ كلامِ اللَّهِ بعضُهُ على بعضٍ كثيرةٌ جدًا.

فقد صحَّ عن النبي ﷺ أَنَّهُ فَضَّلَ مِنَ السُّورِ «سورة الفاتحة»، وأخبرَ أَنَّهُ

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٥٧/١٧) وما بعدها.

لَمْ يُنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ.

روى الإمام أحمد في «مسنده»، والترمذي في «جامعه»، وابن خزيمة في «صحيحه»، وغيرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، «أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب، فقال رسول الله ﷺ: (يا أباي) - وهو يصلي - فالتفت أبي، فلم يجبه، وصلى أبي وخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (وعليك السلام، ما منعك يا أباي أن تجيبني إذ دعوتك)، فقال: يا رسول الله، إني كنت في الصلاة، قال: (أفلم تجد فيما أوحى الله إلي أن ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤])، قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله، قال: (أتجيب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها)، قال: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (كيف تقرأ في الصلاة؟)، قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده، ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته)^(١).

[وفي «صحيح البخاري»^(٢)، من حديث أبي سعيد بن المعلى نحو حديث أبي، وفيه التصريح بأنها أعظم سورة في القرآن، وأنها السبع المثاني والقرآن العظيم].

وروى البخاري في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ)^(٣).

(١) «المسند» (٣٥٧/٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٨٧٥)، و«صحيح ابن خزيمة» (٨٦١) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/٣).

(٢) برقم (٤٤٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٤٧٠٤).

* وَمِنْ فَضْلِ هَذِهِ السُّورَةِ: أَنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا، وَكُلُّ صَلَاةٍ لَمْ يُقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَهِيَ خِدَاجٌ غَيْرُ تَمَامٍ؛ خَرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ، فَهِيَ خِدَاجٌ - ثَلَاثًا - غَيْرُ تَمَامٍ)، فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ، فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَدَّنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿هُدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ^(١).

فهذه الأحاديثُ ونحوها تدلُّ على عظيمِ قَدْرِ هذه السورةِ الكريمة، وأنها أعظمُ سُورِ الْقُرْآنِ، بل لم يُنَزَّلْ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزُّبُورِ ولا في القرآنِ مثلُها، وهي أمُّ الْقُرْآنِ، فالقرآنُ كُلُّهُ تفسِيرٌ لها وشرحٌ لمجملها؛ وذلك لاشتغالها على المعاني التي في القرآنِ مِنَ الشَّائِءِ على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبُّدِ بالأمرِ والنهي، ومن الوعدِ، والوعيدِ، ونحو ذلك.

قال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه «مدارج السالكين، بين منازل إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»: «اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَى أُمِّهَاتِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ أَتَمَّ اشْتِمَالٍ، وَتَضَمَّنَتْهَا أَكْمَلَ تَضَمُّنٍ؛ فَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّعْرِيفِ بِالْمَعْبُودِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ، مَرْجِعُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا إِلَيْهَا، وَمَدَارُهَا عَلَيْهَا، وَهِيَ: اللَّهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَبُنِيَتْ السُّورَةُ عَلَى الْإِلَهِيَّةِ وَالرَّبُّوبِيَّةِ

والرَّحْمَةُ... إلى أن قال: وَتَضَمَّنَتْ إِبْثَاتَ الْمَعَادِ، وَجَزَاءَ الْعِبَادِ بِأَعْمَالِهِمْ حَسَنِيهَا وَسَيِّئِيهَا، وَتَفَرَّدَ الرَّبُّ تَعَالَى بِالْحُكْمِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَكَوْنِ حُكْمِهِ بِالْعَدْلِ، وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وَتَضَمَّنَتْ إِبْثَاتَ النُّبُوتِ مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ...»^(١). ثُمَّ أَطَالَ النَّفْسَ رَحِمَهُ فِي بَيَانِ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ أَمَّهَاتِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الرَّدِّ عَلَى جَمِيعِ طَوَائِفِ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ، وَمَقَامَاتِ الْعَابِدِينَ، وَبَيَانِ أَنَّهُ لَا يَقُومُ غَيْرُ هَذِهِ السُّورَةِ مَقَامَهَا وَلَا يَسُدُّ مَسَدَهَا.

❦ وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّهُ يَتَأَكَّدُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ تَعْظُمَ عَنَانِيَّتُهُ بِهَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ حِفْظًا وَتِلَاوَةً، وَمَدَارَسَةً وَتَدْبِيرًا؛ فَالْمُسْلِمُ يَقْرُؤُهَا فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً، وَإِذَا كَانَ مُحَافِظًا عَلَى النَّوَافِلِ، أَوْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهَا، فَإِنَّهُ يَقْرُؤُهَا مَرَّاتٍ كَثِيرَةً، لَا يَحْصِيهَا مُدَّةُ عُمُرِهِ وَطَوَّلُ حَيَاتِهِ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمِنْ أَسْفِ أَنْكَ تَرَى مَعَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ لَا يَحْسُنُ قِرَاءَةَ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ، بَلْ لَرَبِّمَا يَلْحَنُ فِيهَا لَحْنًا يُفْسِدُ مَعْنَاهَا، أَوْ يُخِلُّ بِمَدْلُولِهَا، أَوْ تَرَى فِيهِمْ مَنْ لَا يُعْنَى بِتَدْبِيرِهَا وَتَفْهِيمِهَا وَتَعْقُلِ مَعَانِيهَا وَمَعْرِفَةِ مَدْلُولَاتِهَا. وَالْوَاجِبُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ تَعْظِيمُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ، وَقَدْرُهَا حَقَّ قَدْرِهَا، وَتِلَاوَتُهَا حَقَّ تِلَاوَتِهَا؛ إِذْ هِيَ أَعْظَمُ سُورَةِ الْقُرْآنِ وَأَفْرَضُهَا عَلَى الْأُمَّةِ، وَأَجْمَعُهَا لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَبْدُ، وَأَعْمُهَا نَفْعًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَاللَّهِ، لَا تَجِدُ مَقَالَةً فَاسِدَةً وَلَا بِدْعَةً بَاطِلَةً إِلَّا وَفَاتِحَةَ الْكِتَابِ مُتَضَمِّنَةً لِرَدِّهَا وَإِبْطَالِهَا بِأَقْرَبِ الطَّرِيقِ وَأَصَحِّهَا وَأَوْضَحِّهَا، وَلَا تَجِدُ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَأَدْوِيَّتِهَا مِنْ عِلْمِهَا وَأَسْقَامِهَا إِلَّا وَفِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ مِفْتَاحُهُ وَمَوْضِعُ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، وَلَا مَنْزِلًا مِنْ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا وَبِدَائِيَّتُهُ وَنَهَائِيَّتُهُ فِيهَا، وَلَعَمْرُ اللَّهِ إِنَّ شَأْنَهَا لِأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَهِيَ فَوْقَ ذَلِكَ، وَمَا تَحَقَّقَ عَبْدٌ بِهَا وَاعْتَصَمَ بِهَا وَعَقَلَ عَمَّنْ

تَكَلَّمَ بِهَا، وَأَنْزَلَهَا شِفَاءً تَامًا، وَعَصْمَةً بِالْغَةِ، وَنُورًا مَبِينًا، وَفَهَمَهَا وَفَهُمَ
لَوَازِمَهَا كَمَا يَنْبَغِي وَوَقَعَ فِي بَدْعَةٍ وَلَا شِرْكَ وَلَا أَصَابَهُ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ
الْقُلُوبِ إِلَّا لِمَا مِمَّا غَيْرَ مُسْتَقَرٍّ^(١).

وبهذا نأتي إلى نهاية ما قُصِدَ بَيَانُهُ هُنَا، حَامِدِينَ لِلَّهِ، مَثْنِينَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ
أَهْلُهُ، وَبِمَا أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، حَمْدًا غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مَكْفُورٍ وَلَا مُوَدَّعٍ،
وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبَّنَا.



(١) «زاد المعاد» (٤/٣٤٧، ٣٤٨).

فَضْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَسُورَةِ الْإِخْلَاصِ، وَسُورَةِ أُخْرَى

نواصل الحديث عن تفضيل بعض سور القرآن وآياته، حيث سبق تناول شيء مما ورد في فضل «سورة الفاتحة» التي هي أفضل سور القرآن وأعظمها على الإطلاق.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّ أفضلَ آيةٍ في القرآن الكريم هي «آية الكرسي»؛ ففي «صحيح مسلم»، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللَّهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ^(١)؛ أي: ليكن العلم هنيئًا لك.

وهذه الآية الكريمة إنما كانت بهذه المنزلة لعظم ما دلَّت عليه من توحيد الله وتمجيده، وحسن الثناء عليه، وذكر نعوت جلاله وكماله، فتضمنت من أسماء الله خمسة أسماء، وتضمنت من الصفات ما يزيد على العشرين صفةً للربِّ تبارك وتعالى؛ فهي قد اشتملت من ذلك على ما لم تشتمل عليه آية أخرى في القرآن؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وليس في القرآن آية واحدة تضمّن ما تضمّنته «آية الكرسي»، وإنما ذكر الله في أول «سورة الحديد»، وآخر «سورة الحشر» عدّة آيات لا آية واحدة»^(٢).

ولهذا كان من فضل هذه الآية الكريمة أن من قرأها في ليلة، لم يزَلْ عليه من الله حافظ، ولا يقربهُ شيطانٌ حتى يُصبح، وهو في «صحيح البخاري»،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٨١٠).

(٢) «جواب أهل العلم والإيمان» (ص ١٣٣).

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في سياقٍ طويل ^(١).

* **وَمِنْ فَضْلِهَا:** ما ثَبَتَ في «سُنَنِ النَّسَائِي» وغيره، من حديث أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ) ^(٢)؛ يعني: لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلا الموت، قال ابن القيم رحمته الله: «بلغني عن شيخنا أبي العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - أَنَّهُ قَالَ: ما تركتها عَقِيبَ كُلِّ صَلَاةٍ» ^(٣).

وقد صحَّ عن النبي ﷺ تفضيلُ «سورة الإخلاص»، وأنها تعدلُ ثُلثَ القرآن؛ ففي «صحيح البخاري»، من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، أَنَّ رجلاً سَمِعَ رجلاً يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ يردِّدها، فلمَّا أَصْبَحَ، جاء إلى رسولِ الله ﷺ، فذكرَ ذلك له، وكأَنَّ الرجلَ يَتَقَالَّها، فقال رسولُ الله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلْثَ الْقُرْآنِ) ^(٤).

وروى البخاري، عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «(أَيُعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلْثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ)، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيْنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: (اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلْثُ الْقُرْآنِ)» ^(٥).

وأهل العلم قد تكلموا في بيان وجه كون هذه السورة تعدلُ ثُلثَ القرآن، وذكروا في ذلك أجوبةً عديدةً، وأحسنها - كما يذكُرُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله - هو الجوابُ المنقولُ عن أبي العباس بن سُرَيْج؛ حيث قال: «معناه: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ثُلْثٌ مِنْهَا الْأَحْكَامُ، وَثُلْثٌ مِنْهَا وَعْدٌ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٣١١).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٦/ رقم ٩٩٢٨)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٧٢).

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٣٠٤).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٥٠١٣).

(٥) «صحيح البخاري» رقم (٥٠١٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٨١١)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جَمَعَتِ الأسماء والصفات»^(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِذَا كَانَتْ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ، لَمْ يَلِزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنَ «الْفَاتِحَةِ»، وَلَا أَنَّهَا يُكْتَفَى بِتِلَاوَتِهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، بَلْ قَدْ كَرِهَ السَّلَفُ أَنْ تُقْرَأَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً كَمَا كُتِبَتْ فِي الْمَصْحَفِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُقْرَأُ كَمَا كُتِبَ فِي الْمَصْحَفِ، لَا يَزَادُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ... وَلَكِنْ إِذَا قُرِئَتْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مَفْرَدَةً تَقْرَأُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَرَأَهَا، فَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ مَا يَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ، لَكِنْ عَدْلُ الشَّيْءِ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ»^(٢). اهـ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَحَادِيثَ الْمَشْتَمِلَةَ عَلَى ذِكْرِ فَضَائِلِ السُّورِ وَثَوَابِ مَنْ قَرَأَهَا كَثِيرَةٌ، وَجُمْلَةٌ مِنْهَا لَا تَخْلُو مِنْ ضَعْفٍ، بَلْ إِنَّ فِيهَا مَا هُوَ كَذِبٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّهُ يَتَأَكَّدُ عَلَى الْمُسْلِمِ تَحَرِّيَ مَعْرِفَةِ الصَّحِيحِ فِي ذَلِكَ، بِسُؤَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَمَدَارِسَةِ أَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْمَنَارُ الْمَنِيفُ، فِي الصَّحِيحِ وَالضَّعِيفِ»: «وَمِنْهَا: - أَيْ: الْأَحَادِيثُ الْمَوْضُوعَةُ - ذِكْرُ فَضَائِلِ السُّورِ وَثَوَابِ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ كَذَا، فَإِنَّ أَجْرَهُ كَذَا، مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الثَّعْلَبِيُّ وَالْوَاهِدِيُّ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، وَالزَّمَخْشَرِيُّ فِي آخِرِهَا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: أَظُنُّ الزِّنَادِقَةَ وَضَعُوهَا.

وَالَّذِي صَحَّ فِي أَحَادِيثِ السُّورِ: حَدِيثُ «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ»، وَأَنَّهُ لَمْ يَنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ مِثْلُهَا، وَحَدِيثُ «الْبَقَرَةِ» وَ«آلِ عِمْرَانَ»: أَنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، وَحَدِيثُ «آيَةِ الْكَرْسِيِّ»، وَأَنَّهَا سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، وَحَدِيثُ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ «سُورَةِ الْبَقَرَةِ»، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ، وَحَدِيثُ «سُورَةِ الْبَقَرَةِ» لَا تُقْرَأُ فِي بَيْتٍ فَيَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ، وَحَدِيثُ الْعَشْرِ آيَاتٍ مِنْ

(١) «جواب أهل العلم والإيمان» (ص ١١٣).

(٢) «جواب أهل العلم والإيمان» (ص ١٣٣، ١٣٤).

أَوَّل «سورة الكهف»، مَنْ قَرَأَهَا عَصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ، وحديث ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَأَنَّهَا تَعْدُلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَصِحَّ فِي فَضَائِلِ سُورَةٍ مَا صَحَّ فِيهَا، وحديث «المعوذتين»، وَأَنَّهُ مَا تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمَثْلِهِمَا، وقوله ﷺ: (أُنزِلَ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يَرِ مِثْلُهُنَّ، ثُمَّ قَرَأَهَا).

ويُلي هذه الأحاديث - وهو دونها في الصَّحَّة - حديث ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل نصف القرآن، وحديث ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن، وحديث ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ أَمْلُكُ﴾ هي المنجية مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. ثم سائر الأحاديث بعد؛ كقوله: مَنْ قَرَأَ سُورَةَ كَذَا أُعْطِيَ ثَوَابَ كَذَا، فموضوعة على رسول الله ﷺ، وقد اعترف بوضعها واضعها، وقال: قَصَدْتُ أَنْ أَشْغَلَ النَّاسَ بِالْقُرْآنِ عَنْ غَيْرِهِ، وقال بعض جهلاء الوضّاعين في هذا النوع: نحن نكذب لرسول الله ﷺ، ولا نكذب عليه، ولم يعلم هذا الجاهل أَنَّهُ مَنْ قَالَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِ، وَاسْتَحَقَّ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ^(١). اهـ كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

❏ وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ هُنَا: أَنَّ فَضْلَ الْقِرَاءَةِ لِهَذِهِ السُّورِ وَغَيْرِهَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ التَّالِي لِتِلْكَ السُّورِ، فَالْقِرَاءَةُ بِتَدْبِيرٍ أَفْضَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ بِلا تَدْبِيرٍ، فَقَدْ يَكُونُ حَالُ بَعْضِ النَّاسِ فِي قِرَاءَةِ بَعْضِ السُّورِ وَمَا يَصَاحِبُهُمْ حَالُ الْقِرَاءَةِ مِنْ خَشَوْعٍ وَتَدْبِيرٍ وَتَفْهَمٍ لِكَلَامِ اللَّهِ وَعَزْمٍ صَادِقٍ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ خَيْرًا وَأَفْضَلَ مِنْ حَالِ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَيْسُوا كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتِ السُّورُ الَّتِي يَقْرُؤُهَا هَؤُلَاءِ أَفْضَلَ، بَلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ الْوَاحِدَ يَخْتَلِفُ حَالُهُ؛ فَقَدْ يَفْعَلُ الْعَمَلَ الْمَفْضُولَ عَلَى وَجْهِ كَامِلٍ، فَيَكُونُ بِهِ أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ أَعْمَالِهِ الْفَاضِلَةِ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان بعضُ الشيوخ يَرْقِي بِ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وكان لها بركة عظيمة، فيرقي بها غيره، فلا يحصل ذلك، فيقول: ليس ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ تَنْفَعُ كُلَّ أَحَدٍ»^(٢).

(١) «المنار المنيف» (ص ١١٥ - ١١٧).

(٢) «جواب أهل العلم والإيمان» (ص ١٤١).

وإنَّما اختلفَ أثرُ هاتينِ القراءَتينِ مع أنَّ السُّورَةَ المقروءَةَ واحدةٌ؛ بسببِ اختلافِ ما قامَ بالقلبِ مِنْ صدقٍ وإخلاصٍ، وتدبُّرٍ ويقينٍ، ورغبةٍ وخشوعٍ. واللهُ المرجوُّ أن يوفِّقنا لتحقيقِ ذلك وحسنِ القيامِ به، فهو تبارك وتعالى وحده الموفِّقُ لكلِّ خيرٍ.



وَسَطِيَّةُ أَهْلِ الْقُرْآنِ

مَرَّ معنا أَنَّ خَيْرَ الذِّكْرِ وَأَجَلَّهُ وَأَفْضَلُهُ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَمَرَّ معنا فَضْلُ حَمَلَتِهِ؛ فَهُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ لِحَمَلَةَ الْقُرْآنِ صِفَاتٍ جَلِيلَةً، وَنَعَوَاتًا كَرِيمَةً، وَهِيَ كَثِيرَةٌ جَدًّا، إِلَّا أَنَّ أَهَمَّ نَعَوْتِهِمْ وَأَجَلَّ صِفَاتِهِمْ وَأَبْرَزَ عَلَامَتِهِمُ التَّوَسُّطُ وَالاعتِدَالُ؛ وَذَلِكَ بِلِزُومِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ، دُونَ غُلُوٍّ أَوْ جَفَاءٍ، وَدُونَ إِفْرَاطٍ أَوْ تَفْرِيطٍ، أَوْ زِيَادَةٍ أَوْ تَقْصِيرٍ.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ - أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ - أُمَّةً وَسَطًا؛ أَي: خِيَارًا عَدُولًا، خَصَّهَا بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ، وَأَقْوَمِ الْمَنَاجِ، وَأَوْضَحِ الْمَذَاهِبِ، وَجَعَلَ كِتَابَهُ الْمُبِينِ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَيَدْعُو لِلَّتِي هِيَ أَرْشَدُ وَأَحْكَمُ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وَلَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لِيَشْقَى بِهِ النَّاسُ، وَإِنَّمَا أَنْزَلَهُ لِيَسْعَدُوا بِهِ سَعَادَةً لَا شِقَاءَ بَعْدَهَا، وَلِيَهْتَدُوا بِهِ هِدَايَةً لَا ضَلَالَ بَعْدَهَا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿طه﴾﴾، وَقَدْ ذَكَرَ الْمَفْسُورُونَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، قَامَ بِهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ خَيْرَ قِيَامٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: مَا أُنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى مُحَمَّدٍ إِلَّا لِيَشْقَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى﴾؛ أَي: فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَهُ هَؤُلَاءِ الْمُبْطِلُونَ، بَلْ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ بُوْحِيهِ، وَالْفَقْهَ فِي تَنْزِيلِهِ، فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا.

قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ قَالَ: «لَا وَاللَّهِ، مَا جَعَلَهُ شَقَاءً، وَلَكِنْ جَعَلَهُ رَحْمَةً وَنُورًا وَدَلِيلًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(١).

❏ فَحَقِيقٌ بِحَامِلِ الْقُرْآنِ، بَلْ وَبِكُلِّ مُسْلِمٍ، أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ، فَيُحِلَّ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ، وَيُصَدِّقَ بِأَخْبَارِهِ، وَلَا يَتَجَاوَزَهُ بِغُلُوٍّ وَإِفْرَاطٍ، أَوْ يَقْصُرَ عَنْهُ بِجَفَاءٍ وَتَفْرِيطٍ، بَلْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ وَسْطًا.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، وَابِيهَقِي فِي «شُعْبِ الْإِيمَانِ»، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْئَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَلَا الْجَافِي عَنْهُ، وَذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ)، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ^(٢).

فَوَصَفَ ﷺ أَهْلَ الْقُرْآنِ حَقًّا وَحَمَلَتْهُ صَدَقًا الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْإِجْلَالَ وَالْإِكْرَامَ: بِأَنْ حَالَهُمْ فِيهِ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ إِكْرَامَ هَؤُلَاءِ - أَيِ: أَهْلِ هَذَا الْوَصْفِ - مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ هَذِهِ دَرَجَةٌ مُنِيفَةٌ، وَمَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ؛ تَبَوَّأَهَا هَؤُلَاءِ بِسَبَبِ لَزُومِهِمُ الْقُرْآنَ، وَعَدَمِ تَجَانُفِهِمْ عَنْهُ بِغُلُوٍّ أَوْ جَفَاءٍ، أَوْ زِيَادَةٍ أَوْ تَقْصِيرٍ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَيَانِ مَعْنَى حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُنْتَقَدِمِ: «فَالْغَالِي: الْمُفْرِطُ فِي اتِّبَاعِهِ حَتَّى يُخْرِجَهُ إِلَى إِكْفَارِ النَّاسِ مِثْلَ الْخَوَارِجِ، وَالْجَافِي عَنْهُ: الْمَضِيعُ لِحُدُودِهِ الْمُسْتَحْفُتِ بِهِ».

وَفِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُ رَابِعِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ دِينَ اللَّهِ بَيْنَ الْغَالِي وَالْمَقْصُرِ، فَعَلَيْكُمْ بِالنُّمْرِقَةِ الْوَسْطَى؛ فَإِنَّ بِهَا يَلْحَقُ الْمَقْصُرُ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي».

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٦٧/٥).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (٤٨٤٣)، و«شعب الإيمان» رقم (٢٤٣١)، وحسنه الذهبي في «ميزان الاعتدال» (١١٨/٢)، وابن حجر في «التلخيص الحبير» (٥٦٥/٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢١٩٩).

وهو كلامٌ حسنٌ عظيمُ الفائدة، قال فيه ثعلبُ اللغوي المشهور: «ما رُويَ في التوسط أحسنُ من قولِ أميرِ المؤمنين عليٍّ (عليه السلام) - يشير إلى كلامه هذا المتقدم - (١)».

إنَّ الشيطانَ أحرصُ ما يكونُ على صرفِ المسلم عن الجادة وإبعاده عن الصراطِ المستقيم، إمَّا إلى غُلُوٍّ أو إلى جفاء، ولا يبالي عدوُّ الله بأيِّ الأمرين منهما ظَفِرَ؛ قال بعضُ السلف: «ما أمرَ الله تعالى بأمرٍ إلَّا وللشيطانِ فيه نرغتان: إمَّا إلى تفريطٍ وتقصير، وإمَّا إلى مجاوزةٍ وغُلُوٍّ، ولا يبالي بأيِّهما ظَفِرَ» (٢)؛ وَلِعَدُوُّ الله في هذا الأمرِ مكرٌّ عجيب، وكيدٌ غريب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم «إغاثة اللهفان، من مصايد الشيطان»: «ومن كيده - أي: الشيطان؛ أعاذنا الله وإياكم منه - أَنَّهُ يُشَامُ النفسَ، حتى يعلم أيَّ القوتَيْنِ تغلبُ عليها: قوَّةُ الإقدام والشجاعة، أم الانكفاف والإحجام والمهانة، فإن رأى الغالبَ على النفسِ المهانة والإحجام، أخذَ في تشبيطه، وإضعافِ هِمَّتِهِ وإرادته عن المأمور به، وثَقَلَهُ عليه، فَهَوَّنَ عليه تَرْكُهُ حتى يتركه جملةً، أو يُقَصِّرَ فيه ويتهاون. وإن رأى الغالبَ عليه قُوَّةُ الإقدام وعلوُّ الهِمَّةِ، أخذَ يُقَلِّلُ عنده المأمورَ به، ويوهِّمُهُ أَنَّهُ لا يكفيه، وَأَنَّهُ يحتاجُ معه إلى مبالغةٍ وزيادة، فيَقْصُرُ بالأوَّلِ، ويتجاوزُ بالثاني... وقد اقتطع أكثرُ الناسِ - إلَّا أقلَّ القليل - في هَذَيْنِ الوادِيَيْنِ: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدِّي، والقليلُ منهم جدًّا الثابتُ على الصراطِ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه...» (٣).

ثم أطلَّ رَحِمَهُ اللهُ في ضربِ الأمثلة على ذلك، ثم قال: «وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا لو تتبَّعناه، لبلغَ مبلغًا كثيرًا» (٤).

(١) نقل كلام أبي عبيد السابق وأثر علي وتعليق ثعلب عليه الحافظ السخاوي في رسالته: «الجواب الذي انضبط» (ص ٣٧ - ٣٩).

(٢)(٣) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/١٣٦).

(٤) «إغاثة اللهفان» (١/١٣٨).

وقد صحَّ في الحديث عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبَلُّغُوا)^(١)؛ أَي: عَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ مِنَ الْأُمُورِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَالْقَصْدُ هُوَ: الْوَسْطُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ - كَمَا فِي «الْمُسْنَدِ» وَغَيْرِهِ -: (عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُشَادَّ الدِّينَ يَغْلِبْهُ)^(٢)، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «الْاِقْتِصَادُ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي بِدْعَةٍ»^(٣).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَدَيْنُ اللَّهِ بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَخَيْرُ النَّاسِ النَّمُطُ الْأَوْسَطُ، الَّذِينَ ارْتَفَعُوا عَنْ تَقْصِيرِ الْمَفْرُطِينَ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِغُلُوِّ الْمَعْتَدِينَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْأَمَّةَ وَسَطًا، وَهِيَ الْخِيَارُ الْعَدْلُ، لَتَوْسُطُهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْمَذْمُومَيْنِ، وَالْعَدْلُ هُوَ الْوَسْطُ بَيْنَ طَرَفِي الْجَوْرِ وَالتَّفْرِيطِ، وَالْآفَاتُ إِنَّمَا تَتَطَرَّقُ إِلَى الْأَطْرَافِ، وَالْأَوْسَاطُ مَحْمِيَّةٌ بِأَطْرَافِهَا؛ فَخِيَارُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»^(٤).

فَنَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَأَنْ يَجَنِّبَنَا الزَّلَلَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِلْعَمَلِ بِكِتَابِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.



(١) رواه البخاري رقم (٦٤٦٣).

(٢) «المسند» (٥/٣٥٠، ٣٦١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٠٨٦).

(٣) رواه اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١/٨٨).

(٤) «إغاثة اللفهان» (١/٢٠١).

أَفْضَلِيَّةُ الْقُرْآنِ عَلَى مُجَرَّدِ الذِّكْرِ

إنَّ ملازمةَ ذكرِ الله دائماً هي أفضلُ ما شغَلَ العبدُ به وقتهُ، وصرفَ فيه أنفاسه، بعدَ قيامِهِ بفرائضِ الله التي افترضَهَا على عباده. والذِّكْرُ شاملٌ لكلِّ قولٍ صالحٍ يحبُّهُ الله ويرضاه مِنْ تلاوةٍ لكلامِ الله، أو تسبيحٍ أو تحميدٍ، أو تكبيرٍ أو تهليلٍ، أو دعاءٍ أو غيرِ ذلك، وما مِنْ شكٍّ في أنَّ أفضلَ هذه الأذكارِ وأجلَّها وأعظمُها وأرفعُها قدرًا قراءةُ القرآنِ الكريمِ كلامِ رَبِّ العالمين؛ كما في «صحيح مسلم»، عن النبي ﷺ: (أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)^(١)، وفي لفظٍ كما في «المسند» للإمام أحمد، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ، وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)^(٢).

وفي «جامع الترمذي» - وحسنه - من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي، أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ)^(٣)، وكما في الحديث الذي في «السنن»، في الذي سأل النبي ﷺ، فقال: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخِذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا، فَعَلَّمَنِي مَا يَجْزِيْنِي مِنْهُ فِي صَلَاتِي، قَالَ: (قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)^(٤).

ولهذا كانتِ القراءةُ واجبةً في الصلاة، ولا يُعَدَّلُ عنها إلى الذِّكْرِ إِلَّا عندَ العجزِ عن ذلك؛ وهذا واضحٌ في الدَّلالةِ على أفضليَّةِ قراءةِ القرآن؛

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢١٣٧).

(٢) «المسند» (٢٠/٥).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٢٩٢٦).

(٤) سيأتي تخريجه (ص ١٤٣).

ويدلُّ على ذلك أيضًا أنَّ القراءة يُشترطُ لها الطهارة الكبرى دون الذِّكْرِ؛ فإنَّه لا يُشترطُ فيه ذلك، وما لم يُشرعْ إلَّا على الحال الأكمل فهو أفضل؛ كما أنَّ الصلاة لَمَّا اشترطَ لها الطهارتان كانت أفضلَ مِنْ مجردِ القراءة؛ كما قال النبي ﷺ: (اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَعَلِّمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ)^(١)؛ ولهذا نصَّ العلماءُ على أنَّ أفضلَ تطوُّعِ البدنِ الصلاةُ، وأيضًا فما يُكتَبُ فيه القرآنُ لا يَمَسُّه إلَّا طاهرٌ دون ما يُكتَبُ فيه الذِّكْرُ؛ فإنَّه لا يُشترطُ فيه ذلك.

فهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ قراءة القرآن الكريم أفضلُ من التسبيح والتحميد والتكبير وغير ذلك مِنَ الأذكار. هذا مِنْ حيثِ الجملة؛ وإلَّا فإنَّه قد يقترن بالعمل المفضول ما يجعله أفضلَ.

وقد أوضح هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وَبَيَّنَّه بَيَانًا وَافِيًا فِي جَوَابِ لَهُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ^(٢)، قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

«وتحقيقُ ذلك: أنَّ العملَ المفضولَ قد يقترنُ به ما يُصَيِّرُهُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ نَوْعَانِ:

أحدهما: ما هو مشروعٌ لجميعِ الناسِ.

والثاني: ما يختلفُ باختلافِ أحوالِ الناسِ.

أما الأوَّلُ: فمثلُ أَنْ يَقْتَرِنَ إمَّا بِزَمَانٍ أَوْ بِمَكَانٍ أَوْ عَمَلٍ يَكُونُ (بِهِ) أَفْضَلُ؛ مِثْلُ مَا بَعْدَ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ وَنَحْوَهُمَا مِنْ أَوْقَاتِ النُّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ الْقِرَاءَةَ وَالذِّكْرَ وَالِدُعَاءَ أَفْضَلُ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَكَذَلِكَ الْأَمْكَنَةُ الَّتِي نُهِيَ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهَا؛ كَالْحَمَّامِ وَأَعْطَانِ الْإِبْلِ؛ فَالذِّكْرُ وَالِدُعَاءُ فِيهَا أَفْضَلُ،

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٧٦/٥، ٢٨٢)، وابن ماجه رقم (٢٧٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٩٥٢).

(٢) انظر: «الفتاوى الكبرى» (١/٢٣٣ وما بعدها).

وكذلك الجُنُبُ الذِّكْرُ في حَقِّهِ أَفْضَلُ، فإذا كُرِهَ الأَفْضَلُ في حالِ حصولِ مفسدةٍ كان المفضولُ هناك أَفْضَلَ، بل هو المشروع.

وكذلك حالُ الركوعِ والسجود، فإنه قد صحَّ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا؛ أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)^(١).

وقد اتفق العلماء على كراهة القراءة في الركوع والسجود، وتنازعوا في بطلان الصلاة بذلك على قولين هما وجهان في مذهب الإمام أحمد؛ وذلك تشريفاً للقرآن وتعظيماً له ألا يُقْرَأَ في حال الخضوع والذل، وما بعد التشهد هو حال الدعاء المشروع بفعل النبي ﷺ وأمره، والدعاء فيه هو الأَفْضَلُ، بل هو المشروع دون القراءة والذكر، وكذلك حال الطَّوَافِ، وبِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وعند رمي الجِمَارِ؛ المشروع هناك هو الذكر والدعاء.

ثم ذَكَرَ ﷺ النُّوعَ الثَّانِي: وهو أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ عَاجِزًا عَنِ الْعَمَلِ الأَفْضَلِ، إمَّا عَاجِزًا عَنْ أَصْلِهِ؛ كَمَنْ لَا يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، وَلَا يَسْتَطِيعُ حِفْظَهُ؛ كَالْأَعْرَابِيِّ الَّذِي سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، أَوْ عَاجِزًا عَنْ فِعْلِهِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ مَعَ قَدْرَتِهِ عَلَى فِعْلِ الْمَفْضُولِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ... إِلَى أَنْ قَالَ:

وَلَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ أَفْضَلَ يُشْرَعُ لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يُشْرَعُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا هُوَ أَفْضَلُ لَهُ؛ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ الصَّدَقَةُ أَفْضَلَ لَهُ مِنَ الصِّيَامِ، وَبِالْعَكْسِ، وَإِنْ كَانَ جَنْسُ الصَّدَقَةِ أَفْضَلَ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ الْحَجُّ أَفْضَلَ لَهُ مِنَ الْجِهَادِ كَالنِّسَاءِ، وَكَمَنْ يَعْجِزُ عَنِ الْجِهَادِ، وَإِنْ كَانَ جَنْسُ الْجِهَادِ أَفْضَلَ... .

ثم قَالَ: إِذَا عُرِفَ هَذَا، فَيَقَالُ: الْأَذْكَارُ الْمَشْرُوعَةُ فِي أَوْقَاتٍ مَعْيَنَةٍ، مِثْلُ مَا يَقَالُ عِنْدَ جَوَابِ الْمُؤَدِّنِ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ، وَكَذَلِكَ

(١) رواه مسلم رقم (٤٧٩).

ما سنَّه النبي ﷺ فيما يقال عند الصباح والمساء وإتيان المضطجع هو مقدّم على غيره، وأمّا إذا قام من الليل، فالقراءة له أفضل إذا أطاقها، وإلّا فليعمل ما يطيق، والصلاة أفضل منهما؛ ولهذا نقلهم عند نسخ وجوب قيام الليل إلى القراءة؛ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِ أَلِيلٍ وَيَصْفَهُ وَتُكَلِّمُ طَائِفَةً مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُفَضِّلُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]. اهـ.

وبهذا التحقيق الذي ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يَتَبَيَّنُ القول الفصل في هذه المسألة العظيمة، فتلاوة القرآن الكريم هي أفضل الأذكار، ومقدّمة على التسييح والتحميد، والتكبير والتهليل، والدعاء والاستغفار، وغير ذلك من الأدعية والأذكار، إلّا أنّ هناك حالات معينة تقترون بالعمل المفضول يكون بها أفضل من غيره، وقد أشار شيخ الإسلام في تحقيقه المتقدّم إلى أمثلة عديدة لذلك.

روى الطبري عن عمرو بن أبي سلمة، قال: «سألت الأوزاعي عن قراءة القرآن أعجب إليك أم الذّكر؟ فقال: سلّ أبا محمّد - يعني: سعيداً - فسألتُهُ؟ فقال: بل القرآن؛ فقال الأوزاعي: إنّهُ ليس شيءٌ يعدل القرآن، ولكنّ إنّما كان هذِي مَنْ سَلَفَ يذكرون الله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل الغروب»^(١). فأشار رَحِمَهُ اللهُ إلى أنّ القرآن هو أفضل الأذكار ولا يعدله شيء، لكنّ الأذكار الواردة في الصباح والمساء وأدبار الصلوات وغيرها تكون في وقتها أفضل، والله أعلم.



(١) أورده القرطبي في «التذكار في أفضل الأذكار» (ص ٥٩)، وظنّ أن سعيداً هو ابن المسيّب، والصواب: أنه سعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي، وهو من فقهاء أهل الشام ومفتيهم، قال الإمام أحمد: «هو والأوزاعي عندي سواء». انظر: «تهذيب الكمال» (١٠/٥٤٢).

فَضْلُ طَلَبِ الْعِلْمِ

ما مِنْ شَيْءٍ فِي أَنْ الشَّغْلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، وَمَعْرِفَةِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَدَارِسَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَدَبُّرِهِ، وَمَعْرِفَةِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسِيرَتِهِ وَأَخْبَارِهِ: هُوَ خَيْرُ الذِّكْرِ وَأَفْضَلُهُ، وَمَجَالِسُهُ خَيْرُ الْمَجَالِسِ، وَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ مَجَالِسِ ذِكْرِ اللَّهِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ؛ لِأَنَّهَا دَائِرَةٌ بَيْنَ فَرَضٍ عَيْنٍ أَوْ فَرَضٍ كَفَايَةٍ، وَالذِّكْرُ الْمَجْرَدُ تَطَوُّعٌ مُحَضَّرٌ.

ولهذا فقد ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَفْضِيلِ الْعِلْمِ وَتَقْدِيمِهِ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَتَقْدِيمِ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، أَنَّهُ قَالَ: (وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ)؛ خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ، وَغَيْرُهُمْ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ ^(١).

وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ مَثَلًا بَدِيعًا يَتَّضِحُ مِنْ خِلَالِهِ مَدَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْعَابِدِ؛ حَيْثُ شَبَّهَ ﷺ الْعَالِمَ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؛ أَيِ: لَيْلَةِ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَالتِّي فِيهَا يَكُونُ نَهَايَةُ كَمَالِ الْقَمَرِ وَتَمَامُ نُورِهِ، وَشَبَّهَ الْعَابِدَ بِالْكَوَاكِبِ، وَفِي هَذَا التَّشْبِيهِ سِرٌّ لَطِيفٌ نَبَّهَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ.

يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالسِّرُّ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الْكَوَكَبَ ضَوْؤُهُ لَا يَعْدُو نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَإِنَّ نُورَهُ يُشْرِقُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ جَمِيعًا فَيَعْمَهُمْ نُورُهُ، فَيَسْتَضِيئونَ بِنُورِهِ، وَيَهْتَدُونَ بِهِ فِي سَبِيلِهِمْ، وَإِنَّمَا قَالَ: عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَلَمْ يَقُلْ: عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ؛ لِأَنَّ الْكَوَاكِبَ هِيَ الَّتِي لَا تَسِيرُ وَلَا يُهْتَدَى بِهَا، فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْعَابِدِ الَّذِي نَفْعُهُ مَقْصُورٌ عَلَى نَفْسِهِ» ^(٢).

(١) «المسند» (١٩٦/٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٦٤١)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٦٨٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٢٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٩٧).

(٢) شرح حديث أبي الدرداء رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «طلب العلم» (ص ٣٣).

فَدَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى تَفْضِيلِ الْعِلْمِ عَلَى الْعِبَادَةِ تَفْضِيلًا بَيِّنًا، وَثَبَّتَ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي «مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ» وَغَيْرِهِ، مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
أَنَّهُ قَالَ: (فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرٌ دِينَكُمْ الْوَرَعُ) ^(١).

ومما يدلُّ على تفضيل العلم على جميع النوافل والمستحبات، بما فيها
الذِّكْرُ: أَنَّ الْعِلْمَ يَجْمَعُ جَمِيعَ فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ الْمُتَفَرِّقَةِ؛ كَمَا رُوِيَ فِي الْأَثَرِ:
(تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ خَشْيَةٌ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتُهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ
جِهَادٌ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ
وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سَبِيلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الْأَنْسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي
الْغُرْبَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخُلُوعِ، وَالذَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسَّلَاحُ عَلَى
الْأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخْلَاءِ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا، فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً
وَأَئِمَّةً، تُقْتَصَّرُ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِأَفْعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي
خُلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنَحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، وَحِيتَانُ الْبَحْرِ
وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُهُ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمَصَابِيحُ
الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، يَبْلُغُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ وَالدرَجَاتِ الْعُلَا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ، وَمَدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ الْقِيَامَ، وَبِهِ تُوَصَّلُ
الْأَرْحَامُ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، وَهُوَ إِمَامُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ
السُّعْدَاءُ وَيُحَرِّمُهُ الْأَشْقِيَاءُ) ^(٢).

وقد جاء عن السلف الصالح رحمهم الله في تفضيل العلم آثار كثيرة ^(٣):

(١) «المستدرک» (٩٢/١)، ورواه البزار في «مسنده» رقم (٢٩٦٩) من حديث حذيفة بن اليمان،
وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٢١٤).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٦٥/١) من حديث معاذ ﷺ مرفوعًا وموقوفًا
بأسانيد لا تصح، واستحسن ابن عبد البر معناه، فقال: «وهو حديث حسن جدًا، ولكن ليس
له إسناد قوي».

(٣) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٩٩/١) وما بعدها، «الفقيه والمتفقه» للخطيب
البغدادي (٤٩/١، ٦٣)، وشرح حديث أبي الدرداء في «طلب العلم» (ص ٣٦، ٣٧).

- يقول الثوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما يُرَادُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بشيءٍ أفضلَ مِنْ طَلَبِ العلم، وما طُلِبَ العلمُ في زمانٍ أفضلَ منه اليوم».

- وقال مَيْمُونُ بن مِهْرَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ مَثَلَ الْعَالَمِ فِي الْبَلَدِ كَمَثَلِ عَيْنٍ عَذْبَةٍ فِي الْبَلَدِ».

- وقال الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْعَالَمُ خَيْرٌ مِنَ الزَاهِدِ فِي الدُّنْيَا الْمُجْتَهِدِ فِي الْعِبَادَةِ، يَنْشُرُ حِكْمَةَ اللَّهِ؛ فَإِنْ قَبِلْتَ حَمْدَ اللَّهِ، وَإِنْ رُدَّتْ حَمْدُ اللَّهِ».

- وقال الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ».

- وسئل الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: أَنْ أَصْلِيَ بِاللَّيْلِ تَطَوُّعًا، أَوْ أَجْلِسَ أَنْسَخَ الْعِلْمِ؟ قَالَ: إِذَا كُنْتَ تَنْسَخُ، فَأَنْتَ تَعَلَّمُ بِهِ أَمْرَ دِينِكَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ». وقال أيضًا: «الْعِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ».

وإذا كان أهل العلم بهذه المنزلة الرفيعة والدرجة العالية، فإنَّ الواجبَ على مَنْ سواهم أَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ قَدْرَهُمْ، وَيَعْرِفَ لَهُمْ مَكَانَتَهُمْ، وَيُنْزِلَهُمْ مَنَازِلَهُمْ؛ فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالَمِنَا [حَقَّهُ])^(١).

❏ هذا، وَإِنَّ مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَةِ قَدْرِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَفْظِ مَكَانَتِهِمِ الْإِدْعَاءَ بِأَنْ عُلَمَاءَ الْأُمَّةِ وَفُقَهَاءَ الْمِلَّةِ وَأَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِيهَا لَا يَفْقَهُونَ غَيْرَ عِلْمِ الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ؛ مِمَّا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ الْحُطُّ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَالتَّقْلِيلُ مِنْ قَدْرِهِمْ، وَصَرْفُ النَّاسِ عَنِ الْإِفَادَةِ مِنْهُمْ، وَهِيَ مَقَالَةٌ فَاسِدَةٌ وَكَلِمَةٌ خَطِيرَةٌ، نَشَأَتْ قَدِيمًا عِنْدَ أَرْبَابِ الْبَدْعِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ وَارِثٌ، وَفِي الْغَالِبِ أَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ لَا يَسْكُمُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ تَوْجُّهَيْنِ:

• إِمَّا تَوْجُّهٌ صَوْفِيٌّ، يَنْحَى بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ إِلَى الْحُطِّ مِنْ قَدْرِ الْعِلْمِ وَالتَّنْقِصِ

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/٢٣٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٢١٩٦).

من مكانته؛ لِيُخْلَصَ من ذلك إلى تفضيلِ العبادة والذكرِ عليه، وربَّما استشهدَ بعضُ هؤلاءِ على هذا بما يُحْكِي عن رابعةِ العدويَّةِ أنَّها أتت ليلةً بالقدسِ تُصَلِّي حتى الصباح، وإلى جانبها بيتٌ فيه فقيهٌ يُكرِّرُ على بابِ الحيضِ إلى الصباح، فلمَّا أصبحت رابعةً، قالت له: يا هذا، وصلِ الواصلونَ إلى ربِّهم، وأنتِ مشغولٌ بحيضِ النساءِ؟^(١). ولهذا دأبَ هؤلاءِ على النهي عن العلم والتحذيرِ منه، وعدَّه آفةً من الآفات، كما يقولُ أحدهم: «آفةُ المُريدِ ثلاثُ: التزوُّجُ، وكتابةُ الحديث، والأسفار».

• وإما توجُّهُ فكريٍّ، ينحى بهذه المقالة إلى إقحامِ الناسِ في متهاتٍ فكريةٍ، وتخرُّصاتٍ عقليةٍ، وظنونٍ وأوهامٍ، وهذا يكثرُ عند أهلِ الكلامِ الباطلِ كالمعتزلة وغيرهم.

روي عن إسماعيل ابنِ عُلَيَّة، قال: حدَّثني اليَسَعُ، قال: تَكَلَّمَ واصلُ بن عطاءٍ يومًا، فقال عمرو بن عُبيد: «ألا تسمعون؟ ما كلامُ الحسنِ وابنِ سيرينَ عندما تسمعونَ إلَّا خرقةَ حيضٍ ملقاة».

وروي أنَّ زعيمًا من زعماءِ أهلِ البدع كان يريدُ تفضيلَ الكلامِ على الفقه، فكان يقول: «إنَّ علمَ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ جملتهُ لا يخرجُ من سراويلِ امرأة». ذكر هذا والذي قبله الشاطبيُّ في كتابه «الاعتصام»^(٢)، ثم قال: «هذا كلامُ هؤلاءِ الزائغين، قاتلَهُمُ اللهُ».

ولا ريب أنَّ هذه توجُّهاتٌ متحلِّلةٌ من ربقةِ العلم، مستحكمةٌ في الهوى والباطل، فنسألُ الله أن يحفَظَنَا من الأهواءِ المطغية، والفتنِ المُردية، بمنِّهِ وكرَمِهِ، كما نسألُهُ أن يحفظَ علينا علماءنا، الذين هم أمانُ الشريعةِ وحُفَاطُ الدِّينِ، وأنصارُ المِلَّةِ، وأن يجزيهم عن الإسلامِ وأهلِهِ خيرَ الجزاء، وأن يُعَلِّي قَدْرَهُم في الدنيا والآخرة، وأن ينصُرَ بهم دينه، ويُعَلِّيَ بهم كلمته، إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٩٦/١١).

(٢) (٢٣٩/٢).

أَرْكَانُ التَّعَبُّدِ الْقَلْبِيَّةِ لِلذِّكْرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ

إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ﷻ والتقربَ إليه بما يحبُّ من صالح الأعمال والأقوال لا يكونُ مقبولاً عند الله إلَّا إذا أقامه العابدُ على أركان ثلاثة؛ وهي: الحبُّ، والخوفُ، والرجاءُ.

فهذه الأركان الثلاثة هي أركانُ التعبُّدِ القلبية التي لا قبولَ لأيِّ عبادةٍ إلَّا بها، فالله جلَّ وعلا يُعَبِّدُ حُبًّا فيه، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه، وقد جَمَعَ اللهُ تبارك وتعالى بين هذه الأركان الثلاثة في «سورة الفاتحة»، التي هي أفضلُ سورِ القرآن؛ فقوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه المَحَبَّةُ؛ لأنَّ الله مُنْعِمٌ، والمنعمُ يُحِبُّ على قدر إنعامه؛ ولأنَّ الحمدَ هو المدحُ مع الحبِّ للممدوح. وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فيه الرجاءُ؛ فالمؤمنُ يرجو رحمةَ الله، ويطمعُ في نيلها، وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه الخوفُ، ويومُ الدِّينِ هو يومُ الجزاء والحساب. ثمَّ قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أي: أعبدُكَ يا ربِّ بما مضى بهذه الثلاث: بمحبَّتِكَ ورجائِكَ وخوفِكَ، فهذه الثلاثُ هي أركانُ العبادة التي عليها قيامُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا تقومُ إلَّا على المحبَّة التي دلَّ عليها قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والرجاء الذي دلَّ عليه قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، والخوف الذي دلَّ عليه قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١).

وقد جَمَعَ اللهُ أيضًا بين هذه الأركان في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]،

(١) انظر: مؤلَّفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية (ص ٣٨٢، ٣٨٣)).

فَإِنَّ ابْتِغَاءَ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ هُوَ التَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِحُبِّهِ وَفِعْلٍ مَا يَحِبُّهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾؛ فَذَكَرَ الْحُبَّ وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ^(١)، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وَلِذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ فِي عِبَادَتِهِ وَذِكْرِهِ لِلَّهِ جَامِعًا بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ: الْمَحَبَّةِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَهِيَ - كَمَا وَصَفَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - مُحَرِّكَاتُ الْقُلُوبِ^(٢)، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دُونَ بَاقِيهَا؛ كَأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ دُونَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، أَوْ يَعْبُدَ اللَّهَ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ، أَوْ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ؛ وَلِذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: «مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زَنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مَرْجِيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحَّدٌ»^(٣).

وَأَعْظَمُ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ وَأَجْلُهَا: هُوَ الْحُبُّ، حُبُّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، الَّذِي هُوَ أَصْلُ دِينِ الْإِسْلَامِ وَقُطْبُ رِجَالِهِ، وَالْمَحَبَّةُ مَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ، فِيهَا يَتَنَافَسُ الْمُتَنَافِسُونَ، وَإِلَيْهَا شَمَّرَ الْمُتَسَابِقُونَ، وَهِيَ قُوَّةُ الْقُلُوبِ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَقُرَّةُ الْعْيُونِ، وَرُوحُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، وَمَنْ لَمْ يَطْفَرْ بِهَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَحَيَاتُهُ كُلُّهَا شَقَاءٌ وَالْمَمِّ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَسْبَابًا عَظِيمَةً جَالِبَةً لِلْمَحَبَّةِ، فَقَالَ: «إِنَّ الْأَسْبَابَ الْجَالِبَةَ لِلْمَحَبَّةِ عَشْرَةٌ:

أَحَدُهَا: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّفَهُيمِ لِمَعَانِيهِ، وَمَا أُرِيدُ بِهِ.

الثَّانِي: التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ.

الثَّالِثُ: دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ؛ فَنَصِيْبُهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ عَلَى قَدْرِ هَذَا.

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ٤٦٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/٩٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/٨١).

الرابع: إثَارُ مَحَابِّهِ عَلَى مَحَابِّكَ عِنْدَ غَلَبَاتِ الْهَوَى.

الخامس: مطالعة القلبِ لأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَشَاهِدَتُهَا، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ

هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمِيَادِينِهَا.

السادس: مَشَاهِدَةُ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَنِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

السابع: وَهُوَ أَعْجَبُهَا؛ انْكَسَارُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

الثامن: الْخُلُوءُ وَقَتِ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، وَتِلَاوَةُ كِتَابِهِ، ثُمَّ خَتْمُ ذَلِكَ

بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ.

التاسع: مَجَالَسَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ، وَالتَّقَاطُطُ أَطْيَابِ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِمْ،

وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا إِذَا تَرَجَّحَتْ مَصْلَحَةُ الْكَلَامِ، وَعَلِمْتَ أَنَّ فِيهِ مَزِيدًا لِحَالِكَ وَمَنْفَعَةً لْغَيْرِكَ.

العاشر: مَبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال: «فَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْعَشْرَةِ وَصَلَ الْمُحِبُّونَ إِلَى مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ»^(١).

ثم مع المحبة يجبُ على العبد أن يكونَ خائفًا من الله، راجيًا له، راغبًا رَاهِبًا؛ إِنْ نَظَرَ إِلَى ذُنُوبِهِ وَعَدَلَ اللَّهُ وَشَدَّ عِقَابَهُ، خَشِيَ رَبَّهُ وَخَافَهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَى فَضْلِهِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ وَعَفْوِهِ الشَّامِلِ رَجَا وَطَمَعَ، إِنْ وَفَّقَ لَطَاعَةِ رَجَا مِنْ رَبِّهِ تَمَامَ النُّعْمَةِ بِقَبُولِهَا، وَخَافَ مِنْ رَدِّهَا بِتَقْصِيرِهِ فِي حَقِّهَا، وَإِنْ ابْتَلِيَ بِمَعْصِيَةِ رَجَا مِنْ رَبِّهِ قَبُولَ تَوْبَتِهِ وَمَحْوَاهَا، وَخَشِيَ - بِسَبَبِ ضَعْفِ التَّوْبَةِ وَالِالْتِفَاتِ لِلذَّنْبِ - أَنْ يُعَاقَبَ عَلَيْهَا، وَعِنْدَ النِّعَمِ وَالْمَسَارِّ: يَرْجُو اللَّهَ دَوَامَهَا، وَالزِّيَادَةَ مِنْهَا، وَالتَّوْفِيقَ لَشُكْرِهَا، وَيَخْشَى بِإِخْلَالِهِ بِالشُّكْرِ مِنْ سَلْبِهَا، وَعِنْدَ الْمَكَارِهِ وَالْمَصَائِبِ: يَرْجُو اللَّهَ دَفْعَهَا، وَيَنْتَظِرُ الْفَرَجَ بِحُلَّهَا، وَيَرْجُو أَيْضًا أَنْ يَشْبِيَهُ عَلَيْهَا حِينَ يَقُومُ بِوُظُفَةِ الصَّبْرِ، وَيَخْشَى مِنْ اجْتِمَاعِ الْمَصِيبَتَيْنِ فَوَاتِ الْأَجْرِ الْمَحْبُوبِ، وَحَصُولِ الْأَمْرِ الْمَكْرُوهِ؛ إِذَا لَمْ يُوَفَّقْ لِلْقِيَامِ بِالصَّبْرِ الْوَاجِبِ؛ فَالْمُؤْمِنُ الْمُوَحَّدُ مُلَازِمٌ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ لِلْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؛ وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ

وهو النافع، وبه تحضُّلُ السعادة، لكن يُخَشَى على العبدِ مِنْ خُلُقَيْنِ مذمومين: إمَّا أن يستولي عليه الخوفُ حتى يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أو يتجارى به الرَّجَاءُ حتى يَأْمَنَ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وعقوبته، ومتى بَلَغَتِ الحالُ بالعبدِ إلى هذا، فقد ضَيَّعَ واجبَ الخوفِ والرَّجَاءِ اللَّذَيْنِ هما مِنْ أَكْبَرِ أَصُولِ الدِّينِ، وَمِنْ أَعْظَمِ واجباته^(١).

إِنَّ الخوفَ المحمودَ الصادقَ هو: ما حالَ بين صاحبه وبين محارمِ الله، فإذا تجاوزَ ذلك خِيفَ منه أن يقعَ صاحبه في اليأسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ والقنوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. والرَّجَاءُ المحمودُ الصادقُ هو: الرَّجَاءُ الذي يكونُ مع عملٍ بطاعةِ الله على نورٍ مِنْ اللَّهِ، أمَّا إذا كان الرجلُ متماديًا في التفريطِ والخطايا، مُنْهَمَكًا في الذنوبِ والمعاصي، يرجو رَحْمَةَ اللَّهِ بلا عملٍ، فهذا هو الغرورُ والتمنيُّ والرَّجَاءُ الكاذبُ؛ ولذا قال بعضُ السَّلَفِ: «الخوفُ والرَّجَاءُ كجناحي الطائر: إذا استَوَيَا استوى الطيرُ وتَمَّ طيرانه، وإذا نَقَصَ أحدهما وَقَعَ فيه النَّقْصُ، وإذا ذهبَا صارَ الطائرُ في حدِّ الموت».

هذا، واللهُ الكريمُ أسألُ أن يُوفِّقَنَا لتحقيقِ هذه المقاماتِ العظيمة: المحبَّةِ والخوفِ والرَّجَاءِ، وأن يَجْعَلَنَا مِمَّنْ عَبَدَ اللَّهَ حُبًّا فيه، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه، وأن يُعِينَنَا على تكميلِ ذلكَ وحُسْنِ القيامِ به، إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، وهو أَهْلُ الرَّجَاءِ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(١) انظر: «القول السديد» لابن سعدي (ص ١١٩، ١٢٠).

ذِكْرُ اللَّهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ

إِنَّ مِنْ أَجَلِ الذِّكْرِ وَأَفْضَلِهِ ذِكْرَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ: بِمَا أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَبِمَا أَثْنَى عَلَيْهِ بِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ نِعَوَاتِ الْجَلَالِ، وَصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَأَنْوَاعِ الْمَحَامِدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

إِذْ إِنَّ الذِّكْرَ نَوْعَانِ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: ذِكْرُ أَسْمَاءِ الرَّبِّ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِهَا، وَتَنْزِيهُهُ سُبْحَانَهُ وَتَقْدِيسُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وَهَذَا أَيْضًا نَوْعَانِ:

* أَحَدُهُمَا: إِنْشَاءُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِهَا مِنَ الذَّاكِرِ، وَهَذَا النَّوْعُ هُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى الْحَثِّ عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَحَسَنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: (أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)^(١)، وَقَوْلُهُ ﷺ: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ)^(٢)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ لِلرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ)^(٣)، وَنَحْوُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ.

وَأَفْضَلُ هَذَا النَّوْعِ أَجْمَعُهُ لِلثَّنَاءِ وَأَعَمُّهُ؛ نَحْوُ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ

(١) تقدم تخريجه (ص ٨٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٠).

(٣) رواه البخاري رقم (٦٤٠٦)، ومسلم رقم (٢٦٩٤).

عَدَدَ خَلْقِهِ، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ؛ فهذا أفضل من مجرد: سبحان الله.

وكذلك قول: الحمد لله عَدَدَ ما خَلَقَ، والحمد لله مِلءَ ما خَلَقَ، والحمد لله عَدَدَ ما في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، والحمد لله مِلءَ ما في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ؛ فهذا أفضل من مجرد قول: الحمد لله.

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن جُوَيْرِيَةَ رضي الله عنها، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: (مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا؟) قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وَزَنْتَ بِمَا قُلْتُ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ)»^(١).

وروى الإمام أحمد، والنسائي، والطبراني، والحاكم، وغيرهم، بإسناد جيد، عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ، فَقَالَ: (مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟) قَالَ: أَذْكُرُ رَبِّي، قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَكْثَرِ أَوْ أَفْضَلِ مِنْ ذِكْرِ اللَّيْلِ مَعَ النَّهَارِ، وَالنَّهَارِ مَعَ اللَّيْلِ؛ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ مِلءَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ مِلءَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ مِلءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَقُولَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مِثْلَ ذَلِكَ)»^(٢).

* الثاني: هو الخبرُ عن الربِّ تعالى بأحكام أسمائه وصفاته؛ نحو قولك: الله عجل يَسْمَعُ أصواتَ عباده، وَيَرَى حَرَكَاتِهِمْ، ولا تخفى عليه من

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٦).

(٢) «المسند» (٢٤٩/٥)، و«السنن الكبرى»، للنسائي (٩٩٢١)، و«المعجم الكبير» (٨/ رقم ٨١٢٨)، و«المستدرک» (٥١٣/١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٦١٥).

أعمالهم خافية، وهو أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وهو أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنَ الْفَاقِدِ رَاحِلَتِهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِمَّا أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَا أَثْنَى بِهِ عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

وهذا النوع يندرج تحته ثلاثة أنواع: حمدٌ وثناءٌ وتمجيدٌ: فالحمد الإخبارُ عنه بصفاتِ كَمَالِهِ ﷺ، مع محبته والرضا به، فلا يكون المحبُّ الساكِتُ حامداً، ولا المثنى بلا محبةٍ حامداً حتى تجتمع له المحبةُ والثناءُ، فإن كرَّرَ المحامدَ شيئاً بعد شيء كانت ثناءً، فإن كان المدحُ بصفاتِ الجلالِ والعظمةِ والكبرياءِ والمُلْكِ كان مجداً.

وقد جمع الله تعالى الأنواعَ الثلاثةَ في أوَّلِ سورةِ الفاتحة، فإذا قال العبدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال الله: مَجَّدَنِي عَبْدِي.

إِنَّ مَا تَقَدَّمَ هُوَ النُّوعُ الْأَوَّلُ مِنْ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ، وَهُوَ ذِكْرُ الرَّبِّ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ نَوْعَانِ كَمَا سَبَقَ، وَسَيَأْتِي مَزِيدُ تَفْصِيلٍ لِهَذَا النُّوعِ مِنَ الذِّكْرِ لَاحِقًا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -.

أما النوع الثاني: فهو ذِكْرُ أَمْرِ الرَّبِّ وَنَهْيِهِ وَأَحْكَامِهِ؛ وَهُوَ أَيْضًا نَوْعَانِ:

* أَحَدُهُمَا: ذِكْرُهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ إِخْبَارًا عَنْهُ بِأَنَّهُ أَمَرَ بِكَذَا، وَنَهَى عَنْ كَذَا، وَأَحَبَّ كَذَا، وَسَخِطَ كَذَا، وَرَضِيَ كَذَا، فَكُلُّ هَذَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ مَجَالِسَ الْعِلْمِ الَّتِي يُبَيَّنُّ فِيهَا الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَتَوْضُحُ فِيهَا الْأَحْكَامُ مَجَالِسُ ذِكْرِ اللَّهِ؛ قَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَجَالِسُ الذِّكْرِ مَجَالِسُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَيْفَ تَشْتَرِي وَتَبِيعَ، وَتَصَلِّيَ وَتَصُومَ، وَتَنْكِحَ وَتُطَلِّقَ، وَتَحُجَّ، وَأَشْبَاهَ هَذَا».

وكان أحدُ السلف - وهو أَبُو السُّوَارِ الْعَدَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي حَلْقَةٍ يَتَذَكَّرُونَ

الْعِلْمَ، وَمَعَهُمْ فَتَى شَابٍّ، فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَعَضِبَ أَبُو السُّوَّارِ، وَقَالَ: وَيْحَكَ، فِي أَيِّ شَيْءٍ كُنَّا إِذَا؟!»^(١).

فليست مجالس الذكر مختصةً بالمجالس التي يُذكر فيها اسمُ الرَّبِّ بالتسبيح والتحميد والتكبير ونحو هذا، بل هي شاملةٌ للمجالس التي يُذكر فيها أمرُهُ ونهيُهُ، وحلالُهُ وحرامُهُ، وما يحبُّه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، بل ربَّما كان هذا الذكر أنفعَ من ذلك.

* الثاني: ذكره سبحانه عند أمره فيبادرُ إليه، وعند نهيه فيهربُ منه، فامثالُ العبدِ لأوامرِ الله، وانقيادُهُ لشرعِهِ، وإذعانُهُ لحكمه، واجتنابُهُ لنواهيه؛ كلُّ ذلك مِنْ إقامةِ ذكرِ الله تعالى، فذكرُ أمرِهِ ونهيهِ شيءٌ، وذكرُهُ عندَ أمرِهِ ونهيهِ شيءٌ آخر.

وقد أوضحَ هذه الأقسامَ المتقدِّمةَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «الوابل الصَّيْب»^(٢)، وذكرَ أَنَّهَا إِذَا اجْتَمَعَتْ لِلذَّاكِرِ، فَذِكْرُهُ أَفْضَلُ الذِّكْرِ وَأَجْلُهُ وَأَعْظَمُهُ.

فنسألُ اللهَ الكريمَ أَنْ يُحَقِّقَ لَنَا ذَلِكَ، وَأَنْ يُعِينَنَا جَمِيعًا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحَسَنِ عِبَادَتِهِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ قَرِيبٌ.



(١) أورد هذا الأثر والذي قبله ابن رجب في: شرح حديث أبي الدرداء في «طلب العلم» (ص ٢٣).

(٢) (ص ١٧٨ - ١٨١).

أَهَمِّيَّةُ الْعِلْمِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ

لقد مرَّ معنا بيانُ فضلِ ذِكْرِ اللَّهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وما من ريبٍ في فضلِ ذلك، وعِظَمِ شأنه، وكثرةِ عوائدهِ وفوائدهِ. وكم للاشتغالِ بهذا الأمرِ من الفوائدِ المغدقة، والثمارِ اليانعة، والأجرِ الدائم، والخيرِ المستمرِّ في الدنيا والآخرة؛ وهذا الفضلُ يرجعُ إلى أسبابٍ عديدةٍ، أهمُّها:

أولاً: أَنَّ عِلْمَ تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَشْرَفُ الْعُلُومِ وَأَفْضَلُهَا وَأَعْلَاهَا مَكَانَةً، وَأَجْلُهَا شَأْنًا، وَشَرَفُ الْعِلْمِ وَفَضْلُهُ مِنْ شَرَفِ مَعْلُومِهِ، وَلَا أَشْرَفَ وَأَفْضَلَ مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الْاِشْتِغَالَ بِفَهْمِهِ وَالْعِلْمَ بِهِ وَالبَحْثَ عَنْهُ اِشْتِغَالٌ بِأَشْرَفِ الْمَطَالِبِ، وَأَجَلُّ الْمَقَاصِدِ.

ثانيًا: أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَالْعِلْمَ بِهِ تَدْعُو الْعَبْدَ إِلَى مَحَبَّتِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَخَشْيَتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ. وَحَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَى هَذَا وَتَحْصِيلِهِ هِيَ أَعْظَمُ الْحَاجَاتِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجْلُهَا؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَيْسَتْ حَاجَةُ الْأَرْوَاحِ قَطُّ إِلَى شَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْهَا إِلَى مَعْرِفَةِ بَارِيهَا وَفَاطَرِهَا، وَمَحَبَّتِهِ وَذِكْرِهِ وَالاِبْتِهَاجِ بِهِ، وَطَلَبِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ، وَالزَّلْفَى عِنْدَهُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ أَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَكَلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ بِهَا أَعْلَمَ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ، وَلَهُ أَطْلَبَ، وَإِلَيْهِ أَقْرَبَ، وَكَلَّمَا كَانَ لَهَا أَنْكَرَ، كَانَ بِاللَّهِ أَجْهَلَ، وَإِلَيْهِ أَكْرَهُ، وَمِنْهُ أَبْعَدَ، وَاللَّهُ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْ نَفْسِهِ حَيْثُ يُنْزِلُهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ»^(١). اهـ كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَلَا سَبِيلَ لِنَيْلِ هَذَا وَتَحْصِيلِهِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَالتَّفَقُّهِ فِيهَا وَالفهمِ لمعانيها.

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص ٢٠٢).

ثالثاً: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، وَأَوْجَدَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَسَخَّرَ لَهُمِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا لِيَعْرِفُوهُ وَيَعْبُدُوهُ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعَالَمِينَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات]، فَهَذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي خُلِقَ الْخَلْقُ لِأَجْلِهَا، وَأَوْجَدُوا لِتَحْقِيقِهَا، فَالاشتغال بمعرفة أسماء الله وصفاته اشتغالٌ بما خُلِقَ له العبد، وتركه وتضييعه إهمالٌ لِمَا خُلِقَ له، وَلَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ - فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَظِيمٌ، وَنِعْمَهُ عَلَيْهِ مُتَوَالِيَةٌ - أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِرَبِّهِ، مُعْرِضًا عَنْ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ.

رابعاً: أَنَّ أَحَدَ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَةُ، بَلْ أَفْضَلُهَا وَأَصْلَحُهَا: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَلَيْسَ الْإِيمَانُ مُجَرَّدَ قَوْلِ الْعَبْدِ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ، بَلْ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ أَنْ يَعْرِفَ رَبَّهُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ، وَيَبْذُلَ جِهَدَهُ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ حَتَّى يَبْلُغَ دَرَجَةَ الْيَقِينِ، وَبِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ يَكُونُ إِيْمَانُهُ، فَكَلَّمَا أَزْدَادَ مَعْرِفَةً بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَزْدَادَ مَعْرِفَةً بِرَبِّهِ، وَازْدَادَ إِيْمَانُهُ، وَكَلَّمَا نَقَصَ نَقْصٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ كَلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، الْمُنْعَوَةِ بِالْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى، كَلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ، كَانَتِ الْخَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ»^(١). اهـ.

وقد جمع هذا المعنى أَحَدُ السَّلَفِ فِي عِبَارَةٍ مُخْتَصِرَةٍ، فَقَالَ: «مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ لَهُ أَخَوْفَ»^(٢).

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَمَعْرِفَةَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الْوَارِدَةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٣٠).

(٢) وهو من قول أحمد بن عاصم أبي عبد الله الأنطاكي؛ كما في «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي رقم (٧٨٦).

تُثَمِّرُ فِي الْعَبْدِ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنَ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ وَابْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَى اللَّهِ، وَتَقْوِي فِيهِ جَانِبَ الْخَوْفِ وَالْمِرَاقَبَةِ، وَتُعَظِّمُ فِيهِ الرَّجَاءَ، وَتَزِيدُ فِي إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ وَثِقَتِهِ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ.

خامسًا: أَنَّ الْعِلْمَ بِهِ تَعَالَى أَصْلُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، حَتَّى إِنَّ الْعَارِفَ بِهِ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ يَسْتَدِلُّ بِمَا عَرَفَ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ وَعَلَى مَا يَشْرَعُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ مُقْتَضِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَأَفْعَالُهُ دَائِرَةٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالْحِكْمَةِ؛ وَلِذَلِكَ لَا يَشْرَعُ مَا يَشْرَعُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ إِلَّا عَلَى حَسَبِ مَا اقْتَضَاهُ حَمْدُهُ وَحُكْمَتُهُ، وَفَضْلُهُ وَعَدْلُهُ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ وَصَدُوقٌ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَحِكْمَةٌ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَدَبَّرَ كِتَابَ اللَّهِ وَمَا تَعَرَّفَ بِهِ سُبْحَانَهُ إِلَى عِبَادِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَمَا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْهُ مِمَّا لَا يَنْبَغِي لَهُ وَلَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَتَدَبَّرَ أَيَّامَهُ وَأَفْعَالَهُ فِي أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ الَّتِي قَصَّهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَأَشْهَدَهُمْ إِيَّاهَا لِيَسْتَدْلُوا بِهَا عَلَى أَنَّهُ إِلَهُهُمْ الْحَقُّ الْمُبِينُ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، وَيَسْتَدْلُوا بِهَا عَلَى أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَأَنَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَأَنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يَرِيدُ، وَأَنَّهُ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وَأَنَّ أَفْعَالَهُ كُلُّهَا دَائِرَةٌ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْعَدْلِ وَالْمَصْلَحَةِ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهَا عَنْ ذَلِكَ، فَإِذَا تَدَبَّرَ الْعَبْدُ ذَلِكَ، أَوْرَثَهُ - وَلَا رَيْبَ - زِيَادَةً فِي الْيَقِينِ، وَقُوَّةً فِي الْإِيمَانِ، وَتَمَامًا فِي التَّوَكُّلِ.

فهذه خمسة أسباب عظيمة^(١) تدلُّ على فضل العلم بأسماء الله وصفاته، وشدة حاجة العباد إليه، بل ليس هناك حاجة أعظم من حاجة العباد إلى معرفة ربهم وخالقهم ومليكمهم ومُدبِّرِ شؤنهم ومُقَدِّرِ أرزاقهم، الَّذِي لَا غِنَى لَهُمْ عَنْهُ طَرَفَةٌ عَيْنٌ، وَلَا أَقَلٌّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا صَلَاحٌ لَهُمْ وَلَا زَكَاءٌ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَحَدِّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ حَظَّ الْعَبْدِ مِنَ الصَّلَاحِ وَاسْتِحْقَاقِهِ

(١) انظر: «تفسير ابن سعدي» (١٠/١)، وخلاصته (ص ١٥).

من المَدْح والثناءِ إِنَّمَا يَكُونُ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ، [وَعَمَلِهِ بِذَلِكَ]،
 وذلك بتدبُّرِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ،
 وَفَهْمِهَا فَهْمًا صَحِيحًا سَلِيمًا دُونَ أَنْ يَجْحَدَ شَيْئًا مِنْهَا، أَوْ يَحَرِّفُهُ عَنْ مَرَادِهِ
 وَمَدْلُولِهِ، أَوْ يُشَبِّهَهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَتَنَزَّهَ
 وَتَقَدَّسَ؛ فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
 [الشورى: ١١]، فَلَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ عَلَى أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ وَأَلَاءِهِ
 الْجَسِيمَةِ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا نَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ هُوَ كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ.



اَقْتِضَاءُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ لِأَثَارِهَا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ

لا يزال الحديث ماضيًا بنا في بيان أهميّة ذكر الله بذكر أسمائه وصفاته الواردة في كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، وقد مرّ بنا جملة طيّبة من الفوائد المترتبة على ذلك؛ ومن هذه الفوائد أيضًا: أنّ معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا مقتضية لأثارها من العبودية؛ كالخضوع والذلّ، والخشوع والإنابة، والخشية والرّهبة، والمحبة والتوكل، وغير ذلك من أنواع العبادات الظاهرة والباطنة، بل إنّ لكلّ صفة من صفات الربّ تبارك وتعالى عبودية خاصّة هي من مقتضياتها، وموجبات العلم بها، والتحقّق بمعرفتها، وهذا مُطَرِّدٌ في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح^(١).

وبيان ذلك: أنّ العبد إذا علم بتفرد الربّ تعالى بالضرّ والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرّزق، والإحياء والإماتة، فإنّ ذلك يُثْمِرُ له عبودية التوكّل على الله باطنًا، ولوازم التوكّل وثمراته ظاهرًا.

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

❏ وإذا علم العبد بأنّ الله سميعٌ بصيرٌ عليمٌ، لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض، وأنّه يعلم السرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تُخْفِي الصدور، وأنّه تبارك وتعالى أحاط بكلّ شيءٍ علمًا، وأحصى كلّ شيءٍ عددًا،

(١) وانظر في هذا: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (ص ٤٢٤، ٤٢٥).

فَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِاطِّلَاعِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَرُؤْيِيَّتِهِ لَهُ، وَإِحَاطَتِهِ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُثْمِرُ لَهُ حِفْظَ اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ وَخَطَرَاتِ الْقَلْبِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ، وَجَعَلَ تَعَلُّقَاتِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ بِمَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ اللَّهُ بِرَبٍّ﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْنُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ فلا ريبَ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ يُورِثُ عِنْدَ الْعَبْدِ خَشْيَةَ اللَّهِ وَمِرَاقَبَتَهُ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْبَعْدَ عَنْ مَنَهِيه.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَأَوَدَ رَجُلٌ امْرَأَةً فِي فَلَاةٍ لَيْلًا، فَأَبَتْ، فَقَالَ لَهَا: مَا يَرَانَا إِلَّا الْكَوَاكِبُ، فَقَالَتْ: فَأَيْنَ مُكَوِّبُهَا»^(١)؛ أَي: أَيْنَ اللَّهُ؟! أَلَا يَرَانَا؟! فَمَنْعَهَا هَذَا الْعِلْمُ اقْتِرَافَ هَذَا الذَّنْبِ وَالْوُقُوعَ فِي هَذِهِ الْخَطِيئَةِ.

* وَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ، بَرٌّ رَحِيمٌ، وَاسِعُ الْإِحْسَانِ، وَأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مَعَ غِنَاهُ عَنْ عِبَادِهِ - فَهُوَ مُحْسِنٌ إِلَيْهِمْ، رَحِيمٌ بِهِمْ، يَرِيدُ بِهِمُ الْخَيْرَ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ الضَّرَّ، لَا لَجَلْبٍ مَنْفَعَةٍ إِلَيْهِ مِنَ الْعَبْدِ، وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ، بَلْ رَحْمَةً مِنْهُ وَإِحْسَانًا، فَهُوَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ لِيَتَكَبَّرَ بِهِمْ مِنْ قِلَّةٍ، وَلَا لِيَعْتَزَّ بِهِمْ مِنْ ذِلَّةٍ، وَلَا لِيَرْزُقُوهُ، وَلَا لِيَنْفَعُوهُ، وَلَا لِيُدْفَعُوا عَنْهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥١ مَّا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وَقَالَ تَعَالَى - فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ -: (يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْبِي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)^(٢).

(١) «شرح كلمة الإخلاص» (ص ٤٩).

(٢) جزء من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» بِرَقْم (٢٥٧٧).

فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك، أثمرَ فيه قُوَّةَ الرَّجَاءِ - قُوَّةَ رَجَائِهِ بِاللَّهِ - وطمعَه فيما عنده، وإنزالَ جميعِ حوائجِه به، وإظهارَ افتقاره إليه، واحتياجه له؛ ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، والرجاءُ يُثْمِرُ أنواعَ العبوديةِ الظاهرةِ والباطنة بِحَسَبِ معرفةِ العبدِ وعلمه.

* وإذا عَلِمَ العبدُ بعدلَ اللهِ وانتقامِه، وغضبه وسخطه وعقوبته، فإنَّ هذا يُثْمِرُ له الخشيةَ والخوفَ والحذرَ والبعدَ عن مَسَاخِطِ الرَّبِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ زَكَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكْمُ الْبَيِّنَاتِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

* وإذا عَلِمَ العبدُ بجلالِ اللهِ وعظمته، وعُلُوِّه على خلقه ذاتًا وقَهْرًا وَقَدْرًا، فإنَّ هذا يُثْمِرُ له الخضوعَ والاستكانةَ والمَحَبَّةَ وجميعَ أنواعِ العبادَةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، وقال: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

* وإذا عَلِمَ العبدُ بكمالِ اللهِ وجَمَالِه، أَوْجَبَ له هذا مَحَبَّةً خَاصَّةً، وشوقًا عظيمًا إلى لقاءِ اللهِ؛ (وَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ)^(١)، ولا ريبَ أَنَّ هذا يُثْمِرُ في العبدِ أنواعًا كثيرةً من العبادَةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٠٧)، ومسلم رقم (٢٦٨٣)، من حديث عبادَةَ بن الصامت رضي الله عنه.

❦ وبهذا يُعْلَمُ أَنَّ العبودية بجميع أنواعها راجعة إلى مُقْتَضِيَاتِ الْأَسْمَاءِ والصفات؛ ولهذا فَإِنَّهُ يَتَأَكَّدُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْرِفَ رَبَّهُ، وَيَعْرِفَ أَسْمَاءَهُ وصفاته معرفةً صحيحةً سليمةً، وَأَنْ يَعْلَمَ مَا تَضَمَّنَتْهُ، وَأَثَارَهَا، وَمُوجِبَاتِ الْعِلْمِ بها؛ فبهذا يَعْظُمُ حَظُّ الْعَبْدِ، وَيَكْمُلُ نَصِيبُهُ مِنَ الْخَيْرِ.

قال الإمام أبو عمر الطَّلَمَنْكِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ تَمَامِ الْمَعْرِفَةِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وصفاته التي يستحقُّ بها الداعي والحافظُ ما قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: الْمَعْرِفَةُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمَا تَتَضَمَّنُ مِنَ الْفَوَائِدِ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقَائِقِ. وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ عَالِمًا لِمَعَانِي الْأَسْمَاءِ، وَلَا مُسْتَفِيدًا بِذِكْرِهَا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي»^(١). اهـ.

واللهُ المَرْجُوُّ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ، وَالْقِيَامِ بِهِ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ، وَأَهْلُ الرِّجَاءِ، وَهُوَ حُسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.



(١) «فتح الباري» لابن حجر (٢٢٦/١١).

الْعِلْمُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَنْهَجُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ

إِنَّ مِنْ مقاماتِ الدين الرفيعة، ومنازلِ العالية العظيمة: العلمُ بكمالِ الرَّبِّ الكريم، وما يجبُ له من صفاتِهِ العظيمة، وأسمائِهِ الحسنى الكريمة، الواردة في كتابِهِ وَسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ، والتي أثنى بها على نَفْسِهِ، وأثنى عليه بها عبْدُهُ وَرَسولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، بل إِنَّ هذا العلمَ والإيمانَ أصلٌ مِنْ أصولِ الدين، وركنٌ مِنْ أركانِ التوحيد، وأساسٌ مِنْ أُسُسِ الاعتقاد.

ولهذا نَدَبَ اللهُ عبادَهُ وَحَثَّهم وَرَغَّبَهم في مواطنَ كثيرةٍ من القرآنِ الكريم على تَعَلُّمِ أسماءِ الرَّبِّ وصفاته، ومعرفتها معرفةً صحيحةً سليمةً، دون مِيلٍ بها عن وَجْهِها، أو صرفٍ لها عَنْ مقصودها؛ بتحريفٍ أو تعطيلٍ، أو تكييفٍ أو تمثيلٍ، أو نحو ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِئَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]،

وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمَ الْمَوْلَى وَنَعَمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاخْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، والآيات في هذا المعنى تُقَارِبُ الثلاثين آيةً.

إنَّ هذه الآيات وما وردَ في معناها لتَدُلُّ أَوْضَحَ دَلَالَةٍ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ الْعِلْمِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْحَسَنَى، وَصِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ الْعَلِيَا؛ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ، وَعَلَى ضَوْءِ مَا وَرَدَ فِي الْأَدَلَّةِ، فَلَا يُتَجَاوَزُ فِي ذَلِكَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ؛ إِذْ أَسْمَاءُ الرَّبِّ وَصِفَاتُهُ تَوْقِيفِيَّةٌ لَا مَجَالَ إِلَى الْعِلْمِ بِهَا وَمَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنْ خِلَالِ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يُوصَفُ اللَّهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ لَا يُتَجَاوَزُ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ»^(١).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس في الاعتقادِ كُلُّهُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ إِلَّا مَا جَاءَ بِهِ مَنْصُوصًا فِي كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ صَحَّحَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَوْ أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ، وَمَا جَاءَ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَوْ نَحْوِهِ يُسَلَّمُ لَهُ، وَلَا يُنَازَرُ فِيهِ»^(٢).

إِنَّ وَصَفَ اللَّهِ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ يُعَدُّ مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ الرَّاسِخَةِ، وَأُسُسِهِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي لَا إِيْمَانَ إِلَّا بِهَا، فَمَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَنَفَاها وَأَنْكَرَهَا، فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَطَّلَهَا أَوْ شَبَّهَهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ! سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ، وَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٦/٥). (٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٩٤٣/٢).

قال نعيم بن حماد الخزازي رحمته الله: «مَنْ شَبَّهَ اللهَ بشيءٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، فليس فيما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ تشبيه»^(١).

ولهذا، فإنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ يقومُ في هذا البابِ على أصليْنِ عظيميْنِ، وأساسِيْنِ متينِيْنِ؛ هما: الإثباتُ بلا تمثيل، والتنزيهُ بلا تعطيل، فلا يُمثَّلون صفاتِ اللهِ بصفاتِ خَلْقِهِ، كما لا يُمثَّلون ذاتُهُ سبحانه بذواتِهِمْ، ولا ينفون عنه صفاتِ كمالِهِ ونُعُوتَ جلالِهِ الثابتةِ في كتابِهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ؛ بل يؤمنون بأنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: ١١]﴾.

❦ والواجبُ على كُلِّ مسلمٍ في هذا البابِ العظيم: أن يقفَ مع نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ دونَ زيادةٍ أو نقصانٍ، بل يؤمِّنَ بما وردَ فيهِما، ولا يُحرِّفَ كلامَ اللهِ عن مواضعِهِ، ولا يُلحِدَ في أسمائِهِ وآيَاتِهِ، ولا يُكَيِّفَ صفاتِهِ، ولا يُمثِّلَ شيئاً منها بشيءٍ مِنْ صفاتِ خَلْقِهِ؛ لأنَّه سبحانه لا سَمِيَّ لَهُ، ولا كُفُوَ ولا نِدَّ، ولا يُقاسُ بِخَلْقِهِ، وهو سبحانه أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وبغيرِهِ، وأصْدَقُ قِيلاً، وأحْسَنُ حَدِيثاً مِنْ خَلْقِهِ، وكذلك رُسُلُهُ الذين أخبروا عنه بتلك الصفاتِ صادقونَ مَصْدُوقونَ، بخلافِ الذين يقولونَ على اللهِ ما لا يعلمون؛ ولهذا قال اللهُ سبحانه: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الصافات: ١٨٠]﴾؛ فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ المخالفونَ للرُّسُلِ، وَسَلَّمْ عَلَى المرسلينَ؛ لسلامةِ ما قالوه من النَّقْصِ والعيبِ؛ ولهذا فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ المُتَّبِعِينَ لمحمَّدٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى وغيرِهِمْ مِنْ رسلِ اللهِ عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ، يُشْتَبُّونَ ما أثبتَهُ رسلُ اللهِ لربِّهِمْ من صفاتِ الكمالِ ونُعُوتِ الجلالِ؛ كتكليمِ اللهِ لعبادِهِ، ومحبَّتِهِ لَهُمْ، ورحمَتِهِ بِهِمْ، وعُلُوِّهِ عليهم، واستوائِهِ على عرشِهِ، ونحوِ ذلك مما وردَ من نعوتِ الربِّ الكريمةِ وصفاتِهِ الجليلةِ، فآمنوا بما قال اللهُ سبحانه في كتابِهِ وصَحَّحَ عن نبيِّهِ ﷺ،

(١) رواه اللالكائي في: «شرح الاعتقاد» رقم (٩٣٦).

وَأَمْرُوهُ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِكَيْفِيَّةٍ أَوْ اعْتِقَادٍ مُشَابِهَةٍ أَوْ مِثْلِيَّةٍ، أَوْ تَأْوِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى تَعْطِيلِ صِفَاتِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ، بَلْ وَسَّعَتْهُمْ السُّنَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ، وَالطَّرِيقَةُ الْمَرْضِيَّةُ، وَلَمْ يَتَجَاوَزُوا إِلَى ضَلَالَاتٍ بِدْعِيَّةٍ، أَوْ أَهْوَاءٍ رَدِّيَّةٍ، فَحَازُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ الرَّتَبَ السَّنِّيَّةَ وَالْمَنَازِلَ الْعَلِيَّةَ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١).

رَزَقَنَا اللَّهُ حُسْنَ اتِّبَاعِهِمْ، وَالسَّيْرَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَتَرَسَّمَ خَطَاهُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ قَرِيبٌ.



(١) انظر: «عقيدة الحافظ تقي الدين عبد الغني المقدسي» (ص ٣٩).

وَصَفُّ أَسْمَاءِ اللَّهِ بِأَنَّهَا حُسْنَى وَمَذْلُولُ ذَلِكَ

لقد وردَ في القرآن الكريم الترغيبُ في دعاءِ الله بأسمائه الحسنى العظيمة، والتحذيرُ الشديدُ من سبيلِ المُلْحِدِينَ في أسمائه، وأنَّ الله سيحاسبهم على ذلك الحسابِ الشديد؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ ولذا فإنه يتأكدُ على كلِّ مسلم أن يُعْنَى بأسماءِ الله الحسنى، وأن يفهمها فهمًا صحيحًا بعيدًا عن سبيلِ المُلْحِدِينَ في أسماءِ الله، الذين تَوَعَّدَهُمْ في هذه الآية بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وتَوَعَّدَهُمْ على ذلك في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُيْلِقِي فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، والإلحادُ في أسماءِ الله إلحادٌ في آياته.

وقد دَلَّتِ الآيةُ الكريمةُ المتقدِّمةُ على أنَّ أسماءَ الله كُلُّها حسنى؛ إذ إنَّ الله تبارك وتعالى - لجمالِهِ وجلالِهِ وجمالِهِ وعَظَمَتِهِ - لا يُسَمَّى إلا بأحسنِ الأسماء، كما أنَّه لا يُوصَفُ إلا بأحسنِ الصفات، ولا يُثَنَّى عليه إلا بأكملِ الثناءِ وأحسنِهِ وأطيبِهِ، فأسماءُهُ جَلٌّ وعلا هي أحسنُ الأسماءِ وأكملُها، وليس في الأسماءِ أحسنُ منها، ولا يقومُ غيرها مَقَامَها، ولا يؤدِّي معناها، ولا يسُدُّ مَسَدَّها، وقد وَصَفَ الرَّبُّ تبارك وتعالى أسماءَهُ بأنَّها حسنى في القرآن الكريم في أربعةِ مواضعٍ: في الآيةِ المتقدِّمة، وفي قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]، وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر: ٢٤].

فهذه أربعة مواطن في القرآن وُصِفَتْ فيها أسماء الله تبارك وتعالى بهذه الصفة العظيمة. والحُسْنَى في اللغة: تأنيثُ الأَحْسَنِ لا الحَسَنِ؛ فهي أحسنُ الأسماء وأكملُها وأعظمُها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]؛ أي: له سبحانه الكمالُ الأعظمُ في ذاته وأسمائه وصفاته، ولذا كانتُ أسماؤه أحسنَ الأسماء.

وأسماء الله إنما كانت حُسْنَى؛ لكونها قد دَلَّت على صفة كمالٍ عظيمةٍ لله؛ فإنَّها لو لم تدلَّ على صفة، بل كانت علمًا محضًا لم تكن حُسْنَى، ولو دَلَّت على صفةٍ ليست بصفة كمالٍ لم تكن حُسْنَى، ولو دَلَّت على صفةٍ نقص أو صفةٍ منقسمةٍ إلى المدح والقدح لم تكن حُسْنَى، فأسماء الله جميعها دالةٌ على صفات كمالٍ ونعوت جلالٍ للربِّ تبارك وتعالى، وكلُّ اسم منها دالٌّ على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دلَّ عليه الاسم الآخر^(١)، فالرَّحْمَنُ - مثلاً - يدلُّ على صفة الرحمة، والعزِيزُ يدلُّ على صفة العِزَّة، والخالقُ يدلُّ على صفة الخلق، والكريمُ يدلُّ على صفة الكرم، والمحسنُ يدلُّ على صفة الإحسان، وهكذا وإن كانت جميعها متفقةً في الدلالة على الربِّ تبارك وتعالى؛ ولهذا فهي من حيث دَلالَتها على الذات مترادفة، ومن حيث دَلالَتها على الصفات متباينة؛ لدلالة كلِّ اسمٍ منها على معنى خاصٍّ مستفادٍ منه.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أسماء الربِّ تبارك وتعالى كلها أسماء مدح، ولو كانت ألفاظًا مجردة لا معاني لها، لم تدلَّ على المدح، وقد وصفها الله بأنَّها حُسْنَى كلها؛ فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فهي لم تكن حُسْنَى لمجرد اللفظ، بل لدلالَتها على أوصاف الكمال؛ ولهذا لَمَّا سَمِعَ بعضُ العرب قارئًا يقرأ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨] (والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، قال: ليس هذا كلام الله تعالى، فقال

(١) انظر: «الحق الواضح المبين» لابن سعدي (ص ٥٥).

القارئ: أَتُكْذِبُ بكلام الله؟ فقال: لا، ولكن ليس هذا بكلام الله، فعاد إلى حفظه، وقرأ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فقال الأعرابي: صَدَقْتَ، عَزَّ فَحَكَمَ فَقَطَعَ، ولو غَفَرَ وَرَحِمَ، لَمَّا قَطَعَ؛ ولهذا إذا خُتِمَتْ آيَةُ الرَّحْمَةِ بِاسْمِ الْعَذَابِ أَوْ بِالْعَكْسِ، ظَهَرَ تَنَافُرُ الْكَلَامِ وَعَدَمُ انْتِظَامِهِ^(١). اهـ.

وبهذا يَتَبَيَّنُ أَنَّ فَهَمَ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَالْعِلْمَ بِمَعَانِيهَا أَسَاسٌ لَا بَدَّ مِنْهُ لِتَحْقِيقِ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فَدَعَاءُ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ - الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ - إِنَّمَا يَكُونُ وَيَتَحَقَّقُ إِذَا عَلِمَ الدَّاعِي مَعَانِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَا اللَّهُ بِهَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِمَعَانِيهَا، فَإِنَّهُ يَجْعَلُ فِي دَعَائِهِ الْأِسْمَ فِي غَيْرِ مَوْطِنِهِ؛ كَأَنْ يُخْتَمَ نَظْمُ الرَّحْمَةِ بِاسْمِ الْعَذَابِ أَوْ الْعَكْسِ، فَيُظْهِرُ التَّنَافُرَ فِي الْكَلَامِ، وَعَدَمُ الْإِنْتِظَامِ، وَمَنْ يَتَدَبَّرُ الْأَدْعِيَةَ الْوَارِدَةَ فِي الْقُرْآنِ أَوْ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ يَجِدُ أَنَّ مَا مِنْ دَعَاءٍ مِنْهَا يُخْتَمُ بِشَيْءٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى إِلَّا وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْأِسْمِ ارْتِبَاطٌ وَتَنَاسُبٌ مَعَ الدَّعَاءِ الْمَطْلُوبِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَقَبَلْنَا مِنْكَ أُنْتِ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا أَمِنَّا فَأَعِزَّنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ.

ثُمَّ إِنَّ دَعَاءَ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ يَتَنَاوَلُ دَعَاءَ الْمَسْأَلَةِ، وَدَعَاءَ الشَّنَاءِ، وَدَعَاءَ التَّعْبُدِ، وَفِي بَيَانِ ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفُوهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُثْنُوا عَلَيْهِ بِهَا، وَيَأْخُذُوا بِحَظِّهِمْ مِنْ عِبَادَتِهَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مُوجِبَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ فَهُوَ عَلِيمٌ يُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ، وَجَوَادٌ يُحِبُّ كُلَّ جَوَادٍ، وَثَرٌّ يُحِبُّ الْوَثَرَ، جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ وَأَهْلَهُ، حَيِيٌّ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَأَهْلَهُ، بَرٌّ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ، شَكُورٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، صَبُورٌ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، حَلِيمٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْحِلْمِ...»^(٢)، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) «جلاء الأفهام» (ص ١٠٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٠).

ثم أيضًا: مِنْ أَهَمِّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ الْمُسْلِمُ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ: أَنْ يَحْذَرَ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنْ سَبِيلِ الْمُلْحِدِينَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ، الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّهُمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَهُمْ أَصْنَافٌ وَأَنْوَاعٌ، جَمَعَهُمْ وَصَفُ الْإِلْحَادِ، وَتَفَرَّقَتْ بِهِمْ طَرُقُهُ. وَعَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْمَهْمِّ سَيَكُونُ الْحَدِيثُ الْآتِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ

كان الحديث فيما مضى عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقد بقي معنا من معنى الآية تحذير الله من الإلحاد في أسمائه، وتوعده الملحدين فيها بأنه سيجازيهم على أعمالهم، ويحاسبهم عليها أشد الحساب، فهو سبحانه يُمَهِّلُ ولا يُهْمِلُ.

وقد تهَدَّدَ الله في هذه الآية الذين يُلْحِدُونَ في أسمائه بتهديدين:

الأول: صيغة الأمر في قوله: ﴿وَذَرُوا﴾؛ فإنها للتهديد.

الثاني: في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

والإلحاد في اللغة: هو الميل والعدول، ومنه اللَّحْدُ، وهو الشُّقُّ في جانب القبر الذي مال عن الوسط، ومنه المُلْحِدُ في الدين؛ أي: المائل عن الحق إلى الباطل؛ قال ابن السكيت: «المُلْحِدُ: العادل عن الحق، المُدْخِلُ فيه ما ليس منه»^(٢).

والإلحاد في أسماء الله سبحانه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو أنواعٌ عديدةٌ يجمعها هذا الوصف، ولَمَّا حَذَرَ الله في هذه الآية من الإلحاد في أسمائه هذا التحذير؛ كان متأكدًا على المسلم أن يعرف الإلحاد في أسمائه وأنواعه؛ لئلا يقع فيه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥]؛ أي: تتضح للناس، فيكونوا منها على حذرٍ وحِيطةٍ، وقد قيل:

(١) انظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٣٢٩/٢).

(٢) «تهذيب اللغة» للأزهري (٤٢١/٤).

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ رَلِكِن لَتَوَقِّيهِ
وَمَنْ لَا يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ
وَالْإِلْحَادُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ - كَمَا تَقَدَّمَ - أَنْوَاعٌ^(١):

أحدها: أن يسمَّى الأصنام والأوثان بها؛ كتسمية المشركين اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، وتسميتهم الصنم إلهاً.

قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: «يعني به المشركين، وكان إلحادهم في أسماء الله: أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسمَّوا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسمَّوا بعضها اللات؛ اشتقاقاً منهم لها من اسم الله الذي هو الله، وسمَّوا بعضها العزى؛ اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو العزيز»^(٢)؛ ثم روى عن مجاهد في معنى الآية: «أنه قال: «اشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا اللات من الله». اهـ.

فهذا إلحاد في أسماء الله؛ فإنهم عدلوا بأسمائهم إلى أوثانهم الباطلة.

النوع الثاني: تسمية الله بما لا يليق بجلاله وكماله، وأسماء الله الحسنی توقيفية لا يجوز لأحد أن يتجاوز فيها القرآن والسنة؛ ولهذا فإن من أدخل فيها ما ليس منها، فهو ملحد في أسماء الله؛ قال الأعمش رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة: «تفسيرها: يُدْخِلُونَ فيها ما ليس منها»^(٣). اهـ.

ومن ذلك تسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة إياه العلة الفاعلة بالطبع، وتسمية بعض أهل الضلال له بمهندس الكون، ونحو ذلك؛ فكل ذلك من الإلحاد في أسماء الله.

(١) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (١٦٩/٣).

(٢) «جامع البيان» (١٣٣/٦).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٢٣/٥).

النوع الثالث: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «الإلحاد: التكذيب»^(١)؛ ولا ريب أن من أنكر معاني هذه الأسماء وجحد حقائقها، فهو مكذب بها، ملحد في أسماء الله، ومن ذلك: قول من يقول من المعطلة: إنها ألفاظ مجردة لا تدل على معانٍ، ولا تتضمن صفاتٍ، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير، والحي والرحيم، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع له، ولا بصر له، ولا رحمة؛ تعالى الله عما يقولون، وسبحان الله عما يصفون؛ ولا ريب أن هذا من الإلحاد في أسماء الله.

ثم إن هؤلاء المعطلين متفاوتون في هذا التعطيل؛ فمنهم من تعطيله جزئي، بمعنى أنه يعطل بعضاً ويثبت بعضاً، ومنهم من تعطيله كلي، بمعنى أنه يعطل الجميع، فلا يثبت شيئاً من الصفات التي تدل عليها أسماء الله الحسنى، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فقد ألحد في ذلك، وحظه من هذا الإلحاد بحسب حظه من هذا الجحد.

النوع الرابع: تشبيه ما تضمنته أسماء الله الحسنى من صفات عظيمة كاملة تليق بجلال الله وجماله بصفات المخلوقين؛ تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، والله يقول: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [الشورى: ١١]، ويقول سبحانه: «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» [مريم: ٦٥]؛ فالله سبحانه لا سمي له ولا شبيه ولا مثيل، فهو سبحانه لا يشبه شيئاً من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، والمُشَبَّه - كما يقول الإمام أحمد رحمته الله - هو الذي يقول: «يَدُ اللَّهِ كَيْدِي، وسمعُه كسمعي، وبصرُه كبصري؛ تعالى الله عن ذلك»^(٢)، أما من يثبت أسماء الله وصفاته على وجه يليق بجلال الله وكماله، فهو بريء من التشبيه، وسالم من التعطيل.

فهذه أنواع أربعة للإلحاد في أسماء الله الحسنى، وقد وقع في كل منها

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٣٤/٦).

(٢) انظر: «نقض التأسيس» لابن تيمية (٤٧٦/١).

جماعاتٍ مِنَ المبتطلين؛ حَمَانَا اللهُ وَوَقَّانَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ مِنْ كُلِّ ضَلَالٍ وَبَاطِلٍ،
 وَقَدْ بَرَّأَ اللهُ أَتْبَاعَ رَسُولِهِ ﷺ وَوَرِثَتُهُ الْقَائِمِينَ بِسُنَّتِهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَلَمْ يَصِفُوا اللهُ
 إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهِ نَبِيُّهُ ﷺ، وَلَمْ يَجْحَدُوا صِفَاتِهِ، وَلَمْ يَشْبَهُوْهَا
 بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، وَلَمْ يَعْدِلُوا بِهَا عَمَّا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ، لَا لَفْظًا وَلَا مَعْنَى، بَلْ أَثْبَتُوا
 لَهُ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ، وَنَفَّوْا عَنْهُ مِثَابَهُ الْمَخْلُوقَاتِ، فَكَانَ إِثْبَاتُهُمْ بَرِيًّا مِنْ
 التَّشْبِيهِ، وَتَنْزِيهِهُمْ خَلِيًّا مِنَ التَّعْطِيلِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وبهذه الآية الكريمة نختم الحديث هنا حامدين لله، مُثْنِينَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ
 أَهْلُهُ، وَبِمَا أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا
 وَيَرْضَى.



تَدَبَّرُ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَعَدَمُ تَعْطِيلِهَا وَعِظَمُ أَثَرِ ذَلِكَ عَلَى الْعَبْدِ

لا يخفى أَنَّ حاجةَ العبادِ إلى معرفةِ ربِّهم وخالقهم ومليكمهم هي أعظمُ الحاجاتِ، وضرورتهم إلى ذلك هي أعظمُ الضروراتِ، وكلَّما كان العبدُ أعرَفَ بأسماءِ ربه وما يستحقُّه من صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، وما يتنزَّه عنه مما يضادُّ ذلك من النقائصِ والعيوبِ؛ كان حَظُّهُ من الثناءِ ونصيبُهُ من المدحِ بِحَسَبِ ذلك، والسبيلُ إلى تحقيقِ هذا المطلبِ الجليلِ، والمقصدِ النبيلِ: أن يتدبَّرَ العبدُ أسماءَ الله الحسنى الواردةَ في الكتابِ والسُّنةِ، ويتأمَّلَها اسمًا اسمًا، ويثبتَ ما دلَّت عليه من معنى على وجهٍ يليقُ بجلالِ الربِّ وكمالِهِ وعظمتِهِ، ويعتقدَ أَنَّ هذا الكمالَ والعظمةَ ليس له مُنتهى، ويؤمنَ أَنَّ كُلَّ ما ناقَضَ هذا الكمالَ بوجهٍ من الوجوه، فإنَّ اللهَ تعالى مُنزَّهٌ مقدَّسٌ عنه، ويبدلَ ما استطاعَ مِنْ وَسْعِهِ في معرفةِ أسماءِ الله وصفاته، ويجعلَ هذه المسألةَ العظيمةَ الجليلةَ أهمَّ المسائلِ، وأولاها بالعناية، وأحقَّها بالتقديم؛ ليفوزَ مِنَ الخيرِ بأوفرِ نصيب.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، «أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ رجلًا على سريَّةٍ، وكان يقرأُ لأصحابِهِ في صلاتِهِ، فيختمُ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلمَّا رجعوا، ذكروا ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال: (سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟)، فسألوه، فقال: لَأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وأنا أحبُّ أن أقرأَ بها، فقال النبيُّ ﷺ: (أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ)»^(١).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٣٧٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٨١٣).

فهذه السورة الكريمة أُخْلِصَتْ لِذِكْرِ أَوْصَافِ الرَّحْمَنِ وَنَعَوَاتِ كَمَالِهِ وَجَلَالِهِ، فَأَحَبَّ هَذَا الصَّحَابِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْإِكْثَارَ مِنْ قِرَاءَتِهَا؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ سَبَبِ مِلَازِمَتِهِ لِقِرَاءَتِهَا، قَالَ: «لَأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أَحَبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ: (أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ)»، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي قِصَّةِ مُشَابَهَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ) ^(١).

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ حُبَّ الْعَبْدِ لَصِفَاتِ الرَّحْمَنِ، وَمِلَازِمَتَهُ تَذَكُّرَهَا، وَاسْتِحْضَارَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ اللَّائِقَةِ بِكَمَالِ الرَّبِّ وَجَلَالِهِ، وَالتَّفَقُّهُ فِي مَعَانِيهَا: سَبَبٌ عَظِيمٌ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَنِيلِ رِضَا الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمَحَبَّتِهِ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي قِصَّةِ هَذَا الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

❏ إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: أَنْ يَقِفَ مَعَ جَمِيعِ الصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَوْقِفَ الرِّضَا وَالْقَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ؛ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الزُّهْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ اللَّهُ الرِّسَالَةَ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ» ^(٢)، وَلَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يُقَابِلَ شَيْئًا مِنْهَا بَرْدًا أَوْ اسْتِنكَارًا أَوْ تَعْطِيلًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ. رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ؟! يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُشَابَهَةِ!» ^(٣).

وَصِفَاتُ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْمُحْكَمِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ - لِقَلَّةِ عِلْمِهِ، وَضَعْفِ تَفْرِيقِهِ - اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ، فَبَادَرَ إِلَى الْاسْتِنكَارِ، فَأُنْكَرَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْاسْتِنكَارَ سَبِيلُ هَلَكَةٍ.

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (١٤١/٣)، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيلًا (٧٧٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٩٠١)، وَحَسَنَهُ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٥٠٣/١٣)، فَتَحَ.

(٣) «الْمُصَنَّفُ» (٤٢٣/١١)، وَأَوْرَدَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي كِتَابِ «التَّوْحِيدِ»، وَانْظُرْ شَرْحَهُ فِي «تَيْسِيرِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» (ص ٥٧٨).

فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْوَاجِبَ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ هُوَ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ، وَأَنْ يَحْذَرَ الْمُسْلِمُ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنْ سَبِيلِ مَنْ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، إِمَّا بِتَعْطِيلِ لَهَا، أَوْ تَكْذِيبِ لِبَعْضِهَا، أَوْ تَحْرِيفِ لِمَعَانِيهَا، أَوْ تَمَثِيلِ لَهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ سَبِيلِ الضَّلَالِ؛ تَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ.

وأهل السنة والجماعة منهجهم في هذا الباب العظيم: هو إثبات ما أثبتته الله لنفسه، وما أثبتته له رسوله ﷺ؛ من صفات الكمال، ونُعُوتِ الجلال، دون تحريفٍ أو تعطيلٍ، ودون تكييفٍ أو تمثيلٍ، ونَفْيِ ما نفاه الله عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، ولا يتجاوزون في ذلك القرآن والحديث.

ولا ريبَ أنَّ لهذا المنهج العظيم آثارًا كثيرةً على العبدِ في صلاحِهِ واستقامتِهِ، وخوفِهِ مِنْ رَبِّهِ ومراقبَتِهِ لَهُ؛ إِذْ إِنَّ الْعَبْدَ كُلَّمَا كَانَ بِاللَّهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَعْلَمَ كَانَ مِنَ اللَّهِ أَخَوْفَ، وَلَهُ أَطْلَبَ، وَإِلَيْهِ أَقْرَبَ، وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ أَبْعَدَ.

أَمَّا مَنْ خَالَفَ هَذَا الْمَنْهَجَ، وَتَنَكَّبَ هَذِهِ الْجَادَّةَ، وَسَلَكَ طَرُقَ أَهْلِ الزَّيْغِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، فَمَا أَبْعَدَهُ عَنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَخَالَقِهِ، بَلْ إِنَّهُ يَكُونُ أَوْعَفَ النَّاسِ مَعْرِفَةً بِاللَّهِ، وَأَقْلَمَهُمْ خَوْفًا وَخَشْيَةً مِنْهُ.

ولذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن بيَّن أنَّ تَفَاوُتَ النَّاسِ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ يَرْجِعُ إِلَى تَفَاوُتِهِمْ فِي مَعْرِفَةِ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ وَفَهْمِهَا وَالْعِلْمِ بِفَسَادِ الشُّبْهِ الْمَخَالَفَةِ لِحَقَائِقِهَا: «وَتَجَدُّ أَوْعَفَ النَّاسِ بَصِيرَةً أَهْلَ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْمَذْمُومِ، الَّذِي ذَمَّهُ السَّلَفُ؛ لَجَهْلِهِمْ بِالنُّصُوصِ وَمَعَانِيهَا، وَتَمَكُّنِ الشُّبْهِ الْبَاطِلَةِ مِنْ قُلُوبِهِمْ».

ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْعَوَامَّ أَحْسَنُ حَالًا مِنْ هَؤُلَاءِ، وَأَقْوَى مَعْرِفَةً بِرَبِّهِمْ مِنْهُمْ؛ فَقَالَ: «وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حَالَ الْعَامَّةِ الَّذِينَ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ - أَيْ: عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُتَكَلِّمِينَ - رَأَيْتَهُمْ أَتَمَّ بَصِيرَةً مِنْهُمْ، وَأَقْوَى إِيْمَانًا، وَأَعْظَمَ تَسْلِيمًا لِلْوَحْيِ وَانْقِيَادًا لِلْحَقِّ». اهـ^(١).

❦ ولهذا وَجَبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: أَنْ يَكُونَ فِي هَذَا الْبَابِ وَفِي جَمِيعِ
أَبْوَابِ الدِّينِ عَلَى سَنَنِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَوَفْقَ مَنْهَجِهِمْ، وَأَنْ يَحْذَرَ سَبَلَ
الضَّلَالِ كُلِّهَا، وَأَبْوَابَ الْبَاطِلِ جَمِيعَهَا، وَالتَّوْفِيقُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ
أَنْ يُوَفِّقَنَا لِكُلِّ خَيْرٍ يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا هِدَاةً مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ
وَلَا مُضِلِّينَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ قَرِيبٌ.



أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحُسْنَى غَيْرُ مَحْصُورَةٍ بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ وَبَيَانُ الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»

لقد صَحَّ عن النبي ﷺ - فيما خرَّجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)^(١).

ولا ريبَ أَنَّ هذا الفضلَ العظيم - ألا وهو دخولُ الجنة - المترتبُ على إحصاءِ هذا العددِ من أسماءِ الله: يحركُ في النَّفْسِ الجِدَّ في نيلِ هذا المطلبِ العظيم، والسَّعيَ في تكميله، والحرصَ الشديدَ على تحقيقه.

ولقد ظنَّ بعضُ النَّاسِ - خطأً - أَنَّ المرادَ بإحصاءِ أسماءِ الله، المرعَبِ فيه في هذا الحديث، هو عدُّ ألفاظِ تسعةٍ وتسعينَ اسمًا مِنْ أسماءِ الله، واستظهارُها في القلب، والتلفُّظُ بها في أوقاتٍ معيَّنةٍ مخصوصةٍ، وربَّما جعلَها بعضهم في جملةِ ذِكْرِه لله في صباحِه ومساءِه، دونِ فقِه - من هؤلاء - لهذه الأسماءِ الجليلةِ العظيمة، أو تدبُّرِ لِمَدلولَاتِها، أو تحقيقِ لِمُوجِبَاتِها ومُسْتَلزِمَاتِها، أو عملٍ بمقتضياتِها ومتطلِّباتِها.

ولقد نبَّه العلماءُ - رحمهم الله - أَنَّهُ ليس المرادُ بإحصاءِ أسماءِ الله عدُّ حروفِها فقط، بلا فقِه لها أو عملٍ بها، بل لا بدَّ في ذلك مِنْ فهمِ معناها والمرادِ بها فهمًا صحيحًا سليمًا، ثم العملُ بما تقتضيه.

قال أبو عمر الطَّلَمَنَكِيُّ رحمته الله: «مِنْ تمامِ المعرفةِ بأسماءِ الله تعالى

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٧٣٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٧).

وصفاته التي يستحقُّ بها الداعي والحافظُ ما قال رسولُ الله ﷺ المعرفةُ بالأسماءِ والصفاتِ، وما تَتَضَمَّنُ من الفوائد، وتدلُّ عليه من الحقائق، ومَنْ لم يعلم ذلك، لم يكن عالماً لمعاني الأسماء، ولا مستفيداً بِذِكْرِها ما تدلُّ عليه من المعاني^(١).

فنبهَ ﷺ إلى أنَّ تمامَ المعرفة بالأسماءِ الحسنَى، والتي ينالُ الداعي بها هذا الثوابَ العظيمَ الواردَ في الحديث، إنَّما يكونُ بالمعرفة بالأسماءِ وبما تَتَضَمَّنُهُ من الفوائد، وتدلُّ عليه من الحقائق، لا عدّها فقط دونَ فهمِ لها، أو علمٍ بما تدلُّ عليه.

وقد ذكر العلامة ابن القيم ﷺ أنَّ لإحصاءِ أسماءِ الله الحسنَى ثلاثَ مراتبٍ، بتكميلِها وتحقيقِها ينالُ العبدُ ثوابَ الله العظيمَ المذكورَ في حديثِ رسولِ الله ﷺ المتقدم:

المرتبة الأولى: إحصاءُ ألفاظِها وعدديها.

المرتبة الثانية: فهمُ معانيها ومدلولاتها.

المرتبة الثالثة: دعاءُ الله بها، وهذا شاملٌ لدعاءِ العبادة ودعاءِ المسألة^(٢).

فبتحقيقِ هذه المراتبِ الثلاثةِ العظيمةِ يكونُ الإحصاءُ الصحيحُ لهذا القدر من أسماءِ الله الحسنَى.

❏ ومما ينبغي أن يُعلَمَ هنا: أنَّ أسماءَ الله الحسنَى ليست محصورةً في هذا العددِ المعيَّن المذكور في قوله ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)، فالكلامُ في هذا الحديثِ جملةٌ واحدةٌ، فقوله: (مَنْ أَحْصَاهَا): صفةٌ، وليس خبراً مستقلاً؛ والمعنى: أنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وهذا لا ينافي أن يكونَ له أسماءٌ

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٢٢٦/١).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/١٦٤).

غيرها، ولهذا نظائر كثيرة في لغة العرب؛ كما تقول: إِنَّ عِنْدِي تِسْعَةً وَتِسْعِينَ دِرْهَمًا أَعَدَدْتُهَا لِلصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَنَافِي أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ غَيْرُهَا مُعَدَّةً لْغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ، لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.

بَلْ لَقَدْ وَرَدَ فِي السُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ غَيْرُ مَحْصُورَةٍ، وَلَا تُحَدُّ بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ:

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ)^(١)، فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ لَا يَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ، وَلَوْ أَحْصَى جَمِيعَ أَسْمَائِهِ لِأَحْصَى الثَّنَاءَ عَلَيْهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ، أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي)^(٢)؛ فَدَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَحَامِدَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهَا عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهِيَ - بَلَا شَكٍّ - غَيْرُ الْمَحَامِدِ الْمَأْثُورَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَأَيْضًا: فَقَدْ ثَبَتَ فِي «الْمُسْنَدِ» وَغَيْرِهِ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: (مَا أَصَابَ عَبْدًا هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٨٦).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٧١٢)، ومسلم رقم (١٩٤).

وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فَجَعَلَ أَسْمَاءَ اللهِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

قسم: سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ، فَأَظْهَرَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ، وَلَمْ يُنْزَلْ بِهِ كِتَابُهُ.

وقسم: أُنْزِلَ بِهِ كِتَابُهُ، فَتَعَرَّفَ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ.

وقسم: اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِهِ، فَلَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (اسْتَأْثَرْتُ بِهِ)؛ أَي: تَفَرَّدْتُ بِعِلْمِهِ^(٢).

وبهذا تَبَيَّنَ أَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ غَيْرُ مُحْصُورَةٍ فِي هَذَا الْعَدَدِ الْمَعْيَّنِ، بَلْ هِيَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَقُصَّارَى الْحَدِيثِ الدَّلَالَةُ عَلَى فَضِيلَةِ إِحْصَاءِ هَذَا الْعَدَدِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ.

❦ وَمِمَّا يُنبِّئُهُ عَلَيْهِ هَذَا: أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَدِيثٌ صَحِيحٌ فِي عَدِّ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَسَرْدِهَا، وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»، وَ«سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ»، وَغَيْرِهِمَا، مِنْ ذِكْرِ لِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَسْرُودَةً عَقِبَ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَتَّقِدِّمِ^(٣)، فَإِنَّ هَذَا - بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ - لَيْسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنَّمَا هُوَ مُدْرَجٌ مِنْ بَعْضِ الرِّوَاةِ فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ؛ وَلِذَا خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ دُونَ ذِكْرِ لَهَا؛ لِضَعْفِهَا وَلِعَدَمِ ثُبُوتِهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ يَجِدُهَا طَالِبُ الْعِلْمِ مَبْسُوطَةً فِي مِظَانِهَا مِنْ كِتَابِ أَهْلِ الْعِلْمِ^(٤).

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ مَوْجُودَةٌ - كَمَا تَقَدَّمَ - فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ قَرَأَهُمَا وَعَوَّلَ عَلَيْهِمَا فِي دِينِهِ، وَاجْتَهَدَ فِي تَدْبِيرِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحَسَنَى الْوَارِدَةِ فِيهِمَا، فَقَدْ ظَفَرَ بِالْمَرَادِ، وَحَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَبِاللهِ وَحْدَهُ التَّوْفِيقُ.

(١) «المسند» (١/٣٩١)، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» رَقْم (١٩٩).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/١٦٦).

(٣) انظر: «جامع الترمذي» رَقْم (٣٥٠٧)، و«سنن ابن ماجه» رَقْم (٣٨٦١).

(٤) وانظر في ذلك: «فتح الباري» لابن حجر (١١/٢١٥ وما بعدها).

تَفَاضُلُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَذِكْرُ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ

لقد مرَّ معنا بيانُ أنَّ أسماءَ الله الحسنى غيرُ محصورةٍ في عددٍ معيَّن، وأنَّ قولَ النبي ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) لا يفيْدُ حصرَ الأسماءِ الحسنى في هذا العدد، وأنَّ قُصَّارَهُ الدَّلَالَةُ على فضيلةِ هذه الأسماءِ التسعة والتسعين، وأنها اختَصَّتْ بأنَّ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ.

وفي هذا دلالةٌ على تفاضلِ الأسماءِ الحسنى، خلافاً لمن نفى ذلك؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُ مَنْ قال: صفاتُ الله لا تتفاضلُ، ونحو ذلك، قولٌ لا دليلَ عليه... وكما أنَّ أسماءَهُ وصفاته متنوعةٌ، فهي أيضاً متفاضلة، كما دلَّ على ذلك الكتابُ والسُّنةُ والإجماعُ، مع العقل»^(١). اهـ.

ومما يدلُّ على تفاضلِ الأسماءِ الحسنى: ما ثَبَتَ عن النبي ﷺ في الأخبارِ الصحيحة: أنَّ لله اسماً أعظمَ إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب. ولا ريبَ أنَّ هذه فضيلةٌ عظيمةٌ اختَصَّ بها هذا الاسمُ الذي وُصِفَ بأنَّه اسمُ الله الأعظم، ولعلَّنا نستعرضُ بعضَ الأحاديثِ الواردةِ في ذلك، ثم نقفُ بعد ذلك على كلامِ بعضِ أهلِ العلم في تعيينه.

روى الإمام أحمد في «المسند»، وأهل السنن الأربعة، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبي ﷺ سَمِعَ رجلاً يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ)»؛ وزاد أبو داود

(١) انظر: «جواب أهل العلم والإيمان» (ص ١٩٧ - ٢٠٠).

(٤) «المسند» (٣٤٩/٥)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٩٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٧٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي رقم (٧٦٦٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٥٧)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٩١، ٨٩٢).

عند أهل العلم، ولهم في هذا أبحاث كثيرة مطولة ومختصرة؛ قال الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه «تحفة الذاكرين»: «وقد اختلف في تعيين الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً، قد أفرداها السيوطي بالتصنيف»^(١). اهـ.

ولم يذكر السيوطي في كتابه الذي أفرد فيه ذلك، والذي أسماه «الدر المنظم»، في الاسم الأعظم سوى عشرين قولاً، وكثير منها ظاهر ضعيف؛ لعدم قيام دليل صحيح صريح على صحته وثبوته، وبعض المتصوفة لهم في هذا الباب أباطيل كثيرة، لا يلتفت إلى شيء منها، ويروون في ذلك أحاديث موضوعة، وآثاراً مخترعة، وقصصاً منكراً، يخدعون بها عوام المسلمين، ويعرّون بها جهّالهم.

والواجب على كل مسلم أن يكون في دينه على حيطة وحذر من الوقوع في إفك هؤلاء وباطلهم؛ فكم غر هؤلاء من عوام المسلمين! وكم خدعوا من جهّالهم! وكم من ضلال وشر وباطل انتشر بسببهم! والله المستعان.

❏ إن أشهر الأقوال في تعيين الاسم الأعظم، وأولها بالصواب، وأقربها للدلة: هو أن اسم الله الأعظم هو «الله»؛ وإلى هذا القول ذهب جمع من أهل العلم.

قال الإمام أبو عبد الله ابن منده في كتابه «التوحيد»، - وقد اختار فيه أن اسم الله الأعظم هو الله -: «فاسمه «الله» معرفته ذاته، منع الله عنه خلقه أن يتسمى به أحد من خلقه، أو يدعى باسمه إله من دونه، جعله أول الإيمان، وعمود الإسلام، وكلمة الحق والإخلاص، ومخالفة الأضداد والإشراك؛ فيه يحتجز القائل من القتل، وبه تفتتح الفرائض، وتنقذ الأيمان، ويستعاض من الشيطان، وباسمه يفتتح ويختم الأشياء، تبارك اسمه، ولا إله غيره»^(٢). اهـ.

ولهذا الاسم الكريم من الخصائص ما ليس لغيره من الأسماء، ومن خصائصه: أن الله يضيف سائر الأسماء إليه؛ كقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

(١) «تحفة الذاكرين» (ص ٦٧).

(٢) «التوحيد» (٢/ ٢١).

[الأعراف: ١٨٠]، ويقال: العزيز، والرحمن، والكريم، والقدوس: مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَلَا يُقَالُ: اللَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّحْمَنِ، بَلْ إِنَّ هَذَا الْأِسْمَ الْكَرِيمَ مُسْتَلَزِمٌ لَجَمِيعِ مَعَانِي الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى، دَالٌّ عَلَيْهَا بِالْإِجْمَالِ، وَالْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى تَفْصِيلٌ وَتَبْيِينٌ لَصِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ؛ فَلِهَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةُ وَغَيْرَهَا مِمَّا اخْتَصَّ بِهِ هَذَا الْأِسْمُ صَارَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى اخْتِيَارِ أَنَّ الْأِسْمَ الْأَعْظَمَ هُوَ اللَّهُ؛ وَمِمَّا يُقَوِّي هَذَا: أَنَّ هَذَا الْأِسْمَ الْكَرِيمَ قَدْ وَرَدَ فِي جَمِيعِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى الْأِسْمِ الْأَعْظَمِ.

وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْأِسْمَ الْأَعْظَمَ هُوَ «الْحَيُّ الْقَيُّومُ»، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «زَادَ الْمَعَادُ»: «فَإِنَّ صِفَةَ الْحَيَاةِ مُتَضَمِّنَةٌ لَجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، مُسْتَلَزِمَةٌ لَهَا، وَصِفَةُ الْقَيُومِيَّةِ مُتَضَمِّنَةٌ لَجَمِيعِ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ، وَلِهَذَا كَانَ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ - الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ - هُوَ اسْمُ الْحَيِّ الْقَيُّومِ». اهـ^(١).

وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْأِسْمُ فِي أَكْثَرِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى الْأِسْمِ الْأَعْظَمِ.

فَهَذَا الْقَوْلُ وَالَّذِي قَبْلَهُ هُمَا أَقْوَى مَا قِيلَ فِي الْأِسْمِ الْأَعْظَمِ^(٢)، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ اجْتِهَادٌ؛ لِعَدَمِ وَرُودِ دَلِيلٍ قَاطِعٍ الدَّلَالَةِ عَلَى التَّعْيِينِ يَجِبُ أَنْ يُصَارَ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنَّ مَنْ دَعَا اللَّهَ بِالْأَدْعِيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَقَالَ فِي دَعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحَدِّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»،

(١) «زَادَ الْمَعَادُ» (٤/٢٠٤).

(٢) عَلَّقَى سَمَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْمَوْطِنِ بِقَوْلِهِ: «وَالصَّوَابُ: أَنَّ الْأَعْظَمَ بِمَعْنَى الْعَظِيمِ، وَأَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كُلُّهَا حَسَنَى، وَكُلُّهَا عَظِيمَةٌ، وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِشَيْءٍ مِنْهَا صَادِقًا مُخْلِصًا سَالِمًا مِنَ الْمَوَانِعِ، رُجِيَتْ إِجَابَتُهُ، وَبَدُلَ عَلَى ذَلِكَ اخْتِلَافُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ؛ وَلِأَنَّ الْمَعْنَى يَقْتَضِي ذَلِكَ، فَكُلُّ أَسْمَائِهِ حَسَنَى، وَكُلُّهَا عَظُمَى، وَاللَّهُ وَبَّكٌ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ».

أَوْ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، فَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ؛ لِإِخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ عَمَّنْ دَعَا اللَّهَ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ دَعَاهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ.

عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ لِقَبُولِ الدَّعَاءِ شُرُوطًا عَدِيدَةً وَرَدَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسَيَأْتِي لَهَا بَسْطٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَفِي الْخَتَامِ أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ التَّوْفِيقَ لِكُلِّ خَيْرٍ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.



فَضَائِلُ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ:

سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ

إِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ وَأَفْضَلَ الذِّكْرِ بَعْدَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ، لَهِنَّ قَدْرٌ رَفِيعٌ، وَشَأْنٌ عَظِيمٌ، وَمَكَانَةٌ عَالِيَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ؛ هُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ نصوصٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ دَلَالَةً قَوِيَّةً عَلَى عِظَمِ شَأْنِ وَقَدْرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْقِيَامِ بِهِنَّ مِنْ أَجُورٍ عَظِيمَةٍ، وَأَفْضَالٍ كَرِيمَةٍ، وَخِيَرَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَلَعَلَّنَا نَسْتَعْرِضُ بَعْضَ فَضَائِلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مِنْ خِلَالِ بَعْضِ النُّصوصِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ:

* فَمِنْ فَضَائِلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: أَنَّهُنَّ أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ؛ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ) ^(١)، وَرَوَاهُ الطَّيَالِسِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» بِلَفْظٍ: (أَرْبَعٌ هُنَّ مِنْ أَطْيَبِ الْكَلَامِ، وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ) ^(٢).

* وَمِنْ فَضَائِلِهِنَّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُنَّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ (أَي: مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)؛ لَمَّا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،

(١) تقدم تخريجه (٨٧).

(٢) «مسند الطيالسي» (ص ١٢٢).

وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ^(١).

* وَمِنْ فَضَائِلِهِنَّ: مَا ثَبَتَ فِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَد»، و«شُعْبِ الْإِيمَانِ» لِلْبَيْهَقِيِّ، بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أُمِّ هَانئِ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَتْ: «مَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ - أَوْ كَمَا قَالَتْ - فَمُرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ وَأَنَا جَالِسَةٌ، قَالَ: (سَبِّحِ اللَّهَ مِائَةً تَسْبِيحَةً؛ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكَ مِائَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقُهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاحْمَدِي اللَّهَ مِائَةً تَحْمِيدَةً؛ تَعْدِلُ لَكَ مِائَةَ فَرَسٍ مُسَرَّجَةٍ مُلْجَمَةٍ تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَبِّرِي اللَّهَ مِائَةً تَكْبِيرَةً؛ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكَ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقْلَدَةٍ مُتَقَبِّلَةٍ، وَهَلِّلِي مِائَةً تَهْلِيلَةً) - قَالَ ابْنُ خُلْفٍ (الرَّوَايَةُ عَنْ عَاصِمٍ) أَحْسَبُهُ قَالَ -: (تَمَلُّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يُرْفَعُ يَوْمٌ إِلَّا بِمِثْلِ مَا أَتَيْتَ بِهِ)»^(٢).

وَتَأْمَلْ هَذَا الثَّوَابَ الْعَظِيمَ الْمُرْتَبِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؛ فَمَنْ سَبَّحَ اللَّهَ مِائَةً؛ أَي: قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ عِثْقَ مِائَةِ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَخَصَّ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمْ أَشْرَفُ الْعَرَبِ نَسَبًا، وَمَنْ حَمِدَ اللَّهَ مِائَةً، أَي: مَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ مِثْلُ ثَوَابِ مَنْ تَصَدَّقَ بِمِائَةِ فَرَسٍ مُسَرَّجَةٍ مُلْجَمَةٍ؛ أَي: عَلَيْهَا سَرَجُهَا وَلِجَامُهَا لِحْمَلِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ أَي: قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ مِثْلُ ثَوَابِ إِنْفَاقِ مِائَةِ بَدَنَةٍ مُقْلَدَةٍ مُتَقَبِّلَةٍ، وَمَنْ هَلَّلَ مِائَةً؛ أَي: قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مِائَةَ مَرَّةٍ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يُرْفَعُ لِأَحَدٍ يَوْمٌ إِلَّا بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ.

* وَمِنْ فَضَائِلِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: أَنَّهُنَّ مَكْفُرَاتٌ لِلذُّنُوبِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٥).

(٢) «المسند» (٣٤٤/٦)، و«شعب الإيمان» رقم (٦١٢)، قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤٠٩/٢): رواه أحمد بإسناد حسن، وحسن إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٣/٣).

في «المسند»، و«جامع الترمذي»، و«مستدرك الحاكم»، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا عَلَى الْأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ)^(١).

والمراد بالذنوب المكفرة هنا؛ أي: الصغائر؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكِبَائِرُ)^(٢)؛ فَقَيَّدَ التَّكْفِيرَ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ؛ لِأَنَّ الْكَبِيرَةَ لَا يُكْفَرُهَا إِلَّا التَّوْبَةُ.

وفي هذا المعنى ما رواه الترمذي وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةٍ الْوَرَقِ، فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ، فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَتَسَاقِطَ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقِطُ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)^(٣).

* ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أَنَّهُنَّ غَرَسُ الْجَنَّةِ؛ رَوَى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرَأْتُ أَمْتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانُ، غِرَاسُهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)^(٤).

وَالْقِيَعَانُ: جَمْعُ قَاعٍ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُسْتَوِي، الْوَاسِعُ فِي وَطْأَةٍ مِنَ الْأَرْضِ،

(١) «المسند» (٢/ ١٥٨، ٢١٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٦٠)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٥٠٣)، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٣٣).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٢٥٣٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٠١).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٢١).

يعلوه ماء السماء، فيمسكه ويستوي نباته؛ كذا في «النهاية» لابن الأثير^(١)، والمقصود: أن الجنة ينمو غراسها سريعاً بهذه الكلمات؛ كما ينمو غراس القيعان من الأرض ونبتها.

* **وَمِنْ فَضَائِلِهِنَّ:** أنه ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمّر في الإسلام يكثر تكبيره وتسبيحه وتهليله وتحميده؛ روى الإمام أحمد، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، بإسناد حسن، عن عبد الله بن شداد: «أن نقرأ من بني عذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا، قال: فقال النبي ﷺ: (مَنْ يَكْفِينِيهِمْ) قال طلحة: أنا، قال: فكانوا عند طلحة، فبعث النبي ﷺ بعثاً فخرج فيه أحدهم فاستشهد، قال: ثم بعث بعثاً آخر، فخرج فيهم آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالث على فراشه، قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميّت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه، ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، قال: فقال رسول الله ﷺ: (مَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمِّرُ فِي الْإِسْلَامِ يَكْثُرُ تَكْبِيرُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَتَهْلِيلُهُ وَتَحْمِيدُهُ)»^(٢).

وقد دلّ هذا الحديث العظيم على عظم فضل من طال عمره وحسن عمله، ولم يزل لسانه رطباً بذكر الله ﷻ، وللحديث صلة، وبالله وحده التوفيق.



(١) (١٣٢/٤).

(٢) «المسند» (١٦٣/١)، و«السنن الكبرى» للنسائي كتاب: عمل اليوم والليلة (٦) / رقم (١٠٦٧٤)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٦٥٤).

فَضَائِلُ أُخْرَى لِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ

لقد مرَّ معنا ذِكْرُ جملةٍ من الفضائلِ لكلماتٍ أربَعٍ هُنَّ أَفْضَلُ الْكَلَامِ
بعد القرآن: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ.

ونواصلُ هنا ذِكْرَ جملةٍ أُخْرَى من فضائلِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ من خلال
أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الواردة في ذلك:

* **فمن فضائلهنَّ:** أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ واصطفاهنَّ لِعِبَادِهِ،
ورَتَّبَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ بِهِنَّ أَجُورًا عَظِيمَةً، وَثَوَابًا جَزِيلًا، ففي «المسند» للإمام
أحمد، و«مستدرک الحاكم» - بإسناد صحيح - من حديث أبي هريرة،
وأبي سعيد رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ أَرْبَعًا:
سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ،
كُتِبَ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّتْ عَنْهُ عِشْرُونَ سَيِّئَةً، وَمَنْ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَمِثْلُ
ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّتْ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً)^(١).

وقد زاد في ثوابِ الحمدِ عندما يقولُهُ العبدُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ عن الأربع؛
لأنَّ الحمدَ لَا يَقَعُ غَالِبًا إِلَّا بَعْدَ سَبَبٍ؛ كَأَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ، أَوْ حَدُوثِ نِعْمَةٍ،
فكَأَنَّهُ وَقَعَ فِي مَقَابِلَةٍ مَا أُسْدِيَ إِلَيْهِ وَقْتُ الْحَمْدِ، فَإِذَا أَنْشَأَ الْعَبْدُ الْحَمْدَ مِنْ قَبْلِ
نَفْسِهِ دُونَ أَنْ يَدْفَعَهُ لَذَلِكَ تَجَدُّدُ نِعْمَةٍ، زَادَ ثَوَابُهُ.

* **ومن فضائلهنَّ:** أَنَّهُنَّ جُنَّةٌ لِقَائِلِهِنَّ مِنَ النَّارِ، وَيَأْتِيَن يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) «المسند» (٣٠٢/٢)، و«المستدرک» (٥١٢/١)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» رقم

مُنْجِيَاتٍ لِقَائِلِهِنَّ وَمَقْدَمَاتٍ لَهُ؛ رَوَى الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَالسَّائِغِيُّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «(خُذُوا جُنَّتَكُمْ)، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ! قَالَ: (لَا، بَلْ جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمَقْدَمَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ)»^(١).

وقد تَضَمَّنَ هذا الحديث - إضافةً إلى ما تقدَّم - وصفَ هؤلاء الكلماتِ بأنَّهِنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتِ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، والْبَاقِيَّاتُ؛ أي: التي يبقى ثوابُها، ويدوم جزاؤها، وهذا خيرٌ أَمَلٍ يُؤْمَلُهُ الْعَبْدُ وَأَفْضَلُ ثَوَابٍ.

* ومن فضائلهنَّ: أَنَّهُنَّ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ وَلَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيٌّ النحل، يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ؛ ففي «المسند للإمام أحمد»، و«سنن ابن ماجه»، و«مستدرك الحاكم»، عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ: التَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيرَ، وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيٌّ النحل، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا؛ أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ - أَوْ: لَا يَزَالُ لَهُ - مَنْ يَذْكُرُ بِهِ؟)^(٢).

فأفاد هذا الحديث هذه الفضيلة العظيمة، وهي أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ؛ أي: يَمْلَنَ حَوْلَهُ، وَلَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيٌّ النحل؛ أي: صوتٌ يشبهُ صوتَ النحل، يُذَكِّرْنَ بِقَائِلِهِنَّ، وفي هذا أعظمُ حُضٍّ عَلَى الذِّكْرِ بِهِؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؛ ولهذا قال في الحديث: (أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ - أَوْ: لَا يَزَالُ لَهُ - مَنْ يَذْكُرُ بِهِ؟!).

(١) «المستدرك» (٥٤١/١)، و«السنن الكبرى» كتاب: عمل اليوم واللييلة (٢١٢/٦)، قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢١٤).

(٢) «المسند» (٢٦٨/٤، ٢٧١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٠٩)، و«المستدرك» (٥٠٣/١)، قال البوصيريُّ في «زوائد سنن ابن ماجه»: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وصحَّحه الحاكم.

* ومن فضائلهنَّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُنَّ ثَقِيلَاتٌ فِي الْمِيزَانِ؛ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَالنَّسَائِيُّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالْحَاكِمُ، وَغَيْرُهُمْ عَنْ أَبِي سُلَيْمٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (بَخْ بَخْ)، وَأَشَارَ بِيَدِهِ بِخَمْسٍ - (مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ) ^(١).

وقوله في الحديث: (بَخْ بَخْ)، هي كلمة تُقال عند الإعجابِ بالشيءِ، وبيان تفضيله.

* ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أَنَّ لِلْعَبْدِ بِقَوْلِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ صَدَقَةً؛ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نَصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: (أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ)» ^(٢).

وقد ظنَّ الفقهاء أَنَّ لَا صَدَقَةَ إِلَّا بِالْمَالِ، وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ فِعْلِ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ صَدَقَةٌ، وَذَكَرَ فِي مَقْدَمَةِ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ.

(١) «المسند» (٤٤٣/٣)، و«السنن الكبرى» كتاب: عمل اليوم والليلة (٥٠/٦)، و«صحيح ابن حبان» (الإحسان) (١١٤/٣) رقم ٣٣٨، و«المستدرک» (٥١١/١)، صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَلِلْحَدِيثِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ ﷺ، خَرَّجَهُ الْبَزَّازُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَقَالَ: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، انْظُرْ: «كُشْفُ الْأَسْتَارِ عَنْ زَوَائِدِ الْبَزَّازِ» (٩/٤) رقم ٣٠٧٢.

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١٠٠٦).

* ومن فضائل هؤلاءِ الكلماتِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جعلهنَّ بدلاً عن القرآن الكريم في حقِّ مَنْ لَا يُحْسِنُهُ؛ روى أبو داود، والنسائي، والدارقطني، وغيرهم، عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، قال: «جاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ، فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعَلِّمني ما يُجْزئني منه، قال: (قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ)، قال: يا رسولَ اللَّهِ، هذا لله وَعَلَيْكَ، فما لي؟ قال: (قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي)، فلَمَّا قامَ قالَ هكذا بيده، فقال رسول الله ﷺ: (أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلَأَ يَدَهُ مِنَ الْخَيْرِ)»^(١).

فهذه بعضُ الفضائلِ الواردةِ في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ لهؤلاءِ الكلماتِ الأربعِ، وقد وَرَدَ لكلِّ كلمةٍ منهنَّ فضائلٌ مخصوصةٌ، ستأتي تفاصيلها، إن شاء الله.
 وَمَنْ يَتَأَمَّلْ هذه الفضائلَ المتقدِّمةَ يجدُ أَنَّها عظيمةٌ جداً، ودالَّةٌ على عظيمِ قَدْرِ هؤلاءِ الكلماتِ، ورفعةِ شأنهنَّ، وكثرةِ فوائدهنَّ وعوائدهنَّ على العبدِ المؤمنِ، ولعلَّ السَّرَّ في هذا الفضلِ العظيمِ - والله أعلم - ما ذُكِرَ عن بعضِ أهلِ العلمِ أَنَّ أسماءَ اللَّهِ تبارك وتعالى كلَّها مندرجةٌ في هذه الكلماتِ الأربعِ، فسبحانَ اللَّهِ: يندرجُ تحتهُ أسماءُ التنزيهِ كالقُدُّوسِ والسَّلامِ، والحمدُ لِلَّهِ: مشتملةٌ على إثباتِ أنواعِ الكمالِ لِلَّهِ تبارك وتعالى في أسمائه وصفاته، واللَّهُ أَكْبَرُ: فيها تكبيرُ اللَّهِ وتعظيمه، وأَنَّهُ لَا يُحْصِي أَحَدٌ الثَّناءَ عليه، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ ف «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»؛ أي: لا معبودَ حقٍّ سواه^(٢).

فللَّهِ! ما أعظمَ هؤلاءِ الكلماتِ! وما أَجَلَّ شأنهنَّ! وما أَكْبَرَ الخيرَ المترتَّبَ عليهنَّ! فنسألُ اللَّهَ أَنْ يوفِّقنا للمحافظةِ والمداومةِ عليهنَّ، وأنَّ يجعلَنا من أهلِهنَّ، الذين أَسْتَتَهُمْ رَطْبَةُ بَذْلِك؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ والقادرُ عليه.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣٥٣/٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٨٣٢)، و«سنن النسائي» (٢/١٤٣)، و«سنن الدارقطني» (٣١٣/١، ٣١٤)، واللفظ لأبي داود، وقال المحدث أبو الطيب العظيم آبادي في تعليقه على «سنن الدارقطني»: سنده صحيح. وقال الألباني: سنده حسن، «صحيح أبي داود» (١٥٧/١).

(٢) انظر: جزء في «تفسير الباقيات الصالحات» للعلائي (ص ٤٠).

فَضَائِلُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

كان الحديث فيما سبقَ حَوْلَ ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنَ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضْلِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ. وفيما يلي سيكونُ الحديثُ في ذِكْرِ فَضَائِلِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، التي هي أَفْضَلُ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ، وَأَجْلَهُنَّ وَأَعْظَمُهُنَّ؛ فَلأجلِ هذه الْكَلِمَةِ خُلِقَتِ الْخَلِيقَةُ، وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتِ الْكُتُبُ، وبها افْتَرَقَ النَّاسُ إِلَى مُؤْمِنِينَ وَكُفَّارٍ، وَسَعْدَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَشْقِيَاءِ أَهْلِ النَّارِ، فهي الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وهي كَلِمَةُ التَّقْوَى، وهي أَعْظَمُ أَرْكَانِ الدِّينِ، وَأَهْمُ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وهي سَبِيلُ الْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وهي كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ، ومِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ، وَأَصْلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ وَرَأْسُ أَمْرِهِ. وَفَضَائِلُ هذه الْكَلِمَةِ ومَوْقِعُهَا مِنَ الدِّينِ فَوْقَ مَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَيَعْرِفُهُ الْعَارِفُونَ؛ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

إنَّ لهذه الْكَلِمَةِ الْجَلِيلَةِ فَضَائِلَ عَظِيمَةً، وفَوَاضِلَ كَرِيمَةً، ومَزَايَا جَمَّةً، لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ اسْتِقْصَاءَهَا، ومِمَّا وَرَدَ فِي فَضْلِ هذه الْكَلِمَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَهَا زُبْدَةَ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَخِلَاصَةَ رِسَالَتِهِمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [٢]، وهذه الْآيَةُ هي أَوَّلُ مَا عَدَّدَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ فِي هذه السُّورَةِ؛ فَذَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ التَّوْفِيقَ لِذَلِكَ هُوَ أَعْظَمُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَسْبَغَهَا

على عباده؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠]؛ قال مجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أنعم الله على عبدٍ من العبادِ نعمةً أعظمَ من أن عرّفهم: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢).

* ومن فضائلها: أن الله وصفها في القرآن بأنها الكلمة الطيبة؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم].

* وهي القول الثابت في قوله تعالى: ﴿ثَبَّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

* وهي العهد في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]؛ روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «العهد: شهادة أن لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ويتبرأ إلى الله عَنِكَ من الحول والقوة، وهي رأس كل تقوى»^(٣).

* ومن فضائلها: أنها العروة الوثقى التي من تمسك بها نجا، ومن لم يتمسك بها هلك؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

* ومن فضائلها: أنها الكلمة الباقية التي جعلها إبراهيم الخليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٧٨/١١).

(٢) ذكره ابن رجب في «كلمة الإخلاص» (ص ٥٣).

(٣) رواه الطبراني في «الدعاء» (١٥١٨/٣).

تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿الزخرف﴾.

* وهي كلمة التقوى التي ألزَمَهَا اللهُ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

روى أبو إسحاق السَّبيعيُّ، عن عَمْرِو بن ميمون، قال: «ما تكلَّم النَّاسُ بشيءٍ أفضلَ مِنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فقال سعد بن عِيَّاضٍ: أتدري ما هي يا أبا عبد الله؟ هي والله كلمة التقوى، ألزَمَهَا اللهُ أصحابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها»^(١).

* ومن فضائل هذه الكلمة: أنَّها منتهى الصوابِ وغايته؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

روى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾؛ أنَّه قال: «إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ ﷻ بشهادة أن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وهي منتهى الصواب»^(٢).

وقال عكرمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الصوابُ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»^(٣).

* ومن فضائلها: أنَّها هي دعوة الحقِّ المرادة بقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِلَغِيٍّ وَمَا دَعَاُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

* ومن فضائلها: أنَّها هي الرابطة الحقيقية التي اجتمعَ عليها أهلُ دينِ الإسلام؛ فعليها يُوالونَ ويعادون، وبها يُحِبُّونَ ويُبْغِضُونَ، وبسببها أصبحَ

(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (٣/١٥٣٣).

(٢)(٣) رواه الطبراني في «الدعاء» (٣/١٥٢٠).

المجتمع المسلم كالجسد الواحد، وكالبنیان المرصوص، يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «أضواء البيان»: «والحاصل: أَنَّ الرابطة الحقيقية التي تَجْمَعُ الْمُفْتَرَقَ، وتوَلِّفُ الْمُخْتَلَفَ هي رابطة: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ ألا ترى أَنَّ هذه الرابطة التي تَجْمَعُ المجتمع الإسلاميَّ كُلَّهُ كأنَّهُ جَسَدٌ واحدٌ، وتجعلُهُ كالبنیانِ يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا عَطَفَتْ قُلُوبَ حَمَلَةِ العرشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الملائكةِ على بني آدَمَ في الأرض، مع ما بينهم مِنَ الاختلاف؟! قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ أَفْوَزُ الْعَظِيمِ﴾ [غافر]، فقد أشار تعالى إلى أَنَّ الرابطة التي رَبَطَتْ بين حَمَلَةِ العرشِ وَمَنْ حَوْلَهُ وبين بني آدَمَ في الأرضِ حتى دَعَوْا اللهَ لَهُم هذا الدعاء الصالح العظيم إِنَّمَا هي الإيمانُ باللهِ جَلَّ وعلا».

إلى أَنَّ قال رَحِمَهُ اللهُ: «وبالجملة: فلا خلاف بين المسلمين أَنَّ الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فلا يجوزُ أَلْبَتَةَ النداءِ برابطةٍ غَيْرِهَا»^(١). اهـ.

* ومن فضائل هذه الكلمة: أَنَّها أَفْضَلُ الحسنات؛ قال الله تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩].

وقد وردَ عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وغيرهم: أَنَّ المراد بِالْحَسَنَةِ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»^(٢)، وعن عكرمة رَحِمَهُ اللهُ فِي قول الله ﷻ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾، قال: «قول: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قال: له منها خير»؛

(١) «أضواء البيان» (٣/٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) انظر: «الدعاء» للطبراني (٣/١٤٩٧، ١٤٩٨).

لَأَنَّهُ لَا شَيْءَ خَيْرٌ مِنْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

وقد ثَبَتَ في «المسند» وغيره، عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي عَمَلًا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَ: (إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً، فَأَعْمَلْ حَسَنَةً؛ فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا)، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَمِنْ الْحَسَنَاتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ: (نَعَمْ، هِيَ أَحْسَنُ الْحَسَنَاتِ)»^(٢).

فهذه بعضُ فضائلِ هذه الكلمةِ العظيمة؛ مِنْ خِلالِ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَسَوْفَ نَسْتَكْمِلُ ذِكْرَ بَعْضِ فَضَائِلِهَا مِنْ خِلالِ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالتَّوْفِيقُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ.



(١) أوردته ابن البنا في «فضل التهليل وثوابه الجزيل» (ص ٧٤).

(٢) «المسند» (١٦٩/٥)، و«الدعاء» للطبراني رقم (١٤٩٨)، واللفظ له.

فَضَائِلُ أُخْرَى لِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

تَحَدَّثْنَا فِيمَا سَبَقَ عَنْ فَضَائِلِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ مِنْ خِلَالِ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، وَخُلِقَتْ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِهَا أُرْسِلَ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتِ الْكُتُبُ، وَشُرِعَتِ الشَّرَائِعُ، وَلِأَجْلِهَا نُصِبَتِ الْمَوَازِينُ، وَوُضِعَتِ الدَّوَابِيزُ، وَقَامَ سُوقُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَانْقَسَمَتِ الْخَلِيقَةُ إِلَى مُؤْمِنِينَ وَكُفَّارٍ، وَأَبْرَارٍ وَفُجَّارٍ، فَهِيَ مَنْشَأُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَهِيَ الْحَقُّ الَّذِي أُسِّسَتْ عَلَيْهِ الْمِلَّةُ، وَنُصِبَتِ الْقِبْلَةُ، وَعَنْهَا يُسْأَلُ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ مَسْأَلَتَيْنِ: مَاذَا كُتِمَ تَعْبُدُونَ؟ وَمَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ؟

فَجَوَابُ الْأُولَى: تَحْقِيقُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ عِلْمًا وَإِقْرَارًا وَعَمَلًا.

وَجَوَابُ الثَّانِيَةِ: بِتَحْقِيقِ: أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ عِلْمًا وَإِقْرَارًا، وَانْقِيَادًا وَطَاعَةً^(١).

إِنَّ فَضَائِلَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا يُمَكِّنُ لِمَخْلُوقٍ عُدْهَا؛ إِذْ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَالْفَوَائِدِ الْجَمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَخْطُرُ بِبَالٍ، وَلَا يَدُورُ فِي خِيَالٍ، وَلَعَلِّي أُسْتَعْرَضُ جَمَلَةً مِنْ فَضَائِلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ مِنْ خِلَالِ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* فَمِنْ فَضَائِلِهَا: أَنَّهَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَأَكْثَرُهَا تَضَعِيفًا، وَتَعْدِيلُ

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (١/٣٤).

عَثَقَ الرَّقَابَ، وَتَكُونُ لِقَائِهَا حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»،
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ،
لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ،
كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرٍ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ،
وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا
جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ) ^(١).

وفيهما أيضًا عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:
(مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَاتٍ، كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ) ^(٢).

* وَمِنْ فَضَائِلِهَا: أَنَّهَا أَفْضَلُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّونَ: لِمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ^(٣)، وَفِي
لَفْظٍ: (خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ^(٤).

* وَمِنْ فَضَائِلِهَا: أَنَّهَا تَرْجُحُ بِصَحَائِفِ الذُّنُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا فِي
حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُخَرَّجِ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَ«جَامِعِ
الترمذي»، وَغَيْرِهِمَا، بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (يُصَاحُّ بِرَجُلٍ مِنْ
أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ
سَجَلٍ مِنْهَا مَدَّةُ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟
فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ ﷻ: أَلَكِ عُدْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ:

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٣).

(٣) أخرجه الطبراني في «الدعاء» رقم (٨٧٤)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٣٥٨٥)، من حديث عبد الله بن عمرو، وحسنه الألباني
في «السلسلة الصحيحة» (٧/٤، ٨)، وقال: «الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد».

لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ ﷺ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرِجُ لَهُ بِلَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِلَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟! فَيَقُولُ ﷺ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِلَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقَلَتِ الْبِلَاقَةُ^(١).

ولا ريبَ أنَّ هذا قد قام بقلبه من الإيمان ما جعلَ بِلَاقَتَهُ التي فيها: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، تطيشُ بتلك السَّجَلَاتِ؛ إذ الناسُ متفاضلون في الأعمال بحَسَبِ ما يقومُ بقلوبهم من الإيمان، وإلا فكُم من قائلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا يَحْصُلُ لَهُ مِثْلُ هذا لضعفِ إيمانه بها في قلبه؛ فقد ورد في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ)^(٢)؛ فدلَّ ذلك على أنَّ أهل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، متفاوتون فيها بحَسَبِ ما قامَ في قلوبهم من إيمان.

* ومن فضائل هذه الكلمة: أَنَّها لو وُزِنَتْ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَجَحَتْ بِهِنَّ؛ كما في «المسند»، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: (أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: أَمْرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ كُنَّ حَلَقَةً مُبْهَمَةً، لَقَصَمْتُهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)^(٣).

(١) «المسند» (٢/٢١٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٦٣٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤٣٠٠)، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رقم (٨٠٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٤)، و«صحيح مسلم» رقم (١٩٣)، (٣٢٥).

(٣) «المسند» (٢/١٧٠)، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» رقم (١٣٤).

* ومن فضائلها: أنها ليس لها دون الله حجاب، بل تَخْرُقُ الْحُجُبَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى اللَّهِ ﷻ، ففي «الترمذي»، بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَا قَالَ عَبْدٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَطُّ مُخْلِصًا، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ، مَا اجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ)^(١).

* ومن فضائلها: أنها نجاة لقائلها مِنَ النَّارِ؛ ففي «صحيح مسلم»: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ مُؤَدِّنًا يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: (خَرَجَ مِنَ النَّارِ)^(٢)، وفي «الصحيحين»، من حديث عِثْبَانَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ)^(٣).

* وَمِنْ فَضَائِلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَهَا أَفْضَلَ شُعَبِ الْإِيمَانِ؛ ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ)^(٤).

* ومن فضائلها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهَا أَفْضَلُ الذِّكْرِ؛ كَمَا فِي «الترمذي» وغيره، مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ)^(٥).

* وَمِنْ فَضَائِلِهَا: أَنَّ مَنْ قَالَهَا خَالصًا مِنْ قَلْبِهِ يَكُونُ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا فِي «الصحيح»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أَنَّهُ قَالَ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٤٨).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٢).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٦٩٣٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٣، ٢٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٥).

(٥) «جامع الترمذي» رقم (٣٣٨٣)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٠٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١١٠٤).

قال رسول الله ﷺ: (لَقَدْ ظَنَنْتُ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ؛ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ) ^(١).

وفي قول النبي ﷺ في هذا الحديث: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ) دليلٌ على أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا تُقْبَلُ مِنْ قَائِلِهَا بِمَجَرَّدِ قَوْلِهِ لَهَا بِلِسَانِهِ فَقَطْ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ اسْتِيفَاءِ شُرُوطِهَا وَالِإِتْيَانِ بِقِيُودِهَا الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ إِذْ هِيَ لَا تُقْبَلُ مِنْ قَائِلِهَا إِلَّا بِذَلِكَ، وَعَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْمَهْمُ سَيَكُونُ الْكَلَامُ الْقَادِمُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



شُرُوطُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

لقد تقدّم معنا ذكرُ شيءٍ من فضائل كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، التي هي خيرُ الكلماتِ وأفضلُها وأجلُّها، وذكرُ ما يترتّبُ عليها من أجورٍ كريمةٍ، وفضائلٍ عظيمةٍ، وثمارٍ نافعةٍ في الدنيا والآخرة، لكنّ يجبُ على المسلم أن يعلمَ أنّ لا إله إلا الله، لا تُقبَلُ من قائلها بمجردِ نطقه لها باللسان فقط، بل لا بدّ من أداءِ حقّها وفرضها، واستيفاءِ شروطها الواردة في الكتاب والسنة، وكلّ مسلم يعلمُ أنّ كلّ طاعةٍ يتقرّبُ بها إلى الله لا تُقبَلُ منه إلا إذا أتى بشروطها، فالصلاة لا تُقبَلُ إلا بشروطها المعلومة، والحجّ لا يُقبَلُ إلا بشروطه، وجميعُ العباداتِ كذلك، لا تُقبَلُ إلّا بشروطها المعلومة من الكتاب والسنة، وهكذا الشأنُ في: لا إله إلا الله، لا تُقبَلُ إلا إذا قامَ العبدُ بشروطها المعلومة في الكتاب والسنة.

وقد أشارَ سلفنا الصالح - رحمهم الله - إلى أهميّة العناية بشروط: لا إله إلا الله، ووجوبِ الالتزام بها، وأنها لا تُقبَلُ إلا بذلك، ومن ذلك ما جاء عن الحسن البصريّ رحمته الله، أنّه قيل له: «إنّ ناساً يقولون: من قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله، فأدّى حقّها وفرضها، دخل الجنة».

وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته: «ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة، فقال الحسن: نعم العدة، لكنّ لا إله إلا الله شروط، فإياك وقذّف المخصّصات».

وقال وهب بن منبه لمن سأله: «أليس مفتاح الجنة: لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإنّ أتيت بمفتاح له أسنان،

فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ؛ يشيرُ بالأسنانِ إلى شروطٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١).
ثم إنَّه باستقراءِ أهلِ العلمِ لنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ، تَبَيَّنَ أَنَّ:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا تُقْبَلُ إِلَّا بِسَبْعَةِ شُرُوطٍ؛ وهي:

١ - العلمُ بمعناها نفياً وإثباتاً، المنافي للجهل.

٢ - اليقينُ المنافي للشكِّ والريب.

٣ - الإخلاصُ المنافي للشركِ والرياء.

٤ - الصدقُ المنافي للكذب.

٥ - المحبةُ المنافية للبُغْضِ والكره.

٦ - الانقيادُ المنافي للتَّركِ.

٧ - القبولُ المنافي للردِّ.

وقد جَمَعَ بعضُ أهلِ العلمِ هذه الشروطَ السبعةَ في بيتٍ واحدٍ، فقال:

عِلْمٌ يَقِينٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقٌ مَعَ مَحَبَّةٍ وَأَنْقِيَادٍ وَالْقَبُولُ لَهَا

ولنَقِفَ وقفةً مختصرةً مع هذه الشروطِ لبيانِ المرادِ بكلِّ واحدٍ منها، مع

ذِكْرِ بعضِ أدلَّتِها من الكتابِ والسُّنَّةِ^(٢):

• أما الشرطُ الأولُ: وهو العلمُ بمعناها المرادِ منها نفياً وإثباتاً، المنافي

للجهل؛ وذلك بأن يَعْلَمَ مَنْ قالها أَنَّها تنفي جميعَ أنواعِ العبادةِ عن كلِّ مَنْ

سِوَى اللَّهِ، وتُثَبِّتُ ذلكَ لله وحده؛ كما في قوله ﷺ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾؛ أي: نَعْبُدُكَ ولا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، ونَسْتَعِينُ بِكَ ولا نَسْتَعِينُ بِسِوَاكَ.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] قال المفسِّرون: إِلَّا مَنْ شَهِدَ

ب: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: معنى ما شَهِدُوا به في قلوبهم

وَأَلْسِنَتِهِمْ.

(١) أورد هذه الآثار ابن رجب في «كلمة الإخلاص» (ص ١٤).

(٢) وانظر شرحها موسَّعاً في: «معارج القبول» للشيخ حافظ حكيم (٣٧٧/١ وما بعدها).

وُثِّبَتْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ) ^(١)، فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ الْعِلْمَ.

• وَأَمَّا الشَّرْطُ الثَّانِي: فَهُوَ الْيَقِينُ الْمُنَافِي لِلشَّكِّ وَالرَّيْبِ؛ أَي: أَنْ يَكُونَ قَائِلُهَا مَوْقِنًا بِهَا يَقِينًا جَازِمًا، لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ، وَالْيَقِينُ هُوَ: تَمَامُ الْعِلْمِ وَكَمَالُهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَّهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾؛ أَي: أَيْقَنُوا وَلَمْ يَشْكُوا.

وُثِّبَتْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) ^(٢).

وُثِّبَتْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ لَقِيَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُسْتَقِينًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ) ^(٣)؛ فَاشْتَرَطَ الْيَقِينَ.

• وَالشَّرْطُ الثَّلَاثُ: هُوَ الْإِخْلَاصُ الْمُنَافِي لِلشُّرْكِ وَالرِّيَاءِ؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِتَصْفِيَةِ الْعَمَلِ وَتَنْقِيَّتِهِ مِنْ جَمِيعِ الشَّوَابِ الظَّاهِرَةِ وَالْخَفِيَّةِ؛ وَذَلِكَ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وَفِي «الصَّحِيحِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ) ^(٤)؛ فَاشْتَرَطَ الْإِخْلَاصَ.

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٢٦).

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٢٧).

(٣) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٣١).

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٥٣).

• والشرط الرابع: هو الصدق المنافي للكذب؛ وذلك بأن يقول العبد هذه الكلمة صادقاً من قلبه، والصدق هو: أن يواطئ القلب اللسان؛ ولذا قال الله تعالى في ذم المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ فوصفهم سبحانه بالكذب؛ لأن ما قالوه بالسنتهم لم يكن موجوداً في قلوبهم، وقال ﷺ: ﴿الْمَدَّ ① أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت]، وثبت في «الصحيحين»، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ) ^(١)؛ فاشتراط الصدق.

• الشرط الخامس: المحبة المنافية للبغض والكراهة؛ وذلك بأن يحب قائلها الله ورسوله ودين الإسلام والمسلمين، القائمين بأوامر الله، الواقفين عند حدوده، وأن يبغض من خالف لا إله إلا الله، وأتى بما يناقضها من شرك وكفر؛ ومما يدل على اشتراط المحبة في الإيمان: قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي الحديث: (أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ) ^(٢).

• الشرط السادس: القبول المنافي للرد؛ فلا بُدَّ مِنْ قَبُولِ هذه الكلمة قبولاً حقاً بالقلب واللسان، وقد قصَّ الله علينا في القرآن الكريم أنباء من سبق ممن أنجاهم لقبولهم لا إله إلا الله، وانتقامه وإهلاكه لمن ردها ولم يقبلها؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال سبحانه في شأن المشركين:

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٢٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢٨٦/٤)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٢٨).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَيْتَنَا لَشَاعِرٍ تَجْتُنُّ ﴿[الصفات].

• الشرط السابع: الانقياد المنافي للتَّرك؛ إذ لا بدَّ لقائل: لا إله إلا الله، أن ينقاد لشرع الله، ويذعن لحكمه ويُسَلِّم وجهه إلى الله؛ إذ بذلك يكون متمسكاً ب: لا إله إلا الله؛ ولذا يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [القمان: ٢٢]؛ أي: فقد استمسك ب: لا إله إلا الله؛ فاشتَرَطَ سبحانه الانقياد لشرع الله، وذلك بإسلام الوجه له سبحانه.

فهذه هي شروط: لا إله إلا الله، وليس الجبراد منها عدَّ ألفاظها وحفظها فقط؛ فكم من عامي اجتمعت فيه والترَمَّها، ولو قيل له: اعدّها، لم يُحَسِّن ذلك! وكم من حافظٍ لألفاظها يجري فيها كالسَّهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها! فالمطلوب إذا العلم والعمل معاً؛ ليكون المرء بذلك من أهل: لا إله إلا الله صدقاً، ومن أهل كلمة التوحيد حقاً، والموفق لذلك والمُعِين هو الله وحده، فنسأله سبحانه أن يوفّقنا لتحقيق ذلك، والحمد لله وحده.



مَذْلُولٌ وَمَعْنَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

إنَّ كلمة التوحيد: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، التي هي خيرُ الذِّكْرِ وأفضلُهُ وأكملُهُ، لا تكونُ مقبولةً عندَ اللَّهِ بمجردِ التلقُّظِ بها باللسانِ فقط، دونَ قيامِ مِنَ العبدِ بحقيقةِ مدلولها، وتطبيقِ لأساسِ مقصودها مِنْ نفيِ الشريكِ وإثباتِ الوحدانيَّةِ لِلَّهِ، مَعَ الاعتقادِ الجازمِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ ذلكَ والعملِ به؛ فبذلكَ يكونُ العبدُ مسلمًا حقًّا؛ وبذلكَ يكونُ مِنْ أَهْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وقد تَضَمَّنَتْ هذه الكلمةُ العظيمةُ أَنَّ ما سوى اللَّهِ ليسَ بِإِلَهِ، وَأَنَّ إِلَهِيَّةَ ما سواه أَبْطُلَ الباطلُ، وإثباتُها أَظْلَمَ الظُّلْمُ، ومنتَهَى الضلالُ؛ قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ﴾ [الأحْقَافُ]، وقالَ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقالَ تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غيرِ موضعه، ولا ريبَ أَنَّ صَرْفَ العبادةِ لِغيرِ اللَّهِ ظُلْمٌ؛ لأنَّه وَضَعَ لها في غيرِ موضعها، بل إِنَّه أَظْلَمَ الظُّلْمِ وأَظْهَرُهُ.

إِنَّ لـ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - هذه الكلمةُ العظيمةُ - مدلولًا لا بُدَّ مِنْ فهمه، ومعْنَى لا بُدَّ مِنْ ضبطه؛ إذْ غيرُ نافعٍ بإجماعِ أَهْلِ العلمِ النطقُ بهذه الكلمةِ مِنْ غيرِ فهمٍ لمعناها، ولا عَمَلٍ بما تقتضيه؛ كما قالَ اللَّهُ سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ومعْنَى الآيةِ كما قالَ أَهْلُ التفسيرِ: أَي: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِلا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم؛ إذ إنَّ الشهادة تقتضي العلم بالمشهود به، فلو كانت عن جهل لم تكن شهادةً، وتقتضي الصدق، وتقتضي العمل بذلك، وبهذا يتبين أنَّه لا بدَّ في هذه الكلمة من العلم بها مع العمل والصدق، فبالعلم ينجو العبد من طريقة النصارى الذين يَعْمَلُونَ بلا علم، وبالعمل ينجو من طريق اليهود الذين يعلمون ولا يَعْمَلُونَ، وبالصدق ينجو من طريقة المنافقين الذين يُظْهِرُونَ ما لا يُبْطِنُونَ، ويكون بذلك من أهل صراط الله المستقيم، من الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

والحاصل أنَّ: لا إله إلا الله لا تَنْفَعُ إلا مَنْ عَرَفَ مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقد ذلك وعمل به، أمَّا مَنْ قالها وعمل بها ظاهراً من غير اعتقاد، فهو المنافق، وأمَّا مَنْ قالها وعمل بضدّها وخلافها من الشُّرك فهو الكافر، وكذلك مَنْ قالها وارتدَّ عن الإسلام بإنكار شيءٍ من لوازمها وحقوقها، فإنَّها لا تنفعه، ولو قالها ألف مرة، وكذلك مَنْ قالها وهو يصرف أنواعاً من العبادة لغير الله؛ كالدعاء، والذَّبْح، والنذر، والاستغاثة، والتوكُّل، والإنابة، والرجاء، والخوف والمحبة، ونحو ذلك، فمَنْ صرف شيئاً مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله، فهو مشرك بالله العظيم، ولو نطق بلا إله إلا الله؛ إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص الذي هو معنى ومدلول هذه الكلمة العظيمة^(١).

فإنَّ لا إله إلا الله معناها: لا معبود حقَّ إلا إلهٌ واحدٌ، وهو الله وحده لا شريك له، والإله في اللغة: هو المعبود، ولا إله إلا الله؛ أي: لا معبود حقَّ إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فتبين بذلك أنَّ معنى الإله هو المعبود، وأنَّ لا إله إلا الله، معناها: إخلاصُ العبادة لله وحده، واجتنابُ عبادة الطاغوت؛ ولهذا لَمَّا قال النبي ﷺ لكفار قريش:

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» رقم (٧٨).

قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال قومٌ هُوَ لَنَبِيِّهِمْ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، قالوا ذلك وهو إنما دعاهم إلى لا إله إلا الله؛ لأنَّهم فهموا أنَّ المرادَ بها نفي الألوهية عن كلِّ مَنْ سِوَى اللَّهِ، وإثباتها لله وحده لا شريك له، ف: لا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات؛ فنفت الإلهية عن كلِّ ما سِوَى اللَّهِ تعالى، فكلُّ ما سِوَى اللَّهِ من الملائكة والأنبياء - فضلًا عن غيرهم - فليس بإله، وليس له مِنَ العبادة شيءٌ، وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أنَّ العبد لا يألُوهُ غيرَه؛ أي: لا يقصده بشيءٍ مِنَ التَّأَلُّهِ، وهو تَعَلُّقُ الْقَلْبِ الَّذِي يُوْجِبُ قَصْدَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ؛ كالدعاء والذبح والنذر، وغير ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم نصوصٌ كثيرةٌ تُبَيِّنُ معنى كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وتُوضِّحُ المرادَ بها؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى حكايةً عن مؤمنٍ يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٧﴾ إِنَّنِي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١١، ١٢، ١٣]، وقال تعالى حكايةً عن مؤمنٍ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًا، وهي تُبَيِّنُ أَنَّ معنى: لا إله إلا الله:

هو البراءة مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَى اللَّهِ مِنَ الشُّفَعَاءِ وَالْأَنْدَادِ، وَإِفْرَادُ اللَّهِ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ، فَهَذَا هُوَ الْهَدْيُ وَدِينُ الْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، أَمَّا قَوْلُ الْإِنْسَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ لِمَعْنَاهَا، وَلَا عَمَلٍ بِمُقْتَضَاهَا، بَلْ لَرَبِّمَا جَعَلَ لَغَيْرِ اللَّهِ حِطًّا وَنَصِيًّا مِنْ عِبَادَتِهِ مِنَ الدُّعَاءِ وَالْخَوْفِ وَالذَّبْحِ وَالنَّذْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَكْفِي الْعَبْدَ لِأَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَنْجِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ^(١).

فَلَيْسَتْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ اسْمًا لَا مَعْنَى لَهُ، أَوْ قَوْلًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ، أَوْ لَفْظًا لَا مَضْمُونَ لَهُ، كَمَا قَدْ يَظُنُّهُ بَعْضُ الظَّانِّينَ، الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ غَايَةَ التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ هُوَ النُّطْقُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ فِي الْقَلْبِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَعْنَى، أَوْ التَّلَفُّظُ بِهَا مِنْ غَيْرِ إِقَامَةٍ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَصُولِ وَالْمَبَانِي، وَهَذَا قِطْعًا لَيْسَ هُوَ شَأْنُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ، بَلْ هِيَ اسْمٌ لِمَعْنَى عَظِيمٍ، وَقَوْلٌ لَهُ مَعْنَى جَلِيلٌ، هُوَ أَجَلُّ مِنْ جَمِيعِ الْمَعْنَى، وَحَاصِلُهُ كَمَا تَقَدَّمَ: الْبَرَاءَةُ مِنْ عِبَادَةِ كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ خُضُوعًا وَتَذَلُّلًا، وَطَمَعًا وَرَغْبًا، وَإِنَابَةً وَتَوَكُّلًا، وَدُعَاءً وَطَلِبًا، فَصَاحِبُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَسْأَلُ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَسْتَغِيثُ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَلَا يَرْجُو غَيْرَ اللَّهِ، وَلَا يَذْبَحُ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَصْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ لَغَيْرِ اللَّهِ، وَيَكْفُرُ بِجَمِيعِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَيَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

فِيهَا لَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَجَلَّهَا! وَيَا لَهُ مِنْ أَمْرٍ مَا أَبَيَّنَّهُ وَأَوْضَحَهُ! وَلَكِنَّ التَّوْفِيقَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَعَانُ.



(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص ١٤٠).

نَوَاقِضُ شَهَادَةِ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

لقد مرَّ معنا شروطُ كلمةِ التوحيد: لا إلهَ إلا الله، التي لا بدَّ من توفُّرها في العبدِ لتكونَ مقبولةً منه عند الله، وهي شروطٌ عظيمةُ الشأن، جليلةُ القدر، يجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يُعنى بها عنايةً كبيرةً، ويهتمَّ بها اهتمامًا بالغًا، وإنَّ مما ينبغي أن يهتمَّ به المسلمُ في هذا البابِ العظيم معرفةَ نواقضِ هذه الكلمة؛ ليكونَ منها في حذرٍ؛ فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى قد بيَّن في كتابه سبيلَ المؤمنين المُحقِّقين لهذه الكلمة مفصَّلةً، وبيَّن سبيلَ المجرمين المخالفين لها مفصَّلةً، وبيَّن سبحانه عاقبةَ هؤلاء وعاقبةَ هؤلاء، وأعمالَ هؤلاء وأعمالَ هؤلاء، والأسبابَ التي وفقَّ بها هؤلاء والأسبابَ التي خذلَ بها هؤلاء، وجلَّى سبحانه الأمرين في كتابه، وكشَّفهما وأوضَّحهما، وبيَّنهما غايةَ البيان؛ كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ومن لم يعرف سبيلَ المُجرمين، ولم تستبين له طريقهم، أوشك أن يقع في بعض ما هم فيه من الباطل؛ ولذا قال أمير المؤمنين عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةٌ عُرْوَةً؛ إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْجَاهِلِيَّةَ»^(١).

ولهذا جاءتِ النصوصُ الكثيرةُ في الكتابِ والسُّنةِ المحذِّرةُ من أسبابِ الرِّدَّةِ وسائرِ أنواعِ الشُّركِ والكُفْرِ المناقضةِ لكلمةِ التوحيد: لا إلهَ إلا الله، وقد ذكَّرَ العلماءُ رحمهم الله في بابِ حكمِ المرتدِّ من كتبِ الفقه: أنَّ المسلمَ قد يرتدُّ عن دينه بأنواعٍ كثيرةٍ من النواقض؛ إذا وقعَ فيها، أو في أيِّ شيءٍ منها،

(١) انظر: «الفوائد» لابن القيم (ص ٢٠١ وما بعدها).

ارتَدَّ عن الدِّينِ وانتَقَلَ من المِلَّةِ، ولم ينفعهُ مجرَّدُ التَّلَفُّظِ ب: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ إذْ إِنَّ هذه الكلمةَ العظيمةَ التي هي خيرُ الذِّكْرِ وأفضلُهُ، لا تكونُ نافعةً لقائلها إلا إذا أتى بشروطها، واجتَنَبَ كُلَّ أمرٍ يُناقضها.

❏ وما مِنْ ريبٍ أَنَّ في معرفةِ المسلمِ لهذه النواقضِ فائدةً عظيمةً في الدين، إذا عَرَفَهَا معرفةً يقصِدُ مِنْ ورائها السَّلامةَ مِنْ هذه الشرورِ، والنَّجاةَ مِنْ تلكَ الآفاتِ؛ ولهذا فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ الشُّرَكَ والكُفْرَ والباطلَ وطُرُقَهُ، وأبغَضَهَا، وحَذَرَهَا وحَذَّرَ منها، ودَفَعَهَا عن نفسه، ولم يَدْعُهَا تَحْدِثُ إيمانه، بل يزدادُ بمعرفتها بصيرةً في الحقِّ ومحبةً له، وكراهةً لتلك الأمور، ونفرةً عنها، كان له في معرفتهِ هذه مِنْ الفوائدِ والمنافعِ ما لا يعلمُهُ إِلَّا اللهُ، واللهُ سبحانه يُحِبُّ أَنْ تُعْرَفَ سبيلُ الحقِّ لِتُحَبَّ وتُسَلَّكَ، ويحِبُّ أَنْ تُعْرَفَ سبيلُ الباطلِ لِتُجْتَنَبَ وتُبْغَضَ؛ إذْ إِنَّ المسلمَ كما أَنَّهُ مطالبٌ بمعرفةِ سبيلِ الخيرِ ليطبِّقها، فهو كذلكَ مطالبٌ بمعرفةِ سُبُلِ الشرِّ ليحذرها؛ ولهذا ثَبَتَ في «الصحيحين» عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ الصَّحَابَةُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكَنتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُذَرِّكَنِي»^(١)؛ ولهذا أيضًا قِيلَ:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ رَلِكِنْ لِتَوَقُّيهِ
وَمَنْ لَا يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ

وإذا كان الأمرُ بهذه الحال، وعلى هذا القدرِ من الأهمية، فَإِنَّ الواجبَ على كُلِّ مسلمٍ أَنْ يَعْرِفَ الأمورَ التي تناقضُ كلمةَ التوحيدِ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ ليكونَ منها على حَذَرٍ، وهي - كما تَقَدَّمَ - تنتقضُ بأمورٍ كثيرةٍ، إِلَّا أَنَّ أَشَدَّ هذه النواقضِ خطرًا وأكثرها وقوعًا عَشْرَةُ نواقضٍ ذَكَرَهَا غيرُ واحدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللهُ^(٢)، وفيما يلي ذِكْرُ لهذه النواقضِ على سبيلِ الإيجازِ؛ لِيَحَذَرَهَا المسلمُ، وليَحَذَّرَ منها غيرُهُ مِنَ المسلمين، رجاءَ السَّلامةِ والعافيةِ منها:

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٦٠٦)، و«صحيح مسلم» رقم (١٨٤٧).

(٢) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/٢٣٢ وما بعدها).

أما الأول: فهو الشرك في عبادة الله؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ومن ذلك: دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والنذر والذبح لهم، ونحو ذلك.

الثاني: مَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ، وَيَسْأَلُهُمُ الشَّفَاعَةَ، وَيتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ، فقد كَفَرَ إجماعاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَبُدُوا مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

الثالث: مَنْ لَمْ يُكْفِرِ الْمَشْرِكِينَ، أَوْ شَكَ فِي كُفْرِهِمْ، أَوْ صَحَّحَ مَذْهَبَهُمْ، كَفَرَ.

الرابع: مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ هَدْيَ غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَكْمَلُ مِنْ هُدْيِهِ، أَوْ أَنَّ حُكْمَ غَيْرِهِ أَحْسَنُ مِنْ حُكْمِهِ، فهو كافر؛ كالذين يَفْضُلُونَ حُكْمَ الطَّاغُوتِ عَلَى حُكْمِهِ ﷺ.

الخامس: مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَلَوْ عَمِلَ بِهِ، فقد كَفَرَ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

السادس: مَنْ اسْتَهْزَأَ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ ثَوَابِهِ أَوْ عِقَابِهِ، كَفَرَ؛ والدليلُ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَلِلَّهِ وَأَيْنَيْهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ١٥ لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة].

السابع: السَّحَرُ، وَمِنْهُ الصَّرْفُ وَالْعَطْفُ؛ فَمَنْ فَعَلَهُ أَوْ رَضِيَ بِهِ، كَفَرَ؛ والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقِّ يَقُولَا إِلَّا مَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثامن: مَظَاهِرَةُ الْمَشْرِكِينَ وَمَعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

التاسع: مَنْ اعتَقَدَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَسْعُهُ الْخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

العاشر: الإِعْرَاضُ عَنْ دِينِ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ؛ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

فهذه عَشْرَةُ أُمُورٍ مِنْ نَوَاقِصِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - انْتَقَضَ تَوْحِيدُهُ، وَانْهَدَمَ إِيْمَانُهُ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِقَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَدْ نَصَّ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ النِّوَاقِصِ بَيْنَ الْهَازِلِ وَالْجَادِّ وَالْخَائِفِ، إِلَّا الْمُكْرَهَ، وَجَمِيعُ هَذِهِ النِّوَاقِصِ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ خَطَرًا، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ وَقُوعًا؛ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْذَرَهَا وَيَخَافَ مِنْهَا عَلَى نَفْسِهِ؛ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ مُوجِبَاتِ غَضَبِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُؤَفِّقَنَا جَمِيعًا لِمَا يَرْضِيهِ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ قَرِيبٌ.



بَيَانُ فَسَادِ الذِّكْرِ بِالْأَسْمِ الْمَفْرَدِ مُظْهِرًا أَوْ مُضْمَرًا

كان الحديث - فيما مضى - في بيان فضل كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وأنها خير ما ذَكَرَ به الذاكرون ربَّهم، وأفضل ما لَهَجَتْ به ألسنتهم، وهي كلمة يسير لفظها، عظيم معناها، وحاجة العباد إليها هي أعظم الحاجات، وضرورتهم إليها هي أعظم الضرورات، بل إن حاجتهم وضرورتهم إليها أعظم من حاجتهم وضرورتهم إلى طعامهم وشرابهم ولباسهم وسائر شؤونهم. ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة إلى: لا إله إلا الله، ما لا نهاية له ولا حد، كانت من أكثر الأذكار وجودًا، وأيسرها حصولًا، وأعظمها معنى، وأجلها مكانة. ومع هذا كله، فإن بعض العوامَّ والجُهَّالِ يَعدِّلون عنها، وينصرفون إلى دعوات مبتدعة، وأذكارٍ مخترعة ليست في الكتاب ولا في السنة، وليست مأثورة عن أحدٍ من سلف الأمة^(١).

ومن ذلك: ما يفعله بعض الطُرُقِيَّةِ من أهل التصوف في أذكارهم، حيث يذكرون الاسم المفرد مُظْهِرًا فقط، فيقولون: (الله، الله)، يكررون لفظ الجلالة، وربما أتى بعضهم بدَل ذلك بالاسم المضمَر: (هُوَ) مكرَّرًا، وقد يغلو بعضهم في ذلك، فيجعل ذكر كلمة التوحيد: لا إله إلا الله للعامة، وذكَّر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الاسم المضمَر لخاصة الخاصة، وربما قال بعضهم: (لا إله إلا الله) للمؤمنين، و(الله) للعارفين، و(هو) للمحققين، فيفضِّلون بذلك ذكر الاسم المفرد مُظْهِرًا، أو ذكره مُضْمَرًا على كلمة التوحيد لا إله إلا الله التي وصفها رسول الله ﷺ بأنها أفضل الذِّكْرِ، وأنها أفضل ما قاله عليه الصلاة والسلام هو والنبُّون من قبله.

(١) انظر: «فتح المجيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ص ٤٥).

وقد سبقَ أن مرَّ معنا بعضُ الأحاديثِ الدَّالَّةِ على ذلك، هذا مع أن ذِكرَ الاسمِ المفردِ مُظْهِراً أو ذِكرَهُ مضمراً ليس بمشروع في الكتاب ولا في السُّنَّةِ، ولا هو مأثورٌ عن أحدٍ من سلفِ الأُمَّةِ، وإنَّما لَهَجَ به قومٌ من ضلالِ المتأخِّرين بلا حجةٍ ولا برهانٍ.

وقد فنَّدَ شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ دَعَاوِي هَؤُلَاءِ فِي ذِكْرِهِمُ الْمُحَدَّثِ هَذَا، وَبَيَّنَ فِسَادَ مَا قَدْ يَتَشَبَّثُونَ بِهِ لِنَصْرَتِهِ وَتَقْرِيرِهِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَرَبَّمَا ذَكَرَ بَعْضُ الْمُصَنِّفِينَ فِي الطَّرِيقِ تَعْظِيمَ ذَلِكَ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ تَارَةً بِوَجْدٍ، وَتَارَةً بِرَأْيٍ، وَتَارَةً بِنَقْلِ مَكْذُوبٍ؛ كَمَا يَرَوِي بَعْضُهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقَّنَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُ، اللَّهُ، اللَّهُ، فَقَالَهَا النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَمَرَ عَلِيًّا، فَقَالَهَا ثَلَاثًا»، وَهَذَا حَدِيثٌ مُضَوِّعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ، وَإِنَّمَا كَانَ تَلْقِينُ النَّبِيِّ ﷺ لِلذِّكْرِ الْمَأْثُورِ عَنْهُ، وَرَأْسُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي عَرَضَهَا عَلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ الْمَوْتِ، وَقَالَ: (يَا عَمُّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ) ^(١)، وَقَالَ: (إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ الْمَوْتِ، إِلَّا وَجَدَ رُوحَهُ لَهَا رَوْحًا) ^(٢)، وَقَالَ: (مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ) ^(٣)، وَقَالَ: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) ^(٤)، وَالْأَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

ثُمَّ قَالَ: «فَأَمَّا ذِكْرُ الْاسْمِ الْمُفْرَدِ، فَلَمْ يُشْرَعْ بِحَالٍ، وَلَيْسَ فِي الْأَدَلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِحْبَابِهِ، وَأَمَّا مَا يَتَوَهَّمُهُ طَائِفَةٌ مِنْ غَالِطِي الْمُتَعَبِّدِينَ

(١) رواه البخاري رقم (٣٨٨٤)، ومسلم رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن ربيعة.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢٨/١) واللفظ له، وابن ماجه رقم (٣٧٩٥) من حديث طلحة بن عبيد الله.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٧/٥)، وأبو داود رقم (٣١١٦) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» رقم (٦٨٧).

(٤) رواه البخاري رقم (٢٥)، ومسلم رقم (٢٢).

في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَزَّيْتُمْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم، فخطأ واضح، ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْمَلُونَهُ قَرَاتِيْسُ بُدُونَهَا وَتُخَفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ أي: قل: الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فهذا كلام تام، وجملة اسمية مركبة من مبتدئ وخبر، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب، وهذا قياس مظهر في مثل هذا في كلام العرب...». وذكر أمثلة على ذلك، إلى أن قال رحمه الله: «وقد ظهر بالأدلة الشرعية أنه غير مستحب - أي: الذكر بالاسم المفرد من غير كلام تام - وكذلك بالأدلة العقلية الذوقية؛ فإن الاسم وحده لا يُعطي إيماناً ولا كفراً، ولا هدى ولا ضلالاً، ولا علماً ولا جهلاً...».

إلى أن قال: «ولهذا اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه، ولا هو جملة تامة، ولا كلاماً مفيداً؛ ولهذا سمع بعض العرب مؤذناً يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: فعل ماذا؟ فإنه لما نصب الاسم، صار صفة، والصفة من تمام الموصوف، فطلب - بصحة طبعه - الخبر المفيد، ولكن المؤذن قصد الخبر ولحن، ولو كرر الإنسان اسم الله ألف ألف مرة، لم يصبر بذلك مؤمناً، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته؛ فإن الكفار من جميع الأديان يذكرون الاسم مفرداً، سواء أقرؤا به وبوحدانيته أم لا، حتى إنه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله: ﴿فَكُلُوا مِنَّمَا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، ونحو ذلك، كان ذكر اسمه بكلام تام؛ مثل أن يقول: باسم الله، أو يقول: سبحان ربي الأعلى، وسبحان ربي العظيم، ونحو ذلك، ولم يُشرع ذكر الاسم المجرد قط، ولا يحصل بذلك امتثال أمر، ولا حل صيد، ولا ذبيحة، ولا غير ذلك».

إلى أن قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فثبت بما ذكرناه أن ذكر الاسم المجرد ليس مستحبًا، فضلًا عن أن يكون هو ذكر الخاصّة، وأبعد من ذلك ذكر الاسم المضمّر، وهو: (هو)؛ فإنّ هذا بنفسه لا يدلُّ على معيّن، وإنّما هو بحسب ما يُفسّره من مذكورٍ أو معلوم، فيبقى معناه بحسب قصد المتكلّم ونيتة»^(١).

وقال في موضع آخر: «والذكر بالاسم المضمّر المفرد أبعد من السنّة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان...».

إلى أن قال: «والمقصود هنا: أن المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامّة، وهو المسمّى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر، والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية، والمقاصد السامية، وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرًا أو مضمّرًا، فلا أصل له، فضلًا عن أن يكون من ذكر الخاصّة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلى تصوّرات فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد... وجماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبدَه إلا بما شرع، لا نعبدَه بالبدع»^(٢). اهـ كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه من التحقيق والبيان ما لا يدع مجالًا للتردّد في الأمر، والحق أبلج.

إنّ تكالِب هؤلاء على هذه الأذكار المُحدثة، التي لا أصل لها في دين الله، ولا أساس لها من شرعه، وتركهم في مقابل ذلك السنن الصحيحة، والأذكار الشرعيّة، ليشير في المسلم تساؤلات وتساؤلات: ما الذي حمل هؤلاء على الانصراف عن هدي النبي ﷺ، والرغبة عن سنّته، إلى أمور ما أنزل الله بها من سلطان، وأذكار ليس عليها في الشرع أيُّ دليل ولا برهان، ثمّ مع هذا يُعظّمونها غاية التعظيم، ويفخّمون شأنها، ويُقلّلون من شأن الأدعية النبويّة،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٥٥٦ - ٥٦٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٣٤ - ٢٢٧).

والأذكارِ الشرعيَّة التي كان يقولُهَا سَيِّدُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَخَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامٌ وَقُدْوَةٌ الْمَخْبِتِينَ الذَّاكِرِينَ؟! صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



فَضْلُ التَّسْبِيحِ

لقد كان الحديث - فيما سبق - عن كلمة التوحيد: لا إله إلا الله؛ فضليها ومعناها وشروطها، وأمور أخرى مهمة متعلقة بها، وفيما يلي ننتقل إلى الحديث عن كلمة: (سُبْحَانَ اللَّهِ)؛ فهي إحدى الكلمات الأربع التي وصفها رسول الله ﷺ بأنها خير الكلام وأحبُّه إلى الله؛ وذلك في قوله ﷺ: (أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ) ^(١)، وقد مرَّ معنا جملة طيبة من أحاديث النبي ﷺ في تفضيل هؤلاء الكلمات، وبيان ما لهنَّ من منزلة عالية، ومكانة رفيعة.

وكلمة: سُبْحَانَ اللَّهِ - التي هي إحدى هؤلاء الكلمات - لها شأن عظيم؛ فهي من أجل الأذكار المقرَّبة إلى الله، ومن أفضل العبادات الموصلة إليه، وقد جاء في بيان فضليها وشرفها وعظم قدرها نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، بل إنَّ ما وردَ في ذلك لا يُمكنُ حصره لكثرتِه وتعدُّده، وقد وردَ ذكرُ التسبيح في القرآن الكريم أكثرَ من ثمانين مرَّةً، بصيغ مختلفة، وأساليب متنوعة؛ فوردَ تارةً بلفظ الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب]، وتارةً بلفظ الماضي؛ كما في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، وتارةً بلفظ المضارع؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١]، وتارةً بلفظ المصدر؛ كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٩ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات].

وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ التَّسْبِيحَ فِي مُفْتَتَحِ ثَمَانِ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿أَنِّي أَمُرُّ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَشْرِ: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الصَّفِّ: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ التَّغَابُنِ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَعْلَى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى﴾.

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ^(١): «والتَّسْبِيحُ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى نَحْوِ مِنْ ثَلَاثِينَ وَجْهًا، سِتَّةٌ مِنْهَا لِلْمَلَائِكَةِ، وَتِسْعَةٌ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَرْبَعَةٌ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَثَلَاثَةٌ لِلْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ، وَثَلَاثَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، وَسِتَّةٌ لْجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ».

* أَمَّا الَّتِي لِلْمَلَائِكَةِ؛ فَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، الْآيَةُ [غافر: ٧] وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۝﴾ [فصلت: ٣٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝﴾ [١٦٩] يُسَبِّحُونَ أَيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۝﴾ [١٦٥] وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصفات].

* وَأَمَّا الَّتِي لِنَبِيِّنَا ﷺ؛ فَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ

(١) انظر: «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٢/ ٢٨٥ وما بعدها).

الْمُسْتَجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿[الحجر]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَلِيلٌ فَأَسْجُدْ لَهُمْ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

* وأما التي للأنبياء: فقول الله تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالى عن زكريا عليه السلام في وصيته لقومه بالمحافظة على التسبيح: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقوله تعالى عن يونس عليه السلام في إنجائه من ظلمات البحر وبطن الحوت لملازمته للتسبيح: ﴿فَقُولَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ لَلَيْثِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿[الصافات].

* وأما التي للمؤمنين: فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿[السجدة: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ صَخْرَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ...﴾ الآية [النور].

* وأما التي في الحيوانات والجمادات؛ فمنها: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ﴿٧٨﴾ وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَهُ أَوَاتٍ﴾ [ص]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَقَتٌ كُلُّ قَدَمٍ صَلَاتُهُمْ وَسَبِّحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

* وأما التي لعموم المخلوقات؛ فمنها: قوله تعالى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى لفظة ﴿سُبْحَنَ﴾ في القرآن في خمسة وعشرين موضعاً، في ضمن كل واحدٍ منها إثباتُ صفةٍ من صفاتِ المدح، أو نفْيُ صفةٍ من صفاتِ الذَّم^(١)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

إنَّ هذه النصوصَ القرآنيَّةَ الكريمةَ، وما جاء في معناها في كتابِ اللهِ لتَدُلُّ أَوْضَحَ دَلَالَةٍ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ التَّسْبِيحِ، وَعَظِيمِ شَأْنِهِ مِنَ الدِّينِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ الْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ، وَمِنْ أَنْفَعِ الْعِبَادَاتِ الْمَقْرُبَةِ إِلَى اللهِ ﷻ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ أَفَاضَ عَلَى عِبَادِهِ النِّعْمَةَ، وَكَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ.

وسوفَ نواصلُ - إن شاء الله - بيانَ فضلِ التَّسْبِيحِ ومكانتِهِ؛ من خلال ما وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي تَرَكَ أُمَّتُهُ عَلَى الْمَحَبَّةِ الْبَيضَاءِ، وَالطَّرِيقَةِ الْوَاضِحَةِ الْعَرَّاءِ، وَقَدْ كَانَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ، وَأَتَقَاهُمْ لَهُ، وَأَكْثَرَهُمْ تَسْبِيحًا وَتَقْدِيرًا وَتَنْزِيهًا لِرَبِّهِ، فَصَلَّى اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَائُهُ وَرُسُلُهُ وَالصَّالِحُونَ مِنْ عِبَادِهِ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.



مِنْ فَضَائِلِ التَّسْبِيحِ فِي السُّنَّةِ

تناولتُ - فيما سبقَ - بيانَ فضلِ التسبيحِ وعظيمِ أجرِهِ، وأَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الأَذْكَارِ المأثُورَةِ، وَمِنْ أَنْفَعِ العِبَادَاتِ المَشْرُوعَةِ، وَمِنْ أَجَلِّ الطَّاعَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَقَدْ أوردتُ جَمَلَةً طَيِّبَةً مِنْ النُّصُوصِ القُرْآنِيَّةِ الكَرِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ.

ولعلَّ مِنْ المُنَاسِبِ هُنَا أَنْ نَقِفَ عَلَى بَعْضِ النُّصُوصِ النُّبَوِيَّةِ الوَارِدَةِ فِي فَضْلِ التَّسْبِيحِ، والدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ شَأْنِهِ، وَرَفِيعِ مَكَانَتِهِ؛ إِذِ السُّنَّةُ مَلِيَّةٌ بِالنُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ شَأْنِ التَّسْبِيحِ، وَشَرِيفِ قَدَرِهِ، وَجَزِيلِ ثَوَابِ أَهْلِهِ، وَبَيَانِ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ أَجُورٍ كَرِيمَةٍ، وَأَفْضَالٍ عَظِيمَةٍ، وَعَطَايَا جَمَّةٍ. وَقَدْ تَضَمَّنَتْ تِلْكَ النُّصُوصُ الدَّلَالَةَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ وَجُوهِ كَثِيرَةٍ:

* وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ التَّسْبِيحَ أَفْضَلُ الْكَلَامِ وَأَحَبُّهُ إِلَى اللهِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ مَرَّ مَعَنَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)^(١).

وَتَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: «أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)»^(٢).

وَفِي لَفْظِ آخَرَ لِلْحَدِيثِ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣١).

قال: (إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)؛ فدلَّ هذا الحديثُ على عظيم مكانة هذه الكلمة عند الله ﷻ.

* وَمِنْ فَضَائِلِ التَّسْبِيحِ: ما أَخْبَرَ به النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَثُرَتْ؛ ففي «الصحيحين»، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ)^(١).

وُثِّبَتْ عَنْهُ ﷺ أَنَّ مَنْ قَالَهَا فِي الصَّبَاحِ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَفِي الْمَسَاءِ مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ وَزَادَ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِي: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ، أَوْ زَادَ عَلَيْهِ)^(٢).

وُثِّبَتْ عَنْهُ ﷺ أَنَّ مَنْ قَالَهَا فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كُتِبَتْ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ حُطَّتْ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ، وَالْحَسَنَةُ بَعْدُ أَمْثَالُهَا؛ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «(أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟)»، فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: (يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ)^(٣).

* وَمِمَّا وَرَدَ فِي فَضْلِ التَّسْبِيحِ: إِبْخَارُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ ثِقَلِ التَّسْبِيحِ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ خِفَّةِ وَيُسْرِ الْعَمَلِ بِهِ فِي الدُّنْيَا؛ ففي «الصحيحين»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٢).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٨).

خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ^(١).

وقوله ﷺ في الحديث: (كَلِمَتَانِ) هي خبرٌ مُقَدَّمٌ مُبْتَدَأُهُ: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ)، قال بعضُ أهل العلم: «والنكتهُ في تقديم الخبر تشويقُ السامعِ إلى المبتدأ، وكلَّمَا طَالَ الكلامُ في وصفِ الخبرِ حَسُنَ تقديمُهُ؛ لأنَّ كثرةَ الأوصافِ الجميلةِ تزيدُ السامعَ شوقًا»^(٢). وقد وُصِفَتِ الكلمتانِ في الحديثِ بثلاثةِ أوصافٍ جميلةٍ عظيمةٍ، وهي: أنَّهما حبيبتانِ إلى الرحمن، خفيفتانِ على اللسان، ثقيلتانِ في الميزان.

وقد خُصَّ لفظُ الرحمن بالذكرِ هنا؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ الحديثِ: بيانُ سَعَةِ رحمةِ الله تعالى على عباده، حيثُ يجازي على العملِ القليلِ بالثوابِ الجزيلِ، والأجرِ العظيمِ، فما أيسَرَ النطقَ بهاتينِ الكلمتينِ على اللسانِ! وما أعظمَ أَجَرَ ذَلِكَ وَثَوَابَهُ عندَ الكريمِ الرحمنِ! وقد وُصِفَتِ الكلمتانِ في الحديثِ بالخِفَّةِ والثقلِ: الخِفَّةُ على اللسانِ، والثَّقَلُ في الميزانِ؛ لبيانِ قِلَّةِ العملِ وكثرةِ الثوابِ؛ فما أوسعَ فضلَ الله! وما أعظمَ عطاءه!

* وَمِنْ فضائلِ هذه الكلمةِ العظيمةِ: ما رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم، من طريق أبي الزُّبَيْرِ، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ)^(٣).

* وَمِنْ فضائلِ هذه الكلمةِ: ما رواه الطَّبْرَانِيُّ، والحاكم، من حديثِ نافع بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عن أبيه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٩٩).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٥٤٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢١).

أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَقَالَهَا فِي مَجْلِسٍ ذِكْرٍ، كَانَتْ كَالطَّابِعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِي مَجْلِسٍ لَعْوٍ، كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ^(١).

وروى الترمذي، وابن حبان، والحاكم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ، فَكَثُرَ فِيهِ لَعْنُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ)^(٢).

فهذه جملة من الأحاديث الواردة في التسبيح، والدالة على عظيم فضله وثوابه عند الله، وفي أكثر هذه الأحاديث قُرِنَ مَعَ التسبيحِ حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى؛ وذلك لِأَنَّ التسبيحَ هو تنزيهُ اللَّهِ عن النقائص والعيوب، والتحميدُ فيه إثباتُ المحامدِ كُلِّهَا لِلَّهِ ﻋَظِيمُ، والإثباتُ أَكْمَلُ مِنَ السَّلْبِ؛ ولهذا لم يَرِدِ التسبيحُ مُجَرَّدًا، لَكِنْ وَرَدَ مَقْرُونًا بِمَا يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ الْكَمَالِ؛ فَتَارَةً يُقْرَنُ بِالْحَمْدِ؛ كَمَا فِي هَذِهِ النُّصُوصِ، وَتَارَةً يُقْرَنُ بِاسْمِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ؛ كَقَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، وَقَوْلِ: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى، وَنَحْوِ ذَلِكَ^(٣).

والتنزيه لا يكون مدحًا إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَ مَعْنَى ثُبُوتِيًّا؛ وَلِهَذَا عِنْدَمَا نَزَّهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَفْسَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِمَّا وَصَفَهُ بِهِ أَعْدَاءُ الرُّسُلِ، سَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ يَثْبُتُونَ لِلَّهِ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَنُعُوتَ جَلَالِهِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَّمُ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) [الصفات]، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا حَمْدُ اللَّهِ

(١) «اليوم والليلة» للنسائي رقم (٤٢٤)، و«المعجم الكبير» رقم (١٥٨٦)، و«المستدرک» (١/٥٣٧)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني. «السلسلة الصحيحة» رقم (٨١).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/٤٩٤ - ٤٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٣٣) وليس فيه (رَبَّنَا)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٥٩٤)، و«المستدرک» (١/٥٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦١٩٢).

(٣) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٢٠٤).

نفسه بعد أن نزهها؛ وذلك لأنَّ الحمدَ فيه إثباتُ كمالِ الصفات، والتسبيحُ فيه تنزيهُ الله عن النقائصِ والعيوب؛ فجمعَ في الآية بين التنزيه عن العيوبِ بالتسبيح وإثباتِ الكمالِ بالحمد، وهذا المعنى يَرِدُ في القرآنِ والسُّنَّةِ كثيرًا، فالتسبيحُ والحمدُ أصلانِ عظيمان، وأساسانِ متينانِ يقومُ عليهما المنهجُ الحقُّ في توحيدِ الأسماءِ والصفات، وبالله وحدهُ التوفيق.



تَسْبِيحُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ لِلَّهِ

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى - لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ، وَتَمَامِ مُلْكِهِ وَعِزَّتِهِ - تُسَبِّحُ لَهُ جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ: مِنْ سَمَاءٍ، وَأَرْضٍ، وَجِبَالٍ، وَأَشْجَارٍ، وَشَمْسٍ، وَقَمَرٍ، وَحَيَوَانٍ، وَطَيْرٍ، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مَنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]؛ فَهَذِهِ النُّصُوصُ الْعَظِيمَةُ تَدُلُّ دَلَالَةً ظَاهِرَةً أَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ تُسَبِّحُ اللَّهَ ﷻ، فَالْحَيَوَانَاتُ تُسَبِّحُ اللَّهَ، وَالنَّبَاتَاتُ تُسَبِّحُ اللَّهَ، وَالْجَمَادَاتُ تُسَبِّحُ اللَّهَ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ ﷻ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَفْقَهُ تَسْبِيحَهُ، وَهُوَ تَسْبِيحٌ حَقِيقِيٌّ يَصْدُرُ مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ بِلِسَانِ الْمَقَالِ، وَلَيْسَ بِلِسَانِ الْحَالِ كَمَا يَدَّعِيهِ بَعْضُهُمْ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَجْعَلُ لِهَذِهِ الْكَائِنَاتِ إِدْرَاكَتٍ تُسَبِّحُ بِهَا، يَعْلَمُهَا هُوَ جَلَّ وَعَلَا، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو مَنْصُورٍ الْأَزْهَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «تَهْذِيبُ اللَّغَةِ»: «وَمِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ تَسْبِيحَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ تَسْبِيحٌ تُعَبَّدَتْ بِهِ: قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ لِلْجِبَالِ: ﴿يَجِبَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾، وَمَعْنَى أَوْبَى؛ أَي: سَبَّحِي مَعَ دَاوُدَ النَّهَارَ كُلَّهُ إِلَى اللَّيْلِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ لِلْجِبَالِ بِالتَّأْوِيبِ إِلَّا تَعَبُّدًا لَهَا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْجِبَالِ وَالشَّجَرِ وَالْدُّوَابِّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴿[الحج: ١٨]﴾، فسجودُ هذه المخلوقاتِ عبادةٌ منها لخالقها، لا نفقَها عنها كما لا نفقَها تسبيحَها، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّوْنَ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقد عَلِمَ الله هبوطها مِنْ خَشْيَتِهِ، ولم يَعْرِفْنَا ذلك، فنحنُ نؤمنُ بما أَعْلَمَنَا، ولا نَدَّعي بما لم نُكَلِّفْ بِأَفْهَامِنَا مِنْ عِلْمِ فِعْلِهَا كَيْفِيَّةً نَحْدُهَا^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ، وهو كلامٌ عظيم، وتقريرٌ حسن.

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ بعد أن أشارَ إلى ما قِيلَ في المرادِ بالتسبيح، قال: «والصحيحُ أَنَّهُ يُسَبِّحُ حَقِيقَةً، ويجعلُ اللهُ تعالى فيه تَمييزًا بِحَسَبِهِ»^(٢).

وهذا القولُ هو القولُ الحقُّ في هذه المسألة بلا ريب؛ فاللهُ تبارك وتعالى هو الذي بيده أَرْزَمَةُ الْأُمُورِ، وهو القادرُ على كُلِّ شَيْءٍ، وهو سبحانه الذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، لا يتعاضَّمُ أمرٌ، ولا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

وأما قولُ مَنْ قال: إِنَّ هَذَا التَّسْبِيحَ ليس حَقِيقِيًّا، وإِنَّمَا هو تَسْبِيحٌ بِلِسَانِ الْحَالِ فَقَطْ، فهو قولٌ مُجَانِبٌ لِلْحَقِيقَةِ، بعيدٌ عن الصَّوَابِ، ولا يَعْضُدُهُ دَلِيلٌ، بل الْأَدَلَّةُ صَرِيحَةٌ في عَدَمِ صِحَّتِهِ.

وليس هذا الأمرُ بِأَعْجَبَ مِنْ تَسْبِيحِ الْحَصَى في يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وتَسْبِيحِ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ، وقد كان يسمِعُ ذلك الصَّحَابَةُ رَحِمَهُمُ اللهُ.

روى البخاريُّ في «صحيحه»، عن عبد الله بن مسعود رَحِمَهُمُ اللهُ، قال: «كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقُلَّ الْمَاءُ، فَقَالَ: (اطْبُؤُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ)، فَجَاؤُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: (حَيَّ عَلَى الطَّهْورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ)، فَلَقَدْ رَأَيْتُ

(١) «تهذيب اللغة» (٤/٣٤٠).

(٢) شرح «صحيح مسلم» (٢٦/١٥).

الْمَاءِ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ»^(١).

فَلَلَهُ مَا أَعْظَمَهَا مِنْ آيَةٍ تَذُلُّ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ الْمُرْسَلِ سُبْحَانَهُ، وَصَدَقِ الْمُرْسَلُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ!

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ»، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «دَلَالِ النُّبُوَّةِ»، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنِّي لَشَاهِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَلْقَةٍ، وَفِي يَدِهِ حَصَى، فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، وَفِينَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، فَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَسَبَّحَنَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، سَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى عُمَرَ، فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، وَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إِلَيْنَا، فَلَمْ يُسَبَّحَنَّ مَعَ أَحَدٍ مِنَّا»^(٢).

وَلَا شَكَّ أَنَّ تَسْبِيحَ الْحَصَى الصَّغَارِ وَالطَّعَامِ أَعْجَبُ وَأَبْلَغُ مِنْ تَسْبِيحِ الْجِبَالِ؛ وَلِذَا فَإِنَّ الْمَعْجَزَةَ لَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي ذَلِكَ أَبْلَغُ مِنَ الْمَعْجَزَةِ لِنَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَسْبِيحِ الْجِبَالِ مَعَهُ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا تَسْبِيحُ الطَّيْرِ مَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَسْبِيحُ الْجِبَالِ الصُّمِّ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْحَصَى سَبَّحَ فِي كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ ابْنُ حَامِدٍ: وَهَذَا حَدِيثٌ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ، وَكَانَتِ الْحَجَارُ وَالْأَشْجَارُ وَالْمَدَرُ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ ﷺ.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ»؛ يَعْنِي: بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَلَّمَهُ ذِرَاعُ الشَّاةِ الْمَسْمُومَةُ،

(١) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْم (٣٥٧٩).

(٢) «الْمَعْجَمُ الْأَوْسَطُ» رَقْم (١٢٤٤)، وَ«دَلَالِ النُّبُوَّةِ» لِلْبَيْهَقِيِّ (٥٥٥/٢)، وَ«دَلَالِ النُّبُوَّةِ» لِأَبِي نَعِيمٍ (٤٣١/١) رَقْم (٣٣٨)، وَانْظُرْ: «دَلَالِ النُّبُوَّةِ» لِأَبِي الْقَاسِمِ التِّمِّيِّ (٤٠٤/١) وَمَا بَعْدَهَا. بِتَحْقِيقِ: الشَّيْخِ مُسَاعِدِ الرَّاشِدِ، قَوْلُهُ: «فَصَلَّ فِي تَسْبِيحِ الْحَصَى فِي يَدِهِ ﷺ».

وأَعْلَمَهُ بما فيه مِنَ السُّمِّ، وشهدتْ بنبُوتِهِ الحيواناتُ الإنسيَّةَ والوَخشيَّةَ، والجماداتُ أيضًا، كما تَقَدَّمَ بسَطَ ذلك كُلُّهُ، ولا شكَّ أَنَّ صدورَ التسبيحِ مِنَ الحصى الصغارِ السُّمِّ، التي لا تجاويفَ فيها، أعجبُ مِنْ صدورِ ذلك مِنَ الجبالِ لِمَا فيها مِنَ التجاويفِ والكهوفِ؛ فإنَّها وما شاكلها تُردِّدُ صدى الأصواتِ العاليةِ غالبًا، كما قال عبد الله بن الزُّبَيْرِ: كان إذا خطَبَ، وهو أميرُ المدينةِ بالحَرَمِ الشريفِ، تُجاوِبُهُ الجبالُ أبو قَيسٍ وزُرُود، ولكنَّ مِنْ غيرِ تسبيحٍ؛ فإنَّ ذلك مِنْ معجزاتِ داودَ ﷺ، ومع هذا كان تسبيحُ الحصى في كَفِّ رسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ أعجبَ^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

❏ والشاهدُ مِنْ ذلك كُلِّهِ: هو أَنَّ هذه الكائناتِ تُسَبِّحُ الله تعالى تسبيحًا حقيقيًا لا يفقههُ الناسُ ولا يسمعونَهُ، وقد يشاءُ الله، فيُسمِعُ بعضَ ذلكَ مِنْ يشاءُ مِنْ عباده، كما في النصوصِ المتقدمة.

ولا ريبَ أَنَّ في هذا أعظمَ عبرةٍ وأجلَّ عِظَةٍ للناسِ إذا تدَبَّرُوا في حالِ هذه الجبالِ، وهي الحجارَةُ الصُّلْبَةُ والصخورُ الصَّماءُ، كيف أنَّها تسبِّحُ بحمدِ ربِّها، وتخشعُ له، وتسجدُ، وتُسْفِقُ، وتهبطُ مِنْ خشيتها؟! وكيف أنَّها خافتُ من ربِّها وفاطرِها وخالقِها، على شدَّتِها وعِظَمِ خلقِها، مِنْ الأمانةِ إِذْ عَرَضَها عليها، وأشفَقَتْ من حملِها؟!

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وهو يَتَحَدَّثُ عن هذا البابِ العظيمِ: «فسبحانَ مَنْ اختَصَّ برحمتهِ مَنْ شاءَ مِنَ الجبالِ والرِّجالِ... هذا وإنَّها لتعلمُ أَنَّ لها موعدًا ويومًا تُنسَفُ فيها نسفًا، وتصيرُ كالعِهنِ مِنْ هَوْلِهِ وعِظَمِهِ، فهي مُشفَقَّةٌ مِنْ هولِ ذلكِ الموعدِ، منتظرةٌ له... فهذا حالُ الجبالِ وهي الحجارَةُ الصُّلْبَةُ، وهذه رِقَّتُها وخشيَّتُها وتَذَكُّدُها مِنْ جلالِ ربِّها وعِظَمَتِهِ، وقد أَخْبَرَ عنها فاطرُها وباريها أَنَّهُ لو أَنزَلَ عليها كلامه، لَخَشَعَتْ ولتَصَدَّعَتْ مِنْ خشيةِ الله؛

فيا عجبًا مِنْ مُضْغَةٍ لَحْمٍ أَقْسَى مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ، تَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهَا،
وَيُذَكِّرُ الرَّبَّ، فلا تَلِينُ، ولا تَخْشَعُ، ولا تَتَيْبُ؟!...»^(١).

فَنَسَأَلُ اللَّهَ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَبَارَكَ اسْمُهُ - أَنْ يَحْيِيَ قُلُوبَنَا بِالْإِيمَانِ، وَأَنْ
يَعْمُرَهَا بِذِكْرِ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، وَأَنْ يَعِيزَنَا مِنَ الرَّجِيمِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ
وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.



(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/٨٩).

مَعْنَى التَّسْبِيحِ

لا ريب أنَّ التَّسْبِيحَ يُعَدُّ مِنَ الْأَصُولِ الْمَهْمَّةِ، وَالْأُسُسِ الْمَتِينَةِ الَّتِي يَنْبَنِي عَلَيْهَا الْمُعْتَقَدُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ إِذْ إِنَّ الْمُعْتَقَدَ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ يَقُومُ عَلَى أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ وَأَسَاسَيْنِ مَتِينَيْنِ؛ هُمَا:

• الإثبات للصفات بلا تمثيل.

• وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات بلا تعطيل.

والتَّسْبِيحُ هُوَ: التَّنْزِيهُ، فَأَصْلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ السَّبَحِ، وَهُوَ الْبُعْدُ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ فِي «تَهْذِيبِ اللُّغَةِ»: «وَمَعْنَى تَنْزِيهِ اللَّهِ مِنَ الشُّؤْمِ: تَبْعِيدُهُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ تَسْبِيحُهُ: تَبْعِيدُهُ؛ مِنْ قَوْلِكَ: سَبَحْتُ فِي الْأَرْضِ: إِذَا أَبْعَدْتَ فِيهَا، وَمِنْ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣]»^(١).

فالتَّسْبِيحُ: هُوَ إِبْعَادُ صِفَاتِ النِّقْصِ مِنْ أَنْ تُضَافَ إِلَى اللَّهِ، وَتَنْزِيهُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ عَنِ السُّوءِ وَعَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، «وَأَصْلُ التَّسْبِيحِ لِلَّهِ عِنْدَ الْعَرَبِ: التَّنْزِيهُ لَهُ مِنْ إِضَافَةِ مَا لَيْسَ مِنْ صِفَاتِهِ إِلَيْهِ، وَالتَّبَرُّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ»^(٢).

وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ التَّسْبِيحِ فِي حَدِيثٍ يُرْفَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا أَنَّ فِي إِسْنَادِهِ كَلَامًا؛ فَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَمَّادٍ، ثَنَا حَفْصُ بْنُ سُلَيْمَانَ، ثَنَا طَلْحَةُ بْنُ يَحْيَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُيَيْدٍ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ تَفْسِيرِ

(١) «تهذيب اللغة» (٤/٣٣٨).

(٢) «جامع البيان» لابن جرير (١/٢١١).

سُبْحَانَ اللَّهِ، فقال: (هُوَ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ سُوءٍ) ^(١).

وروي الحديث مِنْ وَجْهِ آخَرَ مَرْسَلًا.

ووردَ في هذا المعنى آثارٌ عديدةٌ عن السلف رحمهم الله، روى جملةً منها الطبريُّ في «تفسيره»، والطبرانيُّ في كتابه «الدعاء»، في باب: تفسير سبحان الله ^(٢)، وغيرُهما مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ منها:

• ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «سبحان الله: تنزيه الله وَعَلَى عَنْ كُلِّ سُوءٍ».

• وعن عبد الله بن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ عَلِيًّا رضي الله عنه عَنْ سُبْحَانَ اللَّهِ، فَقَالَ: «تَعْظِيمُ جَلَالِ اللَّهِ».

• وجاء عن مجاهدٍ رضي الله عنه، أنه قال: «التسبيح: انكفافُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ»، قال ابن الأثير في النهاية: «أي: تنزيهه وتقديسه».

• وعن ميمون بن مِهْرَانَ رضي الله عنه، قال: «سبحان الله: اسْمٌ يُعْظَمُ اللَّهُ بِهِ، وَيُحَاشَى بِهِ مِنَ السُّوءِ».

• وعن أَبِي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بْنِ الْمَثْنَى رضي الله عنه، قال: «سبحان الله: تنزيه الله وتبرئته».

• وعن مُحَمَّدِ بْنِ عَائِشَةَ رضي الله عنه، قال: «تَقُولُ الْعَرَبُ إِذَا أَنْكَرَتِ الشَّيْءَ وَأَعْظَمَتْهُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَكَأَنَّهُ تَنْزِيهُ اللَّهِ وَعَلَى عَنْ كُلِّ سُوءٍ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِغَيْرِ صِفَتِهِ».

والآثارُ في هذا المعنى عن السلفِ كثيرةٌ.

ونقل الأزهريُّ في كتابه «تهذيب اللغة» عن غير واحدٍ مِنْ أئمةِ اللغةِ

(١) «المستدرک» (٥٠٢/١)؛ قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبيُّ في تلخيصه للمستدرک بقوله: «بل لم يَصِحَّ؛ فَإِنَّ طَلْحَةَ مَنْكَرُ الْحَدِيثِ، قَالَ الْبَخَارِيُّ، وَحَفْصُ وَاهِي الْحَدِيثِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: مَنْكَرٌ».

(٢) «الدعاء» للطبراني (١٥٩١/٣) وما بعدها.

تفسير التسييح بالمعنى السابق، وقال: «وجماعُ معناه: بُعْذُهُ تبارك وتعالى عن أن يكونَ له مِثْلٌ، أو شريكٌ، أو ضِدٌّ، أو نِدٌّ»^(١).

وبهذه النقولِ المتقدمة يَتَبَيَّنُ معنى التسييح والمرادُ به، وأنه تنزيهُ الله ﷻ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والأمرُ بتسييحِهِ يقتضي تنزيهَهُ عن كلِّ عَيْبٍ وَسُوءٍ، وإثباتِ المَحَامِدِ التي يُحَمَّدُ عليها؛ فيقتضي ذلك تنزيهَهُ وتحميدهُ وتكبيرَهُ وتوحيدهُ»^(٢). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وبه يَتَبَيَّنُ أَنَّ تسييحَ الله إنما يكونُ بتبرئةِ الله وتنزيهِهِ عن كلِّ سوءٍ وعيبٍ، مع إثباتِ المحامدِ وصفاتِ الكمالِ له سبحانه، على وجهٍ يليقُ به.

أما ما يفعله المعطِّلُ مِنْ أَهْلِ البدع؛ كالمعتزلة وغيرهم؛ مِنْ تعطيلِ للصفاتِ، وعَدَمِ إثباتِ لها، وجحدِ لِحَقَائِقِهَا ومعانيها؛ بحجة أَنَّهُمْ يَسُبِّحُونَ الله وينزِّهونه، فهو في الحقيقة ليس من التسييح في شيء، بل هو إنكارٌ وجحدٌ، وضلالٌ وبهتانٌ.

ولذا يقول ابنُ هشام النحويُّ في كتابه «مغني اللبيب»: «ألا تَرَى أَنَّ تسييحَ المعتزلةِ اقتضى تعطيلَ كثيرٍ مِنَ الصفاتِ»^(٣).

ويقول ابن رَجَب رَحِمَهُ اللهُ في معنى قوله تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨] «أي: سَبَّحَهُ بِمَا حَمَدَ به نفسه؛ إذ ليس كلُّ تسييحٍ بمحمودٍ، كما أَنَّ تسييحَ المعتزلةِ يقتضي تعطيلَ كثيرٍ مِنَ الصفاتِ»^(٤).

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «إذ ليس كلُّ تسييحٍ بمحمودٍ» كلامٌ في غاية الأهمية والدقة؛ إذ إنَّ تسييحَ الله بإنكارِ صفاته وجحدها، وعدمِ إثباتها: أمرٌ لا يُحَمَّدُ عليه فاعله، بل يُذَمُّ غاية الذمِّ، ولا يكونُ بذلك مِنَ المسبِّحِينَ بحمدِ الله، بل يكونُ مِنَ المعطِّلِينَ المنكرينَ الجاحدينَ، مِنَ الذين نَزَّهَ اللهُ نفسه عن قولهم، ووصفهم

(١) «تهذيب اللغة» (٤/٣٣٩). (٢) «دقائق التفسير» لابن تيمية (٥/٥٩).

(٣) «مغني اللبيب» (١/١٤٠)، مع أَنَّهُ وَقَعَ في بعض ذلك، غَفَرَ اللهُ له ورحمه.

(٤) «تفسير سورة النصر» (ص٧٣).

بقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٦) وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٧﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٨﴾ [الصفات]؛ فَسَبَّحَ اللَّهُ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرَّسْلِ، وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ فِي اللَّهِ مِنَ النِّقْصِ وَالْعَيْبِ.

إِنَّ تَسْبِيحَ اللَّهِ وَتَنْزِيهَهُ وَتَقْدِيسَهُ وَتَعْظِيمَهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَفْقَ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ، وَعَلَى ضَوْءِ الْأَدَلَّةِ النَّقْلِيَّةِ، وَلَا يَجُوزُ بِحَالٍ أَنْ يُبْنَى ذَلِكَ عَلَى الْأَهْوَاءِ الْمَجْرَدَةِ، أَوِ الظُّنُونِ الْفَاسِدَةِ، أَوِ الْأَقْيَسَةِ الْعَقْلِيَّةِ الْكَاسِدَةِ؛ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ عِنْدَ أَرْبَابِ الْبَدْعِ الْمُعْطَلِينَ لَصِفَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ كَانَ يَعْتَمِدُ فِي بَابِ التَّعْظِيمِ عَلَى هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ يَزِلُّ فِي هَذَا الْبَابِ، وَيَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الْبَاطِلِ، وَصُنُوفٍ مِنَ الضَّلَالِ؛ جَاءَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ ذَكَرَ عِنْدَهُ أَنَّ الْجَهْمِيَّةَ يَنْفُونَ أَحَادِيثَ الصِّفَاتِ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا - أَنَّهُ قَالَ: «قَدْ هَلَكَ قَوْمٌ مِنْ وَجْهِ التَّعْظِيمِ، فَقَالُوا: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُنْزَلَ كِتَابًا، أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ هَلَكَتِ الْمَجُوسُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ التَّعْظِيمِ؟! قَالُوا: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ نَعْبُدَهُ، وَلَكِنْ نَعْبُدُ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَّا، فَعَبَدُوا الشَّمْسَ، وَسَجَدُوا لَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَجَلَكَ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]»^(١).

وَفِي كَلَامِهِ هَذَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّعْظِيمَ وَالتَّهْنِيزَ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى هَذِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ غَايَةَ التَّعْطِيلِ، وَمُنْتَهَى الْجُحُودِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَمَنْ يَتَأَمَّلُ حَالَ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ وَالْفِرْقِ الْمُنْحَرِفَةِ الَّتِي سَلَكَتْ فِي التَّهْنِيزِ وَالتَّعْظِيمِ هَذَا الطَّرِيقَ، يَجِدُ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ ذَلِكَ سِوَى التَّنْقُصِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَجَحْدِ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَنَعَوَاتِ جَلَالِهِ، حَتَّى آلَ الْأَمْرُ بِبَعْضِهِمْ فِي التَّهْنِيزِ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلَهٌ يُعْبَدُ، وَلَا رَبٌّ يُصَلَّى لَهُ وَيُسَجَّدُ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ!

(١) ذكره التيمي في «الحجة في بيان المحجة» (١/ ٤٤٠).

❏ إِنَّ التَّسْبِيحَ طَاعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَعِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ الْمُسَبِّحِينَ، وَالْوَاجِبُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي تَسْبِيحِهِ لِرَبِّهِ عَلَى هَذِي مُسْتَقِيمٌ، فَيُسَبِّحُ اللَّهَ وَيَنْزِّهُهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ النِّقَاصِ وَالْعُيُوبِ، وَيُثَبِّتُ لَهُ - مَعَ ذَلِكَ - نَعُوتَ جَلَالِهِ وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَلَا يَتَجَاوَزُ فِي ذَلِكَ كُلَّهُ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ؛ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يُوصَفُ اللَّهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، لَا يَتَجَاوَزُ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ»^(١)، وَمَنْ كَانَ عَلَى ذَلِكَ، فَهُوَ عَلَى هَذِي قَوِيمٌ، وَعَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.



(١) ذكره شيخ الإسلام في «الحموية»، انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٦/٥).

فَضْلُ الْحَمْدِ وَالْأَدِلَّةُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تَنَاوَلْتُ - فيما سَبَقَ - فضلَ كلمةِ التوحيد: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفَضْلَ التسبيح، وهما مِنَ الكلماتِ الأربعِ التي وَصَفَهَا رسولُ اللهِ ﷺ بأنها أَحَبُّ الكلامِ إلى اللهِ، وتَنَاوَلْتُ فيها جملةً مِنَ الأمورِ المهمَّةِ المتعلقةِ بهاتينِ الكلمَتينِ العَظِيمَتينِ، وأبدأُ الحديثَ هنا عن الحمدِ - حَمْدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَإِنَّ له شأنًا عَظِيمًا، وَفَضلاً كَبِيرًا، وَثَوَابُهُ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ، وَمَنْزَلَتُهُ عِنْدَهُ عَالِيَةٌ.

فقد افْتَتَحَ سُبْحَانَهُ كتابَهُ القرآنَ الكريمَ بِالْحَمْدِ؛ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿[الفاتحة]، وافتتح بعضُ السورِ فيه بالحمد؛ فقال في أوَّلِ الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وقال في أوَّلِ الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾، وقال في أوَّلِ سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، وقال في أوَّلِ فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وافْتَتَحَ خَلْقَهُ بالحمد؛ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتمَهُ بالحمد؛ فقال بعدما ذَكَرَ مَالَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ أَمَانُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ

التَّعْبِيرُ ﴿٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿يونس﴾.

فالحمدُ له سبحانه أوَّلُهُ وآخِرُهُ، وله الحمدُ في الأولى والآخرة؛ أي: في جميع ما خلق وما هو خالق؛ كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، فهو سبحانه المحمودُ في ذلك كله، كما يقول المصلي: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءَ السَّمَوَاتِ، ومِلءَ الْأَرْضِ، ومِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ».

فهذه النصوصُ دالَّةٌ على شُمُولِ حمدهِ سبحانه لخلقه وأمره؛ فهو سبحانه حَمِدَ نَفْسَهُ في أولِ الخلقِ وآخِرِهِ، وعندَ الأمرِ والشرعِ، وحَمِدَ نَفْسَهُ على ربوبيَّته للعالمين، وحَمِدَ نَفْسَهُ على تفرُّده بالإلهيَّةِ وعلى حياته، وحَمِدَ نَفْسَهُ على امتناعِ اتصافِهِ بما لا يليقُ بكمالِهِ من اتخاذه الولدَ والشريكَ وموالاتِهِ أحدٍ مِنْ خَلْقِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وحَمِدَ نَفْسَهُ على علُوِّه وكبريائه؛ كما قاله سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية]، وحَمِدَ نَفْسَهُ في الأولى والآخرة، وأخبرَ عن سريانِ حمدهِ في العالمِ العلويِّ والسفليِّ، ونَبَّهَ على هذا كله في كتابِهِ في آياتٍ عديدةٍ تدلُّ على تنوُّعِ حمدهِ سبحانه، وتعدُّدِ أسبابِ حمدهِ، وقد جمعها اللهُ في مواطنٍ مِنْ كتابِهِ، وفرَّقَهَا في مواطنٍ أُخْرَى؛ لِيَتَعَرَّفَ إِلَيْهِ عِبَادُهُ، وَلِيَعْرِفُوا كَيْفَ يَحْمَدُونَهُ، وَكَيْفَ يُشْتَوْنَ عَلَيْهِ، وَلِيَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَيُحِبَّهُمْ إِذَا عَرَفُوهُ وَأَحْبَبُوهُ وَحَمِدُوهُ^(١).

وقد وَرَدَ الحمدُ في القرآنِ الكريمِ في أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِينَ مَوْضِعًا،

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ٢٢٨).

جُمِعَ فِي بَعْضِهَا أَسْبَابُ الْحَمْدِ، وَفِي بَعْضِهَا ذُكِرَتْ أَسْبَابُهُ مَفْصَلَةً؛ فَمِنْ
الْآيَاتِ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا أَسْبَابُ الْحَمْدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وَقَوْلُهُ:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ١].

وَمِنْ الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا أَسْبَابُ الْحَمْدِ مَفْصَلَةً: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ففِيهَا
حَمْدُهُ عَلَى نِعْمَةِ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَجْنَانَا مِنَ الْقَوَرِ
الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، ففِيهَا حَمْدُهُ عَلَى النِّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ
شَرِّهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَادُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[غافر: ٦٥]، ففِيهَا حَمْدُهُ عَلَى نِعْمَةِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ففِيهَا حَمْدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى هَبَةِ الْوَلَدِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، ففِيهَا حَمْدُهُ
سُبْحَانَهُ عَلَى نِعْمَةِ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قِيَمًا لَا عِوَجَ فِيهِ؛ ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ
لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَرَّةٌ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، ففِيهَا حَمْدُهُ سُبْحَانَهُ لِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ
وَتَنْزُّهِهِ عَنِ النِّقَاطِ وَالْعُيُوبِ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ، فَاللَّهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى هُوَ الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ.

و«الْحَمِيدُ»: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِي الْعَظِيمَةِ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْاسْمُ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أَكْثَرِ مِنْ خَمْسَةِ عَشَرَ مَوْضِعًا؛ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ
النَّاسُ أَنْتَ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ
الْعَنِينَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]،

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، فهو تبارك وتعالى الحميدُ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو تبارك وتعالى المستحقُّ لكلِّ حمدٍ ومحبةٍ وثناءٍ لِمَا اتَّصَفَ به مِنْ صفاتِ الحمد، التي هي صفةُ الجَمَالِ والجَلالِ، وَلِمَا أَنْعَمَ به على خَلْقِهِ مِنَ النعمِ الجَزالِ، فهو المحمودُ على كلِّ حالٍ، وهو سبحانه حميدٌ مِنْ جميعِ الوجوه؛ «لأنَّ جميعَ أسمائه - تبارك وتعالى - حمدٌ، وصفاته حمدٌ، وأفعاله حمدٌ، وأحكامه حمدٌ، وعدله حمدٌ، وانتقامه حمدٌ، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمدٌ، والخلقُ والأمْرُ إنما قام بحمده، ووُجِدَ بحمده، وظهرَ بحمده، وكان لغايةٍ هي حَمْدُهُ، فحمْدُهُ سببُ ذلك وغايته»، «وجميعُ ما يوصفُ به ويُذكَرُ به ويُحَبَّرُ عنه به، فهو مَحَامِدُ له وثناءٌ وتسبيحٌ وتقديسٌ، فسبحانه وبحمده، لا يحصي أحدٌ مِنْ خَلْقِهِ ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوقَ ما يثني به عليه خلقُهُ، فله الحمدُ أولاً وآخراً حَمْدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما ينبغي لِكَرَمِ وجهه، وعِزِّ جلاله، ورفيعِ مجده، وعلوِّ جَدِّه»^(١).

وهو سبحانه، كما أنه محمودٌ على أسمائه وصفاته، فهو محمودٌ على فضله وعطايه ونعمائه؛ لِمَا له على عباده «مِنْ جَزِيلِ مواهبه، وَسَعَةِ عطاياه، وكريمِ أياديهِ، وجميلِ صنائعه، وحُسْنِ معاملتِهِ لعباده، وَسَعَةِ رحمتهِ لهم، وبرِّهِ ولطفِهِ وحَنَانِهِ، وإجابتهِ لدعواتِ المضطَّرين، وكشفِ كُرْبَاتِ المكروبين، وإغاثةِ الملهوفين، ورحمتهِ للعالمين، وابتدائهِ بالنَّعمِ قبل السَّؤال»، إلى غيرِ ذلك مِنْ نعمِهِ وعطاياه، وأهمُّ ذلك وأعظمُهُ: «هدايتهُ خاصَّتهُ وعبادتهُ إلى سبيلِ دارِ السلام، ومدافعتُهُ عنهم أحسنَ الدفاع، وحمايتُهُمْ عن مَرَاتِعِ الآثام، وَحَبَبِ إليهم الإيمانَ وزينتهُ في قلوبهم، وكَرَّةِ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيان، وجعلَهُمْ من الراشدين»^(٢).

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ٢٢٠، ٢٣٠).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ٢٣١).

فالحمدُ لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لِكِرَمِ وجهه وعِزِّ جلاله، حمداً يَمَلَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وما بينهما، وما شاء ربُّنا مِنْ شَيْءٍ بعدُ، بِمَجَامِعِ حَمْدِهِ كُلِّهَا، ما عَلِمْنَا مِنْهَا وما لَمْ نَعْلَمْ، على نِعَمِهِ كُلِّهَا، ما علمنا منها وما لَمْ نَعْلَمْ، عَدَدَ ما حَمَدَهُ الحامدون، وَغَفَلَ عن ذِكْرِه الغافلون، وَعَدَدَ ما جرى به قَلَمُهُ، وَأَحْصَاهُ كُتَابُهُ، وَأَحَاطَ به عِلْمُهُ.



الْأَدَلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ عَلَى فَضْلِ الْحَمْدِ

وكما أَنَّ القرآنَ الكريمَ قد دَلَّ على فضلِ الحمدِ، وعِظَمَ شأنِهِ بأنواعٍ كثيرةٍ من الأدلَّةِ سَبَقَ الإشارةُ إلى طرفٍ منها، فكذلك السُّنَّةُ مليئةٌ بذكرِ الأدلَّةِ على فضلِ الحمدِ وعِظَمَ شأنِهِ، وما يَتَرْتَّبُ عليه مِنَ الفوائدِ والثمارِ، والفضائلِ في الدنيا والآخرة.

ونَبِينُنا ﷺ هو صاحبُ لواءِ الحمدِ، وهذه مَفْخَرَةٌ عَظِيمَةٌ، ومكانَةٌ رَفيعةٌ، حَظِيَ بها صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه؛ روى الإمامُ أحمدُ، والترمذي، وابن ماجه، بإسنادٍ صحيح، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ، آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ، إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ وَلَا فَخْرَ)^(١)؛ فَلَمَّا كَانَ صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه أَحَمَدَ الْخَلَائِقِ اللهُ، وَأَكْمَلَهُمْ قِيامًا بِحَمْدِهِ، أُعْطِيَ لَوَاءَ الْحَمْدِ؛ لِيَأْوِيَ إِلَى لَوَائِهِ الْحَامِدُونَ اللهُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ؛ وَإِلَى هَذَا أَشارَ ﷺ عندما قال في الحديث: (وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ، آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ، إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي)، وهو لَوَاءُ حَقِيقَتِي، يَحْمِلُهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَدِهِ، يَنْضَوِي تَحْتَهُ وَيَنْضُمُ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْحَمَّادِينَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَقْرَبُ الْخَلْقِ إِلَى لَوَائِهِ أَكْثَرُهُمْ حَمْدًا اللهُ، وَذِكْرًا لَهُ، وَقِيامًا بِأَمْرِهِ، وَأُتْمَتُهُ ﷺ هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ، وَهُمْ الْحَمَّادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَقَدْ رُويَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمَّادُونَ،

(١) «المسند» (٢/٣)، و«جامع الترمذي» (٣٦١٥)، و«سنن ابن ماجه» (٤٣٠٨).

الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ^(١).

وجاء في أثر يُروى عن كَعْبٍ، قال: «نجدُهُ مكتوبًا: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لا فُظٌّ ولا غَلِيظٌ، ولا صَحَابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسِّيئةِ السِّيئةَ، ولكنَّهُ يعفو ويغفر، وأُمَّتُهُ الْحَمَّادُونَ، يُكَبِّرُونَ اللَّهَ ﷻ على كُلِّ نَجْدٍ، وَيَحْمَدُونَهُ في كُلِّ مَنْزِلَةٍ...»؛ رواه الدارميُّ في مقدِّمة «سننه»^(٢).

وفي الْجَنَّةِ بَيْتٌ يُقَالُ لَهُ بَيْتُ الْحَمْدِ، خُصَّ لِلَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَيَصْبِرُونَ على مُرِّ الْقَضَاءِ؛ روى الترمذيُّ، بإسناد حسن، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةً فَوَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ)^(٣)؛ فهذا حَمْدُ اللَّهِ على الضَّرَّاءِ، فنال بِحَمْدِهِ هذه الرتبةَ العليَّةَ، ولكنَّ كيف يبلغُ العبدُ هذه المنزلةَ، وكيف يصلُ إلى هذه الدرجة؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحمدُ على الضَّرَّاءِ يوجبُهُ مَشْهَدَانِ:

أحدهما: علْمُ الْعَبْدِ بِأَنَّ اللَّهَ سبحانه مُسْتَوْجِبٌ ذَلِكَ، مستحقٌّ له بنفسه؛ فَإِنَّهُ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَأَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، وهو الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، الْخَبِيرُ الرَّحِيمُ.

والثاني: علْمُهُ بِأَنَّ اخْتِيَارَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ اخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ؛

(١) رواه الطبراني في «معاجمه الثلاثة»؛ «الكبير» رقم (١٢٣٤٥)، و«الأوسط» رقم (٣٠٣٣)، و«الصغير» رقم (٢٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٩/٥)، والحاكم في «المستدرک» (٦٨١/١)، لكن في إسناده ضعف، وقد رواه ابن المبارك في «الزهد» (٦٨/١)، بسند صحيح، موقوفًا على سعيد بن جبیر. انظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني (٩٤/٢).

(٢) «سنن الدارمي» (١٦/١).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (١٠٢١)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٤٠٨).

كما روى مسلمٌ في «صحيحه»، وغيره، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قِضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)^(١)، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ كُلَّ قِضَاءٍ يَقْضِيهِ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ، وَيَشْكُرُ عَلَى السَّرَّاءِ، فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ^(٢). اهـ.

فإذا علمَ ذلك العبدُ وتيقَّنَه أَقْبَلَ على حمدِ الله في أحواله كلها؛ في سَرَّائِهِ وَضَرَّائِهِ، وفي شِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ، ثم هو في حالِ شِدَّتِهِ لا ينسى فضلَ الله عليه وعطاءَهُ ونعمتَهُ.

جاء رجلٌ إلى يُونُسَ بنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشكو ضيقَ حالِهِ، فقال له يونس: «أَيَسْرُكَ ببصرِكَ هذا مِائَةُ أَلْفِ درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مِائَةُ أَلْفِ؟ قال: لا، قال: فبرجليك مِائَةُ أَلْفِ؟ قال: لا، قال: فدَكَرَهُ نَعَمَ اللهُ عليه، فقال يونس: أرى عندك مِئِينَ الأُلُوفِ وأنتَ تشكو الحاجة؟!».

وجاء عن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا بُسِطَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا، فَانْتَزَعَ مَا فِي يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُشْنِي عَلَيْهِ، حَتَّى لَمْ يَكُنْ لَهُ فِرَاشٌ إِلَّا بَارِيَّةً^(٣)، قال: فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُشْنِي عَلَيْهِ، وَبُسِطَ لآخرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ لِصَاحِبِ الْبَارِيَّةِ: أَرَأَيْتَكَ أَنْتَ عَلَامَ تَحْمَدُ اللَّهَ؟ قال: أَحْمَدُهُ عَلَى مَا لَوْ أُعْطِيتُ بِهِ مَا أُعْطِيَ الْخَلْقُ لَمْ أُعْطِهِمْ إِلَّاهُ، قال: وَمَا ذَاكَ؟ قال: أَرَأَيْتَكَ بِبَصْرِكَ، أَرَأَيْتَكَ لِسَانَكَ، أَرَأَيْتَكَ يَدَيْكَ، أَرَأَيْتَكَ رَجْلَيْكَ؟!»^(٤).

وثَبَتَ في فَضْلِ الْحَمْدِ ما رواه الترمذي، وابن ماجه، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (أَفْضَلُ الذِّكْرِ:

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٩) بلفظ: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَمَرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ...)، الحديث.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤٣/١٠)، (٤٤).

(٣) هي: الحَصِيرُ الْمَنسُوجُ. «القاموس المحيط» (ص ٤٥٢).

(٤) ذكرهما ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص ١٦٧).

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ^(١)، فَجَعَلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حَمْدَ اللَّهِ أَفْضَلَ الدُّعَاءِ، مَعَ أَنَّ الْحَمْدَ إِنَّمَا هُوَ ثَنَاءٌ عَلَى الْمَحْمُودِ مَعَ حُبِّهِ؛ وَلِهَذَا سُئِلَ ابْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، فَقِيلَ لَهُ: كَأَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ دُعَاءٌ؟ فَقَالَ: «أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ أُمِّیَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ يَرْجُو نَائِلَةً:

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ
إِذَا أَتْنِي عَلَيْكَ الْمَرءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ
كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الْخَلْقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ

فهذا مخلوق اكتفى مِنْ مخلوقٍ بالثناءِ عليه، فكيف بالخالق سبحانه؟!».

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]؛ فَجَعَلَ الْحَمْدَ دُعَاءً.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدُّعَاءُ يُرَادُّ بِهِ دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، وَدُعَاءُ الْعِبَادَةِ، وَالْمُثْنِي عَلَى رَبِّهِ بِحَمْدِهِ وَالْإِثْنِ دَاعٍ لَهُ بِالْإِعْتِبَارَيْنِ؛ فَإِنَّهُ طَالِبٌ مِنْهُ، طَالِبٌ لَهُ، فَهُوَ الدَّاعِي حَقِيقَةً؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]»^(٢).

وَمِمَّا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْحَمْدِ وَعَظَمِ ثَوَابِهِ عِنْدَ اللَّهِ: مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)^(٣).

فَأَخْبَرَ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ عَظِيمِ فَضْلِ الْحَمْدِ وَعَظِيمِ ثَوَابِهِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ١٥٢).

(٢) صيغ الحمد المطبوع باسم «مطالع السعد» (ص ٩٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٦٩).

وأنَّه يَمْلَأُ المِيزَانَ. وقد قيل: إِنَّ المِرَادَ بِمِلْئِهِ المِيزَانَ؛ أَي: لو كان الحمدُ جِسْمًا لَمَلَأَ المِيزَانَ، وليس بسديدٍ، بل إِنَّ اللهَ ﷻ يُمَثِّلُ أَعْمَالَ بني آدَمَ وَأَقْوَالَهُمْ صُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ، وَتُوزَنُ حَقِيقَةٌ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»: (كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ)^(١).

❦ فَالْحَمْدُ شَأْنُهُ عَظِيمٌ، وَثَوَابُهُ جَزِيلٌ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَأَهْلُهُ هُمُ الْحَرِثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَعْلَى المَقَامَاتِ، وَأَرْفَعَ الرُّتَبِ وَأَعْلَى المَنَازِلِ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُحِبُّ المَحَامِدَ، وَيُحِبُّ مَنْ عَبْدَهُ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ، وَيَرْضَى مَنْ عَبْدَهُ أَنْ يَأْكَلَ الْأُكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى المَانُّ عَلَيْهِمُ بِالنِّعْمَةِ، وَالمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِمُ بِالحَمْدِ، فَهُوَ يَبْذُلُ نِعْمَةً لِعِبَادِهِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ الثَّنَاءَ بِهَا وَذِكْرَهَا وَالحَمْدَ عَلَيْهَا، وَيَرْضَى مِنْهُمْ بِذَلِكَ شُكْرًا عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمُ، وَهُوَ غَيْرُ مَحْتَاجٍ إِلَى شُكْرِهِمْ، لَكِنَّهُ يُحِبُّ ذَلِكَ مِنْ عِبَادِهِ حَيْثُ كَانَ صَلَاحُ الْعَبْدِ وَفَلَاحُهُ وَكَمَالُهُ فِيهِ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى نِعَمَائِهِ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى وَافِرِ فَضْلِهِ وَجَزِيلِ عَطَائِهِ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى.



الْمَوَاطِنُ الَّتِي يَتَأَكَّدُ فِيهَا الْحَمْدُ

لقد مرَّ معنا بيانُ فضلِ الحمدِ وعظيمُ ثوابِهِ مِنْ خلالِ النصوصِ الواردةِ في ذلكِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وهي تدلُّ على أَنَّ الحمدَ مِنْ أَفْضَلِ الطاعاتِ، وأَجَلُ القُرْبَاتِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

❏ **والحمدُ مطلوبٌ مِنَ الْمُسْلِمِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ؛** إِذْ إِنَّ الْعَبْدَ فِي كُلِّ أَوْقَاتِهِ مُتَقَلِّبٌ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ، وَهُوَ سَبْحَانُهُ خَالِقُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُمْ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً، وَدَفَعَ عَنْهُمْ النِّقَمَ وَالْمَكَارَةَ، فَلَيْسَ بِالْعِبَادِ مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا وَهُوَ مُوَلِّيُهَا، وَلَا يَدْفَعُ الشَّرَّ عَنْهُمْ سِوَاهُ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْحَمْدَ وَالثَنَاءَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، كَمَا أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ لِكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَلِمَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى وَالنِّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، فَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا أَكْمَلَ الْحَمْدِ وَالثَنَاءِ؛ فَكَيْفَ بِجَمِيعِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ؟!

وَكَمَا أَنَّ الْحَمْدَ مُطْلُوبٌ مِنَ الْمُسْلِمِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ أَوْقَاتًا مَعَيَّنَةً وَأَحْوَالًا مَخْصُوصَةً تَمُرُّ بِالْعَبْدِ يَكُونُ فِيهَا الْحَمْدُ أَكْثَرَ تَأَكِيدًا.

* **وَمِنْ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ:** حَمْدُ اللَّهِ فِي الْخُطْبَةِ وَفِي اسْتِفْتَاكِ الْأُمُورِ، وَفِي الصَّلَاةِ، وَعَقَبَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ، وَعِنْدَ الْعُطَاسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاطِنِ الَّتِي وَرَدَ فِي السُّنَّةِ تَخْصِيصُهَا بِتَأَكُّدِ الْحَمْدِ فِيهَا، وَلَعَلَّ مِنَ الْحَسَنِ أَنْ نَقْفَ مَعَ بَعْضِ النُّصُوصِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ذِكْرِ الْأَوْقَاتِ وَالْمَوَاطِنِ الَّتِي يَتَأَكَّدُ فِيهَا الْحَمْدُ مِمَّا وَرَدَتْ بِهِ سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ.

* **فَمِنْ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ:** حَمْدُ اللَّهِ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرْبِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طِبَابَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿البقرة: ١٧٢﴾، روى مسلم في «صحيحه»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا)^(١)، وروى الترمذي بإسناد حسن، عن معاذ بن أنس، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَكَلَ طَعَامًا، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)^(٢)، وروى البخاري عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودَّعٍ وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ، رَبَّنَا)^(٣)، وروى الإمام أحمد، والتَّسَائِي فِي «السنن الكبرى» بإسناد صحيح، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر: «أَنَّهُ حَدَّثَهُ رَجُلٌ خَدَمَ النَّبِيَّ ﷺ ثَمَانِ سِنِينَ، أَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا قُرِبَ إِلَيْهِ طَعَامُهُ يَقُولُ: (بِاسْمِ اللَّهِ)، وَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَعَامِهِ قَالَ: (اللَّهُمَّ أَطْعَمْتَ وَأَسْقَيْتَ، وَأَغْنَيْتَ وَأَقْنَيْتَ، وَهَدَيْتَ وَأَحْيَيْتَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَعْطَيْتَ)»^(٤).

* وَمِنْ مَوَاطِنِ الْحَمْدِ: حَمْدُ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ، وَلَا سِيَّما عِنْدَ الرَّفْعِ مِنَ الرُّكُوعِ؛ ففِي «صحيح مسلم»، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ، قَالَ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءَ السَّمَوَاتِ وَمِلءَ الْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)^(٥). وفيه أيضًا عن أبي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلءَ السَّمَوَاتِ وَمِلءَ الْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٤).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤٤٠/٣)، وأبو داود رقم (٤٠٢٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٥٨)، وابن ماجه رقم (٣٢٨٥)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٤٨/٧).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٤٥٨).

(٤) «المسند» (٦٢/٤)، و«السنن الكبرى» رقم (٦٨٩٨).

(٥) «صحيح مسلم» رقم (٧٧١).

شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ^(١)، وروى البخاري في «صحيحه»، عن رِفاعَةَ بنِ رافع الزُّرْقِيِّ رضي الله عنه، قال: «كُنَّا نَصَلِّي وراءَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انصَرَفَ قَالَ: (مَنْ الْمُتَكَلِّمُ؟)، قَالَ: أَنَا، قَالَ: (قَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةَ ثَلَاثِينَ مَلَكًا يَتَنَادَوْنَ أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ)»^(٢)، وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَصَلِّي يَقُولُ: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ...)، إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ^(٣)، وروى مسلمٌ في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ نَصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَجُلٌ: اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَنْ الْقَائِلُ كَذَا وَكَذَا؟!)، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا قُلْتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (عَجِبْتُ لَهَا، فَتَحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ)، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَمَا تَرَكْتُهَا مِنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُهَا»^(٤).

* وَمِنَ الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَتَأَكَّدُ فِيهَا الْحَمْدُ لِلَّهِ: فِي ابْتِدَاءِ الْخُطْبِ والدروس، وفي ابتداء الكتب المصنَّفة، ونحو ذلك، روى أهلُ السُّنَنِ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «عَلَّمَنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٧٩٩).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (١١٢٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٦٩).

(٤) «صحيح مسلم» رقم (٦٠١).

فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ^(١)، وَيُسْتَحَبُّ الْبَدْءُ بِهِ فِي تَعْلِيمِ النَّاسِ وَفِي الْخُطْبِ؛ سِوَاءٍ كَانَتْ خُطْبَةٌ نِكَاحٍ، أَوْ خُطْبَةٌ جُمُعَةٍ، أَوْ غَيْرَهُمَا.

* كَمَا يُسْتَحَبُّ الْحَمْدُ: عِنْدَ حَصُولِ نِعْمَةٍ، أَوْ انْدِفَاعِ مَكْرُوهِ، سِوَاءٍ حَصَلَ ذَلِكَ لِلْحَامِدِ نَفْسِهِ، أَوْ لِقَرِيبِهِ، أَوْ لِمَالِكِهِ، أَوْ لِلْمُسْلِمِينَ؛ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى لَيْلَةً أُسْرِيَ بِهِ بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا، فَأَخَذَ اللَّبَنَ، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَذَاكَ لِلْفِطْرَةِ، وَلَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ)^(٢)، وَفِي «سَنَنِ» أَبِي دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيِّ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ: عِمَامَةً أَوْ قَمِيصًا أَوْ رِدَاءً، ثُمَّ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ)^(٣).

* وَيَتَأَكَّدُ الْحَمْدُ إِذَا عَطَسَ الْعَبْدُ، وَالْعُطَاسُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؛ إِذْ بِهِ يَزُولُ الْمُحْتَقِنُ فِي الْأَنْفِ، وَالَّذِي قَدْ يَكُونُ فِي بَقَائِهِ أَذًى أَوْ ضَرَرٌّ عَلَى الْعَبْدِ؛ وَلِهَذَا يَتَأَكَّدُ عَلَى الْعَبْدِ حَمْدُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ؛ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ، وَيُصْلِحْ بَالَكُمْ)^(٤).

(١) «سنن أبي داود» رقم (٢١١٨)، و«جامع الترمذي» رقم (١١٠٥)، «سنن النسائي» رقم (١٤٠٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٨٩٢)، وانظر في تخريج الحديث والكلام عليه: «خطبة الحاجة» للألباني.

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٧٠٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣٠/٣)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٠٢٠) و«جامع الترمذي» رقم (١٧٦٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي رقم (١٠١٤١).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٤).

* وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ إِذَا رَأَى مُبْتَلًى بِعَاقِبَةٍ أَوْ نَحْوِهَا؛ فَنَفِي التَّرْمِذِيِّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَنْ رَأَى مُبْتَلًى، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ)^(١).

* كَمَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ حَامِدًا لِلَّهِ فِي سَرَائِهِ وَضَرَائِهِ، وَفِي شَدَّتِّهِ وَرَخَائِهِ، وَفِي سَائِرِ شُؤُونِهِ؛ رَوَى ابْنُ مَاجَهٍ فِي «سُنَنِ»، وَالْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّهُ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ)، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ)»^(٢).

فهذه بعضُ المواطنِ التي يَتَأَكَّدُ فيها الحمدُ مما وَرَدَتْ به السُّنَّةُ، وَسَيَمُرُّ معنا - بِإِذْنِ اللَّهِ - الْإِشَارَةُ إِلَى مَوَاطِنَ أُخْرَى؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، حَمْدًا لَا يَنْقُطِعُ، وَلَا يَبِيدُ، وَلَا يَفْنَى، عَدَدَ مَا حَمَدَهُ الْحَامِدُونَ، وَعَدَدَ مَا عَقَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ.



(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٣٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٤٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٠٣)، و«المستدرک» (٤٩٩/١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٢٧).

أَعْظَمُ مُوجِبَاتِ الْحَمْدِ: الْعِلْمُ بِأَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ

لا ريب أن الحمد كله لله رب العالمين؛ فإنه سبحانه المحمود على كل شيء، وهو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، والحمد أوسع الصفات، وأعم المدائح، وأعظم الثناء، والطُّرُق إلى العلم به في غاية الكثرة؛ لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمدٌ، وصفاته حمدٌ، وأفعاله حمدٌ، وأحكامه حمدٌ، وعدله حمدٌ، وانتقامه من أعدائه حمدٌ، وفضله وإحسانه إلى أوليائه حمدٌ، والخلق والأمر إنما قام بحمده، ووجد بحمده، وظهر بحمده، وكان لغاية هي حمده، فحمده سبحانه سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله، فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات، وظهور آثاره أمر مشهود بالأبصار والبصائر.

وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق به من اتخاذ الولد والشريك، إلى غير ذلك من أنواع ما حمد الله به نفسه في كتابه.

ولهذا، فإن من الطُّرُق العظيمة الدالة على شمول معنى الحمد وتناوله لجميع الأشياء: معرفة العبد لأسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، وإقراره بأن للعالم إلهاً حياً جامعاً لكل صفة كمال، واسم حسن، وثناء جميل، وفعل كريم، وأنه سبحانه له القدرة التامة، والمشية النافذة، والعلم المحيط، والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والمثلک الكامل الذي لا يخرج عنه

ذَرَّةٌ مِنَ الذَّرَّاتِ، والغنى التَّامُّ المطلقُ مِنْ جميعِ الجهاتِ، والحكمةُ البالغةُ المشهودةُ آثارُها في الكائناتِ، والعِزَّةُ الغالبةُ بجميعِ الوجوه والاعتباراتِ، والكلماتُ التَّامَّاتُ النافذاتُ، التي لا يُجاوِزُهنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ مِنْ جميعِ البرِّياتِ، واحدٌ لا شريكَ له في ربوبيَّتِهِ ولا في إلهيَّتِهِ، ولا شبيهَ له في ذاته، ولا في صفاتِهِ ولا في أفعاله، وليس له مَنْ يَشْرِكُهُ في ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ مُلْكِهِ.

وهو سبحانه قَيُّومُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِينَ، إلهُ الأولَيْنِ والآخِرِينَ، ولا يزالُ سبحانه موصوفاً بصفاتِ الجلال، منعوتاً بنعوتِ الكمال، مُنْزَهاً عن أضدادها مِنْ النقائصِ والعيوبِ، فهو الحَيُّ القيومُ، الذي لِكَمالِ حَيَاتِهِ وقِيوميَّتِهِ لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ، مالِكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ الذي لِكَمالِ مُلْكِهِ لا يشفَعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، العالمُ بكلِّ شيءٍ، الذي لِكَمالِ عِلْمِهِ يَعْلَمُ ما بينَ أيدي الخلائقِ وما خَلْفَهُمْ، فلا تَسْقُطُ ورقةٌ إلا يَعْلَمُها، ولا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إلا بإذنه، يَعْلَمُ ديبَ الخواطرِ في القلوبِ، حيثُ لا يَطْلُعُ عليه المَلَكُ، ويعْلَمُ ما سيكونُ منها حيثُ لا يَطْلُعُ عليه القَلْبُ، البصيرُ الذي لِكَمالِ بَصَرِهِ يرى تفاصيلَ خَلْقِ الذَّرَّةِ الصغيرةِ وأعضائها وَلَحْمِها وَدَمَها وَمُخَّها وعروقِها، ويرى دَبِيبَها على الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ في الليلةِ الظلماءِ، ويرى ما تحتِ الأَرْضِينَ السَّبْعِ، كما يرى ما فوقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ.

السميعُ الذي قد اسْتَوَى في سَمْعِهِ سِرُّ القولِ وَجَهْرُهُ، وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتِ، فلا تختلفُ عليه أصواتُ الخَلْقِ، ولا تشتبهُ عليه، ولا يَشْعَلُهُ منها سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُهُ المسائلُ، ولا يُبْرِمُهُ كثرةُ السائلينَ، قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتِ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْكُو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنِّي لَيُخْفِي عَلَيَّ بَعْضُ كَلَامِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»^(١).

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤٦/٦)، والنسائي رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه رقم (١٨٨)، وصحَّحه الألباني في تعليقه على «السُّنَّة» لابن أبي عاصم رقم (٦٢٥).

القديرُ الذي - لكمالِ قدرته - يهدي مَنْ يشاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يشاءُ، ويجعلُ المؤمنَ مؤمناً والكافرَ كافراً، والبرَّ بَرّاً والفاجرَ فاجراً، ولكمالِ قدرته سبحانه لا يحيطُ أحدٌ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إِلَّا بما شاءَ أَنْ يُعْلِمَهُ إِيَّاهُ، ولكمالِ قدرته خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وما بينهما في ستة أَيَّامٍ، وما مَسَّهُ مِنْ لُغُوبٍ، ولا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ ولا يَقُوتهُ، بل هو في قبضته أَيْنَ كان، ولكمالِ غناه استحَالَ إضافةُ الولدِ والصاحبةِ والشريكِ والشفيعِ بدونِ إذنه إليه، ولكمالِ عظمتِهِ وعُلُوِّهِ وسِعَ كرسيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، ولم تَسْعُهُ أَرْضُهُ ولا سَمَوَاتُهُ، ولم تُحِطْ به مخلوقاته، بل هو العالي على كُلِّ شيءٍ، وهو بكلِّ شيءٍ محيطٌ.

يقولُ الله تعالى في أوَّلِ سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ أَلَنَارٌ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَفِيهِنَّ لَهُمْ سَلَامٌ وَمِنْ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[يونس].

وهو سبحانه يُحِبُّ رُسُلَهُ، وَيُحِبُّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وهم يُحِبُّونه وَيَحْمَدُونَهُ، بل لا شيءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ، ولا أَشوقُ إِلَيْهِمْ مِنْ لِقَائِهِ، ولا أَقْرُ لِعِيُونِهِمْ مِنْ رُؤْيَيْهِ، ولا أَحظى عندهم مِنْ قُرْبِهِ، وهو سبحانه له الحكمةُ البالغةُ في خَلْقِهِ وأَمْرِهِ، وله النعمةُ السابغةُ على خَلْقِهِ، وكلُّ نعمةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وكلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، وهو سبحانه أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَأَفْرَحُ بِتُوبَةِ عَبْدِهِ

مِنْ وَاجِدٍ رَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ بَعْدَ فَقْدِهَا
وَالْيَأْسِ مِنْهَا.

وهو سبحانه رحيماً بعباده، لم يُكَلِّفْهُمْ إِلَّا وَسْعَهُمْ، وهو دون طاقتهم،
فقد يطيقون الشيء وَيَضِيقُ عَلَيْهِمْ، بخلاف وَسْعَهُمْ؛ فَإِنَّهُ مَا يَسْعُونَهُ، وَيَسْهَلُ
عَلَيْهِمْ، وَيَفْضُلُ قَدْرَهُمْ عَنْهُ، ولا يعاقب سبحانه أحداً بغير فعله، ولا يعاقبه
على فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يَقْدِرُ على فعله، ولا على فعل ما لا قُدْرَةَ
له على تركه، وهو سبحانه حكيمٌ، كريمٌ جَوَادٌ ماجد، مُحْسِنٌ وَدُودٌ، صَبُورٌ
شَكُورٌ، يُطَاعُ فَيُشْكَرُ، وَيُعْصَى فَيُغْفَرُ، لا أحد أصبر على أذى سَمِعَهُ منه،
ولا أحد أحب إليه المَدْحُ منه، ولا أحد أحب إليه العُذْرُ منه، ولا أحد أحب
إليه الإحسانُ منه، فهو محسنٌ يُحِبُّ المحسنين، شَكُورٌ يُحِبُّ الشاكرين، جميلٌ
يُحِبُّ الجمال، طَيِّبٌ يُحِبُّ كُلَّ طَيِّبٍ، عليمٌ يُحِبُّ العلماءَ مِنْ عبادِهِ، كريمٌ
يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ، قويٌّ والمؤمنُ القويُّ أحبُّ إليه مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، بَرٌّ يُحِبُّ
الْأَبْرَارَ، عَدْلٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْعَدْلِ، حَيٌّ سَيِّئٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْحَيَاءِ وَالسُّتْرِ.

وهو سبحانه يحبُّ أسماءَهُ وصفاتِهِ، ويحبُّ المتعبدينَ له بها، ويحبُّ مَنْ
يَسْأَلُهُ وَيَمْدَحُهُ بها، ويحبُّ مَنْ يَعْرِفُهَا وَيَعْقِلُهَا وَيُثْنِي عَلَيْهِ بها، وَيَحْمَدُهُ وَيَمْدَحُهُ
بها؛ كما في «الصحيح»، عن النبي ﷺ: (لَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ؛
مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَتْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ
ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) ^{(١)(٢)}.

وبهذا يُعْلَمُ أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِي وَصِفَاتِهِ
الْعَالِيَا الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، عِلِمَ تَمَامَ الْعِلْمِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْ
ذَلِكَ إِلَّا مَا يَوْجِبُ الْحَمْدَ وَالثَنَاءَ، فَالْحَمْدُ مُوجِبُ أَسْمَائِهِ الْحَسَنِي،

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٦٣٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٦٠).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ٢١٠ - ٢٢٦).

وصفاته العلية، وأفعاله الحميدة، ولا يُخْبَرُ عنه سبحانه إلا بالحمد،
ولا يُثْنَى عليه إلا بأحسن الثناء، كما لا يُسَمَّى إلا بأحسن الأسماء، فكلُّ صفةٍ
عُليّا، واسمٍ حسنٍ، وثناءٍ جميلٍ، وكلُّ حمدٍ ومدحٍ، وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ،
وإجلالٍ وإكرامٍ، فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمّها وأدومّها؛
فسبحان الله وبحمده، لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على
نفسه فوق ما يثني به عليه خلقه؛ فله الحمدُ أولاً وآخرًا، حمداً كثيراً طيباً
مباركاً فيه كما يُحِبُّ ربُّنا الكريمُ ويرضَى.



حَمْدُ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ وَآلَائِهِ

تَقَدَّمَ معنا الإشارةُ إلى شمولِ حَمْدِ اللَّهِ سبحانه وتناوُلِهِ لجميعِ ما يُحَدِّثُهُ مِنْ إحسانٍ ونعمةٍ وغيرِ ذلك، وأنَّ حَمْدَهُ سبحانه هو مُوجِبُ أَسْمَائِهِ الحسنَى، وصفاته العُلَيَا، وأفعاليه الحميدة؛ وبهذا يَتَبَيَّنُ أَنَّ حَمْدَ اللَّهِ نوعان: حمدٌ على إحسانِهِ إلى عباده، وهو مِنَ الشُّكْرِ، وحمدٌ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ هو بِنَفْسِهِ مِنْ صفاتِ كَمالِهِ ونُعوتِ جلالِهِ سبحانه. وقد كان أَكْثَرُ الحديثِ السابق عن حمدِ اللَّهِ على أَسْمَائِهِ الحسنَى وصفاته العظيمة، وأنَّ عِلْمَ العبدِ بها علمًا صحيحًا هو مِنْ أعْظَمِ مُوجِبَاتِ قيامِهِ بحمدِ اللَّهِ على أَحْسَنِ وَجْهِ وَأَتَمِّ حَالٍ. وأمَّا الحديثُ هنا، فسيكون عن النوعِ الثاني مِنْ أنواعِ الحمد، وهو حَمْدُ اللَّهِ على نِعَمِهِ وَآلَائِهِ.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، ويقولُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠]، ويقولُ تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ فَتَنْفَكُوا﴾ [النحل: ٥٣]، ويقولُ تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فَنِعْمَ اللهُ على عباده كثيرةٌ ومتنوعةٌ، وكلُّ نعمةٍ منها مُوجِبَةٌ لحمدِ المُنْعِمِ سبحانه، وكما أَنَّ أسبابَ الحمدِ ومُوجِبَاتِهِ متنوعةٌ متعدِّدةٌ، فكذلك الحمدُ تنوعَ بتنوعِها، وكَثُرَ بِكَثْرَتِها.

وقد فَصَّلَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ الْحَدِيثَ عن هذا النوعِ في كتابه «طريق الهجرتين»، وذكرَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ هذا النوعَ مِنَ الحمدِ - حَمْدُ النِّعَمِ والآلاءِ - مشهودٌ للخليقةِ بَرًّا وفَاجِرًا، مُؤْمِنًا وكافِرًا؛ مِنْ جَزِيلِ مَوَاهِبِهِ، وَسَعَةِ عَطَايَاهُ، وَكَرِيمِ أَيْادِيهِ، وَجَمِيلِ صَنَائِعِهِ، وَحُسْنِ مَعَامَلَتِهِ لِعِبَادِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ لَهُمْ،

وَبِرُّهُ وَلُطْفِهِ وَحَنَانِهِ وَإِجَابَتِهِ لِدَعَوَاتِ الْمُضْطَرِّينَ، وَكَشْفِ كُرْبَاتِ الْمَكْرُوبِينَ، وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِينَ، وَرَحْمَتِهِ لِلْعَالَمِينَ، وَابْتِدَائِهِ بِالنَّعَمِ قَبْلَ السُّؤَالِ وَمِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، بَلْ ابْتِدَاءً مِنْهُ بِمَجَرَّدِ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَدَفْعِ الْمِحْنِ وَالْبَلَايَا بَعْدَ انْعِقَادِ أَسْبَابِهَا، وَصَرْفِهَا بَعْدَ وَقُوعِهَا، وَلُطْفِهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ إِلَى مَا لَا تَبْلُغُهُ الْأُمَالُ، وَهَدَايَةِ خَاصَّتِهِ وَعِبَادِهِ إِلَى سَبِيلِ دَارِ السَّلَامِ، وَمُدَافَعَتِهِ عَنْهُمْ أَحْسَنَ الدِّفَاعِ، وَحِمَايَتِهِمْ عَنْ مَرَاتِعِ الْآثَامِ، وَحَبَبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَجَعَلَهُمْ مِنَ الرَّاشِدِينَ، وَكَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَسَمَّاهُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَذَكَرَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوهُ، وَأَعْطَاهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلُوهُ، وَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِنِعْمِهِ مَعَ غِنَاهُ، وَتَبَعَّضَهُمْ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي، وَفَقَّرَهُمْ إِلَيْهِ، وَمَعَ هَذَا كُلَّهُ: فَاتَّخَذَ لَهُمْ دَارًا، وَأَعَدَّ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَمَلَأَهَا مِنْ جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ، وَأَوْدَعَهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالْحَبْرَةِ وَالسَّرُورِ وَالْبَهْجَةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهَا، ثُمَّ يَسَّرَ لَهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَوْصِلُهُمْ إِلَيْهَا، وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهَا، وَرَضِيَ مِنْهُمْ بِالْيُسْرِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْقَصِيرَةِ جَدًّا، بِالْإِضَافَةِ إِلَى بَقَاءِ دَارِ النَّعِيمِ، وَضَمِنَ لَهُمْ - إِنْ أَحْسَنُوا - أَنْ يُثَبِّتَهُمُ بِالْحَسَنَةِ عَشْرًا، وَإِنْ أَسَاءُوا وَاسْتَغْفَرُوا أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ أَنْ يَمْحُوَ مَا جَنَوْهُ مِنْ السَّيِّئَاتِ بِمَا يَفْعَلُونَهُ بَعْدَهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَذَكَرَهُمْ بِآلَائِهِ، وَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِأَسْمَائِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ؛ رَحْمَةً مِنْهُمْ بِهِمْ وَإِحْسَانًا، لَا حَاجَةَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، وَنَهَايَهُمْ عَمَّا نَهَايَهُمْ عَنْهُ؛ حِمَايَةً وَصِيَانَةً لَهُمْ، لَا بُخْلًا مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ، وَخَاطَبَهُمْ بِاللُّطْفِ خِطَابٍ وَأَحْلَاهُ، وَنَصَحَهُمْ بِأَحْسَنِ النَّصَائِحِ، وَوَصَّاهُمْ بِأَكْمَلِ الْوَصَايَا، وَأَمَرَهُمْ بِأَشْرَفِ الْخِصَالِ، وَنَهَايَهُمْ عَنْ أَقْبَحِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَصَرَّفَ لَهُمُ الْآيَاتِ، وَضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ، وَوَسَّعَ لَهُمْ طَرِيقَ الْعِلْمِ بِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَفَتَحَ لَهُمُ أَبْوَابَ الْهَدَايَةِ، وَعَرَّفَهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تُذْنِبُهُمْ مِنْ رِضَا، وَتُبْعِدُهُمْ عَنْ غَضَبِهِ، وَخَاطَبَهُمُ بِاللُّطْفِ الْخِطَابَ، وَسَمَّاهُمْ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِمْ؛ كَقَوْلِهِ:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [البقرة: ١٨٦]، فَخَاطَبَهُمْ بِخُطَابِ الْوِدَادِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّلَطُّفِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفَعُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمُ ﴿٦١﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ﴾ [الانفطار: ٦١].

وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودُّد والتحسُّن واللُّطْف والنصيحة البالغة؛ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَتَحَّتْ هذا الخطاب: إني عاديُّ إبليسَ وطرَدْتُهُ مِنْ سَمَائِي، وباعدْتُهُ مِنْ قُرْبِي؛ إذْ لَمْ يَسْجُدْ لِأَبِيكُم آدَمَ، ثُمَّ أَنْتُمْ يَا بَنِيهِ تَوَالُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ مِنْ دُونِي وَهُمْ أَعْدَاؤُكُمْ، فليَتَأَمَّلِ اللَّيْبُ مَوَاقِعَ هذا الخطاب، وشِدَّةَ لُصُوقِهِ بِالْقُلُوبِ وَالتَّبَاسُّهِ بِالْأَرْوَاحِ.

ثم إنَّه سبحانه قد أعلم عباده بأنَّه لا يَرْضَى لَهُمْ إِلَّا أَكْرَمَ الْوَسَائِلِ، وَأَفْضَلَ الْمَنَازِلِ، وَأَجَلَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ؛ قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِينَ سَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسُنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧].

ثم هو سبحانه لم يَخْلُقْ عباده لحاجة منه إليهم، ولا لِيَتَكَثَّرَ بهم مِنْ قِلَّةٍ، ولا لِيَتَعَزَّزَ بهم مِنْ ذِلَّةٍ، بل كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿الذاريات﴾، وقال سبحانه عَقِبَ أَمْرِهِ لِعِبَادِهِ بِالصَّدَقَةِ، وَنَهَيْهِمْ لَهُمْ عَنْ إِخْرَاجِ الرَّدِيِّ مِنَ الْمَالِ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِوْا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فهو سبحانه غَنِيٌّ عَمَّا يَنْفِقُونَ أَنْ يَنَالَهُ مِنْهُ شَيْءٌ، حميدٌ مستحقٌّ لِلْمَحَامِدِ كُلِّهَا؛ فَإِنْفَاقُ الْعِبَادِ لَا يَسُدُّ مِنْهُ حَاجَةً، وَلَا يُوجِبُ لَهُ حَمْدًا، بل هو الغنيُّ بِنَفْسِهِ، الحميدُ بِنَفْسِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَإِنْفَاقُ الْعِبَادِ نَفْعُهُ عَائِدٌ لَهُمْ، وَإِحْسَانُهُمْ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، وقال: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَأَنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأَنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] ^(١).

هذا؛ وَمَنْ أَرَادَ مَطَالَعَةَ أَصُولِ النِّعَمِ وَمَا تُوجِبُهُ مِنْ حَمْدِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحَسَنِ عِبَادَتِهِ، فَلْيُذِمَّ سَرَحَ الذِّكْرِ فِي رِيَاضِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلْيَتَأَمَّلْ مَا عَدَّدَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَتَعَرَّفْ بِهَا إِلَى عِبَادِهِ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ؛ ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿الجاثية﴾.



(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ٢٣١ - ٢٣٧).

حَمْدُ اللَّهِ هُوَ أَفْضَلُ النَّعَمِ

لَا رَيْبَ فِي عِظَمِ شَأْنِ الْحَمْدِ، وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ، وَكَثْرَةِ ثَوَابِهِ؛ فَهُوَ مِنْ أَجْلِ الطَّاعَاتِ، وَأَحْسَنِ الْقُرْبَاتِ، وَهُوَ أَحَقُّ مَا تَقَرَّبَ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ؛ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، مِلءُ السَّمَوَاتِ، وَمِلءُ الْأَرْضِ، وَمِثْلُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ)^(١).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا لَفْظُ الْحَدِيثِ: (أَحَقُّ): أَفْعَلُ تَفْضِيلًا، وَقَدْ غَلِطَ فِيهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَصْنُفِينَ، فَقَالُوا: «حَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ»، وَهَذَا لَيْسَ لَفْظُ الرُّسُولِ، وَلَيْسَ هُوَ بِقَوْلٍ سَدِيدٍ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يَقُولُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، بَلِ الْحَقُّ مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]، وَلَكِنْ لَفْظَةُ: (أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ) خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذَوْفٌ؛ أَيُّ: الْحَمْدُ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، أَوْ هَذَا - وَهُوَ الْحَمْدُ - أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، فَفِيهِ بَيِّنٌ أَنَّ الْحَمْدَ أَحَقُّ مَا قَالَهُ الْعَبْدُ؛ وَلِهَذَا أَوْجَبَ قَوْلُهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، وَأَنْ تُفْتَتَحَ بِهِ الْفَاتِحَةُ، وَأَوْجَبَ قَوْلُهُ فِي كُلِّ خُطْبَةٍ، وَفِي كُلِّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ^(٢). اهـ.

وَالْحَمْدُ هُوَ أَفْضَلُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَهُوَ أَجَلُّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى الْعَبْدِ؛ مِنْ رِزْقِهِ وَعَافِيَتِهِ وَصَحَّتِهِ وَالتَّوْسِيعَةِ عَلَيْهِ فِي دُنْيَاهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا كَانَ مَا أُعْطِيَ أَفْضَلَ

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣١٢/١٤).

مِمَّا أَخَذَ^(١).

وروي هذا أيضًا عن الحسن البصري موقوفًا عليه؛ رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الشكر»^(٢)، وفي الأثر أن بعض عمال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَيْهِ: «إِنِّي بِأَرْضٍ قَدْ كَثُرَتْ فِيهَا النِّعَمُ، حَتَّى لَقَدْ أَشْفَقْتُ عَلَى أَهْلِهَا مِنْ ضَعْفِ الشُّكْرِ»، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي قَدْ كُنْتُ أُرَاكَ أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِمَّا أَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْعِمْ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً، فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَيْهَا إِلَّا كَانَ حَمْدُهُ أَفْضَلَ مِنْ نِعَمِهِ، لَوْ كُنْتَ لَا تَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [٧٣] وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ» [الزمر]، وَأَيُّ نِعْمَةٍ أَفْضَلُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ؟!^(٣).

فهذا فيه أوضح دلالة على أَنَّ حَمْدَ اللَّهِ عَلَى النِّعْمَةِ أَفْضَلُ مِنَ النِّعْمَةِ نَفْسِهَا، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ هَذَا بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَالَ: لَا يَكُونُ فِعْلُ الْعَبْدِ أَفْضَلَ مِنْ فِعْلِ الرَّبِّ ﷻ، أوردَ هذا الاستشكال ابن رَجَبٍ فِي كِتَابِهِ «جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحُكْمِ»، وَأَجَابَ عَنْهُ جَوَابًا وَافِيًا مُسَدِّدًا، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المراد بالنِّعَمِ: النِّعَمُ الدُّنْيَوِيَّةُ؛ كَالْعَافِيَةِ وَالرِّزْقِ وَالصَّحَّةِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ هُوَ مِنَ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ، وَكِلَاهُمَا نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، لَكِنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ بِهَدَايَتِهِ لَشُكْرِ نِعَمِهِ بِالْحَمْدِ عَلَيْهَا أَفْضَلُ مِنْ نِعَمِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَلَى عَبْدِهِ؛ فَإِنَّ النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ، إِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا الشُّكْرُ كَانَتْ بَلِيَّةً؛ كَمَا قَالَ أَبُو حَازِمٍ: كُلُّ نِعْمَةٍ لَا تُقَرَّبُ مِنَ اللَّهِ، فَهِيَ بَلِيَّةٌ. فَإِذَا وَقَّقَ اللَّهُ عَبْدَهُ لِلشُّكْرِ عَلَى نِعَمِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِالْحَمْدِ، أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الشُّكْرِ، كَانَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ خَيْرًا

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٠٥)، وحسنه الألباني كما في «السلسلة الضعيفة» (٢٤/٥).

(٢) برقم (١١١).

(٣) أوردته ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٨٢/٢)، وقد رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٨٥٤/٩) مختصرًا، وأبو نُعَيْمٍ فِي «الحلية» (٢٩٣/٥) بتمامه.

مِنْ تِلْكَ النَّعْمِ، وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحَامِدَ، وَيَرْضَى مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَأْكَلَ الْأَكْلَةَ فِيحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فِيحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَالشَّاءُ بِالنَّعْمِ وَالْحَمْدُ عَلَيْهَا وَشُكْرُهَا عِنْدَ أَهْلِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَهُمْ يَبْذُلُونَهَا طَلَبًا لِلثَّنَاءِ، وَاللَّهُ ﷻ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَأَجُودُ الْأَجُودِينَ، فَهُوَ يَبْذُلُ نِعْمَهُ لِعِبَادِهِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ الثَّنَاءَ بِهَا وَذِكْرَهَا وَالْحَمْدَ عَلَيْهَا، وَيَرْضَى مِنْهُمْ بِذَلِكَ شُكْرًا عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى شُكْرِهِمْ، لَكِنَّهُ يُحِبُّ ذَلِكَ مِنْ عِبَادِهِ، حَيْثُ كَانَ صَلاَحُ الْعَبْدِ وَفَلَاحُهُ وَكَمَالُهُ فِيهِ، وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ نَسَبَ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ إِلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ مَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ، ثُمَّ اسْتَفْرَضَ مِنْهُمْ بَعْضَهُ وَمَدَحَهُمْ بِإِعْطَائِهِ، وَالْكُلُّ مُلْكُهُ، وَمِنْ فَضْلِهِ، وَلَكِنَّ كَرَمَهُ اقْتَضَى ذَلِكَ^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وبه يَتَبَيَّنُ مَعْنَى الْحَدِيثِ الْمَتَقَدِّمِ: (مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا كَانَ مَا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ)؛ فَالْعَبْدُ أَعْطِيَ الْحَمْدَ، وَالْحَمْدُ نَفْسُهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَوْلَا تَوْفِيقُ اللَّهِ وَإِعَانَتُهُ لَمَا قَامَ بِحَمْدِهِ، فَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ بِتَوْفِيقِهِ لِلْحَمْدِ أَفْضَلُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ وَالْمَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْكُلُّ نِعْمَةُ اللَّهِ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَنِعْمَةُ الشُّكْرِ أَجَلُّ مِنْ نِعْمَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْوَلَدِ وَالزَّوْجَةِ وَنَحْوِهَا»^(٢). اهـ.

ولهذا، فَإِنَّ حَمْدَ اللَّهِ ﷻ وَشُكْرَهُ عَلَى نِعَمِهِ هُوَ بِحَدِّ ذَاتِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، تَسْتَوْجِبُ حَمْدًا آخَرَ وَشُكْرًا مُتَجَدِّدًا.

رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ «الشُّكْرِ»، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا وَجِبَتْ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ بِقَوْلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَمَا جَزَاءُ تِلْكَ النِّعْمَةِ؟ جَزَاؤُهَا أَنْ يَقُولَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَجَاءَتْ أُخْرَى، وَلَا تَنْفَدُ نِعْمُ اللَّهِ ﷻ»^(٣).

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٢، ٨٣). (٢) «عُدَّة الصَّابِرِينَ» (ص ١٦٩).

(٣) «الشُّكْر» (ص ١٧).

ولذا قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فِي حَمْدِ اللهِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُؤَدَّى شُكْرُ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ إِلَّا بِنِعْمَةٍ حَادِثَةٍ تُوجِبُ عَلَى مُؤَدِّيهَا شُكْرَهُ بِهَا»^(١).
أَيُّ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا حَمِدَ اللَّهَ، فَهَذِهِ نِعْمَةٌ أُخْرَى حَادِثَةٌ تَسْتَوْجِبُ حَمْدًا آخَرَ.

قال ابن أبي الدنيا: أنشدني محمودُ الرَّاقِ:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهُ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وَقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ مِنَّةٌ تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ^(٢)
وقال آخرُ في المعنى نفسه:

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّي لَهَا لُغَةٌ تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِي إِذْ شَكَرْتُ بِهِ إِلَيْكَ أَبْلَغَ فِي الْإِحْسَانِ وَالْمِنَّةِ^(٣)

فَاللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ شُكْرًا، وَلَكَ الْمَنْ فَضْلًا، لَكَ الْحَمْدُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَكَ الْحَمْدُ بِالْإِيمَانِ، وَلَكَ الْحَمْدُ بِالْقُرْآنِ، وَلَكَ الْحَمْدُ بِالْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْمَعَاوَةِ، لَكَ الْحَمْدُ بِكُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيْنَا فِي قَدِيمٍ أَوْ حَدِيثٍ، أَوْ سِرٍّ أَوْ عِلَانِيَةٍ، أَوْ خَاصَّةٍ أَوْ عَامَّةٍ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا كَثِيرًا، اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا إِذَا رَضِيتَ.



(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٤٠).

(٢) «الشكر» (ص ٤٤).

(٣) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٤٠).

أَفْضَلُ صِيغِ الْحَمْدِ وَأَكْمَلُهَا

تَقَدَّمَ بَيَانُ فَضْلِ الْحَمْدِ وَعِظَمِ ثَوَابِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى بَعْضِ صِيغِهِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَفِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ؛ كَقَوْلِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَقَوْلِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى)^(١)، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِمَّا حَمَدَ بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ، وَمَا وَرَدَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ مِمَّا حَمَدَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ رَبَّهُ، وَهِيَ صِيغٌ عَظِيمَةٌ، مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَحْسَنِ الْحَمْدِ وَأَكْمَلِهِ وَأَوْفَاهُ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ أَفْضَلَ صِيغِ الْحَمْدِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يُؤَافِي نِعَمَهُ، وَيَكْفِي مَزِيدَهُ»، وَاحْتَجَّ بِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي نَصْرِ التَّمَّارِ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، شَغَلْتَنِي بِكَسْبِ يَدَيَّ، فَعَلَّمَنِي شَيْئًا مِنْ مَجَامِعِ الْحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا آدَمُ إِذَا أَصْبَحْتَ فَقُلْ ثَلَاثًا، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَقُلْ ثَلَاثًا: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا يُؤَافِي نِعَمَهُ، وَيَكْفِي مَزِيدَهُ؛ فَذَلِكَ مَجَامِعُ الْحَمْدِ».

وَقَدْ رُفِعَ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ الْمُحَقِّقِ ابْنِ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَأَنْكَرَهُ عَلَى قَائِلِهِ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَبَيَّنَّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّحَاحِ، أَوْ السُّنَنِ، أَوْ الْمَسَانِيدِ، وَلَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُعْتَمَدَةِ، وَبَسَطَ الْقَوْلَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ فِي رِسَالَةٍ مُفْرَدَةٍ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا الْحَدِيثُ لَيْسَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَلَا فِي أَحَدِهِمَا، وَلَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُعْتَمَدَةِ، وَلَا لَهُ إِسْنَادٌ مَعْرُوفٌ،

(١) أَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (٧٧٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمَ (٤٠٤)، وَالنَّسَائِيُّ رَقْمَ (٩٣١).

وإنَّما يُروى عن أبي نصر التَّمَّارِ، عن آدمَ أبي البَشَرِ، لا يَدْرِي كم بينَ أبي نصرٍ وآدمَ إلا اللهُ تعالى...»، وذكرَ الحديثَ المتقدمَ، ثم قال: «فهذا لو رواه أبو نصر التَّمَّارُ عن سيِّد ولدِ آدمَ عليه السلام، لَمَا قُبِلَتْ روايتهُ؛ لانقطاعِ الحديثِ فيما بينَهُ وبين رسولِ الله صلى الله عليه وآله؛ فكيف بروايتهِ له عن آدم؟!».

وقد ظنَّ طائفةٌ مِنَ الناسِ أنَّ هذا الحمدَ بهذا اللفظِ أكملُ حمْدٍ حمِدَ اللهُ به وأفضلهُ وأجمعهُ لأنواعِ الحمد، وبنَّوا على هذا مسألةً فقهيةً، فقالوا: لو حَلَفَ إنسانٌ لِيَحْمَدَنَّ اللهُ بِمَجَامِعِ الحمدِ وأجلَّ المحامدِ، فطريقُهُ في بَرِّ يمينِهِ أن يقولَ: «الحمدُ لله حمداً يوافي نِعَمَهُ، ويكافئُ مَزِيدَهُ»، قالوا: ومعنى يوافي نِعَمَهُ؛ أي: يلاقيها فتحصلُ النِّعمُ معه، ويكافئُ - مهموزٌ - أي: يساوي مزيدَ نِعَمِهِ؛ والمعنى: أنَّه يقومُ بشكرٍ ما زادَ مِنَ النِّعمِ والإحسانِ».

قال ابن القيم رحمته الله: «والمعروفُ مِنَ الحمدِ الذي حَمِدَ اللهُ به نفسهُ وحَمَدَهُ به رسولهُ صلى الله عليه وآله وساداتُ العارفينَ بِحَمْدِهِ مِنْ أُمَّتِهِ ليس فيه هذا اللفظُ أَلْبَتَّةَ»، وأوردَ بعضُ صيغِ الحمدِ الواردةِ في القرآن، ثم قال: «فهذا حمْدُهُ لنفسِهِ الذي أنزَلَهُ في كتابِهِ، وعَلَّمَهُ لعبادِهِ، وأخْبَرَ عن أَهْلِ جَنَّتِهِ به، وهو آكَدُ مِنْ كُلِّ حمْدٍ، وأفضلُ وأكملُ، كيف يَبْرُ الحالفُ في يمينِهِ بالعدولِ إلى لفظٍ لم يَحْمَدَ به نفسهُ، ولا ثَبَتَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله، ولا ساداتِ العارفينَ مِنْ أُمَّتِهِ، والنبيُّ صلى الله عليه وآله كان إذا حَمِدَ اللهُ في الأوقاتِ التي يَتَأَكَّدُ فيها الحمدُ لله، لم يكنْ يذكُرُ هذا الحمدَ أَلْبَتَّةَ، كما في حَمْدِ الخُطْبَةِ، والحمدِ الذي تُسْتَفْتَحُ به الأمورُ، وكما في تَشْهيدِ الحاجةِ، وكما في الحمدِ عَقِبَ الطعامِ والشرابِ واللباسِ والخروجِ مِنَ الخَلَاءِ، والحمدِ عندَ رؤيةِ ما يَسُرُّهُ وما لا يَسُرُّهُ...»^(١).

ثم ساق رحمته الله جملةً كبيرةً مما وردَ عن النبيِّ صلى الله عليه وآله مِنْ صيغِ الحمدِ مما يقالُ في مثلِ هذه الأوقاتِ، ثم قال: «فهذه جُمْلُ مواقعِ الحمدِ في كلامِ الله ورسولِهِ وأصحابِهِ والملائكةِ قد جُلِّيتْ عليك عَرائِيسُها، وجُلِّيتْ عليك نَفَائِيسُها،

(١) «صيغ الحمد»، المطبوع باسم «مطالع السَّعد» (ص ٣٣ - ٣٧).

فلو كان الحديثُ المسؤولُ عنه أفضلَها وأكملَها وأجمعَها، كما ظَنَّهُ الظَّانُّ، لَكَانَ واسطَةً عِقْدِهَا فِي النِّظَامِ، وَأَكْثَرَهَا اسْتِعْمَالًا فِي حَمْدِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(١). اهـ.

وبهذا التحقيق الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ يَتَبَيَّنُ ضَعْفُ هذه الصيغة في الحمدِ مِنْ جِهَةِ الرواية، وأنها لو كانتْ صحيحةً ومشملةً على أكملِ الصيغ، لَمَّا عَدَلَ عنها رسولُ الله ﷺ، وَلَمَّا آثَرَ غَيْرَهَا عليها، قَالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَانَ رسولُ الله ﷺ يَسْتَحِبُّ الجوامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَيَدَعُ ما سِوَى ذلك»؛ رواه أبو داود وغيره^(٢).

وَسَبَقَ أَنْ مَرَّ معنا قولُ النَّبِيِّ ﷺ: (أَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ)^(٣)؛ وبهذا يُعْلَمُ أَنَّ هذه الصيغة في الحمدِ لو كانتْ أَكْمَلَ، لَمَّا تَرَكَها رسولُ الله ﷺ.

ثم إِنَّه أَيْضًا لا يُمْكِنُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ حَمْدًا يُوَافِي نِعْمَةً واحدةً مِنْ نِعَمِ الله، فَضْلًا عَنْ موافاتهِ جَمِيعَ نِعَمِ الله، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فَعْلُ الْعَبْدِ وَحَمْدُهُ لَهُ مِكَافَأًا لِلْمَزِيدِ، قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فهذا مِنْ أَمَحَلِ الْمُحَالِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ لو أَقْدَرَهُ اللهُ على عِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ، لم يَقُمْ بِشُكْرِ أَدْنَى نِعْمَةٍ عَلَيْهِ... فَمَنْ الذي يَقُومُ بِشُكْرِ رَبِّهِ الذي يَسْتَحِقُّهُ سُبْحَانَهُ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكافئه»^(٤).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «... وَلَكِنْ يُحْمَلُ على وَجْهِ يَصِحُّ، وهو أَنَّ الذي يَسْتَحِقُّهُ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْحَمْدِ حَمْدًا يَكُونُ مُوَافِيًا لِنِعْمِهِ، وَمِكَافَأًا لِمَزِيدِهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْعَبْدُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ»^(٥).

وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا وَأَكْمَلُ ما ثَبَتَ فِي «صحيح البخاري» وغيره،

(١) «صيغ الحمد»، المطبوع باسم «مطالع السَّعْد» (ص ٩٨).

(٢) انظر: «مسند أحمد» (١٤٨/٦)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٨٢)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٦٧)، و«مستدرک الحاكم» (٥٣٩/١) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، وهو في «صحيح الجامع» للألباني (٩٠٨٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٥٢).

(٤) «صيغ الحمد»، المطبوع باسم «مطالع السَّعْد» (ص ٤١، ٤٤).

(٥) «عدة الصابرين» (ص ١٧٦).

عن أبي أمامة الباهلي، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مُودَعٍ، وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ رَبَّنَا) ^(١)، فلو كانت تلك الصيغة - وهي قوله: «حمداً يوافي نعمة، ويكافئ مزيده» - أكمل وأفضل من هذه، لَمَا عَدَلَ عنها رسولُ الله ﷺ، فَإِنَّهُ لَا يَخْتَارُ إِلَّا الْأَفْضَلَ وَالْأَكْمَلَ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي معنى هذا الحديث: «المخلوق إذا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ، أَمَكَّنَكَ أَنْ تَكَاْفَهُ، وَنِعْمُهُ لَا تَدُومُ عَلَيْكَ، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يُودَّعَكَ وَيَقْطَعَها عَنْكَ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنْهُ، وَاللَّهُ ﷻ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكَاْفَهُ عَلَى نِعْمِهِ، وَإِذَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ، أَدَامَ نِعْمَهُ؛ فَإِنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى، وَلَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ» ^(٢). اهـ.

وفيه بيانٌ لِعَظَمِ دَلَالَةِ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْأَذْكَارِ الثَّابِتَةِ، وَعُمُقِ مَعَانِيهَا وَسَلَامَتِهَا مِنَ الْخَطَأِ الَّذِي قَدْ يَعْتَرِي مَا سِوَاهَا؛ وَبِهَذَا تَكُونُ السَّلَامَةُ وَتَحْصِيلُ الْكَامِلِ.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِمَحَامِدِهِ الَّتِي حَمَدَ بِهَا نَفْسَهُ، وَحَمَدَهُ بِهَا الَّذِينَ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى.



(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٢).

(٢) «صيغ الحمد» لابن القيم، المطبوع باسم «مطالع السَّعْد» (ص ٤٩).

تَعْرِيفُ الْحَمْدِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشُّكْرِ

لا يزال الحديث موصولاً في الكلام عن الحمد، حيث سبق الحديث عن فضل الحمد، وبيان ثوابه، وذكر الأوقات التي يُشرع فيها، وذكر بعض صيغته، إلى غير ذلك من أمور مَرَّت معنا تتعلّق بالحمد، وسيكون الحديث هنا عن معنى الحمد في اللغة والشرع، والكلام على الفرق بينه وبين الشكر، والفرق بينه وبين المدح.

أما معنى الحمد في اللغة: فهو نقيض الذم؛ قال ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة»: «الحاء والميم والداو كلفة واحدة وأصل واحد يدل على خلاف الذم، يُقال: حمَدْتُ فلاناً أحمدهُ، ورجلٌ محمودٌ ومحمدٌ: إذا كَثُرَتْ خصاله المحمودة غير المذمومة... ولهذا الذي ذكرناه سُمِّيَ نبياً محمّداً ﷺ»^(١). اهـ.

وقال الليث: أحمَدْتُ الرجلَ: وجَدْتُهُ محموداً، وكذلك قال غيره: يُقال: أتينا فلاناً، فأحمدناه وأدَمَمْنَاهُ؛ أي: وجدناه محموداً أو مذموماً^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فيه تنبيه على أنه صلوات الله وسلامه عليه محمودٌ في أخلاقه وأفعاله، ليس فيه ما يُذمُّ، وكذلك قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] فمُحَمَّدٌ هُنا، وإن كان اسماً له علماً عليه، ففيه إشارة إلى وصفه بذلك، وتخصيصه بوافر معناه، وأما سواه، فقد يُسمَّى بذلك، ويكون له حظٌّ من الوصف الذي دلَّ عليه هذا الاسم وقد لا يكون، أمّا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، فهو محمّد اسماً ووصفاً.

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٤/٤٣٤).

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/١٠٠).

فالحمدُ هو: الثناء بالفضيلة، وهو أخصُّ من المدح، وأعَمُّ من الشكر؛ فإنَّ المدحَ يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، وممَّا يكون منه وفيه بالتسخير، فقد يُمدحُ الإنسان بطولِ قامته، وصباحةِ وجهه، كما يُمدحُ ببذلِ ماله وشجاعته وعلمه، والحمدُ يكونُ في الثاني دون الأول؛ أي: إنَّ الإنسان يُحمدُ على بذلِ المالِ والشجاعةِ والعلمِ ونحو ذلك مما يكونُ منه باختياره، ولا يُحمدُ على صباحةِ الوجه وطولِ القامةِ وحسنِ الخلقةِ ونحو ذلك مما ليس له فيه اختيار.

والشكرُ لا يُقالُ إلَّا في مقابلةِ نعمةٍ، فكلُّ شكرٍ حمدٌ، وليس كلُّ حمدٍ شكرًا، وكلُّ حمدٍ مدحٌ، وليس كلُّ مدحٍ حمدًا^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الفرق بين الحمد والمدح: أن يُقال: الإخبار عن محاسن الغير إمَّا أن يكون إخبارًا مُجرَّدًا من حُبٍّ وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإنَّ كان الأول فهو المدح، وإنَّ كان الثاني فهو الحمد، فالحمدُ إخبارٌ عن محاسن الممدوح مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه»^(٢). اهـ.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن الحمد والشكر: ما حقيقتُهُما؟ هل هما معنى واحدٌ أو معنيان؟ وعلى أيِّ شيء يكون الحمد؟ وعلى أيِّ شيء يكون الشكر؟ فأجاب رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «الحمدُ يتضمَّنُ المدحَ والثناءَ على المحمودِ بذكرِ محاسنه؛ سواءً كان الإحسانُ إلى الحامدِ أو لم يكن، والشكرُ لا يكونُ إلَّا على إحسانِ المشكورِ إلى الشاكر، فمنَّ هذا الوجهِ الحمدُ أعَمُّ من الشكر؛ لأنَّه يكونُ على المحاسنِ والإحسانِ؛ فإنَّ الله يُحمدُ على ما له من الأسماءِ الحُسنى، والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرةِ والأولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]،

(١) انظر: «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٢/٤٩٩).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٩٣).

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحُ مَثْنَى وَتِلْكَ وَبُئِغْ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، وأمّا الشكر، فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان؛ كما قيل:

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

ولهذا قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان؛ فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه، ومن هذا: الحديث: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَأْسُ الشُّكْرِ، فَمَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ لَمْ يَشْكُرْ)^(١)، وفي «الصحيح»، عن النبي ﷺ، أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا)^(٢) (٣). اهـ. كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وبه يتبين أنّ بين الحمد والشكر عمومًا وخصوصًا من وجه، فيجتمعان فيما إذا كان باللسان في مقابلة نعمة؛ فهذا يُسمّى حمدًا، ويُسمّى شكرًا، وينفرد الحمد فيما إذا أثنى العبد على ربه بذكر أسمائه الحسنى، ونعوته العظيمة؛ فهذا يُسمّى حمدًا، ولا يُسمّى شكرًا، وينفرد الشكر فيما إذا استعمل العبد نعمة الله في طاعة الله؛ فهذا يُسمّى شكرًا، ولا يُسمّى حمدًا.

إنَّ حَمْدَ اللَّهِ هو الثناء على الله بذكر صفاته العظيمة، ونعمه العظيمة، مع حُبّه وتعظيمه وإجلاله، وهو مختص به سبحانه لا يكون إلا له؛ فالحمد كله لله رب العالمين؛ «ولذلك قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بلام الجنس المفيدة للاستغراق، فالحمد كله له إما ملكًا وإما استحقاقًا، فحمده لنفسه استحقاقًا، وحمد العباد له وحمد بعضهم لبعض ملك له... فالقائل إذا قال: الحمد لله،

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٤٢٤/١٠)، والبيهقي في «الآداب» (ص ٤٥٩) من طريق قتادة: أنّ عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره.

قال البيهقي: «هكذا جاء مرسلًا بين قتادة ومن فوقه».

(٢) «الفتاوى» (١١/١٣٣، ١٣٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠٢).

تَضَمَّنَ كَلَامُهُ الْخَبَرَ عَنْ كُلِّ مَا يُحَمَدُ عَلَيْهِ تَعَالَى بِاسْمِ جَامِعٍ مُحِيطٍ مُتَضَمِّنٍ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْحَمْدِ الْمُحَقَّقَةِ وَالْمَقْدَّرَةِ؛ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ يُحَمَدُ عَلَيْهِ الرَّبُّ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا لَا تَصْلُحُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَلَا تَنْبَغِي إِلَّا لِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ، وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ^(١).

وَإِذَا قِيلَ: الْحَمْدُ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَإِنَّ هَذَا لَهُ مَعْنَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَحْمُودٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ مَا يُحَمَدُ بِهِ رَسْلُهُ وَأَنْبِيَائُهُ وَأَتْبَاعُهُمْ، فَذَلِكَ مِنْ حَمْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بَلْ هُوَ الْمَحْمُودُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ وَبِالذَّاتِ، وَمَا نَالُوهُ مِنَ الْحَمْدِ، فَإِنَّمَا نَالُوهُ بِحَمْدِهِ، فَهُوَ الْمَحْمُودُ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَالْمَعْنَى الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ؛ أَيِ: التَّامُّ الْكَامِلُ؛ هَذَا مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ لَيْسَ لِغَيْرِهِ فِيهِ شَرِكَةٌ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ: «وَالْتَحْقِيقُ: أَنَّ لَهُ الْحَمْدَ بِالْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا، فَلَهُ عَمُومُ الْحَمْدِ وَكَمَالُهُ، وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ أَكْمَلَ حَمْدٍ وَأَعْظَمَهُ».

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَكَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِهِ وَعِزِّ جَلَالِهِ بِمَجَامِعِ حَمْدِهِ كُلِّهَا، مَا عَلِمْنَا مِنْهَا وَمَا لَمْ نَعْلَمْ.



(١) «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/٩٢، ٩٣).

(٣) «طريق الهجرتين» (ص ٢٠٦).

فَضْلُ الشُّكْرِ

لا ريب في عِظَمِ فَضْلِ الشُّكْرِ وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ، شُكْرُ اللَّهِ على نعمِهِ المتوالية، وعطاياه المتتالية، وأيادِيهِ السابغة، وقد أَمَرَ اللَّهُ به في كتابه، ونهى عن ضِدِّه، وأثنى على أهله، ووصف به خَوَاصَّ خَلْقِهِ، وجَعَلَهُ غَايَةَ خَلْقِهِ وأمره، ووَعَدَ أهله بأحسن جزائه، وجَعَلَهُ سَبَبًا للمزيد مِنْ فَضْلِهِ وعطائه، وحارسًا وحافظًا لنعمته، وأخْبَرَ أَنَّ أهله هم المنتفعون بآياته^(١)، وَنَوَّعَ سبحانه الدَّلَالََةَ إليه والحثَّ عليه.

فأَمَرَ به سبحانه في غير موطنٍ مِنَ القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُٗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وَقَرَّنَهُ سبحانه بالإيمان، وأخْبَرَ أَنَّهُ لا غَرَضَ له سبحانه في عذابِ خَلْقِهِ إنْ شَكُرُوهُ وآمنوا به؛ فقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]؛ أي: إنْ أَدَيْتُمْ ووفَّيْتُمْ ما خُلِقْتُمْ له - وهو الشكر والإيمان - فما أَصْنَعُ بعذابكم؟!

وأخْبَرَ سبحانه أَنَّ أَهْلَ الشُّكْرِ هم المَحْظُوظُونَ بِمِنَّةِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ؛ فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٢٤٢).

وَعَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْمَزِيدَ بِالشُّكْرِ، وَالْمَزِيدُ مِنْهُ لَا نِهَآيَةَ لَهُ كَمَا لَا نِهَآيَةَ لِشُكْرِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فَالشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَدًا؛ وَلِذَا قِيلَ: «فَمَتَى لَمْ تَرَ حَالَكَ فِي مَزِيدٍ، فَاسْتَقْبِلِ الشُّكْرَ»^(١).

وَقَسَّمَ سُبْحَانَهُ النَّاسَ إِلَى قَسْمَيْنِ: شُكُورٌ وَكَفُورٌ، فَأَبْغَضَ الْأَشْيَاءَ إِلَيْهِ الْكُفْرُ وَأَهْلُهُ، وَأَحَبُّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ الشُّكْرُ وَأَهْلُهُ؛ قَالَ تَعَالَى فِي الْإِنْسَانِ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْبُدُهُ مَنْ شَكَرَهُ، فَمَنْ لَمْ يَشْكُرْهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ عِبَادَتِهِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتِيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. وَأَخْبَرَ أَنَّ رِضَاهُ فِي شُكْرِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وَأَوَّلُ وَصِيَّةٍ وَصَّى بِهَا الْإِنْسَانَ بَعْدَ مَا عَقَلَ عَنْهُ: الشُّكْرُ لَهُ وَلِلْوَالِدَيْنِ؛ فَقَالَ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَى الْآلِ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وَقَدْ وَقَفَ سُبْحَانَهُ كَثِيرًا مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى الْمَشِيئَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وَقَوْلِهِ فِي الْإِجَابَةِ: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وَقَوْلِهِ فِي الرِّزْقِ: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وَقَوْلِهِ فِي الْمَغْفِرَةِ: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وَقَوْلِهِ فِي التَّوْبَةِ: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥]، أَمَّا الشُّكْرُ:

فقد أطلق جزاءه إطلاقاً حيث ذكر؛ كقوله: ﴿وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وأخبر سبحانه أن عدو الله إبليس قد جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عن الشكر؛ وذلك لما عرف عظم قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وأخبر سبحانه أن الشاكرين هم القليل من عباده؛ فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه للخلق، وتنويعه للنعم؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الفصل: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَاحَ مُوَخَّرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، والنصوص في هذا المعنى كثيرة جداً.

ثم إن الشكر هو سبيل رسل الله وأنبيائه أخص خلق الله وأقربهم إليه، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فقد أثنى الله سبحانه على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر؛ فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وفي تخصيص نوح ههنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به؛ فإنه أبوهم الثاني؛ فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد العرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، فأمر الذرية أن يشبهوا بأبيهم في الشكر، فإنه كان عبداً شكوراً.

وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بِشُكْرِ نِعَمِهِ؛ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحْبَبْنَاهُ وَهَدَّاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل]، فأخبر عنه سبحانه بأنه أُمَّةٌ؛ أي: قدوة يُؤْتَمُّ به في الخير، وأنه قانتٌ لله، والقانتُ هو: المطيعُ المقيمُ على طاعته، والحنيفُ هو: المقيِلُ على الله، المُعْرِضُ عَمَّا سِوَاهُ، ثُمَّ خَتَمَ له هذه الصفاتِ بأنه شاكرٌ لِأَنْعَمِهِ، فجعلَ الشكرَ غايةَ خليلِهِ ﷺ.

وأمرَ ﷺ عبده موسى ﷺ أَنْ يَتَلَقَّى مَا آتَاهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ وَالتَّكْلِيمِ بِالشُّكْرِ؛ فقال تعالى: ﴿يُؤْمِسْ إِلَى أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ في بيانِ شُكْرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لله، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ سَبِيلُهُمْ وَطَرِيقُهُمْ^(١).

أَمَّا شُكْرُ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ أَجْمَعِينَ؛ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ، فَبَابٌ وَاسِعٌ، وَبَحْرٌ خَظْمٌ؛ فَهُوَ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ، وَأَقْوَمُهُمْ بِخَشْيَتِهِ، وَأَشْكَرُهُمْ لِنِعَمِهِ، وَأَعْلَاهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً؛ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! قَالَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!)»^(٢).

فَصَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَائُهُ وَرُسُلُهُ وَجَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ، كَمَا وَحَّدَ اللَّهُ وَعَرَّفَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ، وَقَامَ بِشُكْرِهِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.



(١) انظر: «عدة الصابرين» لابن القيم (ص ١٥٠ وما بعدها).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٨٣٦).

حَقِيقَةُ الشُّكْرِ وَمَكَانَتُهُ عِنْدَ السَّلَفِ

كان الحديثُ فيما مَضَى عن فضلِ الشُّكرِ، وعِظَمِ مكانَتِهِ عندَ الله، وتنوُّعِ دَلالاتِهِ في القرآنِ الكريمِ، وستحدِّثُ هنا عن أصلِ الشُّكرِ وحقيقَتِهِ، والإشارةُ إلى مكانَتِهِ عندَ السلفِ الصالحِ، رحمهم الله.

أما أصلُ الشُّكرِ وحقيقَتُهُ، فهو: «الاعترافُ بإنعامِ المُنعمِ، على وجهِ الخضوعِ له والذلِّ والمحبة»؛ فمَنْ لم يَعْرِفِ النُّعْمَةَ، بل كان جاهلاً بها، لم يَشْكُرْها، وَمَنْ عَرَفَهَا، ولم يَعْرِفِ المُنعمَ بها، لم يَشْكُرْها أيضًا، وَمَنْ عَرَفَ النُّعْمَةَ والمُنعمَ، لكن جَحَدَها كما يجحدُ المُنكرُ لنعمةِ المُنعمِ عليه فقد كَفَرَهَا، وَمَنْ عَرَفَ النُّعْمَةَ والمُنعمَ وأَقَرَّ بها، ولم يجحدَها، ولكن لم يخضعَ له ويحبَّه ويرضَ به وعنه لم يَشْكُرْها أيضًا، وَمَنْ عَرَفَهَا، وعَرَفَ المُنعمَ بها، وأَقَرَّ بها، وخضعَ لِلْمُنعمِ بها، وأحبَّه ورَضِيَ به وعنه، واستعملَهَا في مَحَابِّهِ وطاعَتِهِ فهذا هو الشاكرُ لها^(١).

وبهذا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الشُّكْرَ مَبْنِيٌّ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدَ: خضوعُ الشاكرِ للمشكور، وحبُّه له، واعترافُهُ بنعمته، وثناؤُهُ عليه بها، وأن لا يَسْتَعْمِلَهَا فيما يَكْرَهُ، فهذه الخمسُ هي أساسُ الشُّكرِ، وبنائُها عليها، فمتى عُدِمَ منها واحدةٌ اختلَّ مِنْ قَوَاعِدِ الشُّكْرِ قاعدةٌ، وكُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ في الشُّكْرِ وَحَدَّه، فكلامُهُ إليها يرجع، وعليها يدور^(٢)، وهو يكونُ بالقلبِ واللسانِ والجوارح؛ «يكونُ بالقلبِ خضوعًا واستكانةً [ومَحَبَّةً]، وباللسانِ ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا»^(٣).

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ١٧٥).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٢٤٤).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٢٤٦).

روى ابنُ أبي الدنيا في كتابه «الشُّكْر»: أَنَّ رجلاً قال لأبي حازم سَلَمَةَ بن دينار: «ما شُكْرُ الْعَيْنَيْنِ يا أبا حازم؟ قال: إِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا خَيْرًا أَغْلَنْتَهُ، وَإِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا شَرًّا سَتَرْتَهُ، قال: فما شُكْرُ الْأَذْنَيْنِ؟ قال: إِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا خَيْرًا وَعَيْتَهُ، وَإِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا شَرًّا دَفَعْتَهُ، قال: ما شُكْرُ الْيَدَيْنِ؟ قال: لَا تَأْخُذْ بِهِمَا مَا لَيْسَ لِهَما، وَلَا تَمْنَعْ حَقًّا لَهِ اللهُ ﷻ هُوَ فِيهِمَا، قال: فما شُكْرُ الْبَطْنِ؟ قال: أَنْ يَكُونَ أَسْفَلُهُ طَعَامًا، وَأَعْلَاهُ عِلْمًا، قال: ما شُكْرُ الْفَرْجِ؟ قال: كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَنْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿١﴾ فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٢﴾» [المؤمنون]، قال: فما شُكْرُ الرَّجُلَيْنِ؟ قال: إِذَا رَأَيْتَ حَيًّا غَبَطْتَهُ اسْتَعْمَلْتَ بِهِمَا عَمَلَهُ، وَإِنْ رَأَيْتَ مَيِّتًا مَقَتَهُ كَفَفْتَهُمَا عَنْ عَمَلِهِ، وَأَنْتَ شَاكِرٌ لَهِ اللهُ ﷻ، فَأَمَّا مَنْ شَكَرَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَشْكُرْ بِجَمِيعِ أَعْضَائِهِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ كِسَاءٌ، فَأَخَذَ بِطَرَفِهِ وَلَمْ يَلْبِسْهُ، فَلَمْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالثَّلْجِ وَالْمَطَرِ»^(١).

إِنَّ نِعْمَةَ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ فِي لِسَانِهِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ وَجَمِيعِ بَدَنِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُحْصَى، وَكُلُّهَا تَسْتَوْجِبُ شُكْرَ الْمُنْعِمِ بِهَا؛ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن زَيْد بن أَسْلَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الشُّكْرُ يَأْخُذُ بِحَزْمِ الْحَمْدِ وَأَصْلِهِ وَفِرْعُهُ، فَلْيَنْظُرْ فِي نِعَمِ مِنَ اللهِ فِي بَدَنِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَيْسَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ إِلَّا وَفِيهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ، حَقٌّ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْمَلَ بِالنَّعْمِ الَّتِي هِيَ فِي بَدَنِهِ اللهُ ﷻ فِي طَاعَتِهِ، وَنِعْمَةٌ أُخْرَى فِي الرِّزْقِ حَقٌّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ لَهِ اللهُ فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ فِي طَاعَتِهِ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَذَا، فَقَدْ أَخَذَ بِحَزْمِ الشُّكْرِ وَأَصْلِهِ وَفِرْعِهِ»^(٢). اهـ.

وَمِنْ نِعَمِ اللهِ الْعَظِيمَةِ عَلَى عَبْدِهِ: مَا مَتَّعَهُ بِهِ مِنْ عَافِيَتِهِ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَجَمِيعِ بَدَنِهِ، وَكَمِ اللهُ فِي عَبْدِهِ مِنْ نِعْمَةٍ فِي عِرْقٍ سَاكِنٍ، وَالْعَافِيَةُ نِعْمَةٌ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ، وَتَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ؛ كَانَ عَبْدُ الْأَعْلَى التِّمِّيُّ يَقُولُ:

(١) «الشُّكْر» لابن أبي الدنيا رقم (١٢٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢٤٣/٣).

(٢) «الشُّكْر» لابن أبي الدنيا رقم (١٨٨).

«أَكْثِرُوا سُؤَالَ اللَّهِ ﷻ الْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ الْمُبْتَلَى - وَإِنْ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ - لَيْسَ بِأَحَقَّ بِالِدْعَاءِ مِنَ الْمَعَافَى الَّذِي لَا يَأْمُنُ الْبَلَاءُ، وَمَا الْمُبْتَلُونَ الْيَوْمَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْعَافِيَةِ بِالْأَمْسِ، وَمَا الْمُبْتَلُونَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْعَافِيَةِ الْيَوْمِ، وَلَوْ كَانَ بَلَاءٌ يَجْرُ إِلَى خَيْرٍ مَا كُنَّا مِنْ رِجَالِ الْبَلَاءِ، إِنَّهُ رَبُّ بَلَاءٍ قَدْ أَجْهَدَ فِي الدُّنْيَا وَأَخْزَى فِي الْآخِرَةِ، فَمَا يَأْمُنُ مَنْ أَطَالَ الْمُقَامَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ جَلًّا وَعِزًّا أَنْ يَكُونَ قَدْ بَقِيَ لَهُ فِي بَقِيَّةِ عُمُرِهِ مِنَ الْبَلَاءِ مَا يُجْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَيُفْضَحُ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِنْ نَعُدَّ نِعْمَهُ لَا نَحْصِيهَا، وَإِنْ نَذَابُ لَهُ عَمَلًا لَا نَجْزِيهَا، وَإِنْ نُعَمِّرَ فِيهَا لَا نُبْلِيهَا»^(١).

بل لو أَنَّ الْعَبْدَ أُوتِيَ عُمَرَ الدُّنْيَا، وَقَطَعَ ذَلِكَ الْعُمَرَ مُسْتَغْرَقًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، وَلَمْ يَعْصِهِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا لَفْظَةٍ، مَا أَدَّى شُكْرَ عَشْرِ مَعْشَارِ نِعْمِهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ لَوْ أَنْفَقَ كُلَّ عُمُرِهِ مُضَاعَفًا إِلَى مَا لَا نِهَآيَةَ مِنَ الْأَعْمَارِ، مَا أَدَّى شُكْرَ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ، كَيْفَ وَالشُّكْرُ نِعْمَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِهَا مِنَ الشُّكْرِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَأْدِيَةِ شُكْرِ عَشْرِ مَعْشَارِ نِعْمَةٍ إِلَّا بِالْاعْتِرَافِ بِالْعِزِّ وَالتَّقْصِيرِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي سَيِّدِ الْإِسْتِغْفَارِ (أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاعْفُزْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)^(٢). وَلَفْظُ النِّعْمَةِ، وَإِنْ كَانَ مُفْرَدًا فِي هَذَا الدِّعَاءِ، لَكِنَّهُ مُضَافٌ، فَيُعْمُ كُلَّ نِعْمَةٍ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؛ مِنْ نِعْمَةِ الْإِيمَانِ، وَالْوُجُودِ بَعْدَ الْعَدَمِ، وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالصِّحَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ اللَّاتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيَّ عِبَادِهِ^(٣).

وَالنِّعْمَةُ نِعْمَتَانِ: نِعْمَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَنِعْمَةٌ مُقَيَّدَةٌ^(٤):

● فَأَمَّا النِّعْمَةُ الْمَطْلُوقَةُ، فَهِيَ: الْمَتَّصِلَةُ بِسَعَادَةِ الْأَبَدِ، وَهِيَ نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ، وَهِيَ النِّعْمَةُ الَّتِي أَمَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ نَسْأَلَهُ فِي صَلَاتِنَا أَنْ يَهْدِيَنَا

(١) «الشُّكْر» لابن أبي الدنيا رقم (١٥٧).

(٢) سَيِّدُ تَخْرِيجِهِ (ص ٤٧٦).

(٣) انْظُرْ: «نَتَائِجُ الْأَفْكَارِ فِي شَرْحِ حَدِيثِ سَيِّدِ الْإِسْتِغْفَارِ» لِلْسَّفَارِينِيِّ (ص ٣١٠ - ٣١٢).

(٤) انْظُرْ: «اجْتِمَاعُ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ» لابن القيم (ص ٢ - ٤).

صراط أهلها، وَمَنْ خَصَّصَهُمْ بِهَا، وَجَعَلَهُمْ أَهْلَ الرِّفْقِ الْأَعْلَى؛ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

• وأما النعمة المقيّدة: كنعمة الصّحة، وعافية الجسد، وبسط الجاه، وكثرة الولد، وأمثال هذا، والنعمة المطلقة هي التي يُفرّحُ بها في الحقيقة، والفرحُ بها مما يُحبُّه الله ويرضاه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

❏ إِنَّ الشُّكْرَ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ عَمُومًا - المطلقة والمقيّدة - واجبٌ على كلِّ مسلم، ومتعيّنٌ على كلِّ مؤمن، وهو السبيلُ لبقائها ودوامها ونموّها، كما أنّ عدمَ شكرِ النعمة سببٌ لزوالها واضمحلالها.

وقد قيل: كلُّ شكرٍ وإن قلَّ، ثمنٌ لكلِّ نوالٍ وإن جَلَّ، فإذا لم يشكرِ المرءُ، فقد عرّضَ النعمة للزوال.

وقيل أيضًا: الشُّكْرُ قِيْدٌ لِلنَّعَمِ الموجودة، وصيْدٌ لِلنَّعَمِ المفقودة.

وقيل أيضًا: كُفْرَانُ النَّعَمِ بَوَارٌ، وهو وسيلةٌ إلى الفِرَارِ^(١). وكانوا يُسمُّونَ الشُّكْرَ «الحافظ»؛ لَأَنَّهُ يَحْفَظُ النَّعَمَ الموجودة، و«الجالب»؛ لَأَنَّهُ يَجْلِبُ النَّعَمَ المفقودة^(٢).

وقيل أيضًا: النعمة إذا شُكِرَتْ قَرَّتْ، وإذا كُفِرَتْ قَرَّتْ.

نسأل الله أن يوزعنا شُكْرَ نِعَمِهِ، وأن يعيّننا من كُفْرانها؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مجيب.



(١) «نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار» للسفاري (ص ٣٢٥).

(٢) «عدة الصابرين» لابن القيم (ص ١٥٥).

فَضْلُ التَّكْبِيرِ وَمَكَانَتُهُ مِنَ الدِّينِ

لا يزال الحديث ماضيًا عن الكلمات الأربع، التي هي خير الكلام وأحبُّه إلى الله، وهي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وسبق الحديث مفضلًا بعض الشيء عن التهليل والتسبيح والتحميد، وبقي الكلام عن التكبير، فضله ومعناه في اللغة والشرع، وبعض الأمور الأخرى المتعلقة به.

إنَّ التكبير شأنه عظيم، وثوابه عند الله جزيل، وقد تكاثرت النصوص في الحث عليه، والترغيب فيه، وذكر ثوابه.

يقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال تعالى في شأن الصيام: ﴿وَلِتُكْمِلُوا أَلَمَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى في شأن الحج وما يكون فيه من نسك يتقرب فيه العبد إلى الله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَلْبُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿بِأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو بصدد بيان تفضيل التكبير وعظم شأنه: «ولهذا كان شعار الصلاة والأذان والأعياد والأماكن العالية هو التكبير، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ كما ثبت ذلك في «الصحيح»، عن النبي ﷺ، ولم يجر في شيء من الأثر بدَل قول: الله أكبر: الله أعظم؛ ولهذا كان جمهور الفقهاء على أنَّ الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير، فلو قال: الله أعظم، لم تنعقد به الصلاة؛ لقول النبي ﷺ: (مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطَّهْوُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ،

وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ^(١)؛ وهذا قولُ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وأبي يوسفَ وداودَ وغيرهم، ولو أتى بغيرِ ذلكَ مِنَ الأذكار؛ مثلُ: سبحانَ الله، والحمدُ لله، لمَ تنعقدُ به الصلاةُ.

ولأنَّ التكبيرَ مختصٌّ بالذكرِ في حالِ الارتفاعِ، كما أنَّ التسبيحَ مختصٌّ بحالِ الانخفاضِ؛ كما في «السنن» عن جابر بن عبد الله، قال: «كُنَّا مع رسولِ الله ﷺ إذا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، وإذا هَبَطْنَا سَبَّحْنَا، فَوَضِعَتِ الصلاةُ على ذلكَ»^(٢)...^(٣) اهـ.

ثم إنَّ التكبيرَ مُصَاحِبٌ للمسلمِ في عباداتٍ عديدة، وطاعاتٍ متنوعة، فالمسلمُ يُكَبِّرُ اللهَ عندما يُكْمِلُ عِدَّةَ الصَّيَامِ، وَيُكَبِّرُ في الْحَجِّ؛ كما سبقَ الإشارةُ إلى دليلِ ذلكَ مِنَ القرآنِ الكريمِ.

وأما الصلاةُ، فإنَّ للتكبيرِ فيها شأنًا عظيمًا، ومكانةً عاليةً؛ ففي النداءِ إليها يُشْرَعُ التكبيرُ، وعند الإقامةِ لها، وتحريمُها هو التكبيرُ، بل إنَّ تكبيرةَ الإحرامِ ركنٌ مِنْ أركانِ الصلاةِ، ثم هو يصاحبُ المسلمَ في كلِّ خَفْضٍ وَرَفْعٍ مِنَ الصلاةِ؛ روى البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحيهما»، من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا قامَ إلى الصلاةِ يُكَبِّرُ حينَ يقومُ، ثم يُكَبِّرُ حينَ يَرَكْعُ، ثم يقولُ: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) حينَ يَرَفَعُ صُلْبَهُ مِنَ الركعةِ، ثم يقولُ: (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ)، ثم يُكَبِّرُ حينَ يَهْوِي، ثم يُكَبِّرُ حينَ يرفعُ رأسَهُ، ثم يُكَبِّرُ حينَ يَسْجُدُ، ثم يُكَبِّرُ حينَ يرفعُ رأسَهُ، ثم يفعلُ ذلكَ في الصلاةِ كُلِّهَا حتى يَقْضِيَهَا، وَيُكَبِّرُ حينَ يَقُومُ مِنَ الثَّانِيَةِ بعدَ الجلوسِ»^(٤).

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/١٢٣)، ورواه أبو داود في «سننه» برقم (٦١)، والترمذي رقم (٣)، وابن ماجه رقم (٢٧٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٨/٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/٣٣٣)، والبخاري رقم (٢٩٩٣)، و«السنن الكبرى» رقم (٨٧٧٤)، دون قوله: «فوضعت الصلاة على ذلك»، فقد وردت في حديث ابن عمر في «سنن أبي داود» رقم (٢٥٩٩)؛ ولفظه: «وكان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا الثنايا كبروا وإذا هبطوا سبّحوا، فوضعت الصلاة على ذلك».

(٣) «الفتاوى» (١٦/١١٢، ١١٣).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٧٨٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٩٢).

وبهذا، فالتكبيرُ يَتَكَرَّرُ مع المسلم في صلاتِهِ مراتٍ كثيرة؛ فالصلاةُ الرباعيةُ فيها اثنانِ وعشرون تكبيرةً، والثنائيةُ فيها إحدى عشرة تكبيرةً، وكلُّ ركعةٍ فيها خمسُ تكبيراتٍ. وعلى هذا، فالمسلمُ يُكَبِّرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ في الصلواتِ الخمسِ المكتوبةِ فقط أربعاً وتسعين تكبيرةً، فكيف إذا كَانَ محافظاً - مَعَ ذلك - على الرواتبِ والنوافل؟! وكيف إذا كَانَ محافظاً على الأذكارِ التي تكونُ أدبارَ الصلواتِ، وفيها التكبيرُ ثلاثٌ وثلاثونَ مرَّةً؟! فالمسلمُ إذا كَانَ محافظاً على الصلواتِ الخمسِ مَعَ السُّنَنِ الرواتبِ، وَعَدَّهَا ثنتا عشرةَ ركعةً، مع الشُّفْعِ والوُثْرِ ثلاثِ ركعاتٍ، ومحافظاً على التكبيرِ المسنونِ أدبارَ الصلواتِ ثلاثاً وثلاثينَ مرَّةً، فَإِنَّ عَدَدَ تكبيرِهِ لله في يومِهِ وليلَتِهِ يَكُونُ ثلاثمائةً واثنين وأربعين تكبيرةً. ولا ريبَ أَنَّ في هذا دلالةً على فضيلةِ التكبيرِ، حيثُ جَعَلَ الله للصلاةِ منه هذا النصيبَ الوافرَ، فإذا ضُمَّ إلى ذلكِ التكبيرُ في الأذانِ للصلاةِ والإقامةِ لها مِمَّنْ يُؤَدُّنَ أو يُحافظُ على إجابةِ المؤدِّن، زاد بذلكِ عددُ تكبيرِهِ في يومِهِ وليلَتِهِ، فَإِنَّ عَدَدَ ما يَكُونُ فيهما مِنْ تكبيراتٍ في اليومِ والليلةِ خمسون تكبيرةً، وبالتالي فَإِنَّ عَدَدَ التكبيرِ بذلكِ يَزِيدُ.

ثم إِنَّ المسلمَ إذا كَانَ محافظاً على التكبيرِ المطلقِ غيرِ المُقَيَّدِ بوقتٍ، فَإِنَّ عَدَدَ تكبيرِهِ لله في أيامِهِ ولياليهِ لا يحصى إلا اللهُ سبحانه.

والتكبيرُ ركنٌ مِنْ أركانِ الصلاةِ، فتحريمُها لا يَكُونُ إِلَّا به، وهذا يُشْعِرُ - ولا ريبَ - بمكانةِ التكبيرِ مِنَ الصلاةِ، وَأَنَّ الصلاةَ إنما هي تفاصيلُ للتكبيرِ الذي هو تحريمُها؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «... لا أَحْسَنُ مِنْ كَوْنِ التكبيرِ تحريمًا لها، فتحريمُها تكبيرُ الرَّبِّ تعالى الجامعُ لإثباتِ كُلِّ كمالٍ له، وتنزيهِهِ عن كُلِّ نقصٍ وعيبٍ، وإفراذهِ وتخصيصِهِ بذلكِ، وتعظيمِهِ وإجلالِهِ، فالتكبيرُ يَتَضَمَّنُ تفاصيلَ أفعالِ الصلاةِ وأقوالِها وهَيئَاتِها، فالصلاةُ مِنْ أَوَّلِها إلى آخِرِها تفصيلٌ لمضمونِ «اللهُ أَكْبَرُ»، وأيُّ تحريمٍ أَحْسَنُ مِنْ هذا التحريمِ المتضمنِ للإخلاصِ والتوحيد»^(١). اهـ.

(١) «الصلاة» لابن القيم (ص ١٠٦).

وبهذا تَبَيَّنَ مكانةُ التكبير، وجلالةُ قدره، وعِظَمُ شأنِهِ مِنَ الدين، فليس التكبيرُ كلمةً لا مَعْنَى لها، أو لفظةً لا مضمونَ لها، بل هي كلمةٌ عَظِيمٌ شأنُها، رَفِيعٌ قَدْرُها؛ تَتَضَمَّنُ المعانيَ الجليلةَ، والمدلولاتِ العميقةَ، والمقاصدَ الساميةَ الرفيعةَ.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]: «يقول: وَعَظَّمُ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا أَمَرَكَ أَنْ تُعَظِّمَهُ بِهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَأَطْعُهُ فِيمَا أَمَرَكَ وَنَهَاكَ»^(١).

وقال الشيخ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنَقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ نَفْسِهَا: «أَي: عَظَّمَهُ تَعْظِيمًا شَدِيدًا، وَيُظْهَرُ تَعْظِيمُ اللَّهِ فِي شِدَّةِ الْمَحَافَظَةِ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَالْمَسَارَعَةِ إِلَى كُلِّ مَا يَرْضِيهِ»^(٢).

وفي هذا إشارةٌ إِلَى أَنَّ الدِّينَ كُلَّهُ يُعَدُّ تَفْصِيلًا لِكَلِمَةِ «اللَّهُ أَكْبَرُ»، فَالْمُسْلِمُ يَقُومُ بِالطَّاعَاتِ جَمِيعِهَا وَالْعِبَادَاتِ كُلِّهَا؛ تَكْبِيرًا لِلَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِسَانِهِ، وَقِيَامًا بِحَقِّهِ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ عَظَمَةَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَجَلَالَهَ قَدْرُهَا؛ وَلِهَذَا يُرَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «قَوْلُ الْعَبْدِ: اللَّهُ أَكْبَرُ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٣)، فَاللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.



(١) «جامع البيان» (١٧٩/٩).

(٢) «أضواء البيان» (٦٣٥/٣).

(٣) أورده القرطبي في «تفسيره» (٢٢٣/١٠).

مَعْنَى التَّكْبِيرِ وَبَيَانُ مَذْلُولِهِ

كان الحديث الماضي عن التكبير: فَضْلُهُ وَبَيَانُ مَكَانَتِهِ مِنَ الدِّينِ، وسيكون الحديث عن معنى التكبير والمراد به؛ إِذْ إِنَّ فَهْمَ الْأَذْكَارِ الشَّرْعِيَّةِ، وَفَهْمَ الْمَرَادِ بِهَا يُعَدُّ أَسَاسًا عَظِيمًا وَمَطْلَبًا جَلِيلًا لَا بُدَّ مِنْهُ.

والتكبير هو: تعظيمُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِجْلَالُهُ، واعتقادُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَكْبَرُ وَلَا أَعْظَمُ مِنْهُ، فَيَصْغُرُ دُونَ جَلَالِهِ كُلُّ كَبِيرٍ، فهو الذي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَذَلَّتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَعَنْتْ لَهُ الْوُجُوهُ، وَقَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ، وَدَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ، وَتَوَاضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَقُدْرَتِهِ الْأَشْيَاءُ، وَاسْتَكَانَتْ وَتَضَاعَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ وَقَهْرِهِ الْمَخْلُوقَاتُ.

قال الإمام الأزهري في كتابه «تهذيب اللغة» «وقول المصلي: الله أكبر، وكذلك قول المؤذن، فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: الله كبير؛ كقول الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: هو هَيِّنٌ عَلَيْهِ؛ ومثله قول معن بن أوس:

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ

معناه: وإني لَوْجَلٌ.

والقول الآخر: أن فيه ضميرًا؛ المعنى: الله أكبر كبير، وكذلك الله الأعزُّ؛ أي: أعزُّ عزيز؛ قال الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْنًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

معناه: أعزُّ عزيز، وأطول طويل^(١). اهـ.

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/٢١٤).

والصوابُ من هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا رَحِمَهُمَا اللهُ هُوَ: الثَّانِي؛
بمعنى: أَنْ يَكُونَ اللهُ عِنْدَ الْعَبْدِ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ أَي: لَا أَكْبَرَ وَلَا أَعْظَمَ
مَعَهُ، أَمَّا الْأَوَّلُ، فَهُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ، وَلَيْسَ هُوَ مَعْنَى (اللهُ أَكْبَرُ).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّكْبِيرُ يُرَادُ بِهِ أَنْ يَكُونَ (اللهُ) عِنْدَ
الْعَبْدِ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ كَمَا قَالَ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: (يَا عَدِيُّ، مَا يُفْرِكُ؟
أَيُّفْرُكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ؟! يَا عَدِيُّ، مَا يُفْرِكُ؟
أَيُّفْرُكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ؟!؛ وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ
جَعَلَ (أَكْبَرَ) بِمَعْنَى (كَبِيرٍ)»^(١). اهـ.

وَحَدِيثُ عَدِيِّ هَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُمْ بِإِسْنَادٍ
جَيِّدٍ^(٢).

وَبِهِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَعْنَى (اللهُ أَكْبَرُ)؛ أَي: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا شَيْءَ أَكْبَرُ
وَلَا أَعْظَمُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: إِنَّ أَبْلَغَ لَفْظَةٍ لِلْعَرَبِ فِي مَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ
هِيَ: اللهُ أَكْبَرُ؛ أَي: صِفُهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

رَأَيْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَةً وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا^(٣)

وَالْتَّكْبِيرُ مَعْنَاهُ - كَمَا تَقَدَّمَ - التَّعْظِيمُ، لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ التَّعْظِيمَ لَيْسَ
مَرَادِفًا فِي الْمَعْنَى لِلتَّكْبِيرِ؛ فَالْكِبَرِيَاءُ أَكْمَلُ مِنَ الْعَظَمَةِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُهَا وَيَزِيدُ
عَلَيْهَا فِي الْمَعْنَى؛ وَلِهَذَا يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي قَوْلِهِ:
«اللهُ أَكْبَرُ» إِثْبَاتُ عَظَمَتِهِ؛ فَإِنَّ الْكِبَرِيَاءَ تَتَضَمَّنُ الْعَظَمَةَ، وَلَكِنَّ الْكِبَرِيَاءَ أَكْمَلُ؛
وَلِهَذَا جَاءَتْ الْأَلْفَاظُ الْمَشْرُوعَةُ فِي الصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ بِقَوْلٍ: «اللهُ أَكْبَرُ»؛ فَإِنَّ ذَلِكَ
أَكْمَلُ مِنْ قَوْلٍ: اللهُ أَعْظَمُ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ:
(يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: الْكِبَرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا

(١) «الفتاوى» (٢٣٩/٥).

(٢) «المسند» (٣٧٨/٤)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٩٥٣)، و«صحيح ابن حبان» (الإحسان) رقم (٧٢٠٦).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٢٣/١٠).

عَذِّبْتُهُ»^(١)، فجعلَ العَظَمَةَ كالإِزارِ، والكبرياءَ كالرداءِ، ومعلومٌ أنَّ الرداءَ أشرفُ، فلمَّا كان التكبيرُ أبلغَ مِنَ التعظيمِ، صرَّحَ بلفظه، وتضمَّنَ ذلك التعظيمُ^(٢). اهـ.

❏ وههنا أمرٌ ينبغي التنبيهُ له وعدمُ إغفاله، وهو: أنَّ المسلمَ إذا اعتقدَ وآمنَ بأنَّ اللهَ ﷻ أكبرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، وأنَّ كُلَّ شيءٍ مهما كَبُرَ يَصْغُرُ عندَ كبرياءِ اللهِ وعَظَمَتِهِ، عَلِمَ مِنْ خِلالِ ذَلِكَ عِلْمَ اليقينِ: أنَّ كبرياءَ الرَّبِّ وعَظَمَتَهُ وِجَالَهُ وِجَمَالَهُ وسائرَ أوصافِهِ ونعوتِهِ أمرٌ لا يَمُكُنُ أنْ تحيَظَ به العقولُ، أو تَتَصَوَّرَهُ الأفهامُ، أو تُدْرِكَهُ الأبصارُ والأفكارُ، فاللهُ أعظمُ وأعظمُ مِنْ ذَلِكَ، بل إِنَّ العقولَ والأفهامَ عاجزةٌ عن أنْ تُدْرِكَ كثيرًا مِنْ مخلوقاتِ الرَّبِّ تبارك وتعالى؛ فكيفَ بالرَّبِّ سبحانه؟!

ثَبَتَ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالتِّي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكَرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكَرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»^(٣).

وروى ابن جرير الطبريُّ في «تفسيره»، عن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْقَيْتُ فِي ثُرْسٍ)، قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أَلْقَيْتُ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ)^(٤).

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٢٠).

(٢) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص ٢٦، ٢٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٢٨/٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٦٨٩/٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٩٠/٢)، وغيرهم. قال الهيثمي في «المجمع» (٨٦/١): «رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحه الذهبي في «العلو» (ص ١٠٣، مختصرة)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش» (ص ١٠٠).

(٣) «تفسير الطبري» (١٠/٣)، وعنه ذكره ابن كثير في «البيداء والنهاية» (٢٤/١) وقال: «أول الحديث مرسلٌ، وعن أبي ذر منقطع». ولحديث أبي ذر طرقٌ أخرى أوردها الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٠٩)، وصحَّحه بمجموعها.

❦ وَلِتَنَامِلَ الْمُسْلِمُ فِي عِظَمِ السَّمَاءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِظَمِ الْكَرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاءِ، وَعِظَمِ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكَرْسِيِّ؛ فَإِنَّ الْعُقُولَ عَاجِزَةٌ عَنْ أَنْ تُدْرِكَ كَمَالَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَوْ أَنْ تَحِيطَ بِكُنْهَيْهَا وَكَيْفِيَّتَيْهَا وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ؛ فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ إِذَا فِي الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ؟! فَهُوَ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ تَعْرِفَ الْعُقُولُ كُنْهَ صِفَاتِهِ، أَوْ تُدْرِكَ الْأَفْهَامُ كِبَرِيَاءَهُ وَعِظَمَتَهُ؛ وَلِهَذَا جَاءَتِ السُّنَّةُ بِالنِّهْيِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْأَفْكَارَ وَالْعُقُولَ لَا تُدْرِكُ كُنْهَ صِفَاتِهِ، فَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ ﷺ: (فِيمَ تَتَفَكَّرُونَ؟)، قَالُوا: نَتَفَكَّرُ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: (فَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ، وَلَكِنْ تَفَكَّرُوا فِيَمَا خَلَقَ اللَّهُ)» الْحَدِيثُ ^(١).

والتفكرُ المأمورُ به هنا - كما يُبَيِّنُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ - هُوَ إِحْضَارُ مَعْرِفَتَيْنِ فِي الْقَلْبِ لِيَسْتَمِرَّ مِنْهُمَا مَعْرِفَةٌ ثَالِثَةٌ ^(٢)، وَهَذَا يَتَّضِعُ بِالْمِثَالِ؛ فَالْمُسْلِمُ إِذَا أَحْضَرَ فِي قَلْبِهِ كِبَرَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ مِنْ سَمَاوَاتٍ وَأَرْضٍ، وَكَرْسِيِّ وَعَرْشٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَحْضَرَ فِي قَلْبِهِ عَجْزَهُ عَنْ إِدْرَاكِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَالْإِحَاطَةِ بِهَا، حَصَلَ لَهُ بِذَلِكَ مَعْرِفَةٌ ثَالِثَةٌ، وَهِيَ عِظَمَةُ وَكِبَرِيَاءُ خَالِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَعَجْزُ الْعُقُولِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَ صِفَاتِهِ، أَوْ تَحِيطَ بِنِعْوَتِهِ سُبْحَانَهُ؛ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١١١]، فَاللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بِكْرَةً وَأَصِيلًا.



(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٦/٦)، وفي إسناده شهر بن حوشب؛ وفيه ضعف، وهو لم يلقَ عبد الله بن سلام؛ كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (٨٩).

ولكن للحديث شواهدٌ يتقوى بها، أوردَ بعضها السخاوي في «المقاصد الحسنة» رقم (٣٤٢)، ثم قال: «وأسانيدُها ضعيفةٌ، لكن اجتماعَها يكتسبُ قوةً، والمعنى صحيح». اهـ. والحديث حسَنُه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٨٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص ١٨١).

التَّلَازُمُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ

تَحَدَّثْتُ فيما سَبَقَ عن الكلمات الأربع: «سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ»، وما وَرَدَ في فضلِ هذه الكلماتِ إجمالاً وتفصيلاً، وما يَتَعَلَّقُ كذلكَ بمعاني هذه الكلماتِ ومدلولهنَّ. ولعلَّ مِنَ الحَسَنِ في ختامِ الحديثِ عن هؤلاءِ الكلماتِ: أنْ أُشيرَ إلى ما بينهما مِنْ ترابطٍ وتلازمٍ، وقد علمنا مِنْ خلالِ ما تَقَدَّمَ: أنَّ هؤلاءِ الكلماتِ هنَّ أَفْضَلُ الكلامِ بعدَ القرآنِ الكريمِ، وهنَّ مِنَ القرآنِ الكريمِ، وتَقَدَّمَ معنا أيضاً الإشارةُ إلى جملةٍ كبيرةٍ من النصوصِ الدالَّةِ على عَظَمِ شأنِ ذِكْرِ اللهِ تعالى بهؤلاءِ الكلماتِ الأربعِ، وما يَتَرَتَّبُ على ذلكَ مِنْ أَجورٍ كثيرةٍ، وفضائلٍ وفيرةٍ، وخيرٍ مستمرٍّ في الدنيا والآخرةِ، ولا شَكَّ أنَّ في هذا أَوْضَحَ إشارةٍ إلى قُوَّةِ الارتباطِ بين هذه الكلماتِ الأربعِ، وشِدَّةِ الصِّلةِ بينهما.

ثمَّ إِنَّ هؤلاءِ الكلماتِ - كما أَوْضَحَ أهلُ العلمِ -: «شَطْرانِ؛ فَالتَّسْبِيحُ قرينُ التَّحْمِيدِ؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ)؛ أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ^(١)، وَقَالَ ﷺ: فِيما رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ: (أَفْضَلُ الْكَلَامِ مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَأَتْكَ بِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)^(٢)، وَفِي الْقُرْآنِ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)؛ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ؛

(١) تقدم تخريجه (ص ٩٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٧٦).

هكذا في الصَّحاح عن عائشة رضي الله عنها ^(١)؛ فجعل قوله: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ) تأويل: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وقد قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [الروم]، والآثار في اقترانهما كثيرة.

وأما التهليل، فهو قرين التكبير؛ كما في كلمات الأذان: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، ثم بعد دعاء العباد إلى الصلاة: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله؛ فهو مُشتمِلٌ على التكبير والتشهد في أوله وآخره، وهو ذِكرُ الله تعالى، وفي وسطه دعاء الخلق إلى الصلاة والفلاح، فالصلاة هي العمل، والفلاح هو ثواب العمل، لكن جعل التكبير شفعاً والتشهد وثراً، فمع كل تكبيرتين شهادة، وجعل أوله مضاعفاً على آخره، ففي أول الأذان يكبر أربعاً، ويتشهد مرتين، والشهادتان جميعاً باسم الشهادة، وفي آخره التكبير مرتان فقط مع التهليل الذي لم يقرن به لفظ الشهادة.

... وكما جُمع بين التكبير والتهليل في الأذان، جُمع بينهما في تكبير الإشراف، فكان على الصفا والمروة، وإذا علا شرفاً في غزوة أو حجة أو عمرة يُكبر ثلاثاً، ويقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ، وَأَعَزَّ جُنْدُهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ)، يفعل ذلك ثلاثاً، وهذا في الصَّحاح ^(٢)، وكذلك على الدابة كبر ثلاثاً، وهلل ثلاثاً، فجمع بين التكبير والتهليل، وكذلك حديث عدي بن حاتم الذي رواه الترمذي فيه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: (يَا عَدِيُّ، مَا يُفْرِكُ؟ أَيْفَرُكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟! يَا عَدِيُّ،

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨١٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٧٩٧)، و«صحيح مسلم» رقم (١٣٤٤).

مَا يُفْرِكُ؟ أَيَفْرِكُ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ؟! (١) ففَرَنَ
النَّبِيُّ ﷺ بين التهليل والتكبير (٢).

ثم إنَّ أفضلَ هؤلاءِ الكلماتِ هو التهليل؛ لاشتمالِهِ على التوحيد، الذي
هو أصلُ الإيمان، وهو الكلامُ الفارقُ بين أهلِ الجَنَّةِ وأهلِ النار، وهو ثمنُ
دخولِ الجنة، ولا يَصْلُحُ إسلامُ أحدٍ إلَّا به، ومَنْ كان آخِرُ كلامِهِ:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ، ومنزلةُ التَّحْمِيدِ والتَّسْبِيحِ منه منزلةُ الفرعِ مِنَ
الأصلِ؛ فالتهليلُ أصلٌ، وما سواه فرعٌ له وتابعٌ؛ ولهذا قال ﷺ كما في
«الصحيحين»، من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً،
أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ) (٣)؛ فجَعَلَ
صلواتُ الله وسلامُهُ عليه التهليلَ أعلى وأرفعَ شُعْبِ الإيمان، وفي «المسند»
عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَمِنْ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»
قال: (هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ) (٤)، والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ جِدًّا، وقد
تقدَّم معنا جملةٌ كبيرةٌ منها.

ولا يعارضُ هذا ما ثَبَتَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: (أَفْضَلُ الْكَلَامِ
مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَأَتْكَ بِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) (٥)؛ إذ لا يلزَمُ منه - كما قال
شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ - أن يكونَ أفضلَ مطلقًا؛ بدليلِ أَنَّ قِراءَةَ الْقُرْآنِ
أَفْضَلُ مِنَ الذِّكْرِ، وقد نهى النَّبِيُّ ﷺ عنها في الركوع والسجود، وقال: (إِنِّي
نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، أَمَّا الرُّكُوعُ، فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا
السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ) (٦).

وههنا أصلٌ عظيمٌ نَبَّهَ عليه شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أَنَّ الشَّيْءَ

(١) وتقدَّم تخريجه (ص ٢٤٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣١/٢٤ - ٢٣٣).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٥٢).

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٧٦).

(٥) تقدم تخريجه (ص ١٤٨).

(٦) تقدم تخريجه (ص ٨٩).

إذا كان أفضل مِنْ حيثُ الجملة، لم يجب أن يكونَ أفضلَ في كلِّ حالٍ، ولا لكلِّ أحدٍ، بل المفضولُ في موضعيه الذي شرع فيه أفضلُ مِنَ الفاضلِ المطلق؛ كما أنَّ التسبيحَ في الركوعِ والسجودِ أفضلُ مِنْ قراءةِ القرآنِ، وَمِنْ التهليلِ والتكبيرِ، والتشهدُ في آخرِ الصلاةِ، والدعاءُ بعده أفضلُ مِنْ قراءةِ القرآنِ؛ فالتفضيلُ مختلفٌ باختلافِ الأحوالِ؛ فقولُ النبي ﷺ لَمَّا سُئِلَ: أيُّ الكلامِ أفضلُ؟ فقال: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)، هذا خَرَجَ على سؤالِ سائلٍ، فربَّما عَلِمَ النبي ﷺ مِنْ حالِ السائلِ حالًا مخصوصةً.

وعلى كلِّ: فالتفضيلُ مختلفٌ باختلافِ الأحوالِ، وإن كان التهليلُ أفضلَ مطلقًا.

والأحوالُ ثلاثةٌ: حالٌ: يُسْتَحَبُّ فيه الإسرارُ، ويُكرَهُ فيها الجهرُ؛ لأنَّها حالٌ انخفاضٍ؛ كالركوعِ والسجودِ، فهنا التسبيحُ أفضلُ مِنَ التهليلِ والتكبيرِ، وكذلك في بطونِ الأودية، وحالٌ: يُسْتَحَبُّ فيه الجهرُ والإعلانُ؛ كالإشرافِ والأذانِ، فهنا التهليلُ والتكبيرُ أفضلُ مِنَ التسبيحِ، وحالٌ: يُشْرَعُ فيه الأمران^(١).

نسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يُوفِّقَنَا وجميعَ المسلمينَ لكلِّ خيرٍ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعينَ.



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٤/ ٢٣٥ - ٢٣٩).

فَضْلُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

إِنَّ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي جَاءَتْ النُّصُوصُ بِتَفْضِيلِهَا وَبَيَانِ عِظَمِ شَأْنِهَا: الْحَوْقَلَةُ، وَهِيَ قَوْلُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَقَدْ جَاءَتْ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مَضمُومَةً إِلَى الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي سَبَقَ الْحَدِيثُ عَنْهَا مَفْصَلًا فِيمَا مَضَى، وَمِنَ النُّصُوصِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ مَضمُومَةً إِلَى أَوْلَئِكَ الْكَلِمَاتِ: مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالحَاكِمُ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا عَلَى الْأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ) ^(١).

وأيضًا: مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَالدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُمْ، عَنْ ابْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا، فَعَلَّمَنِي مَا يَجْزئُنِي مِنْهُ، قَالَ: (قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ)، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا اللَّهُ ﻋَظَمَ، فَمَا لِي؟ قَالَ: (قُلْ: اَللّٰهُمَّ، ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي)، فَلَمَّا قَامَ، قَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَمَّا هَذَا، فَقَدْ مَلَأَ يَدَهُ مِنَ الْخَيْرِ) ^(٢).

وَرُويَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اسْتَكَثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ»، قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

(١) تقدم تخريجه (ص ١٣٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٤٣).

قال: (التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّسْبِيحُ وَالْحَمْدُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) ^(١).

لكن جاءَ عَدُّ (لا حول ولا قوة إلا بالله) في جملة: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحَاتُ﴾ [الكهف: ٤٦، مريم: ٧٦]، عن غير واحدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ؛ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ رضي الله عنه سُئِلَ عَنْ «الْبَقَايَاتِ الصَّالِحَاتِ»، مَا هِيَ؟ فَقَالَ: «هِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» ^(٢).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ «الْبَقَايَاتِ الصَّالِحَاتِ»؟ فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: «الْبَقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ صَيَّادٍ، قَالَ: «سَأَلَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ «الْبَقَايَاتِ الصَّالِحَاتِ»؟ فَقُلْتُ: الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ، قَالَ: لَمْ تُصِبْ، فَقُلْتُ: الزَّكَاةُ وَالْحَجُّ، فَقَالَ: لَمْ تُصِبْ، وَلَكِنَّهُنَّ الْكَلِمَاتُ الْخَمْسُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وَأَثَرُ ابْنِ الْمُسَيَّبِ هَذَا يُوْهَمُ أَنَّ «الْبَقَايَاتِ الصَّالِحَاتِ» مَحْصُورَةٌ فِي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ الْخَمْسِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ «الْبَقَايَاتِ الصَّالِحَاتِ» هُنَّ جَمِيعُ أَعْمَالِ الْخَيْرِ؛ كَمَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحَاتُ﴾، قَالَ: «هِيَ ذِكْرُ اللَّهِ: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَتَبَارَكَ اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٧٥/٣)، وَ«صَحِيحُ ابْنِ حِبَانَ» (الإحسان) رَقْمُ (٨٤٠)، وَ«الْمُسْتَدْرَكُ» (٥١٢/١)، وَفِي إِسْنَادِهِ أَبُو السَّمْحِ دَرَّاجُ بْنُ سَمْعَانَ، صَدُوقٌ، فِي حَدِيثِهِ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ ضَعْفٌ، كَمَا فِي «تَقْرِيبِ التَّهْذِيبِ» (ص ٢٠١)، وَهَذَا مِنْهَا.

(٢) «الْمُسْنَدُ» (٧١/١).

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَالصَّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالْحَجُّ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْعَتَقُ، وَالْجِهَادُ، وَالصَّلَةُ، وَجَمِيعُ أَعْمَالِ الْحَسَنَاتِ، وَهِنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتِ، الَّتِي تَبْقَى لِأَهْلِهَا فِي الْجَنَّةِ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَبَيَانِ عِظَمِ مَكَانَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ أَجْرِ وَثَوَابٍ نَصُوصٌ خَاصَّةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ مِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، وَفِي رَوَايَةٍ: فَجَعَلْنَا لَا نَضَعُ شَرْفًا، وَلَا نَعْلُو شَرْفًا، وَلَا نَهْبِطُ فِي وَادٍ، إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا)، ثُمَّ أَتَى عَلِيٌّ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَقَالَ: (يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ)، أَوْ قَالَ: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)»^(١).

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي التَّعْلِيقِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ: «كَانَ ﷺ مُعَلِّمًا لَأُمَّتِهِ، فَلَا يَرَاهُمْ عَلَى حَالَةٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَحَبَّ لَهُمُ الزِّيَادَةَ، فَأَحَبَّ لِلَّذِينَ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّكْبِيرِ أَنْ يُضَيَّفُوا إِلَيْهِ التَّبَرُّيَّ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، فَيَجْمَعُوا بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: (إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسَلَّمَ)؛ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: «أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ»^(٢).

وَفِي رَوَايَةٍ: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ؟ تَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسَلَّمَ)^(٣).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٨٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٤).

(٢) «فتح الباري» (٥٠١/١١)، وانظر: «المستدرک» (٢١/١).

(٣) «مستدرک الحاكم» (٧١/١)، وقال: «صحيح»، ولا يُحْفَظُ لَهُ عِلَّةٌ، ووافقه الذهبي.

وروى الإمام أحمد وابن حبان وغيرهما، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه،
أن النبي ﷺ ليلة أُسْرِيَ به، مرَّ على إبراهيم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام -
فقال: (يَا مُحَمَّدُ، مُرْ أُمَّتَكَ أَنْ يُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَمَا غِرَاسُ
الْجَنَّةِ؟ قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)^(١).

وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (أَكْثِرُوا مِنْ
قَوْلٍ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ)^(٢).

وروى أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم عن قيس بن سعد بن عبادة، أن
أباه دَفَعَهُ إلى النبي ﷺ يَخْدُمُهُ، قال: «فَمَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ صَلَّيْتُ، فَضَرَبَنِي
بِرَجْلِهِ، وَقَالَ: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؟!)، قُلْتُ: بَلَى، قَالَ:
(لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)»^(٣).

فهذه بعض الأحاديث المشتملة على بيان فضل هذه الكلمة العظيمة، وما
يَتَرْتَّبُ عليها مِنْ أَجُورٍ عظيمة، وخيراتٍ جليلة، وفوائدَ متنوعةٍ في الدنيا
والآخرة، وقد نظم ابن العراقي رحمته الله جملةً مِنْ الفضائل الواردة لهذه الكلمة
في أبيات لطيفة، فقال:

يَا صَاحِ أَكْثِرْ قَوْلَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا فَهِيَ لِلدَّاءِ دَوَا
وَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنَ الْجَنَّةِ يَا فَوْزُ امْرِئٍ لِحَنَّةِ الْمَأْوَى أَوْ
لَهُ يَقُولُ رَبُّنَا أَسْلَمَ لِي عِبْدِي وَاسْتَسَلَّمَ رَاضِيًا هَوَا
وَأَشَدَّ أَيْضًا لِنَفْسِهِ:

تَبَرَّأْ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ تَنَلْ أَيَّ كَنْزٍ مِنَ الْجَنَّةِ
وَسَلِّمْ أُمُورَكَ لِلَّهِ كَي تَبِيتَ وَتُصْبِحَ فِي جُنَّةِ

(١) تقدم تخريجه (ص ٢١).

(٢) «المسند» (٢/٣٣٣)، وصححه الألباني في «الصححة» رقم (٢٥٢٨).

(٣) «المسند» (٣/٤٢٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٨١)، و«المستدرک» (٤/٢٩٠)، وانظر:
«الصححة» (٣٥/٤ - ٣٧).

وَلَا تَرْجُ إِذْ مَسَّ خَطْبٌ سِوَى إِلَهِكَ ذِي الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ
وَوَاطِبٌ عَلَى الْخَيْرِ وَاحْرِصْ عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ
وَكُنْ سَالِمَ الصَّدْرِ لِلْمُسْلِمِ مَنْ مِنْ غِلٍّ حَقْدٍ وَمِنْ ظِنَّةٍ^(١)
فَنَسَأُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يُوفِّقَنَا لِكُلِّ خَيْرٍ يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَأَنْ يَقِينَنَا مِنَ الزَّلَلِ
فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، فَلَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.



١١ انظر: «فضل لا حول ولا قوة إلا بالله» ليوסף بن عبد الهادي (ص ٣٩، ٤٠).

حَقِيقَةُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى فَضْلِ قَوْلِ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ، ذَاتِ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ، وَالذَّلَالَاتِ الْعَمِيقَةِ. وَقَدْ تَنَوَّعَتِ الْأَحَادِيثُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تَشْرِيفِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَتَعْظِيمِهَا؛ حَيْثُ أَخْبَرَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهَا مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهَا مِنْ كَنْزِ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهَا مِنْ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنْهَا. وَمَرَّ مَعَنَا أَيْضًا أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْإِكْثَارِ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ بِجَلَاءٍ عَلَى عِظَمِ فَضْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَرِفْعَةِ شَأْنِهَا، وَأَنَّهَا كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةٌ، يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعْنَوْا بِهَا، وَأَنْ يُكْثِرُوا مِنْ قَوْلِهَا، وَأَنْ يَعْمُرُوا أَوْقَاتَهُمْ بِكَثْرَةِ تَرَدَّادِهَا؛ لِعِظَمِ فَضْلِهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلِكَثْرَةِ ثَوَابِهَا عِنْدَهُ، وَلَمَّا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَأَفْضَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

❏ وَمِنْ الْأُمُورِ الْلازِمَةِ فِي هَذَا الْبَابِ، وَالْمَتَأَكِّدَةِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: أَنْ يَفْهَمَ مَدْلُولَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَمَعْنَاهَا؛ لِيَكُونَ ذِكْرُهُ لِلَّهِ بِهَا عَنْ عِلْمٍ وَفَهْمٍ وَإِدْرَاكٍِّ لِمَدْلُولِ مَا يَذْكُرُ اللَّهُ بِهِ، أَمَّا أَنْ يُرَدَّدَ الْمُسْلِمُ كَلَامًا لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ، أَوْ أَلْفَظًا لَا يَدْرِكُ مَدْلُولَهَا، فَهَذَا عَدِيمُ التَّأثيرِ، ضَعِيفُ الْفَائِدَةِ. وَلِهَذَا، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي هَذَا الذِّكْرِ - بَلْ وَفِي كُلِّ مَا يَذْكُرُ اللَّهُ بِهِ - أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَعْنَى مَا يَقُولُ، مُدْرِكًا لِمَدْلُولِهِ؛ إِذْ بِذَلِكَ يُؤْتِي الذِّكْرُ ثِمَارَهُ، وَتَحَقِّقُ فَائِدَتَهُ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ الْذَاكِرُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعَنَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ؟ تَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسَلَّمَ) ^(١).

فهي كلمة إسلام واستسلام، وتفويض وتبرؤ من الحَوْل والقُوَّة إلا بالله، وأنَّ العبد لا يملك من أمره شيئاً، وليس له حيلة في دفع شرٍّ، ولا قُوَّة في جلب خيرٍ إلا بإرادة الله تعالى؛ فلا تحوّل للعبد من معصية إلى طاعة، ولا من مرضٍ إلى صحة، ولا من وهنٍ إلى قُوَّة، ولا من نقصانٍ إلى كمالٍ وزيادة، إلا بالله، ولا قُوَّة له على القيام بشأنٍ من شؤونه، أو تحقيق هدفٍ من أهدافه، أو غايةٍ من غاياته، إلا بالله العظيم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فأزمنة الأمور بيده سبحانه، وأمور الخلائق معقودة بقضائه وقدره، يضرُّها كيف يشاء، ويقضي فيها بما يُريد، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقَّب لحُكمه، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء، على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدُّم ولا تأخُّر، له الخلق والأمر، وله المُلْك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة والفضل، وله الثناء الحسن، شملت قدرته كلَّ شيء، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، ومن كان هذا شأنه، فإنَّ الواجب الإسلام لألوهيته، والاستسلام لعظمته، وتفويض الأمور كلها إليه، والتبرؤ من الحَوْل والقوة إلا به؛ ولهذا تعبد الله عباده بذكره بهذه الكلمة العظيمة، التي هي بابٌ عظيمٌ من أبواب الجنة، وكنزٌ من كنوزها.

فهي كلمة عظيمة تعني: الإخلاص لله وحده بالاستعانة، كما أن كلمة التوحيد: لا إله إلا الله تعني: الإخلاص لله بالعبادة؛ فلا تتحقَّق لا إله إلا الله إلا بإخلاص العبادة كلها لله، ولا تتحقَّق لا حول ولا قوة إلا بالله إلا بإخلاص الاستعانة كلها لله، وقد جمع الله بين هذين الأمرين في سورة الفاتحة، أفضل سورة في القرآن؛ وذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحَوْل والقوة والتفويض إلا إلى الله ﷻ، والعبادة متعلِّقة بالوهية الله سبحانه، والاستعانة متعلِّقة بربوبيته، العبادة غاية، والاستعانة وسيلة، فلا سبيلَ إلى تحقيق تلك الغاية العظيمة إلا بهذه الوسيلة:

الاستعانة بالله الذي لا حول ولا قوة إلا به؛ ولهذا يخطئ مَنْ يستخدمها في غير بابها، أو يجعلها في غير مقصودها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وذلك أنَّ هذه الكلمة (أي: لا حول ولا قوة إلا بالله) هي كلمة استعانة لا كلمة استرجاع، وكثيرٌ مِنَ الناسِ يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جَزَعًا لا صبرًا»^(١).

وعلى هذا المعنى المُشار إليه يدورُ فهمُ السلفِ رحمهم الله لهذا الكلمة العظيمة؛ أخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره»، عن ابن عباس رضي الله عنهما في «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: «لا حول بنا على العمل بالطاعة إلا بالله، ولا قوة لنا على ترك المعصية إلا بالله».

وأخرج أيضًا عن زهير بن محمد أنه سُئِلَ عن تفسير: «لا حول ولا قوة إلا بالله»؟ قال: «لا تأخذُ ما تُحبُّ إلا بالله، ولا تَمْنَعُ ممَّا تَكْرَهُ إلا بعونِ الله»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وقول: لا حول ولا قوة إلا بالله يوجبُ الإعانة؛ ولهذا سنَّها النبي ﷺ إذا قال المؤدِّن: حيَّ على الصلاة، فيقولُ المجيبُ: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا قال: حيَّ على الفلاح، قال المجيبُ: لا حول ولا قوة إلا بالله، وقال المؤمنُ لصاحبه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]؛ ولهذا يُؤمَرُ بهذا مَنْ يخافُ العَيْنَ على شيءٍ، ففوله: ما شاء الله، تقديرُهُ: ما شاء الله كان، فلا يأمنُ، بل يؤمنُ بالقَدَرِ، ويقولُ: لا قوة إلا بالله، وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتفق عليه أنَّ النبي ﷺ قال: (هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ)، والكنزُ مالٌ مجتمعٌ لا يحتاجُ إلى جَمْعٍ، وذلك أنَّها تَتَضَمَّنُ التَّوَكُّلَ والافتقارَ إلى الله تعالى، ومعلومٌ أنَّه لا يكونُ شيءٌ إلا بمشيئةِ الله وقدرته، وأنَّ الخَلْقَ ليس منهم شيءٌ

(١) «الاستقامة» (٢/ ٨١).

(٢) أوردهما السيوطي في «الدر المشثور» (٥/ ٣٩٣ - ٣٩٤).

إِلَّا مَا أَحَدَّثَهُ اللَّهُ فِيهِمْ، فَإِذَا انْقَطَعَ الْقَلْبُ لِلْمَعُونَةِ مِنْهُمْ، وَطَلَبَهَا مِنَ اللَّهِ، فَقَدْ طَلَبَهَا مِنْ خَالِقِهَا، الَّذِي لَا يَأْتِي بِهَا إِلَّا هُوَ... ولهذا يَأْمُرُ اللَّهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَحَدُّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَفِي الْأَثَرِ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ، فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ، فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ». اهـ^(١).

❖ وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ وَأَفْضَلَهُ لِلْعَبْدِ هُوَ طَلَبُهُ مِنَ اللَّهِ الْعَوْنَ عَلَى مَرْضَاتِهِ، وَالتَّوْفِيقَ لَطَاعَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِحَبِّهِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: (يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَسْرَ أَنْ تَقُولَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)^(٢)، وَهَذِهِ كَلِمَةُ اسْتِعَانَةٍ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ لِحَقِيقِ أَفْضَلِ الْغَايَاتِ، وَأَجَلِّ الْمَطَالِبِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّتِي أُوجِدَ الْخَلْقُ لِحَقِيقَتِهَا، وَخُلِقُوا لِلْقِيَامِ بِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَأَمَّلْتُ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ، فَإِذَا هُوَ سُؤَالُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ فِي الْفَاتِحَةِ فِي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»^(٣).

فَاللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنُسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ، وَنَخَافُ عَذَابَكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ، فَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرَفَةَ عَيْنٍ، أَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَإِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ.



(١) «الفتاوى» (١٣/ ٣٢١ - ٣٢٢).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥)، وأبو داود رقم (١٥٢٢)، والنسائي رقم (١٣٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٣٤٧).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٧٨).

القِسْمُ الثَّانِي

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(الدُّعَاءُ مَنْزِلَتُهُ وَأَدَابُهُ)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمدُ لله ربَّ العالمين، والصلاةُ والسلام على إمام المرسلين وخيرةِ ربِّ العالمين، نبينا محمدَ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا القسمُ الثاني من كتاب «فقهُ الأدعيةِ والأذكارِ»، وهو خاصُّ بالدعاء، احتوى على جُمْلَةٍ من الموضوعاتِ المفيدة، والأبحاثِ النافعة، والمسائلِ المهمّةِ التي تَمَسُّ الحاجةَ إليها لدى كلِّ مسلمٍ ومسلمة، ومن أبرزِ الموضوعاتِ التي اشتمل عليها هذا القسمُ ما يلي:

- بيانُ فضلِ الدعاء وأهميّته ومكانته من الدِّين الإسلاميِّ الحنيف.
- الشروطُ التي ينبغي أن تتوافَرَ في الدعاء ليكونَ مقبولاً عندَ الله ﷻ.
- الآدابُ التي ينبغي أن يتحلَّى بها مَنْ يدعو الله ﷻ؛ ليكُمَلَ دعاؤه، وليتَحَقَّقَ رجاؤه، ولينالَ سُؤلُه.
- فضلُ الأدعيةِ المأثورة، وكمالُها في مَبانيها ومعانيها، وبيانُ اشتمالها على غايةِ المطالبِ العالية، وكمالِ المقاصدِ النبيلة.
- خطورةُ الأدعيةِ المنحرفة، والأورادِ المُختَرعة، وبيانُ عِظَمِ جنايتها على أهلها المستمسكينَ بها، المحافظينَ عليها.
- التحذيرُ من الشُّركِ في الدعاء، وبيانُ أَنَّهُ أعظمُ انحرافٍ وَقَعَ في هذا الباب.

• بيانُ أنواعِ التوسُّلِ المشروع، والتحذيرُ من جُمْلَةٍ من الانحرافاتِ التي

- وقَعَتْ فِي الدُّعَاءِ تُسَمَّى تَوْسَلًا، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ انْحِرَافٌ وَضَلَالٌ.
- بَيَانُ أَوْقَاتٍ وَأَحْوَالٍ لِلْمُسْلِمِ تَكُونُ فِيهَا الْإِجَابَةُ لِدُعَائِهِ أُخْرَى مِنْ غَيْرِهَا.
 - فَضْلُ الدُّعَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَبَيَانُ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَجُورٍ عَظِيمَةٍ، وَخَيْرَاتٍ عَمِيمَةٍ.
 - بَيَانُ أَهْمِيَّةِ تَبَصُّرِ الْمُسْلِمِ فِيمَا يَدْعُو بِهِ، وَالْحَذَرِ مِنَ الْاسْتِعْجَالِ بِالدُّعَاءِ عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بِالْهَلَاكِ، أَوِ الْعَذَابِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.
- إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ النَّافِعَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالدُّعَاءِ، وَقَدْ جَعَلْتُهُ كَالْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْ حَيْثُ حَجْمُهُ وَعَدَدُ مَوْضُوعَاتِهِ، فَهَذَا الْقِسْمُ يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ مَوْضُوعًا مُتَنَاسِبَةً مِنْ حَيْثُ الْحَجْمُ، وَجَعَلْتُ لِكُلِّ مِنْهَا عُنْوَانًا خَاصًّا يُرْشِدُ إِلَى مَضْمُونِهِ.
- وَأَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنِّي عَمَلِي هَذَا وَسَائِرَ أَعْمَالِي، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ وَيُبَارِكَ فِيهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

فَضْلُ الدُّعَاءِ

الدُّعَاءُ شأنُهُ في الإسلام عظيم، ومكانتُهُ فيه سامية، ومنزلتُهُ منه عالية؛ إذ هو أجلُّ العبادات، وأعظمُ الطاعات، وأنفعُ القُرْبَاتِ؛ ولهذا جاءتِ النصوصُ الكثيرةُ في كتابِ الله تعالى وسُنَّةِ رسوله ﷺ المبيِّنةُ لفضله، والمُنوِّهةُ بمكانتِهِ وعِظَمِ شأنِهِ، والمرغِّبةُ فيه، والحائِثةُ عليه، وقد تَنَوَّعتْ دَلَالَاتُ هذه النصوصِ المبيِّنةِ لفضل الدعاء؛ فجاءَ في بعضها الأمرُ به والحثُّ عليه، وفي بعضها التحذيرُ مِنْ تَرْكِهِ والاستكبارِ عنه، وفي بعضها ذِكْرُ عِظَمِ ثوابِهِ وكِبَرِ أَجرِهِ عِنْدَ الله، وفي بعضها مَدْحُ المؤمنينَ لقيامهم به، والثناءُ عليهم بتكميلِهِ، وغيرُ ذلك مِنْ أنواعِ الدَّلَالَاتِ في القرآنِ الكريمِ على عِظَمِ فضلِ الدعاء.

بل إنَّ اللهَ سبحانه قد افتتَحَ كتابَهُ الكريمَ بالدعاء واختتمَهُ به، فسورةُ «الحَمْدِ» التي هي فاتحةُ القرآنِ الكريمِ، مشتملةٌ على دعاءِ الله بأجلِّ المطالب، وأكملِ المقاصد، ألا وهو سؤالُ الله ﷻ الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيم والإعانةَ على عبادته، والقيامَ بطاعَتِهِ سبحانه، وسورةُ «الناسِ» التي هي خاتمةُ القرآنِ الكريمِ، مشتملةٌ على دعاءِ الله سبحانه، وذلك بالاستعاذةَ به سبحانه مِنْ شرِّ الوسواسِ الخَنَاسِ، الذي يُوسِسُ في صدورِ الناسِ، مِنْ الجِنَّةِ والناسِ. وما مِنْ ريبٍ أنَّ افتتاحَ القرآنِ الكريمِ بالدعاء واختتامَهُ به دليلٌ على عِظَمِ شأنِ الدعاء، وأنَّه رُوحُ العباداتِ ولُبُّها.

بل إنَّ اللهَ جل وعلا سَمَّى الدعاءَ في القرآنِ عبادةً في أكثرَ مِنْ آيةٍ؛ ممَّا يدلُّ على عِظَمِ مكانتِهِ؛ كقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وكقوله

فيما حكاه عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاغْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨﴾ فَلَمَّا اغْتَرَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿مريم﴾، ونحوها مِنَ الآيات، وسمى سبحانه الدعاء دينًا؛ كما في قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، ونحوها من الآيات.

وهذا كله يُبين لنا عِظَمَ شأنِ الدعاء، وأنه أساسُ العبودية وروحها، وعُنْوَانُ التذللِ والخضوعِ والانكسارِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ، وإظهارِ الافتقارِ إليه؛ ولهذا حثَّ الله عباده عليه، ورغَّبهم فيه في آي كثيرة مِنَ القرآن الكريم؛ يقول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَدِبِينَ ۝٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿الأعراف﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وأخبر سبحانه - مُرَغَّبًا عباده في الدعاء - بأنه قريبٌ منهم؛ يُجِيبُ دعاءهم، وَيُحَقِّقُ رجاءهم، ويعطيهم سُؤْلهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ولهذا، فإنَّ العبدَ كُلَّمَا عَظُمَتْ معرفتهُ بالله، وقَوِيَتْ صلتهُ به، كان دعاؤه له أعظمَ، وانكسارهُ بين يديه أشدَّ؛ ولهذا كان أنبياءُ الله ورُسُلُهُ أعظمَ الناس تحقيقًا للدعاء وقيامًا به في أحوالهم كُلِّها وشؤونهم جميعها، وقد أثنى الله عليهم بذلك في القرآن الكريم، وذكرَ جملةً مِنْ أَدْعِيَتِهِمْ في أحوالٍ متعدِّدة، ومناسباتٍ متنوِّعة؛ قال تعالى في وصفهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومن أَدْعِيَةِ الأنبياء: ما ذكَّره اللهُ عن نبيه إبراهيم عليه السلام؛ حيث قال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٩﴾

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ [إبراهيم].

وذكر سبحانه دعاء نبيه ﷺ عندما سأل ربه أن ينصره على قومه الذين كذبوه وعادوه؛ فقال سبحانه: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ يَجْعَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ [القمر].

وذكر سبحانه دعاء نبيه أيوب ﷺ عندما مَسَّهُ الضُّرُّ؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعِدْنَا وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٣﴾ [الأنبياء].

وذكر دعاء نبيه يونس ﷺ عندما التَقَمَهُ الْحُوتُ، فدعا ربه وهو في جوف الحوت في قعر البحر، واستجاب الله دعاءه؛ فقال سبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء].

وهكذا من يتأمل القرآن الكريم يجد فيه من أدعية الأنبياء وسؤالهم ربهم واطراحهم بين يديه في جميع أحوالهم - عليهم صلوات الله وسلامه - شيئاً كثيراً.

وكما أنه سبحانه وصف الأنبياء بالدعاء، ونعتهم به، وأثنى عليهم بتحقيقه، فقد وصف بذلك سبحانه المؤمنين الصادقين، وعباد الله الصالحين؛ قال تعالى: ﴿لَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١١﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ [السجدة].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال سبحانه في وصف أهل الجنة عندما يدخلونها بسلام آمنين: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس].

فالدُّعَاءُ هو رُوحُ هذا الدِّينِ، وزادُ المؤمنينَ المتَّقِينَ، وعُنْوَانُ التَّذَلُّلِ والخضوعِ لربِّ العالمين، جعلنا الله وإياكم من أهلِهِ المحقِّقين له؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مجيبٌ.



مِنْ أَدَلَّةِ السُّنَّةِ عَلَى فَضْلِ الدُّعَاءِ وَذِكْرِ ضَابِطٍ فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ

تَقَدَّمَ معنا فضل الدعاء مِنْ خلالِ عرضِ جملةٍ مِنْ نصوصِ القرآنِ الكريمِ الدَّالَّةِ على عِظَمِ فضلهِ وجلالةِ شأنه، وفيما يلي ذِكرُ جملةٍ مِنْ نصوصِ السُّنَّةِ الدَّالَّةِ على فضلِ الدعاء، وكثرةِ عوائدهِ وثَمَارِهِ وفوائدهِ، والسُّنَّةِ مليئةٌ بالنصوصِ المشتملةِ على الحثِّ على الدعاء، وبيانِ فضلهِ، وعِظَمِ ثوابِهِ وأجرِهِ عند الله.

فَمِنْ ذَلِكَ ما ثَبَتَ في السننِ، عن النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)، ثُمَّ قرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ^(١)، فَدَلَّ ذَلِكَ على عِظَمِ شَأْنِ الدعاء، وَأَنَّهُ أَرْفَعُ أَنْواعِ العبادةِ وأفضلُها.

وقد روى الحاكمُ بإسنادِ حسنٍ، عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه مرفوعاً: (أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ)، وقرأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ^(٢).

وروى الترمذي وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ) ^(٣).

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٦٧/٤)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٢٤٧)، و«الأدب المفرد» رقم (٧١٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (١٧٥٧).

(٢) «المستدرک» (٤٩١/١)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٧٩).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣٦٢/٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٧٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٢٩)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٧٠)، و«المستدرک» (٤٩٠/١)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٤٩).

ففي هذه الأحاديث دلالة على فضل الدعاء، وعظيم كَرَمِهِ عند الله، ورفيع مكانته مِنَ العبادة، وأنه رُوحُها ولُبُّها وأفضلُها، وإنَّما كان ذلك كذلك لأُمُورٍ عديدةٍ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْعِلْمِ:

• منها: أَنَّ الدُّعَاءَ فِيهِ التَّضَرُّعُ إِلَى اللَّهِ، وإظهارُ الضَّعْفِ والحاجةِ إِلَيْهِ سبحانه.

• ومنها: أَنَّ الْعِبَادَةَ كُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ فِيهَا أَخْشَعَ، وَالْفِكْرُ فِيهَا حَاضِرًا، فَهِيَ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ، والدُّعَاءُ أَقْرَبُ الْعِبَادَاتِ إِلَى حَصُولِ هَذَا الْمَقْصُودِ، فَإِنَّ حَاجَةَ الْعَبْدِ تَدْفَعُهُ إِلَى الْخُشُوعِ وَحُضُورِ الْقَلْبِ.

• ومنها: أَنَّ الدُّعَاءَ مَلَاذِمٌ لِلتَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ؛ فَإِنَّ التَّوَكُّلَ هُوَ الْاعْتِمَادُ بِالْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ وَالثِّقَةُ بِهِ فِي حَصُولِ الْمَحْبُوبَاتِ وَانْدِفَاعِ الْمَكْرُوهَاتِ، والدُّعَاءُ يَقْوِيهِ، بَلْ يُعَبِّرُ عَنْهُ وَيُصَرِّحُ بِهِ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ يَعْلَمُ ضَرُورَتَهُ التَّامَّةَ إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ أُمُورَهُ جَمِيعَهَا بِيَدِهِ، فَيَطْلُبُهَا مِنْ رَبِّهِ رَاجِيًا لَهُ وَاثِقًا بِهِ، وَهَذَا هُوَ رُوحُ الْعِبَادَةِ^(١)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُبَيِّنُ عِظَمَ قَدْرِ الدُّعَاءِ وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ. عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُنَبِّهَ إِلَى أَنَّ هَذَا لَا يَغْنِي تَفْضِيلَ الدُّعَاءِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ مُطْلَقًا، بَلْ جِنْسُ الذِّكْرِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ مِنْ حَيْثُ النَّظَرُ إِلَى كُلِّ مِنْهُمَا مُجَرَّدًا، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنَ الذِّكْرِ، وَالذِّكْرُ أَفْضَلُ مِنَ الدُّعَاءِ، هَذَا مِنْ حَيْثُ النَّظَرُ إِلَى الْكُلِّ مُجَرَّدًا، وَقَدْ يَعْزِضُ لِلْمَفْضُولِ مَا يَجْعَلُهُ أَوْلَى مِنَ الْفَاضِلِ^(٢).

❏ وَهَذَا بَابٌ شَرِيفٌ مِنَ الْعِلْمِ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُدْرِكَهُ، وَأَنْ يَعْنِيَ بِفَهْمِهِ تَمَامَ الْعِنَايَةِ؛ لِيُذْرِكَ الْأَفْضَلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ، وَلِيَحُورَ عَلَى الْأَكْمَلِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ وَطَاعَتِهِ لِمَوْلَاهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ ضَابِطًا دَقِيقًا لِلتَّفَاضُلِ بَيْنَ الْعِبَادَاتِ وَتَنَوُّعِ ذَلِكَ بِحَسَبِ أَجْنَاسِ

(١) انظر: «مجموع الفتاوى»، و«اقتناص الأوابد» لابن سعدي (ص ٤٦).

(٢) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص ١٨٧).

العباداتِ وأوقاتها واختلافِ أمكتتها واختلافِ القدرة على القيام بها ونحو ذلك، وعلى ضوءه يُدْرِكُ المسلمُ الأفضلَ له بِحَسَبِ تلكِ الاعتبارِ المشارِ إليها.

قال ﷺ: «إِنَّ الْأَفْضَلَ يَتَنَوَّعُ: تَارَةً بِحَسَبِ أَجْنَاسِ الْعِبَادَاتِ، كَمَا أَنَّ جِنْسَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الْقِرَاءَةِ، وَجِنْسَ الْقِرَاءَةِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الذِّكْرِ، وَجِنْسَ الذِّكْرِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ.

وَتَارَةً يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ، كَمَا أَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالذِّكْرَ وَالِدُّعَاءَ بَعْدَ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ هُوَ الْمَشْرُوعُ دُونَ الصَّلَاةِ.

وَتَارَةً بِاخْتِلَافِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرِ، كَمَا أَنَّ الذِّكْرَ وَالِدُّعَاءَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ هُوَ الْمَشْرُوعُ دُونَ الْقِرَاءَةِ، وَكَذَلِكَ الذِّكْرُ وَالِدُّعَاءُ فِي الطَّوَافِ مَشْرُوعٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ فِي الطَّوَافِ، فَفِيهَا نِزَاعٌ مَعْرُوفٌ.

وَتَارَةً بِاخْتِلَافِ الْأَمَكَةِ، كَمَا أَنَّ الْمَشْرُوعَ بِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَعِنْدَ الْجِمَارِ وَعِنْدَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ هُوَ الذِّكْرُ وَالِدُّعَاءُ دُونَ الصَّلَاةِ وَنَحْوَهَا، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ لِلْوَارِدِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ لِلْمُقِيمِينَ بِمَكَّةَ أَفْضَلُ.

وتارة باختلافِ مَرْتَبَةِ جِنْسِ الْعِبَادَةِ، فَالْجِهَادُ لِلرِّجَالِ أَفْضَلُ مِنَ الْحَجِّ، وَأَمَّا النِّسَاءُ فَجِهَادُهُنَّ الْحَجُّ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَزَوِّجَةُ طَاعَتُهَا لَزَوْجِهَا أَفْضَلُ مِنْ طَاعَتِهَا لِأَبْوَيْهَا، بِخِلَافِ الْأَيِّمَةِ، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ بِطَاعَةِ أَبْوَيْهَا.

وَتَارَةً يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ قُدْرَةِ الْعَبْدِ وَعَجْزِهِ، فَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْعِبَادَاتِ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ مِمَّا يَعْجِزُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ جِنْسُ الْمَعْجُوزِ عَنْهُ أَفْضَلَ، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ يَغْلُو فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَيَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ.

فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى أَنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ أَفْضَلَ فِي حَقِّهِ لِمُنَاسَبَةِ لَهُ، وَلِكُونِهِ أَنْفَعَ لِقَلْبِهِ، وَأَطْوَعَ لِرَبِّهِ، يَرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَفْضَلَ لَجَمِيعِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ. وَاللَّهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَجَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، وَهَادِيًا لَهُمْ، يَأْمُرُ كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُ، فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا لِلْمُسْلِمِينَ، يَقْصِدُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُ.

وبهذا تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ تَطَوُّعُهُ بِالْعِلْمِ أَفْضَلَ لَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ تَطَوُّعُهُ بِالْجِهَادِ أَفْضَلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ تَطَوُّعُهُ بِالْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ كَالصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ أَفْضَلَ لَهُ^(١)، وَالْأَفْضَلُ الْمَطْلُوقُ مَا كَانَ أَشْبَهَ بِحَالِ النَّبِيِّ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٢). اهـ.

وهو - كما ترى - مُسْتَمِلٌ عَلَى تَحْقِيقِ مُتَقَنٍّ، وَتَأْصِيلِ وَافٍ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ لِمَنْ أَرَادَ لِنَفْسِهِ الْأَفْضَلَ وَالْأَكْمَلَ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَحَاصِلُهُ: أَنَّ الْأَفْضَلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ هُوَ مَرَاعَاةُ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْحَالِ وَالِاسْتِغَالُ بِوَاجِبِ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوُضُوعِهِ وَمُقْتَضَاهُ، فَبِذَلِكَ يُدْرِكُ الْمُسْلِمُ الْكَمَالَ، وَيُظَفِّرُ بِالْأَفْضَلِ وَالْأَكْمَلِ.

❦ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ الْأَعْمَالَ الْمَتَسَاوِيَةَ فِي الْجِنْسِ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّعْظِيمِ لَشَرْعِهِ، وَقَصْدِ وَجْهِهِ بِالْعَمَلِ تَفَاضُلًا لَا يَحْصِيهِ وَلَا يَحِيطُ بِهِ إِلَّا اللَّهُ.

فَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَهْدِيَنَا جَمِيعًا إِلَى أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ، لَا يَهْدِي إِلَى أَحْسَنِهَا إِلَّا هُوَ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا جَمِيعًا الْإِخْلَاصَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.



(١) وَمِنْ لَطِيفٍ مَا يُذَكِّرُ فِي هَذَا الْبَابِ مَا أوردته الذهبية في «سير أعلام النبلاء» (١١٤/٨) فِي تَرْجُمَةِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ الْعُمَرِيَّ الْعَابِدَ كَتَبَ إِلَى الْإِمَامِ مَالِكٍ يَحْضُهُ عَلَى الْإِنْفِرَادِ وَالْعَمَلِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ الْأَعْمَالَ كَمَا قَسَمَ الْأَرْزَاقَ، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرُ فُتِحَ لَهُ فِي الْجِهَادِ، فَنَشَرَ الْعِلْمَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْبِرِّ، وَقَدْ رَضِيتُ بِمَا فُتِحَ لِي، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيهِ بِدُونِ مَا أَنْتَ فِيهِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ كَلَانَا عَلَى خَيْرٍ وَبَرٍّ».

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٢٧ - ٤٢٩).

وَمِنْ فَضَائِلِ الدُّعَاءِ

لا يزال الحديث موصولاً بذكر الأدلة على فضل الدعاء، من خلال ما ورد من ذلك في سنة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وقد مر معنا طرف من هذه الأحاديث؛ منها قوله ﷺ: (لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ ﷻ مِنَ الدُّعَاءِ)^(١)، وهو دالٌّ على كرم الدعاء وعظم مكانته عند الله؛ وذلك أن الدعاء هو العبادة، وهو لبها وروحها، والعبادة هي الغاية التي خلق الخلق لأجلها، وأوجدوا لتحقيقها، وأكرمها عند الله هو الدعاء، كما تقدّم.

*** ومما ورد في فضل الدعاء في السنة:** ما رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم، بإسناد جيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ لَمْ يَدْعُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ غَضِبَ عَلَيْهِ)^(٢). وهذا فيه دليل على حب الله للدعاء، وحبّه سبحانه لعبده الذي يدعوه؛ ولذا فإنه سبحانه يَغْضَبُ مِنْ عبده إذا ترك دعاءه، ولا ريب أن هذا فيه «دليل على أن الدعاء من العبد لربه من أهم الواجبات، وأعظم المفروضات؛ لأنّ تجنّب ما يَغْضَبُ اللَّهُ منه لا خلاف في وجوبه»^(٣)، وقد سبق ذكر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو يدلُّ على أن ترك العبد دعاء ربه يعدُّ من الاستكبار، وتجنّب ذلك لا شك في وجوبه.

(١) تقدّم تخريجه (ص ٢٦٥).

(٢) «المسند» (٤٤٣/٢، ٤٧٧)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٧٣)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٢٧)، وقال ابن كثير عن إسناده: «هذا إسناد لا بأس به». «التفسير» (٩٢/٤)، وحسنه

الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٦٥٤).

(٣) «تحفة الذاكرين» للشوكاني (ص ٢٨).

* وَمِمَّا وَرَدَ أَيْضًا فِي فَضْلِ الدُّعَاءِ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ»، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْقُوفًا، وَالتَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ»، عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْفُوعًا، قَالَ: (أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ، وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخَلَ بِالسَّلَامِ)^(١)، فَالدُّعَاءُ أَمْرُهُ يَسِيرٌ جَدًّا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، فَهُوَ لَا يَتَطَلَّبُ جَهْدًا عِنْدَ الْقِيَامِ بِهِ، وَلَا يَلْحَقُ الدَّاعِيَ بِسَبَبِهِ تَعَبٌ وَلَا مَشَقَّةٌ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الْعَجْزَ عَنْهُ وَالتَّوَانِي فِي آدَائِهِ هُوَ أَشَدُّ الْعَجْزِ، وَحَرِيٌّ بِمَنْ عَجَزَ عَنْهُ - مَعَ يُسْرِهِ وَسَهُولَتِهِ - أَنْ يَعِجْزَ عَنْ غَيْرِهِ، وَلَا يَعِجْزَ عَنِ الدُّعَاءِ إِلَّا دَنِيُّ الْهَمَّةِ، ضَعِيفُ الْإِيمَانِ.

* وَمِمَّا جَاءَ فِي فَضْلِ الدُّعَاءِ: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَا يَرُدُّ الْقَدَرُ إِلَّا الدُّعَاءُ)^(٢)؛ فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَدْفَعُ بِالدُّعَاءِ مَا قَدْ قَضَاهُ عَلَى الْعَبْدِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيثٌ عَدِيدَةٌ، وَحَاصِلُ مَعْنَاهَا: أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ إِذْ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ يَقْضِي بِالْأَمْرِ عَلَى عَبْدِهِ قَضَاءً مُقَيَّدًا بِأَلَّا يَدْعُوهُ، فَإِذَا دَعَاهُ انْدَفَعَ عَنْهُ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، خِلَافًا لِبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ، الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الدُّعَاءَ لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي حَصُولِ مَطْلُوبٍ، وَلَا دَفْعِ مَرْهُوبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مَجْرَدُ عِبَادَةٍ مُحَضَّضَةٍ، وَأَنَّ مَا حَصَلَ بِهِ يَحْصُلُ بَدُونِهِ، وَلَا يَقُولُ هَذَا مَنْ عَرَفَ قَدْرَ الدُّعَاءِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ النَّاسُ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِعَانَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَمَنْ قَالَ: أَنَا لَا أَدْعُو وَلَا أَسْأَلُ اتِّكَالًا عَلَى الْقَدَرِ، كَانَ مَخْطُئًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدُّعَاءَ وَالسُّؤَالَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يُنَالُ بِهَا مَغْفِرَتُهُ وَرَحْمَتُهُ وَهَدَاهُ وَنَصْرُهُ وَرِزْقُهُ، وَإِذَا قَدَّرَ لِلْعَبْدِ خَيْرًا يَنَالُهُ بِالدُّعَاءِ، لَمْ يَحْصُلْ بَدُونِ الدُّعَاءِ، وَمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَعَلِمَهُ مِنْ أَحْوَالِ الْعِبَادِ وَعَوَاقِبِهِمْ، فَإِنَّمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ بِأَسْبَابٍ يَسُوقُ الْمَقَادِيرَ إِلَى

(١) «الأدب المفرد» رقم (١٠٤٢)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٤٤٩٨)، و«المعجم الأوسط» رقم (٥٥٩١)، وصحَّح الألباني الموقوف والمرفوع. «الصحيحة» رقم (٦٠١).

(٢) «المسند» (٢٨٠/٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٩٠)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٤).

المواقيت؛ فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات»^(١).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أَسَاسُ كُلِّ خَيْرٍ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَتَيَقَّنْ حِينَئِذٍ أَنَّ الْحَسَنَاتِ مِنْ نِعَمِهِ، فَتَشْكُرْهُ عَلَيْهَا، وَتَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَقْطَعَهَا عَنْكَ، وَأَنَّ السَّيِّئَاتِ مِنْ خِذْلَانِهِ وَعَقُوبَتِهِ، فَتَبْتَهِلَ إِلَيْهِ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا، وَلَا يَكِلَكَ فِي فِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَتَرْكِ السَّيِّئَاتِ إِلَى نَفْسِكَ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَى أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فَأَصْلُهُ بِتَوْفِيقِ اللهِ لِلْعَبْدِ، وَكُلَّ شَرٍّ فَأَصْلُهُ خِذْلَانُهُ لِعَبْدِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنَّ التَّوْفِيقَ أَنْ لَا يَكِلَكَ اللهُ إِلَى نَفْسِكَ، وَأَنَّ الْخِذْلَانَ هُوَ أَنْ يَخْلِيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ، فَإِذَا كَانَ كُلُّ خَيْرٍ فَأَصْلُهُ التَّوْفِيقُ، وَهُوَ بِيَدِ اللهِ لَا بِيَدِ الْعَبْدِ؛ فَمِفْتَاحُهُ الدُّعَاءُ وَالِافْتِقَارُ وَصِدْقُ اللَّجَأِ وَالرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ إِلَيْهِ، فَمَتَى أُعْطِيَ الْعَبْدُ هَذَا الْمِفْتَاحَ، فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ، وَمَتَى أَضَلَّهُ عَنِ الْمِفْتَاحِ، بَقِيَ بَابُ الْخَيْرِ مُرْتَجًا دُونَهُ... وَمَا أُتِيَ مَنْ أُتِيَ إِلَّا مِنْ قَبْلِ إِضَاعَةِ الشُّكْرِ وَأَهْمَالِ الْإِفْتِقَارِ وَالِدُّعَاءِ، وَلَا ظَفَرَ مَنْ ظَفَرَ - بِمَشِيئَةِ اللهِ وَعَوْنِهِ - إِلَّا بِقِيَامِهِ بِالشُّكْرِ وَصِدْقِ الْإِفْتِقَارِ وَالِدُّعَاءِ» اهـ^(٢).

❦ إِنَّ حَاجَةَ الْمُسْلِمِ إِلَى الدُّعَاءِ مَاسَّةٌ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا، وَضُرُورَتُهُ إِلَيْهِ مُلِحَّةٌ فِي شُؤُونِهِ جَمِيعِهَا، وَقَدْ ضَرَبَ أَحَدُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِحَالِ الْمُسْلِمِ مَعَ الدُّعَاءِ مَثَلًا بَدِيعًا، تَسْتَبِينُ بِهِ شِدَّةَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَيُظْهِرُ بِهِ عِظَمَ ضُرُورَتِهِ إِلَيْهِ؛ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ «الزَّهْدِ»، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: قَالَ مُورِقٌ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا وَجَدْتُ لِلْمُؤْمِنِ مَثَلًا إِلَّا رَجُلًا فِي الْبَحْرِ عَلَى خَشْبَةٍ، فَهُوَ يَدْعُو: يَا رَبُّ يَا رَبُّ، لَعَلَّ اللهَ عَجَّلَ أَنْ يُنْجِيَهُ»^(٣).

وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ بِصَدَقٍ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ، وَأَكْثَرَ مِنْ سَوَالِهِ، أَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، وَحَقَّقَ رَجَاءَهُ، وَأَعْطَاهُ سُؤْلَهُ، وَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) «مجموع الفتاوى» (٦٩/٨ - ٧٠).

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص ١٢٧ - ١٢٨).

(٣) «الزهد» رقم (٣٧١).

اِفْتِقَارُ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ، وَحَاجَتُهُ إِلَى دُعَائِهِ

إِنَّ مِنْ فَضَائِلِ الدُّعَاءِ، وَدَلَائِلِ عِظَمِ شَأْنِهِ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُجِيبُهُ مِنْ عِبَادِهِ، مَعَ كَمَالِ غِنَاهُ عَنْهُمْ، وَوَعْدَ الدَّاعِينَ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ بِالْإِجَابَةِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَعَظِيمِ إِكْرَامِهِ لَهُمْ، وَإِحْسَانِهِ بِهِمْ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُخَيِّبُ عَبْدًا دَعَاهُ، وَلَا يَرُدُّ مُؤْمِنًا نَاجَاهُ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى - كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ -: (يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمُكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...)، وَقَالَ فِيهِ: (يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي سِيَاقٍ طَوِيلٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه ^(١).

وَفِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَسْأَلَهُ الْعِبَادُ جَمِيعَ مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْكُسُوفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا يَسْأَلُونَهُ الْهَدَايَةَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالتَّوْفِيقَ وَالْإِعَانَةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَوَعَدَهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ بِالْإِجَابَةِ.

وفيه أيضًا دلالة على كمالِ قُدرةِ الله سبحانه، وكمالِ مُلكِهِ، وأنَّ مُلكَهُ وخزائنه لا تَنفَدُ ولا تَنقُصُ بالعطاء، ولو أُعْطِيَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعٌ ما سألوه في مقامٍ واحدٍ، وفي ذلك حَثٌّ على الإكثارِ مِنْ سؤَالِهِ، وإنزالِ جميعِ الحوائجِ به، وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَفْرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ رَبُّكُمْ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ^(١))، وفي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ، فَلَا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ، وَلِيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ)^(٢).

وقال أبو سعيد الخُدْرِيُّ رضي الله عنه: «إِذَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ، فَارْفَعُوا فِي الْمَسْأَلَةِ؛ فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يَنْفَدُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِذَا دَعَوْتُمُ، فَاعْزَمُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُسْتَكْرَهَ لَهُ»^(٣).

وَتأملُ قولُهُ سبحانه في الحديثِ المتقدم: (لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ)؛ فَإِنَّ فِيهِ تَحْقِيقًا بِأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَنْقُصُ أَلْبَتَّةَ؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]؛ فَإِنَّ الْبَحْرَ إِذَا غُمِسَ فِيهِ إِبْرَةٌ، ثُمَّ أُخْرِجَتْ، لَمْ يَنْقُصْ مِنَ الْبَحْرِ بِذَلِكَ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ لَوْ فُرِضَ أَنَّ عَصْفُورًا شَرِبَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَنْقُصُ الْبَحْرَ أَلْبَتَّةَ، وَهُوَ سبحانه إِذَا أَرَادَ شَيْئًا مِنْ عَطَاءٍ أَوْ عَذَابٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]؛

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٦٨٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٩٣).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٣٣٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٩) واللفظ لمسلم.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢١/٦، ٤٧) مفرقًا.

فكيف يُتَصَوَّرُ فيمن هذا شأنه أَنْ يَنْقُصَ ما عنده أو يَنْفَدَ، ولقد أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

لَا تَخْضَعَنَّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى طَمَعٍ فَإِنَّ ذَاكَ مُضِرٌّ مِنْكَ بِالْذِّينِ
وَاسْتَرْزِقِ اللَّهَ مِمَّا فِي خَزَائِنِهِ فَإِنَّمَا هِيَ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ^(١)

إِنَّ الْعَبْدَ محتَاجٌ إلى الله في كلِّ شؤونه، ومفتقرٌ إليه في جميع حاجاته، لا يستغني عن ربِّه ومولاه طَرْفَةَ عَيْنٍ ولا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ، وأما الربُّ سبحانه، فَإِنَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، لا حاجةَ له بطاعاتِ العبادِ ودَعَوَاتِهِمْ، ولا يعودُ نفعُها إليه، وإِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يَتَنَفَعُونَ بِهَا، ولا يَتَضَرَّرُ بِمَعَاصِيهِمْ، وإِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يَتَضَرَّرُونَ بِهَا؛ ولهذا قَالَ سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥﴾ إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿فاطر﴾، وقال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَعَنُوكُمْ لَعْنَةً حَمِيدَةً [إبراهيم]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرة.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مع كمالِ غِنَاهُ عن عبادِهِ، وعن طاعاتِهِمْ ودَعَوَاتِهِمْ، وتَوْبَاتِهِمْ - فَإِنَّهُ يُحِبُّ سَمَاعَ دَعَاءِ الدَّاعِينَ الْمُحِبِّينَ^(٢)، ورؤيةَ عِبَادَةِ الْعَابِدِينَ الْمُطِيعِينَ، وَيَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ الْمُتَنَبِّئِينَ، بل إِنَّهُ سبحانه يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ أَشَدَّ مِنْ فَرَحٍ مَنْ ضَلَّتْ راحِلَتُهُ التي عليها طَعَامُهُ وشرابُهُ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَطَلَبَهَا حَتَّى أَيْسَ مِنْهَا، وَاسْتَسْلَمَ لِلْمَوْتِ، ثُمَّ غَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، فَنَامَ وَاسْتَيْقَظَ، وَهِيَ قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، وَهَذَا أَعْلَى مَا يَتَصَوَّرُهُ الْمَخْلُوقُ مِنَ الْفَرَحِ، فَاللَّهُ سبحانه يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ أَشَدَّ مِنْ فَرَحِ هَذَا بَلْقِيَاهُ لراحِلَتِهِ، هَذَا مع غِنَاهُ سبحانه

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٢١٤ - ٢١٨) والصَّوابُ أَنْ يُقَالَ: بَعْدَ الْكَافِ وَالنُّونِ.

(٢) أي: الْمُطْمَئِنِّينَ الْخَاشِعِينَ؛ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: «أَحَبَّتْ إِلَى رَبِّهِ: إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَقَالَ الْفَرَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخْبَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]؛ يَعْنِي: تَخَشَّعُوا لِرَبِّهِمْ، قَالَ: وَمَعْنَى الْإِخْبَاتِ الْخُشُوعُ». «تهذيب اللغة» (٢/٤٧٤).

الكاملِ عن طاعاتِ عبادِهِ وَتَوْبَاتِهِمْ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَيْهِمْ دُونَهُ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ جُودِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لِنَفْعِهِمْ، وَدَفْعِ الضَّرِّ عَنْهُمْ، فَهُوَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْرِفُوهُ وَيُحِبُّوهُ وَيَتَّقُوهُ وَيَخَافُوهُ وَيُطِيعُوهُ وَيَتَّقَرَّبُوا إِلَيْهِ، وَيُحِبُّ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ يَغْفِرُ الْخَطِيئَاتِ، وَيَجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ، وَيَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

❦ فَحَرِيٌّ بَعْدَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِ إِذَا عَرَفَ كَمَالَ رَبِّهِ وَجَلَالَهُ، وَكَرَمَهُ وَإِحْسَانَهُ، وَفَضْلَهُ وَجُودَهُ: أَنْ يُنْزَلَ بِهِ جَمِيعَ حَاجَاتِهِ، وَأَنْ يُكْثَرَ مِنْ دُعَائِهِ وَمَنَاجَاتِهِ، وَأَلَّا يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ، وَلَا يَيْأَسَ مِنْ رَوْحِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.

فَاللَّهُمَّ وَفَّقْنَا لِهَذَاكَ، وَأَعِنَّا عَلَى طَاعَتِكَ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ

عَيْنٍ.



إِجَابَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِلدَّاعِينَ

لا يزال الحديث ماضياً بنا عن بيان مكانة الدعاء وفضله، ورفعة شأنه عند الله تبارك وتعالى؛ فإن من فضل الدعاء: أَنَّ الله تبارك وتعالى وَعَدَ مَنْ دَعَاهُ أَنْ يَجِيبَ دَعَاءَهُ، وَيُحَقِّقَ رَجَاءَهُ، وَيُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وهذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أَنَّهُ نَدَبَ عِبَادَهُ إِلَى دَعَائِهِ، وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، وَأَحَبَّ مِنْهُمْ أَنْ يُكْثِرُوا مِنْ دَعَائِهِ وَسُؤَالِهِ، كَمَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مَنْ أَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهُ، وَيَا مَنْ أَبْعَضَ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبِّ»؛ رواه ابن أبي حاتم وغيره^(١).

لقد ثَبَتَ عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في الترغيب في الدعاء ببيان أَنَّ الله تبارك يُعْطِي السَّائِلِينَ، وَيُجِيبُ الدَّاعِينَ، وَلَا يُخَيِّبُ رَجَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ كَرِيمٌ، أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَرُدَّ مَنْ دَعَاهُ، أَوْ يُخَيِّبَ مَنْ نَاجَاهُ، أَوْ يَمْنَعَ مَنْ سَأَلَهُ.

روى أبو داود، والترمذي، وغيرهما، عن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: (إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مَنْ عَبَدَهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)^(٢)؛ أي: خاليتين.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨٥/٤).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (١٤٨٨)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٥٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٥)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٧٦)، بإسناد جَوْدَةُ الْحَافِظِ فِي «فتح الباري» (١٤٣/١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٧٥٣).

وفي حديث النزول الإلهي يقول ﷺ: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)^(١)، وهو حديث متواتر، رواه عن النبي ﷺ جمع من الصحابة، بلغ عددهم ثمانية وعشرين صحابياً.

وجاء في الحديث القدسي في بيان منزلة أولياء الله المتقين عند الله، أَنَّ الله تبارك وتعالى يقول: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ...); رواه الإمام البخاري في «صحيحه»^(٢).

إنَّ هذه الأحاديث وما جاء في معناها تدلُّ أبين دَلَالَةٍ على أَنَّ الله تبارك وتعالى لا يَرُدُّ مَنْ سَأَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يُخَيِّبُ مَنْ رَجَاهُ، لَكِنْ قَدْ اسْتَشْكَلَ هَذَا كَمَا ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ بَأَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعُبَادِ وَالصُّلَحَاءِ دَعَوْا وَبَالِغُوا، وَلَمْ يُجَابُوا، قَالَ ﷺ: «وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْإِجَابَةَ تَتَنَوَّعُ؛ فَتَارَةً يَقَعُ الْمَطْلُوبُ بَعِينَهُ عَلَى الْفُورِ، وَتَارَةً يَقَعُ وَلَكِنْ يَتَأَخَّرُ لِحِكْمَةٍ، وَتَارَةً قَدْ تَقَعُ الْإِجَابَةُ، وَلَكِنْ بَغَيْرِ عَيْنِ الْمَطْلُوبِ، حَيْثُ لَا يَكُونُ فِي الْمَطْلُوبِ مَصْلَحَةٌ نَاجِزَةٌ، وَفِي الْوَاقِعِ مَصْلَحَةٌ نَاجِزَةٌ، أَوْ أَصْلَحُ مِنْهَا»^(٣)، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ كُلَّ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ، لَكِنْ تَتَنَوَّعُ الْإِجَابَةُ؛ فَتَارَةً تَقَعُ بَعِينِ مَا دَعَا بِهِ، وَتَارَةً بَعُوضٍ»^(٤)، وَقَدْ وَرَدَ فِي هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ ﷺ أَحَادِيثٌ عَدِيدَةٌ؛ مِنْهَا: مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَفَعَهُ: (مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا،

(١) رواه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٥٠٢).

(٣) «فتح الباري» (١١/٣٤٥).

(٤) «فتح الباري» (١١/٩٥ - ٩٦).

أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا^(١).

وروى الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم، وغيرهم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِيْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»، قالوا: يا رسول الله، إِذَا نَكَّرَ، قَالَ: (اللَّهُ أَكْثَرُ)^(٢).

فقد أَخْبَرَ الصَّادِقُ المصْدُوقُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الدَّعْوَةِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْعُدْوَانِ مِنْ إِعْطَاءِ السُّؤْلِ مُعَجَّلًا، أَوْ مِثْلِهِ مِنَ الْخَيْرِ مُوَجَّلًا، أَوْ يَصْرِفُ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ؛ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ إِجَابَةَ الدَّاعِي فِي سُؤَالِهِ أَعْمُ مِنْ إِعْطَائِهِ عَيْنَ الْمَسْئُولِ.

فهذا هو جواب الاستشكال السابق، وقد ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَيْضًا جَوَابَيْنِ آخَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ إِجَابَةَ الدَّاعِي لَمْ تُضْمَنْ عَطِيَّةُ السُّؤَالِ مُطْلَقًا، وَإِنَّمَا تَضَمَّنَتْ إِجَابَةَ الدَّاعِي، وَالدَّاعِي أَعْمُ مِنَ السَّائِلِ، وَإِجَابَةُ الدَّاعِي أَعْمُ مِنْ إِعْطَاءِ السَّائِلِ، كَمَا تَقَدَّمَ مَعَنَا فِي حَدِيثِ النُّزُولِ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: (مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِبْ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ؟!)؛ فَفَرَّقَ بَيْنَ الدَّاعِي وَالسَّائِلِ، وَبَيْنَ الْإِجَابَةِ وَالْإِعْطَاءِ، لَكِنَّ الاسْتِشْكَالَ مَعَ هَذِهِ الْإِجَابَةِ قَائِمٌ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ السَّائِلَ أَيْضًا مَوْعُودٌ بِالْإِعْطَاءِ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَتَقَدَّمِ.

الجواب الثاني: أَنَّ الدَّعَاءَ فِي اقْتِضَائِهِ الْإِجَابَةَ شَأْنُهُ كَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي اقْتِضَائِهَا الْإِثَابَةَ، فَالدَّعَاءُ سَبَبٌ مُقْتَضٍ لِنَيْلِ الْمَطْلُوبِ، وَالسَّبَبُ لَهُ شُرُوطٌ وَمَوَانِعٌ، فَإِذَا حَصَلَتْ شُرُوطُهُ، وَانْتَفَتْ مَوَانِعُهُ، حَصَلَ الْمَطْلُوبُ، وَإِلَّا فَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ الْمَطْلُوبُ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالكَلِمَاتِ الطَّيِّبَةِ، وَلِلْمَوْضُوعِ صَلَةٌ.

(١) «المسند» (٣٢٩/٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٧٣)، وانظر: «فتح الباري» (٩٦/١١).

(٢) «المسند» (١٨/٣)، و«الأدب المفرد» رقم (٧١٠)، و«المستدرک» (٤٩٣/١)، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ» رَقْم (٥٤٧).

إِجَابَةُ الدُّعَاءِ مَوْقُوفَةً عَلَى تَوْفُرِ شُرُوطٍ وَأَنْتِفَاءِ مَوَانِعَ

تَقَدَّمَ معنا ذِكْرُ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وبيانُ ما فيه مِنْ دلالةٍ على إجابةِ الله لِمَنْ دعا، وتَقَدَّمَ معنا أيضًا استشكالُ بعضِ أهلِ العلمِ لذلك، بأنَّ بعضَ الداعينِ قد يدعو ويسألُ الله أمورًا قد لا يرى أَنَّهُ تَحَقُّقٌ له شيءٌ منها، أو تَحَقُّقٌ له بعضُها دون بعض، وقد أَجابَ عَنْ ذلكِ أَهلُ العلمِ بأجوبةٍ عديدةٍ، تَقَدَّمَ ذِكْرُ ثلاثةٍ منها، إِلَّا أَن أحسنَ ما قيلَ في ذلك: هو أَنَّ الدعاءَ سببٌ مقتضٍ لنيلِ المطلوبِ، ونيلُ المطلوبِ له شروطٌ وموانعٌ، فإذا حَصَلَتْ شروطُهُ وانتَفَتْ موانِعُهُ، تَحَقَّقَ المطلوبُ؛ وإِلَّا فلا، كما هو الشأنُ في جميعِ الأعمالِ الصالحةِ، والأذكارِ النافعةِ، لا تُقْبَلُ إِلَّا إذا استوفى المسلمُ شروطَها، وابتعدَ عن موانعِ قَبُولِها، أما إذا وُجِدَ المانعُ أو انتَفَى الشرطُ، فإنَّ العملَ لا يُقْبَلُ.

والشأنُ في الدعاءِ كذلك، فإنَّ الدعاءَ في نفسه نافعٌ مفيدٌ، وهو مفتاحٌ لكلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة، لكنَّه يستدعي قوَّةَ هَمَّةٍ الداعي، وصحةَ عزيمةٍ، وحُسْنَ قصْدِهِ، وبُعْدَهُ عن الأمورِ التي تمنعُ مِنَ القَبُولِ.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّه - أي: الدعاءُ - مِنْ أقوى الأسبابِ في دفعِ المكروه، وحصولِ المطلوبِ، ولكنَّه قد يَتَخَلَّفُ عنه أثرُهُ؛ إمَّا لضعفٍ في نفسه بأنَّ يكونَ دعاءً لا يُحِبُّهُ اللهُ لِمَا فيه مِنَ العُدَّوانِ، وإمَّا لضعفِ القلبِ وعدمِ إقبالِهِ على اللهِ وَجَمْعِيَّتِهِ عليه وقتَ الدعاءِ، فيكونُ بمنزلةِ القَوْسِ الرَّخْوِ جدًّا؛ فإنَّ السهمَ يخرجُ منه خروجًا ضعيفًا، وإمَّا لحصولِ المانعِ مِنَ الإجابةِ؛

مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَالظُّلْمِ، وَرَيْنِ^(١) الذُّنُوبِ عَلَى الْقُلُوبِ، وَاسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَاللَّهْوِ وَغَلَبَتِهَا عَلَيْهَا؛ كَمَا فِي «مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبُ غَافِلٍ لَاهٍ)^(٢)؛ فَهَذَا دَوَاءٌ نَافِعٌ مُزِيلٌ لِلدَّاءِ، وَلَكِنَّ غَفْلَةَ الْقَلْبِ عَنِ اللَّهِ تُبْطِلُ قُوَّتَهُ، وَكَذَلِكَ أَكْلُ الْحَرَامِ يُبْطِلُ قُوَّتَهُ وَيُضْعِفُهَا؛ كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنْ أَطْيَبَتِ رَاعِلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَتَى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!)^(٣)»^(٤).

فَأَشَارَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِلَى آدَابِ الدُّعَاءِ، وَإِلَى الْأَسْبَابِ الَّتِي تَقْتَضِي إِجَابَتَهُ، وَإِلَى مَا يَمْنَعُ مِنْ إِجَابَتِهِ. وَالْحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَظِيمَةٌ، وَإِشَارَاتٌ نَافِعَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ، سَيَأْتِي بَيَانُهَا لَاحِقًا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ مُتَوَقَّفٌ فِي قَبُولِهِ عَلَى وَجُودِ شُرُوطٍ، وَانْتِفَاءِ مَوَانِعَ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)^(٥).

(١) الرَّيْنُ: التَّغْطِيَةُ وَالطَّبْعُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ أَي: غَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَطَبَعَ عَلَيْهَا. انْظُرْ: «تَهْذِيبُ اللُّغَةِ» (٢/ ٤٣٥).

(٢) «الْمُسْنَدُ» (٢/ ١٧٧)، وَ«جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» رَقْم (٣٤٧٩)، وَ«الْمُسْتَدْرَكُ» (١/ ٤٩٣)، وَحَسَنُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (٢٤٥).

(٣) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (١٠١٥).

(٤) «الْجَوَابُ الْكَافِي» (ص ٩ - ١٠).

(٥) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْم (٦٣٤٠)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٢٧٣٥).

وَبُتَّ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْاسْتَعْجَالُ؟ قَالَ : (يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ ، وَقَدْ دَعَوْتُ ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِبْ لِي ، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَيَدْعُ الدُّعَاءَ) ^(١) .

وَفِي «الْمُسْنَدِ» - بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ - مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ : (يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي ، فَلَمْ يُسْتَجِبْ لِي) ^(٢) .

فَاسْتَعْجَالَ الْإِجَابَةُ آفَةٌ مِنَ الْآفَاتِ تَمْنَعُ تَرْتُّبَ أَثَرِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِ ، حَيْثُ إِنَّ الْمُسْتَعْجِلَ عِنْدَمَا يَسْتَبْطِئُ الْإِجَابَةَ يَسْتَحْسِرُ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ ، وَيَكُونُ بِذَلِكَ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ :- «بِمَنْزِلَةِ مَنْ بَذَرَ بَذْرًا ، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا ، فَجَعَلَ يَتَعَهُدُّهُ وَيَسْقِيهِ ، فَلَمَّا اسْتَبْطَأَ كَمَالَهُ وَإِدْرَاكُهُ تَرْكُهُ وَأَهْمَلَهُ» ^(٣) .

كَمَا أَنَّ فِي قَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمَتَقَدِّمِ : (مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ) إِشَارَةٌ أُخْرَى إِلَى مَانِعٍ مِنْ مَوَانِعِ قَبُولِ الدُّعَاءِ ، وَهُوَ أَنَّ لَا يَدْعُو الْإِنْسَانُ بِإِثْمٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوْ سُوءٍ يَلْحَقُهُ أَوْ يَلْحَقُ غَيْرَهُ ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ ، وَلَوْ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَجَابَ الْعَبْدَ فِي كُلِّ مَا يَرِيدُ وَيَطْلُبُ ، لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى وَقُوعِ مَفَاسِدَ عَدِيدَةٍ لَهُ أَوْ لغيره ؛ كَمَا قَالَ سَبَّحَانَهُ : ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يُونُسُ : ١١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ : ٧١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الْإِسْرَاءُ : ١١] .

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ النُّصُوصَ قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ مَوْقُوفَةٌ عَلَى تَحَقُّقِ شُرُوطٍ ، وَانْتِفَاءِ مَوَانِعَ ، وَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى بَعْضِهَا ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ جَمَلَةٍ مِنْهَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - .

(٢) «الْمُسْنَدُ» (٣/ ١٩٣ ، ٢١٠) .

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٢٧٣٥) .

(٣) «الْجَوَابُ الْكَافِي» (ص ١٣) .

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ

إِنَّ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْعَظِيمَةِ الْجَامِعَةِ لِذِكْرِ آدَابِ الدُّعَاءِ وَشُرُوطِهِ وَمَوَانِعِ قَبُولِهِ مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟! ^(١).

هَذَا الْحَدِيثُ يُعَدُّ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِ الرَّسُولِ ﷺ، وَقَدْ جَمَعَ فِيهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ جَمَلَةٌ طَيِّبَةٌ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ، وَشُرُوطِ قَبُولِهِ، وَالْأُمُورِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْقَبُولِ، وَقَدْ بَدَأَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْإِشَارَةِ إِلَى خَطْوَرَةِ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَأَنَّهُ مَانِعٌ مِنْ مَوَانِعِ قَبُولِ الدُّعَاءِ؛ وَمَفْهُومُ الْمَخَالَفَةِ لِذَلِكَ أَنَّ إِطَابَةَ الْمَطْعَمِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ قَبُولِ الدُّعَاءِ؛ كَمَا قَالَ وَهْبُ بْنُ مَنْبَهٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْتَجِيبَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ، فَلْيُطَبِّطْ طُعْمَتَهُ»، وَلَمَّا سُئِلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِمَ تَسْتَجِيبُ دَعْوَتَكَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «مَا رَفَعْتُ إِلَى فَمِي لُقْمَةً إِلَّا وَأَنَا عَالِمٌ مِنْ أَيْنَ مَجِيئُهَا؟ وَمِنْ أَيْنَ خَرَجَتْ؟!» ^(٢).

أَمَّا مَنْ اسْتَمَرَّ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - أَكَلَ الْحَرَامَ وَشَرِبَهُ، وَلُبَسَهُ وَالتَّغَذَّى بِهِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٨٠).

(٢) أوردهما ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٧٥).

فَإِنَّ فَعْلَهُ هَذَا يَكُونُ سَبَبًا مُوجِبًا لِعَدَمِ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ: (فَأَنْتَى يُسْتَجَابُ لِدَلِّكَ!)؛ أَي: كَيْفَ يُسْتَجَابُ لَهُ؟! فَهُوَ اسْتِفْهَامٌ وَقَعَ عَلَى وَجْهِ التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِبعادِ، وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا ارْتِكَابُ الْمَحْرَمَاتِ الْفَعْلِيَّةِ مَانِعًا مِنَ الْإِجَابَةِ، وَكَذَلِكَ تَرُكُ الْوَاجِبَاتِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «لَا تَسْتَطِيعُ الْإِجَابَةُ وَقَدْ سَدَدْتَ طُرُقَهَا بِالْمَعَاصِي»^(١).

❏ وَلِهَذَا فَإِنَّ تَوْبَةَ الْعَبْدِ إِلَى رَبِّهِ، وَيُعْذَرُهُ عَنْ مَعَاصِيهِ، وَإِقْبَالُهُ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَإِطَابَتُهُ لِمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ، وَانْكَسَارُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَذُلُّهُ وَخُضُوعُهُ لَهُ سَبْحَانَهُ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ مُوجِبَاتِ الْقَبُولِ، وَمِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وَأَضْدَادُ ذَلِكَ مِنْ مُوجِبَاتِ الرَّدِّ.

لَقَدْ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ أَرْبَعَةَ أَسْبَابٍ عَظِيمَةٍ لِقَبُولِ الدُّعَاءِ تَقْتَضِي إِجَابَتَهُ:

أَحَدُهَا: إِطَالَةُ السَّفَرِ، وَالسَّفَرُ بِمَجَرَّدِهِ يَقْتَضِي إِجَابَةَ الدُّعَاءِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ، لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ)^(٢)، وَمَتَى طَالَ السَّفَرُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى إِجَابَةِ الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّهُ مَظْنَنَةٌ حُصُولِ انْكَسَارِ النَّفْسِ بِطُولِ الْغُرْبَةِ عَنِ الْأَوْطَانِ، وَتَحْمُلِ الْمَشَاقِّ، وَالِانْكَسَارُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مُتَوَاضِعًا مُتَذَلِّلًا مُسْتَكِينًا، فَهَذَا أَيْضًا مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْإِجَابَةِ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ)^(٣).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْاسْتِسْقَاءِ،

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (٥٤/٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢٥٨/٢)، وأبو داود رقم (١٥٣٦)، والترمذي رقم (١٩٠٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٩٦)، ولفظ أحمد والترمذي: (وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ).

(٣) رواه مسلم رقم (٢٦٢٢).

قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَبَذِّلًا مُتَوَاضِعًا مُتَضَرِّعًا...»، الحديث؛ رواه أبو داود، وغيره^(١).

الثالث: مَدُّ الْيَدَيْنِ إِلَى السَّمَاءِ، وهو مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الَّتِي يُرْجَى بِسَبَبِهَا إِجَابَتُهُ؛ ففي «سنن أبي داود» وغيره، عن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: (إِنَّ اللَّهَ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ)^(٢).

الرابع: الإِلْحَاحُ عَلَى اللَّهِ بِتَكَرُّرِ ذِكْرِ رَبوبيَّتِهِ، وهو مِنْ أَعْظَمِ مَا يُطَلَّبُ بِهِ إِجَابَةُ الدُّعَاءِ، روي عن عطاءٍ أَنَّهُ قال: «ما قال عبدٌ: يا رَبِّ، يا رَبِّ ثلاث مرَّاتٍ، إِلَّا نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلْحَسَنِ، فقال: أَمَا تَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ؟ ثُمَّ تلا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ ﴿[آل عمران]»^(٣).

ولهذا، فَإِنَّ غَالِبَ الْأَدْعِيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ مُفْتَتِحَةٌ بِاسْمِ الرَّبِّ؛ ولهذا لَمَّا سُئِلَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي الدُّعَاءِ: يَا سَيِّدِي، قال: «يقول: يا رَبِّ؛ كما قالتِ الْأَنْبياءُ فِي دَعَائِهِمْ»^(٤).

فهذه أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ عَظِيمَةٍ لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ، انتَظَمَها قولُ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ الرَّجُلِ: (يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ)،

(١) «المسند» رقم (٢٣٠/١)، و«سنن أبي داود» رقم (١١٦٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٥٥٨)، و«سنن النسائي» رقم (١٥٠٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٢٦٦)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٣٣/٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٧٦). (٣) «حلية الأولياء» (٣/٣١٣).

(٤) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٩٨ - ١٠١).

ومع ذلك استَبَعَدَ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه إجابةَ دعائه؛ لأنَّ مطعمَهُ حرامٌ، وملبسَهُ حرامٌ، ومشربَهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام؛ فكيف يُستجابُ لِمَنْ كانت هذه حالُهُ؟!.

ولهذا، فليَتَّقِ اللهَ عَبْدُ الله المؤمنُ في طعامِهِ وشرابهِ وسائرِ شؤونِهِ، وليَسْتَعِزَّ باللهِ على ذلك، فالتوفيقُ بيده وحده، فنسألهُ سبحانه أن يَرْزُقَنَا الرزقَ الطَّيِّبَ الحلالَ، والدعوةَ الصالحةَ المستجابةَ، إِنَّهُ نِعَمَ المَرْجُو، ونِعَمَ المُعِين.



الدُّعَاءُ حَقٌّ خَالِصٌ لِلَّهِ

لقد مرَّ معنا قولُ النبي ﷺ: (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠])^(١)، ولا ريبَ أنَّ في هذا الحديثِ أبلغَ دَلَالَةٍ على عِظَمِ شأنِ الدعاء، وأنَّه نوعٌ مِنْ أنواعِ العبادة، ولا يخفى على كُلِّ مسلمٍ أنَّ العبادةَ حَقٌّ خَالِصٌ لله وحده، فكما أنَّ الله تبارَكَ وتعالى لا شريكَ له في الخَلْقِ والرِّزْقِ، والإحياءِ والإماتة، والتصرفِ والتدبير، فكذلك لا شريكَ له في العبادةِ بجميعِ أنواعِها، ومنها الدعاء، فَمَنْ دعا غيرَ الله ﷻ طالباً منه أمراً مِنْ الأمورِ التي لا يقدرُ عليها إلَّا الله، فقد عَبَدَ غيرَ الله، وأشْرَكَ معه غيره، والله تبارَكَ وتعالى لَمْ يَبْعَثْ رُسُلَهُ، وَلَمْ يُنْزِلْ كِتَابَهُ إِلَّا لدعوةِ الناسِ إلى الإخلاصِ في العبادةِ، والتحذيرِ مِنْ صَرْفِهَا لغيرِ الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

ولهذا، فقد تَوَاتَرَتِ الأدلَّةُ، وتضافرتِ النصوصُ في الكتابِ والسُّنَّةِ، على التحذيرِ مِنْ صرفِ الدعاءِ لغيرِ الله، والنهيِ عن ذلك، ودَمَّ فاعِلِهِ بأشدِّ أنواعِ الذمِّ، حتى صارَ ذلكَ مِنْ ضرورياتِ هذا الدِّينِ التي لا يرتابُ فيها كُلُّ مَنْ فِيهِمَ كتابُ الله وسُنَّةُ رسوله ﷺ، وقد تَنَوَّعَتِ دَلالاتُ نصوصِ القرآنِ الكريمِ

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٦٥).

المشتملة على ذلك وتكرّرت في مواطن كثيرة؛ وذلك لشدة خطورة دعاء غير الله، ولكونه أكثر أنواع الشرك وقوعاً، حتى قال بعض أهل العلم: «لا نعلم نوعاً من أنواع الكُفْرِ والرَّذَّةِ ورَدَ فيه من النصوص مثل ما وردَ في دعاء غيرِ الله بالنهي عنه، والتحذير من فعله، والوعيد عليه»^(١).

فمن هذه النصوص قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

قال الشوكاني رحمه الله في رسالة له في وجوب توحيد الله ﷻ بعد أن أورد طرفاً من هذه النصوص: «فهذه الآيات البيّنات دلّت على أن الدعاء مطلوبٌ لله ﷻ من عباده، وهذا القدر يكفي في إثبات كونه عبادة؛ فكيف إذا انضم إلى ذلك النهي عن دعاء غير الله سبحانه؛ قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ شَيْءٌ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال سبحانه ناعياً على من يدعو غيره، ضارباً له الأمثال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٢٢].

فكيف إذا صرّح القرآن الكريم بأنّ الدعاء عبادةٌ تصرّيحاً لا يَبْقَى عنده ريبٌ لمرتاب؛ قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فقد طلب الله سبحانه من عباده في هذه الآية أن يدعوه، وجعل جزاء الدعاء له منهم الإجابة منه؛ فقال:

(١) «النبذة الشريفة النفيسة في الردّ على القبوريين» للشيخ حمّد بن ناصر بن عثمان آل معمر (ص ٣٧).

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ ولهذا جزمه لكونه جواباً للأمر، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى الاستكبارِ عَنْ هذه العبادة - أعني: الدعاء - بما صَرَّحَ بِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ، وَجَعَلَ العبادةَ مَكَانَ الدُّعَاءِ؛ تَفْسِيرًا لَهُ، وَإِضَاحًا لِمَعْنَاهُ، وَبَيَانًا لِعِبَادِهِ بِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي طَلَبَهُ مِنْهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ هُوَ نَوْعٌ مِنْ عِبَادَتِهِ الَّتِي خَصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَخَلَقَ لَهَا عِبَادَةً؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ، فَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ بِمَا يَدُلُّ أَبْلَغَ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَكْمَلِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ...»^(١)، ثُمَّ ذَكَرَ ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ.

❏ إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُذَكِّرَ خَطُورَةَ الْأَمْرِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذَا حَقٌّ خَالِصٌ لِلَّهِ ﷻ لَا يَجُوزُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ فِيهِ غَيْرُهُ، وَكَيْفَ يُشْرَكَ الْمَخْلُوقُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ بِالْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِي بِيَدِهِ أَرْمَةُ الْأُمُورِ، الْمُتَفَرِّدُ بِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَكَشْفِ الْكَرُوبِ، الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَبِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، الَّذِي مَا تَعَلَّقَ بِهِ ضَعِيفٌ إِلَّا أَفَادَهُ الْقُوَّةُ، وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا أَنَالَهُ الْعِزَّةُ، وَلَا فَقِيرٌ إِلَّا أَعْطَاهُ الْغِنَى، وَلَا مُسْتَوْحِشٌ إِلَّا أَنَسَهُ، وَلَا مَغْلُوبٌ إِلَّا أَيْدَهُ وَنَصَرَهُ، وَلَا مُضْطَرٌّ إِلَّا كَشَفَ ضُرَّهُ، وَلَا شَرِيدٌ إِلَّا آوَاهُ؛ فَهُوَ سَبْحَانَهُ الَّذِي يَجِيبُ الْمَضْطَرِّينَ، وَيُغِيثُ الْمَلْهُوفِينَ، وَيُعْطِي السَّائِلِينَ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ.

وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ مَنْ صَرَفَ شَيْئًا مِنَ الدُّعَاءِ لِغَيْرِ اللَّهِ، فَهُوَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَلَوْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَوْ صَلَّى وَصَامَ؛ إِذْ شَرُطَ الْإِسْلَامَ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ، فَلْيَحْذَرُ مَنْ يَرِيدُ لِنَفْسِهِ الْفَوْزَ وَالسَّعَادَةَ مِنْ هَذَا الْإِثْمِ الْمُبِينِ، وَالْخَطَرِ الْعَظِيمِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يُجَنِّبَنَا وَالْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ، وَأَنْ يَقِينَا مِنَ الزَّلَلِ، فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.



أَهْمِيَّةُ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ فِي الدُّعَاءِ

لقد تقدّم معنا الإشارة إلى جملة من الضوابط المهمّة والشروط العظيمة التي ينبغي أن يتقيّد بها المسلم في الدعاء، وأهمّها هو: إخلاصه لله وحده لا شريك له؛ إذ الدعاء نوع من أنواع العبادة، وفرد من أفرادها، والعبادة حق لله ﷻ لا شريك له فيها، فهو سبحانه المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه؛ ولذا فإنّ أخطر جانب يُخلّ به في الدعاء هو أن يُصرف لغير الله بأن يُجعل لغيره شركة فيه، والله يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿[الأحقاف]، ويقول تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقد مضى معنا طرف منها.

وكما أنّ الدعاء يُشترط فيه إخلاصه لله ﷻ ليكون مقبولا عنده، فكذلك يُشترط فيه المتابعة للرسول الكريم ﷺ؛ إذ إنّ هذين الأمرين - أعني: الإخلاص والمتابعة - هما شرطا قبول الأعمال كلّها؛ فلا قبول لأيّ عمل من الأعمال إلّا بهما؛ كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «دين الله إخلاصه وأصوبه، قيل: يا أبا عليّ، ما إخلاصه وأصوبه؟ فقال: إنّ العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يُقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يُقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السُّنَّة»^(١).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص ٥٠ - ٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٥/٨).

وقد جاءتِ السُّنَّةُ النّبَوِيَّةُ بِالهُدَى المبين، والسَّنَنِ القويم، والصراطِ المستقيم، الذي ينبغي أن يكونَ عليه المسلم، سواءً في الدعاءِ أو في غيره من الأعمال التي يُقصدُ بها التَّقَرُّبُ إلى الله، فالسُّنَّةُ قد دَلَّتْ على جنسِ المشروع والمستحبِّ في ذكرِ الله ودعائه كسائرِ العبادات؛ فقد بيَّن النبي الكريم ﷺ لأمته ما ينبغي لهم أن يقولوه مِنْ ذِكْرِ ودعاء، في الصباح والمساء، وفي الصلواتِ وأعقابها، وعندَ دخولِ المسجد، وعندَ النَّوْمِ، وعندَ الانتباهِ منه، وعندَ الفَزَعِ فيه، وعندَ تَنَاوُلِ الطعامِ وَبَعْدَهُ، وعندَ ركوبِ الدَّابَّةِ، وعندَ السفر، وعندَ رؤيةِ ما يُحِبُّهُ المرءُ، وعندَ رؤيةِ ما يكره، وعندَ المصيبة، وعندَ الهَمِّ والحَزَنِ، أو غير ذلك مِنْ أحوالِ المسلمِ وأوقاتهِ المختلفة.

كما أنه ﷺ بيَّن مراتبَ الأذكارِ والأدعيةِ وأنواعها وشروطها وآدابها أتمَّ البيانِ وأوفاهُ وأكملَه، وتركَ أُمَّتَهُ في هذا الباب، وفي جميعِ أبوابِ الدين، على مَحَجَّةٍ بيضاءَ وطريقٍ واضحةٍ لا يَزِيغُ عنها بعدهُ إِلَّا هَالِكٌ؛ فالمشروعُ للمسلم هو أن يَذْكُرَ اللهَ بما شرَعَ، وأن يَدْعُوهُ بالأدعيةِ المأثورة؛ لأنَّ الذِّكْرَ والدُّعَاءَ عبادَةٌ، والعبادةُ مبناهَا على الاتِّباعِ للرسولِ الكريم ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «لا ريبَ أَنَّ الأذكارَ والدُّعواتِ مِنْ أَفْضَلِ العباداتِ، والعباداتُ مبناهَا على التوقيفِ والاتِّباعِ، لا على الهَوَى والابتداعِ، فالأدعيةُ والأذكارُ النّبَوِيَّةُ هي أَفْضَلُ ما يَتَحَرَّاهُ المتحرِّي مِنْ الذِّكْرِ والدُّعَاءِ، وسالكُها على سبيلِ أمانٍ وسلامة... وما سواها مِنْ الأذكارِ قد يكونُ محرَّمًا، وقد يكونُ مكروهًا، وقد يكونُ فيه شِرْكٌ ممَّا لا يَهْتَدِي إليه أَكْثَرُ الناسِ، وهي جملةٌ يطولُ تفصيلُها.

وليس لأحدٍ أن يَسُنَّ للناسِ نوعًا مِنْ الأذكارِ والأدعيةِ غيرَ المسنون، وَيَجْعَلَهَا عبادَةً راتبَةً يواظِبُ الناسُ عليها كما يُواظِبُونَ على الصلواتِ الخمس، بل هذا ابتداعٌ دينٍ لَمْ يَأْذَنْ اللهُ به، بخلافِ ما يدعو به المرءُ أحيانًا مِنْ غيرِ أن يجعلَهُ للناسِ سنَّةً، فهذا إذا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ معنى محرَّمًا لَمْ يُجْزَمْ بتحريمه، لكنْ قد يكونُ فيه ذلك، والإنسانُ لا يَشْعُرُ به، وهذا كما أَنَّ الإنسانَ

عند الضرورة يدعو بأدعية تُفْتَحُ عليه ذلك الوقت؛ فهذا وأمثاله قريب.
وأما اتِّخَاذُ وَرْدٍ غير شرعيٍّ، واستِنَانُ ذِكْرِ غير شرعيٍّ، فهذا ممَّا يُنْهَى عنه.

ومع هذا، ففي الأدعية الشرعية، والأذكار الشرعية: غاية المطالبِ الصحيحة، ونهاية المقاصدِ العَلِيَّةِ، ولا يَعْدِلُ عنها إلى غيرها مِنَ الأذكارِ المُحَدَّثَةِ المُبْتَدَعَةِ إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مَفْرُطٌ أَوْ مُتَعَدٌّ^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

ومع أَنَّ الأدعيةَ المأثورةَ مشتملةٌ على جَمَاعِ الخيرِ، وتَمَامِ الأمرِ، ونهايةِ المقاصدِ العَلِيَّةِ، وأشرفِ المطالبِ الصحيحة، إِلَّا أَنَّكَ ترى في كثيرٍ مِنَ الناسِ مَنْ يَعْدِلُ عنها، وَيَرْغَبُ في غيرها، بل وَلربَّما فَضَّلَ غيرها عليها، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يجعلُ لنفسِهِ وَرْدًا خَاصًّا قاله بعضُ الشيوخ، فيلتزمُهُ، ويحافظُ عليه، وَيُعْظِمُ مِنْ شأنِهِ، وَيُقَدِّمُهُ على الأدعيةِ المأثورة، والأورادِ الصحيحةِ الثابتةِ عن الرسولِ الكريمِ ﷺ؛ وهذا مِنْ أَشَدِّ الناسِ نكوبًا عن الجَدَّةِ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنْ أَشَدِّ الناسِ عَيْبًا مَنْ يَتَّخِذُ حِزْبًا لَيْسَ بِمَأْثُورٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنْ كَانَ حِزْبًا لِبَعْضِ الْمَشَايخِ، وَيَدْعُ الْأَحْزَابَ النَّبَوِيَّةَ الَّتِي كَانَ يَقُولُهَا سَيِّدُ بَنِي آدَمَ، وَإِمَامُ الْمُرْسَلِينَ، وَحُجَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ»^(٢).

وقال العلامةُ المُعَلِّمي رَحِمَهُ اللهُ: «... وَمَا أَخْسَرَ صَفْقَةً مَنْ يَدْعُ الْأَدْعِيَةَ الثَّابِتَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ، أَوْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَلَا يَكَادُ يَدْعُو بِهَا، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى غَيْرِهَا؛ فَيَتَحَرَّاهُ وَيُؤَاطِبُ عَلَيْهِ؛ أَلَيْسَ هَذَا مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ؟!»^(٣).

فالخيرُ كُلُّ الخيرِ في اتِّبَاعِ الرسولِ الكريمِ ﷺ، والاهْتِدَاءِ بهديه، وَتَرْسُمِ خُطَاهُ، وَلِزُومِ نَهْجِهِ، فَهُوَ الْقُدْوَةُ لِأُمَّتِهِ، وَالْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ لَهُمْ، وَقَدْ كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ ذِكْرًا لِلَّهِ، وَأَحْسَنَهُمْ قِيَامًا بِدَعَائِهِ سُبْحَانَهُ.

ولهذا فَإِنَّ مَنْ اجْتَمَعَ لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ لَزُومُ الْأَذْكَارِ النَّبَوِيَّةِ، وَالْأَدْعِيَةِ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥١٠ - ٥١١). (٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٢٣٢).

(٣) «كتاب العبادة» للمُعَلِّمي (ص ٥٢٤ - النسخة الخطية).

المأثورة، مَعَ فَهْمِ معانيها ومدلولاتها، وحضورِ القَلْبِ عِنْدَ الذِّكْرِ والدُّعَاءِ بِهَا، فَقَدْ كَمَلَ نَصِيْبُهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَعَظُمَ حُظُّهُ مِنَ السَّدَادِ.

ولهذا أَيْضًا اعْتَنَى أَهْلُ الْعِلْمِ بِجَمْعِ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ؛ لِتَكُونَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَفِي مَتَنَالِهِمْ؛ فَيَسْتَغْنَوْا بِهَا عَنِ الْأَوْرَادِ الْمُحَدَّثَةِ، وَالْأَدْعِيَةِ الْمَبْتَدَعَةِ؛ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِهِ «الدُّعَاءُ»: «هَذَا كِتَابُ أَلْفَتُهُ جَامِعًا لِأَدْعِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ حَدَّانِي عَلَى ذَلِكَ أَنِّي رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ تَمَسَّكُوا بِأَدْعِيَةِ سَجْعٍ، وَأَدْعِيَةٍ وُضِعَتْ عَلَى عَدَدِ الْأَيَّامِ مِمَّا أَلْفَهَا الْوَرَّاقُونَ، لَا تُرَوَّى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ، مَعَ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكِرَاهِيَةِ لِلْسَّجْعِ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّعَدِّيِّ فِيهِ، فَأَلْفْتُ هَذَا الْكِتَابَ بِالْأَسَانِيدِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ...»^(١)، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمِنْ الْمَوْلُفَاتِ الْجَيِّدَةِ فِي هَذَا الْبَابِ: «الْأَذْكَارُ» لِلنُّوَيْ، وَ«الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَ«الْوَابِلُ الصَّيِّبُ» لِابْنِ الْقَيْمِ؛ فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُفِيدَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْكُتُبِ الْقِيَمَةَ، الْمَبْنِيَّةَ عَلَى مَا أُثِرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَدَّعَى مَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا أَحَدَّثَهُ الْوَرَّاقُونَ، وَأَنْشَأَ الْمُتَكَلِّفُونَ، رَزَقَنَا اللَّهُ جَمِيعًا لَزُومِ السُّنَّةِ، وَاقْتِفَاءِ آثَارِ خَيْرِ الْأُمَّةِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.



التَّحْذِيرُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُحَدَّثَةِ

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ حَوْلَ أَهَمِّيَّةِ التَّقْيِيدِ بِالسُّنَّةِ فِي الدُّعَاءِ، وَضَرُورَةِ لَزُومِ هَذِي النُّبِيِّ ﷺ فِيهِ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةً، وَالْعِبَادَةَ مَبْنَاهَا عَلَى التَّوْقِيفِ وَالِاتِّبَاعِ، لَا عَلَى الْهَوَى وَالِابْتِدَاعِ، وَسَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ السُّنَّةَ قَدْ جَاءَ فِيهَا بَيَانُ الدُّعَاءِ وَجَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ بَيَانًا وَافِيًا شَافِيًا، لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ بِذِكْرِ أَنْوَاعِهِ وَشُرُوطِهِ، وَأَدَائِهِ وَأَوْقَاتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

❏ وَلِهَذَا، فَإِنَّ الْمُتَأَكَّدَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ: أَنْ يَجْتَنِّهَ فِي طَلَبِ هَذِي النُّبِيِّ ﷺ فِي الدُّعَاءِ، وَأَنْ يَحْرِصَ أَشَدَّ الْحَرَصِ عَلَى مَعْرِفَةِ سَبِيلِهِ فِيهِ؛ لِيَقْتَفِيَ آثَارَهُ، وَلِيَسِيرَ عَلَى نَهْجِهِ، وَلِيَلْزَمَ طَرِيقَتَهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَلَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَلْتَزِمَ أَدْعِيَةً رَاتِبَةً، أَوْ مُخَصَّصَةً بِأَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ بِصِفَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، سِوَى مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي سُنَّةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ، أَمَّا الْأَدْعِيَةُ الْعَارِضَةُ الَّتِي تَحْصُلُ مِنَ الْمُسْلِمِ بِسَبَبِ أُمُورٍ قَدْ تَعَرَّضَ لَهُ، فَلَهُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ مَا شَاءَ فِيمَا لَا يَتَنَافَى مَعَ الشَّرْعِ.

وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْأَذْكَارُ وَالِدُعَوَاتُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، وَالْعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى الْإِتِّبَاعِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسُنَّ مِنْهَا غَيْرَ الْمُسْنُونِ، وَيَجْعَلَهُ عِبَادَةً رَاتِبَةً يَؤَاطِبُ النَّاسُ عَلَيْهَا، بَلْ هَذَا ابْتِدَاعٌ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، بِخِلَافِ مَا يَدْعُو بِهِ الْمَرْءُ أَحْيَانًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْعَلَهُ سُنَّةً»^(١). اهـ.

(١) «مَجْمُوعُ مُؤَلَّفَاتِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ» «مُلْحَقُ الْمَصْنُفَاتِ» (ص ٤٦)، فِي ضَمَنِ فَوَائِدَ عَدِيدَةٍ لَخَصَّهَا رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَانْظُرْ: أَصْلُ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٢٢/٥١٠ - ٥١١).

ولهذا نجدُ أَنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم بادروا إلى إنكارِ تخصيصِ هيئاتٍ معيّنةٍ للأذكارِ والأدعية، أو أوقاتٍ معيّنة، أو نحو ذلك ممّا لم يردّ به الشرعُ، ولم تثبتْ به السُّنةُ، ومن ذلكم: إنكارُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أولئك النفرِ الذين تحلّفوا في المسجدِ، وفي أيديهم حصّى يسبّحون بها، ويهلّلون، ويكبرون بطريقةٍ محدّثةٍ، وصفةٍ مبتدعةٍ، لم تكن موجودةً على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فبادرهم بالإنكارِ، ونهاهم عن ذلك أشدَّ النهي، وبين لهم خطورة ذلك وسوءَ معبّته عليهم؛ روى الإمامُ الدارمي رحمته الله بإسنادٍ جيّدٍ، عن عمرو بن سلّمة الهمدانيّ، قال: «كنا نجلس على بابِ عبد الله بن مسعودٍ قبلَ صلاةِ الغداة، فإذا خرجَ مشينا معه إلى المسجدِ، فجاءنا أبو موسى الأشعريّ، فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرجَ، فلما خرجَ، فُمنّا إليه جميعاً، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن! إنّي رأيتُ في المسجدِ أنفاً أمراً أنكرته، ولم أرَ - والحمدُ لله - إلا خيراً، قال: فما هو؟ فقال: إنّ عشتَ فستراه، قال: رأيتُ في المسجدِ قوماً حلّقوا جلوساً ينتظرون الصلاةَ، في كلِّ حلقةٍ رجلٌ، وفي أيديهم حصّى، فيقول: كبروا مائةً! فيكبرون مائةً، فيقول: هلّلوا مائةً، فيهلّلون مائةً، ويقول: سبّحوا مائةً! فيسبّحون مائةً، قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتُ لهم شيئاً انتظارَ رأيك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدّوا سيّئاتهم، وضمّنتَ لهم أن لا يضيعَ من حسنّاتهم شيءٌ. ثمّ مضى ومضينا معه، حتى أتى حلقةً من تلك الحلقِ، فوقفَ عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن! حصّى نعدُّ به التكبيرَ والتهليلَ والتسبيحَ، قال: فعُدّوا سيّئاتكم، فأنا ضامنٌ أن لا يضيعَ من حسناتكم شيءٌ؛ ويحكّمكم يا أمةَ محمّد! ما أسرعَ هلكتكم، هؤلاء صحابةُ نبيكم صلى الله عليه وآله متوافرون، وهذه ثيابه لم تبّل، وأنيته لم تُكسر! والذي نفسي بيده، إنكم لعلّى ملّةٍ هي أهدى من ملّةِ محمد، أو مُفتّحو بابِ ضلالةٍ!! قالوا: والله، يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلا الخيرَ، قال: وكم من مُريدٍ للخيرِ لن يُصيّبه!»^(١).

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَنْكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَلَى أَصْحَابِ الْحَلَقَاتِ هَؤُلَاءِ،
 مَعَ أَنَّهُمْ فِي حَلَقَةٍ ذِكْرٍ وَمَجْلِسِ عِبَادَةٍ لَمَّا كَانَ ذِكْرُهُمْ لِلَّهِ، وَتَعَبُّدُهُمْ لَهُ بِغَيْرِ
 الْوَارِدِ الْمَشْرُوعِ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْعِبْرَةُ فِي الْعِبَادَةِ وَالِدَعَاءِ وَالذِّكْرِ
 كَثْرَتُهُ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ فِي مُوَافَقَتِهِ لِلسُّنَّةِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي مَقَامٍ آخَرَ:
 «اِقْتِصَادٌ فِي سُنَّةٍ، خَيْرٌ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي بَدْعَةٍ»^(١)، وَابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه لَمْ يُنْكِرْ
 عَلَيْهِمْ ذِكْرَهُمْ لِلَّهِ، وَاشْتَغَالَهُمْ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَفَارِقَتَهُمْ لِلسُّنَّةِ فِي صِفَةِ
 أَدَائِهِ، وَكَيْفِيَةِ الْقِيَامِ بِهِ، مَعَ أَنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي كَانُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ بِهَا أَلْفَاظٌ
 صَحِيحَةٌ وَرَدَتْ بِهَا السُّنَّةُ؛ فَكَيْفَ الْحَالُ بِمَنْ تَرَكَ السُّنَّةَ فِي ذَلِكَ جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا
 فِي الْأَلْفَاظِ، وَفِي صِفَةِ الْأَدَاءِ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ؛ كَالْأَوْرَادِ الَّتِي يَقْرَؤها بَعْضُ
 النَّاسِ مِمَّا كَتَبَهُ بَعْضُ أَشْيَاخِ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ بِصَيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَسَالِيْبٍ مُتَنَوِّعَةٍ،
 مِمَّا هُوَ مُتَضَمِّنٌ لَأَنْوَاعٍ مِنَ الْبَاطِلِ، وَصُنُوفٍ مِنَ الضَّلَالِ؛ كَالْتَوْشُّلَاتِ
 الشُّرْكِيَّةِ، وَالْأَلْفَاظِ الْبِدْعِيَّةِ، وَالْأَذْكَارِ الْمُحَدَّثَةِ، وَيُرْتَّبُ هَؤُلَاءِ لِأَوْرَادِهِمْ
 وَظَائِفَ مُحَدَّدَةٍ، وَصِفَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، وَأَوْقَاتًا ثَابِتَةً، وَهَذَا كُلُّهُ - وَلَا رَيْبَ - مِنْ
 الْإِحْدَاثِ فِي الدِّينِ، وَمِنْ الْمَفَارِقَةِ لِسَبِيلِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالِاسْتِعَاضَةِ
 عَنْهُ بِمَا أَحَدَثَهُ شَيْوُخُ الضَّلَالِ وَأَائِمَّةُ الْبَاطِلِ، وَهُوَ تَشْرِيعٌ فِي الدِّينِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ
 بِهِ اللَّهُ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ
 بِهِ اللَّهُ؟﴾ [الشورى: ٢١]، ثُمَّ تَجِدُهُمْ - مَعَ ذَلِكَ - يُعْظَمُونَ أَوْرَادَهُمْ هَذِهِ، وَيُغْلَوْنَ
 مِنْ شَأْنِهَا، وَيَرْفَعُونَ مِنْ قَدْرِهَا، وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْأَوْرَادِ الصَّحِيحَةِ، وَالْأَدْعِيَةِ
 الثَّابِتَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلَ الْخَلْقِ، وَأَكْمَلِهِمْ ذِكْرًا وَدَعَاءً لِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ رحمته الله: «أَذِنَ اللَّهُ فِي دَعَائِهِ، وَعَلَّمَ الدَّعَاءَ فِي كِتَابِهِ
 لِخَلْقِهِ، وَعَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ الدَّعَاءَ لِأُمَّتِهِ، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: الْعِلْمُ
 بِالتَّوْحِيدِ، وَالْعِلْمُ بِاللُّغَةِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْأُمَّةِ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَغْدِلَ عَنْ
 دَعَائِهِ ﷺ، وَقَدْ احْتَالَ الشَّيْطَانُ لِلنَّاسِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ، فَقَيَّضَ لَهُمْ قَوْمَ سَوْءٍ

(١) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني (٢٠٨/١٠).

يخترعون لهم أدعيةً يشتغلون بها عن الاقتداء بالنبي ﷺ»^(١).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: «فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء، ويدع ما سواه، ولا يقول: أختار كذا؛ فإن الله قد اختار لنبيه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون»^(٢). اهـ.

❦ فالواجب على من أراد لنفسه الفضيلة والسلامة، والتمام والرفعة: أن يلزم هدي النبي الكريم ﷺ، ويتقيد بسنته، ويدع ما أحدثه المحدثون، وأنشأه المبطلون، ممّا لا أصل له ولا أساس إلا اتباع الأهواء، والله المستعان، وإليه المشتكى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(١) انظر: «الفتوحات الربانية» لابن علان (١/١٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/١٤٩).

الْأَثَارُ السَّيِّئَةُ لِلْأَدْعِيَةِ الْمُحَدَّثَةِ

لقد تَمَيَّزَتِ الْأَدْعِيَةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْأَذْكَارُ الْمَأْثُورَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِكَمَالِهَا فِي مَبْنَاهَا وَمَعْنَاهَا ؛ فَالْفَاطُطُهَا وَعِبَارَاتُهَا مُوجِزَةٌ مُخْتَصِرَةٌ، وَمَعَانِيهَا وَدَلَالَتُهَا عَظِيمَةٌ وَاسِعَةٌ، مُتَضَمِّنَةٌ الْخَيْرَ كُلَّهُ، مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْمَقَاصِدِ الْعَالِيَةِ، وَالْمَطَالِبِ الْعَظِيمَةِ، وَالْخَيْرَاتِ الْعَمِيمَةِ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ - بَلْ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ - أَنْ يَجْتَهِدَ قَدْرَ الْإِسْطَاعَةِ فِي تَعَلُّمِهَا وَحِفْظِهَا وَالتَّعَبُّدِ بِهَا، وَيَدْعَ مَا سِوَاهَا مِنَ الْأَوْرَادِ وَالْأَحْزَابِ الْمُخْتَرَعَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا بَعْضُ شُيُوخِ الضَّلَالَةِ وَأَثَمَةِ الْبَاطِلِ، وَالَّتِي صَدُّوا بِهَا كَثِيرًا مِنْ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ وَجُهَاِلِهِمْ عَنِ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ.

وَمَنْ يَتَأَمَّلُ وَاقَعَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا سِيَّما مَنْ انْتَسَبَ إِلَى بَعْضِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ، يَجِدُ أَنَّهَمْ قَدْ انْشَغَلُوا بِهَذِهِ الْأَذْكَارِ الْمُخْتَرَعَةِ، وَالْأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، فَأَصْبَحُوا يَتْلُونَهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، وَصَبَاحًا وَمَسَاءً، تَارِكِينَ بِسَبِيلِهَا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، مُعْرِضِينَ عَنِ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثُمَّ إِنَّ لِكُلِّ فِتْنَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ أَوْرَادًا خَاصَّةً يَتْلُونَهَا بِطَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ، وَنَمَاطٍ مُعَيَّنٍ، فَكُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ أَحْزَابُهَا وَأَوْرَادُهَا الْخَاصَّةُ، وَكُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونٌ ﴿[المؤمنون: ٥٣]﴾، وَكُلُّ مِنْهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّ أَوْرَادَهُ أَفْضَلُ مِنْ أَوْرَادِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ الْآخَرَى.

وَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ هَذِهِ الْأَدْعِيَةَ الْمُبْتَدَعَةَ لَهَا نَتَائِجُهَا الْمُؤْسِفَةُ، وَأَثَارُهَا السَّيِّئَةُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَقِيدَتِهِ وَأَعْمَالِهِ التَّعَبُّدِيَّةِ، وَهِيَ آثَارٌ كَثِيرَةٌ يَطُولُ حَصْرُهَا، لَكِنْ قَدْ أُوجِزَتْهَا وَلَخَّصَهَا الشَّيْخُ جِيلَانُ بْنُ خَضِرٍ الْعُرُوسِيُّ - وَفَقَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِهِ الْقِيَمِ: «الدَّعَاءُ وَمَنْزِلَتُهُ مِنَ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ»^(١)، فِي النِّقَاطِ التَّالِيَةِ:

أولاً: أَنَّ الأَدْعِيَةَ المَبْتَدَعَةَ لَا تَفِي بِالْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ مِنَ الْعِبَادَاتِ مِنْ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الرُّعُونَاتِ، وَتَقْرِيْبِهَا إِلَى بَارِيهَا، وَتَعَلُّقِهَا بِرَبِّهَا رَجَاءً وَرَغْبَةً وَرَهْبَةً؛ فَهِيَ لَا تَشْفِي عَلِيلاً، وَلَا تَرْوِي غَلِيلاً، وَلَا تَهْدِي سَبِيلاً.

وَأَمَّا الأَدْعِيَةُ الْمَشْرُوعَةُ، فَهِيَ الدَّوَاءُ النَّاجِعُ وَالْبَلْسَمُ الشَّافِي لِلأَدْوَاءِ النَّفْسِيَّةِ، وَالْأَمْرَاضِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالْأَهْوَاءِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَمَنْ اسْتَبَدَّلَ بِهَا الأَدْعِيَةَ الْمُبْتَدَعَةَ، فَقَدْ اسْتَبَدَّلَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

ثانياً: أَنَّ الأَدْعِيَةَ المَبْتَدَعَةَ تُفَوِّتُ عَلَى الْعَبْدِ الْأَجَرَ الْعَظِيمَ، وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ، الَّذِي يَحْصُلُ لِمَنْ التَّزَمَ بِالأَدْعِيَةِ الْوَارِدَةِ، وَحَافَظَ عَلَيْهَا، وَطَبَّقَهَا كَمَا وَرَدَتْ؛ فَإِنَّهُ يَحْوِزُ السَّبْقَ، وَيَتَعَرَّضُ لِنَفْحَاتِ الرَّبِّ وَجُودِهِ، بِخِلَافِ مَنْ يَدْعُو بِالأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، فَإِنَّهُ يُفَوِّتُ عَلَى نَفْسِهِ الْأَجَرَ وَالثَّوَابَ، وَيُعَرِّضُهَا لِسَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ.

ثالثاً: عَدَمُ إِبَاجَةِ الأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، مَعَ أَنَّ الْهَدَفَ وَالْأَسَاسَ لِلدَّاعِي فِي الْغَالِبِ هُوَ إِبَاجَةُ مَطْلُوبِهِ، وَنَيْلُ مَرْغُوبِهِ، وَدَفْعُ مَرْهُوبِهِ، وَالأَدْعِيَةُ المَبْتَدَعَةُ لَا يُجَابُ الدَّاعِي بِهَا، وَلَا تَكُونُ مُتَقَبَّلَةً مِنْهُ؛ وَفِي الْحَدِيثِ: (مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ)^(١).

رابعاً: أَنَّ الأَدْعِيَةَ الْمُبْتَدَعَةَ تَشْتَمِلُ غَالِبًا عَلَى مُحْذُورٍ شَرْعِيٍّ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْمُحْذُورُ مِنْ وَسَائِلِ الشَّرِكِ وَذَرَائِعِهِ؛ إِذِ الْبَدْعَةُ تَجُرُّ إِلَى الشَّرِكِ وَالضَّلَالِ، فَمِنْ الأَدْعِيَةِ الْبَدْعِيَّةِ الَّتِي تَجُرُّ إِلَى الشَّرِكِ: التَّوَسُّلُ الْبَدْعِيُّ، فَهُوَ الَّذِي فَتَحَ الْبَابَ لِدَعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ، وَالِاسْتِغَاثَةِ وَالِاسْتِمْدَادِ بِغَيْرِهِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْمُحْذُورُ اعْتِدَاءً فِي الدَّعَاءِ وَمَجَاوِزَةً لِلْحَدِّ، وَسُوءَ أَدَبٍ فِي خُطَابِ الرَّبِّ وَمَنَاجَاتِهِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْمُحْذُورُ مَا يَضَحُّبُ تِلْكَ الأَدْعِيَةَ مِنْ بَدْعٍ أُخْرَى؛ مِنْ تَحْدِيدِهَا بِأَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، وَبِصِفَاتٍ خَاصَّةٍ، وَرَفْعِ الْأَصْوَاتِ عَلَى نَعَمَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، وَإِيقَاعَاتٍ خَاصَّةٍ، وَأَسْجَاعٍ مُضْطَنَعَةٍ، وَتَرَائِكِبٍ رَكِيكَةٍ تَمُجُّهَا الْأَسْمَاعُ، وَتَسْتَقْبِحُهَا الْقَرِيحَةُ السَّالِمَةُ.

خامساً: أَنَّ الأَدْعِيَةَ الْمُبْتَدَعَةَ مَنْ التَّزَمَ بِهَا وَاعْتَادَهَا قَلَّمَا يَرْجِعُ عَنْهَا

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مَعْلُوقًا، وَمُسْلِمٌ رَقْمَ (١٧١٨).

إلى الأدعية المشروعة، إلا إذا وَفَّقَهُ اللهُ وأعانه، وهداهُ إلى الخير؛ وذلك لأنَّ القلوب متى اشتغلت بالبدعِ أَعْرَضَتْ عن السُّنَنِ؛ حيثُ إِنَّ الْمُلتَزِمَ بتلك الأدعيةِ المبتدعةِ يعتقدُها مشروعةً، وَيُدَافِعُ عنها، ولا يسمعُ إلى حُجَّةٍ ولا برهانٍ.

سادساً: أن استعمال الأدعيةِ البِدْعِيَّةِ، وترك الأدعيةِ المشروعةِ مِنْ بابِ استبدالِ الخبيثِ بالطَّيِّبِ، والضَّارُّ بالنافع، والشرُّ بالخير، وهذا - ولا ريب - عِبْنُ فاحشٍ، وَتَهَوُّرٌ ظاهرٌ، وخسارةٌ فادحةٌ.

سابعاً: أن في الأدعيةِ المُبتدعةِ المُخترعةِ تَشْبُهًا بأهلِ الكتابِ في اختراعِهِمْ للأدعيةِ المخالفةِ لِمَا جَاءَتْ به رُسُلُهُمْ، وفيها أيضاً تَشْبُهٌ بهم في النِّعَمَاتِ والإيقاعاتِ والتمايلاتِ، وغير ذلك.

ثامناً: أن الذي يُلازمُ الأدعيةِ المُبتدعةِ المُخترعةِ، لا سِيَّما التي هي مؤلَّفةٌ مِنْ أَحْزَابٍ وَأَوْرَادٍ، يكونُ - في الغالبِ - جاهلاً لمعناها، وتنصرفُ هِمَّتُهُ إلى ألفاظها، وإلى سردها سرداً بدونِ تدبُّرٍ، مَعَ أَنَّ المطلوبَ في الدعاءِ إحضارُ القلبِ، والإخلاصُ في السؤالِ، ولا سِيَّما أنَّ كثيراً مِنْ هذه الأدعيةِ عبارةٌ عن كلماتٍ مرصوصةٍ، خفيةٍ المعنى، غامضةٍ الدَّلالةِ، وهذا الداعي بمثلِ هذه الأدعيةِ غيرِ سائلٍ ولا داعٍ، بل هو حاكٍ لكلامِ غَيْرِهِ، ثُمَّ إِنَّ اختيارَهُ ذلك الدعاءَ على غيرِهِ مِنَ الأدعيةِ لأجلِ الذي نَظَّمَهُ، وإعجابُهُ به، ففي ذلك تقديسٌ لهذا الذي جَمَعَهَا، وَرَفَعُ له فوق منزلتِهِ مِنْ حيثُ يعتقِدُ الداعي أَنَّ لِأَدْعِيَتِهِ خَاصِيَّةً لا توجدُ في غيرها، وإلاَّ لَمَّا دَاوَمَ عليها ليلَ نهارٍ، بل بعضهم يُصرِّحُ أَنَّ وَرَدَ شَيْخِهِ أَفْضَلُ الْأَوْرَادِ وَأَتَمُّهَا وَأَكْمَلُهَا.

وبهذا يُعْلَمُ مدى جنائيةِ هذه الأدعيةِ المُخترعةِ على المسلمين، وَعِظْمُ خطورتها عليهم، وَأَنَّ الواجبَ على كُلِّ مسلمٍ الحَذَرُ منها، والبُعْدُ عنها، ومجانبتها، وَأَن يَفْتَصِرَ على الواردِ والمأثورِ عن الرسولِ الكريمِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ أَقْوَمُ قِيلاً، وأهدى سبيلاً.

وإنَّا لنسألُ اللهَ الكريمَ أَن يَرْزُقَنَا لُزُومَ سُنَّتِهِ، واتباعَ هَدْيِهِ، واقتفاءَ أثرِهِ، وسلوكَ مَنْهَجِهِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مجيبٌ.

جَوَامِعُ الْكَلِمِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةُ

لا يزال حديثنا موصولاً في بيان فضل الأذكار النبوية، والأدعية المأثورة التي كان يدعو بها النبي ﷺ ويُعَلِّمُهَا أصحابَهُ؛ لكمالها في مبانيها ومعانيها، ولاشماليها على جوامع الخير وفوائده وخواتمه؛ كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يُعْجِبُهُ الجوامعُ مِنَ الدعاءِ، ويدعُ ما بينَ ذلك»؛ رواه الإمام أحمد في «مسنده» وأبو داود في «سننه»، وابن حبان في «صحيحه»^(١).

وروى الفريابي وغيره من حديث عائشة أيضاً أن النبي ﷺ قال لها: (يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِجَوَامِعِ الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَادَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَداً)^(٢).

(١) «المسند» (١٤٨/٦، ١٨٩)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٨٢)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٦٧)، وهو في «صحيح أبي داود» رقم (١٣١٥).

(٢) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٥٣٣/٢)، وأخرجه أحمد في «المسند» (٦/١٣٤، ١٤٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٤٦)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٦٩)، و«المستدرک» (٥٢١/١، ٥٢٢)، وليس عندهم ذكْرُ جوامع الدعاء، وعند أحمد والحاكم: (عَلَيْكَ بِالْكَوَامِلِ...)، وذكره.

وخرجه أبو بكر الأثرم، وعنده: أَنَّ النبي ﷺ قال لها: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْخُذِي بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ وَفَوَائِدِهِ...)، وذكّر هذا الدعاء.

وروى الإمام أحمد في «المسند»، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَجَوَامِعَهُ، أَوْ جَوَامِعَ الْخَيْرِ وَفَوَاتِحَهُ وَخَوَاتِمَهُ...»^(١).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة؛ فَإِنَّهُ ﷺ أُعْطِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَخُصَّ بِبِدَائِعِ الْحِكْمِ؛ كما في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»^(٢)، قال الإمام محمد بن شهاب الزُّهري رحمته الله: «جَوَامِعُ الْكَلِمِ - فيما بلغنا - أَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ لَهُ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ فِي الْكُتُبِ قَبْلَهُ فِي الْأَمْرِ الْوَاحِدِ وَالْأَمْرَيْنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ»^(٣). اهـ.

وحاصله: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ الْمُوجِزِ الْقَلِيلِ اللَّفْظِ، الْكَثِيرِ الْمَعْنَى، وَهَكَذَا الشَّأْنُ فِي أَذْكَارِهِ وَأَدْعِيَّتِهِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، كَانَ يُعْجِبُهُ مِنْ ذَلِكَ جَوَامِعُ الذِّكْرِ وَالِدَعَاءِ، وَيَدْعُ مَا بَيْنَ ذَلِكَ.

❏ وَإِذَا، فَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: أَنْ يَعْرِفَ عِظَمَ قَدْرِ الْأَدْعِيَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَرَفِيعَ مَكَانَتِهَا، وَأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَجَامِعِ الْخَيْرِ، وَأَبْوَابِ السَّعَادَةِ، وَمِفَاتِيحِ الْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَخَيْرُ السُّؤَالِ أَنْ يَسْأَلَ الْمُسْلِمُ رَبَّهُ مِنْ خَيْرٍ مَا سَأَلَهُ مِنْهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَأَفْضَلُ الاسْتِعَاذَةِ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ مِنْ شَرٍّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ. وَمَنْ يَتَأَمَّلُ جَمِيعَ الْأَدْعِيَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ يَجِدُهَا كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ اخْتَارَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ جَوَامِعَ الْأَدْعِيَةِ وَفَوَاتِحَ الْخَيْرِ، وَتَمَامَ الْأَمْرِ وَكَمَالَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَكَيْفَ يَدْعُ الْمُسْلِمُ هَذَا الْخَيْرَ الْعَمِيمَ، وَالْفَضْلَ الْعَظِيمَ، الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَدْعِيَةُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ،

(١) «المسند» (٤٠٨/١، ٤٣٧)، و«سنن النسائي» رقم (١١٦٣)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٨٩٢).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٧٠١٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٣).

(٣) ذكره البخاري في «صحيحه» بإثر حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَيُقْبَلُ عَلَى أَدْعِيَةٍ أُخْرَى لغيرِهِ مِمَّنْ لَا تُؤْمَنُ غَائِلَتُهُمْ مِنْ شِيُوخِ الضَّلَالَةِ، وَأُثْمَةٍ الْبَاطِلِ، الْمُتَكَلِّفِينَ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوَّلَى مَا يُدْعَى بِهِ، وَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ: مَا صَحَّحَتْ بِهِ الرَّوَايَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَثَبَّتَ عَنْهُ بِالْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ؛ فَإِنَّ الْعَلَطَ يَعْزِضُ كَثِيرًا فِي الْأَدْعِيَةِ الَّتِي يَخْتَارُهَا النَّاسُ؛ لِاخْتِلَافِ مَعَارِفِهِمْ، وَتَبَايُنِ مَذَاهِبِهِمْ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالِانْتِحَالِ، وَبَابُ الدَّعَاءِ مَطِيَّةٌ مَظَنَّةٌ لِلْخَطَرِ، وَمَا تَحْتَ قَدَمِ الدَّاعِي دَخُضٌ؛ فَلْيَحْذَرْ فِيهِ الزَّلَلَ، وَلْيَسْلُكْ مِنْهُ الْجَدَدَ، الَّذِي يُؤْمَنُ مَعَهُ الْعِثَارُ، وَمَا التَّوْفِيقُ إِلَّا بِاللَّهِ ﷻ»^(١). اهـ.

وَمَنْ يَتَأَمَّلُ الْأَدْعِيَةَ الْمَأْثُورَةَ الَّتِي جَاءَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ يَجِدُ فِيهَا الْجَمَالَ وَالْكَمَالَ وَالْوَفَاءَ بِتَحْقِيقِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَالْمَقَاصِدِ الرَّفِيعَةِ، وَالْخَيْرَ الْكَامِلَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَعَ السَّلَامَةِ فِيهَا وَالْأَمَانِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْخَطَا وَالزَّلَلَ، فَهِيَ مَعْصُومَةٌ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا وَحْيُ اللَّهِ وَتَنْزِيلُهُ.

وَلِذَا نَجَدُ أُثْمَةَ الْعِلْمِ الْأَمْنَاءِ النَّاصِحِينَ يُرْغَبُونَ النَّاسَ فِي الْمَحَافَظَةِ عَلَى الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ، وَيَعْتَنُونَ تَمَامَ الْإِعْتِنَاءِ بِرَبْطِ النَّاسِ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ السَّلَامَةَ وَالْعِصْمَةَ وَالْفَوْزَ بِأَكْبَرِ الْغَنِيمَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْإِمَامِ الْجَلِيلِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَنْبَغِي لِلْخَلْقِ أَنْ يَدْعُوا بِالْأَدْعِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا رَيْبَ فِي فَضْلِهِ وَحُسْنِهِ، وَأَنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا»^(٢).

فَتَأَمَّلْ كَلَامَ هَذَا الْإِمَامِ النَّاصِحِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ كَيْفَ أَنَّهُمْ كَرَّسُوا جُهُودَهُمْ، وَبَذَلُوا أَوْقَاتَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ تَفْقِيهِ النَّاسِ بِالسُّنَّةِ، وَرَبْطِهِمْ بِهَا، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى تَحْقِيقِهَا، وَحُسْنِ الْقِيَامِ بِهَا؛ إِذْ هِيَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَحَبْلُهُ الْمَتِينُ.

تَأَمَّلْ قَوْلَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِلْخَلْقِ أَنْ يَدْعُوا بِالْأَدْعِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا

(١) «شأن الدعاء» للخطابي (ص ٢ - ٣). (٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٤٦).

الكتاب والسنة» تجد فيه تمام النصيحة للخلق وصدق القيام بالحق، بخلاف أئمة الضلال ودعاة الباطل؛ فإنهم يدعون الناس إلى أنفسهم، ويربطونهم بأشخاصهم، فتراهم ينشئون للناس أوراذا وأدعية من قبل أنفسهم، ويعظمون من شأنها، ويعلون من قدرها؛ رغبة في تكثير الأتباع واستقطاب المريدين؛ كما قال الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه: «إِنَّ مِنْ ورائكم فِتْنًا يَكْثُرُ فيها المَالُ، ويُفْتَحُ فيها الْقُرْآنُ، حتى يأخذه المؤمنُ والمنافقُ، والرجُلُ والمرأةُ، والصغيرُ والكبيرُ، والعبدُ والحرُّ، فيوشكُ قائلٌ أن يقولَ: ما للناسِ لا يتَّبِعُوني وقد قرأتُ القرآنَ؟ ما هم بِمُتَّبِعِيَّ حتى أبتدِعَ لهم غَيْرَهُ. فإياكم وما ابتدَعَ؛ فإنَّ ما ابتدَعَ ضلالةٌ»، وسنده صحيح^(١).

فليكن المسلم على تمام الحذر من مثل هؤلاء، وليحرص تمام الحرص على لزوم السنة، ففيها السلامة والرفعة، والتوفيق بيد الله وحده.



(١) «سنن أبي داود» رقم (٤٦١١)، و«المستدرک» (٥٠٧/٤)، و«الشریعة» رقم (٩٠، ٩١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (٣٨٥٥).

أَهْمِيَّةُ الْعِنَايَةِ بِالْأَلْفَافِ النَّبَوِيَّةِ فِي الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ

تقدّم معنا الإشارةُ إلى عِصْمَةِ الْأَدْعِيَةِ الماثورة في مبنائها ومعناها، وسلامتها مِنَ الْخَطِ وَالزَّلَلِ في ألفاظها ودلالاتها؛ لأنها وَحْيُ اللَّهِ وتنزيله، اختارها الله لنبيه محمد ﷺ وعَلَّمَهُ إِيَّاهَا، فَعَلِمَهَا صلواتُ الله وسلامه عليه، وعَمِلَ بها على التمام والكمال، وبلغها أُمَّتُهُ الْبَلَاغَ الْمُبِين، وتلقاها عنه صحبه الكرامُ خَيْرَ تَلَقٍّ، فَعَمِلُوا بها، واجتهدوا في تطبيقها وعِمَارَةِ الْأَوْقَاتِ بها، ثُمَّ بَلَّغُوهَا مَنْ ورائهم وافيةً تامةً بحروفها وألفاظها، فكان لهم بذلك الْحِظُّ الْأَوْفَرُ، والنصيبُ الْأَكْمَلُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: (نَضَرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاها وَحَفِظَهَا، ثُمَّ أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا)^(١).

ولعلنا نقفُ وَقْفَةً، نَتأملُ فيها حِرْصَ الصَّحَابَةِ ﷺ على ضبطِ الْأَدْعِيَةِ النَّبَوِيَّةِ وتَعَلُّمِهَا، وحِرْصَ النَّبِيِّ ﷺ على توجيههم وتسديدهم فيها.

* فَمِنْ ذَلِكَ: ما وَرَدَ في عِدَّةِ أَحَادِيثَ مُتَعَلِّقَةٍ بِالذِّكْرِ والدُّعَاءِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ إِيَّاهَا كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

منها: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤٣٧/١)، (٨٠/٤)، وأبو داود رقم (٣٦٦٠)، والترمذي رقم (٢٦٥٧)، وابن ماجه رقم (٢٣٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٧٦٦).

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»^(١).

وكذلك دعاء الاستخارة؛ ففي «صحيح البخاري»، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنَا دُعَاءَ الاستخارة كما يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢).

قال ابن أبي جَمْرَةَ رحمته الله: «التشبيه في تحفُّظِ حروفه، وترتيبِ كلماته، ومنع الزيادة والنقص فيه، والدَّرْسِ له، والمحافظة عليه، ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِهَةِ الْإِهْتِمَامِ بِهِ، والتحقُّقِ لبركته، والاحترام له، ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِهَةِ كَوْنِ كُلِّ مِنْهُمَا عُلِمَ بِالْوَحْيِ»^(٣). اهـ.

* وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم كَانُوا يَأْتُونَهُ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَعْلَمَهُمْ دُعَاءَ يَدْعُونَ بِهِ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ عِلْمٍ وَفَصَاحَةٍ؛ وَمِنْ هَذَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: قُلْ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)»^(٤)، قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ أَيْضًا: اسْتِحْبَابُ طَلَبِ التَّعْلِيمِ مِنَ الْعَالِمِ، خُصُوصًا فِي الدَّعَوَاتِ الْمَطْلُوبِ فِيهَا جَوَامِعُ الْكَلِمِ»^(٥). اهـ.

* وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَوِّبُ مَنْ يَخْطِئُ مِنْهُمْ، وَلَوْ فِي

(١) «صحيح مسلم» رقم (٥٩٠).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١١٦٢).

(٣) «فتح الباري» (١١/١٨٤).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٨٣٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٥).

(٥) «فتح الباري» (٢/٣٢٠).

لفظ من ألفاظ الذكر والدعاء؛ كما في «الصحيحين»، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «قال لي رسول الله ﷺ: (إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسَلْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَالْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتُّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ)، فَقُلْتُ أَسْتَذْكُرْهُنَّ: وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: (لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)»^(١).

قال الحافظ في «الفتح»: «وأول ما قيل في الحكمة في رده ﷺ على من قال «الرسول» بدل «النبي»: أن ألفاظ الأذكار توقيفية، ولها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس، فيجب المحافظة على اللفظ الذي وردت به»^(٢).

* وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ صِيغَةً مَعِينَةً مِنَ الدَّعَاءِ يرى أن فيها تحقيق سعادته في الدنيا والآخرة، ويخفى عليه ما قد تتضمّنه من شرٍّ أو خطر؛ إمّا في الدنيا أو الآخرة، بينما الأدعية النبوية ليس فيها إلا الخير والصلاح والسلامة في الدنيا والآخرة؛ روى مسلم في «صحيحه»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتْ، فَصَارَ مِثْلَ الْفَرَخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟)، قَالَ: نَعَمْ؛ كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَعَجَّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (سُبْحَانَ اللَّهِ! لَا تُطِيقُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، قَالَ: فدعا الله له فَشَفَّاهُ»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٤٧)، و(٦٣١١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧١٠).

(٢) «فتح الباري» (١١/١١٢).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٨٨).

فَجَمَعَ لَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فِي هَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ - الَّذِي أَرْشَدَهُ إِلَيْهِ - بَيْنَ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامَةِ فِيهِمَا مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ.

* وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ يَسْمَعُونَ مِنْهُ الْمَخَالَفَةَ لِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ. وَالْأَمْثَلُ عَلَى ذَلِكَ عَنْهُمْ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا: مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالْحَاكِمُ، عَنْ نَافِعٍ «أَنَّ رَجُلًا عَطَسَ إِلَى جَنْبِ ابْنِ عُمَرَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَأَنَا أَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَلَيْسَ هَكَذَا عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَلَّمَنَا أَنْ نَقُولَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ)»^(١).

وَرَوَى أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ ابْنِ سَعْدٍ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعَنِي أَبِي وَأَنَا أَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَبَهْجَتَهَا، وَكَذَا وَكَذَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا وَكَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ)؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ، إِنْ أُعْطِيَتِ الْجَنَّةُ أُعْطِيَتْهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنْ أُعْذِتْ مِنَ النَّارِ أُعْذِتْ مِنْهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ»^(٢).

وَمِثْلُهُ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَغَيْرُهُمْ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيُّ بُنَيَّ! سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالِدُّعَاءِ)»^(٣).

(١) «جامع الترمذي» رقم (٢٧٣٨)، و«المستدرک» (٢٦٥/٤)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥/٣).

(٢) «المسند» (١٧٢/١)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٨٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٣١٣).

(٣) «المسند» (٨٧، ٨٦/٤)، (٥٥/٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٩٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (٨٧).

فهذه نماذجٌ يسيرةٌ تُبَيِّنُ مكانةَ الدعاءِ النبويِّ، وأهميَّةَ العنايةِ بِالْفَاضِلِ
المأثورةِ لِكَمالِها وِرْفَعَتِها وسَلَامَتِها، وَوَفَائِها بِتَحْقِيقِ أَهمِّ المَطالِبِ، وأَجَلِّ
الغَاياتِ.



التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ

إِنَّ مِنَ الضَّوَابِطِ الْمُهِمَّةِ لِلدُّعَاءِ: أَنْ يَحْذَرَ الْمُسْلِمُ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ فِيهِ. والاعتداء: هو تجاوزُ ما ينبغي أن يُقْتَصَرَ عليه؛ يقول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فأرشد - تبارك وتعالى - في هذه الآية الكريمة عباده إلى دعائه الذي هو صلاح دينهم ودنياهم وآخرتهم، ثم نهاهم سبحانه في هذا السياق عن الاعتداء؛ بإخباره أنه لا يُحِبُّ المعتدين؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الاعتداء مَكْرُوهٌ له، مسخوطةٌ عنده، لا يُحِبُّ فاعله، وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللهُ، فأَيُّ خَيْرٍ ينال؟! وأَيُّ فَضْلٍ يُؤْمَلُ؟!

ثُمَّ إِنَّ النِّهْيَ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ فِي الْآيَةِ، وَإِنْ كَانَ عَامًّا يَشْمَلُ كُلَّ نَوْعٍ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ - لِمَجِيئِهِ عَقِبَ الْأَمْرِ بِالْإِعْتِدَاءِ - يَدُلُّ دَلَالَةً خَاصَّةً عَلَى الْمَنْعِ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَبَيَانِ أَنَّ الدُّعَاءَ الْمَشْتَمَلَ عَلَى الْإِعْتِدَاءِ لَا يُحِبُّهُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يَرْضَاهُ لَهُمْ؛ وَلِهَذَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥)، قَالَ: «فِي الدُّعَاءِ، وَلَا فِي غَيْرِهِ» (١).

وعن قتادة في معنى الآية، قال: «اعلموا أنَّ فِي بَعْضِ الدُّعَاءِ إِعْتِدَاءً، فَاجْتَنِبُوا الْعِدْوَانَ وَالْإِعْتِدَاءَ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وعن الرَّبِيعِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، قَالَ: «إِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ أَمْرًا قَدْ نُهِيتَ عَنْهُ، أَوْ مَا يَنْبَغِي لَكَ».

وعن ابن جُرَيْجٍ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، قَالَ: «إِنَّ مِنَ الدُّعَاءِ إِعْتِدَاءً؛ يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءُ وَالصِّيَاحُ بِالْإِعْتِدَاءِ، وَيُؤْمَرُ بِالتَّضَرُّعِ وَالِاسْتِكَانَةِ» (٢).

(١) «تفسير الطبري» (٢٠٧/٥).

(٢) انظر هذه الآثار في: «تفسير الطبري» (٢٠٧/٥).

وقد جاء عن النبي ﷺ ما يدلُّ على أَنَّ مِنَ الْأُمَّةِ مَنْ سَقَعَ فِي الْاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ، وَهُوَ ﷺ عِنْدَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ أَخْبَرَ بِهِ مُحَذَّرًا مِنْهُ، نَاهِيًا عَنْهُ، مُبَيِّنًا لِحَظَرِهِ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ وَكَمَالِ نُصَحِهِ لِأُمَّتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ عِلَامَاتِ نُبُوَّتِهِ ﷺ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَغَيْرُهُمْ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيُّ بُنَيَّ! سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالِدُّعَاءِ)»^(١).

فَأَخْبَرَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِهِ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ نَاهِيًا عَنْ ذَلِكَ، وَلِيَكُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي حِيْطَةٍ وَحَذَرٍ مِنَ الْوُقُوعِ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِلِزُومِ السُّنَّةِ وَاقْتِنَاءِ آثَارِ الرَّسُولِ ﷺ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)»^(٢).

إِنَّ الْاِعْتِدَاءَ فِي الدُّعَاءِ بَابٌ وَاسِعٌ، وَمَهْيَعٌ فَجٌّ؛ إِذْ هُوَ - كَمَا تَقَدَّمَ تَعْرِيفُهُ -: تَجَاوُزُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ؛ وَعَلَى هَذَا: فَكُلُّ مُخَالَفَةٍ لِلْسُّنَّةِ وَمُفَارَقَةٍ لِلْهَدْيِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ فِي الدُّعَاءِ يُعَدُّ اِعْتِدَاءً، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَخَالَفَاتِ مُتَنَوِّعَةٌ وَكَثِيرَةٌ، لَا يَجْمَعُهَا نَوْعٌ وَاحِدٌ، ثُمَّ هِيَ أَيْضًا مُتَفَاوِتَةٌ فِي خَطَوَرَتِهَا، فَمِنْ اِلْعْتِدَاءِ مَا قَدْ يَبْلُغُ حَدَّ الْكُفْرِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، فَمَنْ اِعْتَدَى فِي دُعَائِهِ بِأَنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ، أَوْ سَأَلَهُ، أَوْ طَلَبَ مِنْهُ كَشْفَ ضُرِّهِ، أَوْ جَلَبَ نَفْعِهِ، أَوْ شَفَاءَ مَرَضِهِ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَقَدْ وَقَعَ فِي أَعْظَمِ أَنْوَاعِ اِلْعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ وَأَشَدِّهَا خَطَرًا؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ (ص ٣٠٧).

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (١٢٧/٤)، وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (٤٦٠٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمَ (٢٦٧٦)، وَابْنُ مَاجَهَ رَقْمَ (٤٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» رَقْمَ (٢١٥٧).

الْقَيْمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ [الأحقاف: ٥]، وحاصلُ كلامِ المفسِّرين في معنى هذه الآية: أَنَّ اللهَ تعالى حَكَمَ بَأَنَّهُ لَا أَضْلَّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ومعنى الاستفهام في الآية إنكارُ أن يكونَ في الضُّلَّالِ كُلِّهِمْ أَبْلَغُ ضَلَالًا مِمَّنْ عَبْدٌ غَيْرُ اللَّهِ ودَعَا؛ حيثُ يتركُ دعاءَ السميعِ المجيبِ القديرِ، ويدعو مِنْ دُونِهِ الضعيفِ العاجزِ الذي لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الاستجابة؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]؛ فهذا أخطرُ أنواعِ الاعتداءِ في الدعاءِ، وأشدُّها ضررًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فهؤلاءِ أعظمُ المُعْتَدِينَ عدوانًا؛ فإنَّ أعظمَ العدوانِ الشركُ، وهو وَضْعُ العبادةِ في غيرِ موضعها؛ فهذا العدوانُ لَا بدَّ أن يكونَ داخلًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]»^(١).
وأَيُّ اعتداءٍ أعظمُ وأشدُّ مِنْ هذا، أَنْ يَصْرِفَ العبدُ حقَّ اللهِ الخالصِ الذي لَا يجوزُ أَنْ يُصْرِفَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ إِلَى مخلوقٍ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، فضلًا عن أَنْ يَمْلِكَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لغيره؛ قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢].

وما مِنْ ريبٍ أَنَّ هذا هو أعظمُ العدوانِ، وأشدُّ الانحرافِ والطُّغيانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ والسلامةَ.



مِنَ الْاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ

إِنَّ مِمَّا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ فِي أَمْرِ الدُّعَاءِ أَنْ يَحْذَرَ غَايَةَ الْحَذَرِ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ فِيهِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَمَّا أَمَرَ عِبَادَهُ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ بِالدُّعَاءِ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً، أَخْبَرَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَإِنْ كَانَ التَّحْذِيرُ فِيهَا مِنَ الْاِعْتِدَاءِ، وَرَدَّ بِصِيغَةِ الْعُمومِ مُتَنَاوِلًا لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْاِعْتِدَاءِ، إِلَّا أَنَّ تَنَاوُلَهَا لِلتَّحْذِيرِ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ أَكْثَرُ لِمَجِيئِهَا فِي سِيَاقِ الْأَمْرِ بِهِ، وَذِكْرِ شَرْوِطِهِ وَآدَابِهِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: قِيلَ: الْمُرَادُ: إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ فِي الدُّعَاءِ، كَالَّذِي يَسْأَلُ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ مَنَازِلِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغْفَلٍ: أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيُّ بُنْيَ! سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالْدُّعَاءِ)»^(١).

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنْ كَانَ الْاِعْتِدَاءُ مُرَادًا بِهَا، فَهُوَ مِنْ جَمَلَةِ الْمُرَادِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، دُعَاءً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]»^(٢). اهـ.

وَعَلَى هَذَا، فَإِنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَكُونُ دَالَّةً عَلَى أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَحَبَّةُ إِلَى اللَّهِ، مُرَغَّبٌ فِيهِ، وَهُوَ دُعَاءُ اللَّهِ ﷻ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً.

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ (ص ٣٠٧).

(٢) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (١٥/٢٢ - ٢٣).

والثاني: مكروه له، مسخوطٌ عنده، مُحَذَّرٌ منه أشدَّ التحذير، وهو الاعتداء، فأمر بما يُحِبُّه، وَنَدَبَ إليه، وَرَغَّبَ فيه، وَحَذَّرَ مما يُبْغِضُهُ، وَزَجَرَ عنه بما هو أبلغُ طرقِ الزجرِ والتحذير، وهو إخبارُهُ سبحانه بأنه لا يُحِبُّ فاعله، وَمَنْ لا يَحِبُّهُ اللهُ، فَأَيُّ خَيْرٍ يَنَالُ؟! وَأَيُّ فَضْلٍ يُؤْمَلُ^(١)؟!

❏ ومن هنا كان مُتَأَكِّدًا على كُلِّ مسلم أن يكونَ في حذرٍ بالغٍ وَحَيْطَةٍ كاملةٍ مِنَ الاعتداءِ في الدعاءِ بتجاوزِ حدِّ الشريعةِ فيه، والبعدِ عن ضوابطِهِ وأصولِهِ المَعْلُومَةِ. والاعتداءُ مشتقٌّ مِنَ العُدوانِ، وهو تجاوزُ ما ينبغي أن يُقْتَصَرَ عليه مِنَ حدودِ الشريعةِ وضوابطِها المَعْلُومَةِ؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ أَي: إِنَّ ما فَصَّلَهُ اللهُ سبحانه لِعِبَادِهِ مِنَ الشرائعِ والأحكامِ يَجِبُ مَلازِمَتُهُ، والوقوفُ عنده، وعدمُ تعديهِ؛ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، وَأَيُّ ظَلَمٍ لِلنَفْسِ أَنْكَى وَأَشَدَّ مِنْ تَجَاوُزِ الحدودِ الشرعيَّةِ، وضوابطِها المَهْمَّةِ المُتَّبَعَةِ؟!

ثمَّ كيف يُؤْمَلُ في الإجابةِ وَيُطَمَّعُ في القَبُولِ مَنْ يتجاوزُ في دعائِهِ ضوابطَ الشريعةِ، وَيَتَعَدَّى حدودَها المُقَرَّرَةَ؟! فالدعاءُ المُعْتَدَى فيه لا يَحِبُّهُ اللهُ ولا يَرْضاهُ، فكيف يُؤْمَلُ صاحِبُهُ أن يُسْتَجابَ منه ويُقبلَ؟!

والاعتداءُ في الدعاءِ يتناولُ أمورًا عديدةً متفاوتةً في الخطورةِ والبُعْدِ عن الحقِّ والاعتدالِ، إلَّا أنَّ أشدَّ الاعتداءِ خطرًا، وأعظمُهُ ضررًا على صاحِبِهِ دعاءُ غيرِ اللهِ تعالى؛ فَإِنَّ ذلكَ أعظمُ العدوانِ، وأقبحُ الذُّلِّ والهوانِ؛ إذ كيف يَتَوَجَّهُ المخلوقُ بدعائِهِ ورجائِهِ وذُلِّهِ وخضوعِهِ إلى مخلوقٍ مثله لا يُعْطَى ولا يَمْنَعُ، ولا يَخْفِضُ ولا يَرْفَعُ، وَيَدْعُ مَنْ بيده أَرْزَمَةُ الأمورِ ومقاليذُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ؛ ولهذا فَإِنَّ مَنْ يدعو غيرَ اللهِ وهو يُؤْمَلُ أن يُسْتَجابَ له قد بَلَغَ النِّهَايَةَ في الضلالِ، ولم يَحْصُلْ مِنْ ذلكَ إلَّا على الحَيِّيةِ والجِرْمانِ، والذُّلِّ والخُسرانِ في الدنيا والآخرة؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

* **وَمِنَ الْاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ:** سَوَّالُ اللَّهِ ﷻ مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْأَلَ مِنْ
الْمَعُونَةِ عَلَى فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَارْتِكَابِ الذُّنُوبِ، وَغَشْيَانِ الْمَعَاصِي؛ كَأَنْ
يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى سَفَرٍ يَرِيدُ بِهِ الْإِثْمَ وَالْبَاطِلَ، أَوْ أَنْ يُيسِّرَ لَهُ طَرِيقًا
لِلْفَاحِشَةِ وَالْعُدْوَانِ.

* **وَمِنَ الْاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ:** أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ مَا عُلِمَ مِنْ حُكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ
لَا يَفْعَلُهُ؛ كَأَنْ يَسْأَلَ تَخْلِيدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَوْ أَنْ يَسْأَلَ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ لَوَازِمَ
الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْهَوَاءِ، أَوْ أَنْ يَسْأَلَ إِطْلَاعَهُ عَلَى غَيْبِهِ
وَمَا اسْتَأْثَرَ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ، أَوْ أَنْ يَسْأَلَ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنَ الْمَعْصُومِينَ، أَوْ أَنْ يَهَبَ لَهُ
وَلَدًا مِنْ غَيْرِ زَوْجَةٍ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا سَوَّالُهُ اِعْتِدَاءٌ لَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَلَا يَحِبُّ فَاعِلُهُ^(١).

* **وَمِنَ الْاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ:** سَوَّالُ اللَّهِ مَا لَا يَلِيقُ بِالسَّائِلِ مِنَ الْمَنَازِلِ
وَالدَّرَجَاتِ، كَأَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ مَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَوْ يَكُونَ مَلَكًا، أَوْ نَحْوَ
ذَلِكَ.

* **وَكذلك مِنَ الْعُدْوَانِ فِي الدُّعَاءِ:** أَنْ يَدْعُو اللَّهَ غَيْرَ مُتَضَرِّعٍ، بَلْ دُعَاءُ
هَذَا يَكُونُ كَالْمُسْتَغْنِي الْمُدِلِّ عَلَى رَبِّهِ.

* **وَمِنَ الْاِعْتِدَاءِ:** أَنْ يَعْبُدَهُ بِمَا لَمْ يَشْرَعْ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا لَمْ يُثْنِ بِهِ عَلَى
نَفْسِهِ وَلَا أَذِنَ فِيهِ.

* **وَمِنَ الْاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ كَذَلِكَ:** الدُّعَاءُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّعْنَةِ وَالْخِزْيِ
وَالْهَوَانِ؛ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي مَعْنَى الْمُعْتَدِينَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ: «هَمُّ الَّذِينَ
يَدْعُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا لَا يَحِلُّ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَخْزِهِمْ، اللَّهُمَّ اأْزِهِمْ، اللَّهُمَّ اأْزِهِمْ»^(٢).

وَجَاءَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، قَالَ: «لَا تَدْعُوا عَلَى الْمُؤْمِنِ
وَالْمُؤْمِنَةِ بِالشَّرِّ: اللَّهُمَّ أَخْزِهِ وَالْعَنَّهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ عُدْوَانٌ»^(٣).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٢/١٥).

(٢) «تفسير البغوي» (١٦٦/٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٤٧٥/٣).

* وَمِنَ الْإِعْتِدَاءِ: رَفَعَ الصَّوْتُ بِهِ رَفْعًا يُخِلُّ بِالْأَدَبِ؛ قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنُ جُرَيْجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ مِنَ الدُّعَاءِ اعْتِدَاءً: يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنَّدَاءُ وَالصِّيَاحُ بِالدُّعَاءِ، وَيُؤْمَرُ بِالتَّضَرُّعِ وَالِاسْتِكَانَةِ»^(١).

وَعَمُومًا: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِحَسَبِ مَفَارِقَتِهِ لِلسُّنَّةِ، وَابْتِعَادِهِ عَنْ هَذِي خَيْرِ الْأُمَّةِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: يَكُونُ نَصِيبُهُ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ وَالتَّجَاوُزِ، وَمَنْ لَزِمَ هَدْيَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ، وَتَقَيَّدَ بِسُنَّتِهِ، أَمِنَ مِنَ الزَّلَلِ، وَحُفِظَ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنَ الْخَطَلِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأِنَّمَا اشْتَغَلَتْ قُلُوبُ طَوَائِفَ مِنَ النَّاسِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ: إِمَّا بِالْأَدْعِيَةِ، وَإِمَّا مِنَ الْأَسْفَارِ، وَإِمَّا مِنَ السَّمَاعَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِإِعْرَاضِ قُلُوبِهِمْ عَنِ الْمَشْرُوعِ، وَإِنْ قَامُوا بِصُورَةِ الْمَشْرُوعِ، وَإِلَّا فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بِوَجْهِهِ وَقَلْبِهِ، عَاقِلًا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَهْتَمًّا بِهَا كُلَّ الْإِهْتِمَامِ، أَغْنَتْهُ عَنْ كُلِّ مَا يَتَوَهَّمُ فِيهِ خَيْرًا مِنْ جَنْسِهَا، وَمَنْ أَصْغَى إِلَى كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ بِعَقْلِهِ، وَتَدَبَّرَ بِقَلْبِهِ وَجَدَ فِيهِ مِنَ الْفَهْمِ وَالْحِلَاوَةِ وَالْهَدْيِ وَشَفَاءِ الْقُلُوبِ وَالْبَرَكَةِ وَالْمَنْفَعَةِ مَا لَا يَجِدُهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ؛ لَا مِنْظُومٍ، وَلَا مَثُورَةٍ، وَمَنْ اعْتَادَ الدُّعَاءَ الْمَشْرُوعَ فِي أَوْقَاتِهِ؛ كَالْأَسْحَارِ وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ وَالسُّجُودِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَغْنَاهُ عَنْ كُلِّ دُعَاءٍ مُبْتَدَعٍ فِي ذَاتِهِ، أَوْ فِي بَعْضِ صِفَاتِهِ، فَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي اتِّبَاعِ السُّنَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيَعْتَاضَ عَنْ كُلِّ مَا يَظُنُّ مِنَ الْبِدْعِ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ مِنَ السُّنَنِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطِهِ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ»^(٢). اهـ كَلَامُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو - كما ترى - كَلَامٌ عَظِيمُ النِّفْعِ، جَلِيلُ الْفَائِدَةِ مِنْ هَذَا الْإِمَامِ الْجَلِيلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ وَجَزَّاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَرَهُ.



(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٨٤).

(١) «تفسير الطبري» (٢٠٧/٥).

مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ: إِخْفَاؤُهُ

مَرَّ مَعَنَا قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَدِبِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وما فيه مِنْ نَهْيٍ وَتَحْذِيرٍ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ بِجَمِيعِ صُورِهِ، وَأَنَّ الدُّعَاءَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْإِعْتِدَاءَ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَلَا يَرْضَاهُ، وَلَا يَقْبَلُهُ؛ مِمَّا يَتَطَلَّبُ مِنَ الْمُسْلِمِ الْحَيْطَةَ وَالْحَذَرَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ - مَعَ هَذَا - تَضَمَّنَتْ أَيْضًا بَيَانَ آدَبٍ آخَرَ عَظِيمٍ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ، أَلَا وَهُوَ إِخْفَاؤُهُ وَإِسْرَارُهُ وَعَدْمُ الْجَهْرِ بِهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ أَي: سِرًّا لَا عَلَنًا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: «رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالدُّعَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)»^(١).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رضي الله عنه: «لَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي السِّرِّ، فَيَكُونُ عَلَانِيَةً أَبَدًا، وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَمَا يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتُ، إِنْ كَانَ إِلَّا هَمْسًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ﷻ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ عَبْدًا صَالِحًا رَضِيَ فِعْلُهُ؛ فَقَالَ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]»^(٢).

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٤٩).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (ص ٤٥)، و«تفسير الطبري» (٥/ ٥١٤).

وقال ابن جُرَيْج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءُ وَالصِّيَاحُ فِي الدُّعَاءِ، وَيُؤْمَرُ بِالتَّضَرُّعِ وَالِاسْتِكَانَةِ»^(١).

فإخفاء الدعاء وَعَدَمُ الْجَهْرِ بِهِ أَدَبٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْفَضَائِلِ وَالْمَنَافِعِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى، وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِإِخْفَاءِ الدُّعَاءِ فَوَائِدَ عَدِيدَةً يَتَبَيَّنُ مِنْ خِلَالِهَا أَهَمِّيَّةُ إِخْفَاءِ الدُّعَاءِ، وَكَثْرَةُ الْعَوَائِدِ وَالْفَضَائِلِ الْمُرْتَبِّةِ عَلَى إِخْفَائِهِ:

أحدها: أَنَّهُ أَعْظَمُ إِيْمَانًا؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ الْخَفِيَّ.

وثانيها: أَنَّهُ أَعْظَمُ فِي الْأَدَبِ وَالتَّعْظِيمِ، فَإِذَا كَانَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ الْخَفِيَّ، فَلَا يَلِيقُ بِالْأَدَبِ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا خَفَضَ الصَّوْتَ بِهِ.

ثالثها: أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي التَّضَرُّعِ وَالْخُشُوعِ، الَّذِي هُوَ رُوحُ الدُّعَاءِ وَلُبُّهُ وَمَقْصُودُهُ؛ فَإِنَّ الْخَاشِعَ الذَّلِيلَ إِنَّمَا يَسْأَلُ مَسْأَلَةَ مُسَكِينٍ ذَلِيلٍ، قَدْ انْكَسَرَ قَلْبُهُ، وَذَلَّتْ جَوَارِحُهُ، وَخَشَعَ صَوْتُهُ.

رابعها: أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْإِخْلَاصِ.

خامسها: أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي جَمْعِيَّةِ الْقَلْبِ عَلَى الذَّلَّةِ فِي الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ يَفَرِّقُهُ، فَكَلَّمَا خَفَضَ صَوْتَهُ كَانَ أَبْلَغَ فِي تَجْرِيدِ هِمَّتِهِ وَقَصْدِهِ لِلْمَدْعُوِّ سُبْحَانَهُ.

سادسها: أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى قُرْبِ صَاحِبِهِ لِلْقَرِيبِ، لَا مَسْأَلَةَ نِدَاءِ الْبَعِيدِ لِلْبَعِيدِ؛ وَلِهَذَا أَثْنَى اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ زَكَرِيَّا بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ الْقَلْبُ قُرْبَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ، أَخْفَى دُعَاءَهُ مَا أَمَكَنَهُ.

سابعها: أَنَّهُ أَدْعَى إِلَى دَوَامِ الطَّلَبِ وَالسُّؤَالِ؛ فَإِنَّ اللِّسَانَ لَا يَمَلُّ، وَالْجَوَارِحَ لَا تَتَعَبُ، بِخِلَافِ مَا إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَمَلُّ اللِّسَانُ، وَتَضَعُفُ قَوَاهُ،

وهذا نظير مَنْ يقرأ ويكرّر، فإذا رَفَعَ صَوْتَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَطُولُ لَهُ، بخلاف مَنْ خَفَضَ صَوْتَهُ.

ثامنها: أَنَّ إخفاء الدعاء أبعَدُ له مِنَ القواطع والمشوشات؛ فَإِنَّ الداعي إِذَا أَخْفَى دَعَاءَهُ لَمْ يَدْرِ بِهِ أَحَدٌ؛ فَلَا يَحْصُلُ عَلَى هَذَا تَشْوِيشٌ وَلَا غَيْرُهُ، وَإِذَا جَهَرَ بِهِ فَرَطَتْ لَهُ الْأَرْوَاحُ الْبَشَرِيَّةُ وَلَا بُدَّ، وَمَانَعَتُهُ وَعَارَضَتُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ تَعَلَّقَهَا بِهِ يُفْزِعُ عَلَيْهِ هِمَّتَهُ، فَيَضَعُفُ أَثَرُ الدُّعَاءِ، وَمَنْ لَهُ تَجَرِبَةٌ يَعْرِفُ هَذَا، فَإِذَا أَسَرَ الدُّعَاءَ أَمِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ.

تاسعها: أَنَّ أَعْظَمَ النِّعْمَةِ الْإِقْبَالُ وَالتَّعَبُّدُ، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ حَاسِدٌ عَلَى قَدْرِهَا، دَقَّتْ أَوْ جَلَّتْ، وَلَا نِعْمَةٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ؛ فَإِنَّ أَنْفُسَ الْحَاسِدِينَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا، وَلَيْسَ لِلْمَحْسُودِ أَسْلَمٌ مِنْ إِخْفَاءِ نِعْمَتِهِ عَنِ الْحَاسِدِ، وَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ الْآيَةُ [يوسف: ٥].

فهذه جملة من الفوائد العظيمة، والثمار الكريمة، التي تترتب على إخفاء الذكر وعَدَمِ الجهر به، وَمِنْ خِلَالِهَا يَظْهَرُ لِلْمُسْلِمِ أَهْمِيَّةُ إِخْفَاءِ الدُّعَاءِ وَإِسْرَارِهِ، بخلافِ الجهر به وإعلانه؛ فَإِنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ ضِدُّ ذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَقَدَ مُقَارَنَةً مُفِيدَةً بَيْنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ يَتَضَمَّنُ الْآخَرَ وَيَدْخُلُ فِيهِ، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ [تعالى] فِي آيَةِ الذِّكْرِ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وَفِي آيَةِ الدُّعَاءِ قَالَ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فَذَكَرَ التَّضَرُّعُ فِيهِمَا مَعًا، وَهُوَ التَّذَلُّلُ وَالتَّمَسُّكُ وَالْانْكَسَارُ، وَهُوَ رُوحُ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ.

وخصَّ الدعاء بالخُفْيَةِ؛ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكْمِ وَغَيْرِهَا، وَخَصَّ الذِّكْرَ بِالْخِيفَةِ؛ لِحَاجَةِ الذَّاكِرِ إِلَى الْخَوْفِ؛ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَسْتَلْزِمُ الْمَحَبَّةَ وَيُثْمِرُهَا، وَلَا بُدَّ لِمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَنْ يُثْمَرَ لَهُ ذَلِكَ مَحَبَّتُهُ، وَالْمَحَبَّةُ مَا لَمْ تَقْتَرَنْ بِالْخَوْفِ

فإنَّها لا تنفعُ صاحبَها، بل تُضرُّه؛ لأنَّها توجبُ التواني... فما حُفِظَتْ حدودُ الله ومُحارمُهُ، ووَصَلَ الواصلون إليه بمثلِ خوفِهِ ورجائِهِ ومَحَبَّتِهِ، فمتى خلا القلبُ مِنْ هذه الثلاثِ فسَدَ فسادًا لا يُرجى صلاحُهُ أبدًا، ومتى ضَعُفَ فيه شيءٌ من هذه ضَعُفَ إيمانه بِحَسَبِهِ، فتأملْ أسرارَ القرآنِ وحكمتَهُ في اقترانِ الخِيفَةِ بالذِّكْرِ، والخِيفَةِ بالدعاء.

... وذَكَرَ الطَّمَعُ الذي هو الرجاءُ في آيةِ الدعاء؛ لأنَّ الدعاءَ مبنيٌّ عليه؛ فإنَّ الداعيَ ما لَمْ يَطْمَعْ في سؤالِهِ ومطلوبِهِ لَمْ تتحرَّكْ نفسُهُ لطلبِهِ؛ إذ طَلَبُ ما لا طَمَعَ له فيه ممتنعٌ.

وذَكَرَ الخوفَ في آيةِ الذِّكْرِ لشِدَّةِ حاجةِ الذاكر^(١) إليه، فذكرَ في كلِّ آيةٍ ما هو اللائقُ بها مِنَ الخوفِ والطَّمَعِ، فتباركَ مَنْ أنزَلَ كلامَهُ شفاءً لِمَا في الصدور^(٢). اهـ كلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ.

وإذا كان الجهرُ بالدعاءِ يترتَّبُ عليه ما تقدَّمَ مِنْ فوائِدٍ لتلكِ المصالحِ والفوائِدِ إنْ كان صادرًا مِنْ فردٍ، فلا ريبَ أنَّ صُدُورَهُ مِنْ جماعةٍ وبأداءٍ واحدٍ أبلغُ في تفويتِ تلكِ المصالحِ والفوائِدِ المترتبةِ عليه. وكان السلفُ رحمهم الله يَعُدُّونَ ذلكَ نوعًا مِنَ الإحداثِ في الدِّينِ، والخروجِ عن نهجِ سَيِّدِ المرسلينِ.

رَوِيَ عَنْ مُجَالِدِ بْنِ مَسْعُودٍ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سَمِعَ قَوْمًا يَعُجُّونَ فِي دَعَائِهِمْ، فَمَشَى إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْقَوْمُ، لَقَدْ أَصَبْتُمْ فَضْلًا عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَوْ لَقَدْ هَلَكْتُمْ. فَجَعَلُوا يَتَسَلَّلُونَ رَجُلًا رَجُلًا حَتَّى تَرَكُوا بُقْعَتَهُمُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا»^(٣).
فاللهُ وحده المستعان، وهو وليُّ التوفيقِ والسداد.



(١) في الأصل «الخائف» وهو تصحيف لدلالة ما قبله عليه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/١٥ - ٢٢).

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٥/٣).

أَنْوَاعُ التَّوَسُّلِ الْمَشْرُوعِ

إِنَّ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الْعَظِيمَةِ التَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ يَدَيِ الدُّعَاءِ بِمَا شَرَعَهُ وَأَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ لِعِبَادِهِ وَسِيلَةً تَقَرَّبُ بِهِمْ إِلَيْهِ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ أَيِ: الْقُرْبَةِ. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ التَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا أَحَبَّ وَشَرَعَ، لَا بِالْأَهْوَاءِ وَالْبَدْعِ، وَهَذَا بَابٌ مَهْمٌ لِلْغَايَةِ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُنَّ لَهُ، وَأَنْ يَحْذَرَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَخَالَفَةِ فِيهِ؛ إِذْ إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقَعُ فِي هَذَا الْبَابِ فِي مَخَالَفَاتٍ عَدِيدَةٍ، وَانْحِرَافَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ أَمْرٌ يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ، وَوَسِيلَةٌ تَدْنِيهِ مِنْهُ، إِلَّا أَنَّ التَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ لَا يَكُونُ نَافِعًا لِلْعَبْدِ مَقْبُولًا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَشْرُوعًا قَدْ دَلَّ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَعِنْدَ التَّأَمُّلِ لِلنُّصُوصِ فِي هَذَا نَجَدُ أَنَّهَا قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنْوَاعٍ مَعْيَنَةٍ يُشْرَعُ لِلْعِبَادِ أَنْ يَتَوَسَّلُوا إِلَى اللَّهِ بِهَا؛ وَهِيَ:

أولاً: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

* وَمِنْ أَمْثَلَةِ هَذَا النَّوْعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ الدُّعَاءِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الشَّعَاءُ عَلَى اللَّهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى الْعَظِيمَةِ.

* **وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا:** قولُ الداعي: يا رحمانُ ارحمني، أو: يا غفورُ اغفرْ لي، أو: يا رَزَّاقُ ارزقني، ونحو ذلك مِنَ التَّوَسُّلَاتِ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى.

ثانيًا: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعَبْدُ؛ كَأَن يَتَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَطَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَحَبَّتِهِ.

* **وَمِنْ هَذَا النُّوعِ:** قولُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْتَرِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

* **وَمِنْ ذَلِكَ:** تَوَسُّلُ التَّنْفِرِ الثَّلَاثَةِ بِأَعْمَالِهِمْ عِنْدَمَا انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ وَهَمُ فِي الْغَارِ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ وَفَرَّجَ هَمَّهُمْ؛ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفَرَ يَتَمَشَّوْنَ، أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَّأُوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِّ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ، إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صَبِيَّةٌ صِغَارُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَإِنَّهُ نَأَى بِسِي ذَاتِ يَوْمِ الشَّجَرِ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصَّبِيَّةَ قَبْلَهُمَا، وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَّجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ.

وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ، إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمَّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرَّجَالُ

النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتَيْهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعَبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ، فَأَفْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ.

وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرْزٍ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ، قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ، فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرِعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقْرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ، فَأَفْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللَّهُ مَا بَقِيَ^(١).

فهؤلاء تَوَسَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعَمَلٍ صَالِحٍ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ؛ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِجَابَةِ دَعَائِهِمْ، وَتَحْقِيقِ رِجَائِهِمْ، وَكُشْفِ كُرْبَتِهِمْ.

ثَالِثًا: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَعَاءِ الصَّالِحِينَ الْأَحْيَاءِ، بَأَن يُطَلَّبَ الْمُسْلِمُ مِنْ أَخِيهِ الْحَيِّ الْحَاضِرِ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ لَهُ؛ فَهَذَا النُّوعُ مِنَ التَّوَسُّلِ مَشْرُوعٌ؛ لِثَبُوتِهِ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ حَيْثُ كَانَ بَعْضُهُمْ يَأْتِيهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُ الدُّعَاءَ لَهُ أَوْ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ.

* وَمِنْ ذَلِكَ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَامَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكَ الْمَالُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ - وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَرَعَةً - فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا وَضَعَهَا حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ...»^(٢)، إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ.

* وَمِثْلُهُ كَذَلِكَ: تَوَسُّلُ الصَّحَابَةِ ﷺ بِدَعَاءِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ فِي

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٣٣٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٩٣٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٧).

«صحيح البخاري»، من حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَانَ إِذَا قُحِطُوا، اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَنِيِّنَا ﷺ فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ»^(١).

والمراد بقوله: «إِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا»؛ أي: بدعائه.

فهذه الأنواع الثلاثة مِنَ التَّوَسُّلِ كُلُّهَا مشروعة؛ لِذَلَالَةِ نصوصِ الشرعِ عليها، وَأَمَّا مَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ، فَيَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَنِبَهُ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.



التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِنْجِرَافِ فِي فَهْمِ مَعْنَى التَّوَسُّلِ

تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ عَنِ التَّوَسُّلِ أَوْ ابْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ لَفْظٌ شَرْعِيٌّ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وهذه الوسيلة التي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُبْتَغَى إِلَيْهِ، وَأُخْبِرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَهَا إِلَيْهِ، هِيَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَمَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؛ سِوَاءٍ كَانَ مُحَرَّمًا أَوْ مَكْرُوهًا أَوْ مَبَاحًا.

وَالوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ هُوَ مَا شَرَعَهُ الرَّسُولُ ﷺ، فَأَمَرَ بِهِ أَمْرٌ إيجابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ، وَأَصْلُ ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؛ وَلِهَذَا يُمَكَّنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ جَمَاعَ الْوَسِيلَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ بِابْتِغَائِهَا هُوَ التَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، لَا وَسِيلَةً لِأَحَدٍ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِذَلِكَ.

وَسَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنْوَاعٍ ثَلَاثَةٍ مِنَ التَّوَسُّلِ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهَا فِي دَعَاءِ الْمُسْلِمِ لِرَبِّهِ، وَهِيَ التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِدَعَاءِ الصَّالِحِينَ الْأَحْيَاءِ. لَكِنْ يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لَفْظَ «الْوَسِيلَةِ» وَ«التَّوَسُّلِ» صَارَ فِيهِ إِجْمَالٌ وَاشْتِبَاهٌ فِي إِطْلَاقَاتِ النَّاسِ وَفُهْمِهِمْ؛ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْأَهْوَاءِ، وَانْتِشَارِ الْبَدْعِ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَنْ تُعْرَفَ مَعَانِيهِ وَيُعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ، فَيُعْرَفَ مَا وَرَدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ ذَلِكَ وَمَعْنَاهُ، وَمَا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهِ الصَّحَابَةُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَيْضًا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ مَا أَحَدَثَهُ الْمُخْدِثُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ؛ إِذْ إِنَّ الْمَفَاهِيمَ الْخَاطِئَةَ فِي هَذَا الْبَابِ قَدْ كَثُرَتْ، وَالْأَهْوَاءُ وَالْبَدْعُ فِيهِ عَمَّتْ وَانْتَشَرَتْ، فَأَدْخَلَ فِي مَعْنَى التَّوَسُّلِ

أُمُورٌ كَثِيرَةٌ مُحَدَّثَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا أُسُسَ، لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمَشْهُورَةِ بَيْنَهُمْ.

❏ وَأَخْطَرُ مَا كَانَ وَيَكُونُ فِي هَذَا الْأَمْرِ: هُوَ دَعَاءُ الْأَمْوَاتِ وَالْغَائِبِينَ، وَالِاسْتِغَاثَةُ بِهِمْ، وَسُؤَالُهُمْ، وَإِنْزَالُ الْحَوَائِجِ بِهِمْ، وَطَلَبُهُمْ قَضَاءَ الْحَاجَاتِ، وَكَشْفَ الْكُرْبَاتِ، وَشِفَاءَ الْمَرْضَى، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَتَسْمِيَةُ ذَلِكَ تَوَسُّلاً، فَجَعَلَ هَؤُلَاءِ لَفْظَ التَّوَسُّلِ مُتَّكَأً لَهُمْ، نَشَرُوا مِنْ خِلَالِهِ هَذِهِ الْأُمُورَ الْكُفْرِيَّةَ، وَالضَّلَالَاتِ الْخَطِيرَةَ. وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ: أَنَّهَا تَوَسُّلٌ إِلَى الشَّيْطَانِ، لَا إِلَى الرَّحْمَنِ، وَإِلَى الضَّلَالِ وَالْبَاطِلِ، لَا إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى؛ إِذْ هِيَ مِنَ الشَّرِكِ الْأَكْبَرِ النَّاقِلِ مِنَ الْمِلَّةِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنْ قَالَ: أَنَا أَسْأَلُهُ لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ مِنِّي؛ لِيَشْفَعَ لِي فِي هَذِهِ الْأُمُورِ؛ لِأَنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ بِهِ كَمَا يُتَوَسَّلُ إِلَى السُّلْطَانِ بِخَوَاصِّهِ وَأَعْوَانِهِ، فَهَذَا مِنْ أَفْعَالِ الْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى؛ فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَخَذُونَ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ شُفَعَاءَ يَسْتَشْفَعُونَ بِهِمْ فِي مَطَالِبِهِمْ، وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، وَقَالَ ﷺ: ﴿أَمْرٌ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَوْلَى مِنَ اللَّهِ وَلَا شَفِيعٌ إِلَّا نَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فَبَيَّنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ؛ فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ أَنْ يَسْتَشْفَعُوا إِلَى الْكَبِيرِ مِنْ كِبَرَاتِهِمْ بِمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُهُ ذَلِكَ الشَّفِيعَ، فَيَقْضِي حَاجَتَهُ؛ إِمَّا رَغْبَةً، وَإِمَّا رَهْبَةً، وَإِمَّا حَيَاءً، وَإِمَّا مَوَدَّةً، وَإِمَّا غَيْرَ ذَلِكَ. وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ حَتَّى يَأْذَنَ هُوَ لِلشَّافِعِ، فَلَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا شَاءَ، وَشَفَاعَةُ الشَّافِعِ مِنْ إِذْنِهِ؛ فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ»^(١). اهـ كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

إِنَّ تسميةَ هذه الأمورِ الشَّرَكِيَّةِ تَوْشُّلاً لَا يُغَيِّرُ مِنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَلَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً، فَمَجَرَّدُ الْاِخْتِلَافِ فِي التَّسْمِيَةِ لَا يُؤَثِّرُ تَحْلِيلاً وَلَا تَحْرِيماً، فَالْحَلَالُ لَوْ سَمَّاهُ أَحَدٌ بِغَيْرِ اسْمِهِ لَا يَصْبِحُ حَرَاماً، وَالْحَرَامُ إِذَا سَمَّاهُ أَحَدٌ بِغَيْرِ اسْمِهِ لَا يَصْبِحُ حَلَالاً؛ فَمَنْ أَطْلَقَ عَلَى الْخَمْرِ غَيْرَ اسْمِهَا وَشَرِبَهَا، كَانَ حُكْمُهُ حَكَمَ مَنْ شَرِبَهَا وَهُوَ يُسَمِّيُهَا بِاسْمِهَا بِلَا خِلَافٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ جَمَلَةِ الْعِبَادَاتِ، بَلْ هُوَ أَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَصَرَفُهُ لَغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ، وَتَسْمِيَةُ ذَلِكَ تَوْشُّلاً لَا يُغَيِّرُ مِنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ شَيْئاً، فَمَنْ دَعَا الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الْمَوْتَى وَالْغَائِبِينَ، وَاسْتَغَاثَ بِهِمْ، كَانَ مُشْرِكاً بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَخَسِرَ الْخُسْرَانَ الْمَبِينَ.

وَلَقَدْ فَتَحَ هَؤُلَاءِ بِهِذِهِ الضَّلَالَاتِ الطَّرِيقَ أَمَامَ أَعْدَاءِ الدِّينِ لِنَشْرِ ضَلَالِهِمْ، وَإِنْفَاذِ بَاطِلِهِمْ، وَالدِّفَاعِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ، وَالْكِيدِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَإِلَيْكُمْ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ فِيهَا تَجَلِيَّةٌ لِهَذَا الْأَمْرِ وَبَيَانٌ لَخَطُورَتِهِ: لَقِيَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الرُّهْبَانِ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ، فَنَازَلَهُمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالُوا لَهُ: نَحْنُ نَعْمَلُ مِثْلَ مَا تَعْمَلُونَ: أَنْتُمْ تَقُولُونَ بِالسَّيِّدَةِ نَفِيسَةٍ، وَنَحْنُ نَقُولُ بِالسَّيِّدَةِ مَرِيَمَ، وَقَدْ أَجْمَعْنَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى أَنَّ الْمَسِيحَ وَمَرِيَمَ أَفْضَلُ مِنَ الْحُسَيْنِ وَمِنْ نَفِيسَةٍ، وَأَنْتُمْ تَسْتَغِيثُونَ بِالصَّالِحِينَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ وَنَحْنُ كَذَلِكَ.

فَانْظُرْ أَخِي الْمُسْلِمُ كَيْفَ فَتَحَ هَؤُلَاءِ الطَّرِيقَ أَمَامَ أَعْدَاءِ الدِّينِ عِنْدَمَا شَابَهُوهُمْ فِي الْعَمَلِ، وَابْتَعَدُوا عَنْ رُوحِ الْإِسْلَامِ وَحَقِيقَتِهِ.

وَلِهَذَا أَجَابَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ هَؤُلَاءِ الرُّهْبَانَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَفِيهِ شَبَهُ مِنْكُمْ، وَهَذَا مَا هُوَ دِينُ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نَدَّ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا نُشْرِكَ مَعَهُ مَلَكًا وَلَا شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا كَوْكَبًا، وَلَا نُشْرِكَ مَعَهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا صَالِحًا»، وَذَكَرَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أُمُورًا بَيَّنَّ فِيهَا حَقِيقَةَ تَوْحِيدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ أَوْلَئِكَ الْمُبْطِلُونَ، فَلَمَّا سَمِعَ الرُّهْبَانُ ذَلِكَ،

قالوا له: «الدِّينُ الَّذِي ذَكَرْتَهُ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا مِنْ عِنْدِهِ»^(١).

فهذه القِصَّةُ فيها عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ وفوائدُ متنوِّعة، أهمُّها ضرورةُ العنايةِ بِدِينِ اللَّهِ ﷻ كما جاء ووَرَدَ، بعيداً عن انحرافِ الْمُضِلِّينَ، وضلالِ الْمُبْطِلِينَ، واللهُ وحدهُ المستعان.



مِنَ التَّوَسُّلِ الْبَاطِلِ: دُعَاءُ الصَّالِحِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لقد تقدّم معنا الكلامُ على التوسُّل، وبيانُ معناه الصحيح الثابت في كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وكذلك سبقَ الإشارةُ إلى وجودِ جملةٍ من المفاهيم الخاطئة، والتقريباتِ الفاسدة، شاعت بين بعضِ الناس، ظنُّوها من التوسُّل المشروع المقربِ إلى الله ﷻ، وربّما أيضًا حملَ بعضُ الناسِ حُبُّهُمْ للأولياء والصالحين على تعظيمهم تعظيمًا غيرَ مشروع بالاستغاثَةِ بهم، ودعائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وإنزالِ الحاجاتِ بهم، وتسمية ذلك توسُّلاً.

﴿إِنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ: أَنْ يَعْرِفَ للأولياء والصالحين قَدْرَهُمْ وَمَكَانَتَهُمْ وَمَنْزِلَتَهُمْ، دُونَ أَنْ يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى الْغُلُوِّ فِيهِمْ؛ إِذْ إِنَّ الْغُلُوَّ فِي الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ أَصْلُ الشَّرِكِ وَسَبْهُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ؛ لِقُرْبِ الشَّرِكِ بِهِمْ مِنَ النَفُوسِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُظْهِرُ ذَلِكَ فِي قَالِبِ الْمَحَبَّةِ وَالْعَظِيمِ، وَالاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ لِلأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

روى البخاريُّ في «صحيحه»، عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال: «هذه أسماءُ رجالٍ صالحين مِنْ قومِ نُوحٍ، فلَمَّا هَلَكُوا، أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ، عُبِدَتْ»^(١).

وبهذا يتبيّن أن الشيطانَ يَتَنَقَّلُ بهؤلاءِ في طريقِ الباطلِ عَبْرَ مراتبٍ عديدة، ودرجاتٍ متنوّعة، إلى أَنْ يَصِلَ بِهِمْ إِلَى غَايَةِ الْبَاطِلِ وَمُنْتَهَاهَا، فيبدأ معهم

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٩٢٠).

عدو الله أولاً بدعوتهم إلى تعظيم الصالحين تعظيمًا مُبْتَدَعًا بالبناء على قبورهم، أو اتخاذِ تصاويرَ لهم، أو نحو ذلك، فإذا فعلوا ذلك، نَقَلَهُمْ إلى ما هو أعظم من ذلك، وهو الإقسام على الله بهم، وشأن الله أعظم من أن يُقَسَمَ عليه أو يُسألَ بأحدٍ من خلقه، فإذا تَقَرَّرَ ذلك عندهم، نَقَلَهُمْ مِنْ ذَلِكَ إلى دُعَائِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، وسؤالِهِمُ الشفاعةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، واتخاذِ قبورِهِمْ أوثانًا يُعَكِّفُ عليها، وتَعَلَّقَ عليها القناديلُ والستورُ، ويُطَافُ بها، وتُسْتَلَمُ وتُقَبَّلُ، وَيُحْجَّ إليها، وَيُذْبِحُ عندها، فإذا تَقَرَّرَ ذلك عندهم، نَقَلَهُمْ مِنْهُ إلى دعاءِ الناسِ إلى عبادتها، واتخاذِها عيدًا ومَنَسَكًا، ورَأَوْا أَنَّ ذَلِكَ أَنْفَعُ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، فإذا تَقَرَّرَ ذلك عندهم، نَقَلَهُمْ مِنْهُ إلى التحذيرِ مِمَّنْ يَنْهَى عَنْ ذَلِكَ، وَوَصَفِهِ بِأَنَّهُ يَنْتَقِصُ الصَّالِحِينَ، وَيَحْطُ مِنْ أَقْدَارِهِمْ، وَلَا يُعْظِمُهُمْ، ونحو ذلك؛ ومعلومٌ أَنَّ ذلك ليس من التعظيمِ في شيءٍ، بل مِنَ الْبَهْتَانِ الْمُبِينِ، وَالْكَفْرِ الصَّرِيحِ، والضلالِ العظيم.

إِنَّ بَابَ التَّعْظِيمِ عِنْدَمَا لَا يُضْبَطُ بِالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَا يُتَقَيَّدُ فِيهِ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: يُوقِعُ الْإِنْسَانَ فِي صَنُوفٍ مِنَ الْخَطَا، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الضَّلَالِ، يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا مِنَ التَّعْظِيمِ وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَالشَّرْعُ الْمُطَهَّرُ قَدْ دَلَّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ تَعْظِيمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي حَدُودٍ مُعَيَّنَةٍ، دُونَ رَفْعِ لَهُمْ عَنْ مَنْزِلَتِهِمُ الَّتِي أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهَا؛ فَمَنْ عَظَّمَهُمْ بِغَيْرِ مَا حُدَّ فِي الشَّرْعِ، وَأَتَتْ بِهِ الْأَدْلَةُ، فَقَدْ جَاءَ بِضِدِّ التَّعْظِيمِ وَنَقِيضِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ لِمَنْ أَطْرَاهُ: (أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ! مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ ﷻ)،^(١) فَمَنْ عَظَّمَهُ ﷺ بِمَا لَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا أَتَى بِضِدِّ التَّعْظِيمِ، وَالتَّعْظِيمُ الْحَقُّ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ، وَمَحَلُّهُ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ وَالْجَوَارِحُ.

• أَمَّا تَعْظِيمُهُ ﷺ بِالْقَلْبِ: فَهُوَ مَا يَتَّبِعُ اعْتِقَادَ كَوْنِهِ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ تَقْدِيمِ

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٥٣/٣)، وابن حبان رقم (٦٢٤٠)، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٧٢).

مَحَبَّتِهِ عَلَى النَّفْسِ وَالْوَلَدِ وَالْوَالِدِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَيُصَدِّقُ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ أَمْرَانِ:
أحدهما: تجريدُ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهُ ﷻ كَانَ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى
تَجْرِيدِهِ، حَتَّى قَطَعَ أَسْبَابَ الشَّرِكِ وَوَسَائِلَهُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ؛ فَنَهَى أَنْ يُقَالَ:
مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، وَأَنْ يُحْلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ شَرٌّ، وَنَهَى أَنْ
يُصَلَّى إِلَى الْقُبُورِ، وَأَنْ تُتَّخَذَ مَسْجِدًا أَوْ عِيدًا، أَوْ أَنْ يُوقَدَ عَلَيْهَا السُّرُجُ، أَوْ
غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا قَرَّرَهُ ﷻ أَتَمَّ التَّقْرِيرِ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَهَدْيِهِ، فَتَعْظِيمُهُ ﷻ إِنَّمَا يَكُونُ
بِمُوَافَقَتِهِ عَلَى ذَلِكَ، لَا بِمُنَاقَضَتِهِ فِيهِ.

الأمرُ الثاني: تجريدُ متابعتِهِ وَتَحْكِيمُهُ وَحْدَهُ فِي الدَّقِيقِ وَالْجَلِيلِ، مِنْ
أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَالرِّضَا بِحُكْمِهِ، وَالْإِنْقِيَادَ لَهُ، وَالتَّسْلِيمَ، وَالْإِعْرَاضَ
عَمَّنْ خَالَفَهُ، وَعَدَمُ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَكُونَ وَحْدَهُ الْحَاكِمَ الْمُتَّبَعَ الْمَقْبُولَ
قَوْلُهُ؛ كَمَا كَانَ رَبُّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ الْمَعْبُودَ الْمَالُوهَ الْمَخُوفَ الْمَرْجُوَّ الْمُسْتَعَانَ
لَا شَرِيكَ لَهُ.

• أَمَّا تَعْظِيمُهُ ﷻ بِاللِّسَانِ: فَيَكُونُ بِالنِّسَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِمَّا أَثْنَى بِهِ
عَلَى نَفْسِهِ، وَأَثْنَى بِهِ عَلَيْهِ رَبُّهُ؛ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، فَكَمَا أَنَّ الْمُقْصَّرَ
الْمُفْرَطَ تَارِكٌ لِتَعْظِيمِهِ، فَالْغَالِي الْمُفْرَطُ كَذَلِكَ، وَكُلُّ مِنْهُمْ شَرٌّ مِنَ الْآخِرِ مِنْ
وَجْهِ دُونَ وَجْهِهِ، وَأَوَّلِيَاؤُهُ سَلَكُوا بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا.

• أَمَّا التَّعْظِيمُ بِالْجَوَارِحِ: فَهُوَ الْعَمَلُ بِطَاعَتِهِ، وَالسَّعْيُ فِي إِظْهَارِ دِينِهِ
وِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَنَصْرِهِ مَا جَاءَ بِهِ، وَبِتَصْدِيقِهِ فِيمَا أُخْبِرَ، وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ،
وَالْإِنْتِهَاءَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَالْمَوَالَاةَ وَالْمَعَادَاةَ وَالْحُبَّ وَالْبَغْضَ لِأَجْلِهِ
وَفِيهِ، وَتَحْكِيمُهُ وَحْدَهُ وَالرِّضَا بِحُكْمِهِ^(١).

فهذا هو مدارُ دِينِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وَبِهَذَا يَكُونُ تَعْظِيمُهُ وَتَوْقِيرُهُ،
وَهَذَا هُوَ التَّعْظِيمُ الْحَقُّ الْمَطَابِقُ لِحَالِ الْمُعْظَمِ، النَّافِعُ لِلْمُعْظَمِ فِي مَعَاشِهِ
وَمَعَادِهِ، خَلَاقًا لِمَنْ سَلَكَ فِي حَقِّهِ ﷻ جَانِبَ الْغُلُوِّ وَالْإِفْرَاطِ، أَوْ جَانِبَ الْجَفَاءِ

(١) انظر: «الصارم المُنْكَي» لابن عبد الهادي (ص ٤٥٢ - ٤٥٤).

والتفريط، وكلا هذين قد أضاعوا الواجب عليهم تَجَاهَ رَسُولِهِمُ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ.

وقد ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)؛ رواه البخاري^(١). وَرَغِمَ وَضُوحُ هَذَا الْمَنْهَجِ وَبَيَانُهُ، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ أَبَوْا إِلَّا مَخَالَفَةَ أَمْرِهِ، وَارْتِكَابَ نَهْيِهِ، وَنَاقِضُوهُ أَعْظَمَ الْمُنَاقِضَةِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِذَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّهُ لَا يُدْعَى، وَلَا يُسْتَغَاثُ بِهِ، وَلَا يُنْذَرُ لَهُ، وَلَا يُطَافُ بِحُجْرَتِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَنَّ فِي ذَلِكَ هَضْمًا لِحُجَّتِهِ، وَغَضًّا مِنْ قَدْرِهِ، وَانْتِقَاصًا مِنْ شَأْنِهِ، وَقَدْ جَهِلَ هَؤُلَاءِ أَنَّ التَّعْظِيمَ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمَتَابَعَةِ لَهُ فِي هَدْيِهِ، وَلِزُومِ نَهْجِهِ، وَتَرْسُمِ خُطَاهُ، لَا بِالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ، وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ.



أَوْقَاتٌ يُسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ

إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمَّا شَرَعَ لِعِبَادِهِ الدُّعَاءَ، وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ، وَحَثَّهُمْ عَلَيْهِ، وَوَعَدَهُمْ عَلَيْهِ الْإِجَابَةَ تَفْضُّلاً مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَكْرُّماً؛ هَيَّا لَهُمْ - مَعَ ذَلِكَ - أَمَكْنَةً فَاضِلَةً، وَأَزْمَنَةً فَاضِلَةً، وَأَدَابًا عَظِيمَةً، يَكُونُ حِظُّ الْعَبْدِ وَنَصِيبُهُ مِنَ الْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ بِحَسَبِ حَظِّهِ وَنَصِيبِهِ مِنْ تَحْقِيقِ تِلْكَ الْأُمُورِ وَعِنَايَتِهِ بِهَا.

*** وَمِنْ الْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي يَحْسُنُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَتَحَرَّى دُعَاءَ اللَّهِ فِيهَا:**
وَقْتُ السَّحَرِ، وَحِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (٧) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات]، وَثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ الْمَتَوَاتِرِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟!) (١).

وَهَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ هَذَا الْوَقْتِ عِنْدَ اللَّهِ، وَعِظَمِ شَأْنِهِ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ - لِكَمَالِ إِحْسَانِهِ، وَتَمَامِ لُطْفِهِ - يَنْزِلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُوَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا نَزْولًا حَقِيقِيًّا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، لَا يُشَبِّهُ نَزُولَ الْمَخْلُوقِينَ، تَعَالَى اللَّهُ وَتَنَزَّاهُ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا يُذَرِّكُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ كَيْفِيَّةَ نَزُولِهِ سُبْحَانَهُ؛ إِذْ إِنَّ كَيْفِيَّةَ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ مَجْهُولَةٌ لِلْخَلْقِ، كَمَا أَنَّ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ مَجْهُولَةٌ لَهُمْ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَخُوضَ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ - لَا النُّزُولِ، وَلَا غَيْرِهِ - بِتَحْرِيفٍ أَوْ تَعْطِيلٍ، أَوْ تَكْيِيفٍ أَوْ تَمَثِيلٍ.

والحديث دليلٌ على فَضْلِ هذا الوقتِ المُبَارِكِ، وأنه أفضلُ أوقاتِ الدعاءِ والاستغفارِ والإقبالِ على الله بالسؤال، وأنَّ الدعاءَ في ذلك الوقتِ مستجابٌ؛ قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والناسُ في آخرِ الليلِ يكونُ في قلوبهم من التوجُّهِ والتقَرُّبِ والرَّقةِ ما لا يوجدُ في غيرِ ذلكِ الوقتِ، وهذا مناسبٌ لنزوله إلى سماءِ الدنيا، وقوله: «هَلْ مِنْ دَاعٍ؟!»، «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟!»، «هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟!»^(١). اهـ كلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ.

* وَمِنْ الْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي يُسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ: السَّاعَةُ الَّتِي فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: (فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ)، وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا»^(٢).

وقد اختلفَ أهلُ العلمِ في تعيينِ هذه السَّاعَةِ على أقوالٍ عديدةٍ تُقَارِبُ الأربعينَ قولاً، إِلَّا أَنَّ أَقْوَاهَا وَأَقْرَبُهَا لِلدَّلِيلِ قولان:

أحدهما: أَنَّهَا ما بَيْنَ جُلُوسِ الإمامِ على المِنْبَرِ إلى حينِ فراغِهِ من الصلاةِ؛ وَحُجَّةُ هذا القولِ: حديثُ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ لَهُ: «أَسَمِعْتَ أَبَاكَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَأْنِ سَاعَةِ الْجُمُعَةِ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (هِيَ بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الإمامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ)»؛ رواه مسلم^(٣).

والقولُ الثاني: أَنَّهَا بعدَ العصرِ إلى غروبِ الشمسِ؛ وَمِنْ أدلَّةِ هذا القولِ: ما رواه أحمدُ، وابنُ ماجه في «سننه»، عن عبدِ الله بنِ سَلامٍ، قال: «قُلْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ: إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ (يعني: التوراة) فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ شَيْئًا، إِلَّا قَضَى اللَّهُ

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٣٠ - ١٣١).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٩٣٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٥٢).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٨٥٣).

له حاجته، قال عبد الله: فأشار إليّ رسول الله ﷺ (أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ)، قلت: صدقت يا رسول الله: أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ، قلت: أيُّ ساعة هي؟ قال: (هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ)، قلت: إنها ليست ساعة صلاة، قال: (بَلَى، إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا صَلَّى، ثُمَّ جَلَسَ، لَا يُجْلِسُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، فَهُوَ فِي صَلَاةٍ) ^(١).

قال الحافظ ابن حجر - وقد سرّد الأقوال -: «ولا شك أن أرجح الأقوال المذكورة حديث أبي موسى وحديث عبد الله بن سلام ^(٢)». اهـ.

ورجّح ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» القول الثاني، وهو أنها بعد صلاة العصر؛ واحتجّ بحديث عبد الله بن سلام المتقدم وأحاديث أخرى وردت في الباب ^(٣).

* ومن الأزمنة الفاضلة: شهر رمضان المبارك، ولا سيّما العشر الأواخر منه، وخاصّة ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر، وقد ثبت في «جامع الترمذي»، وغيره، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: «قلت: يا رسول الله، أرايت إن علمت ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: (قُولِي: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ عَفُوٌّ تُجِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي)» ^(٤).

* ومن الأوقات الفاضلة أيضاً، والتي ينبغي للمسلم أن يتحرّى فيها الدعاء: يوم عرفة؛ فهو يومٌ فاضلٌ، تُستجاب فيه الدعوات، وتُغفر فيه الزّلات، وتُكفّر فيه الخطيئات؛ وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ، أنه قال: (خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ^(٥).

(١) «المسند» (٤٥١/٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١١٣٩)، وقال الحافظ ابن حجر: «حديث صحيح، وظاهر سياقه الرفع». «نتائج الأفكار» (٤١٠/٢).

(٢) «فتح الباري» (٤٢١/٢). (٣) انظر: «زاد المعاد» (١/٣٩٠ - ٣٩١).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (١٧١/٦)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥١٣)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٥٠)، وصحّحه الترمذي، والألباني في «تخريج المشكاة» رقم (٢٠٩١).

(٥) تقدم تخريجه (ص ١٥٠).

* ومن الأوقات التي يُرَجَى فيها قَبُولُ الدعاء: ما بين الأذان والإقامة؛ لِمَا ثَبَتَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (الدُّعَاءُ لَا يُرَدُّ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ؛ فَادْعُوا)^(١).

وَبُثِنَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ الدُّعَاءَ لَا يُرَدُّ عِنْدَ النَّدَاءِ لِلصَّلَاةِ؛ وَذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (تُتَانِ لَا تُرَدَّانِ - أَوْ: فَلَمَّا تُرَدَّانِ -: الدُّعَاءُ عِنْدَ النَّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَاسِ حِينَ يَلْحَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)^(٢).

❏ وَمِمَّا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَحَرَّى فِيهِ الدُّعَاءُ: أَدْبَارُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ؛ فَبِالْإِسْنَادِ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: (جَوْفُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، وَدُبُرُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ)»^(٣).

وَأَوْصَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَنْ يَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: (اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)^(٤)، وَدُبُرِ الصَّلَاةِ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَالَّذِي قَبْلَهُ يَحْتَمِلُ قَبْلَ السَّلَامِ وَبَعْدَهُ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمته الله: «وَكَانَ شَيْخُنَا - يَعْنِي: ابْنَ تَيْمِيَّةَ رحمته الله - يُرْجَحُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ السَّلَامِ، فَارْجَعْتُهُ فِيهِ، فَقَالَ: دُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ كَدُبُرِ الْحَيَوَانِ»^(٥).
وبالله التوفيق.



(١) رواه أحمد في «المسند» (١١٩/٣، ١٥٥)، والترمذي رقم (٢١٢)، وأبو داود رقم (٥٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٤٠٨).

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٥٤٠)، والحاكم (١٩٨/١)، وقال الحافظ ابن حجر: «حديث حسن صحيح». «نتائج الأفكار» (٣٨١/١).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٩٩)، وحسنه الألباني في «صحيح جامع الترمذي» رقم (٢٧٨٢).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٢٥٥).

(٥) «زاد المعاد» (١/٣٠٥).

أَحْوَالُ الْمُسْلِمِ يُسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ

سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي يُرْجَى فِيهَا قَبُولُ الدُّعَاءِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا؛ إِذْ إِنَّ الْمُسْلِمَ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَدْعُو اللَّهَ ﷻ فِي أَيِّ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ يَرْجُو أَنْ يَتَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْهُ، إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ أَوْقَاتًا فَاضِلَةً خَصَّهَا الشَّارِعُ بِمَزِيدِ فَضِيلَةٍ، فَكَانَ الْقَبُولُ فِيهَا أَرْجَى، وَالْإِجَابَةُ فِيهَا أُخْرَى مِنْ غَيْرِهَا، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَحَرَّى فِيهَا الدُّعَاءَ؛ كَثُلْتُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، وَكَالسَاعَةِ الَّتِي فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

وَكَمَا أَنَّ هُنَاكَ أَوْقَاتًا فَاضِلَةً يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّى الْمُسْلِمُ فِيهَا الدُّعَاءَ، فَكَذَلِكَ هُنَاكَ أَحْوَالٌ فَاضِلَةٌ فِي الْمُسْلِمِ يَزِيدُ فِيهَا قُرْبُهُ مِنَ اللَّهِ، وَإِقْبَالُهُ عَلَيْهِ، وَخَشَوْعُهُ وَخُضُوعُهُ وَاسْتِكَانَتُهُ، يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُكْثِرَ فِيهَا الدُّعَاءَ، وَأَنْ يُعْظِمَ فِيهَا الطَّلَبَ.

* وَمِنْ ذَلِكَ: فِي الصَّلَاةِ، عِنْدَمَا يَقِفُ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ خَاشِعًا خَاضِعًا مُتَذَلِّلًا مُنِيبًا، وَلَا سِيَّما حَالَ السُّجُودِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ فِي سُجُودِهِ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْ رَبِّهِ، فَيَنْبَغِي فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ دُعَاءِ اللَّهِ وَسُؤَالِهِ وَمُنَاجَاتِهِ؛ لِعِظَمِ قُرْبِهِ فِيهِ مِنَ اللَّهِ ﷻ؛ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ)^(١).

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أَلَا وَإِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا؛ فَأَمَّا الرُّكُوعُ، فَعِظُمُوا

فِيهِ الرَّبِّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقِمْنِ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ^(١)؛ أي: حقيقٌ وجديرٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ.

* وكذلك يُتَحَرَّى الدعاءُ في آخِرِ الصَّلَاةِ قَبْلَ السَّلَامِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الإِبْرَاهِيمِيَّةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَغَيْرُهُمْ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَنتُ أَصَلِّي وَالنَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مَعَهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ، بَدَأْتُ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ دَعَوْتُ لِنَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (سَلْ تُعْطَهُ، سَلْ تُعْطَهُ)»^(٢).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (عَجِلْتَ أَثِمًا الْمُصَلِّي)، ثُمَّ عَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يُصَلِّي، فَمَجَّدَ اللَّهَ وَحَمِدَهُ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ادْعُ تُجَبَّ، وَسَلْ تُعْطَ)»^(٣).

* وَمِنْ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْمُسْلِمُ حَرِيًّا بِالْقَبُولِ وَإِجَابَةِ الدُّعَاءِ: دَعْوَتُهُ حَالَ صِيَامِهِ؛ فَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ لَا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ)^(٤).

* وَكَذَلِكَ عِنْدَمَا يَكُونُ الْمُسْلِمُ مُتَلَبِّسًا بِإِحْرَامِهِ، قَاصِدًا بَيْتَ رَبِّهِ، يَرِيدُ الْحَجَّ أَوْ الْعُمْرَةَ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ؛ رَوَى ابْنُ مَاجَهٍ فِي «سُنَنِهِ» وَغَيْرُهُ، بِإِسْنَادٍ حَسَنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (الْعَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ وَفَدُّ اللَّهِ، دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٨٩).

(٢) «المسند» (٤٤٥/١)، و«جامع الترمذي» رقم (٥٩٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي رقم (٨٢٥٨)، وحسنه الألباني في «تخريج المشكاة» رقم (٩٣١).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٧٦)، و«سنن النسائي» (٤٤/٢)، وصححه الألباني في «صحيح جامع الترمذي» رقم (٢٧٦٥).

(٤) «السنن الكبرى» للبيهقي (٣/٣٤٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٩٧).

وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ^(١).

وأفضل ما يكون الدعاء للحاج يوم عرفة؛ فهو يوم إجابة الدعوات، وإقالة العثرات، وتفريج الكُرَبات، وإغاثة الملهوفين؛ وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٢)؛ إذ في هذا اليوم المبارك يَغْشَى النَّاسَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالطَّمَأْنِينَةِ والخشوع والخضوع ما يكون سبباً لِقَبُولِ دَعَوَاتِهِمْ، وإقالة عثراتهم؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَجَّاجَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ يَنْزِلُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالرَّحْمَةِ وَالتُّورِ وَالْبَرَكَةِ مَا لَا يُمْكِنُ التَّعْيِيرُ عَنْهُ»^(٣).

❏ وفي الحج أَمَكْنَةُ خَاصَّةٌ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقِفَ بِهَا، وَيَتَحَرَّى فِيهَا الدُّعَاءَ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ حَيْثُ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ فِيهَا، وَيَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ، ويدعو الله ﷻ، وهي بالأخص ستة أماكن: في عرفة؛ كما تقدّم.

وفي المَشْعَرِ الْحَرَامِ؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقد جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صِفَةِ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ، وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ»؛ رواه مسلم^(٤).

وكذلك على الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، فِي حَدِيثِ جَابِرِ الْمُتَقَدِّمِ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى الصِّفَا يُكَبِّرُ ثَلَاثًا، وَيَقُولُ:

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (٢٨٩٣)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٤٦١٣)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٨٢٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٥٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٧٤/٥).

(٤) «صحيح مسلم» رقم (١٢١٨).

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ)، ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ، قَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ... حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا.

وكذلك بعدَ رَمِيِ الْجَمْرَتَيْنِ الصَّغْرَى وَالْوُسْطَى؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «كَانَ يَرْمِي الْجَمْرَةَ الدُّنْيَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، يُكَبِّرُ عَلَى إِثْرِ كُلِّ حَصَاةٍ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ حَتَّى يُسْهَلَ، فَيَقُومُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، فَيَقُومُ طَوِيلًا يَدْعُو وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ، ثُمَّ يَرْمِي الْوُسْطَى، ثُمَّ يَأْخُذُ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَيُسْهَلُ وَيَقُومُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، فَيَقُومُ طَوِيلًا وَيَدْعُو وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ وَيَقُومُ طَوِيلًا، ثُمَّ يَرْمِي جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ مِنْ بَطْنِ الْوَادِي وَلَا يَقِفُ عِنْدَهَا، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُولُ: هَكَذَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَفْعَلُهُ»^(١).

فهذه ستة مواضع ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقِفُ فِيهَا، وَيَتَحَرَّى الدُّعَاءَ، وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ. وعمومًا: فالدُّعَاءُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي الْحَجِّ وَالصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ، بَلْ لَهُ شَأْنٌ بَالِغٌ فِي الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا، بَلْ هُوَ رُوحُ الْعِبَادَةِ وَلُبُّهَا.



مَنْ تُسْتَجَابُ دَعْوَتُهُمْ

تَقَدَّمَ معنا الإشارةُ إلى أوقاتٍ وأحوالٍ تُجَابُ فيها الدعوات، وهي أوقاتٌ وأحوالٌ فاضلةٌ يزدادُ فيها قُرْبُ العبدِ مِنْ رَبِّهِ، وَيَعْظُمُ إلْحَاحُهُ عليه، وَيَقْوَى إقبالُهُ وقربُهُ وإخلاصُهُ، وفي السُّنَّةِ النبويةِ المباركةِ إشاراتٌ إلى أمورٍ عديدةٍ مِنْ هذا القبيلِ يُنبِّهُ فيها رسولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ مَنْ كان كذلك، فَإِنَّ دَعْوَتَهُ لَا تُرَدُّ.

وَلَعَلِّي أَشِيرُ هنا إلى جملةٍ مِنْ نصوصِ السُّنَّةِ الواردةِ فيمنْ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ.

* فِيمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ دَعْوَتَهُمْ لَا تُرَدُّ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطَرَ، ودَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ أَوْ عَلَيْهِ، ودَعْوَةُ الْمَظْلُومِ؛ ففي «السنن الكبرى» للبيهقي، من حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ لَا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ)^(١).

وروى الإمامُ أحمدُ في «مسنده»، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ)^(٢).

* وَمِمَّا وَرَدَ أَيْضًا فِي دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ: حديثُ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في ذكرِ بَعْثِ النَّبِيِّ ﷺ معاذًا إلى اليمينِ، وفيه: (وَأَتَتْ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ)^(٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٨٣).

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٣٧).

(٣) رواه البخاري رقم (٢٤٤٨).

وَكُتِبَ السَّيْرُ وَالْأَخْبَارُ مَلِيئَةً بِذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ؛ وَمِنْ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: «أَنَّ أُرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ أَدَّعَتْ عَلَى سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا، فَخَاصَمَتْهُ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا كُنْتُ أَخَذْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئًا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! قَالَ: وَمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ)، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لَا أَسْأَلُكَ بَيْنَهُ بَعْدَ هَذَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً، فَعَمَّ بَصَرُهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا، قَالَ: فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ، فَمَاتَتْ»^(١).

* وَكَذَلِكَ دَلَّتِ السُّنَّةُ أَنَّ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَا تُرَدُّ؛ فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها: أَنَّهَا قَالَتْ لِصَفْوَانَ: «أَتُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَادْعُ اللَّهَ لَنَا بِخَيْرٍ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: (دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِ)»^(٢).

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلِ)»^(٣).

* وَمِمَّا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ فِي إِجَابَةِ الدَّعَاءِ: مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَنْ تَعَارَى مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ

(١) رواه البخاري رقم (٣١٩٨)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦١٠).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٣).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٢).

وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ^(١).

وروى الإمام أحمد في «المسند»، وأبو داود في «سننه»، وغيرهما، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ طَاهِرًا، فَيَتَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ)^(٢).

* وكلما كان العبد قريباً من الله، مطيعاً له، محافظاً على أوامره، كان حرياً بالإجابة والقبول في دعواته ومناجاته لربه؛ وقد ثبت في «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)^(٣).

* وكذلك عندما يُقْبَلُ العبدُ على الله إذا مَسَّهُ الضُّرُّ: بصدق وإخلاص وشِدَّةِ رغبة، فَإِنَّ دَعَاءَهُ لَا يُرَدُّ، والله يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، قال بعضُ أهلِ العلم في هذه الآية: «ضَمِنَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْجَابَةَ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ، وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الضَّرُورَةَ إِلَيْهِ بِاللَّجَأِ يَنْشَأُ عَنِ الْإِخْلَاصِ وَقَطْعِ الْقَلْبِ عَمَّا سِوَاهُ، وَلِلْإِخْلَاصِ

(١) «صحيح البخاري» رقم (١١٥٤).

(٢) «المسند» (٢٣٤/٥، ٢٤١، ٢٤٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٤٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٨١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٧٥٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٧٧).

عنده سبحانه مَوْقِعٌ وَذِمَّةٌ وَجَدَ مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ كَافِرٍ، طَائِعٍ أَوْ فَاجِرٍ»^(١).

* ودعوة ذي النون عليه السلام التي دعا بها في بطن الحوت لها شأن عظيم في الإجابة والقبول؛ قال الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَيَّرْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]، وقد ثبت في السنة أن هذه الدعوة العظيمة المباركة لا يدعو بها مسلم في شيء إلا استجاب الله له؛ روى الإمام أحمد، والترمذي، عن رسول الله ﷺ قال: (دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا بِهَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ)^(٢).

وإذا ضمَّ العبد إلى ذلك التوسل إلى الله بأعماله الصالحة التي قام بها في حياته، مُتَقَرِّبًا بها إلى الله، طالبًا بها مرضاته، لَمْ تُرَدَّ له دعوة؛ كما هو الشأن في نفر الثلاثة الذين أَطْبَقَتْ عليهم الصخرة وهم في الغار، فَتَوَسَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ منهم بعملٍ مِنْ أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ، وَقَدْ مَضَتْ قِصَّتُهُمْ كاملةً.

فَتَقَرَّبُ العبد إلى الله، وإكثاره من الأعمال الصالحة، وإقباله على ربه بما يرضيه: هو أعظم أسباب القبول، وأهم دواعي الإجابة، والتوفيق بيد الله وحده.



(١) «تفسير القرطبي» (١٣/١٤٨).

(٢) «المسند» (١/١٧٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٣).

التَّحْذِيرُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ

إِنَّ الدَّعَاءَ طَاعَةً عَظِيمَةً، وَعِبَادَةً جَلِيلَةً، يَلْزَمُ الْمُسْلِمَ فِيهَا - شَأْنَ جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ - التَّقِيْدُ بِهَدْيِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ، وَلِزَوْمِ سُنَّتِهِ، وَاتِّبَاعِ طَرِيقَتِهِ، وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْهَدْيِ وَأَكْمَلَهُ وَأَقْوَمَهُ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ^(١))؛ وَلِذَا، فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْذَرَ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنَ الْمُحَدَّثَاتِ فِي الدِّينِ، وَيَلْزَمَ فِي جَمِيعِ أُمُورِ دِينِهِ هَدْيَ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

إِنَّ هَدْيَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعَاءِ هَدْيٌ كَامِلٌ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، فَلَمْ يَدْعُ ﷺ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ وَالْفَائِدَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالدَّعَاءِ إِلَّا بَيَّنَّهَا عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا وَأَوْفَاهَا، كَمَا هُوَ شَأْنُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ جَوَانِبِ الدِّينِ، وَلَمْ يَمُتْ ﷺ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وَمَنْ يَتَأَمَّلُ هَدْيَهُ ﷺ فِي الدَّعَاءِ يَجِدُهُ هَدْيًا كَامِلًا وَافِيًا شَامِلًا لَا نَقْصَ فِيهِ، فَبَيَّنَ لِلأُمَّةِ الْأَدْعِيَةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْأَوْقَاتِ الْمَعْيَنَةِ، أَوِ الْأَمَكْنَةِ الْمَعْيَنَةِ، أَوِ الْأَحْوَالِ الْمَعْيَنَةِ، وَوَضَحَ الْمَطْلُوقَ مِنَ الدَّعَاءِ وَالْمَقْيَّدِ. وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ بَعْضِ مَا وَرَدَ عَنْهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَحَرَّوْا فِيهَا الدَّعَاءَ، وَسَبَقَ ذِكْرُ مَا وَرَدَ عَنْهُ مِنْ بَيَانٍ لِلأَمَكْنَةِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ تَحَرِّيُ الدَّعَاءِ فِيهَا، وَكَذَلِكَ سَبَقَ الْإِشَارَةُ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٨٦٧).

إلى جملةٍ مِنَ الأحوالِ الفاضلةِ التي يكونُ عليها المسلمُ، فيستحبُّ له فيها تحرِّي الدعاء؛ لِعَظَمِ قُرْبِهِ فيها مِنَ اللَّهِ، وَشِدَّةِ إِخْبَاتِهِ وَخُضُوعِهِ وَذُلِّهِ.

وقد اشتمَلَت أدعيةُ النبي ﷺ الثابتةُ عنه جميعَ أحوالِ الناسِ مِنْ سرورٍ أو حُزنٍ، وَصِحَّةٍ أو سُقَمٍ، وَنِعْمَةٍ أو مُصِيبَةٍ، وَسَفَرٍ أو إِقَامَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَذَلَّ أُمَّتُهُ ﷺ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى خَيْرٍ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولُوهُ فِي جَمِيعِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، وَلَمْ يَدْعُ ﷺ شَيْئًا مِنَ الدَّعَاءِ الْمُقَرَّبِ إِلَى اللَّهِ، وَالْمُوصِلِ إِلَى الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بَيَّنَّهُ لِلأُمَّةِ تَامًا كَامِلًا، كَيْفَ لَا وَهُوَ الْقَائِلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: (مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ)؛ رواه مسلم^(١).

وإنَّ مِنَ الْعَجَبِ حَقًّا أَنْ يَدْعَ بَعْضُ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ الْأَدْعِيَةَ الصَّحِيحَةَ الثَّابِتَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ مُعْتَبَرَةٍ مُتَدَاوِلَةٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُقْبَلُوا عَلَى أَدْعِيَةٍ مُخَدَّعةٍ مُبْتَدَعَةٍ أَنْشَأَهَا بَعْضُ الْمُتَكَلِّفِينَ، وَكُتِبَهَا بَعْضُ الْمُتَخَرِّصِينَ دُونَ تَعْوِيلٍ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَدُونَ اعْتِبَارٍ لِهَذِي خَيْرِ الأُمَّةِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَشَغَلُوا بِذَلِكَ النَّاسَ عَنِ السُّنَنِ وَأَوْقَعُوهُمْ فِي الْبِدْعِ، وَفِي مِثْلِ هَذَا يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ: «مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بَدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نَزَعَ اللَّهُ مِنْ سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا، ثُمَّ لَا يُعِيدُهَا إِلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢)، وَكَيْفَ يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ يَعْرِفُ فَضْلَ الرَّسُولِ ﷺ وَقُدْرَةَ وَنُصْحَهُ لِأُمَّتِهِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَدْعُ هَذِيهٗ وَأَدْعِيَتَهُ الْعَظِيمَةَ الْمُبَارَكَةَ، وَيُقْبَلُ عَلَى أَدْعِيَةٍ وَكُتِبَ هَؤُلَاءِ الْمُتَخَرِّصِينَ الْمُتَكَلِّفِينَ؟!

قال أبو بكر محمد بن الوليد الطَّزُوشِيُّ صاحبُ كتاب «الحوادث والبدع»: «وَمِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ: أَنْ تُعْرِضَ عَنِ الدَّعَوَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ مَقْرُونَةً بِالْإِجَابَةِ، ثُمَّ تَنْتَقِي أَلْفَاظَ الشُّعْرَاءِ

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٨٤٤).

(٢) «سنن الدارمي» (٨٥/١)، و«المصنف» لعبد الرزاق (٩٣/١).

وَالْكِتَابِ، كَأَنَّكَ قَدْ دَعَوْتَ - فِي زَعْمِكَ - بِجَمِيعِ دَعَوَاتِهِمْ، ثُمَّ اسْتَعَنْتَ بِدَعَوَاتِ مَنْ سِوَاهُمْ!!»^(١).

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وهو يذكُرُ جملةً مِنْ أنواع الاعتداء في الدعاء: «ومنها أَنْ يَدْعُوَ بما ليس في الكتاب والسنة، فَيَتَخَيَّرَ ألفاظاً مُفَقَّرَةً، وكلماتٍ مُسَجَّعةً، قد وَجَدَهَا في كُرَاريسٍ، لا أَصْلَ لَهَا ولا مُعَوَّلَ عَلَيْهَا، فيجعلُهَا شعارَهُ، ويتركُ ما دعا به رَسولُهُ ﷺ، وكلُّ هذا يَمْنَعُ مِنْ استجابة الدعاء»^(٢).

وإنَّ أَشدَّ ما يكونُ في هذا الأمرِ خطورةً: أَنَّ بعضَ هذه الأَدْعِيَةِ المؤلَّفةِ مشتملةٌ على ألفاظٍ كُفْرِيَّةٍ، واستغاثاتٍ شِرْكَيَّةٍ، وشَطَطٍ بالغٍ؛ قال أبو العباس أحمدُ بن إدريسَ القُرَافِي بعدَ أَنْ ذَكَرَ أَنَّ الأَصْلَ في الدعاءِ التَّوَقُّفُ، وذَكَرَ أنواعاً من الأَدْعِيَةِ الكُفْرِيَّةِ، الناقلةِ مِنَ المِلَّةِ الإسلاميَّةِ: «إذا تَقَرَّرَ هذا، فينبغي للسائلِ أَنْ يَحْذَرَ هذه الأَدْعِيَةَ وما يجري مَجْراها حَذْراً شديداً؛ لِمَا تُوَدِّي إليه من سَخَطِ الدِّيَّانِ، والخلودِ في النيرانِ، وحبوطِ الأعمالِ، وانفساخِ الأنكحةِ، واستباحةِ الأرواحِ والأموالِ؛ وهذا فسادٌ كُلُّهُ يتحصَّلُ بدعاءٍ واحدٍ مِنْ هذه الأَدْعِيَةِ، ولا يَرْجِعُ إلى الإسلامِ، ولا ترتفعُ أَكْثَرُ هذه المفاوِئِ إِلَّا بتجديدِ الإسلامِ، والنطقِ بالشهادَتَيْنِ؛ فَإِنْ مات على ذلكَ، كان أمرُهُ كما ذكرناه، نسألُ الله تعالى العافيةَ مِنْ مُوجِبَاتِ عقابه»^(٣).

❏ إِنَّ الواجبَ على كُلِّ مسلمٍ: أَنْ يَحْذَرَ أَشدَّ الحَذَرِ مِنْ مِثْلِ هذه الأَدْعِيَةِ التي أَحَدَثَهَا بعضُ شيوخِ الضلالِ وأئمَّةِ الباطلِ، فَصَدَّوْا بها النَّاسَ عَنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَصَرَفُوهُمْ بها عَنْ سُنَّتِهِ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا كَثِيراً، وَضَلُّوا عَنْ سِوَا السَّبِيلِ، وَإِنَّ المُسْلِمَ الفَطِنَ ليتساءلُ في هذا المَقامِ: ما الذي دعا أولئك إلى ابتكارِ تلكَ الأَدْعِيَةِ، واختراعِ تلكَ الأورادِ، رَغْمَ ما فيها من ضلالٍ وباطلٍ؟!

(١) «الفتوحات الربانية» لابن علان (١٧/١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤٤/٧). (٣) «الفروق» للقرافي (٤/٢٦٤ - ٢٦٥).

فلا يَجِدُ جوابًا على ذلك إِلَّا أَنْ أَوْلَيْكَ يريدونَ أَكَلَ أموالِ الناسِ بالباطلِ،
وتكثيرِ الأتباعِ والمريدينَ، وقد سَبَقَ أَنْ مَرَّ معنا قولُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه: «إِنَّ مِنْ
ورائكم فِتْنًا يَكْثُرُ فيها المالُ، وَيُفْتَحُ فيها القرآنُ، حتى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ والمنافقُ،
والرجلُ والمرأةُ، والصغيرُ والكبيرُ، والعبدُ والحرُّ، فيُوشِكُ قائلٌ أَنْ يقولَ:
ما للناسِ لَا يَتَّبِعُونِي وقد قرأتُ القرآنَ؟! ما هم بِمُتَّبِعِيَّ حتى أَبْتَدِعَ لهم غَيْرَهُ.
فإيَّاكم وما ابْتَدَعَ؛ فَإِنَّ ما ابْتَدَعَ ضلالةٌ»^(١)؛ فَمِنْ هؤلاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ المسلمُ
على حَذَرٍ بالغٍ، وَحِيطَةٍ كاملةٍ، وَلِيَلْزَمَ السُّنَّةَ، وَلِيَتَّبِعَ سَبِيلَ أَهْلِهَا، ففي ذلك
السلامةُ والفلاحُ.



(١) تقدّم تخريجه (ص ٣٠٣).

خُطُورَةُ دُعَاةِ الْبَاطِلِ وَأَنْيَمَةِ الضَّلَالِ

لقد تضافرت الأدلة، وكثرت النصوص في الكتاب والسنة، الدالة على تحريم صرف الدعاء لغير الله، وأن ذلك نوع من الشرك الناقلي من الملة، وأن الدعاء لا يكون إلا لمن بيده المنع والعطاء، والخفض والرفع، والقبض والبسط، وليس لله شريك في شيء من ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا لَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَّا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٢١] وإن يمسسك الله يضر فلا كاشف له؛ إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم [يونس]؛ ولهذا فكيف يليق بإنسان، ويصح من عاقل خلقه الله فيدعو غيره، ويرزقه الله ويسأل سواه، ويعطيه الله ويقبل على غيره؟! مع أن كل مدعو غير الله ليس بيده عطاء ولا منع، ولا نفع ولا ضرر؛ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نُجُوتًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرُّوا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [٢٢] ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير [سبا]، ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [١٣] إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينشك مثل خير [فاطر]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ورغمَ وضوح هذا الأمرِ، وكثرةِ الشواهدِ عليه، وظهورِ دَلَالَتِهَا على ذلك، إِلَّا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَزَالُ يَفْتُ فِي عَضْدِهِمْ دُعَاةَ الضَّلَالِ، وَأَئِمَّةَ الْبَاطِلِ؛ فَيُشَبِّهُونَ عَلَيْهِمُ الْأُمُورَ، وَيُلْبِسُونَ عَلَيْهِمُ الْحَقَائِقَ، وَيُزَيِّنُونَ لَهُمُ الْبَاطِلَ، وَقَدْ خَافَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ؛ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالْحَاكِمُ، وَغَيْرُهُمْ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ) ^(١)، وَهَذَا الَّذِي خَافَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ قَدْ وَقَعَ، حَيْثُ تَسَلَّطَ بَعْضُ دُعَاةِ الْبَاطِلِ وَأَئِمَّةِ الضَّلَالِ، فَزَيَّنُوا لِلنَّاسِ دُعَاءَ الْأَحْجَارِ، وَالتَّعَلَّقَ بِالْقُبُورِ، وَالتَّقَدَّمَ إِلَيْهَا بِأَنْوَاعِ الْقَرَابِينِ وَالنُّذُورِ؛ قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «صَبَّتْ قُلُوبُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ؛ لِانْتِشَارِ كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَثُبُوتِ الشَّرَائِعِ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَالْإِمْتِثَالِ لِأَوَامِرِهَا... ثُمَّ - مَعَ ذَلِكَ - لَا يَرَوْنَ لِمَقَالَتِهِمْ نَبَاهَةً وَلَا أَثَرًا، بَلِ الْجَوَامِعُ تَتَدَفَّقُ زَحَامًا، وَالْأَذَانَاتُ تَمَلَأُ أَسْمَاعَهُمْ بِالْتَعْظِيمِ لَشَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ، وَإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ فِي الْحَجِّ، مَعَ رُكُوبِ الْأَخْطَارِ، وَمَعَانَاةِ الْأَسْفَارِ، وَمِفَارِقَةِ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَنْدَسُّ فِي أَهْلِ النُّقْلِ، فَيَضَعُ الْمَفَاسِدَ عَلَى الْأَسَانِيدِ، وَيَضَعُ السَّيْرَ وَالْأَخْبَارَ، وَبَعْضُهُمْ يَرَوِي مَا يُقَارِبُ الْمُعْجَزَاتِ مِنْ ذِكْرِ خَوَاصِّ فِي أَحْجَارٍ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ، وَإِخْبَارٍ عَنِ الْغُيُوبِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَهَنَةِ وَالْمَنْجُمِينَ، وَيُبَالِغُ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ... فَقَالُوا: تَعَالَوْا نُكْثِرُ الْجَوْلَانَ فِي الْبِلَادِ وَالْأَشْخَاصِ وَالنُّجُومِ وَالْخَوَاصِّ، فَلَا يَخْلُو مَعَ الْكَثْرَةِ مِنْ مُصَادَفَةِ الْإِتْفَاقِ لَوَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ فَيَصَدِّقُ بِهَا الْكُلَّ...» ^(٢)، إِنْخِ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

❏ فَنَأْمُلُ أَخِي الْمُسْلِمَ، كَيْفَ تَمَكَّنَ هَؤُلَاءِ بِخَفِيِّ مَكْرِهِمْ، وَعِظَمِ كَيْدِهِمْ مِنْ صَدِّ كَثِيرٍ مِنْ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ وَجُهَّالِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى الَّذِي جَاءَ بِهِ

(١) «المسند» (٢٧٨/٥، ٢٨٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٢٥٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٢٢٩)، و«المستدرک» (٤/٤٤٩) فِي حَدِيثِ طَوِيلٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (١٧٧٣).

(٢) انظر: «تلييس إبليس» لابن الجوزي (ص ٦٨، ٦٩).

رسولُ الله ﷺ، ونَقَلَهُمْ مِنْهُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَصَنُوفٍ مِنَ الْبَاطِلِ؛ مِنْ تَعَلَّقِ بِقُبُورٍ، أَوْ تَبَرُّكِ بِأَشْجَارٍ وَأَحْجَارٍ، أَوْ ذَبْحٍ وَنَذْرِ لِأَضْرَحَةٍ وَقَبَابٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالِ الْمَفَارِقِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ، الْمَبَايِنِ لِمِلَّةِ التَّوْحِيدِ الْقَائِمَةِ عَلَى إِخْلَاصِ الْعَمَلِ لِلْمَعْبُودِ، وَالْمَتَابَعَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِلرَّسُولِ ﷺ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ هُنَا: أَنَّ سَبَبَ ضَلَالِ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَأَثَّرَ بِهِمْ وَسَارَ عَلَى طَرِيقِهِمْ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: إِمَّا اعْتِمَادُهُمْ عَلَى أَلْفَافٍ مُتَشَابِهَةٍ مُجْمَلَةٍ مُشْكِلَةٍ، مَنَقُولَةٍ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَدَّلُوا عَنِ الْأَلْفَافِ الصَّرِيحَةِ الْمُحْكَمَةِ، وَتَمَسَّكُوا بِهَا، وَهُمْ كَلَّمَا سَمِعُوا لَفْظًا فِيهِ شُبُهَةٌ، تَمَسَّكُوا بِهِ، وَحَمَلُوهُ عَلَى مَذْهَبِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ، وَالْأَلْفَافِ الصَّرِيحَةِ الْمَخَالَفَةِ لِذَلِكَ إِمَّا أَنْ يُفَوِّضُوهَا، وَإِمَّا أَنْ يَتَأَوَّلُوهَا، كَمَا يَصْنَعُ أَهْلُ الضَّلَالِ؛ يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ مِنَ الْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ، وَيَعْدِلُونَ عَنِ الْمُحْكَمِ الصَّرِيحِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَخْبَارٌ مَنَقُولَةٌ إِلَيْهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ظَنُّوْهَا صِدْقًا، وَهِيَ مَكْذُوبَةٌ عَلَيْهِمْ، وَضَعَهَا عِبَادُ الْأَصْنَامِ وَأُئِمَّةُ الْبَاطِلِ؛ انْتَصَارًا لِمَذَاهِبِهِمْ، وَتَأْيِيدًا لِبَاطِلِهِمْ، وَلَيْسَ فِي جَمِيعِ مَا يُرَوَّى فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثٌ وَاحِدٌ مَرْفُوعٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِحَدِيثِهِ ﷺ، بَلِ الْمَرْوِيُّ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا يَعْرِفُ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ أَنَّهُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ، إِمَّا تَعَمُّدًا مِنْ وَاضِعِهِ، وَإِمَّا غَلْطًا مِنْهُ؛ مِثْلُ نِسْبَتِهِمْ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ حَسَنَ أَحَدُكُمْ ظَنَّهُ فِي حَجَرٍ، لَفَعَّعَهُ اللَّهُ بِهِ»^(١)، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْإِفْكِ الْبَيِّنِ، وَالْكَذِبِ الْوَاضِحِ.

(١) أوردته ملاً علي قاري في «الموضوعات» (ص ١٨٩)، وقال: «قال ابن تيمية: موضوع، وقال ابن القيم: هو من كلام عباد الأصنام الذين يحسنون ظنهم بالأحجار، وقال ابن حجر العسقلاني: لا أصل له».

الأمر الثالث: خوارق ظُنُّوها مِنَ الآيَاتِ، وهي مِنْ أحوالِ الشيطان^(١)، وحكاياتُ حُكِيَتْ لَهُمْ عن أصحابِ القبور؛ مثلُ أَنَّ فلانًا استَغَاثَ بالقبْرِ الفلانيِّ في شِدَّةٍ، فخلَّصَ منها، وفلانًا دعاها أو دعا به في حاجةٍ فَقُضِيَتْ له، وفلانًا نَزَلَ به ضُرٌّ، فاستَرْجَى صاحبَ القبرِ، فكشَفَ ضُرَّهُ. والنفوسُ مُولَعَةٌ بقضاءِ حوائجها، وإزالةِ ضروراتها. وَمِنْ هذا المدخلِ نَفَذَ الشيطانُ إلى قلوبِ هؤلاء، وتَدَرَّجَ بهم في دعوتهم إليه، فَحَسَّنَ للواحدِ مِنْ هؤلاءِ أولًا الدعاءَ عندَ القبورِ، وأَنَّهُ أَرْجَحُ منه في بيتهِ وَمَسْجِدِهِ وأوقاتِ سَحَرِهِ، فإذا تَقَرَّرَ ذلكَ عنده، نَقَلَهُ درجةً أُخرى مِنَ الدعاءِ عندهُ إلى الدعاءِ به، والإقسامِ على الله به، وهذا أعظمُ مِنَ الذي قبله، فإذا قَرَّرَ الشيطانُ عنده أَنَّ الإقسامَ على الله به أبلغُ في تعظيمِهِ واحترامِهِ، وأنجَحُ في قضاءِ حاجَتِهِ، نَقَلَهُ درجةً أُخرى إلى دعائِهِ نَفْسِهِ مِنْ دُونِ الله، ثُمَّ يَنْقُلُهُ بعدَ ذلكَ درجةً أُخرى إلى أن يَتَّخِذَ قبرَهُ وَثَنًا يَعْكُفُ عليه، وَيُوقِدُ عليه القناديلَ، وَيُعَلِّقُ الستورَ، ويبني عليه المَسْجِدَ، وَيَعْبُدُهُ بالسجودِ له، والطوافِ به، وتقبيله، واستلامِهِ، والحجِّ إليه، والذبحِ عنده^(٢). والواجبُ الحَذَرُ مِنَ الشيطانِ وجنوده، ولزومُ سبيلِ المؤمنينَ بإخلاصِ العملِ كُلِّهِ لِهَذَا، مع المتابعةِ في ذلكَ كُلِّهِ للرسولِ الكريمِ ﷺ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْ أَتباعِهِ، وهدانا للزومِ سُبُلِهِ.



(١) انظر: «الجواب الصحيح» لابن تيمية (١/٣١٦ - ٣١٧).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/٢٣٣ - ٢٣٤).

خُطُورَةُ التَّعَلُّقِ بِالقُبُورِ

لقد تقدّم الكلام على فضل الدعاء ومكانته من الدين، وأنه حق خالص لله لا يجوز صرفه لغيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]؛ أي: لا تشركوا مع الله أحداً، ولكن أفرّدوا له التوحيد، وأخلصوا له الدين. والمسلم مطلوب منه أن يسأل الله في كل أحواله، ويدعو الله في جميع حاجاته، يسأله وحده دون سواه، ويرجوه ولا يرجو غيره، ويُنزل حاجاته كلها به.

❏ ومن عجيب أمر بعض الناس في هذا الباب الخطير: أنهم أقبلوا على غير الله من القباب والقبور والأضرحة ونحوها، يستجدون بأهلها، ويستغيثون بهم، ويسألونهم النصّر، والرّزق، والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللّهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات، فبدّل هؤلاء قولاً غير الذي قيل لهم، بدّلوا الدعاء لهم بدعائهم من دون الله، والترحم عليهم بطلب الرّحمة والمغفرة منهم. ومن المُحال أن يكون دعاء الموتى، أو الدعاء بهم، أو الدعاء عندهم أمراً مشروعاً، أو عملاً صالحاً يقبله الله، فهذه سنة رسول الله ﷺ في أهل القبور بضعة وعشرين سنة حتى توفاه الله، وهذه سنة خلفائه الراشدين، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل يمكن لبشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصّدوا القبور، فدعّوا عندها، وتمسّحوا بها؟! فضلاً عن أن يصلّوا عندها، أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم؟! ولو كان ذلك سنة أو فضيلة، لنقل عن الرسول الكريم ﷺ، ولفعله الصحابة والتابعون، وقد كان عندهم قبر النبي ﷺ وقبور سادات الصحابة؛ فما منهم من استغاث عند قبر صاحب، ولا دعا، ولا دعا

به، ولا دعا عنده، ولا استَشْفَى به، ولا استَسْقَى به، وحاشاهم أن يفعلوا شيئاً من ذلك، بل ثَبَتَ عنهم إنكارُ ما هو دون ذلك بكثير.

روى غيرُ واحدٍ عن المَعْرُورِ بنِ سُوَيْدٍ، قال: «صَلَّيْتُ خَلْفَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه في طريق مكة صلاة الصُّبْح، فقرأَ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، و﴿لَا يَلْفُ قَرْنٍ﴾، ثُمَّ رَأَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ مَذَاهِبَ، فَقَالَ: أَيْنَ يَذْهَبُ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَسْجِدُ صَلَّى فِيهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَهُمْ يُصَلُّونَ فِيهِ، فَقَالَ: إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِمِثْلِ هَذَا، كَانُوا يَتَّبِعُونَ آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَيَتَّخِذُونَهَا كُنَائِسَ وَبَيْعًا، فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ مِنْكُمْ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ فَلْيُصَلِّ، وَمَنْ لَا، فَلْيَمْضِ وَلَا يَتَعَمَّدْهَا»^(١).

وَأَرْسَلَ رضي الله عنه أَيْضًا، فَقَطَعَ الشَّجَرَةَ الَّتِي بَايَعَ تَحْتَهَا أَصْحَابُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم؛ خَشْيَةَ افْتِتَانِ النَّاسِ بِهَا^(٢).

وروى مُحَمَّدُ بنُ إِسْحَاقَ في «مغازيه»، عن خَالِدِ بنِ دِينَارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَالِيَةِ رضي الله عنه، قَالَ: «لَمَّا فَتَحْنَا تُسْتَرَ، وَجَدْنَا فِي بَيْتِ مَالِ الْهُرْمُزَانَ سَرِيرًا عَلَيْهِ رَجُلٌ مَيِّتٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مُصْحَفٌ لَهُ، فَأَخَذْنَا الْمُصْحَفَ، فَحَمَلْنَاهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَدَعَا لَهُ كَعْبًا، فَنَسَخَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَأَنَا أَوَّلُ رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ قَرَأَهُ، قَرَأْتُهُ مِثْلَ مَا أَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَقُلْتُ لِأَبِي الْعَالِيَةِ: مَا كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: سِيرَتُكُمْ، وَأُمُورُكُمْ، وَلِحُونُ كَلَامِكُمْ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدُ. قُلْتُ: فَمَا صَنَعْتُمْ بِالرَّجُلِ؟ قَالَ: حَفَرْنَا بِالنَّهَارِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَبْرًا مَتَفَرِّقَةً، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ دَفَنَاهُ، وَسَوَّيْنَا الْقُبُورَ كُلَّهَا لِنَعْمِيهِ عَلَى النَّاسِ لَا يَنْبَشُونَهُ، قُلْتُ: وَمَا يَرْجُونَ مِنْهُ؟ قَالَ: كَانَتْ السَّمَاءُ إِذَا حُبِسَتْ عَنْهُمْ، بَرَزُوا بِسَرِيرِهِ فَيُمْطَرُونَ، فَقُلْتُ: مَنْ كُنْتُمْ تَظُنُّونَ الرَّجُلَ؟ قَالَ: رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: دَانِيَالُ، فَقُلْتُ: مِنْذُ كَمْ وَجَدْتُمُوهُ مَاتَ؟ قَالَ: مِنْذُ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، قُلْتُ: مَا كَانَ تَغْيِيرَ مِنْهُ شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا شَعِيرَاتٌ مِنْ

(١) «المصنف» لعبد الرزاق رقم (٢٧٣٤)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١٥٢/٢).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٧٦/٢)، وصحَّحه الحافظ في «الفتح» (٥١٣/٧).

قفاه، إِنَّ لِحَوْمِ الْأَنْبِيَاءِ لَا تُبْلِيهَا الْأَرْضُ، وَلَا تَأْكُلُهَا السَّبَاعُ؛ أوردَ هذا الأثر ابنُ كثيرٍ في كتابِ «البداية والنهاية»، وقال: «إسناده صحيحٌ إلى أبي العالية»^(١).

وفي هذا الأثر دَلَالَةٌ على ما كَانَ عليه السَّلَفُ رحمَهُمُ اللهُ من حِيطَةٍ كاملة، وحَذَرٍ شديدٍ في هذا البابِ الخطيرِ، وما فعلَهُ المهاجرونَ والأنصارُ بتوجيهِ مَنْ أميرِ المؤمنينِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مِنْ إخفاءِ لَقْبِرِ دَانِيَالٍ وَتَعْمِيَةِ لِمَكَانِهِ: دَلِيلٌ على ما كانوا عليه من حِيطَةٍ وحَذَرٍ لثَلَا يَفْتَتِنَ به النَّاسُ، ولو كَانَ الدُّعَاءُ عِنْدَ الْقُبُورِ وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا وَالتَّبَرُّكُ بِهَا فَضِيلَةٌ وَسُنَّةٌ أَوْ مَبَاحًا، لَنَصَبَ الصَّحَابَةُ هَذَا الْقَبْرَ عَلَمًا لِدَلِّكَ، وَدَعَوْا عِنْدَهُ، وَسَوَّوْا ذَلِكَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَعْلَمَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ، وَكَذَلِكَ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ سَارُوا على هَذَا السَّبِيلِ، وَقَدْ كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ قُبُورِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالْأَمْصَارِ عِدَدٌ كَثِيرٌ، وَهُمْ مُتَوَافِرُونَ، فَمَا مِنْهُمْ مَنْ اسْتَغَاثَ عِنْدَ قَبْرِ صَاحِبٍ وَلَا دَعَاهُ، وَلَا دَعَا بِهِ، وَلَا دَعَا عِنْدَهُ؛ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا مِمَّا تَتَوَافَرُ الْهَمَمُ وَالِدَوَاعِي على نَقْلِهِ، بَلْ على نَقْلِ مَا هُوَ دُونَهُ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ فِي فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَرْفٌ وَاحِدٌ؛ وَحِينَئِذٍ يُقَالُ: إِنَّ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مُشْرُوعًا وَسُنَّةً، فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَمًا وَعَمَلًا على الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ؟! وَكَيْفَ تَكُونُ الْقُرُونُ الثَّلَاثَةُ الْمَفْضَلَةُ جَاهِلَةً بِهِ، مَعَ حِرْصِهِمْ على كُلِّ خَيْرٍ؟! وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَ مِنْ دِينِ اللَّهِ، وَلَا مِنْ شَرْعِهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فَإِذَا لَمْ يَشْرَعْ اللَّهُ ذَلِكَ، فَمَنْ شَرَعَهُ فَقَدْ شَرَعَ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

لقد ذَكَرَ علماءُ الإسلامِ وأئمَّةُ الدِّينِ الأدْعِيَةَ الشَّرْعِيَّةَ الْمَأْخُودَةَ

(١) «البداية والنهاية» (٤٠/٢).

من الكتابِ والسُّنَّةِ بحدودها الشرعيَّة، وضوابطها المرعيَّة، وأعرضوا تمامَ الإعراضِ عن الأدعيَّة البدعيَّة، والواجبُ اتِّباعُهُمْ في ذلك، ومَنْ يتأملُ الأدعيَّة التي أحدثها الناسُ في هذا الباب، ولم تكن موجودةً عندَ الصحابةِ ومَنْ اتَّبَعَهُمْ بإحسان، يجدُ أنَّها على ثلاثِ مراتبٍ^(١):

إحداها: أَنْ يَدْعَوْ غيرَ الله وهو ميِّتٌ أو غائبٌ؛ سواءً كان مِنَ الأنبياء، أو الصالحين، أو غيرهم، فيقول: يا سيِّدي فلانُ أَغْنِي، أو: أنا أَسْتَجِيرُ بك، أو: أَسْتَغِيثُ بك، أو: انصُرْني على عدوِّي، وأَعْظُمُ مِنْ ذلك: أَنْ يقول: اغْفِرْ لي، وتُبَّ عليَّ، كما يفعلُهُ طائفةٌ من الجُهَّالِ المشركين، وأَعْظُمُ مِنْ ذلك: أَنْ يَسْجُدَ لقبره، ويُصَلِّيَ إليه، ويرى الصلاةَ فيه أَفْضَلَ مِنْ استقبالي القبلة؛ وكلُّ ذلك مِنَ الشُّرْكِ الناقِلِ عن مِلَّةِ الإسلام.

الثانية: أَنْ يَقَالَ للميِّتِ أو الغائبِ مِنَ الأنبياء والصالحين: ادْعُ الله لي، أو: ادْعُ لنا ربَّك، أو: اسأَلِ الله لنا؛ فهذا لا يَسْتَرِيْبُ عالِمٌ أَنَّهُ غيرُ جائِزٍ، وأنَّه مِنَ البِدْعِ التي لم يَفْعَلْها أَحَدٌ مِنْ سلفِ الأُمَّةِ الْمُفْضِيَّةِ إلى الشُّرْكِ بالله، بل نصَّ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ أَنْ ذَلِكَ عَيْنُ الشُّرْكِ؛ «سواءً طَلَبَ مِنْهُمْ قِضَاءَ الحاجاتِ، وتَفْرِيجَ الكُرْبَاتِ، أو طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا ذَلِكَ مِنْ الله»^(٢).

الثالثة: أَنْ يَقَالَ: أَسأَلُكَ بِحَقِّ فلانٍ، أو بِجاءِ فلانٍ عندك، أو نحو ذلك، وهذا أيضًا لَمْ يَكُنِ الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَفْعَلُونَهُ، ولا يُعَرِّفُ هذا في شيءٍ مِنَ الأدعيَّة المشهورةِ بينهم، وإنَّما يُنْقَلُ شيءٌ مِنْ ذلك في أَحاديثٍ ضَعِيفَةٍ أو موضوعة.

وينبغي أَنْ يُعْلَمَ هنا أَنَّهُ لو كَانَ في شيءٍ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ خَيْرٌ، لَسَبَقْنَا إِلَيْهِ الصَّحَابَةُ، وَلَدَلُّونا عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَ هَدِيًّا صَوَابًا، فَقَدْ ضَلُّوا عَنْهُ، وهذا لا يَقُولُهُ عاقل، وَإِنْ كَانَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ هُوَ الْهُدَى وَالْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟!



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٥٠ - ٣٥٦).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٤٠٦).

(۲) «تفسير ابن جرير» (۱۲/۲۵۴).

وُنُقِلَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْ عَدَدٍ مِنَ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: كَانَ هَؤُلَاءِ قَوْمًا صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا مَاتُوا، عَكَّفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ»^(١).

ولهذا تضافرت الأدلة، وتواترت النصوص عن النبي ﷺ؛ في المنع من ذلك، والتحذير منه، والتغليظ فيه، ولعن فاعله، ووصف من فعله بأنه من شرار الخلق، وأن ذلك ليس من سنن المسلمين، وإنما هو من سنن اليهود والنصارى؛ والنصوص عنه في هذا المعنى كثيرة:

روى البخاري، ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: (أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ)^(٢).

وروى مسلم في «صحيحه»، عن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ؛ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَأَكُمُ عَنْ ذَلِكَ)^(٣).

وروى البخاري، ومسلم، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)، وَفِي رَوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)^(٤).

(١) «إغاثة اللهفان» (٢٠٣/١).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٨).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٥٣٢).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٣٠).

وروى البخاري، عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما، قالوا: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرُحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: (لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»^(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «قال رسول الله ﷺ في مَرَضِهِ الذي لَمْ يَقُمْ منه: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)، ولولا ذلك، لأُبْرِزَ قَبْرُهُ، غيرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا»؛ رواه البخاري ومسلم^(٢).

فقد نهى صلوات الله وسلامه عليه عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، ثم إنه لعن - وهو في السياق - مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِيُحَذِّرَ أُمَّتَهُ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، والأحاديث والآثار المروية في هذا الباب كثيرة جدًا.

والنبي ﷺ إنما نهى أُمَّتَهُ عن اتخاذ القبور مساجد بِتَحْرِيقِ الدُّعَاءِ أو العبادة عندها سَدًّا لِذَرِيعَةِ الشُّرْكِ، ولأنَّه مَظَنَّةٌ اتَّخَذَهَا أَوْثَانًا؛ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رحمته الله: «وَأَكْرَهُ أَنْ يُعْظَمَ مَخْلُوقٌ حَتَّى يُجْعَلَ قَبْرُهُ مَسْجِدًا؛ مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُ مِنَ النَّاسِ»^(٣).

وقد ذَكَرَ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَمَّا مَنْ عَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهَا مَظَنَّةُ النَّجَاسَةِ لِمَا يَخْتَلِطُ بِالتُّرَابِ مِنْ صَدِيدِ الْمَوْتَى، فَقَدْ أَبْعَدَ غَايَةَ الْبُعْدِ؛ لِأَنَّ نَجَاسَةَ الْأَرْضِ مَانِعٌ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهَا، سِوَاءٍ كَانَتْ مَقْبَرَةً أَوْ لَمْ تَكُنْ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ نَبَّهَ عَلَى الْعِلَّةِ بِقَوْلِهِ: (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ)^(٤)، وبِقَوْلِهِ: (إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)^(٥).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٥، ٤٣٦).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٣٩٠، ٤٤٤١)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٩).

(٣) انظر: «المجموع» للنووي (٣١٤/٥).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٦/٢)، و«موطأ مالك» رقم (٤١٦).

(٥) رواه مسلم رقم (٥٣٢).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وبالجملة: فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه: صيغة (لَا تَفْعَلُوا)، وصيغة (إِنِّي أَنهَاكُم)، ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عديم في تحقيق شهادة لا إله إلا الله؛ فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحِمَى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيهِ، وغرهم الشيطان، فقال: بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً وأشد فيهم غلواً، كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولعمرُ الله، من هذا الباب بعينه دخل على عبّاد يعوث ويعوق ونسر، ومنه دخل على عبّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم؛ وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم»^(١).

وبما تقدّم يتبين أن أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى قيام الساعة: الغلو في الصالحين، والله ﻋَظِيمٌ إنما أمرنا بمحبتهم، وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم؛ وهذا غاية التعظيم لهم، وطاعتهم واتباع سبيلهم، ونهانا عن الغلو فيهم، فلا نرفعهم فوق منازلهم، ولا نحطهم منها؛ لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم، فتجد الغالين فيهم عاكفين على قبورهم، يدعونهم، ويسألونهم، وينذرون لهم، وفي الوقت نفسه هم معرضون عن طريقتهم وسبيلهم، بل عائبون لها ومشتغلون بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه. وتعظيم الأنبياء والصالحين إنما يكون باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع، والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم، دون عبادتهم، وعبادة قبورهم.

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ

لا شك أن كلَّ مسلم يدعو الله تبارك وتعالى، يدعوهُ وهو يرجو أن يجيبَ دعاءهُ، ويَحَقِّقَ رجاءهُ، ويعطيه سُؤْلُهُ، إلَّا أنَّ الدعاءَ له شروطٌ عظيمة، وآدابٌ مهمَّةٌ ينبغي على المسلم أن يعتني بها، ويحافظَ عليها؛ ليُستجابَ له بتحقيقها دعاؤه، وليتحققَ له بتكميلها أمله بالله ورجاؤه، وهذه الشروط والآداب، وإن كانت جميعها مهمَّةً عظيمةً، إلَّا أنَّها متفاوتةٌ في الأهمية؛ بعضها أهمُّ من بعض، فمنها شروطٌ صحَّةٌ لا يُستجابُ الدعاءُ إلَّا بها، ومنها آدابٌ وسُنَنٌ ومُكَمَّلَاتٌ، والمسلمُ المُوقِّفُ يحافظُ على ذلك كُلِّه، ويعتني به جميعه؛ ليكُمِّلَ له نصيبهُ من الخير.

وقد مرَّ معنا الإشارةُ إلى جملةٍ طيِّبةٍ من شروطِ الدعاءِ وآدابه، ولا سيَّما عند ذكرِ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه المُخرَج في «صحيح مسلم»، أنَّ النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَتَى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟! ^(١). وفي قوله ﷺ في هذا الحديث: (فَأَتَى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!): إشارةٌ إلى أنَّ لِقْبُولِ الدعاءِ واستجابته شروطًا لا بدَّ من تحقيقها، وضوابط لا بدَّ من التزامها، والمخلُّ بها حَرِيٌّ به ألا يستجابَ دعاؤه.

ويأتي في مقدمة شروط الدعاء، بل وفي مقدمة شروط كل طاعة يتقرب بها العبد إلى الله: الإخلاص لله تبارك وتعالى؛ فهو شرط أساس وقيد مهم، لا قبول للدعاء، ولا لأي عبادة إلا بتحقيقه والإتيان به؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال لابن عباس رضي الله عنهما: (إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجُمِعَتِ الصُّحُفُ!)^(١).

فقله ﷺ: (إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ): أمر بالإخلاص لله تعالى في السؤال والاستعانة بأن لا يسأل إلا الله، ولا يستعان إلا به، وهذا أمر متعين على كل مسلم؛ «لأنَّ السؤال فيه إظهار الدُّل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقُدرة المسؤول على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودَرء المضار، ولا يصلح الدُّل والافتقار إلا لله وحده؛ لأنَّه حقيقة العبودية»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وَمِنْ أَعْظَمِ الْاِعْتِدَاءِ وَالْعُدْوَانِ، وَالذُّلِّ وَالْهَوَانِ: أَنْ يُدْعَى غَيْرُ اللَّهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ، وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [القمان: ١٣]، ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلِيعْمَلْ عَمَلًا صَدِيقًا وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وسؤال المخلوق مُحَرَّمٌ لغير الحاجة، [أي: فيما يَقْدِرُ عليه]؛ كما ثبت عن النبي ﷺ في

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٩٣/١)، والترمذي رقم (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح جامع الترمذي» رقم (٢٠٤٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٤٨١/١).

الأحاديث الصحيحة في تحريم المسألة له ولغيره؛ كحديث حَكِيم، وقبيصة، وغيرهما؛ ففي حديث حَكِيم بن حَزَام قال: «سألت رسول الله ﷺ، فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني، ثم قال: (يَا حَكِيم، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطَيْبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى)»، أخرجاه^(١).

وعن عَوْف بن مالك الأشجعي، قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً، فَقَالَ: (أَلَا تُبَايِعُونَ؟)، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَّامَ نُبَايَعُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَأَنْ تُطِيعُوا - وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا)، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلَثِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا أَنْ يُنَاوِلَهُ إِيَّاهُ؛ رواه مسلم^(٢).

وعن قَبِيصَةَ بنِ مُخَارِقِ الهَلَالِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: (أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمَلُ حِمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاَحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَلِ مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ، أَوْ قَالَ: سِدَادًا، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ فَسُحْتُ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا)»؛ رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي^(٣).

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٤٧٢)، و«صحيح مسلم» رقم (١٠٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١٠٤٣).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (١٠٤٤)، و«سنن أبي داود» رقم (١٦٤٠)، و«سنن النسائي» (٨٩/٥).

وترك السؤال للمخلوق اعتياضاً بسؤال الخالق أفضل مطلقاً؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿[الشرح]... وفي «الصحيحين»، عن أبي سعيد الخدري، قال: «أصابني فاقة، فأتيْتُ النبي ﷺ فوجدته يُخَطِّبُ النَّاسَ وهو يقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، وَاللَّهِ مَهْمَا يَكُونُ عِنْدَنَا مِنْ خَيْرٍ، فَلَنْ نَذْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)، فقلتُ في نفسي: والذي بعثك بالحق لا أسألك شيئاً، فَرَجَعْتُ، فَأَغْنَى اللَّهُ، وجاءَ بخيرٍ»^(١)؛ فأبو سعيد فهم من كلام النبي ﷺ أن ترك سؤاله تعقفاً واستغناءً خيرٌ له من سؤاله، فإذا كان ترك سؤال الأنبياء في حياتهم أفضل مع الحاجة والفاقة، ومع عدم الحاجة يكون حراماً، فكيف سؤال الغائب والميت منهم ومن غيرهم...»^(٢).

وقال رحمه الله: «فإنَّ سؤال المخلوقين فيه ثلاثُ مفاصد: مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهي من نوع الشرك، ومفسدة إيذاء المسؤول، وهي من نوع ظلم الخلق، وفيه ذلٌ لغير الله، وهو ظلم للنفس؛ فهو مُشْتَمِلٌ على أنواع الظلم الثلاثة»^(٣). اهـ كلامه رحمه الله.

والمسلمُ الموفقُ يعلمُ علمَ يقينٍ أنه لا ينفع ولا يضرُّ، ولا يُعْطَى ولا يمنع غيرُ الله؛ ولهذا فهو يُفْرِدُهُ وحده بالخوف والرجاء، والمحبة والسؤال، والتضرُّع والدعاء، والذلُّ والخضوع، وإنا لنرجوه سبحانه أن يوفِّقنا لتحقيق ذلك، وألاً يكلِّنا إلى أحدٍ سواه، فإنه سبحانه نِعَمُ المسؤول، ونِعَمُ المرجو والمستعان.



(١) «صحيح البخاري» رقم (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (١٠٥٣) بلفظ مقارب.

(٢) «تلخيص الاستغاثة» (١/ ٢١٠ - ٢١٦) باختصار.

(٣) «قاعدة جلية، في التوسل والوسيلة» (ص ٦٦).

تَرْوِيجُ أَهْلِ الْبَاطِلِ لِلْأَدْعِيَةِ الْبَاطِلَةِ بِالْحِكَايَاتِ الْمُلَفَّقَةِ

سَبَقَ الْكَلَامُ عَنْ أَهْمِيَّةِ الْإِخْلَاصِ فِي الدَّعَاءِ، وَأَنَّهُ شَرْطٌ مِنْهُمْ مِنْ شُرُوطِ قَبُولِهِ، وَأَنَّ عَدَمَ إِخْلَاصِهِ لِلَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْتِدَاءِ وَالْعَدَوَانِ، وَالذُّلِّ وَالْهَوَانِ، سِوَاةٍ فِي ذَلِكَ مَنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ دَعَاءً مُسْتَقِلًّا، أَوْ جَعَلَهُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْإِثْمِ، وَأَشَدُّ الضَّلَالِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

❏ وَهُنَا أَمْرٌ لَا يَدَّ مِنْ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ؛ وَهُوَ: أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الضَّلَالِ مِنْ عِبَادِ الْقُبُورِ وَالْأَضْرَحَةِ وَالْقَبَابِ وَنَحْوِهَا قَدْ يَلْبَسُونَ عَلَى الْعَوَامِّ وَجَهَّالِ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ بِذِكْرِ بَعْضِ الْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ بِأَنَّ فَلَانًا دَعَا عِنْدَ قَبْرِ فَلَانٍ فَأُجِيبَ، وَأَنَّ جَمَاعَاتٍ دَعَوْا عِنْدَ قُبُورِ جَمَاعَاتٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَاسْتَجِيبَ لَهُمُ الدَّعَاءُ، وَكَقَوْلِهِمْ: إِنَّ قَبْرَ فَلَانٍ تَرِيَاقُ الْمَجْرُبِينَ، وَزَعَمِهِمْ بِأَنَّهُ عِنْدَ الْقُبُورِ تُقَالُ الْعَثَرَاتُ، وَتَسْتَجَابُ الدَّعَوَاتُ، وَتَنْزِلُ الرَّحْمَاتُ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ رَأَى مَنَامَاتٍ فِي الدَّعَاءِ عِنْدَ قُبُورِ بَعْضِ الْأَشْيَاخِ، وَجَرَّبَ أَقْوَامٌ اسْتِجَابَةَ الدَّعَاءِ عِنْدَ قُبُورِ مَعْرُوفَةٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَبَسَ بِهِ هَؤُلَاءِ الضَّلَالُ عَلَى بَعْضِ جُهَّالِ الْمُسْلِمِينَ، فَصَرَّفُوهُمْ بِذَلِكَ عَنِ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ، وَالْيَقِينِ الصَّادِقِ، وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ إِلَى التَّعَلُّقِ بِالْقُبُورِ، وَالْعُكُوفِ عِنْدَهَا، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِأَهْلِهَا، وَدَعَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ الْقِصَصَ وَالْحِكَايَاتِ لَهَا تَأْثِيرٌ بِالْغُ فِي قُلُوبِ الْعَامَّةِ وَالْجُهَّالِ، فَكَمْ أَوْقَعَتْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فِي صُنُوفِ الضَّلَالِ، وَأَنْوَاعِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَنْيَنِّي دِينَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؛ إِذْ لَا عِبْرَةَ بِهِ، وَلَا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ، وَلَا حُجَّةَ فِيهِ، وَإِنَّمَا الْحُجَّةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى،

وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، لَا فِي الْحِكَايَاتِ الْمُخْتَلَقَةِ، وَالْقِصَصِ الْمُلَفَّقَةِ، وَالْأَخْبَارِ الْمَزُورَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ بِصَدَدِ بَيَانِ بَعْضِ الْأُمُورِ الَّتِي أَوْقَعَتْ بَعْضَ النَّاسِ فِي الْافْتِتَانِ بِالْقُبُورِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، مَعَ أَنَّ سَاكِنِيهَا أَمْوَاتٌ لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْهَا [أي: الْأُمُورِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى ذَلِكَ]: حِكَايَاتُ حُكَيْتَ لَهُمْ عَنْ تِلْكَ الْقُبُورِ: أَنَّ فَلَانًا اسْتَغَاثَ بِالْقَبْرِ الْفُلَانِي فِي شِدَّةٍ، فَخَلَصَ مِنْهَا، وَفَلَانًا دَعَاهُ أَوْ دَعَا بِهِ فِي حَاجَةٍ، فَقَضِيَتْ لَهُ، وَفَلَانًا نَزَلَ بِهِ ضُرٌّ، فَاسْتَرْجَى صَاحِبَ ذَلِكَ الْقَبْرِ، فَكَشَفَ ضُرَّهُ، وَعِنْدَ السَّدَنَةِ وَالْمَقَابِرِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ يَطُولُ ذِكْرُهُ، وَهُمْ مِنْ أَكْذَبِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ...»، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

وَمَا كَانَ لِهَذَا التَّقْرِيرِ الْفَاسِدِ، وَالِاسْتِدْلَالِ الْبَاطِلِ أَنْ يَرُوجَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْإِسْلَامِ، وَالْمُنْتَمِينَ لِهَذِهِ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ؛ لَوْلَا غَلَبَةُ الْجَهْلِ، وَقِلَّةُ الْعِلْمِ بِحَقِيقَةِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، بَلْ جَمِيعِ الرُّسُلِ؛ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ، وَقَطْعِ أَسْبَابِ الشِّرْكِ وَوَسَائِلِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَجُوبَةً كَثِيرَةً وَوُجُوهًا عَدِيدَةً فِي الرَّدِّ تُبَيِّنُ وَهَاءَ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ وَفَسَادَهُ، وَمِنْ تِلْكَ الْأَجُوبَةِ:

أَنَّ دِينَ اللَّهِ تَامٌّ كَامِلٌ لَا نَقْصَ فِيهِ؛ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فَمَا لَمْ يَكُنْ دِينًا زَمَنَ نَبِيِّنَا ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَلَيْسَ الْيَوْمَ دِينًا، وَلَنْ يَكُونَ دِينًا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَاللَّهُ جَلٌّ وَعَلَا لَا يَقْبَلُ فِي الدِّينِ إِلَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ كِتَابُهُ وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَأَمَّا الْحِكَايَاتُ وَالْمَنَامَاتُ، وَالْقِصَصُ وَالْأَخْبَارُ، فَلَيْسَتْ مِمَّا يُقَامُ عَلَيْهِ شَرْعٌ، أَوْ يُبْنَى عَلَيْهِ دِينٌ؛ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأِنَّمَا الْمُتَّبَعُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ فِي إِثْبَاتِ الْأَحْكَامِ هُوَ: كِتَابُ اللَّهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَسَبِيلُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَلَا يَجُوزُ إِثْبَاتُ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ بِدُونِ هَذِهِ الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ

نَصًّا أَوْ اسْتِبَاطًا بِحَالٍ»^(١).

وَلَمْ يَرَدْ فِي تَحْرِيزِ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْقُبُورِ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَلَا سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، وَلَمْ يُنْقَلْ فِي جَوَازِ ذَلِكَ شَيْءٌ ثَابِتٌ عَنِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْمَفْضَلَةِ الَّتِي أَثْنَى عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ حَيْثُ قَالَ: (خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)^(٢)، وَلَمْ يُنْقَلْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ إِمَامٍ مَعْرُوفٍ، وَلَا عَالِمٍ مُتَّبَعٍ.

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ وَالْمَنَامَاتِ الَّتِي تُرَوَّى فِي هَذَا الْبَابِ لَا تَصَحُّ عَمَّنْ نُقِلَتْ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هِيَ مُتَقَوْلَةٌ مَكْذُوبَةٌ مَفْتَرَاءٌ، وَلَا سِيَّامَا مِنْهَا مَا يُنسَبُ إِلَى بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ؛ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - لَمْ يُنْقَلْ عَنْ إِمَامٍ مَعْرُوفٍ، وَلَا عَالِمٍ مُتَّبَعٍ؛ بَلِ الْمَنْقُولُ فِي ذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَذِبًا عَلَى صَاحِبِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَنْقُولُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ عَنْ مَجْهُولٍ لَا يُعْرَفُ، وَمِنْهَا مَا قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهُ قَالَهُ أَوْ فَعَلَهُ بِاجْتِهَادٍ يَخْطِئُ فِيهِ وَيُصِيبُ، أَوْ قَالَهُ بِقِيُودٍ وَشُرُوطٍ كَثِيرَةٍ عَلَى وَجْهِ لَا مَحْذُورَ فِيهِ، فَحُرِّفَ النُّقْلُ عَنْهُ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَذِنَ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ بَعْدَ النِّهْيِ عَنْهَا، فَهَمَّ الْمُبْطِلُونَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الزِّيَارَةُ الَّتِي يَفْعَلُونَهَا مِنْ حَاجَّهَا لِلصَّلَاةِ عِنْدَهَا وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهَا»^(٣). اهـ.

ثُمَّ إِنَّ قَضَاءَ حَاجَاتِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ الدَّاعِينَ، وَتَحَقُّقَ رَغَبَاتِهِمْ لَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ عَمَلِهِمْ وَسَلَامَتِهِ؛ فَقَدْ تَكُونُ الْإِجَابَةُ اسْتِدْرَاجًا وَابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا، فَلَيْسَ مُجَرَّدُ كَوْنِ الدُّعَاءِ حَصَلَ بِهِ الْمَقْصُودُ، أَوْ تَحَقَّقَ بِهِ الْمَرَادُ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ سَائِغٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنَّ حَصُولَ التَّأثيرِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى الْمَشْرُوعِيَّةِ، فَالْسَّخَرُ وَالطَّلَسَمَاتُ وَالْعَيْنُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ فِي الْعَالَمِ بِإِذْنِ اللَّهِ قَدْ يَقْضِي اللَّهُ بِهَا كَثِيرًا مِنْ أَغْرَاضِ النُّفُوسِ الشَّرِّيرَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ وَبَاطِلَةٌ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَيْسَ مُجَرَّدُ كَوْنِ الدُّعَاءِ حَصَلَ بِهِ

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٤٤).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٥٣٤).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٤٣ - ٣٤٤) مختصرًا.

المقصود ما يدُلُّ على أنه سائغ في الشريعة؛ فإن كثيراً من الناس يدعون من دون الله من الكواكب والمخلوقين، ويحصل ما يحصل من غرضهم، وبعض الناس يقصدون الدعاء عند الأوثان والكنائس وغير ذلك، ويدعو التماثيل التي في الكنائس، ويحصل ما يحصل من غرضه، وبعض الناس يدعو بأدعية مُحَرَّمة باتفاق المسلمين، ويحصل ما يحصل من غرضهم.

فحصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته، وإن كان الغرض مباحاً؛ فإن ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته، والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد، لكن لما كانت مفسدتها راجحة على مصلحتها، نهى الله ورسوله عنها، كما أن كثيراً من الأمور - كالعبادات، والجهاد، وإنفاق الأموال - قد تكون مضرّة، لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع، فهذا أصل يجب اعتباره^(١).

ثم إن تلك التأثيرات قد تكون من الشيطان؛ فإنه قد يتراءى لبعض هؤلاء في صورة من يعظمه أو يعتقد فيه أو ينتسب إليه، وقد يخاطب هؤلاء، أو يقضي بعض حوائجهم بإذن الله، فيكون فتنة لهم، ويظن أن ذلك كرامة لهؤلاء المدعوين، وما هو في الحقيقة إلا فتنة، ولا يعلم هؤلاء أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بعباد الأوثان؛ حيث تراءى أحياناً لمن يعبدوها، وتخاطبهم ببعض الأمور الغائبة، وتقضي لهم بعض طلباتهم؛ فكان ذلك أعظم أسباب عبادة الأوثان والتعلق بها.

والحاصل: أن مثل تلك الحكايات لا يستقيم الاحتجاج بها، ولا يصح الاعتماد عليها، ولا يبنى دين الله على شيء منها، وإنما يبنى على ما جاء في الكتاب والسنة، لا على الظنون والتخرصات، والقصاص والحكايات، والتجارب والمنامات، أعاذنا الله من الزلل، ووفقنا لصائب القول وصحيح العمل.

مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ عَدَمُ اسْتِعْجَالِ الإِجَابَةِ

إِنَّ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الْعَظِيمَةِ: أَنْ لَا يَسْتَعْجِلَ الدُّعَاءَ، وَيَسْتَبْطِئَ الإِجَابَةَ، فَيَسْتَحْسِرُ، وَيَمَلُّ، وَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ، وَيَقْعُ فِي الْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطِ مِنْ رَحْمَتِهِ؛ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ النَّهْيُ عَنْ اسْتِعْجَالِ الدُّعَاءِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَوَانِعِ إِجَابَتِهِ، وَأَسْبَابِ عَدَمِ قَبُولِهِ؛ فَفِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)^(١)، وَفِي لَفْظٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: (لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ، مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ)، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: (يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِيبْ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدْعُ الدُّعَاءَ)^(٢).

قَالَ ابْنُ حَبَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَدَبٌ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ، وَهُوَ أَنَّهُ يُلَازِمُ الطَّلَبَ، وَلَا يَيْئَسُ مِنَ الإِجَابَةِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِنْقِيَادِ وَالِاسْتِسْلَامِ وَإِظْهَارِ الْإِفْتِقَارِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَأَنَا أَشَدُّ خَشْيَةً أَنْ أُحْرَمَ الدُّعَاءَ مِنْ أَنْ أُحْرَمَ الإِجَابَةَ... وَقَالَ الدَّوَوْدِيُّ: يُخْشَى عَلَى مَنْ خَالَفَ، وَقَالَ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي أَنْ يُحْرَمَ الإِجَابَةُ، وَمَا قَامَ مَقَامَهَا مِنَ الْإِدْخَارِ وَالتَّكْفِيرِ»^(٣).

وَنَقَلَ عَنْ ابْنِ بَطَّالٍ أَنَّهُ قَالَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ: «الْمَعْنَى: أَنَّهُ يَسْأَلُ، فَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ، فَيَكُونُ كَالْمَانِّ بِدَعَائِهِ، أَوْ أَنَّهُ أَتَى مِنَ الدُّعَاءِ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الإِجَابَةَ، فَيَصِيرُ كَالْمُبْخَلِّ لِلرَّبِّ الْكَرِيمِ الَّذِي لَا تُعْجِزُهُ الإِجَابَةُ، وَلَا يُنْقِصُهُ الْعَطَاءُ».

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٨١).

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٨٠).

(٣) «فتح الباري» (١١/١٤١).

❏ إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ اللَّهَ رَجَاءَهُ، وَأَنْ يُجِيبَ دُعَاءَهُ: أَنْ يَدْعُو رَبَّهُ وَهُوَ مُوقِنٌ بِالْإِجَابَةِ؛ عَظِيمُ الثِّقَةِ بِاللَّهِ، شَدِيدُ الرِّجَاءِ فِيمَا عِنْدَهُ.

قال ابن رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ أَعْظَمِ شَرَائِطِهِ [أي: الدعاء]: حُضُورُ الْقَلْبِ، وَرَجَاءُ الْإِجَابَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا خَرَّجَ التِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (ادْعُوا اللَّهَ، وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَاهٍ)^(١)، وَفِي «الْمُسْنَدِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَّةٌ، فَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دُعَاءَ مَنْ ظَهَرَ قَلْبُ غَافِلٍ)^(٢)؛ وَلِهَذَا نَهَى الْعَبْدُ أَنْ يَقُولَ فِي دُعَائِهِ: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ)^(٣)، وَنَهَى أَنْ يَسْتَعْجَلَ، وَيَتْرَكَ الدُّعَاءَ؛ لِاسْتِبْطَاءِ الْإِجَابَةِ، وَجُعِلَ ذَلِكَ مِنْ مَوَانِعِ الْإِجَابَةِ، حَتَّى لَا يَقْطَعَ رَجَاءُهُ مِنْ إِجَابَةِ دُعَائِهِ وَلَوْ طَالَتِ الْمُدَّةُ؛ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمَلْحِينَ فِي الدُّعَاءِ... فَمَا دَامَ الْعَبْدُ يُلِحُّ فِي الدُّعَاءِ وَيَطْمَعُ فِي الْإِجَابَةِ مِنْ غَيْرِ قَطْعِ الرِّجَاءِ، فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْإِجَابَةِ، وَمَنْ أَدْمَنَ قَرَعَ الْأَبْوَابَ، يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ». اهـ^(٤).

وكيف لا يكون المسلم واثقاً بربه والأمور كلها بيده، ومعقودة بقضائه وقدره؟! فما شاء الله كان كما شاء، في الوقت الذي يشاء، على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدّم ولا تأخر، وحكمه سبحانه نافذ في السموات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم وذراته، يُقَلِّبُهَا وَيُصَرِّفُهَا، وَيُحَدِّثُ فِيهَا مَا يَشَاءُ؛ ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]،

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٨٠).

(٢) «المسند» (١٧٧/٢)، وإسناده ضعيف؛ لأن فيه عبد الله بن لهيعة، وهو سيء الحفظ، وباقي رجاله ثقات، إلا أن له شاهداً يتقوى به عند الإمام الترمذي في «جامعه» رقم (٣٤٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانظر: «الصحيحة» رقم (٥٩٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٧٣). (٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/٤٠٣ - ٤٠٤).

أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، وَوَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَحِكْمَةً، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَلَهُ الْمُلْكُ وَالْحَمْدُ، وَلَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَلَهُ النِّعْمَةُ وَالْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، شَمِلَتْ قَدْرَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَوَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٩]، لَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَلَا حَاجَةٌ يُسْأَلُهَا أَنْ يُعْطِيَهَا، لَوْ أَنَّ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ إِنْسَهُمْ وَجَنَّهُمْ، حَيَّهْمَ وَمَيَّتَهُمْ، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ، رَطْبَهُمْ وَيَابِسَهُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُوهُ، فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا سَأَلَ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ؛ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يَس: ٨٢]؛ وَلِهَذَا، فَإِنَّ مِمَّا يَتَنَافَى مَعَ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَكَمَالِ تَوْحِيدِهِ سُبْحَانَهُ: أَنْ يَدْعُوهُ الْعَبْدُ وَهُوَ غَيْرُ عَازِمٍ فِي مَسْأَلَتِهِ؛ بِأَنْ يَقُولَ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، أَوْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، أَوْ: اللَّهُمَّ وَقِّفْنِي إِنْ شِئْتَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ لِمَا فِي هَذَا الْقَوْلِ مِنْ إِيْهَامِ الْاسْتِغْنَاءِ عَنِ اللَّهِ، وَعَدَمِ الثِّقَةِ فِيمَا عِنْدَهُ؛ فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ، وَلِيَعْظِمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)؛ وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ^(١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا، مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ، فَلْيَعْزِمِ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَقُلْ: اللَّهُمَّ، إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ)^(٢).

وَقَدْ أوردَ الإمامُ المَجْدُدُ شيخُ الإسلامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ فِي كِتَابِ «التَّوْحِيدِ»، وَتَرْجَمَ لَهُ بِقَوْلِهِ: «بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ»، وَهُوَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَنْبَهُ بِهِذِهِ التَّرْجُمَةَ إِلَى أَنَّ عَدَمَ الْعَزْمِ فِي الدُّعَاءِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٣٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٨).

وتعليقه بالمشيئة مما يتنافى مع التوحيد الواجب، الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم؛ لأن قول القائل: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ»، يدل على فتور في الرغبة، وقلة اهتمام في الطلب، وكأن هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه، ومن كان هذا حاله، لم يتحقق منه الافتقار والاضطرار الذي هو روح العبادة ولُبُّها، وكان ذلك دليلاً على قلة معرفته بذنوبه، وسوء عاقبتها، وقلة معرفته برحمة ربه، وشدة احتياجه إليه، وضعف يقينه بالله ﷻ وإجابته للدعاء.

ولهذا قال في الحديث: (وَلْيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ)؛ أي: ليجزم في طلبته، ويحقق رغبته، ويتيقن الإجابة؛ فإنه إذا فعل ذلك، دل على علمه بعظيم ما يطلب من المغفرة والرحمة، وعلى أنه مفتقر إلى ما يطلب، مضطر إليه، وعلى أنه محتاج إلى الله، مفتقر إليه، لا يستغني عن مغفرته ورحمته طرفة عين^(١).

❦ ولهذا، فإن الواجب على المسلم - إذا دعا الله - أن يجتهد ويلح في الدعاء، ولا يقل: «إِنْ شِئْتَ»، كالمستثني، بل يدعو دعاء البائس الفقير بالحاح وصدق، وجد واجتهاد، مع الثقة الكاملة بالله، والطمع فيما عنده، وحسن الظن به سبحانه، وهو جلّ وعلا يقول كما في الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي)؛ أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحهما»^(٢).

وإننا نسأل الله الكريم أن يرزقنا حسن الظن به، وعظيم الثقة فيما عنده، وأن يوفقنا لكل خير يحبّه ويرضاه في الدنيا والآخرة.



(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص ٦٥١ - ٦٥٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٠).

أَهَمِّيَّةُ حُضُورِ الْقَلْبِ فِي الدُّعَاءِ وَجُمْلَةٌ مِنَ الْأَدَابِ الْآخَرَى

إِنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الَّتِي تُجَلِّبُ بِهَا الْأُمُورَ الْمَحْبُوبَةَ، وَتُدْفَعُ بِهَا الْأُمُورَ الْمَكْرُوهَةَ، لَكِنَّهُ قَدْ يَتَخَلَّفُ أَثَرُهُ، وَتَضَعُفُ فَائِدَتُهُ، وَرَبَّمَا تَنَعِدُمْ؛ لَأَسْبَابٍ مِنْهَا: إِمَّا لِضَعْفٍ فِي نَفْسِ الدُّعَاءِ؛ بِأَنْ يَكُونَ دُعَاءٌ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعَدْوَانِ، وَإِمَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ، وَعَدَمِ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ وَقْتَ الدُّعَاءِ، وَإِمَّا لِحَصُولِ الْمَانِعِ مِنَ الْإِجَابَةِ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَرَيْنِ الذُّنُوبِ عَلَى الْقُلُوبِ، وَاسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ وَاللَّهْوِ وَغَلَبَتُهُمَا عَلَيْهَا؛ إِذْ إِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تُبْطِلُ الدُّعَاءَ، وَتُضَعِّفُ مِنْ شَأْنِهِ.

ولهذا، فَإِنَّ مِنَ الضُّوَابِطِ الْمُهِمَّةِ، وَالشُّرُوطِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ تَوْفُّرِهَا فِي الدُّعَاءِ: حُضُورَ قَلْبِ الدَّاعِي، وَعَدَمَ غَفْلَتِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا دَعَا بِقَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ ضَعُفَتْ قُوَّةُ دُعَائِهِ، وَضَعُفَ أَثَرُهُ، وَأَصْبَحَ شَأْنُ الدُّعَاءِ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْقَوْسِ الرَّخْوِ جِدًّا؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، خَرَجَ مِنْهُ السَّهْمُ خُرُوجًا ضَعِيفًا، فَيَضَعُفُ بِذَلِكَ أَثَرُهُ؛ وَلِهَذَا، فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْحَثُّ عَلَى حُضُورِ الْقَلْبِ فِي الدُّعَاءِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَالْإِخْبَارُ بِأَنْ عَدَمَ ذَلِكَ مَانِعٌ مِنْ مَوَانِعِ قَبُولِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الْقُلُوبُ أَوْعِيَّةٌ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ ﷻ أَيُّهَا النَّاسُ، فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاةً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ)^(١).

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ صَحِيحٌ؛ إِذْ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِ مَعَ الدُّعَاءِ مِنْ حُضُورِ الْقَلْبِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٦٩).

وَعَدَمُ الْغَفْلَةِ، وَالْإِيقَانِ بِالْإِجَابَةِ؛ وَلِهَذَا فَقَدْ عَدَّ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الْجَوَابُ الْكَافِي» غَفْلَةَ الْقَلْبِ وَعَدَمَ حُضُورِهِ مَانِعًا مِنْ مَوَانِعِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ؛ وَاحْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، ثُمَّ قَالَ: «وَهَذَا دَوَاءٌ نَافِعٌ، مَزِيلٌ لِلدَّاءِ، وَلَكِنَّ غَفْلَةَ الْقَلْبِ تُبْطِلُ قُوَّتَهُ»، وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِذَا جُمِعَ مَعَ الدُّعَاءِ حُضُورُ الْقَلْبِ وَجَمْعِيَّتُهُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَصَادَفَ وَقْتًا مِنْ أَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ السَّتَّةِ، وَهُوَ الثَّلَاثُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَعِنْدَ الْأَذَانِ، وَبَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، وَأَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ، وَعِنْدَ صُعُودِ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ حَتَّى تُقْضَى الصَّلَاةُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَآخِرُ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَصَادَفَ خَشُوعًا فِي الْقَلْبِ، وَانْكَسَارًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ، وَذُلًّا لَهُ، وَتَضَرُّعًا وَرِقَّةً، وَاسْتَقْبَلَ الدَّاعِيَ الْقِبْلَةَ، وَكَانَ عَلَى طَهَارَةٍ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ، وَبَدَأَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ ثَنَّى بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ حَاجَتِهِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى اللَّهِ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَتَمَلَّقَهُ وَدَعَاهُ رَغْبَةً وَرَهْبَةً، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ دَعَائِهِ صَدَقَةً؛ فَإِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ لَا يَكَادُ يُرَدُّ أَبَدًا، وَلَا سِيَّمَا إِنْ صَادَفَ الْأَدْعِيَةَ الَّتِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا مَظَنَّةُ الْإِجَابَةِ، أَوْ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلْأَسْمِ الْأَعْظَمِ». ١هـ. كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ (١).

وَهُوَ كَلَامٌ عَظِيمُ النِّفَعِ، مُشْتَمِلٌ عَلَى ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنَ الشُّرُوطِ الْمَهْمَةِ، وَالْأَدَابِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي لَا يَكَادُ يُرَدُّ الدُّعَاءُ حَالًا تَوْفُرُهَا. وَيُمْكِنُ تَلْخِيصُ هَذِهِ الْأَدَابِ فِي الْأُمُورِ التَّالِيَةِ:

الأول: حُضُورُ الْقَلْبِ وَجَمْعِيَّتُهُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ.

الثاني: تَحَرِّيُّ أَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ.

الثالث: أَنْ يَكُونَ عَنْ خَشُوعٍ فِي الْقَلْبِ، وَتَذَلُّلٍ وَتَضَرُّعٍ وَرِقَّةٍ، وَانْكَسَارٍ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ.

الرابع: أن يستقبل الداعي القبلة.

الخامس: أن يكون على طهارة.

السادس: أن يرفع يديه إلى الله ﷻ عند الدعاء.

السابع: أن يبدأ دعاءه بحمد الله وحسن الثناء عليه، ثم يُثني بالصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد ﷺ.

الثامن: أن يقدم بين يدي حاجته وطلبه التوبة والاستغفار.

التاسع: أن يلح على الله ويتملّقه ويكثر من مناجاته.

العاشر: أن يجمع في دعائه بين الرغبة والرغبة.

الحادي عشر: أن يتوسّل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العظيمة، وتوحيده.

الثاني عشر: أن يقدم بين يدي دعائه صدقة.

الثالث عشر: أن يتخير الأدعية الجامعة التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة لاسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى.

فإذا جمع المسلم في دعائه هذه الأمور العظيمة، فإنّ دعاءه لا يكاد يُردُّ أبداً؛ إلا أن ههنا أمراً نبّه عليه أهل العلم لا بُدَّ من العناية به وتحقيقه، وهو: أنّ الداعي ينبغي له - مع قيامه بالدعاء مستوفياً لشروطه وآدابه - أن يستبَع ذلك القيامَ بلوازم ذلك ومُتمّماتِهِ، وذلك بالسعي والجِدِّ والاجتهاد في نيل المطلوب؛ «فسؤال الله الهداية يستدعي فعلَ جميع الأسباب التي تُدرِكُ بها الهداية؛ العِلْمِيَّةُ والعَمَلِيَّةُ، وسؤال الله الرحمة والمغفرة يقتضي مع ذلك فعلَ الممكنِ من الأسباب التي تُنالُ بها الرحمة والمغفرة، وهي معروفة في الكتاب والسنة، وإذا قال الداعي: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ التي فيها معاشي، إِلَى آخِرِهِ، يقتضي في هذا الطلب والالتجاء إلى الله أن يسعى العبدُ في إصلاح دِينِهِ بمعرفة الحقِّ واتباعِهِ،

ومعرفة الباطل واجتنابه، ودفع فتن الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ، ويقتضي أن يسعى ويقوم بالأسباب التي تصلح بها دنياه، وهي متنوعة بحسب أحوال الخلق.

وإذا قال الداعي: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِيَّيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فمع هذا التضرع إلى الله يسعى في شكر نعم الله عليه وعلى الولدیه اعترافًا وثناءً وحمدًا واستعانةً بها على طاعته، وتعرف الأعمال الصالحة التي ترضي الله، والعمل بها، والسعي في تربية الذرية تربيةً إصلاحيةً دينيةً، وهكذا جميع الأدعية صريحة في الاتكال والتضرع إلى الله، والالتجاء إليه في حصول المطالب المتنوعة، وصريحة في الاجتهاد في فعل كل سبب ينال به ذلك المقصود؛ فإن الله تعالى جعل للمطالب كلها أسبابًا بها تُنال، وأمر بفعلها مع قوة الاعتماد على الله، والدعاء يُعبر عن قوة الاعتماد على الله؛ ولهذا كان روح العبادة ومُخِّها، وإذا سأل العبد ربه أن يتوفاه مسلمًا، وأن يتوفاه مع الأبرار، كان سؤالًا لحسن الخاتمة، ويستدعي فعل الأسباب، والتوفيق للأسباب التي تُنال بها الوفاة على الإسلام؛ ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]؛ وذلك بفعل الأسباب والاعتماد على مسببها^(١)، وهو الله وحده الذي بيده أَرْزَمَةُ الأمور.



(١) «مجموع الفوائد، واقتناص الأوابد» لابن سعدي (ص ٩٨).

اِفْتِقَارُ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ

إِنَّ مِنَ الْخَصَالِ الْكَرِيمَةِ، وَالْخِلَالِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَفَّ بِهَا مَنْ يَدْعُو اللَّهَ ﷻ: أَنْ يَعْلَمَ عِلْمٌ يَقِينٌ أَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ، مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ، بَلْ وَجَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، عِبَادُ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَرَاءٌ إِلَيْهِ، مَمَالِكٌ لَهُ، وَهُوَ رَبُّهُمْ وَمَلِكُهُمْ وَالْهُمَمُ، لَا إِلَهَ لَهُمْ سِوَاهُ، فَالْمَخْلُوقُ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ أَصْلًا، بَلْ نَفْسُهُ وَصِفَاتُهُ وَأَفْعَالُهُ وَمَا يَنْتَفِعُ بِهِ أَوْ يَسْتَحِقُّهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وَاللَّهُ ﷻ رَبُّ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَلِكُهُ وَبَارئُهُ وَخَالِقُهُ وَمَصَوِّرُهُ، وَمُدَبِّرُ شُؤْنِهِ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ؛ ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فَالْمَخْلُوقُ فَقِيرٌ إِلَى اللَّهِ، مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، لَيْسَ فَقِيرًا إِلَى سِوَاهُ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فَلَيْسَ الْمَخْلُوقُ مُسْتَغْنِيًا بِنَفْسِهِ، وَلَا بِغَيْرِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ؛ إِذْ إِنَّ ذَلِكَ الْغَيْرَ فَقِيرٌ أَيْضًا، مُحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ، وَلِهَذَا قِيلَ: اسْتَغَاثَةُ الْمَخْلُوقِ بِالْمَخْلُوقِ، كَاسْتَغَاثَةِ الْغَرِيقِ بِالْغَرِيقِ، وَقِيلَ: اسْتَغَاثَةُ الْمَخْلُوقِ بِالْمَخْلُوقِ؛ كَاسْتَغَاثَةِ الْمَسْجُونِ بِالْمَسْجُونِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: (يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِيَكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا،

فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...»^(١)، قال ابن رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا يقتضي أَنَّ جميعَ الخلقِ مُفْتَقِرُونَ إلى الله تعالى في جَلْبِ مصالِحهم، ودَفْعِ مَضارهم، في أمور دينهم ودنياهم، وَأَنَّ العبادَ لا يملكونَ لأنفسهم شيئاً مِنْ ذلك كله، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَتَفَضَّلِ اللهُ عليه بالهُدَى والرِّزْقِ، فَإِنَّهُ يُحْرَمُهُما في الدنيا، وَمَنْ لَمْ يَتَفَضَّلِ اللهُ عليه بمغفرة ذنوبه أَوْبَقَتْهُ خطاياهُ في الآخرة»^(٢). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فالأمور كلها بيده: الهداية والعافية، والرزق والصحة، وغير ذلك، وما شاء سبحانه مِنْ ذلك كان، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فِعْطَاؤُهُ سبحانه كلام، وعذابُهُ كلام، فإذا أَرَادَ شيئاً مِنْ عطاءٍ أو عذاب، أو غير ذلك، قال له: كُنْ فيكون، ولهذا فكيف - والامرُ كذلك - يُلْجَأُ إلى سواه، أو يُخْضَعُ لِمَنْ دُونَهُ، أو يُطْلَبُ وَيُدْعَى غيرُهُ؟!

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]؛ «فالعبدُ لا بُدَّ له مِنْ رزقٍ، وهو محتاجٌ إلى ذلك، فإذا طَلَبَ رِزْقَهُ مِنَ اللَّهِ، صار عبداً لله، فقيراً له، وإذا طَلَبَهُ مِنْ مخلوقٍ، صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً له»^(٣).

إِنَّ فَقْرَ المخلوقِ واحتياجهُ لربه أمرٌ ذاتيٌّ له، لا وجودَ له بدونه، لكنَّ المخلوقين يتفاوتون في إدراكِ ذلك الافتقارِ أو العزوبِ عنه، والعبدُ فقيرٌ إلى الله من جهتين: من جهةِ العبادة، ومن جهةِ الاستعانة؛ كما قال الله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالعبدُ يفتقرُ إلى الله مِنْ جهةِ أَنَّهُ معبودُهُ الذي يُحِبُّهُ حُبَّ إجلالٍ وتعظيمٍ، وقلْبُهُ لا يَصْلُحُ ولا يُفْلِحُ، ولا يُسَرُّ ولا يَلْتَذُّ، ولا يَطِيبُ ولا يَسْكُنُ، ولا يطمئنُّ إِلَّا بعبادةِ رَبِّهِ، والإنابةِ إليه، ولو حصلَ له كلُّ ما يَلْتَذُّ به مِنَ المخلوقاتِ، لَمْ يطمئنَّ ولم يسكنْ؛ إذ فيه فقرٌ ذاتيٌّ إلى رَبِّهِ

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٧ - ٣٨).

(١) تقدم تخريجه (ص ١٠٨).

(٣) «العبودية» لابن تيمية (ص ٢٢).

مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ وَمَحْبُوبُهُ وَمَطْلُوبُهُ؛ وبهذا يَحْصُلُ لَهُ الْفَرْحُ وَالسُّرُورُ وَاللَّذَّةُ، وَالنَّعْمَةُ وَالسَّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ، والعَبْدُ يَفْتَقِرُ إِلَى اللَّهِ مِنْ جِهَةِ اسْتِعَانَتِهِ بِهِ لِلْاِسْتِسْلَامِ لِأَمْرِهِ، وَالْاِنْقِيَادِ لِحُكْمِهِ، وَالْخُضُوعِ لِشَرْعِهِ؛ إِذْ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْصِيلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَالْقِيَامِ بِهِ إِلَّا إِذَا أَعَانَهُ اللَّهُ^(١).

وهنا قاعدة مهمة نَبَّهَ عَلَيْهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ سِوَى اللَّهِ، فَهُوَ فَقِيرٌ إِلَى جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، فَلَا بَدَّ لَهُ مِنْ أَمْرَيْنِ:

أحدهما: هُوَ الْمَطْلُوبُ الْمَحْبُوبُ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ وَيَتَلَذَّذُ بِهِ.

والثاني: وَهُوَ الْمُعِينُ الْمَوْصِلُ لَذَلِكَ الْمَقْصُودِ، وَالْمَانِعُ لِحَصُولِ الْمَكْرُوهِ، وَالِدَّافِعُ لَهُ بَعْدَ وَقُوعِهِ.

فهنا أربعة أشياء يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ:

أحدها: أَمْرٌ مَحْبُوبٌ مَطْلُوبٌ الْوُجُودِ.

والثاني: أَمْرٌ مَكْرُوهٌ مُبْغَضٌ مَطْلُوبٌ الْعَدَمِ.

والثالث: الْوَسِيلَةُ إِلَى حَصُولِ الْمَحْبُوبِ.

والرابع: الْوَسِيلَةُ إِلَى دَفْعِ الْمَكْرُوهِ.

فهذه أربعة أمورٍ ضَرْوِيَّةٌ لِلْعَبْدِ، بَلْ وَلِكُلِّ حَيٍّ، لَا يَقُومُ وَجُودُهُ، وَلَا يَكُونُ صِلَاحُهُ إِلَّا بِهَا.

إِذَا عُرِفَ هَذَا، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمَطْلُوبُ الْمَعْبُودُ الْمَحْبُوبُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْمُعِينُ لِلْعَبْدِ عَلَى حَصُولِ مَطْلُوبِهِ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، وَلَا مُعِينٍ عَلَى الْمَطْلُوبِ غَيْرُهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْجَامِعُ لِلْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْعَبْدِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ تَتَضَمَّنُ الْمَقْصُودَ الْمَطْلُوبَ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَالْمُسْتَعَانَ هُوَ الَّذِي يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى حَصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ سَبْعَةُ مَوَاضِعَ تَنْتَظِمُ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ:

(١) انظر: «العبودية» لابن تيمية (ص ٢٩)، و«مجموع الفتاوى» له (٣١/١٤).

أحدها: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾

[الفرقان: ٥٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

السابع: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٨) رَبُّ الشَّرْقِ

وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل].

❏ إِنَّ حَاجَةَ الْعَبْدِ إِلَى أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا فِي مُحَبَّتِهِ، وَلَا فِي خَوْفِهِ، وَلَا فِي رَجَائِهِ، وَلَا فِي التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَلَا فِي التَّذَلُّلِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّقَرُّبِ = أَعْظَمُ مِنْ حَاجَةِ الْجَسَدِ إِلَى رُوحِهِ، وَالْعَيْنِ إِلَى نُورِهَا، بَلْ لَيْسَ لِهَذِهِ الْحَاجَةِ نَظِيرٌ تُقَاسُ بِهِ، فَالْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِلَهٍ الْحَقُّ فِي كُلِّ حَالَةٍ، وَكُلِّ دَقِيقَةٍ، وَكُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَضُرُورَتُهُ وَحَاجَتُهُ إِلَيْهِ لَا تُشَبِّهُهَا ضَرُورَةُ وَلَا حَاجَةُ، بَلْ هِيَ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ، وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ حَاجَةٍ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَمْلُوءٌ مِنْ ذِكْرِ حَاجَةِ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَمِنْ ذِكْرِ نِعَمَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ ذِكْرِ مَا وَعَدَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ صَنُوفِ النِّعَمِ وَاللَّذَاتِ، وَعِلْمُ الْعَبْدِ بِهَذَا يُحَقِّقُ لَهُ تَمَامَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَكَمَالَ الشُّكْرِ لَهُ، وَمُحَبَّتَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَاللَّجُوءَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا^(١).

وإِنَّا لَنَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِحَقِيقِ ذَلِكَ وَحُسْنِ الْقِيَامِ بِهِ، وَأَنْ لَا يَكِلَنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا.



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١/ ٢٠ - ٣٦)، و«طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ١٠٠ - ١٠٤).

جُمْلَةٌ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ

إِنَّ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الْمَهْمَةَ، وَأَسْبَابَ قَبُولِهِ الْعَظِيمَةَ: أَنْ يَسْبِقَ الدُّعَاءُ تَوْبَةً مِنَ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ جَمِيعِ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ، فَيَقْرَأُ بِذَنْبِهِ، وَيَعْتَرِفُ بِتَقْصِيرِهِ، وَيَنْدُمُ عَلَى تَفْرِيطِهِ؛ فَإِنَّ تَرَاكُمَ الذُّنُوبِ وَاجْتِمَاعَ الْخَطَايَا سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ الْإِجَابَةِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «لَا تَسْتَبْطِئِ الْإِجَابَةَ وَقَدْ سَدَدْتَ طُرُقَهَا بِالْمَعَاصِي»، وَقَدْ نَظَّمَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْمَعْنَى فِي بَيِّتَيْنِ مِنَ الشَّعْرِ، فَقَالَ:

نَحْنُ نَدْعُو الْإِلَهَ فِي كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ نَنْسَاهُ عِنْدَ كَشْفِ الْكُرُوبِ
كَيْفَ نَرْجُو إِجَابَةَ لِدُعَاءٍ قَدْ سَدَدْنَا طَرِيقَهَا بِالذُّنُوبِ

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ مَرَّ مَعَنَا حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا ذَكَرَ الرَّجُلَ يَطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعُمُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَذَلِكَ؟! فَاسْتَبَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ إِجَابَةَ دُعَاءٍ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ، «وَقَدْ يَكُونُ ارْتِكَابُ الْمَحْرَمَاتِ الْفِعْلِيَّةِ مَانِعًا مِنَ الْإِجَابَةِ أَيْضًا، وَكَذَلِكَ تَرَكَ الْوَاجِبَاتِ»^(١).

❏ وَلِهَذَا، فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَجِيبَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، وَيُحَقِّقَ رَجَاءَهُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَوَبَّ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا مِنْ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَلَا حَاجَةَ يُسَأَّلُهَا أَنْ يُعْطِيَهَا، وَقَدْ كَانَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ يُرْغَبُونَ أُمَّمَهُمْ، وَيَحْتُونُهُمْ عَلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَيُبَيِّنُونَ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وَنَزُولِ الْأَمْطَارِ، وَكَثْرَةِ الْخَيْرِ، وَاتِّشَارِ الْبَرَكَاتِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ؛ قَالَ تَعَالَى عَنْ نُوْحٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٢٧٥).

غَفَارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِئَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا [نوح]، وقال عن هود عليه السلام: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةَ إِلَيْنِ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا بُحْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بُرْكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا﴾ [هود: ٣].

فالتوبة إلى الله واستغفاره سبب نزول الخيرات، وتوالي البركات، وإجابة الدعوات؛ يُروى أن أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه خرج يستسقي، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأمطروا، فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: «لقد طلبت المطر بمجاديع السماء التي يُسْتَنْزَلُ بها المطر، ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾»^(١).

وقال ابن صبيح رحمه الله: «شكا رجل إلى الحسن البصري رحمه الله الجدوبة؟ فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال له: استغفر الله، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدا، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله، فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئا؛ إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِئَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾»^(٢).

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٩٨/١١)، والمجاوح جمع مجدح، وهو عند العرب من الأنواء التي تزعم أنها تُمَطَّرُ بها، أراد رضي الله عنه الرد على المشركين في تعلقهم بالأنواء واستسقايتهم بها، وأن المطر إنما يستنزل بالجوء إلى الله وطلب غفرانه، ونظيره ما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٩٢٦) عن أبي هريرة أنه كان إذا أصبح في الليلة التي يمطرون فيها قال: مطرنا بنوء الفتح، ثم يتلو: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨٣٤٣)، والطبراني في «الدعاء» رقم (٩٦٤).

ومعنى الآية: «أي: إذا تُبْتُمْ إلى الله واستغفرتُمُوهُ وأطعتمُوهُ، كَثُرَ الرِّزْقُ عليكم، وأسقاكم مِنْ بَرَكَاتِ السماء، وَأَنْبَتَ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأرض، وَأَنْبَتَ لَكُمْ الزَّرْعَ، وَأَدَّرَ لَكُمْ الصَّرْعَ، وَأَمَدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ؛ أي: أعطاكمُ الأموالَ والأولادَ، وجعلَ لَكُمْ جَنَاتٍ فيها أنواعُ الثَّمَرِ، وخلَّلها بالأنهارِ الجاريةِ بينها»^(١)، إلى غير ذلك مِنْ صنوفِ الخيرات، وأنواعِ العطايا والهبات. وسيأتي الكلامُ على الاستغفار، فَضْلِهِ وأهميته وفوائده في الدنيا والآخرة.

* وَمِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الْمَهْمَةُ: أن يدعو المسلمُ رَبَّهُ وهو في حالِ تَضَرُّعٍ وخشوع، وتذللٍ وخضوع، بل إنَّ ذلك «هو رُوحُ الدُّعَاءِ وَلُبُّهُ ومقصودُهُ؛ فَإِنَّ الْخَاشِعَ الدَّلِيلَ إِنَّمَا يَسْأَلُ مَسْأَلَةَ مُسْكِينٍ ذَلِيلٍ، قد انكسر قلبُهُ، وَذَلَّتْ جوارحُهُ، وخشعَ صوته»^(٢)، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِدُعَائِهِ بِتَضَرُّعٍ وَخُفْيَةٍ، وحذَّر في هذا السياقِ مِنَ الاعتداء؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنْ الْعُدْوَانِ: أَنْ يَدْعُوهُ غَيْرَ مُتَضَرِّعٍ، بل دعاءُ هذا كالمستغني المُدْلِي على رَبِّهِ، وهذا مِنْ أَعْظَمِ الْإِعْتِدَاءِ لِمَنَافَاتِهِ لدعاءِ الدَّلِيلِ، فَمَنْ لَمْ يَسْأَلْ مَسْأَلَةَ مُسْكِينٍ مُتَضَرِّعٍ خَائِفٍ، فهو مُعْتَدٍ»^(٣).

وقد سَبَقَ الكلامُ على الاعتداء في الدعاء وأنواعه، وأنَّ كُلَّ تَجَاوُزٍ لِمَا حَدَّثَهُ الشَّرِيعَةُ في ذلك، فهو اعتداءٌ.

* وَمِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ: الإِلْحَاحُ على الله، وكثرةُ سؤَالِهِ، وعدمُ السَّامَةِ والملل؛ «واللهُ يُحِبُّ الْمُلْحِينَ في الدعاء؛ ولهذا تجدُ كثيرًا مِنْ أَدْعِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ فيها مِنْ بَسِطِ الْأَلْفَاظِ، وَذِكْرِ كُلِّ مَعْنَى بِصَرِيحٍ لَفْظِهِ، دونِ الْاِكْتِفَاءِ بِدَلَالَةِ اللَّفْظِ الْآخِرِ عَلَيْهِ ما يشهدُ لذلك؛ كقوله ﷺ في حديثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ في «صحيحه»: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)^(٤)؛ ومعلومٌ أَنَّهُ لو قيل: اغْفِرْ لِي كُلَّ ما صَنَعْتُ، كانَ أَوْجَزَ، وَلَكِنَّ لَفْظَ الْحَدِيثِ

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/١٥).

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٦٠/٨).

(٤) «صحيح مسلم» رقم (٧٧١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٣/١٥).

في مقام الدعاء والتضرُّع، وإظهار العبودية والافتقار؛ باستحضار الأنواع التي يتوبُ العبدُ منها تفصيلاً: أَحْسَنُ وَأَبْلَغُ مِنَ الإيجازِ والاختصار؛ وكذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ؛ دِقَّةً وَجِلَّةً، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ)^(١)، وفي الحديث: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي)^(٢)، وهذا كثيرٌ في الأدعية المأثورة؛ فإنَّ الدعاء عبوديةٌ لله، وافتقارٌ إليه، وتَذَلُّلٌ بين يديه، فكلَّما كَثُرَ العبدُ وطَوَّلَهُ، وأَعَادَهُ وأَبْدَاهُ، وَنَوَّعَ جُمْلَهُ، كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي عِبَادِيَّتِهِ وإِظْهَارِ فَقْرِهِ وَتَذَلُّلِهِ وحَاجَتِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لَهُ مِنْ رَبِّهِ وَأَعْظَمَ لثَوَابِهِ، وهذا بخلاف المخلوق؛ فَإِنَّكَ كُلَّمَا كَثُرَتْ سُؤَالُهُ، وَكَرَّرْتَ حَوَائِجَكَ إِلَيْهِ، أَبْرَمْتَهُ وَثَقَلْتَ عَلَيْهِ، وَهُنَّتْ عَلَيْهِ، وَكُلَّمَا تَرَكْتَ سُؤَالَهُ، كَانَ أَعْظَمَ عِنْدَهُ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ كُلَّمَا سَأَلْتَهُ، كُنْتَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ، وَكُلَّمَا أَلْحَحْتَ عَلَيْهِ فِي الدُّعَاءِ، أَحَبَّكَ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ.

فَاللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنِيَ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ»^(٣)

وقد رُوِيَ في «المسند» و«سنن أبي داود»، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ يَدْعُوَ ثَلَاثًا، وَيَسْتَغْفِرَ ثَلَاثًا»^(٤)، وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ رحمته الله: «كَانَ يُقَالُ: أَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْإِلْحَاحُ عَلَى اللَّهِ وَالتَّضَرُّعُ»^(٥).



(١) رواه مسلم رقم (٤٨٣).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٣٩٩)، ومسلم رقم (٢٧١٩).

(٣) «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص ٢٠٣).

(٤) «المسند» (١/٣٩٤)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٢٤)، وأورده الألباني في «ضعيف الجامع»

رقم (٤٩٨٤).

(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨/٢).

تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ

تَقَدَّمَ معنا ذِكْرُ ثَلَاثَةِ آدَابٍ لِلدُّعَاءِ عَظِيمَةٍ؛ وَهِيَ: أَنْ يُقَدَّمَ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ دُعَائِهِ تَوْبَةً مِنْ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ، وَأَنْ يَكُونَ دَعَاؤُهُ لِرَبِّهِ فِي حَالٍ تَضَرُّعٍ وَخُشُوعٍ وَخُضُوعٍ، وَأَنْ يُلَحَّ عَلَى اللَّهِ فِي الدُّعَاءِ وَيُكْثِرَ مِنْ سُؤَالِهِ دُونَ سَأَمَةٍ أَوْ مَلَلٍ، وَهَذِهِ جَمَلَةٌ أُخْرَى مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَنِيَ بِهَا الْمُسْلِمُ.

* فَمِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الْمَهْمَّةُ: أَنْ لَا يَقْتَصِرَ الْمُسْلِمُ عَلَى دُعَائِهِ رَبَّهُ فِي حَالِ الشَّدَّةِ فَقَطْ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَدْعُو رَبَّهُ فِي سَرَائِهِ وَضُرَائِهِ، وَشِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ، وَصِحَّتِهِ وَسَقَمِهِ، وَفِي أَحْوَالِهِ كُلِّهَا. وَمُلَازِمَةُ الْمُسْلِمِ لِلدُّعَاءِ حَالِ الرَّخَاءِ، وَمَوَاطِنُهُ عَلَيْهِ فِي حَالِ السَّرَّاءِ سَبَبٌ عَظِيمٌ لِإِجَابَةِ دُعَائِهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ وَالْكَرْبِ؛ وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ)^(١).

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِأَنَّهُمْ لَا يَلْجَأُونَ إِلَى اللَّهِ، وَلَا يُخْلِصُونَ لَهُ الدِّينَ إِلَّا فِي حَالِ شِدَّتِهِمْ، أَمَّا فِي حَالِ رَخَائِهِمْ وَيُسْرِهِمْ وَسَرَائِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، وَيُقْبِلُونَ عَلَى أَوْثَانٍ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ شَيْئًا، وَلَا تَنْفَعُهُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ، فَيَسْتَنْجِدُونَ بِهَا، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهَا، وَيُنْزِلُونَ بِهَا حَاجَاتِهِمْ وَطَلَبَاتِهِمْ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَى مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [الزمر: ٨]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وَيَقُولُ تَعَالَى:

(١) رواه الترمذي رقم (٣٣٨٢)، والحاكم في «المستدرک» (١/٥٤٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِي فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (٦٢٩٠).

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نُمًّا إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا﴾ [الزمر: ٥١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي تدلُّ دَلَالَةً واضحةً على ذمِّ مَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ إِلَّا فِي حَالِ ضَرَّائِهِ وَشِدَّتِهِ، أَمَّا فِي حَالِ يُسْرِهِ وَرِخَائِهِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي صَدُودٍ وَإِعْرَاضٍ وَلَهْوٍ وَغَفْلَةٍ وَعَدَمِ إِقْبَالٍ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

❏ ولهذا، فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُسْلِمِ: أَنْ يُقْبَلَ عَلَى اللَّهِ فِي أَحْوَالِهِ كُلِّهَا فِي الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، وَالرِّخَاءِ وَالشَّدَّةِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ، وَالصِّحَّةَ وَالْمَرَضَ، وَمَنْ تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ، عَرَفَهُ اللَّهُ فِي الشَّدَّةِ؛ فَكَانَ لَهُ مَعِينًا وَحَافِظًا وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا.

ولهذا قال النبي ﷺ كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما المشهور: (تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ) ^(١).

قال ابن رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جُزْءٍ لَهُ أَفْرَدَهُ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ: «الْمَعْنَى: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا اتَّقَى اللَّهَ، وَحَفِظَ حَدُودَهُ، وَرَاعَى حَقُوقَهُ فِي حَالِ رِخَائِهِ وَصِحَّتِهِ، فَقَدْ تَعَرَّفَ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَعْرِفَةٌ، فَعَرَفَهُ رَبُّهُ فِي الشَّدَّةِ، وَعَرَفَ لَهُ عَمَلَهُ فِي الرِّخَاءِ، فَنَجَّاهُ مِنَ الشَّدَائِدِ بِتِلْكَ الْمَعْرِفَةِ... وَهَذَا التَّعَرُّفُ الْخَاصُّ هُوَ الْمَشَارُ إِلَى اللَّهِ فِي الْحَدِيثِ الْإِلَهِيِّ، (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأُعْطِيَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ) ^(٢)» ^(٣).

ثُمَّ أوردَ عَنْ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ: «اذْكُرُوا اللَّهَ فِي الرِّخَاءِ يَذْكُرْكُمْ فِي الشَّدَّةِ؛ إِنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَذْكُرُ اللَّهَ، فَلَمَّا وَقَعَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ^(٤) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ» [الصفات]، وَإِنْ فِرْعَوْنُ كَانَ طَاغِيًا نَاسِيًا لَذَكَرَ اللَّهَ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، قَالَ: آمَنْتُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣٠٧/١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٩٦١).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٧٧). (٣) «نور الاقتباس» لابن رجب (ص ٤٣).

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّاجَ لَكَ فَأَنْزَلَهُ فَسَقَّ﴾ [يونس: ٩١]، فَمَنْ لَمْ يَتَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَعْرِفَهُ فِي الشَّدَّةِ؛ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

قَالَ رَجُلٌ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «أَوْصِنِي، فَقَالَ: اذْكُرِ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ يَذْكُرَكَ اللَّهُ عز وجل فِي الضَّرَّاءِ»^(١).

وَعَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «ادْعُ اللَّهَ فِي يَوْمِ سَرَائِكَ، لَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكَ فِي يَوْمِ ضَرَائِكَ»^(٢).

وَأَنَّ مِنَ التَّعَرُّفِ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ أَنْ يَجْتَهِدَ الْعَبْدُ فِي حَالِ رِخَائِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ، وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَيْهِ؛ كَالْبِرِّ وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ الْبِرِّ وَسُبُلِ الْخَيْرِ. «وَحَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ دَخَلُوا الْغَارَ وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ يَشْهَدُ لِهَذَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ فَرَّجَ عَنْهُمْ بَدْعَانِهِمَا بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْخَالِصَةِ فِي حَالِ الرِّخَاءِ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَتَرْكِ الْفُجُورِ، وَالْأَمَانَةِ الْخَفِيَّةِ»^(٣).

وَحَدِيثُ هَؤُلَاءِ مشهورٌ خرَّجه الإمام البخاري في مواطنٍ عديدةٍ من «صحيحه»، وخرَّجه مسلمٌ وغيرُهما مِنَ الْأَثَمَةِ، وَلَفْظُ الْحَدِيثِ فِي بَابِ: حَدِيثِ الْغَارِ مِنْ كِتَابِ: أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ «صحيح البخاري»، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ، إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوُّوا إِلَى غَارٍ، فَاَنْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلَاءِ لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصَّدَقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَّقَ فِيهِ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي

(١) «حلية الأولياء» (٢٠٩/١).

(٢) «المصنف» لعبد الرزاق (١٨٠/١١)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٥٢/٢)، وانظر: «جامع العلوم والحكم» (٤٧٥ - ٤٧٦).

(٣) «نور الاقتباس» لابن رجب (ص ٤٦).

عَلَى فَرَقٍ مِنْ أَرْزٍ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَأَنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ، فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقْرًا، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمَدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ، فَسُقْهَا، فَقَالَ لِي: إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرْزٍ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمَدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرَقِ، فَسَاقَهَا؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَنَسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ، فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ آتِيَهُمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَنْهُمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا، وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاعَوْنَ مِنَ الْجُوعِ، وَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدْعُهُمَا فَيَسْتَكِنَا لِشُرْبَتَيْهِمَا، فَلَمْ أَزَلْ أَتَنْظَرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَنَسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةٌ عَمٌّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمَكَّتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، فَقَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْضُرِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكَتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَخَرَجُوا^(١).

فكانت أعمال هؤلاء الثلاثة الصالحة سببًا لتفريج همهم، وكشف كربتهم، وإجابة دعوتهم، وتحقيق أملهم ورجائهم، فلمَّا تعرَّف هؤلاء إلى ربهم في حال رخائهم، تعرَّف إليهم ربهم سبحانه في حال شدتهم، فأمدَّهم بعونه، وأحاطهم بحفظه، وكَلَّاهُم برعايته وعنايته، وهو وحده الموقِّق والمعين، لا شريك له.



(١) تقدم تخريجه (ص ٣٢٢)، وهذا اللفظ جاء في «صحيح البخاري» رقم (٣٤٦٥).

رَفْعُ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ

إِنَّ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الْعَظِيمَةِ رَفْعُ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ لثبوت ذلك عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، عدّها بعض أهل العلم في جملة ما تواتر فيه النقل عن النبي الكريم ﷺ؛ قال السيوطي في شرحه لتقريب الإمام النووي، رحمهما الله، ممثلاً لما تواتر معناه عن النبي ﷺ: «فقد ورد عنه ﷺ نحو مائة حديث فيه رفع يديه في الدعاء، وقد جمعتها في جزء، لكنها في قضايا مختلفة، فكل قضية منها لم تتواتر، والقدر المشترك فيه هو الرفع عند الدعاء تواتر باعتبار المجموع»^(١).

وعقد الإمام البخاري رحمه الله في كتابه «الصحيح» في كتاب الدعوات منه باباً بعنوان: رفع الأيدي في الدعاء، وأورد تحته عن أبي موسى الأشعري، قال: «دعا النبي ﷺ، ثم رفع يديه، ورأيت بياض إبطيه»^(٢)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «رفع النبي ﷺ يديه، وقال: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ)»^(٣)، وعن أنس، عن النبي ﷺ: «رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه»^(٤).

وقد أشار شارح «الصحيح» الحافظ ابن حجر رحمه الله إلى كثرة الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في هذا المعنى، وذكر جملة من الأحاديث في ذلك:

* منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِو عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَاسْتَقْبَلَ الْقَبْلَةَ، وَرَفَعَ

(١) «تدريب الراوي» (٢/ ١٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١٩٨/ ٧) تعليقا.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٥٠ - ١٥١)، و«صحيح البخاري» (١٩٨/ ٧) تعليقا.

(٤) «صحيح البخاري» رقم (١٠٣٠، ١٠٣١)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٥).

يَدَيْهِ، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا)؛ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ»، وَهُوَ فِي «الصَّحِيحِينَ» دُونَ قَوْلِهِ: «وَرَفَعَ يَدَيْهِ»^(١).

* وَمِنْهَا: حَدِيثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: «أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو هَاجَرَ...»، وَذَكَرَ قِصَّةَ الرَّجُلِ الَّذِي هَاجَرَ مَعَهُ، وَفِيهِ: «فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (اللَّهُمَّ، وَلِيَدَيْهِ فَأَغْفِرْ)، وَرَفَعَ يَدَيْهِ»، قَالَ الْحَافِظُ: «وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ»^(٢).

* وَمِنْهَا: حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا رَأَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو رَافِعًا يَدَيْهِ، يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ...)»، الْحَدِيثُ^(٣)، قَالَ الْحَافِظُ: «وَهُوَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ».

* قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي ذَلِكَ: مَا أَخْرَجَهُ الْمُصَنِّفُ [أَي: الْبُخَارِيُّ] فِي «جَزْءِ رَفْعِ الْيَدَيْنِ»: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ رَافِعًا يَدَيْهِ يَدْعُو لِعِثْمَانَ»^(٤)، وَلِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ فِي قِصَّةِ الْكُسُوفِ: «فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ يَدْعُو»^(٥)، وَعِنْدَهُ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ فِي الْكُسُوفِ أَيْضًا: «ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ يَدْعُو»^(٦)، وَفِي حَدِيثِهَا عِنْدَهُ فِي دَعَائِهِ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ: «فَرَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...» الْحَدِيثُ^(٧)، وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الطَّوِيلِ فِي فَتْحِ مَكَّةَ: «فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَجَعَلَ يَدْعُو»^(٨)، وَفِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي حُمَيْدٍ، فِي قِصَّةِ ابْنِ اللَّثِيئَةِ: «ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ عُفْرَةَ إِبْطِئِهِ،

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢/٢٤٣)، وَ«الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» رَقْم (٦١١)، وَانْظُرْ: «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْم (٢٩٣٧)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٢٥٢٤).

(٢) «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» رَقْم (٦١٤)، وَهُوَ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣/٣٧٠ - ٣٧١)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (١١٦)، دُونَ قَوْلِهِ: «وَرَفَعَ يَدَيْهِ».

(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٦/١٦٠)، وَ«الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» رَقْم (٦١٣).

(٤) «الْمَعْجَمُ الْكَبِيرُ» (١٧/١٧٤ رَقْم)، وَ«الْمَعْجَمُ الْأَوْسَطُ» رَقْم (٧٢٥٥)، وَ«رَفَعَ الْيَدَيْنِ» رَقْم (٩٠).

(٥) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٩١٣).

(٦) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٩٠١).

(٧) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٩٧٤).

(٨) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (١٧٨٠).

يقول: (اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَغْتُ؟!)(١)، ومن حديث عبد الله بن عمرو: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: (اللَّهُمَّ، أُمَّتِي)»(٢)، وفي حديث عُمَرَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِي النَّحْلِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَوْمًا، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا»، والحديث أخرجه الترمذي واللفظ له، والنسائي، والحاكم(٣)، وفي حديث أسامة: «كَنتُ رَدَفَ النَّبِيِّ ﷺ بِعِرْفَاتٍ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ يَدْعُو، فَمَالَتُ بِهِ نَاقَتُهُ، فَسَقَطَ خَطَايُمُهَا، فَتَنَاوَلَهُ بِيَدِهِ، وَهُوَ رَافِعُ الْيَدِ الْآخَرَى»، أخرجه النسائي بسندٍ جيّد(٤)، وفي حديث قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ: «ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، صَلِّوْا تِلْكَ وَرَحْمَتُكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ...)» الحديث، وسنده جيّد(٥)، والأحاديث في ذلك كثيرة. اهـ. كلام الحافظ رحمه الله(٦)، وقد تقصّى فيه جملةً مباركةً من أحاديث رفع الأيدي في الدعاء.

* ومن الأحاديث الثابتة في ذلك: ما رواه الترمذي، وأبو داود، وغيرهما عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِّي كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)(٧).

فهذه الأحاديث وما جاء في معناها تدلُّ على أَنَّ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الْعَظِيمَةِ رَفْعَ الْيَدَيْنِ إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَقَبُولِهِ، وَدَلَّتِ السُّنَّةُ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٥٩٧)، و«صحيح مسلم» رقم (١٨٣٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٢).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣١٧٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي رقم (١٤٣٩)، و«المستدرک» (٣٩٢/٢).

وقال النسائي: «هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه، والله أعلم».

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٢٠٩/٥)، و«السنن الكبرى» رقم (٤٠٠٧)، و«الصغرى» رقم (٣٠١١).

(٥) رواه أحمد في «المسند» (٤٢١/٣)، و«سنن أبي داود» رقم (٥١٨٥).

(٦) «فتح الباري» (١٤٢/١١). (٧) تقدم تخريجه (ص ٢٧٦).

أَيْضًا أَنْ لِرَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ صِفَاتٍ ثَلَاثًا تَرْجِعُ إِلَى نَوْعِ الدُّعَاءِ، فَإِذَا كَانَ ابْتِهَالًا، وَهُوَ شِدَّةُ الْمُبَالِغَةِ فِي الطَّلَبِ، فَلِرَفْعِ الْيَدَيْنِ فِيهِ صِفَةٌ، وَإِذَا كَانَ دُعَاءً وَمَسْأَلَةً، فَلِلرَّفْعِ فِيهِ صِفَةٌ، وَإِذَا كَانَ اسْتِغْفَارًا أَوْ تَوْحِيدًا وَتَمْجِيدًا، فَلِلرَّفْعِ فِيهِ صِفَةٌ، يُوضِّحُ ذَلِكَ وَبَيِّنُهُ مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا، قَالَ: «الْمَسْأَلَةُ: أَنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ حَذْوَ مَنْكَبَيْكَ أَوْ نَحْوَهُمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ: أَنْ تُشِيرَ بِإِصْبَعٍ وَاحِدَةٍ، وَالِابْتِهَالُ: أَنْ تُمَدَّ يَدَيْكَ جَمِيعًا»، وَفِي لَفْظٍ: «هَكَذَا الْإِخْلَاصُ يُشِيرُ بِإِصْبَعِهِ الَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ، وَهَذَا الدُّعَاءُ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ حَذْوَ مَنْكَبَيْهِ، وَهَذَا الْابْتِهَالُ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ مَدًّا»؛ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الدُّعَاءِ»، وَغَيْرُهُمَا^(١).

قَالَ الشَّيْخُ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو زَيْدٍ رحمته الله مُعَلِّقًا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ: «وَقَدْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله مَبِينَةً مَقَامَ كُلِّ حَالَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثَةِ، لَا أَنَّهَا مِنْ اخْتِلَافِ التَّنَوُّعِ، وَبَيَانُهَا كَالْآتِي:

المقام الأول: مَقَامُ الدُّعَاءِ الْعَامِّ، وَيُسَمَّى الْمَسْأَلَةَ، وَيُقَالُ: الدُّعَاءُ، وَهُوَ رَفْعُ الْيَدَيْنِ إِلَى الْمَنْكَبَيْنِ أَوْ نَحْوَهُمَا، ضَامًّا لَهُمَا، بَاسِطًا لِبَطُونِهِمَا نَحْوَ السَّمَاءِ، وَظُهُورِهِمَا إِلَى الْأَرْضِ، وَإِنْ شَاءَ قَنَعَ بِهِمَا وَجْهَهُ، وَظُهُورُهُمَا نَحْوَ الْقِبْلَةِ، وَهَذِهِ هِيَ الصِّفَةُ الْعَامَّةُ لِرَفْعِ الْيَدَيْنِ حَالَ الدُّعَاءِ مُطْلَقًا، وَفِي قُنُوتِ الْوُتْرِ وَالِاسْتِسْقَاءِ، أَوْ فِي مَوَاطِنِ رَفْعِهِمَا السُّتَةِ فِي الْحَجِّ [أَي: فِي عَرَفَةَ، وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَبَعْدَ رَمِي الْجَمْرَتَيْنِ الصَّغْرَى وَالْوَسْطَى، وَعَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ]، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

المقام الثاني: الْاسْتِغْفَارُ، وَيُقَالُ: الْإِخْلَاصُ، وَهُوَ رَفْعُ إِصْبَعٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ السَّبَّابَةُ، مِنَ الْيَدِ الْيُمْنَى، وَهَذِهِ الصِّفَةُ خَاصَّةٌ بِمَقَامِ الذِّكْرِ

(١) «سنن أبي داود» رقم (١٤٨٩، ١٤٩٠)، و«الدعاء» للطبراني رقم (٢٠٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٤) موقوفًا ومرفوعًا.

والدعاء حال الخطبة على المنبر، وحال التشهد في الصلاة، وحال الذكر والتمجيد والهيللة خارج الصلاة...

المقام الثالث: الابتهاج، وهو التضرُّع والمبالغة في المسألة، ويُسمى أيضًا دعاء الرَّهَبِ، وصفته: رَفَعَ اليَدَيْنِ مَدًّا نحوَ السَّمَاءِ حَتَّى تُرَى عُقْرَةُ إِبْطَيْهِ؛ أي: بِيَاضُهِمَا، وَيُقَالُ فِي وَصْفِهِ: حَتَّى يَبْدُو عَضْدَاهُ؛ أي: يَرْتَفَعَانِ مِنَ الْمَبَالِغَةِ فِي الرِّفْعِ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ أَحْصَى مِنَ الصِّفَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَهِيَ خَاصَّةٌ فِي حَالِ الشَّدَّةِ وَالرَّهْبَةِ كَحَالِ الْجَدْبِ، وَالنَّازِلَةِ بِتَسْلُطِ الْعَدُوِّ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الرَّهْبِ. اهـ^(١).

فهذه أحوالُ الرِّفْعِ فِي الدُّعَاءِ، وَهِيَ أَحْوَالٌ ثَلَاثَةٌ بِحَسَبِ نَوْعِ الدُّعَاءِ، وَلِلْمَوْضُوعِ صَلََّةٌ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.



(١) «تصحيح الدعاء» (ص ١١٦ - ١١٧).

مَرَاتِبُ رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ

كان الحديثُ فيما سَبَقَ عن أدبٍ عظيمٍ مِنْ آدابِ الدعاءِ، وسببٍ عظيمٍ من أسبابِ إجابته؛ ألا وهو رَفْعُ اليَدَيْنِ إلى الله ﷻ عِنْدَ الدعاءِ بِتَذَلُّلٍ وَتَمَسُّكُنٍ وَافتقارٍ، وَمَرَّ معنا جملةً مِنَ الأحاديثِ الثابتةِ عن النبي ﷺ في ذلك، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا تَوَاتَرَ معناه عن رسولِ الله ﷺ؛ كما مرَّ أيضًا صفاتُ الرَفْعِ في الدعاءِ، وَأَنَّهَا ثَلَاثَةٌ بِحَسَبِ نَوْعِ الدعاءِ، فَإِذَا كَانَ الدعاءُ ابْتِهَالًا وَتَضَرُّعًا، فَإِنَّ رَفْعَ اليَدَيْنِ يَكُونُ بِمَدِّهِمَا نَحْوَ السَّمَاءِ حَتَّى يَبْدُوَ بَيَاضُ الْإِبْطِ، وَإِذَا كَانَ الدعاءُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ، فَيَكُونُ رَفْعُ اليَدَيْنِ إِلَى الْمَنْكَبَيْنِ أَوْ نَحْوَهُمَا، وَإِذَا كَانَ الدعاءُ اسْتِغْفَارًا وَتَمَجِيدًا وَثَنَاءً، فَإِنَّ الرَفْعَ يَكُونُ بِإِصْبَعٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ السَّبَابَةُ مِنَ الْيَمَنِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنْ دُعَائِهِ إِلَّا فِي الْاسْتِسْقَاءِ»؛ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

فَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ - عَمَلًا بِهَذَا الْحَدِيثِ - إِلَى أَنَّ الدُّعَاءَ لَا يُشْرَعُ فِيهِ رَفْعُ اليَدَيْنِ إِلَّا فِي الْاسْتِسْقَاءِ فَقَطْ، أَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَدْعِيَةِ، فَلَا يُشْرَعُ فِيهَا رَفْعُ اليَدَيْنِ، لَكِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مُعَارِضٌ بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ دَالَّةٍ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ رَفْعِ اليَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ فِي غَيْرِ الْاسْتِسْقَاءِ؛ وَلِذَا يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالصَّحِيحُ: الرَّفْعُ مُطْلَقًا؛ فَقَدْ تَوَاتَرَ فِي الصَّحَاحِ: «أَنَّ الطُّفَيْلَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ عَلَيْهِمْ»، فَاسْتَقْبَلَ الْقَبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: (اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَأُتِ بِهِمْ)^(٢)، وَفِي «الصَّحِيحِ»:

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٣١)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٨٩).

«أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا لأبي عامر، رَفَعَ يَدَيْهِ»^(١)، وفي حديث عائشة رضي الله عنها لما دعا النبي ﷺ لأهل البقيع: «رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»؛ رواه مسلم^(٢)، وفيه: «أنه ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ، فقال: (أُمَّتِي أُمَّتِي)، وفي آخره: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسْوُوكُ)»^(٣)، وفي قِصَّةِ بَذْرِ لَمَّا رَأَى ﷺ المشركين، مَدَّ يَدَيْهِ، وجعل يهتف بربه، فما زال يهتف بربه مادًّا يَدَيْهِ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه^(٤)، وفي حديث قيس بن سعد رضي الله عنه: «رفَعَ يَدَيْهِ ﷺ وهو يقول: (اللَّهُمَّ، اجْعَلْ صَلَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ)»^(٥)، وبعث جيشًا فيه علي رضي الله عنه، فرفَعَ يَدَيْهِ، وقال: (اللَّهُمَّ، لَا تُمِتَّنِي حَتَّى تَرِيَنِي عَلِيًّا)^(٦)، وفي حديث القنوت رَفَعَ يَدَيْهِ^(٧) . . . ، ثم ذكر شيخ الإسلام رحمته الله حديث أنس المتقدم في أنَّ النبي ﷺ ما كان يرفع يَدَيْهِ في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء، ثم قال: «والجمع بين حديث أنس هذا وسائر الأحاديث: ما قاله طوائف من العلماء، وهو أنَّ أنسًا ذكرَ الرفعَ الشديدَ الذي يُرى فيه بياضُ إبطيه، وينحني فيه بَدَنُهُ، وهذا الذي سمَّاه ابنُ عباسٍ الابتهالَ، فجعلَ المراتبَ ثلاثةً: الإشارةُ بإصبعٍ واحدةٍ؛ كما كان يفعلُ يومَ الجمعةِ على المنبرِ، والثانيةُ: المسألةُ؛ وهو أن يجعلَ يَدَيْهِ حَذْوَ منكبيه؛ كما في أكثرِ الأحاديث، والثالثةُ: الابتهالُ، وهو الذي ذكرَهُ أنسٌ؛ ولهذا قال: «كان يرفعُ يَدَيْهِ حَتَّى يُرى بياضُ إبطيه»^(٨)، وهذا الرفعُ إذا اشتدَّ، كان بطونُ يَدَيْهِ ممَّا يلي وَجْهَهُ والأَرْضَ، وظهورُهُما ممَّا يلي السماءَ؛ ويؤيِّدُ هذا التأويلَ: ما روى أبو داودَ في «مراسيله»، من حديث أبي أيوبَ سُليمانَ بنِ موسى الدَّمَشَقِيِّ رحمته الله، قال: «لَمْ يُحْفَظْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ رَفَعَ يَدَيْهِ الرفعَ كُلَّهُ إِلَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ:

- (١) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٢٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٤٩٨).
- (٢) تقدم تخريجه (ص ٣٨٩).
- (٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٢).
- (٤) «صحيح مسلم» رقم (١٧٦٣).
- (٥) تقدم تخريجه (ص ٣٩٠).
- (٦) رواه الترمذي رقم (٣٧٣٧)، وذكره الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» رقم (٧٨١).
- (٧) رواه أحمد في «المسند» (١٣٧/٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/٢١١)، عن أنس رضي الله عنه.
- (٨) تقدم تخريجه (ص ٣٨٨).

الاستسقاء، والاستنصار، وعشيّة عَرَفَةَ، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ رَفْعًا دُونَ رَفْعٍ^(١). قَالَ: «وَقَدْ يَكُونُ أَنَسُ ﷺ أَرَادَ بِالرَّفْعِ عَلَى الْمُنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ - كَمَا فِي «مُسْلِمٍ» وَغَيْرِهِ -: أَنَّهُ كَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَرْفَعَ إِصْبَعَهُ الْمُسَبِّحَةَ»^(٢)، قَالَ: «وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَوْلَانِ هُمَا وَجْهَانِ فِي مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ؛ يَعْنِي: فِي رَفْعِ الْخُطْبِ يَدَيْهِ، قِيلَ: يُسْتَحَبُّ؛ قَالَهُ ابْنُ عَقِيلٍ، وَقِيلَ: لَا بَلْ يُكْرَهُ، وَهُوَ أَصَحُّ»^(٣).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ حَدِيثِ أَنَسٍ وَالْأَحَادِيثِ الْآخَرَى الدَّالَّةِ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الرَّفْعِ فِي سَائِرِ الْأَدْعِيَةِ: «لَكِنْ جُمِعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَادِيثِ الْبَابِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا: بِأَنَّ الْمَنْفِيَّ صِفَةً خَاصَّةً لَا أَصْلُ الرَّفْعِ؛ فَإِنَّ الرَّفْعَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ يَخَالِفُ غَيْرَهُ بِالْمُبَالَغَةِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ الْيَدَانِ فِي حَذْوِ الْوَجْهِ مِثْلًا، وَفِي الدُّعَاءِ إِلَى حَذْوِ الْمُنْكَبِّينَ، وَلَا يُعَكَّرُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ ثَبَتَ فِي كُلِّ مَنِهْمَا: «حَتَّى يُرَى بَيَاضُ إِبْطِئِهِ»، بَلْ يُجْمَعُ بِأَنْ تَكُونَ رُؤْيَا الْبَيَاضِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ أْبْلَغَ مِنْهَا فِي غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا أَنَّ الْكَفَّيْنِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ يَلَيَّانِ الْأَرْضَ، وَفِي الدُّعَاءِ يَلَيَّانِ السَّمَاءَ، قَالَ الْمُنْذَرِيُّ: وَبِتَقْدِيرِ تَعَذُّرِ الْجَمْعِ، فَجَانِبُ الْإِثْبَاتِ أَرْجَحُ. قُلْتُ: [أَي: ابْنُ حَجَرٍ]: وَلَا سِيَّمَا مَعَ كَثَرَةِ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ»^(٤).

وَبِمَا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الدُّعَاءَ مَشْرُوعٌ فِيهِ رَفْعُ الْيَدَيْنِ؛ سِوَاءٍ فِي الِاسْتِسْقَاءِ أَوْ غَيْرِهِ، بَلْ إِنَّ الرَّفْعَ مِنْ أَسْبَابِ الْإِجَابَةِ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: (إِنَّ رَبَّكُمْ حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)^(٥)؛ أَي: خَائِبَتَيْنِ، لَكِنَّ صِفَةَ الرَّفْعِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ، الَّذِي هُوَ مَقَامُ شِدَّةٍ وَرَهْبٍ، تَكُونُ بِالْمُبَالَغَةِ فِي الرَّفْعِ وَالِابْتِهَالِ الشَّدِيدِ، وَأَمَّا مَا سِوَاهُ، فَيَكُونُ الرَّفْعُ إِلَى الْمُنْكَبِّينَ أَوْ نَحْوَهُمَا، عَمَلًا بِجَمِيعِ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْبَابِ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(١) «المراسيل» رقم (١٤٨). (٢) سيأتي تخريجه (ص ٤٠٦).

(٣) انظر: «شرح ثلاثيات المسند» للسفاريني (١/ ٦٥٣ - ٦٥٤).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ١٤٢).

(٥) تقدم تخريجه (ص ٢٧٦).

اسْتَسْقَى، فَأَشَارَ بِظَهْرِ كَفِّهِ إِلَى السَّمَاءِ؛ رواه مسلم^(١)؛ وفي ذلك إشارة إلى المبالغة في رفع اليَدَيْنِ في حالِ الجَدْبِ في الاستسقاء؛ ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّمَا هُوَ لِشِدَّةِ الرِّفْعِ انْحَنَتْ يَدُهُ، فَصَارَتْ كَفُّهُ مِمَّا يَلِي السَّمَاءَ لِشِدَّةِ الرِّفْعِ، لَا قَصْدًا لَذَلِكَ؛ كَمَا جَاءَ أَنَّهُ رَفَعَهُمَا حِذَاءَ وَجْهِهِ».

ثم إن الأحوال في الدعاء من حيث رفع اليدين أو عدمه ثلاثة، قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «رَفْعُ اليَدَيْنِ في الدعاءِ على ثلاثة أقسام: القسم الأول: ما وَرَدَتْ به السُّنَّةُ؛ فهذا ظاهرٌ أَنَّهُ يُسَنُّ فيه الرِّفْعُ؛ مثلُ دعاءِ الاستسقاءِ، والدعاءِ على الصفا والمروة، وفي عَرَفَةَ. والقسم الثاني: ما وَرَدَ فيه عَدَمُ الرِّفْعِ؛ مثلُ الدعاءِ في الصلاة، والتشهد الأخير.

القسم الثالث: ما لَمْ يَرِدْ فيه الرِّفْعُ وَلَا عَدَمُ الرِّفْعِ؛ فهذا الأصلُ فيه أَنَّ مِنْ آدَابِ الدعاءِ أَنْ يَرْفَعَ الْإِنْسَانُ يَدَيْهِ»^(٢).
ثمَّ إِنَّ رَفْعَ اليَدَيْنِ في الدعاءِ فيه مِنَ التَّذَلُّلِ والخُضُوعِ والانكسارِ والمسكنة، وإظهارِ الحاجةِ والافتقارِ إلى الرَّبِّ الكريمِ ما يكونُ سَبَبًا لِقَبُولِهِ وإجابَتِهِ؛ قال السَّفَّارِينِي رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماء: إِنَّمَا شُرِعَ رَفْعُ اليَدَيْنِ في الدعاءِ؛ لزيادةِ التَّذَلُّلِ، فيجتمعُ لِلْإِنْسَانِ أحوالُ الضَّرَاعَةِ في مقامِ العبوديةِ، وأيضًا: فَإِنَّ الْعَبْدَ رَبَّمَا عَجَزَ عن إيقاظِ قَلْبِهِ مِنَ الْعَفْلَةِ، وله قدرةٌ على حَرَكَةِ اليَدِ واللسانِ فيهما، فكانَ ذلكَ وسيلةً إلى خُشُوعِ القلبِ، وقد قالوا: حَرَكَاتُ الظواهرِ توجبُ بَرَكَاتِ السرائِرِ، وهو نظيرُ رَفْعِ السَّبَّابَةِ في تَشَهُدِ الصلاةِ، فيوَحِّدُ الْجَنَانَ، وَيُتَرَجِّمُ اللِّسَانَ، وتزكِّيهِ الأركانُ»^(٣).



(١) «صحيح مسلم» رقم (٨٩٦).

(٢) «لقاء الباب المفتوح» (٥١ - ٦٠) (ص ١٧، ١٨) باختصار.

(٣) انظر: «شرح ثلاثيات المسند» للسفاريني (١/ ٦٥٥ - ٦٥٦).

الدَّلَائِلُ وَالْمَعَانِي الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ رَفْعِ الْيَدَيْنِ

لا يزال الحديث ماضيًا في الكلام على رفع اليدين إلى الله ﷻ حال الدعاء، ذلكم الأدب الرفيع من المخلوق الفقير المحتاج، مع ربه الغني الجواد الكريم؛ حيث يظهر المخلوق برفع يديه احتياجه لربه، وافتقاره إليه، وذله، وخضوعه وانكساره بين يدي ربه، وكلما عظمت حاجة المخلوق، واشتدت رغبته، وزاد إلحاحه، بالغ في رفعه يديه، وزاد في مدهما إلى الله مُتَذَلِّلًا مُتَوَسِّلًا؛ ولهذا لما كان دعاء الاستسقاء فيه من الرغبة والإلحاح ما ليس في غيره، كان رفع النبي ﷺ وإشارته فيه أعظم منه في غيره، وفي ذلك أعظم دلالة على توحيد الله وتعظيمه وتكبيره، والإيمان بعلوه على خلقه وقيوميته، وغناه الكامل عنهم، وافتقارهم واحتياجهم إليه؛ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣].

* ففي رفع اليدين إلى الله: إقرارٌ بقيوميته جلّ وعلا، وأنه قائمٌ على كل شيء، وقائمٌ على كل نفس، وأنه المُدَبِّرُ للأمور كلها، المتصرفُ في الخلائق جميعهم، ومن كان كذلك، فهو المُسْتَحِقُّ أن يُؤَلَّهَ ويُعْبَدَ، ويُصَلَّى له ويُسَجَدَ، وهو المُسْتَحِقُّ نهاية الحُبِّ مع نهاية الذلِّ؛ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، وهو المُطَاعُ المعبودُ وحده على الحقيقة؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فكلُّ عبوديةٍ لغيره باطلةٌ وعناءٌ وضلال، وكلُّ محبةٍ لغيره عذابٌ لصاحبها، وكلُّ غنىٍ لغيره فقرٌ وضلال، وكلُّ عزٍّ لغيره ذلٌّ وصغار، وكلُّ تكبرٍ لغيره قلةٌ وفاقة؛ فهو الذي انتهت إليه الرغبات،

وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ الطَّلَبَاتِ، وَأُنْزِلَتْ بِبَابِهِ الْحَاجَاتِ؛ ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

* وفي مَدِّ الْيَدَيْنِ إِلَى اللَّهِ: إقرارٌ بأنَّ اللهَ كَرِيمٌ جَوَادٌ مُحْسِنٌ، يَجِيبُ
الدَّاعِينَ، وَيُعِثُّ الْمَلْهُوفِينَ، وَيُعْطِي السَّائِلِينَ، لَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ،
وَلَا حَاجَةٌ يُسْأَلُهَا أَنْ يُعْطِيَهَا، لَوْ أَنَّ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ؛ إِنْسَهُمْ
وَجَنَّهُمْ، حَيَّهْمَ وَمَيِّتَهُمْ، رَطْبَهُمْ وَيَابِسَهُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُوهُ،
فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا سَأَلَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ،
وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، يَمِينُهُ مَلَأَتْ لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ، وَفِي الْحَدِيثِ: (إِنَّ رَبَّكُمْ حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ
يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)^(١).

* وفي مَدِّ الْيَدَيْنِ إِلَى اللَّهِ: إقرارٌ بعلمِ الله، وإحاطتِهِ بِخَلْقِهِ، وَاطِّلاَعِهِ
عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، لَا يَشْغَلُهُ سُبْحَانَهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ،
وَلَا تُغْلِظُهُ الْأَصْوَاتُ عَلَى كَثَرَتِهَا وَاخْتِلَافِهَا وَاجْتِمَاعِهَا، بَلْ هِيَ عِنْدَهُ كَصَوْتِ
وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّ خَلْقَ الْخَلْقِ جَمِيعُهُمْ وَبَعْثُهُمْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، يَرَى
دَبِيبَ النَّمْلَةِ السُّودَاءِ، عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ، فِي اللَّيْلِ الظُّلْمَاءِ، وَيَرَى تَفَاصِيلَ
خَلْقِ الذَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ، وَمُخَّهَا وَعُرُوقَهَا، وَلَحْمَهَا وَحَرَكَتَهَا، وَيَرَى مَدَّ الْبَعُوضَةِ
جَنَاحَهَا فِي اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ.

* وفي مَدِّ الْيَدَيْنِ إِلَى اللَّهِ: إقرارٌ بعلوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ
يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ وَقَتَ الدُّعَاءِ تَقْصِدُ قُلُوبُهُمُ الرَّبَّ الَّذِي هُوَ فَوْقَ
عِبَادِهِ، وَتَكُونُ حَرَكَةُ جَوَارِحِهِمْ بِالْإِشَارَةِ إِلَى فَوْقٍ، تَبَعًا لِحَرَكَةِ قُلُوبِهِمْ إِلَى
فَوْقٍ، وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ كُلُّ دَاعٍ وَجَدًا ضَرُورِيًّا، إِلَّا مَنْ تَغَيَّرَتْ فِطْرَتُهُمْ،
وَانْحَرَفَتْ عَقِيدَتُهُمْ، وَعَلَوْا اللَّهَ عَلَى خَلْقِهِ قَامَتْ عَلَيْهِ الْأَدْلَةُ الْكَثِيرَةُ، وَالْبَرَاهِينُ

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٧٦).

العديدة؛ فَدَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْكَرِيمُ، وَالسُّنَّةُ الثَّابِتَةُ، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ، وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ، وَالْفِطْرُ الْمُسْتَقِيمَةُ؛ حُكِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْهَمْدَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ أَبِي الْمَعَالِي الْجَوِينِيِّ - أَحَدِ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ - فَذَكَرَ الْعَرْشَ، وَقَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَا عَرْشَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى إِنْكَارِ عُلُوِّ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ الْهَمْدَانِيُّ: يَا شَيْخُ، دَعْنَا مِنْ ذَلِكَ، وَأَخْبِرْنَا عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا؛ فَإِنَّهُ مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ: يَا اللَّهُ، إِلَّا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ ضَرْورَةً لَطَلِبِ الْعُلُوِّ، لَا يَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، فَضَرَبَ أَبُو الْمَعَالِي عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ: حَيْرَنِي الْهَمْدَانِيُّ».

وَالْهَمْدَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّمَا بَيَّنَّ مَا يَقُومُ فِي قَلْبِ كُلِّ دَاعٍ عِنْدَمَا يَقُولُ: يَا اللَّهُ، مِنْ حَرَكَةٍ فِي قَلْبِهِ ضَرْورِيَّةٌ إِلَى الْعُلُوِّ؛ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ مُرَكَّزٌ فِي الْفِطْرِ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ عِبَادِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ.

وَإِذَا أَقَرَّ الْعَبْدُ بِذَلِكَ يَصِيرُ لِقَلْبِهِ صَمَدٌ يَتَجَّهُ إِلَيْهِ مُنَاجِيًا لَهُ، مُطَرِّقًا وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَقُوفَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ، بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ الْجَلِيلِ، فَيَشْعُرُ بِأَنَّ كَلَامَهُ وَعَمَلَهُ صَاعِدٌ إِلَيْهِ، مَعْرُوضٌ عَلَيْهِ، فَيَسْتَحْيِي أَنْ يَصْعَدَ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ مَا يَخْزِيهِ وَيَقْضَحُهُ هُنَاكَ، وَيَجْتَهِدُ فِي قَوْلِ الْخَيْرِ، وَفِعْلِ الْخَيْرِ؛ لِعَلِمِهِ بِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وَلِهَذَا، فَإِنَّهُ لَا يُنْكِرُ عُلُوَّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا ضَلَّالَ النَّاسِ وَجُهَاْلُهُمْ؛ مِمَّنْ تَحَوَّلَتْ فِطْرُهُمْ، وَانْحَرَفَتْ عَقَائِدُهُمْ، وَصَدَّاهُمْ الشَّيْطَانُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ؛ وَإِلَّا فَكَيْفَ يَصِحُّ مِنْ عَاقِلٍ إِنْكَارُ عُلُوِّ اللَّهِ، مَعَ كَثْرَةِ الشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ، وَتَنَوُّعِ الْبَرَاهِينِ؟! مِنْ ذَلِكَ - كَمَا تَقَدَّمَ - أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعَهُمْ عِنْدَمَا يَدْعُونَ اللَّهَ يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيُمَدُّونَهَا نَحْوَهُ؛ وَهَذَا إِجْمَاعٌ مِنْهُمْ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ.

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَرَأَيْنَا الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ - إِذَا دَعَوْا - نَحْوَ السَّمَاءِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ لَمْ يَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ نَحْوَ الْعَرْشِ،

كما لا يَحْطُونَهَا - إِذَا دَعَوْا - نَحْوَ الْأَرْضِ»^(١).

وهذا الاحتجاجُ منه ﷺ احتجاجٌ بإجماع المسلمين على رَفْعِ أَيْدِيهِمْ فِي الدُّعَاءِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَالٍ عَلَى خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَرْفَعُونَ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، لَا إِلَى غَيْرِهِ.

ولهذا، فَإِنَّ غَالِبَ النُّفَاةِ لِأَنَّ يَكُونَ اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ فِيهِمْ مِنَ الْإِنْحِلَالِ عَنْ دُعَاءِ اللَّهِ وَمَسْأَلَتِهِ وَعِبَادَتِهِ بِقَدْرِ مَا قَامَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إِنْكَارٍ لَعَلَّوْا اللَّهَ عَلَى خَلْقِهِ، إِلَّا مَنْ يَكُونُ مِنْهُمْ جَاهِلًا بِحَقِيقَةِ مَذْهَبِهِمْ، فَيُؤَافِقُهُمْ بِلِسَانِهِ عَلَى قَوْلٍ لَا يَفْهَمُ حَقِيقَتَهُ، وَفَطَرَتُهُ عَلَى الصَّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ، فَإِذَا اسْتَحْوَذَ قَوْلُهُمْ عَلَى قَلْبِهِ، انْحَرَفَتْ فَطَرَتُهُ وَتَغَيَّرَتْ^(٢)، فَنَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى السَّلَامَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ - رَافِعِينَ أَيْدِينَا إِلَيْهِ - الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ؛ فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نِعَمَ الْمَجِيبِ.



(١) «الإبَانَةُ» (ص ٩٧ - ٩٨).

(٢) انظر: «نقض تأسيس الجهمية» (٢/ ٤٤٥ - ٤٥١).

رَفْعُ الْأَيْدِي إِلَى اللَّهِ مِنْ دَلَائِلِ عُلُوِّهِ

لقد كان الحديثُ فيما مَضَى عن دَلَالَاتِ رَفْعِ الْأَيْدِي فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ، وما يَتَضَمَّنُهُ ذَلِكَ مِنَ الْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وتَعْظِيمِهِ، وَالْإِيمَانِ بِعُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَغِنَاهِ الْكَامِلِ عَنْهُمْ، وَافْتِقَارِهِمْ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَقَدْ مَضَى الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ هَذَا أَمْرٌ - أَعْنِي: الْإِيمَانُ بِعُلُوِّهِ - يَجِدُّهُ النَّاسُ فِي فِطْرِهِمْ؛ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، عَالِمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ.

يقول الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ «التَّوْحِيدِ»: «وَكَمَا هُوَ مَفْهُومٌ فِي فِطْرِ الْمُسْلِمِينَ؛ عُلَمَائِهِمْ وَجُهَّالُهُمْ، وَأَحْرَارُهُمْ وَمَمَالِكُهُمْ، وَذُكْرَانُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ، وَبَالِغِيهِمْ وَأَطْفَالُهُمْ، كُلُّ مَنْ دَعَا اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - فَإِنَّمَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَيَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَى أَعْلَاهُ، لَا إِلَى الْأَسْفَلِ»^(١).

ويقول الإمام أبو محمد عبد الله بن مُسْلِمٍ بن قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ - أَي: مَنْ يَنْكُرُونَ عُلُوَّ اللَّهِ - رَجَعُوا إِلَى فِطْرِهِمْ، وَمَا رُكِبَتْ عَلَيْهِ خَلْقَتُهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، لَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْعَلِيُّ، وَهُوَ الْأَعْلَى، وَالْأَيْدِي تُرْفَعُ بِالدُّعَاءِ إِلَيْهِ، وَالْأُمَمُ كُلُّهَا - عَرَبُهَا وَعَجَمُهَا - تَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ مَا تَرَكْتُ عَلَى فِطْرِهَا»^(٢). اهـ.

فَالْإِيمَانُ بِعُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ مُسْتَقَرٌّ فِي الْفِطْرِ السَّلِيمَةِ، ثَابِتٌ فِي نَصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مُتَقَرَّرٌ فِي الْعُقُولِ الْقَوِيْمَةِ، مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ؛ وَلِذَا كَانَ تَوَجُّهُ النَّاسِ عِنْدَ الدُّعَاءِ بِقُلُوبِهِمْ وَإِشَارَتِهِمْ وَرَفْعِ أَيْدِيهِمْ إِنَّمَا يَكُونُ إِلَى

(١) «التَّوْحِيدُ» لِابْنِ خُزَيْمَةَ (٢٥٤/١).

(٢) «تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ» لِابْنِ قُتَيْبَةَ (ص ١٨٣) بِإِخْتِصَارٍ.

الْعُلُوُّ، لا إلى جهةٍ أخرى؛ وهذا أمرٌ فطريٌّ ضروريٌّ عقليٌّ، يَجِدُهُ كُلُّ دَاعٍ فِي قَلْبِهِ، فَالْقَلْبُ عِنْدَ التَّوَجُّهِ وَالسُّؤَالِ وَالِدُّعَاءِ، وَالِابْتِهَالِ وَالْمُنَاجَاةِ لَهُ وَجْهَةٌ وَاحِدَةٌ يَقْصِدُهَا، وَيَتَّجُهُ إِلَيْهَا، هِيَ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي عُلُوِّهِ، لَا يَتَّجُهُ إِلَى يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ أَوْ أَسْفَلَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَتَّجُهُ إِلَى الْعُلُوِّ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ، لَا يَنْفَكُ مِنْهُ الْقَلْبُ إِلَّا إِذَا فَسَدَ وَانْتَكَسَ وَأَظْلَمَ، وَتَحَوَّلَ عَنِ الْفِطْرَةِ.

ولهذا تَرَى فِي أَحْوَالِ الدَّاعِينَ وَالذَّاكِرِينَ أَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِهِمْ حَرَكَةٌ فِي جَوَارِحِهِمْ اضْطِرَارًا إِلَى فَوْقَ، إِلَى جِهَةِ الْعُلُوِّ؛ وَذَلِكَ تَبَعًا لِحَرَكَةِ قُلُوبِهِمْ؛ بِالإِشَارَةِ أَوْ الإِصْبَعِ أَوْ الْعَيْنِ أَوْ الرَّأْسِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الإِشَارَاتِ الْحِسِّيَّةِ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَاتَرَ بِهِ السَّنَنُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ؛ وَلِذَا تَرَاهُمْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى اللَّهِ»، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ الإِشَارَةَ إِلَى اللَّهِ، وَرَفَعَ الْأَيْدِي إِلَيْهِ ﷻ.

وقد تَوَاتَرَ مِنْ هَذِي النَّبِيِّ ﷺ رَفْعُ الْأَيْدِي إِلَى اللَّهِ فِي الدُّعَاءِ، وَالِإِشَارَةُ بِالسَّبَّابَةِ مِنَ الْيَدِ الْيُمْنَى يَدْعُو بِهَا فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ، وَفِي التَّشَهُّدِ فِي الصَّلَاةِ، وَرَفْعُ الْبَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ، وَالِإِشَارَةُ بِالإِصْبَعِ إِلَى السَّمَاءِ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

أَمَّا رَفْعُهُ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ، فَهُوَ ثَابِتٌ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ جَدًّا، وَقَدْ مَضَى مَعَنَا ذِكْرُ جَمَلَةٍ مِنْهَا^(١).

وَأَمَّا إِشَارَتُهُ بِالسَّبَّابَةِ مِنَ الْيَدِ الْيُمْنَى يَدْعُو بِهَا فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ، فَهُوَ ثَابِتٌ فِيمَا رَوَاهُ حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: «رَأَى عُمَارَةَ بْنَ رُوَيْبَةَ بِشَرَ بْنِ مَرْوَانَ وَهُوَ يَدْعُو فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ عُمَارَةُ: قَبَّحَ اللَّهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ مَا يَزِيدُ عَلَى هَذِهِ؛ يَعْنِي: السَّبَّابَةَ»، وَفِي رَوَايَةٍ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ إِذَا دَعَا يَقُولُ هَكَذَا، فَرَفَعَ السَّبَّابَةَ وَحَدَّهَا»^(٢).

(١) انظر: (٣٨٨)، فما بعدها.

(٢) «المسند» (١٣٦/٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٧٤).

وَأَمَّا إِشَارَتُهُ بِالسَّبَابَةِ مِنَ الْيَمْنَى يَدْعُو بِهَا فِي التَّشَهُّدِ، فَثَابَتْ فِيْمَا رَوَاهُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي الصَّلَاةِ، وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَرَفَعَ إِصْبَعَهُ الْيَمْنَى الَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ، فَدَعَا بِهَا، وَيَدُّهُ الْيَسْرَى عَلَى رُكْبَتِهِ بِاسِطِّهَا عَلَيْهَا»، وَفِي رَوَايَةٍ: «كَانَ إِذَا جَلَسَ فِي الصَّلَاةِ، وَضَعَ كَفَّهُ الْيَمْنَى عَلَى فَخْذِهِ الْيَمْنَى، وَقَبَضَ أَصَابِعَهُ كُلَّهَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ، وَوَضَعَ كَفَّهُ الْيَسْرَى عَلَى فَخْذِهِ الْيَسْرَى»؛ رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ، وَأَحْمَدُ، وَغَيْرُهُمَا^(١)، وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثٌ عَدِيدَةٌ.

وَأَمَّا رَفْعُهُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ أَوَّلَ مَا تُسْحَرُ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِبْلَةُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ أَكْثَرُ أَهْلِهَا الْيَهُودَ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَفَرَحَتِ الْيَهُودُ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضِعَةِ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يَحُبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٢).

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ، وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟) قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: (فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟) قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: (فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟) قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا) - فَأَعَادَهَا مَرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ - فَقَالَ: (اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَغْتُ؟ ! اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَغْتُ؟ !)^(٣).

(١) «المسند» (٦٥/٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٤٥٠/٢).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (١٧٣٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٧٩).

وَأَمَّا إِشَارَتُهُ بِإَصْبَعِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي ذِكْرِ حَاجَةِ الْوَدَاعِ، وَفِيهِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ: (أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟!) فَقَالُوا: نَعَمْ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ إَصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَيُنْكُتُهَا إِلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -؛ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»^(١).

وَالنُّصُوصُ فِي هَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمِ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ دَالَّةٌ دَلَالَةً ظَاهِرَةً عَلَى عُلوِّ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَفَوْقِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى؛ وَلِهَذَا تَقْصِدُهُ الْقُلُوبُ، وَتَضُمُّدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ، وَيَرْفَعُونَ أَكْفَهُمْ إِلَيْهِ عِنْدَ دَعَائِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ، وَيَشِيرُونَ إِلَيْهِ فِي عُلوِّهِ بِأَصَابِعِهِمْ مُوَحِّدِينَ لَهُ، مُقَرِّينَ بِعَظَمَتِهِ، خَلَافًا لِلْمُنْكَرِينَ لِعُلوِّ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ يَنْكُرُونَ حَقِيقَةَ كَوْنِهِ أَحَدًا صَمَدًا، وَيَجْحَدُونَ حَقِيقَةَ دَعَائِهِ، وَصِدْقَ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، وَيُسَوِّغُونَ الْإِشْرَاقَ بِهِ، وَيُعْطِلُونَ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَهُوَ الْهَادِي وَخَدَهُ إِلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ.



(١) «صحيح مسلم» رقم (١٢١٨).

الْأَخْطَاءُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِرَفْعِ الْيَدَيْنِ

لا يزال حديثنا عن رفع الأيدي في الدعاء، وقد سبق الكلام على فائدة ذلك وأهميته في الدعاء، وأنه سببٌ من أسباب قبوله؛ لما في ذلك من إظهار الافتقار والاستكانة والحاجة إلى الربِّ الكريم؛ حيث يمدُّ العبدُ يديه إليه مُسْتَكِينًا، سائلًا، متذللاً، والله جلَّ وعلا لا يردُّ يدينِ مُدَّتَا إليه صِفْرًا خائبتين.

وإنَّ مما يجبُ على المسلم أن يعتني به في هذا الباب: الحرصُ على معرفة هدي النبي ﷺ في ذلك، وترسُّم خطاه، ولزوم منهجه، والبعد عما أحدثه الناس من صفات في الرفع، وهيئات وحركات لم تثبت عن خير الأمة وأكملهم دعاءً وطاعةً لله، رسول الله ﷺ؛ وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ بِطُورٍ أَكْفَكُم، وَلَا تَسْأَلُوهُ بِظُهُورِهَا) ^(١)، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا ومرفوعًا: «المسألة: أن ترفعَ يديك حذو منكبيك، أو نحوهما، والاستغفار: أن تُشيرَ بإصبع واحدة، والابتهاال: أن تمدَّ يديك جميعًا» ^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التعليق على هذا الحديث: «فجعل المراتب ثلاثة: الإشارة بإصبع واحدة؛ كما كان يفعل يوم الجمعة على المنبر، والثانية: المسألة؛ وهو أن يجعل يديه حذو منكبيه، كما في أكثر الأحاديث، والثالثة: الابتهاال» ^(٣). اهـ.

(١) «سنن أبي داود» رقم (١٤٨٦)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٩٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٩١).

(٣) انظر: «شرح ثلاثيات المسند» للسفاريني (١/٦٥٣).

❏ فعلى المسلم أن ينظرَ إلى الثابتِ عن النبي ﷺ في ذلك، فيلتزمه ويتقيّد به؛ فهديّه ﷺ خيرُ الهدي، وليحذر المسلم من تكلفات الناس وتجاوزاتهم في هذا الباب، فقد كان السلف رحمهم الله يحذرون من جعل صفة من الصفات المأثورة في غير موضعها المشروع، كمن يرفع يديه في الدعاء وهو على المنبر يوم الجمعة في غير الاستسقاء، مع أن رفع اليدين في الدعاء مشروع في غير هذا الموضع.

روى مسلم في «صحيحه»، عن عُمارة بن رُوَيْبَةَ أَنَّهُ رَأَى بِشَرَ بْنَ مَرْوَانَ عَلَى الْمَنْبَرِ رَافِعًا يَدَيْهِ، فَقَالَ: «قَبَّحَ اللَّهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ؛ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإصْبَعِهِ الْمَسْبُوحَةِ»^(١)؛ فكيف بمن يَخْتَرِعُ في الرفع صفات لا أساسَ لها، أو حركات لا أصلَ لها. وَمَنْ يَتَأَمَّلُ أحوالَ الداعين يَرَى منهم عجبًا في هذا الباب^(٢).

* وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ بَعْضَ الداعِينَ يَنْزِلُ فِي رَفْعِهِ يَدَيْهِ - مُفَرَّقَتَيْنِ، أَوْ مَجْمُوعَتَيْنِ - إِلَى مَا تَحْتَ الشَّرَّةِ أَوْ إِلَى الشَّرَّةِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ الْمَبَالَاةِ، وَقِلَّةِ الْاهْتِمَامِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ.

* وَمِنْهُمْ: مَنْ يَجْعَلُ يَدَيْهِ عِنْدَمَا يَرْفَعُهُمَا مُفَرَّقَتَيْنِ، رُؤُوسُ الْأَصَابِعِ إِلَى الْقَبْلَةِ، وَالْإِبْهَامَانِ إِلَى السَّمَاءِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَخَالَفَةِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمَتَقَدِّمِ: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ بِطُوبَى أَكْفُكُمْ).

* وَمِنْهُمْ: مَنْ يُقَلِّبُ يَدَيْهِ إِذَا رَفَعَهُمَا فِي الدُّعَاءِ إِلَى جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ، أَوْ يَقُومُ بِهِمَا، أَوْ يَحَرِّكُهُمَا حَرَكَاتٍ مُتَنَوِّعَةً.

* وَمِنْهُمْ: مَنْ إِذَا دَعَا أَوْ أَرَادَ أَنْ يَدْعُو يَمْسَحُ إِحْدَى الْيَدَيْنِ بِالْأُخْرَى، أَوْ يَنْفُضُ يَدَيْهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

* وَمِنْهُمْ: مَنْ يَقْبَلُ يَدَيْهِ بَعْدَ رَفْعِهِمَا لِلدُّعَاءِ؛ وَهَذَا كُلُّهُ لَا أَصْلَ لَهُ.

* وَمِنْهُمْ: مَنْ إِذَا دَعَا، مَسَحَ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ بَعْدَ الدُّعَاءِ؛ وَهَذَا وَرَدَ فِيهِ

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٠٢).

(٢) انظر: «تصحيح الدعاء» للشيخ بكر أبو زيد (ص ١٢٦ - ١٢٩).

بعضُ الأحاديث، إلا أنها لا تثبتُ عن النبي ﷺ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما رفعُ النبي ﷺ يديه في الدعاء، فقد جاء فيه أحاديث كثيرةٌ صحيحةٌ، وأما مسحُه وجهه بيديه، فليس عنه فيه إلا حديثٌ أو حديثان لا يقومُ بهما حُجَّةٌ»^(١).

* وَمِنْ الْهَيْئَاتِ الْمُحَدَّثَةِ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ: تَقْبِيلُ الْإِبْهَامَيْنِ، وَوَضْعُهُمَا عَلَى الْعَيْنَيْنِ عِنْدَ ذِكْرِ اسْمِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْأَذَانِ أَوْ غَيْرِهِ، وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَفْظُهُ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ: مَرْحَبًا بِحَبِيبِي وَقُرَّةَ عَيْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ يَقْبَلُ إِبْهَامَيْهِ، وَيَجْعَلُهُمَا عَلَى عَيْنَيْهِ، لَمْ يَغَمْ وَلَمْ يَرْمَدْ أَبَدًا»، وَقَدْ نَصَّ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٢)، وَمِنْ خُرُجَاتِ الْمُتَصَوِّفَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَنْسُبُ ذَلِكَ لِقَوْلِ الْخَضِرِ^(٣).

* وَمِنْ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَةِ فِي ذَلِكَ: مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ؛ حَيْثُ يَجْمَعُ أَصَابِعَ يَدِهِ الْيُمْنَى، وَيَجْعَلُهَا عَلَى عَيْنِهِ الْيُمْنَى، وَأَصَابِعَ يَدِهِ الْيُسْرَى عَلَى عَيْنِهِ الْيُسْرَى، ثُمَّ يُهْمُّهُمْ بِالْقِرَاءَةِ أَوْ الدُّعَاءِ.

* وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي تُفْعَلُ وَلَمْ تَثْبُتْ: أَنَّ بَعْضَهُمْ يَجْعَلُ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِهِ عَقَبَ السَّلَامِ مِنَ الصَّلَاةِ يَدْعُو، وَيَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا يُرَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ، مَسَحَ جَبْهَتَهُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، وَيَقُولُ: بِاسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، اللَّهُمَّ أَذْهَبْ عَنِّي الْعَمَّ وَالْحَزْنَ»، رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَهُوَ حَدِيثٌ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٤).

(١) «مجموع الفتاوى» (٥١٩/٢٢)، وانظر: «جزء في مسح الوجه باليدين بعد رفعهما للدعاء» للشيخ بكر أبو زيد.

(٢) انظر: «الفوائد المجموعة، في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص ٢٠).

(٣) انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني (٢/٢٧٠).

(٤) «المعجم الأوسط» رقم (٢٤٩٩)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» رقم (٦٦٠).

* وَمِنْ الْأَخْطَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنَّ بَعْضَ الْمُصَلِّينَ قَدْ يُشِيرُ بِالسَّبَّابَتَيْنِ فِي التَّشَهُّدِ؛ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى إِنْسَانٍ يَدْعُو وَهُوَ يُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَحَدٌ أَحَدٌ)؛ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

* وَمِنْ الْمَخَالَفَاتِ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنَّ بَعْضَ الدَّاعِينَ قَدْ يُخَصِّصُ أَوْقَاتًا يَرْفَعُ فِيهَا يَدَيْهِ بِالدُّعَاءِ دُونَ مُسْتَنَدٍ شَرْعِيٍّ لِلذَلِكَ التَّخْصِيسِ؛ كَمَنْ يَرْفَعُ يَدَيْهِ بَعْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَقَبْلَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَكَرْفَعِ الْيَدَيْنِ عَقَبَ السَّلَامِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ جَمَاعِيًّا أَوْ كُلِّ بِمُفْرَدِهِ، قَالَ سَمَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمْ يَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ، وَلَمْ يَصَحَّ ذَلِكَ أَيْضًا عَنْ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فِيمَا نَعْلَمُ، وَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ رَفْعِ أَيْدِيهِمْ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ بِدْعَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا»^(٢).

* وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: رَفْعُ الْأَيْدِي بِالدُّعَاءِ بَعْدَ سَجُودِ التَّلَاوَةِ، وَكَذَلِكَ رَفْعُهُمَا عِنْدَ رُؤْيَةِ الْهَلَالِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْمَوَاضِعَ الَّتِي وُجِدَتْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَفَعَ فِيهَا يَدَيْهِ لَا يَجُوزُ الرُّفْعُ فِيهَا؛ لِأَنَّ فِعْلَهُ سُنَّةٌ، وَتَرْكُهُ سُنَّةٌ، وَهُوَ ﷺ الْأَسْوَةُ الْحَسَنَةُ فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ^(٣)، وَالْوَاجِبُ التَّقْيُّدُ بِمَا جَاءَ عَنْهُ ﷺ وَتَرْكُ مَا سِوَى ذَلِكَ.



(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥٢٠/٢)، و«جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» رَقْم (٣٥٥٧)، و«سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» رَقْم (١٤٩٩)، و«سَنَنِ النَّسَائِيِّ» رَقْم (١٢٧٢)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» رَقْم (٢٨٢٠).

(٢) «مَجْمُوعُ فَتَاوَى الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ» (١٨٤/١١).

(٣) انْظُرْ: «مَجْمُوعُ فَتَاوَى الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ» (١٧٨/١١ - ١٨٣).

اِسْتِقْبَالُ الدَّاعِي الْقِبْلَةَ

إِنَّ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ: أَنْ يَسْتَقْبِلَ الدَّاعِي الْقِبْلَةَ وَقْتَ دُعَائِهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْقِبْلَةَ هِيَ الْجِهَةُ الْفَاضِلَةُ الَّتِي أَمَرَ الْمُسْلِمُونَ بِالِاتِّجَاهِ إِلَيْهَا فِي عِبَادَتِهِمْ، فَكَمَا أَنَّهَا قِبْلَةُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الصَّلَاةِ، فَهِيَ قِبْلَةُ لَهُمْ فِي الدُّعَاءِ، وَقَدْ ثَبَتَ اسْتِقْبَالُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْقِبْلَةِ عِنْدَ دُعَائِهِ فِي أَحَادِيثٍ عَدِيدَةٍ:

* مِنْ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْكُعْبَةَ، فَدَعَا عَلَى نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، عَلَى شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعُثْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، وَأَبِي جَهْلٍ بْنَ هِشَامٍ، فَأَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرَغُوا قَدْ غَيَّرَتْهُمْ الشَّمْسُ، وَكَانَ يَوْمًا حَارًّا»^(١).

* وَخَرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ: (اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ)، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ مَا دَا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبَّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّدُكُمْ بِالْأَيْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٩٦٠)، و«صحيح مسلم» رقم (١٧٩٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٩٤).

* وخرَجَ البخاري ومسلم، عن عبد الله بن زَيْد، قال: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا الْمُصَلَّى يَسْتَسْقِي، فَدَعَا وَاسْتَسْقَى، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَقَلَبَ رِدَاءَهُ»^(١).

* وَثَبَتْ كَذَلِكَ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ فِي الدُّعَاءِ فِي الْحَجِّ عَلَى الصِّفَا وَالْمَرَّةِ، وَفِي عَرَفَةَ، وَعِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَعِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ وَقَتَ الدُّعَاءِ، وَأَنَّ ذَلِكَ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ لِلدَّاعِي، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ لَازِمًا وَلَا وَاجِبًا فِي الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ دَعَا وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةِ، وَقَدْ عَقَدَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ مِنْ «صَحِيحِهِ» بَابًا بِعَنْوَانِ «الدُّعَاءُ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةِ»، وَخَرَجَ فِيهِ حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَسْقِينَا، فَتَغَيَّمَتِ السَّمَاءُ، وَمُطِرْنَا، حَتَّى مَا كَادَ الرَّجُلُ يَصِلُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمْ تَزَلْ تُمَطِّرُ إِلَى الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، فَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنَّا، فَقَدْ غَرَقْنَا، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ، حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا)، فَجَعَلَ السَّحَابُ يَتَقَطَّعُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَلَا يُمَطِّرُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ»^(٢)، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخُطِيبَ وَقَتَ الْخُطْبَةِ يَكُونُ مُعْطِيًا الْقِبْلَةَ ظَهْرَهُ، فَهَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اسْتِقْبَالَ الْقِبْلَةِ لَيْسَ شَرْطًا فِي الدُّعَاءِ، لَكِنَّهُ هُوَ الْأَوَّلَى وَالْأَكْمَلُ؛ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الدُّعَاءِ يَسْتَقْبِلُهَا، كَمَا فَعَلَهُ فِي أَثْنَاءِ الْاسْتِسْقَاءِ الَّذِي رَفَعَ فِيهِ يَدَيْهِ رَفْعًا تَامًّا، فَعَنْ عَبَادِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ عَمِّهِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ بِالنَّاسِ يَسْتَسْقِي، فَصَلَّى بِهِمْ رَكَعَتَيْنِ، جَهَرَ بِالْقِرَاءَةِ فِيهِمَا، وَحَوَّلَ رِدَاءَهُ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَدَعَا وَاسْتَسْقَى، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ»^(٣)؛ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ أَهْلُ الصَّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ؛ كَالْبُخَارِيِّ،

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٢٣، ٦٣٤٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٤٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٧).

(٣) انظر: «المسند» (٣٩/٤)، و«صحيح البخاري» رقم (١٠٢٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٤)، و«سنن أبي داود» رقم (١١٦١)، و«جامع الترمذي» رقم (٥٥٦)، و«سنن النسائي» رقم (١٥١٩).

ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم، فأخبر أنه استقبل القبلة التي هي قبله الصلاة في أثناء دعاء الاستسقاء^(١).

وقال رحمته الله: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّ الْقِبْلَةَ الَّتِي يُشْرَعُ لِلدَّاعِي اسْتِقْبَالُهَا حِينَ الدَّعَاءِ هِيَ الْقِبْلَةُ الَّتِي شُرِعَ اسْتِقْبَالُهَا حِينَ الصَّلَاةِ، فَكَذَلِكَ هِيَ الَّتِي شُرِعَ اسْتِقْبَالُهَا حِينَ ذِكْرِ اللَّهِ كَمَا تُسْتَقْبَلُ بِعَرَفَةَ، وَالْمَزْدَلِفَةَ، وَعَلَى الصِّفَا وَالْمَرَوَةِ، وَكَمَا يُسْتَحَبُّ لِكُلِّ ذَاكِرٍ لِلَّهِ وَدَاعٍ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ قَدْ يَقْصِدُ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ حِينَ الدَّعَاءِ، كَذَلِكَ هِيَ الَّتِي يُشْرَعُ اسْتِقْبَالُهَا بِتَوَجُّهِهِ الْمَيِّتِ إِلَيْهَا، وَتَوَجُّهِهِ النَّسَائِكَ وَالذَّبَائِحَ إِلَيْهَا، وَهِيَ الَّتِي يُنْهَى عَنِ اسْتِقْبَالِهَا بِالْبَوْلِ وَالْغَائِطِ، فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ - بَلْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ - قِبْلَتَانِ أَصْلًا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ جَنْسَيْنِ؛ كَالصَّلَاةِ وَالنُّسُكِ، فَضْلًا عَنِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ، وَبَعْضُهَا مُتَّصِلٌ بِبَعْضٍ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا الدَّعَاءُ فِي الْفَاتِحَةِ وَغَيْرِهَا، وَالدَّعَاءُ نَفْسُهُ هُوَ الصَّلَاةُ، قَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ صَلَاةً؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ، صَلَّى عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ أَبِي أَتَاهُ بِصَدَقَةٍ، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى)»^(٢)، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَنَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وَقَدْ عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا، وَفِي جَمِيعِهَا إِنَّمَا يُعَلِّمُهَا الدَّعَاءَ لَهُ بِصَلَاةِ اللَّهِ وَبِرَكَاتِهِ... إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ رحمته الله^(٣).

وقد ذَكَرَ ذَلِكَ فِي سِيَاقِ رَدِّهِ عَلَى مَنْ يَنْكُرُ عُلُوَّ اللَّهِ؛ كَالْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ تَأَثَّرَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ؛ حَيْثُ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَفَعَ الْأَيْدِي فِي الدَّعَاءِ إِلَى الْعُلُوِّ إِنَّمَا يُشْرَعُ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ قِبْلَةُ الدَّعَاءِ، كَمَا أَنَّ الْكَعْبَةَ قِبْلَةُ الصَّلَاةِ، فَجَعَلُوا بِذَلِكَ قِبْلَتَيْنِ لِلْمُسْلِمِينَ: قِبْلَةً لِلدَّعَاءِ، وَهِيَ السَّمَاءُ، وَقِبْلَةً لِلصَّلَاةِ، وَهِيَ الْكَعْبَةُ،

(١) انظر: «نقض التأسيس» لابن تيمية (٢/٤٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٤٩٧)، و«صحيح مسلم» رقم (١٠٧٨).

(٣) «نقض التأسيس» (٢/٤٥٢ - ٤٥٣).

وقد أَلْجَأَهُمْ إلى هذا التقريرِ الفاسدِ: إنكارُهُمْ لعلوِّ الربِّ تبارك وتعالى على خَلْقِهِ، وتَعَسُّفُهُمْ في حملِ النصوصِ الكثيرةِ الدالةِ على علوِّ الله على غير وجهها ومُرَادِها بأنواعِ مِنَ التَّأويلاتِ، وصنوفِ مِنَ التحريفاتِ، التي هي في الحقيقةِ نوعٌ مِنَ الإلحادِ في آياتِ الله وأسمائِهِ وصفاتِهِ؛ والله تعالى يقول: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، وقد بيّن رَحِمَهُ اللهُ فِي سياقِ رَدِّهِ عَلَيْهِم: «أَنَّ الْقِبْلَةَ هي ما يستقبلُهُ الإنسانُ بِوَجْهِهِ، والاستقبالُ ضِدُّ الاستدبارِ، فالقبلةُ ما يستقبلُهُ الإنسانُ ولا يستدبرُهُ، فأما ما يرفعُ الإنسانُ إليه يَدَهُ أو رَأْسَهُ أو بَصَرَهُ، فهذا - باتِّفاقِ الناسِ - لا يُسَمَّى قِبْلَةً؛ لأنَّ الإنسانَ لَمْ يستقبلَهُ كما لا يَسْتَدْبِرُ الجَهَةَ التي تقابِلُهُ، وَمَنِ استقبلَ شيئاً، فقد استدبرَ ما يقابِلُهُ، كما أَنَّ مِنَ استقبلَ الكعبةَ، فقد استدبرَ ما يقابِلُها، ومعلومٌ أَنَّ الداعيَ لا يكونُ مستقبلًا للسماءِ ومستدبرًا للأرضِ، بل يكونُ مستقبلًا لبعضِ الجهاتِ: إمَّا القبلةَ أو غيرها، مستدبرًا لِمَا يُقَابِلُها؛ كالمصلِّي؛ فظَهَرَ أَنَّ جَعَلَ ذلكَ قِبْلَةً باطلٌ في العقلِ واللغةِ والشرعِ بطلانًا ظاهرًا لكلِّ أحدٍ»^(١).

والمقصودُ: أَنَّ قِبْلَةَ المسلمينَ في الدعاءِ هي قبلَتُهُم في الصلاة، أَمَّا رَفْعُهُمْ لِأَيْدِيهِمْ عِنْدَ الدعاءِ إلى السماءِ؛ فَلأنَّ رَبَّهُم الذي يَدْعُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ وَيَرْجُونَهُ، وَيَطْمَعُونَ فِي نَيْلِ ثَوَابِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَخَافُونَهُ: فِي سَمَائِهِ، مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، بَائِتٌ مِنْ خَلْقِهِ، يَسْمَعُ دَعَاءَهُمْ، وَيُجِيبُ نِدَاءَهُمْ؛ كما قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٧ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿طه﴾.



مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ

إِنَّ مِنْ ضَوَابِطِ الدُّعَاءِ الْمَهْمَةِ، وَآدَابِهِ الْعَظِيمَةِ: أَنْ يُقَدِّمَ الْمُسْلِمُ بَيْنَ يَدَيْ دُعَائِهِ الثَّنَاءَ عَلَى رَبِّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ نِعَوَاتِ الْجَلَالِ، وَصِفَاتِ الْعِظَمَةِ وَالْكَمَالِ، وَذِكْرَ جُودِهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَعَظِيمِ إِعْنَامِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَبْلَغُ مَا يَكُونُ فِي حَالِ السَّائِلِ وَالطَّالِبِ ثَنَاؤُهُ عَلَى رَبِّهِ، وَحَمْدُهُ لَهُ، وَتَمْجِيدُهُ، وَذِكْرُ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ، وَجَعْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ بَيْنَ يَدَيْ مَسْأَلَتِهِ وَسِيلَةً لِلْقَبُولِ، وَمِفْتَاحًا لِلْإِجَابَةِ.

وَمَنْ يَتَأَمَّلِ الْأَدْعِيَةَ الْوَارِدَةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَجِدُ كَثِيرًا مِنْهَا مَبْدُوءًا بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَعَدَّ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ، وَالاعْتِرَافِ بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ وَعِظَائِهِ.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ: الدُّعَاءُ الْعَظِيمُ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَجْلُّهَا؛ لِاشْتِمَالِهَا عَلَى أَجَلِّ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَأَعْلَى الْمَقَاصِدِ الْجَلِيلَةِ؛ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلِهَذَا كَانَ أَنْفَعُ الدُّعَاءِ وَأَعْظَمُهُ وَأَحْكَمُهُ دُعَاءُ الْفَاتِحَةِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) وَلِهَذَا صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»، فَإِنَّهُ إِذَا هَدَاهُ هَذَا الصِّرَاطَ، أَعَانَهُ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ، فَلَمْ يُصِبْهُ شَرٌّ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ» (١). اهـ.

فَهَذَا الدُّعَاءُ الْعَظِيمُ مَبْدُوءٌ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ وَحَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ، مِمَّا هُوَ سَبَبٌ لِقَبُولِهِ، وَمِفْتَاحٌ لِإِجَابَتِهِ؛ يُوضِّحُ ذَلِكَ وَبَيِّنُهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَجْدِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ^(١)؛ فَعَلَّمَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ كَيْفَ يَدْعُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَمَّا كَانَ سُؤَالُ اللَّهِ الْهُدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَجَلَ الْمَطَالِبِ، وَنِيلَهُ أَشْرَفَ الْمَوَاهِبِ، عَلَّمَ اللَّهُ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ سُؤَالِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ حَمْدَهُ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ وَتَمْجِيدَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ عِبُودِيَّتَهُمْ وَتَوْحِيدَهُمْ، فَهَاتَانِ وَسِيلَتَانِ إِلَى مَطْلُوبِهِمْ: تَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِعِبُودِيَّتِهِ، وَهَاتَانِ الْوَسِيلَتَانِ لَا يَكَادُ يُرَدُّ مَعَهُمَا الدُّعَاءُ...» إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ جَمَعَتِ الْفَاتِحَةُ الْوَسِيلَتَيْنِ، وَهُمَا التَّوَسُّلُ بِالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَتَمْجِيدِهِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِعِبُودِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، ثُمَّ جَاءَ سُؤَالُ أَهَمِّ الْمَطَالِبِ، وَأَنْجَحِ الرِّغَائِبِ، وَهُوَ الْهُدَايَةُ بَعْدَ الْوَسِيلَتَيْنِ، فَالِدَاعِي بِهِ حَقِيقٌ بِالْإِجَابَةِ.

ونظيرُ هذا دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي كَانَ يَدْعُو بِهِ إِذَا قَامَ يَصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ؛ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قِيَوْمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَأَغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)^(٢)؛ فَذَكَرَ التَّوَسُّلَ إِلَيْهِ بِحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَبِعِبُودِيَّتِهِ لَهُ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٧٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٠٣).

ثُمَّ سَأَلَهُ الْمَغْفِرَةَ^(١). اهـ.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله في شرحه لهذا الحديث: «وفيه استحباب تقديم الثناء على المسألة عند كل مطلوب؛ اقتداءً به ﷺ»^(٢).

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ: دَعَاءُ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ودَعَاءُ أَيُوبَ عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٢) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]، ودَعَاءُ أُولَى الْأَلْبَابِ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ودَعَاءُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا، يطول عدّها.

❏ فينبغي على المسلم أن يحافظ على هذا الأدب الرفيع عند سؤاله له سبحانه: بأن يُثْنِيَ عليه وَيُحَمِّدُهُ وَيُمَجِّدُهُ، وَيَعْتَرِفَ بِفَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، ثُمَّ يَسْأَلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ مِنْ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

كما ينبغي للمسلم أيضًا - بين يديّ دعائه - أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى صَفِيِّ اللَّهِ وَخَلِيلِهِ، وَعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وقد جاء الحثُّ على ذلك في أحاديث عديدة؛ منها: حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه، قال: «سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو في صلاته، فلم يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فقال النبي ﷺ: (عَجَلْ هَذَا)، ثُمَّ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدَ بِمَا شَاءَ)»^(٣).

(١) «مدارج السالكين» (٢٣/١ - ٢٤). (٢) «فتح الباري» (٥/٣).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٨/٦)، وأبو داود رقم (١٤٨١)، والترمذي رقم (٣٤٧٧)، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٨).

ولهذا ثلاثُ مراتبَ :

إحداها: أن يُصَلِّيَ على النبي ﷺ قبلَ الدعاء، وبعدَ حَمْدِ الله تعالى .
 والمرتبة الثانية: أن يُصَلِّيَ عليه في أولِ الدعاء، وأوسطِهِ، وآخره .
 والمرتبة الثالثة: أن يُصَلِّيَ عليه في أولِهِ وآخره، وَيَجْعَلَ حاجَتَهُ متوسِّطَةً
 بينهما؛ والصلاةُ على النبي ﷺ للدُّعَاءِ مثلُ المفتاح؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:
 «مفتاحُ الدعاءِ الصلاةُ على النبي ﷺ، كما أنَّ مفتاحَ الصلاةِ الطُّهُورُ» .
 ثُمَّ نَقَلَ عن أحمدَ بن أبي الحَوَارِيِّ، قال: سمعتُ أبا سُلَيْمَانَ الدارانيَّ
 يقول: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ حاجَتَهُ، فليبدأُ بالصلاةِ على النبي ﷺ وليسألْ
 حاجَتَهُ، وَلْيُخْتِمَ بالصلاةِ على النبي ﷺ؛ فَإِنَّ الصلاةَ على النبي ﷺ مقبولةٌ،
 واللهُ أَكْرَمُ أَنْ يَرُدَّ ما بينهما»^(١).



(١) «جلاء الأفهام» (ص ٢٦٠ - ٢٦٢).

مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ أَيْضًا

مِمَّا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ تَجَنُّبُهُ فِي دُعَائِهِ: تَكْلُفُ السَّجْعِ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكْلُفُ صَنْعَةِ الْكَلَامِ لَهُ، قَالَ الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ مِنْ «صَحِيحِهِ»: «بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ السَّجْعِ فِي الدُّعَاءِ»، ثُمَّ سَاقَ بِسَنَدِهِ إِلَى عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «حَدَّثَ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أَبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَا تُمَلِّ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَلَا أُلْفَيْتَكَ تَأْتِي الْقَوْمَ وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ، فَتَقْصُصْ عَلَيْهِمْ، فَتَقْطَعْ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فُتْمِلُهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ، فَإِذَا أَمْرُوكَ، فَحَدِّثْهُمْ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ، فَاَنْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ؛ يَعْنِي: لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ الْاجْتِنَابَ»^(١).

وَالسَّجْعُ هُوَ: الْكَلَامُ الْمَقْفِيُّ مِنْ غَيْرِ مَرَاعَاةٍ وَزَنِ. وَتَكْلُفُ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ أَمْرٌ مَكْرُوهٌ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ.

وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ الْاجْتِنَابَ». قَالَ الْأَزْهَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأِنَّمَا كَرِهَهُ ﷺ لِمَشَاكِلَتِهِ كَلَامَ الْكَهَنَةِ، كَمَا فِي قِصَّةِ الْمَرْأَةِ مِنْ هُذَيْلٍ»^(٢)، يَشِيرُ إِلَى مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اقْتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُذَيْلٍ، فَرَمَتِ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ: عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ، وَقَضَى بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا، وَوَرَّثَهَا وَلَدَهَا وَمَنْ مَعَهُم،

(٢) انظر: «فتح الباري» (١١/١٣٩).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٣٧).

فَقَالَ حَمَلُ بْنُ النَّابِغَةِ الْهُذَلِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَ؟! فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطْلُ [أَي: يُهْدَرُ]، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُفَّانِ)^(١)؛ مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ.

ولذا عَدَّ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ تَكَلُّفَ السَّجْعِ فِي الدُّعَاءِ فِي جُمْلَةِ مَوَانِعِ الْإِجَابَةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْهَا: أَنْ يَدْعُوَ بِمَا لَيْسَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَيَتَخَيَّرُ أَلْفَاظًا مُفَقَّرَةً، وَكَلِمَاتٍ مُسَجَّعَةً، قَدْ وَجَدَهَا فِي كِرَارِيسَ لَا أَصْلَ لَهَا، وَلَا مُعَوَّلَ عَلَيْهَا، فَيَجْعَلُهَا شِعَارَهُ، وَيَتْرُكُ مَا دَعَا بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، وَكُلُّ هَذَا يَمْنَعُ مِنْ اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ»^(٢).

وَالسَّجْعُ الْمَذْمُومُ هُوَ: الْمَتَكَلَّفُ الَّذِي يَجْتَهِدُ صَاحِبُهُ فِي تَصْنَعِهِ، فَيَشْغُلُهُ ذَلِكَ عَنِ الْإِخْلَاصِ وَالْخُشُوعِ، وَيُلْهِمُهُ عَنِ الضَّرَاعَةِ وَالْاِفْتِقَارِ، فَأَمَّا إِنْ وَجَدَ وَحَصَلَ بِلَا تَصْنَعٍ وَلَا تَكَلُّفٍ، وَمِنْ غَيْرِ قَصْدٍ إِلَيْهِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ.

قَالَ السَّقَّارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا يَتَكَلَّفُ السَّجْعَ فِي الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ يَشْغُلُ الْقَلْبَ، وَيُذْهِبُ الْخُشُوعَ، وَإِنْ دَعَا بِدَعَوَاتٍ مَحْفُوظَةٍ مَعَهُ لَهُ أَوْ لغيرِهِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ سَجْعٍ، فَلَيْسَ بِمَمْنُوعٍ»^(٣).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَتَقَدِّمِ، فِي ذِمِّ السَّجْعِ فِي الدُّعَاءِ: «وَلَا يَرُدُّ عَلَى ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَصْدُرُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ إِلَيْهِ؛ وَلَأَجْلِ هَذَا يَجِيءُ فِي غَايَةِ الْاِنْسِجَامِ؛ كَقَوْلِهِ ﷺ فِي الْجِهَادِ: (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، هَازِمَ الْأَحْزَابِ)^(٤)، وَكَقَوْلِهِ ﷺ: (صَدَقَ وَعْدُهُ، وَأَعَزَّ جُنْدُهُ...)، الْحَدِيثُ^(٥)،

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٥٨)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٨١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٢٦٦/٧).

(٣) «غذاء الألباب» (٤٠٩/١).

(٤) رواه البخاري رقم (٢٩٣٣، ٢٩٦٦)، ومسلم رقم (١٧٤٢).

(٥) رواه أحمد في «المسند» (٢٣٤٩٣)، وأبو داود رقم (٤٥٤٧)، والنسائي رقم (٤٧٩٩)، وابن ماجه رقم (٢٦٢٨)، و«أعز جُنْدَهُ» جاءت في حديث تقدم تخريجه (ص ٢٤٤).

وكقوله: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَعُ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ)^(١)، وكلُّها صحيحة^(٢).

وينبغي للداعي أَنْ يَتَجَنَّبَ اللَّحْنَ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَ اللَّحْنُ مُحِيلًا لِلْمَعْنَى، مُخِلًّا بِالْمَقْصُودِ، مُفْسِدًا لِلْمَرَادِ؛ فَإِنَّ الإِعْرَابَ عِمَادُ الْكَلَامِ، وَبِهِ يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى، وَبِعَدَمِهِ يَخْتَلُّ وَيَفْسُدُ، وَرَبَّمَا انْقَلَبَ الْمَعْنَى بِاللَّحْنِ إِلَى مَعْنَى بَاطِلٍ، أَوْ دُعَاءٍ مُحَرَّمٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

ولهذا قَالَ أَبُو عَثْمَانَ الْمَازِنِيُّ لِبَعْضِ تَلَامِيذِهِ: «عَلَيْكَ بِالنَّحْوِ؛ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَفَرَتْ بِحَرْفٍ ثَقِيلٍ خَفَّفُوهُ، قَالَ اللَّهُ ﷻ لِعِيسَى: «إِنِّي وَلَدْتُكَ»، فَقَالُوا: إِنِّي وَلَدْتُكَ، فَكَفَرُوا».

وَيُذَكَّرُ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ: أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: يَا ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: لَيْثٌ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

يُنَادِي رَبَّهُ بِاللَّحْنِ لَيْثٌ لِذَاكَ إِذَا دَعَاهُ لَا يُجِيبُ^(٣)

ولهذا يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِي تَجَنُّبُ اللَّحْنِ فِي الدُّعَاءِ إِنْ كَانَ مُسْتَطِيعًا لِذَلِكَ قَادِرًا عَلَيْهِ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

وَقَدْ سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ رَجُلٍ دَعَا دُعَاءً مَلْحُونًا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا يَقْبَلُ اللَّهُ دُعَاءً مَلْحُونًا؟

فَأَجَابَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِمَا نَصَّه: «مَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ، فَهُوَ آثِمٌ، مُخَالَفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمَّا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ، وَأَمَّا مَنْ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ بِدُعَاءٍ جَائِزٍ، سَمِعَهُ اللَّهُ وَأَجَابَ دُعَاءَهُ؛ سِوَاهُ كَانَ مُعَرَّبًا أَوْ مَلْحُونًا، وَالْكَلَامُ الْمَذْكُورُ لَا أَصْلَ لَهُ، بَلْ يَنْبَغِي لِلدَّاعِي إِذَا لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ الإِعْرَابُ إِلَّا أَنْ يَتَكَلَّفَ الإِعْرَابَ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا جَاءَ الإِعْرَابُ ذَهَبَ الْخُشُوعُ، وَهَذَا كَمَا يُكْرَهُ تَكَلُّفُ

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٢٢) وليس فيها (من عين لا تدمع).

(٢) «فتح الباري» (١٣٩/١١).

(٣) انظر: «شأن الدعاء» للحطّاي (١٩ - ٢٠).

السَّجْعُ فِي الدُّعَاءِ، فَإِذَا وَقَعَ بِغَيْرِ تَكْلُفٍ، فَلَا بَأْسَ بِهِ، فَإِنَّ أَصْلَ الدُّعَاءِ مِنَ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانُ تَابِعٌ لِلْقَلْبِ.

وَمَنْ جَعَلَ هِمَّتَهُ فِي الدُّعَاءِ تَقْوِيمَ لِسَانِهِ أَوْ ضَعْفَ تَوَجُّهِ قَلْبِهِ؛ وَلِهَذَا يَدْعُو الْمَضْطَرُّ بِقَلْبِهِ دُعَاءً يُفْتَحُ عَلَيْهِ لَا يَحْضُرُهُ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي قَلْبِهِ، وَالدُّعَاءُ يَجُوزُ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَبِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ قَصْدَ الدَّاعِي وَمَرَادَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقُومْ لِسَانُهُ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ضَجِيجَ الْأَصْوَاتِ، بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، عَلَى تَنْوُعِ الْحَاجَاتِ^(١).

❦ وَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي دُعَائِهِ أَنْغَامًا مَعِينَةً، أَوْ تَكْلُفَاتٍ فِي الْأَدَاءِ مِنْ خَفْضٍ وَرَفْعٍ، أَوْ تَطْرِيبٍ، أَوْ تَرْجِيعٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا يُسَمِّيهِ الْبَعْضُ فِي زَمَانِنَا ابْتِهَالَاتٍ، وَيَجْعَلُ لَهُ أَدَاءً مَعِينًا شَبِيهَاً بِالتَّغْنِي، فَمِثْلُ هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ مَقَامَ الدُّعَاءِ مَقَامُ طَلَبٍ وَإِظْهَارِ حَاجَةٍ وَخُشُوعٍ وَتَضَرُّعٍ إِلَى اللَّهِ وَلَيْسَ مَقَامُ تَعَنُّ وَهُوَ مَقَامُ خُضُوعٍ وَعِبُودِيَّةٍ، وَلَيْسَ مَقَامُ إِظْهَارٍ لِلصَّنَاعَةِ النَّعْمِيَّةِ، وَهُوَ مَقَامُ ذُلٍّ وَخُضُوعٍ وَإِيمَانٍ، وَلَيْسَ مَقَامُ شُغْلٍ لِلخَوَاطِرِ بِتَنْمِيقِ الْأَدَاءِ وَإِقَامَةِ الْأَوْزَانِ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ الْهَادِي وَالْمَوْفَّقُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَعَانُ.



التَّحْذِيرُ مِنَ السَّمَاعَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ

لا يزال حديثنا موصولاً ببيان ضوابط الدعاء المشروع الذي كان عليه سَيِّدُ الأنبياء والمرسلين، وَاتَّبَعَهُ فِيهِ سَادَاتُ الأولياء والصالحين، مِنَ الصحابة والتابعين، وهو وحده المقبولُ عند الله، دونَ ما أحدثهُ المُحدثون، وأنشأهُ المتكلِّفون، مِمَّنْ هَجَرُوا الأذكارَ المشروعة، والأدعية المأثورة، واستعاضوا عنها بسماعاتٍ مُبتدعة، وَتَعَبَّدُوا بِإِنْشَادِ أشعارٍ، وأراجيزٍ مُحدثَةٍ اتَّخَذُوهَا أَوْرَادًا، وَوَضَعُوا لَهَا أَوْقَاتًا، وَادَّعَوْا أَنَّ تَأْثِيرَهَا فِي الْقُلُوبِ أَبْلَغُ، وَتَحْرِيكُهَا لِلنَّفُوسِ أَقْوَى؛ فَمَالَتْ لَهَا قُلُوبُهُمْ، وَاطْمَأْنَنْتْ إِلَيْهَا نَفُوسُهُمْ، وَآثَرُوهَا عَلَى الأذكارِ المشروعة، والأدعية المأثورة.

وما مِنْ رَيْبٍ أَنَّ هَذَا حَدَثٌ فِي الدِّينِ، وَمُخَالَفَةٌ لِهَدْيِ سَيِّدِ الأنبياء والمرسلين؛ والنقولُ عن أهلِ العلمِ في ذِمِّ ذَلِكَ، والتحذيرِ منه، والنَّهْيِ عنه، وبيانُ أَنَّهُ مِنَ الْبِدْعِ المُحدثَةِ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

يقول الإمام الشافعي رحمته الله: «خَرَجْتُ مِنْ بَغْدَادَ، وَخَلَفْتُ بِهَا شَيْئًا أَحَدَتْهُ الزنادقة، يُسَمُّونَهُ التَّغْيِيرَ، يَصُدُّونَ النَّاسَ بِهِ عَنِ الْقُرْآنِ».

والتَّغْيِيرُ ذِكْرُ أَحَدَتِهِ هَؤُلَاءِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّغْنِيِ بِالشَّعْرِ، مَعَ ضَرْبِ قَضِيبٍ عَلَى جِلْدٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَمَّا سُئِلَ عَنْهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رحمته الله، قَالَ: «بِدْعَةٌ مُحدثَةٌ»^(١).

ويقول محمد بن الوليد الطرطوشي رحمته الله: «وَمِنْ الْعَجَبِ الْعُجَابِ أَنَّ تُعْرَضَ عَنِ الدَّعَوَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ

(١) انظر: كتاب «الكلام على مسألة السماع» لابن القيم (ص ١١٩ - ١٢٨).

مقرونة بالإجابة، ثُمَّ تَنْتَقِي أَلْفَاظَ الشُّعْرَاءِ وَالْكُتَّابِ، كَأَنَّكَ قَدْ دَعَوْتَ فِي زَعِمِكَ بِجَمِيعِ دَعَوَاتِهِمْ، ثُمَّ اسْتَعَنْتَ بِدَعَوَاتِ مَنْ سِوَاهُمْ^(١). اهـ.

وقد نَبَّهَ أَهْلَ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ السَّمَاعَ عَلَى نَوْعَيْنِ:

نَوْعٌ: هُوَ سَمَاعٌ لَهْوٍ وَطَرَبٍ؛ فَهَذَا حَكْمُهُ مُحَرَّمٌ وَبَاطِلٌ، وَقَدْ بَسَطَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الْأَدْلَةَ عَلَى مَنْعِهِ وَتَحْرِيمِهِ، مِنْهُمْ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ».

والنوع الثاني: السَّمَاعُ الْمُحَدَّثُ عَلَى وَجْهِ التَّدْيِينِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهَذَا يُقَالُ فِيهِ: إِنَّهُ بَدْعٌ ضَلَالَةٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا إِنَّمَا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِمَا شَرَعَ، لَا بِالْأَهْوَاءِ وَالْمُحَدَّثَاتِ وَالْبِدَعِ، وَقَدْ ضَمَّ بَعْضُ هَؤُلَاءِ إِلَى ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّدْيِينِ وَالتَّقَرُّبِ: التَّلْحِينَ وَالتَّطْرِيبَ وَآلَاتِ اللّٰهُو، وَالتَّصْفِيقَ وَالتَّمَايِلَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا وَيُؤَدُّونَهَا - بِزَعْمِهِمْ - تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَطَلَبًا لِثَوَابِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَقْبَحِ الْأَعْمَالِ، وَأَقْبَحِ أَنْوَاعِ الْإِعْتِدَاءِ فِي الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ.

وهكذا صَارَ هَؤُلَاءِ يَتَرَقَّوْنَ فِي دَرَجَاتِ الْبَاطِلِ، وَيَتَمَادُّونَ فِي الْغَيِّ وَالضَّلَالِ، إِلَى أَنْ بَلَغُوا إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الْمُزْرِئَةِ، وَالنَّهْيَةِ الْمُؤْسِفَةِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ أَوَّلَ سَمَاعِ الْقَصَائِدِ كَانَ تَلْحِينًا بِإِنْشَادِ قَصَائِدٍ مُرَقَّعَةٍ لِلْقُلُوبِ، تُحَرِّكُ الْمَحَبَّةَ وَالشُّوقَ، أَوْ الْخَوْفَ وَالْخَشْيَةَ، أَوْ الْحُزْنَ وَالْأَسْفَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَكَانُوا يَشْتَرِطُونَ لَهُ الْمَكَانَ وَالْإِمَّاكَانَ وَالْخِلَّانَ، فَيَشْتَرِطُونَ أَنْ يَكُونَ الْمَجْتَمِعُونَ لِسَمَاعِهَا مِنْ أَهْلِ الطَّرِيقِ الْمُرِيدِينَ لَوَجْهِ اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَكُونَ الشُّعْرُ الْمُنْشَدُ غَيْرَ مُتَضَمِّنٍ لِمَا يُكْرَهُ سَمَاعُهُ فِي الشَّرِيعَةِ، وَقَدْ يَشْتَرِطُ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ الْقَوَائِلُ مِنْهُمْ، وَرَبَّمَا اشْتَرَطَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ فِي الشَّاعِرِ الَّذِي أَنْشَأَ تِلْكَ الْقَصَائِدَ، وَرَبَّمَا ضَمُّوا إِلَيْهِ آلَةُ تَقْوِي الصَّوْتِ، وَهُوَ الضَّرْبُ بِالْقَضِيبِ عَلَى جِلْدٍ مَخْدَعٍ أَوْ غَيْرِهَا، وَهُوَ التَّغْيِيرُ.

(١) «الفتوحات الربانية» لابن علان (١٧/١).

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اسْتِمَاعَ الْأَصْوَاتِ يُوجِبُ حَرَكَةَ النَّفْسِ بِحَسَبِ ذَلِكَ الصَّوْتِ الَّذِي يُوجِبُ الْحَرَكَةَ... وللأصواتِ طبائعٌ متنوّعةٌ، تَنَوُّعُ آثَارُهَا فِي النَّفْسِ، وَكَذَلِكَ لِلْكَلَامِ الْمَسْمُوعِ نَظْمٌ وَنَثْرٌ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الصَّوْتِ الْمُنَاسِبِ وَالْحُرُوفِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُمْ.

وهذا الأمرُ يفعلُهُ بنو آدَمَ مِنْ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ الْبِدْعِيَّةِ؛ كَالنَّصَارَى وَالصَّابِئَةِ، وَغَيْرِ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ مِمَّنْ يَحْرُكُ بِذَلِكَ حَبَّةً وَشَوْقَهُ وَوَجْدَهُ، أَوْ حَزَنَهُ وَأَسْفَهُ، أَوْ حَمِيَّتَهُ وَغَضَبَهُ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَخَلَفَ بَعْدَ أَوْلَئِكَ مَنْ صَارَ يَجْمَعُ عَلَيْهِ أَخْلَاطًا مِنَ النَّاسِ، وَيَرَوْنَ اجْتِمَاعَهُمْ لَذَلِكَ شَبَكَةً تَصْطَادُ النَّفُوسَ بِزَعْمِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ، وَالْوَصُولِ فِي طَرِيقِ أَهْلِ الْإِرَادَةِ...»^(١). إلخ كلامه.

وَقَدْ سُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْمَعْرُوفِينَ بِالْخَيْرِ أَرَادَ تَتَوَيْبَ جَمَاعَةٍ يَجْتَمِعُونَ عَلَى قَصْدِ الْكِبَائِرِ؛ مِنَ الْقَتْلِ، وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، وَالسَّرْقَةِ، وَشَرْبِ الْخَمْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَمْ يُمَكِّنْهُ إِلَّا أَنْ يَقِيمَ لَهُمْ سَمَاعًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ بِهَذِهِ النِّيَّةِ، وَهُوَ بِذِفِّ بِلَا صَلَاحٍ، وَغِنَاءِ الْمَغْنِيِّ بِشَعْرِ مَبَاحٍ بِغَيْرِ شَبَابَةٍ، فَلَمَّا فَعَلَ هَذَا، تَابَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ، وَأَصْبَحَ مَنْ لَا يَصَلِّي، وَيَسْرِقُ وَلَا يَزْكِي يَتَوَرَّعُ عَنِ الشُّبُهَاتِ، وَيُؤَدِّي الْمَفْرُوضَاتِ، وَيَتَجَنَّبُ الْمَحْرَمَاتِ، فَهَلْ يُبَاحُ فَعْلُ هَذَا السَّمَاعِ لِهَذَا الشَّيْخِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَالِحِ، مَعَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ دَعْوَتُهُمْ إِلَّا بِهَذَا؟

فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جَوَابِهِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ: «إِنَّ الشَّيْخَ الْمَذْكُورَ قَصَدَ أَنْ يُتَوَبَّ الْمُجْتَمِعِينَ عَلَى الْكِبَائِرِ، فَلَمْ يُمَكِّنْهُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا ذَكَرَهُ مِنَ الطَّرِيقِ الْبِدْعِيِّ، يَدُلُّ أَنَّ الشَّيْخَ جَاهِلٌ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي بِهَا تَتَوَبُّ الْعُصَاةُ، أَوْ عَاجِزٌ عَنْهَا؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَالصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ كَانُوا يَدْعُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي أَغْنَاهُمْ اللَّهُ بِهَا عَنِ الطَّرِيقِ الْبِدْعِيَّةِ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي الطَّرِيقِ الشَّرْعِيَّةِ

التي بعث الله بها نبيّه ما يتوبُ به العَصَاةُ؛ فَإِنَّهُ قد عَلِمَ بالاضطرارِ والنقلِ المتواترِ أَنَّهُ قد تابَ مِنَ الْكُفْرِ والفسوقِ والعصيانِ مَنْ لا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ تعالى مِنَ الْأُمَمِ بالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ التي ليس فيها ما ذُكِرَ مِنَ الاجتماعِ الْبِدْعِيِّ، بل السابقونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَهُمْ خَيْرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، تابوا إِلَى اللهِ تعالى بالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ، لا بهذه الطرقِ الْبِدْعِيَّةِ، وَأَمْصَارُ الْمُسْلِمِينَ وَقُرَاهُمُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مِمَّنْ تابَ إِلَى اللهِ وَاتَّقَاهُ، وَفَعَلَ ما يَحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ بالطرقِ الشَّرْعِيَّةِ، لا بهذه الطرقِ الْبِدْعِيَّةِ؛ فلا يُمكنُ أَنْ يُقالَ: إِنَّ الْعَصَاةَ لا تَمَكُنُ تَوْبَتَهُمْ إِلَّا بهذه الطرقِ الْبِدْعِيَّةِ، بل قد يُقالُ: إِنَّ فِي الشُّيُوخِ مَنْ يَكُونُ جَاهِلًا بِالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ عَاجِزًا عَنْهَا، لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا يُخَاطَبُ بِهِ النَّاسَ، وَيُسْمِعُهُمْ إِيَّاهُ مِمَّا يَتَوَبُّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ، فَيَعْدِلُ هَذَا الشَّيْخُ عَنِ الطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَى الطُّرُقِ الْبِدْعِيَّةِ^(١)، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللهُ، وَهُوَ عَظِيمُ الْفَائِدَةِ، جَلِيلُ النَّفْعِ، غَنِيٌّ عَنِ الْبَيَانِ وَالتَّعْلِيقِ، وَلِلْمَوْضُوعِ صَلَوةٌ، وَبِاللهِ وَحْدَهُ التَّوْفِيقُ وَالسَّدَادُ.



الْفَرْقُ بَيْنَ السَّمَاعِ الْمَشْرُوعِ وَالسَّمَاعِ الْمُحَدَّثِ

سَبَقَ الْحَدِيثُ عَمَّا أَحَدَثَهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي الذِّكْرِ والدَّعَاءِ مِنَ السَّمَاعَاتِ الْمُحَدَّثَةِ، وَالتَّعَبُّدِ لِلَّهِ بِاتِّخَاذِ أَرَاغِيزٍ وَأَشْعَارٍ أَوْرَادًا لَهُمْ، فَجَنَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ جَنَايَاتٍ بِالْغَةِ، وَأَفْسَدَ عَلَيْهِمْ مَسْلَكَهُمْ، وَصَدَّاهُمْ عَنِ الذِّكْرِ الْقَوِيمِ، والدَّعَاءِ السَّلِيمِ، الْوَاردِ فِي هَدْيِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ السَّمَاعِ الَّذِي يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الدِّينِ الْمَتَقَرَّرِ فِي شَرْعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبَيْنَ السَّمَاعَاتِ الْمُحَدَّثَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا وَاخْتَرَعَهَا بَعْضُ النَّاسِ عَلَى وَفْقِ أَهْوَائِهِمْ.

فَأَمَّا السَّمَاعُ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَكَانَ سَلَفُ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ لِصَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَزَكَاةِ نَفُوسِهِمْ، فَهُوَ سَمَاعُ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ سَمَاعُ النَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الْعِلْمِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ مَنْ ذَكَرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذَا تُنْذِرُ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [١٠٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وَبِهَذَا السَّمَاعِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ

فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿[الأعراف: ٢٠٤]﴾، وعلى أهله أُنْتِي؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر]، وقال في الآية الأخرى: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فالقول الذي أُمِرُوا بتدبره هو القول الذي أُمِرُوا باستماعه، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَرْزَاقَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّذِكْرُوا بِآيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

وكما أُنْتِي الله على هذا السماع ذَمُّ الْمُعْرِضِينَ عنه؛ فقال: ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَآلٍ مُّسْتَكْبِرٍ كَانَتْ يَمْسَعُهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَفَرًّا﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُرٌّ مُّسْتَفِرَّةً ﴿٥٠﴾ فَزَتْ مِنْ فُسُوفٍ﴾ [المدثر]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء].

فهذا هو السماع الذي شَرَعَهُ اللهُ لعباده، ورَتَّبَ لهم عليه الأجورَ الكثيرة، والخَيْرَاتِ العظيمة في الدنيا والآخرة، وعلى هذا السماع كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يجتمعون، فكانوا إذا اجتمعوا أُمِرُوا واحداً منهم أن يقرأ والباقيون يستمعون، وكان عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يقول لأبي موسى ﷺ: «يا أبا موسى، ذَكَّرْنَا رَبَّنَا، فيقرأ وهم يَسْمَعُونَ»^(١)، وهذا هو السماع الذي كان النبي ﷺ يَشْهَدُهُ مَعَ أَصْحَابِهِ وَيَسْتَدْعِيهِ مِنْهُمْ؛ كما في «الصحيح»، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: «قال لي النبي ﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ)، قلت:

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١٠٩/٤)، وأورده الذهبي في «السير» (٣٩٨/٢).

أَقْرَأُهُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ، فَقَالَ: (إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي)، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قَالَ: (حَسْبُكَ!)، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ^(١).

فهذا هو سماعُ أهلِ الإيمانِ الذي مَنْ سَمِعَهُ وَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، اهْتَدَى وَأَفْلَحَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، شَقِيَ وَضَلَّ، ثُمَّ إِنَّ لَهُ مِنَ الْآثَارِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَالْمَعَارِفِ الْقُدُسِيَّةِ، وَالْأَحْوَالِ الزَكِيَّةِ، وَالتَّائِجِ الْمَحْمُودَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى.

وَأَمَّا سَمَاعُ الْمُكَاءِ وَالتَّضْدِيقِ، وَهُوَ التَّصْفِيقُ بِالْأَيْدِي وَالصَّفِيرُ وَنَحْوُهُ، فَهَذَا هُوَ سَمَاعُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَضْدِيقًا﴾ [الأنفال: ٣٥]، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ التَّصْفِيقَ بِالْيَدِ، وَالتَّصْوِيتَ بِالْفَمِ قُرْبَةً وَدِينًا، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَجْتَمِعُونَ عَلَى مِثْلِ هَذَا السَّمَاعِ وَلَا حَضْرُوهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْمُفَضَّلَةَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ مَنْ يَجْتَمِعُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْمُكَاءِ وَالتَّضْدِيقِ، لَا بِدَفٍّ وَلَا بِكَفٍّ وَلَا بِقَضِيبٍ، وَإِنَّمَا أَحْدِثَ هَذَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ، فَلَمَّا رَأَى الْأُئِمَّةُ أَنْكَرُوهُ، وَقَدْ مَرَّ قَوْلُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ فِي ذَلِكَ، فَمَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ عَلَى وَجْهِ الدِّينَانَةِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، فَلَا رَيْبَ فِي ضَلَالَتِهِ وَجَهَالَتِهِ وَانْحِرَافِهِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَأَمَّا إِذَا فَعَلَهَا الْإِنْسَانُ عَلَى وَجْهِ التَّمَتُّعِ وَاللَّعِبِ، فَمَذْهَبُ الْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَنَّ آلَاتِ اللَّهِ كُلَّهَا حَرَامٌ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَغَيْرِهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ يَسْتَحِلُّ الْحَرَ وَالْحَرِيرَ وَالْحَمَرَ وَالْمَعَارِفَ^(٢)، وَالْمَعَارِفُ هِيَ: الْمَلَاهِي، جَمْعُ مَعْرِفَةٍ، وَهِيَ الْآلَةُ الَّتِي يُعَرَفُ بِهَا؛ أَيِ:

(١) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْمُ (٤٥٨٢)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْمُ (٨٠٠).

(٢) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْمُ (٥٥٩٠).

يُصَوِّتُ بِهَا، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَثَمَةِ السَّلَفِ فِي تَحْرِيمِ ذَلِكَ^(١).
 ❦ وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ ثَمَّةَ فَرْقًا بَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ هَذِهِ الْأُمُورَ عَلَى وَجْهِ اللُّهُوِّ
 وَاللَّعِبِ، وَبَيْنَ مَنْ يَفْعَلُهَا عَلَى وَجْهِ التَّدِينِ وَالتَّعَبُّدِ، فَإِنَّ الْأَوَّلَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَهُوَ
 لَا يَعُدُّهُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَلَا يَرْجُو بِهِ الثَّوَابَ، بَلْ رَبَّمَا كَانَ يَفْعَلُهُ وَهُوَ يَشْعُرُ
 بِالذَّنْبِ وَالخَطَا، أَمَّا مَنْ فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ التَّقَرُّبِ وَالتَّعَبُّدِ، وَأَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَى اللَّهِ
 تَعَالَى، فَإِنَّهُ يَتَّخِذُهُ دِينًا، وَإِذَا نُهِيَ عَنْهُ كَانَ كَمَنْ يُنْهَى عَنْ دِينِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ
 انْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ، وَحُرِّمَ نَصِيبُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا تَرَكَهُ، فَهَؤُلَاءِ ضَلَالٌ بِاتِّفَاقِ
 الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا الْأَمْرُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ الْعَاصِيَ يَعْلَمُ أَنَّهُ
 عَاصٍ فَيَتُوبُ، وَالْمُبْتَدِعُ يَحْسِبُ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُهُ طَاعَةٌ فَلَا يَتُوبُ، فَالْبَدْعَةُ أَحَبُّ
 إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ؛ حَمَانَا اللَّهُ مِنْهُ، وَهَدَانَا إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/٥٥٧ - ٥٨٦).

الدُّعَاءُ لِلْمُسْلِمِينَ

إِنَّ مِنَ الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُلَحِّظَهَا الْمُسْلِمُ فِي الدُّعَاءِ، بَلْ قَدْ عَدَّهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي جُمْلَةِ آدَابِ الدُّعَاءِ: الْعِنَايَةُ بِالْمُسْلِمِينَ بِالتَّوْفِيقِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِعَانَةِ عَلَى الْخَيْرِ؛ إِذْ إِنَّ الْجَمِيعَ مُشْتَرِكُونَ فِي الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ، وَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ يُحِبُّ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْعُوا لَهُ، وَيُسِّرُّ بِذَلِكَ، وَيَتِمَّنَى زِيَادَتَهُ، وَالْمُسْلِمُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ، فَكَمَا أَنَّهُ يُحِبُّ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعْتَنِيًا بِذَلِكَ تُجَاهَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ بِحُبِّ الْخَيْرِ لَهُمْ، وَالدُّعَاءِ لَهُمْ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ مَعَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَضَّ اللَّهُ لَهُ مِنْ إِخْوَانِهِ مَنْ يَدْعُونَ لَهُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، وَالْمُسْلِمُ يَنْتَفِعُ بِدُعَاةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ حَيًّا وَمَيِّتًا.

وَإِذَا نَظَرَ الْمُسْلِمُ إِلَى أَحْوَالِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَدَهَا أَحْوَالًا مُتَفَاوِتَةً، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى دُعَاءِ إِخْوَانِهِ، فَذَاكَ مَرِيضٌ يَعَانِي مِنَ الْمَرَضِ وَيُكَابِدُ آلامَهُ، وَلَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ أَمْضَى فِي مَرَضِهِ الْأَسَابِيعَ الْعَدِيدَةَ، أَوْ الشُّهُورَ الطَّوِيلَةَ، وَقَدْ لَا يَغْمُضُ لَهُ جَفْنٌ، وَلَا يَهْدَأُ لَهُ بَالٌ فِي آلامٍ مُتَعَبَةٍ، وَأَوْجَاعٍ مُؤَلِّمَةٍ، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى دُعَاءِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ بِأَنْ يَشْفِيَهُ اللَّهُ مَرَضَهُ، وَيُزِيلَ بَأْسَهُ، وَيُقَرِّجَ هَمَّهُ، وَيَكْشِفَ كَرْبَهُ، وَيُلْبِسَهُ ثَوْبَ الصُّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَسَنٌ»، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ، إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ) ^(١).

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٣٨/١)، و«سنن أبي داود» رقم (٣١٠٦)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٠٨٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٣٨٨).

وفي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أتى المريض يدعو له، قال: (أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سُقْمًا)»^(١).

وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ اخْتَرَمَتْهُ الْمَيِّتَةُ، وَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَهُوَ فِي قَبْرِهِ مُحْتَجِزٌ، وَبِأَعْمَالِهِ مُرْتَهَنٌ، وَبِمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ مَجْزِيٌّ، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى دُعَاءِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُقِيلَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ، وَيَغْفِرَ زَلَّتَهُ، وَيتجاوزَ عن خطيئته؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمته الله: «هذا شاملٌ لجميع المؤمنين؛ ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يُحِبَّ بعضهم بعضًا؛ ولهذا ذكر الله في هذا الدعاء نَفْيَ الْغِلِّ عن القلب، الشامل لقليله وكثيره، الذي إذا انتفى ثَبَتَ ضِدُّهُ، وهو المحبة بين المؤمنين، والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين...»^(٢).

وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعِيشُونَ فِي بِلْدَانِهِمْ فِي فِتْنٍ مُؤَرَّقَةٍ، وَحُرُوبٍ مُهْلِكَةٍ، وَبَلَاءٍ شَدِيدٍ، قَدْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ، فَأُرِيقَتْ فِيهِمُ الدَّمَاءُ، وَرُمِلَتِ النِّسَاءُ، وَيُتَمَّ الْأَطْفَالُ، وَنُهَبَتِ الْأَمْوَالُ، وَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى الدُّعَاءِ لَهُمْ بِأَنْ يُنْقَسَ اللَّهُ كَرْبَهُمْ، وَيُفَرِّجَ هَمَّهُمْ، وَيَكْبِتَ عَدُوَّهُمْ، وَيُنْشُرَ الْأَمْنَ وَالْإِطْمِئْنَانَ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ كَانَ مِنْ هَذِي النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ الْقَنُوتُ فِي النِّوَازِلِ الَّتِي تَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ، فَيَدْعُو لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ وَالنَّجَاةِ، وَلِعَدُوَّهُمْ بِالْهَزِيمَةِ وَالْهَلَاكِ؛ كَمَا فِي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَنَتَ فِي صَلَاةِ الْعَتَمَةِ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٦٧٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٩١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (١٠٣/٨).

شَهْرًا يَقُولُ فِي قَنَوْتِهِ: (اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ)، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَأَصْبَحَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَلَمْ يَدْعُ لَهُمْ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: (أَوْمًا تَرَاهُمْ قَدْ قَدِمُوا؟!)^(١).

وُثِّبَتْ فِي «الصَّحِيحِ»، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «قَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِغْلِ وَذُكْوَانٍ، وَيَقُولُ: (عُصِيَّةَ عَصَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)»^(٢).

وَكَذَلِكَ قَنَوْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رضي الله عنه فِي مُحَارَبَةِ الصَّحَابَةِ لِمُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ، وَعِنْدَ مُحَارَبَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَذَلِكَ قَنَوْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، وَفِيهِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ عَذِّبْ كَفْرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَيَجْحَدُونَ آيَاتِكَ، وَيُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَتَعَدَّوْنَ حُدُودَكَ...»، إِلَى آخِرِ دُعَائِهِ رضي الله عنه^(٣).

وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ أَرَقَّهُمُ الْفَقْرُ، وَأَقْعَدَتْهُمُ الْحَاجَةُ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ لَا يَجِدُ لِبَاسًا يُوَارِيهِ، أَوْ مَسْكَنًا يُؤْوِيهِ، أَوْ طَعَامًا يُشْبِعُهُ وَيَغْذِيهِ، أَوْ شَرَابًا يَرْوِيهِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ أَدْرَكَهُ حَتْفُهُ فِي مَجَاعَاتٍ مُهْلِكَةٍ، وَقَحْطٍ مُفْجِعٍ، فَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى دَعَوَاتٍ صَادِقَةٍ بَأَن يُغْنِيَ اللَّهُ فَقِيرَهُمْ، وَيُشْبِعَ جَائِعَهُمْ، وَيَكْسُوَ عَارِيَهُمْ، وَيَسُدَّ حَاجَتَهُمْ، وَيَكْشِفَ فَاقَتَهُمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِهْتِمَامِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَحُبِّ الْخَيْرِ لَهُمْ، وَالِدُعَاءِ لَهُمْ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُنْطَلَقٌ مِنَ الرَّابِطَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الَّتِي تَجْمَعُهُمْ وَتَوَلَّفُ بَيْنَهُمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]،

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٠٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٦٧٥)، واللفظ له.

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٠٩٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٦٧٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٧٢/٢٢ - ٣٧٣)، و«زاد المعاد» لابن القيم (١/٢٨٥). وأثر عمر أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٥/٢ - ١٥٦) وغيره. مع اختلاف في اللفظ عما أورد هنا، وقد صحَّحه الألباني في تعليقه على «صحيح ابن خزيمة»، وصحَّحه قبله الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١٥٠/٢).

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وفي الحديث يقول ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)؛ رواه البخاري ومسلم^(١).

وفي «صحيح مسلم»، عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ)^(٢).

وَتَبَّتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)^(٣).

وروى الطبراني عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَرَاحُمُوا»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا رَحِيمٌ، (قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ صَاحِبُهُ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةُ النَّاسِ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ)^(٤).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة؛ فينبغي على المسلم أن يكون مراعيًا لحقوق إخوانه المسلمين، مُجِبًّا الخَيْرَ لَهُمْ، رَحِيمًا بِهِمْ، عَظُوفًا عَلَيْهِمْ، دَاعِيًا لَهُمْ بِالتَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، وَالْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ، وَالصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ.



(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٠١١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٨٦).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري رقم (٦٠٢٦)، ومسلم رقم (٢٥٨٥).

(٤) رواه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٨٦/٨)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح»، ورواه الحاكم في «المستدرک» (١٨٥/٤)، وقال: «صحيح الإسناد»، وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٤٣٨/١٠): «رجاله ثقات»، وللحديث شاهد من حديث أنس؛ رواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٥١/٧).

الاستغفار للمسلمين

تقدّم بيان أهمية دعاء المسلم لغيره من إخوانه المسلمين بالمغفرة والتوفيق، والهداية والسداد، ونحو ذلك، وتقدّم الإشارة إلى أن حاجة الجميع إلى ذلك مشتركة، فكما أن المسلم بحاجة إلى دعوات إخوانه المسلمين، فكذلك إخوانه المسلمون بحاجة إلى ذلك، قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «والجميع مشتركون في الحاجة، بل في الضرورة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته، فكما يحبُّ [أي: المسلم] أن يستغفر له أخوه المسلم، كذلك هو أيضًا ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم، فيصير هجيراه: رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات، وللمؤمنين والمؤمنات، وقد كان بعض السلف يستحبُّ لكلِّ أحد أن يداوم على هذا الدعاء كلَّ يوم سبعين مرّة، فيجعل له منه وردًا لا يخلُّ به.

وسمعتُ شيخنا - أي: ابن تيمية - يذكره، وذكر فيه فضلًا عظيمًا لا أحفظه، وربما كان من جملة أوراده التي لا يخلُّ بها، وسمعتُه يقول: إنَّ جعله بين السجدين جائز، فإذا شهد العبد أن إخوانه مصابون بمثل ما أصيب به، محتاجون إلى ما هو محتاج إليه، لم يمتنع من مساعدتهم إلَّا لفرط جهله بمغفرة الله وفضله، وحقيق بهذا ألا يساعده؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل»^(١).

ومن الأجور الواردة في هذا الدعاء العظيم. ما ثبت في «المعجم الكبير» للطبراني، بإسناد حسن، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً»^(٢).

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/٢٩٨).

(٢) «مجمع الزوائد» (١٠/٢١٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٩٠٦)، وانظر: تعليق الشوكاني على هذا الحديث في «تحفة الذاكرين» (ص ٣٢٠).

﴿فَتَأْمَلْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - عِظَمَ هَذَا الْأَجْرِ الْمَتَرْتَّبِ عَلَى هَذَا الدُّعَاءِ وَكَثْرَتَهُ، فَاَلْمَسْلُمُ عِنْدَمَا يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الْاَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْاَمْوَاتِ، يَكُونُ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الْمَتَقَدِّمِيْنَ مِنْهُمْ وَالْمَتَأَخِّرِيْنَ حَسَنَةً، فَهِيَ حَسَنَاتٌ لَا تُحْصَى، فَاَعْدَادُ الْمُسْلِمِيْنَ الْمَتَقَدِّمِيْنَ وَالْمَتَأَخِّرِيْنَ لَا يُحْصِيهِمْ اِلَّا اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ الْعَظِيمُ فِي جُمْلَةِ اَدْعِيَةِ النَّبِيِّيْنَ، وَأَمَرَ اللَّهُ بِهِ خَاتَمُهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ، وَذَكَرَهُ فِي جُمْلَةٍ مَا امْتَدَحَ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِيْنَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى اِخْبَارًا عَنْ نُوْحٍ ﷺ: ﴿رَبِّ اَغْفِرْ لِيْ وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيْ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى اِخْبَارًا عَنْ اِبْرَاهِيْمَ ﷺ: ﴿رَبَّنَا اَغْفِرْ لِيْ وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ يَوْمَ يَقُوْمُ الْحِسَابُ﴾ [ابراهيم: ٤١]، وَقَالَ تَعَالَى اَمْرًا نَبِيَّهٗ مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ اَنَّهٗ لَا اِلٰهَ اِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ جَاؤُوْا مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ: ﴿وَالَّذِيْنَ جَاؤُوْا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اَغْفِرْ لَنَا وَلِاخْوَتِنَا الَّذِيْنَ سَبَقُوْنَا بِالْاِيْمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

وَكُلُّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذَا الدُّعَاءِ، وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ، وَكَثْرَةِ ثَوَابِهِ عِنْدَ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ شَيْخُ الْاِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يُعَظِّمُ شَأْنَ هَذَا الدُّعَاءِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ اَوْرَادِهِ الَّتِي لَا يُخْلُ بِهَا، كَمَا سَبَقَ نَقْلُ ذَلِكَ عَنِ الْاِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ»، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: «قُلْتُ لِعَطَاءٍ: اَسْتَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَدْ اَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ؛ فَاِنَّ ذَلِكَ الْوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ، قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهٗ ﷺ: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، قُلْتُ: اَفْتَدِعْ ذَلِكَ فِي الْمَكْتُوبَةِ اَبَدًا؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: فَبِمَنْ تَبْدَأُ، بِنَفْسِكَ اَمْ بِالْمُؤْمِنِيْنَ؟ قَالَ: بَلْ بِنَفْسِي، كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾»^(١).

وروى البيهقي في «شعب الإيمان»، عن عبد الله بن المبارك رحمته الله: «أنه كان إذا ختم القرآن أكثر دعاءه للمؤمنين والمؤمنات»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «فالأمر الذي كان معروفاً بين المسلمين في القرون المفضلة، أنهم كانوا يعبدون الله بأنواع العبادات المشروعة، فرضها ونفلها من الصلاة والصيام، والقراءة والذكر، وغير ذلك، وكانوا يدعون للمؤمنين والمؤمنات، كما أمر الله بذلك لأحيائهم وأمواتهم في صلاة الجنائز، وعند زيارة القبور، وغير ذلك. وروى عن طائفة من السلف: عند كل ختم دعوة مستجابة، فإذا دعا الرجل عقيب الختم لنفسه ولوالديه ولمشايعه وغيرهم من المؤمنين والمؤمنات، كان هذا من جنس المشروع، وكذلك دعاؤه لهم في قيام الليل وغير ذلك من مواطن الإجابة»^(٢).

ثم إن دعوة المسلم لأخيه أو إخوانه المسلمين بظهر الغيب مستجابة، بل إن الله جلّ وعلا وكّل ملكاً عند رأس الداعي، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك: (آمين، ولك بمثله).

روى مسلم في «صحيحه»، عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل)^(٣)، وفي رواية أخرى في «صحيح مسلم»، عن أبي الدرداء: أن رسول الله ﷺ قال: (دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكّل به: آمين، ولك بمثل)^(٤).

قال النووي رحمته الله في شرحه لهذا الحديث: «وفي هذا فضل الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، ولو دعا لجماعة من المسلمين، حصلت هذه الفضيلة، ولو دعا لجملة المسلمين، فالظاهر حصولها أيضاً، وكان بعض السلف

(١) «شعب الإيمان» (٢/٤١١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤/٣٢٢).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٣٤١).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٣٤١).

إذا أراد أن يدعُوَ لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تُستجاب ويحصلُ له مثلها»^(١).

❦ إنَّ جميعَ ما تقدَّم فيه أبلغُ دلالةٍ على أهميَّةِ الدعاءِ للمسلمينَ بالمغفرةِ والرحمةِ ونحو ذلك، فحريٌّ بكلِّ مسلمٍ أن يُكثرَ مِنَ الدعاءِ لإخوانه؛ لينالَ تلكَ الأجورَ الكريمةَ، والفضائلَ العظيمةَ، ومنَ لطيفِ ما يُستأنسُ به في هذا المقام: ما رواه أبو نُعيمٍ في «حِلْيَةِ الأولياء»، عن أحمد بن الضَّحَّاكِ الخَشَّابِ، قال: «رَأَيْتُ فيما يَرَى النَّائِمُ شُرَيْحَ بنَ يُونُسَ، فقلتُ: ما فَعَلَ بِكَ رَبُّكَ يا أبا الحارث؟ قال: غَفَرَ لي، وَمَعَ ذلكَ جَعَلَ قَضَرِي إلى جَنْبِ قَضَرِ مُحَمَّد بنِ بَشِيرِ بنِ عَطَاءِ الكِنْدِيِّ، فقلتُ: يا أبا الحارث، أنتَ عندنا أكبرُ مِنْ مُحَمَّد بنِ بَشِيرٍ، فقال: لا تَقُلْ ذاكَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ لِمُحَمَّد بنِ بَشِيرٍ حَظًّا في عَمَلٍ كُلِّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ؛ لأنَّه كان إذا دعا، قال: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي وللمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ، والمُسلمِينَ والمُسلمَاتِ»^(٢).

فنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يَغْفِرَ لنا وَلِوَالِدِينَا وَلِلْمُسلمِينَ والمُسلمَاتِ، والمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ، الأحياءِ مِنْهُمْ والأمواتِ.



(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٤٩/١٧).

(٢) «حِلْيَةُ الأولياء» (١٠/١١٣).

أَمَّا إِذَا أُفْرِدَتِ التَّوْبَةُ بِالذِّكْرِ أَوْ أُفْرِدَ الْإِسْتِغْفَارُ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَتَنَاوَلُ مَعْنَى الْآخَرِ.

وَالْإِسْتِغْفَارُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَمَكَانَةٌ عَالِيَةٌ؛ فَهُوَ - كَمَا بَيَّنَّ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ - «يُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنَ الْفِعْلِ الْمَكْرُوهِ إِلَى الْفِعْلِ الْمَحْبُوبِ، وَمِنْ الْعَمَلِ النَّاْقِصِ إِلَى الْعَمَلِ التَّامِّ، وَيَرْفَعُ الْعَبْدَ مِنَ الْمَقَامِ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى مِنْهُ وَالْأَكْمَلَ؛ فَإِنَّ الْعَابِدَ لِلَّهِ، وَالْعَارِفَ بِاللَّهِ، فِي كُلِّ يَوْمٍ، بَلْ فِي كُلِّ سَاعَةٍ، بَلْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ: يَزْدَادُ عِلْمًا بِاللَّهِ، وَبَصِيرَةً فِي دِينِهِ وَعِبُودِيَّتِهِ، بَحِثٌ يَجِدُ ذَلِكَ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، وَنَوْمِهِ وَيَقَظَّتِهِ، وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَيَرَى تَقْصِيرَهُ فِي حُضُورِ قَلْبِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ وَإِعْطَائِهَا حَقَّهَا، فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، بَلْ هُوَ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ دَائِمًا فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَحْوَالِ، فِي الْغَوَائِبِ وَالْمَشَاهِدِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَجَلْبِ الْخَيْرَاتِ، وَدَفْعِ الْمَضَرَّاتِ، وَطَلَبِ الزِّيَادَةِ فِي الْقُوَّةِ فِي الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، الْيَقِينِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ»^(١).

وَمِمَّا يُبَيِّنُ عِظَمَ شَأْنِ الْإِسْتِغْفَارِ، وَرَفِيعَ مَكَانَتِهِ: أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَأْتِي فِي النُّصُوصِ مَقْرُونًا مَعَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْكَلِمَاتِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجْلُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [مُحَمَّد: ١٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [يُونُس: ١٠١]، وَإِنْ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ [هُود: ١٠٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فَصَلَتْ: ٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفِقُونَ عَبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَنْفِقُونَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هُود: ٥٠ - ٥٢]، وَكَقَوْلِهِ ﷺ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)^(٢)، وَكَقَوْلِهِ ﷺ عَقِبَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْوُضُوءِ: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/٦٩٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٧٩) وهو مخرج بهذا اللفظ أيضًا في «سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٧).

ولهذا حرِّيَّ بالمسلم أن يكون مُصَلِّيًا على إخوانه المسلمين، محبًّا الخيرَ لهم، مبتعدًا عن لعنهم وسبِّهم والوقِعةَ فيهم؛ إذ ليس ذلك من شأن المسلم، ولا من خُلُقِهِ.

روى الحاكم، عن عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (لَا يَتَّبِعِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَعَانًا) ^(١).

وروى الإمام أحمد، والترمذي، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ) ^(٢).

وثبت في صحيحي البخاري ومسلم، عن النبي ﷺ، أنه قال: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ) ^(٣)، والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرة.

وهذه أقلُّ أحوالِ المسلم، إن لم يكن داعيًا لإخوانه المسلمين، باذلاً الخيرَ لهم، ساعيًا في حاجَتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، فلا أقلَّ من أن يكونَ كافيًا عن أذيتِهِمْ وإيصالِ الشرِّ لهم.

وروى البخاري ومسلم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «(عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ)، قالوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قال: (فَيَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ)، قالوا: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قال: (فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ)، قالوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قال: (فَلْيَأْمُرْ بِالْخَيْرِ، أَوْ قَالَ: بِالْمَعْرُوفِ)، قالوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قال: (فَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ)» ^(٤).

(١) «المستدرک» (٤٧/١)، وانظر: «جامع الترمذي» رقم (٢٠١٩)، ورواه مسلم رقم (٢٥٩٧) بلفظ: (لَا يَتَّبِعِي لِصِدِّيقِي أَنْ يَكُونَ لَعَانًا).

(٢) «المسند» (٤٠٤/١)، و«جامع الترمذي» رقم (١٩٧٧)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٢٠).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (١٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٤١).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (١٤٤٥)، و«صحيح مسلم» رقم (١٠٠٨).

ففي هذا دليلٌ على أنه لا أقلَّ مِنَ الإمساكِ عن الشرِّ إن لم يحصل من المسلم فعلُ الخيرِ لإخوانه المسلمين، وتقديمُ المساعدة لهم.

﴿وَلْيُعْلَمَنَّ أَنَّ لَعْنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَرَاتِبٍ، أخطَرُهَا وشرُّهَا: لَعْنُ خِيَارِهِمْ وَمُقَدَّمِيهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ؛ كَالصَّحَابَةِ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالْإِيمَانِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ لَا يَنْشَأُ إِلَّا عِنْدَ ذَوِي الْقُلُوبِ الْمَرِيضَةِ، وَالْأَهْوَاءِ الْبَغِيضَةِ، مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبَدْعِ.﴾

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، عن النبي ﷺ، أنه قال: (لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ^(١)).

وروى ابن ماجه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه كان يقول: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ أَحَدِكُمْ عُمُرَهُ»^(٢)، فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ لَخِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ، أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

وهكذا الشأنُ أيضًا فيمن يتناول بالطعن علماء الأمة وخيارهم من ذوي العلم والفقه والنصح للمسلمين؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وَمِنْ الْكَلَامِ السَّائِرِ: لِحُومِ الْعُلَمَاءِ مَسْمُومَةٌ»^(٣).

وهكذا الشأنُ في لعن أموات المسلمين الذين أفضوا إلى ما قدموا؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «الْكَلَامُ فِي لَعْنَةِ الْأَمْوَاتِ أَعْظَمُ مِنْ لَعْنَةِ الْحَيِّ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا)^(٤)، حَتَّى إِنَّهُ قَالَ: (لَا تَسُبُّوا أَمْوَاتَنَا؛ فَتَوَدُّوا أَحْيَاءَنَا)^(٥)،

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٦٧٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٤٠).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (١٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (١٣٣).

(٣) «إلصارم المسلول» (ص ١٤٣). (٤) «صحيح البخاري» رقم (١٣٩٣).

(٥) رواه أحمد في «المسند» (٢٥٢/٤)، والترمذي رقم (١٩٨٢)، بلفظ مقارب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٣١٢).

لَمَّا كَانَ قَوْمٌ يَسُبُّونَ أَبَا جَهْلٍ وَنَحْوَهُ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ أَسْلَمَ أَقَارِبُهُمْ، فَإِذَا سَبُّوا ذَلِكَ، آذَوْا قَرَابَتَهُ»^(١).

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِلَعْنِ الْعَصَاةِ وَالْفُسَّاقِ وَذَوِي الْفُجُورِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ، فَإِنَّ السُّنَّةَ لَمْ تَأْتِ بِالْأَمْرِ بِلَعْنِ الْفَاسِقِ الْمَعِينِ، وَإِنَّمَا جَاءَتِ السُّنَّةُ بِلَعْنَةِ الْأَنْوَاعِ؛ كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ؛ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ، فَتَقُطَّعُ يَدُهُ)^(٢)، وَقَوْلِهِ: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا)^(٣)، وَقَوْلِهِ: (لَعَنَ اللَّهُ أَكِلَ الرَّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيهِ)^(٤)، وَقَوْلِهِ: (لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ)^(٥)، وَقَوْلِهِ: (لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَشَارِبَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا)^(٦).

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي لَعْنَةِ الْفَاسِقِ الْمَعِينِ، فَقِيلَ: إِنَّهُ جَائِزٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ، وَالْمَعْرُوفُ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: كِرَاهَةُ لَعْنِ الْمَعِينِ، وَأَنْ يَقُولَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: «أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُدْعَى حِمَارًا، وَكَانَ يَشْرِبُ الْخَمْرَ، وَكَانَ يُؤْتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيَضْرِبُهُ، فَأَتَى بِهِ إِلَيْهِ مَرَّةً، فَقَالَ رَجُلٌ: لَعْنَةُ اللَّهِ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا تَلْعَنُهُ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ)^(٧).

(١) «منهاج السنة» (٤/ ٥٧٢ - ٥٧٣).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٧٨٣)، ومسلم رقم (١٦٨٧).

(٣) رواه البخاري رقم (١٨٧٠)، ومسلم رقم (١٣٧٠).

(٤) رواه مسلم رقم (١٥٩٨).

(٥) رواه أحمد في «المسند» (٨٣/١)، وأبو داود رقم (٢٠٧٦)، والترمذي رقم (١١٢٠)، والنسائي رقم (٣٤١٦)، وابن ماجه رقم (١٩٣٦)، وصححه الألباني في «الإرواء» رقم (١٨٩٧).

(٦) رواه أحمد في «المسند» (٣١٦/١)، (٧١/٢)، وأبو داود رقم (٣٦٧٣)، وابن ماجه رقم (٣٣٨٠)، وصححه الألباني في «الإرواء» رقم (٢٣٨٥).

(٧) انظر: «صحيح البخاري» رقم (٦٧٨٠).

فقد نهى النبي ﷺ عن لعنة هذا المعين الذي كان يُكثِرُ شربَ الخمر، مُعلِّلاً ذلك بأنه يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ، مع أَنَّهُ ﷺ لَعَنَ شاربَ الخمرِ مطلقاً؛ فدلَّ ذلك على أَنَّهُ يجوزُ أن يُلْعَنَ المطلقُ، ولا يجوزُ أن يُلْعَنَ المعينُ الذي يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ^(١).

وعلى كلِّ، فاللعنُ وعيدٌ، والوعيدُ لا يستلزمُ ثبوتهُ في حقِّ المعينِ إلَّا إذا وُجِدَتْ شروطُهُ، وانتَفَتْ موانعُهُ، واللهُ أعلم.



(١) «منهاج السُّنَّة» (٤/ ٥٦٧ - ٥٧٤).

الدُّعَاءُ لِلْوَالِدَيْنِ وَلِذَوِي الْقُرْبَى

سَبَقَ أَنْ مَرَّ معنا بيانُ فضلِ الدعاءِ للمسلمينَ بالخيرِ والرحمةِ والمغفرة، وما يَتَرْتَّبُ على ذلكِ مِنْ أَجُورٍ عَظِيمَةٍ، وخيراتٍ عَمِيمَةٍ. وإذا كانَ الدعاءُ مَطْلُوبًا مِنَ الْمُسْلِمِ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ مَتَأَكَّدٌ وَمَطْلُوبٌ بِشَكْلِ أَخْصَصٍ لِقَرَابَةِ الْإِنْسَانِ؛ إِذِ الْأَقْرَبُونَ أَوْلَى بِالْمَعْرُوفِ، وَأَحَقُّ بِالْإِحْسَانِ، وَلَا سِيَّما الْوَالِدَانِ.

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «جاء رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله! مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: (أُمُّكَ)، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: (أُمُّكَ)، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: (أُمُّكَ)، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: (ثُمَّ أَبُوكَ)، وزاد مسلم: (ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ) ^(١).

وروى الترمذي، والبخاري في «الأدب المفرد»، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، «قلتُ: يا رسولَ الله، مَنْ أَبْرُ؟ قال: (أُمُّكَ)، قلتُ: مَنْ أَبْرُ؟ قال: (أُمُّكَ)، قلتُ: مَنْ أَبْرُ؟ قال: (أُمُّكَ)، قلتُ: مَنْ أَبْرُ؟ قال: (أَبَاكَ)، ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ» ^(٢).

وَمِنْ أَعْظَمِ الْبِرِّ: الدُّعَاءُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْيَ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء]، فَأَمَرَ جَلَّ وَعَلَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا بِجَمِيعِ وَجْهِهِ الْإِحْسَانِ الْقَوْلِيِّ وَالْفِعْلِيِّ؛ لِأَنَّهُمَا سَبَبُ وَجُودِ الْعَبْدِ، وَلَهُمَا مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْحَقُوقِ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٩٧١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٤٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/٥)، وأبو داود رقم (٥١٣٩)، و«جامع الترمذي» رقم (١٨٩٧)، و«الأدب المفرد» رقم (٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٣).

والإحسانِ والقُربِ ما يقتضي تأكُّدَ الحقِّ، ووجوبَ التقديمِ في البرِّ، وخصَّ بالذكرِ مِنْ ذلك الدُّعَاءُ لهما بالرحمةِ أحياءَ وأمواتًا، جزاءً على إحسانهما.

والدُّعَاءُ للوالدينِ بالرحمةِ خاصٌّ فيما إذا كانا مُسْلِمَيْنِ، أمَّا المشركُ، فلا يُدْعَى له بالرحمةِ والمغفرةِ، قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله عَلَيْكَ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾: «فَنَسَخَتْهَا^(١) الآيةُ التي في براءة: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]»^(٢).

وروى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أُزَوِّرَ قَبْرَهَا، فَأَذِنَ لِي)^(٣).

لكن لا بأس، بل يحسنُ، أن يدعُو لهما بالهدايةِ والتوفيقِ لِقَبُولِ الحقِّ، كما في «الصحيح»، أن النبي ﷺ قال: (اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِمْ)^(٤)، وروى مسلمٌ في «صحيحه»، عن يزيد بن عبد الرحمن، قال: حدَّثني أبو هريرة رضي الله عنه، قال: «كنتُ أدعو أُمِّي إلى الإسلامِ، وهي مُشْرِكَةٌ، فدعوْتُها يومًا، فأسمعتني في رسولِ الله ﷺ ما أكرهه، فأتيْتُ رسولَ الله ﷺ وأنا أبكي، قلتُ: يا رسولَ الله، إني كنتُ أدعو أُمِّي إلى الإسلامِ، فتأبى عليَّ، فدعوْتُها اليومَ، فأسمعتني فيك ما أكرهه، فادْعُ الله أن يهدي أُمَّ أبي هريرةَ، فقال رسولُ الله ﷺ: (اللَّهُمَّ، اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ)، فخرَجْتُ مستبشرةً بدُّعَاءِ نبيِّ الله، فلمَّا جِئْتُ، فصِرْتُ إلى البابِ، فإذا هو مُجَافٍ، فسَمِعْتُ أُمِّي خَشَفَ قَدَمَيَّ، فقالت: مكانك يا أبا هُرَيْرَةَ، وسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ المَاءِ، قال: فاغْتَسَلْتُ،

(١) أي: قَدَّتها.

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٢٣)، و«تفسير الطبري» (٦٣/٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٣).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٦٧١).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٣٨٩).

وَلَبِستَ دِرْعَهَا، وَعَجَلْتَ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَشِّرْ، قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحِبَّنِي أَنَا وَأُمَّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحِبَّهُمْ إِلَيْنَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ، حَبِّبْ عَبْدَكَ هَذَا - يَعْنِي: أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ)، فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي^(١).

فهذه القِصَّةُ العظيمةُ الرائعةُ دالَّةٌ على جواز الدعاء للوالدين إذا كانا مُشْرِكَيْنِ بالهداية، وأهميَّة ذلك، وعِظَم فائدته، وينبغي له أن يَجْمَعَ لهما بين الدعاء والدَّعْوَةِ، كما فعلَ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أُمِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقد كان يُكثِرُ من دعوتها إلى الإسلام، والدعاء لها بالهداية والتوفيق، ثمَّ إِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُكثِرُ من الدعاء لها - بعد هدايتها - بالرحمة والمغفرة.

روى البخاريُّ في «الأدب المفرد»، عن أبي مُرَّةٍ مولى أُمِّ هانئ بنتِ أبي طالب: «أَنَّهُ رَكِبَ مع أَبِي هُرَيْرَةَ إِلَى أَرْضِهِ بِالْعَقِيقِ، فَإِذَا دَخَلَ أَرْضَهُ، صَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ يَا أُمَّتَاهُ، تَقُولُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، يَقُولُ: رَحِمَكَ اللَّهُ كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا، فَتَقُولُ: يَا بُنَيَّ، وَأَنْتَ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا وَرَضِي عَنْكَ كَمَا بَرَرْتَنِي كَبِيرًا»^(٢).

وَرَوَى أَيْضًا عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَيْلَةً، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَلِأُمِّي، وَلِمَنْ اسْتَغْفَرَ لهما، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: فَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ لهما حَتَّى نَدْخُلَ فِي دَعْوَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ»^(٣).

ودعاء الوَلَدِ لوالديه يَنْفَعُهُما بعد موتهما، حيثُ ينقطع عملُهما في هذه الحياة؛ فقد ثَبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٤٩١).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (١٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (١١).

(٣) «الأدب المفرد» رقم (٣٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٢٨).

قال: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) ^(١).

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «تُرْفَعُ لِلْمَيِّتِ بعد موتهِ درجتهُ، فيقول: أيُّ ربٍّ، أيُّ شيءٍ هذه؟ فيقال: وَلَدُكَ اسْتَغْفَرَ لَكَ» ^(٢).

وإذا كان الدعاء للوالدين بالرحمة والمغفرة برًّا وإحسانًا وحقًّا ينبغي على الابن أن يعتني به، فإنَّ مِنْ أعظمِ الإثمِ ومنْ كبائرِ الذنوبِ أَنْ يَسُبَّ - والعيادُ بالله - الولدُ والدَيْه، سواءً ابتداءً - وهو أشدُّ - أو تسبُّبًا؛ ففي «الصحيحين»، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: «قال النبي ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ)، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والدَيْه؟ قال: (يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ؛ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ؛ فَيَسُبُّ أُمَّهُ)» ^(٣).

وفي «الأدب المفرد»، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: «مِنَ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يَسْتَسِبَّ الرَّجُلُ لَوَالِدَيْهِ» ^(٤).

وثبت في «صحيح مسلم»، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ) ^(٥).

ومثل هذا لا يكونُ إِلَّا مِنْ ذَوِي النُّفُوسِ الدُّنْيَا، والأخلاقِ الرديئة. نسألُ الله الحِفْظَ والعافية، ونسأله سبحانه أَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ؛ إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.



(١) «صحيح مسلم» رقم (١٦٣١).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٣٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٢٧).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٩٧٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٠).

(٤) «الأدب المفرد» رقم (٢٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٢٢).

(٥) «صحيح مسلم» رقم (١٩٧٨).

الدُّعَاءُ لِوَلَاةِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ

إِنَّ الدعاءَ بالخيرِ والمغفرةَ لعمومِ المسلمينَ له شأنٌ عظيمٌ، ويترتبُ عليه أجورٌ كثيرة، وخيراتٌ متنوعةٌ في الدنيا والآخرة، وهو من مقتضيات أُخُوَّةِ الإيمانِ التي تَجْمَعُهُمْ وتَرْبِطُهُمْ، وقد سبقَ ذكرُ بعضِ الأدلَّةِ على ذلك. أمَّا الحديثُ هنا، فسيكونُ خاصًّا بالدعاءِ لِوَلَاةِ أَمْرِ المسلمينَ الذينَ بهم - بتوفيقِ مِنَ الله - تنتظمُ مصالحُهم، وتجتمعُ كلمتهم، وتؤمنُ سُبُلُهم، وتقامُ صلاتُهم، ويُجَاهَدُ عَدُوُّهم، وبدونهم تتعطلُ الأحكام، وتعمُ الفوضى، ويختلُّ الأمنُ، ويكثرُ السُّلْبُ والنهبُ وأنواعُ الاعتداء، وينتلُمُ صرْحُ الإسلام، ولا يَأْمَنُ الناسُ على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «يجبُ أن يُعْرَفَ أنَّ ولايةَ أَمْرِ الناسِ مِنْ أعظمِ واجباتِ الدينِ، بل لا قيامَ للدينِ إلَّا بها؛ فإنَّ بني آدمَ لا تَتِمُّ مصلحتُهم إلَّا بالاجتماعِ لحاجةِ بعضهم إلى بعض، ولا بدَّ لهم عندَ الاجتماعِ مِنْ رأسٍ... - إلى أن قال -: ولأنَّ اللهَ تعالى أوجَبَ الأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكرِ، ولا يَتِمُّ ذلكَ إلَّا بِقُوَّةٍ وإمارةٍ، وكذلك سائرُ ما أوجبهُ مِنَ الجهادِ والعدلِ، وإقامةِ الحجِّ والجُمُعِ والأعيادِ، ونَصْرِ المظلومِ، وإقامةِ الحدودِ: لا تَتِمُّ إلَّا بالقُوَّةِ والإمارةِ... - إلى أن قال -: فالواجبُ اتِّخَاذُ الإمارةِ دينًا وقُرْبَةً يُتَقَرَّبُ بها إلى الله؛ فإنَّ التقَرُّبَ إليه فيها بطاعتهِ وطاعةِ رسولهِ مِنْ أَفْضَلِ القُرْبَاتِ»^(١).

ومن هنا، فإنَّه يَتَأَكَّدُ على كُلِّ مَسْلَمٍ أن يكونَ ناصحًا لِمَنْ وَلِيَ أمره،

(١) «السياسة الشرعية» (ص ١٦١ - ١٦٢).

مطيعاً له بالمعروف، غير مُبْطِنٍ لشرٍّ أو غشٍّ أو خديعة؛ لمنافاة ذلك لهدى الإسلام، وما دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن تميم بن أوسٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «(الَّذِينَ النَّصِيحَةُ)، قالوا: لِمَنْ يا رسول الله؟ قال: (لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)»^(١).

وثبت في «صحيح مسلم» أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ)^(٢).

وفي السُّنَنِ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وزيد بن ثابت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَنَّا حَدِيثًا، فَبَلَّغَهُ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ غَيْرَ فِقْهِهِ، ثَلَاثٌ لَا يُغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وِلَاةِ الْأُمُورِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ)^(٣).

وما مِنْ رَيْبٍ أَنَّ مِنَ النِّصَحِ لَوَلَاةِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ: الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالتَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، وَالصَّلَاحِ وَالْمَعَاوَةِ، فَهُمْ أَوْلَى مَنْ يُدْعَى لَهُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ صَلَاحَهُمْ صَلَاحٌ لِلْأُمَّةِ، وَسَدَادُهُمْ نَفْعُهُ عَائِدٌ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَالدُّعَاءُ لَهُمْ مِنْ أَهَمِّ الدُّعَاءِ وَأَكْثَرِهِ عَائِدَةً وَنَفْعًا؛ وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رحمته الله: «لَوْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، لَمْ أَجْعَلْهَا إِلَّا فِي إِمَامٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا صَلَحَ الْإِمَامُ،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٥٥).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١٧١٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٤٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٤٥٦٠)، وليس في مسلم الخصلة الثالثة الأمور بها.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢٢٥/٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٦٥٨)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٧٦٦).

أَمِنْ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ»^(١).

وهذا مِنْ تَمَامِ فَقْهِهِ وَحُسْنِ فَهْمِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْلَقًا عَلَى كَلِمَتِهِ هَذِهِ: «يَا مُعَلِّمَ الْخَيْرِ، مَنْ يَجْتَرِي عَلَى هَذَا غَيْرُكَ؟!».

يَقْصِدُ أَنْ الْفَضِيلَ لَمْ يُرَدْ أَنْ يَخُصَّ نَفْسَهُ بِالِدُعْوَةِ الْمُسْتَجَابَةِ لَوْ كَانَتْ لَهُ، بَلْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهَا لِمَنْ يَعُمُّ نَفْعُهُ إِذَا صَلَحَ، وَهُوَ السُّلْطَانُ.

وَقَدْ نَقَلَ أَيْضًا عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَحْوُ كَلِمَةِ الْفَضِيلِ الْمَتَقَدِّمَةِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمُرُوزِيُّ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي: أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ - وَذَكَرَ الْمَتَوَكَّلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: إِنِّي لِأَدْعُو لَهُ بِالصَّلَاحِ وَالْعَافِيَةِ»^(٢).

وَلِهَذَا تَكَاثَرَتِ النُّقُولُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي تَقْرِيرِ هَذَا فِي ضَمَنِ مَا كَتَبُوهُ فِي بَيَانِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ، وَالْمَعْتَقَدِ السَّلِيمِ، الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ مُسْلِمٍ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْإِمَامِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أُمَمَيْنَا وَوَلَاةَ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرِجَالِهِ فَرِيضَةً، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمَعَافَاةِ»^(٣).

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو عَثْمَانَ الصَّابُونِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَيَرَى أَصْحَابُ الْحَدِيثِ الْجُمُعَةَ وَالْعِيدَيْنِ وَغَيْرَهُمَا مِنْ الصَّلَوَاتِ خَلْفَ كُلِّ إِمَامٍ، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَيَرَوْنَ جِهَادَ الْكُفَرَةِ مَعَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا جَوْرَةً فَجَرَةً، وَيَرَوْنَ الدُّعَاءَ لَهُمْ بِالْإِصْلَاحِ وَالتَّوْفِيقِ وَالصَّلَاحِ، وَبَسْطِ الْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ»^(٤).

وَقَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَيَرَوْنَ - أَيُّ: أَهْلُ السُّنَّةِ - الصَّلَاةَ، وَالْجُمُعَةَ وَغَيْرَهَا خَلْفَ كُلِّ إِمَامٍ مُسْلِمٍ، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا... وَيَرَوْنَ الدُّعَاءَ لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْعَطْفِ إِلَى الْعَدْلِ»^(٥). وَالنُّقُولُ عَنِ السَّلَفِ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

(١) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٩١/٨)، وَاللَّالِكَاثِيُّ فِي «شَرْحِ أَصُولِ الْإِعْتِقَادِ» (١٩٧/١).

(٢) رَوَاهُ الْخَلَالُ فِي «السُّنَّةِ» رَقْمَ (١٦). (٣) «شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ص ٤٢٨).

(٤) «عَقِيدَةُ السَّلَفِ» (ص ١٠٦). (٥) «إِعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ» (ص ٥٥ - ٥٦).

❏ ويجبُ على المسلم أن يحذَرَ أشدَّ الحَذَرِ مِنْ سَبِّ الْوَلَاةِ والوقِيعَةِ فيهم، وَعَدَمِ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِالْخَيْرِ، والدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ بِالشَّرِّ؛ روى ابنُ أبي عاصمٍ في «السُّنَّةِ» - وصَحَّحه الألباني - عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «نهانا كباراً ونا من أصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، قالوا: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَ كُمْ، وَلَا تَغْشَوْهُمْ، وَلَا تُبْغِضُوهُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاصْبِرُوا؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ)»^(١).

وقال ابن عبد البر رحمته الله في كتابه «التمهيد»: «إِنْ لَمْ يَكُنْ يَتِمَكَّنُ نُضْحُ السُّلْطَانِ، فَالصَّبْرُ والدُّعَاءُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا - أَي: الصَّحَابَةُ - يَنْهَوْنَ عَنْ سَبِّ الْأُمَرَاءِ»، ثُمَّ ساق بسنده حديث أنس المتقدم^(٢).

وكان السلفُ رحمهم الله يَعُدُّونَ الاشتغالَ بسَبِّ الْوَلَاةِ والدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَةِ، وفي ذلك يقول الإمام الحسن بن علي البربَهاري رحمته الله: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو عَلَى السُّلْطَانِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى، وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو لِلسُّلْطَانِ بِالصَّلَاحِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»^(٣).

وقد سُئِلَ سَمَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ رحمته الله عَمَّنْ يَمْتَنِعُ عَنِ الدُّعَاءِ لَوَلَاةِ الْأَمْرِ، فَقَالَ: «هَذَا مِنْ جَهْلِهِ وَعَدَمِ بَصِيرَتِهِ، الدُّعَاءُ لَوْلِي الْأَمْرِ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرْبَاتِ، وَأَفْضَلِ الطَّاعَاتِ، وَمِنْ النَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِعِبَادِهِ...»، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَجَعَلَ مَنْزِلَتَهُ فِي الْجَنَّةِ الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى، كَمَا نَسَأَلُهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يُصَلِّحَ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، وَأَنْ يُوقِفَنَا لِكُلِّ خَيْرٍ يُحِبُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يُصَلِّحَ وُلَاةَ أَمْرِنَا، وَأَنْ يَهْدِيَنَا وَإِيَّاهُمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا.



(١) «السُّنَّةُ» (ص ٤٨٨).

(٢) «التمهيد» (٢١/٢٨٧).

(٣) «شرح السُّنَّة» (ص ١١٣).

أَقْسَامُ الدُّعَاءِ بِاعْتِبَارِ الْمَدْعُوِّ لَهُ

لا يزال الحديث موصولاً في بيان فضل دعاء المسلم لإخوانه المسلمين، الذي هو من مُقْتَضِيَّاتِ أُخُوَّةِ الإسلام التي تجمعهم، ورابطة الدين التي تربطهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وما من ريب أن من مُتَطَلِّباتِ هذه الأُخُوَّةِ ومقتضياتها الدعاء من كل فرد من أفراد المسلمين لعموم المسلمين بالخير والعافية، والمغفرة والرحمة، ونحو ذلك؛ إذ المسلم يُحِبُّ لإخوانه ما يُحِبُّ لنفسه من الخير؛ كما قال ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)^(١)، وقد سبق أن مر معنا جملة من الأدلة الدالة على فضل الدعاء للغير، وعَظُمَ ما يترتب على ذلك من الأجر والثواب والخير.

ومما يحسن أن يُعْلَمَ في هذا المقام: أَنَّ كُلَّ دعاءٍ يدعو به المسلم لا يخلو من أقسام أربعة، وذلك باعتبار المدعو له:

أحدها: أن يدعو المسلم لنفسه بما يشاء من خيرَي الدنيا والآخرة؛ كأن يقول: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّادَاتِ»، أو يقول: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»، أو يقول: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي»، ونحو ذلك من الأدعية، فيأتي بها بلفظ الإفراد، حتى الإمام في الصلاة في الأدعية التي يدعو بها لنفسه في السجود أو في الجلسة بين السجدين، أو في آخر الصلاة قبل السلام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والمحفوظ في أدعيته كلها بلفظ الإفراد؛ كقوله:

(١) رواه البخاري رقم (١٣)، ومسلم رقم (٤٥).

(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي)^(١)، وسائر الأدعية المحفوظة عنه، ومنها قوله في دعاء الاستفتاح: (اللَّهُمَّ، اغْسِلْنِي مِنَ خَطَايَايَ بِالتَّلَجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ، اللَّهُمَّ، بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...)، الحديث^(٢)، وروى الإمام أحمد، وأهل السنن، من حديث ثوبان، عن النبي ﷺ: (لَا يَوْمُ عَبْدٌ قَوْمًا، فَيُخْصُ نَفْسَهُ بِدَعْوَةٍ دُونَهُمْ، فَإِنْ فَعَلَ فَقَدْ خَانَهُمْ)^(٣)... ثم قال ابن القيم رحمه الله: «سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذا الحديث عندي في الدعاء الذي يدعو به الإمام لِنَفْسِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ، ويشتركون فيه؛ كدعاء القنوت ونحوه»^(٤).

ثم إنه إذا كان الدعاء الذي دعا به في صلاته من أدعية القرآن الكريم، فإنه يأتي به على الصيغة التي وردت في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فهذا دعاء عظيم يدعو به المسلم في صلاته، بل في كل ركعة من ركعات الصلاة. ووجه الإتيان بصيغة ضمير الجمع في هذا الدعاء - كما بين ذلك ابن القيم رحمه الله - ليكون مطابقاً لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، «والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم؛ فإنَّ المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانتِهِ وهدايته، فأتى به بصيغة ضمير الجمع؛ أي: نحن معاشر عبيدك مُقِرُّونَ لك بالعبودية»^(٥).

وأما القسم الثاني من أقسام الدعاء باعتبار المدعو له، فهو: أن يدعو المسلم لغيره بالهداية أو المغفرة أو نحو ذلك؛ كقوله ﷺ في دعائه

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٩٦).

(٢) رواه البخاري رقم (٧٤٤)، ومسلم رقم (٥٩٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢٨٠/٥)، وأبو داود رقم (٩٠)، والترمذي رقم (٣٥٧)، وابن ماجه رقم (٩٢٣)، وذكره الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» رقم (١٥).

(٤) «زاد المعاد» لابن القيم (١/٢٦٣ - ٢٦٤).

(٥) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/٣٩).

لأنس بن مالك رضي الله عنه: (اللَّهُمَّ، أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا رَزَقْتَهُ)^(١)، وكقوله عليه السلام في دعائه لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: (اللَّهُمَّ، اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًا، وَاهْدِهِ وَاهْدِ بِهِ)^(٢)، وهذه تُعَدُّ مَنْقَبَةً عظيمةً لهذا الصحابيِّ الجليل، الذي هو خالُّ المؤمنين، وكاتبُ وحي ربِّ العالمين، وأحدُ خلفاء المسلمين، وأولُ ملوكهم، وخيرُ ملوكهم رضي الله عنه وأرضاه. ومن ذلك أيضًا: قولُ النبي صلى الله عليه وآله في دعائه له: (اللَّهُمَّ، عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ، وَقِهِ الْعَذَابَ)^(٣).

القسم الثالث: أن يدعُو لنفسه ولغيره، فيبدأ بالدعاء لنفسه أولاً، ثم يدعو لغيره؛ لحديث أبي بن كعب رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا ذَكَرَ أَحَدًا فدعا له، بدأ بنفسه»؛ رواه الترمذي^(٤).

وفي القرآن الكريم من هذا النوع أمثلةٌ عديدة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا يقوله الداعي عندما يريد الدعاء لنفسه ولغيره، وأما إن أراد الدعاء لغيره فقط، فلا يلزمه في هذه الحالة أن يدعُو لنفسه؛ كما وردَ مثلُ ذلك في كثيرٍ من أدعية النبي صلى الله عليه وآله كما تقدّم معنا في دعائه عليه السلام لأنس، ودعائه لمعاوية رضي الله عنه.

القسم الرابع: أن يدعُو لنفسه ولغيره بضمير الجمع؛ كما في دعاء القنوت، ودعاء الاستسقاء، ودعاء الخطيب يوم الجمعة.

- (١) رواه البخاري رقم (٦٣٧٨)، ومسلم رقم (٢٤٨٠).
- (٢) رواه أحمد في «المسند» (٢١٦/٤)، والترمذي رقم (٣٨٤٢)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢٩٢/٧)، واللفظ له، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٦٩).
- (٣) رواه أحمد في «المسند» (١٢٧/٤).
- (٤) رواه مسلم رقم (٢٣٨٠)، وأبو داود رقم (٣٩٨٤)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٨٥)، واللفظ للترمذي.

ومن ذلك: ما رواه الترمذي، وغيره، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهِؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: (اللَّهُمَّ، اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَمَعَانِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تَهْوُو بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ، مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا)»^(١)، فهذه أقسام أربعة للدعاء باعتبار المدعو له.

❏ وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدْعُوَ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَلَا سِيَّما قَوْلَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا؛ فَإِنَّهَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ فِي الدُّعَاءِ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «الْمُسْنَدِ»، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ بِهِ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)^(٢)، وَفِي «الترمذي»، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ صَنَعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الشَّنَاءِ)^(٣)، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٢).

(٢) «المسند» (٢/٦٨، ٩٩)، و«سنن أبي داود» رقم (١٦٧٢)، و«سنن النسائي» رقم (٢٥٦٧)، و«الأدب المفرد» رقم (٢١٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٥٤).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٢٠٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٣٦٨).

خُطُورَةُ الدُّعَاءِ عَلَى النَّفْسِ أَوْ الْغَيْرِ

إِنَّ مِنَ الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعِيَهَا الْمُسْلِمُ فِي دُعَائِهِ أَنْ يَكُونَ مُتَبَصِّرًا بِمَا يَدْعُو بِهِ، وَيَطْلُبُهُ مِنْ رَبِّهِ ﷻ، غَيْرَ مُسْتَعَجِلٍ وَلَا مُتَسَرِّعٍ فِيمَا يَطْلُبُ وَيَسْأَلُ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَدَبَّرَ فِي أُمُورِهِ حَقَّ التَّدَبُّرِ؛ لِيَتَحَقَّقَ مَا هُوَ خَيْرٌ حَقِيقٌ بِالْدُّعَاءِ بِهِ، وَمَا هُوَ شَرٌّ جَدِيرٌ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عِنْدَ غَضَبِهِ وَتَضَجُّرِهِ وَحُصُولِ الْأُمُورِ الْمَزْعُوجَةِ لَهُ قَدْ يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ بِمَا لَا يَسْرُهُ تَحَقُّقُهُ وَحُصُولُهُ، وَهَذَا نَاشِئٌ عَنْ تَسْرُعِ الْإِنْسَانِ وَعَجَلَتِهِ وَعَدَمِ نَظَرِهِ فِي الْعَوَاقِبِ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]؛ أَي: يُسَارِعُ إِلَى طَلَبِ مَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ، مُتَعَاميًا عَنْ ضَرَرِهِ وَسُوءِ عَوَاقِبِهِ، وَإِنَّمَا يَحْمِلُ الْإِنْسَانُ عَلَى ذَلِكَ عَجَلَتَهُ وَقَلَقَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

وإِنَّ مِنْ أَبْلَغِ مَا يَكُونُ خَطَرًا وَأَشَدَّ مَا يَكُونُ ضَرَرًا فِي هَذَا الْمَقَامِ: الدُّعَاءُ عَلَى النَّفْسِ بِالْهَلَاكِ أَوْ الْعَذَابِ، أَوْ دُخُولِ النَّارِ، أَوْ الْحَرَمَانِ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ وَهَذَا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مَنْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي السَّفَهِ، وَالنِّهَايَةَ فِي الْغَيِّ، كَمَا حَكَى اللَّهُ ذَلِكَ عَنِ الْكُفَّارِ الْمُعْرِضِينَ عَنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، الْمَعَارِضِينَ لِدَعْوَتِهِمْ؛ كَقَوْلِهِمْ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَثْنِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وَقَوْلِهِمْ: ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَمَامِ جَهْلِهِمْ، وَعِظَمِ غَيِّهِمْ وَسَفَهِهِمْ، وَشِدَّةِ إِعْرَاضِهِمْ وَصُدُودِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]

يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْإِنْسَانِ الْقَائِلِ هَذِهِ الْمَقَالَةُ هُوَ الْكَافِرُ؛ أَي: يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ بِالشَّرِّ وَالْهَلَاكِ وَاسْتِعْجَالَ الْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ، كَمَا تَقَدَّمَ الْأَمْثَلَةُ عَلَى ذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْإِنْسَانِ هُنَا الْجِنْسُ؛ لَوُقُوعِ هَذَا الدُّعَاءِ مِنْ بَعْضِ أَفْرَادِهِ، وَهُوَ دُعَاءُ الرَّجُلِ عَلَى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ عِنْدَ الضَّجَرِ وَالْغَضَبِ بِمَا لَا يُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ فِيهِ ^(١).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: «يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ وَدُعَائِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ بِالشَّرِّ؛ أَي: بِالمَوْتِ أَوْ الْهَلَاكِ، أَوْ الدَّمَارِ أَوْ اللَّعْنَةِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَلَوْ اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، لَهَلَكَ بِدُعَائِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]...» ^(٢).

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْمَعْنَى آثَارٌ عَدِيدَةٌ عَنِ السَّلَفِ؛ مِنْهَا مَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «قَوْلُهُ: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مُجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]؛ يَعْنِي قَوْلَ الْإِنْسَانِ: اللَّهُمَّ، الْعَنَّهُ وَاغْضَبْ عَلَيْهِ. فَلَوْ يُعَجَّلُ لَهُ ذَلِكَ كَمَا يُعَجَّلُ لَهُ الْخَيْرُ، لَهَلَكَ».

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: «أَي: يَدْعُو عَلَى مَالِهِ، فَيَلْعَنُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَلَوْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ لَأَهْلَكَهُ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَلِكَ دُعَاءُ الْإِنْسَانِ بِالشَّرِّ عَلَى وَلَدِهِ وَعَلَى امْرَأَتِهِ، فَيَعَجَّلُ فَيَدْعُو عَلَيْهِ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُصِيبَهُ»؛ أَخْرَجَ هَذِهِ الْأَثَارَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» ^(٣).

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: «ذَلِكَ دُعَاءُ الْإِنْسَانِ بِالشَّرِّ عَلَى وَلَدِهِ وَعَلَى امْرَأَتِهِ، يَغْضَبُ أَحَدُهُمْ فَيَدْعُو عَلَيْهِ، فَيَسُبُّ نَفْسَهُ وَيَسُبُّ

(١) انظر: «فتح القدير» للشوكاني (٢١١/٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤٥/٥ - ٤٦). (٣) «جامع البيان» (٤٧/٩ - ٤٨).

زوجته وماله وولده، فإن أعطاه الله ذلك، شقَّ عليه، فيمنعه ذلك، ثم يدعو بالخير فيعطيه»^(١).

ومن رحمة الله بعباده: أنه لا يستجيب لهم في دعائهم بالشرِّ حال غضبهم وضجرهم كاستجابته لهم في دعائهم بالخير؛ رحمةً منه وإحساناً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

قال ابن كثير رحمته الله: «يُخْبِرُ تعالى عن حِلْمِهِ وَلُطْفِهِ بعبادِهِ أنه لا يستجيب لهم إذا دَعَوْا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضَجَرِهِمْ وَغَضَبِهِمْ، وأنه يعلمُ منهم عَدَمَ القصدِ إلى إرادة ذلك؛ فلهذا لا يستجيبُ لهم - والحالة هذه - لطفًا ورحمةً، كما يستجيبُ لهم إذا دَعَوْا لأنفسهم أو أموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنِّماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾؛ أي: لو استجاب لهم كلُّما دَعَوْهُ به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثارُ مِنْ ذلك»^(٢).

❏ فالواجب على المسلم: أن يحذَرَ تمامَ الحَذَرِ - ولا سيَّما حالَ غضبه وتضجره - من أن يدعو على نفسه أو ماله أو ولده باللعنة أو العذاب أو النار، أو نحو ذلك مما لا يسره تحقُّقه؛ وذلك أن مقصود الدعاء جَلْبُ النفع، ودفعُ الضرر، وأما الدعاء على النفس أو المال أو الولد، فليس فيه أيُّ منفعة، بل هو ضررٌ محضٌ، ووبالٌ وهلاكٌ.

روى مسلم في «صحيحه»، عن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ رضي الله عنه، في حديثٍ طويلٍ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «سِرْنَا مع رسولِ الله ﷺ في غَزْوَةٍ بَطْنِ بَوَاطٍ، وهو يَطْلُبُ المَجْدِيَّ بنَ عَمْرِو الجُهَنِيِّ، وكان الناضحُ [وهو: البعيرُ الذي يُستقى عليه] يَعْقُبُهُ مِنَّا الخمسةُ والستةُ والسبعةُ، فدارتْ عُقْبَةُ رجلٍ مِنَ الأنصارِ على ناضحٍ له [أي: جاءتْ نوبتُهُ في الركوب]، فأناخَهُ فَرَكَبَهُ،

ثُمَّ بَعَثَهُ، فَتَلَدَّنَ عَلَيْهِ بَعْضُ التَّلَدُّنِ [أَي: تَلَكُّاً وَتَوَقُّفَ]، فَقَالَ لَهُ: شَأْ لَعَنَكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بَعِيرُهُ؟!)، قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (انْزِلْ عَنْهُ، فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تَوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ)»^(١).

وفي هذا الحديثِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُسْتَجَابُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (لَا تَوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ)، وَثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ)^(٢).

❦ ولهذا ينبغي على المسلم: أَنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ الدُّعَاءَ لِنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ بِالْخَيْرِ وَالنَّمَاءِ، وَالْبَرَكَةِ وَالصَّلَاحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَأَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ - وَلَا سِيَّما عِنْدَ غَضَبِهِ - مِنْ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ بِالْهَلَاكِ، أَوِ الشَّرِّ أَوِ الْفُسَادِ، فَقَدْ يُسْتَجَابُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَيَنْدَمُ وَيَتَحَسَّرُ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي دَعَا بِذَلِكَ وَطَلَبَهُ. وَإِنَّا لَنَرْجُو اللَّهَ أَنْ يَهْدِينَا جَمِيعًا سَوَاءَ السَّبِيلِ، وَأَنْ يُوفِّقَنَا لِكُلِّ خَيْرٍ يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.



(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٠٠٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٨٣).

التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ بَيْنَ يَدَيِ الدُّعَاءِ

سَبَقَتْ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ الْعَظِيمَةِ: أَنْ يُقَدَّمَ الدَّاعِي بَيْنَ يَدَيِ دُعَائِهِ التَّوْبَةَ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ؛ فَإِنَّ تَرَكَمَ الذُّنُوبَ واجتماعها قد يكون سبباً مِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، كَمَا أَنَّ التَّوْبَةَ وَالِاقْبَالَ عَلَى اللَّهِ وَالصَّدَقَ مَعَهُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْقَبُولِ وَالِإِجَابَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا تَسْتَبْطِئِ الْإِجَابَةَ إِذَا دَعَوْتَ، وَقَدْ سَدَدَتْ طُرُقَهَا بِالذُّنُوبِ»^(١).

فَالذُّنُوبُ لَهَا عَوَاقِبُ وَخِيَمَةٌ، وَنَتَائِجُ أَلِيْمَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهِيَ تُزِيلُ النِّعَمَ، وَتُحِلُّ النِّقَمَ، فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ؛ كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا نَزَلَ بِلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ»^(٢)، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ مَا بِنَفْسِهِ، فَيُغَيِّرُ طَاعَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ، وَشُكْرَهُ بِكُفْرِهِ، وَأَسْبَابَ رِضَاؤِهِ بِأَسْبَابِ سَخَطِهِ، فَإِذَا غَيَّرَ غَيْرَ عَلَيْهِ، جَزَاءً وَفَاقًا.

ثُمَّ إِنَّ الذُّنُوبَ سَبَبٌ لِهَوَانِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ، وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ، لَمْ يُكْرِمْهُ أَحَدٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، وَأَكْرَمُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ لَهُ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةٌ أَطْوَعُهُمْ لَهُ، وَعَلَى قَدْرِ

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤/٢).

(٢) ذكره ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص ٨٥).

طاعة العبد تكون منزلته عنده، فإذا عصاه هان عنده، وأوجب ذلك القطيعة بين العبد وبين مولاه، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عن العبد أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشر، فأى فلاح، وأى رجاء، وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى له عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

ثم إن الذنوب تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاه؛ قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٩﴾ [الحشر]، فأمر سبحانه بتقواه، ونهى أن يتشبه عباده المؤمنين بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه؛ أي: أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه، فترى العاصي مهيلاً مصالح نفسه، مضيقاً لها، قد انفرطت عليه مصالح دينه ودنياه، بل إن أموره تتعسر عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجدّه مُغلَقاً دونه أو متعسراً عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عُسراً، فالخير والراحة، والسعادة والطمأنينة في الطاعة، والشر والشقاوة والتعسير في المعصية.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإنَّ للسيئة سواداً في الوجه، وظلمةً في القلب، وهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبُغْضَةً في قلوب الخلق»^(١).

وعلى كلِّ فالذنوب تُحدث للعبد أضراراً كثيرةً في قلبه وبدنه وماله وحياته كلها، فليس في الدنيا شرٌّ وداءٌ إلا سببه الذنوب والمعاصي، ولها من الآثار القبيحة، والنتائج المدمومة والمضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة

(١) ذكره ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص ٦٢).

ما لا يعلمه إِلَّا اللهُ^(١).

❏ ولهذا، فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: أَنْ يَحْذَرَ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَأَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَأَنْ يَنْيَبَ إِلَى رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ لِنِالِ السَّعَادَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَلِيَتَحَقَّقَ لَهُ الْفَلَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ، وَهِيَ الرُّجُوعُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَى مَا يَحِبُّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَاجِبَةٌ وَمَتَعِيْنَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، وَالْأَدْلَةُ عَلَى وَجُوبِهَا مَتَظَاهِرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التَّحْرِيمُ: ٨].

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنِ الْأَعْرَبِيِّ بْنِ يَسَارٍ الْمُرْنِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةً مَرَّةً)^(٢).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ «رِيَاضُ الصَّالِحِينَ»: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَتَعَلَّقُ بِحَقِّ آدَمِيٍّ، فَلَهَا ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ: أَحَدُهَا: أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَالثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا، وَالثَّالِثُ: أَنْ يَعْزِمَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا، فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ، لَمْ تَصَحَّ تَوْبَتُهُ.

وَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ تَتَعَلَّقُ بِآدَمِيٍّ، فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، وَأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا: فَإِنْ كَانَتْ مَالًا أَوْ نَحْوَهُ، رَدَّهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ حَدَّ قَذْفٍ وَنَحْوَهُ، مَكَّنَتْهُ مِنْهُ، أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وَإِنْ كَانَتْ غِيْبَةً، اسْتَحَلَّهُ مِنْهَا. وَيَجِبُ أَنْ يَتُوبَ

(١) انظر: «الجواب الكافي» لابن القيم (ص ٤٦ - ١٠٥).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٢).

من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها، صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عند أهل الحقِّ من ذلك الذنب، وبَقِيَ عليه الباقي، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة^(١)، ثم ساق رَحِمَهُ اللهُ جملةً من أدلة الكتاب والسنة الدالة على ذلك.

❏ **فحريٌّ بالمسلم:** أن يكون تائبًا إلى ربِّه، منيبًا إليه؛ فترتفع درجاته، وتُقَالَ عَثْرَاتُهُ، وتُقْبَلَ دَعَوَاتُهُ، وتَعْلُو منزلته عند ربِّه، وإنَّا لَنرجو الله أن يكتبَ لنا توبةً نصوحًا، وأن يُوفِّقَنَا لكلَّ خيرٍ يُحِبُّه ويرضاه.



(١) «رياض الصالحين» (ص ٧).

الْمُبَادَرَةُ إِلَى التَّوْبَةِ، وَالنُّصْحُ فِيهَا

تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ عَنِ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَأَهْمِيَّتِهَا، وَشِدَّةِ حَاجَةِ الْعَبْدِ إِلَيْهَا لِيَتَحَقَّقَ فَلَاحُهَا، وَلِيُظْفَرَ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَقِيقَةِ التَّوْبَةِ: الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِالتَّزَامٍ مَا يُحِبُّ، وَتَرْكُ مَا يَكْرَهُ، فَهِيَ رَجُوعٌ مِنْ مَكْرُوهِ إِلَى مُحَبُّوبٍ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ أَمْرَيْنِ: تَرْكُ لِلذُّنُوبِ، وَنَدَمٌ عَلَى فَعْلِهَا، وَعَزْمٌ عَلَى عَدَمِ الْعُودَةِ إِلَيْهَا، وَإِقْبَالٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالتَّزَامٌ بِهَا، وَعَزْمٌ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ عَلَيْهَا. وَلِهَذَا عَلَّقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْفَلَاحَ الْمُطْلَقَ عَلَى فَعْلٍ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فَكُلُّ تَائِبٍ مُفْلِحٌ، وَلَا يَكُونُ مُفْلِحًا إِلَّا إِذَا أَتَى بِالْأَمْرَيْنِ مَعًا، فَإِنْ أَخْلَ بِذَلِكَ بِأَنْ ارْتَكَبَ الْمُحْظُورَ، أَوْ تَرَكَ الْمَأْمُورَ، نَقَصَ حُظَّهُ وَنَصِيْبُهُ مِنَ الْفَلَاحِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَكَانَ بِتَرْكِهِ لِلْمَأْمُورِ وَفَعْلِهِ لِلْمُحْظُورِ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، فَتَارَكَ الْمَأْمُورَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، كَمَا أَنَّ فَاعِلَ الْمُحْظُورِ ظَالِمٌ لَهَا، وَزَوَالَ اسْمِ الظُّلْمِ عَنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّوْبَةِ الْجَامِعَةِ لِلْأَمْرَيْنِ.

ولهذا، فَإِنَّ التَّوْبَةَ جَامِعَةٌ لَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، وَالذِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي مَسْمَاهَا، وَبِهَذَا اسْتَحَقَّ التَّائِبُ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ^(١)، بَلْ لَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (لِلَّهِ أَشَدُّ فَرْحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ - مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ -: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ،

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٠٥ - ٣٠٧).

أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)، رواه مسلم في «صحيحه»، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ^(١).

❏ ولا ينبغي للمسلم: أن يؤخّر التوبة ويؤجلها ويسوّف فيها، بل الواجب المبادرة والمسارة؛ فإنّ المرء لا يدري ما يعرض له في هذه الحياة، ولا يزال باب التوبة مفتوحاً للعبد ما لم يغرغر؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ أَنْتَ﴾ [النساء: ١٨]، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما يقول رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ) ^(٢)؛ أي: ما لم تبلغ رُوحه حُلُقومه.

وكذلك لا يقبل الله توبة العبد إذا طلعت الشمس من مغربها؛ ففي «المسند» للإمام أحمد، و«سنن أبي داود»، عن معاوية رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) ^(٣).

وروى الطبراني عن صفوان بن عسال رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (إِنَّ لِلتَّوْبَةِ بَابًا عَرَضُ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) ^(٤).

ولهذا، فإنّ الواجب على الإنسان أن يبادر إلى التوبة قبل فوات أوانها، وقبل أن يحال بينه وبينها، ولا يجوز له تأخيرها في أيّ حالٍ من الأحوال، بل إن تأخيرها يعدّ معصية ينبغي أن يتاب منها.

قال العلامة ابن القيم رحمته الله: «إِنَّ الْمُبَادَرَةَ إِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ فَرَضٌ عَلَى الْفَوْرِ، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا، فَمَتَى أَخْرَهَا عَصَى اللَّهَ بِالتَّأْخِيرِ، فَإِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٤٧).

(٢) «المسند» (١٣٢/٢)، (١٥٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٣٧)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤٢٥٣).

(٣) «المسند» (٩٩/٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٢٤٧٩).

(٤) «المعجم الكبير» (٦٥/٨) رقم (٧٣٨٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢١٧٧).

بَقِيَ عَلَيْهِ تَوْبَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ تَوْبَتُهُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَقَلَّ أَنْ تَخْطُرَ هَذِهِ بِبَالِ التَّائِبِ، بَلْ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ، لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَلَا يُنْجِي مِنْ هَذَا إِلَّا تَوْبَةٌ عَامَّةٌ، مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِي عَدَمِ الْمُواخَذَةِ بِهَا جَهْلُهُ إِذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنَ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ عَاصٍ بِتَرْكِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَالْمَعْصِيَةُ فِي حَقِّهِ أَشَدُّ، وَفِي «الْمُسْنَدِ» لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَ«الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» لِلْبُخَارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (الشَّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَكَيْفَ الْخِلَاصُ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)^(١)، فَهَذَا طَلَبُ الْاسْتِغْفَارِ مِمَّا يَعْلَمُهُ اللَّهُ أَنَّهُ ذَنْبٌ، وَلَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْهُ ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)»^(٢).

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةً وَجِلَّةً، خَطَاةً وَعَمْدَةً، سِرًّا وَعَلَانِيَةً، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ)^(٣).

فَهَذَا التَّعْمِيمُ وَهَذَا الشُّمُولُ؛ لِتَأْتِي التَّوْبَةُ عَلَى مَا عَلِمَهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَا لَمْ يَعْلَمَهُ^(٤). اهـ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مِنَ النَّصْحِ فِي التَّوْبَةِ الْمَأْمُورِ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

(١) «الْمُسْنَدُ» (٤٠٣/٤)، وَ«الْأَدَبُ الْمَفْرَدُ» رَقْم (٧١٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ» رَقْم (٥٥١).

(٢) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْم (٦٣٩٨)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (٢٧١٩).

(٣) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ (ص ٣٨٣)، وَلَيْسَ فِيهِ: «خَطَاةً وَعَمْدَةً».

(٤) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (١/ ٢٧٢ - ٢٧٣).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨]، وقد بيَّن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ النَّصْحَ فِي التَّوْبَةِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ:

الأول: تعميمُ جميع الذنوب واستغراقها بها؛ بحيث لا تَدْعُ ذَنْبًا إِلَّا تَنَاولَتْهُ.

والثاني: إجماعُ العزم والصدقِ بكلِّيَّتِهِ عليها؛ بحيث لا يبقى عنده تَرَدُّدٌ ولا تَلَوُّمٌ ولا انتظارٌ، بل يجمعُ عليها كلَّ إرادتِهِ وعزيمتِهِ مبادرًا بها.

الثالث: تَخْلِيصُهَا مِنَ الشَّوَابِ وَالْعِلَلِ الْقَادِحَةِ فِي إِخْلَاصِهَا، ووقوعُهَا لمَحْضِ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ، والرَّغْبَةِ فِيهَا لَدَيْهِ، والرَّهْبَةِ مِمَّا عِنْدَهُ، لَا كَمَنْ يَتَوَبُّ لِحِفْظِ جَاهِهِ وَحُرْمَتِهِ وَمَنْصِبِهِ وَرِيَاسَتِهِ، وَلِحِفْظِ حَالِهِ، أَوْ لِحِفْظِ قُوَّتِهِ وَمَالِهِ، أَوْ اسْتِدْعَاءِ حَمْدِ النَّاسِ، أَوْ الْهَرَبِ مِنْ ذَمِّهِمْ، أَوْ لئَلَّا يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ السُّفَهَاءُ، أَوْ لِقَضَاءِ نَهْمَتِهِ مِنَ الدُّنْيَا، أَوْ لِإِفْلَاسِهِ وَعَجْزِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي تَقْدُحُ فِي صِحَّتِهَا وَخُلُوصِهَا لِلَّهِ وَرَبِّكَ.

فالأوَّلُ: يَتَعَلَّقُ بِمَا يَتَوَبُّ مِنْهُ، والثَّالِثُ: يَتَعَلَّقُ بِمَنْ يَتَوَبُّ إِلَيْهِ، والأَوْسَطُ: يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ التَّائِبِ وَنَفْسِهِ^(١).

وبهذه الأمور الثلاثة يكونُ العبدُ قد أتى بِأَكْمَلِ مَا يَكُونُ مِنَ التَّوْبَةِ، والتَّوْفِيقُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ. فَسَأَلُهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا سَوَاءَ السَّبِيلِ.



(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/٣١٠).

قَرْنُ التَّوْبَةِ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَقَرْنُ الْإِسْتِغْفَارِ بِالتَّوْحِيدِ

لقد كان حديثنا السابق عن التوبة وبيان فضلها، وعظم شأنها، وشدة احتياج العبد إليها، وعن بعض الأحكام المتعلقة بها، وكثيراً ما تأتي التوبة في النصوص مقرونة بالاستغفار؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُنْعِمْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]، وقول هود لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]، وقول صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وفي هذا دلالة على عظم التلازم بين الاستغفار والتوبة، وشدة احتياج العبد إليهما؛ للوقاية من شُرور الذنوب وغوائلها، والذنوب نوعان:

«ذنبٌ قد مضى، فلاستغفار منه: طلبٌ وقاية شره، وذنبٌ يُخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعلَه، والرجوع إلى الله يتناول النوعين، رجوع إليه ليقِيَه شرَّ ما مضى، ورجوع إليه ليقِيَه شرَّ ما يستقبل من نفسه وسيئات أعماله.

وأيضاً، فإنَّ المُذنبَ بمنزلة من ركب طريقاً تؤدِّيهِ إلى هلاكه، ولا توصِّله إلى المقصود، فهو مأمورٌ أن يوليها ظهراً، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصِّله إلى مقصوده، وفيها فلاحه، فهنا أمران لا بدَّ منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصَّت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة...»^(١).

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/٣٠٨).

أَمَّا إِذَا أُفْرِدَتِ التَّوْبَةُ بِالذِّكْرِ أَوْ أُفْرِدَ الْأَسْتِغْفَارُ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَتَنَاوَلُ مَعْنَى الْآخَرِ.

والاستغفار له شأنٌ عظيمٌ، ومكانةٌ عاليةٌ؛ فهو - كما بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ - «يُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنَ الْفِعْلِ الْمَكْرُوهِ إِلَى الْفِعْلِ الْمَحْبُوبِ، وَمِنْ الْعَمَلِ النَّاكِصِ إِلَى الْعَمَلِ التَّامِّ، وَيَرْفَعُ الْعَبْدَ مِنَ الْمَقَامِ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى مِنْهُ وَالْأَكْمَلَ؛ فَإِنَّ الْعَابِدَ لِلَّهِ، وَالْعَارِفَ بِاللَّهِ، فِي كُلِّ يَوْمٍ، بَلْ فِي كُلِّ سَاعَةٍ، بَلْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ: يَزْدَادُ عِلْمًا بِاللَّهِ، وَبَصِيرَةً فِي دِينِهِ وَعِبُودِيَّتِهِ، بَحِثٌ يَجِدُ ذَلِكَ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، وَنَوْمِهِ وَيَقْظَتِهِ، وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَيَرَى تَقْصِيرَهُ فِي حُضُورِ قَلْبِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ وَإِعْطَائِهَا حَقَّهَا، فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى الْأَسْتِغْفَارِ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، بَلْ هُوَ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ دَائِمًا فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَحْوَالِ، فِي الْغَوَائِبِ وَالْمَشَاهِدِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَجَلْبِ الْخَيْرَاتِ، وَدَفْعِ الْمَضَرَّاتِ، وَطَلَبِ الزِّيَادَةِ فِي الْقُوَّةِ فِي الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، الْيَقِينِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ»^(١).

وَمِمَّا يُبَيِّنُ عِظَمَ شَأْنِ الْأَسْتِغْفَارِ، وَرَفِيعَ مَكَانَتِهِ: أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَأْتِي فِي النُّصُوصِ مَقْرُونًا مَعَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْكَلِمَاتِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجْلُّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [١] وَأَنَّ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ [هود: ١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَنْقُورُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٠ - ٥٢]، وَكَقَوْلِهِ ﷺ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)^(٢)، وَكَقَوْلِهِ ﷺ عَقِبَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْوُضُوءِ: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/٦٩٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٧٩) وهو مخرج بهذا اللفظ أيضًا في «سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٧).

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ^(١)، وكقوله ﷺ في دعائه الذي كان يختم به الصلاة: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)^(٢)، والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد، واقترائها بشهادة أن لا إله إلا الله، مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَمِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَمِنْ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى، وشمول دائرة التوحيد والاستغفار لِلخَلْقِ كُلِّهِمْ، وَهُمْ فِيهَا دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَلِكُلِّ عَامِلٍ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِصِدْقٍ وَيَقِينٍ تُذْهِبُ الشُّرْكَ كُلَّهُ، دِقَّةً وَجِلَّةً، خَطَأً وَعَمْدَةً، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، وَتَأْتِي عَلَى جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَخَفَايَاهُ وَدَقَائِقِهِ، وَالِاسْتِغْفَارُ يَمْحُو مَا بَقِيَ مِنْ عَثَرَاتِهِ، وَيَمْحُو الذَّنْبَ الَّذِي هُوَ مِنْ شُعَبِ الشُّرْكَ؛ فَإِنَّ الذُّنُوبَ كُلَّهَا مِنْ شُعَبِ الشُّرْكَ، فَالتَّوْحِيدُ يُذْهِبُ أَصْلَ الشُّرْكَ، وَالِاسْتِغْفَارُ يَمْحُو فُرُوعَهُ، فَأَبْلَغُ الثَّنَاءِ قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَبْلَغُ الدُّعَاءِ قَوْلُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»^(٣).

وقد جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ، فِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الْمَخْرُجِ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» يَقُولُ ﷺ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)^(٤).

(١) «جامع الترمذي» رقم (٥٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١/١٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٨٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/٦٩٦ - ٦٩٧).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٥/١٥٤)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٤٠)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٢٧).

وهو حديثٌ عظيمٌ جامعٌ لأهمِّ وأعظمِ أسبابِ مغفرةِ الذنوبِ، حيثُ تَضَمَّنَ الحديثُ ثلاثةَ أسبابٍ عظيمةٍ يَحْصُلُ بها مغفرةُ الذنوبِ:

أحدها: دعاءُ الله مع رَجَائِهِ، فَمِنْ أعظمِ أسبابِ المغفرةِ: أَنَّ العبدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا، لَمْ يَرْجُ مغفرتهُ مِنْ غيرِ رَبِّهِ، ويعلمُ أَنَّهُ لا يَغْفِرُ الذنوبَ إِلَّا اللهُ.

الثاني: الاستغفارُ؛ فَإِنَّ الذنوبَ وَلَوْ عَظُمَتْ وَبَلَغَتْ مِنَ الكَثْرَةِ عَنَانَ السماءِ، فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُهَا إِذَا طَلَبَ العبدُ مِنْ رَبِّهِ المغفرةَ.

الثالث: التوحيدُ؛ وهو السببُ الأعظمُ للمغفرةِ، فَمَنْ فَقَدَهُ فَقَدَ المغفرةَ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَدْ أَتَى بأعظمِ أسبابِ المغفرةِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، فَمَنْ جَاءَ يومَ القيامةِ مُوحِّدًا، فقد أَتَى بأعظمِ أسبابِ المغفرةِ^(١).

فهذه أبوابُ الخيرِ مفتحةٌ، ومداخلُهُ مُشْرَعَةٌ، ومناراتُهُ ظاهرةٌ، فنسألهُ سبحانه الهدايةَ إليها، والتوفيقَ لتحقيقها.



(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٣٦٧ - ٣٧٥).

مَكَانَةُ الْاِسْتِغْفَارِ وَحَالُ الْمُسْتَغْفِرِينَ

إِنَّ لِلْاِسْتِغْفَارِ مَكَانَةً فِي الدِّينِ عَظِيمَةً، وَلِلْمُسْتَغْفِرِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَجُورًا كَرِيمَةً، وَثَمَارُ الْاِسْتِغْفَارِ وَنَتَائِجُهُ الْحَمِيدَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ، وَلِهَذَا كَثُرَتْ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ، وَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الْمُرْشِدَةُ إِلَى الْاِسْتِغْفَارِ، وَالْحَاقَّةُ عَلَيْهِ، وَالْمُبَيَّنَةُ لِفَضْلِهِ وَعَظِيمِ أَجْرِهِ.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وَيَقُولُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى عَظِيمِ شَأْنِ الْاِسْتِغْفَارِ، وَتَنُوعِ فَوَائِدِهِ وَثَمَرَاتِهِ.

جَاءَ فِي الْأَثَرِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَيْهِ الْجَدْبَ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ الْفَقْرِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ جَفَافِ بُسْتَانِهِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ عَدَمِ الْوَلَدِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح]، «أَي: إِذَا تُبْتُمْ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ، كَثُرَ الرِّزْقُ عَلَيْكُمْ،

وَأَسْقَاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ مِنَ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ الزَّرْعَ، وَأَدَّرَ لَكُمْ الضَّرْعَ، وَأَمَدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ؛ أَيُّ: أَعْطَاكُمْ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ، وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ فِيهَا أَنْوَاعُ الثَّمَارِ، وَخَلَّلَهَا بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهَا^(١). وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ فَوَائِدِ الْإِسْتِغْفَارِ، وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ، وَتَعَدُّدِ ثَمَرَاتِهِ.

وهذه الثمرات المذكورة هنا هي ممَّا يناله العبدُ في دنياه مِنَ الْخَيْرَاتِ الْعَمِيمَةِ، وَالْعَطَايَا الْكَرِيمَةِ، وَالثَّمَرَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَأَمَّا مَا يَنَالُهُ الْمُسْتَغْفِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَالْعِتْقِ مِنَ النَّارِ، وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ، فَأَمْرٌ لَا يُخَصِّصُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

روى ابن ماجه في «سننه»، عن عبد الله بن بُسْرِ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا)؛ وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ^(٢).

وروى الطبراني في «الأوسط»، والضَّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ في «الأحاديث المختارة»، عن الزُّبَيْرِ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسْرَهُ صَحِيفَتُهُ، فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ)^(٣).

وروى أبو داود، والترمذي، وغيرهما، عن بِلَالِ بْنِ يَسَارٍ بن زَيْدٍ، عن أبيه، عن جَدِّهِ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ قَرَّ مِنَ الرَّحْفِ)^(٤).

وفي هذا الحديث دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِغْفَارَ يَمْحُو الذُّنُوبَ؛ سَوَاءً كَانَتْ كِبَائِرَ أَوْ صَغَائِرَ؛ فَإِنَّ الْفَرَارَ مِنَ الرَّحْفِ مِنَ الْكِبَائِرِ.

❏ لَكِنْ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ هُنَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِسْتِغْفَارِ مَا اقْتَرَنَ بِهِ تَرُكُ الْإِصْرَارِ؛ فَهُوَ حِينَئِذٍ يُعَدُّ تَوْبَةً نَصُوحًا تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا. أَمَّا إِنْ قَالَ الْمَرْءُ بِلْسَانِهِ:

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢٦٠/٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨١٨)، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (٣٩٣٠).

(٣) «الأوسط» رقم (٨٣٩)، وَ«الْأَحَادِيثُ الْمُخْتَارَةُ» رَقْم (٨٩٢)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» رَقْم (٢٢٩٩).

(٤) «سنن أبي داود» رقم (١٥١٧)، وَ«جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» رَقْم (٣٥٧٧).

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وهو غيرُ مُقْلِعٍ عن ذنبٍ، فهو داعٍ لله بالمغفرة، كما يقولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وهذا طلبٌ مِنَ اللَّهِ المغفرةَ ودعاءً بها، فيكونُ حكمُهُ حكمَ سائرِ الدعاءِ لله، وَيُرْجَى له الإجابةُ.

وقد ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْقَائِلَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، له حالتان:

الأولى: أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ وهو مُصِرٌّ بِقَلْبِهِ عَلَى الذَّنْبِ؛ فهذا كاذِبٌ في قوله: وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ تَائِبٍ؛ فَإِنَّ التَّوْبَةَ لَا تَكُونُ مَعَ الْإِصْرَارِ مِنَ الْعَبْدِ عَلَى الذَّنْبِ.

والحالة الثانية: أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ وهو مُقْلِعٌ بِقَلْبِهِ وَعَزَمَهُ وَنَيْتَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَجُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى جَوَازِ قَوْلِ التَّائِبِ: أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَعَلَى جَوَازِ أَنْ يُعَاهِدَ الْعَبْدُ رَبَّهُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى الْمَعْصِيَةِ أَبَدًا؛ فَإِنَّ الْعَزْمَ عَلَى ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ، فَهُوَ مُخْبِرٌ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مِنْ شُرُوطِ قَبُولِ التَّوْبَةِ الْعَزْمَ مِنَ الْعَبْدِ عَلَى عَدَمِ الْعُودَةِ إِلَى الذَّنْبِ، فَإِنْ صَحَّ مِنْهُ الْعَزْمُ عَلَى ذَلِكَ، قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، فَإِنْ عَادَ إِلَى الذَّنْبِ مَرَّةً ثَانِيَةً، احتَاجَ إِلَى تَوْبَةٍ أُخْرَى لِيُغْفَرَ لَهُ ذَنْبُهُ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الْعَبْدَ مَا دَامَ كَذَلِكَ؛ كَلَّمَأ أَدْنَبَ تَابَ، وَكَلَّمَأ أَخْطَأَ اسْتَغْفَرَ، فَهُوَ حَرِيٌّ بِالْمَغْفِرَةِ، وَإِنْ تَكَرَّرَ الذَّنْبُ وَالتَّوْبَةُ.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه ﷻ، قال: (أَدْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَدْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَدْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَدْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَدْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَدْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اْعْمَلْ مَا شِئْتَ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ^(١)؛ أَي: مَا دُمْتَ تَائِبًا أَوْاهَا مَنِيًّا.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٥٠٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٥٨).

فهذه توبة مقبولة وإن تكرر الذنب، فإنه كلما كرر العبد التوبة مستوفياً شروطها، قُبِلَتْ منه، أما الاستغفار بدون توبة، فلا يستلزم المغفرة، بل هو سبب من الأسباب التي تُرجى بها المغفرة.

❦ ولا ينبغي للعبد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت وتنوعت؛ فإن باب التوبة والمغفرة والرحمة واسع؛ فالله يقول: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «مَنْ آيَسَ عِبَادَ اللَّهِ مِنَ التَّوْبَةِ بَعْدَ هَذَا، فَقَدْ جَحَدَ كِتَابَ اللَّهِ وَعَلَى»^(١).

ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، ويقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ١١٠]، وقال الله تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (١٤٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [التوبة]، وقال في شأن النصاري: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَكُنَّا مِنْ آلِهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة]، وقال في شأن الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصري رحمته الله: «انظروا هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»^(٢).

فما أعظم فضل الله! وما أوسع عطاءه ومغفرته! فنسأله سبحانه أن يشملنا بعفوه، وأن يَمُنَّ علينا بمغفرته؛ إنه هو الغفور الرحيم.



(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥٩/٤). (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥٨/٤).

مُلَازِمَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلاِسْتِغْفَارِ

لقد كان إمامُ المُرسَلين، وقُدوةُ الموحِّدين، وقائدُ الغُرِّ المُجَبَّلين، الرسولُ الكريمُ ﷺ كثيرَ الاستغفارِ والتوبةِ إلى الله، مع أنَّه ﷺ قد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح]، وفي «الصحيح»، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَنْفَطِرَ رِجْلَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: (يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!)»^(١).

قال ابنُ كثيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هذا مِنْ خِصَائِصِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ الَّتِي لَا يَشَارِكُهَا فِيهَا غَيْرُهُ، وَلَيْسَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ لغيرِهِ: غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؛ وَهَذَا فِيهِ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي لَمْ يَنْلُهَا بَشَرٌ سِوَاهُ، لَا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ، وَهُوَ أَكْمَلُ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَسَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢).

ومع ذلك كُلِّهِ، فَقَدْ كَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يُكَثِّرُ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُحْصُونَ لَهُ فِي مَجَالِسِهِ الْاسْتِغْفَارَ الْكَثِيرَ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٨٣٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٨٢٠).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣١٠/٧).

روى مسلم في «صحيحه»، عن الْأَعْرَ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) ^(١).

وروى البخاري في «صحيحه»، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) ^(٢).

وروى أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: (رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)» ^(٣).

وأخرج النسائي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ النَّاسَ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)» ^(٤).

وقد ثبت عنه ﷺ في الاستغفار صيغ عديدة:

* منها: قوله: (أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَقُولَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» ^(٥).

* ومنها: قوله: (رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)، وقد تقدّم في حديث ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٠٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢١/٢)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥١٦)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٣٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨١٤)، وصحّحه الألباني في «الصحيحه» رقم (٥٥٦).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي رقم (١٠٢٦٥)، وهو عند مسلم من حديث الأغر بلفظ مقارب، تقدم (ص ٤٦٠).

(٥) «السنن الكبرى» للنسائي رقم (١٠٢٨٨)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٩٢٨).

* ومنها: ما ثَبَتَ في «الصحيحين»: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «عَلَّمَنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: (قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)»^(١).

* ومنها: ما في «الصحيحين»، من حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)»^(٢).

* ومنها: ما ثَبَتَ في «صحيح مسلم»، أَنَّهُ كَانَ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُهُ ﷺ بَيْنَ التَّسْلِيمِ وَالتَّسْلِيمِ: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)»^(٣).

* ومنها: وهو أَتَمُّهَا وَأَكْمَلُهَا ما ثَبَتَ في «صحيح البخاري»، عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ، أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاعْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)»^(٤).

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٠٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٨٣).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٣٨٢).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٠٦).

❏ فهذا الحديثُ لَمَّا كان جامعًا لمعاني التوبة، مُشتملاً على حقائق الإيمان، مُتضمِّناً لمحضر العبودية، وتَمَامِ الدُّلِّ والافتقار، فاق سائر صيغ الاستغفار في الفضيلة، وارتفع عليها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فَتَضَمَّنَ هَذَا الْإِسْتِغْفَارُ: الاعترافَ من العبدِ بربوبيةِ الله وإلهيته وتوحيده، والاعترافَ بأنَّه خالقه، العالمُ به؛ إذ أنشأه نشأةً تستلزمُ عَجْزَهُ عن أداءِ حَقِّه، وتقصيره فيه، والاعترافَ بأنَّه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مَهْرَبَ له منه، ولا وَلِيَّ له سواه، ثُمَّ التَّزَامَ الدُّخُولِ تحتَ عَهْدِهِ - وهو أمرُهُ ونَهْيُهُ - الذي عَهْدُهُ إليه على لسانِ رسوله، وأنَّ ذلك بِحَسَبِ استطاعتي، لا بِحَسَبِ أداءِ حَقِّكَ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مُقْدُورٍ للبشر، وإنَّما هو جُهِدُ المقلِّ، وَقَدْرُ الطاقة، ومع ذلك، فأنا مُصَدِّقٌ بوعدِكَ الَّذِي وعدتَهُ لأهل طاعتِكَ بالثواب، ولأهلِ معصيتِكَ بالعقاب، فأنا مقيمٌ على عَهْدِكَ، مُصَدِّقٌ بوعدِكَ، ثُمَّ أَفْرَعُ إلى الاستعاذةِ والاعتصامِ بك مِنْ شَرِّ ما قَرَّطْتُ فِيهِ مِنْ أَمْرِكَ ونَهْيِكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعْذِنِي مِنْ شَرِّهِ، وَإِلَّا أَحَاطَتْ بِي الْهَلَكَةُ؛ فَإِنَّ إِضَاعَةَ حَقِّكَ سَبَبُ الهلاكِ، وَأَنَا أَقِرُّ لَكَ وَألتزِمُ بنعمتِكَ عليَّ، وَأُقِرُّ وألتزِمُ وأَبْخَعُ بذنبي، فَمِنْكَ النعمةُ والإحسانُ والفضلُ، وَمِنِّي الذنبُ والإساءة، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لي بِمَحْوِ ذَنْبِي، وَأَنْ تُعْفِنِي مِنْ شَرِّهِ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ سَيِّدَ الْإِسْتِغْفَارِ»^(١).

* وَمِنْ صِيغِ الْإِسْتِغْفَارِ الَّتِي وَرَدَتْ عَنْهُ ﷺ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُسْنِدٌ إِلَيْهَا ظَهْرُهُ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَالْحَقِّقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى)»^(٢).

وفي هذا إشارةٌ إلى ملازمته ﷺ للاستغفار في كلِّ أوقاته وجميع أحيانه إلى آخرِ لحظاتِ حياته الكريمة، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢١ - ٢٢٢).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٤٤٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٤٤٤).

وكما أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَخْتُمُّ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ - كَالصَّلَاةِ، وَالْحَجِّ، وَقِيَامِ اللَّيْلِ، وَسَائِرِ مَجَالِسِهِ - بِالِاسْتِغْفَارِ، فَقَدْ خَتَمَ حَيَاتُهُ كُلَّهَا بِهِ. رَزَقَنَا اللَّهُ حُسْنَ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَالِاتِّبَاعَ لِنَهْجِهِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الْخَاتِمَةَ الْحَسَنَةَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

وَيَلِيهِ الْقِسْمُ الثَّالِثُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَهُوَ فِي شَرْحِ الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.



القِسْمُ الثَّالِثُ

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(عَمَلُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على إمامِ
المُرسلين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.
أَمَّا بَعْدُ:

فهذا القسمُ الثالث من «فقه الأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ»، تناولتُ فيه بيانَ
الأَذْكَارِ والأَدْعِيَةِ المتعلّقة بعملِ المسلمِ في يَوْمِهِ وليلته، كأَذْكَارِ الصُّبْحِ
والمساء، والنوم، وأَذْكَارِ الصَّلَوَاتِ وأدبارها، وأَذْكَارِ الدُّخُولِ والخروج،
والركوبِ والسَّفَرِ، والطعامِ والشرابِ، إلى غيرِ ذلك من الأَذْكَارِ العظيمة،
والدَّعَوَاتِ المباركة، التي تصحبُ المسلمَ في أيَّامه ولياليه، مع بيانِ معانيها
ودلالاتها.

وما مِنْ شَكٍّ أَنَّ في المواظبةِ على هذه الأَذْكَارِ والمحافظةِ عليها خَيْرَاتٍ
متواليةً، ونِعَمًا متتاليةً في الدنيا والآخرة، لا سيَّما إن وُفِّقَ المحافظُ عليها إلى
التأملِ في دَلالاتها، والتفكُّرِ في مَقاصدها وغايتها، والتحقيقِ لأهدافها
ومقتضياتها.

وإِنِّي لأُوَمِّلُ أَنْ يُحَقِّقَ هذا الكتابُ شيئًا من ذلك بتوفيقِ الله ﷻ، وقد
أفدْتُ فيه من كلامِ أهلِ العلمِ في شُرُوحَاتِ كُتُبِ الحديثِ عمومًا، وكتبِ
الأَذْكَارِ على وجهِ الخصوص، وكُتُبِ اللغة، وكتبِ غريبِ الحديثِ وغيرها، مع
اعترافي بقصورِ باعي، وضعفِ علمي، وقِلَّةِ اطلاعي، وكثرةِ تقصيري، أسألُ اللهَ
أَنْ يَغْفِرَ عَنِّي وَيَغْفِرَ لِي بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ، إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

وهو في الأصل حَلَقَاتُ إِذَاعِيَّةٌ تَمَّ تقديمُها عَبْرَ الإذاعةِ المباركةِ إِذَاعَةِ
القرآنِ الكريمِ بالمملكة العربية السعودية تحت عنوان: «عَمَلُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ».

وهو يتكوّن من خَمْسٍ وَسِتِّينَ حَلَقَةً متماثلةً في الحجم، ولكلِّ حلقةٍ عنوانٌ خاصٌّ يُرشدُ إلى مضمونها.

وأسأله سبحانه أَنْ يَقْبَلَ مِنِّي عَمَلِي هذا وسائرَ أعمالي، وَأَنْ يَجْعَلَهُ لوجهِ خالصًا، وَلِسَنَةِ نبيه ﷺ موافقًا، ولعباده نافعًا، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لأحدٍ فيه شيئًا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ قَرِيبٌ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.

فَضْلُ الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ

إِنَّ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَالْأُمُورِ الْمَهْمَّةِ الَّتِي تَمَسُّ إِلَيْهَا حَاجَةٌ كُلِّ مُسْلِمٍ: مَا يَتَعَلَّقُ بِعَمَلِ الْمُسْلِمِ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ، فِي قِيَامِهِ وَقَعُودِهِ، وَحَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، وَدُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ، وَسَائِرِ شُؤُونِهِ، بِأَنْ يُوظَّفَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَيَسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يَرْضَاهُ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ذَاكِرًا لِرَبِّهِ، مُسْتَعِينًا بِهِ وَحْدَهُ، مُفَوِّضًا أُمُورَهُ كُلَّهَا إِلَيْهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَذْكُرُ رَبَّهُ فِي كُلِّ أَحْيَانِهِ^(١)؛ أَي: أَنَّهُ صَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَا يَدْعُ ذِكْرَ اللَّهِ ﷻ فِي أَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَصَبَاحِهِ وَمَسَائِهِ، وَسَفَرِهِ وَحَضَرِهِ، وَقِيَامِهِ وَقَعُودِهِ، وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ، فَلَا يُبَاشِرُ أَيَّ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ؛ مِنْ نَوْمٍ وَقِيَامٍ، وَدُخُولٍ وَخُرُوجٍ، وَرُكُوبٍ وَنَزُولٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، إِلَّا وَبَدَأَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ وَدَعَائِهِ.

وَمَنْ يَتَأَمَّلُ السُّنَّةَ الْمُبَارَكَةَ وَالْهَدْيَ النَّبَوِيَّ الْكَرِيمَ، يَجِدُ أَنَّ هُنَاكَ أَذْكَارًا لِلصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، وَأَذْكَارًا لِلنَّوْمِ وَالِانْتِبَاهِ، وَأَذْكَارًا لِلصَّلَاةِ وَأَعْقَابِهَا، وَأَذْكَارًا لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَأَذْكَارًا لِرُكُوبِ الدَّابَّةِ وَالسَّفَرِ، وَأَذْكَارًا تَتَعَلَّقُ بِطَرْدِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَذْكَارًا تَقَالُ عِنْدَ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ لِمَا يُحِبُّ أَوْ لِمَا يَكْرَهُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَذْكَارِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ تَعَلُّقًا مُبَاشَرًا بِأَحْوَالِ الْمُسْلِمِ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ.

وَفِي تِلْكَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ وَتَنَوُّعِهَا بِحَسَبِ مَنَاسِبَاتِهَا تَجْدِيدُ لِعَهْدِ الْإِيمَانِ، وَتَقْوِيَةُ لِلصَّلَاةِ بِاللَّهِ ﷻ، وَاعْتِرَافٌ بِنِعَمِهِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَأَلَايَةُ الْمُتَتَالِيَةِ، وَشُكْرٌ لَهُ عَلَى تَفَضُّلِهِ وَإِنْعَامِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَفِيهَا لُجُوءٌ إِلَيْهِ وَحْدَهُ،

(١) رواه البخاري معلقًا، و«صحيح مسلم» رقم (٣٧٣).

واعتماداً عليه دونَ ما سواه بالتعوُّذ به سبحانه مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ وَشُرُورِ
النَّفْسِ، وَشَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنَ الْخَلْقِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ نَقْمَةٍ أَوْ بَلَاءٍ أَوْ مَصِيبَةٍ.

وفيهما تقريرٌ لتوحيدِ اللَّهِ ﷻ، وبراءةٌ وخلوصٌ مِنَ الْإِشْرَاقِ بِهِ، وإقرارٌ
وإذعانٌ بربوبيَّتهِ وألوهيَّتهِ، وَمَنْ كَانَ ذَا عَنَاقِبَةٍ وَاهْتِمَامٍ بِأَدْعِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَأْثُورَةِ
عَنْهُ، فَإِنَّهُ يَبُوءُ وَيُعْتَرِفُ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي أَمَاتَ
وَأَحْيَا، وَأَطْعَمَ وَأَسْقَى، وَأَفْقَرَ وَأَغْنَى، وَالْبَسَ وَأَكْسَى، وَأَضَلَّ وَهَدَى، وَأَنَّهُ
وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِأَنْ يُؤْلَهَ وَيُعْبَدَ، وَيُخْضَعَ لَهُ وَيُذَلَّ، وَتُصَرَّفَ لَهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ
الْعِبَادَةِ.

فَالذِّكْرُ - كما يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ -: «شَجَرَةٌ تُثْمِرُ الْمَعَارِفَ
وَالْأَحْوَالَ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا السَّالِكُونَ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى نَيْلِ ثَمَارِهَا إِلَّا مِنْ شَجَرَةِ
الذِّكْرِ، وَكَلَّمَا عَظُمَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ وَرَسَخَ أَصْلُهَا، كَانَ أَعْظَمَ لثْمَرَتِهَا، فَالذِّكْرُ
يُثْمِرُ الْمَقَامَاتِ كُلَّهَا مِنَ الْيَقِظَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ مَقَامٍ، وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي
يُنْبَنَى عَلَيْهَا ذَلِكَ الْمَقَامُ عَلَيْهَا، كَمَا يُبْنَى الْحَائِطُ عَلَى أُسِّهِ، وَكَمَا يَقُومُ السَّقْفُ عَلَى
حَائِطِهِ»^(١).

إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، فَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى غَايَةِ الْمَطَالِبِ الصَّحِيحَةِ، وَنَهَايَةِ
الْمَقَاصِدِ الْعَلِيَّةِ، وَفِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ وَالْبَرَكَاتِ، وَالْفَوَائِدِ الْحَمِيدَةِ، وَالتَّنَائِجِ
الْعَظِيمَةِ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحِيطَ بِهِ إِنْسَانٌ، أَوْ يُعْبَّرَ عَنْهُ لِسَانٌ.

❏ وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ مِنَ الْحَرِيِّ بِالْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ مُحَافِظًا تَمَامَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى
تِلْكَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ، كُلُّ ذِكْرٍ فِي وَقْتِهِ الْمُنَاسِبِ لَهُ مِنْ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ، بِحَسَبِ
وَرُودِهِ فِي السَّنَةِ؛ لِتَحَقُّقِ لَهُ تِلْكَ الْأَفْضَالِ الْعَظِيمَةِ، وَالْمَعَانِي الْكَرِيمَةِ، وَلِيَكُونَ
مِمَّنْ أَثْنَى اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالذِّكْرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرَادُ: يَذْكُرُونَ اللَّهَ

(١) «الوَابِلُ الصَّيِّبُ» (ص ١٣٢).

في أدبار الصلوات، وُعْدُوا وَعَشِيًّا، وفي المضاجع، وكلّما استيقظ من نومه، وكلّما غدا أو راح مِنْ مَنْزِلِهِ ذَكَرَ اللهُ تعالى».

وعن مجاهدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ حتى يَذْكُرَ اللهُ قائماً وقاعداً ومضطجعاً»^(١).

وقد سئل الشيخ أبو عمرو بن الصّلاح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن القَدْرِ الذي يصيرُ به المسلم من الذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ، فقال: «إذا واطب على الأذكارِ الماثورةُ المُثَبِّتةُ صباحاً ومساءً، في الأوقاتِ والأحوالِ المختلفةِ ليلاً ونهاراً، وهي مُبَيَّنَةٌ في كتابِ عَمَلِ اليومِ واللييلة، كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ»^(٢).

ولقد حَظِيَ هذا الموضوعُ الجليلُ باهتمام العلماءِ الفائقِ، وعنايتهمُ الكبيرة، فألّفوا فيه المؤلّفاتِ الكثيرة، وبَسَطُوا القولَ فيه في كتبٍ عديدة، نفعَ اللهُ بها مَنْ شاءَ من عباده؛ ككتاب «عَمَلِ اليومِ واللييلة» للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شُعَيْبِ النَّسَائِيِّ صاحب «السنن»، وكتاب «عملِ اليومِ واللييلة» لتلميذه أبي بكر أحمد بن محمّد بن إسحاق، المعروف بابن السُّنِّي، وكتاب «الدعاء الكبير» للحافظ أبي بكر البيهقي، وكتاب «الأذكار» للإمام أبي زكريا النووي، وكتاب «الكَلِمُ الطَّيِّبُ» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب «الوابل الصَّيْبُ» لتلميذه العلامة ابن القيم، وكتاب «تحفة الذاكرين» للإمام الشوكاني، وكتاب «تحفة الأخيار» للإمام الشيخ عبد العزيز بن باز - رحم الله الجميع - إلى غير ذلك من الكتب القيّمة والمؤلّفات النافعة، التي كتبها أهل العلم قديماً وحديثاً في هذا الباب العظيم^(٣).

ومؤلّفاتُهُمْ في هذا البابِ متفاوتةٌ؛ فمنهم الراوي للأخبارِ بالأسانيد،

(١) أوردهما النووي في «الأذكار» (ص ١٠). (٢) انظر: «الأذكار» للنووي (ص ١٠).

(٣) ولي في هذا الباب رسالةً أسَميتها: «الذِّكْرُ والدعاء في ضوء الكتاب والسُّنة»، وهي مطبوعة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وقد مشيتُ في هذا الشرح على ترتيب تلك الرسالة، وأُتيتُ فيه على عامّة الأذكار الواردة فيها.

ومنهم الحاذق لها، ومنهم المطوّل المُسَهَّب، ومنهم المُختَصِرُ والمتوسّط والمهذّب.

ومن المعلوم: أنَّ هذه الأذكارَ المتعلّقة بعملِ المسلم في يومه وليلته تحظى باهتمام المسلمين البالغ، وعنايتهم الكبيرة، غير أنَّ الكثيرَ منهم قد لا يميّزون في ذلك بين الصحيح الثابت عن النَّبِيِّ ﷺ وبين الضعيف الذي لا يثبتُ عنه، وقد لا يعرفون أيضًا معاني هذه الأذكارِ العظيمة، ولا مقاصدها الجليلة، فيَقوُّتهم بذلك نفعها العظيم، وتأثيرها البالغ؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأفضلُ الذِّكْرِ وأنفعُهُ ما واطأ القلبُ اللِّسانُ، وكان مِنَ الأذكارِ النبويَّةِ، وشهدَ الذاكرُ معانيه ومقاصده»^(١). اهـ. كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

هذا، وسوف أتناولُ - إن شاء الله - طائفةً عِطْرَةً، ونُخبَةً مباركةً من تلك الأذكارِ المتعلّقة بعملِ المسلم في يومه وليلته، مع بيان ما يَتيسَّرُ مِنْ حِكْمِهَا العظيمة، ودلالاتها القويمة، ومعانيها الجليلة، مستمنحًا مِنَ اللهِ وحده العَوْنَ والتوفيق والسداد، وأسأله سبحانه أن يوفّقنا لكلِّ خيرٍ يُحبُّه ويرضاه.



(١) «الفوائد» لابن القيم (ص ٢٤٧).

أَذْكَارُ طَرَفِي النَّهَارِ

إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ وَالْأَذْعِيَةِ الرَّاتِبَةِ الَّتِي وَظَفَهَا الشَّرْعُ الْحَكِيمُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ: أَذْكَارَ طَرَفِي النَّهَارِ، بَلْ هِيَ أَوْسَعُ الْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ وَأَكْثَرُهَا وَرُودًا فِي النُّصُوصِ، حَثًّا عَلَيْهَا، وَتَرْغِيًّا فِيهَا، وَذِكْرًا لِأَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْأَذْكَارِ تُقَالُ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ الْفَاضِلَيْنِ.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الْأَحْزَاب] وَالْأَصِيلُ: مَا بَيْنَ الْعَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ.

وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غَافِر: ٥٥]، وَالْإِبْكَارُ: أَوَّلُ النَّهَارِ، وَالْعِشِيُّ: آخِرُهُ.

وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الرُّوم: ١٧]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

وَمَحَلُّ هَذِهِ الْأُورَادِ هُوَ الصَّبَاحُ الْبَاكِرُ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى مَا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَالْمَسَاءُ - وَيُقَالُ: الْعِشِيُّ، وَالْأَصَالُ -: مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَا قَبْلَ الْغُرُوبِ، فَقَدْ جَاءَ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً)^(١)، عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ وَاسِعٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِيمَا لَوْ نَسِيَ الْعَبْدُ ذَلِكَ فِي وَقْتِهِ،

(١) «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» رَقْم (٣٦٦٧) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَحَسَنُهُ الْأَبَانِيُّ.

أَوْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَأْتِيَ بِأَذْكَارِ الصَّبَاحِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ،
وَأَذْكَارِ الْمَسَاءِ بَعْدَ غُرُوبِهَا.

وَأَمَّا عَنِ الْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ، وَالْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ الَّتِي تَقَالُ فِي هَذَيْنِ
الْوَقْتَيْنِ الْفَاضِلَيْنِ، فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمَتْنُوعَةٌ، وَسَيَأْتِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ
مِنْهَا، مَعَ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ مَعَانِيهَا الْعَظِيمَةِ، وَدَلَالَتِهَا الْقَوِيمَةِ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءٍ كُلِّ لَيْلَةٍ:
بِاسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ) ^(١).

فَهَذَا مِنَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ كُلَّ صَبَاحٍ
وَمَسَاءٍ؛ لِيَكُونَ بِذَلِكَ مَحْفُوظًا - بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى - مِنْ أَنْ يَصِيبَهُ فَجَاءَةٌ بَلَاءٍ، أَوْ
ضُرٌّ مُصِيبَةٌ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ.

جَاءَ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»، عَنْ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ رَاوِي الْحَدِيثِ
عَنْ عُثْمَانَ، أَنَّهُ قَدْ أَصَابَهُ طَرْفٌ فَالَجَ - وَهُوَ شَلَلٌ يَصِيبُ أَحَدَ شِقَاقِي الْجِسْمِ -
فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ أَبَانُ: «مَا تَنْظُرُ؟! أَمَّا إِنَّ الْحَدِيثَ كَمَا
حَدَّثْتَنِي، وَلَكِنِّي لَمْ أَقْلُهُ يَوْمَئِذٍ لِيُضَيِّحَ اللَّهُ عَلَيَّ قَدْرَهُ» ^(٢).

وَالسُّنَّةُ فِي هَذَا الذِّكْرِ أَنْ يُقَالَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، كَمَا أُرْشَدُ
النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: (بِاسْمِ اللَّهِ)؛ أَيِ: بِاسْمِ اللَّهِ أَسْتَعِيزُ، فَكُلُّ فَاعِلٍ
يُقَدَّرُ فَعَلًا مَنَاسِبًا لِحَالِهِ عِنْدَمَا يُبْسَمِلُ، فَالْأَكْلُ يُقَدَّرُ: أَكَلُ؛ أَيِ: بِاسْمِ اللَّهِ
أَكَلُ، وَالذَّابِحُ يُقَدَّرُ: أَذْبَحَ، وَالكَاتِبُ يُقَدَّرُ: أَكْتُبَ، وَهَكَذَا.

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٦٦/١)، وَ«سَنَنُ أَبِي دَاوُدَ» رَقْمَ (٥٠٨٨)، وَ«جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» رَقْمَ
(٣٣٨٨)، وَ«سَنَنُ ابْنِ مَاجَهَ» رَقْمَ (٣٨٦٩)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْمَ
(٦٤٢٦).

(٢) «جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» رَقْمَ (٣٣٨٨)، وَ«سَنَنُ ابْنِ مَاجَهَ» رَقْمَ (٣٨٦٩).

وقوله: (الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)؛
أي: مَنْ تَعَوَّذَ بِاسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مُصِيبَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَرْضِ وَلَا مِنْ جِهَةِ
السَّمَاءِ.

وقوله: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)؛ أي: السَّمِيعُ لَأَقْوَالِ الْعِبَادِ، وَالْعَلِيمُ
بَأَفْعَالِهِمْ، الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وُثِّبَتْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَقِيتُ مِنْ عَقَرٍ لَدَغْتَنِي الْبَارِحَةَ، قَالَ:
(أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ،
لَمْ تَضُرَّكَ)»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ: (مَنْ قَالَ حِينَ يُمَسِّي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ
التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ حُمَةٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ)^(٢).

وَالْحُمَةُ: لَدَغَةُ كُلِّ ذِي سُمٍّ كَالْعَقَرِ وَنَحْوِهَا.

وَقَدْ أورد الترمذي عَقَبَ الحديث عن سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ - أَحَدِ رَوَاتِهِ -
أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ أَهْلُنَا تَعَلَّمُوهَا، فَكَانُوا يَقُولُونَهَا كُلَّ لَيْلَةٍ، فَلَدَغَتْ جَارِيَةً مِنْهُمْ،
فَلَمْ تَجِدْ لَهَا وَجَعًا».

فَالْحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى فَضْلِ هَذَا الدُّعَاءِ، وَأَنَّ مَنْ قَالَه حِينَ يُمَسِّي
يَكُونُ مَحْفُوظًا بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَضُرَّهُ لَدَغُ حَيَّةٍ أَوْ عَقَرٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وقوله في الحديث: (أَعُوذُ)؛ أي: أَلْتَجِيءُ، فَالاستعاذة: الالْتِجَاءُ
وَالِاعْتِصَامُ، وَحَقِيقَتُهَا: الْهَرَبُ مِنْ شَيْءٍ تَخَافُهُ إِلَى مَنْ يَعْصِمُكَ مِنْهُ، وَيَحْمِيكَ
مِنْ شَرِّهِ، فَالْعَائِذُ بِاللَّهِ قَدْ هَرَبَ مِمَّا يُوْذِيهِ أَوْ يُهْلِكُهُ إِلَى رَبِّهِ وَمَالِكِهِ، وَفَرَّ إِلَيْهِ،
وَأَلْقَى نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاعْتَصَمَ بِهِ، وَاسْتَجَارَ بِهِ، وَالتَّجَا إِلَيْهِ.

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٩).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٣٦٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٢٧).

وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفِي النَّهَارِ

• إِنَّ مِنْ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ، والدَعَوَاتِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ: مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمَسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)^(١).

فهذا دعاءٌ عظيمٌ جامعٌ لمعاني التَّوْبَةِ، والتَّذَلُّلِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَصَفَهُ ﷺ بِأَنَّهُ سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ فَاقَ سَائِرَ صَيَغِ الْإِسْتِغْفَارِ فِي الْفَضِيلَةِ، وَعَلَا عَلَيْهَا فِي الرُّتْبَةِ، وَمِنْ مَعَانِي السَّيِّدِ؛ أَيِ: الَّذِي يَفُوقُ قَوْمَهُ فِي الْخَيْرِ وَيَرْتَفِعُ عَلَيْهِمْ. وَوَجْهُ أَفْضَلِيَّةِ هَذَا الدَّعَاءِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ صَيَغِ الْإِسْتِغْفَارِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَدَأَهُ بِالشَّائِءِ عَلَى اللَّهِ، وَالاعْتِرَافِ بِأَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ، مَرْبُوبٌ مَخْلُوقٌ لَهُ ﻋَظَمَةٌ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ الْمَعْبُودُ بِحَقٍّ، وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ، وَأَنَّهُ مُقِيمٌ عَلَى الْوَعْدِ، ثَابِتٌ عَلَى الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِسَائِرِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَنَّهُ مُقِيمٌ عَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ طَوْقِهِ وَاسْتَطَاعَتِهِ، ثُمَّ اسْتَعَاذَ بِهِ سَبْحَانَهُ مِنْ شَرِّ كُلِّ مَا صَنَعَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ شُكْرِ الْإِنْعَامِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ ارْتِكَابِ الْآثَامِ، ثُمَّ أَقَرَّ بِتَرَادُفِ نِعَمِهِ سَبْحَانَهُ وَتَوَالِي عَطَايَاهُ وَمَنَنِهِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٧٦).

واعتَرَفَ بما يَصِيبُ مِنَ الذُّنُوبِ والمعاصي، ثم سألَهُ سبحانه المغفرةَ مِنْ ذلك كله، معترفًا بأنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ سِوَاهُ سبحانه.

وهذا أكملُ ما يكونُ في الدُّعَاءِ؛ ولهذا كان أعظمَ صِيغِ الاستغفارِ وأفضلَها وأجمعَها للمعاني الموجبةِ لِعُفْرَانِ الذُّنُوبِ.

وقوله في أوَّلِ هذا الدعاءِ: (اللَّهُمَّ) هي بمعنى: يا الله، حُذِفَ منها ياءُ النداءِ، وعَوِّضَ عنها بالميمِ المشدَّدةِ؛ ولهذا لا يجوزُ الجمعُ بينهما؛ لأنَّه لا يجمعُ بين العَوِّضِ والمعوِّضِ عنه، ولا تستعملُ هذه الكلمةُ إلَّا في الطلبِ، فلا يقالُ: اللَّهُمَّ غفُورٌ رحيمٌ، وإنَّما يقالُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي وارحمني، ونحو ذلك.

وقوله: (أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ) فيه تَذَلُّلٌ وخضوعٌ، وانكسارٌ بين يَدَيِ الله، وإيمانٌ بوحِدَانِيَّتِهِ سبحانه في ربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ؛ فقلوه: (أَنْتَ رَبِّي)؛ أي: ليسَ لي ربٌّ ولا خالقٌ سِوَاكَ، والربُّ هو المالكُ الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ لشؤونِ خلقه؛ فهذا إقرارٌ بتوحيدِ الربوبيَّةِ؛ ولهذا أعقبَهُ بقلوه: (خَلَقْتَنِي)؛ أي: أَنْتَ رَبِّي الذي خَلَقْتَنِي ليسَ لي خالقٌ سِوَاكَ.

وقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)؛ أي: لا معبودَ بحقٍّ سِوَاكَ، فَأَنْتَ وحدَكَ المستحقُّ للعبادة، وهذا تحقيقٌ لتوحيدِ الألوهيَّةِ؛ ولهذا أعقبَهُ بقلوه: (وَأَنَا عَبْدُكَ)؛ أي: وأنا عابدٌ لك، فَأَنْتَ المعبودُ بحقٍّ، ولا معبودَ بحقٍّ سِوَاكَ.

وقوله: (وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ)؛ أي: وأنا على ما عاهدتُك عليه وواعدتُك من الإيمانِ بك، والقيامِ بطاعتك، وامتنالِ أوامرك، (مَا اسْتَطَعْتُ)؛ أي: على قَدْرِ استطاعتي؛ فَإِنَّه سبحانه لا يُكَلِّفُ نفسًا إلَّا وُسْعَهَا.

وقوله: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ)؛ أي: ألتجئُ إليك يا الله، وأَعْتَصِمُ بِكَ مِنْ شَرِّ الذي صنعتُهُ؛ مِنْ شَرِّ مَعَبَّيَّتِهِ، وسوءِ عَاقِبَتِهِ، وحلولِ عُقُوبَتِهِ، وعدمِ مغفرتِهِ، أو مِنَ العَوْدِ إلى مثله؛ مِنْ شَرِّ الأفعالِ، وقبيحِ الأعمالِ، ورديءِ الخِصَالِ.

وقوله: (أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ)؛ أي: أَعْتَرَفُ بِعِظَمِ إِنْعَامِكَ عَلَيَّ، وَتَرَادُفِ فَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ شُكْرُ الْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ، وَالتَّبَرُّي مِنْ كُفْرَانِ النِّعَمِ.

وقوله: (وَأَبُوءُ بِذَنْبِي)؛ أي: أَقِرُّ بِذَنْبِي، وَهُوَ مَا ارْتَكَبْتُهُ مِنْ إِثْمٍ وَخَطِيئَةٍ؛ مِنْ تَقْصِيرٍ فِي وَاجِبٍ، أَوْ فِعْلٍ لِمَحْظُورٍ، وَالْاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ وَالتَّقْصِيرِ سَبِيلٌ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَمَنْ اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَابَ مِنْهُ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وقوله: (فَاغْفِرْ لِي)؛ أي: يَا اللَّهُ، جَمِيعَ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ رَحْمَتَكَ وَاسِعَةٌ، وَصَفْحَكَ كَرِيمٌ، وَلَا يَتَعَاطَمُكَ ذَنْبٌ أَنْ تَغْفِرَهُ، فَأَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٣٥].

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ خَتَمَ هَذَا الدُّعَاءَ بِبَيَانِ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، الَّذِي يَنَالُهُ مَنْ يَحَافِظُ عَلَيْهِ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، فَقَالَ: (مَنْ قَالَهَا) - أَي: هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ - (مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا) - أَي: مُصَدِّقًا بِهَا وَمُعْتَقِدًا لَهَا؛ لَكُونَهَا مِنْ كَلَامِ الْمَعْصُومِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - (فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ).

وإنَّما حَازَ الْمُحَافِظُ عَلَى هَذَا الدُّعَاءِ هَذَا الْمَوْعُودَ الْكَرِيمَ، وَالْأَجَرَ الْعَظِيمَ، وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ؛ لِأَنَّهُ افْتَتَحَ نَهَارَهُ وَاخْتَتَمَهُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ وَالْوَهْيِيَّةِ، وَالْاعْتِرَافِ بِالْعِبُودِيَّةِ، وَمَشَاهِدَةِ الْمِثَّةِ، وَالْاعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ، وَمَطَالَعَةِ عَيْبِ النَّفْسِ وَتَقْصِيرِهَا، وَطَلَبِ الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ مِنَ الْغَفَّارِ، مَعَ الْقِيَامِ عَلَى قَدَمِ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْانْكِسَارِ، وَهِيَ مَعَانٍ جَلِيلَةٌ، وَصِفَاتُ كَرِيمَةٍ يُفْتَتَحُ بِهَا النَّهَارُ وَيُخْتَتَمُ، جَدِيرٌ صَاحِبُهَا أَوْ الْمُحَافِظُ عَلَيْهَا بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَالْعِثْقِ مِنَ النَّيْرَانِ، وَالدُّخُولِ لِلْجَنَّةِ^(١)، نَسَأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.

(١) انظر: كتاب «نتائج الأفكار، في شرح حديث سيّد الاستغفار» للسفاريني كاملاً.

وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفِي النَّهَارِ

لا يزال الحديث موصولاً حول بيان الأذكار المتعلقة بِطَرَفِي النهار.

• روى الإمام مسلم في «صحيحه»، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى، قَالَ: (أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ)، وَإِذَا أَصْبَحَ، قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: (أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ)»^(١).

وهذا دعاء نافع، وذِكْرٌ عظيم، ووَرْدٌ مُبَارَك، يَحْسُنُ بالمسلم أَنْ يُحَافِظَ عليه كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، تَأْسِيًا بالنبيِّ الكريم ﷺ، واقتداءً بهديه القويم.

ومعنى قوله ﷺ في أوَّل هذا الدعاء: (أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ)؛ أي: دَخَلْنَا فِي الْمَسَاءِ، ودَخَلَ فِيهِ الْمُلْكُ كائناً اللَّهُ، ومختصاً به، وهذا بيانٌ لحَالِ القائل: أي: عَرَفْنَا وأَقَرَرْنَا بِأَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ، والحمدَ له لا لغيره، فالتجأنا إليه وَحْدَهُ، واستَعَنَّا به، وَخَصَّصْنَاهُ بِالْعِبَادَةِ والثناءِ عليه والشكرِ له؛ ولهذا أَعْلَنَ بعدَ ذلك إيمانه وتوحيده، فقال: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)؛ أي: لا معبودَ بحقٍّ إِلَّا اللهُ.

وينبغي أن نلاحظَ أَنَّ كلمةَ التوحيدِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) مُشْتَمِلَةٌ على رُكْنَيْنِ،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٣).

لَا يَتَحَقَّقُ التَّوْحِيدُ إِلَّا بِهِمَا، وهما النفي والإثبات، ف (لَا إِلَهَ): نافيةٌ لجميع المعبودات، و(إِلَّا اللَّهُ) مُثَبِّتَةُ العبادة لله سبحانه، وَلِعَظَمَ هذا الأمرَ وَجَلَّالَةِ شأنِهِ أَكَّدَهُ بقوله: (وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)، فقوله: (وَحْدَهُ): فيه تأكيدٌ للإثبات، وقوله: (لَا شَرِيكَ لَهُ): فيه تأكيدٌ للنفي، وهذا تأكيدٌ مِنْ بعدِ تأكيدٍ؛ اهتمامًا بمقام التوحيد وتعليةً لشأنه.

وَلَمَّا أَقَرَّ اللَّهُ بالوحدانيَّةِ، أَتْبَعَ ذلكَ بالإقرارِ له بِالْمُلْكِ وَالْحَمْدِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فقال: (لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)؛ فالْمُلْكُ كُلُّهُ لله، وبِيدِهِ سبحانه مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، والحمدُ كُلُّهُ له مُلْكًا واستحقاقًا، وهو سبحانه على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، فلا يخرجُ عن قدرته شَيْءٌ، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فَاطِر: ٤٤].

وفي الإتيان بهذه الجُمْلَةِ المتقدِّمة بين يَدَي الدِّعَاءِ فائدةٌ عظيمةٌ؛ فهو أبلغُ في الدِّعَاءِ، وأرجى للإجابة.

ثُمَّ بَدَأَ بعدَ ذلكَ بِذِكْرِ مَسْأَلَتِهِ وَحَاجَاتِهِ، فقال: (رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا)؛ أي: أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا أَرَدْتُ وَقَوَّعُهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ مِنَ الْكَمَالَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَمِنْ الْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، (وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا)؛ أي: ما بعدها مِنَ اللَّيَالِي.

(أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا)؛ أي: وَأَعْتَصِمُ بِكَ وَالتَّجَيُّ إِلَيْكَ مِنْ شَرِّ مَا أَرَدْتُ وَقَوَّعُهُ فِيهَا مِنْ شُرُورِ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ.

وقوله: (رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبرِ)، والمرادُ بِالْكَسَلِ: عَدَمُ انبِعَاثِ النَّفْسِ لِلخَيْرِ، مَعَ ظُهُورِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَعذُورًا، بِخِلَافِ الْعَاجِزِ، فَإِنَّهُ مَعذُورٌ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ، والمرادُ بِسُوءِ الْكِبرِ: أي: مَا يُورِثُهُ كِبَرُ السِّنِّ؛ مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ، وَاخْتِلَاطِ الرَّأْيِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسُوءُ بِهِ الْحَالُ.

وقوله: (رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ)؛ أي: أَسْتَجِيرُ بِكَ يَا اللَّهُ مِنْ أَنْ يَنَالَنِي عَذَابُ النَّارِ وَعَذَابُ الْقَبْرِ، وَإِنَّمَا خَصَّهْمَا بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَعْدَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِشِدَّتِهِمَا، وَعِظَمِ شَأْنِهِمَا، فَالْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ سَلِمَ فِيهِ سَلِمَ فِيمَا بَعْدَهُ، وَالنَّارُ أَلَمُهَا عَظِيمٌ وَعَذَابُهَا شَدِيدٌ، حَمَانَا اللَّهُ وَوَقَانَا.

• وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ إِذَا أَصْبَحَ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ يَقُولُ: (أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذَا الْيَوْمِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذَا الْيَوْمِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ).

• وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفِي النَّهَارِ: مَا رَوَاهُ ابْنُ السُّنَنِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ): (مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللَّهُ (ﷻ) هَمَّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١)).

فهذا الذِّكْرُ الْمُبَارَكُ لَهُ أَثَرٌ بَالِغٌ وَنَفْعٌ عَظِيمٌ فِي كُلِّ مَا يَهْمُ الْمُسْلِمَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَعْنَى: حَسْبِيَ اللَّهُ؛ أي: كَافِيَنِي.

• وَمِنْ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ الْمَشْرُوعَةِ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ: أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةً مَرَّةً؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): (مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةً مَرَّةً، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ)^(٢).

(١) «عمل اليوم والليلة» رقم (٧١)، وقد رُوِيَ مرفوعاً وموقوفاً، وصحَّحه الألباني في «الضعيفة» رقم (٥٢٨٦) عن أبي الدرداء موقوفاً، ومثله لا يُقال بالرأي.

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٧٧).

وفي هذا الذكر العظيم جَمْعٌ بين التسبيح والحمد، والتسبيح فيه تَنْزِيهٌ لله عن النَّقائص والعيوب، والحمدُ فيه إثباتُ الكمالِ له سبحانه، وتعيينُ المِائَةِ لِحِكْمَةِ أَرَادِهَا الشَّارِعُ، وَخَفِيَّ وَجْهَهَا عَلَيْنَا.

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَعْقِدَ هَذِهِ التَّسْبِيحَاتِ بِيَدِهِ تَأْسِيًّا بِهِ ﷺ، لَا بِالشُّبْحَةِ أَوْ الْآلَةِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ ففِي «سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْقِدُ التَّسْبِيحَ بِيَمِينِهِ»^(١).

وَمِنْ الْمَعْلُومِ لَدَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنَّ خَيْرَ الْهَدْيِ هُوَ هَدْيُهُ ﷺ، رَزَقَنَا اللَّهُ التَّمَسُّكَ بِسُنَّتِهِ، وَلُزُومَ نَهْجِهِ، وَاقْتِفَاءَ آثَارِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



(١) «المسند» (٢/ ١٦٠ - ١٦١)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٠٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٣٣٠).

وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفِي النَّهَارِ

• إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأُورَادِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحُثُّ أَصْحَابَهُ عَلَى تَعَلُّمِهَا وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ: مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُخْرَجِ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»، وَ«جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»، وَغَيْرِهِمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ، يَقُولُ: (إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ، وَإِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)»^(١).

فهذا دعاءُ نَبِيِّ عَظِيمٍ، وَذِكْرُ مُبَارَكٍ، يَجْدُرُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَيَتَأَمَّلَ فِي مَعَانِيهِ الْجَلِيلَةِ، وَدَلَالَتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَكَيْفَ أَنَّهُ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى تَذْكِيرِ الْمُسْلِمِ بِعَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَإِكْرَامِهِ، فَتَوْمِ الْإِنْسَانِ وَيَقْظَتِهِ، وَحَرَكَتَهُ وَسُكُونَهُ، وَقِيَامَهُ وَقُعُودَهُ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّهِ ﷻ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ.

وقوله في الحديث: (بِكَ أَصْبَحْنَا)؛ أَي: بِنِعْمَتِكَ وَإِعَانَتِكَ وَإِمْدَادِكَ أَصْبَحْنَا؛ أَي: أَدْرَكْنَا الصَّبَاحَ، وَهَكَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: (بِكَ أَمْسَيْنَا).

وقوله: (وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ)؛ أَي: حَالُنَا مُسْتَمِرٌّ عَلَى هَذَا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ، فِي حَرَكَاتِنَا كُلِّهَا وَشُؤُونِنَا جَمِيعِهَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، أَنْتَ الْمَعِينُ وَحَدِّكَ، وَأَزِمَّةُ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِكَ، وَلَا غِنَى لَنَا عَنْكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَفِي هَذَا مِنَ الْاعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ وَاللُّجُوءِ إِلَيْهِ وَالْاعْتِرَافِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ مَا يُحَقِّقُ لِلْمَرْءِ إِيْمَانَهُ، وَيُقَوِّيَ يَقِينَهُ، وَيُعْظِمُ صَلَاتَهُ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ.

(١) «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» رَقْم (٥٠٦٨)، وَ«جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» رَقْم (٣٣٩١)، وَ«سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» رَقْم (٣٨٦٨)، وَحَسَنُهُ الْأَبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (٣٥٣).

وقوله في الحديث: (وَالَيْكَ النُّشُورُ)؛ أي: المَرْجِعُ يومَ القيامةِ، يَبْعَثُ النَّاسَ مِنْ قُبُورِهِمْ، وإِحْيَائِهِمْ بعدَ إِمَاتَتِهِمْ.

وقوله: (وَالَيْكَ الْمَصِيرُ)؛ أي: المَرْجِعُ والمآبُ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَّا رَيْكَ الرُّجْعَى﴾ [الْعَلَق: ٨].

وقد جعل ﷺ قوله: (وَالَيْكَ النُّشُورُ) في الصباح، وقوله: (وَالَيْكَ الْمَصِيرُ) في المساء؛ رعايةً للتَّنَاسُبِ والتشاكل؛ لأنَّ الإصباحَ يُشَبِّهُ النَّشْرَ بعدَ الموتِ، والنومُ مَوْتُهُ صَغْرَى، والقيامُ منه يشبهُ النَّشْرَ من بعدِ الموتِ؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٢].

والإمساءُ يُشَبِّهُ الموتَ بعدَ الحياة؛ لأنَّ الإنسانَ يصيرُ فيه إلى النومِ الذي يشبه الموتَ والوفاة.

فكانتَ بذلكَ خاتمةً كلِّ ذِكْرٍ متجانسةً غايةً المجانسةِ مع المعنى الذي ذَكَرَ فيه.

وَمِمَّا يَوْضُحُ هَذَا: ما ثَبَتَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كان يقولُ عندَ قيامِهِ من النومِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)^(١)، فَسُمِّيَ النومُ مَوْتًا والقيامُ منه حياةً مِنْ بعدِ الموتِ. وسيأتي الكلامُ على هذا الحديثِ وبيانُ معناه عندَ الكلامِ على أَذْكَارِ النومِ والانتباهِ منه - إن شاء الله -.

• وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ: ذَلِكُمُ الذِّكْرُ الْعَظِيمُ، والدعاءُ النافعُ الذي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ أبا بكرٍ الصديقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سَأَلَهُ أَنْ يُرْشِدَهُ إلى كَلِمَاتٍ يَقُولُهَا كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ؛ فَقَدْ رَوَى الترمذي، وأبو داود، وغيرُهما، من حديثِ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أبا بكرٍ الصديقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهَا إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أُمْسَيْتُ، قَالَ: (قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ،

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٢٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧١١).

رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: (وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ)، قَالَ: (قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ)^(١).

❦ فهذا دعاءٌ عظيمٌ يُستحبُّ للمسلم أن يقولَه في الصباح والمساء، وعند النوم، وهو مُشمِّلٌ على التَعَوُّذِ بالله، والالتجاءِ إليه، والاعتصام به - سبحانه - من الشرور كلها، مِنْ مصادرها وبداياتها، وَمِنْ نتائجها ونهاياتها، وقد بدأهُ بِتَوَسُّلاتٍ عظيمةٍ إلى الله جلَّ وعلا؛ بذكرِ جُمْلَةٍ من نُعُوتهِ العظيمة، وصفاتهِ الكريمة، الدَّالَّةِ على عَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ وَكَمالِهِ، فتوسَّلَ إليه بأنَّه: (فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)؛ أي: خالقُهُما ومُبدِئُهُما ومُوجدُهُما على غيرِ مثالٍ سابق، وأنَّه (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)؛ أي: لا يخفى عليه خافيةٌ، فهو عليمٌ بكلِّ ما غابَ عن العباد وما ظهرَ لهم، فالغيبُ عنده شهادةٌ، والسرُّ عنده علانيةٌ، وعِلْمُهُ سبحانه مُحيطٌ بكلِّ شيء، وتوسَّلَ إليه بأنَّه (رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ)؛ فلا يَخْرُجُ شيءٌ عن ربوبيَّتِهِ، وهو المالكُ لكلِّ شيء، فهو سبحانه رَبُّ العالمين، وهو المالكُ لِلْخَلْقِ أَجمعين، ثمَّ أعلَنَ بعد ذلك توحيدَهُ وأقرَّ له بالعبوديَّة، وأنَّه المعبودُ بحقٍّ ولا معبودَ بحقٍّ سواه، فقال: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)، وكلُّ ذلك جاء مُقدِّمةً بينَ يَدَيِ الدُّعَاءِ، مُظْهِرًا فيه العبدُ فاقته وفقره واحتياجهُ إلى ربِّه، معترفًا فيه بجلالِهِ وعَظَمَتِهِ، مُثَبِّتًا لصفاتهِ العظيمة، ونعوتِهِ الكريمة، ثمَّ ذَكَرَ بعد ذلك حاجتَهُ وسؤالَهُ، وهو أن يُعيِذَهُ اللهُ مِنَ الشرورِ كُلِّها، فقال: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ)، وفي هذا جمعٌ بين التَعَوُّذِ بالله مِنْ أصولِ الشرِّ ومنابعِهِ، ومن نهاياتِهِ ونتائجِهِ.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي التَّعْلِيقِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ: «فَذَكَرَ - أَيِ: النَّبِيِّ ﷺ - مَصْدَرِي الشَّرِّ، وَهُمَا النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ، وَذَكَرَ مَوْرِدَيْهِ وَنَهَايَتَيْهِ،

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٧١/٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٩٢، ٣٥٢٩)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٦٧، ٥٠٨٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٠١).

وهما عَوْدُهُ عَلَى النَّفْسِ أَوْ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، فَجَمَعَ الْحَدِيثُ مَصَادِرَ الشَّرِّ وَمَوَارِدَهُ فِي أَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَخْصَرِهِ وَأَجْمَعِهِ وَأَبْيَنِهِ»^(١). فَالْحَدِيثُ فِيهِ تَعَوُّذٌ بِاللَّهِ وَتَعَلُّقٌ مِنْ أَرْبَعَةِ أُمُورٍ تَتَعَلَّقُ بِالشَّرِّ:

الأول: شَرُّ النَّفْسِ، وَشَرُّ النَّفْسِ يُولِّدُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ وَالذُّنُوبَ وَالْآثَامَ.

والثاني: شَرُّ الشَّيْطَانِ، وَعَدَاوَةُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ مَعْلُومَةٌ بِتَحْرِيكِهِ لِفِعْلِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، وَتَهْيِيجِ الْبَاطِلِ فِي نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ.

وقوله: (وَشَرِّكَهِ)؛ أَي: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الشُّرْكَ، وَيُرَوَّى: بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَالرَّاءِ: (وَشَرِّكَهِ)؛ أَي: حَبَائِلِهِ.

والثالث: اقْتِرَافُ الْإِنْسَانِ الشُّوْءَ عَلَى نَفْسِهِ؛ وَهَذِهِ نَتِيجَةٌ مِنْ نَتَائِجِ الشَّرِّ عَائِدَةٌ إِلَى نَفْسِ الْإِنْسَانِ.

والرابع: جَرُّ الشُّوْءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ وَهَذِهِ نَتِيجَةٌ أُخْرَى مِنْ نَتَائِجِ الشَّرِّ عَائِدَةٌ إِلَى الْآخَرِينَ.

وَقَدْ جَمَعَ الْحَدِيثُ التَّعَوُّذَ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَمَا أَجْمَعُهُ مِنْ حَدِيثٍ! وَمَا أَعْظَمَ دَلَالَتَهُ، وَمَا أَكْمَلَ إِحَاطَتَهُ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ!

إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ صَدِيقَ الْأُمَّةِ ﷺ هَذَا الدُّعَاءَ وَعَلَّمَهُ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٢).

«فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُظَنَّ اسْتِغْنَاءَهُ عَنِ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ؛ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ دَائِمًا»^(٣).

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْمُؤَفَّقُ لَا شَرِيكَ لَهُ.



(١) «بدائع الفوائد» (٢/٢٠٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٠٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/٢٥٥).

وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفِي النَّهَارِ

• إِنَّ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ يَحَافِظُ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، بَلْ كَانَ لَا يَدْعُهَا كُلَّ مَا أَصْبَحَ وَأَمْسَى: مَا ثَبَتَ فِي «سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ»، و«سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ»، وَغَيْرِهِمَا، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمَسِّي وَحِينَ يُصْبِحُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي)»^(١).

وقد بدأ ﷺ هذا الدعاء العظيم بسؤالِ الله العافية في الدنيا والآخرة، والعافية لا يعدلها شيءٌ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَدْ كُمِلَ نَصِيبُهُ مِنَ الْخَيْرِ؛ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ»، عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَمَّ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ ﷻ، قَالَ: (سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ)، فَمَكَّنْتُ أَيَّامًا، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ، فَقَالَ لِي: (يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)»^(٢).

وفي «المسند»، و«جامع الترمذي»، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٥/٢)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٧٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٧١)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (٣١٢١).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢٠٩/١)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٩٠).

مِنَ الْعَافِيَةِ^(١).

وَالْعَفْوُ: مَحْوُ الذُّنُوبِ وَسِتْرُهَا، **وَالْعَافِيَةُ:** هِيَ تَأْمِينُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ مِنْ كُلِّ نِقْمَةٍ وَمِحْنَةٍ، بِصَرْفِ الشُّؤْءِ عَنْهُ، وَوَقَايَتِهِ مِنَ الْبَلَايَا وَالْأَسْقَامِ، وَحِفْظِهِ مِنَ الشَّرُورِ وَالْآثَامِ.

وقد سأل ﷺ العافية في الدنيا والآخرة، والعافية في الدين والدنيا والأهل والمال. **وَأَمَّا سُؤَالُ الْعَافِيَةِ فِي الدِّينِ:** فَهُوَ طَلَبُ الْوَقَايَةِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَشِينُ الدِّينَ، أَوْ يُخِلُّ بِهِ، **وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا:** فَهُوَ طَلَبُ الْوَقَايَةِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضُرُّ الْعَبْدَ فِي دُنْيَاهُ مِنْ مُصِيبَةٍ أَوْ بَلَاءٍ أَوْ ضَرَاءٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، **وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ:** فَهُوَ طَلَبُ الْوَقَايَةِ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ وَشِدَائِدِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، **وَأَمَّا فِي الْأَهْلِ:** فَيُوقَايَتُهُمْ مِنَ الْفِتَنِ، وَحِمَايَتُهُمْ مِنَ الْبَلَايَا وَالْمِحَنِ، **وَأَمَّا فِي الْمَالِ:** فَبِحِفْظِهِ مِمَّا يُتْلَفُهُ مِنْ عَرَقٍ أَوْ حَرَقٍ أَوْ سَرِقَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَجَمَعَ فِي ذَلِكَ سُؤَالَ اللَّهِ الْحِفْظَ مِنْ جَمِيعِ الْعَوَارِضِ الْمُؤْذِيَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْمُضِرَّةِ.

وقوله: (اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي)؛ أي: عُيُوبِي وَخَلَائِي وَتَقْصِيرِي، وَكُلَّ مَا يَسُوؤُنِي كَشْفُهُ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْحِفْظُ مِنْ انْكِشَافِ الْعَوْرَةِ، وَهِيَ فِي الرَّجُلِ مَا بَيْنَ السُّرَّةِ إِلَى الرُّكْبَةِ، وَفِي الْمَرْأَةِ جَمِيعُ بَدْنِهَا، وَحَرِيٌّ بِالْمَرْأَةِ أَنْ تُحَافِظَ عَلَى هَذَا الدُّعَاءِ، وَلَا سِيَّامًا فِي هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ تَهْتِكُ النِّسَاءِ، وَعَدَمُ عِنَايَتِهِنَّ بِالسَّتْرِ وَالْحِجَابِ؛ فَتَلِكُ تُبْدِي سَاعِدَهَا، وَالْأُخْرَى تَكْشِفُ سَاقَهَا، وَثَالِثَةٌ تُبْدِي صَدْرَهَا وَنَحْرَهَا، وَأُخْرِيَاتٌ يَفْعَلْنَ مَا هُوَ أَشَدُّ وَأَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ، بَيْنَمَا الْمُسْلِمَةُ الصَّبِيَّةُ الْعَفِيفَةُ تَتَجَنَّبُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَهِيَ تَسْأَلُ اللَّهَ دَائِمًا وَأَبَدًا أَنْ يَحْفَظَهَا مِنَ الْفِتَنِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْهَا بِسِتْرِ عَوْرَتِهَا.

وقوله: (وَأَمِنْ رَوْعَاتِي) هُوَ مِنَ الْأَمْنِ، ضِدُّ الْخَوْفِ، **وَالرَّوَعَاتُ:** جَمْعُ رَوْعَةٍ، وَهُوَ الْخَوْفُ وَالْحَزَنُ، فَفِي هَذَا سُؤَالُ اللَّهِ أَنْ يُجَنِّبَهُ كُلَّ أَمْرٍ يُخِيفُهُ،

(١) «مسند أحمد» (٣/١)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٥٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٣٢).

أَوْ يُخْزِنُهُ، أَوْ يُفْلِقُهُ، وَذَكَرَ الرُّوَاعَاتِ بَصِيغَةَ الْجَمْعِ إِشَارَةً إِلَى كَثَرَتِهَا وَتَعَدُّدِهَا.

وقوله: (اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي) فِيهِ سَوَالُ اللَّهِ الْحِفْظَ مِنَ الْمَهَالِكِ وَالشُّرُورِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْجِهَاتِ السَّتِّ؛ فَقَدْ يَأْتِيهِ الشَّرُّ وَالْبَلَاءُ مِنَ الْأَمَامِ، أَوْ مِنَ الْخَلْفِ، أَوْ مِنَ الْيَمِينِ، أَوْ مِنَ الشَّمَالِ، أَوْ مِنْ فَوْقِهِ، أَوْ مِنْ تَحْتِهِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مِنْ أَيِّ جِهَةٍ قَدْ يَفْجُوهُ الْبَلَاءُ، أَوْ تَحُلُّ بِهِ الْمَصِيبَةُ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَحْفَظَهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ.

ثُمَّ إِنَّ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ الَّذِي يَحْتَاجُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْحِفْظِ مِنْهُ شَرُّ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَتَرَبَّصُّ بِالْإِنْسَانِ الدَّوَائِرَ، وَيَأْتِيهِ مِنْ أَمَامِهِ وَخَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ؛ لِيُوقِعَهُ فِي الْمَصَائِبِ، وَلِيَجْرَّهُ إِلَى الْبَلَاءِ وَالْمَهَالِكِ، وَلِيُبْعِدَهُ عَنْ سَبِيلِ الْخَيْرِ وَطَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ، كَمَا فِي دَعْوَاهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَا تَنْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

فَالْعَبْدُ بِحَاجَةٍ إِلَى حِصْنٍ مِنْ هَذَا الْعَدُوِّ، وَوَاقٍ لَهُ مِنْ كَيْدِهِ وَشَرِّهِ. وَفِي هَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ تَحْصِينٌ لِلْعَبْدِ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ شَرُّ الشَّيْطَانِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ؛ لِأَنَّهُ فِي حِفْظِ اللَّهِ وَكَفَنِهِ وَرِعَايَتِهِ.

وقوله: (وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى عِظَمِ خُطُورَةِ الْبَلَاءِ الَّذِي يَحُلُّ بِالْإِنْسَانِ مِنْ تَحْتِهِ، كَأَنْ تُخَسَفَ بِهِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْعُقُوبَةِ الَّتِي يُحِلُّهَا اللَّهُ ﷻ لِبَعْضِ مَنْ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ دُونَ قِيَامِ مِنْهُمْ بِطَاعَةِ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا، بَلْ يَمْشُونَ عَلَيْهَا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَالشَّرِّ وَالْعِصْيَانِ، فَيُعَاقَبُونَ بِأَنْ تُزَلْزَلَ مِنْ تَحْتِهِمْ، أَوْ أَنْ تُخَسَفَ بِهِمْ؛ جَزَاءً عَلَى ذُنُوبِهِمْ، وَعُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى عِصْيَانِهِمْ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وَمِنْ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَجْدُرُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ: مَا ثَبَتَ فِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ حِينَ يُصْبِحُ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِائَةَ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ مِائَةَ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ عَدَلُ رَقَبَةٍ، وَحُفِظَ بِهَا يَوْمُئِذٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَالَهَا مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ) ^(١).

وَمِنْ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُولَهَا كُلَّ صَبَاحٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ^(٢): مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدَلُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ) ^(٣).

وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، الَّتِي هِيَ أَجَلُّ الْكَلِمَاتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَأَفْضَلُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّونَ، وَلَأَجْلَهَا قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، وَخُلِقَتِ الْخَلَائِقُ وَالْبَرِّيَّاتُ، وَأَهْلُهَا هُمْ أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ، وَالْفَوْزِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَكَلِمَةُ هَذَا شَأْنُهَا حَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ تَعُظَّمَ عِنَايَتُهُ بِهَا، وَاللَّهُ وَحْدَهُ بِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالسَّدَادُ.



(١) «المسند» (٢/٣٦٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١/١٣٦، ١٣٧).

(٢) وهو ليس مختصاً بوقت الصباح، لكنَّ الإتيان به في الصباح أفضل؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمُبَادَرَةِ بِالْخَيْرِ، وَلِيَحْصَلَ أَجْرُهُ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِهِ، وَلِيَكُونَ حِرْزًا لَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ بَدَايَةِ الْيَوْمِ؛ وَلِهَذَا أوردته العلماء في جملة أذكار الصباح.

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠).

وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ

• إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ يَقُولُهَا النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ صَبَاحٍ: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِيزٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: (أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)»^(١).

وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَفْتَتَحَ الْمُسْلِمُ يَوْمَهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْعَظِيمَةِ، الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى تَجْدِيدِ الْإِيمَانِ، وَإِعْلَانِ التَّوْحِيدِ، وَتَأْكِيدِ الْإِلْتِمَازِ بِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالِاتِّبَاعِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ، الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الشَّرِكِ كُلِّهِ صَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ.

فَهِيَ كَلِمَاتُ إِيْمَانٍ وَتَوْحِيدٍ، وَصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ، وَخُضُوعٍ وَإِذْعَانٍ، وَمَتَابَعَةٍ وَانْقِيَادٍ، جَدِيرٌ بِمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهَا أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي دَلَالَتِهَا الْعَظِيمَةِ، وَمَعَانِيهَا الْجَلِيلَةِ وَأَنْ يَحَقِّقَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالتَّوْحِيدِ.

وَقَوْلُهُ: (أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ)؛ أَي: مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالْإِصْبَاحِ، وَنَحْنُ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، مُسْتَمْسِكِينَ بِهَا، مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا، غَيْرَ مُغَيِّرِينَ وَلَا مُبَدِّلِينَ.

وَقَوْلُهُ: (فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ)؛ أَي: دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يُقِيمَ الْمَرْءُ وَجْهَهُ لِدِينِ اللَّهِ حَنِيفًا، بِالتَّوَجُّهِ بِالْقَلْبِ وَالْقَصْدِ وَالْبَدَنِ إِلَى الْإِلْتِمَازِ بِشَرَائِعِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٠].

(١) «مسند أحمد» (٤٠٧/٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٦٧٤).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي معنى الآية: «يقول تعالى: فَسَدِّدْ وَجْهَكَ، واستمِرَّ على الدين الذي شرَّعه اللهُ لك من الحنيفيةِ مِلَّةِ إبراهيمَ الذي هداك اللهُ لها، وكمَّلها لك غايةَ الكمال، وأنت مع ذلك لازمُ فطرتك السليمة التي فطر الخلق عليها؛ فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إلهَ غيره»^(١). اهـ. كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

فهذا الأصل في جميع الناس، ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارضٍ عَرَضَ لفطرته فأفسدها؛ كما في حديث عياض المَجَاشِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ، فيما يرويه عن ربِّه أنه قال: (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَاثَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا)؛ رواه مسلم في «صحيحه»^(٢).

وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)^(٣).

ولا شك أن نعمة الله على عبده عظيمة أن يُصْبِحَ حين يُصْبِحُ وهو على فطرة سليمة، لَمْ يُصِبْهَا تَلَوُّثٌ أَوْ تَغْيِيرٌ أَوْ انْحِرَافٌ.

وقوله: (وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ)؛ أي: وأصبَحنا على كلمة الإخلاص، وهي كلمة التوحيد: «لا إلهَ إِلَّا اللهُ»، تلكم الكلمة العظيمة الجليَّة التي هي أفضلُ الكلمات العظيمة وأجلُّها على الإطلاق، بل هي رأسُ الدين وأساسه ورأسُ أمره، لِأَجْلِهَا خُلِقَتِ الْخَلِيقَةُ، وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأَنْزِلَتِ الْكُتُبُ، وبها افترق الناسُ إلى مؤمنين وكفارٍ، وهي زُبْدَةُ دَعْوَةِ المرسلين، وخلاصة رسالاتهم، وهي أعظمُ نعمِ الله على عباده؛ وفي هذا يقول سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ:

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/٣٢٠).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٨٦٥).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (١٣٥٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٥٨).

«ما أنعم الله على عبدٍ من العبادِ نعمةً أعظمَ من أن عَرَفَهُمْ لا إلهَ إلا الله»^(١).

وكلمة «لا إله إلا الله» هي كلمة إخلاصٍ وتوحيد، ونَبَذَ للشرك، وبراءةٍ منه ومن أهله؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزُّحُرْف].

وإذا أصبحَ العبدُ وهو على هذه الكلمة العظيمة لم يُغَيَّرْ ولم يُبدَلْ، فقد أصبحَ على خيرِ حال، ولِعَظُمِ شأنِ بدءِ اليومِ بهذه الكلمة العظيمة جاء الحثُّ على الإكثارِ من قولها مرَّاتٍ عديدة كلَّ صباح، وقد سبق ذكرُ أجرِ مَنْ قالها حين يصبحُ عشرَ مرَّاتٍ، وأجرِ مَنْ قالها حين يصبحُ مائةَ مرةٍ.

وقوله: (وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ)؛ أي: وأصبحنا على ذلكم الدين العظيم، الذي رَضِيَهُ اللهُ لعباده دينًا، وبعثَ به نبيَّه الكريمَ محمدًا ﷺ، وقال فيه سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٨٥].

فهذا هو دينُ النَّبِيِّ الكريمِ محمدٍ ﷺ، وهو الاستسلامُ لله بالتوحيد، والانقيادُ له بالطاعة، والبراءةُ مِنَ الشُّرْكِ وأهله، وإنَّ نعمةَ اللهِ جلَّ وعلا على عبده عظيمةٌ أن يُصْبِحَ على هذا الدين العظيم، والصراطِ المستقيم، صراطِ الذين أنعمَ اللهُ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالِّينَ.

يقول الله تعالى مُذَكِّرًا عباده الذين حَبَّاهُمْ بهذه النعمة ومنَّ عليهم بها: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحُجُرَات: ٧]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٢١].

(١) ذكره ابن رجب في «كلمة الإخلاص» (ص ٥٣).

فَلِلَّهِ مَا أَعْظَمَهَا مِنْ مِنَّةٍ! وَمَا أَجْلَهَا مِنْ نِعْمَةٍ!

وقوله: (وَعَلَىٰ مِلَّةٍ أُبَيِّنَا لِإِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)؛ أي: وَأَصْبَحْتُ عَلَىٰ هَذِهِ الْمِلَّةِ الْمُبَارَكَةِ، مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ﷺ، وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ، وَالتَّمَسُّكُ بِالْإِسْلَامِ، وَالْبَعْدُ عَنِ الشِّرْكِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، وَهِيَ مِلَّةٌ مُبَارَكَةٌ، لَا يَتْرُكُهَا وَلَا يَرْغَبُ عَنْهَا إِلَّا مَنْ حَكَمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْغَيِّ وَالسَّفْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهَ ﷺ بِاتِّبَاعِ هَذِهِ الْمِلَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وَهَدَاهُ إِلَيْهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وَقَالَ تَعَالَى مُثْمِنًا عَلَىٰ عِبَادِهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وَإِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ وَهُوَ عَلَىٰ هَذِهِ الْمِلَّةِ الْمُبَارَكَةِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، فَقَدْ أَصْبَحَ عَلَىٰ خَيْرٍ عَظِيمٍ، وَفَضْلٍ عَمِيمٍ.
فَكَمْ هُوَ جَمِيلٌ وَعَظِيمٌ أَنْ يَفْتَتَحَ الْمُسْلِمُ يَوْمَهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمُبَارَكَةِ!
وَيَوْمٌ يُفْتَحُ بِكَلِمَاتٍ هَذَا شَأْنُهَا مِنْ قَلْبٍ صَادِقٍ أَكْرَمَ بِهِ مِنْ يَوْمٍ!



وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ

• إِنَّ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ النَافِعَةِ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُلَازِمُ الْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ: مَا ثَبَّتَ فِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَد»، و«سُنَنِ ابْنِ مَاجَه»، مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا) ^(١).

وَمَنْ يَتَأَمَّلْ هَذَا الدَّعَاءَ الْعَظِيمَ، يَجِدُ أَنَّ الْإِتْيَانَ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ؛ لِأَنَّ الصُّبْحَ هُوَ بَدَايَةُ الْيَوْمِ وَمُفْتَتَحُهُ، وَالْمُسْلِمُ لَيْسَ لَهُ مَطْمَعٌ فِي يَوْمِهِ إِلَّا تَحْصِيلُ هَذِهِ الْأَهْدَافِ الْعَظِيمَةِ، وَالْمَقَاصِدِ الْجَلِيلَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ؛ وَهِيَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالرِّزْقُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الْمُتَقَبَّلُ، وَكَأَنَّهُ فِي افْتِتَاحِهِ لِيَوْمِهِ بِذِكْرِ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ دُونَ غَيْرِهَا يُحَدِّدُ أَهْدَافَهُ وَمَقَاصِدَهُ فِي يَوْمِهِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا أَجْمَعَ لِقَلْبِ الْإِنْسَانِ، وَأَضْبَطُ لِسِيرِهِ وَمَسْلَكِهِ، بِخِلَافِ مَنْ يَصْبُحُ دُونَ أَنْ يَسْتَشِيرَ أَهْدَافَهُ وَغَايَاتِهِ وَمَقَاصِدَهُ الَّتِي يَعْزِمُ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا فِي يَوْمِهِ، وَنَجِدُ الْمُعْتَنِينَ بِالتَّرْبِيَةِ وَالْآدَابِ يُوضُونَ بِتَحْدِيدِ الْأَهْدَافِ فِي كُلِّ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَفِي كُلِّ سَبِيلٍ يَسْلُكُهُ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، وَأَسْلَمَ مِنَ التَّشْتُّبِ وَالْإِرْتِبَاكِ، وَأَضْبَطُ لَهُ فِي مَسَارِهِ وَعَمَلِهِ. وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَنْ مَنْ يَسِيرُ وَفَقَ أَهْدَافٍ مُحَدَّدَةٍ، وَمَقَاصِدَ مُعَيَّنَةٍ: أَكْمَلَ وَأَضْبَطَ وَأَسْلَمَ مِمَّنْ يَسِيرُ دُونَ تَحْدِيدِ أَهْدَافٍ، وَدُونَ تَعْيِينِ مَقَاصِدَ.

وَالْمُسْلِمُ لَيْسَ لَهُ فِي يَوْمِهِ بِأَجْمَعِهِ، بَلْ لَيْسَ فِي أَيَّامِهِ كُلِّهَا إِلَّا الطَّمَعُ فِي

(١) «مُسْنَدُ أَحْمَد» (٣٢٢/٦)، و«سُنَنِ ابْنِ مَاجَه» رَقْم (٩٢٥)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَه» رَقْم (٧٥٣).

تحصيل هذه الأهداف الثلاثة وتكميلها، ونيلها مِنْ أَقْرَبِ وجه، وأحسن طريق.
وعلى هذا فما أَجْمَلَ أَنْ يُفْتَحَ اليومُ بِذِكْرِ هذه الأمور الثلاثة التي تُحَدِّدُ
أهدافَ المسلم في يومه، وتُعَيِّنُ غاياته ومقاصده!

وليس المسلم في إتيانه بهذا الدعاء في مفتتح يومه يَقْصِدُ تحديدَ أهدافه
فحسب، بل هو يَتَضَرَّعُ إلى ربِّه، ويلجأ إلى سيِّده ومولاه، بأن يَمُنَّ عليه
بتحصيل هذه المقاصد العظيمة، والأهداف النبيلة؛ إذ لا حول له ولا قُوَّة،
ولا قُدرة عنده على جَلْبِ نفع أو دَفْعِ ضرٍّ إِلَّا بِإِذْنِ ربِّه سبحانه، فهو إليه يلجأ،
وبه يستعين، وعليه يَعْتَمِدُ وَيَتَوَكَّلُ.

فقولُ المسلم في كلِّ صباح: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا،
وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا) هو استعانة منه في صباحه وأوَّلِ يومه برَّبِّه سبحانه: بأن يُيسِّرَ له
العسير، ويُذِلَّ له الصَّعَابَ، وَيُعَيِّنَهُ على تحقيقِ غاياته المباركة الحميدة.

وتأملْ كيف بدأ النَّبِيُّ ﷺ هذا الدعاء بسؤالِ الله العلمَ النافع، قبل
سؤالِهِ الرِّزْقَ الطَّيِّبَ والعملَ المتقبَّلَ، وفي هذا إشارةٌ إلى أَنَّ العلمَ النافعَ
مُقَدِّمٌ، وبه يُبْدَأُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [مَحَمَّد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل. وفي البدء
بالعلم النافع حكمة ظاهرة لا تخفى على المتأمل، ألا وهي أَنَّ العلمَ النافعَ به
يَسْتَطِيعُ المرءُ أَنْ يُمَيِّزَ بين العملِ الصالح وغيرِ الصالح، ويستطيعُ أَنْ يُمَيِّزَ بين
الرِّزْقِ الطَّيِّب وغيرِ الطَّيِّب، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ على علم، فإنَّ الأمورَ قد تختلطُ
عليه، فيقومُ بالعملِ يَحْسِبُهُ صالحًا نافعًا، وهو ليس كذلك؛ والله تعالى يقول:
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا، وقد يكتسبُ رزقًا ومالًا، وَيُظَنُّهُ طَيِّبًا مفيدًا، وهو في
حقيقته خبيثٌ ضارٌّ، وليس للإنسانِ سبيلٌ إلى التمييزِ بين النافع والضارِّ،
والطَّيِّب والخبيث إِلَّا بالعلم النافع؛ ولهذا تكاثرت النصوصُ في الكتابِ
والسُّنة، وتضافرت الأدلَّةُ في الحثِّ على طلبِ العلم، والترغيبِ في تحصيله،

وبيانٍ فضل مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ﴾ [الرُّمَر: ٩].

وقوله ﷺ في الحديث: (عِلْمًا نَافِعًا) فيه دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ نَوْعَانِ: عِلْمٌ نَافِعٌ، وَعِلْمٌ لَيْسَ بِنَافِعٍ، وَأَعْظَمُ الْعِلْمِ النَّافِعُ مَا يَنَالُ بِهِ الْمُسْلِمُ الْقُرْبَ مِنْ رَبِّهِ، وَالْمَعْرِفَةَ بِدِينِهِ، وَالْبَصِيرَةَ بِسَبِيلِ الْحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَسِيرَ عَلَيْهِ؛ وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة]، فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ فِي يَوْمِهِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَبِمَذَآكِرَتِهِ وَمَدَارِسَتِهِ، وَأَنْ يَعْتَنِيَ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُبِينَةِ لَهُ، وَالشَّارِحَةِ لِدَلَالَتِهِ وَمَقَاصِدِهِ.

وقوله في الحديث: (وَرِزْقًا طَيِّبًا) فيه إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الرِّزْقَ نَوْعَانِ: طَيِّبٌ وَخَبِيثٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَقَدْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَحْلِيلِ الطَّيِّبِ، وَتَحْرِيمِ الْخَبِيثِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ فِي يَوْمِهِ أَنْ يَتَحَرَّى الْمَالَ الطَّيِّبَ الْحَلَالَ، وَالرِّزْقَ السَّلِيمَ النَّافِعَ، وَيَحْذَرُ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنَ الْأَمْوَالِ الْخَبِيثَةِ، وَالْمَكَاسِبِ الْمَحْرَمَةِ.

وقوله في الحديث: (وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا) وفي رواية: (وَعَمَلًا صَالِحًا) فيه إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ يَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ بِهِ إِلَى اللَّهِ يَكُونُ مُتَقَبَّلًا، بَلِ الْمُتَقَبَّلُ مِنَ الْعَمَلِ هُوَ الصَّالِحُ فَقَطْ، وَالصَّالِحُ: هُوَ مَا كَانَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَعَلَى هَذِي نَبِيَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَسُنَّتُهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: «أَيُّ: أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ، قِيلَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ، وَمَا أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالصًا لَمْ يُقْبَلْ؛

حتى يكونَ خالصًا صوابًا، والخالصُ: ما كان لله، والصوابُ: ما كان على السُّنة^(١).

❦ فهذا دعاءٌ عظيمُ النِّفع، كبيرُ الفائدة، يَحْسُنُ بالمسلم أن يُحَافِظَ عليه كلَّ صباحٍ تَأْسِيًا بالنبيِّ الكريم ﷺ، ثُمَّ يُتَّبِعُ الدعاءَ بالعمل، فيَجْمَعُ بين الدعاءِ وبِذَلِ الأسبابِ؛ لِيَنَالَ هذه الخيراتِ العظيمةَ، والأفضالَ الكريمةَ، واللهُ وحده الموفق، والمُعِينُ على كلِّ خير.



(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص ٥٠ - ٥١)، وأبو نُعَيْمٍ في «الحلية» (٨/ ٩٥).

وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ

• إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ الْجَامِعَةِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُوَاطِبَ عَلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ: أَنْ يَقُولَ: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ)؛ وَذَلِكَ لِمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا [أَي: مَوْضِعِ صَلَاتِهَا]، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: (مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا؟) قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وَزَنْتُ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ، لَوَزَنْتُهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ)»^(١).

فهذا ذِكْرٌ عَظِيمٌ مُبَارَكٌ أَرْشَدَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَبَيَّنَ أَنَّهُ ذِكْرٌ مُضَاعَفٌ، يَزِيدُ فِي الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ عَلَى مَجَرَّدِ الذِّكْرِ بِ (سُبْحَانَ اللَّهِ) أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً؛ لِأَنَّ مَا يَقُومُ بِقَلْبِ الذَّاكِرِ حِينَ يَقُولُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَتَزْيِينِهِ وَتَعْظِيمِهِ بِهَذَا الْقَدْرِ الْمَذْكُورِ مِنَ الْعَدَدِ أَعْظَمُ مِمَّا يَقُومُ بِقَلْبِ مَنْ قَالَ: (سُبْحَانَ اللَّهِ) فَقَطْ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَسْتَحِقُّ التَّسْبِيحَ بِذَلِكَ الْقَدْرِ وَالْعَدَدِ؛ كَقَوْلِهِ ﷻ: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، مِلءُ السَّمَاوَاتِ، وَمِلءُ الْأَرْضِ، وَمِلءُ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ الْعَبْدَ سَبَّحَ تَسْبِيحًا بِذَلِكَ الْقَدْرِ؛ فَإِنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ مُحْصُورٌ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ مِنَ التَّسْبِيحِ، فَذَاكَ الَّذِي يَعْظُمُ قَدْرُهُ^(٢).

قال العلامة ابن القيم رحمته الله في شرح هذا الحديث، وبيان ما فيه من

(١) تقدم تخريجه (ص ١٠٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/٣٣).

لطائف جليّة، ومعارف عظيمة: «وهذا يُسمّى الذّكر المُضَاعَف، وهو أعظمُ ثناء من الذّكر المفرد، وهذا إنّما يَظهرُ في معرفة هذا الذّكر وفهمه؛ فإنّ قول المسبّح: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ) تَضَمَّنَ إنشاءً وإخباراً: تَضَمَّنَ إخباراً عمّا يستحقُّه الرّبُّ من التسبيح عَدَدَ كلِّ مخلوقٍ كان أو هو كائنٌ إلى ما لا نهاية له: فتَضَمَّنَ الإخبار عن تنزيه الرّبِّ وتعظيمه والثناء عليه هذا العَدَدُ العظيم، الذي لا يبلّغه العادّون، ولا يُحصيه المُحصّون.

وتَضَمَّنَ إنشاء العبدٍ لتسبيح هذا شأنه، لا أنّ ما أتى به العبدُ من التسبيح هذا قدره وعدده، بل أخبر أنّ ما يستحقُّه الرّبُّ ﷻ من التسبيح هو تسبيحٌ يبلّغ العَدَدَ الذي لو كان في عَدَدٍ ما يزيدُ عليه، لذكره؛ فإنّ تجدّد المخلوقات لا ينتهي عدداً، ولا يُحصى الحاضرُ.

وكذلك قوله: (وَرِضاً نَفْسِهِ)، وهو يتَضَمَّنُ أمرينِ عظيمين:

أحدهما: أن يكون المرادُ تسبيحاً هو في العَظَمَةِ والجلالِ مساوٍ لرضا نفسه، كما أنّه في الأوّل مُخْبِرٌ عن تسبيحٍ مساوٍ لعددهِ خَلْقِهِ، ولا ريبَ أنّ رضا نفسِ الرّبِّ أمرٌ لا نهاية له في العَظَمَةِ والوصف، والتسبيحُ ثناءٌ عليه سبحانه يتَضَمَّنُ التعظيمَ والتنزيهَ.

فإذا كانت أوصافُ كماله ونعوتُ جلاله لا نهاية لها ولا غاية، بل هي أعظمُ من ذلك وأجلُّ، كان الثناء عليه بها كذلك؛ إذ هو تابعٌ لها إخباراً وإنشاءً، وهذا المعنى ينتظم المعنى الأوّل من غير عكس.

وإذا كان إحسانه سبحانه وثوابه وبركته وخيره لا منتهى له، وهو من مُوجِبَاتِ رضاهُ وثَمَرَتِهِ، فكيف بصفة الرضا؟!

وقوله: (وَزِينَةُ عَرْشِهِ) فيه إثباتُ العرش، وإضافتهُ إلى الرّبِّ ﷻ، وأنّه أثقلُ المخلوقات على الإطلاق؛ إذ لو كان شيءٌ أثقلَ منه، لوزنَ به التسبيحُ.

فالتضعيفُ الأوّل: للعَدَدِ والكميّة، والثاني: للصفّة والكيفيّة، والثالث: للعَظَمِ والثَقَلِ وكِبَرِ المقدار.

وقوله: (وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ) هذا يَعُمُّ الأقسامَ الثلاثةَ وَيَشْمَلُهَا؛ فَإِنَّ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ ﷻ لَا نِهَآيَةَ لِقَدْرِهِ، وَلَا لَصِفَتِهِ، وَلَا لِعَدَدِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [القَمَان: ٢٧]؛ وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهُ لَوْ فَرِضَ الْبَحْرُ مِدَادًا، وَجَمِيعُ أَشْجَارِ الْأَرْضِ أَقْلَامًا، وَالْأَقْلَامُ تَسْتَمِدُّ بِذَلِكَ الْمِدَادِ، فَتَفْنَى الْبَحَارُ وَالْأَقْلَامُ، وَكَلِمَاتُ الرَّبِّ لَا تَفْنَى وَلَا تَنْفَدُ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ فِي هَذَا التَّسْبِيحِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَنَعَوَاتِ الْجَلَالِ مَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ...». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

هَذَا وَقَدْ نَبَّهَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - إِلَى أَهْمِيَّةِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ بِمَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَاسْتِحْضَارِهِ لِدَلَالَتِهَا، وَأَنَّهُ بِحَسَبِ مَا يَقُومُ بِقَلْبِ الْعَبْدِ مِنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالِاسْتِحْضَارِ يَكُونُ لَهُ مِنَ الْمَزِيَّةِ وَالْفَضْلِ مَا لَيْسَ لْغَيْرِهِ، وَيَكُونُ تَأْثِيرُ هَذَا الذِّكْرِ فِيهِ أْبْلَغَ مِنْ تَأْثِيرِهِ فِي غَيْرِهِ.

وَمَنْ أَتَى بِهَذَا الذِّكْرِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَذْكَارِ الْمَأْثُورَةِ دُونَ اسْتِحْضَارِ مَنْهُ لِّلْمَعْنَى وَلَا تَعَقُّلٍ لِّلدَّلَالَةِ، فَإِنَّ تَأْثِيرَ الذِّكْرِ فِيهِ يَكُونُ ضَعِيفًا.

وَعَلَى كُلِّ، فَالْجَدِيرُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُوَظَّبَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ الْمُبَارِكِ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي اسْتِحْضَارِ مَعْنَاهُ وَتَعَقُّلِ دَلَالَتِهِ، وَبِاللَّهِ وَحْدَهُ التَّوْفِيقُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ الْمُعِينُ وَالْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.



فَضْلُ الصَّبَاحِ وَبَرَكَتُهُ

روى الإمام مسلم في «صحيحه»، عن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي، قال: «عَدَوْنَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَوْمًا، بَعْدَمَا صَلَّيْنَا الْعَدَاةَ، فَسَلَّمْنَا بِالْبَابِ، فَأَذِنَ لَنَا، قَالَ: فَمَكَّنَّا بِالْبَابِ هُنَيْئَةً [أي: انتظرنا وترينا قليلاً]، قَالَ: فَخَرَجَتِ الْجَارِيَةُ، فَقَالَتْ: أَلَا تَدْخُلُونَ؟ فَدَخَلْنَا، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ يُسَبِّحُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا وَقَدْ أُذِنَ لَكُمْ؟ فَقُلْنَا: لَا، إِلَّا أَنَّا ظَنَنَّا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبَيْتِ نَائِمٌ، قَالَ: ظَنَنْتُمْ بِأَلِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ غَفْلَةً؟ [يعني: نفسه؛ فإن أم عبد الهذليّة أمّه، وهي صحابيّة رضي الله عنه وعنهما]، قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ يُسَبِّحُ حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ طَلَعَتْ، قَالَ: يَا جَارِيَةُ، انْظُرِي هَلْ طَلَعَتْ؟ قَالَ: فَتَنَظَّرْتُ، فَإِذَا هِيَ لَمْ تَطْلُعْ، فَأَقْبَلَ يُسَبِّحُ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ طَلَعَتْ، قَالَ: يَا جَارِيَةُ، انْظُرِي هَلْ طَلَعَتْ؟ قَالَ: فَتَنَظَّرْتُ، فَإِذَا هِيَ قَدْ طَلَعَتْ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقَالَنا يَوْمَنَا هَذَا، وَلَمْ يُهْلِكْنَا بِذُنُوبِنَا»^(١).

إنَّ هَذَا الْأَثَرَ يُعْطِي الْمَتَأَمِّلَ صُورَةً وَاضِحَةً وَدَلَالَةً نَاصِعَةً عَلَى تِلْكَ الْحَيَاةِ الْجَادَّةِ، وَالْهِمَّةِ الْعَالِيَةِ، وَالِاسْتِثْمَارِ لِلْوَقْتِ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَلَا سِيَّما الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، مَعَ فَقْهِ مِنْهُمْ بِالْأَوْقَاتِ، وَمَعْرِفَةِ لَأَقْدَارِهَا، وَالْفَاضِلِ مِنْهَا، وَإِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

فَهَذَا الْوَقْتُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ أَبُو وَائِلٍ رضي الله عنه وَمَنْ مَعَهُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه وَقْتُ مُبَارَكٍ وَثَمِينٍ لِلْغَايَةِ، وَهُوَ وَقْتُ ذِكْرِ اللَّهِ وَجِدِّ وَنَشَاطِ وَهِمَّةٍ فِي الْخَيْرِ، إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُهْمِلُونَهُ، وَيَفْرُطُونَ فِيهِ، وَلَا يَعْرِفُونَ لَهُ

مكانته وقدره، فهو ضائعٌ إمّا في النَّوم، أو في الكسلِ والفتور، أو بشغله في التّوافه من الأمور، مع أنّ أوّلَ اليومِ بمنزلةِ شبابه، وآخره بمنزلة شيخوخته^(١)، ومن شَبَّ على شيءٍ شابَ عليه؛ ولهذا فإنّ ما يكون من الإنسان في باكورة اليوم وأوّلِهِ ينسحبُ على بقيّة يومه؛ إن نشاطًا فنشاطًا، وإن كسلًا فكسلًا، ومن أمسك بزمامِ اليوم - وهو أوّلُهُ - سلّمَ له يومه كلّهُ بإذن الله، وأُعينَ فيه على الخير، وبُورِكَ له فيه، وقد قيل: «يَوْمُكَ مِثْلُ جَمَلِكَ؛ إن أمسكت أوّلَهُ تَبِعَكَ آخِرُهُ»، وهذا المعنى مستفادٌ من أثر ابن مسعود المتقدّم؛ فإنّه رضي الله عنه لما تحقّق له حفظ أوّلِ اليوم بالذّكر، قال: «الحمدُ لله الذي أقالنا يَوْمَنَا هذا، ولم يهلكنا بذنوبنا».

بل إنّ المحافظة على الذّكر في هذا الوقت يُعطي الذّاكر همّةً وقوّةً ونشاطًا في يومه كلّهُ؛ يقول ابن القيم رحمته الله: «حَضَرْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ مَرَّةً صَلَّى الْفَجْرَ، ثُمَّ جَلَسَ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى إِلَى قَرِيبٍ مِنْ انْتِصَافِ النَّهَارِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ: هَذِهِ عَدَوَتِي، وَلَوْ لَمْ أَتَغَدَّ هَذَا الْغَدَاءَ، سَقَطَتْ قُوَّتِي، أَوْ كَلَامًا قَرِيبًا مِنْ هَذَا» اهـ^(٢).

وقد ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وآله دعا الله أن يُباركَ لِأُمَّتِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ؛ فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالدَّارِمِيُّ، وَغَيْرُهُمْ عَنْ صَخْرَ بْنِ وَدَاعَةَ الْغَامِديّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله قَالَ: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا، بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَكَانَ صَخْرُ رضي الله عنه تَاجِرًا، فَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، فَأَثَرَى وَكَثُرَ مَالُهُ^(٣).

وهو حديثٌ ثابتٌ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله؛ فَقَدْ رَوَاهُ جَمْعٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عُمَرَ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَأَنْسُرُ بْنُ مَالِكٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَالتَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ، وَعِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ،

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢/٢١٦).

(٢) «الوابل الصيّب» (ص ٨٥ - ٨٦).

(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣/٤٣١ - ٤٣٢)، وَ«سَنَنُ أَبِي دَاوُدَ» رَقْم (٢٦٠٦)، وَ«جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» رَقْم (١٢١٢)، وَ«سَنَنُ ابْنِ مَاجَه» رَقْم (٢٢٣٦).

وجابر بن عبد الله، وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين^(١).

ونظراً إلى أهمية هذا الوقت، وعِظَم بَرَكَتِهِ، وكثرة ما فيه من خير، فإنَّ السلف - رحمهم الله - كانوا يكرهون النَّوْمَ فيه، وإضاعته بالكسل والعجز؛ يقول ابن القيم رحمته الله - وهو العلامة المُربِّي - في كتابه «مدارج السالكين»: «وَمِنَ الْمَكْرُوهِ عِنْدَهُمْ - أَي: السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ - النَّوْمُ بَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ؛ فَإِنَّهُ وَقْتُ غَنِيمَةٍ، وَلِلسَّيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتُ عِنْدَ السَّالِكِينَ مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، حَتَّى لَوْ سَارُوا طَوْلَ لَيْلِهِمْ لَمْ يَسْمَحُوا بِالْقَعُودِ عَنِ السَّيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ النَّهَارِ وَمِفْتَاحُهُ، وَوَقْتُ نَزُولِ الْأَرْزَاقِ، وَحُصُولِ الْقَسَمِ، وَحُلُولِ الْبَرَكَاتِ، وَمِنْهُ يَنْشَأُ النَّهَارُ، وَيَنْسَجِبُ حُكْمُ جَمِيعِهِ عَلَى حَكْمِ تِلْكَ الْحِصَّةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَوْمُهَا كَنَوْمِ الْمَضْطَرِ». اهـ^(٢).

وَمِنَ الْأَثَارِ الْوَارِدَةِ عَنِ السَّلَفِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي هَذَا الْمَعْنَى: مَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّهُ رَأَى ابْنًا لَهُ نَائِمًا نَوْمَةَ الصُّبْحَةِ، فَقَالَ لَهُ: «قُمْ، أَتَنَامُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي تُقَسَّمُ فِيهَا الْأَرْزَاقُ؟!»^(٣).

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، أَنَّهُ قَالَ: «النَّوْمُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: نَوْمٌ خُرْقٌ، وَنَوْمٌ خُلِقَ، وَنَوْمٌ حُمِقَ؛ فَأَمَّا النَّوْمُ الْخُرْقُ: فَنَوْمَةُ الضُّحَى يَقْضِي النَّاسُ حَوَائِجَهُمْ وَهُوَ نَائِمٌ، وَأَمَّا النَّوْمُ الْخُلِقُ: فَنَوْمُ الْقَائِلَةِ نَصَفَ النَّهَارِ، وَأَمَّا نَوْمُ الْحُمَقِ: فَنَوْمٌ حِينَ تَحْضُرُ الصَّلَاةُ»^(٤).

يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمته الله فِي كِتَابِهِ «زَادَ الْمَعَادُ»: «وَنَوْمُ الصُّبْحَةِ يَمْنَعُ الرِّزْقَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَقْتُ تَطَلُّبٍ فِيهِ الْخَلِيقَةُ أَرْزَاقَهَا، وَهُوَ وَقْتُ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ، فَنَوْمُهُ حَرْمَانٌ إِلَّا لِعَارِضٍ أَوْ ضَرُورَةٍ، وَهُوَ مُضِرٌّ جِدًّا بِالْبَدَنِ لِإِرْخَائِهِ الْبَدَنَ، وَإِفْسَادِهِ لِلْفَضَالَتِ الَّتِي يَنْبَغِي تَحْلِيلُهَا بِالرِّيَاضَةِ، فَيُحْدِثُ تَكْسَرًا وَعَيًْا وَضَعْفًا،

(١) انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٨/٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٤٥٩/١).

(٣) أورده ابن القيم في «زاد المعاد» (٢٤١/٤).

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» (١٨٢/٤)، وأورده ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (١٦٢/٣).

وإن كان قبلَ التَّبَرُّزِ والحَرَكَةِ والرياضَةِ وإشغالِ المَعِدَةِ بشيءٍ، فذلك الدَّاءُ العُضَالُ المُولَّدُ لأنواعٍ مِنَ الأدويةِ. اهـ^(١). وقد ذَكَرَ نَحْوًا مِنْ هَذَا العَلَامَةُ ابنُ مُفْلِحٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْأَدَابُ الشَّرْعِيَّةُ»^(٢).

وبِهَذَا يَتَبَيَّنُ قِيَمَةُ هَذَا الْوَقْتِ الْمُبَارِكِ، وَعِظَمُ نَفْعِهِ، وَأَنَّهُ وَقْتُ جِدِّ وَنَشَاطٍ، وَذِكْرِ اللهِ ﷻ، وَهُوَ وَقْتُ نَزُولِ الْأَرْزَاقِ، وَحَصُولِ الْقَسَمِ، وَحُلُولِ الْبَرَكَةِ، وَقَدْ كَانَ لِلْسَّلَفِ - رَحِمَهُمُ اللهُ - مَعَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ؛ إِذْ أَدْرَكُوا أَهْمِيَّتَهُ وَقِيَمَتَهُ، وَلَغَيْرِهِمْ مَعَهُ شَأْنٌ آخَرُ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا، وَأَنْ يُوقِّفَنَا جَمِيعًا لِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَ نَهْجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَسُلُوكَ سَبِيلِهِمْ.



(١) «زاد المعاد» (٤/٢٤٢).

(٢) (٣/١٦٢).

أَذْكَارُ النَّوْمِ

• إِنَّ مِنَ الْأَوْرَادِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي كَانَ يُحَافِظُ عَلَيْهَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ كَلِمَا أَوَى فِي اللَّيْلِ إِلَى فِرَاشِهِ لِيَنَامَ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»، عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(١).

فهذا تَعَوُّذٌ عَظِيمٌ، وَحِرْزٌ لِلْإِنْسَانِ، وَحَافِظٌ لَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَمَسَّهُ فِي مَنَامِهِ مَكْرُوهٌ، أَوْ يَنَالَهُ شَرٌّ أَوْ أَذَى، أَوْ يَصِيبَهُ شَيْءٌ مِنَ الْهَوَامِّ الْمُؤْذِيَةِ، أَوْ الْحَشَرَاتِ الْقَاتِلَةِ، لَا سِيَّمَا وَالْإِنْسَانُ عِنْدَ نَوْمِهِ يَكُونُ غَافِلًا عَنْ كُلِّ مَا يَجِيءُ إِلَيْهِ، وَعَنْ جَمِيعِ مَا يَحْدُثُ لَهُ، فَإِذَا اسْتَعْلَلَ عِنْدَمَا يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ بِهَذَا الْوَرْدِ الْعَظِيمِ، وَالْحِرْزِ الْمَتِينِ، حَفِظَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَكُفِيَ وَوُقِيَ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ، وَهَذَا يُؤَكِّدُ أَهَمِّيَّةَ مَحَافِظَةِ الْمُسْلِمِ عَلَى هَذَا الْوَرْدِ كُلِّ لَيْلَةٍ عِنْدَمَا يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ؛ لِيَنَالَ هَذَا الْحِفْظَ، وَلِيَتَحَقَّقَ لَهُ تِلْكَ الْعَنَاءَةُ وَالرَّعَايَةُ.

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَافِظُ عَلَى هَذَا الْوَرْدِ أَشَدَّ الْمَحَافِظَةِ، وَلَا يَتْرُكُ قَوْلَهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ؛ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ عَنَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ: مَا ثَبَتَ فِي بَعْضِ طَرِيقِ الْحَدِيثِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «فَلَمَّا اسْتَكَى ﷺ كَانَ يَأْمُرُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٠١٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٥٧٤٧).

وُثِّبَتْ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ بِالْمَعْوَذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ، كُنْتُ أَنَا أَنْفُثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، فَأَمْسَحَ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَّتِهَا»^(١).

فَكَانَ ﷺ يَحَافِظُ عَلَى هَذَا التَّعَوُّذِ إِلَى آخِرِ حَيَاتِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ حَتَّى فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ؛ فَيَأْمُرُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ تُمَرَّ يَدُهُ عَلَى جَسَدِهِ؛ لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ فَعَلِ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْمَرَضِ وَالْوَجَعِ.

وَقَوْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي الْحَدِيثِ: «كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ؛ أَيُّ: إِذَا رَجَعَ إِلَيْهِ وَضَمَّهُ فِرَاشُهُ وَدَخَلَ فِيهِ، وَمِنْهُ: الْمَأْوَى، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ.

وَقَوْلُهَا: «كُلَّ لَيْلَةٍ» فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى مَحَافِظَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى هَذَا التَّعَوُّذِ فِي جَمِيعِ لَيَالِيهِ.

وَقَوْلُهَا: «جَمَعَ كَفَّيْهِ»؛ أَيُّ: ضَمَّ يَدَيْهِ وَأَلْصَقَ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى، وَهُمَا مَفْتُوحَتَانِ إِلَى جِهَةِ الْوَجْهِ؛ لِيُبَاشِرَ النَّفْثَ فِيهِمَا.

وَقَوْلُهَا: «ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا»؛ أَيُّ: الْيَدَيْنِ، وَالنَّفْثُ شَبِيهُ النَّفْخِ، وَهُوَ أَقْلُ مِنَ التَّثْلُثِ، وَهُوَ خُرُوجُ الْهَوَاءِ مِنَ الْفَمِ مَعَ شَيْءٍ يَسِيرُ مِنَ الرِّيقِ.

وَقَوْلُهَا: «ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ» فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ أَنْ يَمْسَحَ بِيَدِهِ مَا اسْتَطَاعَ مَسْحَهُ مِنْ بَدَنِهِ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ هُنَا: أَنَّ مَسْحَ الْوَجْهِ وَالْبَدَنِ خَاصٌّ بِهَذَا الْمَوْطِنِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُعَمَّمَ فِي كُلِّ ذِكْرٍ أَوْ دَعَاءٍ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا مَسْحُهُ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ، فَلَيْسَ عَنْهُ فِيهِ إِلَّا حَدِيثٌ أَوْ حَدِيثَانِ لَا تَقُومُ بِهِمَا حُجَّةٌ»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٧٥١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٩٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥١٩/١٢).

وقولها: «يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ» فيه بيان أَنَّ السُّنَّةَ أَنْ يَبْدَأَ الْمُسْلِمُ بِأَعَالِي بَدَنِهِ، فَيَمْسَحَ عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، ثُمَّ يَنْتَهِيَ إِلَى مَا أَدْبَرَ مِنْهُ.

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَأْسِيًّا بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ.

ثُمَّ إِنَّ السُّورَةَ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورِ الثَّلَاثِ قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى ذِكْرِ صِفَةِ الرَّبِّ جَلَّ شَأْنُهُ، بَلْ أُخْلِصَتْ لِبَيَانِ تِلْكَ الصِّفَةِ، وَلِهَذَا سُمِّيَتْ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَوْ قِيلَ لِأَحَدٍ: مَنْ هُوَ اللَّهُ؟ فَاسْتَفَى فِي الْجَوَابِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ بِتِلَاوَةِ هَذِهِ السُّورَةِ، لَكَانَ الْجَوَابُ وَافِيًا كَافِيًا، وَالْأَحَدُ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْكَمَالِ وَالْجَلَالِ، الَّذِي لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتُ الْكَامِلَةُ الْعُلْيَا، وَالْأَفْعَالُ الْمُقَدَّسَةُ الْعَظِيمَةُ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مَثِيلَ، وَالصَّمَدُ؛ أَيُ: الْمَقْصُودُ فِي جَمِيعِ الْحَوَائِجِ، فَأَهْلُ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِفْتِقَارِ، يَسْأَلُونَهُ حَوَائِجَهُمْ، وَيَرْغَبُونَ إِلَيْهِ فِي مُهِمَّاتِهِمْ؛ لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ أَوْصَافِهِ وَنِعَوَتِهِ؛ وَمِنْ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُؤَلِّمْهُ﴾؛ لِكَمَالِ غِنَاةِ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لَا فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا فِي أَوْصَافِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ؛ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَأَمَّا الْمَعْوِذَتَانِ: ففِيهِمَا التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ ﷻ مِنَ الشُّرُورِ جَمِيعِهَا، وَالْآفَاتِ كُلِّهَا، فَسُورَةُ الْفَلَقِ فِيهَا التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾؛ أَيُ: فَالِقِ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَفَالِقِ الْإِصْبَاحِ، ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وَهَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْحَيَوَانَاتِ، فَيَسْتَعِيدُ بِخَالِقِهَا مِنَ الشَّرِّ الَّذِي فِيهَا، ثُمَّ خَصَّصَ بَعْدَ هَذَا الْعُمُومِ، فَقَالَ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؛ أَيُ: مِنْ شَرِّ مَا يَكُونُ فِي اللَّيْلِ، حِينَ يَغْشَى النَّاسَ، وَتَنْتَشِرُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ، وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُؤْذِيَةِ، ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾؛ أَيُ: السَّوَاحِرِ اللَّاتِي يَسْتَعِنَّ عَلَى سِحْرِهِنَّ بِالنَّفْثِ فِي الْعُقَدِ، ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، وَالْحَاسِدُ هُوَ: الَّذِي يُحِبُّ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْعَائِنُ؛

لأنَّه لا تصدُرُ العَيْنُ إِلَّا عن نوعٍ حَسَدٍ، فَتَضَمَّنَتْ هذه السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ التَّعَوُّدَ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ عَمُومًا وَخُصُوصًا.

وَسُورَةُ النَّاسِ فِيهَا التَّعَوُّدُ بِرَبِّ النَّاسِ وَمَالِكِهِمْ وَإِلَهُهِمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الشُّرُورِ كُلِّهَا، وَمَادَّتُهَا، وَأَسَاسُ بُدْوَها وَفُشُوها^(١).

فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى قِرَاءَةِ هَذِهِ السُّورِ الثَّلَاثِ كُلِّ لَيْلَةٍ عِنْدَمَا يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ، عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي كَانَ يَفْعَلُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ لِيَنَالَ بِذَلِكَ حِفْظَ اللَّهِ وَرِعَايَتَهُ وَكِفَايَتَهُ، وَلِيَنَامَ قَرِيرَ الْعَيْنِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.



(١) انظر: «تفسير السعدي» (ص ٩٣٧ - ٩٣٨).

وَمِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

• إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهَا كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَمَا يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ: قِرَاءَةُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ ذَلِكَ، وَأَنَّ مَنْ قَرَأَهَا إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ.

روى البخاري في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ، لَا رَفْعَتَكَ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟)، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَأَ حَاجَةٌ شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: (أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ)، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ - وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ -: فَأَخَذْتُهُ - يَعْنِي: فِي الثَّالِثَةِ - فَقُلْتُ: لَا رَفْعَتَكَ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: (مَا هِيَ؟)، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ،

فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟) قَالَ: لَا، قَالَ: (ذَاكَ شَيْطَانٌ)»^(١).

فهذا الحديث فيه فضل هذه الآية الكريمة، وعِظَمُ نَفْعِهَا، وشِدَّةُ تأثيرها في التحرُّزِ مِنَ الشَّيْطَانِ والوقايةِ مِنْ شَرِّهِ، وَأَنَّ مَنْ قَرَأَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ حُفِظَ وَكُفِّيَ وَلَمْ يَقْرُبْهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ؛ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِيهَا مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَمَجِيدِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَبَيَانِ تَفَرُّدِهِ بِالْكَمَالِ وَالْجَلَالِ مَا يُحَقِّقُ لِمَنْ قَرَأَهَا الْحَفِظَ وَالْكَفَايَةَ؛ ففِيهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ، وَفِيهَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْعَشْرِينَ صِفَةً، وَقَدْ بُدِئَتْ بِذِكْرِ تَفَرُّدِ اللَّهِ بِالْأَلُوْهِيَّةِ وَبَطْلَانِ أَلُوْهِيَّةِ كُلِّ مَنْ سِوَاهُ، ثُمَّ ذِكْرِ حَيَاةِ اللَّهِ الْكَامِلَةِ الَّتِي لَا يَلْحَقُهَا فَنَاءٌ، وَذِكْرِ قِيَوْمِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ؛ أَي: قِيَامِهِ بِنَفْسِهِ، وَقِيَامِهِ بِتَدْبِيرِ أُمُورِ خَلْقِهِ، وَذِكْرِ تَنْزُهِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ صِفَاتِ النِّقْصِ كَالسَّنَةِ وَالنَّوْمِ، وَبَيَانِ سَعَةِ مُلْكِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عِبِيدٌ لَهُ، دَاخِلُونَ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَذَكَرَ مِنْ أَدْلَةِ عَظَمَتِهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، وَفِيهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعِلْمِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ مَعْلُومٍ، فَهُوَ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، وَفِيهَا بَيَانُ عَظَمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِذِكْرِ عَظَمَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِذَا كَانَ الْكُرْسِيُّ - وَهُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ - وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ الْجَلِيلِ، وَالرَّبِّ الْعَظِيمِ، وَفِيهَا بَيَانُ عَظَمَةِ اقْتِدَارِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ لَا يُوَدُّهُ؛ أَي: لَا يُثْقَلُهُ حِفْظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ خُتِمَتِ الْآيَةُ بِذِكْرِ اسْمَيْنِ عَظِيمَيْنِ لِلَّهِ، وَهُمَا «الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ»، وَفِيهِمَا إِثْبَاتُ عُلُوِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ذَاتًا وَقُدْرًا وَقَهْرًا، وَإِثْبَاتُ عَظَمَتِهِ

سبحانه بالإيمان بأنَّ له جميعَ معاني العَظَمَةِ والجلال، وأنَّه لا يَسْتَحِقُّ أحدٌ التعظيمَ والتكبيرَ والإجلالَ سواه.

فهي آيةٌ عظيمةٌ فيها من المعاني الجليلة، والدَّلالاتِ العميقة، والمعارفِ الإيمانية: ما يدلُّ على عِظَمِها وجلالِ شأنِها، وقد ثَبَتَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ كما في «الصحيح»: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَنْ كَعْبٍ: (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟) فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَردَّدَهَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أَبِي: هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فَقَالَ: (لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ!)»^(١)؛ أي: لِيَكُنِ الْعِلْمُ هَنِيئًا لَكَ.

• وَمِمَّا يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهِ عِنْدَمَا يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ: أَنْ يَقْرَأَ سُورَةَ الْكَافُرُونَ، وَيَجْعَلَهَا آخِرَ مَا يَقْرَأُ؛ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشُّرْكِ.

روى الإمام أحمد في «مسنده»، عن فَرَوَةَ بْنِ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: «دَفَعَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَةَ أُمِّ سَلَمَةَ، وَقَالَ: (إِنَّمَا أَنْتَ ظُرِّي)، قَالَ: فَمَكَّنْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: (مَا فَعَلْتَ الْجَارِيَةُ أَوْ الْجَوِيرِيَةُ؟)، قَالَ: قُلْتُ: عِنْدَ أُمِّهَا، قَالَ: (فَمَجِيءٌ مَا جِئْتُ؟) قَالَ: قُلْتُ: تُعَلِّمُنِي مَا أَقُولُ عِنْدَ مَنْ أَمِي، فَقَالَ: (اقْرَأْ عِنْدَ مَنْ أَمِيكَ: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾)، ثُمَّ نَمَّ عَلَى خَاتِمَتِهَا؛ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشُّرْكِ»^(٢).

وقد دلَّ هذا الحديثُ على فَضْلِ هذه السورة، وَفَضْلِ قِرَائَتِهَا عِنْدَ النَّوْمِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي أَنْ يَنَامَ الْمُسْلِمُ عَلَى خَاتِمَتِهَا؛ لِيَكُونَ آخِرَ مَا نَامَ عَلَيْهِ هُوَ إِعْلَانُ التَّوْحِيدِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشُّرْكِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ قَرَأَهَا، وَفَهِمَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَعَمِلَ بِمَا تَقْتَضِيهِ، فَقَدْ بَرِيَ مِنَ الشُّرْكِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُسَمِّيَهَا: الْمُقَشَّقِشَةَ؛ يَقَالُ: قَشَقَشَ فُلَانٌ: إِذَا بَرِيَ مِنْ مَرَضِهِ؛ فَهِيَ تُبْرِئُ صَاحِبَهَا مِنَ الشُّرْكِ.

(١). تقدم تخريجه (ص ٧٨).

(٢). «المسند» (٤٥٦/٥)، ورواه الترمذي رقم (٣٤٠٣) مختصرًا، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٦٠٤).

وَتُسَمَّى هِيَ وَسُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بِسُورَتِي الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّ فِيهِمَا
إِخْلَاصَ التَّوْحِيدِ بِنُوعِيهِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَمَلِيِّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَاضِبُ عَلَى قِرَاءَتِهِمَا فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ، فَيَفْتَتِحُ بِهِمَا
عَمَلَ النَّهَارِ، وَكَانَ يَقْرَأُهُمَا فِي سُنَّةِ الْمَغْرِبِ، فَيَخْتِمُ بِهِمَا عَمَلَ النَّهَارِ، وَكَانَ
يُوتِرُ بِهِمَا، فَيَكُونَانِ خَاتِمَةَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَسَبَقَ أَنْ مَرَّ مَعَنَا أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ:
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، وَفِي حَدِيثٍ نَوْفَلٍ هَذَا التَّرغِيبُ فِي
قِرَاءَةِ ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عِنْدَ النَّوْمِ، فَيَكُونَانِ بِذَلِكَ الْخَاتِمَةَ الَّتِي يَنَامُ عَلَيْهَا
الْمُسْلِمُ.



فَضْلُ قِرَاءَةِ الْآيَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كُلِّ لَيْلَةٍ

لقد ثبت في السنة عن النبي ﷺ الترغيب في قراءة الآيتين اللتين ختمت بهما سورة البقرة في كل ليلة، وذكر ﷺ في ذلك فضلاً عظيماً؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: (مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ، كَفَتَاهُ) ^(١).

وقد دلّ هذا الحديث على فضل قراءة هاتين الآيتين كل ليلة: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة﴾.

وهما آيتان عظيمتان، دلّت الأولى منهما على إيمان الرسول والمؤمنين معه بالله، وبكل ما أمرهم سبحانه بالإيمان به، وانقيادهم وطاعتهم له سبحانه في جميع أوامره؛ حيث أخبر فيها سبحانه أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسوله من صفات كماله، ونعوت جلاله، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل، وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الكرام، وبجميع ما ذكر عنهم

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٠٠٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٠٨).

في الوحي؛ مِنْ أَسْمَائِهِمْ وَأَوْصَافِهِمْ، وَأَعْدَادِهِمْ وَوُضَائِفِهِمْ، وَالْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ﷺ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَيْهِمْ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ الْكُتُبُ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَأَنَّهُمْ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ، بَلْ يُؤْمِنُونَ بِالْجَمِيعِ، وَيَقُولُونَ: سَمِعْنَا مَا أَمَرْتَنَا بِهِ وَنَهَيْتَنَا عَنْهُ، وَأَطَعْنَا لَكَ فِي ذَلِكَ، وَيَسْأَلُونَهُ الْمَغْفِرَةَ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ تَقْصِيرٍ أَوْ إِخْلَالٍ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ مَرْجِعَهُمْ وَمَصِيرَهُمْ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَيَجَازِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ هَذَا خِلَاصُهُ مَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْأُولَى.

والآية الثانية: فيها الإخبارُ بأنَّ الله لا يُكَلِّفُ النَّاسَ مَا لَا يَطِيقُونَ، أَوْ يَشْتَقُّ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ، بَلْ كَلَّفَهُمْ بِمَا فِيهِ غِذَاءٌ أَرْوَاهُمْ، وَدَوَاءٌ أَبْدَانَهُمْ، وَصَلَاحٌ قُلُوبَهُمْ، وَزَكَاةٌ نَفُوسَهُمْ، وَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِأَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ مِنَ الْخَيْرِ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ مِنَ الشَّرِّ، وَلَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ إِيْمَانِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، وَأَنَّهُمْ قَابِلُوا أَمْرَ اللَّهِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَأَنَّ كُلَّ عَامِلٍ سَيُجَازَى بِعَمَلِهِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُرْضَةً لِلتَّقْصِيرِ وَالْخَطِئِ وَالنَّسْيَانِ؛ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ الْعِبَادَ إِلَّا مَا يَطِيقُونَ، وَأَخْبَرَ عَنْ دَعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، إِلَى آخِرِ مَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ مِنْ دَعَوَاتٍ مُبَارَكَةٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: (قَدْ فَعَلْتُ)؛ أَي: أَجَبْتُ لِمَنْ دَعَا بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ.

وقد ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: (قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ) ^(١).

فَتَضَمَّنَتِ الْآيَاتَانِ إِيْمَانَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، وَدُخُولَهُمْ تَحْتَ طَاعَتِهِ وَعِبُودِيَّتِهِ، وَاعْتِرَافَهُمْ بِرَبُوبِيَّتِهِ، وَاضْطِرَارَهُمْ إِلَى مَغْفِرَتِهِ، وَاعْتِرَافَهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِ، وَإِقْرَارَهُمْ بِرَجُوعِهِمْ إِلَيْهِ، وَاسْتِشْعَارَهُمْ لِمَجَازَاتِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَدَعَاءَهُمْ إِيَّاهُ سُبْحَانَهُ، وَسُؤَالَهُمْ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ وَالنَّصَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَهِيَ - بَلَا رَيْبٍ - مَعَانٍ عَظِيمَةٌ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ إِيْمَانِهِمْ، وَتَمَامِ قَبُولِهِمْ، وَصِدْقِ انْقِيَادِهِمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (١٢٥).

ولهذا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ في الحديثِ الْمُتَقَدِّمِ: أَنَّ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَّاهُ؛ قَالَ الشُّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَيُّ: أَغْنَاهُ عَنْ قِيَامِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِالْقُرْآنِ، أَوْ أَجْزَأَتْهُ عَنْ قِرَائَتِهِ الْقُرْآنَ، أَوْ أَجْزَأَتْهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِعْتِقَادِ؛ لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ إِجْمَالًا، أَوْ وَقَّاهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، أَوْ كَفَّاهُ شَرَّ الشَّيَاطِينِ، أَوْ شَرَّ الثَّقَلَيْنِ أَوْ شَرَّ الْآفَاتِ كُلِّهَا، أَوْ كَفَّاهُ بِمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ ثَوَابٍ غَيْرِهَا، وَلَا مَانِعَ مِنْ إِرَادَةِ هَذِهِ الْأُمُورِ جَمِيعِهَا؛ وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ: مَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ مِنْ أَنَّ حَذْفَ الْمُتَعَلِّقِ مُشْعِرٌ بِالتَّعْمِيمِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: كَفَّاهُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ أَوْ مِنْ كُلِّ مَا يَخَافُ، وَفَضْلُ اللَّهِ وَاسِعٌ»^(١). اهـ. كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ مَعْنَى (كَفَّاهُ)؛ أَيُّ: مِنْ شَرٍّ مَا يُؤْذِيهِ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ «الْوَابِلُ الصَّيْبُ»: «الصَّحِيحُ أَنْ مَعْنَاهَا: كَفَّاهُ مِنْ شَرٍّ مَا يُؤْذِيهِ، وَقِيلَ: كَفَّاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ؛ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ»^(٢). اهـ.

❦ فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ: أَنْ يُحَافِظَ عَلَى قِرَاءَةِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ كُلِّ لَيْلَةٍ؛ لِيَنَالَ هَذَا الْمَوْعُودَ الْكَرِيمَ بِأَنْ يُكْفَى مِنْ كُلِّ شَرٍّ يُؤْذِيهِ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَرَى أَحَدًا يَعْقِلُ بَلَّغَهُ الْإِسْلَامُ، يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَإِنَّهَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ» ثَبَتَ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ؛ مِنْهَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ)^(٤).

وَفِي «الْمُسْنَدِ» أَيْضًا، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ:

(١) «تحفة الذاكرين» (ص ٩٩). (٢) «الوابل الصيب» (ص ١٥٦).

(٣) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٥٠٧/١)، وأورده النووي في «الأذكار» (ص ٨٩) بلفظ آخر، وقال: «إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم».

(٤) «المسند» (١٨٠/٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٦٠).

قال رسول الله ﷺ: (اقْرَأِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنِّي أُعْطِيْتُهُمَا مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ)^(١).

وَمِمَّا وَرَدَ فِي فَضْلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: مَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بَيْنَمَا جَبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: (هَذَا بَابُ فُتُوحِ الْيَوْمِ لَمْ يَفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ، نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ)»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَعْطَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ - خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُؤْتَ مِنْهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَفَهِمَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ، وَقَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الْخَمْسِ، وَالرَّدُّ عَلَى كُلِّ مُبْطِلٍ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ كِمَالِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذَا النَّبِيِّ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وَمَحَبَّةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَهُمْ، وَتَفْضِيلِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ -: فَلْيَهْنِهِ الْعِلْمُ»^(٣)، ثُمَّ ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَامًا نَفِيسًا فِي بَيَانِ مَعْنَاهَا.

وفي كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ حُثٌّ عَلَى الْعَنَاءِ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ حَفْظًا وَقِرَاءَةً، وَتَدَبُّرًا وَتَحْقِيقًا، وَاللَّهُ الْمَرْغُوبُ أَنْ يُؤَفِّقَنَا لِلذَلِكَ وَلِكُلِّ خَيْرٍ.



(١) «المسند» (٤/١٤٧)، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْمَ (١١٧٢).

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْمَ (٨٠٦).

(٣) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (١٤/١٢٩).

مِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

لقد أرشد النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ المسلمَ عندما يَأْوِي إلى فراشه لينامَ إلى جُمْلَةٍ مِنَ الْآدَابِ الْعَظِيمَةِ، وَالْخِصَالِ الْكَرِيمَةِ، وَالتِّي يَتَرَتَّبُ عَلَى مُحَافَظَتِهِ عَلَيْهَا وَعِنَايَتِهِ بِهَا أَثَارٌ حَمِيدَةٌ عَدِيدَةٌ؛ مِنْهَا: هُدُوؤُهُ فِي نَوْمِهِ، وَسُكُونُهُ وَرَاحَتُهُ، وَسَلَامَتُهُ مِنَ الشُّرُورِ وَالْآفَاتِ، وَلِيُصْبِحَ مِنْ ذَلِكَ النَّوْمِ عَلَى نَفْسٍ طَيِّبَةٍ، وَهَمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَخَيْرٍ وَنَشَاطٍ.

• وَمِنْ ذَلِكَ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «(إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اَللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ)، قَالَ: فَرَدَدْتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ، فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: (لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)»^(١).

فهذا الحديث العظيم يشتمل على بعض الآداب التي يحسنُ بالمسلم أنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَقَدْ أَرَشَدَ ﷺ أَوَّلَ مَا أَرَشَدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مَنْ أَوَى إِلَى فَرَاشِهِ أَنْ يَتَوَضَّأَ وَضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ؛ وَذَلِكَ لِيَكُونَ عِنْدَ النَّوْمِ عَلَى أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ، وَهِيَ الطَّهَارَةُ، وَلِيَكُونَ ذِكْرُهُ لِلَّهِ ﷻ عِنْدَ نَوْمِهِ عَلَى حَالِ الطَّهَارَةِ، وَهِيَ الْحَالُ الْأَكْمَلُ لِلْمُسْلِمِ فِي ذِكْرِهِ لِلَّهِ ﷻ. ثُمَّ وَجَّهَ ﷺ إِلَى أَنْ يَنَامَ الْمُسْلِمُ

على شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، وَهِيَ أَكْمَلُ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِ فِي نَوْمِهِ، ثُمَّ أَرْشَدَهُ ﷺ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْكَامِلَةِ أَنْ يَبْدَأَ فِي مُنَاجَاةِ رَبِّهِ ﷻ بِذَلِكَ الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَرْشَدَ إِلَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

❏ وَإِنَّ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَنِيَ بِهِ الْمُسْلِمُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ: أَنْ يَتَأَمَّلَ مَعَانِيَ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ الْمَأْثُورَةِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَكْمَلَ لَهُ فِي مُنَاجَاةِ رَبِّهِ ﷻ، وَدُعَائِهِ إِيَّاهُ.

وَعِنْدَمَا نَتَأَمَّلُ هَذَا الدُّعَاءَ الْعَظِيمَ الْوَارِدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ نَجِدُ أَنَّهُ اشْتَمَلَ مِنْ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ، وَالْمَقَاصِدِ الْعَظِيمَةِ عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ، يَحْسُنُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحْضِرًا لَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ.

وقوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ)؛ أي: إني - يا الله - قد رَضِيتُ تَمَامَ الرِّضَا أَنْ تَكُونَ نَفْسِي تَحْتَ مَشِيَّتِكَ، تَتَصَرَّفُ فِيهَا بِمَا شِئْتَ، وَتَقْضِي فِيهَا بِمَا أَرَدْتَ مِنْ إِمْسَاكِهَا أَوْ إِرْسَالِهَا، فَأَنْتَ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَنَوَاصِي الْعِبَادِ جَمِيعُهُمْ مَعْقُودَةٌ بِقَضَائِكَ وَقَدْرِكَ، تَقْضِي فِيهِمْ بِمَا أَرَدْتَ، وَتَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا تَشَاءُ، لَا رَادَّ لِقَضَائِكَ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِكَ.

قوله: (وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ)؛ أي: مُخْلِصًا لَا أَبْتَغِي بِعَمَلِي وَقَضِي غَيْرَكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقول: (وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ)؛ أي: جَعَلْتُ شَأْنِي كُلَّهُ إِلَيْكَ، وَفِي هَذَا الْاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَالتَّوَكُّلُ التَّامُّ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَا حَوْلَ لِلْعَبْدِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ ﷻ.

وقوله: (وَأَلْبَجأتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ)؛ أي: أَسَنَدْتُهُ إِلَى حِفْظِكَ وَرِعَايَتِكَ؛ لِمَا عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا سَنَدَ يُتَّقَوَّى بِهِ سِوَاكَ، وَلَا يَنْفَعُ أَحَدًا إِلَّا حِمَاكَ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى افْتِقَارِ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ؛ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَّتِهِ، وَحَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ.

وقوله: (رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ)؛ أي: إني أقول ما سبق كله وأنا راغبٌ راهبٌ؛ أي: راغبٌ تمامَ الرَغْبَةِ في فضلك الواسع، وإنعامك العظيم، وراهبٌ منك ومن كلِّ أمرٍ يقع في سَخَطِكَ، وهذا هو شأنُ الأنبياء والصالحين من عباد الله؛ يَجْمَعُونَ في دعائهم بين الرَغْبِ والرهَب؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِأَلْحَنِاتِ الْفَوَاحِشِ الَّتِي فِي الْبَنَاتِ يُدْعَوْنَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ثم قال ﷺ في هذا الدعاء: (لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ)؛ أي: لا مَلَاذٌ ولا مَهْرَبٌ ولا مَخْلَصٌ من عقوبتك إلا بالفزع إليك، والاعتماد عليك؛ كما قال تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وكما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة].

ثم قال: (آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)؛ أي: آمَنْتُ بِكِتَابِكَ العظيم - القرآن الكريم -، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، آمَنْتُ وأَقَرَّرْتُ أَنَّهُ وَحْيُكَ وَتَنْزِيلُكَ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى وَالنُّورِ، وَآمَنْتُ كَذَلِكَ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَخَيْرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، آمَنْتُ بِهِ وَبِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ، فَهُوَ ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى؛ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى، فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ، فَهُوَ صِدْقٌ وَحَقٌّ.

وقوله: (الَّذِي أَرْسَلْتَ)؛ أي: إلى كافة الخلق بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فَبَلَغَ الرسالة، وأَدَّى الأمانة، وَنَصَحَ الأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ.

ثم قال ﷺ مبيِّناً فضيلةَ هذا الدعاء، وَعِظَمَ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ الْمَتَرْتَّبِ عَلَيْهِ: (فَإِنْ مِتُّ عَلَى الْفِطْرَةِ)؛ أي: على الإسلام، فالإسلام هو دينُ الفطرة؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾

[الرُّوم: ٣٠]، وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث أنه قال: (وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْرًا)؛ أي: إِنْ لَمْ تَمُتْ مِنْ لَيْلَتِكَ تِلْكَ، أَصَبْتَ فِي الصَّبَاحِ خَيْرًا؛ ثَوَابًا لَكَ عَلَى اهْتِمَامِكَ بِهَذَا الْأَمْرِ.

وقد أَرَشَدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ الْمُسْلِمُ هَذَا الدُّعَاءَ فِي آخِرِ الدَّعَوَاتِ وَالْأَذْكَارِ الَّتِي يَقُولُهَا الْمُسْلِمُ عِنْدَ نَوْمِهِ؛ لَتَكُونَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ آخِرَ كَلَامِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ نَوْمِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ).

وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْبَرَاءِ لَمَّا رَدَّدَ الدُّعَاءَ أَمَامَهُ مِنْ أَجْلِ اسْتِذْكَارِهِ: (لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ) دَلِيلٌ عَلَى أَهْمِيَّةِ التَّقْيُّدِ بِهَذِهِ الْأَذْكَارِ حَسَبَ أَلْفَاظِهَا الْوَارِدَةِ؛ لِكَمَالِهَا فِي مَبْنَاهَا وَمَعْنَاهَا.

❦ فَهَذَا دُعَاءٌ عَظِيمٌ يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ عِنْدَ نَوْمِهِ، وَيَتَأَمَّلَ فِي دَلَالَتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَمَعَانِيهِ الْجَلِيلَةِ؛ لِيُظَفَّرَ بِعَظِيمِ مَوْعِدِ اللَّهِ لِمَنْ حَافِظٌ عَلَيْهِ وَاعْتَنَى بِهِ، وَاللَّهُ الْكَرِيمَ نَسْأَلُ أَنْ يُؤَفِّقَنَا لِلْمَحَافَظَةِ عَلَيْهِ وَالْعِنَايَةِ بِهِ، وَأَنْ يُؤَفِّقَنَا لِكُلِّ خَيْرٍ يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.



وَمِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

• إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ يُوَاطَّبُ عَلَيْهَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ عِنْدَ النَّوْمِ وَعِنْدَ الْإِنْتَبَاهِ مِنْهُ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ، قَالَ: (بِسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)»^(١)، وَفِي لَفْظٍ: «كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ»^(٢)؛ أَيْ: دَخَلَ فِيهِ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ»^(٣)، وَكُلُّهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ: (بِسْمِكَ اللَّهُمَّ)؛ أَيْ: بِاسْمِكَ يَا اللَّهُ، وَالْبَاءُ لِلِاسْتِعَانَةِ؛ وَالْمَعْنَى: أَنَا مُسْتَعِينٌ بِكَ، طَالِبًا حِفْظَكَ، رَاجِيًا مِنْكَ الْوَقَايَةَ وَالسَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَقَوْلُهُ: (أَمُوتُ وَأَحْيَا)؛ أَيْ: أَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ذَاكِرًا لِاسْمِكَ، فَبِذِكْرِ اسْمِكَ أَحْيَا مَا حَيِّتُ وَعَلَيْهِ أَمُوتُ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا غِنَى لَهُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ طَرَفَةً عَيْنٍ عِنْدَ نَوْمِهِ، وَفِي يَقْظَتِهِ، وَفِي جَمِيعِ شُؤْنِهِ، فَهَا هُوَ عِنْدَ النَّوْمِ يَخْتِمُ أَعْمَالَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَعِنْدَ الْإِنْتَبَاهِ يَكُونُ أَوَّلَ أَعْمَالِهِ ذِكْرُ اللَّهِ، ثُمَّ هُوَ فِي جَمِيعِ أَحْيَائِهِ مُحَافِظٌ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ، فَعَلَى ذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ يَحْيَا، وَعَلَيْهِ يَمُوتُ، وَعَلَيْهِ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَفِي قَوْلِهِ: (بِسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ) عِنْدَ إِرَادَةِ النَّوْمِ: دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ النَّوْمَ يُسَمَّى مَوْتًا، وَيُسَمَّى وَفَاةً، وَإِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ مَوْجُودَةً فِيهِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٩٩).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣١٢).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٦٣١٤).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرُّم: ٤٢]؛ ولهذا قال في تمام هذا الحديث عند الاستيقاظ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا)؛ يشير إلى النَّوْم الذي كان عليه الإنسان، والنَّائِم يُشَبِّهُ الْمَيِّت؛ لِأَنَّ الْحَرَكَةَ فِيهِ تَتَوَقَّفُ، وَالتَّمْيِيزُ يَذْهَبُ؛ وَلِهَذَا كَانَ التَّكْلِيفُ عَنْهُ مَرْفُوعًا حَتَّى يَسْتَيْقِظَ مِنْ نَوْمِهِ.

وَالنَّوْمُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَعَظَمَتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٣]، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، حَيْثُ جَعَلَ لَهُمْ وَقْتًا يَسْتَرِيحُونَ فِيهِ وَيَسْتَجِمُّونَ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الْفَصَص: ٧٣].

* وَمِنْ فَوَائِدِ النَّوْمِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّهُ يُذَكِّرُ الْإِنْسَانَ بِالْمَوْتِ الَّذِي هُوَ نَهَائِهِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَمَا لَ كُلِّ حَيٍّ إِلَّا الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَفِي الْاسْتَيْقَازِ مِنْهُ دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى بَعْثِ الْأَجْسَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَإِحْيَائِهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ عِنْدَ الْاسْتَيْقَازِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)، وَالنُّشُورُ هُوَ الْبَعْثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْإِحْيَاءُ بَعْدَ الْإِمَاتَةِ، فَتَبَّةٌ بِإِعَادَةِ الْيَقَظَةِ بَعْدَ النَّوْمِ - الَّذِي هُوَ مَوْتُ كَمَا تَقَدَّمَ - عَلَى إِثْبَاتِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»، مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ، وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ الْأَيْمَنِ، وَيَقُولُ: (اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ، يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ).

وقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا) فِيهِ حَمْدُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٨١/٤)، وأبو داود رقم (٥٠٤٥) عن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والترمذي رقم (٣٣٩٩)، و«الأدب المفرد» رقم (١٢١٥)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٩٢١).

النُّعْمَةُ العَظِيمَةُ، وَالْمِنَّةُ الجَسِيمَةُ، وَهِيَ الإِحْيَاءُ بَعْدَ الإِمَاتَةِ؛ أَيْ: الاسْتِيقَاطُ بَعْدَ النَّوْمِ. وَمِنْ المَعْلُومِ أَنَّ الإنسانَ حَالٌ نَوْمِهِ يَتَعَطَّلُ عَنِ الِانْتِفَاعِ بِهَذِهِ الحَيَاةِ، وَالتَّمَكُّنِ مِنْ أَدَاءِ العِبَادَاتِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ زَالَ عَنْهُ ذَلِكَ المَانِعُ، فَهُوَ يَحْمَدُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا عَلَى هَذَا الإِنْعَامِ، وَيَشْكُرُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى هَذَا العَطَاءِ وَالْإِكْرَامِ.

وَمِنْ جَمِيلِ مَا يَرْتَبِطُ بِهَذَا المَعْنَى تَمَامَ الارتباطِ، وَيَتَفَقَّحُ مَعَهُ تَمَامَ الِاتِّفَاقِ: مَا خَرَّجَهُ الشَّيْخَانُ: البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنِّي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتْ نَفْسِي فَارْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ^(١)).

وَمِثْلُهُ كَذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه: «أَنَّهُ أَمَرَ رَجُلًا إِنْ أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَالَ: (اللَّهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي، وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ)، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ عُمَرَ؟ فَقَالَ: مِنْ خَيْرٍ مِنْ عُمَرَ، مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»^(٢).

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ رُوحَ الْإِنْسَانِ بِيَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ؛ فَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَهَا بَعْدَ الْعَدَمِ، وَخَلَقَهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي إِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا حَالِ نَوْمِ الْإِنْسَانِ، فَيُضْبِعُ فِي عِدَادِ الْأَمْوَاتِ، وَإِنْ شَاءَ أَرْسَلَهَا، فَيَقِي الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا)؛ أَيْ: أَنَّ ذَلِكَ بِيَدِكَ وَتَحْتَ تَصَرُّفِكَ وَتَدْبِيرِكَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاكَ، فَأَنْتَ الْمُحْيِي، وَأَنْتَ الْمُمِيتُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٢٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧١٤).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧١٢).

ولهذا شُرِعَ للمسلم في هذا المقام أن يسأل ربّه الحفظ إن كتّب له البقاء والحياة، ويسأله الرحمة والمغفرة إن كتّب له الموت؛ ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (إِنْ أَمْسَكَتْ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلَتْهَا فَأَحْفَظَهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)، وفي حديث ابن عمر، قال: (إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَأَحْفَظَهَا، وَإِنْ أَمَتَهَا فَأَعْفِرَ لَهَا).

وكما ينبغي على المسلم أن يكون عندما يأوي إلى فراشه مُتَذَكِّرًا مَالَهُ ومصيره، فإنه كذلك ينبغي عليه أن يتذكّر نعمة الله عليه فيما مضى من أيامه بالطعام والشراب، والمسكن والصحة والعافية، فيحمد الله ويشكره على ذلك. ولهذا ثبت في «صحيح مسلم»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَّنَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي)»^(١).

❦ وعلى هذا، فإنّ المسلم عندما يأوي إلى فراشه ينبغي أن يكون مُتَذَكِّرًا أمرين: ما مضى من أيامه، فيحمد الله على ما أمده فيها من الصحة والعافية، والمطعم والمشرب والمسكن، وغير ذلك، وأن يتذكّر ما يستقبل من أوقاته؛ وهو فيها بين أمرين: إمّا أن تُقبَضَ روحه، فهو يسأل الله إن كان ذلك المغفرة والرحمة، أو أن يُفْسَحَ له في أجله، فهو يسأل الله في هذه الحال أن يحفظه بما يحفظ به عباده الصالحين.



وَمِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

• إِنَّ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحُثُّ مَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ عَلَى الْمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا، وَالْعَنَاءِ بِهَا: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخَذْنَا مَضْجِعَنَا أَنْ نَقُولَ: (اللَّهُمَّ، رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ)^(١).

وهو دعاء عظيم، يَحْسُنُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَمَا يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى تَوَسُّلَاتٍ عَظِيمَةٍ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِلسَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَالْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَبِإِنْزَالِهِ لِكَلَامِهِ الْعَظِيمِ، وَوَحْيِهِ الْمُبِينِ: بِأَنْ يُحِيطَ الْإِنْسَانُ بِرِعَايَتِهِ وَيَكْلَأُهُ بِعَنَائَتِهِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ، وَمُشْتَمِلٌ عَلَى تَوَسُّلٍ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَإِحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، بِأَنْ يَقْضِيَ عَنِ الْإِنْسَانِ دَيْنَهُ وَيُغْنِيَهُ مِنْ فَقْرِهِ.

وقوله: (اللَّهُمَّ، رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)؛ أَي: يَا خَالِقَ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الْعَظِيمَةِ، وَمُبْدِعَهَا وَمُوجِدَهَا بَعْدَ الْعَدَمِ. وَقَدْ خَصَّ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧١٣).

هذه المخلوقات بالذِّكْرِ؛ لِعَظَمَتِهَا وَكِبَرِهَا، ولكثرة ما فيها مِنَ الآياتِ البَيِّنَاتِ، والدَّلَالَاتِ البَاهِرَاتِ، على كَمَالِ خَالِقِهَا، وَعَظَمَةِ مُبْدِعِهَا؛ وَإِلَّا فَإِنَّ جَمِيعَ المخلوقاتِ؛ صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، دَقِيقُهَا وَجَلِيلُهَا، فيها آيَةٌ بَيِّنَةٌ على كَمَالِ الخَالِقِ سبحانه.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

ولهذا عَقَّبَ هذا الدعاءَ بقوله: (رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ)؛ وهذا تَعْمِيمٌ بعد تخصيص؛ لئَلَّا يُظَنَّ أَنَّ الأمرَ مُخْتَصٌّ بما ذُكِرَ.

وقوله: (رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) فيه دَلَالَةٌ على عَظَمَةِ العَرْشِ، وَأَنَّهُ أَعْظَمُ المخلوقاتِ، وقد جاء في الحديثِ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حديدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْنِ فَلَاحَ مِنَ الْأَرْضِ)^(١)، وإذا كان هذا المخلوق بهذه العَظَمَةِ والمَجْدِ والسَّعَةِ، فكيف بخَالِقِهِ وَمُبْدِعِهِ سبحانه؟!

وقوله: (فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى) مِنَ الْفَلَقِ، وهو السَّقَى؛ أي: الذي يَشْقُ حَبَّةَ الطعامِ، وَنَوَى التمرَ وغيره؛ لَتَخْرُجَ الأشجارُ والزروعُ؛ فَإِنَّ النباتاتَ إِمَّا أشجارٌ أَصْلُهَا النَّوَى، أو زروعٌ أَصْلُهَا الْحَبُّ، والله سبحانه لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ وبَدِيعِ خَلْقِهِ هو الذي يَفْتَحُ هذا الْحَبَّ وَالنَّوَى الْيَابِسَ الذي كَالْحَجَرِ لا يَنمو ولا يَزِيدُ، فَيَنْفَرُجُ وتَخْرُجُ منه الزروعُ العظيمةُ، والأشجارُ الكبيرةُ؛ وفي هذا آيَةٌ باهرةٌ على كَمَالِ الْمُبْدِعِ وَعَظَمَةِ الخَالِقِ سبحانه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وقوله في هذا الدعاء: (وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ) فيه تَوَسُّلٌ إلى الله ﷻ بِإِنزَالِهِ لهذه الكُتُبِ العظيمةِ، المُشتملةِ على هدايةِ الناسِ وفلاحِهِمْ وسعادَتِهِمْ في الدنيا والآخرة، وقد خَصَّ هذه الكُتُبَ الثلاثةَ؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ كُتُبٍ أُنْزِلَها اللهُ، وَذَكَرَها مُرتَبَةً ترتيبيًا زمنيًا، فَذَكَرَ أَوَّلَ التَّوْرَةِ التي أُنْزِلَتْ على

موسى ﷺ، ثُمَّ الْإِنْجِيلَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى ﷺ، ثُمَّ الْفِرْقَانَ - وهو القرآن الكريم - الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وفي هذا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْكِتَابَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا مُنْزَلَةٌ مِنْ عِنْدِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهَا غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ وَلِهَذَا فَرَّقَ فِي هَذَا الدَّعَاءِ بَيْنَهَا؛ فِي الْمَخْلُوقَاتِ قَالَ: (رَبِّ) وَ(فَالِقِ)، وَفِي كَلَامِهِ وَوَحْيِهِ قَالَ: (مُنْزِلَ)؛ وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ؛ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ!

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِهِ لِهَذِهِ الْوَسَائِلِ الْعَظِيمَةِ: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)، وَهَذَا شُرُوعٌ فِي ذِكْرِ رَغْبَةِ الْإِنْسَانِ وَحَاجَتِهِ وَمَطْلُوبِهِ مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَقَوْلُهُ: (أَعُوذُ بِكَ)؛ أَي: أَلْتَجِئُ وَأَعْتَصِمُ بِكَ، وَأَحْتَمِي بِجَنَابِكَ (مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)، وَالِدَابَّةُ: هِيَ كُلُّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ، وَهُوَ يَشْمَلُ الَّذِي يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، أَوْ عَلَى رِجْلَيْنِ أَوْ عَلَى أَرْبَعٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]. وَقَوْلُهُ: (أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ كُلَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ آخِذٌ بِنَوَاصِيَتِهَا، قَادِرٌ عَلَيْهَا، يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ فِيهَا بِمَا يَرِيدُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيْمَا ذَكَرَهُ عَنْ هُودٍ ﷺ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وَالنَّاصِيَةُ: مُقَدَّمُ الرَّأْسِ.

ثُمَّ قَالَ مُتَوَسِّلًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، وَصِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ)؛ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَوْلِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَبَدِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَبِقَائِهِ بَعْدَ كُلِّ

شيء، وعُلُوّه على خَلْقِهِ واستوائِهِ على عرشِهِ وفوقِيَّتِهِ، وأنَّه الظاهرُ الذي لا شيءَ فوقَهُ، وقُرْبِهِ سبحانه مِنْ خَلْقِهِ وإِحاطَتِهِ بِهِمْ، وأنَّه جَلٌّ وعَلَا الباطنُ الذي لا شيءَ دونه. ومدارُ هذه الأسماءِ الأربعةِ على بيانِ إحاطَةِ الرَّبِّ سبحانه، وهي إحاطتان: زمانيةٌ ومكانيةٌ؛ أمَّا الزمانيةُ، فقد دَلَّ عليها اسمُهُ الأوَّلُ والآخِرُ، وأمَّا المكانيةُ، فقد دَلَّ عليها اسمُهُ الظَّاهِرُ والباطنُ؛ هذا مقتضى تفسيرِ النَّبِيِّ ﷺ، ولا تفسيرَ أكملُ مِنْ تفسيره.

وقوله: (اقضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ) هو سؤالُ الله تبارَكَ وتعالى وطلَّبٌ منه سبحانه بعد تلك التوسُّلات.

وقوله: (اقضِ عَنَّا الدَّيْنَ)؛ أي: أدِّ عَنَّا حقوقَ الله، وحقوقَ العبادِ مِنْ جميعِ الأنواع، وفي هذا تبرُّي الإنسانِ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّة، وأنَّه لا حولَ ولا قوَّةَ له إِلَّا باللهِ العظيم.

وقوله: (وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ)؛ والغنى هو: عَدَمُ الحاجة، والفقْرُ: خُلُوُّ ذاتِ اليد، والفقيرُ: هو مَنْ وَجَدَ بعضَ كفايَتِهِ، أو لَمْ يجدْ شيئاً أصلاً.

ومِنْ المعلومِ أَنَّ الدَّيْنَ والفقْرَ كلاهما هُمَّ عظيمٌ، قد يُورِّقُ الإنسانَ ويمنعُهُ مِنَ النومِ، فإذا لَجَأَ العبدُ إلى الله، وطلَّبَ منه سبحانه مَدَّةً وَعَوْنَهُ مُتَوَسِّلاً إليه بتلك التوسُّلاتِ العظيمة، فَإِنَّ نَفْسَهُ عندئذٍ تسكُنُ وتطمئنُّ، وقلْبُهُ يرتاحُ ويهدأ؛ لأنَّه وكَّلَ أمرَهُ إلى مَنْ بيدهِ أَرْمَةُ الأمورِ، ومقاليدُ السمواتِ والأرضِ، وَلَجَأَ إلى مَنْ أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له: كُنْ فيكون، وكيف لا يطمئنُّ القلبُ وقد تعلقَ بِمَنْ هذا شأنُهُ؟!



وَمِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

• إِنَّ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي كَانَ يُحَافِظُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَمَا يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ لِيَنَامَ: مَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي) ^(١).

وهذا الدعاء فيه تذكُّرٌ من المسلمِ عندما يريدُ أن ينامَ لِمَاضِي أَيَّامِهِ وسالفِ أوقاته، وما أمدَّهُ اللهُ فيها مِنَ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ، والكفاية والإيواء، في حالِ وجودِ عددٍ مِنَ النَّاسِ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَجِدُ طَعَامًا يُشْبِعُهُ وَيُعْذِّيهِ، أَوْ شَرَابًا يَسُدُّ ظَمَأَهُ وَيُرْوِيهِ، أَوْ لِبَاسًا يَسْتُرُهُ وَيُؤَارِيهِ، أَوْ مَسْكَنًا يَسْتَكِنُ فِيهِ وَيُؤْوِيهِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ أَدْرَكَهُ حَتْفُهُ فِي مَجَاعَاتٍ مُهْلِكَةٍ وَقَحِطِ مُفْجِعٍ، فَمَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَمَنْ عَلَيْهِ بِالْكَفَايَةِ وَالْإِيوَاءِ، يَجِبُ أَنْ يَسْتَشْعِرَ عِظَمَ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ وَكِبَرَ مَنَّتِهِ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يَسَّرَ لَهُ الْغِذَاءَ وَالشَّرَابَ، وَأَكْرَمَهُ بِالْكَفَايَةِ وَالْإِيوَاءِ، وَشَكَرُ النِّعْمَةِ مُؤْذِنٌ بِدَوَامِهَا وَالْمَزِيدُ؛ فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فَالشُّكْرُ مَعَ الْمَزِيدِ دَائِمًا وَأَبَدًا؛ وَلِذَا قِيلَ: «فَمَتَى لَمْ تَرَ حَالَكَ فِي مَزِيدٍ، فَاسْتَقْبِلِ الشُّكْرَ»؛ أَي: فَإِنَّكَ إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ كَانَ الْمَزِيدُ حَلِيفَكَ.

وقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا...)، إِلَى آخِرِهِ؛ فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ ﷻ وَحَمْدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى سَوَابِغِ نِعَمَائِهِ، وَتَوَالِي فَضْلِهِ وَعَطَائِهِ، وَجَزِيلِ مَوَاهِبِهِ وَسَعَةِ إِحْسَانِهِ، وَكَرِيمِ أَيْادِيهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ.

وقوله: (وَكَفَانَا) مِنَ الْكِفَايَةِ؛ أَي: دَفَعَ عَنَّا شَرَّ الْمُؤْذِيَاتِ، وَوَقَانَا أَدَى الْغَوَائِلِ وَالْعَادِيَاتِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: كَفَانَا مُهِمَّاتِنَا، وَقَضَى لَنَا حَاجَاتِنَا، وَلَا مَانَعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَلَا الْمَعْنِيِّينَ مُرَادًا؛ إِذْ كُلُّهُمَا دَاخِلٌ فِي مَعْنَى الْكِفَايَةِ، مُنْدَرِجٌ تَحْتَ مَدْلُولِهَا.

وقوله: (وَآوَانَا)؛ أَي: هَيَّأْنَا لَنَا مَأْوَى نَأْوِي إِلَيْهِ، وَرَزَقْنَا مَسْكَنًا نَسْكُنُ فِيهِ، وَرَدَدْنَا إِلَى الْمَنْزِلِ لِنَسْتَرِيحَ فِيهِ، وَلَمْ يَجْعَلْنَا مُنْتَشِرِينَ كَالْبَهَائِمِ بِلَا مَسْكَنِ وَلَا مَأْوَى؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]؛ أَي: تَسْكُنُونَ فِيهَا، وَتُكِنُّكُمْ مِنْ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَتُسْتَرُّكُمْ مِنَ الْأَعْيُنِ، وَتَجْتَمِعُونَ فِيهَا أَنْتُمْ وَمَنْ تَعُولُونَ، وَفِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مَا لَا يُمْكِنُ الْإِحَاطَةُ بِهِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنْ فَافْضَلَ، وَأَعْطَى فَأَجْزَلَ، لَهُ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ سُبْحَانَهُ وَيَرْضَى.

وَمِنْ الْأَوْرَادِ الْمَأْثُورَةِ عِنْدَ النَّوْمِ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، أَنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام أَتَتْ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَقَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ: تُسَبِّحِينَ اللَّهَ عِنْدَ مَنَامِكَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُحَمِّدِينَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ)، قَالَ عَلِيُّ عليه السلام: «فَمَا تَرَكْتَهَا بَعْدُ»، قِيلَ: وَلَا لَيْلَةً صِفِينَ؟ قَالَ: «وَلَا لَيْلَةً صِفِينَ»^(١).

فَهَذِهِ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وَرَضِيَ عَنْهَا، تَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم مَا تَقَاسِيهِ مِنَ الطَّحْنِ وَالسَّقْيِ وَالْخِدْمَةِ، وَتَسْأَلُهُ أَنْ يُعْطِيَهَا خَادِمًا (وَالْخَادِمُ يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى)؛ لِيَخِفَّ عَنْهَا مَا تَجِدُهُ مِنْ تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ، وَقَدْ رُوِيَ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»، عَنْ عَلِيِّ عليه السلام، فِي وَصْفِ مَا كَانَتْ تَجِدُهُ عليها السلام مِنْ مَشَقَّةٍ فِي أَعْمَالِهَا الْمَنْزِلِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهَا جَرَّتْ بِالرَّحَى حَتَّى أَثَرَتْ فِي يَدِهَا، وَاسْتَقَتْ بِالْقُرْبَةِ حَتَّى أَثَرَتْ فِي نَحْرِهَا، وَكُنَسَتْ الْبَيْتَ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٣٦٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٧).

حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا»^(١).

فَأَرْشَدَهَا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْ خَادِمٍ، فَقَالَ:
(أَلَا أُخْبِرُكَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ)؛ أَي: الخادم، وفي هذا مِنْ حُسْنِ النصحِ
وتمامِ التشويقِ ما لا يخفى، فَلَمَّا تَهَيَّأَتْ نَفْسُهَا وَتَحَفَّزَتْ لِمَعْرِفَةِ هَذَا الْأَمْرِ،
الذي هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي جَاءَتْ تَسْأَلُهُ، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
(تُسَبِّحِينَ اللَّهَ عِنْدَ مَنَامِكَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدِينَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللَّهَ
أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ)؛ أَي: تقولين إذا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين
مرَّةً، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين مرَّةً، والله أكبر أربعًا وثلاثين مرَّةً، فيكون
مجموع ذلك مائةً.

فَفَرَحَتْ ﷺ بِهَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ النَّاصِحُ الْأَمِينُ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَفَرِحَ بِهِ زَوْجُهَا عَلِيٌّ ﷺ، حَتَّى إِنَّهُ قَالَ: «فَمَا
تَرَكْتُهَا بَعْدُ»؛ أَي: بعد سماعه له، وفي روايةٍ قَالَ: «فَمَا تَرَكْتُهَا مِنْذُ سَمِعْتُهَا
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، فَقِيلَ لَهُ: وَلَا لَيْلَةً صِفِّينَ؟ أَي: ما تَرَكْتَ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ
وَلَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. وَلَيْلَةُ صِفِّينَ هِيَ لَيْلَةُ الْحَرْبِ الْمَعْرُوفَةُ بِصِفِّينَ قَرِيبًا مِنْ
الْفُرَاتِ، الَّتِي دَارَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَالَ ﷺ: «وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ»؛ أَي:
لَمْ يَتْرِكْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَلَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَ بَعْضِ
الشَّدَائِدِ قَدْ يَذْهَلُ عَنْ أُمُورٍ اعْتَنَى بِهَا وَأَلْفَ الْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ
يَدَعْ ﷺ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَلَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى شِدَّةِ
المحافظَةِ، وَحُسْنِ الْإِهْتِمَامِ، وَتِمَامِ الْحِرْصِ.

ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ قَدْ اسْتَدَلُّوا بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ مِنْ فُضَائِلِ الذِّكْرِ
وَفَوَائِدِهِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّهُ يُعْطِي الذَّاكِرَ قُوَّةً فِي بَدَنِهِ وَصِحَّتِهِ، وَنَشَاطِهِ وَهَمَّتِهِ؛ وَفِي
هَذَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذِّكْرُ يُعْطِي الذَّاكِرَ قُوَّةً، حَتَّى إِنَّهُ لَيَفْعَلُ مَعَ الذِّكْرِ
مَا لَمْ يُطِيقْ فَعْلَهُ بَدُونَهُ، وَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ قُوَّةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ فِي مِشْيَتِهِ

(١) «سنن أبي داود» رقم (٥٠٦٣)، لكنَّ سنده ضعيف.

وكلامه وإقدامه وكتابته أمرًا عجيبيًا...»، ثم أوردَ حديثَ عليٍّ المتقدِّم، وقال عَقِبَهُ: «فَقِيلَ: إِنَّ مَنْ دَاوَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَجَدَ قُوَّةً فِي بَدَنِهِ مَغْنِيَةً عَنْ خَادِمٍ»^(١).
 وَنَقَلَ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ أَنَّهُ قَالَ: «بَلَّغْنَا أَنَّهُ مَنْ حَافَظَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، لَمْ يَأْخُذْهُ إِعْيَاءٌ فِيمَا يُعَانِيهِ مِنْ شُغْلٍ وَغَيْرِهِ»^(٢). اهـ.
 وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يُوَفِّقَنَا جَمِيعًا لِهَذَا وَلِكُلِّ خَيْرٍ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



(١) «الوابل الصيِّب» (ص ١٥٥ - ١٥٦).

(٢) «الوابل الصيِّب» (ص ٢٠٦).

أَذْكَارُ الْإِنْتِبَاهِ مِنَ النَّوْمِ

لقد ثبتَ عن النَّبِيِّ ﷺ أذْكَارٌ مُتَنَوِّعَةٌ يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُولَهَا عِنْدَ الاستيقاظِ مِنَ النَّوْمِ، وهي في الجملة مُشْتَمِلَةٌ عَلَى إِعْلَانِ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ ﷻ، والاستعاذةِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَحَمْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى حِفْظِهِ لِلْعَبْدِ، وَإِعَانَتِهِ لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ وَذِكْرِهِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَوْ دَعَا، اسْتَجِيبْ، فَإِنْ تَوَضَّأَ، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ) ^(١).

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ فَضْلُ الْمُبَادَرَةِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الاستيقاظِ مِنَ النَّوْمِ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَوَّلَ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ استيقاظِهِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ لِمَنْ أَلْفَ الذِّكْرَ، وَتَعَوَّدَ عَلَيْهِ، وَاسْتَأْنَسَ بِهِ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ حَدِيثَ نَفْسِهِ فِي نَوْمِهِ وَيَقْظَتِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ شَأْنُهُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ عِنْدَ قِيَامِهِ مِنْ نَوْمِهِ هُوَ الْمُبَادَرَةُ إِلَى ذِكْرِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَمْجِيدِهِ وَحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَمَنْ كَانَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، فَهُوَ حَرِيٌّ - بِإِذْنِ اللَّهِ - أَنْ يُعْطَى إِذَا سَأَلَ، وَأَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ إِذَا دَعَا.

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعَدَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ مَنْ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ لَهْجًا لِسَانُهُ بِتَوْحِيدِ رَبِّهِ، وَالِإِذْعَانِ لَهُ بِالْمُلْكِ، وَالاعْتِرَافِ بِنِعَمِهِ يَحْمَدُهُ

عليها، وُيُنَزَّهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ بِتَسْبِيحِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ بِالْعَجْزِ
عَنِ الْقُدْرَةِ إِلَّا بِعَوْنِهِ: أَنَّهُ إِذَا دَعَاهُ أَجَابَهُ، وَإِذَا صَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ، يَنْبَغِي لِمَنْ
بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ أَنْ يَغْتَنِمَ الْعَمَلَ بِهِ، وَيُخْلِصَ نِيَّتَهُ لِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ^(١). اهـ.

وقوله في الحديث: (مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ)؛ أي: اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ لَيْلًا.

وقد بدأ ﷺ هؤلاء الكلمات بكلمة التوحيد: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مُؤَكِّدًا
معناها وما دلت عليه بقوله: (وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)؛ لِأَنَّ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فيها
ركنان عظيمان؛ هما: النَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ: النَّفْيُ فِي قَوْلِهِ: (لَا إِلَهَ)، وَهُوَ نَفْيٌ
لِلْعِبَادِيَّةِ عَنْ كُلِّ مَنْ سِوَى اللَّهِ، وَالْإِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ: (إِلَّا اللَّهُ)، وَهُوَ إِثْبَاتٌ
لِلْعِبَادِيَّةِ بِكُلِّ مَعَانِيهَا اللَّهُ ﷻ.

وقد أَكَّدَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ بِقَوْلِهِ: (وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)؛ فَقَوْلُهُ: (وَحْدَهُ) فِيهِ
تَأْكِيدٌ لِلْإِثْبَاتِ، وَقَوْلُهُ: (لَا شَرِيكَ لَهُ)، فِيهِ تَأْكِيدٌ لِلنَّفْيِ.

وفي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَهْمِيَّةِ التَّوْحِيدِ، وَالْبَدْءِ بِهِ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَى مَا سِوَاهُ،
وَالتَّأْكِيدِ عَلَى الْعِنَايَةِ بِفَهْمِ مَعْنَاهُ، وَالْقِيَامِ بِمَدْلُولِهِ، وَتَطْبِيقِ مَقْتَضَاهُ.

ثم قال: (لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وَهَذِهِ بَرَاهِينُ
التَّوْحِيدِ وَدَلَالَتُهُ؛ فَالَّذِي لَهُ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ هُوَ الْمَالِكُ لِلْمُلْكِ، الْمُسْتَحِقُّ
لِلْحَمْدِ، الْقَدِيرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ سِوَاهُ لَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادَةِ شَيْئًا؛ ﴿قُلْ
ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ [سَبَأُ: ٢٢].

ثم قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)، فَذَكَرَ
الكلمات الأربع التي هي أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»،
مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَحَبُّ الْكَلَامِ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْبَعٌ، لَا يَضُرُّكَ بَأَيُّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)^(٢)، وَفِي الْحَدِيثِ يَقُولُ ﷺ: (لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ،

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٤١/٣). (٢) تقدم تخريجه (ص ٨٧).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ: أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ^(١).

والتسبيح فيه تَنْزِيَهُ اللَّهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، والحمد فيه إثبات أنواع الكمال له سبحانه، والتهلِيلُ فيه تَوْحِيدُهُ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، والتكْبِيرُ فيه تعظيمُه سبحانه، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَكْبَرُ مِنْهُ.

ثم قال: (وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)، وهي كلمة استعانة، الإتيانُ بها في مثل هذا الوقت مناسبٌ غاية المناسبة؛ لأنَّ الإنسانَ عندما يقومُ من النَّوْمِ بحاجةٍ إلى هِمَّةٍ عاليةٍ ونشاطٍ، وَجِدٍّ واجتهادٍ، والمُعِينُ على ذلك كُلُّهُ هو الله وحده، وكلمة (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) فيها تفويضُ الأمرِ لِلَّهِ ﷻ، وَتَبَرُّؤُ من الحَوْلِ والقُوَّةِ إِلَّا به، وَأَنَّ العبدَ لَا يملكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا، وَلَا حِيلَةَ لَهُ فِي دَفْعِ شَرٍّ، وَلَا قُوَّةَ لَهُ فِي جَلْبِ خَيْرٍ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ سبحانه.

ثم قال: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ)؛ هكذا جاءت الرواية بالشكِّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّنْوِيعِ؛ أَي: إِنْ اسْتَغْفَرَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَإِنْ دَعَا أَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ.

ثم قال: (فَإِنْ تَوَضَّأَ، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ)؛ أَي: إِنْ صَلَّى، وقد جاء اللفظ في بعض الروايات لـ «صحيح البخاري» هكذا: (فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ)، وفي هذا حَثٌّ عَلَى الْجِدِّ فِي الطَّاعَةِ، والنَّشَاطِ لِأَدَاءِ الْعِبَادَةِ، وتركِ الْخُمُولِ والتواني والكسل، وقد أَخْرَجَ الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْحَدِيثَ فِي «كِتَابِ التَّهَجُّدِ» مِنْ «صَحِيحِهِ»، بَاب: فَضْلُ مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى.

أَي: إِنْ مَنْ صَلَّى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَبَادَرَ إِلَى الصَّلَاةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَصَلَاتُهُ حَرِيَّةٌ بِالقَبُولِ، والقَبُولُ فِي هَذَا الْمَوْطَنِ أَرْجَى مِنْهُ فِي غَيْرِهِ.

وقد أوردَ الحافظ ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ فَائِدَةً لَطِيفَةً حَوْلَ الْعِنَايَةِ بِهَذَا الذِّكْرِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْفَرَبَرِيِّ الرَّائِي عَنِ الْبُخَارِيِّ، قَالَ:

«أَجَرَيْتُ هَذَا الذُّكْرَ عَلَى لِسَانِي عِنْدَ انْتِبَاهِي، ثُمَّ نِمْتُ فَأَتَانِي آتٍ [أَي: فِي الْمَنَامِ]، فَقَرَأَ: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]^(١).

وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَنَّ الْمَحَافِظَةَ عَلَى هَذَا الذُّكْرِ مِنَ الْهَدَايَةِ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَمِنْ الْهَدَايَةِ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ، نَسَأُ اللَّهَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.



(١) «فتح الباري» (٣/ ٤١).

أَذْكَارُ الْإِسْتِيقَازِ مِنَ النَّوْمِ

• إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الَّتِي يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ قَوْلُهَا إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ: مَا ثَبَتَ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ)^(١).

وَفِي هَذَا حَمْدُ اللَّهِ ﷻ عَلَى الْمَعَافَاةِ فِي الْجَسَدِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، وَحَمْدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى رَدِّ الرُّوحِ عَلَى الْعَبْدِ لِيَتِمَكَّنَ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الطَّاعَةِ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَالْعَنَايَةِ بِالذِّكْرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ (وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ)؛ أَي: وَفَّقَنِي لِذَلِكَ، وَأَعَانَنِي عَلَيْهِ. وَالْمَرَادُ بِالْإِذْنِ هُنَا؛ أَي: الْإِذْنُ الْكُونِيُّ الْقَدْرِيُّ؛ لِأَنَّ الْإِذْنَ إِذَا وَرَدَ فِي النُّصُوصِ تَارَةً يُرَادُ بِهِ الْإِذْنُ الْكُونِيُّ الْقَدْرِيُّ، وَتَارَةً يُرَادُ بِهِ الْإِذْنُ الشَّرْعِيُّ الدِّينِيُّ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَذِنَ لِلْعِبَادِ جَمِيعِهِمْ شَرْعًا وَدِينًا بِذِكْرِهِ، وَلِزُومِ طَاعَتِهِ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَأْذُنْ بِذَلِكَ كَوْنًا وَقَدْرًا إِلَّا لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ، وَهَدَاهُمْ لِلْإِسْلَامِ، وَوَفَّقَهُمُ لِلْخَيْرِ؛ وَعَلَيْهِ: فَإِنَّ مَنْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِذِكْرِهِ كَوْنًا وَقَدْرًا، فَقَدْ أَكْرَمَهُ بِأَعْظَمِ كَرَامَةٍ، وَهَدَاهُ بِتَوْفِيقِهِ وَمَنْنِهِ سُبْحَانَهُ إِلَى الْخَيْرِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ؛ وَلِهَذَا شُرِعَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ ﷻ عَلَى هَذِهِ النُّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَيَشْكُرَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى هَذَا الْعَطَاءِ وَالْفَضْلِ.

وَتَأَمَّلْ أَخِي: الْإِذْنَ بِالذِّكْرِ هُوَ اللَّهُ، وَالْمُسْتَفِيدُ مِنَ الذِّكْرِ هُوَ الْعَبْدُ، وَالْمُثِيبُ عَلَى الذِّكْرِ هُوَ اللَّهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مِنْ عَظِيمِ فَضْلِهِ وَوَاسِعِ إِنْعَامِهِ يَبْتَدِئُ

(١) «جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» رَقْم (٣٤٠١)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (٣٢٩).

عبادَه بالنعم، ويُثِيههم عليها أعظم الثواب؛ فله الحمدُ شكرًا، وله المنُّ فضلًا، وله سبحانه الحمدُ في الآخرة والأولى.

❏ وعمومًا: الذي ينبغي على المسلم عند قيامه من نومه هو: المبادرة إلى ذكر الله، والوضوء، والصلاة لِيُبَارَكَ له في يومه، وليكون فيه نشاطًا ذا همّة عالية، وحرصٍ على الخير، وليَسَلَمْ بذلك من الكسلِ وخُبثِ النفس؛ وقد روى البخاري ومسلم في «صحيحهما»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةُ كُلِّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانٌ)^(١).

وفي «المسند» للإمام أحمد، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أَنْثَى إِلَّا وَعَلَى رَأْسِهِ جَرِيرٌ)^(٢) مَعْقُودٌ ثَلَاثَ عُقَدٍ حِينَ يَرْقُدُ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ، فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا قَامَ فَتَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ انْحَلَّتْ عُقْدَةُ كُلِّهَا)^(٣).

وقد دلَّ هذانِ الحديثانِ على أَنَّ الشَّيْطَانَ يَعْقِدُ على مُؤَخَّرِ رَأْسِ الْإِنْسَانِ عندما ينامُ ثلاثَ عُقَدٍ، ويضربُ على كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ؛ تخذيلاً للإنسان، وتثييطاً له، ونقضاً لهِمَّتِهِ وعزيمته، فإذا ذَكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ مِنْ هَذِهِ الْعُقَدِ، فإذا قامَ وتَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ثَانِيَةً، فإذا صَلَّى انْحَلَّتْ عَنْهُ جَمِيعُ الْعُقَدِ، وَذَهَبَ عَنْهُ الْكَسَلُ، وَارْتَفَعَتْ هِمَّتُهُ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ، وَأَصْبَحَ نَشِيطًا حَرِيصًا على الخير، مُقْبِلًا عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَخَلَّصَ مِنْ عُقْدِ الشَّيْطَانِ، وَتَخَفَّفَ عَنْهُ أَعْبَاءُ الْغَفْلَةِ وَالنِّسيانِ، وَحَصَلَ لَهُ الْفَوْزُ بِرِضَا الرَّحْمَنِ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (١١٤٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٧٦).

(٢) الجريير: الحبل.

(٣) «المسند» (٣/٣١٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٦١٤).

وجاء في نصٍّ آخر أنَّ الشيطانَ قد يَعْقِدُ على مواضع الوضوءِ مِنَ المسلم، فإذا قام وتوضَّأ انحَلَّتْ عنه تلك العُقْدُ.

فقد أخرجَ أحمد، وابن حَبَّان في «صحيحه» - واللفظُ له - من حديث عُقْبَةَ بن عامر رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ اللَّيْلَ يُعَالِجُ نَفْسَهُ إِلَى الطُّهُورِ وَعَلَيْهِ عُقْدٌ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدُهُ، فَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ انْحَلَّتْ عُقْدُهُ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ انْحَلَّتْ عُقْدُهُ، وَإِذَا وَضَّأَ رِجْلَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لِلَّذِي وَرَاءَ الْحِجَابِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ لِيَسْأَلَنِي، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ) ^(١).

فهذه عُقْدُ أَرْبَعٍ تنحلُّ عن المسلم بالوضوء؛ فبغسلِ اليَدَيْنِ تنحلُّ عُقْدُهُ، وبغسلِ الوَجْهِ تنحلُّ عُقْدُهُ، وبمسحِ الرَّأْسِ تنحلُّ عُقْدُهُ، وبغسلِ الرَّجْلَيْنِ تنحلُّ عُقْدُهُ.

وهي عُقْدٌ حَقِيقِيَّةٌ يَعْقِدُهَا الشيطانُ على الإنسانِ لِيُثَبِّطَهُ عن الخير، وليُثْنِيَهُ عن القيامِ إلى طاعةِ الله.

وثبت في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ، فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيَسْتَنْزِلْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خِيَاشِيمِهِ) ^(٢).

وقد ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ أَنَّ مَنْ ذَكَرَ اللهَ تعالى عند النَّوْمِ وأتى بالأذكارِ المشروعة، والتعوذاتِ المأثورة، لا يَدْخُلُ في هذه الأحاديث، وَيَسْلُمُ من هذه العُقْدِ؛ لأنَّه قد نُصِّ في بعضِ أذكارِ النومِ أَنَّ مَنْ أتى بها لا يزَالُ عليه مِنَ الله حافظٌ، ولا يَقْرَبُهُ شيطانٌ حَتَّى يُصْبِحَ ^(٣).

(١) «المسند» (٢٠١/٤)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٢٥٥٥).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٩٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٣٨).

(٣) انظر: «الاستعاذة» لابن مفلح المطبوع بعنوان: «مصائب الإنسان، من مكاييد الشيطان»

ثم إنَّ مَنْ اسْتَمَرَ فِي نَوْمِهِ وَتَمَادَى فِي كَسَلِهِ إِلَى أَنْ يُفَوَّتَ عَلَى نَفْسِهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبُولُ فِي أُذُنِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ ففِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «ذَكَرَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ نَامَ حَتَّى أَصْبَحَ، فَقَالَ: (ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ)»^(١)، فَيُصْبِحُ وَالْعَقْدُ كُلُّهَا كَهَيْئَتِهَا، وَإِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ يَبُولُ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ، وَحَسَبُ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ خَيْبَةً وَخَسَارَةً وَشَرًّا، وَقَدْ جَاءَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «حَسَبُ الرَّجُلِ مِنَ الْخَيْبَةِ وَالشَّرِّ أَنْ يَنَامَ حَتَّى يُصْبِحَ وَقَدْ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ لَيْلَهُ حَتَّى يُصْبِحَ»^(٢)، نَسَأُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.



(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٧٤).

(٢) رواه محمد بن نصر في «قيام الليل» (ص ١٠٣ - مختصر المقرئزي)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٢٩/٣): «وهو موقوفٌ صحيح الإسناد».

مَا يُقَالُ عِنْدَ الْفَزَعِ فِي النَّوْمِ

• إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ النَّافِعَةِ لِمَنْ يُرَوِّعُ فِي مَنَامِهِ، أَوْ يَجِدُ وَخْشَةً وَقَلَقًا، أَوْ يُصِيبُهُ الْفَزَعُ فِي نَوْمِهِ: أَنْ يَقُولَ عِنْدَ حُصُولِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَهُ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ).

فقد روى أبو داود، والترمذي، وغيرهما، من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ؛ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ) ^(١).

وروى الإمام أحمد في «مسنده»، عن الوليد بن الوليد رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجِدُ وَخْشَةً، قَالَ: (إِذَا أَخَذَتْ مَضْجِعَكَ، فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وَبِالْحَرِيِّ أَنْ لَا يَقْرَبَكَ) ^(٢).

وروى مالك في «الموطأ»، عن يحيى بن سعيد، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي أُرَوِّعُ فِي مَنَامِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ) ^(٣).

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٨١/٢)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٨٩٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٢٨) واللفظ له، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠١).

(٢) «المسند» (٥٧/٤)، وذكره الألباني في «صحيح الكلم الطيب» (ص ٤١).

(٣) «الموطأ» رقم (٢٧٣٧)، وقال ابن عبد البر: «وهذا حديث مشهور مسنداً وغير مسند»، ثم أسنده من طريق ابن عينة وغيره. «التمهيد» (١٠٩/٢١)، وانظر: «الصحيحة» رقم (٢٦٤).

وروى ابن السُّنِّي في «عمل اليوم والليلة»، عن محمد بن المنكدر، قال: جاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ، فشكا إليه أهوايلَ يَرَاهَا في المنام، فقال: (إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ) ^(١).

فهذا دعاءٌ عظيمٌ أَرَشَدَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ يُصَابُ فِي نَوْمِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْفَزَعِ والخوفِ، بسبب ما قد يَرَى في منامِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَخُوفَةِ أَنْ يَقُولَهُ لِيَذْهَبَ عَنْهُ فَزَعُهُ، وَلِتَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ، وَلِيَسْكُنَ وَيَهْدَأَ فِي نَوْمِهِ، وَلِيَنْصَرِفَ عَنْهُ خَوْفُهُ وَرَوْعُهُ، وَهُوَ دَعَاءٌ عَظِيمٌ مُبَارَكٌ، يعلُن فيه العبدُ التجاءَهُ إلى الله واحتماءَهُ به وفرارهُ إليه مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ سُبْحَانَهُ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَمِنْ أَنْ يَحْضُرُوا الْعَبْدَ، سِوَاءً فِي نَوْمِهِ، أَوْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ.

وقد أخبر ﷺ أَنَّ مَنْ قَالَ لَا تَضُرُّهُ الشَّيَاطِينُ، بَلْ يَكُونُ فِي عَافِيَةٍ وَسَلَامَةٍ مِنْهَا.

وقوله: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ)؛ أي: أَلْتَجِيءُ؛ فَالاستعاذةُ: التَّجَاءُ إلى الله، واعتصامٌ به، والعائدُ بالله فارًّا مِنْ كُلِّ مَا يُوْذِيهِ إِلَى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي بِيَدِهِ أَرْزَمَةُ الْأُمُورِ، وَتَدْبِيرُ الْخَلَائِقِ، وَ(كَلِمَاتُ اللَّهِ التَّامَّةُ)؛ أي: التي لَا يَلْحَقُهَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ، كَمَا يَلْحَقُ كَلَامَ الْبَشَرِ.

وقوله: (مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ)، الغضبُ: صِفَةُ فَعْلِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَوَصَفَهُ بِهَا رَسُولُهُ ﷺ فِي سُنَّتِهِ، وَهُوَ جَلٌّ وَعَلَا يَغْضَبُ وَيَرْضَى، وَيُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَلَهُ صِفَاتٌ فَعْلِيَّةٌ كَثِيرَةٌ وَرَدَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَنْهَجُ أَهْلِ السُّنَّةِ - وَهُوَ الْمَنْهَجُ الْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ مُسْلِمٍ - تَجَاةُ هَذِهِ الصِّفَاتِ: أَنَّهُمْ يُثْبِتُونَهَا لِلَّهِ كَمَا أَثْبَتَهَا سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ، وَكَمَا أَثْبَتَهَا لَهُ رَسُولُهُ ﷺ، دُونَ أَنْ يَخُوضُوا فِي شَيْءٍ مِنْهَا بِتَحْرِيفٍ أَوْ تَعْطِيلٍ، أَوْ تَكْيِيفٍ أَوْ تَمْثِيلٍ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الرَّبَّ الْعَظِيمَ يَغْضَبُ، وَيَتَعَوَّذُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ

(١) «عمل اليوم والليلة» لابن السني رقم (٧٤٢)، وراجع: «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٦٤).

مِنْ غَضَبِهِ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُغْضِبُهُ، وَيُجَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُهُ سُبْحَانَهُ وَيُوجِبُ عِقَابَهُ.

❏ وَإِنَّ مِمَّا يُغْضِبُ الرَّبَّ وَيُوجِبُ عِقَابَهُ: أَنْ يَلْجَأَ الْعَبْدُ فِي مُلِمَّاتِهِ وَعِنْدَ خَوْفِهِ وَفَزَعِهِ إِلَى غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ، وَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَبْدِ الضَّعِيفِ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى عَبْدٍ ضَعِيفٍ مِثْلِهِ، وَكَيْفَ يَلْجَأُ الْمَخْلُوقُ إِلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَيَدْعُ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَهَذَا نَدْرُكُ ضَحَالَةِ عُقُولٍ وَتَفَاهَةِ أَفْكَارٍ مَنْ يَذْهَبُونَ فِي مُلِمَّاتِهِمْ وَعِنْدَ فَرَعِهِمْ إِلَى الْكَهَنَةِ وَالْعَرَّافِينَ، وَالِدَّجَاجِلَةِ وَالْمُشْعُوزِينَ، وَالسَّحَرَةَ وَالْمَنْجَمِينَ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، يَشْكُونَ إِلَيْهِمْ حَالَهُمْ، وَيُنْزِلُونَ بِأَبْوَابِهِمْ حَاجَتَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ تَخْلِيصَهُمْ مِنْ كُرْبَتِهِمْ، وَإِنْجَاءَهُمْ مِنْ فَرَعِهِمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَلَا يُلْجَأُ فِيهَا إِلَّا إِلَيْهِ وَحْدَهُ؛ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيِّ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]؛ فَهَلْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ، الَّذِي أَقْلَقَتْهُ الْكُرُوبُ، وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ الْمَطْلُوبُ، وَاضْطَرَّ لِلْخَلَاصِ مِمَّا هُوَ فِيهِ، إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ؟! وَهَلْ يَكْشِفُ السُّوءَ الَّذِي يُصِيبُ الْإِنْسَانَ وَيَحُلُّ بِهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ؟! وَلَكِنْ تَذَكَّرُ النَّاسَ لِهَذَا الْأَمْرِ قَلِيلٌ، وَتَدْبِرُهُمْ لَهُ ضَعِيفٌ، وَإِلَّا لَمَا أَقْبَلُوا عَلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَلَمَا لَجَّؤُوا إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُ.

وقوله: (مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ)، فِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الصِّفَةِ وَأَثَرِهَا، فَالْصِّفَةُ هِيَ: الْغَضَبُ، وَأَثَرُهَا هُوَ: حُلُولُ الْعِقَابِ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وقوله: (وَشَرِّ عِبَادِهِ)؛ أَي: مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي أَيِّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ قَامَ بِهِ الشَّرُّ، وَالْعِبُودِيَّةُ هُنَا الْمَرَادُ بِهَا الْعِبُودِيَّةُ الْعَامَّةُ؛ إِذِ الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا مُعَبَّدَةٌ مُذَلَّلَةٌ لِلَّهِ، خَاضِعَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣].

وقوله: (وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَخْضَرُونَ)، الْهَمَزَاتُ: جَمْعُ هَمْزَةٍ، وَالْهَمْزَةُ: النَّخْسُ، وَالْمَرَادُ: نَزَغَاتُ الشَّيَاطِينِ، وَوَسَاوِسُهُمْ، وَجَمِيعُ إِصَابَاتِهِمْ وَأَذَاهُمْ لِبَنِي آدَمَ.

وقوله: (وَأَنْ يَحْضُرُونَ)؛ أي: أَنْ يَحْضُرَ الشَّيَاطِينُ عِنْدِي فِي جَمِيعِ أَحْوَالي. وعلى هذا، فالعبدُ يستعيدُ باللهِ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُوهُ أَصْلًا، وَيَحُومُوا حَوْلَهُ، فَتَضَمَّنَتْ الْإِسْتِعَاذَةُ أَنْ لَا يَمَسُّوهُ وَلَا يَقْرَبُوهُ. فما أَعْظَمَهُ مِنْ دَعَاءٍ، وما أَعْظَمَ أَثَرَهُ، وما أَجْمَعَهُ لِلتَّعَوُّذِ مِنْ كُلِّ مَا قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِفَزَعِ الْإِنْسَانِ وَقَلْقِهِ! وَاللَّهُ وَحْدَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.



مَا يَقُولُهُ مَنْ رَأَى فِي مَنَامِهِ مَا يُحِبُّ أَوْ يَكْرَهُ

ثَبَّتَ فِي السُّنَّةِ أَحَادِيثُ عَدِيدَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيَانِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ الْمُسْلِمُ وَيَفْعَلَهُ عِنْدَمَا يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يُحِبُّ، أَوْ عِنْدَمَا يَرَى فِيهِ مَا يَكْرَهُ.

وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ؛ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا، وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ؛ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ)^(١).

وَفِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: «لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ أَبَا قَتَادَةَ يَقُولُ: وَأَنَا كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ اللَّهِ؛ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ، فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ الشَّيْطَانِ، وَلْيَتَقَلَّ ثَلَاثًا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا؛ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ)^(٢).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا، فَلْيَصُتْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ)^(٣).

وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ عَلَى جَمَلَةٍ مِنَ الْفَوَائِدِ تَعَلَّقَ بِالرُّؤْيَا، وَمَا يَنْبَغِي

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٩٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٧٠٤٤) واللفظ له، و«صحيح مسلم» رقم (٢٢٦١).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٦٢).

أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُ تُجَاهَ مَا يَرَاهُ فِي مَنَامِهِ مِنْ أُمُورٍ يَفْرَحُ بِرُؤْيَيْهَا وَيُسِرُّ،
أَوْ أُمُورٍ يَحْزَنُ لِرُؤْيَيْهَا وَيَضْجُرُ. وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مَا يَأْتِي:

أَوَّلًا: تَعْظِيمُ شَأْنِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ ﷻ،
سَاقَهَا إِلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فِي حَيَاتِهِ؛ بِشَارَةٍ لَهُ بِالْخَيْرِ، وَتَأْنِيسًا لِقَلْبِهِ، وَطَمَآنَةً
لِفُؤَادِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾
[يُونُسُ: ٦٤]، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ
الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ».

ثَانِيًا: بَيَانُ أَنَّ مَا يَرَاهُ الْمُؤْمِنُ فِي مَنَامِهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ
لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَمَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فِي مَنَامِهِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ الَّتِي
هِيَ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ لِمَنْ رَأَاهَا أَوْ رُئِيََتْ لَهُ، وَالرُّؤْيَا الَّتِي هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَهِيَ
أَهْوَلُ يَأْتِي بِهَا الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ فِي مَنَامِهِ، وَأَمْثَالُ مَكْرُوهُةٍ يَضْرِبُهَا بِقَصْدِ
التَّشْوِيشِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَإِدْخَالِ الْحُزْنِ عَلَيْهِ، وَالضَّجَرِ فِي قَلْبِهِ، وَالْقِسْمُ
الثَّلَاثُ: هِيَ الْأَحْلَامُ الَّتِي تَجْرِي عَلَى الْإِنْسَانِ فِي مَنَامِهِ مِمَّا يُحَدِّثُ بِهِ الرَّجُلُ
نَفْسَهُ فِي الْيَقَظَةِ؛ تَجْرِي عَلَيْهِ فِي الْمَنَامِ جَرَيَانَهَا فِي الْيَقَظَةِ.

ثَالِثًا: بَيَانُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَهُ الْمُسْلِمُ عِنْدَمَا يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يُحِبُّ؛
وَيَتَلَخَّصُ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ أُمُورٍ:

- **الأَوَّلُ:** أَنَّ الْمُسْلِمَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْرَحَ وَيُسْتَبْشِرَ بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ يَرَاهَا أَوْ
تُرَى لَهُ، وَأَنْ لَا يَغْتَرَّ، فَالرُّؤْيَا - كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ -: «تَسُرُّ الْمُؤْمِنَ
وَلَا تَغُرُّهُ».

- **الثَّانِي:** أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ ﷻ عَلَى هَذَا الْخَيْرِ الَّذِي سَاقَهُ إِلَيْهِ، وَالْفَضْلَ
الَّذِي مَنَحَهُ إِيَّاهُ، حَيْثُ أَكْرَمَهُ بِهَذِهِ الرُّؤْيَا الْمُبَشِّرَةِ.

- **الثَّلَاثُ:** أَنْ يُحَدِّثَ بِهَا مَنْ يُحِبُّ مِنْ إِخْوَانِهِ وَجُلَسَائِهِ الَّذِينَ شَأْنُهُمْ مَعَهُ
أَنْهُمْ يَتَعَاوَنُونَ مَعَهُ عَلَى الْخَيْرِ، وَيَتَوَاصَوْنَ مَعَهُ عَلَى الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، فَتَكُونُ

الرؤيا التي رآها سبباً لزيادة الخير فيهم، وحافزاً للمضي في مجالاته.

- الرابع: أن لا يحدث بها من يكره درءاً لمفسدة حصول الأذى منه، أو الحسد، أو نحو ذلك.

رابعاً: ومن الفوائد التي اشتملت عليها الأحاديث المتقدمة: بيان ما ينبغي أن يفعله المسلم إذا رأى في منامه ما يكره، ويتلخص ذلك في الأمور الآتية:

- الأول: أن يعلم أن ذلك إنما هو من الشيطان يريد به تحزين المؤمن، وإدخال الهم والغم والفزع عليه؛ فعليه أن لا يلتفت إلى مكر الشيطان، وأن لا يشغل باله بذلك.

- الثاني: أن يتعوذ بالله من شرها وشر الشيطان الرجيم. والتعوذ: التجاء إلى الله، واعتصام به سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

- الثالث: أن يبصق عن يساره ثلاثاً، وقد قيل: لأن الشيطان يأتي ابن آدم من قبل يساره؛ لأنه يريد أن يوسوس في القلب، والقلب قريب من جهة اليسار، فيأتي الشيطان من جهته القريبة، والله أعلم.

- الرابع: أن يتحوّل عن جنبه الذي كان عليه، وقيل في الحكمة من هذا: إن في ذلك تفاؤلاً بالتحوّل من هذه الحال المسيئة المحزنة إلى حال مسرة مفرحة.

- الخامس: أن لا يحدث أحداً بما رأى في منامه من أمور يكرهها، وقد جاء في «صحيح مسلم»، عن جابر رضي الله عنه، قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، رأيت في المنام كأن رأسي قطع، قال: فضحك النبي ﷺ، وقال: (إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِي مَنَامِهِ، فَلَا يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ) ^(١)، وفي رواية أخرى، قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ،

فقال: يا رسول الله، رأيتُ في المنام كأنَّ رأسي ضُربَ فتَدَخَّرَجَ، فاشتَدَّتْ على أثره، فقال رسولُ الله ﷺ للأعرابي: (لَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِتَلْعَبِ الشَّيْطَانِ بِكَ فِي مَنَامِكَ)^(١).

ثم إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ مَا تَقَدَّمَ لَا تَضُرُّهُ رُؤْيَاهُ، بَلْ يَكُونُ فَعْلُهُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ سَبَبًا وَاقِيًّا - بِإِذْنِ اللَّهِ - مِنْ شَرِّ الرُّؤْيَا وَشَرِّ الشَّيَاطِينِ.

❦ وعلى العبد - مع ذلك كله - أن يكون مُتَّقِيًّا لِلَّهِ، مُحَافِظًا عَلَى طَاعَتِهِ، بَعِيدًا عَنْ مَعَاصِيهِ؛ لِيَكُونَ بِذَلِكَ مُحْفُوظًا بِحِفْظِ اللَّهِ، مُحَاطًا بِرِعَايَتِهِ وَعَنَائِيَتِهِ سُبْحَانَهُ.

وقد قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَتَقِيَ اللَّهَ فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا تُبَالٍ بِمَا رَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ»^(٢).

والله المستعان، وعليه التُّكْلان، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.



(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٦٨).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» رقم (١٧٦٨).

أَذْكَارُ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلِ

لقد ثبتَ في السُّنَّةِ عن النَّبِيِّ ﷺ أذكارٌ مباركةٌ، وأدعيةٌ نافعةٌ، يقولها المسلمُ إذا خرَجَ من مَنْزِلِهِ، فإذا قالها حُفِظَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وكُفِيَ ما أَهَمَّهُ، ووُقِيَ من الشرورِ والآفاتِ، وهُدِيَ إلى طريقِ الحقِّ والصوابِ، روى الترمذي، وأبو داود، وغيرُهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ، فَيَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ شَيْطَانُ آخِرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟) (١).

وهذا الذِّكْرُ المباركُ نافعٌ للمسلم أن يقولهُ في كلِّ مرَّةٍ يخرجُ فيها من بيته لقضاءِ شيءٍ من مصالحِهِ الدِّنيَّةِ أو الدُّنيويَّةِ؛ وذلك ليكونَ محفوظًا في سِيَرِهِ، ومُعَانًا في قضاءِ مصالحِهِ، مسدَّدًا في وَجْهَتِهِ وحاجتِهِ، والعبدُ لا غِنَى لَهُ عن رَبِّهِ طَرَفَةٌ عَيْنٍ، بأنْ يكونَ لَهُ حافظًا ومؤيِّدًا، ومُسدَّدًا وهاديًا، ولا ينالُ العبدُ ذلكَ إِلَّا بالتَّوَجُّهِ إلى اللَّهِ ﷻ في حصولِهِ ونيلِهِ، فأرشدَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عَلَيْهِ مَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ إلى أن يقولَ هذا الذِّكْرَ المباركَ ليُهدَى في طريقِهِ، وليُكْفَى هَمَّهُ وحاجتَهُ، وليُوَقَى الشرورَ والآفاتِ.

وقوله: (إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ)؛ أي: حالَ خروجهِ مِنْ بَيْتِهِ، ومثْلُ البيتِ: المنزلُ الذي يُسافرُ منه المسافرُ.

وقوله: (بِاسْمِ اللَّهِ)؛ أي: باسمِ اللَّهِ أَخْرَجُ؛ فكلُّ فاعِلٍ يُقدَّرُ فعلاً مناسباً

(١) «سنن أبي داود» رقم (٥٠٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٢٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٩).

لحالِهِ عندما يُسْمَلُ، والبَاءُ فِي (بِاسْمِ اللَّهِ): للاستعانة؛ أَي: أَخْرِجْ طَالِبًا مِنْ اللَّهِ الْعَوْنُ وَالْحِفْظَ وَالتَّسْدِيدَ.

وقوله: (تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)؛ أَي: اعْتَمَدْتُ عَلَيْهِ، وَفَوَّضْتُ جَمِيعَ أُمُورِي إِلَيْهِ؛ فَالتَّوَكَّلُ هُوَ الْاعْتِمَادُ وَالتَّفْوِيزُ، وَهُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَلَا يَجُوزُ صَرْفُهُ لغيرِ اللَّهِ، بَلْ يَجِبُ إِخْلَاصُهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ أَي: عَلَيْهِ وَحْدَهُ لَا عَلَى غَيْرِهِ، فَجَعَلَ ذَلِكَ شَرْطًا فِي الْإِيمَانِ، وَالتَّوَكَّلُ أَجْمَعُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، وَأَعْلَى مَقَامَاتِ التَّوْحِيدِ وَأَعْظَمُهَا؛ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالطَّاعَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا اعْتَمَدَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ، صَحَّ إِخْلَاصُهُ، وَقَوِيَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّهِ، وَزَادَ إِقْبَالُهُ عَلَيْهِ، وَكَفَاهُ اللَّهُ هَمَّهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أَي: كَافِيهِ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ كَافِيَهُ، فَلَا مَطْمَعَ فِيهِ لِعَدُوٍّ، وَلَوْ كَادَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ؛ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ فَضْلِ التَّوَكَّلِ، وَأَنَّهُ أَعْظَمُ أَسْبَابِ جَلْبِ الْمَنَافِعِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ.

وقوله: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)، هِيَ كَلِمَةُ إِسْلَامٍ وَاسْتِسْلَامٍ وَتَفْوِيزٍ إِلَى اللَّهِ، وَتَبَرُّؤٍ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا، وَلَيْسَ لَهُ حِيلَةٌ فِي دَفْعِ شَرٍّ، وَلَا قُوَّةٌ فِي جَلْبِ خَيْرٍ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَقَوْلُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» تُنَالُ بِهِ الْإِعَانَةُ.

وَلَوْ تَأَمَّلَ الْمُسْلِمُ هَذَا الذِّكْرَ، لَوَجَدَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ مُشْتَمِلًا عَلَى الْإِلْتِمَاعِ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِعْتَصَامِ بِهِ، وَالْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَتَفْوِيزِ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، حَظِيَ بِحِفْظِ اللَّهِ لَهُ، وَعَوْنِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَتَسْدِيدِهِ.

وقوله: (يُقَالُ حِينَئِذٍ)، وَفِي رَوَايَةٍ: (يُقَالُ لَهُ: هُدَيْتَ وَكُفَيْتَ وَوُقِيْتَ)، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وقوله: (هُدَيْتَ)؛ أي: إلى طريقِ الحقِّ والصوابِ؛ بسببِ استعانتِكَ باللهِ على سلوكِ ما أنتَ بِصَدَدِهِ، وَمَنْ يَهْدِهِ اللهُ، فلا مُضِلَّ لَهُ.

وقوله: (وَكُفِّيتَ)؛ أي: كُفِّيتَ كُلَّ هَمٍّ دُنْيَوِيٍّ أوْ أُخْرَوِيٍّ.

وقوله: (وَوُكِّيتَ)؛ أي: حُفِظْتَ مِنْ شَرِّ أَعْدَائِكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَغَيْرِهِمْ.

وقوله: (فَيَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ)؛ أي: يبتعدُ عنه الشَّيْطَانُ؛ لِأَنَّهُ مَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُ، فلا سَبِيلَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ فِي حِصْنِ حَصِينٍ، وَحِرْزٍ مَكِينٍ، يُحْمَى فِيهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وقوله: (فَيَقُولُ شَيْطَانُ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِّي وَوُكِّي)؛ أي: يقولُ أَحَدُ الشَّيَاطِينِ لِهَذَا الشَّيْطَانِ الَّذِي كَانَ يَرِيدُ إِغْوَاءَ هَذَا الشَّخْصِ وَإِذْءَاءَهُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِّي وَوُكِّي؟ أي: كَيْفَ لَكَ السَّبِيلُ إِلَى إِغْوَاءِ وَإِذْءَاءِ رَجُلٍ نَالَ هَذِهِ الْخِصَالَ: الْهَدَايَةَ وَالْكَفَايَةَ وَالْوَقَايَةَ.

وهذا يَدُلُّنا عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذَا الذِّكْرِ الْمُبَارَكِ، وَأَهْمِيَّةِ الْمَحَافَظَةِ عَلَيْهِ عِنْدَ خُرُوجِ الْمُسْلِمِ مِنْ مَنْزِلِهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَخْرُجُ فِيهَا؛ لِيَنَالَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْمُبَارَكَةَ، وَالثَّمَارَ الْعَظِيمَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

وَمِنْ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ النَّافِعَةِ لِلْمُسْلِمِ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ مَنْزِلِهِ: مَا ثَبَتَ فِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَابْنِ مَاجَهَ، وَغَيْرِهِمَا، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)»^(١).

❏ وَهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ وَدَعَاءٌ مُبَارَكٌ يَجْدُرُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ مَنْزِلِهِ؛ تَأْسِيًا بِالنَّبِيِّ ﷺ الَّذِي كَانَ يُحَافِظُ عَلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ خُرُوجٍ

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣١٨/٦)، وَ«سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» رَقْمَ (٥٠٩٤)، وَ«سَنَنِ النَّسَائِيِّ» رَقْمَ (٥٤٨٦)، وَ«سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» رَقْمَ (٣٨٨٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَهَ» رَقْمَ (٣١٣٤). وَجَمَلُهُ رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَى السَّمَاءِ ضَعَّفَهَا الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (٣١٦٣).

من مَنْزِلِهِ، كما يَدُلُّ على ذلك قولُ أم سلمة رضي الله عنها: «مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ ظَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ...»، ثم ذَكَرَتْ هذا الدعاء.

ولو تَأَمَّلْتَ هذا الدعاء لوجدتَ أنَّه موافقٌ للحديثِ السابقِ في الغاية والمقصود:

فقولُهُ في الحديثِ السابقِ: (هُدَيْتَ): موافقٌ لقوله في هذا الحديثِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ).

وقولُهُ: (وَكُفِّيتَ): موافقٌ لقوله: (أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ).

وقوله: (وَوُكِّيتَ): موافقٌ لقوله: (أَوْ أَزَلَّ أَوْ أُزِلَّ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ).

فيكونُ العبدُ بذلكَ متعوِّذاً باللهِ مِمَّا يُبْعِدُهُ مِنَ الْهُدَايَةِ وَالْكَفَايَةِ وَالْوَقَايَةِ، وَلَا بَأْسَ لَوْ أَنَّ الْعَبْدَ جَمَعَ بَيْنَ هَذَيْنِ الدَّعَائَيْنِ.

ثم إنَّ في هذا الدعاءِ معانيَ جليَّةً، ودَلَالَاتٍ نافعةً يأتي بيانها، وباللهِ وَحْدَهُ التَّوْفِيقُ.



مِنْ أَذْكَارِ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلِ

لقد مرَّ معنا دعاءُ النَّبِيِّ ﷺ الذي كان يُواظِبُ عليه ﷺ كلما خرجَ من منزله، وذلك في الحديث الذي رواه أبو داود، وابن ماجه، وغيرهما، عن أم المؤمنين أم سلمة هِنْدِ الْمُخْزُومِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زوجِ النَّبِيِّ ﷺ، قالت: «مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)»^(١).

وكلامُها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في أوَّلِ هذا الحديث فيه دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ على مواظبةِ النَّبِيِّ ﷺ على قولِ هذا الدعاءِ في كُلِّ مَرَّةٍ يَخْرُجُ فيها - صلواتُ الله وسلامُهُ عليه - من مَنْزِلِهِ؛ وفي هذا دَلَالَةٌ على أَهْمِيَّةِ مواظبةِ المسلم على هذا الدعاءِ في كُلِّ مَرَّةٍ يَخْرُجُ فيها من منزله تَأْسِيًّا بالنَّبِيِّ ﷺ، وفي ذلك الخَيْرُ والبركة، والسلامة والغنيمة.

وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ» فيه دَلَالَةٌ على عُلُوِّ الله على خَلْقِهِ، وَأَنَّ الرَّبَّ الذي ندعوه ونسأله ونرجوه مستَوٍ على عَرْشِهِ، بَائِتٌ من خَلْقِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْإِلَهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيِّحُ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ ٥٨ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَتَسَلَّ بِهِ خَبِيرًا [الفرقان].

فَرَفَعُ الطرفِ إلى السماءِ فيه إيمانٌ بَعُلُوِّ الله، كما أَنَّ رَفَعَ الأيدي إلى السماءِ فيه إيمانٌ بَعُلُوِّ الله ﷻ؛ قال حَافِظُ الْمَغْرِبِ أَبُو عَمَرَ بن عبد البرِّ في

كتابه «التمهيد»، وهو بصدد ذِكْرِهِ الْأَدْلَةَ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ: «وَمِنَ الْحُجَّةِ أَيْضًا فِي أَنَّهُ ﷻ عَلَى الْعَرْشِ فَوْقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ: أَنَّ الْمَوْحِدِينَ أَجْمَعِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ إِذَا كَرَبَهُمْ أَمْرٌ، أَوْ نَزَلَتْ بِهِمْ شِدَّةٌ، رَفَعُوا وُجُوهَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَغِيثُونَ رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وَهَذَا أَشْهَرُ وَأَعْرَفُ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ مِنْ أَنَّ يُحْتَاجَ فِيهِ إِلَى أَكْثَرٍ مِنْ حِكَايَتِهِ؛ لِأَنَّهُ اضْطَرَّارٌ لَمْ يُؤَنِّبَهُمْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَلَا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ مُسْلِمٌ»^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَالْأَدْلَةُ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى؛ وَقَدْ دَلَّ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ وَالْفِطْرَةُ وَالْعُقُولُ، وَلَا مَجَالَ هُنَا لِيَسْطِ هذه الْأَدْلَةُ. وَفِي رَفْعِ الظَّرْفِ إِلَى السَّمَاءِ دَلَالَةٌ عَلَى أَهْمِيَّةِ اسْتِشْعَارِ مَرَاقِبَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَى عِبَادِهِ، عَلِيمٌ بِهِمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، وَأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِهِ؛ فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وقوله ﷺ فِي هَذَا الدُّعَاءِ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ...)، إِلَى آخِرِهِ؛ الْاسْتِعَاذَةُ: سَبَقَ بَيَانُ مَعْنَاهَا، وَأَنَّهَا اعْتِصَامٌ بِاللَّهِ ﷻ، وَالتَّجَاءُ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ، وَفِي هَذَا الدُّعَاءِ التَّجَاءُ إِلَى اللَّهِ ﷻ بِأَنْ يَحْمِيَ الْعَبْدَ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ، وَهِيَ أَنْ يَضِلَّ أَوْ يُضِلَّ، أَوْ يَزِلَّ أَوْ يُزَلَ، أَوْ يَظْلِمَ أَوْ يُظْلَمَ، أَوْ يَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ مَنْ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ لَا بَدَّ لَهُ فِي خُرُوجِهِ مِنْ مَخَالَطَةِ النَّاسِ وَمَعَاشَرَتِهِمْ، وَالنَّاصِحُ لِنَفْسِهِ يَخَافُ أَنْ يُبْتَلَى - بِسَبَبِ هَذِهِ الْمَخَالَطَةِ وَالْمَعَاشِرَةِ - بِالْعُدُولِ عَنِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وَالْمَسْلُوكِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ، وَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِالْدِّينِ بِأَنْ يَضِلَّ أَوْ يُضِلَّ، أَوْ مُتَعَلِّقًا بِأَمْرِ الدُّنْيَا بِأَنْ يَظْلِمَ أَوْ يُظْلَمَ، أَوْ مُتَعَلِّقًا بِشَأْنِ الْمَخَالَطَةِ وَالْمَعَاشِرَةِ بِأَنْ يَزِلَّ أَوْ يُزَلَ، أَوْ يَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْهِ، فَاسْتِعَاذَ مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْبَلِيغَةِ، وَالْكَلِمَاتِ الْوَافِيَةِ الدَّقِيقَةِ.

وقوله: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضِلَّ)، فيه تَعَوُّذٌ بِاللَّهِ مِنَ الضلال، وهو ضدُّ الهداية، وسؤالُهُ تَبَارَكَ وتعالى الإِعادةَ مِنَ الضلالِ مُتَضَمِّنٌ طَلَبَ التوفيقِ للهداية.

وقوله: (أَنْ أَضِلَّ)؛ أي: أَنْ أَضِلَّ في نفسي بَأَنْ أَرْتَكِبَ أَمْرًا يُفْضِي بي إلى الضلال، أو أَقْتَرَفَ ذَنْبًا يَجْنَحُ بي عن سبيلِ الهداية.

وقوله: (أَوْ أَضِلَّ)؛ أي: أَنْ يُضِلَّنِي غَيْرِي مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، الَّذِينَ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا إِضْلَالُ النَّاسِ، وَصَدُّهُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ.

وقوله: (أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزِلَّ)؛ مِنَ الزَّلَّةِ، وَهِيَ الْعَثْرَةُ، وَذَلِكَ بَأَنْ يَهْوِيَ الْإِنْسَانُ عَنْ طَرِيقِ الْإِسْقَامَةِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: زَلَّتْ قَدَمُ فُلَانٍ؛ أَي: وَقَعَ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى هَبَوطٍ، وَيُقَالُ: طَرِيقُ مَرْلَةٍ؛ أَي: تَزَلُّ عَلَيْهِ الْأَقْدَامُ وَلَا تَثْبُتُ، وَالْمَرَادُ هُنَا: الْوُقُوعُ فِي الذَّنْبِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ؛ تَشْبِيهَا بِزَلَّةِ الرَّجُلِ.

وقوله: (أَزِلَّ)؛ أَي: مِنْ نَفْسِي، وقوله: (أُزِلَّ)؛ أَي: أَنْ يُوقِعَنِي غَيْرِي فِي الزَّلَلِ.

وقوله: (أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ)؛ مِنَ الظُّلْمِ، وَهُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

وقوله: (أَوْ أَظْلِمَ)؛ أَي: نَفْسِي بِإِيقَاعِهَا فِي الْخَطَا، وَجَرَّهَا إِلَى الْإِثْمِ، وَغَيْرِي بَأَنْ أَعْتَدِي عَلَيْهِ، أَوْ أَتَصَرَّفَ فِي مُلْكِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْ أَنَالَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَذَى وَالسُّوءِ.

وقوله: (أَوْ أُظْلِمَ)؛ أَي: أَنْ يَظْلِمَنِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فِي نَفْسِي أَوْ مَالِي أَوْ عَرَضِي.

وقوله: (أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)؛ مِنَ الْجَهْلِ، وَهُوَ ضِدُّ الْعِلْمِ.

وقوله: (أَجْهَلَ)؛ أَي: أَفْعَلَ فِعْلَ الْجُهْلَاءِ، أَوْ أَشْتَغَلَ فِي شَيْءٍ لَا يَغْنِينِي، أَوْ أَجْهَلَ الْحَقَّ الْوَاجِبَ عَلَيَّ.

وقوله: (أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)؛ أي: أَنْ يَجْهَلَ غَيْرِي عَلَيَّ بِأَنْ يُقَابِلَنِي مُقَابَلَةُ الْجُهْلَاءِ: بالسفاهة والوقاحة والسَّبَابِ ونحو ذلك.

وَمَنْ سَلِمَ مِنَ الْغَلَطِ مَعَ غَيْرِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ، وَمَنْ أَنْ يَغْلَطَ مَعَهُ غَيْرُهُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، فَقَدْ عُوْفِيَ وَعُوْفِيَ النَّاسُ مِنْهُ؛ فَالْحَدِيثُ فِيهِ التَّعَوُّذُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ: مِنْ طَرَفِ الْمُتَعَوِّذِ نَفْسِهِ، وَمِنْ طَرَفِ النَّاسِ الَّذِينَ يَلْقَاهُمْ وَيَحْتَكُّ بِهِمْ، وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي»^(١). وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ سَالِمًا مِنْ شَرِّ النَّاسِ، وَالنَّاسُ سَالِمُونَ مِنْ شَرِّهِ، فَهُوَ عَلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ.

❦ فَهَذَا دَعَاءٌ عَظِيمٌ يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ كُلَّمَا خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ؛ لِيَكُونَ مُلْتَجئًا إِلَى اللَّهِ، وَمُعْتَصِمًا بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ أَنْ يِنَالَهُ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ، ثُمَّ عَلَيْهِ - مَعَ هَذَا الْإِلْتِجَاءِ - أَنْ يَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ، فَيَحْذَرُ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنَ الضَّلَالِ وَالزَّلَلِ، وَالظُّلْمِ وَالْجَهْلِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ جَامِعًا بَيْنَ فِعْلِ الْأَسْبَابِ، وَالِاسْتِعَانَةِ عَلَيْهَا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.



(١) ذكره ابن رجب في كتابه: «شرح حديث لبك اللهم لبك» (ص ١٠٢).

أَذْكَارُ دُخُولِ الْمَنْزِلِ

لقد وردَ في السُّنَّةِ أذكارٌ عظيمةٌ مُتعلِّقةٌ بما ينبغي للمسلم أن يقولهُ عندَ دخولِ المنزلِ، وفي الجملة يُستَحَبُّ للمسلم أن يقولَ عندَ دخولِ المنزلِ: باسمِ الله، وأن يُكثِرَ من ذكرِ الله، وأن يُسَلِّمَ؛ سواءً كان في البيتِ أحدٌ أم لا.

روى الإمام مسلمٌ في «صحيحه»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ)^(١).

وقد دلَّ هذا الحديثُ على أنَّ ذَكَرَ المسلمُ لربِّه عندَ دخولِهِ منزلهُ، وعندَ طَعَامِهِ وشرابهِ سببُ حِفْظِهِ ووقايتهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ إذ إنَّ الشَّيْطَانَ يَتَّبِعُ المسلمَ في أحوالِهِ كُلِّهَا، عندَ دخولِ البيتِ، وعندَ الطَّعامِ والشرابِ، وغيرِ ذلك، فإذا ذَكَرَ المسلمُ رَبَّهُ، خَنَسَ الشَّيْطَانُ، وَأَيْسَ مِنْهُ، وَلَمْ يَقْرَبْهُ، وكان في حِفْظِ مِنْهُ وَمِنْ مَكْرِهِ وَكَيْدِهِ. وأما إذا غَفَلَ المسلمُ عن الذِّكْرِ، فإنَّ الشَّيْطَانَ يُلَازِمُهُ وَيُشَارِكُهُ في طَعَامِهِ وشرابهِ ومبِيتِهِ؛ والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزَّخْرَفُ: ٣٦]؛ أي: يُقَارِنُهُ وَيُلَازِمُهُ وَيُؤَرِّضُهُ إِلَى المعاصي أَرَأَى.

وَذِكْرُ اللَّهِ ﷻ طَارِدٌ لِلشَّيْطَانِ، حَافِظٌ لِلإنْسَانِ، وَالذَّاكِرُ لله مُحْفُوظٌ مِنَ الشَّيْطَانِ بِحِفْظِ اللَّهِ ﷻ، بَلْ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَّبِعُ مِنْهُ وَيُذَرِّكُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهِ.

ولهذا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ أَنَّ الشَّيْطَانَ عِنْدَمَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانَ يَذْكُرُ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ مَنْزِلَهُ وَعِنْدَ طَعَامِهِ يَقُولُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ؛ أَي: يَقُولُ ذَلِكَ لَجَنُودِهِ وَأَعْوَانِهِ، فَيَتَيَسَّرُ لَهُ وَأَعْوَانُهُ مِنْ مِشَارَكَةِ هَذَا الذَّاكِرِ لِلَّهِ فِي مَنْزِلِهِ وَطَعَامِهِ. وَأَمَّا الْغَافِلُ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَكُ عَنْ هَذِهِ الْمِشَارَكَةِ وَلَا يَسْلَمُ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ لِجَبَلٍ مِنْ بَيْنِكُمْ وَمِنْ أَنْفُسِكُمْ وَمِنْ أَوْلَادِكُمْ وَأَوَّلَادُهُمْ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٤]؛ وَهَذَا فِي حَقِّ الْغَافِلِينَ، أَمَّا الذَّاكِرُونَ لِلَّهِ، فَأَمْرُهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٥].

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ: «ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي مِشَارَكَةِ الشَّيْطَانِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ: تَرَكُ التَّسْمِيَةِ عِنْدَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْجَمَاعِ، وَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُسَمِّ اللَّهَ فِي ذَلِكَ شَارَكَ فِيهِ الشَّيْطَانُ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ»؛ أَي: حَدِيثُنَا الْمُتَقَدِّمِ.

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ عِنْدَ دُخُولِ الْمَنْزِلِ أَنْ يَسْلَمَ، سَوَاءً كَانَ الْمَنْزِلُ مَنْزِلَهُ أَوْ مَنْزِلَ غَيْرِهِ، وَسَوَاءً كَانَ فِيهِ أَحَدٌ أَمْ لَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النُّور: ٦١]، قَالَ ابْنُ سَعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، يَشْمَلُ بَيْتَ الْإِنْسَانِ وَبَيْتَ غَيْرِهِ، سَوَاءً كَانَ فِي الْبَيْتِ سَاكِنٌ أَمْ لَا، فَإِذَا دَخَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أَي: فَلْيُسَلِّمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ شَخْصٌ وَاحِدٌ، مِنْ تَوَادُّهُمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، فَالسَّلَامُ مَشْرُوعٌ لِدُخُولِهِ سَائِرَ الْبُيُوتِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ بَيْتٍ وَبَيْتٍ. ثُمَّ مَدَحَ هَذَا السَّلَامَ، فَقَالَ: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾؛ أَي: سَلَامًا بِقَوْلِكُمْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَوِ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ إِذْ تَدْخُلُونَ الْبُيُوتَ ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ أَي: قَدْ شَرَعَهَا لَكُمْ وَجَعَلَهَا تَحِيَّتَكُمْ، ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾؛ لِاشْتِمَالِهَا عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ النِّقْصِ، وَحُصُولِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ وَالزِّيَادَةِ، ﴿طَيِّبَةً﴾؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ الْمَحْبُوبِ

عند الله، الذي فيه طيبُ نفسٍ للمُحَيَّا، وَمَحَبَّةٌ وَجَلْبٌ مَوَدَّةٌ. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: «السلام علينا وعلى عبادِ الله الصالحين» عند دخولِ المنزلِ - ولا سِيَّما غير المسكون - وَرَدَ فيه حديث، لكنَّه لم يَثْبُتْ عن النَّبِيِّ ﷺ بسندٍ صحيح؛ ففي «الموطأ» للإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ بَلَغَهُ: «أَنَّهُ يَسْتَحَبُّ إِذَا دَخَلَ بَيْتًا غَيْرَ مَسْكُونٍ أَنْ يَقُولَ: «السلام علينا وعلى عبادِ الله الصالحين»^(١)، وَوَرَدَ فيه أَثَرٌ عن عبد الله بن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ غَيْرَ الْمَسْكُونِ، فَلْيَقُلْ: «السلام علينا وعلى عبادِ الله الصالحين»؛ رواه البخاري في «الأدب المفرد»^(٢)، وَوَرَدَ فيه كذلك أَثَارٌ أُخْرَى عن بعضِ السَّلَفِ؛ منهم: قَتَادَةُ، ومجاهد، وعَلْقَمَةُ، وعَطَاءٌ، رحمهم الله.

وقول: «السلام عليكم» عند دخولِ المنزلِ فيه بَرَكَةٌ على الإنسانِ وعلى أهلِ بيته؛ كما دَلَّتْ على هذا الآيةُ المتقدِّمة، وفي «الترمذي»، عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: (يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ، يَكُونُ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ)^(٣).

وَمَنْ سَلَّمَ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ، فهو ضامنٌ على الله تعالى؛ أي: صاحبُ ضمان؛ ففي «سنن أبي داود»، عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عن رسولِ الله ﷺ، قال: (ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ: رَجُلٌ خَرَجَ غَارِيزًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ، حَتَّى يَتَوَفَّاهُ، فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَتَوَفَّاهُ، فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ)^(٤).

(١) «الموطأ» (٢٠٢٦ - رواية أبي مصعب).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (١٠٥٥) حسن إسناده الحافظ في «الفتح» (٢٠/١١).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٢٦٩٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٦٠٨).

(٤) «سنن أبي داود» رقم (٢٤٩٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٦٠٩).

ورواه ابن حَبَّانَ في «صحيحه»، ولفظه: (ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ، إِنْ عَاشَ رُزِقَ وَكُفِيَ، وَإِنْ مَاتَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ: مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَسَلَّمَ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ)^(١).

وقوله: (ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ)؛ أي: صاحبُ ضَمَانٍ. والضَّمَانُ: الرعايَةُ للشَّيْءِ، ومعناه: أَنَّهُ فِي حِفْظِ اللَّهِ ورعايَتِهِ وتوفيقِهِ، فما أَجَلَهَا مِنْ عَطِيَّةٍ! وما أَعْظَمَهُ مِنْ فَضْلٍ! نَسَأُ اللَّهَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.



(١) «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» رقم (٤٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٢١).

آدَابُ الْخَلَاءِ وَآذْكَارُهُ

لقد جاء في السُّنَّةِ العَرَاءِ بيانُ الأدبِ الذي ينبغي أن يكونَ عليه المسلمُ عندَ دخوله الخلاء، وحالَ قضائه للحاجة، وعندَ خروجه منه، وهي آدابٌ عديدةٌ تُدُلُّ على كمالِ هذه الشريعةِ المباركةِ وتماها. وما من ريبٍ في أنَّ المسلمَ يفرحُ غايةَ الفرحِ بتلك الآداب؛ لِمَا فيها من كمالِ الحُسْنِ في التطهيرِ والنظافة، والتتقيةِ والتزكية، بل إنها مَفْخَرَةٌ للمسلم، وأَكْرَمُ بها من مَفْخَرَةٍ!

روى الإمام مسلم في «صحيحه»، عن سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ: «قيل له: قد عَلَّمَكُم نبيُّكم كُلَّ شيءٍ حتى الخِرَاءَةَ [أي: حتى كيفية قضاء الحاجة]؟ فقال: أَجَلْ؛ لقد نهانا أن نستقبلَ القبلةَ لغائطٍ أو بولٍ، أو أن نَسْتَنْجِيَ باليمين، أو أن نَسْتَنْجِيَ بأقلِّ من ثلاثةِ أحجارٍ، أو أن نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أو عَظْمٍ»^(١).

وفي لفظٍ آخرَ للحديثِ عندَ مسلمٍ عن سَلْمَانَ رضي الله عنه، قال: «قال لنا المُشْرِكُونَ: إِنِّي أَرَى صَاحِبَكُم يُعَلِّمُكُم حتى يُعَلِّمَكُم الخِرَاءَةَ، فقال: أَجَلْ؛ إِنَّهُ نهانا أن يَسْتَنْجِيَ أَحَدُنَا بيمينه، أو يَسْتَقْبِلَ القبلةَ، ونَهَى عن الرُّوثِ والعَظْمِ، وقال: لا يَسْتَنْجِيَ أَحَدُكُم بدونِ ثلاثةِ أحجارٍ»^(٢).

فهؤلاء المُشْرِكُونَ أرادوا عَيِّبَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم بما اشتمَلَ عليه دينُهُم من تعاليمَ مُتعلِّقَةٍ بكيفيةِ قضاءِ الحاجةِ، فقالوا على وجهِ السُّخْرِيَةِ: قد عَلَّمَكُم نبيُّكم كُلَّ شيءٍ حتى الخِرَاءَةَ، فانبرى لهم سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ رضي الله عنه مُبْطِلًا انتقَادَهُم مُحْطَمًا تَهْكُمَهُم، وقال بكلِّ افتخارٍ واعتزازٍ: «أَجَلْ»؛ أي: نَعَمْ، لقد عَلَّمَنَا

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٢).

هذا الأمر ونحن نفخر بذلك، ثم أخذ ﷺ يُعَدِّدُ لَهُمْ - مفتخرًا - شيئًا من الآدابِ الكريمة، والتعاليمِ المباركة التي جاءت بها السُّنَّةُ في هذا الشأن، وهي بحقُّ تعاليمٍ مباركة لا يَعْرِفُهَا هَؤُلَاءِ ونظراؤهم مِنْ أَشباهِ الأنعام، وإنما يَعْرِفُهَا مَنْ مَنَحَهُ اللهُ التَّوْفِيقَ، وهدهد لهذا الدِّينِ الحنيف، فالحمدُ لله على ما هَدَانَا، والشُّكْرُ له على ما أَوْلَانَا.

وفيما يلي وقفةٌ في بيانِ شيءٍ من هذه الآداب:

* يُسْتَحَبُّ أَوَّلًا للمسلم عندَ دخولِ الخلاءِ أَنْ يَقُولَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ)»^(١).

وَالْخُبْثُ: جَمْعُ خَبِيثٍ، وَالْخَبَائِثُ: جَمْعُ خَبِيثَةٍ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ طَرِيقِ الْحَدِيثِ ذِكْرُ الْبَسْمَلَةِ فِي أَوَّلِهِ، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ رَوَى الْعُمَرِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْمُخْتَارِ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ بِلَفْظِ الْأَمْرِ: (إِذَا دَخَلْتُمُ الْخَلَاءَ، فَقُولُوا: بِاسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ)؛ وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ»^(٢).

وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٍ وَغَيْرُهُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: (سِتْرٌ مَا بَيْنَ الْجَنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ أَنْ يَقُولَ: بِاسْمِ اللهِ)؛ وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِمَجْمُوعِ طَرِيقِهِ^(٣).

* وَمِنَ الْأَدَبِ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ وَذَهَبَ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ: أَنْ يَنْطَلِقَ حَتَّى يَتَوَارَى عَنْ أَصْحَابِهِ؛ لِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٤٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٧٥).

(٢) «فتح الباري» (١/٢٤٤).

(٣) رواه الترمذي رقم (٦٠٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٩٧)، وانظر: «إرواء الغليل» للألباني (٨٧/١ - ٩٠).

كان إذا أراد البرّاز، انطلق حتى لا يراه أحد»^(١).

* ومن السنّة: أن لا يرفع ثوبه حتى يذنو من الأرض؛ لما روى أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ كان إذا أراد حاجة لا يرفع ثوبه حتى يذنو من الأرض»^(٢).

* ومن السنّة: أن يستتر عن الناس؛ لما في «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، قال: «كان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل»^(٣).

* ومن الأدب: أن لا يبول في طريق الناس؛ ففي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (اتّقوا اللّعائين)، قالوا: وما اللّعائان يا رسول الله؟ قال: (الذي يتحلّى في طريق الناس أو ظلهم)^(٤).

وروى أبو داود في «سننه»، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (اتّقوا الملاعن الثلاثة: البرّاز في الموارِد، وقارعة الطريق، والظل)^(٥)، والموارِد: طرُق الماء.

* ومن آداب قضاء الحاجة: أن لا يستقبل المسلم القبلة بغائط ولا بول؛ احتراماً لها، ولا يستدبرها، وأن لا يستنجي بيده اليمنى؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط، فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه)، وكان يأمر بثلاثة

(١) «سنن أبي داود» رقم (٢)، وصحّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٢).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (١٤)، و«جامع الترمذي» رقم (١٤)، وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٠٧١).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٣٤٢).

(٤) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩).

(٥) «سنن أبي داود» رقم (٢٦)، ورواه ابن ماجه رقم (٣٢٨)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٢١).

أحجار، وينهى عن الرُّوث»^(١).

وتأمل ما في قوله ﷺ: (إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أَعْلَمُكُمْ)، مِنْ تَمَامِ الرَّعَايَةِ، وَحُسْنِ الْعِنَايَةِ، وَكَمَالِ النِّصْحِ.

* وَمِنْ الْأَدَبِ إِذَا اسْتَجَمَرَ الْمُسْلِمُ بَعْدَ قَضَائِهِ الْحَاجَةَ: أَلَّا يَسْتَجِمِرَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثٍ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ الْإِنْقَاءِ، وَلَا بِأَسْ أَنْ يَسْتَعْمَلَ مَا يَقُومُ مَقَامَ الْأَحْجَارِ؛ كَالْمَنَادِيلِ وَنَحْوِهَا، وَلَهُ أَنْ يَسْتَنْجِيَ بِالْمَاءِ وَهُوَ أَفْضَلُ؛ فَفِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَجِيءُ أَنَا وَغُلَامٌ مَعَنَا إِدْوَاةٌ مِنْ مَاءٍ؛ يَعْنِي: يَسْتَنْجِي بِهِ»^(٢).

* وَعَلَى الْمُسْلِمِ عِنْدَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ رَشَاشِ الْبَوْلِ أَنْ يُصِيبَ بَدَنَهُ أَوْ ثِيَابَهُ؛ لِمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: (أَمَّا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا، فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ، فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ)، وَفِي رَوَايَةٍ: (لَا يَسْتَنْزِعُهُ عَنِ الْبَوْلِ، أَوْ مِنَ الْبَوْلِ)^(٣).

* وَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَقْتَ قَضَائِهِ الْحَاجَةَ، وَلَا يَسْتَغْلَ بِشَيْءٍ مِنَ الذُّكْرِ وَالِدَعَاءِ؛ فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا مَرَّ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبُولُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ»^(٤)؛ وَفِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَقْتَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ كَذَلِكَ أَنْ يَسْتَغْلَ بِشَيْءٍ مِنَ الذُّكْرِ وَالِدَعَاءِ، وَالسَّلَامُ ذِكْرٌ وَدَعَاءٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَرُدَّ السَّلَامَ عَلَى هَذَا الْمُسْلِمِ.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/٢٤٧)، وأبو داود رقم (٨)، وابن ماجه رقم (٣١٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٣٤٦).

(٢) رواه البخاري رقم (١٥٠)، ومسلم رقم (٢٧١).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (١٣٦١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٩٢).

(٤) «صحيح مسلم» رقم (٣٧٠).

فهذه جملةٌ مِنَ الآدابِ العظيمةِ لقضاءِ الحاجةِ، نَدَبَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ، وَحَثَّتْ عَلَيْهَا الشَّرِيعَةُ؛ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ هَذَا الدِّينِ وَحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمَ يُسْتَحَبُّ لَهُ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ أَنْ يَقُولَ: غُفْرَانُكَ؛ لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَهْلُ السُّنَنِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ، قَالَ: (غُفْرَانُكَ)»^(١).

وقوله: (غُفْرَانُكَ) فِي هَذَا الْمَقَامِ؛ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ: أَي: «خَوْفًا مِنْ تَقْصِيرِهِ فِي أَدَاءِ شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْجَلِيلَةِ؛ أَنْ أَطْعَمَهُ، ثُمَّ هَضَّمَهُ، ثُمَّ سَهَّلَ خُرُوجَهُ، فَرَأَى شُكْرَهُ قَاصِرًا عَنْ بُلُوغِ حَقِّ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَتَدَارَكُهُ بِالِاسْتِغْفَارِ»^(٢).

اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذُنُوبَنَا، وَأَعِنَّا عَلَى طَاعَتِكَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.



(١) «المسند» (١٥٥/٦)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٧)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٠٠)، و«سنن الألباني في صحيح الجامع» رقم (٤٧٠٧).

(٢) انظر: «الفتوحات الربانية» لابن علان (١/٤٠١).

أَذْكَارُ الْوُضُوءِ

روى الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرهم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ، وَلَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ)؛ وهو حديث حسن بشواهد، وقد حسنه غير واحد من أهل العلم، وهو دالٌّ على مشروعية التسمية في أول الوضوء.

وقد اختلف العلماء - رحمهم الله - في حكمها؛ فذهب الجمهور إلى أنها مستحبة، وذهب بعض أهل العلم إلى القول بوجوبها، إذا كان عالماً بالحكم ذاكراً لها، فإن جهل حكمها أو نسيها، فلا حرج عليه، ولا يلزمه إعادة الوضوء.

وقد سئل الإمام الشيخ عبد العزيز بن باز رحمته الله عن حكم من ترك التسمية في الوضوء ناسياً، فقال: «قد ذهب جمهور أهل العلم إلى صحة الوضوء بدون تسمية، وذهب بعض أهل العلم إلى وجوب التسمية مع العلم والذكر؛ لما روي عنه ﷺ أنه قال: (لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ)، لكن من تركها ناسياً أو جاهلاً، فوضوؤه صحيح، وليس عليه إعادته، ولو قلنا بوجوب التسمية؛ لأنه معذور بالجهل والنسيان، والحجة في ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أن الله سبحانه قد استجاب هذا الدعاء، وبذلك تعلم أنك إذا نسيت التسمية في أول

(١) «المسند» (٤١٨/٢)، و«سنن أبي داود» رقم (١٠١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٩٩)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٢٢/١).

الوضوء، ثم ذَكَرَتْهَا فِي أَثْنَائِهِ، فَإِنَّكَ تُسَمِّي، وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تَعِيدَ أَوَّلًا؛ لِأَنَّكَ مَعْذُورٌ بِالنِّسْيَانِ^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وَأَمَّا الدُّعَاءُ عَلَى أَعْضَاءِ الْوُضُوءِ فِي أَثْنَائِهِ الْوُضُوءِ، كُلُّ غُضُوٍّ بِدُعَاءٍ مُخْصُوصٍ، بِأَنْ يَجْعَلَ لِيُغْسَلَ الْيَدَ دُعَاءً، وَلِيُغْسَلَ الْوَجْهَ دُعَاءً، وَلِيُغْسَلَ الْقَدَمَ دُعَاءً، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ عِنْدَ الْمَضْمُضَةِ: اللَّهُمَّ اسْقِنِي مِنْ حَوْضِ نَبِيِّكَ كَأَسَا لَا أَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا، وَعِنْدَ الْاسْتِنْشَاقِ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي رَائِحَةَ نَعِيمِكَ وَجَنَاتِكَ، وَعِنْدَ غَسْلِ الْوَجْهِ: اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهِي يَوْمَ تَبْيَضُ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُ وَجُوهٌ، وَعِنْدَ غَسْلِ الْيَدَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِنِي كِتَابِي بِيَمِينِي، اللَّهُمَّ لَا تُعْطِنِي كِتَابِي بِشِمَالِي، وَعِنْدَ مَسْحِ الرَّأْسِ: اللَّهُمَّ حَرِّمْ شَعْرِي وَبَشْرِي عَلَى النَّارِ، وَعِنْدَ مَسْحِ الْأُذُنِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وَعِنْدَ غَسْلِ الرَّجُلَيْنِ: اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَدَمِي عَلَى الصِّرَاطِ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْاِقْتِصَارُ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَالْبُعْدُ عَمَّا أَحَدَّثَهُ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الْأَذْكَارُ الَّتِي يَقُولُهَا الْعَامَّةُ عَلَى الْوُضُوءِ عِنْدَ كُلِّ غُضُوٍّ، فَلَا أَصْلَ لَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَلَا الْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَفِيهَا حَدِيثٌ كَذِبٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». اهـ^(٢).

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُولَ عَقَبَ فَرَاعِهِ مِنَ الْوُضُوءِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ لِمَا ثَبَّتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبْلِ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي، فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، [أَي: رَدَدْتُهَا إِلَى مَكَانٍ رَاحَتِهَا فِي آخِرِ النَّهَارِ]، فَأَذْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَذْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ،

(١) «مجموع فتاواه ومقالاته» (٧/١٠٠). (٢) «الوابل الصيب» (ص ٣١٦).

فَيُحْسِنُ وَضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجُودَ هَذِهِ! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودُ، فَظَنَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتَكَ جِئْتَ آفِئًا، قَالَ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ) ^(١).

ورواه الترمذي، وزاد: (اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ) ^(٢)، وهي زيادة ثابتة كما بين أهل العلم.

وفي هذا الحديث يَذْكُرُ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِرْصَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى أَوْقَاتِهِمْ، وَتَعَاوَنَهُمْ بَيْنَهُمُ التَّعَاوُنَ الَّذِي يُحَقِّقُ الْفَائِدَةَ لِلْجَمِيعِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَنَاوَبُونَ رَغِيَّ إِبِلِهِمْ، فَيَجْتَمِعُ الْجَمَاعَةُ، وَيَضْمُونُ إِبِلَهُمْ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فِيرَعَاهَا كُلُّ يَوْمٍ وَاحِدٌ مِنْهُمْ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَرْفَقَ بِهِمْ، وَلِيَنْصَرِفَ الْبَاقُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ، وَلِيَتَهَيَّأَ لَهُمْ فُرْصَةٌ أَكْبَرُ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ. وَلَمَّا كَانَتْ نَوْبَةُ عُقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعِنْدَمَا عَادَ بِالْإِبِلِ إِلَى مَرَاحِهَا فِي آخِرِ النَّهَارِ، وَفَرَغَ مِنْ أَمْرِهَا، جَاءَ إِلَى مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُذَكِّرَ شَيْئًا مِنْ فَوَائِدِهِ، وَلِيَنْهَلَ مِنْ مَعِينِهِ الْمُبَارَكِ، فَأَذْرَكَ فَائِدَةً عَظِيمَةً فَرِحَ بِهَا، وَهِيَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ وَضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ)، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُبْدِيًا إِعْجَابَهُ بِهَذِهِ الْفَائِدَةِ الْعَظِيمَةِ: «مَا أَجُودَ هَذِهِ!»، فَسَمِعَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ قَدْ رَأَى حِينَ دَخَلَ، فَقَالَ لَهُ: «الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودُ»؛ يُشِيرُ إِلَى فَائِدَةٍ قَالَهَا النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ دُخُولِ عُقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى الْحَيْرِ، وَالتَّعَاوُنِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى أَبْوَابِ الْعِلْمِ وَأُمُورِ الْإِيمَانِ؛ فَذَكَرَ لَهُ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٣٤).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٥٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٤٨).

عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُبْلَغُ - أَوْ فَيُسْبَغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ).

وفي هذا فضلُ إسباغِ الوضوءِ بإكمالِهِ وإتمامِهِ على الوجهِ المسنونِ، وفضلُ المحافظةِ على هذا الذِّكْرِ العظيمِ عَقِبَ الوضوءِ، وَأَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَّةِ لِيَدْخُلَ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ.

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ)؛ لثبوت هذه الزيادةِ عندَ الترمذيِّ كما تقدَّم، وله أن يقولَ كذلك: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)؛ لِمَا رواه النَّسَائِيُّ في «عملِ اليومِ والليلة»، والحاكم في «مستدركه»، وغيرُهما، عن أبي سعيدِ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (مَنْ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، كُتِبَ فِي رَقٍّ، ثُمَّ طُبِعَ بِطَابَعٍ، فَلَمْ يُكْسَرْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)^(١)، وَالطَّابَعُ: الْحَاتَمُ، يَرِيدُ أَنَّهُ يُخْتَمُ عَلَيْهِ، وَلَا يُفْتَحُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فهذا جملةُ ما ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الذِّكْرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْوُضُوءِ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ [أَي: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَلَى وَضْؤِهِ شَيْئًا غَيْرَ التَّسْمِيَةِ، وَكُلُّ حَدِيثٍ فِي أَذْكَارِ الْوُضُوءِ الَّذِي يُقَالُ عَلَيْهِ، فَكَذِبٌ مُخْتَلَقٌ، لَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا مِنْهُ»^(٢)، ثُمَّ اسْتثنَى رَحِمَهُ اللَّهُ حَدِيثَ التَّسْمِيَةِ وَحَدِيثِي عُمَرَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْمُتَقَدِّمَيْنِ.

واللهُ وحده الموفقُّ، والهادي إلى سواءِ السبيلِ.



(١) «المستدرک» (٥٦٤/١)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٣٣٣).

(٢) «زاد المعاد» (١٩٥/١).

أَذْكَارُ الْخُرُوجِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَدُخُولِ الْمَسْجِدِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ

ثَبَّتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَعَظْمُ لِي نُورًا)^(١).

وهذا الحديث يدلُّ على مشروعية قول هذا الدعاء عند التوجه إلى المسجد، وكلُّهُ سؤالُ الله تبارك وتعالى بأن يجعلَ النورَ في كلِّ ذرَّاتِهِ الظاهرة والباطنة، وأن يجعلَهُ محيطًا به مِنْ جميع جهاته، وأن يجعلَ ذاته وجملته نُورًا، وهذا مناسبٌ غايةَ المناسِبةِ مع ما ثَبَّتَ في «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، أَنَّهُ ﷺ قال: (وَالصَّلَاةُ نُورٌ)^(٢)، فالصلاة نورٌ للمؤمنِ في دُنياه وفي قبرِهِ وفي الآخرة، وفي حديثٍ آخَرَ قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ حَافِظٌ عَلَيْهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؛ رواه أحمد^(٣)، فكان في غايةِ المناسِبةِ وتَمَامِ الحُسْنِ والمُسْلَمِ مُتَّجِهًا إِلَى المسجدِ لأداءِ هذه الصلاة التي هي نورٌ للمؤمنِ: أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يُعْظِمَ حَظَّهُ مِنَ النُّورِ فِي جِسْمِهِ كُلِّهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ مُحِيطًا بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمَ يُسْتَحَبُّ لَهُ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: (بِاسْمِ اللَّهِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٩٩).

(٣) «المسند» (١٦٩/٢)، قال الشيخ عبد العزيز بن باز: «بإسناد حسن». «مجموع فتاواه» (٢٧٨/١٠).

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَأَنْ يَقُولَ كَذَلِكَ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ).

وإذا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: (بِاسْمِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ)؛ وقد دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَجْمُوعُ أَحَادِيثَ:

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، قَالَ: (بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ)، وَإِذَا خَرَجَ، قَالَ: (بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ)؛ رَوَاهُ ابْنُ السُّنِّيِّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ)؛ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهٍ وَالْحَاكِمُ^(٢)، وَجَاءَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ: (اللَّهُمَّ بَاعِدْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ).

وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ - أَوْ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، قَالَ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ

(١) «عَمَلُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» رَقْمُ (٨٩)، وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ، وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ: «لَكِنْ لِلْحَدِيثِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ فَاطِمَةَ عِنْدَ ابْنِ السُّنِّيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ». «تَخْرِيجُ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ» (ص ٥١).

(٢) «إِسْنَنِ الْكَبِيرِ» (٢٧/٦)، وَ«سَنَنِ ابْنِ مَاجَهٍ» رَقْمُ (٧٧٣)، وَ«الْمُسْتَدْرَكُ» (١/٢٠٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْمُ (٥١٤).

(٣) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْمُ (٧١٣).

الرَّجِيمِ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ؛ رواه أبو داود^(١).

وهذا مجموع ما وردَ مِنَّا يُسْتَحَبُّ للمسلم أن يقولهُ عندَ دخولِ المسجدِ وعندَ الخروجِ منه، وإن طَالَ عليه ذلك، اقْتَصَرَ على ما في «صحيح مسلم»، وهو أن يقولَ عندَ الدخولِ: (اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ)، وعندَ الخروجِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ).

قوله: (إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ)؛ أي: حالَ دخولِهِ المسجدَ، وقوله: (إِذَا خَرَجَ)؛ أي: حالَ خروجِهِ منه.

قوله: (بِاسْمِ اللَّهِ) عندَ الدخولِ وعندَ الخروجِ، الباءُ: للاستعانة، وكلُّ فاعِلٍ يُقَدَّرُ الفعلُ المناسبُ لحالِهِ عندَ البسملة، والتقديرُ هنا: باسمِ الله أدخلُ؛ أي: طالبًا عَوْنَهُ سبحانه وتوفيقَهُ، وهكذا الشأنُ في الخروجِ.

قوله: (وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ)؛ فيه فضلُ الصلاةِ والسلامِ على رسولِ الله ﷺ عندَ دخولِ المسجدِ وعندَ الخروجِ منه، وهو مِنَ المواطنِ التي يُسْتَحَبُّ الصلاةُ فيها والسلامُ على رسولِ الله ﷺ، وقد فضَّلها ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «جِلاءُ الأفهامِ في الصلاةِ والسلامِ على خيرِ الأنامِ».

وفي قوله: (اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ)، عندَ الدخولِ، (وَاللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ) عندَ الخروجِ: حِكْمَةٌ؛ فقول: لعلَّ ذلكَ لأنَّ الداخلَ طالبٌ للآخرة، والرَّحْمَةُ أَخْصَصُ مطلوبٍ له، والخارجُ طالبٌ لِلْمَعَاشِ في الدنيا، وهو المرادُ بالفضلِ، وقد أشارَ إلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الْجُمُعَةُ: ١٠]، وقيل: لأنَّ مَنْ دَخَلَ المسجدَ، فَإِنَّهُ يَنْشَغُلُ بما يُقَرِّبُهُ إلى الله ونيلِ ثوابِهِ وجَنَّتِهِ، فَنَاسَبَ ذَكَرَ الرَّحْمَةِ، وَإِذَا خَرَجَ مِنَ المسجدِ، انتَشَرَ في الأرضِ ابتغاءَ فضلِ اللهِ لِرِزْقِهِ الطَّيِّبِ والحلالِ، فَنَاسَبَ ذَكَرَ الفضلِ^(٢)، والله أعلم.

(١) «سنن أبي داود» رقم (٤٦٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّريغيب» رقم (١٦٠٦).

(٢) انظر: «شرح الأذكار» لابن علَّان (٤٢/٢).

وقد دَلَّتِ النصوصُ الْمُتَقَدِّمَةُ على أَمِيَّةِ التَّعَوُّذِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، والالتجاءِ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْهُ؛ سِوَاءَ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ أَوْ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ، وَفِي الدُّخُولِ يَقُولُ - كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو الْمُتَقَدِّمِ -: (أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، وَأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ ذَلِكَ، قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ؛ أَي: جَمِيعُهُ.

وَفِي الْخُرُوجِ يَقُولُ - كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُتَقَدِّمِ -: (اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ).

وَمَا مِنْ شَكٍّ أَنَّ الشَّيْطَانَ حَرِيصٌ عَلَى الْإِنْسَانِ غَايَةَ الْحَرَصِ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ لِيَصُدَّهُ عَنْ صَلَاتِهِ، وَلِيُفَوِّتَ عَلَيْهِ خَيْرَهَا، وَلِيُقَلِّلَ حَظَّهُ وَنَصِيبَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا، وَحَرِيصٌ غَايَةَ الْحَرَصِ عَلَى الْإِنْسَانِ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ لِيَسَوْفَهُ إِلَى أَمَاكِنِ الْحَرَامِ، وَلِيُوقِعَهُ فِي مَوَاطِنِ الرَّيْبِ، وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَاعِدٌ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ)^(١)؛ أَي: فِي كُلِّ طَرِيقٍ يَسْلُكُهُ الْإِنْسَانُ؛ سِوَاءَ كَانَ طَرِيقَ خَيْرٍ أَوْ طَرِيقَ شَرٍّ، فَإِنْ كَانَ طَرِيقَ خَيْرٍ، قَعَدَ لَهُ فِيهِ لِيُثَبِّطَهُ عَنْهُ وَلِيُثْنِيَهُ عَنِ الْمُضِيِّ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ، قَعَدَ لَهُ فِيهِ لِيُشَجِّعَهُ عَلَى الْمُضِيِّ فِيهِ، وَلِيُدْفَعَهُ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ وَالْمَوَاصَلَةِ، نَسَأَ اللَّهُ أَنْ يُعِيدَنَا وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)؛ فِيهِ تَعَوُّذٌ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. وَمِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ: وَجْهُهُ الْمَوْصُوفُ بِالْكَرَمِ، وَهُوَ الْحُسْنُ وَالْبَهَاءُ. وَمِنْ صِفَاتِهِ: السُّلْطَانُ الْمَوْصُوفُ بِالْقِدَمِ، وَهُوَ الْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي لَيْسَ قَبْلَهَا شَيْءٌ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَكَفَايَتِهِ لِعَبْدِهِ الْمُسْتَعِيدِ بِهِ الْمَلْتَجِي إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤٨٣/٣)، وَالنَّسَائِيُّ (٢١/٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (١٦٥٢).

مَا يَقُولُهُ مَنْ سَمِعَ الْأَذَانَ

لقد وردَ في شأنِ الأذان - وهو النداءُ إلى الصلاة، والإعلامُ بدخولِ وقتها، بالفاظٍ مخصوصة - نصوصٌ كثيرةٌ في سُنَّةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ تدلُّ على فضله، وعظم شأنه، وكثرةِ منافعه وفوائده؛ سواءً على المؤذِّنِ نفسه أو على مَنْ يسمعُ نداءه.

فَمِنْ فضائلِ الأذانِ ما رواه البخاريُّ في «صحيحه»، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: (لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جَنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(١)، ومدى صوته: أي: غايته ومنتهاه.

وفي الحديثِ دلالةٌ على أنَّ كلَّ مَنْ سمعَ صوتَ المؤذِّنِ مِنَ الْإِنْسِ أَوْ الْجِنِّ، أَوْ الشَّجَرِ أَوْ الْحَجَرِ، أَوْ الْحَيَوَانَاتِ، يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وفي هذا دلالةٌ على استحبابِ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالْأَذَانِ لِيَكْثُرَ مَنْ يَشْهَدُ لَهُ، مَا لَمْ يُجْهِدْهُ أَوْ يَتَأَذَّى بِهِ.

وَمِنْ فضائلِ الأذانِ ما رواه البخاريُّ ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا)^(٢).

والاستهَامُ: الاقتراعُ، والتَّهْجِيرُ: التَّكْبِيرُ إلى صلاةِ الظهر، وقيل: إلى كلِّ صلاة، والعَتَمَةُ: صلاةُ العِشاء.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٠٩).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦١٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٢٧).

* **ومن فضائل الأذان:** ما رواه البخاري ومسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ، أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأَذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأَذِينَ أَقْبَلَ، فَإِذَا نُوبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ [أي: إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ]، فَإِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا؛ لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظُلَّ الرَّجُلُ لَا يَذَرِي كَمَ صَلَّي) ^(١).

وقد دَلَّ الحديثُ على أَنَّ الْأَذَانَ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، وَأَنَّهُ إِذَا سَمِعَهُ، وَلَّى هَارِبًا حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأَذِينَ، فَهُوَ حِينَئِذٍ يَسْمَعُهُ يَهْرُبُ نَفَرًا عَنْ سَمَاعِهِ، فَإِذَا قُضِيَ يَرْجِعُ مُؤَسَّوسًا لِيُقْسِدَ عَلَى الْمُصَلِّي صَلَاتَهُ. والنصوصُ في فضلِ الْأَذَانِ كثيرةٌ.

ثم إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا سَمِعَ النَّدَاءَ يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا سَمِعْتُمُ النَّدَاءَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ) ^(٢).

وفي «صحيح مسلم»، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ) ^(٣).

وهذا فيه فضلُ سماعِ النَّدَاءِ وترديدِ كلماتِهِ مَعَ الْمُؤَذِّنِ، بَأَن يَقُولَ مِثْلَ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٠٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٨٩).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦١١)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٨٣).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٥).

قوله في جميع الكلمات، إِلَّا قوله: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، فيقول بدلَهُما: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ قوله: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ: دَعْوَةٌ لِلنَّاسِ لِلْمَجِيءِ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ، وقوله: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ: دَعْوَةٌ لَهُمْ لِلْمَجِيءِ لِتَحْصِيلِ ثَوَابِهَا، وفي قولِ المسلمِ عند سماعِ ذلك: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ): طَلَبُ لِلْعَوْنِ مِنَ اللَّهِ فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ.

ثم قوله ﷺ: (مِنْ قَلْبِهِ) فيه دَلَالَةٌ عَلَى اشتراطِ الإخلاص؛ لِأَنَّهُ أَصْلُ لَا بَدَّ مِنْهُ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ.

وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ عَقِبَ سَمَاعِهِ لِلشَّهَادَتَيْنِ: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ لِمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ) ^(١).

ورواه أبو عوانة في «مستخرجه» بلفظ: (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ...) ^(٢)، الحديث، وهو صريحٌ في أَنَّ السَّامِعَ يَقُولُ ذَلِكَ بَعْدَ جَوَابِ الْمُؤَذِّنِ عَلَى الشَّهَادَتَيْنِ، يَقُولُهُ مَرَّةً وَاحِدَةً ^(٣).

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْأَذَانِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ لَهُ الْوَسِيلَةَ، وَمَنْ سَأَلَ لَهُ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ؛ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً

(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٦).

(٢) «مستخرج أبي عوانة» رقم (٩٩٥).

(٣) انظر: «تصحيح الدعاء» للشيخ بكر أبو زيد (ص ٣٧١).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُّوا اللَّهَ لِيِ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْرَلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ؛ فَمَنْ سَأَلَ لِيِ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ^(١).

وأفضلُ صِيغِ الصَّلَاةِ عليه: هي الصَّلَاةُ الْإِبْرَاهِيمِيَّةُ الَّتِي عَلَّمَهَا النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ بِأَنْ تَقُولَ: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ).

وروى البخاريُّ في «صحيحه»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(٢).

ثُمَّ إِنَّ لِلْمُسْلِمِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ لِنَفْسِهِ بِمَا شَاءَ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا الْمَوْطِنَ مِنْ مَوَاطِنِ إِجَابَةِ الدَّعَاءِ؛ فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْمُؤَذِّنِينَ يَفْضُلُونَنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قُلْ كَمَا يَقُولُونَ، فَإِذَا انْتَهَيْتَ، فَسَلْ تُعْطَهُ)»^(٣).

وروى أيضًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَرُدُّ الدُّعَاءَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ)^(٤).

فهذا جملة ما وردَ في هذا الباب، ولِيُحَذَرَ الْمُسْلِمُ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِمَّا أَحَدَتْهُ النَّاسُ مِمَّا لَمْ تُثَبِّتْ بِهِ سُنَّةٌ، وَلَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.



(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٤). (٢) «صحيح البخاري» رقم (٦١٤).

(٣) «سنن أبي داود» رقم (٥٢٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٠٣).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (١١٩/٣)، وأبو داود رقم (٥٢١)، والترمذي رقم (٢١٢)،

وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٤٠٨).

أَذْكَارُ اسْتِفْتَاكِ الصَّلَاةِ

لقد ثبتَ عن النَّبِيِّ ﷺ أنواعٌ من الأذكارِ والأدعيةِ يَسْتَفْتَحُ بها المسلمُ صلاتَهُ فَرَضَهَا وَنَفَلَهَا، ولم يكنِ النَّبِيُّ ﷺ يُداوِمُ على استفتاحِ واحدٍ، بل كان يَسْتَفْتَحُ بأنواعٍ مِنَ الاستفتاحاتِ، وهي - في الجملة - مشتملةٌ على تعظيمِ الله، وتمجيدِهِ، وحُسْنِ الثناءِ عليه تبارَكَ وتعالى بما هو أَهْلُهُ، وسؤالِهِ مغفرةَ الذنوبِ، ولا يَلْزَمُ المسلمَ نوعٌ معيَّنٌ من هذه الأنواعِ، بل بأيٍّ منها أَخَذَ لا حَرَجَ عليه، والأوَّلَى أَنْ يَفْعَلَ بَعْضَهَا تَارَةً، وَبَعْضَهَا تَارَةً؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَكْمَلُ فِي الْإِتِّبَاعِ.

وَمِنْ هَذِهِ الاسْتِفْتَاكِاتِ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ، سَكَتَ هَيْئَةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بِأَبِي وَأُمِّي، أَرَأَيْتَ سَكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: (أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنْقَى الثُّوبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ)»^(١).

وفي هذا الاستفتاحِ سؤالُ الله تبارَكَ وتعالى أَنْ يُبَاعِدَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ خَطَايَاهُ - وهي الذنوبُ - كما بَاعَدَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَذَلِكَ بِمَحْوِ الذنوبِ، وَعَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَيْهَا، وَالتَّوْفِيقِ لِلْبُعْدِ عَنْهَا، وَأَنْ يُنْقَى مِنْ خَطَايَاهُ؛ أَي: يُنْظَفَ مِنْهَا كَمَا يُنْظَفُ الثُّوبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِيهِ أَيُّ أَثَرٍ، وَأَنْ يَغْسِلَهُ مِنْ خَطَايَاهُ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى شِدَّةِ حَاجَةِ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ إِلَى مَا يُطَهِّرُهُمَا وَيُبْرِدُهُمَا وَيَقْوِيهِمَا.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٤٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٩٨).

ومن استفتاحاته ﷺ ما رواه أبو داود وغيره عن عائشة وأبي سعيد رضي الله عنهما، وغيرهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ، قَالَ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)»^(١).

وهذا الاستفتاحُ أُخْلِصَ للثناءِ على الله سبحانه وتنزيهه عن كلِّ ما لا يليقُ به، وأنه تبارَكَ وتعالى مُنَزَّهٌ عن كلِّ عَيْبٍ، سَالِمٌ مِنْ كلِّ نقص، محمودٌ بكلِّ حَمْدٍ.

ومعنى قوله: (تَعَالَى جَدُّكَ)؛ أي: ارتَفَعَتْ وَعَلَتْ عَظَمَتُكَ، وَجَلَّتْ فَوْقَ كُلِّ عَظْمَةٍ، وَعَلَا شَأْنُكَ عَلَى كُلِّ شَأْنٍ، وَقَهَرَ سُلْطَانُكَ عَلَى كُلِّ سُلْطَانٍ، فَتَعَالَى جَدُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ أَوْ الرِّبَوِيَّةِ أَوْ الْأُلُوْهِيَّةِ، أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، كَمَا قَالَ مُؤْمِنُو الْجَنِّ: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صِغَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]؛ أي: تَعَالَتْ عَظَمَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدٌ.

وقوله: (وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)؛ أي: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاكَ.

فاشتمَلَ هذا الاستفتاحُ العَظِيمُ عَلَى أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ: تَوْحِيدِ الرِّبَوِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَمِنْ الاسْتِفْتَاكِاتِ الثَّابِتَةِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ الْقَائِلُ كَلِمَةً كَذًا وَكَذَا؟)، قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (عَجِبْتُ لَهَا؛ فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ)».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مِنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ»^(٢).

(١) «المسند» (٣/٥٠)، و«سنن أبي داود» رقم (٧٧٥، ٧٧٦)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٤٢)، و«سنن النسائي» رقم (٨٩٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٨٠٤)، ورواه مسلم في «صحيحه» رقم (٣٩٩)، عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ.

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٠٣).

وهذا كله ذِكرُ الله وثناءٌ عليه سبحانه بهذه الكلمات العظيمة: (اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)، فكلُّهُ تكبيرٌ وتحميدٌ وتسبيحٌ لله؛ فهو مُخلِّصٌ في الثناءِ على الله ﷻ.

وَمِنْ اَلِاسْتِفْتَا حَاتِ اَلْوَارِدَةِ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: (وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)»^(١).

وهذا كله خبرٌ مِنَ الْعَبْدِ عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مِنْ ذُلٍّ وَخُضُوعٍ وَانْكَسَارٍ بَيْنَ يَدَيِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وقوله: (وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)؛ أي: أَخْلَصْتُ دِينِي وَعَمَلِي، وَقَصَدْتُكَ وَحَدَّكَ بِعِبَادَتِي وَتَوَجَّهْتُ، وَقوله: (حَنِيفًا)؛ أي: مَائِلًا عَنِ الشَّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ.

وقوله: (إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، خَصَّ هَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ الصَّلَاةَ وَالنُّسُكَ - وَهُوَ الذَّبْحُ - بِالذِّكْرِ؛ لَشَرْفِهِمَا وَعِظَمِ فَضْلِهِمَا، وَمَنْ أَخْلَصَ فِي صَلَاتِهِ وَنُسُكِهِ اسْتَلْزَمَ إِخْلَاصَهُ لِلَّهِ فِي سَائِرِ أَعْمَالِهِ، وَقوله: (مَحْيَايَ وَمَمَاتِي)؛ أي: مَا آتَيْهِ فِي حَيَاتِي، وَمَا أَمُوتُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ كُلِّهِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

(١) «صحيح مسلم» رقم (٧٧١).

وقوله: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَأَغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)، فيه التوسُّلُ إلى الله بملكه وألوهيته وربوبيته، واعترافُ العبدِ بأنه عبدٌ له، ظالمٌ لنفسه، معترفٌ بذنبه، وأنه سبحانه غافرُ الذنوب، ولا يغفرها إلا هو، وهو بهذا يطمعُ من ربه أن يغفرَ له ذنبه.

وقوله: (واهدني لأحسنِ الأخلاقِ، لا يهدي لأحسنها إلا أَنْتَ، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أَنْتَ)، فيه سؤالُ الله الهدايةَ إلى الخلقِ الحسنِ، واعترافه بأنه لا يهدي إليه إلا الله، وأن يصرف عنه الخلقَ السيئَ الرديءَ، واعترافه بأنه لا يصرفه عنه إلا الله.

وقوله: (لَبَّيْكَ): استجابةٌ لنداءِ الله، وامتنالُ أمره سبحانه. وقوله: (وَسَعْدَيْكَ)؛ أي: إسعادًا بعدَ إسعاد، والمرادُ: طاعةٌ بعدَ طاعة.

وقوله: (وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ)؛ أي: خزائنه عندك، وَأَنْتَ الْمَانُّ به المتفضلُّ وحدك.

وقوله: (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)، فيه تنزيهُ الله عن الشرِّ أن يُنسبَ إليه؛ فالشرُّ لا يُنسبُ إلى الله بوجهٍ من الوجوه؛ لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وإنما الشرُّ يدخلُ في مخلوقاته ومفعولاته؛ فالشرُّ في المَقْضِيِّ لا في الْقَضَاءِ، فتبارك وتعالى عن نسبةِ الشرِّ إليه، بل كلُّ ما نُسبَ إليه فهو خيرٌ.

وقوله: (وَأَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ)؛ أي: بك أستجيرُ، وإليك ألتجئُ، أو بك أحيأ وأموت، وإليك المرجعُ والمصير.

وقوله: (تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ)، فيه إثباتُ استحقاقه سبحانه الشَّاءَ والتعظيمَ. ثم ختمَ هذا الاستفتاحَ بالاستغفارِ والتوبة، وللحديثِ صلَّة، والله تعالى

أعلم.

أَنْوَاعُ اسْتِفْتَا حَاتِ النَّبِيِّ ﷺ

سَبَقَ أَنْ مَرَّ مَعَنَا ذِكْرُ أَنْوَاعِ اسْتِفْتَا حَاتِ النَّبِيِّ ﷺ لِلصَّلَاةِ، وَبَيَانُ شَيْءٍ مِنْ مَعَانِيهَا وَدَلَالَتِهَا، وَسَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَدَاوُمُ عَلَى نَوْعٍ مِنْ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ، بَلْ يَسْتَفْتِي بِهَذَا تَارَةً وَبِهَذَا تَارَةً. وَمَنْ يَتَأَمَّلُ فِي هَذِهِ الْاسْتِفْتَا حَاتِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَجِدُ أَنَّهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: نَوْعٌ فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ، وَنَوْعٌ فِيهِ إِخْبَارٌ مِنَ الْعَبْدِ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَنَوْعٌ فِيهِ دُعَاءٌ وَطَلَبٌ.

وَقَدْ قَرَّرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَصْلًا عَظِيمًا فِي هَذَا الْبَابِ، وَأَطَالَ فِي ذِكْرِ شَوَاهِدِهِ وَدَلَالَتِهِ، أَلَا وَهُوَ أَنَّ أَعْلَى الذِّكْرِ مَا كَانَ ثَنَاءً عَلَى اللَّهِ، وَيَلِيهِ مَا كَانَ خَبَرًا مِنَ الْعَبْدِ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَيَلِيهِ مَا كَانَ دُعَاءً مِنَ الْعَبْدِ، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَقِبَ ذَلِكَ: «إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا الْأَصْلُ، فَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْاسْتِفْتَا حَاتِ مَا كَانَ ثَنَاءً مَحْضًا، مِثْلُ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)، وَقَوْلُهُ: (اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)، وَلَكِنْ ذَاكَ فِيهِ مِنَ الثَّنَاءِ مَا لَيْسَ فِي هَذَا، فَإِنَّهُ تَضَمَّنَ ذِكْرَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ، وَتَضَمَّنَ قَوْلُهُ: (تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ)، وَهُمَا مِنَ الْقُرْآنِ أَيْضًا؛ وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ السَّلَفِ يَسْتَفْتِيحُونَ بِهِ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْهَرُ بِهِ يُعَلِّمُهُ النَّاسَ.

وَبَعْدَهُ النَّوْعُ الثَّانِي، وَهُوَ الْخَبَرُ عَنِ عِبَادَةِ الْعَبْدِ؛ كَقَوْلِهِ: (وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...)، إلخ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الدُّعَاءَ، وَإِنْ اسْتَفْتَحَ الْعَبْدُ بِهَذَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْاسْتِفْتَا حَاتِ، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ، فِي حَدِيثٍ مُصَرِّحًا بِهِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي يُوسُفَ، وَابْنِ هُبَيْرَةَ الْوَزِيرِ، وَمِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ صَاحِبِ «الْإِفْصَاحِ»؛ وَهَكَذَا اسْتَفْتَحْتُ أَنَا.

وبعده النوع الثالث، كقوله: (اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...) إلخ...». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ قد قَرَّرَ في مواضعٍ مِنْ مؤلفاته قاعدةً نافعةً تَعَلَّقُ بالعبادات التي جاءت في الشريعة على أنواع، وهي أَنَّهَا تُفَعَّلُ على جميع تلك الأنواع الواردة؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد تَقَدَّمَ القولُ في مواضع أَنَّ العبادات التي فَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ على أنواع يُشَرَعُ فَعْلُهَا على جميع تلك الأنواع، لا يُكْرَهُ منها شيءٌ، وذلك مثل أنواع التَّشَهُّدات، وأنواع الاستفتاح، ومثل الوُثْرِ أَوَّلَ الليلِ وَآخِرَهُ، ومثل الجهرِ بالقراءة في قيام الليل والمخافتة، وأنواع القراءات التي أُنْزِلَ القرآنُ عليها، والتكبير في العيد، ومثل الترجيع في الأذان وتركه، ومثل إفراهِ الإقامة وتثنيها...»، ثم ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الكلامَ في هذه المسألة من مقامين:

«أحدهما: في جواز تلك الوجوه كلّها بلا كراهة، والمقام الثاني: هو أَنَّ ما فعله النَّبِيُّ ﷺ من أنواع متنوعة، وإن قيل: إِنَّ بعض تلك الأنواع أفضل، فالإقتداء بالنبي ﷺ في أَنْ يُفَعَّلَ هذا تَارَةً، وهذا تَارَةً: أفضلٌ مِنْ لزوم أحد الأمرين وهجر الآخر؛ وذلك أَنَّ أفضلَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، ولم يكن يُدَاوِمُ على استفتاح واحدٍ قطعاً»^(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونحنُ إذا قلنا: التنوع في هذه الأذكار أفضل، فهو أيضاً تفضيلٌ لِجِنْسِ التنوع، والمفضولُ قد يكونُ أنفعَ لبعضِ الناسِ لمناسبتِهِ له... لأنَّ انتفاعَهُ به أتمُّ، وهذه حالُ أكثرِ الناسِ، قد ينتفعون بالمفضولِ لمناسبتِهِ لأحوالِهِم الناقصة ما لا ينتفعون بالفاضل، فالعبادة التي يَنْتَفِعُ بها؛ فيَحْضُرُ لها قلبُهُ، ويرغبُ فيها أفضلُ مِنْ عبادةٍ يفعلها مَعَ الغفلةِ وعدمِ الرغبة، وعلى هذا قد تكونُ مداومتهُ على النوعِ المفضولِ أنفعَ لمحِبَّتِهِ وشهودِ قلبِهِ وفهمِهِ ذلك الذِّكْرُ»^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٣٩٤ - ٣٩٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٣٣٦ - ٣٤٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٣٤٨).

ثم إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ثَبَتَ عَنْهُ أَنْوَاعٌ أُخْرَى مِنَ الْإِسْتِفْتَاكِ كَانَ يَسْتَفْتَحُ بِهَا صَلَاةَ اللَّيْلِ؛ مِنْهَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)»^(١).

وهذا الذِّكْرُ تَضَمَّنَ الْأَنْوَاعَ الثَّلَاثَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ: الشَّاءَ عَلَى اللَّهِ، وَالْإِخْبَارَ مِنَ الْعَبْدِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَالسُّؤَالَ وَالطَّلَبَ، وَقَدَّمَ مَا هُوَ خَيْرٌ عَنْ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَرَسُولِهِ ﷺ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ خَيْرٌ عَنْ تَوْحِيدِ الْعَبْدِ وَإِيمَانِهِ، ثُمَّ خَتَمَهُ بِالسُّؤَالِ وَالطَّلَبِ^(٢).

وهو فِي الْجُمْلَةِ: ذِكْرٌ عَظِيمٌ، وَدَعَاءٌ مُبَارَكٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَصُولِ الْإِيمَانِ، وَأُسُسِ الدِّينِ، وَحَقَائِقِ الْإِسْلَامِ، وَفِيهِ التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِحَمْدِهِ، وَالشَّاءِ عَلَيْهِ، وَالْإِقْرَارُ بِعِبَادَتِهِ، ثُمَّ سُؤَالُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ.

وَمِنْ اسْتِفْتَاخَاتِهِ ﷺ لَصَلَاةِ اللَّيْلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ الصَّلَاةَ: (اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ

(١) «صحيح البخاري» رقم (١١٢٠)، ورواه مسلم رقم (٧٦٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٣٩٠).

مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

وهذا فيه التوسُّلُ إليه سبحانه برَبوبيَّتِهِ العامَّةِ والخَاصَّةِ لهؤلاءِ الثلاثةِ من الملائكةِ الموكِّلينَ بالحياة؛ فـجبريلُ مُوكَّلٌ بِالوَحْيِ الذي به حياةُ القلوبِ والأرواحِ، وميكائيلُ مُوكَّلٌ بِالْقَطْرِ الذي به حياةُ الأرضِ والنباتِ والحيوانِ، وإسرافيلُ مُوكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ الذي به حياةُ الخَلْقِ بعدَ مماتِهِمْ^(٢)، وتوسُّلُ إليه سبحانه بكونِهِ فَاطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ؛ أَي: خَالِقَهُمَا وَمُبْدِعَهُمَا، وبعلَمِهِ سبحانه الغَيْبَ والشَّهَادَةَ؛ أَي: السِّرَّ والعَلَانِيَةَ، وبأنَّه سبحانه هو الذي يَحْكُمُ بين عبادِهِ فيما كانوا فيه يَخْتَلِفُونَ: أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، والهِدَايَةُ هِيَ الْعِلْمُ بِالْحَقِّ مع قَصْدِهِ وإِثَارِهِ على غَيْرِهِ، والمِهْتَدِي هُوَ الْعَامِلُ بِالْحَقِّ الْمُرِيدُ لَهُ، وَهِيَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ لِلَّهِ عَلَى الْعَبْدِ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا جَمِيعًا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَأَنْ يُؤَفِّقَنَا لِكُلِّ خَيْرٍ.



(١) «صحيح مسلم» رقم (٧٧٠).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١٧٢/٢).

أَذْكَارُ الرُّكُوعِ وَالْقِيَامِ مِنْهُ وَالسُّجُودِ وَالْجَلْسَةِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ

وَرَدَ فِي هَذَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْأَذْكَارِ وَالْأَدْعِيَةِ، وَفِيهَا يَلِي عَرْضٌ لَجُمْلَةٍ مِنَ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي هَذَا الْبَابِ، مَعَ إِضْحَاحِ شَيْءٍ مِنْ مَعَانِيهَا وَدَلَالَتِهَا.

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكُعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكُعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يقرأ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى)، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ»^(١).

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مَشْرُوعِيَّةٌ أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ فِي رُكُوعِهِ: (سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ) وَفِي سَجُودِهِ: (سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى)، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فُشِّرَ لِلرَّائِعِ أَنْ يَذْكُرَ عَظَمَةَ رَبِّهِ فِي حَالِ انْخِفَاضِهِ هُوَ، وَتَطَامُنِهِ وَخُضُوعِهِ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ يُوصَفُ بِوَصْفِ عَظَمَتِهِ عَمَّا يَضَادُّ كِبَرِيَاءَهُ وَجَلَالَهُ وَعَظَمَتَهُ، فَأَفْضَلُ مَا يَقُولُ الرَّائِعُ عَلَى الْإِطْلَاقِ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَمَرَ الْعِبَادَ بِذَلِكَ، وَعَيَّنَ الْمُبْلَغُ عَنْهُ؛ السَّفِيرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ هَذَا الْمَحَلُّ لِهَذَا الذِّكْرِ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الْوَاقِعَةُ: ٧٤]، قَالَ: (اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ) ...»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» رقم (٧٧٢).

(٢) «كتاب الصلاة» لابن القيم (ص ١٧٦).

وقال عن السجود: «وشرَعَ فيه مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ مَا يَنَاسِبُهُ، وهو قول العبد: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى)، فهذا أفضلُ ما يُقالُ فيه، ولم يَرِدْ عن النَّبِيِّ ﷺ أمرُهُ في السجودِ بغيره، حيث قال: (اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ...)، وكان وصف الربِّ بالعلوِّ في هذه الحالِ في غايةِ المناسبةِ لحالِ الساجد الذي قد انْحَطَّ إلى السُّفْلِ على وجهه، فذَكَرَ عُلُوَّ رَبِّهِ فِي حَالِ سَقُوطِهِ، وهو كما ذَكَرَ عَظَمَتُهُ فِي حَالِ خُضُوعِهِ فِي رُكُوعِهِ، ونَزَّهَ رَبَّهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِمَّا يَضَادُّ عَظَمَتَهُ وَعُلُوَّهُ»^(١).

وفي «الصحيحين»، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»^(٢).

والمرادُ بقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»؛ أي: يَتَأَوَّلُ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي سُورَةِ النِّصْرِ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]؛ فكان يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي).

وروى مسلمٌ في «صحيحه» عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ)»^(٣).

وقوله: (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ)، هما اسمانِ لله دَالَّانِ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ وَتَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ النِّقَاصِ وَالْعُيُوبِ، وعن أن يُشَبِّهَهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ خِصَائِصِهِ وَنِعَوَاتِ كَمَالِهِ. وقوله: (رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ) فيه ذِكْرُ رَبوبِيَّةِ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ عَمُومًا، ثُمَّ خَصَّ بِالذِّكْرِ جَبْرِيلَ ﷺ الرُّوحَ الْأَمِينَ؛ لكونِهِ أَفْضَلَ الْمَلَائِكَةِ وَمُقَدِّمَهُمْ، وهو الذي كان يَنْزِلُ بِالوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزَّلُ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿الشُّعْرَاءُ﴾، وقد سُمِّيَ جَبْرِيلُ ﷺ رُوحًا؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَنْزِلُ بِالوَحْيِ الذي به حَيَاةُ الْقُلُوبِ.

(١) «كتاب الصلاة» لابن القيم (ص ١٨١).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٤٤).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٤٨٧).

وروى أبو داود، والنسائي، وغيرهما، عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، قال: «قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: (سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ)، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَرَأَ سُورَةَ سُورَةَ»^(١).

وقوله: (سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ)؛ أي: تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ، (الْجَبَرُوتُ وَالْمَلَكُوتُ): فَعَلُوتٌ مِنَ الْجَبْرِ وَالْمُلْكِ، كَالرَّحْمُوتِ وَالرَّغْبُوتِ وَالرَّهْبُوتِ؛ فَعَلُوتٌ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: «رَهْبُوتٌ خَيْرٌ مِنْ رَحْمُوتٍ»؛ أي: أَنْ تُرْهَبَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَحَّمَ، فَالْجَبَرُوتُ وَالْمَلَكُوتُ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَعْنَى الْمَلِكِ الْجَبَّارِ^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ يَس: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

وقوله: «وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»؛ أي: وَذِي الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ، وَهُمَا وَصِفَانِ مُتَقَارِبَانِ خَاصَّانِ بِاللَّهِ تَعَالَى، لَا يَسْتَحِقُّهُمَا أَحَدٌ سِوَاهُ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (قَالَ اللَّهُ ﷻ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ)^(٣).

فَجَعَلَ الْعَظَمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ، وَالْكِبْرِيَاءَ بِمَنْزِلَةِ الرِّدَاءِ، إِشَارَةً إِلَى اخْتِصَاصِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِهِمَا، وَتَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ عَنِ الشَّرِكِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وروى مسلم في «صحيحه»، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في حديثٍ

(١) «سنن أبي داود» رقم (٨٧٣)، و«سنن النسائي» رقم (١١٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٧٧٦).

(٢) انظر: «الرد على المنطقيين» لابن تيمية (ص ١٩٦).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٤١).

طويل: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَكَعَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصْبِي)، وَإِذَا رَفَعَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءُ الْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)، وَإِذَا سَجَدَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)»^(١).

قوله: (اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ)، تأخيرُ الفعلِ يدلُّ على الاختصاصِ؛ أي: لك ركوعي، لا لسواك.

وقوله: (وَبِكَ آمَنْتُ)؛ أي: أَقَرَّرْتُ وَصَدَّقْتُ.

وقوله: (وَلَكَ أَسَلَمْتُ)؛ أي: انْقَدْتُ وَأَطَعْتُ.

وقوله: (خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصْبِي)؛ أي: أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنِّي كُلُّهَا خَضَعَتْ لَكَ، وَذَلَّتْ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَانْكَسَرَتْ لِجَنَابِكَ.

وقوله إِذَا رَفَعَ مِنَ الرُّكُوعِ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)؛ أي: اسْتَجَابَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَالَسَمْعُ هُنَا سَمْعُ إِجَابَةٍ.

وقوله: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءُ الْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)، سيأتي الكلام عن معناه - إن شاء الله -.

وقوله: (سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) فيه استحضارُ العبدِ لِعَظَمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَكَمَالِ خَلْقِهِ لِلْإِنْسَانِ فِي أَكْمَلِ صُورَةٍ، وَأَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.



وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّلَاةِ

لا يزال الحديث عن الأذكار المتعلقة بالصلاة موصولاً؛ ولقد ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ أنواعٌ مِنَ الأذكار يُشْرَعُ للمسلم أن يَقُولَهَا عند الرفعِ مِنَ الركوع، وهي في الجملة حَمْدُ اللهِ، وثناءٌ عليه، وتمجيدٌ له سبحانه.

ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)^(١).

وفي لفظ: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) بزيادة «الواو»، وهو في «الصحيحين»؛ قال ابن القيم رحمته الله: «ولا يُهْمَلُ أمرُ هذه الواوِ في قوله: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ)؛ فَإِنَّهُ قد نُدِبَ الأمرُ بها في «الصحيحين»، وهي تجعلُ الكلامَ في تقديرِ جملتين قائمتين بأنفسهما؛ فَإِنَّ قوله: (رَبَّنَا) مُتَضَمِّنٌ في المعنى: أَنْتَ الرَّبُّ وَالْمَلِكُ الْقَيُّومُ الذي بيديه أَرْمَةُ الأمور، وإليه مرجعها، فَعُطِفَ على هذا المعنى المفهوم مِنْ قوله: (رَبَّنَا) قوله: (وَلَكَ الْحَمْدُ)؛ فَتَضَمَّنَ ذلك معنى قولِ الموحِّدِ: له الْمَلِكُ وله الْحَمْدُ»^(٢).

وفي «صحيح مسلم»، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ، وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)»^(٣).

وقوله: (مِلْءَ السَّمَوَاتِ...)، إلخ، أي: حمداً وَصَفُهُ وَقَدْرُهُ أَنَّهُ يَمْلَأُ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٩٥، ٧٩٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٠٩).

(٢) «كتاب الصلاة» (ص ١٧٧) بتصرف يسير. (٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠٣).

العَالَمَ الْعُلُويَّ وَالسُّفْلِيَّ وَالْفَضَاءَ الَّذِي بَيْنَهُمَا، فَهَذَا الْحَمْدُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَمْلَأُ جَمِيعَ الْخَلْقِ الْمَوْجُودِ.

وقوله: (وَمِلءٌ مَّا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)؛ أي: حَمْدًا يَمْلَأُ مَا يَخْلُقُهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَا يَشَاؤُهُ سُبْحَانَهُ.

وعلى هذا، فَحَمْدُهُ سُبْحَانَهُ مَلَأَ كُلَّ مَوْجُودٍ، وَمَلَأَ مَا سَيُوجَدُ^(١).

وفي «صحيح مسلم»، من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ)»^(٢).

روى مسلم من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ مِلءُ السَّمَاءِ، وَمِلءُ الْأَرْضِ، وَمِلءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ طَهِّرْني بِالثلجِ وَالْبَرْدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْني مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُنْقَى الثُّوبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ)^(٣). وفي رواية: «إِذَا رَفَعَ ظَهْرَهُ مِنَ الرُّكُوعِ».

قوله: (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)، تَقَدَّمَ بَيَانُ مَعْنَاهُ، وَقَوْلُهُ: (أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ)؛ أي: أَنْتَ - يَا اللَّهُ - أَهْلٌ أَنْ يُشْنَى عَلَيْكَ وَتُمَجَّدَ؛ لِعَظَمَةِ صِفَاتِكَ، وَكَمَالِ نِعَوَتِكَ، وَتَوَالِي نِعَمِكَ، وَكَثْرَةِ آلَائِكَ. وَقَوْلُهُ: (أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ)؛ أي: إِنَّ هَذَا الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَالتَّمْجِيدَ هُوَ أَحَقُّ شَيْءٍ قَالَهُ الْعَبْدُ، وَتَلَفَّظَ بِهِ؛ فَقَوْلُهُ: (أَحَقُّ): خَبَرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: هَذَا الثَّنَاءُ وَالتَّمْجِيدُ، وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَقْرِيرًا لِحَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَلِبَيَانِ أَنَّ ذَلِكَ أَحَقُّ شَيْءٍ نَطَقَ بِهِ الْعَبْدُ، وَأَفْضَلُ أَمْرٍ تَكَلَّمَ بِهِ.

(١) انظر: «كتاب الصلاة» لابن القيم (ص ١٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٠٣). (٣) «صحيح مسلم» رقم (٤٧٦).

وقوله: (وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ)، فيه اعترافٌ بالعبودية، وأن ذلك حكمٌ لجميع الناس؛ فكلُّهم مُعَبَّدُونَ مُذَلَّلُونَ لله سبحانه، هو ربُّهم وخالقُهم، لا ربَّ لهم ولا خالقٌ سواه.

وقوله: (لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ)، فيه الاعترافُ بتفردِ الله تعالى بالعطاء والمنع، والقَبْضُ والبَسْطُ، والحَفْضُ والرَّفْعُ، لا شريك له في شيء من ذلك، فما يَكْتُبُهُ سبحانه لعبده من خيرٍ ونعمة، أو بلاءٍ ونقمة، فلا رادَّ له، ولا مانعَ لوقوعه، وما يَمْنَعُهُ سبحانه عن عبده من الخيرِ والنعمة، أو البلاءِ والنقمة، فلا سبيلَ لوقوعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وكما قال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، فهو سبحانه المتفردُ بالعطاء والمنع، وإذا أعطى سبحانه لَمْ يُطِقْ أَحَدٌ مَنَعَ مَنْ أعطاه، وإذا مَنَعَ لَمْ يُطِقْ أَحَدٌ إعطاء مَنْ مَنَعَهُ.

وقوله: (وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ)؛ أي: لا ينفعُ عنده، ولا يُخَلِّصُ من عذابه، ولا يُدْنِي من كرامته: جُدودُ بني آدم؛ أي: حُظوظُهم من المُلْكِ والرياسة، والغنى وطيب العيش، وغير ذلك، وإنما يَنْفَعُهُمْ عنده التقربُ إليه بطاعته وإيثار مرضاته^(١).

وروى البخاري في «صحيحه»، عن رِفاعَةَ بنِ رافع الزُّرْقِيِّ رضي الله عنه، قال: «كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ، قَالَ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ: (مَنِ الْمُتَكَلِّمُ؟)، قَالَ: أَنَا، قَالَ: (رَأَيْتُ بِضْعَةَ وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَتَدَرَوْنَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ)»^(٢).

قوله: (حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ)؛ أي: أَحْمَدُهُ حَمْدًا، و(حَمْدًا):

(١) انظر: «كتاب الصلاة» لابن القيم (ص ١٧٧ - ١٨٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٠٣).

مفعولٌ مطلقٌ مؤكِّدٌ لعامله، وقولُهُ: (كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ)، هذه صفاتٌ للْحَمْدِ؛ أي: أَحْمَدُكَ حمداً موصوفاً بالكثرة والطيب والبركة.

وقوله ﷺ: (مَنْ الْمُتَكَلِّمُ؟)؛ أي: مَنْ القائلُ لهذه الكلمة: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ)؟

قوله: (لَقَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَذِرُونَهَا)، البِضْعَةُ: قطعةٌ من العَدَدِ، قيل: ما بينَ الثلاثِ إلى التسع، وقيل: ما بينَ الواحدِ إلى العشرة، قوله: (يَبْتَذِرُونَهَا)؛ مِنْ الابتدار، وهو السَّبْقُ؛ أي: يَتَسَابِقُونَ إلى كتابتها في صحائفِ الحسنات.

* وَمِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ عَلَى الْمَأْمُومِ الْمَبَادَرَةَ إِلَى قَوْلِ: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ)، عَقِيبَ تَسْمِيعِ الْإِمَامِ، وَهَذَا مُسْتَفَادٌ مِنْ حَرْفِ الْفَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: «فَقَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ»؛ فَإِنَّ الْفَاءَ تَفِيدُ التَّعْقِيبَ.

* وَمِنْ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ: كَثْرَةُ الْمَلَائِكَةِ الْكَاتِبِينَ، وَمَحَبَّةُ الْمَلَائِكَةِ لِلْخَيْرِ وَأَهْلِهِ، وَتَسَابُقُهُمْ وَتَنَافُسُهُمْ فِيهِ.

* وَفِي الْحَدِيثِ خُصُوصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ بِرُؤْيِيهِ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ: حَيْثُ رَأَاهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَرَهُمْ مِنْ حَوْلِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

ثُمَّ هَلْ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَبْتَذِرُونَ إِلَى كِتَابَةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ الْحَفَظَةِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ: قَوْلَانِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْأَقْرَبُ - وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ - أَنََّّهُمْ غَيْرُ الْحَفَظَةِ؛ وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا مَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ...)، إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ، وَفِي لَفْظِ: (فَضْلًا عَنْ كُتَابِ النَّاسِ)^(١)، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الطَّاعَاتِ قَدْ يَكْتُبُهَا غَيْرُ الْحَفَظَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



وَمِنَ الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالصَّلَاةِ

لا نزال في الحديث عن الأذكار المتعلقة بالصلاة. خَرَجَ الإمام مسلمٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «الصحيح»، عن عبد الله بن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ، فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنَ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)»^(١).

فقد أَوْضَحَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هذا الحديث ما يَخْتَصُّ بِهِ هَذَانِ الرُّكْنَانِ الْعَظِيمَانِ؛ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ مِنْ ذِكْرِ يُنَاسِبُ هَيْئَتَهُمَا بَعْدَ ذِكْرِهِ لِلنَّهْيِ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِيهِمَا؛ لِأَنَّهُمَا حَالَتَا ذُلٍّ وَخُضُوعٍ وَتَطَامُنٍ وَانْخِفَاضٍ، فَأَمَّا الرُّكُوعُ، وَهُوَ حَالُ انْخِفَاضٍ وَتَطَامُنٍ وَخُضُوعٍ، فَيُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ فِيهِ أَنْ يَذْكُرَ عِظَمَ رَبِّهِ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعَانِي الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ؛ كَالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَسَعَةِ الْعِلْمِ، وَكَمَالِ الْمَجْدِ، وَغَيْرِهَا مِنْ أَوْصَافِ الْعِظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدُ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْبِيرِ، وَالْإِجْلَالَ وَالتَّمْجِيدِ غَيْرُهُ، فَيَسْتَحِقُّ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُعَظِّمُوهُ بِقُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أَفْضَلُ مَا يَقُولُ الرَّائِعُ عَلَى الْإِطْلَاقِ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَمَرَ الْعِبَادَ بِذَلِكَ، وَعَيَّنَ الْمَبْلُغَ عَنْهُ؛ السَّفِيرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ هَذَا الْمَحَلُّ لِهَذَا الذِّكْرِ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، قال: (اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ...)، وبِالْجُمْلَةِ:

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٧٩).

فَسِرُّ الرُّكُوعِ تَعْظِيمُ الرَّبِّ ﷻ بِالْقَلْبِ وَالْقَالِبِ وَالْقَوْلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظُمُوا فِيهِ الرَّبَّ) ^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وَأَمَّا السُّجُودُ - وهو حالُ قُرْبٍ مِنَ اللهِ، وخضوعٍ له، وتذللٍ بين يديه، وانكسارٍ له سبحانه - فَيُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ فِيهِ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الدُّعَاءِ، والدُّعَاءِ فِي هَذَا الْمَحَلِّ أَقْرَبُ إِلَى الْإِجَابَةِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ)، وَفِي الْحَدِيثِ الْمَتَقَدِّمِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (وَأَمَّا السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقِمْنَ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)؛ أَي: حَرِيٌّ وَجَدِيرٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَأَفْضَلُ الْأَحْوَالِ لَهُ حَالٌ يَكُونُ فِيهَا أَقْرَبَ إِلَى اللهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الدُّعَاءُ فِي هَذَا الْمَحَلِّ أَقْرَبَ إِلَى الْإِجَابَةِ.

وَمِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي السُّجُودِ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدَيَّ عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنُصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ)» ^(٢).

وَقَدْ دَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ عَلَى أَنَّهُ لَا مَفَرَّ إِلَّا إِلَى اللهِ، وَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، فَازِمَةٌ الْأُمُورِ كُلُّهَا بِيَدِهِ، وَنَوَاصِي الْعِبَادِ مَعْقُودَةٌ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، الْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ، وَالْحَمْدُ كُلُّهُ لَهُ، وَالْمُلْكُ كُلُّهُ لَهُ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْهِ، فَمَنْ تَعَالَى الْمَنْجَى، وَإِلَيْهِ الْمَلْجَأُ، وَبِهِ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَشِئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَالْإِعَاذَةُ فِعْلُهُ، وَالْمُسْتِعَاذُ مِنْهُ فِعْلُهُ أَوْ مَفْعُولُهُ الَّذِي خَلَقَهُ بِمَشِئَتِهِ، وَهَذَا كُلُّهُ تَحْقِيقٌ لِلتَّوْحِيدِ وَالْقَدَرِ، وَأَنَّهُ لَا رَبَّ غَيْرَهُ، وَلَا خَالِقَ سِوَاهُ، وَلَا يَمْلِكُ الْمَخْلُوقُ لِنَفْسِهِ وَلَا لْغَيْرِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ مِنْهُ شَيْءٌ.

(١) «كتاب الصلاة» (ص ١٧٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٢٩).

وقوله في ختام هذا الدعاء: (لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ)، فيه الاعتراف بأنَّ شأنَ الله سبحانه وعظمته وكمالَ أسمائه وصفاته أعظم وأجلُّ من أن يُحصيها أحدٌ من الخلق، أو يبلغ أحدٌ حقيقة الثناء عليه غيره سبحانه.

ومن أدعية السجود كذلك: ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةَ وَجَلِّهِ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ) ^(١).

وقوله: (ذَنْبِي كُلَّهُ)؛ أي: ذنوبي جميعها؛ فإنَّ المفرد إذا أُضيفَ يعمُّ، ثم إنَّ هذا التعميمَ والشمولَ في هذا الدعاء ليأتي طلبُ الغفرانِ على جميعِ ذنوبِ العبد، ما علِمَهُ منها وما لمْ يَعْلَمْهُ، لا سِيَّما والمقامُ مقامُ دعاءٍ وتضرُّعٍ وإظهارِ العبوديةِ والافتقارِ، فناسبَ ذكرَ الأنواع التي يتوبُ العبدُ منها تفصيلاً؛ ولهذا قال: (دِقَّةَ وَجَلِّهِ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ)؛ وهذا أبلغُ وأحسنُ من الإيجازِ والاختصارِ.

ثم إنَّ بين السَّجْدَتَيْنِ ركنًا لا بدَّ منه في الصلاة، وهو الجلُوسُ بين السَّجْدَتَيْنِ، وقد شُرِعَ فيه من الدعاء ما يليقُ به ويُناسبُهُ، وهو سؤالُ العبدِ رَبَّهُ المغفرةَ والرَّحمةَ، والهدايةَ والعافيةَ والرِّزقَ؛ فإنَّ هذه الأمورَ تتضمَّنُ جلبَ خَيْرِي الدنيا والآخرة، ودفعَ الشرورِ فيهما.

فمن حُذيفة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: (رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي)؛ رواه أبو داود ^(٢)؛ أي: أَنَّهُ ﷺ يُكْرِّرُ هذا الدعاءَ بين السَّجْدَتَيْنِ، لا أَنَّهُ يَقُولُهُ مَرَّتَيْنِ فَقَطْ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: (اللَّهُمَّ

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٨٣).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣٩٨/٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٨٧٤)، والنسائي رقم (١١٤٥)، وابن ماجه رقم (٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٧٧٧).

اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاجْبُرْنِي، وَعَافِنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي؛ رواه أبو داود والترمذي^(١).

وسؤال المغفرة فيه الوقاية من شرِّ الذنوب، وسؤال الرَّحْمَةِ فيه تَحْصِيلُ الخيرِ والبرِّ والإحسان، وسؤالُ الله أَنْ يَجْبُرَهُ فيه سدُّ حاجته، وَجَبْرُ كَسْرِهِ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ ما ذَهَبَ مِنَ الخيرِ وَأَنْ يُعَوِّضَهُ، وسؤالُ العافية فيه السلامة مِنَ الآفاتِ والفتن، والنَّجاةُ مِنَ البَلَايا والمَحَن، وسؤالُ الهداية فيه التَّوَصُّلُ إلى أبوابِ السَّعادةِ والفلاحِ في الدنيا والآخرة، وسؤالُ الرِّزْقِ فيه نيلُ ما به قِوَامُ البدنِ من الطعامِ والشرابِ، وما به قِوَامُ الرُّوحِ مِنَ العلمِ والإيمان.

فجاء هذا الدعاءُ العظيمُ المشروعُ في هذه الجلسةِ جامعًا لأصولِ السَّعادةِ، محيطًا بأبوابِ الخيرِ، مشتملاً على سُبُلِ الفلاحِ في الدنيا والآخرة، فما أعظمُهُ مِنْ دعاء! وما أَحْسَنَ إحاطَتُهُ وَجَمَعَهُ!



(١) رواه أحمد في «المسند» (٣٧١/١) بنحوه، «سنن أبي داود» رقم (٨٥٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٨٤)، ورواه ابن ماجه رقم (٨٩٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٧٥٦).

أَذْكَارُ التَّشَهُّدِ

إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالصَّلَاةِ: أَذْكَارَ التَّشَهُّدِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَادِيثٌ عَدَّةٌ، فِيهَا صَيَغٌ مُتَقَارِبَةٌ لِلتَّشَهُّدِ، كُلُّهَا جَائِزَةٌ وَمَشْرُوعَةٌ؛ مِنْهَا: مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَانَ يَقُولُ: (التَّحِيَّاتُ الْمُبَارَكَاتُ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لِلَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)»^(١).

وُثِّبَتْ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا صَلَّي أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ - فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)»^(٢).

وُثِّبَتْ فِي هَذَا أَحَادِيثُ أُخْرَى.

* وَأَكْمَلُ هَذِهِ الصَّيَغِ: الصَّيْغَةُ الْوَارِدَةُ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَتَقَدِّمُ؛ فَهِيَ أَكْمَلُ مِنَ الصَّيْغَةِ الْوَارِدَةِ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرِهِ مِنْ

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْمُ (٤٠٣).

(٢) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْمُ (٨٣٥)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْمُ (٤٠٢).

الأحاديث الواردة في هذا الباب؛ وذلك كما يقول ابن القيم رحمته الله: «لأنَّ تشهد ابن مسعودٍ يتضمَّنُ جملاً متغيرةً، وتشهدُ ابن عَبَّاسٍ جملةً واحدةً»^(١)، فتكونُ كلُّ جملةٍ في حديث ابن مسعودٍ ثناءً مستقلاً؛ لوجود الواوِ في قوله: (التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ)؛ بخلاف ما إذا حُذِفَتْ، فإنَّها تكونُ صفةً لِمَا قبلها، فتعدُّ الثناء في حديث ابن مسعودٍ صريحٌ، فهو أوَّلَى وأكمل.

ثم إنَّه هو المشهورُ بين كثيرٍ من أهل العلم، ومن حيثُ الإسنادُ هو أصحُّ ما وردَ في هذا الباب؛ يقول الترمذي رحمته الله: «حديثُ ابن مسعودٍ قد رُوِيَ عنه من غير وجه، وهو أصحُّ حديثٍ رُوِيَ عن النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله في التَّشْهُدِ، والعملُ عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله ومن بعدهم من التابعين»^(٢). وعلى كلٍّ، فإنَّ العملَ به أو بغيره من التَّشْهُدَاتِ الواردة كلُّ ذلك حقٌّ وسائغٌ.

قوله: (التَّحِيَّاتُ): جمعُ تحيةٍ، والمرادُ: التعظيماتُ بكافَّةٍ صيغها وجميع هيئاتها من ركوع وسجود، وذُلٍّ وخضوع، وخشوع وانكسار، كلُّ ذلك لله وحده لا شريك له، وهي له سبحانه مُلْكًا واستحقاقًا.

وقوله: (وَالصَّلَوَاتُ)، قيل: المرادُ به الصلاةُ الشرعيَّةُ ذاتُ الركوع والسجود، وقيل: المرادُ الدعاء؛ فإنَّ معنى الصلاة لغَةً: الدعاء، وكلُّ ذلك لله؛ فالصلاةُ كُلُّها لله، فلا يُصَرَفُ شيءٌ منها لغيره، والدعاء لله، فلا يُصَرَفُ شيءٌ منه لأحدٍ سواه.

وقوله: (وَالطَّيِّبَاتُ): جمعُ طيبةٍ، والمرادُ: الأقوالُ الطيِّبات. والأعمالُ الطيِّباتُ كُلُّها لله، يُتَقَرَّبُ بها إليه، ولا يُتَقَرَّبُ بشيءٍ منها لأحدٍ سواه، فهو سبحانه يُتَقَرَّبُ إليه بكلِّ طيبٍ من قولٍ أو فعل.

وقوله: (السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ)؛ هذا دعاءٌ للنَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله بالسلام والرحمة والبركة، والذي يُدْعَى له، لا يُدْعَى مع الله.

(٢) «جامع الترمذي» (٨٢/٢).

(١) «كتاب الصلاة» (ص ٢١١).

وقوله: (السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ)، فيه دعاءٌ للنفس ولعموم المؤمنين بالسَّلامَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَعَيْبٍ، ونقصٍ وسوءٍ؛ وهو مِنْ جوامعِ كَلِمِ النَّبِيِّ ﷺ.

قال بعضُ أهلِ العلم: «عَلَّمَهُمْ أَنْ يُفَرِّدُوهُ ﷺ بِالذِّكْرِ؛ لِشَرَفِهِ وَمَزِيدِ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ عَلَّمَهُمْ أَنْ يُخَصِّصُوا أَنْفُسَهُمْ أَوَّلًا؛ لِأَنَّ الْإِهْتِمَامَ بِهَا أَهَمُّ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِتَعْمِيمِ السَّلَامِ عَلَى الصَّالِحِينَ إِعْلَامًا مِنْهُ بِأَنَّ الدَّعَاءَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شَامِلًا لَهُمْ»^(١).

وقوله: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) فيه الشهادةُ لله تبارَكَ وتعالى بالوحدانيَّةِ، ولنبيِّه ﷺ بالعبوديَّةِ والرَّسالةِ، فهو صلواتُ الله وسلامُهُ عليه عَبْدٌ لَا يُعْبَدُ؛ بل رسولٌ يُطَاعُ وَيُتَّبَعُ.

ثم إِنَّ الْمُسْلِمَ يُسْرِعُ لَهُ بَعْدَ التَّشْهِيدِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِالصَّلَاةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ الثَّابِتَةِ عَنْهُ ﷺ، وقد وَرَدَ فِيهَا غَيْرُ حَدِيثٍ؛ مِنْهَا: ما رواه البخاري ومسلم، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: «لَقِينِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَلَا أَهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟! فَقُلْتُ: بَلَى، فَأَهْدِهَا لِي، فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ؟ قَالَ: (قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)»^(٢).

وفي «الصحيحين» أيضًا، مِنْ حَدِيثِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ ﷺ: (قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٣١٣/٢) نقلًا عن البيضاوي.

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٠٦).

مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارَكْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(١).

وقولُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟!»، فيه عِظَمُ عنايةِ السلفِ رحمهمُ اللهُ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وشِدَّةُ فَرَحِهِمْ بِهَا، بل كانوا يَعْذُونَهَا مِنْ نَفَائِسِ الْأُمُورِ وَثَمِينِ الْأَشْيَاءِ، وهي عندهم هَدِيَّةٌ ثَمِينَةٌ يَفْرَحُونَ بِهَا، وَيُسَرُّونَ بِسَمَاعِهَا، وَيَهْنُؤُونَ بِتَهَادِيهَا.

والصلاةُ على النَّبِيِّ ﷺ هي مِنَ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَتَعْظِيمُهُ، وصلاةُ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ هي طَلَبُ ذَلِكَ لَهُ ﷺ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَالْمَرَادُ: طَلَبُ الزِّيَادَةِ، لَا طَلَبُ أَصْلِ الصَّلَاةِ.

ومعنى قوله: (اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ الْبَرَكَهَ: النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ، وَالتَّبْرِيكُ: الدُّعَاءُ بِذَلِكَ، يَقُولُ: بَارَكُهُ اللهُ، وَبَارَكَ فِيهِ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَبَارَكَ لَهُ، فَهُوَ دُعَاءٌ يَتَضَمَّنُ إِعْطَاءَهُ ﷺ مِنَ الْخَيْرِ، وَإِدَامَتَهُ لَهُ، وَمُضَاعَفَتَهُ لَهُ، وَزِيَادَتَهُ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَخَيَّرَ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو بِهِ إِلَى أَنْ يُسَلِّمَ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْأَدْعِيَةِ سَيَكُونُ الْحَدِيثُ الْآتِي عَنْهَا - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى -.



(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٦٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٠٧).

الدُّعَاءُ الْوَارِدُ مَا بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ

إِنَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَحَرَّى فِيهَا الدُّعَاءَ فِي الصَّلَاةِ: مَا بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّمَهُ التَّشَهُّدَ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ: (ثُمَّ لِيَتَخَيَّرَ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو)^(١)، وَفِي رَوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: (ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ مَا شَاءَ).

وَالأُولَى بِالْمُسْلِمِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنْ دَعَا بِأَدْعِيَةٍ غَيْرِهَا لَا مَحْذُورَ فِيهَا، فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ.

* وَفِيمَا يَلِي ذِكْرُ لِبَعْضِ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ)^(٢)، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى الْقَوْلِ بِوُجُوبِ هَذِهِ الِاسْتِعَاذَةِ قُبِيلَ السَّلَامِ، وَجَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ، وَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ.

قَوْلُهُ: (مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ)؛ قَدَّمَ التَّعَوُّدَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ الَّتِي لَا أَعْظَمَ فِي الْهَلَاكِ مِنْهَا، وَجَهَنَّمَ: اسْمٌ لِلنَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْكَفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(١) تقدم تخريجه (ص ٦١٤).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٣٧٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٨).

وقوله: (وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ)؛ فيه أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْهُ.

وقوله: (وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ)؛ أي: الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَالْمَرَادُ: التَّعَوُّذُ مِنْ جَمِيعِ فِتَنِ الدَّارَيْنِ؛ فِي الْحَيَاةِ مِنْ كُلِّ مَا يَضُرُّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ أَوْ بَدَنِهِ أَوْ دُنْيَاهُ، وَفِي الْمَوْتِ مِنْ شِدَائِدِهِ وَمَا يَكُونُ بَعْدَهُ مِنْ أَهْوَالٍ.

وقوله: (وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ)، الْمَسِيحُ الدَّجَالُ: هُوَ مَنْبَعٌ مِنْ مَنَابِعِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَمَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ الْفِتَنِ وَالْأَوْجَالِ، يَكُونُ خُرُوجُهُ عَلَى النَّاسِ آخِرَ الزَّمَانِ، وَهُوَ شَرْطٌ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، سُمِّيَ مَسِيحًا؛ لِأَنَّ إِحْدَى عَيْنَيْهِ مَمْسُوحَةٌ، فَهُوَ أَعْوَرُ عَيْنِهِ الْيُمْنَى، وَسُمِّيَ دَجَالًا مِنَ الدَّجَلِ، وَهُوَ الْكَذِبُ، وَفِتْنَةُ خُرُوجِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا حَدَّرَ مِنْهُ قَوْمَهُ وَأَنْذَرَ.

وفي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا، وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ)، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيدُ مِنَ الْمَغْرَمِ؟ فَقَالَ: (إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ)»^(١).

وَالْمَأْثَمُ: هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يَأْتُمُّ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ جَمِيعِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، وَالْمَغْرَمُ: مَا يَلْزُمُ الْإِنْسَانَ أَدَاؤُهُ بِسَبَبِ جُنَايَةٍ أَوْ مَعَامَلَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَالْمَأْثَمُ: إِشَارَةٌ إِلَى حَقِّ اللَّهِ، وَالْمَغْرَمُ: إِشَارَةٌ إِلَى حَقِّ الْعِبَادِ.

* وَمِنْ الْأَدْعِيَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ الشَّهَدِ وَالتَّسْلِيمِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٣٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٩).

وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدَّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(١).

قوله: (مَا قَدَّمْتُ)؛ أي: مِنْ خَطَأٍ وَتَقْصِيرٍ، (وَمَا أَخَّرْتُ)؛ أي: مَا سَيِّئْتُ مِنْ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ، (وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ)؛ أي: مَا وَقَعَ مِنِّي مِنْهَا فِي السِّرِّ أَوِ الْعِلَانِيَةِ، (وَمَا أَسْرَفْتُ)؛ أي: عَلَى نَفْسِي بَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي الْقَاصِرَةِ، أَوِ الْمَظَالِمِ الْمُتَعَدِّيَةِ.

وقوله: (أَنْتَ الْمُقَدَّمُ)؛ أي: لِمَنْ تَشَاءُ بِالْمَعُونَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، (وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ)؛ أي: لِمَنْ تَشَاءُ بِالْخِذْلَانِ وَالْجِرْمَانِ وَعَدَمِ الْمَعُونَةِ. وقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)؛ أي: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاكَ.

* وَمِنْ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ: (كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟)، قَالَ: أَتَشْهَدُ، وَأَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا أَحْسِنُ ذُنْدَنَكَ وَلَا ذُنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (حَوْلَهَا نُذْنِدُنْ)^(٢)؛ أي: حَوْلَ طَلَبِ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ نُذْنِدُنْ، وَالذُّنْدَنَةُ: أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ بِالْكَلَامِ، فَتُسْمَعُ نَغْمَتُهُ، وَلَا يُفْهَمُ كَلَامُهُ.

وقد جاء في السُّنَّةِ أَحَادِيثُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَدْعِيَةٍ تُقَالُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ مُحَلُّهَا، وَالْأَوَّلَى أَنْ تَكُونَ فِي أَحَدِ مَوْطِنَيْنِ؛ إمَّا فِي السُّجُودِ أَوْ بَعْدَ التَّشَهُّدِ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ جَاءَتْ بِتَحْرِيرِ الدَّعَاءِ فِيهِمَا، وَمِنْ هَذِهِ الْأَدْعِيَةِ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟ قَالَ: (قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٨٢).

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣/ ٤٧٤)، و«سَنَنُ أَبِي دَاوُدَ» رَقْم (٧٩٢)، و«سَنَنُ ابْنِ مَاجَهَ» رَقْم (٩١٠)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَهَ» رَقْم (٧٤٢).

إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١).

* ومنها: ما رواه النسائي، عن عطاء بن السائب، عن أبيه رضي الله عنه، قال: «صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ رضي الله عنه صَلَاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَقَدْ خَفَفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَامَ تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ - هُوَ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهُ كُنِيَ عَنْ نَفْسِهِ - فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ: (اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَقْطَعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ)»^(٢).

وهو حديثٌ عظيمٌ ثابتٌ عن النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ، مُشْتَمِلٌ عَلَى فَوَائِدَ عَظِيمَةٍ، وَمَقَاصِدَ كَرِيمَةٍ، وَغَايَاتٍ مَبَارَكَةٍ.

وقد أفرَدَ الحافظُ ابن رجب رحمته الله رسالةً لطيفةً في شرحِ هذا الحديثِ وبيانِ معانيه، وهي رسالةٌ نافعة، ولعلِّي أقفُ مع بعضِ دَلَالَاتِ هذا الحديثِ ومعانيهِ العظيمة؛ ليكونَ ذلكَ عونًا لنا - بإذنِ الله - على العنايةِ به، والمواظبةِ عليه، واللهُ الموفق.



(١) تقدم تخريجه (ص ٣٠٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/٢٦٤)، و«سنن النسائي» رقم (١٣٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٣٠١).

شَرْحُ حَدِيثِ عَمَّارٍ فِي الذِّكْرِ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ

لقد مرّ معنا حديثُ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه المُشْتَمِلُ عَلَى ذَلِكُمُ الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي كَانَ يَدْعُو بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَلَاتِهِ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، قَالَ: «صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ رضي الله عنه صَلَاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَامَ، تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ - هُوَ أَبِي غَيْرٍ أَنَّهُ كُنِيَ عَنْ نَفْسِهِ - فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ: (اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقُطُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هَذَاهُ مُهْتَدِينَ)»^(١).

وهو حديثٌ عظيمُ النَّفْعِ، كبيرُ الفائدةِ، مُشْتَمِلٌ عَلَى معاني عظيمة، ودلالاتٍ نافعةٍ متعلّقةٍ بالعقيدة والعبادة والأخلاق، وإنّما تُعْظَمُ فائدةُ المسلمِ من مثلِ هذه الدعواتِ المباركة، بوقوفِهِ على معانيها، وفهمِهِ لِدَلالاتِها ومَرَامِها، ومجاهدَتِهِ لِنَفْسِهِ عَلَى تحقيقِها، وفيما يلي وَفَقَةٌ في بيانِ بعضِ معاني هذا الحديث^(٢).

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) ينظر للاستزادة: كتاب «شرح حديث عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه» لابن رجب.

قوله: (اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي)، فيه تفويضُ العبدِ أموره إلى الله، وطلبُ الخَيْرَةِ في أحواله منه سبحانه، متوسلاً إليه سبحانه بعلمه الذي أحاط بكل شيء، وأنه سبحانه يَعْلَمُ خفايا الأمور وبواطنها، كما يعلم ظاهرها وعَلَنها، وبقُدْرَتِهِ النافذة في جميع الخلق، فلا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، ولا رادَّ لقضائه. وَمِنَ المعلومِ أَنَّ العبدَ لا يَعْلَمُ عواقبَ الأمور ومآلاتها، وهو - مع هذا - عاجزٌ عن تحصيلِ مصالحِهِ ودفعِ مَضَارِّهِ، إِلَّا بما أعانَهُ اللهُ عليه وَيَسَّرَهُ لَهُ، فتبقى حاجةُ العبدِ مَاسَّةً إلى العليمِ القديرِ سبحانه، بأنْ يُصْلِحَ له شأنَهُ كُلَّهُ، ويختارَ له الخيرَ حيثُ كان؛ ولهذا قَالَ: (أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي)؛ ولهذا جاء النهيُ في السُّنَّةِ عن تَمَنِّي الموتِ لِضَرِّ نَزَلٍ بالعبدِ لجهلِ العبدِ بالعواقبِ؛ ففي «صحيح البخاري»، عن النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، إِلَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزِدَّادُ، وَإِلَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتَبُ)؛ أي: يسترضي الله بالإقلاعِ عَنِ الذُّنُوبِ وَطَلَبِ المَغْفِرَةِ.

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)؛ أي: أَنْ أَخْشَاكَ - يَا اللهُ - في السِّرِّ والعلانية، والظاهرِ والباطنِ، وفي حالِ كَوْنِي مَعَ النَّاسِ، أو غائِبًا عنهم؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرى نَفْسَهُ يَخْشَى اللهُ في العلانية والشهادة، ولكنَّ الشَّأْنَ خَشْيَةُ اللهِ في الغيبِ، إذا غابَ عن أَعْيُنِ النَّاسِ وأَنْظَارِهِمْ، وقد مَدَحَ اللهُ مَنْ خَافَهُ بِالْغَيْبِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ)، فيه سؤالُ اللهِ قولَ الحقِّ حالَ رضا الإنسانِ وحالَ غَضَبِهِ، وقولُ الحقِّ في النَّاسِ حالَ الغضبِ عزيزٌ؛ لِأَنَّ الْغَضَبَ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ خِلافَ الْحَقِّ، ويفعلَ غيرَ العدلِ، وقد مَدَحَ اللهُ مَنْ عَبادِهِ مَنْ يَغْفِرُ إِذَا غَضِبَ، دونَ أَنْ يَحْمِلَهُ غَضَبُهُ عَلَى البغي والعدوانِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]،

وَمَنْ كَانَ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى شِدَّةِ إِيْمَانِهِ، وَأَنَّهُ يَمْلِكُ زِمَامَ نَفْسِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)^(١).

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى)؛ أي: أن يكون مقتصدًا في حال فقره وغناه، والقصد: هو التوسط والاعتدال؛ فإن كان فقيرًا، لَمْ يُقْتَرُ خوفًا من نَفَادِ الرِّزْقِ، وَلَمْ يُسْرِفْ بِتَحْمِيلِ نَفْسِهِ مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا لَمْ يَحْمِلْهُ غِنَاهُ عَلَى السَّرَفِ وَالطُّغْيَانِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وَالْقَوَامُ: الْقَصْدُ وَالتَّوَسُّطُ، وَهُوَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ حَسَنٌ.

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ)؛ النَّعِيمُ الَّذِي لَا يَنْفَدُ: هُوَ نَعِيمُ الْآخِرَةِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقُطُ)، قُرَّةُ الْعَيْنِ: مِنْ جَمَلَةِ النَّعِيمِ، وَالنَّعِيمُ مِنْهُ مَا هُوَ مَنْقُطٌ، وَمِنْهُ مَا لَا يَنْقُطُ، وَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِالدُّنْيَا، فَقُرَّةُ عَيْنِهِ مَنْقُطَةٌ، وَسُرُورُهُ فِيهَا زَائِلٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَشُوبٌ بِالْخَوْفِ مِنَ الْفَوَاجِعِ وَالْمَنْغَصَاتِ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَقَرُّ عَيْنُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا بِمَحَبَّةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى طَاعَتِهِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)^(٢)، وَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ قُرَّةُ الْعَيْنِ بِهَذَا، فَقَدْ حَصَلَتْ لَهُ قُرَّةُ الْعَيْنِ الَّتِي لَا تَنْقُطُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي الْبَرَزِخِ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ)، سَأَلَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ تَبَيَّنَ حَقِيقَةُ الرِّضَا، وَأَمَّا الرِّضَا قَبْلَ الْقَضَاءِ، فَإِنَّهُ عَزْمٌ مِنَ الْعَبْدِ عَلَى الرِّضَا، وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ الرِّضَا إِذَا وَقَعَ الْقَضَاءُ.

(١) رواه البخاري رقم (٦١١٤)، ومسلم رقم (٢٦٠٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٢٨/٣)، والنسائي رقم (٣٨٧٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٩٨).

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ)؛ وهذا يَدُلُّ على أَنَّ الْعَيْشَ وَطِيبَهُ وَبَرْدَهُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ فَإِنَّ الْعَيْشَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُنْعَصٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُنْعَصٌ غَيْرُ الْمَوْتِ لَكَفَى، فَكَيْفَ وَلَهُ مُنْعَصَاتُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْهَمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْأَسْقَامِ وَالْهَرَمِ وَمَفَارِقَةِ الْأَحِبَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)؛ وهذا قَدْ جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ أَطْيَبِ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الشَّوْقُ إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَطْيَبِ شَيْءٍ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ. وَلَمَّا كَانَ تَمَامُ ذَلِكَ مَوْقُوفًا عَلَى عَدَمِ وَجُودِ مَا يَضُرُّهُ فِي الدُّنْيَا، أَوْ يَفْتِنُهُ فِي الدِّينِ، قَالَ: «فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ».

وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْرٌ تَضَافَرَتْ فِيهِ النُّصُوصُ، وَتَكَاثَرَتْ فِيهِ الْأَدَلَّةُ، وَلَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ ضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، بَلْ إِنَّهُ أَعْلَى نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَعْظَمُ مَلَذَذِهِمْ، يَقُولُ ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١)، نَسَأَلَ اللَّهُ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.

وقوله: (اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ)، زِينَةُ الْإِيمَانِ تَشْمَلُ زِينَةَ الْقَلْبِ: بِالْإِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ، وَالْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ الْفَاضِلَةِ، وَزِينَةَ اللِّسَانِ: بِالذِّكْرِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَزِينَةُ الْجَوَارِحِ، بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالطَّاعَاتِ الْمَقْرُبَةِ إِلَى اللَّهِ.

وقوله: (وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ)؛ أَي: بِأَنْ نَهْدِيَ أَنْفُسَنَا وَنَهْدِيَ غَيْرَنَا، وَهَذَا أَفْضَلُ الدَّرَجَاتِ: أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ عَالِمًا بِالْحَقِّ، مُتَّبِعًا لَهُ، مُعَلِّمًا لْغَيْرِهِ مَرشِدًا لَهُ؛ فَهَذَا يَكُونُ هَادِيًا مَهْدِيًا، نَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ.

الْأَذْكَارُ بَعْدَ السَّلَامِ

الحديث هنا سيكون عن الأذكار التي يقولها المسلم إذا انصرف من صلاته بعد السَّلَام، وقد جاء في هذا أحاديث عديدة:

* منها: ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن ثوبان رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: (اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)».

قَالَ الْوَلِيدُ - أَحَدُ رَوَاةِ الْحَدِيثِ -: «فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: كَيْفَ الْإِسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»^(١).

قوله: (اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ)، السَّلَامُ: اسمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى التي أمرنا الله بدعائه بها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومعناه: أي: المُنَزَّه عن كلِّ عَيْبٍ وَاقِفٌ ونَقْصٍ، وهو سبحانه مُنَزَّهٌ عن كلِّ ما ينافي صفات كماله، ومُنَزَّهٌ عن مماثلة أحدٍ مِنْ خَلْقِهِ، أو أَنْ يَكُونَ لَهُ نِدٌّ بوجهٍ مِنْ الوجوه.

وقوله: (وَمِنْكَ السَّلَامُ)؛ أي: أَنَّ السَّلَامَةَ مِنَ الْمَهَالِكِ إِنَّمَا تَرْجَى وتُسْتَوْهَبُ مِنْكَ وَحْدَكَ، ولا تُرْجَى مِنْ أَحَدٍ سِوَاكَ؛ وهذا مستفادٌ من أسلوبِ الحصرِ في قوله: (وَمِنْكَ السَّلَامُ)؛ أي: وَحْدَكَ دُونَ غَيْرِكَ.

وقوله: (تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)، تَبَارَكْتَ؛ أي: تَعَالَيْتَ وَتَعَاظَمْتَ، و(ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)؛ أي: يَا صَاحِبَ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وهما وصفانِ عَظِيمَانِ لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ، ذَالَانِ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ وَمَجْدِهِ، وَعَلَى كَثْرَةِ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٥٩١).

صفاته الجليّة، وتعدّد عطاياه الجميلة؛ ممّا يَسْتَوْجِبُ على العبادِ أنْ تمتلئ قلوبُهُمْ محبةً وتعظيمًا وإجلالًا له.

والْحِكْمَةُ مِنَ الْإِتْيَانِ بِالْإِسْتِغْفَارِ بَعْدَ الصَّلَاةِ: هي إظهارُ هَضْمِ النَّفْسِ، وأنَّ العبدَ لَمْ يَقُمْ بِحَقِّ الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَأْتِ بِمَا يَنْبَغِي لَهَا عَلَى التَّامِّ وَالْكَامِلِ، بل لا بدَّ أنْ يَكُونَ قد وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّقْصِ وَالتَّقْصِيرِ، وَالْمُقْصَرُّ يَسْتَغْفِرُ لِعَلَّهُ أَنْ يُتَجَاوَزَ عَنْ تَقْصِيرِهِ، وَيَكُونَ فِي اسْتِغْفَارِهِ جَبْرٌ لِمَا فِيهِ مِنْ نَقْصٍ أَوْ تَقْصِيرٍ.

* ثُمَّ يَسْتَغْفِلُ الْمَصَلِّي بَعْدَ ذَلِكَ بِالتَّهْلِيلِ؛ فَعَنْ وَرَادٍ مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: كَتَبَ الْمُغِيرَةُ إِلَى معاويةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَلَّمْ، قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ)». رواه البخاري ومسلم^(١).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)، وَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَهْلُلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

وقد تكرر في هذا الذكر المبارك كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ثلاث مرات وأُتْبِعَتْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِمَا يَقَرَّرُ مَعْنَاهَا، وَيُؤَكِّدُ حَقِيقَتَهَا، وَيُوضِّحُ مَدْلُولَهَا. فقولُه بعد التَّهْلِيلَةِ الْأُولَى: (وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ) تَأْكِيدٌ لِمَا قَرَّرْتَهُ مِنَ النِّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؛ فَقَوْلُهُ: (وَحْدَهُ) تَأْكِيدٌ لِلْإِثْبَاتِ، وَقَوْلُهُ: (لَا شَرِيكَ لَهُ) تَأْكِيدٌ لِلنِّفْيِ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٤٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٩٣).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٥٩٤).

وقوله بعد التهليلة الثانية: (وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ) فيه بيان لمعناها وتفسير لمدلولها، وأنها تعني نفي العبادة بجميع أنواعها وأفرادها عن كل من سوى الله وإثباتها لله وحده لا شريك له.

وقوله بعد التهليلة الثالثة: (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) تقريرٌ لمدلولها كذلك، وأنها كلمة الإخلاص، فلا يستفيد منها قائلها إلا إذا أخلص دينه لله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

قوله: (وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ)؛ أي: لا ينفع صاحب الغنى منك غناه، وإنما ينفعه طاعته لك، وإيمانه بك، وامتناله لأمرك.

وقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)؛ أي: نحن على هذا التوحيد والإخلاص ولو كره الكفار ذلك.

* ثُمَّ يَشْرَعُ الْمُسْلِمُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّسْبِيحَاتِ الْوَارِدَةِ الَّتِي كَانَ يَقُولُهَا ﷺ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: (مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ)^(١).

وعنه رضي الله عنه، قال: «جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِاللِّدْرَجَاتِ الْعُلَا، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحْجُونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ! قَالَ: (أَلَا أَحَدْتُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؛ تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ)»^(٢).

(١) رواه مسلم رقم (٥٩٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٨٤٣)، ومسلم رقم (٥٩٥).

قال أبو صالح - راوي الحديث عن أبي هريرة -: «يقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر حتى يكونَ منهمَ كُلُّهُنَّ ثلاثاً وثلاثين»؛ لكنَّ هذا فَهْمٌ منه للحديث، والأظهر: أنَّ المجموعَ لكلِّ كلمةٍ مِنْ هؤَلاءِ الكلماتِ بأنَّ يسبح ثلاثاً وثلاثين، ويحمد ثلاثاً وثلاثين، ويكبر ثلاثاً وثلاثين؛ كما في حديث أبي هريرة السابق^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: (خَصَلْتَانِ - أَوْ خَلْتَانِ - لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؛ يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيُحَمِّدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا؛ فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللَّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، وَيُحَمِّدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللَّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ)؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ؛ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟ قَالَ: (يَأْتِي أَحَدُكُمُ الشَّيْطَانُ فِي مَنْامِهِ، فَيَنْوُمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ، وَيَأْتِيهِ فِي صَلَاتِهِ، فَيَذْكُرُهُ حَاجَةً قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا)؛ رواه أبو داود، والترمذي^(٢).

* وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقْرَأَ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فعن عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، قال: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ الْمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ»؛ رواه أبو داود، والنَّسَائِيُّ^(٣)، والمراد بالمعوِّذات: هذه السُّورَةُ الثَّلَاثُ، وقد أُطْلِقَ عَلَيْهَا الْمُعَوِّذَاتُ تَغْلِييًّا^(٤).

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/٣٢٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/٢٠٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٦٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤١٠)، ورواه ابن ماجه رقم (٩٢٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٦٠٦).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤/١٥٥)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٢٣)، و«سنن النسائي» رقم (١٣٣٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٣٤٨).

(٤) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/١٣٢).

* وَأَنْ يَقْرَأَ كَذَلِكَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ؛ لِحَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ)؛ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»^(١).
وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ)؛ أَي: لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا الْمَوْتُ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلَّغَنِي عَنْ شَيْخِنَا أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - أَنَّهُ قَالَ: مَا تَرَكْتُهَا عَقِيبَ كُلِّ صَلَاةٍ»^(٢).

وَمِنْ الْمَشْرُوعِ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُولَ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ مَا أَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَفِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيِّ، وَغَيْرِهِمَا، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا، وَقَالَ: (يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)^(٣)؛ وَهَذَا الدُّعَاءُ هَلْ يَقَالُ قَبْلَ السَّلَامِ أَوْ بَعْدَهُ: قَوْلَانِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، وَاخْتَارَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَنْ يَقَالُ قَبْلَ السَّلَامِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.



(١) رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» رَقْم (٩٨٤٨)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» رَقْم (٧٥٣٢)، وَ«عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» رَقْم (١٠٠)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (٦٤٦٤).

(٢) «زَادَ الْمَعَادُ» (١/٣٠٤).

(٣) تَقْدِمُ تَخْرِيجِهِ (ص ٢٥٥).

دُعَاءُ الْقُنُوتِ فِي صَلَاةِ الْوُثْرِ

الحديثُ هنا عن دعاءِ القُنُوتِ في صلاةِ الوُثْرِ؛ ففي سنن أبي داود، والنسائي، وغيرهما، عن الحسن بن علي رضي الله عنه، قال: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوُثْرِ: (اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ)»^(١).

وهذا دعاءٌ عظيمٌ مُشْتَمِلٌ على مَطَالِبَ جَلِيلَةٍ، ومقاصدَ عَظِيمَةٍ، ففيه سؤالُ الله الهدايةَ والعافيةَ، والتَّوَلَّى والبركةَ والوقايةَ، مع الإقرارِ بأنَّ الأمورَ كُلَّهَا بيدهِ وتحتَ تدبيره، فما شاء كان، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ^(٢).

وقوله في أوَّلِ هذا الدعاءِ: (اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ)، فيه سؤالُ الله الهدايةَ التَّامَّةَ، النافعةَ الجامعةَ، لعلمِ العبدِ بالحقِّ وعمله به، فليستِ الهدايةُ أَنْ يَعْلَمَ العبدُ الحقَّ بلا عَمَلٍ به، وليستْ كذلك أَنْ يَعْمَلَ بلا عِلْمٍ نافعٍ يَهْتَدِي به، فالهدايةُ النافعةُ هي: التوفيقُ للعلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ.

وقوله: (فِيمَنْ هَدَيْتَ)، فيه فوائد:

إحداها: أَنَّهُ سؤالٌ له أَنْ يُدْخِلَهُ في جملةِ المَهْدِيِّينَ وَزُمَرَتِهِمْ وَرُفُقَتِهِمْ؛ وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا.

(١) «المسند» (١/١٩٩)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٢٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٤٦٤)، و«سنن النسائي» رقم (١٧٤٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١١٧٨)، وصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٢٦٣).

(٢) انظر في شرح هذا الدعاء: «شفاء العليل» لابن القيم (ص ١١١)، و«دروس وفتاوى في الحرم المكي» للشيخ محمد بن صالح العثيمين (ص ١٣١ - ١٣٧).

الثانية: أَنْ فِيهِ تَوْسُلًا إِلَيْهِ بِإِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ؛ أَي: يَا رَبِّ قَدْ هَدَيْتَ مِنْ عِبَادِكَ بَشَرًا كَثِيرًا فَضْلًا مِنْكَ وَإِحْسَانًا؛ فَأَحْسِنْ إِلَيَّ كَمَا أَحْسَنْتَ إِلَيْهِمْ، واهدني كما هديتهم.

الثالثة: أَنْ مَا حَصَلَ لِأَوْلَئِكَ مِنَ الْهُدَى، لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ وَلَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْكَ، فَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ.

وقوله: (وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ)، فِيهِ سَوَالُ اللَّهِ الْعَافِيَةِ الْمَطْلُوقَةِ، وَهِيَ الْعَافِيَةُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعَصِيَانِ، وَالْغَفْلَةِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ وَالْفِتَنِ، وَفَعَلَ مَا لَا يَحِبُّهُ، وَتَرَكُ مَا يَحِبُّهُ، فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْعَافِيَةِ؛ وَلِهَذَا مَا سَأَلَ الرَّبُّ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَافِيَةِ؛ لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِلتَّخْلُصِ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ وَأَسْبَابِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» وَغَيْرُهُ، عَنْ شَكْلِ بْنِ حُمَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي دَعَاءً أَنْتَفَعُ بِهِ، قَالَ: (قُلِ: اللَّهُمَّ عَافِنِي مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَلِسَانِي وَقَلْبِي، وَشَرِّ مَنِيِّ) ^(١).

فَهِيَ دَعْوَةٌ جَامِعَةٌ وَشَامِلَةٌ لِلْوَقَايَةِ مِنَ الشُّرُورِ كُلِّهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» وَغَيْرِهِ، عَنْ الْعَبَّاسِ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُ اللَّهَ بِهِ، فَقَالَ: (يَا عَبَّاسُ! سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ)، ثُمَّ مَكَثْتُ قَلِيلًا، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُلْتُ: عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُ اللَّهَ بِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: (يَا عَبَّاسُ! يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ! سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)» ^(٢).

وقوله: (وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ)، فِيهِ سَوَالُ اللَّهِ التَّوَلَّى الْكَامِلَ الَّذِي يَقْتَضِي التَّوْفِيقَ وَالْإِعَانَةَ، وَالنَّصَرَ وَالتَّسْدِيدَ، وَالْإِبْعَادَ عَنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُ اللَّهَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩]،

(١) «سنن النسائي» رقم (٥٤٥٦)، و«الأدب المفرد» رقم (٦٦٣)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥١٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٥٠٢).

وهي وَلَايَةٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ، تَقْتَضِي حِفْظَهُمْ وَنَصْرَهُمْ، وَتَأْيِيدَهُمْ وَمَعُونَتَهُمْ، وَوَقَايَتَهُمْ مِنَ الشُّرُورِ؛ وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ فِي هَذَا الدُّعَاءِ: (إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ)؛ أَي: إِنَّهُ مَنْصُورٌ عَزِيزٌ غَالِبٌ بِسَبَبِ تَوَلِّيكَ لَهُ؛ وَفِي هَذَا تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ ذُلٌّ فِي النَّاسِ، فَهُوَ بِنَقْصَانِ مَا فَاتَهُ مِنْ تَوَلِّيِ اللَّهِ، وَإِلَّا فَمَعَ الْوَلَايَةِ الْكَامِلَةِ يَنْتَفِي الدُّلُّ كُلُّهُ، وَلَوْ سُلِّطَ عَلَيْهِ مَنْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ، فَهُوَ الْعَزِيزُ غَيْرُ الذَّلِيلِ.

وقوله: (وَبَارِكْ لِي فِيْمَا أَعْطَيْتَ) الْبَرَكَهَ: هِيَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ الثَّابِتُ؛ فَفِي هَذَا سُؤَالُ اللَّهِ الْبَرَكَهَ فِي كُلِّ مَا أَعْطَاهُ مِنْ عِلْمٍ أَوْ مَالٍ، أَوْ وَلَدٍ أَوْ مَسْكَنٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ بِأَنْ يَثْبُتَ لَهُ وَيُوسَّعَ لَهُ فِيهِ، وَيَحْفَظَهُ وَيَسْلَمَهُ مِنَ الْآفَاتِ.

وقوله: (وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ)؛ أَي: شَرِّ الَّذِي قَضَيْتَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَقْضِي بِالْشَرِّ لِحُكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَالشَّرُّ وَاقِعٌ فِي بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ، لَا فِي خَلْقِهِ وَفِعْلِهِ؛ فَإِنَّ فِعْلَهُ وَخَلْقَهُ خَيْرٌ كُلُّهُ، وَهَذَا الدُّعَاءُ يَتَضَمَّنُ سُؤَالَ اللَّهِ الْوَقَايَةَ مِنَ الشُّرُورِ، وَالسَّلَامَةَ مِنَ الْآفَاتِ، وَالْحِفْظَ عَنِ الْبَلَايَا وَالْفِتَنِ.

وقوله: (إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ)، فِيهِ التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ يَقْضِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ لَهُ الْحُكْمَ التَّامَّ، وَالْمَشِيئَةَ النَّافِذَةَ، وَالْقُدْرَةَ الشَّامِلَةَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقْضِي فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا يَرِيدُ، لَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مُعَقَّبَ لِقَضَائِهِ، وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ)؛ أَي: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَقْضِي عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْعِبَادِ شَيْءٍ؛ فَالْعِبَادُ لَا يَحْكُمُونَ عَلَى اللَّهِ، بَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَشَاءُ، وَيَقْضِي فِيهِمْ بِمَا يَرِيدُ.

وقوله: (إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ)، هَذَا كَالْتَعْلِيلِ لِمَا سَبَقَ فِي قَوْلِهِ: (وَتَوَلَّيْنِي فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ)؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِذَا تَوَلَّى الْعَبْدَ فَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ، وَإِذَا عَادَى الْعَبْدَ فَإِنَّهُ لَا يَعِزُّ، وَلَا يُطْلَبُ نَيْلُ الْعِزِّ، وَالْوَقَايَةُ مِنَ الدُّلِّ إِلَّا مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٢٦].

وقوله: (تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ)؛ معنى تَبَارَكْتَ: أي: تعاضمت يا الله، فلك العظمة الكاملة والكبرياء التام، وعظمت أوصافك، وكثرت خيراتك، وعم إحسانك.

وقوله: (وَتَعَالَيْتَ)؛ أي: إِنَّ لَكَ الْعُلُوَّ الْمُطْلَقَ ذَاتًا وَقَدْرًا وَقَهْرًا؛ فهو سبحانه العَلِيُّ بذاته، قد استوى على عرشه استواءً يليقُ بجلاله وكماله، والعلِيُّ بِقَدْرِهِ، وهو علُو صفاته وعظمتها؛ فَإِنَّ صفاته عظيمة، لا يماثلها ولا يقارُبها صفةٌ أحدٍ، والعلِيُّ بِقَهْرِهِ، حيثُ قَهَرَ كُلَّ شيءٍ، ودانت له الكائناتُ بأسرها، فجميعُ الخلقِ نواصيهم بيده، فلا يتحركُ منهم متحركٌ، ولا يسكنُ ساكنٌ إِلَّا بإذنه.

❏ وعلى كُلِّ: فهذا دعاءٌ عظيمٌ جامعٌ لأبوابِ الخيرِ وأصولِ السعادةِ في الدنيا والآخرة. فعلى المسلم أن يَعتَنِي به في هذه الصلاة - صلاة الوتر - التي يختتمُ بها صلاة الليل، ولا بأسَ لو زاد المسلمُ على ذلك الدعاءَ لعمومِ المؤمنينَ بما استطاعَ مِنْ خيرٍ، والاستغفارَ لهم، والدعاءَ على أعدائهم، والصلاةَ والسلامَ على رسولِ الله ﷺ، والله الموفق.



دُعَاءُ الْإِسْتِخَارَةِ

الحديثُ هنا عن دُعَاءِ الاستخارة الذي يُسْتَحَبُّ للمسلم أن يقولَهُ إذا هَمَّ بفعلٍ أمرٍ لا يدري عاقبته، ولا يعرف مآله؛ ففي «صحيح البخاري»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: (إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ؛ قَالَ: وَيُسَمَّى حَاجَتَهُ»^(١).

وهذا الدعاء العظيم المبارك الذي أُرْسِدَ إليه النَّبِيُّ ﷺ في هذا المقام، مقام طلب الخيرة في الأمر الذي يُقَدَّمُ عليه المسلم، وهو متردّد في مآله: هل هو إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ، وهل هو إلى نفعٍ أو إلى ضرٍّ، هو عَوْضٌ لِأَمَّةِ الْإِسْلَامِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ زَجْرِ الطَّيْرِ وَالِاسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ إِذَا بَدَتْ لِلوَاحِدِ مِنْهُمْ حَاجَةٌ مِنْ نِكَاحٍ أَوْ سَفَرٍ أَوْ بَيْعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَيَطْلُبُونَ بِذَلِكَ عِلْمَ مَا قُسِمَ لَهُمْ فِي الْغَيْبِ؛ وَهَذَا ضَلَالٌ وَسَفَهٌ كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ،

(١) «صحيح البخاري» رقم (١١٦٢)، وانظر حول هذا الحديث: «حديث صلاة الاستخارة رواية ودراية» للدكتور عاصم القريوتي.

وَأَمَّا أُمَّةُ الْإِسْلَامِ، فَقَدْ هَدَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَرَاشِدِ الْأُمُورِ، وَمِفَاتِيحِ الْخَيْرِ، وَسُبُلِ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ: هَذَا الدَّعَاءُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُدِيتَ إِلَيْهِ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعَوَّضَهُمْ بِهَذَا الدَّعَاءِ الَّذِي هُوَ تَوْحِيدٌ وَافْتِقَارٌ وَعِبُودِيَّةٌ وَتَوَكُّلٌ، وَسُؤَالٌ لِمَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، الَّذِي لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَصْرِفُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ، الَّذِي إِذَا فَتَحَ لِعَبْدِهِ رَحْمَةً، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ حَبْسَهَا عَنْهُ، وَإِذَا أَمْسَكَهَا، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ إِرْسَالَهَا إِلَيْهِ مِنَ التَّطْيِيرِ وَالتَّنْجِيمِ وَاخْتِيَارِ الطَّالِعِ وَنَحْوِهِ، فَهَذَا الدَّعَاءُ هُوَ الطَّالِعُ الْمَيْمُونُ السَّعِيدُ، طَالِعُ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالتَّوْفِيقِ، الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى، لَا طَالِعُ أَهْلِ الشَّرِكِ وَالشَّقَاءِ وَالْخِذْلَانِ، ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٦].

فَتَضَمَّنَ هَذَا الدَّعَاءُ الْإِقْرَارَ بِوُجُودِهِ سُبْحَانَهُ، وَالْإِقْرَارَ بِصِفَاتِ كَمَالِهِ مِنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَالْإِقْرَارَ بِرَبُوبِيَّتِهِ، وَتَفْوِضَ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، وَالْخُرُوجَ مِنْ عُهْدَةِ نَفْسِهِ، وَالتَّبَرِّيَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ، وَاعْتِرَافَ الْعَبْدِ بِعَجْزِهِ عَنْ عِلْمِهِ بِمُصْلَحَةِ نَفْسِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهَا، وَإِرَادَتِهِ لَهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ بِيَدِ وَلِيِّهِ وَفَاطِرِهِ وَإِلَهِهِ الْحَقِّ . . . إِلَى أَنْ قَالَ: وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْاسْتِخَارَةَ تَوَكُّلٌ عَلَى اللَّهِ، وَتَفْوِضٌ إِلَيْهِ، وَاسْتِقْسَامٌ بِقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحُسْنِ اخْتِيَارِهِ لِعَبْدِهِ، وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ الرِّضَا بِهِ رَبًّا، الَّذِي لَا يَذُوقُ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَإِنْ رَضِيَ بِالْمَقْدُورِ بَعْدَهَا، فَذَلِكَ عَلَامَةُ السَّعَادَةِ»^(١). اهـ.

وَمَا نَدِمَ مَنْ اسْتَخَارَ رَبَّهُ بِعِلْمِهِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَاسْتَقْدَرَهُ بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَسَأَلَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ.

وَقَوْلُ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ»؛ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى شِدَّةِ اهْتِمَامِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا الدَّعَاءِ، وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهِ، وَالْعَنَایَةِ بِهِ.

وقوله: «يقولُ لنا: (إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ)؛ أي: مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَدْرِي مَا عَاقِبَتُهَا مِثْلُ: السَّفَرِ، أَوْ الزَّوْاجِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا اسْتِخَارَةَ فِي فِعْلِ الْوَاجِبِ، أَوْ تَرْكِ الْمَحْرَمِ.

وقوله: (فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ)؛ أي: فَلْيُصَلِّ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ؛ وَذَلِكَ لَتَكُونَ صَلَاتُهُ مُفْتَاحًا لَهُ لِنَيْلِ الْخَيْرِ، وَسَبَبًا لِإِجَابَةِ مَطْلُوبِهِ، وَتَحْقِيقِ مَرْغُوبِهِ، وَلَمْ يَأْتِ فِي شَيْءٍ مِنْ طَرِيقِ الْحَدِيثِ تَعْيِينُ قِرَاءَةِ مَعِينَةٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ أَوْ سُورِهِ لَتُقْرَأَ فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ؛ وَلِذَا يَقْرَأُ الْمُسْتَخِيرُ مَا يَسِّرُهُ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْقُرْآنِ دُونَ التَّزَامِ شَيْءٍ مَعَيَّنٍ.

وقوله: (ثُمَّ لِيَقُلْ)، ظَاهِرُهُ أَنَّ الدُّعَاءَ يَكُونُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الصَّلَاةِ؛ أَيْ: بَعْدَ أَنْ يَسْلُمَ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ ذَلِكَ قَبْلَ السَّلَامِ؛ أَيْ: بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ أَذْكَارِ الصَّلَاةِ وَدُعَائِهَا، وَالْأَوَّلَى الْأَوَّلُ؛ أَيْ: أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ بَعْدَ السَّلَامِ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ يَرْفَعَ يَدَيْهِ عِنْدَ الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ رَفْعَهُمَا مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ.

وَمَنْ كَانَ لَا يَحْفَظُ الدُّعَاءَ، وَقَرَأَهُ مِنْ كِتَابٍ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي إِحْضَارِ قَلْبِهِ، وَالْخُشُوعِ لِلَّهِ، وَالصَّدْقِ فِي الدُّعَاءِ، وَالتَّوَكُّلِ فِي مَعَانِي هَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ حَافِظًا لِلدُّعَاءِ، وَلَيْسَ بِحَضْرَتِهِ كِتَابٌ، وَاحْتِاجَ إِلَى الِاسْتِخَارَةِ فَإِنَّهُ يَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، وَيَدْعُو بِمَا تيسَّرَ لَهُ مِنْ مَعَانِي طَلَبِ الْخَيْرَةِ.

وقوله: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ)؛ أَيْ: أَطْلُبُ مِنْكَ - يَا اللَّهُ - أَنْ تَخْتَارَ لِي الْخَيْرَ مِنَ الْأُمُورِ، وَالْأَرْشَدَ مِنْهَا: بِعِلْمِكَ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، بِمَا كَانَ، وَبِمَا سَيَكُونُ، وَبِمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ.

وقوله: (وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ)؛ أَيْ: أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تُقْدِرَنِي عَلَيْهِ بِقُدْرَتِكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ)؛ أَيْ: أَطْلُبُ مِنْكَ - يَا اللَّهُ - أَنْ تُكْرِمَنِي بِفَضْلِكَ، وَتَمُنَّ عَلَيَّ بِعَطَائِكَ؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ الْمَتَفَضِّلُ وَحَدَّكَ وَالْمُنْعِمُ، لَا شَرِيكَ لَكَ.

وقوله: (فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)، فيه الإيمانُ بقدرة الله على كلِّ شيءٍ، وبكلِّ شيءٍ، وأنه لا يَعْزُبُ عن علمه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، والاعترافُ بضعفِ العبدِ وعجزه وافتقاره إلى سيِّده ومولاه.

وقوله: (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ)، وَيُسَمِّيهِ بَعِينِهِ إِنْ كَانَ زَوْجًا، أَوْ بَيْعًا، أَوْ سَفَرًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

وقوله: (إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ)، يرجعُ إلى عَدَمِ عِلْمِ الْعَبْدِ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِ، وَأَمَّا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ، فَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

وقوله: (خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي)؛ قَدَّمَ الدِّينَ؛ لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ، فَإِذَا سَلِمَ الدِّينُ، فَالْخَيْرُ حَاصِلٌ، وَإِذَا اخْتَلَّ، فَلَا خَيْرَ بَعْدَهُ.

وقوله: (أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ)، هَذَا شَكٌّ مِنَ الرَّائِي، وَهُمَا يُؤَدِّيَانِ لِلْمَعْنَى السَّابِقِ.

وقوله: (فَأَقْدِرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي)؛ أَي: اجْعَلْهُ لِي مُقَدَّرًا وَمُسَرَّرًا.

وقوله: (ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ)؛ أَي: أَدِمَّهُ عَلَيَّ وَضَاعِفْهُ؛ فَالْبَرَكَهُ تَتَضَمَّنُ ثُبُوتَ النِّعْمَةِ وَنُمُوَّهَا.

وقوله: (وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي...)، إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ، فِيهِ سَوَالُ اللَّهِ أَنْ يَضَرِفَ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ بَالِهِ إِنْ كَانَ شَرًّا، وَأَنْ يُبَاعِدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَنْ يَكْتَبَ لَهُ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، وَأَنْ يَرْزُقَهُ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ مِنْ وَجُودِ ذَلِكَ الْأَمْرِ إِنْ وَجَدَ، أَوْ عَدَمِهِ إِنْ عُدِمَ.

وَالْخَيْرُ فِيمَا يَخْتَارُهُ اللَّهُ، وَالتَّوْفِيقُ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ الْهَادِي وَحْدَهُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.



أَذْكَارُ الْكَرْبِ

لقد ثَبَتَ في السُّنَّةِ أَحَادِيثُ عَدِيدَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ في عِلاجِ ما قَدْ يَصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْكَرْبِ، وَهُوَ الشَّدَّةُ وَالْأَلَمُ الَّذِي قَدْ يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ في نَفْسِهِ بِسَبَبِ ما يَحُلُّ بِهِ مِنْ مَصَائِبَ وَنَوَازِلَ، تَذْهُو الْإِنْسَانَ، فَتَغْمُهُ وَتُحْزِنُهُ وَتُورِّقُهُ.

وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ في عِلاجِ ذَلِكَ: ما رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)»^(١).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهِنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ - أَوْ فِي الْكَرْبِ -: اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي، لَا أَشْرُكَ بِهِ شَيْئًا)»^(٢).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ في «سُنَنِهِ»، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ، رَحِمَتَكَ أَرْجُو؛ فَلَا تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)^(٣).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٤٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٣).

(٢) «المسند» (٣٦٩/٦)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٢٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٨٢٤).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤٦/٥)، «سنن أبي داود» رقم (٥٠٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٨).

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ^(١).

وجميع هذه الكلمات الواردة في هذه الأحاديث كلمات إيمانٍ وتوحيد وإخلاصٍ لله ﷻ، وبُعْدٍ عن الشُّرْكِ كُلِّهِ كَبِيرِهِ وصَغِيرِهِ. وفي هذا أُبَيِّنُ دَلَالَةَ عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ علاجٍ للكَرْبِ هو تجديدُ الإيمان، وترديدُ كلمةِ التوحيد: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ فَإِنَّهُ مَا زَالَتْ عَنْ الْعَبْدِ شِدَّةٌ، وَلَا ارْتَفَعَ عَنْهُ هَمٌّ وَكَرْبٌ بِمِثْلِ تَوْحِيدِ اللَّهِ وإخلاصِ الدِّينِ لَهُ، وتحقيقِ العبادة التي خُلِقَ الْعَبْدُ لِأَجْلِهَا، وَأَوْجَدَ لِتَحْقِيقِهَا؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ عِنْدَمَا يُعْمَرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، وَيُسْغَلُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْأُمُورِ وَأَجْلُّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، تَذْهَبُ عَنْهُ الْكُرْبَاتُ، وَتَزُولُ عَنْهُ الشَّدَائِدُ وَالْغُمُومُ، وَيَسْعَدُ غَايَةَ السَّعَادَةِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّوْحِيدُ مَفْزَعُ أَعْدَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ؛ فَأَمَّا أَعْدَاؤُهُ: فَيُنَجِّيهِمْ مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا وَشَدَائِدِهَا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَخَّسَتْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وَأَمَّا أَوْلِيَاؤُهُ: فَيُنَجِّيهِمْ مِنْ كُرْبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشَدَائِدِهَا؛ وَلِذَلِكَ فَرَعَ إِلَيْهِ يُونُسُ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَفَرَعَ إِلَيْهِ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، فَنَجَّوْا بِهِ مِمَّا عَذَّبَ بِهِ الْمَشْرُكُونَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَمَّا فَرَعَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْهَلَاكِ وَإِدْرَاكِ الْعَرَقِ لَمْ يَنْفَعْهُ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمُعَايِنَةِ لَا يُقْبَلُ، هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَا دُفِعَتْ شَدَائِدُ الدُّنْيَا بِمِثْلِ التَّوْحِيدِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ دَعَاءُ الْكَرْبِ بِالتَّوْحِيدِ، وَدَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ كَرْبَهُ بِالتَّوْحِيدِ، فَلَا يُلْقِي فِي الْكَرْبِ الْعِظَامَ إِلَّا الشُّرْكَ، وَلَا يَنْجِي مِنْهَا إِلَّا التَّوْحِيدُ، فَهُوَ مَفْزَعُ الْخَلِيقَةِ وَمَلْجَأُهَا وَحِصْنُهَا وَغَايَتُهَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ»^(٢). اهـ.

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٧٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٣).

(٢) «الفوائد» (ص ٩٥ - ٩٦).

وقد مرَّ معنا أحاديثٌ دالةٌ على هذا المعنى:

أولُّها: حديثُ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ وكلُّهُ توحيدٌ وتمجيدٌ لله تعالى، وترديدٌ لكلمة التوحيد: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، مقرونةٌ بما يدلُّ على عَظَمَةِ اللَّهِ وجلالِهِ وكمالِهِ وربوبيَّتِهِ لِلسَّمَوَاتِ والأَرْضِ وللعرشِ العظيمِ، فقد انتَظَمَتْ هؤلاء الكلماتُ أنواعَ التوحيدِ الثلاثة: توحيدَ الربوبيَّةِ، وتوحيدَ الألوهيَّةِ، وتوحيدَ الأسماءِ والصفاتِ، فإذا قالها المسلمُ مُتَأَمِّلاً لمعانيها، مُتَفَكِّراً في دَلالاتِها، سَكَنَ قلبُهُ، واطمَأَنَّ نَفْسُهُ، وزالَ عنه كَرْبُهُ وشِدَّتُهُ، وهُدِيَ إلى صراطِ مستقيمٍ.

وثانيها: حديثُ أسماءَ بنتِ عُمَيْسٍ رضي الله عنها، حيثُ أرشدَها النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله أنْ تَفْرَعَ في الْكَرْبِ أو عِنْدَ الْكَرْبِ إلى التوحيدِ، الذي ما دُفِعَتْ عن العبدِ الشدائدُ، ولا زالتْ عنه الْكُرْبَاتُ بمثله، وقد شَدَّ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه انتباهَها لهذا الأمرِ، وشَوَّقَها إلى معرفته، وهَيَّأَ نَفْسَها لَتَلْقِيهِ؛ بأنْ طَرَحَ عليها استفهاماً مُشَوِّقاً: (أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ، أو فِي الْكَرْبِ؟)، وما مِنْ رِيْبٍ أنْ نَفْسَها قد تاقَتْ لمعرفةِ هؤلاءِ الكلماتِ، فأرشدَها صلى الله عليه وآله أنْ تقول: (اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي، لَا أَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)؛ وهي كلمةٌ إخلاصٍ وتوحيدٍ.

وقوله: (اللَّهُ اللَّهُ)، هو بِالرَّفْعِ فيهما، على أَنَّ الأوَّلَ مبتدأٌ، والثاني تأكيدٌ لفظيٌّ له؛ إشارةٌ إلى عِظَمِ المَقَامِ، وأهميَّةِ الأمرِ، وخبرُ المبتدأِ هو قوله: (رَبِّي)؛ والمعنى: أَنَّ إِلَهِي الذي أعبدُهُ وأخُصُّهُ بجميعِ أنواعِ العبادة؛ مِنْ خوفٍ ورجاءٍ، وذُلٍّ وخضوعٍ وخشوعٍ، وانكسارٍ وغيرِ ذلك، هو رَبِّي الذي ربَّاني بنعمته، وأَوْجَدَنِي مِنَ الْعَدَمِ، وَتَفَضَّلَ عَلَيَّ بصنوفِ العطايا والمِنَنِ.

وقوله: (لَا أَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)؛ أي: لا أَتَّخِذُ معه شريكاً في العبادةِ كائناً مَنْ كان، فقوله: (شَيْئاً): نكرةٌ في سياقِ النفيِ تفيدهُ العمومَ.

وعلى كُلِّ، فهذه الكلمةُ العظيمةُ اشتمَلَتْ على تحقيقِ التوحيدِ بِرُكْنِيَّهِ النفيِ والإثباتِ: نفيِ العبوديَّةِ عن كُلِّ مَنْ سِوَى اللَّهِ، وإثباتِها له وحده، وفي الحديثِ دليلٌ على أَنَّ التوحيدَ هو المَفْزَعُ في الْكَرْبِ، وأعظمُ أسبابِ زوالِ الهمومِ، وذهابِ الغُموِمِ.

وثالثها: حديث أبي بكرٍ عن النَّبِيِّ ﷺ: (دَعَاؤُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحِمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)؛ وهو كُلُّه توحيدُ الله، والتَّجاءُ إليه، واعتصامُ به.

وقوله: (اللَّهُمَّ رَحِمَتَكَ أَرْجُو)، في تأخير الفعلِ دَلَالَةٌ على الاختصاص؛ أي: نَحْصُكَ برِجاءِ الرَّحْمَةِ منك، فلا نرجوها مِنْ أَحَدٍ سِوَاكَ.

وقوله: (فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ)، فيه شِدَّةُ افتقارِ العبدِ إلى الله، وأنَّه لا غِنَى له عن ربِّه ومولاهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ في كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِهِ؛ ولهذا قال: (وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ)؛ أي: في كُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِهِ، وكُلِّ جانبٍ مِنْ جوانبه. ثم خَتَمَ هذ الدَّعاءَ المَبَارَكَ بكلمةِ التَّوحيدِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

ورابعها: حديثُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وفيه ذِكرُ دعوةِ ذِي النُّونِ ؓ وهو في بطنِ الحُوتِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، وعن هذه الدَّعوة يقول ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ فِيهَا مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ، والتَّنْزِيهِ لِلرَّبِّ تَعَالَى، واعترافِ العبدِ بِظُلْمِهِ وَذَنْبِهِ ما هو مِنْ أبلغِ أدويةِ الْكَرْبِ والهِمِّ والغَمِّ، وأبلغِ الوسائلِ إلى الله سبحانه في قضاءِ الحوائجِ؛ فَإِنَّ التَّوْحِيدَ والتَّنْزِيهِ يَتَضَمَّنَانِ إثباتَ كُلِّ كَمَالٍ لله، وسَلْبَ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ وتمثيلٍ عنه، والاعترافُ بِالظُّلْمِ يَتَضَمَّنُ إيمانَ العبدِ بِالشَّرْعِ والثَّوَابِ والعِقَابِ، ويوجبُ انكسارَهُ ورجوعَهُ إلى الله، واستِقالَتَهُ عِثْرَتَهُ، والاعترافُ بعبوديَّتِهِ، وافتقارَهُ إلى ربِّهِ، فها هنا أربعةُ أمورٍ قد وَقَعَ التَّوسُّلُ بها: التَّوْحِيدُ والتَّنْزِيهِ، والعبوديَّةُ والاعترافُ»^(١). اهـ.



دُعَاءُ الْغَمِّ وَالْهَمِّ وَالْحُزَنِ

إِنَّ الْعَبْدَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ قَدْ يُصَابُ بِآلَامٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَقَدْ يَرِدُ عَلَى قَلْبِهِ وَارِدَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ تَوْرِقُ قَلْبَهُ، وَتُوَلِّمُ نَفْسَهُ، وَتَجْلِبُّ لَهُ الْكَدَرَ وَالضِّيقَ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَلَمُ الَّذِي يُصِيبُ الْقَلْبَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورٍ مَاضِيَةٍ، فَهُوَ حُزْنٌ، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورٍ مُسْتَقْبَلَةٍ، فَهُوَ هَمٌّ، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِوَاقِعِ الْإِنْسَانِ وَحَاضِرِهِ، فَهُوَ غَمٌّ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ: الْحُزْنُ وَالْهَمُّ وَالْغَمُّ إِنَّمَا تَزُولُ عَنِ الْقَلْبِ وَتَنْجَلِي عَنِ الْفَوَادِ بِالْعَوْدَةِ الصَّادِقَةِ إِلَى اللَّهِ، وَتَمَامِ الْإِنْكَسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالتَّذَلُّلِ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالِاسْتِسْلَامَ لِأَمْرِهِ، وَالْإِيمَانَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالْإِيمَانَ بِكِتَابِهِ، وَالْعَنَاءِ بِقِرَاءَتِهِ وَتَدْبُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ، فَبِذَلِكَ لَا بَغْيَ لَهُ تَزُولُ هَذِهِ الْأُمُورُ، وَيَنْشُرُ الْصَّدْرُ، وَتَتَحَقَّقُ السَّعَادَةُ.

جاء في «المسند» للإمام أحمد، و«صحيح ابن حبان»، وغيرهما، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ ﷻ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، قَالَ: (أَجَلْ)، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»^(١).

(١) تقدم تخريجه (ص ١٣٠)، وانظر في شرح هذا الحديث: «الفوائد» لابن القيم (ص ٤٤).

فهذه كلمات عظيمة ينبغي على المسلم أن يتعلّمها، وأن يحرص على قولها عندما يُصاب بالحزن أو الهم أو الغم، وليعلم كذلك أن هؤلاء الكلمات إنما تكون نافعة له إذا فهم مدلولها، وحقق مقصودها، وعمل بما دلّت عليه، أمّا الإتيان بالأدعية الماثورة، والأذكار المشروعة، دون فهم لمعانيها، ودون تحقيق لمقاصدها، فإنّ هذا قليل التأثير، عديم الفائدة.

وإذا تأملنا هذا الدعاء نجد أنّه يتضمّن أربعة أصول عظيمة، لا سبيل للعبد إلى نيل السعادة، وزوال الهم والغم والحزن إلّا بالإتيان بها وتحقيقها:

أمّا الأصل الأوّل: فهو تحقيق العبادة لله، وتَمَام الانكسار بين يديه، والخضوع له، واعترافه بأنّه مخلوق لله، مملوك له هو وآبؤه وأمهاته، ابتداءً من أبويه القريين، وانتهاءً إلى آدم وحواء؛ ولهذا قال: (اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ)؛ فالكل مماليك لله، وهو خالقهم وربهم وسيّدهم ومُدبّر شؤونهم، الذي لا غنى لهم عنه طرفة عين، وليس لهم من يعوذون به، ويلوذون به سواه، ومن تحقيق ذلك: التزام العبد عبوديته سبحانه؛ من الدّل والخضوع، والانكسار والإنابة، وامتنال الأوامر، واجتناب النواهي، ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكّل عليه، والاستعاذة به، وأن لا يتعلّق القلب بغيره محبةً وخوفًا ورجاءً.

وأمّا الأصل الثاني: فهو أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره، وأنّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنّه سبحانه لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]؛ ولهذا قال في هذا الدعاء: (نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ)؛ فناصية العبد - وهي مقدّمة رأسه - بيد الله، يتصرّف فيه كيف يشاء، ويحكم فيه بما يريد، لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه، فحياة العبد وموته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه، كلّ ذلك إليه سبحانه ليس إلى العبد منه شيء، وإذا آمن العبد بأنّ ناصيته ونواصي العباد كلّها بيد الله وحده

يَصْرِفُهُمْ كَيْفَ شَاءَ، لَمْ يَخَفْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَرْجُهُمْ، وَلَمْ يُنْزِلْهُمْ مَنْزِلَةَ الْمَالِكِينَ، وَلَمْ يُعَلِّقْ أَمْلَهُ وَرَجَاءَهُ بِهِمْ؛ وَحِينَئِذٍ يَسْتَقِيمُ لَهُ تَوْحِيدُهُ وَتَوَكُّلُهُ وَعِبُودِيَّتُهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ هُوَ ﷺ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٦].

وقوله: (مَاضٍ فِي حُكْمِكَ)، يَتَنَاوَلُ الْحُكْمَيْنِ: الْحَكَمَ الدِّينِيَّ الشَّرْعِيَّ، وَالْحَكَمَ الْقَدَرِيَّ الْكُونِيَّ، فَكِلَاهُمَا مَاضِيَانِ فِي الْعَبْدِ شَاءَ أَمِ أَبِي، لَكِنَّ الْحَكَمَ الْكُونِيَّ الْقَدَرِيَّ لَا يُمْكِنُ مَخَالَفَتُهُ، وَأَمَّا الْحَكَمُ الدِّينِيُّ الشَّرْعِيُّ، فَقَدْ يَخَالِفُهُ الْعَبْدُ، وَيَكُونُ مُتَعَرِّضًا لِلْعُقُوبَةِ بِحَسَبِ مَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ مَخَالَفَةٍ.

وقوله: (عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ)، يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ أَقْضِيَّتِهِ سَبْحَانَهُ فِي عِبْدِهِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ؛ مِنْ صِحَّةٍ وَسُقْمٍ، وَغِنًى وَفَقْرٍ، وَلَذَّةٍ وَأَلَمٍ، وَحَيَاةٍ وَمَوْتٍ، وَعُقُوبَةٍ وَتَجَاوُزٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَكُلُّ مَا يَقْضِي عَلَى الْعَبْدِ، فَهُوَ عَدْلٌ فِيهِ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦].

والأصل الثالث: أَنْ يُؤْمِنَ الْعَبْدُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَتَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ: ١٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١١٠]، وَالْعَبْدُ كُلَّمَا كَانَ عَظِيمَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، زَادَتْ خَشْيَتُهُ لَهُ، وَعَظُمَتْ مُرَاقِبَتُهُ لَهُ، وَازْدَادَ بُعْدًا عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَالْوُقُوعَ فِيهَا يُسْخِطُهُ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ مِنْهُ أَخَوْفَ»؛ وَلِهَذَا، فَإِنَّ أَعْظَمَ مَا يَطْرُدُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ وَالْغَمَّ أَنْ يَعْرِفَ الْعَبْدُ رَبَّهُ، وَأَنْ يَعْمُرَ قَلْبَهُ بِمَعْرِفَتِهِ سَبْحَانَهُ، وَأَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ)؛ فَهَذَا تَوَسَّلٌ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ كُلِّهَا مَا عَلِمَ الْعَبْدُ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْ، وَهَذَا أَحَبُّ الْوَسَائِلِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

والأصل الرابع: هو العناية بالقرآن الكريم، كلام الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المُشْتَمِل على الهداية والشفاء، والكفاية والعافية، والعبد كلما كان عظيم العناية بالقرآن تلاوةً وحفظاً، ومذاكرةً وتدبراً، وعملاً وتطبيقاً، نال من السعادة والطمأنينة، وراحة الصدر، وزوال الهم والغم والحزن بحسب ذلك؛ ولهذا قال في هذا الدعاء: (أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي).

فهذه أربعة أصول عظيمة مستفادة من هذا الدعاء المبارك، ينبغي علينا أن نتأملها ونسعى في تحقيقها؛ لننال هذا الموعود الكريم، والفضل العظيم، وهو قوله ﷺ: (إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا)، وفي رواية: (فَرَجًا)، ومن الله وحده نطلب العون والتوفيق.



مَا يُقَالُ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ

لقد جاء في السُّنَّةِ أذكارٌ وأدعيةٌ يقولها المسلمُ عند لقائه العدوَّ، أو ذي السلطانِ الجائر، وهي في الجملة التَّجَاءُ إلى الله، واعتصامٌ به، واعتمادٌ عليه سبحانه في أن يَقِيَهُ شَرَّهُمْ، وَيُسَلِّمَهُ مِنْهُمْ، وَيَحْفَظَهُ مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، واللهُ ﷻ حافظٌ لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ، وكافٍ مَنْ اعتَصَمَ بِهِ؛ إِذِ الْأُمُورُ كُلُّهَا بِيَدِهِ، وما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا.

وَمِنْ الْأَذْكَارِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا السُّنَّةُ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ: ما رواه أبو داود، والترمذي، وغيرُهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: (اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ)»^(١).

وقوله: (اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي)؛ أي: عَوْنِي، فلا مُعِينَ لِي سِوَاكَ، وَلَا مَلْجَأَ لِي غَيْرُكَ، بِكَ وَحْدَكَ أَسْتَعِينُ، وَإِلَيْكَ وَحْدَكَ أَلْتَجِي.

وقوله: (وَنَصِيرِي)؛ أي: لا ناصِرَ لِي سِوَاكَ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ نَاصِرَهُ، فَلَا غَالِبَ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٦٠].

وقوله: (بِكَ أَحُولُ)؛ أي: أحتالُ؛ ومنه قولك: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)؛ أي: لا حيلةَ في دفعِ سوءٍ، ولا قوَّةَ في دَرْكِ خَيْرٍ إِلَّا بِاللَّهِ.

وقوله: (وَبِكَ أَصُولُ)؛ أي: بِكَ أَحمِلُ على العدوِّ، مِنَ الصَّوْلَةِ، وهي الحِمْلَةُ.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/١٨٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٢٦٣٢) واللفظ له، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٥٧).

وقوله: (وَبِكَ أَقَاتِلُ)؛ أي: بعونك أقاتلُ عدوِّي.

وَمِنْ الْأَدْعِيَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا، قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ)»^(١).

وقوله: (اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ)؛ أي: في نَحْرِ العدوِّ: بِأَنْ تَكُونَ حَافِظًا لَنَا، وَمُدَافِعًا عَنَّا، وَحَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَنَا مِنْ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْنَا بِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَذَى، وَخَصَّ نُحُورَهُمْ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الْعَدُوَّ يَسْتَقْبِلُ بَنَحْرِهِ عِنْدَ الْقِتَالِ، وَلَعَلَّ فِي ذِكْرِ النَّحْرِ تَفَاوُلًا بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْحَرُونَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِمَدِّ مِنَ اللَّهِ وَعَوْنِ.

وقوله: (وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ)؛ أي: مِنْ أَنْ يَنَالُونَا بِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الشَّرِّ؛ فَأَنْتَ الَّذِي تَدْفَعُ شُرُورَهُمْ، وَتَكْفِيْنَا أَمْرَهُمْ، وَتَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.

وَمِمَّا يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُولَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)؛ فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: «(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٧٣]»^(٢).

وَمَعْنَى: (حَسْبُنَا اللَّهُ)؛ أي: كَافِيْنَا كُلَّ مَا أَهَمَّنَا، فَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا نَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَيْهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الزُّمَرُ: ٣٦].

وقوله: (وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)؛ أي: نِعْمَ الْمُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي جَلْبِ النَّعْمَاءِ، وَدَفْعِ الضَّرِّ وَالْبَلَاءِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الْحَجَّ: ٧٨].

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤/٤١٥)، وَ«سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» رَقْم (١٥٣٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْم (٤٧٠٦).

(٢) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْم (٤٥٦٣).

وقد تَضَمَّنَتْ هذه الكلمة العظيمة التَّوَكَّلَ على الله، والاعتمادَ عليه، والالتجاءَ إليه سبحانه، وأنَّ ذلك سبيلُ عِزِّ الإنسانِ ونِجَاتِهِ وسلامَتِهِ؛ قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وهو حَسْبُ مَنْ تَوَكَّلَ عليه، وكافي مَنْ لَجَأَ إليه، وهو الذي يُؤْمِنُ خوفَ الخائف، وَيُجِيرُ المستجير، وهو نِعَمُ المولى ونعم النَّصير، فَمَنْ تَوَلَّاهُ، واستَنْصَرَ به، وتَوَكَّلَ عليه، وانْقَطَعَ بِكُلِّيَّتِهِ إليه، تَوَلَّاهُ وَحَفِظَهُ وَحَرَسَهُ وَصَانَهُ، وَمَنْ خَافَهُ وَاتَّقَاهُ، أَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ وَيَحْذَرُ، وَجَلَبَ إِلَيْهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ المنافع ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق]، فلا تَسْتَبِطِي نَصْرَهُ وَرِزْقَهُ وَعَافِيَتَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ بِالْغِ الْأَمْرِ، وقد جَعَلَ اللَّهُ لكلِّ شيءٍ قَدْرًا، لا يَتَقَدَّمُ عنه ولا يَتَأَخَّرُ»^(١).

ثُمَّ إِنَّ فِيمَا تَقَدَّمَ دَلَالَةً عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هذه الكلمة، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ، عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الشَّدَائِدِ.

فإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا أَفْحَمَ قَوْمَهُ، وَبَيَّنَ لَهُمْ بِالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ: أَنَّ الْمَعْبُودَ بِحَقِّ هُوَ اللَّهُ، وَأَنَّ مَا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ إِنَّمَا هِيَ أَوْثَانٌ لَا تَمْلِكُ لِعَابِدِيهَا جَلْبَ نَفْعٍ، وَلَا دَفْعَ ضَرٍّ، ﴿فَقَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[الأنبياء]﴾، فَلَمَّا أَفْحَمَ الْقَوْمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ أَيْ حُجَّةٌ يَقَاوِمُونَهُ بِهَا لَجُّوا إِلَى اسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ، وَ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿[الأنبياء: ٦٨]﴾، وَقَدْ دَلَّتْ كَلِمَتُهُمْ هَذِهِ عَلَى إِفْلَاسِهِمْ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَعَلَى شِدَّةِ سَفَهِهِمْ، وَحَقَارَةِ عَقُولِهِمْ؛ إِذْ كَيْفَ يَعْبُدُونَ مَنْ أَقْرَبُوا أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى نَصْرِهِمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَجَبُوا نَارًا عَظِيمَةً، وَأَلْقَوْا فِيهَا نَبِيَّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَاصِدِينَ قَتْلَهُ بِأَشْنَعِ الْقَتَلَاتِ، فَقَالَ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْحَقُّ﴾، فَانْتَصَرَ اللَّهُ لَخَلِيلِهِ، وَقَالَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ﴾، فَانْتَصَرَ اللَّهُ لَخَلِيلِهِ، وَقَالَ

للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت كذلك بردًا وسلامًا عليه، لم ينله فيها أذى، ولم يُصِبه فيها مكروه.

ومحمَّد ﷺ قالها حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وذلك بعدما كان من أمر أحد ما كان، بلغ النبي ﷺ وأصحابه أن أبا سُفيان ومن معه من المشركين قد أجمعوا الكثرة عليهم، فخرج النبي ﷺ ومعه جمع من أصحابه حتى انتهى إلى حمراء الأسد - وهي تبعد عن المدينة قدر ثلاثة أميال - فألقى الله الرعب في قلب أبي سُفيان حين بلغه الخبر، فرجع إلى مكة، ومرَّ به ركب من عبد قيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: فهل أنتم مُبلَّغون عني محمَّدًا رسالةً أرسلكم بها إليه؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه، فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصل بقيَّتهم، يريد بذلك إزعابهم وإخافتهم، فمرَّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قاله أبو سُفيان وأصحابه، فقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وازداد إيمانهم بالله وثقتهم به، ورجعوا إلى المدينة دون أن يُصابوا بسوءٍ أو أذى، بخلاف المشركين الذين رجَّعوا وقلوبهم مُمتلئة خوفًا ورعبًا.

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقْبَلُوا الْحَقَّ لَدَيْنَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ (١٧١) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٢) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِفْئِهِمْ فَبُذِلَ لِمَنْ يُؤْمِنُ الْإِيمَانُ (١٧٣) وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران].

وفي هذا أن التوكُّل على الله أعظم الأسباب في حصول الخير، ودفع الشرِّ في الدنيا والآخرة^(١).



(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص ٥٠٢ - ٥٠٥).

مَا يَقُولُ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ

الحديث هنا عَمَّا يُشْرَعُ للمسلم أَنْ يَقُولَهُ عِنْدَمَا يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فِي نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَلِيَعْلَمَ أَوَّلًا أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ مَاضِيَةٌ فِي عِبَادِهِ بِأَنْ يَتَّبِعَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْبَلَايَا، وَأَلْوَانٍ مِنَ الْمِحَنِ وَالرَّزَايَا، فَيُتْبَلِيهِمْ بِالْفَقْرِ تَارَةً، وَبِالْغِنَى تَارَةً أُخْرَى، وَبِالصُّحَّةِ تَارَةً، وَبِالْمَرَضِ تَارَةً أُخْرَى، وَبِالسَّرَّاءِ حِينًا، وَبِالضَّرَّاءِ حِينًا أُخْرَى، وَلَيْسَ فِي النَّاسِ إِلَّا مَنْ هُوَ مُبْتَلًى؛ إِمَّا بِفَوَاتٍ مَحْبُوبٍ، أَوْ حَصُولٍ مَكْرُوهٍ، أَوْ زَوَالٍ مَرْغُوبٍ، فَسُرُورُ الدُّنْيَا أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظَلٌّ زَائِلٌ، إِنْ أَضْحَكْتَ قَلِيلًا أَبْكْتَ كَثِيرًا، وَإِنْ سَرَّتْ يَوْمًا أَحْزَنْتَ دَهْرًا، وَإِنْ مَتَّعْتَ قَلِيلًا مَنَعْتَ طَوِيلًا، وَمَا مَلَأَتْ دَارًا حَبْرَةً إِلَّا مَلَأَتْهَا عَبْرَةٌ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «لِكُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةُ، وَمَا مُلِئَ بَيْتٌ فَرْحًا إِلَّا مُلِئَ تَرْحًا»، إِلَّا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ الْمُسْلِمَ صَائِرٌ إِلَى خَيْرٍ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ؛ كَمَا قَالَ رضي الله عنه: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(١).

وَقَدْ أَرَشَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ إِلَى الْحَالِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهَا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَإِلَى الذِّكْرِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ الْمُصَابُ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَبْلُؤُنَّكُمْ إِنِئِي مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالْمَحَنِ؛ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالْجَازِعُ مِنَ الصَّابِرِ، وَالْمُوقِنُ مِنَ الْمُرْتَابِ، وَذَكَرَ أَنْوَاعًا مِمَّا يَبْتَلِيهِمْ بِهِ، فَهُوَ يَبْتَلِيهِمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ؛ أَي: مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَالْجُوعِ؛ أَي: بِنَقْصِ الطَّعَامِ وَالْغِذَاءِ، وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَهُوَ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ النِّقْصِ الْمَعْتَرِي لِلْأَمْوَالِ، سِوَاءٍ بِالْجَوَائِحِ السَّمَاءِيَّةِ، أَوِ الْغَرَقِ، أَوِ الضَّيَاعِ، أَوِ السَّلْبِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَيَبْتَلِيهِمْ كَذَلِكَ بِنَقْصِ الْأَنْفُسِ بِذَهَابِ الْأَحْبَابِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَصْحَابِ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا مَا يُصِيبُ الْبَدَنَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، وَيَبْتَلِيهِمْ كَذَلِكَ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ مِنَ الْحَبُوبِ وَثَمَارِ النَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ، وَهِيَ أُمُورٌ لَا بَدَّ وَأَنْ تَقَعَ؛ لِأَنَّ الْعَلِيمَ الْخَبِيرَ أَخْبَرَ بِوُقُوعِهَا، وَحَظَّ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَصِيبَةِ هُوَ مَا تُحْدِثُ لَهُ مِنْ أَثَرٍ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ؛ وَلِهَذَا لَا بَدَّ أَنْ يَعْلَمَ الْمَصَابُ أَنَّ الَّذِي ابْتَلَاهُ بِمَصِيبَتِهِ هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُرْسِلْ بَلَاءَهُ عَلَيْهِ لِيُهْلِكَهُ وَلَا لِيُعَذِّبَهُ، وَإِنَّمَا ابْتَلَاهُ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وَرِضَاهُ وَإِيمَانَهُ، وَلِيَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ وَابْتِهَالَهُ وَدَعَاءَهُ، وَلِيَرَاهُ طَرِيحًا بِبَابِهِ، لَاثِدًا بِجَنَابِهِ، مَكْسُورَ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، رَافِعًا يَدَيْ الصَّرَاعَةِ إِلَيْهِ، يَشْكُو بَتَّهُ وَحُزْنَهُ إِلَيْهِ؛ فَيُنَالُ بِذَلِكَ عَظِيمَ مَوْعُودِ اللَّهِ، وَجَزِيلَ عَطَاةٍ، وَوَافِرَ آيَاتِهِ وَنِعْمَائِهِ، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة]؛ فَمَا أَوْسَعَهُ مِنْ فَضْلٍ! وَمَا أَكْرَمَهُ مِنْ عَطَاءٍ! يَقُولُ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «نِعَمَ الْعِدْلَانِ، وَنِعْمَتِ الْعَلَاوَةِ».

لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَلِمَةَ الْإِسْتِرْجَاعِ، وَهِيَ قَوْلُ الْمُصَابِ: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ): مُلْجَأٌ وَمَلَاذٌ لَذْوِي الْمَصَائِبِ، وَعِصْمَةٌ لِلْمُتَمَتِّحِينَ، فَإِذَا لَجَأَ الْمُصَابُ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَامِعَةِ لِمَعَانِي الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، سَكَنَ قَلْبُهُ، وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ، وَهَدَأَ بَالُهُ، وَعَوَّضَهُ اللَّهُ فِي مَصِيبَتِهِ خَيْرًا.

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، أَنَّهَا قَالَتْ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا)، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ؛ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ^(١)؛ أَي: إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهَا، فَتَزَوَّجْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

وَمَنْ يَتَأَمَّلُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْعَظِيمَةَ كَلِمَةَ الْإِسْتِرْجَاعِ، يَجِدُ أَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عِلَاجٍ عَظِيمٍ لَذَوِي الْمَصَائِبِ، بَلْ فِيهَا لَهُمْ أَبْلَغُ عِلَاجٍ وَأَنْفَعُهُ فِي الْحَالِ وَالْمَالِ، وَكَمْ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ الْآثَارِ الْحَمِيدَةِ، وَالْعَوَاقِبِ الرَّشِيدَةِ، وَالنَتَائِجِ الْعَظِيمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَكْفِي فِي هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، لَكُنْ مَعَ قَوْلِهَا لَا بُدَّ مِنْ فَهْمٍ مَدْلُولِهَا، وَتَحْقِيقٍ مَقْصُودِهَا؛ لِيَحْظِيَ الْعَبْدُ بِهَذَا الْمَوْعُودِ الْكَرِيمِ، وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ.

وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ، إِذَا حَقَّقَهُمَا الْعَبْدُ عِلْمًا وَعَمَلًا تَسَلَّى عَنْ مُصِيبَتِهِ، وَنَالَ عَظِيمَ الثَّوَابِ، وَجَمِيلَ الْمَأَبِ:

أَمَّا الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ أَنْ يَتَحَقَّقَ الْعَبْدُ أَنَّ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ وَوَلَدَهُ مِلْكٌ لِلَّهِ ﷻ، فَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَيَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِمَا شَاءَ، وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا يَرِيدُ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ؛ وَهَذَا مُسْتَفَادٌّ مِنْ قَوْلِهِ: (إِنَّا لِلَّهِ)؛ أَي: نَحْنُ مَمَالِكُ لَهْ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ، هُوَ رَبُّنَا وَنَحْنُ عِبِيدُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ وَاقِعٌ عَلَيْنَا فَبِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ مُصِيرَهُ وَمَرْجِعَهُ إِلَى اللَّهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ [العلق: ٨]، فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُخَلَّفَ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَيَأْتِيَ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا كَمَا خَلَقَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، بَلَا أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَشِيرَةٍ، وَإِنَّمَا يَأْتِيهِ بِالْحَسَنَاتِ

والسيئات، وهذا مستفادٌ مِنْ قوله: (وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، وهو إقرارٌ من العبدِ بأنَّه راجعٌ إلى الله، وأنَّه سبحانه سُبْحَانِهِ عَلَى مَا قَدَّمَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَعِنْدَئِذٍ يَتَّجِهْ إِلَى شَعْلِ نَفْسِهِ بِمَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ لِقَاءِ اللَّهِ، فَإِذَا قَالَهَا الْمَصَابُ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ مُسْتَحْضِرًا لِمَعْنَاهَا، مُحَقِّقًا لِمَدْلُوحِهَا وَمُقْتَضَاهَا، هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

روى أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ»، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْعَابِدِ، قَالَ: «قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ لِرَجُلٍ: كَمْ أَتَتْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: فَأَنْتَ مِنْ سِتِّينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ تُوشِكُ أَنْ تَبْلُغَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قَالَ لَهُ الْفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا تَقُولُ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: قُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قَالَ الْفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا تَفْسِيرُهُ؟ قَالَ الرَّجُلُ: فَسَّرَهُ لَنَا يَا أَبَا عَلِيٍّ، قَالَ: قَوْلُكَ: إِنَّا لِلَّهِ، تَقُولُ: أَنَا لِلَّهِ عَبْدٌ، وَأَنَا إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَلْيَعْلَمْ بِأَنَّهُ مَوْقُوفٌ، وَمَنْ عَلِمَ بِأَنَّهُ مَوْقُوفٌ، فَلْيَعْلَمْ بِأَنَّهُ مَسْئُولٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ، فَلْيُعِدَّ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ: يَسِيرَةُ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: تُحَسِّنُ فِيمَا بَقِيَ، يُغْفِرُ لَكَ مَا مَضَى؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ أُخِذْتَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِيَ»^(١).

وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ اهْتِمَامِ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ بِمَعَانِي الْأَذْكَارِ، وَمَعْرِفَةِ دَلَالَاتِهَا، وَتَحْقِيقِ مَقَاصِدِهَا وَغَايَاتِهَا، وَتَأْكِيدِهِمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ؛ لِيَتَحَقَّقَ لِلْعَبْدِ ثِمَارُهَا، وَتُظْهَرَ فِيهِ آثَارُهَا، وَتَتَوَافَرَ لَهُ خَيْرَاتُهَا وَبَرَكَاتُهَا.



(١) «حِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ» (٨/١١٣).

مَا يَقُولُهُ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ

الكلام هنا سيكون - بإذن الله - عن الدعاء الذي يستحب للمسلم أن يدعوه به إذا كان عليه دين؛ روى الترمذي في «جامعه»، عن علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَنَّ مُكَاتَّبًا جَاءَهُ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَجَزْتُ عَنْ كِتَابَتِي، فَأَعْنِي؟ قَالَ: أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمْنِيهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ ثَبِيرٍ دَيْنًا، أَدَّاهُ اللَّهُ عَنْكَ؟ قَالَ: قُلْ: (اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ)»^(١).

فهذا دعاء عظيم يقوله من عليه دين وهو عاجز عن أدائه، فإذا قاله واعتنى به، أدَّاه الله عنه مهما كان حجم الدين، ولو كان مثل الجبل، كما مرَّ في الحديث؛ لأنَّ التيسير بيد الله، وخزائنه سبحانه ملاءى، لا يغيضها نفقة، فمن التَّجَأَ إليه كفاه، ومن طلب العون منه أعانه وهده.

وهذا المُكَاتَّبُ جاء إلى علي عليه السلام يشكو عجزه وعدم قدرته على أداء ما تحمَّله من مالٍ لسيِّده ليُعْتِقَهُ، فأرشدَه عليه السلام إلى هذا الدعاء العظيم الذي سمعه من رسول الله ﷺ، وبيَّن له عِظَمَ فائِدَتِهِ، وكَبَرَ عَائِدَتِهِ على قائله، وأنَّ الله يقضي عنه دينه مهما كثر، قال: «أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمْنِيهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ ثَبِيرٍ دَيْنًا، أَدَّاهُ اللَّهُ عَنْكَ»، وهذا فيه تشويق عظيم وترغيب للسامع، وحثٌّ على المواظبة على هذا الدعاء المبارك؛ ليتخلَّص العبد من الدين الذي تحمَّله، ومن همَّه الذي كدَّرَ باله وأشغله.

وقوله: (اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ)؛ يقال: كَفَّاهُ الشَّيْءُ كفايةً؛

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/١٥٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٦٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٨٢٠).

أي: استَغْنَى به عن غيره، فهو يسأل الله أَنْ يجعلَهُ مكتفياً بالحلال، مستغنياً به عن الحرام.

وقوله: (وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ)؛ أي: واجعلْ فضلك - وهو ما تَمُنُّ به عليّ من نعمةٍ وخيرٍ ورزقٍ - مغنياً لي عَمَّنْ سِوَاكَ، فلا أَفْتَقِرُ إلى غيرك، ولا أَلْتَجِئُ إلى أحدٍ سِوَاكَ.

وهذا فيه أَنَّ العبدَ ينبغي أَنْ يكونَ مُفَوَّضاً أمرَهُ إلى الله، معتمداً عليه وَخَدَهُ، مستغنياً به سبحانه، متوكِّلاً في جميعِ أمورِهِ عليه، وكفى به سبحانه وكياًلاً.

ولا بدَّ مع الدعاءِ مِنْ بذلِ السَّبَبِ، والسَّعْيِ الجادِّ لسدادِ الدَّيْنِ، والعزمِ الصادقِ على الوفاءِ به، والمبادرةِ إلى ذلكِ في أقربِ وقتٍ يَتَهَيَّأُ فيه السَّدَادُ، والحذرِ الشَّدِيدِ مِنَ الْمُطَاظَلَةِ والتَّسْوِيفِ؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَحَرِيٌّ بِهِ أَنْ لَا يُعَانَ، أَمَّا مَنْ حَمَلَ فِي قَلْبِهِ هَمَّ الدَّيْنِ، وَكَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ صَادِقَةٌ فِي أَدَائِهِ، أَعَانَهُ اللهُ، وَأَدَّى عَنْهُ دَيْنَهُ.

روى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ) ^(١).

وروى الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ) ^(٢).

وروى النسائي، عن ميمونة رضي الله عنها، عن النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَا مِنْ أَحَدٍ يَدَّانُ دَيْناً، فَعَلِمَ اللهُ أَنَّهُ يُرِيدُ قَضَاءَهُ إِلَّا أَدَاهُ اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا) ^(٣).

فإِنْ صَدَقَ الْعَبْدُ فِي عَزْمِهِ وَصَلَحَتْ نِيَّتُهُ، تَيَسَّرَتْ أُمُورُهُ، وَأَتَاهُ اللهُ بِالْيُسْرِ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٣٨٧).

(٢) «المسند» (٧٢/٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٨٠١).

(٣) «سنن النسائي» (٣١٥/٧)، ورواه ابن ماجه رقم (٢٤٠٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٧٧).

وَالْفَرَجُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ صَحَّ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللَّهِ، تَكَفَّلَ اللَّهُ بِعَوْنِهِ، وَسَدَّدَ أَمْرَهُ، وَفَضَّى دَيْنَهُ.

روى البخاري في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: (أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: اثْنَيْنِ بِالشُّهْدَاءِ أَشْهَدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأَثْنَيْنِ بِالْكَفِيلِ، فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ عَلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَلُهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ رَجَعَ مَوْضِعَهَا [أَي: سَوَى مَوْضِعِ النَّقْرِ وَأَصْلَحَهُ]، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، فَرَضِي بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِي بِكَ، وَإِنِّي جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا [أَي: قَطَعَهَا بِالْمِنْشَارِ]، وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِأَتِيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتُ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أَخْبَرْتُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتُ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا^(١).

فهذه قصّةٌ عجيبةٌ ذكّرها رسولُ الله ﷺ عن هذا الرجل من بني إسرائيل؛ لِنَعِظَ بِهَا وَنَعْتَبِرَ، وَلِنَعْلَمَ كِمَالَ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَتِمَامَ عَوْنِهِ، وَحُسْنَ كِفَايَتِهِ لِعَبْدِهِ، إِذَا أَحْسَنَ الِاتِّجَاءَ إِلَيْهِ، وَصَدَّقَ فِي الْاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَتَأَمَّلْ كِمَالَ التَّوْفِيقِ حَيْثُ لَمْ تَقْعُ

هذه الخَشْبَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْمَالِ إِلَّا فِي يَدِ صَاحِبِهِ؛ فَتَبَارَكَ اللَّهُ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ.

وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَهِينَ بِأَمْرِ الدِّينِ، أَوْ يُقَلِّلَ مِنْ شَأْنِهِ، أَوْ يَتَهَاوَنَ فِي سَدَادِهِ؛ فَقَدْ وَرَدَ فِي السُّنَّةِ أَحَادِيثٌ عَدِيدَةٌ تَفِيدُ خَطُورَةَ ذَلِكَ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِالدِّينِ، وَأَنَّ الْمَيِّتَ مُحْبُوسٌ بِدِينِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ الْأَطُولِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «مَاتَ أَخِي، وَتَرَكَ ثَلَاثِمِائَةَ دِينَارٍ، وَتَرَكَ وَلَدًا صِغَارًا، فَأَرَدْتُ أَنْ أَنْفِقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ أَخَاكَ مُحْبُوسٌ بِدِينِهِ، فَادْهَبْ فَاقْضِ عَنْهُ)، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَقَضَيْتُ عَنْهُ، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ قَضَيْتُ عَنْهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا امْرَأَةٌ تَدَّعِي دِينَارَيْنِ، وَلَيْسَتْ لَهَا بَيِّنَةٌ، قَالَ: (أَعْطِهَا، فَإِنَّهَا صَادِقَةٌ)»^(١).

وَرَوَى أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ مَا كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ)^(٢).

وَلِهَذَا فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُسْلِمِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ أَنْ يُبَادِرَ إِلَى سَدَادِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَهُ الْمَوْتُ، فَتُحْبَسَ نَفْسُهُ بِدِينِهِ، وَيَكُونَ مَرْتَهَنًا بِهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ، فَلْيُحَمِّدِ اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ، وَلْيَتَحَاشَ الْإِسْتِدَانَةَ مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا حَاجَةٌ دَاعِيَةً أَوْ ضَرُورَةً مُلِحَّةً؛ لَيْسَلَمْ مِنْ هَمِّ الدِّينِ، وَلْيَرِيحَ نَفْسَهُ مِنْ عَوَاقِبِهِ، وَلْيَكُونَ فِي أَمْنَةٍ مِنْ مَعَبَّتِهِ.

فَفِي «الْمُسْنَدِ»، مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «(لَا تُخِيفُوا أَنْفُسَكُمْ بَعْدَ أَمْنِهَا)، قَالُوا: وَمَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الدِّينُ)»^(٣).

أَيُّ: لَا تَسَارِعُوا إِلَى الدِّينِ، فَتُخِيفُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ تَوَابِعِهِ وَعَوَاقِبِهِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ وَالْهَدَايَةَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ.

(١) «مسند أحمد» (١٣٦/٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٥٥٠).

(٢) «مسند أحمد» (٤٤٠/٢)، ورواه الترمذي رقم (١٠٧٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٤١٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٨١١).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٦/٤)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٤٢٠).

الاذِّكَارُ الَّتِي تَطْرُدُ الشَّيْطَانَ

لقد وَرَدَ في نصوص الكتابِ والسُّنةِ أذكَارُ مباركةٌ، وأدعيةٌ نافعةٌ، تَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، وتباعدُهُ عن العبدِ المؤمنِ، ويكونُ بمواظبَتِهِ ومحافظةِ عَلَيْهِ في حَصْنِ حَصِينٍ، وَحِرْزِ مَكِينٍ، يقيه - بإذنِ الله - من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فلا يَخْلُصُ إِلَيْهِ، ولا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى إِيْذَائِهِ أوِ إغْوَائِهِ؛ إِذْ لَا سَبِيلَ لِلشَّيْطَانِ عَلَى الْمُوَاطِبِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ، الْمُقْبِلِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا سَبِيلُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَسُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يُضْغُونُ إِلَى إغْوَائِهِ وَوَسَاوِسِهِ وَيُطِيعُونَهُ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الْحَرِيَّ بِالْمُؤْمِنِ أَنْ يُوَاطِبَ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِنْ أَذْكَارٍ وَأَدْعِيَةٍ تَحْمِي الْعَبْدَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَتَقِيهِ مِنْ كَيْدِهِ وَشَرِّهِ.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون]، ويقولُ تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

والاستعاذةُ هي: طلبُ العَوْذِ؛ يقالُ: عُوِذْتُ بِهِ، واستَعَذْتُ بِهِ؛ أَي: لَجَأْتُ إِلَيْهِ، واستَجَرْتُ بِهِ، واعتَصَمْتُ بِهِ، والاستعاذةُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ: سؤالُ اللهِ، وطلبُ منه سبحانه أن يُعِيذَ العبدَ مِنَ الشَّيْطَانِ، ويحميهُ منه، ويقِيَهُ مِنْ شَرِّهِ، وَمَنْ استعاذَ باللهِ أعاده، وَمَنْ اعتَصَمَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وعليه، فَإِنَّ الاستعاذةَ باللهِ تَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، وتُحَصِّنُ العبدَ.

روى مسلم في «صحيحه»، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعَنَاهُ يَقُولُ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلْعَنَكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ) ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ

يَذَكُّ؟ قَالَ: (إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشَهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِ، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنَكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللَّهِ لَوْ لَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ، لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وَلَدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ)»^(١).

وروى أيضًا عن عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه: «أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَانْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا)، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي»^(٢).

وقوله: (يَلْبِسُهَا عَلَيَّ)؛ أي: يَخْلِطُهَا عَلَيَّ، وَيُشَكِّكُنِي فِيهَا.

وفي «الصحيحين»، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلِيَّتِهِ)»^(٣).

فهذه النصوص ظاهرة الدلالة على عِظَمِ شَأْنِ الاستعاذة، وأنها تطرُدُ الشيطانَ، وتَقِي العبدَ منه، ويسلمُ بها مِنْ كَيْدِهِ وَوَسْوَاسِهِ وَشَرِّهِ.

* وَمِمَّا يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ: الْأَذَانُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَهُ وَلَّى وَأَدْبَرَ؛ ففِي «الصحيحين»، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأَذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ النَّدَاءُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا نُوبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّوْبُّ أَقْبَلَ)»^(٤).

وفي «صحيح مسلم»، عن سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، قال: «أَرْسَلَنِي أَبِي إِلَى بَنِي حَارِثَةَ، قَالَ: وَمَعِيَ غُلَامٌ لَنَا أَوْ صَاحِبٌ لَنَا، فَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ حَائِطٍ بِاسْمِهِ،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٥٤٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٠٣).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٧٦)، و«صحيح مسلم» رقم (١٣٤).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٥٩١).

قَالَ: وَأَشْرَفَ الَّذِي مَعِيَ عَلَى الْحَائِطِ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي، فَقَالَ: لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَى هَذَا، لَمْ أُرْسِلْكَ، وَلَكِنْ إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا، فَنَادِ بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ، وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ) ^(١).

و(الحُصَاصُ)؛ أي: الضُّرَاطُ، وقيل: شدة العدو.

* وَمِمَّا يَبْقَى الْعَبْدُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَيَطْرُدُهُ عَنْهُ: مُوَظِنَتُهُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ؛ عِنْدَ الدُّخُولِ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ، وَعِنْدَ الرُّكُوبِ، وَعِنْدَ النَّوْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ويقول: ﴿وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وفي «المسند»، و«جامع الترمذي»، بإسناد صحيح، عن الحارث الأشعري، عن النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَى عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فِيمَا أَنْ تَأْمُرُهُمْ، وَإِمَّا أَنْ أَمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ يُخَسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَامْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، وَقَعَدُوا عَلَى الشَّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ... فَذَكَرَ أَمْرُهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالصَّدَقَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْكَلِمَةَ الْخَامِسَةَ، فَقَالَ: (وَأَمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يَحْرُزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ...) ^(٢).

(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٧).

وفي «الصحيحين»، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (إِذَا اسْتَجَنَحَ اللَّيْلُ، أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ، فَكُفُّوا صَبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ، فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ تَعَرَّضُ عَلَيْهِ شَيْئًا) ^(١).

فالمسلم إذا كان ذاكرًا ربّه في كلِّ أحيائه، فإنه يسلم من أذى الشيطان، ومن أن يحضره، فلا يخلص إليه لا وسوسة ولا حضورًا للمكان الذي هو فيه؛ كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ^(٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿[المؤمنون].

وقد سبق أن مرّ معنا أنواع من الأذكار من قالها حفظ من الشيطان؛ كالتسمية عند دخول المنزل، وعند تناول الطعام، وكقراءة آية الكرسي عندما يأوي المسلم إلى فراشه، فإذا قرأها لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، ومن قال إذا أصبح: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، عَشْرَ مَرَّاتٍ، كان في جرّ من الشيطان حتى يمسي، ومن قالها إذا أمسى، كان في جرّ من الشيطان حتى يصبح، ومن قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة، كفّته؛ أي: من كل شر، ومن ذلك شر الشيطان، وإذا قال المسلم عند خروجه من منزله: (بِاسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، تَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ)، إلى غير ذلك من الأذكار المباركة الماثورة في سنة النبي الكريم، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.



(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٨٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٠١٢). (استجَنَحَ اللَّيْلُ؛ أي: أقبل، (جُنْحُ اللَّيْلِ؛ أي: ظلامه.

مَا يُرْقَى بِهِ الْمَرِيضُ

لقد جاء في السُّنَّةِ المطهَّرة أنواعٌ مِنَ الأذكارِ والأدعيةِ يُشْرَعُ أَنْ يُرْقَى بِهَا المريضُ، وقد جعلها اللهُ سبباً للشفاءِ والعافية، وسأتناولُ طائفةً مباركةً مِنْ هذه الأذكارِ والأدعيةِ. وإنَّ أعظمَ ما يُرْقَى بِهِ المريضُ: فاتحةُ الكتابِ أم القرآن؛ فإنَّها كافيةٌ شافيةٌ؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أَنَّ رَهْطًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفَرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَصَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلَدَغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ قَدْ نَزَلُوا بِكُمْ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لِدَغَ، فَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ وَاللَّهِ، إِنِّي لَرَاقٍ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَاِنْطَلَقَ، فَجَعَلَ يَتَفَلُّ وَيَقْرَأُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، حَتَّى لَكَّأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَاِنْطَلَقَ يَمْشِي مَا بِهِ قَلْبَةٌ [أَي: أَلَمَ وَعَلَّةٌ]، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَظَرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: (وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهُمٍ)»^(١).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٧٤٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٢٠١).

فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَأَنَّ لَهَا تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي شِفَاءِ الْمَرِيضِ، وَزَوَالِ عِلَّتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي التَّعْلِيقِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ: «فَقَدْ أَثَّرَ هَذَا الدَّوَاءُ فِي هَذَا الدَّاءِ وَأَزَالَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ أَسْهَلُ دَوَاءٍ وَأَيْسَرُهُ، وَلَوْ أَحْسَنَ الْعَبْدُ التَّدَاوِيَّ بِالْفَاتِحَةِ، لَرَأَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي الشِّفَاءِ، وَمَكَثَتْ بِمَكَّةَ مَدَّةً يَعْتَرِينِي أَدْوَاءٌ وَلَا أَجِدُ طَبِيبًا وَلَا دَوَاءً، فَكُنْتُ أَعَالِجُ نَفْسِي بِالْفَاتِحَةِ، فَأَرَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا، فَكُنْتُ أَصِفُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشْتَكِي أَلَمًا، فَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْرَأُ سَرِيعًا» (١) اهـ.

وَمِمَّا يُرْفَى بِهِ الْمَرِيضُ: الْمُعَوِّذَاتُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى، يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ، كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا» (٢).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرَضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ، نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ» (٣).

وَقَوْلُهَا: «بِالْمُعَوِّذَاتِ»؛ أَيُ: الْإِخْلَاصِ، وَالْفَلَقِ، وَالنَّاسِ، وَدَخَلَتْ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ مَعَهُمَا تَغْلِييًا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ صِفَةِ الرَّبِّ، وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ فِيهَا بِلَفْظِ التَّعْوِذِ (٤).

وَقَدْ دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ السُّورِ الثَّلَاثِ، وَأَنَّهَا رُقِيَّةٌ وَشِفَاءٌ لِلْوَجَعِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي شَأْنِ هَذِهِ السُّورِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى عِظَمِ شَأْنِهَا، وَسُورَتَا الْمُعَوِّذَتَيْنِ لُهُمَا تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَرَضُ نَاشِئًا عَنْ سِحْرِ أَوْ عَيْنٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَقْدَمَةِ تَفْسِيرِهِ لِلْمُعَوِّذَتَيْنِ: «وَالْمَقْصُودُ: الْكَلَامُ

(١) «الجواب الكافي» (ص ٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٥٢٢).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢١٩٢).

(٤) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/٦٢).

على هاتين السورتين، وبيانُ عظيمِ منفعتهما، وشدةِ الحاجةِ بل الضرورةِ إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحدٌ قطُّ، وأنَّ لهما تأثيرًا خاصًا في دفعِ السَّحَرِ والعَيْنِ وسائرِ الشُّرُورِ، وأنَّ حاجةَ العبدِ إلى الاستعاذةِ بهاتين السورتين أعظمُ مِنْ حاجتهِ إلى النَّفْسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ^(١)، ثُمَّ بَسَطَ الْكَلَامَ عليهما بسطًا عظيمَ النفعِ والفائدةِ.

ومِمَّا يُرْقَى بِهِ الْمَرِيضُ مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا فِي جَسَدِهِ مِنْذُ أُسْلِمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ)^(٢).

وقوله: (مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ)؛ أَي: مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ مِنْ وَجَعٍ وَأَلَمٍ، وَمِنْ شَرِّ مَا أَحَاذِرُ مِنْ ذَلِكَ؛ أَي: مَا أَخَافُ وَأُحْذِرُ.

وهذا فيه التَّعَوُّذُ مِنَ الْوَجَعِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَالتَّعَوُّذُ مِنَ الْوَجَعِ الَّذِي يَخَافُ حَصُولَهُ، أَوْ يَتَوَقَّعُ حَصُولَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَفَاقُمُ الْمَرَضِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَتَزَايُدُهُ، وَهَذَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ كَثِيرًا عِنْدَمَا يَصَابُ بِمَرَضٍ، فَإِنَّهُ قَدْ يَنْتَابُهُ شَيْءٌ مِنَ الْقَلْقِ تَخَوُّفًا مِنْ تَزَايُدِ الْمَرَضِ وَتَفَاقُمِهِ؛ وَفِي هَذَا الدَّعَاءِ الْعَظِيمِ تَعَوُّذٌ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وُثِبَتْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اسْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)^(٣).

وُثِبَتْ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ

(١) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (١٩٩/٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٠٢).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢١٨٦).

أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، وَيَقُولُ: (اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهِبِ الْبَاسَ، وَاشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا) ^(١)، وفي روايةٍ عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ... وَذَكَرَتِ الدُّعَاءَ» ^(٢)، وفي روايةٍ قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَرْقِي بِهِذِهِ الرُّقِيَّةَ... وَذَكَرَتْهُ» ^(٣).

وفي «صحيح البخاري»، عن عبد العزيز بن صهيب، قال: «دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، اشْتَكَيْتُ، فَقَالَ أَنَسٌ: أَلَا أَرَاكَ بِرُقِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: (اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبِ الْبَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا)» ^(٤).

قوله: (اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ)، فيه التوسُّلُ إلى الله برُبوبِيَّتِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ بِخَلْقِهِمْ، وَتَدْبِيرِ شُؤْنِهِمْ، وَتَصْرِيفِ أُمُورِهِمْ، فَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ، وَالصَّحَّةُ وَالسَّقَمُ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرُ، وَالْقُوَّةُ وَالضَّعْفُ.

وقوله: (أَذْهِبِ الْبَاسَ)، وَالْبَاسُ هُوَ: التَّعَبُ وَالشَّدَّةُ وَالْمَرَضُ، وَهُوَ هُنَا بغيرِ هَمْزَةٍ مَرَاعَاةً لِلْإِزْدَوَاجِ وَالْمُؤَاخَاةِ.

وجاء في حديث أنس: (اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبِ الْبَاسِ)، وفي هذا التوسُّلُ إلى الله سبحانه بأنه وحده المٌذْهِبُ للْبَاسِ، فلا ذهابَ للْبَاسِ عن العبدِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ سبحانه.

وقوله: (وَاشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي)، فيه سؤالُ الله الشِّفَاءَ، وهو العافيةُ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الْمَرَضِ، وقوله: (وَأَنْتَ الشَّافِي): توسُّلٌ إلى الله سبحانه بأنه

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٣٠).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢١٩١).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢١٩١).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٥٧٤٢).

الشافى الذى بىده الشفاء؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٨٠].

وقوله: (لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ)، فىه تأكيدٌ لِمَا سَبَقَ، وإقرارٌ بأنَّ العلاج والتداوى إنْ لَمْ يوافقْ إِذْنًا مِنْ اللَّهِ بِالْعَافِيَةِ وَالشِّفَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يُجْدِي.

وقوله: (شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا)؛ أَي: لَا يَتْرُكُ مَرَضًا وَلَا يَخْلِفُ عِلَّةً، والفائدةُ مِنْ هَذَا أَنَّ الشِّفَاءَ مِنَ الْمَرَضِ قَدْ يَحْصُلُ، وَلَكِنْ قَدْ يَخْلُفُهُ مَرَضٌ آخَرُ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ وَيَنْشَأُ بِسَبَبِهِ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ شِفَاؤُهُ مِنَ الْمَرَضِ شِفَاءً تَامًا لَا يَبْقَى مَعَهُ أَثَرٌ، وَلَا يَخْلِفُ فِي الْمَرِيضِ أَيْ عِلَّةً، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ الدَّعَوَاتِ النَّبَوِيَّةِ وَكَمَالِهَا وَوَفَائِهَا.



التَّعَوُّذُ مِنَ السَّحْرِ وَالْعَيْنِ وَالْحَسَدِ

إِنَّ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْفَتَّاكَةِ، وَالشَّرِّ الْعَظِيمِ: مَا يَكُونُ فِي الْإِنْسَانِ مِنْ مَرَضٍ بِسَبَبِ السَّحْرِ أَوْ الْعَيْنِ أَوْ الْحَسَدِ. وَالسَّحَرُ لَهُ تَأْثِيرٌ بِالْعُ فِي الْمَسْحُورِ؛ فَقَدْ يُمْرِضُ وَقَدْ يَقْتُلُ، وَهَكَذَا الشَّأْنُ فِي عَيْنِ الْحَاسِدِ إِذَا تَكَيَّفَتْ نَفْسُهُ بِالْخُبْثِ، وَاسْتَجْمَعَ فِي قَلْبِهِ الشَّرُّ؛ فَإِنَّهُ يَضُرُّ بِالْمَحْسُودِ، فَرَبَّمَا أَمْرَضَهُ، وَرَبَّمَا قَتَلَهُ، فَالسَّحَرُ لَهُ حَقِيقَةٌ وَتَأْثِيرٌ، وَالْحَسَدُ لَهُ حَقِيقَةٌ وَتَأْثِيرٌ.

وإِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ أَنْ هَيَّأَ لَهُ أَسْبَابًا مَبَارَكَةً، وَأُمُورًا نَافِعَةً، يَنْدَفِعُ بِهَا عَنْهُ شَرُّ هَؤُلَاءِ، وَيَزُولُ بِهَا عَنْهُ ضُرُّهُمْ وَالْبَلَاءُ النَّازِلُ بِهِ بِسَبَبِهِمْ. وَقَدْ أَجْمَلَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي عَشْرَةِ أَسْبَابٍ عَظِيمَةٍ، إِذَا قَامَ بِهَا الْعَبْدُ وَطَبَّقَهَا، زَالَ عَنْهُ شَرُّ الْحَاسِدِ وَالْعَائِنِ وَالسَّاحِرِ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ، وَالتَّحَصُّنُ بِهِ، وَاللَّجَأُ إِلَيْهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لِمَنْ اسْتَعَاذَ بِهِ، عَلِيمٌ بِمَا يَسْتَعِيدُ مِنْهُ، قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَعَاذُ بِهِ، لَا يُسْتَعَاذُ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يُلْجَأُ إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُ، بَلْ هُوَ الَّذِي يَعِيدُ الْمُسْتَعِيزِينَ، وَيَعْصِمُهُمْ، وَيَحْمِيهِمْ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذُوا مِنْ شَرِّهِ.

وَحَقِيقَةُ الْاسْتِعَاذَةِ: الْهُرُوبُ مِنْ شَيْءٍ تَخَافُهُ، إِلَى مَنْ يَعْصِمُكَ وَيَحْمِيكَ مِنْهُ، وَلَا حَافِظَ لِلْعَبْدِ وَلَا مَعِيدَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ حَسْبُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَكَافِي مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي يُؤْمِنُ خَوْفَ الْخَائِفِ، وَيُجِيرُ الْمُسْتَجِيرَ، وَهُوَ نَعَمَ الْمَوْلَى، وَنَعَمَ النَّصِيرُ.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه؛ فمن اتقى الله تولى حفظه، ولم يكله إلى غيره؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك) ^(١)، فمن حفظ الله حفظه الله، ووجدته أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه، فممن يخاف وممن يحذر؟!

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نصّر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، وكلما زاد بغى الحاسد، كان بغيه جنداً وقوة للمبغى عليه، يقاتل بها الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغيه سهم يرميه من نفسه إلى نفسه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، فإذا صبر المحسود، ولم يستطع الأمر، نال حسن العاقبة بإذن الله.

السبب الرابع: التوكل على الله؛ فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، ومن كان الله كافيه، فلا مظمّع فيه لعدو، ولو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه. وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه، لم يقدّر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه، حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا تعلق كل روح منهما بالآخرى، عديم القرار، ودام الشر حتى يهلك أحدهما، فإذا جبد روحه عنه وصانها عن

الفكر فيه والتعلُّق به، وأخذ يشغلُ باله بما هو أنفعُ له، بقي الحاسدُ الباغي يأكلُ بعضه بعضًا؛ فإنَّ الحسدَ كالنار، إذا لم تجدْ ما تأكله أكلَ بعضها بعضًا.

السبب السادس: الإقبالُ على الله، والإخلاصُ له، وجعلُ محبته، ونيلِ رضاه، والإنابةِ إليه في كلِّ خواطرِ نفسه وأمانيتها، تدبُّ فيها ديبَ تلك الخواطرِ شيئًا فشيئًا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محابِّ الرّبِّ والتقربِ إليه، وذكره، والثناءِ عليه؛ قال تعالى عن عدوه إبليسَ أنّه قال: ﴿قَالَ فِعْرَئِكَ لَاغْوِينَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ [ص]، فالمخلصُ بمثابة مَنْ أوى إلى حصنِ حصين، لا خوفَ على مَنْ تحصَّنَ به، ولا ضيعةَ على مَنْ أوى إليه، ولا مظمَعَ للعدوِّ في الدُّنُو منه.

السبب السابع: تجريدُ التوبةِ إلى الله من الذنوبِ التي سلَّطَ عليه أعداءه؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فما سلَّطَ على العبدِ مَنْ يؤذيه إِلَّا بذنبٍ، يَعْلَمُهُ أو لا يَعْلَمُهُ، وما لا يَعْلَمُهُ العبدُ من ذنوبه أضعافُ ما يَعْلَمُهُ منها، وما ينساه مِمَّا عَلِمَهُ وَعَمِلَهُ أضعافُ ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ) (١)، فما يحتاجُ العبدُ إلى الاستغفارِ منه مِمَّا لا يَعْلَمُهُ أضعافُ أضعافٍ ما يَعْلَمُهُ، فما سلَّطَ عليه مُؤْذٍ إِلَّا بذنبٍ، وليس في الوجودِ شرٌّ إِلَّا الذنوبُ ومُوجِبَاتُهَا، فإذا عُوْفِيَ من الذنوبِ عُوْفِيَ من مُوجِبَاتِهَا، فليس للعبدِ إذا بُغِيَ عليه وأُوذِيَ وتسلَّطَ عليه خصومه شيءٌ أنفعَ له من التوبةِ النصوحِ من الذنوبِ التي كانت سببًا لتسلُّطِ عدوه عليه.

السبب الثامن: الصدقةُ والإحسانُ ما أمكنه؛ فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفعِ البلاء، ودفعِ العينِ وشرِّ الحاسدِ، فما يكادُ العينُ والحسدُ والأذى يتسلَّطَ على مُحْسِنٍ مُتَصَدِّقٍ، وإنَّ أصابَهُ شيءٌ من ذلك، كان مُعَامَلًا فيه باللُّطْفِ

والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة، والصدقة والإحسان مِنْ شُكْرِ النعمة، والشُّكْرُ حارسُ النِّعمة مِنْ كُلِّ ما يكونُ سببًا لزوالها.

السبب التاسع: أن يطفى نارَ الحاسدِ والباغي والمؤذي بالإحسانِ إليه، فكلما ازدادَ أذىً وشرًّا وبغيًا وحسدًا، ازدادتْ إليه إحسانًا، وله نصيحةٌ، وعليه شفقةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فُضِّلَتْ]، وتأمل في ذلك حالَ النَّبِيِّ ﷺ الذي حَكَى عنه نبينا ﷺ أنه ضَرَبَهُ قَوْمُهُ حَتَّى أَدَمَوْهُ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، ويقول: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)^(١).

السبب العاشر: تجريدُ التوحيدِ، والترحُّلُ بالفكرِ في الأسبابِ إلى المسبِّبِ العزيزِ الحكيمِ، والعلمُ بأنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النَّبِيُّ ﷺ لعبد الله بن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ)^(٢)؛ فإذا جَرَدَ العبدُ التوحيدَ، فقد خَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ خَوْفٌ ما سِوَاهُ، وَكَانَ عَدُوُّهُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخَافَهُ مَعَ اللَّهِ، بَلْ يُفِرُّدُ اللَّهَ بِالْمَخَافَةِ، وَيَرَى أَنَّ إِعْمَالَهُ فِكْرَهُ فِي أَمْرِ عَدُوِّهِ، وَخَوْفَهُ مِنْهُ، وَاشْتَغَالَهُ بِهِ مِنْ نَقْصِ تَوْحِيدِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ جَرَدَ تَوْحِيدَهُ، لَكَانَ لَهُ فِيهِ شُغْلٌ شَاغِلٌ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى حِفْظَهُ وَالِدَفْعَ عَنْهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا، فَاللَّهُ يَدْفَعُ عَنْهُ وَلَا بُدَّ، وَبِحَسَبِ إِيْمَانِهِ يَكُونُ دِفَاعُ اللَّهِ عَنْهُ، فَإِنْ كَمَلَ إِيْمَانُهُ كَانَ دِفَاعُ اللَّهِ عَنْهُ أَتَمَّ دَفْعًا، وَإِنْ مَزَجَ مَزَجَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ مَرَّةً وَمَرَّةً فَاللَّهُ لَهُ مَرَّةً وَمَرَّةً، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ بِكُلِّيَّتِهِ

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٧٧)، ومسلم رقم (١٧٩٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٦١).

أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ جُمْلَةً، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ بِكُلِّيَّتِهِ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ جُمْلَةً، وَمَنْ كَانَ مَرَّةً وَمَرَّةً فَاللَّهُ لَهُ مَرَّةً وَمَرَّةً.

❦ فالتوحيدُ حصْنُ الله الأعظم الذي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ؛ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مَنْ خَافَ اللَّهَ، خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ، أَخَافَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

فهذه عَشْرَةُ أسبابٍ عظيمةٍ يندفعُ بها شَرُّ الحاسِدِ، والعائِنِ، والسَّاحِرِ^(١)، ونَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يَقِينَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنَ الشُّرُورِ كُلِّهَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



(١) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/٢٣٨ - ٢٤٦).

مَا يُقَالُ لِلْمَرِيضِ

لقد جاء الإسلام بالحث على مراعاة حق المريض وتعاهده بالزيارة، والدعاء له بالشفاء والعافية، وبيان أنواع من الأدعية يحسن أن تُقال عند زيارة المريض، وكلُّ هذه الرعاية والتعاهد والدعاء ينطلق من كون المؤمنين حالهم كالنفس الواحدة، فما يُفرح الواحد منهم يُفرح الجميع؛ وما يُؤلم الواحد يُؤلم الجميع؛ ففي «الصحيحين»، عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى)^(١)، وفي رواية لمسلم: (الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ؛ إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ)^(٢).

ولهذا شُرِعت عيادة المَرَضَى لمواساتهم، وتهوين الأمر عليهم، وجعل ذلك حقاً من حقوقهم؛ ففي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَأَنْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ)^(٣)، وجاء في نصوص كثيرة بيان فضل مَنْ يَزُورُ الْمَرَضَى وَعَظَمَ ثَوَابِهِ عِنْدَ اللَّهِ.

روى مسلم في «صحيحه»، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (عَائِدُ الْمَرِيضِ فِي مَخْرَفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ)، وفي رواية قال:

(١)(٢) تقدم تخريجه (ص ٤٣٢).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢١٦٢).

(مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ)، قيل: يا رسول الله، وما خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قال: (جَنَاهَا)^(١)؛ أي: إنه في بساتينِ الْجَنَّةِ يَخْتَرِفُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، وَيَجْتَنِي مِنْهَا مَا يَرِيدُ.

وروى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا)^(٢)، والأحاديثُ في هذا الباب كثيرةٌ. وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ إِذَا عَادَ مَرِيضًا أَنْ يُطْمِئِنَّهُ، وَيُهَوِّنَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرَهُ بِثَوَابِ اللَّهِ، وَأَنْ فِي الْمَرَضِ تَكْفِيرًا لَهُ وَتَطْهِيرًا.

ففي «صحيح البخاري»، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أَغْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ، قَالَ: (لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، قَالَ: قُلْتُ: طَهُورٌ! كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُور - أَوْ تَثُور - عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ الْقُبُورَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (فَنَعَمْ إِذَا)^(٣). وقوله: (طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، هو خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ؛ أي: هو طهورٌ لك مِنْ ذُنُوبِكَ؛ أي: مُطَهَّرٌ لك مِنْهَا.

وفي «السنن» للإمام أبي داود، عن أم العلاء رضي الله عنها، قالت: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضةٌ، فقال: (أُبَشِّرِي يَا أُمَ الْعَلَاءِ؛ فَإِنَّ مَرَضَ الْمُسْلِمِ يَذْهَبُ اللَّهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تَذْهَبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)^(٤).

وفي «صحيح مسلم»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِ السَّائِبِ أَوْ أُمِ الْمُسَيَّبِ رضي الله عنها، فَقَالَ: (مَا لِكَ يَا أُمَ السَّائِبِ أَوْ أُمِ الْمُسَيَّبِ تُزْفِرِينَ؟)؛ أي: تَرَعْدِينَ، قالت: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا، فَقَالَ:

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٦٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣٤٤/٢)، و«جامع الترمذي» رقم (١٩٣١) واللفظ له، ورواه ابن ماجه رقم (١٤٤٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٤٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٦٥٦).

(٤) «سنن أبي داود» رقم (٢٦٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٤٣٨).

(لَا تَسْبِي الْحُمَى؛ فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ)^(١).

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، عن سَعِيدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: «كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ - وَعَادَ مَرِيضًا فِي كِنْدَةَ - فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ: أَبْشِرْ؛ فَإِنَّ مَرَضَ الْمُؤْمِنِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لَهُ كَفَّارَةً وَمُسْتَعْتَبًا، وَإِنَّ مَرَضَ الْفَاجِرِ كَالْبَعِيرِ عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ، فَلَا يَدْرِي لِمَ عَقِلَ وَلِمَ أُرْسِلَ»^(٢).

فَبَشَّرَهُ، وَذَكَرَهُ أَنَّ الْمَصَائِبَ الَّتِي تُصِيبُ الْمُؤْمِنَ فِي بَدَنِهِ كُلُّهَا كَفَارَاتٌ لَخَطَايَاهُ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذَى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)^(٣).

وقوله: «وَمُسْتَعْتَبًا»؛ أَي: إِنَّهُ فِي مَرَضِهِ يَنْتَهِيأُ لَهُ مِنْ اسْتِذْكَارِ ذُنُوبِهِ، وَمَعْرِفَةِ خَطِيئِهِ وَتَقْصِيرِهِ مَا لَا يَنْتَهِيأُ لَهُ حَالَ صِحَّتِهِ وَعَافِيَتِهِ؛ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ مَرَضُهُ سَبَبًا لِمَعَاتِبَةِ نَفْسِهِ عَلَى التَّقْصِيرِ، وَدَافِعًا لِلرَّجُوعِ عَنِ الْإِسَاءَةِ، وَطَلَبِ الرِّضَا، هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُؤْمِنِ، أَمَّا الْفَاجِرُ فَشَأْنُهُ عِنْدَمَا يَمْرُضُ كَشَأْنِ الْبَعِيرِ الَّذِي قَيَّدَهُ أَهْلُهُ بِالْعِقَالِ، ثُمَّ أَطْلَقُوهُ، فَهُوَ لَا يَدْرِي لِمَ قُيِّدَ وَلِمَ أُطْلِقَ، فَهُوَ مُسْتَمِرٌّ فِي غِيهِ، مُتَمَادٍ فِي فُجُورِهِ، لَا يَكُونُ لَهُ فِي مَرَضِهِ عِبْرَةٌ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِهِ عِظَةٌ.

وَيَنْبَغِي عَلَى مَنْ أَرَادَ عِيَادَةَ مَرِيضٍ أَنْ يَتَخَيَّرَ الْوَقْتَ الْمُنَاسِبَ لِعِيَادَتِهِ؛ لِأَنَّ مَقْصُودَ الْعِيَادَةِ إِرَاحَةَ الْمَرِيضِ، وَتَطْيِيبُ قَلْبِهِ، لَا إِدْخَالَ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا أَيْضًا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُطِيلَ الْمُكْثَ وَالْجُلُوسَ عِنْدَهُ، إِلَّا إِنْ أَحَبَّ الْمَرِيضُ ذَلِكَ، وَكَانَ فِي الْجُلُوسِ فَائِدَةٌ وَمُصْلَحَةٌ.

وَمِنَ الشُّنَّةِ لِلْعَائِدِ: أَنْ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِ الْمَرِيضِ؛ فَفِي «الأدب المفرد»

(١) - «صحيح مسلم» رقم (٢٥٧٥).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٤٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٣٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٦٤٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٧٣).

للبخاري رحمه الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا عادَ المَريضَ، جَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ سَبْعَ مَرَّاتٍ: (أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ)، فَإِنْ كَانَ فِي أَجَلِهِ تَأْخِيرٌ، عُوفِيَ مِنْ وَجَعِهِ»^(١).

ومن السُّنَّةِ أَنْ يَضَعَ الْعَائِدُ يَدَهُ عَلَى جَسَدِ الْمَرِيضِ عِنْدَمَا يَرِيدُ الدُّعَاءَ لَهُ؛ ففِي «الصَّحِيحِينَ» لَمَّا عَادَ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، ثُمَّ مَسَحَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَبَطْنِهِ، ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا)^(٢)، وَفِي وَضَعِ الْيَدِ عَلَى الْمَرِيضِ تَأْنِيسٌ لَهُ، وَتَعَرُّفٌ عَلَى مَرَضِهِ شِدَّةً وَضَعْفًا، وَتَلَطُّفٌ بِهِ.

ثُمَّ يَنْبَغِي لِلْعَائِدِ أَنْ يُنْصَحَ لِلْمَرِيضِ بِالدُّعَاءِ، وَأَنْ لَا يَقُولَ عِنْدَهُ إِلَّا خَيْرًا؛ ففِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوْ الْمَيِّتَ، فَقُولُوا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ)^(٣).

وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَخَيَّرَ مِنَ الدُّعَاءِ أَجْمَعَهُ، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى الدُّعَوَاتِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّهَا دَعَوَاتٌ مَبَارَكَةٌ جَامِعَةٌ لِلْخَيْرِ، مَعْصُومَةٌ مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ؛ كَأَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ اشْفِ فُلَانًا)، أَوْ يَقُولَ: (طَهُورٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، أَوْ يَقُولَ: (أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ)، أَوْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهَبِ الْبَاسَ، وَاشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا)، وَقَدْ مَضَتْ مَعَنَا الْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ، أَوْ أَنْ يَرْقِيَهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَالْمَعْوِذَاتِ، وَقَدْ مَضَى حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، وَحَدِيثُ عَائِشَةَ رضي الله عنها فِي ذَلِكَ، أَوْ أَنْ يَرْقِيَهُ بِقَوْلِهِ: (بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ

(١) «الأدب المفرد» رقم (٥٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٤١٦)، وانظر: (ص ٤٢٩).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٥٦٥٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٢٨).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٩١٩).

كُلُّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)، وهي الرُقِيَّةُ التي رَقَى بها جبريلُ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا اشْتَكَى، أو أَنْ يَقُولَ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: (بِاسْمِ اللَّهِ، تُرَبُّهُ أَرْضِنَا، بِرَبْقَةٍ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا)»^(١).

وعلى الْمُعَافَى عِنْدَ رُؤْيَا المَرَضَى أَنْ يَتَّعِظَ وَيَعْتَبِرَ، وَأَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةِ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، وَأَنْ يَسْأَلَهُ سُبْحَانَهُ المَعَافَاةَ. ونَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يَشْفِيَ مَرَضَانَا وَمَرَضَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَكْتُبَ لِلْجَمِيعِ الصَّحَّةَ وَالسَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٧٤٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٩٤).

مَا يُقَالُ عِنْدَ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ

سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى جَمَلَةٍ مِنَ الْأَدَابِ الْمَتَعَلِّقَةِ بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَالْأَدْعِيَةِ الَّتِي يَحْسُنُ أَنْ تُقَالَ عِنْدَ عِيَادَتِهِ، وَالْحَدِيثُ هُنَا سَيَكُونُ عَمَّا يُفَعَّلُ وَيُقَالُ عِنْدَ مَنْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَكَذَلِكَ مَا يَقُولُهُ مَنْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ.

وَأَهَمُّ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ الدُّعَاءُ لَهُ، وَأَنْ لَا يَقُولَ فِي حُضُورِهِ إِلَّا خَيْرًا؛ ففِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوْ الْمَيِّتَ، فَقُولُوا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ)^(١).

وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى تَلْقِينِهِ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ لَتَكُونَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَقْنُوا مَوْتَاكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢)، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (مَوْتَاكُمْ)؛ أَيِ: مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ مِنْكُمْ، لَا مَنْ مَاتَ فَعَلًا.

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٣).

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤).

وُثِّبَتْ فِي «الْمُسْنَدِ» لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: (يَا خَالُ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)،

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٧٦).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٩١٦).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٦٨).

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٥٦).

فقال: أَخَالَ أمَ عَمٍّ؟ فقال: (بَلْ خَالَ)، فقال: فَخَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فقال النَّبِيُّ ﷺ: (نَعَمْ) ^(١).

* وَمِنْ لَطِيفِ مَا رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ: قِصَّةُ الْإِمَامِ الْمُحَدِّثِ أَبِي زُرْعَةَ الرَّازِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَمَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَهِيَ قِصَّةٌ ثَابِتَةٌ رَوَاهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمِ الْبَادِي، قَالَ: حَضَرْتُ مَعَ أَبِي حَاتِمٍ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ، عِنْدَ أَبِي زُرْعَةَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الرَّازِيِّ، وَهُوَ فِي النَّزْعِ، فَقُلْتُ لِأَبِي حَاتِمٍ: تَعَالِ حَتَّى نُلْقِنَهُ الشَّهَادَةَ، فَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنْ أَبِي زُرْعَةَ أَنْ أُلْقِنَهُ الشَّهَادَةَ، وَلَكِنْ تَعَالِ حَتَّى نَتَذَكَّرَ الْحَدِيثَ، فَلَعَلَّهُ إِذَا سَمِعَهُ يَقُولُ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ: فَبَدَأْتُ فَقُلْتُ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ النَّبِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، فَأُتِيَ عَلَيَّ الْحَدِيثُ، حَتَّى كَأَنِّي مَا سَمِعْتُهُ وَلَا قَرَأْتُهُ، فَبَدَأَ أَبُو حَاتِمٍ، وَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ النَّبِيلُ، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ، فَأُتِيَ عَلَيْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ مَا قَرَأَهُ وَلَا سَمِعَهُ، فَبَدَأَ أَبُو زُرْعَةَ: (أَيُّ: وَهُوَ فِي النَّزْعِ)، وَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ النَّبِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي عَرِيبٍ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةٍ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَخَرَجَتْ رُوحُهُ مَعَ الْهَاءِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُولَ: (دَخَلَ الْجَنَّةَ) ^(٢).

وَمِنْ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَحْسُنُ بِالْمُحْتَضَرِّ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ بِهَا: سَوَالُهُ سُبْحَانَهُ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ؛ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُسْنِدٌ إِلَيَّ ظَهْرُهُ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَالْحَقْنِي بِالرِّفْقِ الْأَعْلَى) ^(٣).

(١) «مسند أحمد» (٣/١٥٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/٣٠٥): «ورواه رجال الصحيح».

(٢) رواها ابن البنا في «فضل التهليل، وثوابه الجزيل» (ص ٨٠ - ٨١)، وانظر القصة مختصرة برواية عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتابه: «الجرح والتعديل» (١/٣٤٥ - ٣٤٦).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٥٦).

وَمِمَّا يَحْسُنُ أَنْ يُذَكَّرَ بِهِ الْمُحْتَضَرُّ: إِحْسَانُ الظَّنِّ بِرَبِّهِ؛ فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(١).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ «حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ»، عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يُلْقِنُوا الْعَبْدَ مَحَاسِنَ عَمَلِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ؛ لِكَيْ يُحْسِنَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ ﷻ» ^(٢).

وَلَمْ يَثْبُتْ حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَدُلُّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ قِرَاءَةِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْمُحْتَضَرِّ، وَحَدِيثُ: «افْرُؤُوا يَسَ عَلَى مَوْتَاكُمْ» حَدِيثٌ ضَعِيفٌ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ^(٣).

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ أُمُورًا يَنْبَغِي عَلَى الْمُحْتَضَرِّ مَرَاعَاتُهَا وَمُلَاحَظَتُهَا:

* مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ وَيَصْبِرَ عَلَى قَدَرِهِ؛ لِيَنَالَ أَجْرَ الصَّابِرِينَ، وَثَوَابَ الْمُحْتَسِبِينَ؛ فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ، شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) ^(٤).

* وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ تَمَنِّيِ الْمَوْتِ، حَتَّى وَإِنْ اشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ، وَزَادَ عَلَيْهِ الْأَلَمُ؛ لِمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي) ^(٥).

وَفِي «الْمُسْنَدِ» لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ، عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْمُ (٢٨٧٧).

(٢) «حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ» رَقْمُ (٣٠).

(٣) لِنَظَرٍ: «إِرْوَاءُ الْغَلِيلِ» (٣/١٥٠).

(٤) تَقْدِمُ تَخْرِيجِهِ (ص ٦٥١).

(٥) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْمُ (٣٦٥١)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْمُ (٢٦٨٠).

دَخَلَ عَلَيْهِمْ، وَعَبَّاسٌ عُمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَشْتَكِي، فَتَمَنَّى عَبَّاسُ الْمَوْتَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا عَمَّ! لَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا، فَإِنْ تَوَخَّرَ تَزَدَدَ إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِكَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا، فَإِنْ تَوَخَّرَ تَسْتَعْتِبُ مِنْ إِسَاءَتِكَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ)^(١).

* وَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَجْمَعَ لِنَفْسِهِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، رَجَاءِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ عَلَى ذَنْبِهِ؛ فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ بِالْمَوْتِ، فَقَالَ: (كَيْفَ تَجِدُكَ؟) قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَّهُ مِمَّا يَخَافُ)»^(٢).

* وَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَكْتُبَ وَصِيَّتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ حَقُّ، فَلْيُرُدِّهَا إِلَى أَصْحَابِهَا إِنْ أُمِكَتْ ذَلِكَ، وَإِلَّا أَوْصَى بِذَلِكَ، وَالْوَصِيَّةُ وَاجِبَةٌ بِمَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ؛ لَوْلَا تَضَيُّعُ؛ لِمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَا حَقُّ أَمْرِي مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ، وَلَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ، إِلَّا وَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ)^(٣).

وَأَمَّا الْوَصِيَّةُ بِشَيْءٍ مِنْ مَالِهِ بِأَنْ تُصَرَّفَ فِي سُبُلِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ؛ لِيَصِلَ إِلَيْهِ ثَوَابُهَا بَعْدَ مَوْتِهِ، فَهِيَ مُسْتَحَبَّةٌ، وَقَدْ أُذِنَ لَهُ الشَّارِعُ بِالتَّصَرُّفِ عِنْدَ الْمَوْتِ بِثُلْثِ الْمَالِ فَأَقَلَّ.

* وَيُسْتَحَبُّ لَهُ كَذَلِكَ أَنْ يُوصِيَ أَهْلَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى أَمْرِهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَأَنْ يُحَذِّرَهُمْ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْبَدْعِ، وَقَدْ رَوَى

(١) «المسند» (٣٣٩/٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٣٦٨).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٩٠٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤٣٥١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٣).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٢٧٣٨)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٢٧).

سعيد بن منصور في «سننه» وغيره، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كانوا يَكْتُبُونَ في صدورِ وصاياهم: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هذا ما أَوْصَى به فلانُ بنُ فلان، أوصى أَنَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَأَوْصَى مَنْ تَرَكَ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ، وَيُصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَيُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَأَوْصَاهُمْ بِمَا أَوْصَى بِهِ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: ﴿يَبْنَئِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]»^(١).

* وينبغي أن يُوصِيَهُمْ بأن يُجَهِّزَ وَيُدْفَنَ على السُّنَّةِ، وأن يُحَذِّرَهُمْ من البدع، لا سِيَّما إِنْ خَشِيَ وَقُوعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، أو كان للبدع رواجٌ في مجتمعه، وقد أَوْصَى أَبُو مُوسَى رضي الله عنه حينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فقال: «إِذَا انْطَلَقْتُمْ بِجَنَازَتِي، فَأَسْرِعُوا بِي الْمَسِيَّ، وَلَا تُتْبِعُونِي بِمَجْمَرٍ، وَلَا تَجْعَلُنَّ عَلَيَّ لَحْدِي شَيْئًا يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ التُّرابِ، وَلَا تَجْعَلُنَّ عَلَيَّ قَبْرِي بِنَاءً، وَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ حَالِقَةٍ أَوْ سَالِقَةٍ أَوْ خَارِقَةٍ، قالوا: سَمِعْتَ فِيهِ شَيْئًا؟ قال: نَعَمْ، مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ رواه أحمد^(٢).

نسأل الله لنا جميعاً حُسْنَ الْخِتَامِ، وَالْوَفَاةَ عَلَى الْإِيمَانِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.



(١) «سنن سعيد بن منصور» (ص ١٢٦).

(٢) «مسند أحمد» (٣٩٧/٤)، وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ١٨). والحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة والسالقة التي ترفع صوتها، والخارقة التي تقطع ثوبها.

مَا يُقَالُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ

لقد وردَ في السنَّةِ أحاديثٌ عديدةٌ تتعلَّقُ بما يُقالُ في الصلاةِ على الجنازةِ، وفيما يلي بيانُها:

* ثبت في «صحيح مسلم»، عن عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قال: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ، وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ، وَاعْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَأَعِزَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ)، قَالَ: حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْمَيِّتَ»^(١).

وهو دعاء عظيمٌ جامعٌ، مُحِضٌ فيه الدعاءُ للمَيِّتِ بالعفوِ والغفرانِ، والسلامَةِ والنِجاةِ، والإكرامِ والإحسانِ، يُؤْتَى به في هذا الموضعِ العظيمِ عندَ الصلاةِ عليه، وهو موضعٌ يُسْتَحَبُّ فيه المبالغةُ في الترحُّمِ على المَيِّتِ والدعاءِ له؛ لأنَّه قد أُتِيَ به إلى إخوانِهِ المسلمين لِيَدْعُوا لَهُ، وَلِيَسْأَلُوا اللَّهَ مَغْفِرَةً ذُنُوبِهِ، وَسَتْرَ عِيوبِهِ، وإِقَالَه عَثَرَاتِهِ، وهو دعاءٌ يَنْفَعُ الْمَيِّتَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - وهو من جَمَلَةِ الْأُمُورِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّرَاحُمِ وَالتَّعَاطُفِ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ. وَالسُّنَّةُ فِي هَذَا الدَّعَاءِ أَنْ يُؤْتَى بِهِ بَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الثَّلَاثَةِ، أَمَّا التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى: فَيَقْرَأُ بَعْدَهَا الْفَاتِحَةَ، وَالتَّكْبِيرَةُ الثَّانِيَةُ: يُصَلِّي بَعْدَهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَبَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الثَّلَاثَةِ: يُؤْتَى بِهَذَا الدَّعَاءِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْمَأْثُورَةِ.

(١) «صحيح مسلم» رقم (٩٦٣).

قوله: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ)، المغفرة: سَتْرُ الذُّنُوبِ مَعَ التَّجَاوُزِ عنها، والرحمة أبلغ؛ لأنَّ فيها حصولَ المرغوبِ، بعدَ زوالِ المكروه.

وقوله: (وَاعْفُ عَنْهُ)؛ أي: عَافِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَسَلَّمَهُ مِنْهُ، وَاغْفُ عنه مِمَّا وَقَعَ فِيهِ مِنْ زَلَلٍ وَتَقْصِيرٍ.

وقوله: (وَأَكْرِمْ نُزْلَهُ)، النُّزْلُ: مَا يُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ؛ أي: اجْعَلْ نُزْلَهُ وَضِيَافَتَهُ عِنْدَكَ كَرِيمَةً.

وقوله: (وَوَسَّعْ مُدْخَلَهُ)؛ أي: وَسَّعْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَأَفْسَحْ لَهُ فِيهِ، وَوَسَّعْ لَهُ كَذَلِكَ مَنَازِلَهُ عِنْدَكَ فِي الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ الْمُدْخَلَ هُنَا مَفْرَدٌ مُضَافٌ، فَيُعْمُ.

وقوله: (وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالتَّلْجِ وَالْبَرَدِ)، وهذه الأمور الثلاثة تُقَابِلُ حَرَارَةَ الذُّنُوبِ، فَتُبْرِدُهَا وَتُطْفِئُ لَهْيَهَا.

وقوله: (وَنَقِّهِ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا يُنْقَى الثُّوبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ)؛ من التنقية، وهي: بِمَعْنَى التَّطْهِيرِ؛ أي: طَهَّرْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ كَمَا يُطَهَّرُ وَيُنْظَفُ الثُّوبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ الَّذِي عَلِقَ بِهِ، وَخُصَّ الْأَبْيَضُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ إِزَالََةَ الْأَوْسَاحِ فِيهِ أَظْهَرُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَلْوَانِ.

وقوله: (وَأَبْدَلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ)؛ أي: أَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ دَارَ كَرَامَتِكَ، بَدَلًا عَنْ دَارِ الدُّنْيَا الَّتِي رَحَلَ عَنْهَا.

وقوله: (وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ)؛ أي: وَأَبْدَلْهُ خَيْرًا مِنْهُمْ؛ وَهَذَا شَامِلٌ لِلتَّبْدِيلِ فِي الْأَعْيَانِ وَالْأَوْصَافِ؛ أَمَّا فِي الْأَعْيَانِ: بِأَنْ يُعَوِّضَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ خَيْرًا مِنْهُمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، وَأَمَّا فِي الْأَوْصَافِ: بِأَنْ تَعُودَ الْعَجُوزُ شَابَّةً، وَسَيِّئَةُ الْخُلُقِ حَسَنَةً الْخُلُقِ، وَغَيْرُ الْجَمِيلَةِ جَمِيلَةً.

ثُمَّ سَأَلَ اللَّهُ لَهُ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ بِأَنْ يُوقَى شَرَّهَا وَأَثَرَهَا.

* وَمِمَّا يُقَالُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ: مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَغَيْرُهُمَا، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ،

فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا، اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَخِيهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ) ^(١).

وهو دعاءٌ عظيمٌ شَمِلَ المَيِّتَ المَصْلَى عليه وغيره من المسلمين الأحياء منهم والأموات، والصغار والكبار، والذكور والإناث، والشاهدين منهم والغائبين؛ لأنَّ الجميع مشتركون في الحاجة، بل الضرورة، إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته، وَمَنْ دعا بهذه الدَّعوة، فله بكلِّ واحدٍ من المسلمين والمسلمات المتقدمين منهم والمتأخرين حسنة؛ لِمَا ثَبَتَ في «المعجم الكبير» للطبراني، بإسناد حسن، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً) ^(٢).

وقوله: (اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا، فَأَخِيهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا، فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ)، فذكر الإسلام في الحياة، والإيمان عند الممات؛ وذلك أنَّ الإسلام إذا قُرِنَ بالإيمان يُرَادُ به الشرائع العملية الظاهرة، ويُرَادُ بالإيمان الاعتقادات الباطنة؛ ولهذا ناسب في الحياة أَنْ يُذَكَرَ الإسلام؛ لأنَّ الإنسان ما دام حيًّا، فَلَدَيْهِ مَجَالٌ وَفُسْحَةٌ للعمل والتعبُّد، وأما عند الممات، فلا مجال لذلك، بل لا مجال إِلَّا للموت على الاعتقاد الصحيح والإيمان السليم بتوفيق من الله؛ ولهذا قال: (وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا، فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ).

وقوله: (اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ)؛ أي: الأجر الذي نحصله من تجهيزه، والصلاة عليه، وتشيعه، ودفنه، وكذلك الأجر الذي نحصله مِنْ صبرنا على مصيبتنا فيه، وأما أَجْرُ عمله فهو له، وليس لنا منه شيء.

(١) «مسند أحمد» (٣٦٨/٢)، «سنن أبي داود» رقم (٣٢٠١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٤٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (١٢١٧).

(٢) «مجمع الزوائد» (٢١٠/١٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٢٦).

وقوله: (وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ)؛ أي: أَعِزَّنَا مِنَ الضَّلَالِ، وَجَنِّبْنَا الْفِتْنَةَ وَالزَّلَلَ بعد فَقْدِنَا لَهُ.

* وَمِنَ الدَّعَوَاتِ الَّتِي تُقَالُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ: مَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ»، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، عَنْ يَزِيدَ بْنِ زُكَّانَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى جَنَازَةٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهَا، قَالَ: (اللَّهُمَّ عَبْدُكَ وَابْنُ أُمَّتِكَ احْتَاجُ إِلَى رَحْمَتِكَ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِهِ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا، فَزِدْ فِي حَسَنَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا، فَتَجَاوَزْ عَنْهُ)»، وَهُوَ حَدِيثٌ ثَابِتٌ ^(١).

وَرَوَى مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ»، عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ، أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: كَيْفَ تُصَلِّيُ عَلَى الْجَنَازَةِ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَا لَعَمْرُ اللَّهِ أُخْبِرُكَ؛ أَتَّبِعُهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَإِذَا وُضِعَتْ كَبَّرْتُ، وَحَمِدْتُ اللَّهَ، وَصَلَّيْتُ عَلَى نَبِيِّهِ، ثُمَّ أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ عَبْدُكَ وَابْنُ أُمَّتِكَ وَابْنُ أُمَّتِكَ، كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَزِدْ فِي إِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَقْتِنَا بَعْدَهُ» ^(٢). نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَلِجَمِيعِ مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



(١) «الْمَعْجَمُ الْكَبِيرُ» (٢٢/٢٤٩)، و«الْمُسْتَدْرَكُ» (١/٣٥٩)، وَاَنْظُرْ: «أَحْكَامُ الْجَنَائِزِ» لِلْأَبَانِيِّ (ص ١٥٩).

(٢) «الْمَوْطَأُ» رَقْم (٦٠٩).

مَا يُقَالُ عِنْدَ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَبَعْدَهُ، وَعِنْدَ التَّعْزِيَةِ، وَزِيَارَةِ الْمَقَابِرِ

لقد مرَّ معنا الكلام على الأذكار التي تُقال في الصَّلَاة على الجَنَازَةِ، وستناولُ هنا بيانَ ما يُقال عند دَفْنِ المَيِّتِ، وما يُقال بعد دَفْنِهِ، وما يُقال لذويه عند تَعْزِيَتِهِمْ، وما يُقال عند زيارة المقابر.

مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يَقُولَ الَّذِي يَضَعُ الْمَيِّتَ فِي لَحْدِهِ: (بِاسْمِ اللَّهِ، وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ)، أَوْ (وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)؛ لِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَغَيْرُهُمْ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا وَضَعَ الْمَيِّتَ فِي الْقَبْرِ، قَالَ: (بِاسْمِ اللَّهِ، وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ)، وَفِي رِوَايَةٍ: (وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)، وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا وَضَعْتُمْ مَوْتَاكُمْ فِي الْقُبُورِ، فَقُولُوا...)»، وَذَكَرَهُ^(١).

ثُمَّ مِنَ السُّنَّةِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ دَفْنِهِ: الدُّعَاءُ لَهُ بِالْمَغْفِرَةِ وَالتَّثْبِيتِ عِنْدَ السُّؤَالِ؛ لِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَغَيْرُهُ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَمَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ، وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: (اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُّوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ)»^(٢).

وَلَا يُشْرَعُ قِرَاءَةُ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَلَا أَنْ يُلَقَّنَ الْمَيِّتُ حُجَّتَهُ كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ؛ إِذْ لَمْ يَثْبُتْ بِذَلِكَ حَدِيثٌ، وَإِنَّمَا الْمَشْرُوعُ فِي هَذَا الْمَقَامِ - كَمَا تَقَدَّمَ - الْاسْتِغْفَارُ لَهُ وَسُؤَالُ اللَّهِ تَثْبِيتَهُ.

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥٩/٢)، وَ«سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» رَقْمَ (٣٢١٣)، وَ«جَامِعَ التِّرْمِذِيِّ» رَقْمَ (١٠٤٦)، وَ«سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» رَقْمَ (١٥٥٠)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الْإِرْوَاءِ» (١٩٧/٣).

(٢) «سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» رَقْمَ (٣٢٢١)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْمَ (٤٧٦٠).

وأما ما يُقالُ لذويه عندَ تَعَزِّيَتِهِمْ، فَإِنَّ المَشْرُوعَ للمسلم أن يُعْزِّيَ أخاه بما يَظُنُّ أَنَّهُ يُسَلِّيه، وَيُذْهِبُ حُزْنَهُ، وَيُعِينُهُ عَلَى الرِّضَا بالقِضَاءِ والصَّبْرِ عَلَى المَصِيبَةِ؛ مِمَّا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يَقُولُهُ فِي هَذَا المَقَامِ إِنْ كَانَ يَسْتَحْضِرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا يَقُولُ مَا تيسَّرَ لَهُ مِنَ الكَلَامِ الحَسَنِ، والقَوْلِ الطَّيِّبِ الَّذِي يُحَقِّقُ المَقْصُودَ، وَلَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ.

والمسلمُ مَاجُورٌ عَلَى تَعَزِّيَتِهِ لِأَخَوَانِهِ وَوَقُوفِهِ مَعَهُمْ فِي مِحْنَتِهِمْ وَمُصَابِهِمْ؛ فِي الحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعْزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ ﷻ مِنْ حُلَلِ الكَرَامَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ)؛ رواه ابن ماجه وغيره^(١).

ومِمَّا وَرَدَ فِي السَّنَةِ فِي التَّعْزِيَةِ: مَا رواه البخاري ومسلم، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: «أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ: إِنْ أَبْنَا لِي قَبِضَ فَأَتِينَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ)^(٢)»، وهذه التعزية - كما قال النووي وغيره -: «أَحْسَنُ مَا يُعْزَّى بِهِ».

وفي حديث أبي سلمة: لَمَّا مَاتَ، شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: (إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ، تَبِعَهُ البَصَرُ)، فَصَاحَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَقَالَ: (لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ)، ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقْبِهِ فِي الغَابِرِينَ، وَاعْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ). رواه مسلم^(٣).

أما ما يُقالُ عندَ زِيَارَةِ القُبُورِ، فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ جَاءَتْ بِمَشْرُوعِيَّةِ زِيَارَةِ القُبُورِ لِلتَّعَاطُفِ، وَتَذَكُّرِ الآخِرَةِ، وَلِلدَّعَاءِ لِأَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ. وَقَدْ مُنِعَ النَّاسُ

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (١٦٠١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٥٠٨).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٢٣).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٩٢٠).

فِي بَدْءِ الْأَمْرِ مِنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَخَشْيَةِ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِشَيْءٍ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ عِنْدَهَا، فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ قَوَاعِدُ الْإِسْلَامِ، وَتَمَهَّدَتْ أَحْكَامُهُ، وَاسْتَهْرَتْ مَعَالِمُهُ، أُبِيحَتْ لَهُمُ الزِّيَارَةُ، مَعَ الْبَيَانِ لِمَقَاصِدِهَا، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ قَوْلِ الْبَاطِلِ عِنْدَ زِيَارَتِهَا.

فَعَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَأَحْمَدُ، وَالنَّسَائِيُّ، وَغَيْرُهُمْ، وَزَادَ أَحْمَدُ: (فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ)، وَزَادَ النَّسَائِيُّ: (فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزُورَ فَلْيُزِرْ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا) ^(١).

وَالْهُجْرُ: الْبَاطِلُ مِنَ الْقَوْلِ؛ كَدَعَاءِ الْمَقْبُورِينَ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ التَّوَسُّلِ بِهِمْ، أَوْ طَلَبِ الْبَرَكَاتِ مِنْهُمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ. وَلَقَدْ جَاءَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بَيَانٌ مَا يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُولَهُ عِنْدَ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، وَمِنْ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ، فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ)، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَفْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لِلْآحِقُونَ) ^(٢).

وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا، عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ، فَكَانَ قَائِلَهُمْ يَقُولُ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِلْآحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ)» ^(٣).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «زَادَ الْمَعَاد» فِي كَلَامِهِ عَنْ هَذِي النَّبِيِّ ﷺ

(١) «المسند» (٣٥٥/٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٧٧)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٢٣٥)، و«جامع الترمذي» رقم (١٠٥٤)، و«سنن النسائي» (٨٩/٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٥٧١).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٩٧٤). (٣) «صحيح مسلم» رقم (٩٧٥).

في زيارة القبور: «كان إذا زار قبور أصحابه يزورها؛ للدعاء لهم، والترحم عليهم، والاستغفار لهم، وهذه هي الزيارة التي سنّها لأمتّه، وشرّعها لهم، وأمرهم أن يقولوا إذا زاروها: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ)، وكان هديّه أن يقول ويفعل عند زيارتها من جنس ما يقوله عند الصلاة على الميّت من الدعاء والترحم والاستغفار، فأبى المشركون إلا دعاء الميّت، والإشراك به، والإقسام على الله به، وسؤاله الحوائج، والاستعانة به، والتوجه إليه، بعكس هديّه ﷺ، فإنّه هديّ توحيد وإحسان إلى الميّت، وهديّ هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميّت، وهم ثلاثة أقسام: إمّا أن يدعوا الميّت، أو يدعوا به أو عنده، ويروّن الدعاء عنده أوجب وأولى من الدعاء في المساجد، ومن تأمل هديّ رسول الله ﷺ وأصحابه تبين له الفرق بين الأمرين، وبالله التوفيق»^(١). اهـ كلامه.

وبما تقدّم يتضح أنّ أحوال الناس في زيارة القبور لا تخرج عن أربع حالات: الأولى: أن يزور القبور ليدعوا للأموات، فيسأل الله لهم المغفرة والرحمة، وليعتبر بحال الموتى وما ألوا إليه، فيحدث له ذلك عبرة وذكرى، وهذه هي الزيارة الشرعية.

الثانية: أن يزورها ليدعوا لنفسه ولمن أحبّ عندها، معتقداً أنّ الدعاء في المقابر، أو عند قبور الصالحين أفضل وأحرى بالقبول والإجابة؛ وهذا بدعة منكّرة.

الثالثة: أن يزورها ليدعوا الله متوسلاً بجاه الموتى أو حقهم، فيقول: أسألك يا ربّي بجاه فلان أو بحق فلان؛ فهذا بدعة محرّمة ووسيلة إلى الشرك.

الرابعة: أن يزورها ليدعوا المقبورين، ويستغيث بهم، ويطلب منهم المدد والعون والشفاء وغير ذلك؛ فهذا شرك أكبر ناقل عن ملة الإسلام. نسأل الله أن يحفظنا، وأن يوفقنا لكل خير؛ إنه سميع مجيب.

دُعَاءُ الْإِسْتِشْقَاءِ

لقد شَرَعَ اللهُ لعباده إذا أَجْدَبَتْ فيهم الدَّيَّارُ، وَقَلَّتِ الأمطارُ، وحَصَلَ القَحْطُ أن يَفْزَعُوا إلى الصلاة والدعاء والاستغفار، وأخبرَ أَنَّهُ لا يُحَيِّبُ عبداً دعاءه، ولا يَرُدُّ مؤمناً ناداه، فَمَنْ دعاه بِصِدْقٍ، وأَقْبَلَ عليه بِالْحاحِ، حَقَّقَ رجاءه، وأجابَ دعاءه، وأعطاه سُؤْلَه، فهو القائلُ سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وأرشدَ عباده سبحانه عند احتباسِ المطرِ عنهم أن يستغفروه من ذنوبهم التي بسببها حُسِرَ المطرُ، ومُنِعَ القَطْرُ.

وأخبر سبحانه عن أنبيائه ورسله ﷺ أَنَّهُم كانوا يَرْغَبُونَ أُمَمَهُمْ، وَيَحْتُثُّونَهُمْ على التوبة والاستغفار، وَيُبينُونَ لَهُم أن ذلك سببٌ من أسبابِ إجابة الدعاء، ونزولِ الأمطار، وكثرةِ الخيرات، وانتشارِ البركةِ في الأموال والأولاد؛ فذكرَ تعالى عن نوح ﷺ أَنَّهُ قال لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح]، وذكرَ عن هود ﷺ أَنَّهُ قال: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هُود: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا﴾ [هُود: ٣].

❏ وفي هذه النصوصِ دَلَالَةٌ على أَنَّ التوبةَ والاستغفارَ سببٌ لِنُزُولِ الخيرات، وتَوَالِيِ البركات، وإجابةِ الدَّعَوَاتِ.

وليحذرِ المسلمُ في هذا المقامِ مِنْ أن يَسْتَوِلِيَ على قلبه اليأسُ والقنوطُ،

أَوْ أَنْ يَتَفَوَّهَ بِكَلَامٍ يَدُلُّ عَلَى التَّضَجُّرِ وَالتَّسَخُّطِ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَزَالُ يَسْأَلُ رَبَّهُ، وَيَطْمَعُ فِي فَضْلِهِ، وَيَرْجُو رَحْمَتَهُ، وَلَا يَزَالُ مَفْتَقِرًا إِلَيْهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، يَعْلَمُ أَنَّ لَا رَبَّ لَهُ غَيْرُهُ يَقْصِدُهُ وَيَدْعُوهُ، وَلَا إِلَهَ لَهُ سِوَاهُ يُؤْمَلُهُ وَيَرْجُوهُ، لَيْسَ لَهُ عَنْ بَابِ مَوْلَاهُ تَحَوُّلٌ وَلَا انْصِرَافٌ، وَلَا لِقَبْلِهِ إِلَى غَيْرِهِ تَعَلُّقٌ وَلَا تَفَاتٍ.

وَقَدْ جَاءَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَهَدْيِهِ الْكَرِيمِ دَعَوَاتٌ مُبَارَكَةٌ يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدْعُوَ بِهَا فِي الْاسْتِسْقَاءِ، فِيهَا تَذَلُّلٌ لِلَّهِ، وَخُضُوعٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاعْتِرَافٌ بِعَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ وَافْتِقَارِ الْعِبَادِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وَجَاهُ الْمِنْبَرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثَنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا)، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللَّهِ! مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةٍ وَلَا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللَّهِ! مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتًا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمَسِّكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالظَّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ)، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ»^(١).

وَسَلَّعَ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ: جَبَلٌ مَعْرُوفٌ بِالْمَدِينَةِ.

وَقَوْلُهُ: «سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ»؛ أَي: فِي الْاسْتِدَارَةِ وَالْكَثَافَةِ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠١٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٧)، وجاء مختصراً (ص ٤١٠).

وقوله: (اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالظَّرَابِ): الْآكَامُ: التَّلَالُ، وَالظَّرَابُ: الْجِبَالُ الصَّغِيرَةُ.

وقول الرجل: «فَادْعُ اللَّهَ يُمَسِّكَهَا»، ودعاء النَّبِيِّ ﷺ بقوله: (حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا...)، إلى آخر الدعاء: فيه دلالة على مشروعية الاستسقاء حينما تطول الأمطار وتكثر، ويحصل بها الضرر.

وروى أبو داود في «سننه»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «شَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُحُوطَ الْمَطَرِ، فَأَمَرَ بِمَنْبَرٍ، فَوُضِعَ لَهُ فِي الْمُصَلَّى، وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَدَأَ حَاجِبُ الشَّمْسِ، فَقَعَدَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَكَبَّرَ، وَحَمِدَ اللَّهَ عز وجل، ثُمَّ قَالَ: (إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَذَبَ دِيَارِكُمْ، وَاسْتِخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَدْعُوهُ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْغَنِيُّ، وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ)، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ حَتَّى بَدَأَ بَيَاضُ إِبْطِيهِ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ وَقَلْبَ أَوْ حَوَّلَ رِداءَهُ، وَهُوَ رَافِعُ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، وَنَزَلَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَأَنْشَأَ اللَّهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَأَلَتِ السُّيُوفُ، فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِئْنِ، ضَحِكَ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَقَالَ: (أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) (١).

قُحُوطُ الْمَطَرِ؛ أَي: انْجَبَاسُهُ وَانْقِطَاعُهُ.

وقوله: «حِينَ بَدَأَ حَاجِبُ الشَّمْسِ»؛ أَي: حِينَ ظَهَرَ وَلاَحَ طَرَفُ الشَّمْسِ.

(١) «سنن أبي داود» رقم (١١٧٣)، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» رَقْم (١٠٤٠).

وقوله: (عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ)؛ أي: وقت نزوله.

وقوله: (وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ) أرادَ به المَطَرُ الكافي إلى وقت انقطاع الحاجة.

وقوله: «فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ»، الْكِنُّ: ما يَرُدُّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ مِنَ الْأَبْنِيَةِ وَالْمَسَاكِنِ.

وروى أبو داود في «سننه»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بَوَاكِي، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيئًا مَرِيئًا نَافِعًا، غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ)؛ قَالَ: فَأُطْبِقَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ»^(١).

قوله: «أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بَوَاكِي»: جمعُ باكيةٍ، وفي بعضِ النسخ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُوَاكِي»، ومعناه: التحاملُ على يَدَيْهِ إِذَا رَفَعَهُمَا وَمَدَّهُمَا فِي الدُّعَاءِ. وعلى المسلم إذا دعا الله في الاستسقاءِ أو غيره أن يحسنَ ظَنَّهُ بالله، وأن يعظمَ رجاؤَهُ فيه، وأن يُلحَّ عليه في الدعاء، وألَّا يَقْنَطَ من رحمتهِ سبحانه؛ فخرائتُهُ ملأى، وجُودُهُ عظيم، ورحمتهُ وسَّعت كلَّ شيء.



(١) «سنن أبي داود» رقم (١١٦٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٠٣٦).

مَا يُقَالُ عِنْدَ نَزُولِ الْغَيْثِ

لقد مرَّ معنا الأدعية المتعلّقة بالاستسقاء، والتي يُشرع للمسلم أن يقولها عند فُحُوطِ المطرِ واستتخاره عن إِبَّانِ نزوله، وما يترتبُ على ذلك من جفافٍ في الزروع، وهلاكٍ في الماشية، وغير ذلك من الأضرار. وهي دعوات مباركة، واستغاثات نافعة برَّبِّ العالمين، وخالق الخلق أجمعين، الذي بيده أَرْزَمَةُ الأمور، ومقاليد السموات والأرض، الذي أمرُهُ لشيءٍ إذا أَرَادَهُ أن يقولَ له: كُنْ فيكونُ، والدعاء يُنبئُ عن قُوَّةِ الافتقارِ، وتحقيق العبوديّة، ويوجبُ للعبدِ خضوعَهُ وخشوعَهُ، وشِدَّةَ انكساره لربِّ البريّة، فكم مِنْ دعوة رَفَعَ اللهُ بها المكاره وأنواع المضارِّ، ونال بها العبدُ الخيرات العديدة والبركات المتنوعة وأنواع المسارِّ.

والعبدُ يدعو الله في كلِّ أحيانه، ويدعو الله في كلِّ شؤونه؛ إذا تَأَخَّرَ المطرُ دعا الله، وإذا نَزَلَ المطرُ دعا الله، وإذا سَمِعَ الرَّعْدَ ذَكَرَ الله، ففقرُهُ إلى الله ذاتيًّا، لا غِنَى له عن ربِّه وسَيِّده ومولاه طَرْفَةَ عَيْنٍ، والله وَجَّكَ غِنَى حَمِيد.

وقد تَقَدَّمَ فيما مضى ما يُقَالُ في الاستسقاء والاستصحاء، وأمَّا إذا نَزَلَ الغيثُ، فَإِنَّ مِنَ السُّنَّةِ أن يقولَ المسلمُ عندَ نزوله: (اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا)؛ لِمَا رواه البخاري، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْمَطَرَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا)»^(١).

وقوله: (صَيِّبًا): منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ؛ أي: اجعله، والصَّيْبُ: المطرُ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٣٢).

وقوله: (نَافِعًا): وصِفْتُ لِلصَّيِّبِ، احْتَرَزَ بِهِ عَنِ الصَّيِّبِ الضَّارِّ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَطَرَ قَدْ يَكُونُ نَزْوُلُهُ رَحْمَةً وَنِعْمَةً، وَهُوَ النَّافِعُ، وَقَدْ يَكُونُ نَزْوُلُهُ عَقُوبَةً وَنِقْمَةً، وَهُوَ الضَّارُّ.

وَالْمُسْلِمُ يَسْأَلُ اللَّهَ عِنْدَ نَزْوِلِ الْمَطَرِ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ، وَهَذَا الدُّعَاءُ الْمَذْكُورُ يُسْتَحَبُّ بَعْدَ نَزْوِلِ الْمَطَرِ لِلْإِزْدِيَادِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، مُقَيَّدًا بِدَفْعِ مَا يُخْشَى مِنْ ضَرَرٍ.

وَمِنْ الْوَاجِبِ عَلَى الْعَبْدِ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْكَرِيمِ أَنْ يَعْرِفَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَيَنْسِبَ الْفَضْلَ إِلَيْهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُوَلِّي النِّعَمِ وَمُسْدِيهَا، بِيَدِهِ الْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ، وَالْخَفْضُ وَالرَّفْعُ، لَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه، قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِيَّةِ، عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ [أَي: عَلَى إِثْرِ مَطَرٍ]، فَلَمَّا انْصَرَفَ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: (هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟)، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)»^(١).

* **فَالْقَائِلُ عِنْدَ نَزْوِلِ الْمَطَرِ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، قَدْ نَسَبَ النِّعْمَةَ لِمُعْطِيهَا، وَأَضَافَ الْمِنَّةَ لِمُوَلِّيهَا، وَاعْتَقَدَ أَنَّ نَزْوَلَ هَذَا الْفَضْلِ وَالْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ إِنَّمَا هُوَ مَحْضُ نِعْمَةِ اللَّهِ وَأَثَارِ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ.**

* **وَأَمَّا الْقَائِلُ عِنْدَ نَزْوِلِ الْمَطَرِ: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا، فَلَا يَخْلُو مِنْ أَمْرَيْنِ:**

- **إِمَّا أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ الْمُنْزَلَ لِلْمَطَرِ هُوَ النِّجْمُ؛ وَهَذَا كَفَرٌ ظَاهِرٌ نَاقِلٌ عَنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ.**

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٣٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٧١)، وقوله: «صَلَّى لَنَا؛ أَي: صَلَّى بِنَا»؛ كَمَا هُوَ لَفْظُ الْحَدِيثِ عِنْدَ مُسْلِمٍ.

- أو يعتقد أنَّ المُنْزَلَ للمطرِ هو الله، والنَّوْءُ سببٌ، فيضيفُ النُّعْمَةَ إلى ما يراه سببًا في نزولها، وهذا مِنْ كُفْرِ النُّعْمَةِ، وهو من الشركِ الخفيِّ.
والأنواءُ ليستْ مِنَ الأسبابِ لِنُزُولِ المطرِ، وإنَّما سببُ نزولِ المطرِ حاجةُ العبادِ، وافتقارُهُمْ إلى ربِّهم، وسؤالُهُمْ إِيَّاهُ، واستغفارُهُمْ وتوبتُهُمْ إليه، ودعاؤُهُمْ إِيَّاهُ بلسانِ الحالِ ولسانِ المقالِ، فيُنْزَلُ عليهم الغَيْثُ بحكمتهِ ورحمتهِ في الوقتِ المناسبِ لحاجتهم وضرورتهم، ولا يتمُّ توحيدُ العبدِ حتى يعترفَ بِنِعَمِ الله الظاهرةِ والباطنةِ عليه وعلى جميعِ الخلقِ، ويُضيفُها إليه، ويستعينَ بها على عبادتهِ وذِكْرِهِ وشُكْرِهِ^(١).

ومن السُّنَّةِ أن يقولَ المسلمُ عند اشتدادِ هبوبِ الرِّيحِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ)؛ لِمَا رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ [أَي: اشْتَدَّ هبوبُهَا]، قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ)»^(٢).

ولا يجوزُ للمسلم أن يَسْبَ الرِّيحَ؛ فَإِنَّهَا مُسَخَّرَةٌ بِأَمْرِ الله، مُدَبَّرَةٌ مأمورةٌ؛ روى البخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود في «السنن»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: (الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ الله، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُّوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَغْفِرُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا)^(٣).

وقوله: (مِنْ رَوْحِ الله)؛ أَي: مِنَ الأرواحِ التي خَلَقَهَا الله؛ فالإضافةُ هنا إضافةٌ خَلْقِي وإِيجَادِي.

(١) انظر: «القول السديد» لابن سعدى (ص ١٠٨ - ١٠٩).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٨٩٩).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/٢٦٨)، و«الأدب المفرد» رقم (٩٠٦)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٩٧)، ورواه ابن ماجه رقم (٣٧٢٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٦٩٦).

وكان من هديه ﷺ أن يقول إذا اشتدت الرياح: (اللَّهُمَّ لَا قِوَامَ لَنَا إِلَّا بِكَ)؛ لما رواه البخاري في «الأدب المفرد»، عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه، قال: «كان النبي ﷺ إذا اشتدت الرياح يقول: (اللَّهُمَّ لَا قِوَامَ لَنَا إِلَّا بِكَ)»^(١)؛ ومعنى (لَا قِوَامَ)؛ أي: مُلْقَحَةٌ لِلْسَّحَابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]؛ أي: وسخرنا الرياح - رياح الرحمة - تُلْفِحُ السحاب كما يُلْفِحُ الذَّكْرُ الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء - بإذن الله - فيسقي الله العبادَ والمواشيَ والزروعَ، ويبقى في الأرضِ مُدَّخَرًا لحاجتهم وضرورتهم؛ فله الحمدُ والنعمةُ لا شريك له.

وللمسلم أن يُسَبِّحَ عند سماعه الرِّعْدَ، ففي «الأدب المفرد» للبخاري، عن عبد الله بن الزُّبَيْرِ رضى الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرِّعْدَ، تَرَكَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ»^(٢).

وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه أنه كان إذا سمع صوت الرعد، قال: «سبحان الذي سبَّحت له»^(٣).

وفي التسبيح في هذا المقام تعظيمٌ للربِّ سبحانه، الذي الرِّعْدُ أثرٌ من آثارِ كمالِ قُوَّتِهِ وقدرتِهِ، وفيه تجاوبٌ مع الرِّعْدِ الذي يُسَبِّحُ بحمدِ الله، ولكن لا نفقه تسبيحه.



(١) «الأدب المفرد» رقم (٧١٨)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥٣).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٧٢٣)، و«الموطأ» رقم (١٨٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥٦).

(٣) «الأدب المفرد» رقم (٧٢٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥٥).

مَا يُقَالُ عِنْدَ كُسُوفِ الشَّمْسِ أَوْ خُسُوفِ الْقَمَرِ

الحديثُ هنا عن كسوفِ الشَّمْسِ وخسوفِ القمرِ، وما يُسْتَحَبُّ للمسلم أن يقوله عند حصول ذلك.

إِنَّ اللَّهَ وَبِحُكْمِ سَخَّرَ لَابْنِ آدَمَ أَنْوَاعًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِكْرَامًا لَهُ وَتَفَضُّلاً عَلَيْهِ؛ لِيَقُومَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلِيُحَقِّقَ تَوْحِيدَ اللَّهِ، وَلِيَكُونَ شَاكِرًا لِأَنْعَمِ اللَّهِ، فَقَدْ سَخَّرَ جَلًّا وَعَلَا لِلْإِنْسَانِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَنِعْمَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْإِنْسَانِ لَا تُحْصَى وَلَا تُعَدُّ.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْلُغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الباقية].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ الْبَلَدَ فِي الْوَيْلِ وَالنَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْبَلَدِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٣) وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم].

فالشمس والقمر هما من جملة النعم التي تفضل الله بها على عباده، ومن بها عليهم، وجعلهما سبحانه دائبين؛ أي: مُسْتَمِرَّين، لا يَفْتَرَانِ، يسعيان

لمصالح الإنسان مِنْ حسابِ الأزمنة، ومصلحة الأبدان والحيوان والزروع والثمار، وجعلهما سبحانه يجريان بحسابٍ مُتَقَنٍّ، وتقديرٍ مُقَدَّرٍ، لا يتخلفان عنه عُلوًّا ولا نزولًا، ولا ينحرفان يمينًا ولا شمالًا، ولا يتغيَّران تقدُّمًا ولا تأخُّرًا؛ كما قال سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) وَالْقَمَرُ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

ثمَّ إِنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ مِنْ آياتِ الله، ومخلوقانِ مِنْ مخلوقاته، ينجليان بِأمرِهِ، وينكسفان بِأمرِهِ، فإذا أَرَادَ اللهُ تعالى أَنْ يُخَوِّفَ عِبَادَهُ مِنْ عَاقِبَةِ مَعَاصِيهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، كَسَفَهُمَا باختفاءِ ضَوْئِهِمَا كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ؛ إِنْذَارًا لِلْعِبَادِ وَتَذْكِيرًا لَهُمْ؛ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَيَتُوبُونَ وَيُتَّقُونَ، فيقومون بما أَمَرَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ، ويتركونَ ما حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٥٩]، وفي هذا دَلَالَةٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ سبحانه، حيثُ إِنَّهُ سبحانه قَادِرٌ عَلَى تَحْوِيلِ الْأَشْيَاءِ، وَتَبْدِيلِ الْأُمُورِ، وَتَصْرِيفِ الْخَلَائِقِ كَيْفَ شَاءَ، وَمِنْ ذَلِكَ: تَغْيِيرُ حَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنَ النُّورِ وَالْوَضَاءِ إِلَى السَّوَادِ وَالظُّلْمَةِ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ولذا شُرِعَ عِنْدَ حُصُولِ الْكَسُوفِ الْفَزَعُ إِلَى الصَّلَاةِ وَالِدُّعَاءِ وَالتَّذَكُّرِ، وَالِاسْتِغْفَارِ وَالصَّدَقَةِ.

روى البخاري ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ ذَلِكَ، فَادْعُوا اللهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَنَصَّدَّقُوا) (١).

وفي «الصحيحين»، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: «خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِرْعَاً يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ، فَصَلَّى

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٤٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٠١).

بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَقَالَ: (هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي يُرْسِلُ اللَّهُ لَا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَافْزِعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ) ^(١).

لقد خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَذَلِكَ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، حَيْثُ مَاتَ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَظُنُّونَ أَنَّ كُسُوفَ الشَّمْسِ أَوْ الْقَمَرِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَوْتِ عَظِيمٍ أَوْ حَيَاتِهِ، فَبَيَّنَ ﷺ فَسَادَ هَذَا الظَّنِّ وَخَطَأَهُ، وَقَالَ - كَمَا فِي حَدِيثٍ عَائِشَةَ الْمَتَّقَدِّمِ -: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ).

وَقَدْ فَزَعَ ﷺ عِنْدَ كُسُوفِهَا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَأَمَرَ مُنَادِيًا يَنَادِي: «الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ»؛ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ رِجَالًا وَنِسَاءً، فَقَامَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَصَفُّوا خَلْفَهُ، فَكَبَّرَ وَقَرَأَ الْفَاتِحَةَ وَسُورَةَ طَوِيلَةً يَجْهَرُ بِقِرَاءَتِهِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا جِدًّا، ثُمَّ رَفَعَ، وَقَالَ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ)، ثُمَّ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ وَسُورَةَ طَوِيلَةً، لَكِنَّهَا أَقْصَرُ مِنَ الْأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا دُونَ الْأُولَى، ثُمَّ رَفَعَ، وَقَالَ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ)، وَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا نَحْوَ رُكُوعِهِ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدًا طَوِيلًا جِدًّا نَحْوًا مِنْ رُكُوعِهِ، ثُمَّ رَفَعَ وَجَلَسَ جُلُوسًا طَوِيلًا، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدًا طَوِيلًا، ثُمَّ قَامَ إِلَى الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ، فَصَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعَ فِي الْأُولَى، لَكِنَّهَا دُونَهَا فِي الْقِرَاءَةِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْقِيَامِ، ثُمَّ تَشَهَّدَ وَسَلَّم، وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ خَطَبَ ﷺ خُطْبَةً عَظِيمَةً بَلِيغَةً، بَيَّنَّ فِيهَا أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَحَثَّهِنَّ عِنْدَ حُصُولِ ذَلِكَ عَلَى الْفَزَعِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَذَكَرَ اللَّهُ، وَدَعَائِهِ، وَاسْتِغْفَارِهِ، حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ وَتَنْجِلِي، وَمِمَّا قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: (يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِي أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)، وَمِمَّا قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: (مَا مِنْ

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٥٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٩١٢).

شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا، حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، يُقَالُ: مَا عَلِمَكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُؤْمِنَةُ، فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، فَيُقَالُ: نَمَّ صَالِحًا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ).

وقال له الصَّحَابَةُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعَّكَعْتَ [أَي: رَجَعْتَ إِلَى الْوَرَاءِ]، قَالَ: (إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ عَنْقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرْ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا نِسَاءً)، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (بِكُفْرِهِنَّ)، قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: (يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ)»^(١).

إِنَّ فَرَعَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْكُسُوفِ، وَصَلَاتُهُ هَذِهِ الصَّلَاةُ، وَعَرْضَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ عَلَيْهِ أَثْنَاءَ هَذِهِ الصَّلَاةِ، وَرُؤْيَاهُ لِكُلِّ مَا نَحْنُ لَاقُوهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَرُؤْيَاهُ الْأُمَّةَ تُفْتَنُ فِي قُبُورِهَا، وَخُطْبَتُهُ هَذِهِ الْخُطْبَةُ الْبَلِيغَةُ الْمُؤَثِّرَةُ، وَأَمْرُهُ أُمَّتُهُ عِنْدَ الْكُسُوفِ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالِدُعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالتَّكْبِيرِ وَالصَّدَقَةِ، لِيَذُلُّ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ الْكُسُوفِ، وَأَهْمِيَّةِ الْفَرْعِ فِيهِ إِلَى الصَّلَاةِ وَالِدُعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

وَالْحَالُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ تَهَاوَنُوا بِأَمْرِ الْكُسُوفِ، وَلَمْ يُقِيمُوا لَهُ وَزْنَ، وَلَمْ يُحَرِّكْ لَهُمْ سَاكِنًا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ الْإِيمَانِ، وَالْجَهْلِ بِالسُّنَّةِ، وَالاعْتِمَادِ عَلَى مَنْ يُحِيلُ أَمْرَ الْكُسُوفِ إِلَى الْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ، مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْ أَسْبَابِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُحْدِثُ اللَّهُ الْكُسُوفَ. وَفَقْنَا اللَّهَ لَتَعْظِيمِ آيَاتِهِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَرَزَقْنَا الْإِعْتِبَارَ بِآيَاتِهِ وَالِانْتِفَاعَ بِهَا؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

(١) «هو في «الصحيحين» مفرَّق في عدة مواضع، انظر: «صحيح البخاري» رقم (١٠٤٤)، وغيره، و«صحيح مسلم» (٩٠١).

مَا يُقَالُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْهَلَالِ

لقد وردَ في السُّنَّةِ دعاءٌ يُسْتَحَبُّ للمسلم أن يَقُولَهُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْهَلَالِ مِنْ كُلِّ شهرٍ، فيه سؤالُ الرَّبِّ سبحانه أَنْ يَجْعَلَ هذا الشهرَ الذي هَلَّ هِلَالُهُ شَهْرَ يُؤْمِنُ وإيمانٍ، وسلامةٍ وإسلامٍ، وهي دعوةٌ مباركةٌ يَحْسُنُ بالمسلم أن يَدْعُوَ بها كُلَّمَا رَأَى الْهَلَالَ.

روى الترمذي عن طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهَلَالَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ أَهْلُهُ عَلَيْنَا بِالْيَمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ)»^(١).

وقبل الدخول في معاني هذه الدعوة المباركة، لِنَقِفْ قَلِيلًا نَتَأَمَّلُ هذه الآيةَ الباهرةَ الدَّالَّةَ على عَظَمَةِ الرَّبِّ سبحانه وكمالِ قُدْرَتِهِ، يقولُ ابنُ الْقَيْمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَانْظُرْ إِلَى الْقَمَرِ وَعَجَائِبِ آيَاتِهِ، كَيْفَ يُبْدِيهِ اللَّهُ كَالْحَيْطِ الدَّقِيقِ، ثُمَّ يَتَزَايِدُ نُورُهُ وَيَتَكَامَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّ لَيْلَةٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى إِبْدَارِهِ وَكَمَالِهِ وَتَمَامِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي النُّقْصَانِ حَتَّى يَعُودَ عَلَى حَالَتِهِ الْأُولَى؛ لِيُظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ مَوَاقِيتُ الْعِبَادِ فِي مَعَاشِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ وَمَنَاسِكِهِمْ، فَتَمَيَّزَتْ بِهِ الْأَشْهُرُ وَالسَّنُونَ، وَقَامَ بِهِ حِسَابُ الْعَالَمِ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَكَمِ وَالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ»^(٢). اهـ.

وقد عدَّ اللهُ في القرآن الكريم هذا ضِمْنَ آيَاتِهِ الْعِظَامِ، وبراهينه الجسام؛ يقول الله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَلْتَلَّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلْتَلَّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٦٢/١) واللفظ له، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٥١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٢٦).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٧/٢).

وقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾؛ أي: يَنْزِلُهَا؛ كلَّ لَيْلَةٍ يَنْزِلُ مِنْهَا وَاحِدَةً، إِلَى أَنْ يَصْغُرَ جَدًّا، فَيَكُونُ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ؛ أي: كَعِذْقَةِ النَّخْلِ إِذَا قَدَّمَ وَجَفَّ، وَصَغُرَ حَجْمُهُ وَانْحَنَى، ثُمَّ يُهْلُ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، وَيَبْدَأُ يَزِيدُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَتِمَّ نُورُهُ، وَيَتَسَقَّ ضِيَاؤُهُ، فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ آيَةٍ، وَمَا أَوْضَحَهَا مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ، وَعَظَمَةِ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ التَّأَمُّلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا دَعَا اللَّهُ عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِيهَا يَهْدِي الْعَبْدَ إِلَى الْعِلْمِ بِالرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنِعَوَاتِ جَلَالِهِ، مِنْ عَمُومِ قُدْرَتِهِ، وَسَعَةِ عِلْمِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَتَعَدُّدِ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ؛ وَمِنْ ثَمَّ يُخْلِصُ الدِّينَ لَهُ، وَيُفَرِّدُهُ وَحْدَهُ بِالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ، وَالْحُبِّ وَالْإِنَابَةِ، وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَهِيَ دَلَائِلُ ظَاهِرَةٍ، وَبَرَاهِينُ وَاضِحَةٌ عَلَى تَفَرُّدِ اللَّهِ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، وَالْعَظَمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ.

ولهذا كَانَ ﷺ إِذَا رَأَى الْهَلَالَ كَبَّرَ؛ لِأَنَّهُ آيَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى عَظَمَةِ الرَّبِّ وَكَبْرِيَاءِهِ، وَالتَّكْبِيرُ: تَعْظِيمُ اللَّهِ، وَاعْتِقَادُ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَكْبَرُ مِنْهُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ عَدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ؟!)^(١).

بَلْ إِنَّ التَّكْبِيرَ مَشْرُوعٌ عِنْدَ رُؤْيَةِ كُلِّ كَبِيرٍ وَعَظِيمٍ؛ لِيَبْقَى الْقَلْبُ لَيْسَ فِيهِ اشْتِغَالٌ إِلَّا بِتَكْبِيرِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ؛ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «التَّكْبِيرُ مَشْرُوعٌ فِي الْمَوَاضِعِ الْكُبَارِ؛ لِكَثْرَةِ الْجَمْعِ، أَوْ لِعَظَمَةِ الْفِعْلِ، أَوْ لِقُوَّةِ الْحَالِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْكُبَرَى؛ لِيُبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ، وَتَسْتَوْلِي كَبْرِيَاؤُهُ فِي الْقُلُوبِ عَلَى كَبْرِيَاءِ تِلْكَ الْأُمُورِ الْكُبَارِ، فَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَيَكُونُ الْعِبَادُ لَهُ مَكْبَرِينَ، فَيَحْصُلُ لَهُمْ مَقْصُودَانِ: مَقْصُودُ الْعِبَادَةِ بِتَكْبِيرِ قُلُوبِهِمْ لِلَّهِ، وَمَقْصُودُ الاسْتِعَانَةِ بِانْقِيَادِ سَائِرِ الْمَطَالِبِ لِكَبْرِيَاءِهِ»^(٢).

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٤٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤/٢٢٦).

أَمَّا تَكْبِيرُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْهَلَالِ، فَقَدْ رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَأَى الْهَلَالَ، قَالَ: (اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهْلُهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا نُحِبُّ وَتَرْضَى، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ)»^(١).

ولنبداً هنا في الكلام على معنى الحديث:

قوله: «إِذَا رَأَى الْهَلَالَ»؛ الْهَلَالُ هُوَ: غُرَّةُ الْقَمَرِ لِلَيْلَتَيْنِ أَوْ لثَلَاثٍ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: قَمَرٌ.

وقوله: (أَهْلُهُ عَلَيْنَا)؛ أَي: أَظْلَعُهُ عَلَيْنَا، وَأَرِنَا إِيَّاهُ.

وقوله: (بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ) الْأَمْنُ هُوَ: الطَّمَأْنِينَةُ وَالرَّاحَةُ وَالسَّكُونُ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الْآفَاتِ وَالشُّرُورِ، وَفِي حَدِيثِ طَلْحَةَ: «بِالْيُمْنِ»، وَالْيُمْنُ: هُوَ السَّعَادَةُ، وَالْإِيمَانُ هُوَ: الْإِقْرَارُ وَالتَّصَدِيقُ وَالْخُضُوعُ لِلَّهِ.

وقوله: (وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ)، السَّلَامَةُ هِيَ: الْوَقَايَةُ وَالنَّجَاةُ مِنَ الْآفَاتِ وَالْمَصَائِبِ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ: الْاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ، وَالانْقِيَادُ لِشَرْعِهِ.

وقوله: (رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ) فِيهِ إِثْبَاتُ أَنَّ النَّاسَ وَالْقَمَرَ وَجَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلُّهَا مَرْبُوبَةٌ لِلَّهِ، مَسْخَرَةٌ بِأَمْرِهِ، خَاضِعَةٌ لِحُكْمِهِ؛ وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ عَبَدَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٧].

ثُمَّ إِنَّ الْحَدِيثَ فِيهِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ، أُشِيرُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا:

* فَمِنْ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ: أَنَّ فِيهِ بَيَانًا لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُمَا لَيْسَا شَيْئًا وَاحِدًا عِنْدَمَا يَجْتَمِعَانِ فِي الذِّكْرِ، بَلْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعْنَى خَاصَّةٌ؛ فَالْإِيمَانُ يُرَادُّ بِهِ: الْاعْتِقَادَاتُ الْبَاطِنَةُ، وَالْإِسْلَامُ يُرَادُّ بِهِ: الْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ، أَمَّا عِنْدَ إِفْرَادِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالذِّكْرِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ مَتَنَاوِلًا لِمَعْنَى الْآخَرِ.

(١) «سنن الدارمي» رقم (١٦٨٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٣٩): «فيه عثمان بن إبراهيم الحاطبي، وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات».

* وَمِنْ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ: أَنَّ الْأَمْنَ مَرْتَبُطٌ بِالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةُ مَرْتَبُطَةٌ بِالْإِسْلَامِ؛ فَالْإِيمَانُ طَرِيقُ الْأَمَانِ، وَالْإِسْلَامُ طَرِيقُ السَّلَامَةِ، وَمَنْ رَامَ الْأَمْنَ وَالسَّلَامَةَ بغيرهما ضَلَّ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

* وَمِنْ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ: أَنَّ فِيهِ لَفْتَةٌ كَرِيمَةٌ إِلَى أَنَّ أَهَمَّ مَا تُشْغَلُ بِهِ الشُّهُورُ، وَتُمْضَى فِيهِ الْأَوْقَاتُ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَبِمَا أَمَرَ عِبَادَهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ أَحْكَامِهِ، وَجَمِيعِ أَوَامِرِهِ.

ومرورُ الشُّهُورِ عَلَى الْعَبْدِ مَعَ الْإِنْشِغَالِ عَنْ هَذَا الْمَقْصِدِ الْجَلِيلِ: ضِيَاعٌ لِلشُّهُورِ، وَحِرْمَانٌ مِنَ الْخَيْرِ، فَالشُّهُورُ لَمْ تُخْلَقْ وَلَمْ تَوْجَدْ إِلَّا لَتَكُونَ مَسْتَوْدَعًا لِلْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَنْجَلِي أَمْرُهُ لِلنَّاسِ عِنْدَمَا يَقِفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لِيَرَوْا نَتَائِجَ أَعْمَالِهِمْ، وَحَصَادَ حَيَاتِهِمْ، وَثَمَرَةَ أَوْقَاتِهِمْ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السَّنَةُ شَجَرَةٌ، وَالشُّهُورُ فُرُوعُهَا، وَالْأَيَّامُ أَغْصَانُهَا، وَالسَّاعَاتُ أَوْرَاقُهَا، وَالْأَنْفَاسُ ثَمَرُهَا، فَمَنْ كَانَتْ أَنْفَاسُهُ فِي طَاعَةٍ، فَثَمَرُهُ شَجَرَتُهُ طَيِّبَةً، وَمَنْ كَانَتْ فِي مَعْصِيَةٍ، فَثَمَرُهُ حَنْظَلٌ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْجَذَازُ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَعِنْدَ الْجَذَازِ يَتَبَيَّنُ حُلُوُّ الثَّمَارِ مِنْ مُرِّهَا»^(١). اهـ.

وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ أَوْقَاتَنَا جَمِيعًا، وَيَعْمُرَهَا بِالْأَمَنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، هُوَ رَبُّنَا لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ.



الدُّعَاءُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

إِنَّ فِي السَّنَةِ أَيَّامًا فَاضِلَةً، وَأَوْقَاتًا شَرِيفَةً، الدُّعَاءُ فِيهَا أَفْضَلُ، وَالْإِجَابَةُ فِيهَا أَحْرَى، وَالْقَبُولُ فِيهَا أَرْجَى، وَلَهُ سُبْحَانَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [الْقَصَص: ٦٨]؛ فَلَكَامَالِ حِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَتَمَامِ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ يَخْتَارُ مِنْ خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَالْأَمَكْنَةِ وَالْأَشْخَاصِ، فَيَخْصُّهُمْ سُبْحَانَهُ بِمَزِيدِ فَضْلِهِ، وَجَزِيلِ عَنَائَتِهِ، وَوَافِرِ مَنَّتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ آيَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ، وَأَعْظَمِ شَوَاهِدِ وَحْدَانِيَّتِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، يَقْضِي فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا يَرِيدُ؛ ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٦] وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الْبَاقِيَةَ].

وإِنَّ مِمَّا خَصَّهُ اللَّهُ ﷻ مِنَ الْأَوْقَاتِ بِمَزِيدِ تَفْضِيلِهِ، وَوَافِرِ تَكْرِيمِهِ: شَهْرُ رَمَضَانَ؛ حَيْثُ فَضَّلَهُ عَلَى سَائِرِ الشُّهُورِ، وَالْعَشْرَ الْآخِرَ مِنْ لَيْلَالِيهِ؛ حَيْثُ فَضَّلَهَا عَلَى سَائِرِ اللَّيَالِي، وَلَيْلَةَ الْقَدْرِ، حَيْثُ جَعَلَهَا - لِمَزِيدِ فَضْلِهَا عِنْدَهُ، وَعَظِيمِ مَكَانَتِهَا - خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، وَفَخَمَ سُبْحَانَهُ أَمْرَهَا، وَأَعْلَى شَأْنَهَا، وَرَفَعَ مَكَانَتَهَا عِنْدَهُ، فَأَنْزَلَ فِيهَا وَحْيَهُ الْمُبِينِ، وَكَلَامَهُ الْكَرِيمِ، وَتَنْزِيلَهُ الْحَكِيمِ؛ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، وَفُرْقَانًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَضِيَاءً وَنُورًا وَرَحْمَةً.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [٣] فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ [٤] أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [٥] رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٦] رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ [٧] لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدَّخَان].

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [١] وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ [٢]

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٢٦﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْوَحْشَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴿٢٧﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٢٨﴾ [القدر].

فَلِلَّهِ مَا أَعْظَمَهَا مِنْ لَيْلَةٍ! وما أَجَلَ خَيْرِهَا! وما أَوْفَرَ بَرَكَتِهَا! لَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ؛ أَي: ما يزيدُ على ثَلَاثَةِ وَثَمَانِينَ عَامًا، عُمُرُ رَجُلٍ مُعَمَّرٍ، وَهُوَ عُمُرٌ طَوِيلٌ لو قَضَاهُ الْمُسْلِمُ كُلَّهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، فَلَيْلَةُ الْقَدْرِ - وَهِيَ لَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ - خَيْرٌ مِنْهُ؛ هَذَا لِمَنْ حَصَلَ فَضْلُهَا، وَنَالَ بَرَكَتِهَا.

قال مجاهدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، لَيْسَ فِي تِلْكَ الشُّهُورِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ»؛ وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَالشَّافِعِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ يَكْثُرُ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ لِكثَرَةِ بَرَكَتِهَا؛ إِذَا الْمَلَائِكَةُ يَتَنَزَّلُونَ مَعَ تَنْزِيلِ الْبَرَكَةِ، وَهِيَ سَلَامٌ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ؛ أَي: إِنَّهَا خَيْرٌ كُلِّهَا، لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ، وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ؛ أَي: يُقَدَّرُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، وَالْمُرَادُ بِالتَّقْدِيرِ هُنَا: التَّقْدِيرُ السَّنَوِيُّ، أَمَّا التَّقْدِيرُ الْعَامُّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَهُوَ مُتَقَدِّمٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ؛ كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

إِنَّ لَيْلَةَ هَذَا شَأْنُهَا يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى طَلَبِهَا تَمَامَ الْحَرَصِ لِيَفُوزَ بِثَوَابِهَا، وَلِيَعْنَمَ خَيْرَهَا، وَلِيَحْصِلَ أَجْرَهَا، وَلِيَنَالَ بَرَكَتِهَا، وَالْمَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ الثَّوَابِ، وَمَنْ تَمَرُّ عَلَيْهِ مَوَاسِمُ الْخَيْرِ وَأَيَّامُ الْبَرَكَةِ وَالْفَضْلِ وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ فِي ذَنْبِهِ، مَتَمَادٍ فِي غِيَّهِ، مِنْهُمْ كُفٍّ فِي عَصْيَانِهِ، أَتْلَفَتْهُ الْغَفْلَةُ، وَأَهْلَكَهُ الْإِعْرَاضُ، وَصَدَّتْهُ الْغَوَايَةُ، فَمَا أَعْظَمَ حَسْرَتَهُ! وَمَا أَشَدَّ نَدَامَتَهُ! وَمَنْ لَمْ يَحْرِصْ عَلَى الرَّيْحِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، فَمَتَى يَكُونُ الْجُرْصُ؟! وَمَنْ لَمْ يُنَبِّ إِلَى اللَّهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ الشَّرِيفِ، فَمَتَى تَكُونُ الْإِنَابَةُ؟! وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَقَاعَسًا فِيهَا عَنِ الْخَيْرَاتِ، فَمَتَى يَكُونُ الْعَمَلُ؟!!

إِنَّ الْحَرَصَ عَلَى طَلَبِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَتَحَرِّيِ الطَّاعَةِ فِيهَا، وَالِاجْتِهَادَ فِي

الدُّعَاءِ مِنْ سِمَاتِ الْأَخْيَارِ، وَعَلَامَاتِ الْأَبْرَارِ، بَلْ إِنَّهُمْ يُلْحُونَ عَلَى اللَّهِ فِيهَا أَنْ يَكْتُبَ لَهُمُ الْعَفْوَ وَالْمَعَاْفَةَ؛ لِأَنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي يُكْتُبُ فِيهَا مَا يَكُونُ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي عَامِهِ كُلِّهِ، فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ يَدْعُونَ وَيُلْحُونَ، وَفِي عَامِهِمْ كُلِّهِ يَجِدُونَ وَيَجْتَهِدُونَ، وَمِنْ اللَّهِ يَطْلُبُونَ الْعَوْنَ، وَيَسْأَلُونَ التَّوْفِيقَ.

روى الترمذي، وابن ماجه، وغيرهما، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: (قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفْوٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي)»^(١).

ثبت عن عائشة أنها قالت: «لَوْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَكَانَ أَكْثَرَ دُعَائِي فِيهَا أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ»^(٢).

وهذا الدُّعَاءُ الْمُبَارَكُ عَظِيمُ الْمَعْنَى، عَمِيقُ الدَّلَالَةِ، كَبِيرُ النَّفْعِ وَالْأَثَرِ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِهَذِهِ اللَّيْلَةِ غَايَةَ الْمُنَاسَبَةِ، فَهِيَ - كَمَا تَقَدَّمَ - اللَّيْلَةُ الَّتِي يُفْرَقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، وَيُقَدَّرُ فِيهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ لِسَنَةِ كَامِلَةٍ حَتَّى لَيْلَةِ الْقَدْرِ الْآخَرَى، فَمَنْ رَزَقَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْعَافِيَةَ، وَعَفَا عَنْهُ رَبُّهُ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَفَارَّ وَرَبِحَ أَعْظَمَ الرِّبْحِ، وَمَنْ أُوتِيَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَدْ أُوتِيَ الْخَيْرَ بِحَذَافِيرِهِ، وَالْعَافِيَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ.

روى البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي في «الجامع»، عن الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ تعالى، قَالَ: (سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ)، فَمَكَّثْتُ أَيَّامًا، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهَ، فَقَالَ لِي: (يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ، سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)»^(٣).

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي في «الجامع»، عن

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٣٤).

(٢) «السنن الكبرى» رقم (١٠٦٤٨)، و«مصنف ابن أبي شيبة» رقم (٢٩١٨٩).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٥٠٢).

أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «أتى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (سَلِ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، ثُمَّ أَتَاهُ الْغَدَا، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (سَلِ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِذَا أُعْطِيَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَدْ أَفْلَحْتَ)»^(١).

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، عن أَوْسَطِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَامَ أَوَّلِ مَقَامِي هَذَا، ثُمَّ بَكَى أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: (عَلَيْكُمْ بِالصُّدُقِ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ، وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ، وَهُمَا فِي النَّارِ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْمُعَافَاةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُوْتَّ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَافَاةِ، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَذَابَرُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا)»^(٢).

❦ ولهذا فَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، وَلَا سِيَّما فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ، الَّتِي فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، وَلِيَعْلَمَ الْمُسْلِمُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ عَفْوٌ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]، وَلَمْ يَزَلْ سَبْحَانَهُ وَلَا يَزَالُ بِالْعَفْوِ مَعْرُوفًا، وَبِالصَّفْحِ وَالْغَفْرِانِ مَوْصُوفًا، وَكُلُّ أَحَدٍ مُضْطَرٌّ إِلَى عَفْوِهِ، مُحْتَاجٌ إِلَى مَغْفِرَتِهِ، لَا غِنَى لِأَحَدٍ عَنْ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا غِنَى لِأَحَدٍ عَنْ رَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ، فَنَسْأَلُهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَشْتَمِلَنَا بِعَفْوِهِ، وَأَنْ يُدْخِلَنَا فِي رَحْمَتِهِ، وَأَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِي طَاعَتِهِ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا.



(١) رواه أحمد في «المسند» (١٢٧/٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥١٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٤٨)، و«الأدب المفرد» رقم (٦٣٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٤٩٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٥/١)، وابن ماجه رقم (٣٨٤٩)، و«الأدب المفرد» رقم (٧٢٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥٧).

أَذْكَارُ رُكُوبِ الدَّابَّةِ وَالسَّفَرِ

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْآلَاءِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٦) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف].

لقد أُرشد سبحانه إلى أن وسائل النقل من السفن والأنعام، وكذلك ما سَخَّرَهُ للناس في هذا الزمان من وسائل حديثة، للنقل منها ما يسيّر على الأرض، ومنها ما يطير في الهواء، ومنها ما يمشي في البحار، واستقرار الناس على ظهورها، واستواءهم على متونها، وتنفّلهم عليها من مكان إلى مكان براحة واطمئنان، كل ذلك من لطف الله وتسخيره وإكرامه وإنعامه، فكيف يليق بمن ركبها أن يغفل عن ذكر المنعم والمتفضل بها، والثناء عليه بما هو أهله.

وقد كان هدي النبي ﷺ عند ركوب الدابة وفي السفر أكمل الهدى وأتمه، كيف لا وهو أكمل الناس طاعةً، وأحسنهم عبادةً، وأجملهم وأزكاهم سيرة؟! وفيما يلي عرضٌ لشيء من هديه صلوات الله وسلامه عليه في ذلك:

ففي «جامع الترمذي»، و«سنن أبي داود»، وغيرهما، عن علي بن ربيعة، قال: «شهدتُ علياً عليه السلام، وأُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ، قَالَ: (بِسْمِ اللَّهِ)، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا، قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ)، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، ثُمَّ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُ أَكْبَرُ) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: (سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَّ كَمَا فَعَلْتُ، ثُمَّ

ضَحِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي)»^(١).

وليتأمل المسلم هذا وما فيه من دلالة على كمال فضل الله، وسعة مغفرته، وتَمَامِ بَرِّهِ وإِحْسَانِهِ، مع غناه الكامل عَنْ تَوْبَةِ عِبَادِهِ واستغفارِهِمْ.

وكان مِنْ هَدِيهِ ﷺ إِذَا رَكِبَ دَابَّتَهُ مسافراً أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى فِي سَفَرِهِ، وَأَنْ يُيسِّرَ لَهُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَرْضِيهِ، وَأَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِ السَّفَرَ، وَأَنْ يَعِذَّهُ فِيهِ مِنَ الْعَوَاقِبِ السَّيِّئَةِ فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ أَهْلِهِ.

ففي «صحيح مسلم»، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴿١٤﴾»، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: (أَيُّونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ)^(٢).

وقوله: (اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى)، الْبِرُّ: فعلُ الطاعات، وَالتَّقْوَى: تَرْكُ المعاصي والذنوب، هذا عند اجتماعهما في الذِّكْرِ كما في هذا النصِّ، وَأَمَّا إِذَا ذُكِرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا منفردًا، فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ معنى الآخر.

وقوله: (اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ)؛ أَي: يَسِّرْهُ لَنَا، وَقَصِّرْ لَنَا مسافته.

وقوله: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ)، المرادُ بالصُّحْبَةِ: المَعِيَّةُ

(١) «سنن أبي داود» رقم (٢٦٠٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٤٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٤٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١٣٤٢).

الخاصَّةُ التي تقتضي الحفظَ والعَوْنَ والتأييدَ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَمِمَّنْ يَخَافُ؟!
 وقوله: (وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ)، الخليفةُ: مَنْ يَخْلُفُ مَنْ اسْتَخْلَفَهُ فِيمَا
 اسْتَخْلَفَ فِيهِ؛ والمعنى: أَنِّي أَعْتَمِدُ عَلَيْكَ وَحَدَكَ - يَا اللَّهُ - فِي حِفْظِ أَهْلِي.
 وقوله: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ)؛ أي: مِنْ مَشَقَّتِهِ وَتَعَبِهِ.
 وقوله: (وَكِتَابَةِ الْمَنْظَرِ)؛ أي: سَوْءِ الْحَالِ وَالْانْكَسَارِ؛ بِسَبَبِ الْحَزَنِ
 وَالْأَلَمِ.

وقوله: (وَسَوْءِ الْمُنْقَلَبِ)؛ أي: الْانْقِلَابِ وَالْقُفُولِ مِنَ السَّفَرِ بِمَا يُحْزَنُ
 وَيَسُوءُ؛ سَوْءٌ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي مَالِهِ وَأَهْلِهِ.

وقوله: «وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: (آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبَّنَا
 حَامِدُونَ)، مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُقَالَ هَذَا عِنْدَ الْقُفُولِ، وَأَنْ يُقَالَ كَذَلِكَ عِنْدَ الْإِشْرَافِ
 عَلَى بَلَدِهِ وَالْقَرَبِ مِنْهُ؛ لِمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ
 النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: (آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبَّنَا
 حَامِدُونَ)، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُهَا حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ»^(١).

وقوله: (آيِبُونَ)؛ أي: نَحْنُ آيِبُونَ، مِنْ «آبٍ»: إِذَا رَجَعَ، وَالْمُرَادُ:
 رَاجِعُونَ بِالسَّلَامَةِ وَالْخَيْرِ.

وقوله: (تَائِبُونَ)؛ أي: إِلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَتَفْرِيطِنَا.

وقوله: (لِرَبَّنَا حَامِدُونَ)؛ أي: لِنِعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَعَطَايَاهُ الْجَسِيمَةِ، وَتَسْهِيلِهِ
 وَتَيْسِيرِهِ.

وَمِنَ السُّنَّةِ: التَّكْبِيرُ عِنْدَ صُعُودِ الْأَشْرَافِ وَالْأَمَاكِنِ الْمُرْتَفَعَةِ، وَالتَّسْبِيحُ
 عِنْدَ نَزُولِ الْأَوْدِيَةِ وَالْأَمَكَةِ الْمُنْخَفِضَةِ؛ فَفِي «الْبُخَارِيِّ»، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
 قَالَ: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا»^(٢).

وَفِي التَّكْبِيرِ فِي الصُّعُودِ: شُغْلٌ لِلْقَلْبِ وَاللِّسَانِ بِتَعْظِيمِ الرَّبِّ وَإِعْلَانِ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٠٨٥)، و«صحيح مسلم» رقم (١٣٤٥).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٢٩٩٣).

كبريائه وعظمته، وفيه طَرْدٌ لِلْكِبَرِ والعُجْبِ والغرور، وفي التَّسْبِيحِ في الهبوط: تَنْزِيَهُ اللَّهِ عَنِ النَّقَائِصِ والعيوب، وَعَنْ كُلِّ مَا يُنَافِي وَيُضَادُّ كَمَالَهُ وَجَلَالَهُ.

وكان مِنْ هَدِيَةِ ﷺ الدعاء لِمَنْ أَرَادَ السَّفَرَ بالحفظ، وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ، وتيسير الأمر، مع الوصية بتقوى الله ﷻ.

ففي «جامع الترمذي»، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنه: «كَانَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا: اذْنُ مِنِّي أَوْدَعُكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُودِّعُنَا، فَيَقُولُ: (أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ، وَأَمَانَتَكَ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ)»^(١)؛ أي: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَهَا عَلَيْكَ.

وفي «جامع الترمذي» أيضًا، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ، فَأَوْصِنِي، قَالَ: (عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ)، فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ: (اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الْأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ)»^(٢).

وفي «جامع الترمذي» أيضًا، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا، فَرَوِّدْنِي، قَالَ: (رَوِّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى)، قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: (وَعَفَرَ ذَنْبَكَ)، قَالَ: زِدْنِي بِأَبْيٍ أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: (وَيَسِّرْ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ)»^(٣).

وكان ﷺ يوصي مَنْ أَرَادَ السَّفَرَ أَنْ يَدْعُوَ لِمَنْ يُخَلِّفُ بِأَنْ يَكُونَ فِي وَدَاعِ اللَّهِ وَحَفِظِهِ؛ ففي «عمل اليوم والليلة» لابن السُّنِّي، عن موسى بن وَرْدَانَ، قَالَ: «أَتَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ أَوْدَعُهُ لِسَفَرٍ أَرَدْتُهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَلَا أَعْلَمُكَ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٧/٢)، وأبو داود رقم (٢٦٠٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٤٣)، وابن ماجه رقم (٢٨٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٣٧٣٨).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٤٥)، ورواه ابن ماجه رقم (٢٧٧١)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٣٩).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٣٩).

يا ابن أخي شيئاً عَلَّمَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقُولُهُ عِنْدَ الْوَدَاعِ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى،
 قَالَ: قُلْ: (أَسْتَوْدِعُكُمْ اللَّهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ)، ورواه ابن ماجه، عن
 أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: وَدَّعَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ، وَذَكَرَهُ^(١)؛ أَي: إِنَّهُ
 سَبَحَانَهُ يَحْفَظُ مَا اسْتَوْدَعَ.

عن ابن عُمر رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا اسْتَوْدَعَ اللَّهُ
 شَيْئًا، حَفِظَهُ)^(٢).

فَنَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْنَا دِينَنَا، وَأَنْ يُوفِّقَنَا جَمِيعًا لِكُلِّ خَيْرٍ.



(١) «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٠٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٨٢٥)، وصححه الألباني في
 «صحيح ابن ماجه» رقم (٢٢٧٨).

(٢) رواه ابن حبان (٢٣٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح موارد الظمان» (٢٠١٦).

مَا يَقُولُهُ إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا أَوْ رَأَى قَرْيَةً أَوْ بَلَدًا يُرِيدُ دُخُولَهَا

لقد كان الحديث عن الأذكار التي يُسْتَحَبُّ للمسلم أن يَقُولَهَا عند ركوب الدَّابَّةِ وعند السَّفَرِ، وهي أذكارٌ مباركةٌ، لها آثارها الحميدة على الرَّاكِبِ والمسافرِ في سدادِ أمرِهِ، وسلامَتِهِ، وحفظِهِ مِنَ الآفاتِ والشرورِ.

ثمَّ إنَّ المسلمَ يُسْتَحَبُّ له إذا نَزَلَ مَنْزِلًا أن يقول: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ ذَلِكَ، حَفِظَ وَوُقِيَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - وَلَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ.

ففي «صحيح مسلم»، مِنْ حَدِيثِ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنَزِلِهِ ذَلِكَ) ^(١).

وهو دعاءٌ عظيمٌ؛ فيه التجاءٌ إلى اللَّهِ ﷻ، واعتصامٌ به، وتَعَوُّذٌ بكلماتِهِ، خلافَ ما كان عليه أَهْلُ الجاهليَّةِ مِنَ التَّعَوُّذِ بِالْجِنِّ والأحجارِ وغيرِ ذلك مما لا يَزِيدُهُمْ إِلَّا رَهَقًا وَضَعْفًا وَذَلَّةً؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، فنَعَى تَبَارَكَ وتعالى عليهم هذه الاستعاذة، وَبَيَّنَّ عَوَاقِبَهَا الوخيمة، وَمَعَبَّثَتَهَا الأليمةَ في الدنيا والآخرة، وشرَعَ سبحانه لعبادِهِ المؤمنين الاستعاذةَ بِهِ وحده، والالتجاءَ إِلَيْهِ دُونَ سِوَاهُ؛ إِذْ هُوَ الَّذِي يَبْدِيهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ، ونَوَاصِي الْعِبَادِ، وَأَمَّا مَا سِوَاهُ، فَإِنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَمْلِكَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ.

وقوله: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ)؛ أي: أَلْتَجِيءُ وَأَعْتَصِمُ، وكلمات الله، قيل: هي القرآن، وقيل: هي الكلمات الكونية القدرية؛ ومعنى (التَّامَّاتِ)؛ أي: التي لا يَلْحَقُهَا نَقْصٌ ولا عَيْبٌ، كما يَلْحَقُ كَلَامَ الْبَشَرِ.

وفي الحديث: دَلَالَةٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْإِسْتِعَاذَةِ بِصِفَاتِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ عِبَادَةٌ لَا يَجُوزُ صَرْفُهَا لغيرِ اللَّهِ، وَأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ - وَمِنَ الْقُرْآنِ - لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ؛ إِذْ لَوْ كَانَ مَخْلُوقًا، لَمْ يُسْتَعَذَّ بِهِ؛ لِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ لَا تَجُوزُ، بَلْ هِيَ شَرَكٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ.

وقوله: (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)؛ أي: مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي أَيِّ مَخْلُوقٍ قَامَ بِهِ الشَّرُّ مِنْ حَيَوَانٍ أَوْ غَيْرِهِ، إِنْشَاءً كَانَ أَوْ جَنِيًّا، أَوْ هَامَّةً أَوْ دَابَّةً، أَوْ رِيحًا أَوْ صَاعِقَةً، أَيُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ.

وقوله: (لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)؛ أَيُّ شَيْءٍ كَانَ؛ لِأَنَّهُ مُحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللَّهِ. لَكِنْ يُشْتَرَطُ فِي هَذَا الدَّعَاءِ وَغَيْرِهِ قَابِلِيَّةُ الْمَحَلِّ، وَصِحَّةُ النِّيَّةِ، وَحُسْنُ الثِّقَةِ بِاللَّهِ ﷻ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْمَوَاطَبَةِ عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ يَنْزِلُهُ الْإِنْسَانُ.

يقول القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا خَيْرٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلٌ صَادِقٌ، عَلِمْنَا صِدْقَهُ دَلِيلًا وَتَجَرِبَةً؛ فَإِنِّي مِنْذُ سَمِعْتُ هَذَا الْخَبَرَ عَمِلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَضُرَّنِي شَيْءٌ إِلَى أَنْ تَرَكْتُهُ، فَلَدَغْتَنِي عَقْرَبٌ بِالْمَهْدِيَّةِ لَيْلًا، فَتَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي، فَإِذَا بِي قَدْ نَسِيتُ أَنْ أَتَعَوَّذَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ»^(١).

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ إِذَا أَرَادَ دُخُولَ قَرْيَةٍ أَوْ بَلَدَةٍ أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَّاحِ وَمَا دَرَبْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا)؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْبُولُ ذَلِكَ كُلَّمَا رَأَى قَرْيَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا؛ كَمَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ

(١) ذكره الشيخ سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (ص ٢١٤).

صَهَبَ ﷺ^(١) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرِ قَرْيَةً يَرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ حِينَ يَرَاهَا.

والقرية: اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه الناسُ مِنَ المساكن والأبنية والضِّياع، وقد تُطْلَقُ عَلَى الْمُدُنِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّمَّا أَصْعَبَ الْقَرْيَةَ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]، فَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا أَنْطَاكِيَّةٌ، وَيُقَالُ لِمَكَّةَ: أُمُّ الْقُرَى؛ وَعَلَيْهِ: فَإِنَّ هَذَا الدَّعَاءَ يُقَالُ عِنْدَ دُخُولِ الْقَرْيَةِ أَوْ الْمَدِينَةِ.

وقوله: (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ)، فِيهِ تَوَسُّلٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ بِرَبُوبِيَّتِهِ لِلْسَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلَتْ تَحْتَهَا مِنَ النُّجُومِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا، فَقَوْلُهُ: (وَمَا أَظْلَلْنَ): مِنَ الْإِظْلَالِ؛ أَيُّ: مَا ارْتَفَعَتْ عَلَيْهِ وَعَلَتْ، وَكَانَتْ لَهُ كَالظُّلَّةِ.

وقوله: (وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ): مِنَ الْإِقْلَالِ، وَالْمَرَادُ: مَا حَمَلَتْهُ عَلَى ظَهَرِهَا مِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقوله: (وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَّلْنَ)، مِنَ الْإِضْلَالِ، وَهُوَ: الْإِغْوَاءُ وَالصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١٨) وَلَا ضُلَّتَهُمْ وَلَا مَتْنَهُمْ وَلَا مَنَّهُمْ فَلْيَبْتَكَرْ أَذَاكَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَتْنَهُمْ فَلْيَعْرِبْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿[النساء].

وَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكُهُ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ سَبْحَانَهُ شَامِلَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَشِئَتُهُ سَبْحَانَهُ نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ -: لَجَأٌ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، وَاسْتِعَاذٌ بِهِ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَخَفْ أَحَدًا سِوَاهُ.

وقوله: (وَرَبَّ الرِّيَّاحِ وَمَا ذَرَيْنَ)، يُقَالُ: ذَرْتُهُ الرِّيَّاحَ وَأَذَرْتُهُ وَتَذَرُوهُ؛ أَيُّ:

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ رَقْمَ (١٦٣٤)، وَ«عَمَلُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» لِلنَّسَائِيِّ رَقْمَ (٥٤٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» رَقْمَ (٢٧٥٩).

أَطَارَتْهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبَحْ هَاشِمًا نَذْرُهُ الرَّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنِدًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: (فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا)، فيه سؤال الله ﷻ أن يجعل هذه القرية مباركةً عليه، وأن يَمْنَحَهُ مِنْ خَيْرِهَا، وأن يُيسِّرَ لَهُ السُّكْنَى فِيهَا بِالسَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ، (وَخَيْرَ أَهْلِهَا)؛ أي: ما عندهم من الإيمان والصلاح، والاستقامة والتعاون على الخير، ونحو ذلك، (وَخَيْرَ مَا فِيهَا)؛ أي: مِنَ النَّاسِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَطَاعِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقوله: (وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا)، فيه تعوذ بالله ﷻ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ وَالْمُؤْذِيَّاتِ؛ سواءً فِي الْقَرْيَةِ نَفْسِهَا، أَوْ فِي السَّاكِنِينَ لَهَا، أَوْ فِي مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ.

فهذه دعوة جامعة لسؤال الله الخير، والتعوذ به مِنَ الشَّرِّ بَعْدَ التَّوَسُّلِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِرَبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ.

ثُمَّ إِنَّ الْمَسَافِرَ يُسْتَحَبُّ لَهُ فِي سَفَرِهِ الْإِكْتِسَارُ مِنَ الدَّعَاءِ لِنَفْسِهِ وَوَالِدَيْهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَخَيَّرُ مِنَ الدَّعَاءِ أَجْمَعَهُ، مَعَ الْإِلْحَاحِ عَلَى اللَّهِ ﷻ؛ لِأَنَّ دَعْوَةَ الْمَسَافِرِ مُسْتَجَابَةٌ.

ففي «السنن الكبرى» للبيهقي، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ لَا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ) ^(١).

وروى أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ) ^(٢).

هذا، وأسأل الله أن يوفقنا جميعاً لطاعته، وأن يُعِينَنَا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ فِي سَفَرِنَا وَإِقَامَتِنَا، وَفِي كُلِّ شَأْنِنَا؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٣٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٨٣).

أَذْكَارُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

إِنَّ مِنَ السُّنَّةِ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ بَدْءِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ: (بِسْمِ اللَّهِ)؛ لِيُحْفَظَ وَيُوقَى، وَلِيُبَارَكَ لَهُ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ.

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، عن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «كُنْتُ غُلَامًا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدَيَّ تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا غُلَامُ، سَمِ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)؛ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ»^(١).

*** وفي التسمية على الطعام فوائد كثيرة؛ منها:** أَنَّهُ يُبَارَكَ لَهُ فِي طَعَامِهِ؛ ففي سنن أبي داود، وابن ماجه، وغيرهما، عن وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ بن وَحْشِي، عن أبيه، عن جَدِّهِ رضي الله عنه: «أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ؟ قَالَ: (فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ)، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: (فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، يُبَارَكَ لَكُمْ فِيهِ)»^(٢).

*** ومن فوائد التسمية على الطعام:** طَرْدُ الشَّيْطَانِ وَإِبَاعَدُهُ، فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنْ مِشَارَكَةِ الْإِنْسَانِ فِي طَعَامِهِ؛ ففي «صحيح مسلم»، عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا، لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَضَعُ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٠٢٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٥٠١/٣)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٧٦٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٢٨٦).

اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهِذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهِذَا الْأَعْرَابِيُّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا»^(١).

وُثِّبَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ - عِنْدَمَا يَتْرُكُ الْمُسْلِمُ التَّسْمِيَةَ عِنْدَ دُخُولِ بَيْتِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ -: (أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ)، وَفِي هَذَا أَنَّ التَّسْمِيَةَ طَارِدَةٌ لِلشَّيْطَانِ، مَانِعَةٌ لَهُ مِنْ دُخُولِ الْمَنْزِلِ، وَمِنْ الْمَشَارِكَةِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيَكْفِي الْمُسْلِمَ أَنْ يَقُولَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: (بِاسْمِ اللَّهِ)، أَمَا زِيَادَةُ «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَلَمْ يَثْبُتْ بِهَا حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمَ إِنْ نَسِيَ التَّسْمِيَةَ فِي أَوَّلِ طَعَامِهِ يُشْرَعُ لَهُ أَنْ يَقُولَ فِي أَثْنَائِهِ إِذَا ذَكَرَ: (بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ)؛ فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ)^(٢).

وَقَدْ أَفَادَ هَذَا الْحَدِيثُ أَنَّ مَحَلَّ التَّسْمِيَةِ قَبْلَ الْبَدْءِ بِالطَّعَامِ، فَإِنْ نَسِيَهَا الْمُسْلِمُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، أَجْزَأُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالتَّسْمِيَةِ فِي أَثْنَائِهِ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ فِي إِسْنَادِهِ ضَعْفٌ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَقِيءُ مَا فِي بَطْنِهِ إِذَا أَتَى الْمُسْلِمَ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ؛ وَذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، عَنْ أُمِّةَ بْنِ مَحْشِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يَأْكُلُ، فَلَمْ يُسَمِّ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ طَعَامِهِ إِلَّا لُقْمَةٌ، فَلَمَّا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ، قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٠١٧).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (٣٧٦٧)، و«جامع الترمذي»، رقم (١٨٥٨)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٢٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٨٠).

وآخِرُهُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ، ثُمَّ قَالَ: (مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ، اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ)^(١)، لَكِنَّ الْحَدِيثَ ضَعِيفٌ، ضَعَّفَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ وَغَيْرُهُ، وَأَمَّا التَّسْمِيَةُ فِي أَثْنَاءِ الطَّعَامِ فِي حَقِّ مَنْ نَسِيَ بِقَوْلٍ: (بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ)، فَهِيَ ثَابِتَةٌ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ.

ثُمَّ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ ﷻ إِذَا فَرَّغَ مِنْ طَعَامِهِ وَشُرْبِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَرْضَى عَنْ عَبْدِهِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)^(٢).

وَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَّةِ صَيِّغٌ عَدِيدَةٌ لِلْحَمْدِ بَعْدَ الطَّعَامِ، فَإِنْ تَمَكَّنَ الْمُسْلِمُ مِنْ حِفْظِهَا وَالِاتِّبَانِ بِهَا هَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً، فَهُوَ - لَا شَكَّ - أَكْمَلُ فِي حَقِّهِ، وَأَبْلَغُ فِي مُتَابَعَتِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَإِنْ لَمْ يَتِمَّكَزْ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا يَدْعُ أَنْ يَقُولَ عَقِبَ طَعَامِهِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ)؛ فَهِيَ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ مُبَارَكَةٌ حَبِيبَةٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ.

* وَمِنْ الصَّيِّغِ الثَّابِتَةِ فِي الْحَمْدِ بَعْدَ الطَّعَامِ: مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَكَلَ طَعَامًا، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)^(٣).

* وَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ، قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مُودِعٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبُّنَا)»^(٤).

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مُودِعٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ)؛ أَيُّ: الْحَمْدُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: حَمْدًا كَثِيرًا غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودِعٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْ هَذَا الْحَمْدِ.

(١) «المسند» (٣٣٦/٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٧٦٨)، وانظر: «إرواء الغليل» (٢٦/٧).

(٢)(٣)(٤) تقدم تخريجها (ص ٢٠٢).

* ومن الصَّيَغِ الواردة في هذا: ما رواه أحمد وغيره، عن عبد الرحمن بن جُبَيْرٍ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ رَجُلٌ خَدَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَمَانِ سَنِينَ، أَنَّهُ كَانَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا قُرِبَ إِلَيْهِ الطَّعَامُ يَقُولُ: (بِاسْمِ اللَّهِ)، وَإِذَا فَرَغَ قَالَ: (اللَّهُمَّ أَطْعَمْتَ وَأَسْقَيْتَ، وَأَغْنَيْتَ وَأَقْنَيْتَ، وَهَدَيْتَ وَأَحْيَيْتَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَعْطَيْتَ) ^(١).

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ إِذَا تَنَاوَلَ طَعَامَ الْإِفْطَارِ مِنْ صِيَامِهِ أَنْ يَقُولَ: (ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)؛ لِمَا رواه أبو داود، عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَفْطَرَ، قَالَ: (ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)» ^(١).

وقد جاءتِ السُّنَّةُ بأنواعٍ مِنَ الْأَدْعِيَةِ يُدْعَى بِهَا لِأَهْلِ الطَّعَامِ، فَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْفَظَ مَا تيسَّرَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنْ يَقُولَهُ لِمَنْ ضَيَّفَهُ أَوْ قَدَّمَ لَهُ طَعَامًا.

* ومن هذه الأدعية: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن المِقْدَادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ...»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ، وَفِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَاسْقِ مَنْ سَقَانِي) ^(٢).

* ومنها: ما رواه مسلمٌ أيضًا، عن عبد الله بن بُسْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي، قَالَ: فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ طَعَامًا، وَوُطْبَةً [أَي: حَيْسًا، وَهُوَ مَكُونٌ مِنَ التَّمْرِ وَالْأَقِطِ وَالسَّمْنِ]، فَأَكَلَ مِنْهَا، ثُمَّ أَتَيْ بَتْمَرٍ، فَكَانَ يَأْكُلُهُ وَيُلْقِي النَّوَى بَيْنَ إصْبَعَيْهِ، وَيَجْمَعُ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى، ثُمَّ أَتَيْ بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَآوَلَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ، قَالَ: فَقَالَ أَبِي - وَأَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّتِهِ -: ادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِيمَا رَزَقْتَهُمْ، وَاعْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمَهُمْ)» ^(٣).

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٥٥).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٤٢).

* ومنها: ما رواه أبو داود، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامُكُمْ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ)»^(١).

وكم هو جميلٌ بالمسلم أن يراعي في الطعامِ آدابَهُ وأذكارَهُ؛ ليكونَ ذلكَ أبركَ له في طعامِهِ وأهنأَ وأمرأً.

قال الإمام أحمد رحمته الله: «إِذَا جَمَعَ الطَّعَامُ أَرْبَعًا، فَقَدْ كَمُلَ: إِذَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ، وَحَمِدَ اللَّهُ فِي آخِرِهِ، وَكَثُرَتْ عَلَيْهِ الْأَيْدِي، وَكَانَ مِنْ حِلٍّ»^(٢)؛ وبالله وحده التوفيق.



(١) رواه أحمد في «المسند» (١١٧/٣)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٨٥٤)، وابن ماجه رقم (١٧٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٣٢٦٣).
(٢) انظر: «زاد المعاد» (٢٣٢/٤).

مَا وَرَدَ فِي السَّلَامِ

إِنَّ مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ الْحَمِيدَةِ، وَخَصَالِهِ الرَّشِيدَةِ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ؛ فَإِنَّ السَّلَامَ تَحِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَشِعَارُ الْمَوْحِدِينَ، وَدَاعِيَةُ الْإِخَاءِ وَالْأُلْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ تَحِيَّةٌ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ، كَمَا وَصَفَهُ بِذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [النور: ٦١]، وَهُوَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، يُحْيِيهِمْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يُسَاقُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، وَتُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُهَا الثَّمَانِيَّةُ، فَيَتَلَقَّاهُمْ خَزَنَتُهَا بِهَذِهِ التَّحِيَّةِ: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وَهُوَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَيْنَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وَهُوَ تَحِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ، وَتَحِيَّةُ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ.

فَفِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ؛ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسًا، فَاسْتَمِعَ مَا يُحْيُونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَادَوْهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ) ^(١).

* وَمِنْ فَضَائِلِ السَّلَامِ: أَنَّهُ مِنْ خَيْرِ الْإِسْلَامِ؛ فَفِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ)» ^(٢).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٨٤١).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٢٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٩).

وهو حقٌّ للمسلم على أخيه المسلم؛ لقوله ﷺ: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ)، وذكرَ منها: (وَإِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ) ^(١).

وهو سببٌ عظيمٌ للألفة بين المسلمين والمحبَّة بين المؤمنين؛ كما قال ﷺ: (لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؛ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)؛ رواه مسلم ^(٢).

والمحبَّةُ الحاصلةُ هنا سببها أن كلَّ واحدٍ مِنَ المتلاقين يدعو للآخر بالسلامة مِنَ الشرور، وبالرحمة الجالبة لكلِّ خير؛ ولهذا ثبت في «المسند» وغيره، عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (أَفْشُوا السَّلَامَ تَسَلَّمُوا) ^(٣)؛ أي: تَسَلَّمُوا مِنْ كُلِّ مُوجِبٍ لِلْفُرْقَةِ وَالْقَطِيعَةِ، وكيف إذا انضمَّ إلى هذا بشاشةُ الوجه، وحُسْنُ الترحيب، وجمالُ الأخلاق.

وعلى المسلم عليه ردُّ التحية بأحسن منها أو مثْلِها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النِّسَاء: ٨٦].

وخيرُ الرَّجُلَيْنِ مَنْ يَبْدَأُ صَاحِبَهُ بِالسَّلَامِ؛ ففي «سنن أبي داود»، عن أبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ) ^(٤).

وَإِذَا لَمْ يُسَلِّمْ مَنْ يُطْلَبُ مِنْهُ ابْتِدَاءُ السَّلَامِ، فَلْيُسَلِّمْ الْآخَرُ، وَلَا يَتْرَكُوا السُّنَّةَ.

وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُسَلِّمَ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ، وَالرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ،

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٧٣).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٥٤).

(٣) «المسند» (٢٨٦/٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٨٧).

(٤) «سنن أبي داود» رقم (٥١٩٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٢٧٠٣).

وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ)، وفي رواية للبخاري: (يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ)^(١).

وكان ﷺ يُسَلِّمُ عَلَى الصَّبِيَّانِ، وَيَبْدُوهُنَّ بِالسَّلَامِ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ تَوَاضَعِهِ، وَهُوَ ذَا بُ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ يَسَارٍ، قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، فَمَرَّ بِصَبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ ثَابِتٌ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَمَرَّ بِصَبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ أَنَسٌ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَرَّ بِصَبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ»^(٢).

ثُمَّ إِنَّ ابْتِدَاءَ السَّلَامِ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ؛ فَإِنْ كَانَ الْمُسَلِّمُ جَمَاعَةً كَفَى عَنْهُمْ وَاحِدٌ، وَلَوْ سَلَّمُوا جَمِيعًا كَانَ أَفْضَلَ.

وَرَفَعَ الصَّوْتُ بِابْتِدَاءِ السَّلَامِ سُنَّةٌ لِيَسْمَعَهُ الْمُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ سَمَاعًا مُحَقَّقًا؛ لِحَدِيثٍ: (أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ).

وَإِنْ سَلَّمَ عَلَى أَقِظٍ وَنِيَامٍ، خَفَضَ صَوْتَهُ بَحِثٌ يُسْمَعُ الْإِقَاطُ، وَلَا يُوقِظُ النَّيَامَ، وَهَذَا أَدَبٌ إِسْلَامِيٌّ رَفِيعٌ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمَعُ الْإِقَاطُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» ضَمَّنَ حَدِيثَ طَوِيلٍ^(٣).

وَيُسَنُّ أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلَامِ قَبْلَ الْكَلَامِ؛ لِحَدِيثٍ: (مَنْ بَدَأَ بِالْكَلَامِ قَبْلَ السَّلَامِ، فَلَا تُجِيبُوهُ)؛ رَوَاهُ ابْنُ السُّنِّيِّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»^(٤).

وَكَلَّمَا زَادَ الْمُسَلِّمُ مِنْ صَيَغِ السَّلَامِ الْمَأْثُورَةِ، زَادَ أَجْرُهُ؛ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَشْرٍ حَسَنَاتٍ؛ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ:

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٣٢، ٦٢٣٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٦٠).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُخْتَصَرًا رَقْم (٦٢٤٧)، و«صحيح مسلم» رَقْم (٢١٦٨).

(٣) «صحيح مسلم» رَقْم (٢٠٥٥).

(٤) «عمل اليوم والليلة» رَقْم (٢١٠)، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» رَقْم (٨١٦).

(عَشْرٌ)، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: (عِشْرُونَ)، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: (ثَلَاثُونَ)^(١).

ولا يزيدُ المسلمُ على هذا؛ كأن يقول: «ومغفرته ومَرْضَاتُهُ»؛ لأنَّ السَّلَامَ المسنونَ انتَهَى إلى: (وَبَرَكَاتُهُ)، ولو كان في الزيادة خيرٌ، لَدَلَّنا إليه رسولُ اللَّهِ ﷺ؛ روى مالك في «الموطأ»، عن مُحَمَّد بن عَمْرٍو بن عَطَاء، أَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ زَادَ شَيْئًا مَعَ ذَلِكَ أَيْضًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ قَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا الْيَمَانِيُّ الَّذِي يَغْشَاكَ، فَعَرَّفُوهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ السَّلَامَ انْتَهَى إِلَى الْبَرَكَةِ»^(٢).

* وَمِنْ أَحْكَامِ السَّلَامِ: أَنْ لَا يُقْصَرَ عَلَى الْمَعْرِفَةِ، بَلْ يُسَلِّمُ الْمُسْلِمُ عَلَى مَنْ عَرَفَ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ، وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي هَذَا، وَجَاءَ فِي السُّنَنِ: أَنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ قُصْرَ السَّلَامِ عَلَى الْمَعْرِفَةِ؛ فِي «الْمُسْنَدِ» بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، عَنِ الْأَسْوَدِ بنِ يَزِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِذَا كَانَتِ التَّحِيَّةُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ)^(٣)، وَفِي رَوَايَةٍ: (أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ).

* وَمِنْ أَحْكَامِ السَّلَامِ: أَنْ لَا يُبَدَأَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ)^(٤)، وَإِذَا بَدَّؤُوا هُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِنَّهُ يُكْتَفَى بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُقَالَ: (وَعَلَيْكُمْ)؛ لِمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ،

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/٤٣٩ - ٤٤٠)، و«سنن أبي داود» رقم (٥١٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٦٨٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٢٧١٠).

(٢) «موطأ مالك» رقم (٢٧٥٨).

(٣) «المسند» (١/٣٨٧)، وصحَّحه الألباني في «الصحيح» رقم (٦٤٨).

(٤) رواه مسلم رقم (٢١٦٧).

فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقُلْ: وَعَلَيْكُمْ^(١).

وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ، ففِي حُكْمِ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ تَفْصِيلٌ يُعْلَمُ بِمِطَالَعَةِ الْأَدَلَّةِ، وَمَعْرِفَةِ هَذِي سُلْفِ الْأُمَّةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَإِذَا كَانَ الْمُبْتَدِعُ كَافِرًا بِبِدْعَتِهِ، وَحَكَمَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِخُرُوجِهِ مِنَ الْمِلَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يُسَلَّمُ عَلَيْهِ؛ إِذْ حُكْمُ السَّلَامِ عَلَيْهِ كَحُكْمِ السَّلَامِ عَلَى الْكُفَّارِ سِوَاءٍ.

أَمَّا إِذَا لَمْ يَبْلُغْ بِبِدْعَتِهِ حَدَّ الْكُفْرِ، فَالسَّلَامُ عَلَيْهِ جَائِزٌ ابْتِدَاءً وَرَدًّا مَا دَامَ أَنَّ الْإِسْلَامَ - وَهُوَ مُوجِبٌ اسْتِحْقَاقِهِ لِلْسَّلَامِ - موجودٌ فِيهِ، وَهَكَذَا الشَّأْنُ فِي الْعَصَاةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

وَإِنَّمَا يُشْرَعُ تَرْكُ السَّلَامِ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ إِذَا كَانَ فِي تَرْكِهِ تَحْصِيلُ مَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ، أَوْ دَفْعُ مَفْسَدَةٍ مُتَحَقِّقَةٍ؛ كَأَن يَتْرَكَ السَّلَامَ عَلَيْهِمْ؛ تَأْدِيبًا لَهُمْ، أَوْ زَجْرًا لغيرهم، أَوْ صِيَانَةً لِنَفْسِهِ مِنَ التَّأَثُّرِ بِهِمْ؛ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَأَمَّا التَّهَاجُرُ وَالتَّقَاطُعُ وَتَرْكُ السَّلَامِ بِلَا سَبَبٍ شَرْعِيٍّ، فَهُوَ أَمْرٌ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَأَنْ يُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَأَنْ يَهْدِيَنَا جَمِيعًا سِوَاءَ السَّبِيلِ.



(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٥٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٦٤).

مَا يُقَالُ عِنْدَ الْعُطَاسِ، وَمَا يُفَعَّلُ عِنْدَ التَّثَاؤُبِ

الحديث هنا عَمَّا يُقَالُ عِنْدَ الْعُطَاسِ وما يُفَعَّلُ عِنْدَ التَّثَاؤُبِ؛ روى البخاري في «صحيحه»، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ، وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ؛ فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ، فَحَقَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُسَمِّتَهُ، وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ، فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيُرَدِّهِ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِذَا قَالَ: هَاءَ، ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ)^(١).

وَالْحِكْمَةُ فِي الْحَمْدِ عِنْدَ الْعُطَاسِ: أَنَّ الْعَاطِسَ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ -: «قَدْ حَصَلَ لَهُ بِالْعُطَاسِ نِعْمَةٌ وَمَنْفَعَةٌ بِخُرُوجِ الْأَبْخَرَةِ الْمُحْتَقَنَةِ فِي دِمَاغِهِ، الَّتِي لَوْ بَقِيَتْ فِيهِ أَحْدَثَتْ لَهُ أَدْوَاءً عَسِيرَةً؛ وَلِهَذَا شُرِعَ لَهُ حَمْدُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، مَعَ بَقَاءِ أَعْضَائِهِ عَلَى التَّامِّهَا وَهَيْئَتِهَا بَعْدَ هَذِهِ الزَّلْزَلَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لِلْبَدَنِ؛ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لَكَرِيمٍ وَجْهِهِ وَعِزُّ جَلَالِهِ»^(٢).

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ)؛ وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ لِلْإِنْسَانِ، وَلِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ حَمْدٍ وَثَنَاءٍ وَدَعَاءٍ.

وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهُ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلِأَنَّهُ - فِي الْغَالِبِ - لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ ثِقَلِ الْبَدَنِ وَامْتِلَائِهِ وَاسْتِرْخَائِهِ، وَمِيلِهِ إِلَى الْكَسَلِ، وَالْمُسْلَمُ مَأْمُورٌ بِكَظْمِهِ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَفِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُرَدِّهِ مَا

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٣).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٤٣٨ - ٤٣٩).

اسْتَطَاعَ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ: هَا، ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ)، وفي لفظٍ لمسلم: (فَإِذَا تَنَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَكْظُمْ مَا اسْتَطَاعَ)^(١).

وقوله: (فَلْيَكْظُمْ مَا اسْتَطَاعَ) هذا يكون بمحاولةٍ مَنَعِ حصولِ التثاؤبِ، فإنَّ لَمْ يَتِمَّكَزْ مِنْ ذَلِكَ، يَحَاوُلُ إِغْلَاقَ فَمِّهِ عِنْدَ حَصُولِهِ، فَإِنْ لَمْ يَتِمَّكَزْ مِنْ ذَلِكَ، وَضَعَ يَدَهُ أَوْ طَرَفَ لَبَاسِهِ عَلَى فَمِهِ.

ولا يَلِيقُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَتَنَاءَبَ مَفْتُوحَ الْفَمِ دُونَ وَضْعِ يَدِهِ أَوْ شَيْءٍ مِنْ لَبَاسِهِ عَلَى فِيهِ؛ فَإِنَّ هَذَا - إِضَافَةً إِلَى مَا فِيهِ مِنْ قَبْحٍ فِي الْهَيْئَةِ وَالْمَنْظَرِ - فَإِنَّهُ ذَرِيعَةٌ وَسَبِيلٌ لِدُخُولِ الشَّيْطَانِ؛ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا تَنَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ)^(٢).

والتَّعَوُّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ عِنْدَ التَّثَاوُبِ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ دَلِيلٌ؛ لَكِنْ إِنْ تَذَكَّرَ الْمُسْلِمُ عِنْدَ التَّثَاوُبِ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْهُ، فَلَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يَتَّخِذْهُ سُنَّةً.

وَأَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعُطَاسِ، فَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ بِجُمْلَةٍ مِنَ الْآدَابِ وَالْأَحْكَامِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَحْسُنُ بِالْمُسْلِمِ مَرَاعَاتُهَا وَالْعِنَايَةُ بِهَا، وَهِيَ مِنْ جَمَالِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ وَكَمَالِهَا، وَوَفَائِهَا بِكُلِّ شَأْنٍ مِنَ الْإِنْسَانِ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ - أَوْ صَاحِبُهُ -: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ، وَيُصْلِحْ بِأَلْسِنَتِكُمْ)^(٣)؛ أَيْ: شَأْنُكُمْ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٨٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٥).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٤).

❏ فانظر - أخي المسلم رَعَاكَ اللهُ - إلى هذا الجمال والكمال الذي دَعَتْ إليه الشريعة عند العَطَاس؛ حَمْدٌ وثناءٌ، وتراخُمٌ ودعاءٌ؛ العاطسُ يَحْمَدُ اللهَ، وَمَنْ يَسْمَعُهُ يدعو له بالرحمة، ثم هو يُبَادِلُ الدعاءَ بالدعاء، فيدعو لِمَنْ شَمَّتَهُ بالهداية وصلاح الحال؛ فما أقواها مِنْ لُحْمَةٍ! وما أجملُهُ مِنْ ترابطٍ ووصال!

بل جعل الإسلام تَشْمِيتَ العاطسِ حَقًّا مِنَ الحقوقِ المتبادلةِ بين المسلمين؛ ففي «الصحيح»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيْتُهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ وَحَمِدَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدُّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ) ^(١).

والتشميتُ هو: الدعاءُ بالخير، قيل: هو مشتقٌّ مِنَ الشوامةِ، وهي القوائم؛ كَأَنَّهُ دعا له بالثبات والقيام بالطاعة، وقيل: معناه: أَبْعَدَكَ اللهُ عن الشماتةِ، وَجَنَّبَكَ ما يُشَمَّتُ عليك به.

ثم إِنَّ هذا التشميتَ إِنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ مَنْ يَحْمَدُ اللهَ عند العَطَاس، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَحْمَدْ، فَإِنَّهُ لَا يُشَمَّتُ؛ ففي «الصحيحين»، عن أنس رضي الله عنه، قَالَ: «عَطَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلَانِ، فَشَمَّتَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ، فَقَالَ الَّذِي لَمْ يُشَمِّتْهُ: عَطَسَ فَلَانٌ فَشَمَّتُهُ، وَعَطَسْتُ أَنَا فَلَمْ تُشَمِّتْنِي، فَقَالَ: (إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللهَ)» ^(٢).

وروى مسلم، عن أبي بُرْدَةَ، قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَهُوَ فِي بَيْتِ بِنْتِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ، فَعَطَسْتُ فَلَمْ يُشَمِّتْنِي، وَعَطَسْتُ فَشَمَّتَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى أُمِّي فَأَخْبَرْتُهَا، فَلَمَّا جَاءَهَا، قَالَتْ: عَطَسَ عِنْدَكَ ابْنِي فَلَمْ تُشَمِّتْهُ، وَعَطَسْتُ فَشَمَّتَهَا؟ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَكَ عَطَسَ، فَلَمْ يَحْمَدِ اللهَ فَلَمْ أَشَمِّتْهُ، وَعَطَسْتُ فَحَمِدَتِ اللهَ فَشَمَّتُهَا؛ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَحَمِدَ اللهَ، فَشَمِّتُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ، فَلَا تُشَمِّتُوهُ)» ^(٣).

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٩٩١).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٢).

والتشميتُ ثلاثُ مرَّاتٍ، وما زاد فهو زُكَّامٌ يُدْعَى لصاحبه بالشِّفاءِ والعافية؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَعَطَسَ رَجُلٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: (يَرْحَمُكَ اللَّهُ)، ثُمَّ عَطَسَ أُخْرَى، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الرَّجُلُ مَزْكُومٌ) ^(١)، ورواه الترمذي، وفيه: «ثُمَّ عَطَسَ الثَّانِيَةَ وَالثَّلَاثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (هَذَا رَجُلٌ مَزْكُومٌ)» ^(٢).

وروى أبو داود في «سننه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً وموقوفاً: (سَمَّتْ أَخَاكَ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، فَمَا زَادَ فَهُوَ زُكَّامٌ) ^(٣).

قال ابن القيم رحمته الله: «وقوله في هذا الحديث: (الرَّجُلُ مَزْكُومٌ) تنبيهٌ على الدعاء له بالعافية؛ لأنَّ الزَّكْمَةَ علَّةٌ، وفيه اعتذارٌ مِنْ تَرْكِ تَشْمِيَّتِهِ بَعْدَ الثَّلَاثِ، وفيه تنبيهٌ له على هذه العلَّةِ ليتداركها ولا يُهْمِلَهَا، فيَضْعَبُ أَمْرُهَا؛ فِكَلَامُهُ ﷺ كُلُّهُ حِكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ، وَعِلْمٌ وَهُدًى» ^(٤).

ومن السُّنَّةِ خَفَضُ الصَّوْتِ بِالْعُطَاسِ حَتَّى لَا يُزَجِّجَ النَّاسَ؛ روى أبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَطَسَ، وَضَعَ يَدَهُ أَوْ نَوْبَهُ عَلَى فِيهِ، وَخَفَضَ أَوْ غَضَّ بِهَا صَوْتَهُ» ^(٥).

ثُمَّ إِنَّ الْعَاطِسَ وَالْمُسَمَّتَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَلْتَزِمَا فِي ذَلِكَ بِمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ، وَالسُّنَّةُ أَنْ يَقُولَ الْعَاطِسُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ)، وَلَهُ أَنْ يَقُولَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ)؛ لَشَبُوتِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فِي «سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ»، وَأَنْ يَقُولَ الْمُسَمَّتُ: (يَرْحَمُكَ اللَّهُ)، وَأَنْ يَقُولَ لَهُ الْعَاطِسُ بَعْدَ تَشْمِيَّتِهِ: (يَهْدِيكُمُ اللَّهُ، وَيُصْلِحْ بِالْكُمُ)، وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فِي هَذَا ^(٦).

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٣).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٢٧٤٣).

(٣) «سنن أبي داود» رقم (٥٠٣٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٣٠).

(٤) «زاد المعاد» (٢/٤٤١).

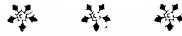
(٥) رواه أحمد في «المسند» (٢/٤٣٩)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٢٩)، والترمذي رقم (٢٧٤٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٥٥).

(٦) انظر: (ص٧١٣).

وللعاطس أن يقول بدل هذا: (يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ، وَيَغْفِرْ لَنَا وَلَكُمْ)؛ لِمَا رواه مالك في «موطئه»، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما: «كَانَ إِذَا عَطَسَ، فَقِيلَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قَالَ: يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ، وَيَغْفِرُ لَنَا وَلَكُمْ»^(١).

وقد أنكر السلف - رحمهم الله - مَنْ يَزِيدُ عَلَى هَذَا الْمَأْثُورِ؛ فَقَدْ رَوَى الترمذي في «جامعه»، أَنَّ رَجُلًا عَطَسَ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ»، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَأَنَا أَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ هَكَذَا عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ عَلَّمَنَا أَنْ نَقُولَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ^(٢).

وفي هذا حِرْصُ السَّلَفِ - رحمهم الله - عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَاقْتِفَاءِ هَدْيِ خَيْرِ الْأُمَّةِ وَآثَارِهِ؛ أَلْحَقْنَا اللَّهُ بِهِمْ، وَوَفَّقْنَا لِاتِّبَاعِهِمْ.



(١) «الموطأ» رقم (٢٧٧٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٠٧).

ذِكْرُ النِّكَاحِ وَالتَّهْنِئَةِ بِهِ وَالدُّخُولِ بِالزَّوْجَةِ، وَالذِّكْرُ الْمُتَعَلِّقُ بِالْأَبْنَاءِ

النِّكَاحُ مِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَظِيمَةٌ عَلَى عِبَادِهِ، يَتَحَقَّقُ بِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ وَالْفَوَائِدِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى، وَهُوَ مِنْ سُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرَّعد: ٣٨].

وقد ذكره الله تعالى في مَعْرِضِ التَّفَضُّلِ وَالِامْتِنَانِ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: ٢١].

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِيهِ آيَاتٌ عَدِيدَةٌ فِيهَا الْأَمْرُ بِالنِّكَاحِ، وَالتَّرغِيبُ فِيهِ، وَبَيَانُ آثَارِهِ وَثَمَارِهِ، وَبَيَانُ الْحَقُوقِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ؛ كَحُسْنِ الْعِشْرَةِ، وَالصُّحْبَةِ بِالْمَعْرُوفِ، وَكَفِّ الْأَذَى، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الضَّوَابِطِ وَالْحَقُوقِ، مِمَّا يُحَقِّقُ لِلزَّوْجَيْنِ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَعِشْرَةً صَالِحَةً.

وقد جاء في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَذْكَارٌ نَافِعَةٌ تَتَعَلَّقُ بِعَقْدِ النِّكَاحِ، وَبِالتَّهْنِئَةِ بِهِ لِلزَّوْجَيْنِ، وَعِنْدَ الدُّخُولِ بِالزَّوْجَةِ، وَعِنْدَ الْجَمَاعِ؛ يَتَرَتَّبُ عَلَى الْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَالْعَنَايَةِ بِهَا فَوَائِدٌ عَدِيدَةٌ، وَأَثَارٌ مُبَارَكٌ تَعُودُ عَلَى الزَّوْجَيْنِ فِي حَيَاتِهِمَا الزَّوْجِيَّةِ بِالْخَيْرِ وَالتَّنْعِ وَالْبَرَكَةِ.

فَأَمَّا الذِّكْرُ عِنْدَ عَقْدِ النِّكَاحِ؛ فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: «عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةَ الْحَاجَةِ:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: (١)].

وهي خطبة عظيمة، وذكر مبارك، يُسْتَحَبُّ الإتيانُ به عند عقد النكاح، وهو مُشْتَمِلٌ على معاني عظيمة، ودلالاتٍ جليلة؛ ففيه: حمدُ الله، والاستعانةُ به وحده، وطلبُ مغفرته، والتعوذُ به من شرورِ النَّفْسِ وَسَيِّئَاتِ الأَعْمَالِ، والإيمانُ بقضائه وقدره، والشهادةُ له سبحانه بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، مع الوصية بتقوى الله ﷻ وتذكُّرِ فضله ونعمته، ولزوم طاعته سبحانه؛ فهي من جوامع الكلم، وقد كانت هذه الخطبة سبباً لإسلام ضمام الأزدي وقومه في قصَّة عَجِيبَةٍ رواها الإمام مسلم «في صحيحه»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه الخطبة عقدُ نظام الإسلام والإيمان»^(٣).

أي: إنها جَمَعَتْ - مع وَجَّازَتِها - ما ينتظم به أمرُ الإسلام والإيمان من الاعتقادات الصحيحة القويمة، والأعمال الصالحة المستقيمة.

وَمِمَّا يُنبِئُهُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ عِنْدَ الْعَقْدِ؛ خِلَافًا لِمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ.

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٤).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٨٦٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/٢٢٣).

وَأَمَّا التَّهْنِئَةُ لِلزَّوْجَيْنِ بِالنِّكَاحِ؛ فَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ بِأَنْ يُدْعَى لهُمَا بِالْبَرَكَةِ، وَأَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي خَيْرٍ.

ففي «الصحيحين»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَثَرَ صُفْرَةٍ، فَقَالَ: (مَا هَذَا؟) قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاقٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: (فَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ، أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ)»^(١).

وروى أبو داود، والترمذي، وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَأَ الْإِنْسَانَ إِذَا تَزَوَّجَ، قَالَ: (بَارَكَ اللَّهُ لَكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ)»^(٢).

وقوله: (إِذَا رَفَأَ الْإِنْسَانَ إِذَا تَزَوَّجَ)؛ أَي: إِذَا هَنَأَهُ وَدَعَا لَهُ بِمُنَاسَبَةٍ زَوَاجِهِ، وَكَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ لِلْمُتَزَوِّجِ: «بِالرِّفَاءِ وَالْبَيْنِ»، فَهِيَ رضي الله عنه عَنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُمْ: «بِالْبَيْنِ» يَتَوَافَقُ مَعَ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَتُهُمْ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ لِلْإِنَاثِ، وَالتَّنْفِيرِ مِنْهُنَّ، وَعَدَمِ الرَّغْبَةِ فِي مَجِيئِهِنَّ، وَفِي قَوْلِهِمْ هَذَا تَأْكِيدُ هَذِهِ الْكَرَاهَةِ وَالبُغْضَاءِ، فَهِيَ رضي الله عنه عَنْ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى الدَّعَاءِ لَهُمَا بِالْبَرَكَةِ، وَأَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي خَيْرٍ.

وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ الزَّوْجُ إِذَا دَخَلَ عَلَى زَوْجَتِهِ لَيْلَةَ الزَّفَافِ؛ فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً أَوْ اشْتَرَى خَادِمًا، فَلْيُقِلِّ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَإِذَا اشْتَرَى بَعِيرًا، فَلْيَأْخُذْ بِذُرْوَةِ سَنَامِهِ، وَلْيُقِلِّ مِثْلَ ذَلِكَ)»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥١٥٥)، و«صحيح مسلم» رقم (١٤٢٧).

(٢) «المسند» (٣٨١/٢)، و«سنن أبي داود» رقم (٢١٣٠)، و«جامع الترمذي» رقم (١٠٩١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٩٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٢٩).

(٣) «سنن أبي داود» رقم (٢١٦٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٩١٨)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (١٥٥٧).

وقوله: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا)؛ أي: خيرَ هذه المرأة؛ كحُسنِ المعاشرة، وحِفْظِ الفِرَاش، والأمانةِ في المال، ورعايةِ حقِّ الزوج، ونحوِ ذلك.

وقوله: (وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ)؛ أي: خَيْرَ مَا خَلَقْتَهَا عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَالطَّبَاعِ الْمَرْضِيَّةِ، وَالسَّجَايَا الْكَرِيمَةِ.

وقوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ)، فيه التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ وَالِاتِّجَاءُ إِلَيْهِ، بَأَنْ يَقِيَهُ وَيُسَلِّمَهُ مِمَّا فِيهَا مِنْ شَرٍّ فِي خُلُقِهَا وَتَعَامُلِهَا وَمَعَاشَرَتِهَا وَسَجَايَاها.

وهذا فيه دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ صَلَاحَ أَمْرِ الزَّوْجَيْنِ وَالتَّائَمَ شَمْلُهُمَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالِاتِّجَاءِ إِلَى اللَّهِ، وَالاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَسَوْأَلِهِ وَخُدَّةِ الْعَوْنِ وَالتَّوْفِيقِ وَالصَّلَاحِ.

وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ؛ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، فِي «صَحِيحَيْهِمَا»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا)^(١).

وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الشَّيْطَانَ لَهُ مُشَارَكَةٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٤]، فَإِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الْمُشَارَكَةِ، وَوُقِيَ مِنْ شَرِّهِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَّةِ كَذَلِكَ تَعْوِذُ الْأَبْنَاءِ لِلْحِفْظِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ ففِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: (إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ؛ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ،

(١) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» رَقْم (٥١٦٥)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» رَقْم (١٤٣٤).

مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»^(١).

وكان مِنْ هديه ﷺ فيما يَتَعَلَّقُ بِالْأَبْنَاءِ الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالْبَرَكَةِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ: ما رواه البخاري ومسلم، عن أسماءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا أَتَتْ بِابْنِهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَوَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ، ثُمَّ دَعَا لَهُ وَبَرَكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ»^(٢)؛ أي: أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ.



(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٧١).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٣٩٠٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٤٦).

مَا يُقَالُ عِنْدَ الْغَضَبِ

الْغَضَبُ مِنَ الْخِصَالِ الذَّمِيمَةِ، وَالْخِلَالِ الْمَشِينَةِ الَّتِي نَهَى عَنْهَا الْإِسْلَامُ، وَحَذَّرَ مِنْهَا أَشَدَّ التحذير، وَهُوَ عَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ وَازْدِيَادُ خَفَقَانِهِ؛ طَلَبًا لِدَفْعِ الْمُؤْذِي عِنْدَ خَشْيَةِ وُقُوعِهِ، أَوْ طَلَبًا لِلانْتِقَامِ مِمَّنْ يَحْصُلُ مِنْهُ الْأَذَى بَعْدَ وُقُوعِهِ، وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمَحْرَمَةِ؛ كَالْقَتْلِ، وَالضَّرْبِ، وَأَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمَحْرَمَةِ؛ كَالْقَذْفِ، وَالسَّبِّ، وَالْفُحْشِ، وَالْبَدَاءِ، وَكَالْإِيمَانِ الَّتِي لَا يَجُوزُ التَّزَامُّهَا شَرْعًا، وَكَتَطْلِيقِ الزَّوْجَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تُعْقَبُ إِلَّا النَّدَمُ؛ مِمَّا يَدُلُّ أَوْضَحَ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ الْغَضَبَ جَمَاعُ الشَّرِّ وَمِفْتَاحُ أَبْوَابِهِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: (لَا تَغْضَبَ)، فَرَدَّدَ مَرَارًا، قَالَ: (لَا تَغْضَبَ)»^(١).
فَهَذَا الرَّجُلُ قَدْ طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُوَصِّيه بِوَصِيَّةٍ وَجِيزَةٍ جَامِعَةٍ لَخِصَالِ الْخَيْرِ لِيَحْفَظَهَا وَيَعْمَلَ بِهَا، فَوَصَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَا يَغْضَبَ، وَرَدَّدَ السُّؤَالَ مَرَارًا وَالنَّبِيُّ ﷺ يَجِيبُهُ بِقَوْلِهِ: (لَا تَغْضَبَ)؛ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْغَضَبَ جَمَاعُ الشَّرِّ وَمِفْتَاحُهُ، وَأَنَّ التَّحَرُّزَ مِنْهُ جَمَاعُ الْخَيْرِ.

وَفِي «الْمُسْنَدِ» لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: (لَا تَغْضَبَ)، قَالَ الرَّجُلُ: فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦١١٦).

(٢) «المسند» (٣٧٣/٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٢٧٤٦).

وقد جاء عن السَّلَفِ - رحمهم الله - نُقُولٌ عديدةٌ في التحذيرِ من الغضبِ، وبيانِ نتائجِهِ وعواقِبِهِ الوخيمة؛ يقولُ جعفر بن محمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغضبُ مفتاحُ كُلِّ شَرٍّ».

وقيل لعبد الله بن المبارك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اَجْمَعْ لَنَا حُسْنَ الْخُلُقِ فِي كَلِمَةٍ، فقال: «تَرْكُ الْغَضَبِ».

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قد أَفْلَحَ مَنْ عَصِمَ مِنَ الْهَوَى، وَالْغَضَبِ، وَالطَّمَعِ».

وكان يُقال: «أَوَّلُ الْغَضَبِ جُنُونٌ، وَآخِرُهُ نَدَمٌ»، ويُقال: «عَدُوُّ الْعَقْلِ الْغَضَبُ»، ويُقال أيضًا: «كُلُّ الْعَطَبِ فِي الْغَضَبِ».

ولَمَّا كان الْغَضَبُ بهذا الْقَدْرِ مِنَ الْخُطُورَةِ، كان متعيِّنًا على كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْذَرَ مِنْهُ، وَأَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ على الْبُعْدِ عَنْهُ؛ لِيَسْلَمَ مِنْ عَوَاقِبِهِ وَنَتَائِجِهِ.

وقولُ النَّبِيِّ ﷺ في الْحَدِيثِ الْمَتَقَدِّمِ: (لَا تَغْضَبْ) يَتَضَمَّنُ أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْغَضَبِ وَنَتَائِجِهِ:

أحدهما: الْأَمْرُ بِفَعْلِ الْأَسْبَابِ وَتَمْرِينِ النَّفْسِ على حُسْنِ الْخُلُقِ، وَالْحِلْمِ، وَالصَّبْرِ، واحتمالِ أَذَى النَّاسِ الْقَوْلِيِّ وَالْفِعْلِيِّ، فإذا وَفَّقَ الْعَبْدُ لذلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ وَارِدُ الْغَضَبِ، احْتَمَلَهُ بِحَسَنِ خُلُقِهِ، وَتَلَقَّاهُ بِحِلْمِهِ وَصَبْرِهِ.

ومن الْقَوَاعِدِ الْمَتَقَرَّرَةِ: أَنَّ الْأَمْرَ بِالشَّيْءِ أَمْرٌ بِهِ وَبِمَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَالتَّهْيِئَةُ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ؛ فَنهْيُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْغَضَبِ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ بِالصَّبْرِ، وَالْحِلْمِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ.

ثانيًا: أَنَّ أَمْرَهُ ﷺ بِعَدَمِ الْغَضَبِ فِيهِ أَمْرٌ بِعَدَمِ تَنْفِيزِ الْغَضَبِ؛ لِأَنَّ الْغَضَبَ غَالِبًا لَا يَتِمَكَّنُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَفْعِهِ وَرَدِّهِ، وَلَكِنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنْ عَدَمِ تَنْفِيزِهِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْمَحْرَمَةِ الَّتِي يَجْرُ الْغَضَبُ إِلَيْهَا، فَتَمْنَعُ نَفْسَهُ مِنْ آثَارِ الْغَضَبِ الضَّارَّةِ، فَكَأَنَّهُ - فِي الْحَقِيقَةِ - لَمْ يَغْضَبْ؛

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وفي الحديث: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)^(١).

ولهذا كان الرسول ﷺ يَوْجُهُ وَيَأْمُرُ مَنْ غَضِبَ بفعل الأسباب التي تدفع الغضب وتُسَكِّنُهُ، ويأمر بالتعوذ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُحَرِّكُ الْغَضَبَ فِي الْقُلُوبِ، وَيُثِيرُ الْفِتْنَ، ويدعو إلى الشرِّ والفساد.

روى البخاري ومسلم، عن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغَضَّبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ»^(٢).

وفي الحديث دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْغَضَبَ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ، وَأَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ الْغَضَبُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَعِذَ بِاللَّهِ مِنْهُ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَزْنَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْطَانَ - أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ - يَتِمَكَّنُ مِنَ الْإِنْسَانِ حَالَ غَضَبِهِ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى ارْتِكَابِ الْآثَامِ، وَيُؤْزِرُهُ إِلَى السَّبِّ وَالْأَذَى وَالْإِجْرَامِ، فَإِذَا اسْتَعَاذَ الْمُسْلِمُ بِاللَّهِ، حَفِظَ مِنْهُ وَوَقِيَ مِنْ شَرِّهِ.

وَمِمَّا أُرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ الْغَضْبَانَ إِلَى فِعْلِهِ: التَّبَاعُدُ عَنْ كُلِّ مَا يَسْتَثِيرُهُ وَيُقَرِّبُهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ، سِوَاءً بِالْقَوْلِ أَمْ بِالْفِعْلِ:

* فَأَمَّا الْقَوْلُ: فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَسْكُتْ)؛ قَالَهَا ثَلَاثًا^(٣).

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٢٤).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦١١٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦١٠).

(٣) «المسند» (١/٢٣٩).

وذلك أَنَّ الغضبانَ إِنْ تَكَلَّمَ حَالَ غَضَبِهِ، فَإِنَّ الغالبَ على كلامِهِ التعدي والإساءة؛ فَمِنْ الخيرِ له أَنْ يَكُفَّ عن الكلامِ حَالَ الغضبِ حتى يَسْكُنَ، فإذا سَكَنَ، اتَّزَنَ كلامُهُ، وَحَسُنَ حديثُهُ، وكان كلامُهُ حينئذٍ قريبًا أو مساويًا لكلامِهِ حال الرضا، ليس فيه ظلمٌ ولا عُذوان.

وَمِنْ الدعواتِ النبويَّةِ المباركة: قول النَّبِيِّ ﷺ في دعائه: (وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةً الْحَقُّ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا)^(١)، وهذا عزيزٌ أَنْ لَا يَقُولَ الإنسانُ إِلَّا الْحَقَّ، سواءً غَضِبَ أو رَضِيَ.

* وَأَمَّا الْفِعْلُ: فقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، وغيرهما، من حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيُضْطَجِعْ)^(٢).

وذلك أَنَّ الغضبانَ إِنْ بَقِيَ قَائِمًا حَالَ غَضَبِهِ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ قَرِيبًا مِمَّنْ أَغْضَبَهُ، متهيئًا للانتقام منه، فربما ضربه، أو لطمه، أو اعتدى عليه، فإذا جَلَسَ تَبَاعَدَ مِنْهُ، وإذا اضْطَجَعَ كان أَبْعَدَ وَأَبْعَدَ.

وهذا فيه دَلَالَةٌ على أَنَّ الغضبانَ يَنْبَغِي عليه أَنْ يَحْرِصَ على أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ حَالَ الغضبِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، فلا يُبَاشِرُ شَيْئًا مِنْهَا حتى يَسْكُنَ وَيُطْمَئِنَّ؛ ليكونَ قَوْلُهُ حَقًّا، وفِعْلُهُ عَدْلًا، لا زَلَّ فِيهِ ولا شَطَطَ.

والله وحده المسؤولُ أَنْ يُؤَفِّقَنَا إِلَى سَدِيدِ الْقَوْلِ، وَصَالِحِ الْعَمَلِ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا جَمِيعًا سَوَاءَ السَّبِيلِ.



(١) جزء من حديث عَمَّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد تقدَّم (ص ٦٢١).

(٢) «المسند» (١٥٢/٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٧٨٢)، وصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٩٤).

أَدْعِيَةٌ مَأْثُورَةٌ فِي أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ

سنتناول - فيما يلي - أنواعًا من الأدعية المأثورة في أبواب متفرقة، مع الإشارة إلى شيء من معانيها؛ وهي تدلُّ على كمال هدي النبي ﷺ وعظم شأن أدعيته، وتناولها لجميع أبواب الخير، في جميع شؤون الحياة.

* فمن السنة أن يقول مَنْ لَيْسَ ثَوْبًا جَدِيدًا: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ؛ لِمَا رواه أبو داود، والترمذي، وغيرهما، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا، سَمَّاهُ بِاسْمِهِ، عِمَامَةً أَوْ قَمِيصًا أَوْ رِدَاءً، ثُمَّ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ)^(١).

وقوله: «اسْتَجَدَّ ثَوْبًا»؛ أي: لَبَسَ ثَوْبًا جَدِيدًا.

وقوله: (أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ)، مِنْ أَعْظَمِ خَيْرِهِ أَنَّهُ يَسْتُرُ عَوْرَةَ الْإِنْسَانِ، وَيُوَارِي سَوْءَتَهُ، وَيُجَمِّلُ هَيْئَتَهُ، وَيُحَسِّنُ مَظْهَرَهُ وَمَنْظَرَهُ.

وقوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ)، مِنْ أَعْظَمِ شَرِّهِ أَنْ يُلْبَسَ عَلَى وَجْهِ الْأَشْرِ وَالْكِبْرِ والتعالي على الخلق، وَمَنْ لَمْ يُزَيِّنْ بَاطِنُهُ، لَمْ تُغْنِ عَنْهُ زِينَتُهُ الظَّاهِرَةُ شَيْئًا؛ ﴿يَبْنِيْٓ ءَادَمَ فَذَٰٓءِلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُّوْرَى سَوَءُ تَكْمٍ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْتَقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

* وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ إِذَا رَأَى عَلَى صَاحِبِهِ ثَوْبًا جَدِيدًا أَنْ يَقُولَ:

(١) «المسند» (٣/٣٠)، «سنن أبي داود» رقم (٤٠٣٠)، و«جامع الترمذي» رقم (١٧٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٦٦٤).

تُبْلِي وَيُخْلِفُ اللَّهُ تَعَالَى؛ فقد روى أبو داود، عن أَبِي نَضْرَةَ، قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا لَبَسَ أَحَدُهُمْ ثَوْبًا جَدِيدًا، قِيلَ لَهُ: تُبْلِي وَيُخْلِفُ اللَّهُ تَعَالَى»^(١).

وقد جاء نحوه مرفوعًا من حديث أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، رواه البخاري في «صحيحه»^(٢).

وقولهم: «تُبْلِي وَيُخْلِفُ اللَّهُ»، فيه دعاءٌ له بأن يُبْقِيَهُ اللَّهُ وَيَبْلَى الثَوْبَ، وَيُخْلِفَهُ اللَّهُ خَيْرًا منه.

* ومن السُّنَّةِ أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ لِمَنْ صَنَعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفًا: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا؛ فَإِنَّهَا دَعْوَةٌ عَظِيمَةٌ، وَثَنَاءٌ بِالْغ؛ رَوَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ صَنَعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ)^(٣).

* وَكَانَ مِنْ هَذِي النَّبِيِّ ﷺ الدُّعَاءُ بِالْبَرَكَةِ عِنْدَ رُؤْيَةِ بَاكُورَةِ الثَّمَرِ؛ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ)، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلَدِهِ لَهُ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ»^(٤).

* وَمِنْ السُّنَّةِ إِذَا كَانَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ، وَخَافَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَيْنِ: ذَكَرُ اللَّهِ، وَالدُّعَاءُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ.

(١) رواه أبو داود رقم (٤٠٢٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٣٣٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٥٨٢٣).

(٣) تقدم تخريجه ص (٤٥٣).

(٤) «صحيح مسلم» رقم (١٣٧٣).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

[الكهف: ٣٩].

وعن سَهْل بن حَنِيف، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: (إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُعْجِبُهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، فَلْيَبْرِكْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ)؛ رواه أحمد^(١).

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ، وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»؛ رواه الترمذي، وابن ماجه^(٢).

وفي الحديثِ دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ، وَعِظَمِ مَنْفَعَتِهِمَا، وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ - بِلِ الْضَّرُورَةِ - إِلَيْهِمَا، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُمَا أَحَدٌ، وَأَنَّ لَهُمَا تَأْثِيرًا خَاصًّا فِي دَفْعِ الْجَانِّ وَالسَّحَرِ وَالْعَيْنِ وَسَائِرِ الشُّرُورِ، وَقَدْ تَضَمَّنَتِ هَاتَانِ السُّورَتَانِ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ هَذِهِ الشُّرُورِ كُلِّهَا بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَجْمَعِهِ، وَأَدْلَاهُ عَلَى الْمُرَادِ، وَأَعَمُّهُ اسْتِعَاذَةٌ؛ بَحِثُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الشُّرُورِ شَيْءٌ إِلَّا دَخَلَ تَحْتَ الشَّرِّ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ فِيهِمَا.

* وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ إِذَا رَأَى أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْبَلَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا؛ وَهِيَ دَعْوَةٌ عَظِيمَةٌ نَافِعَةٌ، مَنْ قَالَهَا حِينَ يَرَى الْبَلَاءَ، لَمْ يُصِبهْ ذَلِكَ الْبَلَاءُ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ؛ ففِي الترمذي، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ رَأَى مُبْتَلًى، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبهْ ذَلِكَ الْبَلَاءُ)^(٣).

وَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ مِنَ الشَّمَاتَةِ بِأَهْلِ الْبَلَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ أَنْ يَبْتَلِيَهُ اللَّهُ بِمَا ابْتَلَاهُمْ فِيهِ؛ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي لَأَرَى الشَّيْءَ أَكْرَهَهُ، فَمَا

(١) «المسند» (٤٤٧/٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٥٦).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٢٠٥٨)، ورواه النسائي رقم (٥٤٩٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم

(٣٥١١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٠٢).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠٥).

يَمْنَعُنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ فِيهِ إِلَّا مَخَافَةً أَنْ أُبْتَلَى بِمِثْلِهِ»^(١).

* وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يَدْعُوَ الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ إِذَا قَالَ لَهُ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ،
بأن يقول: أَحَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي فِيهِ؛ ففي «سنن أبي داود»، عن
أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لِأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (أَعْلَمْتُهُ؟) قَالَ: لَا، قَالَ:
(أَعْلِمُهُ)، قَالَ: فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي
أَحْبَبْتَنِي لَهُ»^(٢).

* وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يَسْأَلَ الْمُسْلِمُ رَبَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عِنْدَ سَمَاعِ صِيَاحِ الدِّيَكَةِ،
وَأَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ عِنْدَ سَمَاعِ نُبَاحِ الْكِلَابِ وَنَهْيِ الْحُمْرِ؛ روى
البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ
الدِّيَكَةِ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْحِمَارِ،
فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا)^(٣).

وروى أحمد، وأبو داود، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال
رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الْكِلَابِ وَنَهْيَ الْحُمْرِ بِاللَّيْلِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ؛
فَإِنَّهُنَّ يَرِينَ مَا لَا تَرَوْنَ»^(٤).

* وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ إِذَا دَخَلَ السُّوقَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ
الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ ففي الترمذي، وابن ماجه، عن
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، فَقَالَ:

(١) انظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (٣١٥/٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٤٠/٣ - ١٤١)، و«سنن أبي داود» رقم (٥١٢٥)، وصحَّحه
الألباني في «الصحيحة» (٧٧٩/٢/١).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٠٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٩).

(٤) «مسند أحمد» (٣٠٦/٣)، و«سنن أبي داود» رقم (٥١٠٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح
الجامع» رقم (٦٢٠).

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ^(١).

والله المسؤول أن يُعِينَنَا جميعًا على كلِّ خير، وأن يَهْدِينَا جميعًا سواء السبيل.



(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٢٨)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٢٣٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٣١).

كَفَّارَةُ الْمَجْلِسِ

إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْفَظَ مَجَالِسَهُ مِنْ أَنْ تَضِيعَ فِي اللَّغْطِ وَالْبَاطِلِ، وَفِيمَا يَضُرُّ الْإِنْسَانَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَلَّتِهَا بِالنَّافِعِ الْمَفِيدِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الْفَاضِلَ مَعْدُودَةً عَلَيْهِ، مَكْتُوبَةٌ فِي صَحَائِفِهِ، مُسَطَّرَةٌ فِي أَعْمَالِهِ، وَسَوْفَ يُحَاسَبُ عَلَيْهَا عِنْدَمَا يَلْقَى اللَّهَ ﷻ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

فَمِنْ الْخَيْرِ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْفَظَ مَجَالِسَهُ، وَيَجْتَهِدَ فِي عِمَارَتِهَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَسُرُّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ بِهِ، وَمَا جَلَسَ أَحَدٌ مَجْلِسًا ضَيَّعَهُ فِي غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ إِلَّا نَدِمَ أَشَدَّ النَّدَمِ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ، إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَأَنَّ لَهُمْ حَسْرَةٌ^(١))؛ لِأَنَّ الَّذِينَ يَقُومُونَ عَنْ مَجْلِسٍ فِيهِ جِيفَةُ حِمَارٍ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي مَجْلِسِهِمْ ذَلِكَ إِلَّا الرَّوَائِحُ الْمُنْتَنَةِ، وَالْمَنْظَرُ الْكَرِيمُ، وَلَا يَقُومُونَ إِلَّا وَهُمْ بِنَدَامَةٍ وَحَسْرَةٍ، فَكَذَلِكَ مَنْ يَقُومُونَ عَنْ مَجْلِسٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ، لَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِلَّا الْخَوْضُ فِي الْآثَامِ، وَالتَّنَقُّلُ فِي أَبَاطِيلِ الْكَلَامِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَضُرُّ فِي الْآخِرَةِ، وَتُورِثُ الْحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ.

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَرَشَدَ إِلَى أَنْ يُخْتَمَ الْمَجْلِسُ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَطَلَبِ مَغْفَرَتِهِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ كَفَّارَةً لِمَا كَانَ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي مَجْلِسِهِ؛ فَفِي أَبِي دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ،

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣٨٩/٢)، «سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ» رَقْمُ (٤٨٥٥)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» رَقْمُ (٥٧٥٠).

فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»^(١).

وروى أبو داود، عن أبي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يقولُ بِأَخْرَةٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)»^(٢).

وروى النسائي، عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا، أَوْ صَلَّى، تَكَلَّمَ بِكَلِمَاتٍ، فَسَأَلَتْهُ عَائِشَةُ عَنْ الْكَلِمَاتِ؟ فَقَالَ: (إِنْ تَكَلَّمَ بِخَيْرٍ، كَانَ طَابِعًا عَلَيْهِنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ ذَلِكَ، كَانَ كَفَّارَةً لَهُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)»^(٣).

ورغمَ أهمية هذا الدعاءِ وعَظَمَ فضله، إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ تَضَيُّعٌ مَجَالِسُهُمْ فِي اللَّغَطِ وَاللَّهْوِ وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ.

وقد ذهبَ عددٌ من أهل العلم إلى أَنَّ هَذَا الذِّكْرَ هُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

قال ابن عبد البر رحمته الله: «وروي عن جماعةٍ من أهل العلم بتأويل القرآن في قول الله ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ منهم: مجاهدٌ، وأبو الأحوص، ويحيى بن جَعْدَةَ، قالوا: حين تقوم من كل مجلسٍ تقول: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، قالوا: وَمَنْ قَالَهَا، غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ فِي

(١) تقدم تخريجه (ص ١٧٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٢٠)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٥١٧).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٧٧)، «سنن النسائي» (٣/ ٧١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٥١٨).

المجلس، وقال عطاء: إِنْ كُنْتَ أَحْسَنْتَ ازْدَدْتَ إِحْسَانًا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، كَانَ كَفَّارَةً»^(١).

ومن الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ يَخْتُمُّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَثِيرًا مِنْ مَجَالِسِهِ: مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهِؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: (اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تَهْوُنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَارَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمًّا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا)»^(٢).

وهي دعوة جامعة لأبواب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

وقوله: (اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ)؛ أي: اجعلْ لنا حظًا ونصيبًا مِنْ خَشْيَتِكَ - وهي الخوفُ المقرونُ بالتعظيمِ لله ومعرفةِ سُبْحَانِهِ - مَا يَكُونُ حَاجِزًا لَنَا وَمَانِعًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ وَالْآثَامِ؛ وَهَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ أَعْظَمُ رَادِعٍ وَحَاجِزٍ لِلْإِنْسَانِ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الذُّنُوبِ؛ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِر: ٢٨]؛ فَكَلَّمَا ازْدَادَتْ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ بِاللَّهِ، ازْدَادَ خَشْيَةُ اللَّهِ، وَإِقْبَالًا عَلَى طَاعَتِهِ، وَبُعْدًا عَنْ مَعَاصِيهِ.

وقوله: (وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ)؛ أي: وَيَسِّرْ لِي مِنْ طَاعَتِكَ مَا يَكُونُ سَبِيلًا لِنَيْلِ رِضَاكَ، وَبَلُوغِ جَنَّتِكَ الَّتِي أَعَدَدْتَهَا لِعِبَادِكَ الْمُتَّقِينَ.

وقوله: (وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تَهْوُنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا)؛ أي: اقْسِمْ لَنَا مِنَ الْيَقِينِ - وَهُوَ: تَمَامُ الْعِلْمِ وَكَمَالُهُ بِأَنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُدَبِّرُ أُمُورَ الْخَلَائِقِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَيَقْضِي فِيهِمْ مَا يَرِيدُ - مَا يَكُونُ سَبِيلًا لَتَهْوِينِ

(١) «بهجة المجالس» (١/٥٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٤٥٣).

المصائب والنوازل التي قد تحلُّ بالإنسان في هذه الحياة. واليقينُ كُلُّما قَوِيَ في الإنسان، كان ذلك فيه أدعى إلى الصبرِ على البلاء؛ لعلمِ الموقِنِ أَنَّ كُلَّ ما أصابه إنما هو مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فيرضى وَيُسَلِّمُ.

وقوله: (وَمَتَّعَنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا)، فيه سؤالُ اللَّهِ أَنْ يُبْقِيَ له السَّمْعَ والبَصَرَ وسائرَ القوى؛ لِيَتَمَتَّعَ بها مُدَّةَ حياته.

وقوله: (وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا)؛ أي: اجعلْ هذا التَّمَتُّعَ بالحواسِّ والقوى باقياً مستمراً؛ بأن تبقى صحيحةً سليمةً إلى أن أموت.

وقوله: (وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا)؛ أي: وَفَّقْنَا لِلْأَخْذِ بِثَأْرِنَا مِنْ مَنْ ظَلَمْنَا؛ دُونَ أَنْ نَتَعَدَّى فَنَأْخُذَ بِالثَّأْرِ مِنْ غَيْرِ الظَّالِمِ.

وقوله: (وَأَنْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا)؛ أي: اكتبْ لنا النَصْرَ على الأعداء.

وقوله: (وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا)؛ أي: لَا تُصِيبْنَا بِمَا يُنْقِصُ دِينَنَا وَيُذْهِبُهُ؛ مِنْ اعتقادٍ سَيِّئٍ، أو تقصيرٍ في الطاعة، أو فعلٍ للحرام؛ وذلك لِأَنَّ المصيبةَ في الدِّينِ أعظمُ المصائبِ فليس عن الدِّينِ عَوْضٌ، خلافاً للمصيبةِ في الدنيا.

وقوله: (وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا)؛ أي: لَا تَجْعَلْ أَكْبَرَ قَصْدِنَا وَحُزْنِنَا لِأَجْلِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ أَكْبَرُ قَصْدِهِ الدُّنْيَا فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْآخِرَةِ؛ وفي هذا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْهَمِّ مِمَّا لَا يَدُّ مِنْهُ فِي أَمْرِ الْمَعَاشِ مُرَخِّصٌ فِيهِ.

وقوله: (وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا)؛ أي: لَا تَجْعَلْنَا بِحَيْثُ لَا نَعْلَمُ وَلَا نُفَكِّرُ إِلَّا فِي أحوالِ الدنيا.

وقوله: (وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا)؛ أي: مِنَ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ وَالظَّالِمَةِ.

وبهذا ينتهي الكلامُ على هذا الدعاءِ العظيم، وهو مِنْ جوامعِ كَلِمِ النَّبِيِّ ﷺ، وبه مِنْكَ الختام، وصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

تَمَّ الْكِتَابُ - بِحَمْدِ اللَّهِ - وَبِإِذْنِهِ الْقِسْمُ الرَّابِعُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَهُوَ فِي شَرْحِ جَمَلَةٍ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْجَوَامِعِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

القِسْمُ الرَّابِعُ

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(جَوَامِعُ الْأَدْعِيَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)

باسم الرحمن الرحيم

الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الإله الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

فهذا القسم الرابع والأخير من كتاب «فقه الأدعية والأذكار»، وقد خصصته لفقه الدعوات الجوامع في الكتاب والسنة، وقد حوى - بفضل الله ومنه - على نخبة مباركة من دعوات الأنبياء والصالحين المذكورة في القرآن الكريم، ومجموعة طيبة من الدعوات النبوية الثابتة في سنة النبي الكريم ﷺ، مع بيان معانيها، وتوضيح دلالاتها، والتنبيه على ما تيسر من حكمها وغايتها، مستفيداً ذلك كله من كلام أهل العلم - رحمهم الله - في كتب التفسير، وشروحات الحديث، وكتب الغريب، وغيرها، مع اعترافي بالقصور والتقصير، عفا الله عني وغفر لي.

وأرجوه سبحانه - وهو أهل الرجاء - أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده، وأن يجعل فيه البركة والقبول، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

مَكَانَةُ الْأَدْعِيَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ ﷻ كِتَابُ هِدَايَةٍ وَصَلَاحٍ وَفَلَاحٍ لِلنَّاسِ، يَنْهَلُ مِنْ مَعِينِهِ السُّعْدَاءُ، وَيَهْتَدِي بِهَدْيِهِ الْمَوْفِقُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، فَيُرْشِدُهُمْ إِلَى أَقْوَمِ السُّبُلِ وَأَرْشِدُهَا وَأَنْفَعُهَا فِي كُلِّ مَجَالٍ؛ فِي الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى كُلِّ صِلَاحٍ وَفَلَاحٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ؛ بَحِثْ تَقَوْمٌ بِهِ أُمُورَهُمْ، وَتَزَكُوا نَفُوسُهُمْ، وَتَعْتَدِلْ أَحْوَالُهُمْ، وَيَسْتَقِيمُ طَرِيقُهُمْ، وَيَحْضُلْ لَهُمُ الْكَمَالُ الْمَتَنَوِّعُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ فَهُوَ كِتَابُ عِلْمٍ وَتَعْلِيمٍ تَزُولُ بِهِ الضَّلَالَاتُ الْمَتَفَرِّقَةُ، وَالْجَهَالَاتُ الْمَتَنَوِّعَةُ، وَكِتَابُ تَرْبِيَةٍ وَتَأْدِيبٍ تَتَحَقَّقُ بِهِ الْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ، وَالْأَعْمَالُ الْكَرِيمَةُ، أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُدًى لِّلْعَالَمِينَ، وَتَبَصَّرَ لِّلْمُتَّقِينَ، وَمَحَجَّةً لِّلسَّالِكِينَ، وَجَمَعَ فِيهِ سَبْحَانَهُ الْعُلُومِ النَّافِعَةُ، وَالْمَعَانِي الْجَلِيلَةُ الْكَامِلَةُ.

فَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، فَقَدْ هُدِيَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ، غَنِمَ؛ إِذْ هُوَ أَعْظَمُ أَبْوَابِ الْهِدَايَةِ، وَأَجَلُّ سَبُلِ الْفَلَاحِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَإِنَّهَا تُوضِّحُ الْقُرْآنَ وَتَبَيِّنُهُ وَتَفْسِّرُهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهِيَ وَحْيٌ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وَفِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيِّ، وَغَيْرِهِمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)^(١)، وَقَالَ ﷺ: (تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣/ ١٣٠ - ١٣١)، وَ«سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٤٦٠٤)، وَ«جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» (٢٦٦٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» (٣/ ١١٨).

مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّتِي^(١).

وقد أُوتِيَ ﷺ جوامع الكلم، وُحِّصَ ببدايع الحكيم؛ كما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)^(٢)، وفي «المسند»، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَجَوَامِعَهُ، أَوْ جَوَامِعَ الْخَيْرِ وَفَوَاتِحَهُ، وَخَوَاتِمَهُ»^(٣).

❏ وإذا تقرر هذا، فإنَّ الواجب على المسلم أن يَعْلَمَ عِظَمَ شَأْنِ الْأَدْعِيَةِ الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، والمأثورة في ستة رسوله الكريم ﷺ، وأنَّ فيها - بلا ريب - فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ، وأولُهُ وَآخِرُهُ، وظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ، مع ما فيها من جمالٍ وكمالٍ، وحُسْنٍ وبهاءٍ، وتحقيقٍ للمطالبِ العالية، والمقاصدِ الجليلة، والخيرِ الكاملِ في الدنيا والآخرة، وسلامةٍ مِنَ الْخَطِإِ وَالزَّلَلِ وَالانْحِرَافِ؛ فهي معصومةٌ مِنْ ذَلِكَ؛ لأنها وَحْيُ اللَّهِ وَتَنْزِيلُهُ. والله جل وعلا قد اختارَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ جوامعَ الأدعية، وفواتحَ الخير، وتَمَامَ الْأَمْرِ وَكَمَالَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ولذا غُنِيَ أُمَّةُ السَّلَفِ وعلماءُ المسلمين بربطِ الناسِ بأدعيةِ القرآنِ وأدعيةِ السنة؛ لِمَا فِيهِمَا مِنْ كَمَالٍ وَعِصْمَةٍ وَسَلَامَةٍ.

قال الإمام أحمد رحمته الله: «يُعْجِبُنِي فِي الْفَرِيضَةِ أَنْ يَدْعُوَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ»^(٤).

وقال القاضي عياض رحمته الله: «أَذِنَ اللَّهُ فِي دَعَائِهِ، وَعَلَّمَ الدَّعَاءَ فِي كِتَابِهِ لِخَلْقَتِهِ، وَعَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ الدَّعَاءَ لِأُمَّتِهِ، واجْتَمَعَتْ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: الْعِلْمُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْعِلْمُ بِاللُّغَةِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْأُمَّةِ؛ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ دَعَائِهِ ﷺ، وَقَدْ احْتَالَ الشَّيْطَانُ لِلنَّاسِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ، فَقَيَّضَ لَهُمْ قَوْمَ سُوءٍ

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١٦١٩)، وحسنه الألباني في التعليق على «هداية الرواة» (١/١٤١).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٢٩٧٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٣).

(٣) «مسند أحمد» (٤٠٨/١)، ورواه ابن ماجه رقم (١٨٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٥٤٧).

(٤) «سنن أبي داود»، بعد الحديث رقم (٨٨٤).

يخترعون لهم أدعيةً يشتغلون بها عن الاقتداء بالنبي ﷺ^(١).

وقال القرطبي رحمه الله في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: «فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء، ويدع ما سواه، ولا يقول: اختار كذا؛ فإن الله قد اختار لنبيه وأوليائه، وعلمهم كيف يدعون»^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة؛ فإن ذلك لا ريب في فضله وحسنه، وأنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً»^(٣).

والنقول عن أهل العلم في هذا المعنى كثيرة^(٤).

ولما سئل الإمام مالك رحمه الله عن يقول في الدعاء: يا سيدي، قال: «يقول: يا رب، كما قالت الأنبياء في دعائهم».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد كره مالك وابن أبي عمير من أصحاب أبي حنيفة، وغيرهما: أن يقول الداعي: يا سيدي يا سيدي، وقالوا: قل كما قالت الأنبياء: رب رب»^(٥).

فانظر - رعاك الله - حسن ربط هؤلاء الأئمة الناس بدعوات الأنبياء، وأدعية القرآن، والأدعية الماثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام، وأنه أولى ما يدعى به، وأفضل ما يستعمل، وأن من دعا بها، فهو على صراط مستقيم، وسبيل آمن، وجادة سوية، يؤمن معها العثار، ويظفر بكل خير وفضيلة في الدنيا والآخرة. وإذا اجتمع للعبد الدعاء بالأدعية الماثورة، مع فهم معانيها ودلالاتها، والصدق مع الله في السؤال والطلب، حاز الخير كله، وفتحت له أبوابه وسبله، والتوفيق بيد الله وحده.

(١) انظر: «الفتوحات الربانية» لابن علان (١٧/١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧٩/٤). (٣) «مجموع الفتاوى» (٣٤٦/١).

(٤) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ١٠١).

(٥) «التوسل والوسيلة» (ص ٩٣).

مَكَانَةُ الدُّعَاءِ الْوَارِدِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدْعِيَةِ الْوَارِدَةِ وَأَجْمَعِهَا لِلْخَيْرِ: ذَلِكَمُ الدُّعَاءُ الْمُبَارَكُ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ «سُورَةُ الْفَاتِحَةِ»، أَفْضَلُ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

فهذا دعاءٌ عظيمٌ مبارك، بل هو أنفعُ الدعاءِ وأعظمُهُ، وحاجةُ الناسِ إليه أعظمُ مِنْ حاجتهمِ إلى سائرِ الأدعية؛ ولهذا أُمِرُوا بالدعاءِ به في كلِّ ركعةٍ من صلاة؛ فالمسلمُ يقولُهُ في كلِّ يومٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً فرضاً واجباً، ولم يكنْ مثلاً هذا لأيِّ دعاءٍ آخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا كان أنفعُ الدعاءِ وأعظمُهُ وأحكمُهُ دعاءُ الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ فإنه إذا هداه هذا الصراط، أعانَهُ على طاعتهِ وتركِ معصيته، فلم يُصِبْهُ شَرٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لكنَّ الذنوبَ هي مِنْ لوازمِ نفسِ الإنسان، وهو محتاجٌ إلى الهدى في كلِّ لحظة، وهو إلى الهدى أحوَجُ منه إلى الأكلِ والشرب؛ ليس كما يقولُهُ طائفةٌ مِنَ المفسِّرين: إنه قد هداه، فلماذا يَسْأَلُ الهدى، وإنَّ المرادَ بسؤالِ الهدى: الثباتُ أو مزيدُ الهداية!

بل العبدُ محتاجٌ إلى أَنْ يُعَلِّمَهُ رَبُّهُ ما يفعله مِنْ تفاصيلِ أحواله، وإلى ما يَتَوَلَّدُ مِنْ تفاصيلِ الأمورِ في كلِّ يومٍ، وإلى أَنْ يُلْهَمَ أَنْ يعملَ ذلك؛ فإنه لا يكفي مُجرَّدُ علمِهِ إِنْ لم يجعلْهُ اللهُ مُريدًا للعملِ بعلمه، وإلَّا كان العلمُ حجةً عليه، ولم يكنْ مهتدياً، والعبدُ محتاجٌ إلى أَنْ يجعلْهُ اللهُ قادراً على العملِ بتلكِ

الإرادة الصالحة؛ فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إلا بهذه العلوم، والإرادات، والقُدرة على ذلك. ويدخلُ في ذلك مِنْ أنواع الحاجات ما لا يمكنُ إحصاؤه؛ ولهذا كان الناسُ مأمورين بهذا الدعاء في كلِّ صلاةٍ لِفَرْطِ حاجتهم إليه، فليسوا إلى شيءٍ أحوجَ منهم إلى هذا الدعاء. وإنما يَعْرِفُ بعضُ قَدَرِ هذا الدعاءِ مَنْ اعتَبَرَ أحوالَ نَفْسِهِ ونفوسِ الإنسِ والجِنِّ والمأمورين بهذا الدعاء، ورأى ما في النفوسِ مِنَ الجهلِ والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة، فيعلمُ أَنَّ اللهَ - بفضلِهِ ورحمته - جعلَ هذا الدعاءَ من أعظمِ الأسبابِ المقتضية للخير، المانعة مِنَ الشرِّ^(١). اهـ.

ومع ما لهذا الدعاء العظيم مِنْ مكانةٍ وقَدَرٍ، إلا أَنَّ كثيراً مِنَ الناسِ قد يقرأ هذا الدعاءَ في «سورة الفاتحة» دُونَ أن يستشعرَ أنه دعاء، فما أحوجَ عوامَّ المسلمين إلى التنبيه إلى أَنَّ هذا دعاءٌ عظيمٌ أَمَرَ الرَّبُّ ﷻ عبادَهُ أن يدعوه به.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا تَأَمَّلَ العبدُ هذا، وَعَلِمَ أنها نصفان: نصفٌ لله، وهو أوَّلها إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفٌ للعبدِ دعاءٌ يدعو به لنفسه، وتَأَمَّلَ أن الذي عَلَّمَهُ هذا هو الله تعالى، وأمرُهُ أن يَدْعُوَ به وَيُكْرِّرَهُ في كلِّ ركعة، وأنه سبحانه - مِنْ فضلِهِ وكرمه - ضَمِنَ إجابةَ هذا الدعاءِ إذا دعاه بإخلاصٍ وحضورِ قلب، تَبَيَّنَ له ما أضاع أكثرُ الناسِ»^(٢). اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في رسالةٍ لطيفةٍ عظيمةِ النفع فيما ينبغي للمعلِّم أن يَعْلَمَهُ: «وَمِنْ أعظمِ ما تنبَّه عليه: التضرُّعُ عندَ الله، والنصيحةُ، وإحضارُ القلبِ في دعاءِ الفاتحةِ إذا صَلَّى»^(٣).

وما أَحْوَجَهُمْ كذلك إلى تَعَقُّلِ معناه، وفَهْمِ دَلالته، ومعرفةِ كمالِ هذا الدعاءِ المبارك، وجمعه لخيري الدنيا والآخرة، وأنه مِنْ أجمعِ الأدعيةِ وأنفعها

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/٣٢٠ - ٣٢١). (٢) «الدرر السنية» (١٠/٢٨).

(٣) «الدرر السنية» (١/١١٥).

للعبد؛ ولهذا وجب على المسلم أن يدعوا الله به في كل ركعة من صلاته؛ لضرورته إلى هذه الدعوة الجامعة المباركة.

وقد بين رحمة الله وجه كون هذا الدعاء جامعاً لخيري الدنيا والآخرة؛ فقال: «أما جمعه لخير الآخرة: فواضح، وأما جمعه لخير الدنيا: فلأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، والإيمان والتقوى هو الصراط المستقيم، فقد أخبر أن ذلك سبب لفتح بركات السماء والأرض؛ هذا في الرزق، وأما في النصر، فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فأخبر الله أن العزة تحصل بالإيمان، وهو الصراط المستقيم. فإذا حصل العز والنصر، وحصل فتح بركات السماء والأرض، فهذا خير الدنيا»^(١).

وإن خير ما يفتح للمسلم باب فهم هذه السورة وما اشتملت عليه من دعاء عظيم جامع: ما رواه مسلم في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَدَّنِي عَبْدِي، (وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي)، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ^(٢).

فإذا تأمل ذلك العبد، وعلم ما اشتملت عليه هذه السورة من الشناء على الله وتعظيمه، وما تضمنته من دعاء وسؤال وطلب من الله ﷻ، وأيقن بإجابة الله ﷻ له، تبين له عظيم نفعها وأثرها، وكثرة فوائدها وعوائدها؛ فإذا

قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَقَفَ هُنَيْهَةً يَنْتَظِرُ جَوَابَ رَبِّهِ لَهُ بِقَوْلِهِ: (حَمِدَنِي عَبْدِي)، فَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، انْتَظَرَ الْجَوَابَ بِقَوْلِهِ: (أَنْتَى عَلَيَّ عَبْدِي)، فَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾، انْتَظَرَ جَوَابَهُ بِقَوْلِهِ: (مَجَّدَنِي عَبْدِي)؛ فِيا لَذَّةَ قَلْبِهِ، وَقُرَّةَ عَيْنِهِ، وَسُرُورَ نَفْسِهِ بِهَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالنَّوَالِ الْكَرِيمِ!



مَضَامِينُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

تَقَدَّمَ بَيَانُ مَكَانَةِ الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ «سُورَةُ الْفَاتِحَةِ»، وَجَمَعَهُ لَخِيرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَعَ غَفْلَةٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَنْ مَعَانِيهِ الْعَظِيمَةِ، وَدَلَالَتِهِ النَّافِعَةِ، وَفَوَائِدِهِ الْجَلِيلَةِ، وَفِيمَا يَلِي وَقْفَةً مَعَ شَيْءٍ مِنَ مَضَامِينِ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ.

«وَقَدْ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ، وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ، عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمَجِيدِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ: بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لَصِفَاتِهِ الْعُلَا، وَعَلَى ذِكْرِ الْمَعَادِ - وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ - وَعَلَى إِرْشَادِ عِبَادِهِ إِلَى سَوَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَالتَّبَرُّيِّ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقَوْتِهِمْ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَازِلٌ، وَإِلَى سَوَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهَدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ - وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ - وَتَثْبِيْتِهِمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُقْضِيَ بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى جَوَازِ الصِّرَاطِ الْحَسَنِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فِي جَوَارِ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ؛ لِئَلَّا يُخْشَرَ مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ»^(١).

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَلَّمَ عِبَادَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ كَيْفَ يَدْعُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ، وَقَوْلُكَ بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ أَيِ: أَبْتَدِئْ بِاسْمِ اللَّهِ، وَالْبَاءُ لِلِاسْتِعَانَةِ، وَ﴿اللَّهُ﴾: هُوَ الْمَالُوءُ الْمَعْبُودُ الْمُسْتَحَقُّ لِأَنْ يُفْرَدَ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: اسْمَانِ دَالَّانِ عَلَى أَنَّهُ سَبْحَانَهُ ذُو

(١) «الدرر السنية» (٣٩/١٠)؛ وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَنٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِلْفَاتِحَةِ.

الرحمة الواسعة العظيمة التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَعَمَّتْ كُلَّ حَيٍّ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الْحَمْدُ: هو الشناء على الله بصفات الكمال، ونعوت الجلال، وأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل؛ فله الحمد الكامل بجميع الوجوه.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الرَّبُّ: المُرَبِّي جميع العالمين، وهم مَنْ سِوَى اللَّهِ، يَخْلُقُهُمْ لهم وإعدادِهِ لهم الآلات، وإنعامِهِ عليهم بالنعمة العظيمة.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، الْمَالِكُ: هو مَنْ اتَّصَفَ بِصِفَةِ الْمُلْكِ التي مِنْ آثارِهَا أَنَّهُ يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَيَتَصَرَّفُ بِمَمَالِكِهِ بِجميعِ أنواعِ التصرفات. وأضاف الْمُلْكَ ليومِ الدين، وهو يومُ القيامة، يَوْمَ يُدَانُ النَّاسُ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَظْهَرُ لِلخَلْقِ تَمَامُ الظُّهُورِ كَمَالُ مُلْكِهِ وَعَدْلُهُ وَحُكْمَتُهُ، وانقطاعُ أملاكِ الخلائق؛ وإلا فهو المالكُ ليومِ الدين وغيره مِنَ الأيام.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أَي: نَخْصُصُكَ وَخَدَّكَ بِالْعِبَادَةِ والاستعانة؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ المعمولِ يَفِيدُ الحَصْرَ؛ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: نَعْبُدُكَ وَلَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَنَسْتَعِينُ بِكَ وَلَا نَسْتَعِينُ بِغَيْرِكَ. وَالْعِبَادَةُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ، الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَالِاسْتِعَانَةُ هِيَ: الْاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ الثِّقَةِ بِهِ فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أَي: ذُلِّنَا وَأَرْشِدْنَا وَوَفَّقْنَا إِلَى سُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الْمَوْصِلُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى جَنَّتِهِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ، وَالْعَمَلُ بِهِ.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أَي: مَنَنْتَ عَلَيْهِمْ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسَّنْ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ أي: غير طريقِ المغضوبِ عليهم، وهم الذين عَرَفُوا الْحَقَّ وتركوه ولم يعملوا به؛ كاليهود ونحوهم، وغير طريقِ الضالِّين، وهم الذين تركوا الْحَقَّ على جهلٍ وضلال؛ كالنصارى ونحوهم.

وقوله في هذه السورة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا هو الدعاء الصريحُ الذي هو حَظُّ الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ، وهو التضرُّعُ إليه والإلحاحُ عليه بعدُ الثناءِ عليه وحمْدِهِ وتمجيدِهِ: أن يرزُقَهُ هذا المطلبَ العظيمَ الذي لم يُعْطَ أَحَدٌ في الدنيا والآخرة أفضلَ منه؛ وَلَمَّا كان سؤالُ اللَّهِ الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيمِ أجلَّ المطالبِ، ونيلُهُ أشرفَ المواهبِ، علَّم عبادهَ كيفيةَ سؤاله، وأَمَرَهُمْ أَنْ يقدِّمُوا بين يديه حمْدَهُ والثناءَ عليه وتمجيدَهُ، ثم ذَكَرَ عِبَادَتَهُمْ وتوحيدهم.

أما عن حاجة العبد إلى هذه الدعوة العظيمة والمواظبة عليها:

* فيقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فليس العبدُ أحوَجَ منه إلى هذه الدعوة، وليس شيءٌ أنفعَ له منها؛ فَإِنَّ الصراطِ المستقيمَ يتضمَّنُ علوماً وإراداتٍ وأعمالاً وتروكاً ظاهرةً وباطنةً، تجري عليه كلُّ وقتٍ، فتفاصيلُ الصراطِ المستقيمِ قد يعلمها العبدُ وقد لا يعلمها، وقد يكونُ ما لا يعلمه أكثرُ مما يعلمه، وما يعلمه قد يَقْدِرُ عليه وقد لا يَقْدِرُ عليه، وهو من الصراطِ المستقيمِ وَإِنْ عَجَزَ عنه، وما يَقْدِرُ عليه قد تريدهُ نفسه وقد لا تريده؛ كسلاً وتهاوُّناً، أو لقيام مانعٍ وغير ذلك، وما تريدهُ قد يفعلُه وقد لا يفعلُه، وما يفعلُه قد يقومُ فيه بشروطِ الإخلاصِ وقد لا يقومُ فيه، وما يقومُ فيه بشروطِ الإخلاصِ قد يقومُ فيه بكمالِ المتابعةِ وقد لا يقومُ، وما يقومُ فيه بالمتابعةِ قد يَثْبُتُ عليه وقد يُصَرَفُ قلبُه عنه؛ وهذا كلُّه واقعٌ سارٍ في الخلقِ، فمستَقِلٌّ ومستَكثِرٌ»^(١). اهـ.

وذكرَ نحواً من هذا في موضعٍ آخر، ثم قال: «وبهذا يُعرَفُ قدرُ هذا الدعاءِ

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٤٣ - ١٤٤)، وانظر: «الدرر السنية» (١٠/ ٣٧ - ٣٨).

العظيم، وشِدَّةُ الحاجةِ إليه، وتَوَقُّفُ سعادةِ الدنيا والآخرةِ عليه^(١).
 وَمَنْ تَأَمَّلْ كَلَامَهُ رَحِمَهُ اللهُ أَدْرَكَ شِدَّةَ حَاجَةِ الْعِبَادِ وَعِظَمَ ضَرُورَتِهِمْ إِلَى
 الْعَنَايَةِ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْعَظِيمَةِ.
 وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يَهْدِيَنَا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا الزَّلَلَ؛ إِنَّهُ
 سَبْحَانَهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ، وَهُوَ أَهْلُ الرَّجَاءِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.



(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص ٨).

مَكَانَةُ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

في القرآن الكريم آيات كثيرة ذَكَرَ اللهُ ﷻ فيها أمثلةً مِنْ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ والمرسلين، ومَنَاجَاتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وتَوَسُّلِهِمْ إِلَيْهِ، وَفَزَعِهِمْ إِلَيْهِ، وَانْكَسَارِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَذُلُّهُمْ وَخُضُوعِهِمْ، وَرَغْبُهُمْ وَرَهْبُهُمْ، وَكَمَالِ أَدْبِهِمْ فِي مَنَاجَاتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَتَضَرُّعِهِمْ وَدَعَائِهِمْ؛ وَذَلِكَ لِيَتَعَلَّمَ عِبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ النِّهَجَ السَّيِّدَ، وَالطَّرِيقَ الرَّشِيدَ، وَالْمَسْلَكَ الْقَوِيمَ وَالْأَدَبَ الرَّفِيعَ فِي دُعَاءِ الرَّبِّ ﷻ وَمَنَاجَاتِهِ.

ولهذا لَمَّا ذَكَرَ اللهُ ﷻ فِي «سُورَةِ الْأَنْعَامِ» طَرَفًا مِنْ أَخْبَارِهِمُ الْمُبَارَكَةِ، وَأَعْمَالِهِمُ الْجَلِيلَةِ، وَأَوْصَافِهِمُ الْفَاضِلَةِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَفْقَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وَهَذَا فِيهِ أَمْرٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِاتِّبَاعِ سَنَنِهِمْ، وَلِزُومِ نَهْجِهِمْ، وَتَوَجُّيٍّ لِأَمْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ. وَقَدْ فَعَلَ ﷺ مَا أَمَرَ بِهِ، وَامْتَثَلَ ذَلِكَ حَقَّ الْإِمْتِثَالِ؛ فَاهْتَدَى بِهَدْيِ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَهُ، وَجَمَعَ كُلَّ كَمَالٍ فِيهِمْ؛ فَاجْتَمَعَتْ لَدَيْهِ فُضَائِلُ مُبَارَكَةٍ، وَخِصَالُ عَظِيمَةٍ، فَاقَ بِهَا جَمِيعَ الْعَالَمِينَ، وَكَانَ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامَ الْمُتَّقِينَ، وَقُدْوَةَ الصَّالِحِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وَالْأَنْبِيَاءُ هُمْ صَفْوَةُ النَّاسِ وَخُلَاصَتُهُمْ، وَفِي قَصَصِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ عِبْرٌ وَعِظَاتٌ بِالْغَاثِ لِلْمُؤْمِنِينَ لِيَقْتَدُوا بِهِمْ فِي جَمِيعِ مَقَامَاتِ الدِّينِ؛ فِي مَقَامِ التَّوْحِيدِ وَالْقِيَامِ بِالْعِبَادِيَّةِ، وَفِي مَقَامَاتِ الدَّعْوَةِ وَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ عِنْدَ جَمِيعِ النُّوَابِ وَالشَّدَائِدِ، وَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالسَّكُونِ وَالثَّبَاتِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَفِي مَقَامِ الصُّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِي جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ، وَفِيهَا مِنَ الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ وَالتَّرغِيبِ، وَالْفَرَجِ بَعْدَ الشَّدَّةِ، وَتَيْسِيرِ الْأُمُورِ بَعْدَ تَعَسُّرِهَا، وَحُسْنِ الْعَوَاقِبِ الْمَشَاهِدَةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ مَا فِيهِ سَلْوَةٌ لِلْمَحْزُونِينَ، وَزَادٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَسُرُورٌ

للعابدين، وَأُنْسٌ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَوُ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ اخْتَارَ أَنْبِيَاءَهُ وَاصْطَفَاهُمْ وَفَضَّلَهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ، وَجَعَلَهُمْ لِلخَلْقِ قَادَةً، وَفِي الْخَيْرِ قُدُوةً؛ فَبِهِمْ عُرِفَ اللَّهُ، وَبِهِمْ وُحِّدَ، وَبِهِمْ عُرِفَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَعَلَى آثَارِهِمْ وَصَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى كُلِّ نَعِيمٍ، وَفَازُوا بِكُلِّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بَلْ حَظُّ الْعَبْدِ مِنَ السَّعَادَةِ يَكُونُ بِحَسَبِ حَظِّهِ مِنَ الْاِقْتِفَاءِ لِآثَارِهِمْ، وَالسَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَتَرْسُمِ خَطَاهُمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]؛ فَكَمَّلَهُمُ اللَّهُ ﷻ بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَإِقَامِ الصَّلَوَاتِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْمَدَاوِمَةِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ؛ فَكَانُوا بِذَلِكَ قُدُوةً لِمَنْ عَدَاهُمْ، فَمَنْ اقْتَدَى بِهِمْ فَازَ، وَمَنْ ائْتَسَى بِهِمْ غَنِمَ.

وَمِنْ كَمَالِ الْأَنْبِيَاءِ: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ عَظِيمِ صَلَاتِهِمْ بِاللَّهِ، وَكَمَالِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ، وَقُوَّةِ التَّجَاهِ إِلَى اللَّهِ فِي أَحْوَالِهِمْ جَمِيعَهَا، وَشَوْوَنِهِمْ كُلَّهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ أَي: يَبَادِرُونَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَيَفْعَلُونَهَا فِي أَوْقَاتِهَا الْفَاضِلَةِ، وَيُكْمَلُونَهَا عَلَى الْوَجْهِ اللَّاتِقِ الَّذِي يَنْبَغِي، وَلَا يَتْرَكُونَ فَضِيلَةً يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا إِلَّا انْتَهَزُوا الْفُرْصَةَ فِيهَا، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ أَي: يَسْأَلُونَنَا الْأُمُورَ الْمُرْغُوبَ فِيهَا مِنْ مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَتَعَوِّذُونَ بِنَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُرْهُوبِ مِنْهَا مِنْ مَضَارِّ الدَّارَيْنِ، وَهُمْ رَاغِبُونَ رَاهِبُونَ، لَا غَافِلُونَ لَاهُونَ، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾؛ أَي: خَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ مُتَضَرِّعِينَ؛ فَمَا أَكْمَلَهَا مِنْ حَالٍ! وَمَا أَحْسَنَهَا مِنْ صَلَةٍ وَمَعْرِفَةٍ بِالرَّبِّ الْعَظِيمِ، وَالْخَالِقِ الْجَلِيلِ! قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ سَأَلُوا اللَّهَ وَدَعَوْهُ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَغَيْرِهِمْ»^(١).

كم هو جميلٌ بالمسلم أن يَعْرِفَ سِيرَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَخْبَارَهُمْ، وكمالَ تعبدِهم وتذللِهم، وخضوعِهم وخشوعِهم، وما وصفَهُمُ اللهُ به مِنَ الصِّدْقِ الْكَامِلِ والأوصافِ الْكَامِلَةِ، وما لهم مِنَ الْفَضْلِ وَالْفَوَاضِلِ وَالْإِحْسَانِ؛ لِيَعْظُمَ حُظُّهُ مِنَ الْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ!! وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ في مواضع عديدةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أمثلةً عديدةً مِنْ دَعَوَاتِ النَّبِيِّينَ، وَسُؤَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ، لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَظِيمِ رَجَائِهِمْ لِرَحْمَتِهِ، وَطَمَعِهِمْ فِي فَضْلِهِ، وَفَزَعِهِمْ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ؛ فَذَكَرَ دَعَاءَ آدَمَ وَنُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَمُوسَى وَيُونُسَ وَأَيُّوبَ وَعِيسَى، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ - عَلَيْهِمُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ - لِيَتَعَلَّمَ النَّاسُ صِفَةَ الدَّعَاءِ وَأَدَبَهُ، وَكَمَالَ الْاِلْتِجَاءِ وَالتَّذَلُّلِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَذَكَرَ تَعَالَى إِجَابَتَهُ لِدَعَوَاتِهِمْ، وَتَحْقِيقَهُ لِرَغَبَاتِهِمْ، وَتَيْسِيرَهُ لِأُمُورِهِمْ مَهْمَا عَظُمَ الْخَطْبُ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ، وَكَمْ لَقُوا مِنَ الْاِبْتِلَاءِ وَالْمَكَابِدَةِ وَعُتُوِّ الْأَقْوَامِ، فَصَبَرُوا وَالتَّجَوُّوا إِلَى رَبِّهِمْ مُؤْمِلِينَ مِنْهُ الْفَرَجَ، رَاجِينَ مِنْهُ التَّيْسِيرَ؛ فَجَاءَهُمْ فَرَجُ اللهِ وَنَصْرُهُ وَتَأْيِيدُهُ؛ لِكَمَالِ التَّجَائِهِمْ، وَحُسْنِ رَجَائِهِمْ.

وَمِنْ اقْتَدَى بِهِمْ فِي ذَلِكَ، أَعَانَهُ كَمَا أَعَانَهُمْ، وَأَنْجَاهُ كَمَا أَنْجَاهُمْ؛ وَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء]، وَهَذَا وَعْدٌ وَبَشَارَةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ اقْتَدَى فِي شِدَّتِهِ وَكَرْبِهِ بِيُونُسَ ﷺ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ؛ رَوَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ)^(١).

هَذَا وَسِيمٌ مَعْنَا - إِنْ شَاءَ اللهُ - عَرْضٌ لِدَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبَيَانٌ لِمَا فِيهَا مِنْ حِكْمٍ وَعِظَاتٍ، سَائِلِينَ اللهُ الْعَوْنَ وَالتَّسْدِيدَ، وَأَنْ يُوفِّقَنَا لِاتِّبَاعِهِمْ، وَالسَّيْرِ عَلَى مِنْهَاجِهِمْ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

اسْتِغْفَارُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ

لقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ القرآنِ الكريمِ عن أنبيائِهِ ورسَلِهِ - عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ - مِنْ كَمالِ تعَبُّدِهِمْ، وَتَمامِ تَذَلُّلِهِمْ وخُضُوعِهِمْ واستِكانَتِهِمْ لَهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، فَكانوا في الْخَيْرِ قَادَةً، وَلِلْمُهْتَدِينَ مِنْ عِبادِ اللهِ قُدُوةً وَسادةً. وَمَعَ هَذَا التَّمَامِ وَالْكَمالِ، فَقَدَ كانوا مُلَازِمِينَ لِلتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفارِ، وَالْإِنابَةِ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفارِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ﷻ في غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: اسْتَغْفَرَهُمْ وَتَوَبَّتْهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ؛ وَمِنْ ذَلِكَ: ما ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ عَنْ نَبِيِّهِ آدَمَ ﷺ؛ قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَى حِينٍ (٢٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿[البقرة]، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ أُخْرَى: ﴿وَيَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٦) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ما وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ ما نَهَىكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٧) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ (٢٨) فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَفَادَهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٩) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿[الأعراف]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فِدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (٣١) ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَثَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه].

وَذَكَرَ عَنْ نُوحٍ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ

الْحَقُّ وَأَنْتَ أَهْكُمُ الْحَكِيمِينَ ﴿٤٥﴾ [هود: ٤٥]؛ حَيْثُ أَدْرَكْتُهُ الشَّفَقَةَ عَلَى وَلَدِهِ، وَقَدْ وَعَدَهُ اللَّهُ بِنَجَاةِ أَهْلِهِ، فَظَنَّ أَنَّ الْوَعْدَ لِعُمُومِ مَنْ آمَنَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ؛ لِذَلِكَ دَعَا بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿يَنْتَوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فَتَدِمَ ﷺ مِمَّا صَدَرَ مِنْهُ، وَطَلَبَ مِنْ رَبِّهِ الْعُفْوَ وَالْغُفْرَانَ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]؛ فَهَذَا اسْتِغْفَارٌ وَتَوْبَةٌ مِنْهُ ﷺ.

وَذَكَرَ ﷺ اسْتِغْفَارَ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وَقَالَ: ﴿وَأَرَانَا مَنَاسِكَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وَذَكَرَ سَبْحَانَهُ اسْتِغْفَارَ نَبِيِّهِ مُوسَى ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وَقَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وَقَالَ مُوسَى: ﴿سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَقَالَ مُوسَى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى مَكَتُوبَاتِهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وَذَكَرَ سَبْحَانَهُ اسْتِغْفَارَ سُلَيْمَانَ ﷺ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٤].

وَذَكَرَ سَبْحَانَهُ اسْتِغْفَارَ دَاوُدَ ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا

الْحَرَابِ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحَفَّ خَصَمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٢٥﴾ [ص].

وقال عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلُظًا فَقَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء].

فهذه الآيات مشتملة على توبة الأنبياء، واستغفارهم، وعظيم إنابتهم إلى الله عز وجل قد ذكرها الله عنهم في كتابه في معرض الثناء عليهم، وبيان فضيلتهم وكمالهم، ليتأسى بهم الناس، ويقتدي بهم الخلق. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والله تعالى قصَّ علينا قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب»^(١). اهـ.

وكم هو جميل بالمسلم أن يتأمل هذا القصص الكريم، والحال العظيم الذي عليه هؤلاء الصفوة المختارة، أنبياء الله ورسله - عليهم صلوات الله وسلامه - فيجعلهم قدوة في لزوم التوبة إلى الله، والإنابة إليه، والإكثار من الاستغفار؛ فإن في ذلك رفعة الدرجات، وتوالي الخيرات، وكثرة العطايا والهبات؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.



دُعَاءُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِنَّ من الدعواتِ العظيمةِ الواردةِ في القرآن: دعاءُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبِي الْبَشَرِ، الْمُسْتَمِلَ عَلَى تَوْبَتِهِ إِلَى اللَّهِ، وَطَلَبِ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِقَالَةِ عَثْرَتِهِ؛ حَيْثُ كَانَ قَدْ ارْتَكَبَ مَا نَهَاها اللَّهُ عَنْهُ، وَوَقَعَ فِيهَا مِنْهُ مِنْهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَكَادُمُ اسْتَكْنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَوْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ أَقَلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ [الأعراف].

فهذه خطيئةُ آدَمَ وَذَنْبُهُ الَّذِي اقْتَرَفَهُ، وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا أَنَابَ، وَاعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، وَأَقَرَّ بِخَطِيئَتِهِ، وَطَلَبَ مِنْ رَبِّهِ الْعَفْوَ وَالْغُفْرَانَ؛ وَقَدْ أَلْهَمَهُ رَبُّهُ كَلِمَاتٍ يَقُولُهَا، وَدَعَوَاتٍ يَدْعُو بِهَا، فَقَبِلَ تَوْبَتَهُ، وَأَقَالَ عَثْرَتَهُ، وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ، وَهَدَاهُ وَاجْتَبَاهُ؛ ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وهذه الكلماتُ التي تَلَقَّى آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رَبِّهِ - عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ - هِيَ الْمُبَيَّنَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: أَنَّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَلَقَّاهُنَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ: هُنَّ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَخْبَرَ جَلَّ ذِكْرُهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَهَا مُتَنَصِّلًا بِقِيلِهَا إِلَى رَبِّهِ، مُعْتَرِفًا بِذَنْبِهِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾»^(١).

ومعنى هذه الدعوة: أي: قد فعلنا الذنب الذي نُهينا عنه، وضررنا أنفسنا باقترافه، ووقعنا في سبب الخُسرانِ إن لم تغفر لنا بِمَحْوِ أثرِ الذنبِ وعقوبته، وترحمنا بِقَبُولِ التوبةِ والمعافةِ مِنْ أمثالِ هذه الخطايا؛ فغفرَ اللهُ لهما ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿٢٣﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه]، وذُكِرَ هذا الأمرُ عنه وبيانُ هذه التوبةِ منه فيه تعليمٌ لذريَّتهِ إذا وقعوا في الذنبِ والخطيئةِ سبيلَ الرجوعِ والأوبةِ، وطريقَ الإنابةِ والتوبةِ.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا الخبرُ الذي أخبرَ اللهُ عن آدَمَ مِنْ قِيلِهِ الذي لَقَّاهُ اللهُ إياه، فقال له تائبًا إليه مِنْ خطيئته، تعريفٌ منه جَلَّ ذَكَرُهُ جميعَ المخاطبينَ بكتابهِ كَيْفِيَّةِ التوبةِ إليه مِنَ الذنوبِ... وَأَنَّ خَلَاصَهُمْ مما هم عليه مقيمون مِنَ الضلالةِ نظيرُ خلاصِ أبيهم آدَمَ مِنْ خطيئته»^(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا اعترافٌ ورجوعٌ إلى الإنابةِ، وتذللٌ وخضوعٌ واستكانةٌ، وافتقارٌ إليه تعالى في الساعةِ الراهنةِ، وهذا السرُّ ما سَرَى في أحدٍ من ذريتهِ إلا كانت عاقبتهُ إلى خيرٍ في دنياهِ وأخراهِ»^(٢).

هذا، وإنَّ الخطأَ واقعٌ مِنْ بني آدَمَ لا محالةً، وكلُّ بني آدَمَ خَطَّاءٌ، ولكنَّ كم هو عظيمٌ مِنَ الإنسانِ أن يبادرَ إلى الخلاصِ مِنْ مَغَبَّةِ الإثمِ، وأن يسارعَ إلى الْفَكَاكِ مِنْ عاقبةِ الخطأِ، متشبِّهًا بِأبيه آدَمَ، ومؤتسِّيًا به!!

روى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو الشيخ عن قتادة، قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيَسْتَحْيَ رَبَّهُ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا وَقَعَ بِهِ، ثُمَّ يَعْلَمُ - بِحَمْدِ اللهِ - أَيْنَ الْمَخْرَجُ، يَعْلَمُ أَنَّ الْمَخْرَجَ فِي الْاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ إِلَى اللهِ وَرَبِّكَ، فَلَا يَحْتَشِمَنَّ رَجُلٌ مِنَ التَّوْبَةِ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا التَّوْبَةُ لَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَبِالتَّوْبَةِ أَدْرَكَ اللهُ أَبَاكُمْ الرَّئِيسَ فِي الْخَيْرِ مِنَ الذَّنْبِ حِينَ وَقَعَ بِهِ»^(٣).

(١) «تفسير الطبري» (١/٥٨٧). (٢) «البداية والنهاية» (١/١٨٤).

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٤٣٣).

ثم إن أعظم الخسران وأشدَّ الحرمان أن يترك العبدُ التَّاسِّيَ بأبيه، ثم يتأسَّى بَعْدُوَ أبيه وِعْدُوَ بنيه إبليسَ الطريد؛ فإنَّ آدمَ لَمَّا وَقَعَ فِي الذَّنْبِ، اعْتَرَفَ بِهِ وَأَقَرَّ وَسَأَلَ اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ، وَأَمَّا إبليسُ فَإِنَّهُ عَصَى وَأَصْرَّ، وَلَمْ يُقِرَّ بِالْخَطَا، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِآدَمَ سَعِدَ مِثْلَهُ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِإِبْلِيسَ شَقِيَ مِثْلَهُ.

وقد نقل القاسمي رحمته الله في «تفسيره» عن بعضِ أهل العلم أنه قال: «إنَّ آدمَ عليه السلام سَعِدَ بِخَمْسَةِ أَشْيَاءَ: اعْتَرَفَ بِالذَّنْبِ، وَنَدِمَ عَلَيْهِ، وَلَاَمَ نَفْسَهُ، وَسَارَعَ إِلَى التَّوْبَةِ، وَلَمْ يَقْنَطْ مِنَ الرَّحْمَةِ.

وشقِّي إبليسُ بِخَمْسَةِ أَشْيَاءَ: لَمْ يُقِرَّ بِالذَّنْبِ، وَلَمْ يَنْدَمْ، وَلَمْ يَلْمِ نَفْسَهُ، بَلْ أَضَافَ إِلَى رَبِّهِ، فَلَمْ يَتُبْ، وَقَنِطَ مِنَ الرَّحْمَةِ» (١). اهـ.

فَمَنْ أَشَبَّهَ آدَمَ بِالْاعْتِرَافِ وَسُؤَالِ الْمَغْفِرَةِ وَالنَّدَمِ وَالْإِقْلَاعِ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ الذُّنُوبُ، اجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَهْدَاهُ، وَمَنْ أَشَبَّهَ إِبْلِيسَ إِذَا صَدَرَ مِنْهُ الذَّنْبُ، لَا يَزَالُ يَزْدَادُ مِنَ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَزْدَادُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي السِّيَاقِ نَفْسَهُ مُحَذِّرًا الذَّرِيَّةَ: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ، وَحَمَانَا مِنْ شَرِّهِ، وَوَفَّقَنَا لِلتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَحُسْنِ الْإِنَابَةِ، وَالْحَقَّنَا بِأَبِينَا آدَمَ وَبِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُّجِيبٌ.



دُعَاءُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)

لقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ دَعَوَاتِ نَبِيِّهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَكَرَ قِصَّتَهُ وَمَا كَانَ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَا أَنْزَلَ بِمَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالطُّوفَانِ، وَكَيْفَ أَنْجَاهَ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ، فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَكَانَ ﷻ قَدْ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى لَمَّا عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ وَالطَّوَاغِيتُ، وَشَرَعَ النَّاسُ فِي الضَّلَالَةِ وَالْكُفْرِ؛ فَبَعَثَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْهَى عَنِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [١] أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَوْعَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلَسْتُمْ أَتَىكُمْ تَرْحُمُونَ ﴿٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٧﴾ [الأعراف]، لَقَدْ تَلَقَّى قَوْمُ نُوحٍ ﷻ دَعْوَةَ نَبِيِّهِمْ بِالْصُدُودِ وَالْإِعْرَاضِ، وَالْكِبْرِ وَالْأَنْفَةِ، وَالْمَكْرِ وَالْكِيدِ، وَالْعُتُوِّ وَالتَّكْبُرِ، وَالتَّهْدِيدِ لِنَبِيِّهِمْ بِالرَّجْمِ وَالْقَتْلِ، وَلَمَّا طَالَ مُقَامُ نَبِيِّ اللهِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَجَهْرًا وَإِسْرَارًا، حَيْثُ مَكَثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَكَلَّمَا كَرَّرَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ طَوَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ، صَمَّمُوا عَلَى الْكُفْرِ الْغَلِيظِ، وَالْإِمْتِنَاعِ الشَّدِيدِ؛ وَحِينَئِذٍ دَعَا عَلَيْهِمُ ﷻ دَعْوَةً اسْتَجَابَهَا اللهُ مِنْهُ؛ فَقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [٨] فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ [الشعراء]؛ أَي: فَاحْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ حَكْمًا مِنْ عِنْدِكَ تُهْلِكُ بِهِ الْمُبْطِلَ، وَتَنْتَقِمُ

مَمَّنْ كَفَرَ بِكَ، وَجَحَدَ تَوْحِيدَكَ، وَكَذَّبَ رَسُولَكَ، وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُنَجِّيهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

وقد بين الله تعالى أنه استجاب دعاء عبده ونبيه نوح عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء﴾، وقال الله تعالى في موضع آخر في بيان دعوة نوح عليه السلام على قومه لما كذبوا رسالته، وبيان استجابة الله تعالى لدعائه بإهلاك قومه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ ﴿١٣﴾ تَحْوِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرٌ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر].

ونوح عليه السلام إنما دعا بهذه الدعوة لما يئس من صلاح قومه وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وأنهم توصلوا إلى أدبيته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال. ودعوته عليهم إنما كانت غَضَبًا لله، فلبى سبحانه دعوته، وأجاب طلبته، ولينعم المجيب هو سبحانه والمان، ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) وَفَتَحْنَاهُ وَأَهْلَاهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿الصافات﴾.

ولما أراد سبحانه إنجاء نوح والمؤمنين وإهلاك قومه، أمره تعالى أن يَصْنَعَ الْفُلَّ، وهي السفينة العظيمة؛ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (٦٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِطِ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿المؤمنون﴾، وَعَمِلَ عَلَيْهِ عَلَى صُنْعِ السَّفِينَةِ، وكان قومه يَمُرُّونَ بِهِ وَهُوَ يَصْنَعُهَا، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَهْزَأُونَ مِنْ صُنْعِهِ؛ ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]؛ أي: نحن الذين نَسْخَرُ مِنْكُمْ، وَنَتَعَجَّبُ مِنْكُمْ فِي اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَعِنَادِكُمْ الَّذِي يَقْتَضِي وَقُوعَ الْعَذَابِ بِكُمْ،

وحلوله عليكم؛ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ [هود: ٣٩]، وقد كانت سَجِيَّتُهُمُ الكُفْرَ الغليظ، والعناد البالغ، والعُتُوَّ والطغيان، وحَلَّتِ العقوبة؛ قال الله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فَنَبَعَتْ الأرضُ بالماءِ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا، وارتفع الماءُ على أعالي الجبال، وعمَّ جميعَ الأرضِ طولُها وعَرْضُها، سَهْلُها وحَزْنُها، قَفَارُها ورمالُها، ولم يَبْقَ على وجهِ الأرضِ مِمَّنْ كان بها مِنَ الأحياءِ أحدٌ لا صغيرٌ، ولا كبيرٌ، ولَمَّا هَلَكُوا أَجْمَعِينَ، أَذِنَ اللهُ ﷻ لِلأَرْضِ بِابْتِلَاعِ الماءِ، وللسماءِ بالتوقُّفِ عن المطرِ؛ ﴿وَقِيلَ يَتَّزِئْ أَرْضُ آبِلَى مَاءِكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَى وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وأمره سبحانه أن يَهْبِطَ بِسلامٍ وَمَنْ مَعَهُ لَمَّا نَضِبَ الماءُ الذي على الأرضِ، وأمكن السعي فيها، والاستقرارُ عليها؛ ﴿قِيلَ يَنْحُضْ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

فهذه استجابةُ الله لدعوة نبيه المعصوم، وتنفيذُ لِمَا سَبَقَ فِي قَدَرِهِ المحتوم؛ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].



دُعَاءُ نُوحٍ عليه السلام

(٢)

لقد مرَّ بنا دعوةُ نبيِّ الله نُوحٍ عليه السلام، وسؤالُهُ رَبَّهُ سبحانه النجاةَ مِنَ القومِ الظالمينَ، ودعاؤُهُ عليهم بالهلاكِ لَمَّا عَتَوْا وتكَبَّرُوا وتجَبَّرُوا، واستجابةُ اللهِ له بأنَّ أَهْلَكَهُمُ بالطُوفانِ، وأنجى نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ المشحونِ.

وقد كان عليه السلام عَبْدًا شَكُورًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]؛ وفي هذا تنويهُ بالثناءِ عليه بقيامِهِ بشكرِ الله، واتِّصافِهِ بذلك، وفيه حَثٌّ لذريَّتِهِ أن يقتدوا به في شُكْرِهِ، ويتابعوه عليه، وأن يتذكَّروا نعمةَ الله عليهم إذ أَبْقَاهُمْ واستَحْلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَأَغْرَقَ غَيْرَهُمْ.

وَمِنْ شُكْرِ نُوحٍ عليه السلام: ما وَرَدَ فِي قولِ الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَحَثْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون]؛ وهذا فيه تعليمٌ مِنَ الله سبحانه لِنَبِيِّهِ نُوحٍ عليه السلام وَلِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَقُولُوا هَذَا الدُّعَاءَ شُكْرًا لَهُ سبحانه، وَحَمْدًا عَلَى نَجَاتِهِمْ مِنَ القومِ الظالمينَ، وَسؤالًا مِنْهُ سبحانه أَنْ يُسِّرَ لَهُمْ مَنْزَلًا مُبَارَكًا.

قال ابن كثيرٍ رحمته الله: «أمره أَنْ يَحْمَدَ رَبَّهُ عَلَى ما سَخَّرَ لَهُ مِنْ هذه السفينة، فَنَجَّاهُ بِهَا، وَفَتَحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ، وَأَقَرَّ عَيْنَهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٩) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (٢٠) وَإِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ﴾ [الزخرف]؛ وهكذا يُؤَمَّرُ بالدعاءِ فِي ابتداءِ الْأُمُورِ: أَنْ يَكُونَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، وَأَنْ تَكُونَ عَاقِبَتُهَا مَحْمُودَةً؛ كما قال تعالى لِرَسُولِهِ عليه السلام حِينَ هَاجَرَ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ

وَأَخْرَجَنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلَ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ [الإسراء: ٨٠]»^(١). اهـ. وقد امتثل نُوحٌ ﷺ هذه الوصية، فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه؛ كما حكى الله عنه بقوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَجْرُهَا وَمُرْسَهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]؛ أي: على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاءه.

ودعاء نُوحٍ ﷺ في هذا المقام قد استجابهُ الله؛ كما قال سبحانه: ﴿قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]؛ أي: اهبط سالماً مباركاً عليك وعلى أمة مِمَّنْ سيولد بعدُ؛ أي: مِنْ أولادك؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لَأَحَدٍ مِّمَّنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ نَسْلاً وَلَا عَقِباً سِوَى نُوحٍ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وفي هذا السياق المبارك الذي ذَكَرَ اللهُ ﷻ عَنْ عبده الشكور، ونبِيِّهِ الذِّكُورِ نُوحٍ ﷺ: فوائدٌ عظيمةٌ، ومنافعٌ جليلةٌ، ينبغي للمسلم أن يتنبه لها، وأن يَحْرِصَ على التزامها؛ قال العلامة عبد الرحمن بن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ، وهو بصدد ذكرِ الفوائدِ المستنبطةِ من قصَّةِ نُوحٍ ﷺ: «ومنها: - أي: الفوائد - أنه ينبغي الاستعانة بالله، وأن يُذَكَّرَ اسْمُهُ عِنْدَ الرُّكُوبِ والنزولِ، وفي جميعِ التَّغْلِبَاتِ والحَرَكَاتِ، وحمْدُ اللهِ والإكثارُ مِنْ ذِكْرِهِ عند النعم، لا سِيَّما النجاةُ مِنَ الْكُرْبَاتِ والمشَقَّاتِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَجْرُهَا وَمُرْسَهَآ﴾ [هود: ٤١] وقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ السَّلَامُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وأنه ينبغي أيضاً الدعاء بالبركة في نزولِ المَنَازِلِ العارضة؛ كالمَنَازِلِ في إقاماتِ السَّفَرِ وغيره، والمَنَازِلِ المستقرَّة؛ كالمساكنِ والدُّورِ؛ لقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْزُقْنِي مِثْلَ مَا بَارَكْتَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وفي ذلك كُلُّهُ من اصطحابِ ذِكْرِ اللهِ، ومن القُوَّةِ على الحَرَكَاتِ والسَّكِّنَاتِ، ومن قُوَّةِ الثِّقَةِ بالله، ومن نزولِ بركةِ اللهِ التي [هي] خَيْرُ مَا صَحِبَتِ الْعَبْدَ فِي أَحْوَالِهِ كُلِّهَا: ما لا غنى للعبدِ عنه طَرْفَةً عَيْنٍ»^(٢).

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢٦٢ - ٢٦٣).

(٢) «تيسير اللطيف المنان، في خلاصة تفسير القرآن» (ص ١١١).

ومن يتأمل سنة نبينا الكريم ﷺ يجد فيها هذه المعاني العظيمة، والأحوال الكاملة، والهدي القويم، في ركوبه وتنقلاته، وذهابه ورواحه.

ففي سنن أبي داود، والترمذي، وغيرهما، عن علي بن ربيعة، قال: «شهدتُ علياً رضي الله عنه وأُتِيَ بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب، قال: بِاسْمِ اللَّهِ، فلما استوى على ظهرها، قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ، ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، ثم قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ، ثلاث مرّات، ثم قال: اللَّهُ أَكْبَرُ، ثلاث مرّات، ثم قال: سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، ثم ضحك، فقيل: يا أمير المؤمنين، من أي شيء ضحكْتَ؟ قال: رأيتُ النبي ﷺ فعلَ كما فعلْتُ، ثم ضحك، فقلت: يا رسول الله، من أي شيء ضحكْتَ؟ قال: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي) ^(١).

وفي «صحيح مسلم»، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا لَمُغْلِبُونَ» (١٤) [الزخرف]، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ، وَإِذَا رَجَعَ، قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: (أَيُّونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبَّنَا حَامِدُونَ) ^(٢).

وكلُّ هذا ذِكْرُ اللَّهِ، واستعانة به، والتجاء إليه، واعتماد عليه، وهو هَدْيُ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَدْيُ النَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ. رَزَقَنَا اللَّهُ الْاِقْتِدَاءَ بِهِمْ، وَالسَّيْرَ عَلَى نَهَجِهِمْ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)

إِنَّ مِنْ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمَكَّةَ بِأَنْ تَكُونَ بَلَدًا آمِنًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥) رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم].

فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾؛ فَتَكَرَّرَ الْبَلَدُ فِي الْأُولَى، وَعَرَّفَهُ فِي الثَّانِيَةِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَا بِهَذِهِ الدَّعْوَةَ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً قَبْلَ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَنَاسَبَ التَّنْكِيرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَمَرَّةً بَعْدَ بِنَائِهِ وَاسْتِقْرَارِ أَهْلِهِ بِهِ، فَنَاسَبَ التَّعْرِيفُ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الدَّعَاءِ فِي مَوْضِعِهِ الثَّانِي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿آمِنًا﴾؛ أَي: ذَا أَمْنٍ كَامِلًا فِي الْأَمْنِ، يَأْمَنُ فِيهِ أَهْلُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، إِنَّمَا سَأَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ بِهَا زَرْعٌ وَلَا ثَمَرٌ وَلَا مَاءٌ.

فَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَا لِمَكَّةَ وَلَأَهْلِهَا بِالْأَمْنِ وَرَعْدِ الْعَيْشِ، مَعَ قَلَّةِ الْمِيَاهِ فِيهَا

والأشجار والزروع والثمار، وأن تكون حَرَمًا مُحَرَّمًا وَأَمْنًا مُحْتَمًا، فاستجاب الله تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام دعاءه، وآتاه سُؤْلَه؛ قال الحَسَنُ البَصْرِيُّ رحمته الله: «هذا دعاء دعا به إبراهيم، فاستجاب له دعاءه، فجعله بلدًا آمناً»^(١).

قال الله تعالى ممتنًا على أهل مكة بهذه المنّة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الفصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنُحْطِفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئَابَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمِ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِيكَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد بيّن أهل العلم - رحمهم الله تعالى - أن الله تعالى حَرَّمَ مكة شَرْعًا وَقَدَرًا، فحَرَّمَ مكة في الشرع في أي عِدِيدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَسَّرَ مِنْ أَسْبَابِ حُرْمَتِهَا قَدْرًا مَا هُوَ مَعْلُومٌ.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سَعْدِي رحمته الله: «وَمِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فِيهَا: أَنَّ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا شَرْعًا وَقَدْرًا؛ فَالْشَّرْعُ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِاحْتِرَامِهِ وَتَأْمِينِ مَنْ دَخَلَهُ، وَأَنْ لَا يَهَاجَ، حَتَّى إِنْ التَّحْرِيمَ فِي ذَلِكَ شَمِلَ صَيُودَهَا وَأَشْجَارَهَا وَنَبَاتَهَا... وَأَمَّا تَأْمِينُهَا قَدْرًا فَلَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَضَعَ فِي النَفُوسِ - حَتَّى نَفُوسِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْكَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ - احْتِرَامَهُ، حَتَّى إِنْ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ - مَعَ شِدَّةِ حَمِيَّتِهِمْ وَنَعَرَتِهِمْ، وَعَدَمِ احْتِمَالِهِمْ لِلضَّيْمِ - يَجِدُ أَحَدَهُمْ قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الْحَرَمِ، فَلَا يَهِيْجُهُ. وَمِنْ جَعْلِهِ حَرَمًا: أَنَّ كُلَّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَعَاقِبَهُ عَقُوبَةً عَاجِلَةً، كَمَا فَعَلَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ وَغَيْرِهِمْ»^(٢).

ومما يدلُّ على عِظَمِ شَأْنِ تَحْرِيمِ مكة، وخطورة محاولة الْعَبَثِ بِأَمْنِهَا:

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٢٩). (٢) «تفسير السعدي» (ص ١٤٦).

ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْبَةُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاكِمْ يُظْلَمِ نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية، قال: «هو أن تستحلَّ من الحرام ما حَرَّمَ الله عليك من لسانٍ أو قتل، فتظلم مَنْ لا يظلمك، وتقتل مَنْ لا يقتلك، فإذا فعلَ ذلك، فقد وجبَ له عذابُ أليم»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «لو أن رجلاً همَّ فيه بسيئةٍ وهو بعدنِ أبين، لأذاقه الله عَذَابًا أليماً»^(٢).

والآثارُ في هذا المعنى عن السلفِ كثيرة؛ قال ابن كثير رحمته الله: «وهذا مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْحَرَمِ: أنه يُعَاقَبُ الْبَادِي فِيهِ الشَّرُّ إِذَا كَانَ عَازِمًا عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يُوقِعْهُ»^(٣).

وقال السَّعْدِيُّ رحمته الله: «والحالُ أنَّ هذا المسجدَ الحرامَ مِنْ حُرْمَتِهِ واحترامِهِ وَعَظَمَتِهِ: أنَّ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بَظْلَمِ نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. فمجردُ إرادةِ الظلمِ والإلحادِ في الحرمِ مُوجِبٌ لِلْعَذَابِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ لَا يُعَاقَبُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ إِلَّا بِعَمَلِ الظلمِ، فكيف بمن أتى فيه أعظمَ الظلمِ؛ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَمَنْعِ مَنْ يَرِيدُهُ بِزِيَارَةٍ، فَمَا ظَنُّكُمْ أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ بِهِمْ؟! وفي هذه الآيةِ الكريمةِ وجوبُ احترامِ الْحَرَمِ، وَشِدَّةُ تَعْظِيمِهِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ إِرَادَةِ الْمَعَاصِي فِيهِ وَفِعْلِهَا»^(٤).

ولذا، فَإِنَّ مَنْ سَعَى فِي زِعْزَعَةِ أَمْنِ بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَانْتَهَكَ حُرْمَتَهُ، وَظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ فِيهِ، فَقَدْ ارْتَكَبَ جُرْمًا عَظِيمًا، وَمَنْكَرًا شَنِيعًا؛ وَقَدْ تَوَعَّدَ اللَّهُ مَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ يُذِيقَهُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، فكيف بمن يفعلُ ذلك؟! والله جلَّ وعلا جعل مكةَ بلدًا حرامًا إلى يومِ الْقِيَامَةِ، كما أن دماءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ

(١) «تفسير الطبري» (١٦/٥٠٧).

(٢) «تفسير الطبري» (١٦/٥٠٨).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/٤٠٧).

(٤) «تفسير السعدي» (ص ٥٣٦).

وأعراضهم حرامٌ إلى يوم القيامة؛ وقد جاء في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا)^(١).

وإنا لنسأل الله الكريم أن يحفظ على المسلمين في بلاد الحرمين وسائر بلاد المسلمين أمنهم وإيمانهم، وأن يصرف عنهم الفتن والشُرور، وأن يردّ كيد من أراد الإخلال بأمنه في نحره، وأن يفضحه بين خلقه، وأن يسلم المسلمين من شره؛ إنه سبحانه سميعٌ مجيب.



(١) تقدم تخريجه (ص ٤٠٣).

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(٢)

إِنَّ مِنْ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْعَظِيمَةِ الْوَاردِ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: مَا جَاءَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ مَعَ قَوْمِهِ، وَدَعْوَتِهِ لَهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَالْبِرَاءَةِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ الْبَاطِلَةِ، الَّتِي لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا نَفْعًا أَوْ ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَمْلِكَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لغيرها؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُجْزِي ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنَ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّ إِنَّمَا كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

فهذا السياق المبارك فيه إخبارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَنْ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، مَعَ بَيَانِ بُطْلَانِ الْمَعْبُودَاتِ الَّتِي اتَّخَذَهَا قَوْمُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُتَبَرِّئٌ مِنْهَا كُلِّهَا سِوَى الْمَعْبُودِ الْحَقِّ، الَّذِي هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَذَكَرَ جَمْلَةً مِنْ نَعْوَتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، لَا تِلْكَ الْمَعْبُودَاتُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي لَا تَسْمَعُ إِذَا دُعِيَتْ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

بعد هذا انتقلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ وَصْفِ رَبِّهِ بِجَلَائِلِ الصِّفَاتِ، وَعَظِيمِ النُّعُوتِ، إِلَى دَعَائِهِ وَسُؤَالِهِ وَطَلْبِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنَ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾...، إِلَى آخِرِ الدَّعَوَاتِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا؛ وَهِيَ دَعَوَاتُ

عظيمة، مشتملة على مطالب جليلة؛ مِنَ المصالح الدينية والديوية والأخروية.
فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾؛ أي: عَلِّمًا كثيرًا أعرفُ به الأحكام،
والحلالَ والحرام، وأَحْكُمُ به بين الأنام.

وقوله: ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ أي: اجْعَلْنِي مَعَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَالْحَقِّنِي بِمَنْ قَبْلِي مِنَ النَّبِيِّينَ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالدرَجَةِ.

وقوله: ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي: اجْعَلْ لِي فِي النَّاسِ ذِكْرًا
جَمِيلًا، وَثَنًا حَسَنًا بَاقِيًا فَيَمُنَ بِي مِنْ الْقُرُونِ بَعْدِي.

قال ابن زَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللِّسَانُ الصَّدْقُ: الذِّكْرُ الصَّدْقُ، وَالثَّنَاءُ الصَّالِحُ،
وَالذِّكْرُ الصَّالِحُ فِي الْآخِرِينَ: مِنَ النَّاسِ، مِنَ الْأُمَمِ»^(١).

قال أهل العلم: وقد أجاب الله دعاءَ إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، «فَوَهَبَ لَهُ مِنَ
الْعِلْمِ وَالْحُكْمِ مَا كَانَ بِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَقَّةُ بِإِخْوَانِهِ الْمُرْسَلِينَ،
وَجَعَلَهُ مُحِبُّوًّا مَقْبُولًا مَعْظَمًا، مُثْنًى عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْمَلَلِ فِي جَمِيعِ
الْأَوْقَاتِ»^(٢).

وهذا كما قال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَآتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي
الدُّنْيَا وَآتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد أَخَذَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّرغِيبَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي
يَكْسِبُ الْعَبْدُ بِهِ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ، وَيُورِثُهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ؛ إِذْ هُوَ الْحَيَاةُ الثَّانِيَةُ
كَمَا قِيلَ:

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

أي: بِذِكْرِهِمُ الطَّيِّبِ، وَسِيرَتِهِمُ الْعِطْرَةِ.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/٥٩٤).

(٢) «تفسير السعدي» (ص ٦٩٤).

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: مِمَّنْ تعطيه الجنة، وتَمُنُّ عليه بدخولها، وقد أجاب الله دَعْوَتَهُ، فَرَفَعَ منزلَتَهُ في جناتِ النعيم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ؛ أي: أَجْرَنِي يَا اللَّهُ مِنَ الْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ يُبْعَثُ الْخَلَائِقُ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ، وَأُسْعِدْنِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ؛ فهذا الذي يَنْفَعُ عندك وينجو به العبدُ مِنْ عِقَابِكَ، وينالُ به كَرِيمَ الثَّوَابِ، وَجَمِيلَ الْمَأْبِ.

والقلبُ السَّلِيمُ هو: الذي سَلِمَ مِنَ الشَّرِكِ وَالشَّكِّ، وَمَحَبَةِ الشَّرِّ، وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْبِدْعَةِ وَالذَّنْبِ، وَيَلْزَمُ مِنْ سَلَامَتِهِ مِمَّا ذُكِرَ اتِّصَافُهُ بِأُضْدَادِهَا مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْعِلْمِ وَالْيَقِينِ، وَمَحَبَةِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الْيُسْرِ فِي قَلْبِهِ، وَأَنْ تَكُونَ إِرَادَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ تَابِعَةً لِمَحَبَةِ اللَّهِ، وَهَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والقلبُ السَّلِيمُ هو الذي سَلِمَ مِنَ الشَّرِكِ وَالْغِلِّ، وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ، وَالشُّحِّ وَالْكِبَرِ، وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللَّهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شَبْهَةٍ تَعَارِضُ خَبَرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تَعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مَرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللَّهِ؛ فهذا القلبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرَزَخِ، وَفِي جَنَّةٍ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسَلَّمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شَرِكٍ يَنْاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تَخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تَخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تَنْاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يَنْاقِضُ التَّجَرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ. وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللَّهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ» (١).

هذا وَإِنَّا لَنَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يُلْحَقَنَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَأَلَّا يُخْزِنَا يَوْمَ يُبْعَثُونَ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [الشعراء].

(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص ١٤٣).

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٣)

إِنَّ مِنْ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْعَظِيمَةِ الْوَاردَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ عَنْ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ مِنْ سُؤَالِهِ رَبَّهُ ﷻ أَنْ يَهْبَهُ وَلَدًا صَالِحًا؛ إِذِ الْوَلَدُ الصَّالِحُ نِعْمَةٌ فِي الْحَيَاةِ عَظِيمَةٌ، يَهْبُهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ دَأْبُ الصَّالِحِينَ سُؤَالُ اللَّهِ تَعَالَى الْوَلَدَ الصَّالِحَ، الَّذِي هُوَ قُرَّةُ عَيْنِ الْعَبْدِ وَسُلُوءُ قَلْبِهِ، وَزِينَةُ حَيَاتِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ فِي دَعَائِهِ وَمَنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

قَالَ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذِهِ مَسْأَلَةُ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا صَالِحًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْكَ وَلَدًا يَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يُطِيعُونَكَ وَلَا يَعْصُونَكَ، وَيُصْلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُفْسِدُونَ»^(١)، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعْنِي: أَوْلَادًا مُطِيعِينَ عَوَضًا مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الَّذِينَ فَارَقَهُمْ»^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾، فِيهِ الْإِيمَانُ بِأَنَّ وَجُودَ الْوَلَدِ وَصِلَاحَهُ مِنْهُ رَبَانِيَّةٌ، وَهَبَةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ الْمَتَفَرِّدُ بِالتَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ فِي هَذَا الْكَوْنِ، لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَنْهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذِّكْرَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى].

فَالْأَمْرُ لِلَّهِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، يُعْطِي مَنْ

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٢ - ٢٣).

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٧٧).

يشاء، ويمنع مَنْ يشاء، لا مانع لِمَا أعطى، ولا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، وهو جلّ وعلا يعطي مَنْ يشاء مِنْ خَلْقِهِ مِنَ الأولادِ، ويمنع مَنْ شاء، وهو العليمُ القدير.

وقوله: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾؛ أي: يرزقه بناتٍ فقط، ليس معهم ذكورٌ، وقوله: ﴿وَيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾؛ أي: يرزقه البنين فقط، ليس معهم إناثٌ، وقوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجْهُمْ ذُرَّانَا وَإِنثًا﴾؛ أي: يجمع لِمَنْ شاء الذكورَ والإناثَ في العطاء، وقوله: ﴿وَيَجْعَلْ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾؛ أي: لا يُولِّدْ له أصلًا.

فقسّم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام: منهم مَنْ يعطيه البنات، ومنهم مَنْ يعطيه البنين، ومنهم مَنْ يعطيه مِنَ النوعين ذكورًا وإناثًا، ومنهم مَنْ يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيمًا لا نسلَ له، ولا يُولِّدْ له.

وقد ذَكَرَ بعضُ المفسرين مَثَلًا لِلآيَةِ مما كان لِلأنبياء ﷺ، وإنْ كانتِ الأقسامُ موجودةً في سائرِ الناسِ: بأنَّ قوله: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾؛ كَنِيَّ اللهَ لوطَ ﷺ؛ كانَ له بناتٌ، ولم يكنْ له وَلَدٌ ذَكَرٌ، وقوله: ﴿وَيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾؛ كَنِيَّ اللهَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ؛ كانَ له بَنُونَ، ولم تكنْ له بنتٌ أنثى، وقوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجْهُمْ ذُرَّانَا وَإِنثًا﴾؛ كَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وَلَدَ له بنونٌ وبناتٌ، وقوله: ﴿وَيَجْعَلْ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾؛ كَنِيَّ اللهَ يحيى، وَنَبِيَّهَ عيسى ﷺ؛ لم يكنْ لهما وَلَدٌ ولا زوجةٌ^(١).

وَعَوْدًا على دعوةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ رَبِّهِ أَنْ يَهَبَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ؛ أي: أولادًا بَرَرَةً مطيعين؛ فَإِنَّ اللهَ قد استجابَ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ دعاءَهُ؛ كما قال سبحانه عقبَ الآيَةِ السابقةِ مباشرةً: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ وهذا فيه دَلَالَةٌ على أَنَّهُ بُشِّرَ بابنِ ذَكَرٍ، وَأَنَّهُ يَبْقَى حتى ينتهي في السَّنِّ، وَيُوصَفَ بالحلم.

وهذا الابنُ الَّذِي بُشِّرَ به هو إِسْمَاعِيلُ ﷺ.

(١) انظر: «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٨٦/٥)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٢٩٦/٧)،

و«تفسير القرطبي» (٣٣/١٦).

قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام؛ فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق؛ باتفاق المسلمين، وأهل الكتاب»^(١). ولما كانت هبة الولد الصالح منة عظيمة من الله تعالى، ونعمة جلية من نعمه، كان شكرها وحمد الرب تعالى عليها واجباً على العبد، وقد وفق إبراهيم عليه السلام بهذا المقام؛ كما ذكر الله تعالى عنه ذلك في قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

أي: الحمد لله الذي رزقني على كبر من السن ولداً إسماعيل وإسحاق، فهبتهم من أكبر النعم، وكونها على الكبر في حال اليأس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهما أنبياء صالحين أجل وأفضل، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾؛ أي: لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوته فلم يُخَيِّبْ رجائي.

* ومن الفوائد العظيمة المستفادة من هذا السياق: «أن من نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين، وأن عليه في ذلك أن يحمداً الله، ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل عليه السلام في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ» [إبراهيم]، وقال جل ذكره في الشاء عموماً على من يدعو الله بصلاح ذريته: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢).

ونسأل الله أن يمن علينا بالذرية الصالحة، وأن يهدي أبناء المسلمين وبناتهم؛ إنه سبحانه سميع مجيب.



(١) «تفسير ابن كثير» (٢٣/٧).

(٢) «تيسير اللطيف المنان، في خلاصة تفسير القرآن» لابن سعدي (ص ١٢٢ - ١٢٣).

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٤)

إِنَّ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْجَوَامِعِ الْوَاردَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْ نَبِيِّهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٢٨) رَبَّنَا وَانْفِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [البقرة].

وقد اشتملت هذه الآيات على جملةٍ مِنَ المطالبِ التي دعا بها إبراهيمُ وابنهُ إسماعيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لأنفسهما ولذريتهما:

وأوّل ذلك: قولُهُما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ وهذا دعاءُ مبارِكٌ، قاله في حالِ بنائهما البيت، كما جاء عن ابنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قال: «قاما يرفعان القواعدَ مِنَ البيتِ ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»؛ فهما في عملٍ صالحٍ جليل، ويسألان ربَّهُما أن يتقبَّلَ منهما ما هما فيه من الطاعةِ العظيمة، والسعيِ المشكور.

وتأمَّلْ حالَ إمامِ الحنَفَاءِ، وقدوةِ الموحِّدين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ يبني بيتَ اللهِ ﷻ، وبأمرِهِ سبحانه، وهو خائفٌ أن لا يُقبَلَ.

جاء عن وَهْبِ بْنِ الْوَرْدِ، أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، ثم بكى، ويقول: «يا خليلَ الرحمن، ترفعُ قوائمَ بيتِ الرحمن، وأنت مُشفِّقٌ أن لا يتقبَّلَ منك»؛ أوردته الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي «تفسيره»، وقال: «وهذا كما حكى اللهُ تعالى من حالِ المؤمنينَ المخلصينَ في

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: يُعْطُونَ مَا أُعْطُوا مِنْ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ أي: خائفةٌ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ؛ كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ.

يشير إلى ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «قلت: يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أهو الرجل يزني ويشرب الخمر؟ قال: (لَا) يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ - أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ - وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ»^(١).

والثاني: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؛ أي: اجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمَيْنِ لَأَمْرِكَ، خَاضِعَيْنِ لَطَاعَتِكَ، مُنْقَادَيْنِ لِحُكْمِكَ؛ وفي هذا سؤال الثَّبَاتِ عَلَى الطَّاعَةِ، والدوامِ عَلَى الْإِسْلَامِ؛ وفي هذا دليلٌ واضحٌ عَلَى حَاجَةِ الْعَبْدِ إِلَى التَّوْفِيقِ وَالتَّثْبِيتِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ فِي الدَّوَامِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ؛ ولهذا جاء في الحديث عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، قالت: «كَانَ أَكْثَرُ دَعَائِهِ ﷺ (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)، قالت: فقلت: يا رسول الله، مَا لَأَكْثَرِ دَعَائِكَ: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)؟ قال: (يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ أَدْمِي إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ؛ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَرَاغَ)؛ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ^(٢).

الثالث: قولهما: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾؛ أي: واجْعَلْ مِنْ أَوْلَادِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ؛ قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: «وهذا الدعاء مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام، كما أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ:

(١) «مسند أحمد» (٢٠٥/٦)، ورواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وقواه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣٠٢/٦)، و«جامع الترمذي» (٣٥٢٢)، وصحَّحه بشواهد الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩١).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً؛ فإنَّ مِنْ تمام محبة عبادة الله تعالى أنه يحبُّ أن يكونَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيمَ ﷺ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] (١).

الرابع: قولهما: ﴿وَارِنَا مَنَاسِكَا﴾؛ أي: وعَلِّمْنَا وعَرَّفْنَا مناسكنا؛ أي: شرائع ديننا، وأعلامَ حَجِّنَا.

الخامس: قولهما: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؛ وهذا دعاءُ منهما بالتوبة، والتوبةُ هي: الأوبةُ إلى الله، والرجوعُ إليه بالندم، والإقلاعُ والعزمُ على تركِ العُودِ.

قال العلامةُ ابن سَعْدِيّ رَحِمَهُ اللهُ: «ولمَّا كان العبدُ - مهما كان - لا بدَّ أن يعتريه التقصيرُ، ويحتاج إلى التوبة، قالَا: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾» (٢).

السادس: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَأَنْعِثْ فِيهِمْ رَسُولًا فِيهِمْ رَسُولًا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وهذا الدعاءُ قيل: إنه للأمةِ المسلمةِ مِنْ ذريةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ رَحِمَهُمُ اللهُ، وقيل: إنه إخبارٌ عن تمام دعوةِ إبراهيمَ رَحِمَهُ اللهُ لأهلِ مَكَّةَ أن يبعثَ اللهُ فيهم رسولاً منهم؛ أي: مِنْ جنسهم وعلى لغتهم الفصحى البليغة لتتمَّ عليهم النعمتان الدنيوية والدنيوية؛ وعلى هذا القول الثاني يكونُ دعاؤهما هذا لنبينا مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللهُ خاصَّةً؛ إذ لم يبعثِ اللهُ تعالى في أهلِ مَكَّةَ غيرَ نبينا مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللهُ (٣).

ولا اختلافَ في الحقيقةِ بين القولين في المراد بهذا الدعاء؛ لأنَّ نبينا مُحَمَّدًا رَحِمَهُ اللهُ مِنْ ولدِ إسماعيلَ رَحِمَهُ اللهُ، وإسماعيلُ مِنْ ذريةِ إبراهيمَ رَحِمَهُ اللهُ؛ ولهذا كان

(٢) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٦٠).

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٢٦٧).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢/٥٧٢).

النبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ يقول: (أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ)؛ رواه أحمدُ، والحاكم^(١)، وغيرهما، والمراد: هذه الدعوة؛ كما ذَكَرَ ذلك أهلُ العلم.

والمرادُ بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ أي: القرآنَ الكريمَ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: السُّنَّةَ، وقولُهُ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: بالإخلاصِ والطاعةِ والانقيادِ لله ﷻ.



(١) «مسند أحمد» (١٢٧/٤، ١٢٨)، و«مستدرک الحاكم» (٤١٨/٢، ٦٠٠)، عن العَرَبِاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورواه أحمد (٢٦٢/٥) عن أبي أمامة الباهليِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحاكم (٦٠٠/٢) عن أصحاب رسول الله ﷺ، وصَحَّحه بشواهده الألبانيُّ في «الصَّحِيحة» (١٥٤٥، ١٥٤٦).

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

(٥)

وَمِنْ دَعَوَاتِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام: مَا وَرَدَ فِي السُّورَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِهِ عليه السلام «سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ»، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا وَاجْعَلْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۖ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۖ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ۖ﴾ [إِبْرَاهِيمَ]، فَهَذِهِ دَعَوَاتٌ عَظِيمَةٌ، وَمَطَالِبُ جَلِيلَةٌ، سَأَلَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام رَبَّهُ ﷻ لِنَفْسِهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ، وَقَدْ انْتَضَمَتْ مَقَاصِدُ جَلِيلَةٌ، وَسُؤَالَاتٌ عَظِيمَةٌ، يَجْدُرُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَقِفَ عِنْدَهَا، وَأَنْ يَتَأَمَّلَهَا.

قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا﴾، مَضَى الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْعَظِيمَةِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى سُؤَالِهِ ﷻ الْأَمْنِ لِبَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ مَكَّةَ، وَأَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ، فَجَعَلَهَا بَلَدًا أَمِنًا.

قَوْلُهُ: ﴿وَاجْعَلْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؛ أَي: أَبْعِدْنِي وَبَنِيَّ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَاجْعَلْنِي وَإِيَّاهُمْ فِي جَانِبٍ بَعِيدٍ عَنْ عِبَادَتِهَا وَالْإِلِمَامِ بِهَا؛ وَفِي هَذَا الْخَوْفِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَالْحَذَرِ الشَّدِيدِ مِنْ ذَلِكَ، وَلِتَأْمَلَ الْعَاقِلُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يُخِيفُ الْعَبْدَ مِنَ الشَّرْكِ، وَيُوجِبُ لِلْقَلْبِ الْحَيِّ الْخَوْفَ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام - إِمَامُ الْحَنْفَاءِ، الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ أُمَّةً وَحْدَهُ، وَابْتَلَىٰ بِكَلِمَاتِ

فَأَتَمَّهُنَّ، وَكَسَرَ الْأَصْنَامَ بِيَدِهِ - يَخَافُ أَنْ يَقَعَ فِي الشَّرْكِ، وَيَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يُجَنِّبَهُ وَيُجَنِّبَ بَنِيهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، فَمَا الظَّنُّ بغيره؟! وكيف يأمنُ الوقوعَ فيه مَنْ هُوَ دُونُهُ بِمَرَاتِبٍ؟!^(١).

روى الإمام الطبري في «تفسيره»، عن إبراهيم التيمي أنه كان يَقْصُرُ ويقولُ في قَصَصِهِ: «وَمَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ بَعْدَ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؟!».

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ذَكَرَ فِيهِ الْمَوْجِبَ لَخَوْفِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى بَنِيهِ مِنْ عِبَادَتِهَا، وَهُوَ كَثْرَةُ مَنْ افْتَتَنَ وَابْتُلِيَ مِنَ النَّاسِ بِعِبَادَتِهَا، وَبَيَّنَ بَرَاءَتَهُ مِنْهَا وَمَنْعَ عِبَادَتِهَا، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾؛ أَي: عَلَى مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَفِرَاقِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾؛ أَي: مِنْ أَهْلِ دِينِي وَمِلَّتِي، ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وَهَذَا مِنْ شَفَقَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ دَعَا لِلْعَاصِينَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ؛ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عَظِيمِ شَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْهُ، لَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ تَمَرَّدَ عَلَيْهِ.

ولهذا جاء عن قتادة أنه قرأ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثُمَّ قَالَ: «اسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانُوا طَعَّانِينَ وَلَا لَعَّانِينَ، وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّ مِنْ أَشْرِّ عِبَادِ اللَّهِ كُلَّ طَعَّانٍ لَعَّانٍ؛ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]^(٢).

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ

(١) انظر في هذا: «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشروحاته: «بابُ الخوفِ مِنَ الشَّرْكِ».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/٦٨٨ - ٦٨٩).

تَبَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، وقال عيسى ﷺ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وقال: (اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي) وبَكَى، فقال الله ﷻ: (يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبِّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟)، فَاتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فقال الله: (يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسْؤُوكَ)»^(١).

وروى مسلم أيضاً في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: اذْغُ عَلَى الْمَشْرِكِينَ، قَالَ: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)»^(٢).

وأما قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، فقد تقدّم الكلام على شيءٍ مِنْ معناه عند ذكرِ دعائه ﷺ لأهل مكة.

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فيه بيانٌ أَنَّ قَصْدَهُ وَجْهَ اللَّهِ، الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، فقال: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي قُلُوبُنَا عِنْدَ مَسْأَلَتِنَا مَا نَسْأَلُكَ، وفي غير ذلك مِنْ أحوالنا، وما نُعْلِنُ مِنْ دعائنا فنجهرُ به، وغير ذلك مِنْ أعمالنا، وما يَخْفَى عليك يَا رَبَّنَا مِنْ شيءٍ يكونُ في الأرضِ ولا في السماء؛ لأنَّ ذلك كله ظاهرٌ لك مُتَجَلِّ بادٍ.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾، سبقَ عندَ الكلام على دعائه ﷺ بالولدِ الصالح^(٣).

وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾، فيه

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٩٩).

(٣) انظر: (ص ٧٧٢).

سؤالُ الله أن يجعلَهُ مقيمًا لها بحدودها وأركانها، وأن يجعلَ مَنْ ذرِيَّتِهِ مَنْ يقيمون الصلاةَ، ويحافظون عليها، وأن يستجيبَ اللهُ لدعائِهِ فيما سألَهُ فيه كُلُّهُ. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لهذه الآيات: «ينبغي لكلِّ داعٍ أن يدعُوَ لنفسِهِ ولوالِدَيْهِ وذرِيَّتِهِ»^(١).

وقد استجابَ اللهُ تعالى لنبيِّهِ وخَلِيلِهِ ﷺ فيما دعاه لنفسِهِ وذرِيَّتِهِ مما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ في الآيات؛ وقد جاء عن ابن جُرَيْج رَحِمَهُ اللهُ، أنه قال: «فلن يزَالَ مِنْ ذريةِ إبراهيمَ ﷺ ناسٌ على الفِطْرَةِ يَعْبُدُونَ اللهَ تعالى حتى تقومَ الساعةُ»^(٢)؛ وهذا من استجابةِ اللهِ له.



(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٤٣١).

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٥/٤٩).

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٦)

إِنَّ مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ دُعَاءِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اسْتَغْفَارُهُ لِأَبِيهِ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿وَأَعْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] .

وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أَنَّ دُعَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ بِالْمَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ كَانَ وَعْدًا وَعَدَهُ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ ؛ طَمَعًا فِي إِيْمَانِهِ ، وَتَرْغِيًّا لَهُ فِيهِ ، وَلَكِنْ لَمَّا أَصَرَ أَبُوهُ عَلَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ تَعَالَى حَتَّى مَاتَ عَلَى ذَلِكَ ، تَبَرَّأَ خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَبِيهِ حِينَئِذٍ ، وَتَرَكَ الْاسْتَغْفَارَ لَهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ : ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ، وَفِي هَذَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : «مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ ، فَلَمَّا مَاتَ ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ» ، وَقَالَ أَيْضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «اسْتَغْفَرَ لَهُ مَا كَانَ حَيًّا ، فَلَمَّا مَاتَ ، أُمْسَكَ عَنْ الْاسْتَغْفَارِ»^(١) ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «كَانَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَرْجُو أَنْ يُؤْمِنَ أَبُوهُ مَا دَامَ حَيًّا ، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى شِرْكِهِ ، تَبَرَّأَ مِنْهُ»^(٢) .

وَلَمَّا كَانَ هَذَا وَاقِعَ الْحَالِ لَاسْتَغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ ، نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْاسْتَغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ اقْتِدَاءً بِإِبْرَاهِيمَ فِي ذَلِكَ ، وَأَمَرَهُمْ

(١) رواهما ابن جرير في «تفسيره» (٣٠/١٢) .

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٣١/١٢) .

بالاقتداء بخليله إبراهيم عليه السلام في التمسك بالتوحيد، والبراءة من الشرك وأهله؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، في هذه الأمور التي ذكرناها: مِنْ مُبَايَنَةِ الْكُفَّارِ، وَمُعَادَاتِهِمْ، وَتَرْكِ مَوَالِيهِمْ، إِلَّا فِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ: ﴿لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ فإنه لا أُسْوَةٌ لَكُمْ فِيهِ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، تَبَرَّأَ مِنْهُ؛ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، تَبَرَّؤُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ، وَيَتَبَرَّؤُوا مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَأَظْهَرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ». اهـ.

وفي هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وفي «الصحيحين»، عن ابن المسيب، عن أبيه، قال: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ: (أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ)، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرَعَّبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! قَالَ: فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِي، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْكَ)؛ فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، قَالَ: وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿٥٦﴾ [القصص: ٥٦]»^(١).

وفي «المسند»، عن عليٍّ عليه السلام، قال: «سمعتُ رجلاً يستغفرُ لأبويه وهما مُشْرِكَانِ، فقلت: أيستغفرُ الرجلُ لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفرُ إبراهيمُ لأبيه؟! فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ، فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾، إلى قوله: ﴿تَبَرَّأْنَا مِنْهُ﴾»^(٢).

وفي هذا كله بيانٌ للمؤمنين، وإرشادٌ لهم إلى عدم الدعاء للمشركين بالمغفرة؛ لأنَّ ذلك ليس بنافع لهم ما داموا مقيمين على الشرك، والله لا يغفرُ أن يُشْرَكَ به، ولكن له أن يدعُو لهم بالهداية وبالتوفيق للإيمان والإسلام؛ كما قال الإمام البخاري في «صحيحه»: «بابُ الدُّعَاءِ لِلْمُشْرِكِينَ بِالْهُدَى لِيَتَأَلَّفَهُمْ»؛ ثم أخرجَ حديثَ أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هَلَكْتَ دَوْسٌ، قَالَ: (اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَانْتِ بِهِمْ)^(٣)»، وفي «المسند»، والترمذي، عن جابر رضي الله عنه، قال: «قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْرَفَتْنَا نِبَالٌ ثَقِيفٍ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: (اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا)^(٤)».

ومن ذلك: ما ثبت في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في ذكرِ دعوته لأُمَّهِ بالإسلام، وقد كانت مُشْرِكَةً، وَطَلَبَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ لَهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ)، فاستجابَ اللهُ دعوته، وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ^(٥).

ويجوزُ كذلك الدعاءُ له بالرزقِ أو الغيثِ؛ تأليفاً لقلبه؛ كما في «صحيح

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٦٧٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٩).

(٢) «مسند أحمد» (٩٩/١)، وحسنُ إسناده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ١٢٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٨٩).

(٤) «المسند» (٣٤٣/٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٩٤٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن

الترمذي» (ص ٤٨٠).

(٥) تقدم تخريجه (ص ٤٤٣).

البخاري»، لَمَّا طُلِبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَسْتَسْقِيَ لِمُضَرَ، فَاسْتَسْقَى لَهُمْ^(١).
وهذا من الإحسان الذي ذكره الله في حق الكفار الذين لم يقاتلوا
المسلمين ولم يُخْرِجُوهُمْ مِنْ ديارهم؛ طمعاً في هدايتهم، وتأليفاً لقلوبهم في
قوله: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].



(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٨٢١).

دُعَاءُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِنَّ مِمَّا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ أَدْعِيَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: دُعَاءَ نَبِيِّ اللَّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ كَانَ مُرْسَلًا إِلَى قَوْمٍ جَمَعُوا - مَعَ شُرَكَاهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى - مَنكَرًا عَظِيمًا لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَهُوَ فَعْلُ الْفَاحِشَةِ فِي الذُّكُورِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف].

وَكَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ الْقَبِيحَةُ فَاشِيَةً فِيهِمْ، حَتَّى إِنَّهُ لَرَبَّمَا وَقَعَتْ مِنْهُمْ فِي الْمَحَافِلِ، وَلَا يَسْتَنكِفُونَ، وَلَا يَرْعَوْنَ لَوْعِظَ وَاعِظٍ، وَلَا لِنَصِيحَةِ نَاصِحٍ، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

وَلِهَذَا كَانَ مِنْ دُعَائِ نَبِيِّ اللَّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿٨١﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء].

فَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَعْلَنَ بُغْضَهُ الشَّدِيدَ وَبِرَاءَتَهُ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ الشَّنِيعِ، ثُمَّ دَعَا رَبَّهُ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ وَهَذَا الدُّعَاءُ يَتَضَمَّنُ الْإِسْتِعَاذَةَ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ هَذَا الْعَمَلِ الْمُنْكَرِ، وَمِنْ شُؤْمِهِ وَغَائِلَتِهِ وَعَقُوبَتِهِ.

وَفِي هَذَا الدُّعَاءِ تَعْلِيمٌ وَإِرْشَادٌ لِلْعِبَادِ إِلَى الْإِعْتَصَامِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ، مِنْ مَنَكَرَاتِ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَطَلَبِ النِّجَاةِ مِنْ شُؤْمِهَا وَغَوَائِلِهَا، وَلَا سِيَّما عِنْدَ كَثْرَةِ هَذِهِ الْمَنَكَرَاتِ وَانْتِشَارِهَا، وَمَجَاهِرَةِ فَسَقَةِ الْخَلْقِ بِهَا.

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَدْعِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ، عَنْ عَمِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ

الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ؛ رواه الترمذي^(١).

وما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى)؛ رواه مسلم^(٢).

وعن شكل بن حميد رضي الله عنه، قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِهِ - وَفِي رَوَايَةٍ: عَلِّمْنِي دُعَاءَ أَنْتَفَعُ بِهِ - فَأَخَذَ بِيَدِي، ثُمَّ قَالَ: (قُلْ: أَعُوذُ بِكَ) - وَفِي رَوَايَةٍ: (اللَّهُمَّ عَافِنِي) - (مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّ)»؛ رواه النسائي^(٣).

والتعوذ بالله مِنْ شَرِّ الْمَنِيِّ لَهُ شَأْنٌ مَهْمٌّ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ كَثَرَةِ دَوَاعِي الْفِتْنَةِ، وَبَوَاعِثِ الْفَسَادِ؛ فَإِنَّ شَهْوَةَ الْفَرْجِ مِنْ أَعْظَمِ مَا ابْتَلِيَ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَثَوْرَتُهَا أَوْ إِثَارَتُهَا تَوْدِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى مَسَالِكِ رَدِيئَةٍ، وَإِلَى مِهَالِكٍ بَعِيدَةٍ. وَقَدْ كَانَتْ فَعْلُهُ قَوْمَ لُوطٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَانْزَلَتْهُمْ مِنْ هَذَا الْمُنْزَلِ، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُمْ فِي شَهْوَتِهِمْ هَذِهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَعَنَرْنَا إِيَّاهُمْ وَلِئِنْ سَكَرْتُمْ لَأَنفَعَنَّكُمْ﴾ [الحجر: ٧٢].

قال العلامة ابن سيدي رحمته الله: «وهذه السَّكْرَةُ هِيَ سَكْرَةُ مَحَبَّةِ الْفَاحِشَةِ الَّتِي لَا يَبَالُونَ مَعَهَا بَعْدَلٍ وَلَا لَوْمَ»^(٤)؛ فهذا مِنْ شَرِّ الْمَنِيِّ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ الْعَصْمَةَ وَالنَّجَاةَ مِنْهُ.

وَلَمَّا تَمَلَّكَتْ هَذِهِ الشَّهْوَةُ قَوْمَ لُوطٍ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، وَلَا لِنَهْيِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ إِيْتَانِ الذَّكَورِ، بَلْ أَزْدَادُوا عِنَادًا وَطُغْيَانًا، حَتَّى طَلَبُوا مِنْهُ وَقَوَّعَ مَا حَذَّرَهُمْ عَنْهُ مِنْ مَجِيءِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَحُلُولِ الْبَأْسِ الْعَظِيمِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَأَلَ لُوطُ رَبَّ

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٤٧٣/٣).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢١).

(٣) رواه أبو داود رقم (١٥٥١)، والترمذي رقم (١٩٥٣)، و«سنن النسائي» رقم (٥٤٥٦)، وصحَّحه الألباني. قال المناوي في «فيض القدير» (١٣٥/٢): «ومن شَرِّ مَنِيِّ: مِنْ شَرِّ شِدَّةِ الْعُلْمَةِ، وَسَطْوَةِ الشَّهْوَةِ إِلَى الْجَمَاعِ، الَّذِي إِذَا أَفْرَطَ رُبَّمَا أَوْقَعَ فِي الزَّنا أَوْ مَقْدَمَاتِهِ لَا مُحَالَةَ؛ فَهُوَ حَقِيقٌ بِالْإِسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِ».

(٤) «تفسير ابن سيدي» (ص ٥٠٢).

العالمين وإله المرسلين: أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَى الْقَوْمِ الْمَفْسِدِينَ؛ فقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]؛ فغَارَ اللَّهُ تَعَالَى لِعِيرَتِهِ، وَغَضِبَ لِعِزْبَتِهِ، وَاسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ، فَبَعَثَ مَلَائِكَتَهُ الْعِظَامَ لِإِهْلَاكِهِمْ، وَإِنْزَالَ بِأَسْبِهِ الَّذِي لَا يُرَدُّ عَنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ قَوْمِهِ وَتَمَادِيهِمْ فِي سَكْرَتِهِمْ: أَنَّ مَلَائِكَةَ الْعَذَابِ عِنْدَمَا أَتَوْا إِلَى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانُوا فِي صُورَةِ أَضْيَافِ آدَمِيِّينَ شَبَابٍ حَسَانٍ، تَوَافَدَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ فِي بَيْتِهِ، وَجَاوَوْهُ يُهَرَّغُونَ إِلَيْهِ يَرِيدُونَ فِعْلَ الْفَاحِشَةِ بِأَضْيَافِهِ، فَزَجَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، إِلَّا أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَفِي غِيَّهِمْ مَتَمَادِينَ، وَفِي شَهَوَاتِهِمْ سَادِرِينَ، إِلَى أَنْ حَلَّ بِهِمُ الْعِقَابُ، وَنَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ؛ كَمَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ.

مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً يَبْتَلُونَ الْقَوْمَ يَقُولُونَ ﴿[العنكبوت]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢) لِتُرْسَلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ (٨٢) مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود].

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْعَقُوبَةُ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ، وَالنَّكَالَ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، لَيْسَ بِبَعِيدٍ مِمَّنْ يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ، وَيَفْعَلُ فِعْلَهُمْ.

نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ مُوْجِبَاتِ غَضَبِهِ، وَأَلِيمِ عِقَابِهِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُجَنِّبَ الْمُسْلِمِينَ الْفِتَنَ، وَأَنْ يُعِيدَهُمْ مِنَ الشَّرُورِ وَالْمَحَنِّ، وَأَنْ يُجِيرَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَغَوَائِلِهَا وَعَوَاقِبِهَا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

دُعَاءُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِنَّ مِنْ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سِيَاقِ قِصَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي كَانَ مَثَالًا عَالِيًّا فِي الصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى، وَتَحَمُّلِهِ فِي سَبِيلِ نَشْرِ دِينِ اللَّهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَ قَوْمِهِ مَا قَصَّه اللَّهُ عَلَيْنَا بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَلَمَّا أَلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْنَتِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِيْنَ ﴿٣٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَعْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُوْنُ لَنَا أَنْ نَعُوْدَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِيْنَ﴾ [الأعراف].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا إخبارٌ من الله عَمَّا واجهَتْ به الكفارُ نبيَّ الله شُعَيْبًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ، فِي تَوْعُّدِهِمْ إِيَّاهُ وَمَنْ مَعَهُ بِالنَّفْيِ مِنَ الْقَرْيَةِ، أَوْ الْإِكْرَاهِ عَلَى الرَّجُوعِ فِي مِلَّتِهِمُ وَالدَّخُولِ مَعَهُمْ فِيْمَا هُمْ فِيْهِ؛ وَهَذَا خُطَابٌ مَعَ الرَّسُولِ، وَالْمَرَادُ أَتْبَاعُهُ الَّذِيْنَ كَانُوا مَعَهُمْ عَلَى الْمِلَّةِ»^(١).

فها هنا تهديدٌ صريح، وتوعُّدٌ شديدٌ مِنَ الْكُفَّارِ لِنَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِالطَّرْدِ مِنْ بِلَدِهِمْ إِنْ لَمْ يَعُوْدُوا فِي مِلَّةِ الْكُفْرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَوَابًا لِقَوْمِهِ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِيْنَ﴾، وَالْهَمْزُ هُنَا لِلِاسْتِفْهَامِ، وَهُوَ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَعْجُّبٍ، «أَي: أَتُنَابِعُكُمْ عَلَى دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمُ الْبَاطِلَةِ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِيْنَ لَهَا، لِعِلْمِنَا بِظُلْمَانِهَا، فَإِنَّمَا يُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ لَهُ نَوْعٌ رَغْبَةٍ فِيْهَا، أَمَّا مَنْ يَعلَنُ بِالنِّهْيِ عَنْهَا، وَالتَّشْنِيعِ عَلَى مَنْ اتَّبَعَهَا، فَكَيْفَ يُدْعَى إِلَيْهَا؟!»^(٢).

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٤٤٤).

(٢) «تفسير ابن سعد» (ص ٣٣٤).

وفي هذا السياق دَلَالَةٌ على أَنَّ مَنْ هداه الله إلى الإيمان، وخَالَطَتْ بِشَاشَتُهُ قلبَهُ لا يَسْحَطُهُ أَبَدًا، ولا يريدُ التَّحَوُّلَ عنه؛ لوضوح طريقِ الهدايةِ وحسنه، ولفسادِ طريقِ الضلالِ وقُبْحِهِ؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول: قد اختَلَقْنَا على الله كَذِبًا وَتَخَرَّصْنَا عليه مِن القولِ باطلاً إِنْ نَحْنُ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ، فَرَجَعْنَا فيها بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَنَا اللَّهُ مِنْهَا، بِأَنْ بَصَّرْنَا خَطَأَهَا وَصَوَابَ الْهَدَى الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ»^(١). اهـ.

وهذا القولُ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ ﷺ تَيْسُّرٌ لِلْكَفَّارِ مِنْ دَعْوَتِهِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مِلَّتِهِمْ، وَبَيَانٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ افْتِرَاءٌ عَظِيمٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا أَحَدٌ أَعْظَمُ افْتِرَاءً مِمَّنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَجَعَلَ مَعَهُ شَرِيكًا فِي شَيْءٍ مِنْ حَقُوقِهِ وَخِصَائِصِهِ، بَلِ اللَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ.

كما تَضَمَّنَ قَوْلُهُ ﷺ ذِكْرًا لِمِنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ آمَنَ مَعَهُ: بِالنَّجَاةِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ، وَالْهُدَايَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيُوفِّقُهُ لِلْهُدَايَةِ إِلَى الْحَقِّ، وَيَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَضِلُّ عَنِ الْحَقِّ، وَيُقِيمُ عَلَى الْبَاطِلِ؛ وَهَذَا الْمَعْنَى أَكَّدَهُ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ فَهَذَا رَدٌّ لِلْأَمْرِ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ عَلَى جِهَةِ التَّسْلِيمِ لَهُ؛ إِذْ هُوَ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا؛ يَعْلَمُ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، وَأَنَّ تَوْفِيقَ الْعَبْدِ وَهُدَايَتَهُ بِيَدِ اللَّهِ؛ إِذْ لَا خُرُوجَ لِأَحَدٍ عَنْ مَشِيئَتِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

ثُمَّ خَتَمَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ ﷺ مُحَاجَّتَهُ لِكُفَّارِ قَوْمِهِ بِالْإِعْدَاءِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَقَالَ: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

(١) «تفسير الطبري» (١٠/٣١٨).

قال الإمام الطبري رحمته الله: «يقول: على الله نَعْتَمِدُ في أمرنا، وإليه نستندُ فيما تَعِدُونَنَا به مِنْ شَرِّكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ؛ فَإِنَّهُ الْكَافِي مَنْ نَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ»^(١).

وقد حكى الله تعالى عن نبيه شُعَيْبٍ عليه السلام في آية أخرى: أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]؛ أَي: اعْتَمَدْتُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِي، وَوَثِقْتُ فِي كِفَايَتِهِ، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ أَي: فِي أَدَاءِ مَا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ. وَبِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ تَسْتَقِيمُ أَحْوَالُ الْعَبْدِ، وَهُمَا الْإِسْتِعَانَةُ بِرَبِّهِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ؛ وَهَذَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾؛ أَي: احْكُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِحُكْمِكَ الْحَقِّ، الَّذِي لَا ظُلْمَ فِيهِ، وَلَا حَيْفَ، وَلَا جَوْرَ بَأَنْ يَنْصُرَ الْحَقُّ وَأَهْلَهُ، وَيُذِلَّ الْبَاطِلَ وَأَهْلَهُ، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾؛ أَي: خَيْرُ الْحَاكِمِينَ؛ وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]، وَالْفَتَّاحُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، وَهُوَ دَالٌّ عَلَى صِفَةِ كَمَالِ عَظِيمَةِ اللَّهِ تعالى، فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ بِمَا شَاءَ، وَيَقْضِي فِيهِمْ بِمَا يَرِيدُ، وَيَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ بِمَا يَشَاءُ، لَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مُعَقَّبَ لِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ.

قال ابن سعدي رحمته الله: «وفتحه تعالى لعباده نوعان:

ففتح العلم بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط ممن هو منحرف عنه.

النوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين.

فَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَفْتَحَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِهِم بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَأَنْ يُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ وَعِبْرِهِ مَا يَكُونُ فَاصِلًا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ»^(١).

وقد استجاب الله دعوة نبيه شُعَيْبٍ ﷺ، ففَتَحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ بِالْحَقِّ، فَجَاءَ أَمْرُهُ سَبْحَانَهُ بِنَصْرِ نَبِيِّهِ شُعَيْبٍ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ وَإِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ [هود: ٩٤].



(١) «تفسير ابن سعد» (ص ٣٣٥).

دُعَاءُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لقد ذكرَ اللهُ تعالى في موضعين من «سورة يوسف» دُعَاءَيْنِ لِنَبِيِّهِ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كلُّ دعاءٍ له شأنُهُ ومناسِبَتُهُ التي يحسنُ تأملُها وتدبرُها.

*** الدعاء الأول:** قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ الْبَيْتِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِينَ ۚ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف].

وهذا مقامٌ من مقاماتِ الفَزَعِ إلى الله في طَلَبِ الْعِصْمَةِ مِنْ مَقَارِفَةِ الذنب، والوقايةِ مِنْ كَيْدِ الْأَشْرَارِ؛ ولا سيَّما كَيْدَ النِّسَاءِ وَفَتْنَتُهُنَّ التي هي مِنْ أَشَدِّ الْفِتَنِ عَلَى الرِّجَالِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، بل قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)^(١)، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تَعَرَّضَ فِي شَبَابِهِ وَفُتُونِهِ لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي أَرَدْنَ مِنْهُ فَعَلَ الْفَاحِشَةَ، فما كان مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا الْبَعْدُ عَنْ كَيْدِهِنَّ، وَاللَّجَأُ إِلَى اللَّهِ بِطَلَبِ الْعِصْمَةِ مِنْ فِتْنَتِهِنَّ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ الْبَيْتِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾؛ يعني: أنْ دَخَلَ السِّجْنَ الَّذِي هَدَّدَتْهُ بِهِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ إِنْ لَمْ يَلْبِ رَغْبَتَهَا - عَلَى مَا فِيهِ مِنْ شَطَفٍ وَشَدَّةٍ - أَسْهَلُ عَلَيْهِ وَأَهْوَنُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعْصِيَةِ، واقتِرافِ الْخَطِيئَةِ، فَاتَّرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرْضَاةَ اللَّهِ، وَالتَّجَا إِلَيْهِ؛ لَعَلِمَهُ بِأَنَّهُ لَا يُطِيقُ صَرْفَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ إِنْ لَمْ يَعِصْهُ رَبُّهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَنْجُو مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِينَ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول: وإن لم تدفع عني يا رب فعلهنَّ الذي

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٨٠).

يَفْعَلَنَّ بِي فِي مُرَاوَدَتِهِنَّ إِيَّايَ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ، ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، يقول: أَمِيلُ إِلَيْهِنَّ وَأَتَابِعُهُنَّ عَلَى مَا يُرَدُّنِي مِنِّي وَيَهْوِينَ^(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يعني: إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي، فليس لي مِنْ نَفْسِي إِلَّا الْعَجْزُ وَالضَّعْفُ، وَلَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ، فَأَنَا ضَعِيفٌ إِلَّا مَا قَوَّيْتَنِي وَعَصَمْتَنِي وَحَفِظْتَنِي وَحُطَّتَنِي بِحَوْلِكَ وَقَوَّتِكَ»^(٢).

وقوله: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: معطوفٌ على قوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: أَكُنْ بِصَبُوتِي إِلَيْهِنَّ مِنَ الَّذِينَ جَهِلُوا حَقَّكَ، وخالفوا أَمْرَكَ ونهيك؛ وقد دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَمْتَنِعُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَسْلَمُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا إِلَّا بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ؛ كَمَا دَلَّ أَيْضًا عَلَى قُبْحِ الْجَهْلِ، وَذَمِّ صَاحِبِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى اللهُ فَهُوَ جَاهِلٌ.

قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي رِسَالَةٍ عَظِيمَةٍ أَفْرَدَهَا بِعَنْوَانِ: «فَوَائِدُ مُسْتَنْبَطَةٌ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ»: «ومنها - أي: الفوائد - أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله عِنْدَ خَوْفِ الْوُقُوعِ فِي فِتْنَةِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، مَعَ الصَّبْرِ وَالْاجْتِهَادِ فِي الْبَعْدِ عَنْهَا كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعَا رَبَّهُ، قَالَ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ وَلَا عِصْمَةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِفَعْلِ الْمَأْمُورِ، وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورِ، مَعَ الْإِسْتِعَانَةِ بِالْمَلِكِ الشُّكُورِ»^(٣). اهـ.

وقد استجاب الله دَعْوَةَ نَبِيِّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: فَاسْتَجَابَ اللهُ لِيُوسُفَ دَعَاءَهُ، وَلَطَفَ بِهِ، وَعَصَمَهُ مِنْ كَيْدِ النِّسْوَةِ وَمِنْ الْوُقُوعِ فِي الْمَعْصِيَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَاءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَخْلَصَ اللهُ تَعَالَى تَوْحِيدَهُ وَحُبَّهُ،

(١) «تفسير الطبري» (١٣/١٤٤).

(٢) «البداية والنهاية» (١/٤٧٣).

(٣) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف» (ص ١٩).

فَأَخْلَصَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَخَلَّصَهُ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ الْمُهْلِكَةِ، وَمِنْ الْوُقُوعِ فِي الشَّهَوَاتِ الْمُرْدِيَةِ.

* **الدعاء الثاني:** قال الله تعالى حكايةً عن نبيه يوسف عليه السلام، في تمام ذكر قصته: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: «هذا دعاءٌ مِنْ يوسُفَ الصِّدِّيقِ، دعا به رَبَّهُ وَعَلَى لَمَّا تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِ بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبَوَيْهِ وَإِخْوَتِهِ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ، سَأَلَ رَبَّهُ وَعَلَى كَمَا أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَسْتَمِرَّ بِهَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا حِينَ يَتَوَفَّاهُ - قَالَ الضَّحَّاكُ - وَأَنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ، وَهُمْ إِخْوَانُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ»^(١).

فهي دعوةٌ عظيمةٌ مباركةٌ جامعةٌ؛ قال العلامة ابن القيم رحمته الله: «جَمَعَتْ هذه الدعوةُ الإِقْرَارَ بالتوحيد، والاستسلامَ للربِّ، وإظهارَ الافتقارِ إليه، والبراءةَ مِنْ مَوَالَاةِ غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ، وَكَوْنَ الْوَفَاةِ عَلَى الْإِسْلَامِ أَجَلَ غَايَاتِ الْعَبْدِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِ الْعَبْدِ، وَالاعْتِرَافَ بِالْمَعَادِ، وَطَلَبَ مُرَافَقَةِ السُّعْدَاءِ»^(٢).

* **ويُستفاد مِنْ هذا الدعاء:** أَنَّ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَلْجَأَ دَائِمًا إِلَى رَبِّهِ، وَيُلِحَّ عَلَيْهِ بِالْدُّعَاءِ بِأَنْ يُثَبَّتَ إِيمَانَهُ، وَيَعْمَلَ الْأَسْبَابَ الْمَوْجِبَةَ لَذَلِكَ، وَيَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُتِمَّ لَهُ النِّعْمَةَ، وَيُحَسِّنَ لَهُ الْخَاتِمَةَ، وَأَنْ يَجْعَلَ خَيْرَ أَيَّامِهِ آخِرَهَا، وَخَيْرَ أَعْمَالِهِ خَوَاتِمَهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ، جَوَادٌ رَحِيمٌ.

وليس فيما حكاه الله مِنْ دُعَاءِ يوسُفَ عليه السلام في هذا المقام ما يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ دَعَا بِاسْتِعْجَالِ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْكَلَامِ أَنَّهُ عليه السلام سَأَلَ رَبَّهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ حِينَ يَتَوَفَّاهُ عَلَيْهِ، وَيُلْحَقَ بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ.

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٣٧).

(٢) «الفوائد» (٣٤٩).

وقد ثبت عن النبي ﷺ النهي عن تمنّي الموت؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَعْلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي) متفق عليه^(١).



(١) رواه البخاري رقم (٥٦٧١)، ومسلم رقم (٢٦٨٠).

دُعَاءُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِنَّ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الْوَاردَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ دُعَاءَ نَبِيِّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الصَّابِرِ الْمُحْتَسِبِ، وَقَدْ تَعَرَّضَ لابتلاءٍ عَظِيمٍ فِي بَدَنِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، حَتَّى إِنَّ الْمَثَلَ لَيُضْرَبُ بِمَا حَصَلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَايَا؛ وَلَمْ يَزِدْهُ هَذَا كُلُّهُ إِلَّا صَبْرًا وَاحْتِسَابًا وَابْتِهَالًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَضَرُّعًا إِلَيْهِ لِكَشْفِ مَا بِهِ مِنَ الضَّرِّ وَالْبَلَاءِ؛ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ وَحْدَهُ الْمَلَأَ فِي الْكُرْبَاتِ، الْمُدْعُوُّ فِي الشَّدَةِ وَالرَّخَاءِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]؛ أَي: وَادْكُرْ - وَالْخَطَابُ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ - عَبْدُنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ دَاعِيًا مُسْتَغِيثًا بِهِ، وَإِلَيْهِ لَا إِلَىٰ غَيْرِهِ شَاكِيًا، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ؛ أَي: بِمَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ فِي جَسَدِهِ، وَعَذَابٍ وَهَلَاكِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ.

وَقَالَ سَبَّحَانَهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]؛ أَي: وَادْكُرْ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَقَدْ مَسَّهُ الضُّرُّ وَالْبَلَاءُ؛ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ وَفِي هَذَا السِّيَاقِ ثَنَاءٌ عَظِيمٌ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَفَعَ لِقَدْرِهِ حِينَ ابْتَلَاهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بِبَلَاءٍ شَدِيدٍ، فَوَجَدَهُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، حَتَّى صَارَ بِهَذَا الصَّبْرِ قُدُوةً لِلصَّابِرِينَ، وَسَلُوةً لِلْمُتَبَلِّغِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وَقَدْ تَوَسَّلَ ﷺ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِالْإِخْبَارِ عَنْ حَالِ نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ بَلَغَ الضَّرُّ مِنْهُ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَبِرَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ الْعَامَّةِ؛ فَنَادَىٰ رَبَّهُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «جَمَعَ - يعني: أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المُبتلى هذا، كُشِفَتْ عنه بُلُوَاهُ»^(١).

وقد استجاب الله تعالى دعاء نبيه أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ وبَيَّنَّ الله سبحانه كيفية كُشْفِهِ الضَّرِّ عن أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه سبحانه لَمَّا أَرَادَ إِذْهَابَ الضَّرِّ عن أَيُّوبَ، أَمَرَهُ أَنْ يَرْكُضَ بِرِجْلَيْهِ؛ كما قال تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «أي: اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أَمَرَ به، فأنبَعَ اللهُ له عينا باردة الماء، وأَمَرَ أَنْ يَغْتَسِلَ فيها وَيَشْرَبَ منها، فأذهب اللهُ عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسَّقَمَ والمرض الذي كان في جسده ظاهرا وباطنا، وأبدله اللهُ بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالا تاما، ومالا كثيرا، حتى صبَّ له من المال صبا مطرا عظيما جرادا من ذهب، وأخلف اللهُ له أهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾، فقل: أحيأهم اللهُ بأعيانهم، وقيل: آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة، وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾؛ أي: رَفَعْنَا عنه شدته، ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾؛ رحمة منا به ورأفة وإحسانا، ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾؛ أي: تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده، فله أسوة بنبي الله أَيُّوبَ؛ حيث ابتلاه اللهُ بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فَرَّجَ اللهُ عنه»^(٢).

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في معنى قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾: «يقول:

(١) «الفوائد» (ص ٣٤٩).

(٢) «البداية والنهاية» (١/ ٥١٣).

وتذكراً للعابدين رَبَّهُمْ فَعَلْنَا ذَلِكَ بِهِ؛ لِيَعْتَبَرُوا بِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَبْتَلِي أَوْلِيَاءَهُ وَمَنْ أَحَبَّ مِنْ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا بِضُرُوبٍ مِنَ الْبَلَاءِ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، مِنْ غَيْرِ هَوَانٍ بِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ اخْتِبَارًا مِنْهُ؛ لِيَبْلُغَ بِصَبْرِهِ عَلَيْهِ، وَاحْتِسَابِهِ إِيَّاهُ، وَحُسْنِ يَقِينِهِ: مَنْزِلَتُهُ الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُ، ثُمَّ سَاقَ بَسْنَدَهُ إِلَى مُحَمَّدَ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَصَابَهُ بَلَاءٌ، فَذَكَرَ مَا أَصَابَ أَيُّوبَ، فَلْيَقُلْ: قَدْ أَصَابَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنَّا، نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»^(١).

وَالْمُؤْمِنُ عُرْضَةٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِلْإِبْتِلَاءِ، بَلْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ سَعْدِ ابْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: (الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ، زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)»؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ^(٢).

وَمَنْ يَتَأَمَّلُ مِنَ الْمُتَبَلِّغِينَ مَا أَصَابَ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجِدُ فِي ذَلِكَ سَلْوَةً وَعِبْرَةً، فَإِذَا رَأَوْا مَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ الشَّدِيدِ، ثُمَّ مَا أَثَابَهُ اللَّهُ بَعْدَ زَوَالِهِ، وَتَأَمَّلُوا فِي سَبَبِ ذَلِكَ، وَجَدُوهُ الصَّبْرَ، فَجَعَلُوهُ أُسْوَةً وَقُدْوَةً لَهُمْ.

وَفِيمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ دَعَاءِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بَيَانٌ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْفَرَجِ دَعَاءُ رَبِّكَ، وَالِابْتِهَالُ إِلَيْهِ، وَالتَّضَرُّعُ لَهُ، وَإِظْهَارُ الْفَاقَةِ لَدَيْهِ، وَذِكْرُهُ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَفِيهِ: أَنَّ الْبَلَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَى الْهَوَانِ وَالشَّقَاءِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ تَكْفِيرًا لِلْسَّيِّئَاتِ، أَوْ رَفْعًا لِلدَّرَجَاتِ، فَلِلَّهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ؛ وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: (مَا يُصِيبُ

(١) «تفسير الطبري» (١٦/٣٦٧ - ٣٦٨).

(٢) «مسند أحمد» (١/١٧٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٣٩٨)، ورواه ابن ماجه رقم (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/٥٦٥).

الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةَ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا خَطَايَاهُ^(١).

وفيه كذلك: أَنَّ الدعاءَ بكشفِ الضُّرِّ ورفَعِ البلاءِ، لا ينافي الصبرَ والرضا بالقضاء؛ فَإِنَّ تَرْكَ الصبرِ يَكُونُ بإظهارِ الشكوى إلى الخلق، أَمَّا إظهارُها إلى الله تعالى، فلا يَكُونُ تركًا للصبر.



(١) تقدم تخريجه (ص ٦٧٥).

دُعَاءُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَمِنَ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ يُونُسَ، وَكَانَ ﷺ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ مَبْعُوثًا إِلَى أَهْلِ نَيْنَوَى مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ بِالْعِرَاقِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَبَوْا عَلَيْهِ، وَتَمَادَوْا فِي كُفْرِهِمْ، فَوَعَدَهُم بِالْعَذَابِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُعَاضِبًا لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، إِلَى أَنْ رَكِبَ مَعَ جَمَاعَةٍ فِي سَفِينَةٍ مَلِيَّةٍ بِالرُّكَّابِ وَالْأَحْمَالِ، فَلَجَّجَتْ بِهِمْ فِي الْبَحْرِ، وَخَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا، فَاقْتَرَعُوا عَلَى مَنْ يُلْقُونَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ فِي الْبَحْرِ لِيَتَخَفَّفُوا مِنْهُ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونُسَ ﷺ ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ؛ وَعِنْدَئِذٍ قَامَ ﷺ وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْبَحْرِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْبَحْرِ حُوتًا عَظِيمًا، فَالْتَقَمَ يُونُسَ ﷺ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا يَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا، وَلَا يَهْشِمَ لَهُ عَظْمًا، بَلْ يَبْتَلَعُهُ لِيَكُونَ بَطْنُهُ لَهُ سِجْنًا؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) **إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** ﴿١٤٠﴾ **فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ** ﴿١٤١﴾ **فَالْتَمَتُهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴿١٤٢﴾ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴿١٤٣﴾ **لَلِيتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** [الصافات].

وَلَمَّا صَارَ يُونُسُ ﷺ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، نَادَى رَبَّهُ مُسْتَغِيثًا، مُعْتَرِفًا بِخَطِيئَتِهِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ ذُو الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى، وَيَكْشِفُ الضُّرَّ وَالْبَلَوَى، سَامِعُ الْأَصْوَاتِ وَإِنْ ضَعُفَتْ، وَعَالِمُ الْخَفِيَّاتِ وَإِنْ دَقَّتْ، وَمَجِيبُ الدَّعَوَاتِ وَإِنْ عَظُمَتْ؛ حَيْثُ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَعْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ** [الأنبياء].

فقوله: ﴿وَذَا النُّونُ﴾، قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «يقول تعالى ذِكْرُهُ: واذكُرْ يا مُحَمَّدُ ذا النون؛ يعني: صاحب النون، والنون: الحوت، وإنما عني بذِي النون: يُونُسَ بنَ مَتَّى»^(١).

وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «غَضِبَ عَلَى قَوْمِهِ»؛ ومثله عن الضَّحَّاك^(٢).

وقوله: ﴿فَطَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «يقول: ظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْضِيَ عَلَيْهِ عِقوبَةً وَلَا بَلَاءً فِيمَا صَنَعَ بِقَوْمِهِ فِي غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ وَفِرَارِهِ، وَعِقوبَتُهُ أَخَذَ النونَ إِيَّاهُ»، ونحوه عن قتادة، ومجاهد، والضحاك^(٣).

وقوله: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾، قال ابن مسعود، وابن عباس، وغيرهما من المفسرين: «ظُلُمَةُ بَطْنِ الْحَوْتِ، وظلمة البحر، وظلمة الليل»^(٤).

وقوله: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: نادى يونس رَّبَّهُ بهذا القول مُعْتَرِفًا بِذَنْبِهِ، تَائِبًا مِنْ خَطِيئَتِهِ.

وهذا الدعاء العظيم الذي نادى به يونس رَّبَّهُ فِي بطنِ الحوتِ يَتَضَمَّنُ ثلاثةَ جوانبٍ:

الأول: قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فيه إثباتُ انفرادِهِ بِالإلهية، وَالإلهيةُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ وَحُكْمَتِهِ؛ ففيها إثباتُ إِحْسَانِهِ إِلَى الْعِبَادِ؛ فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْمَالُوءُ، وَالْمَالُوءُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، وَكَوْنُهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ هُوَ بِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَحْبُوبَ غَايَةَ الْحُبِّ، الْمَخْضُوعَ لَهُ غَايَةَ الْخُضُوعِ، وَالْعِبَادَةُ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ»^(٥).

الثاني: قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، وفيه إثباتُ تَنْزِيهِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ،

(١) «تفسير الطبري» (٣٧٤/١٦). (٢) رواهما ابن جرير في «تفسيره» (٣٧٤/١٦).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٣٧٩/١٦ - ٣٨٠).

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (٣٨٢/١٦)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٢٠/٢ - ٢١).

(٥) «دقائق التفسير» (٣٦٤/٤).

وإثباتُ عَظَمَتِهِ الْمُوجِبَةِ لَهُ بَرَاءَتَهُ مِنَ النِّقَاصِ وَالْعُيُوبِ؛ فَقَوْلُهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ يَتَضَمَّنُ مَعَانِيَ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، فِيهِ كَمَالُ الْمَدْحِ وَالشَّائِءِ لِلَّهِ تَعَالَى، مَعَ كَمَالِ الذُّلِّ وَالْحَبِّ وَالْخُضُوعِ.

الثالث: قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وفيه اعترافٌ بذنبيه، وبحقيقة حاله، وهو يَتَضَمَّنُ طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الطَّالِبَ السَّائِلَ تَارَةً يَسْأَلُ بِصِغَةِ الطَّلَبِ، وَتَارَةً يَسْأَلُ بِصِغَةِ الْخَبَرِ: إِمَّا بِوَصْفِ حَالِهِ، وَإِمَّا بِوَصْفِ حَالِ الْمَسْئُولِ، وَإِمَّا بِوَصْفِ الْحَالَيْنِ.

فَدَعَاءُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْمَقَامِ قَدْ تَضَمَّنَ مِنَ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ وَالذَّلَالَاتِ الْعَظِيمَةِ مَا يُوجِبُ الْقَبُولَ وَالْإِجَابَةَ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، فَإِنَّ فِيهَا مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ، وَالتَّنْزِيهِ لِلرَّبِّ تَعَالَى، وَاعْتِرَافِ الْعَبْدِ بِظُلْمِهِ وَذَنْبِهِ مَا هُوَ مِنْ أَدْوِيَةِ الْكَرْبِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَأَبْلَغِ الْوَسَائِلِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ؛ فَإِنَّ التَّوْحِيدَ وَالتَّنْزِيهِ يَتَضَمَّنَانِ إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ لِلَّهِ، وَسَلْبَ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ وَتَمَثِيلٍ عَنْهُ، وَالْاعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ يَتَضَمَّنُ إِيمَانَ الْعَبْدِ بِالْشَّرْعِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَبِوَجِبِ انْكَسَارِهِ وَرَجُوعِهِ إِلَى اللَّهِ، وَاسْتِقَالَتِهِ عَثَرَتِهِ، وَالْاعْتِرَافُ بِعِبُودِيَّتِهِ، وَافْتِقَارُهُ إِلَى رَبِّهِ؛ فَهِيَ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ قَدْ وَقَعَ التَّوَسُّلُ بِهَا: التَّوْحِيدُ، وَالتَّنْزِيهِ، وَالْعِبُودِيَّةُ، وَالْاعْتِرَافُ»^(١).

وقد استجاب اللهُ لِنَبِيِّهِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾؛ أَيُّ: فَاسْتَجَبْنَا لِيُونُسَ دَعَاءَهُ إِيَّانَا؛ إِذْ دَعَانَا فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ الَّذِي كَانَ بِسَبَبِ حَبْسِهِ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فِيهِ كَمَالُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَأَنَّهَا دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ؛ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَكَمَا أَنْجَيْنَا يُونُسَ مِنْ كَرْبِ الْحَبْسِ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ إِذْ دَعَانَا، كَذَلِكَ نُنْجِي

المؤمنين مِنْ كَرِهَم إِذَا اسْتَغَاثُوا بِنَا وَدَعَوْنَا»^(١).

وذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ نَحْوًا مِنْ هَذَا، وَقَالَ: «وَلَا سَيِّمًا إِذَا دَعَوْا بِهَذَا الدُّعَاءِ فِي حَالِ الْبَلَاءِ؛ فَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعَاءِ بِهَا عَنْ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢)، ثُمَّ أوردَ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ)^(٣).



(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/٣٦٣).

(١) «تفسير الطبري» (١٦/٣٨٥).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٦٤٠).

دُعَاءُ مُوسَى عليه السلام

(١)

لقد ساق الله تعالى قصّة نبيّه موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من كتابه العزيز بأساليب متنوعة، وليس في قصص القرآن أعظم من قصّته، ولا أكثر منها مواقف وعبراً؛ لأنه عليه السلام عالَج أكبر طاغية عرّفه التاريخ؛ فرعون وجنوده، وعالَج أَعَنَّتْ شَعْبٍ عرّفه الناس؛ بني إسرائيل، فكانت مهمّة موسى عليه السلام من أقوى المهمات، ورسالتُه من أظهر الرسالات.

وقد اشتملت قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم على مواقف عديدة دعا فيها الله تعالى بدعواتٍ عظيمة، دالّة على كمال ذلّه وخضوعه، وتام عبوديته لله ربّ العالمين، وعلى مكانته ووجاهته وعلوّ شأنه عند ربّه ﷻ.

فَمِنْ دعاء موسى عليه السلام: ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وهذا الدعاء قد قاله موسى عليه السلام استغفاراً وتوبةً إلى ربّه سبحانه لقتله رجلاً قبطياً خطأ من غير قصدٍ لقتله، ولكنه قصّد مساعدة رجلٍ إسرائيليٍّ من شيعته استغاث به على القبطي، فوكّزه موسى؛ أي: ضربه بقبضة يده، فقضى عليه لقوّة موسى عليه السلام، ولم ينسب عليه السلام هذا الفعل إلى القدرِ معتذراً بذلك، بل بادّر بالتوبة والاستغفار؛ لأنه كان السبب فيه؛ وهذا معنى ما روي عن قتادة رحمته الله في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، قال: «وعرّف نبيُّ الله ﷻ من أين المخرج، فأراد المخرج، فلم يلقِ ذنبه على ربّه»^(١).

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٩٩).

وقد ذكر العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ مِنْ فوائد هذه القِصَّة: «أَنَّ قَتْلَ الْكَافِرِ الذي له عهدٌ بعقدٍ أو عُرْفٍ لا يجوز؛ فَإِنَّ مُوسَى نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ الْقِبْطِيِّ، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَتَابَ إِلَيْهِ»، وَذَكَرَ أَيْضًا مِنْ فَوَائِدِهَا: «أَنَّ الَّذِي يَقْتُلُ النَّفْسَ بِغَيْرِ حَقٍّ يُعَذِّبُ مِنَ الْجَبَّارِينَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ غَرَضُهُ مِنْ ذَلِكَ الْإِرْهَابُ، وَلَوْ زَعَمَ أَنَّهُ مُصْلِحٌ، حَتَّى يَرِدَ الشَّرْعُ بِمَا يَبِيحُ قَتْلَ النَّفْسِ»^(١). اهـ.

وبهذا الكلام المتين الذي ذَكَرَهُ رَحِمَهُ اللهُ يُعْلَمُ فسادُ ما عليه بعضُ المندفعين والمتهورين ممَّن جعلوا إرهابَ المؤمنين، وإرهابَ الآمنين، وإخافةَ المطمئنين، وقتلَ المسلمين والمستأمنين سبيلًا للإصلاح بزعمهم، وهم في الحقيقة مِنَ الْجَبَّارِينَ فِي الْأَرْضِ وَمِنَ الْمُفْسِدِينَ.

وَمِنْ دُعَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ لَمَّا أُخْبِرَ أَنَّ الْأَقْبَاطَ يَأْتَمِرُونَ بِهِ لِيُثَارُوا مِنْهُ لِقَتْلِهِ الْقِبْطِيِّ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ فَرَارًا بِنَفْسِهِ، دَاعِيًا رَبَّهُ وَجَعَلَ فِي هَذِهِ الْحَالِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص].

فَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: دُعَاءٌ بِالنَّجَاةِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ يَأْتَمِرُونَ لِقَتْلِهِ، وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَفَعَلَهُ غَضَبًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُ لِلْقَتْلِ، فَتَوَعَّدُهُمْ لَهُ بِالْقَتْلِ طُلُمَ مِنْهُمْ وَاعْتِدَاءً، وَقِيلَ: سَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: دُعَاءٌ بِالْهُدَايَةِ إِلَى الطَّرِيقِ الْوَسَطِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي قَصَدَهُ - وَهُوَ مَدْيَنُ - وَإِلَى كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقد استجابَ اللهُ دُعَاءَهُ، وَأَعْطَاهُ مَا سَأَلَ؛ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فَفَعَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ، وَهَدَاهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَجَعَلَهُ هَادِيًا مَهْدِيًا»^(٢).

(١) «تفسير اللطيف المنان» (ص ١٣١). (٢) «تفسير ابن كثير» (٦/٢٣٦).

وأشار العلامة ابن سعدي في هذا المقام إلى أنَّ في هذا الدعاء تنبيهاً لطيفاً على أنَّ الناظر في العلم عند الحاجة إلى العلم أو التكلم به إذا لم يترجَّح عنده أحدُ القولين، فإنه يستهدي ربَّه ويسأله أن يَهْدِيَهُ إلى الصواب من القولين، بعد أن يَقْصِدَ الْحَقَّ بقلبه، ويبحث عنه؛ فإنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ هذه حاله، كما جرى لموسى عليه السلام لَمَّا قَصَدَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ، ولا يدري الطريقَ الْمُعَيَّنَ إليها، قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، وقد هداه الله، وأعطاه ما رَجَاهُ وَتَمَنَّاهُ^(١).

وَمِنْ دَعَائِهِ عليه السلام: أنه لما جَهِدَ به السفرُ، وبلغَ به الجُوعُ كلَّ مبلغ، ولم يكنْ معه مِنَ الطعامِ ما يأكلُهُ، قال في هذه الحالِ مسترزقاً ربَّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقد أجمعَ المفسِّرون على أنَّ موسى عليه السلام طَلَبَ في هذا الدعاء ما يأكلُهُ، لَمَّا به مِنَ الجوعِ الشديد؛ فإنَّ هذا وصفٌ لحالِهِ بأنه فقيرٌ إلى ما أنزَلَ اللهُ إليه مِنَ الخير، وهو متضمَّنٌ لسؤالِ الله إنزالَ الخيرِ إليه؛ وهذا مِنْ أبلغِ الوسائلِ إلى الله وَجَلَّ جَلَالُهُ.

قال ابن سعدي رحمته الله: «إِنَّ اللهَ كَمَا يُحِبُّ مَنْ الدَّاعِي أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَنِعَمِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ مَنْهُ أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ وَفَقْرِهِ، وَعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى تَحْصِيلِ مَصَالِحِهِ وَدَفْعِ الْأَضْرَارِ عَنْ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ مُوسَى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ إظهارِ التَضَرُّعِ وَالْمَسْكِنَةِ وَالافتقارِ لَهِ، الَّذِي هُوَ حَقِيقَةُ كُلِّ عَبْدٍ»^(٢). اهـ.

ويلاحظُ أنَّ الطالِبَ السائلَ تَارَةً يسألُ بصيغةِ الطلبِ، وتَارَةً يسألُ بصيغةِ الخبرِ، إمَّا بوصفِ حالِهِ مِنْ فقرٍ واحتياجٍ وضعفٍ، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ مِنْ غِنَى وكَمالٍ، وَمِنْ عَطَاءٍ، وإمَّا بوصفِ الحالَّينِ: حالِ السائلِ، وحالِ المسؤولِ.

(١) انظر: «تيسير اللطيف المنان» (ص ١٣١، ١٣٢).

(٢) «تيسير اللطيف المنان» (ص ١٣٢).

وموسى ﷺ وَصَفَ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ حَالَهُ، وَأَظْهَرَ فَقْرَهُ وَاحْتِيَاجَهُ إِلَى رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ سُؤَالَهُ سُبْحَانَهُ إِنْزَالَ الْخَيْرِ إِلَيْهِ، وَمَوَالَاةَ الْمَنْ عَلَيْهِ.
وَقَدْ أَجَابَهُ اللَّهُ فِيمَا سَأَلَ، فَوَالَى الْمَنْ عَلَيْهِ، وَأَجَزَلَ لَهُ الْعَطَاءَ، وَبَقِيَ ﷺ فِي مَدِينَةٍ فِي أَمْنٍ وَعَافِيَةٍ، وَفِي خَيْرٍ وَرِزْقٍ إِلَى أَنْ اصْطَفَاهُ اللَّهُ وَاجْتَبَاهُ رَسُولًا أَمِينًا، وَنَبِيًّا كَرِيمًا، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ.



دُعَاءُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢)

وَمِنْ دُعَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ لِدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، سَأَلَ رَبَّهُ ﷻ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَبَيَانِ الدِّينِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه].

وهذا دعاء عظيم، في مقام عظيم؛ كما قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا سؤال من موسى ﷺ لربه ﷻ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطَبٍ جَسِيمٍ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مَلِكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ، وَأَجْبَرَهُمْ وَأَشَدَّهُمْ كَفْرًا، وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا، وَأَعَمَّرَهُمْ مُلْكًا، وَأَطْعَمَهُمْ، وَأَبْلَغَهُمْ تَمَرُّدًا، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ، وَلَا يَعْلَمُ لِرَعَايَاهُ إِلَهًا غَيْرَهُ»^(١).

والدعاء بشرح الصدر له أهمية كبيرة في هذا الشأن؛ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، يَسْتَعِينُ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَدَاءِ تِلْكَ الْمَهْمَةِ الْكُبْرَى، فَإِنَّهُ مَدْعَاةٌ لِلصَّبْرِ، وَاحْتِمَالِ الْمَشَاقِّ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى الدَّعْوَةِ بِهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ؛ وَأَمَّا ضِيقُ الصَّدْرِ وَالسَّامَةِ، فَهِيَ مِنْ أَسْبَابِ الضَّعْفِ وَخَوَرِ الْعَزِيمَةِ، وَمَنْ هَذَا حَالُهُ لَا يَصْلُحُ لِهَدَايَةِ الْخَلْقِ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/٢٧٦).

مُحَمَّدٌ ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَكُمْ لَتَكُنَّ فَرَاغَ عِلَاقٍ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وَمَعَ سَعَةِ الصَّدْرِ وَانْشِرَاحِهِ، لَا بَدَّ مِنْ تَيْسِيرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ فِي هَذَا الدُّعَاءِ: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾؛ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيُّ: إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي، وَعَضِدِي وَظَهِيرِي، وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ»^(١).

وَقَالَ ابْنُ سَعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ تَيْسِيرِ الْأَمْرِ أَنْ يُيسَّرَ لِلدَّاعِي أَنْ يَأْتِيَ جَمِيعَ الْأُمُورِ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَيُخَاطَبَ كُلُّ أَحَدٍ بِمَا يَنْسَبُ لَهُ، وَيَدْعُوهُ بِأَقْرَبِ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى قَبُولِ قَوْلِهِ»^(٢).

ثُمَّ إِنَّ مِنْ أَمِّهِ وَسَائِلِ الدُّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: قُدْرَةُ الدَّاعِي عَلَى الْبَيَانِ وَالْإِفْهَامِ بِالْقَوْلِ؛ وَلِهَذَا دَعَا مُوسَى ﷺ رَبَّهُ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ٢٧ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِ مُوسَى ثِقْلٌ لَا يَكَادُ يَفْهَمُ عَنْهُ الْكَلَامُ، فَسَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ لِيَفْهَمُوا قَوْلَهُ، وَلِيَحْضَلَ الْمَقْصُودُ التَّامُّ مِنَ الْمَخَاطَبَةِ وَالْمَرَاجَعَةِ وَالْبَيَانِ عَنِ الْمَعَانِي.

وَلِذَا ذَكَرَ الْعَلَامَةُ ابْنُ سَعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ جَمَلَةِ الْفَوَائِدِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ الْفَصَاحَةَ وَالْبَيَانَ مِمَّا يَعِينُ عَلَى التَّعْلِيمِ، وَعَلَى إِقَامَةِ الدُّعْوَةِ؛ لِهَذَا طَلَبَ مُوسَى مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ لِيَفْقَهُوا قَوْلَهُ، وَأَنَّ اللَّثْغَةَ لَا عَيْبَ فِيهَا إِذَا حَصَلَ الْفَهْمُ لِلْكَلَامِ، وَمِنْ كَمَالِ أَدَبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ رَبِّهِ أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْ زَوَالَ اللَّثْغَةِ كُلِّهَا، بَلْ سَأَلَ إِزَالَةَ مَا يَحْضُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ»^(٣)؛ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّسُلُ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ؛ وَلِهَذَا بَقِيَتْ فِي لِسَانِهِ بَقِيَّةٌ»^(٤).

ثُمَّ قَالَ مُوسَى ﷺ: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ٢٩ ﴿هَؤُلَاءِ أَخِي﴾ ٣٠ ﴿أَشَدُّ بِهِمْ أَرْزِي﴾ ٣١ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه].

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٧٦/٥).

(٢) «تفسير ابن سعد» (ص ٥٨٧).

(٣) «تيسير اللطيف المنان» (ص ١٣٦).

(٤) أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦٠/٢).

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: «وهذا أيضًا سؤالٌ مِنْ موسى في أمرٍ خارجيٍّ عنه، وهو مساعدةُ أخيه هارونَ له»^(١).

وجاء في موضعٍ آخرَ مِنَ القرآنِ الكريمِ بيانُ التعليلِ لهذا السؤالِ مِنْ موسى عليه السلام، وهو ما حكاه الله عنه مِنْ قوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، فموسى عليه السلام سألَ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ أَخَاهُ هَارُونَ شَرِيكًا لَهُ فِي النُّبُوَّةِ وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَهَذَا مِنْ وَجَاهَتِهِ عليه السلام عِنْدَ رَبِّهِ، حِينَ شَفَعَ أَنْ يُوحِيَ اللَّهُ إِلَى أَخِيهِ، وَطَلَبَ مُوسَى أَنْ يَكُونَ مُعِينُهُ مِنْ أَهْلِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْبِرِّ، وَأَحَقُّ بِبِرِّ الْإِنْسَانِ قَرَابَتُهُ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ عَلَى أَخِيهِ أَسْعَدَ، وَلَأَخِيهِ أَنْفَعُ مِنْ مُوسَى لِهَارُونَ^(٢)، ثُمَّ ذَكَرَ مُوسَى عليه السلام الْفَائِدَةَ فِي سُؤَالِهِ هَذَا، فَقَالَ: ﴿كَيْ سَخِّحَكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه].

قال العلامة ابن سَعْدِي رحمته الله: «علم - عليه الصلاة والسلام - أَنَّ مَدَارَ الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا وَالِدِينَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ أَخَاهُ مَعَهُ يَتَسَاعَدَانِ وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، فَيَكْثُرُ مِنْهُمَا ذِكْرُ اللَّهِ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ»^(٣)، وَبَيَّنَ أَيْضًا رحمته الله أَنَّ الذِّكْرَ كَمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ لِأَجْلِهِ، وَالْعِبَادَاتُ كُلُّهَا ذِكْرٌ لِلَّهِ، فَكَذَلِكَ الذِّكْرُ يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى الْقِيَامِ بِالطَّاعَاتِ وَإِنْ شَقَّتْ، وَيُهَوِّنُ عَلَيْهِ الْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَابِرَةِ، وَيُخَفِّفُ عَلَيْهِ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى حِينَ بَعَثَهُ: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَلِخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نِيَا فِي ذِكْرِي﴾^(٤) [طه: ٤٢]؛ أَي: لَا تَقْتَرَا وَلَا تَضَعُفَا عَنْ ذِكْرِي؛ فَإِنَّهُ لَكُمْ سَلَاخٌ وَعُدَّةٌ.

وَحَتَمَ مُوسَى عليه السلام دَعَاءَهُ لِرَبِّهِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥]؛ أَي: «تَعْلَمُ حَالَنَا وَضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا وَافْتِقَارَنَا إِلَيْكَ فِي كُلِّ

(٢) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٣/٣٢٨).

(٤) «تفسير اللطيف المنان» (ص ١٣٥).

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/٢٧٧).

(٣) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٥٨٧).

الأمور، وأنت أَبْصَرُ بنا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَرْحَمُ، فَمَنْ عَلَيْنَا بِمَا سَأَلْنَاكَ، وَأَجِبْ لَنَا
 فِيما دَعَوْنَاكَ»^(١). فاستجاب الله تعالى دعاء نبيه وكنيّه مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال رَبِّكَ:
 ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]؛ أَي: أُعْطِيتَ جَمِيعَ ما سَأَلْتَ، وَالسُّؤْلُ:
 الطَّلِبَةُ وَالمرغوبُ فِيه، وقال تعالى جواباً لموسى أيضاً على سؤاله: ﴿قَالَ
 سَشِدْ عُضْدَكَ بِأَخِيكَ وَجْعَلْ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتَ وَمَنْ
 أَتَّبَعْكُمَا أَفْغٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؛ فأخبر سبحانه أنه استجاب له الدعاء، وَحَقَّقَ
 له الرجاء، فَعَضَدَهُ وَقَوَّاهُ بِأَخِيهِ، وَجَعَلَ لهُمَا سُلْطٰنًا على فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ،
 فلا سَبِيلَ لَهُم إلى أذاهما بما أَيْدِيهما به مِنَ الْآيَاتِ السَّاطِعَاتِ، وَجَعَلَ الْغَلْبَةَ
 وَالنَّصَرَ وَالْعَاقِبَةَ الْحَمِيدَةَ لَهُمَا وَلِأَتْبَاعِهِمَا؛ فَنِعْمَ الْمَوْلَى هُوَ سَبْحَانَهُ وَنِعْمَ
 النَصِير.



(١) «تفسير ابن سعدى» (ص ٥٨٧).

دُعَاءُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (٣)

لا يزال الحديث ماضياً عن دعاء نبيِّ الله موسى عليه السلام، فَمِنْ دُعَائِهِ: أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَهُ تَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ لَهُ بِالْقَتْلِ، التَّجَأَ إِلَى رَبِّهِ مُسْتَعِيدًا بِهِ مِنْ بَاسِ فِرْعَوْنَ وَجَبَرُوتِهِ؛ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ [غافر].

وقولُ فِرْعَوْنَ هذا - قَبَّحَهُ اللَّهُ - مِنْ أَعْجَبِ مَا يَكُونُ، وَهُوَ مِنَ التَّمْوِيهِ وَالتَّرْوِيجِ لِلْبَاطِلِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا يَقَالُ فِي الْمَثَلِ - عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ -: «صَارَ فِرْعَوْنُ مُذَكَّرًا»؛ وَهَذَا تَضْلِيلٌ مِنْهُ؛ فَإِنْ فِرْعَوْنُ يَزْعُمُ فِي كَلَامِهِ هَذَا أَنَّهُ يَخَافُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُضِلَّهُمْ مُوسَى عليه السلام، فَصَارَ وَاعِظًا يُشْفِقُ عَلَى النَّاسِ مِنْ مُوسَى، وَيَخْشَى عَلَيْهِمْ مِنْهُ، مَنْ أَنْ يُبَدِّلَ عَلَى النَّاسِ دِينَهُمْ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَيَزْعُمُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ بِالنَّاسِ الْخَيْرَ وَهُدَايَتَهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ، وَهَذَا شَأْنُ دُعَاةِ الْبَاطِلِ وَأُتَمَّةِ الضَّلَالِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ وَقَدْ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَلِكَ مَعَ أَنَّهُ مِنْ شَرِّ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَشَدَّهُمْ فَسَادًا وَخُبثًا، وَمَكْرًا بِالنَّاسِ، وَاسْتِخْفَافًا بِالْعُقُولِ، وَتَكَبُّرًا عَلَى الْحَقِّ، وَتَعَالِيًا عَلَيْهِ.

ولِهَذَا قَالَ مُوسَى عليه السلام دَاعِيًا اللَّهُ تَعَالَى، وَمَنْبَهَا النَّاسَ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

قال الإمام الطبري رحمته الله في معنى هذا الدعاء: «إني استجرت - أيها القوم - بربي وربكم من كل متكبر عليه، تكبر عن توحيدِهِ والإقرارِ بألوهيَّتِهِ وطاعَتِهِ، لا يؤمنُ بيومٍ يُحَاسِبُ اللَّهُ فِيهِ خَلْقَهُ، فيجازي المُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، والمُسِيءَ بِمَا أَسَاءَ،

وإنما خَصَّ موسى صلواتُ الله وسلامُهُ عليه الاستعاذة بالله مِمَّنْ لا يؤمنُ بيوم الحساب؛ لأنَّ مَنْ لم يؤمنَ بيومِ الحسابِ مصدِّقًا، لم يكنِ للشَّوابِ على الإحسانِ راجيًا، ولا للعقابِ على الإساءةِ وقبيحٍ ما يأتي مِنَ الأفعالِ خائفًا؛ ولذلك كانتِ استجارتهُ مِنْ هذا الصنفِ مِنَ الناسِ خاصَّةً^(١).

وقد حكى الله تعالى عن نبيِّه موسى ﷺ نحوَ هذا الدعاءِ أيضًا في قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول: وإني اعتصمتُ برَبِّي وربكم، واستجرتُ به منكم أَنْ تَرْجُمُونِ»^(٢)، قال: «والرَّجْمُ قد يكونُ قولًا باللسان، وفعلاً باليد، والصوابُ أن يقال: استعاذ موسى برَبِّه مِنْ كُلِّ معاني رَجْمِهِم الذي يصلُ منه إلى المرجومِ أذى ومكروه، شتمًا كان ذلك باللسان، أو رجماً بالحجارة باليد»^(٣).

ويُستفادُ مِنْ هذا السياقِ الكريم: أَنَّ مَنْ كان متكبرًا غيرَ مؤمنٍ بيوم الحسابِ يحملُهُ تكبرُهُ وعدمُ إيمانهِ على الشرِّ والفساد، وأنَّ على المؤمنِ أَنْ يستعيذَ بالله مِنْ شرِّ هذا الصنفِ مِنَ الخلقِ؛ وقد ثبتَ في «سنن أبي داود»، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان إذا خاف قومًا، قال: (اللَّهُمَّ، إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ)»^(٤).

ومِمَّا حكى الله تعالى مِنْ دعاءِ موسى ﷺ: استغفارهُ لنفسه ولأخيه هارون؛ كما قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وكذلك: استغفارهُ ودعاؤه لنفسه ولقومه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَخْنَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَتِيعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُكُمَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/٣١٠ - ٣١١). (٢) «تفسير الطبري» (٢١/٣١).

(٣) «تفسير الطبري» (٢١/٣٣).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٦٤٨).

شَاءَ أَنْتَ وَلَيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَفِيرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَذَابٌ أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَالَمِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ [الأعراف].

واشتمَلَ دعاؤه في هذا المقام على فصلين كما أشار إليهما الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

الفصل الأول من الدعاء: فيه دَفْعُ المحذور، وهو قوله: ﴿أَنْتَ وَلَيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَفِيرِينَ﴾؛ فهذا دعاء بترك المؤاخذه بالذنب، والوقاية من ذلك.

والفصل الثاني من الدعاء: في تحصيل المقصود، وهو قوله: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة^(١).

وقد مدَحَ اللهُ تعالى في كتابه مَنْ يدعو سُبْحَانَهُ بهذا الدعاءِ المشتملِ على طلبِ الحسنةِ في الدنيا والآخرة؛ فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿٢٢١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٢٢﴾ [البقرة].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فَجَمَعَتْ هذه الدعوة كلَّ خيرٍ في الدنيا، وصَرَفَتْ كلَّ شرٍّ؛ فَإِنَّ الحسنةَ في الدنيا تشمَلُ كلَّ مطلوبٍ دنيويٍّ مِنْ عَافِيَةٍ، وَدَارٍ رَحْبَةٍ، وَزَوْجَةٍ حَسَنَةٍ، وَرِزْقٍ وَاسِعٍ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَمَرْكَبٍ هَنِيءٍ، وَثَنَاءٍ جَمِيلٍ، إِلَى غيرِ ذلك مما اشتمَلَتْ عليه عباراتُ المفسرين، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَهَا؛ فَإِنَّهَا كُلُّهَا مَنْدَرَجَةٌ فِي الحسنةِ فِي الدنيا، وَأَمَّا الحسنةُ فِي الْآخِرَةِ، فَأَعْلَى ذَلِكَ: دُخُولُ الْجَنَّةِ، وَتَوَابُعُهُ مِنَ الْأَمْنِ مِنَ الْفِرْعِ الْأَكْبَرِ فِي الْعَرَصَاتِ، وَتَيْسِيرُ الْحِسَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ الصَّالِحَةِ، وَأَمَّا

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٧٨/٣).

النجاة مِنَ النار، فهو يقتضي تيسيرَ أسبابِهِ في الدنيا؛ مِنْ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ والآثامِ، وَتَرْكِ الشَّهَوَاتِ وَالْحَرَامِ^(١).

ولهذا وَرَدَتِ السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ بِالترغيبِ في هذا الدعاء؛ فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ أَكْثَرُ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)»؛ متفق عليه^(٢).

وقولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾؛ أَي: تُبْنَا وَرَجَعْنَا وَأُنْبَا إِلَيْكَ.



(١) «تفسير ابن كثير» (١/٣٥٥ - ٣٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٨٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٠).

دُعَاءُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مِنْ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ: دَعْوَةُ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى النُّبُوَّةَ وَالْمُلْكَ، وَعَلَّمَهُ لُغَةَ الطَّيْرِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَتَآمَّيَنَّ النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَاكِرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ يَدْعُو رَبَّهُ تَعَالَى، وَيَبْتَهِلُ إِلَيْهِ أَنْ يُلْهِمَهُ شُكْرَ هَذَا الْفَضْلِ الْمُبِينِ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَنَالُ بِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتُهُ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ مَعَ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُورَعُونَ﴾ [١٧] حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّعْمِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَآمَّيَنَّ النَّعْمُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [١٨] فَنَبَسَرَهُ مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل].

فَذَكَرَ تَعَالَى - فِي هَذِهِ الْآيَاتِ - جَانِبًا مِنْ مُلْكِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا كَانَ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى بِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

وَهَذَا مِنْ أَجْمَعَ الْأَدْعِيَةِ، وَمِنْ أَنْسَبِهَا لِحَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ، وَالْفَضْلِ الْمُبِينِ.

فَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾: طَلَبٌ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُفَيِّضَهُ لِلشُّكْرِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَعَلَى مَا خَصَّصَهُ بِهِ مِنَ الْمَزِيَّةِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ تَعْلِيمِهِ مَنَظِقَ الطَّيْرِ، وَإِسْمَاعِهِ قَوْلَ النَّمْلَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾، فِيهِ أَنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَلَدِ؛ وَلِهَذَا سَأَلَ رَبَّهُ التَّوْفِيقَ لِلْقِيَامِ بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ،

والمراد بوالدئيه: داود عليه السلام، وأُمُّهُ وكانت مِنَ العابداتِ الصالحاتِ^(١).

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾؛ أي: وفَّقني أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ؛ لكونه موافقًا لأمرِك، خالصًا لوجهك، سالمًا مِنَ الْمُفْسِدَاتِ وَالْمُنْقِصَاتِ.

وينبغي التأملُ في قوله: ﴿صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾؛ فَإِنَّ فِيهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْعَمَلَ قَدْ يَكُونُ صَالِحًا فِي نَظَرِ صَاحِبِهِ وَلَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ لكونه غَيْرَ مُوَافِقٍ لِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ، أَوْ لكونه غَيْرَ خَالِصٍ لَوَجْهِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَلَا يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرِيعَتِهِ، خَالِصًا لَوَجْهِهِ.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: إِذَا تَوَقَّيْتَنِي، فَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ، وَالرَّفِيقِ الْأَعْلَى مِنْ أَوْلِيَائِكَ؛ بِمَعْنَى: أَدْخِلْنِي فِي جَمْلَتِهِمْ، وَأَثِّبْ اسْمِي مَعَ أَسْمَائِهِمْ، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَتِهِمْ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يُرِيدُ: مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ»^(٢).

وَمِنْ دُعَاءِ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا حَكَاهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص].

فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ابْتَلَى عَبْدَهُ وَنَبِيَّهَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ أَلْقَى عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِهِ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا طُوفَانَ اللَّيْلَةِ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنَّ شَاءَ اللَّهِ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ شَاءَ اللَّهِ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنَّ شَاءَ اللَّهِ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ)^(٣)؛ فَاِبْتَلاَهُ اللَّهُ بِشِقِّ وَلَدٍ،

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/٣٢٧).

(٢) أورده البغوي في «تفسيره» (٤١١/٣).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٢٨١٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٥٤).

وقيل: إِنَّ الْجَسَدَ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَى كَرْسِيِّهِ هُوَ صَخْرُ الْجَنِيِّ الَّذِي تَسَلَّطَ عَلَى مُلْكِهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ، فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ جَاءَتْ فِي أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: تَابَ إِلَى رَبِّهِ؛ وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

فَسَأَلَ اللَّهَ مَغْفِرَةَ ذَنْبِهِ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِاسْمِهِ الْوَهَّابِ أَنْ يَهَبَ لَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْبَشَرِ.

وقد استجابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، وَأَعْطَاهُ مُلْكًا لَمْ يَحْصُلْ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرِ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلَفَى وَحُسْنُ مَتَابٍ [ص]، فزاده اللَّهُ عَلَى الْمَغْفِرَةِ أَمْرَيْنِ: الزُّلْفَى؛ وَهِيَ دَرَجَةُ الْقُرْبِ مِنْهُ، وَالثَّانِي: حُسْنُ الْمَتَابِ؛ وَهُوَ حُسْنُ الْمُتَقَلَّبِ، وَطَيْبُ الْمَأْوَى عِنْدَ اللَّهِ (١).

وقد ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ فِي سَنَنِ النَّسَائِيِّ، وَابْنِ مَاجَهَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ، سَأَلَ اللَّهَ ﷻ خِلَالًا ثَلَاثَةً: سَأَلَ اللَّهَ ﷻ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللَّهَ ﷻ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللَّهَ ﷻ حِينَ فَرَّغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لَا يَنْهَرُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) (٢) وقوله: (لَا يَنْهَرُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ)؛ أي: لَا يُحَرِّكُهُ إِلَّا ذَلِكَ.

ونسأل اللَّهَ أَنْ يَفْكَ أَسْرَهُ مِنْ أَيْدِي الْيَهُودِ، وَأَنْ يُطْلِقَ قَيْدَهُ، وَأَنْ يَرُدَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُقَرِّرَ أَعْيُنَهُمْ بِالصَّلَاةِ فِيهِ، مَطْهَرًا مِنْ رَجْسِ الْيَهُودِ؛ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ خَيْرُ مَسْئُولٍ، وَنِعْمَ الْمَأْمُولُ، وَهُوَ حُسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ٢١٧).

(٢) «سنن النسائي» رقم (٦٩٢)، و«ابن ماجه» رقم (١٤٠٨)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» (٢٢٩/١).

دُعَاءُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِنَّ مِنْ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ: مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ دَعَا رَبَّهُ ﷻ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا صَالِحًا يَكُونُ وَارِثًا لَهُ فِي الْعِلْمِ وَالنَّبُوَّةِ وَالْقِيَامِ بِالْدِّينِ، وَلَمْ يَكُنْ ﷺ قَدْ رَزِقَ وَلَدًا فِي حَيَاتِهِ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ عَاقِرًا، وَتَقَدَّمَ بِهِ السِّنُّ، لَكِنَّهُ عَلَى عِلْمِ بِكَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا كَانَ، وَلَوْ لَمْ تَتَوَفَّرْ أَسْبَابُهُ الْمَعْلُومَةُ فِي الْعَادَةِ؛ إِذْ هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَزَائِنُهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَهَيْصَ ۝ ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتْ أَمْرًا قَاسِرًا ۝ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَوَالِي يَعْقُوبُ ۝ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾ [مريم].

وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الدُّعَاءُ الْعَظِيمُ الَّذِي دَعَا بِهِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ذِكْرَ حَالَتِهِ، وَشَدَّةَ رَغْبَتِهِ، وَكَمَالَ أَدْبِهِ مَعَ رَبِّهِ، وَثِقَتَهُ التَّامَّةَ بِقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِ خَاصَّةً وَبِعِبَادِهِ عَامَّةً. قَوْلُهُ: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا﴾؛ أَي: هَذَا ذِكْرُ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ زَكَرِيَّا.

وقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾، النداء هنا: هُوَ الدُّعَاءُ وَالرَّغْبَةُ.

وقوله: ﴿يَدَّاءَ خَفِيًّا﴾؛ أَي: سِرًّا لَا عَلَنًا؛ وَهَذَا الشَّاءُ عَلَيْهِ بِكَوْنِ دُعَائِهِ خَفِيًّا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِخْفَاءَ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهِ وَإِعْلَانِهِ.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾؛ أَي: ضَعُفَ الْعَظْمُ مِنِّي وَرَقَّ مِنَ الْكِبَرِ؛ قَالَ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنَقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا ذِكْرُ ضَعْفِ الْعَظْمِ؛

لأنه عَمُودُ الْبَدَنِ وَبِهِ قَوَامُهُ، وَهُوَ أَصْلُ بَنَائِهِ، فَإِذَا وَهَنَ دَلَّ عَلَى ضَعْفِ جَمِيعِ الْبَدَنِ؛ لَأَنَّهُ أَشَدُّ مَا فِيهِ وَأَصْلَبُهُ، فَوَهْنُهُ يَسْتَلْزِمُ وَهْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْبَدَنِ»^(١).

وقوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ أي: انتشر الشيب في الرأس؛ لأنَّ الشيبَ دليلُ الضعفِ والكبر، ورسولُ الموتِ ورائدُهُ ونذيره.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «والمراءُ مِنْ هَذَا الْإِخْبَارِ عَنِ الضَّعْفِ وَالْكِبَرِ وَدَلَالَتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ»^(٢).

ونادى رَبَّهُ بِذَلِكَ بَيَانًا لِحَالِهِ مُتَوَسِّلًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِافْتِقَارِهِ إِلَيْهِ.

قال العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «فَتَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ، وَهَذَا مِنْ أَحَبِّ الْوَسَائِلِ إِلَى اللَّهِ؛ لَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى التَّبَرِّيِّ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ»^(٣).

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾؛ أي: لم أَشَقَّ يَا رَبِّ بِدُعَائِكَ؛ لَأَنَّكَ لَمْ تُخَيِّبْ دُعَائِي، بَلْ كُنْتَ تَجِيبُ دَعْوَتِي، وَتَقْضِي حَاجَتِي، فَهُوَ تَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِمَا سَلَفَ مِنْ إِجَابَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، طَالِبًا أَنْ يُجَارِيَهُ عَلَى عَادَتِهِ الَّتِي عَوَّدَهُ مِنْ قَضَاءِ حَوَائِجِهِ وَإِجَابَتِهِ إِلَى مَا سَأَلَهُ»^(٤).

قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: «اسْتَفِيدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ آدَابُ الدُّعَاءِ وَمَا يُسْتَحَبُّ فِيهِ؛ فَمِنْهَا: الْإِسْرَارُ بِالْدُّعَاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿خَفِيًّا﴾، وَمِنْهَا: اسْتِحْبَابُ الْخُضُوعِ فِي الدُّعَاءِ، وَإِظْهَارِ الذُّلِّ وَالْمَسْكِنَةِ وَالضَّعْفِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، وَمِنْهَا: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِنِعَمِهِ وَعَوَائِدِهِ الْجَمِيلَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾»^(٥).

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾؛ أي: وَإِنِّي خِفْتُ مَنْ يَتَوَلَّى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي أَلَّا يَقُومَ بِدِينِكَ حَقَّ الْقِيَامِ، وَلَا يَدْعُوَ عِبَادَكَ إِلَيْكَ؛

(١) «أضواء البيان» (٤/٢٠٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/٢٠٦).

(٣) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٥٦٩).

(٤) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٣/٥٠٤).

(٥) «محاسن التأويل» (١١/٤١٢٧).

وهذا فيه شفقتُهُ ونصْحُهُ وجرُّصُهُ على قيام الدين، والخوف من ضياعه.
وقوله: ﴿وَكَاَنَتِ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾؛ أي: وكانت زوجتي لا تَلِدُ منذُ
شبابها.

وقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾؛ أي: وَلِدًا صالحًا معينًا.
قال العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الْوَلَايَةُ وَلَايَةُ الدِّينِ وميراثُ النُّبُوَّةِ
والعلم والعمل؛ ولهذا قال: ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ﴾»^(١)؛ فالإرثُ
المذكورُ هنا إنما هو إرثُ علمٍ ونُبوَّةٍ ودعوةٍ إلى الله ﷻ لا إرثُ مالٍ.
وقوله: ﴿وَجَعَلَهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾؛ أي: اجعلَ هذا الذي تَهَبُهُ لِي مَرْضِيًّا
ترضاه أنت، ويرضاه عبادُكَ دِينًا وَخُلُقًا وَحُلُقًا.

قال العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «والحاصل: أنه سَأَلَ الله وَلِدًا ذَكَرًا
صالحًا يبقى بعد موته، ويكونُ وليًّا مِنْ بعده، ويكونُ نبيًّا مَرْضِيًّا عندَ الله وعندَ
خَلْقِهِ؛ وهذا أَفْضَلُ ما يكونُ مِنَ الأولادِ، وَمِنْ رَحْمَةِ الله بَعْدِهِ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلِدًا
صالحًا جامعًا لمكارمِ الأخلاق، ومحامدِ الشِّيم»^(٢).

وَمِنْ الْآيَاتِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى ذِكْرِ دُعَاءِ زَكَرِيَّا ﷺ هَذَا: قَوْلُ الله تَعَالَى:
﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾
[آل عمران: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ
خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]؛ وقد أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ اسْتَجَابَ لِدُعَاءِ نَبِيِّهِ
زَكَرِيَّا ﷺ، فَجَعَلَ امْرَأَتَهُ وَلَوْدًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَاقِرًا، وَرَزَقَهُ وَلِدًا ذَكَرًا صَالِحًا
سَمَّاهُ يَحْيَى، وَجَعَلَهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

قال تعالى: ﴿فَلَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ
كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾
[الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿بَنَزَكِرْنَا إِيَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ
مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي

(٢) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٥٦٩ - ٥٧٠).

(١) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٥٦٩).

الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِحَيٍّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿[آل عمران: ٣٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود: أَنَّ اللَّهَ تعالى أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُصَّ عَلَى النَّاسِ خَبَرَ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كان مِنْ أَمْرِهِ حِينَ وَهَبَهُ اللَّهُ وَلَدًا عَلَى الْكِبَرِ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ عَاقِرًا فِي حَالِ شَبَابِهَا وَقَدْ أَسْنَتْ أَيْضًا، حَتَّى لَا يَنْتَسِ أَحَدٌ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَا يَقْنَطَ مِنْ فَضْلِهِ تَعَالَى وَتَقْدَّسُ»^(١).



دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

(١)

في القرآن الكريم مواضع عديدة يأمرُ الله تعالى فيها نبيّه ورسوله محمّداً ﷺ بدعائه دعاءَ ذِكْرٍ وثناء، ودعاءَ طَلَبٍ ومَسْأَلَةٍ، ومن المناسب للمسلم والمفيد له فائدة عظيمة: أن يَقِفَ عليها ليتعلّم منها الهدْيَ القويم، والنهَجَ السديد، والمسلك الرشيد، في ذِكْرِ الرَّبِّ ﷻ ودعائه.

* ومن هذه المواضع: قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].
ففيها الأمرُ بذكرِ الله ﷻ خِيفَةً مع التضرُّع والإلحاح، ولا سيّما في أوّل النهار وآخره، والتحذيرُ مِنَ الغفلة وسبيل الغافلين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - وقد اختار أن المراد بقوله: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾؛ أي: باللسان مع القلب -: «ومعلومٌ أن ذِكْرَ اللهِ المشروع بالغُدُوِّ والآصالِ في الصلاة وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب؛ مثلُ صلاتي الفجر والعصر، والذِّكْرِ المشروع عَقِبَ الصلاتين، وما أمرَ به النبي ﷺ وَعَلَّمَهُ وَفَعَلَهُ من الأذكار والأدعية الماثورة مِنْ عملِ اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار، بالغدو والآصال»^(١).

* ومن الآيات التي فيها أمرُ الله لنبيّه ﷺ بالدعاء: قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَلُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَيْنِ حِسَابٍ ﴿١﴾
[آل عمران].

وهذا أمرٌ للنبي ﷺ أن يدعُو بهذا الدعاء معظماً لربه ﷻ، متوكلاً عليه،
وشاكراً له، ومفوضاً إليه.

«فصدر الآية سبحانه بتفردِهِ بالملكِ كُلِّهِ، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ لَا غَيْرُهُ، فالأَوَّلُ: تفردُهُ بالملك، والثاني: تفردُهُ
بالتصرفِ فيه، وأنه سبحانه هو الذي يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ بما يَشَاءُ مِنْ أنواعِ العِزِّ،
وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بسلبِ ذلكِ العِزِّ عنه، وأنَّ الخيرَ كُلَّهُ بيديه، ليس لأحدٍ معه منه
شيءٌ، ثم ختمَهَا بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فتناولتِ الآيةُ مُلكَهُ وحدهُ،
وتصرفَهُ، وعمومَ قُدْرَتِهِ، وتضمَّنتِ أَنَّ هذهِ التصرفاتِ كُلَّهَا بيده، وأنها كُلُّهَا
خيرٌ، فسلبُهُ المُلْكَ عَمَّنْ يَشَاءُ وإذلالُهُ مَنْ يَشَاءُ خيرٌ، وإنَّ كانَ شراً بالنسبةِ إلى
المسلوبِ الذليلِ؛ فإنَّ هذا التصرفُ دائرٌ بين العدلِ والفضلِ، والحكمةِ
والمصلحةِ لا تخرجُ عن ذلك، وهذا كُلُّهُ خيرٌ يُحَمَّدُ عليه الربُّ ويثنى عليه
به؛ كما يُحَمَّدُ ويُثَنَّى عليه بتنزيهِهِ عن الشرِّ، وأنه ليس إليه؛ قاله
ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (١).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره للآية: «وفي هذه الآية تنبيهٌ
وإرشادٌ إلى شكرِ نِعْمَةِ اللهِ تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأنَّ اللهَ حَوَّلَ
النبوةَ مِنْ بني إِسْرَائِيلَ إلى النبيِّ العربيِّ، القرشيِّ المَكِّيِّ، الأُمِّيِّ، خاتمِ الأنبياءِ
على الإطلاق، ورسولِ اللهِ إلى جميعِ الثَّقَلَيْنِ الإنسِ والجِنِّ، الذي جَمَعَ اللهُ فيه
محاسنَ مَنْ كانَ قبله، وَخَصَّهُ بخصائصٍ لم يُعْطِهَا نبيًّا مِنْ الأنبياءِ، ولا رسولا
من الرُّسُلِ في العلمِ باللهِ وشريعَتِهِ، وإطلاعهِ على الغيوبِ الماضيةِ والآتيةِ،
وكشفِهِ عن حقائقِ الآخرةِ، ونشرِ أُمَّتِهِ في الآفاقِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها،
وإظهارِ دينِهِ وشرعِهِ على سائرِ الأديانِ والشرائعِ؛ فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه

(١) «شفاء العليل» لابن القيم (ص ١٧٨ - ١٧٩).

دائماً إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار»^(١).

* ومن الآيات التي فيها أمره ﷺ بالدعاء: قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بهذا الدعاء بعدما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حُبهم الشرك، ونُفرتهم عن التوحيد.

والمعنى: ادعُ - أيها النبي - الله وحده لا شريك له، الذي هو فاطر السموات والأرض؛ أي: خالقهما على غير مثال سبق، ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ أي: السر والعلانية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: في دنياهم، وستفصل بينهم يوم معادهم وقيامهم من قبورهم»^(٢).

وفي هذا تعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى، والدعاء بأسمائه الحسنى، والاستعانة بالتضرع والابتهال على دفع كيد العدو، والسلامة من شرورهم.

وقد ثبت في «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل، افتتح صلاته، فقال: (اللَّهُمَّ، رَبِّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)»^(٣).

* ومن الدعاء الذي أمر به النبي ﷺ: ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].
ومعنى الآية: فإن أعرض الكفار عما جئتهم به من الشريعة العظيمة، المطهرة الكاملة الشاملة، فقل أنت هذا الدعاء، وهو:

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٢/٢ - ٢٣). (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩٤/٧).

(٣) تقدم تخريجه (ص ٦٠١).

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: كافيَّ الله.
 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا هو.
 ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدتُ عليه، وإليه فَوَضْتُ جميعَ أموري.
 ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: هو مالكُ كلِّ شيءٍ وخالقه؛ لأنه ربُّ العرشِ العظيم، الذي هو سَقْفُ المخلوقات، وَخَصَّ العرشَ بالذكر؛ لأنه أعظمُ المخلوقات، فیدخلُ فيه ما دونه مِنْ بابِ أولى.
 وفي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: «مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حِينَ يُضْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: (حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَهَمُّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ رَوَاهُ ابْنُ السَّنَنِ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَوَاهُ غَيْرُهُ مَوْقُوفًا^(١)، وَالْمَوْقُوفُ رَجَالُ إِسْنَادِهِ ثِقَاتٌ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يُقَالُ مِنْ قَبْلِ الرَّأْيِ وَالْاجْتِهَادِ، فَسَبِيلُهُ سَبِيلُ الْمَرْفُوعِ.



دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

(٢)

* وَمِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِذِكْرِ اللَّهِ وَدُعَائِهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وهذا دعاء ثناء وتمجيد أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بأن يقولهُ توحيدًا لربِّه سبحانه، وتنزيهاً له عن كلِّ ما لا يليقُ به، وقد جاء في الأثر عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَقَالَتِ الْعَرَبُ: لَبَيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، وَقَالَ الصَّابِئُونَ وَالْمَجُوسُ: لَوْلَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَدَلَّ اللَّهُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾»^(١).

وفي الآية بيان استحقاق الله للحمد؛ لاختصاصه سبحانه بنعوت الكمال، وصفات الجلال، فهو سبحانه المنزه عن اتخاذ الولد، المتفرد بالملك لا شريك له، الغني عن عباده، لا يحتاج إلى أحدٍ منهم، ولا يتولَّى أحدًا منهم ليتعزَّز به من ذلَّة، أو ليتكثَّر به من قلة، وهو سبحانه الكبير المتعال.

* وَمِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي فِيهَا أَمْرُهُ ﷺ بِالدُّعَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وهذا دعاء مسألة أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقولهُ، وهو مُتضمَّن سؤال الله

تعالى أَنْ يَجْعَلَ مُدْخَلَهُ وَمُخْرَجَهُ عَلَى الصَّدَقِ؛ وذلك في قوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَحَقِيقَةُ الصَّدَقِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ الْمُتَّصِلُ بِاللَّهِ، الْمُوَصَّلُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ مَا كَانَ بِهِ وَلَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَجِزَاءِ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَمُدْخَلُ الصَّدَقِ وَمُخْرَجُ الصَّدَقِ: أَنْ يَكُونَ دُخُولُهُ وَخُرُوجُهُ حَقًّا ثَابِتًا لِلَّهِ وَفِي مَرْضَاتِهِ، بِالظَّفَرِ بِالْبُعْيَةِ وَحَصُولِ الْمَطْلُوبِ، ضِدَّ مُخْرَجِ الْكَذِبِ وَمُدْخَلِهِ، الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ يُوَصَّلُ إِلَيْهَا، وَلَا لَهُ سَاقٌ ثَابِتَةٌ يَقُومُ عَلَيْهَا، كَمُخْرَجِ أَعْدَائِهِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَمُخْرَجِ الصَّدَقِ كَمُخْرَجِهِ ﷺ هُوَ وَأَصْحَابِهِ فِي تِلْكَ الْعَزْوَةِ، وَكَذَلِكَ مُدْخَلُهُ ﷺ الْمَدِينَةُ كَانَ مُدْخَلَ صِدْقٍ، بِاللَّهِ وَلِلَّهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، فَاتَّصَلَ بِهِ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ وَالنَّصْرُ وَإِدْرَاكُ مَا طَلَبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِخِلَافِ مُدْخَلِ الْكَذِبِ، الَّذِي رَامَ أَعْدَاؤُهُ أَنْ يَدْخُلُوا بِهِ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِاللَّهِ وَلَا لِلَّهِ، بَلْ كَانَ مُحَادَّةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَلَمْ يَتَّصِلْ بِهِ إِلَّا الْخِذْلَانُ وَالْبَوَارُ، وَكَذَلِكَ مُدْخَلُ الْيَهُودِ مَنْ دَخَلَ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمَحَارِبِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِصْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مُدْخَلَ كَذِبٍ أَصَابَهُمْ مَعَهُ مَا أَصَابَهُمْ.

فَكُلُّ مُدْخَلٍ وَمُخْرَجٍ كَانَ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ، فَصَاحِبُهُ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ، فَهُوَ مُدْخَلُ صِدْقٍ، وَمُخْرَجُ صِدْقٍ.

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا خَرَجَ مِنْ دَارِهِ، رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَخْرُجَ مَخْرَجًا لَا أَكُونُ فِيهِ ضَامِنًا عَلَيْكَ»؛ يَرِيدُ أَنْ لَا يَكُونَ الْمَخْرَجُ مَخْرَجَ صِدْقٍ.

وَلِذَلِكَ فُسِّرَ مُدْخَلُ الصَّدَقِ وَمَخْرَجُهُ بِخُرُوجِهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ وَدُخُولِهِ الْمَدِينَةَ؛ وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، فَإِنَّ هَذَا الْمُدْخَلَ وَالْمَخْرَجَ مِنْ أَجْلِ مَدَاخِلِهِ وَمَخَارِجِهِ ﷺ، وَإِلَّا فَمَدَاخِلُهُ وَمَخَارِجُهُ كُلُّهَا مَدَاخِلُ صِدْقٍ، وَمَخَارِجُهُ مَخَارِجُ صِدْقٍ؛ إِذْ هِيَ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ، وَبِأَمْرِهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

وما خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِهِ وَدَخَلَ سُوقَهُ أَوْ مَدْخَلًا آخَرَ إِلَّا بِصِدْقٍ أَوْ بِكَذِبٍ، فَمُخْرَجُ كُلِّ وَاحِدٍ وَمَدْخَلُهُ لَا يَعْدُو الصَّدَقَ وَالْكَذِبَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ»^(١). اهـ.

كما تَضَمَّنَ هَذَا الدُّعَاءُ الْعَظِيمُ سُؤَالَ اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾.

قَالَ قِتَادَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ عَلِمَ أَنَّ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ، وَلِحُدُودِ اللَّهِ، وَلِفَرَائِضِ اللَّهِ، وَلِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، وَإِنَّ السُّلْطَانَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ جَعَلَهَا بَيْنَ أَظْهَرِ عِبَادِهِ، لَوْلَا ذَلِكَ لَأَغَارَ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَأَكَلَ شَدِيدُهُمْ ضَعِيفَهُمْ»^(٢).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سُلْطَانًا نَصِيرًا: حُجَّةً بَيِّنَةً»^(٣).

وَرَجَّحَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ وَالْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ قَوْلَ قِتَادَةَ فِي الْمُرَادِ بِسُؤَالِهِ السُّلْطَانَ النَّصِيرَ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنَّهُ لَا بَدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ قَهْرٍ لِمَنْ عَادَاهُ وَنَاوَاهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَزْعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزْعُ بِالْقُرْآنِ»^(٤)؛ أَيْ: لَيَمْنَعُ بِالسُّلْطَانِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْآثَامِ مَا لَا يَمْتَنَعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْأَكِيدِ، وَالتَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ؛ وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ»^(٥). اهـ.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٠ - ٢٧١). (٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٩/ ١٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٩/ ١٥).

(٤) أخرج نحوه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٠٨)، عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْقُوفًا، وَإِسْنَادُهُ تَالِفٌ: فِيهِ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ، وَهُوَ كَذَّابٌ مَتْرُوكٌ، وَأَخْرَجَ مَعْنَاهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التمهيد» (١/ ١١٨)، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِسْنَادُهُ مُعْضَلٌ.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٠٩).

وخلاصة هذا الدعاء: أنه سؤالُ الله تعالى بأن يجعله على الحقِّ الثابت في جميع أحواله في مُدْخِلِهِ ومُخْرَجِهِ، وأن يجعلَ له سلطاناً وقوةً ينصُرُ به الحقَّ ويُظْهِرُهُ على كلِّ مَنْ خالفه.

* ومن المواضع التي فيها أمرُهُ ﷺ بالدعاء: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤].

وهذا أمرٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يسألَ رَبَّهُ، ويتوجَّهَ إليه بأن يوفِّقه للصوابِ والرَّشْد؛ فيقول: ﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾؛ أي: يُثَبِّتني على طريقٍ هو أقربُ إليه وأرشدُ.

قال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «فأمرُهُ أن يدعُو الله ويرجُوهُ ويثقَ به أن يَهْدِيَهُ لأقربِ الطرقِ الموصِّلةِ إلى الرَّشْد، وحرِيٌّ بعيدٌ تكونُ هذه حالُهُ، ثم يَبْذُلُ جُهدَهُ وَيَسْتَفْرِغُ وُسْعَهُ في طلبِ الهدى والرَّشْد أن يُوَفَّقَ لذلك، وأن تَأْتِيَهُ المعونةُ من رَبِّهِ، وأن يُسَدِّدَ في جميعِ أموره»^(١). اهـ.



دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ
(٣)

* وَمِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي أَمَرَ فِيهَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ بِدُعَاءِ اللَّهِ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤].

قال الإمام الطبري رحمه الله : «يقول تعالى ذكره : وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ : رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا إِلَى مَا عَلَّمْتَنِي ، أَمْرُهُ بِمَسْأَلَتِهِ مِنْ فَوَائِدِ الْعِلْمِ مَا لَا يَعْلَمُ»^(١).

وقال العلامة ابن سَعْدِي رحمه الله : «أَمْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَسْأَلَ زِيَادَةَ الْعِلْمِ ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ خَيْرٌ ، وَكَثْرَةُ الْخَيْرِ مَطْلُوبَةٌ ، وَهِيَ مِنَ اللَّهِ ، وَالطَّرِيقُ إِلَيْهَا : الْجِتْهَادُ ، وَالشَّوْقُ لِلْعِلْمِ ، وَسَوْأَلُ اللَّهِ ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ ، وَالِافْتِقَارُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ»^(٢).
وقد ثبت في السُّنَّةِ عَنَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا الدُّعَاءِ .

ففي الترمذي ، وابن ماجه ، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (اللَّهُمَّ ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي ، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي ، وَزِدْنِي عِلْمًا)^(٣).

قال سفيان بن عُيَيْنَةَ رحمه الله : «وَلَمْ يَزَلْ ﷺ فِي زِيَادَةٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ وَجَلَّ»^(٤).
وكذلك لم يزل السلف الصالح رحمهم الله على عناية بهذه الدعوة ؛ وَمِمَّا ورد في ذلك : ما رواه سعيد بن منصور ، وعبد بن حُمَيْدٍ ، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو : (اللَّهُمَّ زِدْنِي إِيمَانًا وَفَقْهًا ، وَيَقِينًا وَعِلْمًا)^(٥).

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ ، قَالَ : كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ

(١) «تفسير الطبري» (١٦/١٨١) . (٢) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٥٩٩) .

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩٩) ، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٥١ و ٣٨٣٣) ، وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْمِذِيِّ» (٣/٤٧٦) .

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/٣١٢) . (٥) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦٠٢) .

إِيمَانًا دَائِمًا، وَعِلْمًا نَافِعًا، وَهَدْيًا قَيِّمًا. قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَتَرَى أَنَّ مِنَ الْإِيمَانِ إِيمَانًا لَيْسَ بِدَائِمٍ، وَمِنَ الْعِلْمِ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ، وَمِنَ الْهَدْيِ هَدْيٌ لَيْسَ بِقَيِّمٍ»^(١).

وَيُرَوَّى عَنِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ شَأْنِ ابْنِ آدَمَ أَلَّا يَعْلَمَ كُلَّ شَيْءٍ، وَمِنْ شَأْنِ ابْنِ آدَمَ أَنْ يَعْلَمَ ثُمَّ يَنْسَى، وَمِنْ شَأْنِ ابْنِ آدَمَ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ عِلْمًا إِلَى عِلْمِهِ»^(٢).

* ومن المواضع التي أَمَرَ اللَّهُ فِيهَا نَبِيَّهٖ ﷺ بالدعاء: قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿المؤمنون﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ عِنْدَ حُلُولِ النَّقَمِ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿المؤمنون﴾»^(٣).

ومعنى هذا الدعاء: أَي: يَا رَبِّ، إِنَّ أُرَيْتَنِي مَا يُوعَدُونَ مِنَ الْعَذَابِ، بَأَن تُنَزِّلَهُ بِهِمْ وَأَنَا حَاضِرٌ شَاهِدٌ ذَلِكَ، يَا رَبِّ، فَلَا تَجْعَلْنِي فِي جَمَلَةِ الظَّالِمِينَ الْمُعَذَّبِينَ، بَلْ أَخْرِجْنِي مِنْهُمْ وَنَجِّنِي مِنْ عَذَابِهِمْ.

«قال أهل التفسير: وهذا دليل على أنه يجوز للعبد أن يسأل الله تعالى ما هو كائن لا محالة»^(٤).

وبيان ذلك: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجْعَلُهُ فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ إِذَا نَزَلَ بِهِم الْعَذَابُ، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ لَا يُنَزِّلُ بِهِم الْعَذَابَ وَهُوَ فِيهِمْ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وَمَعَ هَذَا أَمَرَ الرَّبُّ تَعَالَى نَبِيَّهٖ ﷺ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَالسُّؤَالِ لِيُعْظَمَ أَجْرُهُ، وَلِيَكُونَ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ ذَاكِرًا لِرَبِّهِ، مُلْتَجئًا إِلَيْهِ، لَا تُذًا بِجَنَابِهِ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ: قَوْلُهُ ﷺ فِي دُعَائِهِ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ،

(١) «الإيمان» لابن أبي شيبة (ص ٤١).

(٢) ذكره أبو المظفر السمعاني في «تفسيره» (٣/٣٥٨).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/٤٨٥). (٤) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٣/٤٨٨).

وَنَزَكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ^(١)؛ وله نظائر كثيرة.

* ومن المواضع أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿[المؤمنون].

وهذا أمرٌ مِنَ اللَّهِ تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ بالاستعاذة مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمِنْ شُرُورِهِمْ؛ لأنهم لا تنفع معهم الحِيل، ولا ينقادون بالمعروف؛ فالنَجَاةُ منهم بالاستعاذة بالله تعالى.

وقوله: ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾؛ أي: أَعْتَصِمُ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، مُتَبَرِّئًا مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي، لِكَيْ تَقَيِّمَنِي مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَالْهَمَزَاتُ: جَمْعُ هَمْزَةٍ، كَتَمَرَاتٍ وَتَمَرَةٍ، وَأَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ: الدَّفْعُ وَالنَّخْسُ.

وُفْسِّرَتْ هَمَزَاتُ الشَّيَاطِينِ: بِنَفْخِهِمْ وَنَفْثِهِمْ، وَفُسِّرَتْ: بِخَنْقِهِمْ، وَهُوَ الْمَوْتَةُ الَّتِي تَشْبهُ الْجُنُونَ، وَفُسِّرَتْ: بِنَزَاعَتِهِمْ وَوَسَاوِسِهِمْ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَهَمَزَاتُ الشَّيَاطِينِ: دَفْعُهُمُ الْوَسَاوِسَ وَالْإِغْوَاءَ إِلَى الْقَلْبِ».

قال: «وقد يقال - وهو الأظهر -: إِنَّ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ إِذَا أُفْرِدَتْ دَخَلَ فِيهَا جَمِيعُ إِصَابَتِهِمْ لِابْنِ آدَمَ، وَإِذَا قُرِنَتْ بِالنَّفْخِ وَالنَّفْثِ كَانَتْ نَوْعًا خَاصًّا؛ كَنَظَائِرِ ذَلِكَ»^(٢).

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾، قال العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيُّ: أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَصِيبُنِي بِسَبَبِ مَبَاشَرَتِهِمْ وَهَمْزِهِمْ وَمَسِّهِمْ، وَمِنْ الشَّرِّ الَّذِي يَصِيبُنِي بِسَبَبِ حُضُورِهِمْ وَوَسْوَستِهِمْ، وَهَذِهِ اسْتِعَاذَةٌ مِنْ مَادَّةِ الشَّرِّ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٣/٥)، والترمذي رقم (٣٢٣٣)، من حديث ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ» (٣١٧/٣).

(٢) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١٥٤/١ - ١٥٥).

كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير^(١).

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله: «والظاهر في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾: أَنَّ المعنى: أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَحْضُرَنِي الشَّيْطَانُ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِي كَأَنَّا مَا كَانَ، سِوَاءَ كَانَ ذَلِكَ وَقْتَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أَوْ عِنْدَ حَضُورِ الْمَوْتِ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الشُّؤُونِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ»^(٢).

وقد ثبت في الحديث أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ بَعْدَ دَعَاءِ الْاسْتِفْتَاكِ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ)؛ رواه الترمذي^(٣).

وثبت في الحديث أيضًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ نَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَزَعِ: (بِاسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ)»؛ رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي^(٤).

والأحاديث الواردة في التَعَوُّذِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ كثيرة؛ أعاذنا الله منه، ومن همزه ونفخه ونفثه.



(١) «تفسير ابن سعدي» (ص ٦٥٣).

(٢) «أضواء البيان» (٨١٩/٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٣/٥)، وأبو داود رقم (٧٧٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٤٢)، وابن ماجه رقم (٨٠٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٤٩/١).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٥٥٧).

دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

(٤)

* ومن المواضع التي أَمَرَ اللهُ فيها نبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ بالدعاء: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ إلى هذا الدعاء»^(١).

وهو دعاءٌ متضمَّنٌ للاستغفارِ والاسترحامِ مِنَ الرَّبِّ الغفورِ الرحيمِ.

فقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ استغفارٌ، وهو طَلَبُ العَفْرِ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فالْعَفْرُ - إذا أُطْلِقَ - معناه: محوُ الذنبِ وسِتْرُهُ عن الناس»^(٢).

وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «وقل - يا مُحَمَّد - : رَبِّ اسْتُرْ عَلَيَّ ذُنُوبِي بِعَفْوِكَ عنها»^(٣).

وقوله: ﴿وَارْحَمْ﴾: استرحمٌ، وهو طَلَبُ الرَّحْمَةِ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وَالرَّحْمَةُ معناها: أَنْ يُسَدِّدَهُ وَيُوفِّقَهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ»^(٤).

وقال العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «وَارْحَمْنَا لِتُوصِلَنَا بِرَحْمَتِكَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ»^(٥).

وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾؛ أي: وأنت - يا رَبِّ - خيرٌ مَنْ رَحِمَ عَبْدَهُ، فقبلَ توبته، وغَفَرَ ذنبه، وتركَ عقوبته، وأوصلَهُ إلى كُلِّ خيرٍ، وكلُّ

(١)(٢)(٤) «تفسير ابن كثير» (٤٩٥/٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧/١٣٥).

(٥) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٦٥٦).

راحم للعبدِ فاللهُ خيرٌ له منه، وأرحمُ بعبدهِ مِنَ الوالدةِ بولدها، وأرحمُ به مِنَ نَفْسِهِ.

وقد ختمَ الدعاءَ بهذا توسلاً به إلى الربِّ تعالى بكمالِ رحمتهِ، وكثرتها، وعمومها، وهو مناسبٌ للاستغفارِ والاسترحامِ، فهو مِنَ أحبِّ الوسائلِ إلى الله تعالى؛ لأنه ثناءٌ عليه سبحانه بما هو أهلٌ له مِنَ الأسماءِ الحسنى، والصفاتِ الحميدة.

ولهذا الدعاءُ المباركِ نظائرٌ عديدةٌ في السُّنَّةِ يَجْمَعُ فيها ﷺ بين الاستغفارِ والاسترحامِ، وهو مِنَ كمالِ استجابتهِ ﷺ لأمرِ الله ﷻ؛ وَمِنْ ذَلِكَ: ما رواه البخاري ومسلم، عن أبي بكر الصِّديقِ رضي الله عنه، أنه قال للنبيِّ ﷺ: «عَلَّمَنِي دُعَاءَ أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟ قَالَ: (قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)»^(١).

* ومن المواضع التي أَمَرَ اللهُ فيها نبيَّه محمداً ﷺ بالدعاء: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

وهذا أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ بأنَّ يُسَبِّحَ بحمدِ ربِّه ويستغفره، وقد جاء هذا الأمرُ بعدَ بَشَارَةِ النبيِّ ﷺ بنصرِ اللهِ تعالى وفتحِ مَكَّةَ، ودخولِ الناسِ في دينِ الله أفواجا؛ ولهذا فَهِمَ طائفةٌ مِنَ الصحابةِ رضي الله عنهم أَنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَ بالتسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ شكراً لله تعالى على هذه النِّعَمِ التي بُشِّرَ بها، وَفَهِمَ بعضُ الصحابةِ - كعُمَرَ، وابنِ عَبَّاسٍ - أَنَّ مَجِيءَ نصرِ اللهِ والفتحِ ودخولِ الناسِ في الدِّينِ أفواجا علامةٌ على اقترابِ أجلِ رسولِ اللهِ ﷺ، وانقضاءِ عُمره، وَأَنَّ اللهُ تعالى أَمَرَهُ بالتسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ لِيَخْتِمَ عَمَلُهُ بذلك، وَيَتَهَيَّأَ للقاءِ رَبِّهِ والقدومِ عليه على أكملِ أحواله وأتمِّها.

وقد كان النبيُّ ﷺ يُكثِرُ مِنَ التسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ بعدَ نزولِ هذه

السورة؛ كما في الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ من قول: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)، قالت: فقلت: يا رسول الله، أَرَأَيْكَ تُكثِرُ مِنْ قَوْلٍ: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)؟ فقال: (خَبَرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا، أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ - فَتَحَ مَكَّةَ - ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر]»؛ رواه مسلم^(١).

وفي رواية أخرى عنها رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)؛ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»؛ رواه البخاري ومسلم^(٢).

ومعنى قولها: «يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»؛ أي: يَفْعَلُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ؛ تعني: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وبعد، فهذه الآيات القرآنية المتقدم ذكرها كانت عَرْضًا لجملة طيبة من الأدعية المباركة التي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُوَ بِهَا رَبَّهُ، وَيَبْتَهِلَ إِلَيْهِ ثَنَاءً عَلَيْهِ، وَسُؤَالًا لِمَصَالِحِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقد امْتَثَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْامَرَ رَبَّهُ تَعَالَى، وَعَمِلَ بِتَوْجِيهَاتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ؛ فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَكْثَرَ النَّاسِ دُعَاءً، وَأَحْسَنَهُمْ ثَنَاءً، وَأَرْغَبَهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَأَرْهَبَهُمْ مِنْهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، بَلْ فَاقَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ فِي دُعَاءِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِالْكَلِمَاتِ الْجَامِعَةِ، الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ.

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٨٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٤٤).

فهو ﷺ لم يَتْرُكْ خَصْلَةً مِنْ الْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ، وَلَا خَلَّةً مِنْ الْخِلَالِ الرُّشِيدَةِ، إِلَّا طَلَبَهَا مِنْ اللَّهِ، وَلَا خَصْلَةً مِنْ الْخِصَالِ السَّيِّئَةِ، وَلَا صِفَةً مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، إِلَّا اسْتَعَاذَ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهَا إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَكَمَالِ التَّذَلُّلِ، وَتَمَامِ الْخُضُوعِ وَالْانْكَسَارِ.

فَكَانَ هَدْيُهُ ﷺ أَكْمَلَ الْهَدْيِ وَأَسْنَاهُ، وَنَهْجُهُ أَتَمَّ النَّهْجِ وَأَسَدَّهُ وَأَوْفَاهُ؛ فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ، وَرَزَقَنَا اللَّهُ حُسْنَ الْإِتْبَاعِ لِمَنْهَجِهِ وَالْإِقْتِفَاءِ لِأَثَرِهِ.



دَعَاؤُ الْمُؤْمِنِينَ (١)

لقد ذَكَرَ اللهُ في كتابِهِ المَجِيدِ دَعَاوَاتٍ وَصَفَ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِهَا، وَحَكَّى عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ كَلِمَاتٍ دَعَاؤُا اللهُ تَعَالَى بِهَا فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ وَالْمُنَاسِبَاتِ، حَسَنَةً فِي مَبْنَاهَا، وَعَظِيمَةً فِي مَدْلُولِهَا وَمَعْنَاهَا.

وَحَرِيٌّ بِالْعَبْدِ الْمُسْلِمِ أَنْ يُغْنَى بِهَا وَيَتَأَمَّلَهَا وَيَتَدَبَّرَهَا، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى حِفْظِهَا وَدَعَاءِ اللهِ بِهَا، كُلُّ مَنْهَا فِي مَقَامِهِ وَمُنَاسِبَتِهِ؛ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ إِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ وَحَكَاهَا فِيهِ لِيَتَدَبَّرَهَا عِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَلِيَأْخُذُوا بِهَا.

وَفِيمَا يَلِي عَرْضُ لَطَائِفِ مَبَارَكَةٍ مِنْ هَذِهِ الدَّعَاوَاتِ، مَعَ وَقَفَاتٍ يَسِيرَةٍ مَعَ بَعْضِ مَعَانِيهَا وَفَوَائِدِهَا:

* فَمَنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وَهَذَا الدَّعَاءُ الْعَظِيمُ قَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ عَنْ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، مِمَّنْ حَجَّ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ ﷻ بِهَذَا الدَّعَاءِ، عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ لَهُمُ وَالثَنَاءِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا فِي دَعَائِهِمْ بَيْنَ مَصْلَحَةِ الدَّارَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَقُولُهُمْ: ﴿رَبَّنَا﴾: نِدَاءٌ فِيهِ إِقْرَارٌ بِالرَّبُوبِيَّةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِتَوْحِيدِهِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ، وَاعْتِقَادُ كَمَالِهِ وَجَلَالِهِ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ.

وَقُولُهُمْ: ﴿آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: دَعَاءٌ بِخَيْرِ الدُّنْيَا كُلِّهِ؛ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ الْمَطْلُوبَةَ فِي الدُّنْيَا تَشْمَلُ كُلَّ مَطْلُوبٍ دُنْيَوِيٍّ مِمَّا يَحْسُنُ وَقَعُهُ عِنْدَ الْعَبْدِ،

مِنْ عَافِيَةٍ، وَرِزْقٍ هَنِيءٍ وَاسِعٍ حَلَالٍ، وَدَارٍ رَحْبَةٍ، وَزَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، وَوَلَدٍ تَقَرُّ بِهِ الْعَيْنُ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَأَمْنٍ وَرَاحَةٍ، وَثَنَاءٍ جَمِيلٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمَطَالِبِ الْمَحْبُوبَةِ الْمُبَاحَةِ؛ وَهَذَا جَامِعٌ لِمَا أوردَهُ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الْعِبَارَاتِ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

وقولهم: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: وآتانا في الآخرة حَسَنَةً.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ، فَأَعْلَى ذَلِكَ دُخُولُ الْجَنَّةِ، وَتَوَابَعُهُ مِنَ الْأَمَنِ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ فِي الْعَرَصَاتِ، وَتَيْسِيرُ الْحِسَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ الصَّالِحَةِ»^(١).

وقولهم: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ يعني: اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ النَّارِ، وَهَذَا دَعَاءٌ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ وَعَدَمِ الدُّخُولِ فِيهَا، فَهُوَ يَقْتَضِي تَيْسِيرَ أَسْبَابِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ وَالْإِثَامِ، وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ وَالْحَرَامِ.

وَيُعَدُّ هَذَا الدُّعَاءُ الْمُبَارَكُ مِنْ جَوَامِعِ الْأَدْعِيَةِ وَأَشْمَلُهَا لِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَلِهَذَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ بَيَانِ مَكَانَتِهِ، وَالتَّرغِيبُ فِيهِ، وَالْحَثُّ عَلَيْهِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ أَكْثَرُ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: (رَبَّنَا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)». متفق عليه^(٢)، وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي رَوَايَتِهِ: «وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ».

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ - مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ -: (رَبَّنَا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)»^(٣).

وَرَوَى مُسْلِمٌ، فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٣٥٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٨٣٥).

(٣) «سنن أبي داود» رقم (١٨٩٢)، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» (١/٥٢٨).

رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتْ، فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟)، قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ، مَا كُنْتُ مَعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَعَجَّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (سُبْحَانَ اللَّهِ، لَا تُطِيفُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ -، أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؟) قَالَ: فدعا الله له فشفاه^(١).

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، أَنَّ قَوْمًا أَتَوْا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَدْعُوَ لَهُمْ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ إِخْوَانَكَ أَتَوْكَ لِيَدْعُوَ اللَّهَ لَهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»، فَاسْتَزَادُوهُ، فَقَالَ مِثْلَهَا، فَقَالَ: «إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا، فَقَدْ أُوتِيتُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢).

* وَمِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وهذه الآية حكاية لدعاء فِتَّةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - وَهُمْ طَالُوتُ وَجُنُودُهُ - فِي مَقَامِ الْمُؤَاجَهَةِ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ جَالُوتُ وَجُنُودُهُ، وَكَانُوا مُشْرِكِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ عَدَدُهُمْ يَفُوقُ عَدَدَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثِيرٍ؛ وَلِهَذَا تَضَرَّعَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَسْأَلُونَهُ أَسْبَابَ النَّصْرِ عَلَى الْمَشْرِكِينَ فِي هَذَا الْقِتَالِ؛ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾؛ أَي: لَمَّا وَاجَهَ حِزْبُ الْإِيمَانِ - وَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِ طَالُوتَ - لِعَدُوِّهِمْ أَصْحَابِ جَالُوتَ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ، قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ أَي: أَنْزِلْ وَاصْبُبْ عَلَيْنَا صَبْرًا مِنْ عِنْدِكَ، ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾؛ أَي: قَوِّ قُلُوبَنَا عَلَى جِهَادِهِمْ؛ لِتَثَبَّتْ

(١) تقدم تخريجه ص (٣٠٦).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٦٣٣)، وصحَّح إسناده الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٤٩٤).

أَقْدَامَنَا فَلَا نَنْهَزِمُ، وَالْأَقْدَامُ إِنَّمَا تَثْبُتُ عِنْدَ قُوَّةِ الْقُلُوبِ، ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ أَي: اكْتَبِ النُّصْرَ لَنَا عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ أَجَابَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَا سَأَلُوا، وَأَنَالَهُمْ مَا إِلَيْهِ فِيهِ رَغَبُوا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أَي: غَلَبُوهُمْ وَقَهَرُوهُمْ بِحَوْلِ اللَّهِ لَا بِحَوْلِهِمْ، وَبِقُوَّةِ اللَّهِ وَنُصْرِهِ، لَا بِقُوَّتِهِمْ وَعَدَدِهِمْ، ﴿وَمَا أَلْتَصَّرُ إِلَّا مَنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الدَّعَاءُ كَمَالَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَمَامَ الْإِلْتِجَاءِ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَّةِ مِنْ حَدِيثِ صُهَيْبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ: (اللَّهُمَّ، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ)؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ^(١). وَهُوَ تَفْوِضُ إِلَى اللَّهِ وَاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي بِيَدِهِ أَرْزَمَةُ الْأُمُورِ وَمُقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.



(١) تقدم تخريجه (ص ٦٤٧).

دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢)

* إِنَّ مِنْ دَعَوَاتِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ الْعَظِيمَةِ: مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي خَوَاتِيمِ «سُورَةِ الْبَقَرَةِ»؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة].

فهذا دعاء عظيم أخبر الله تعالى به عَنْ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَأَتْنَى تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِهَذَا الدُّعَاءِ الَّذِي سَأَلُوا فِيهِ مَصَالِحَ الدِّينِ وَالْآخِرَةِ.

فَقُولُهُ: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾: إِنْخِبَارٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ شَهَادَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِيمَانِهِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ إِعْطَاءَهُ ثَوَابَ أَكْمَلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، زِيَادَةً عَلَى ثَوَابِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبَوَّةِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ شَارَكَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيمَانِ، وَنَالَ مِنْهُ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ، وَامْتَازَ عَنْهُمْ بِالرِّسَالَةِ وَالنَّبَوَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: عَطْفٌ عَلَى: ﴿الرَّسُولُ﴾، وَهُوَ شَهَادَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا آمَنَ بِهِ رَسُولُهُمْ ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾: شَهَادَةٌ لَهُمْ جَمِيعًا بِالْإِيمَانِ بِالْقَوَاعِدِ الْخَمْسَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ أَحَدٌ مُؤْمِنًا إِلَّا بِهَا؛ وَهِيَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وقوله: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾: حكاية عن أهل الإيمان أنهم يقولون هذا؛ أي: إنهم لا يفرِّقون بين أحدٍ من رُسُلِ الله تعالى، فيؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض، بل يؤمنون بجميعهم، وإن كان بعض الرسل ينسخُ شريعة بعضِ بآذنِ الله، حتى نُسَخَ الجميعُ بشريعة محمدٍ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعةُ على شريعته، ولا تزال طائفةٌ من أُمته على الحقِّ ظاهرين إلى قيامها، فباينوا بهذا الإيمان جميع طوائف الكفارِ المكذِّبينَ لجنسِ الرسل، والمصدِّقين لبعضهم، المكذِّبين لبعض، والكفرُ بنبيٍّ واحدٍ كفرٌ بجميع النبين.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا قولَكَ - يا ربَّنَا - وفهمناه وقمنا به، وامتلنا العمل بمقتضاه.

وهذا إقرارٌ منهم بِرُكْنِي الإيمانِ اللَّذِينَ لا يقومُ إلَّا بهما، وهما: السمعُ: المتضمَّنُ للقبُولِ والتسليم، والطاعة: المتضمَّنة لكمالِ الانقيادِ وامثالِ الأمر.

ثم قالوا: ﴿غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾؛ لأنَّهم عَلِمُوا أنهم لن يُوقُوا مقامَ الإيمانِ حقَّه مع القَبُولِ والطاعةِ الذي يقتضيه منهم، وأنهم لا بدَّ أن تَمِيلَ بهم غَلَبَاتُ الطباع، ودواعي البشرية إلى بعضِ التقصيرِ في واجباتِ الإيمان، وأنه لا يَلُمُّ شَعَثَ ذلك إلَّا مغفرةُ الله تعالى لهم، فسألوه غفرانَهُ الذي هو غايةُ سعادتهم، ونهايةُ كمالهم؛ فقالوا: ﴿غُفْرَانُكَ رَبَّنَا﴾، ثم اعترفوا أنَّ مصيرهم ومردَّهم إلى مولاَهُم الحقِّ الذي لا بُدَّ لهم مِنَ الرجوعِ إليه؛ فقالوا: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

فَتَضَمَّنَتْ هذه الكلماتُ إيمانَهُم به، ودُخُولَهُمْ تحتَ طاعتهِ وعبودِيَّته، واعترافَهُمْ بربوبيَّته، واضطرارَهُمْ إلى مغفرته، واعترافَهُمْ بالتقصيرِ في حقِّه، وإقرارَهُمْ برجوعِهِمْ إلى يومِ الحساب.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: لا يكلفُ الله أحداً فوقَ طاقته، بل جميع ما كَلَّفَ عبادهُ به أمراً ونهياً، فهم مطيقون له،

قادرون عليه؛ وهذا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ. وقوله تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾؛ أَي: لِلنَّفْسِ مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ مِنْ شَرٍّ؛ وَذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَحْتَ التَّكْلِيفِ. وفي هذا بَيَانٌ أَنَّ ثَمَرَةَ التَّكْلِيفِ وَغَايَتُهُ عَائِدَةٌ عَلَى الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَتَعَالَى عَنْ انْتِفَاعِهِ بِكَسْبِهِمْ، وَتَضَرُّرِهِ بِاِكْتِسَابِهِمْ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيسِيِّ: (يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي)^(١)، بَلْ لَهُمْ كَسْبُهُمْ وَنَفْعُهُ، وَعَلَيْهِمْ اِكْتِسَابُهُمْ وَضَرَرُهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَهْتَدَى فَأَنْتَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأَنْتَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٥]، فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ تَعَالَى بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ حَاجَةً مِنْهُ إِلَيْهِمْ، بَلْ رَحْمَةً وَإِحْسَانًا وَتَكْرُمًا، وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ إِلَّا حَمِيَّةً لَهُمْ، وَحِفْظًا وَصِيَانَةً وَعَافِيَةً.

وقوله تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مَا كُتِبَ بِهِ عِبَادُهُ عَهْدٌ وَوَصَايَا تَجِبُ مَرَاعَاتُهَا، وَالْمَحَافِظَةُ عَلَيْهَا، وَعَدَمُ الْإِخْلَالِ بِشَيْءٍ مِنْهَا، لَكِنَّ غَلَبَاتِ الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ تَأْبَى إِلَّا النِّسْيَانَ وَالْخَطَأَ، وَالضَّعْفَ وَالتَّقْصِيرَ، فَكَانَ فِي هَذَا الدُّعَاءِ سُؤَالُ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ مَسَامَحَتَهُ إِيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَرَفْعَ مُوجِبِهِ عَنْهُمْ. وفي الحديث عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ)؛ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ^(٢).

وهذا مِنْ عَظِيمِ مَنَّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَوَاسِعِ فَضْلِهِ أَنْ تَجَاوَزَ عَنْ عِبَادِهِ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ قَبِيلِ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْإِكْرَاهِ؛ فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَلَهُ الشُّكْرُ سَبْحَانَهُ عَلَى مَنِّهِ وَإِكْرَامِهِ.



(١) تقدم تخريجه (ص ١٠٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (١٦٧٧).

دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَاتَمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٣)

نُكْمِلُ هُنَا مَا بَقِيَ مِنْ كَلَامٍ عَلَى مَعَانِي الدَّعَوَاتِ الْمُبَارَكَةِ الْوَارِدَةِ فِي خَاتَمَةِ «سُورَةِ الْبَقَرَةِ»، كَمَا نَتَنَاوَلُ ذَكَرَ بَعْضِ الْفَضَائِلِ لِلْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ خُتِمَتْ بِهِمَا السُّورَةُ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ أي: لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ وَإِنْ أَطَقْنَاهَا، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَّمِ السَّابِقَةِ قَبْلَنَا مِنَ الْأَغْلَالِ وَالْأَصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.

وهذا سؤالٌ لِلتَّخْفِيفِ فِي أَمْرِهِ تَعَالَى وَنَهْيِهِ، وَقَدْ بُعِثَ بِذَلِكَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِذُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ: (إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ)؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ، مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (١).

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾: سؤالٌ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَالْمَصَائِبِ وَالْبَلَاءِ؛ أَي: لَا تَبْتَلِنَا بِمَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا

(١) «مسند أحمد» (١١٦/٦)، وَحَسَنُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (١٠٢٤/٦).

علموا أنهم غيرُ منفكين عمّا يأمرهم به وينهاهم عنه، سألوه التخفيفَ في قضائِهِ وَقَدَرِهِ، كما سألوه التخفيفَ في أمرِهِ ونهيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾؛ أي: اعفُ عنا فيما بيننا وبينك مما تَعَلَّمَهُ مِنْ تقصيرنا وزَلَلِنَا، واغفر لنا فيما بيننا وبين عبادك، فلا تُظْهِرْهُمْ على مساوينا وأعمالنا القبيحة، وارْحَمْنَا فيما يُسْتَقْبَلُ؛ بأنْ لَا نَقَعَ في ذنوبٍ أُخَرَ؛ ولهذا يقال: إِنَّ المذنبَ محتاجٌ إلى ثلاثة أشياء: أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عنه فيما بينه وبينه، وَأَنْ يَسْتُرَهُ عن عبادِهِ فلا يَفْضَحَهُ به بينهم، وَأَنْ يُسَلِّمَهُ فيما بَقِيَ، فلا يَقَعَ في نظيره.

وهذه الثلاثةُ التي تَضَمَّنَهَا هذا الدعاءُ؛ وهي: العَفْوُ، والمَغْفِرَةُ، والرحمةُ، هي مدارُ سعادةِ العبدِ وفلاحه، فالعَفْوُ: مُتَضَمِّنٌ لِإِسْقَاطِ حَقِّ اللهِ تعالى ومسامحتِهِمْ به، والمَغْفِرَةُ: مُتَضَمِّنَةٌ لوقايتهم شرَّ ذنوبهم وإقبالِهِ عليهم ورضاه عنهم، والرحمةُ: مُتَضَمِّنَةٌ لِلأَمْرين، مع زيادةِ الإحسانِ والعطفِ والبرِّ، فالثلاثةُ تَتَضَمَّنُ النجاةَ مِنَ الشرِّ، والفوزَ بالخير.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾؛ أي: أَنْتَ وَلِيُّنا وناصرُنَا، وعليك تَوَكُّلُنَا، وَأَنْتَ المستعان، ولا حولَ ولا قوةَ لنا إِلَّا بِكَ.

وهذا توسُّلٌ باعترافهم أنه سبحانه مولاَهُم الحقُّ الذي لا مَوْلَى لَهُمْ سواه؛ فهو ناصرهم، وهاديهم وكافيهم ومُعِينهم، ومجيبُ دَعَوَاتِهِمْ ومعبودُهُم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: دعاءٌ بالنصرِ على الأعداء؛ وَيَتَضَمَّنُ ذلك قَهْرَهُم لعدوِّهم، وشِفَاءَ صُدُورِهِم منهم، وإذهابَ غِيْظِ قلوبهم، كما يَتَضَمَّنُ التَّمَكُّنَ من إعلانِ عبادةِ ربِّهم، وإظهارِ دينِهِ، وإِعْلَاءِ كلمته.

ثم إنَّ هذه الكلماتِ الواردة في هاتينِ الآيتينِ من آخر «سورة البقرة» هي مِنَ الأدعيةِ العظيمةِ التي خَصَّ اللهُ تعالى بها رسوله مُحَمَّدًا ﷺ وأُمَّتَهُ، كما في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، انْتَهَى

به إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعْرَجُ به مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به مِنْ فوقها، فَيُقْبَضُ منها، قال: ﴿إِذْ يَنْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾، قال: فَرَأْسُ مَنْ ذَهَبَ، قال: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثلاثاً: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُفْحِمَاتُ؛ رواه مسلم^(١).

وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي)؛ رواه أحمد^(٢).

وعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «بينما جبريلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: (هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يَفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ)»؛ رواه مسلم^(٣).

وعن ابن عَبَّاسٍ أَيْضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا)، قال: فَالْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: قَدْ فَعَلْتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ قال: قَدْ فَعَلْتُ؛ رواه مسلم^(٤)، وَرَوَى نَحْوَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥).

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٧٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٥٣١).

(٤) «صحيح مسلم» رقم (١٢٦).

(٥) «صحيح مسلم» رقم (١٢٥).

وعن أبي مسعود البَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ، كَفَّتَاهُ)؛ رواه البخاري ومسلم^(١).
 فهذا بعض ما وردَ في فضلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، وهو دالٌّ على عِظَمِ شَأْنِهِمَا، وَجَلَالَةِ قَدْرِهِمَا، وَعَظِيمِ مَنْ اللَّهِ بِهِمَا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ.



(١) تقدم تخريجه (ص ٥٢٩).

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٤)

* وَمِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُ لَكَ أُمُ الْكِتَابِ وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد أخبر الله تعالى في هذه الآيات عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

قال الإمام الطبري رحمته الله: «يعني بذلك - جل ثناؤه -: أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بما تشابه من آي كتاب الله، وأنه هو والمُحْكَم من آيه من تنزيل ربنا ووحيه، ويقولون أيضاً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؛ يعني: أنهم يقولون - رغبة منهم إلى ربهم في أن يَصْرِفَ عنهم ما ابْتَلَى به الذين زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ مُتَشَابِهِ آيِ الْقُرْآنِ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، الذي لا يَعْلَمُهُ غَيْرُ اللَّهِ -: يَا رَبَّنَا، لَا تَجْعَلْنَا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْحَقِّ، فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، ﴿لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا﴾: لَا تَمِلْهَا فَتَصْرِفْهَا عَنْ هَذَا، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ له، فَوَفَّقْنَا لِلْإِيمَانِ بِمُحْكَمِ كِتَابِكَ وَمُتَشَابِهِهِ، ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ يَا رَبَّنَا ﴿مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾؛ يعني: مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً؛ يعني بذلك: هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ تَوْفِيقًا وَثَبَاتًا لِلَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِمُحْكَمِ كِتَابِكَ وَمُتَشَابِهِهِ، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾؛ يعني: إِنَّكَ أَنْتَ الْمُعْطِي عِبَادَكَ التَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ لِلثَّبَاتِ عَلَى دِينِكَ، وَتَصْدِيقَ

كتابك ورُسُلك»^(١)؛ وهي دعوةٌ عظيمةٌ مباركة.

وفي الحديث عن أم سلمةَ أم المؤمنين رضي الله عنها: «أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُكثِرُ في دعائه أن يقول: (اللَّهُمَّ، مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)، قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، أَوَ إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قال: (نَعَمْ، مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ؛ فَإِنْ شَاءَ اللهُ ﻻ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ)»؛ رواه أحمد^(٢).

فنسأل الله ربَّنَا أنْ لَا يُزِيعَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، ونسأله أنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)، ثم قال رسولُ الله ﷺ: (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)؛ رواه مسلم^(٣).

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْعِمَادَ﴾: حكايةٌ لِمَا يَقُولُهُ الراسخون في العلم، مَعَ دعائهم السابق.

قال الإمام الطبري رحمته الله: «وهذا مِنَ الكلام الذي استغنى بذكر ما ذَكَرَ مِنْهُ عما تُرِكَ ذِكْرُهُ؛ وذلك أَنَّ معنى الكلام: رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَاعْفُ لَنَا يَوْمئِذٍ، وَاغْفُ عَنَّا؛ فَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ وَعْدَكَ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِكَ، وَاتَّبَعَ رَسُولَكَ، وَعَمِلَ بِالَّذِي أَمَرْتَهُ بِهِ فِي كِتَابِكَ: أَنَّكَ غَافِرُهُ يَوْمئِذٍ.

وإنما هذا مِنَ الْقَوْمِ مَسْأَلُهُ رَبَّهُمْ أَنْ يُثَبِّتَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ نُصْرَتِهِمْ^(٤) بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ تَنْزِيلِهِ، حَتَّى يَقْبِضَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ؛ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ، وَجَبَ لَهُمْ

(١) «تفسير الطبري» (٢٢٧/٥ - ٢٢٨).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٧٩٤).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٥٤).

(٤) كذا في الأصل، ولعلها: حسن بصيرتهم.

الْجَنَّةُ؛ لَأَنَّهُ قَدْ وَعَدَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ أَنَّهُ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ؛ فَلَايَةُ وَإِنْ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الْخَبْرِ، فَإِنَّ تَأْوِيلَهَا مِنَ الْقَوْمِ مَسْأَلَةٌ وَدَعَاءٌ وَرَغْبَةٌ إِلَى رَبِّهِمْ^(١).

وهذا المقام الذي عليه هؤلاء الراسخون في العلم مقامٌ رفيعٌ؛ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ دِينِهِمْ، وَحُسْنِ تَعَبُّدِهِمْ، وَقُوَّةِ صَلَاتِهِمْ بِرَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ، وَتَمَامِ التَّجَائِبِ إِلَيْهِ، وَتَذَلُّلِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ الثَّبَاتَ عَلَى دِينِهِ الْقَوِيمِ، وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

وقد انتَظَمَ هذا السياقُ الكريمُ ذِكْرَ جَمَلَةٍ مِنَ الْخِصَالِ الطَّيِّبَةِ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ لَهُؤُلَاءِ؛ ثَنَاءً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانًا لِعَظِيمِ قَدْرِهِمْ، وَرَفِيعِ مَقَامِهِمْ.

قال العلامة عبد الرحمن بن سَعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفاتٍ هي عنوانُ سعادة العبد: إحداهما: العلمُ الذي هو الطريقُ الموصِلُ إلى الله، المبيِّنُ لأحكامِهِ وشرائعه.

الثانية: الرسوخُ في العلم، وهذا قَدْرٌ زائدٌ على مجردِ العلم؛ فَإِنَّ الراسخَ في العلم يقتضي أن يكونَ عالمًا محققًا، وعارفًا مدققًا، قد عَلَّمَهُ اللَّهُ ظَاهِرَ الْعِلْمِ وَبَاطِنَهُ، فَسَخَّ قَدَمُهُ فِي أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ، عِلْمًا وَحَالًا وَعَمَلًا.

الثالثة: أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِجَمِيعِ كِتَابِهِ، وَرَدَّ لِمُتَشَابِهِهِ إِلَى مُحْكَمِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

الرابعة: أَنَّهُمْ سَأَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ الزَّائِعُونَ الْمُتَحَرِّفُونَ.

الخامسة: اعترافُهُمْ بِمِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْهُدَايَةِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

السادسة: أنهم - مع هذا - سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير،
واندفاع كل شرّ، وتوسّلوا إليه باسمه الوهاب.

السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة، وخوفهم منه،
وهذا هو الواجب للعمل، الرادع عن الزلل^(١).

فقوم هذه حليّتهم ونعوتهم يجدر بكلّ موفق أن يحرص على التحلي بها،
وأن يدعوا بهذه الدعوات المباركة، والسؤالات العظيمة.



(١) «تفسير ابن سعدي» (ص ١٢٧).

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٥)

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْعَظِيمَةِ: مَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ فِي صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: «يَصِفُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ؛ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا﴾؛ أَيُّ: بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ أَيُّ: بِإِيمَانِنَا بِكَ وَبِمَا شَرَعْتَهُ لَنَا، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَتَقْصِرْنَا مِنْ أَمْرِنَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ، ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾»^(١).
وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ ﷻ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّ ذَلِكَ وَسِيلَةٌ عَظِيمَةٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ لِقَبُولِ الدَّعَاءِ.

وَقَدْ نَقَلَ الْقَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»، عَنْ الْحَاكِمِ، أَنَّهُ قَالَ: «فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلدَّاعِي أَنْ يَذْكُرَ طَاعَتَهُ وَمَا تَقَرَّبَ بِهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ يَدْعُو». قَالَ الْقَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي «الصَّحِيحِينَ»^(٢)، مِنْ حَدِيثِ أَصْحَابِ الْغَارِ، وَتَوَسُّلِ كُلِّ مِنْهُمْ بِصَالِحِ عَمَلِهِ، ثُمَّ تَفْرِيجِ الْبَارِي تَعَالَى عَنْهُمْ»^(٣).

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: دَعْوَةُ الْحَوَارِيِّينَ أَنْصَارِ اللَّهِ وَأَنْصَارِ دِينِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامِنَا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ٥٢ رَبَّنَا ءَامِنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ٥٣ [آل عمران].

(٢) تقدم تخريجه ص (٣٢٢).

(١) «تفسير ابن كثير» (١٧/٢).

(٣) «تفسير القاسمي» (٨٠٧/٤ - ٨٠٨).

وهذا خبرٌ من الله تعالى عن الحواريين، يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ دعائِهِمْ
لِرَبِّهِمْ ﷻ بقولهم: ﴿رَبَّنَا ءَامِنَا بِمَا أُنْزِلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ﴾.

والحواريُّون: هم حواريُّو المسيح عيسى ابنِ مَرْيَمَ ﷺ، وهم أنصارُهُ
وصَفْوَتُهُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا فِي تَصَدِيقِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ لَهُ.
وَذَكَرُ اللهَ لدَعْوَتِهِمْ فِي مَعْرِضِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، فِيهِ تَنْوِيهٌ بِهَا، وَبَيَانٌ لِعِظَمِ
شَأْنِهَا.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا ءَامِنَا بِمَا أُنْزِلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾؛ أي: يَا رَبَّنَا
صَدَّقْنَا بِكِتَابِكَ الَّذِي أُنْزِلَتْهُ - وهو الإنجيلُ - وأَقْرَرْنَا بِهِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ مُنْزَلٌ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مُشْتَمِلٌ عَلَى بَيَانِ الْحَقِّ، وَهَدَايَةِ الْخَلْقِ، وَاتَّبَعْنَا
رَسُولَكَ الَّذِي بَعَثْتَهُ - وهو عيسى ﷺ - وَصِرْنَا أَتْبَاعَهُ عَلَى دِينِكَ الَّذِي
بَعَثْتَهُ بِهِ، وَأَعَوَانُهُ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ إِلَى عِبَادِكَ. ذَكَرُوا ذَلِكَ بَيْنَ
يَدَيْ دَعَائِهِمْ وَطَلَبِهِمْ، مُتَوَسِّلِينَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ فِي إِجَابَةِ مَا يَطْلُبُونَ، وَتَحْقِيقِ
مَا يَأْمُلُونَ.

وقولهم: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ هذا هو المطلوبُ المَرْجُو؛ أي:
«فَأَثَبْتُ أَسْمَاءَنَا مَعَ أَسْمَاءِ الَّذِينَ شَهِدُوا بِالْحَقِّ، وَأَقْرَأُوا لَكَ بِالتَّوْحِيدِ، وَصَدَّقُوا
رُسُلَكَ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَكَ وَنَهْيَكَ، فَاجْعَلْنَا فِي عِدَادِهِمْ وَمَعَهُمْ، فِيمَا تُكْرِمُهُمْ مِنْ
كَرَامَتِكَ، وَأَجِلْنَا مُحَلَّهِمْ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ كَفَرَ بِكَ، وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِكَ،
وَخَالَفَ أَمْرَكَ وَنَهْيَكَ»^(١)؛ وَاللهُ ﷻ ذَكَرَ ذَلِكَ عَنْهُمْ لِيَتَأَسَّى بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ،
وَيَقْتَدِيَ بِهِمُ الصَّالِحُونَ.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «يُعَرِّفُ خَلْقَهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - بِذَلِكَ سَبِيلَ الَّذِينَ
رَضِيَ أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ؛ لِيَحْتَذُوا طَرِيقَهُمْ، وَيَتَّبِعُوا مِنْهَا جَهْمَ، فَيَصِلُوا إِلَى مِثْلِ
الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ دَرَجَاتِ كَرَامَتِهِ»^(٢).

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٧) فَقَالَهُمُ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران].

وفي هذه الآيات إشادة بالمؤمنين الصادقين الصابرين من أتباع الأنبياء السابقين، وما كانوا عليه من القوة والشجاعة والتحمل لما يصيبهم من أنواع المحن والابتلاءات في سبيل الله، من غير وهن في قلوبهم، ولا ضعف في أبدانهم، ولا استكانة لأعدائهم، بل صبروا وثبتوا.

وما كان لهؤلاء المؤمنين فيما واجهوه من المواقف الصعبة إلا اللجوء إلى ربهم، والتضرع إليه بالدعاء بقولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

فقولهم: ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، معناه - كما يقول الإمام الطبري رحمه الله -: «اغفر لنا ذنوبنا الصغار منها، وما أسرفنا فيه منها، فتخطئنا إلى العظام، وكأن معنى الكلام: اغفر لنا ذنوبنا: الصغائر منها والكبائر»^(١).

وقولهم: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، سبق مثله في الكلام على دعوة طالوت وجنوده في مواجهتهم لجالوت وجنوده، من «سورة البقرة»، وفي الكلام على الآية الأخيرة من السورة نفسها.

والحاصل: أن هؤلاء المؤمنين جمعوا - في هذا الموقف - بين الصبر وترك الوهن والضعف والاستكانة، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم،

(١) «تفسير الطبري» (٦/١٢٠).

الذي منه النصرُ يُسْتَمْنَحُ؛ فاستجابَ اللهُ لدعائهم، وجعلَ لهم العاقبةَ الحميدةَ في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَأَلَنَّهُمْ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ مِنَ النصرِ وَالظَّفَرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْبِلَادِ، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾، وهو النعيمُ المقيمُ في جَنَّةِ الْخُلْدِ.

وكلُّ ذلك جزاءٌ لهم على إحسانهم في عبادة رَبِّهم، وإحسانهم في معاملة خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.



مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٦)

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْعَظِيمَةِ: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ عَنْ أُولِي الْأَلْبَابِ مِنْ عِبَادِهِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران].

فهذه الآيات وَصَفَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُمْ ذُووِ الْعُقُولِ النَّامَةِ الذَّكِيَّةِ الَّتِي تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَىٰ جَلِيَّاتِهَا، وَلَيْسُوا كَالصُّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف]؛ وَلِهَذَا خَصَّ سُبْحَانَهُ أُولِي الْأَلْبَابِ بِالتَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ أَي: هَذِهِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَجَائِبِ الْمَشَاهِدَةِ، وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ عَلَىٰ عَظَمَةِ الْخَالِقِ ﷻ، وَجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، وَكَذَلِكَ مَا فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ أَي: تَعَاقُبِهِمَا وَتَقَارُضِهِمَا الطَّوْلَ وَالْقِصَرَ مِنْ آيَةٍ عَظِيمَةٍ عَلَىٰ كَمَالِ الْمُبْدِعِ وَعَظِيمِ اقْتِدَارِهِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ الْمُتَنَفِعُونَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، النَّاظِرُونَ إِلَيْهَا بِعُقُولِهِمْ، لَا بِأَبْصَارِهِمْ فَحَسْبُ؛ وَلِهَذَا فَهَمُّ: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا

وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ؛ أَي: لا يقطعون ذِكْرَهُ في جميع أحوالهم، بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: يفهمون ما فيهما مِنْ الْحِكْمِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَاخْتِيَارِهِ وَرَحْمَتِهِ، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾؛ أَي: ما أَوْجَدْتَ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا عَارِيًا عَنْ الْحِكْمَةِ، خَالِيًا مِنَ الْمَصْلَحَةِ، بَلْ خَلَقْتَهُ مُنْتَظِمًا لِحِكْمٍ جَلِيلَةٍ، وَمَصَالِحٍ عَظِيمَةٍ، لِلْقِيَامِ بِعِبُودِيَّتِكَ، وَالْخُضُوعِ لِحُكْمِكَ، وَلِتَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَتَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى.

ثم نَزَّهوا اللَّهَ تَعَالَى، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾؛ أَي: تنزيهاً لك، وتعظيماً لك من أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا عَبَثًا، أَوْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا، بَلْ كُلُّ مَا فَعَلْتَهُ أَوْ خَلَقْتَهُ، فَبِالْحَقِّ، وَلِلْحَقِّ، وَمُشْتَمِلٌ عَلَى الْحَقِّ.

ثم فَرَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالْדُّعَاءِ قَائِلِينَ: ﴿فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ أَي: يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، يَا مَنْ هُوَ مَنْزَعٌ عَنِ الْعَبَثِ وَالْعَيْبِ وَالنَّقَائِصِ، أَجْرْنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَرَحْمَتِكَ.

ثم أَتَبَعُوا ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ ذَلِكَ الْعَذَابِ، فقالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾؛ أَي: أَهْنَتْهُ، وَأَظْهَرْتَ فَضِيحَتَهُ وَخِزْيَهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: تذييلٌ لإظهارِ نَهَايَةِ فُظَاةِ حَالِ مَنْ دَخَلَ النَّارَ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا دَخَلَهَا لِظُلْمِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَاصِرٍ يُنْصُرُهُ، وَيُدْفَعُ عَنْهُ عَذَابَ النَّارِ.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، هَذَا حِكَايَةُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ آخَرٍ لَهُمْ صُدِّرَ أَيْضًا بِندَاءِ الرَّبِّ لإظهارِ كَمَالِ الضَّرَاعَةِ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾؛ أَي: إِنَّا سَمِعْنَا دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ. وَأَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُنَادِي هُنَا: الرَّسُولُ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُنَادِي هُنَا هُوَ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْقَوْلَانِ صَحِيحَانِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ دَعَا النَّاسَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

وقولهم: ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾: تفسيرٌ للإيمان الذي يدعو إليه، وهو الإيمان بالله تعالى وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وقولهم: ﴿فَتَأْمَنَّا﴾؛ أي: فامتثلنا أمره، وأجبنا نداءه، وسارعنا إلى اتِّباعه.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: تَوَسَّلْ منهم إلى الله تبارك وتعالى بإيمانهم به، أن يَغْفِرَ لهم ذُنُوبَهُمْ، وَيُكَفِّرَ عنهم سَيِّئَاتِهِمْ، وأن يَقْبِضَهُمْ إليه - إذا قَبَضَهُمْ - في عِدَادِ الْأَبْرَارِ، الذين بَرُّوا الله تعالى بطاعتهم إياه، وامتثالهم أمره، حتى أَرْضَوْهُ فَرَضِي عنهم.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا وَعَالِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾، هذا دعاء آخر، وفيه تكرارٌ للنداء بـ «رَبَّنَا»؛ للتضرُّع والإلحاح، سائلين الله أن يُنْجِزَ لهم ما وَعَدَهُمْ على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ؛ مِنَ النِّصْرِ والظُّهُورِ في الدنيا، وَمِنَ الْفَوْزِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ في الآخرة، والنجاة مِنْ خِزْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، متوسِّلين إليه سبحانه بأنه لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

ثم أعقَبَ سبحانه ما حكاه مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ذَوِي الْأَلْبَابِ، ببيان استجابته لهم فيما دَعَوْهُ وسأَلُوهُ؛ فقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «ما زالوا يقولون: رَبَّنَا، رَبَّنَا، حتى استجاب لهم».

ولهذه الآيات التي وَصَفَ اللَّهُ تعالى فيها دعاء أولي الْأَلْبَابِ، وَتَضَرَّعَهُمْ إلى رَبِّهِمْ: شَأْنٌ عَظِيمٌ، ينبغي لكلِّ مُؤْمِنٍ تِلَاوَتُهَا وتَدَبُّرُهَا ودَعَاءُ اللَّهِ تعالى بها.

وقد ثَبَتَ في الحديث أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يقرأ هذه الآيات إذا قام من الليل وهو ينظرُ إلى السماء؛ كما في «الصحاحين»، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ،

فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، قَعَدَ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيِّتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثُمَّ قَامَ، فَتَوَضَّأَ
وَاسْتَنْنَ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رُكْعَةً، وَفِي رَوَايَةٍ: «ثُمَّ قرأ الآياتِ العَشْرَ
الْأَوَاخِرَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ، حَتَّى خَتَمَ»^(١).

ثُمَّ إِنَّ فِي ذِكْرِ الرَّبِّ ﷻ لِحَالٍ أُولَى الْأَلْبَابِ، وَتَعَبُّدِهِمْ، وَكَمَالِ
تَذَلُّلِهِمْ، وَذِكْرِهِ لِدَعَوَاتِهِمْ الْعَظِيمَةِ، وَإِجَابَتِهِ لَهُمْ، حُثًّا لِلْعِبَادِ عَلَى التَّاسِّي
بِفَعَالِهِمْ، وَالتَّحَلِّي بِخِصَالِهِمْ، وَالدَّعَاءِ بِدَعَوَاتِهِمْ، الَّتِي هِيَ مَحَلُّ ثَنَاءِ الرَّبِّ
وَإِجَابَتِهِ، وَبِاللَّهِ وَحْدَهُ التَّوْفِيقَ.



(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٥٦٩ و ٤٥٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٦٣).

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٧)

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْوَاردَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

يحكي الله تعالى في هذه الآية دُعاء المؤمنين المُستضعفين، الذين كانوا بمكة تحت إذلال كُفَّار قريش، وذلك قبل فتح مكة، فهؤلاء المستضعفون من المؤمنين سألوا ربهم ﷻ أَنْ يُنْجِيَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ مَنْ قَدْ اسْتَضَعَفَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ وَلِيًّا مِنْ عِنْدِهِ سَبْحَانَهُ يَسْتَنْقِذُهُمْ، وَنَصِيرًا يَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِينَ، وَيَنْصُرُهُمْ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُمْ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فَلَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ، جَعَلَ اللَّهُ ﷻ وَالنَّبِيُّ ﷺ وَلِيَّهُمْ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ عَتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ، فَكَانَ نَصِيرًا لَهُمْ، يُنْصِفُ الضَّعِيفَ مِنَ الْقَوِيِّ»^(١).

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وهذا وَصَفٌ لِمَنْ آمَنَ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى، وَأَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ الْقُرْآنِ فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ بِالدمع؛ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِأَنْ مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا يَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَيَدْعُونَهُ بِقَوْلِهِمْ:

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (١/٤٥٢).

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أي: إنهم يقولون: يا ربنا، صدَّقْنَا لَمَّا سَمِعْنَا مَا أَنْزَلْتَهُ إِلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ كِتَابِكَ، وَأَقْرَرْنَا بِهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِكَ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ لَا شَكَّ فِيهِ، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ ومعنى الكتابة - هنا - أي: الْجَعْلُ؛ أي: فاجْعَلْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَأَثْبِتْنَا مَعَهُمْ فِي عِدَادِهِمْ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، قال: «أي: مع مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ، هم الشَّاهِدُونَ يَشْهَدُونَ لِنَبِيِّهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، والرُّسُلُ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا»^(١).

وقد أجاب الله تعالى دَعَوَتَهُمْ، وَحَقَّقَ رَجَاءَهُمْ؛ قال تعالى: ﴿فَأَثْبِتْهُمْ اللَّهُ يَمَّا قَالُوا جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥].

* وَمِنْ الدَّعَوَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: دَعْوَةُ التَّائِبِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِمَّا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ إِخْبَارٌ عَنِ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَمَا عَبَدُوا الْعِجْلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: نَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ نَادِمٍ: قَدْ سَقَطَ فِي يَدِهِ أَوْ أُسْقِطَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾؛ أي: رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ حَادَوْا عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، وَذَهَبُوا عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَانْحَرَفُوا عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَكَفَرُوا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: قَالُوا هَذَا الدَّعَاءُ، تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، فَكَانَ ذَلِكَ اعْتِرَافًا مِنْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَالتَّجَاءَ إِلَى رَبِّهِمْ بِأَن يَرْحَمَهُمْ وَيَغْفِرَ لَهُمْ، وَإِلَّا كَانُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَهَكَذَا حَالُ كُلِّ مُذْنِبٍ، فَإِنَّهُ لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَغْفِرَتُهُ لَهُ، لَكَانَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْأَبْوَانُ

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/١٥٩).

مِنْ قَبْلُ - فِيمَا سَبَقَ بَيَانُهُ مِنْ دَعَاءِ آدَمَ ﷺ -: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سِيَاقِ ذِكْرِ تَوْبَةِ السَّحَرَةِ وَإِيمَانِهِمْ بِمُوسَى ﷺ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْفِئُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَاَمَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥].

فهذا بيانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِحَالِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى ﷺ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا سَحَرَةً، وَبَعْدَ أَنْ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنٌ لِإِيمَانِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

فَمَا كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنْ جَاهَرُوا فِرْعَوْنَ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَنَّ تَوَعُّدَهُ لَهُمْ لَنْ يَرُدَّهُمْ عَمَّا هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَمَا بَصَّرَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى، وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾؛ أَي: قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَا إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَ، وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ، وَنَكَالُهُ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ، فَلَنَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِنُخْلُصَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَيَبْنُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ إِنَّمَا يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ لِإِيمَانِهِمْ بِنَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى ﷺ، وَاتِّبَاعِهِمْ لَهُ، وَإِلَّا فَلَيْسَ لَهُمْ ذَنْبٌ، فَإِنْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا يُعَابُ عَلَيْهِ وَيُعَاقَبُ بِهِ، فَهُوَ ذَنْبُنَا، وَهُوَ أَعْظَمُ مُحَاسِنَانَا؛ لِأَنَّهُ خَيْرُ الْأَعْمَالِ، وَأَعْظَمُ الْمَنَاقِبِ، فَلَا نَعْدِلُ عَنْهُ طَلَبًا لِمَرْضَاتِكَ، وَلَسْنَا مَبَالِينَ بِتَهْدِيدِكَ، وَلَا مَكْرَثِينَ بِوَعِيدِكَ؛ وَلِهَذَا قَالُوا: - كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ -: ﴿لَا ضَيْرٌ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]؛ أَي: لَا نَبَالِي بِمَا تَوَعَّدْتَنَا بِهِ مِنْ تَقْطِيعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافٍ، وَالتَّصْلِيبِ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ.

ثُمَّ تَوَجَّهُوا إِلَى اللَّهِ بِالْإِعْتِزَالِ، وَأَعْظَمُوا الرِّغْبَةَ إِلَيْهِ بِأَنْ يُثَبِّتَهُمْ عَلَى دِينِهِ، وَأَنْ يُصَبِّرَهُمْ عَلَى مَا يَنَالُهُمْ مِنْ أَذَى فِي سَبِيلِهِ؛ فَقَالُوا:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ أي: أَفْضُ عَلَيْنَا صَبْرًا عَظِيمًا - كما يدل عليه التنكير - لَأَنَّ هَذِهِ مَحَنَةٌ عَظِيمَةٌ تَوْدِي إِلَى ذَهَابِ النَّفْسِ، وَمُعَالَجَةِ الْأَذَى وَالْعَذَابِ، فَيُحْتَاجُ فِيهَا مِنَ الصَّبْرِ إِلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ؛ لِيُثَبَّتَ الْفُؤَادُ، وَيَطْمَئِنَّ الْمُؤْمِنُ عَلَى إِيْمَانِهِ، وَيَزُولَ عَنْهُ الْانْزِعَاجُ الْكَثِيرُ، ﴿وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: ثَابِتِينَ عَلَى الْإِسْلَامِ، مُنْقَادِينَ لِأَمْرِكَ، مُتَّبِعِينَ لِرَسُولِكَ.

وَسَبْحَانَ مَنْ هَدَى قُلُوبَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْكُفْرِ الْغَلِيظِ، وَالسَّحْرِ الْقَبِيحِ، وَالضَّلَالِ الْمُبِينِ، إِلَى هَذَا الْإِيْمَانِ الْعَظِيمِ، وَالثَّبَاتِ الْقَوِيمِ، وَالصِّدْقِ مَعَ اللَّهِ، وَكَمَالِ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ؛ سَبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ هُوَ كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَنَسْأَلُهُ سَبْحَانَهُ الثَّبَاتَ عَلَى دِينِهِ، وَالْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٨)

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْعَظِيمَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس].

حَيْثُ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ عَنْ نَبِيِّهِ مُوسَى ﷺ أَنَّهُ أَوْصَى قَوْمَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فِي مُوَاجَهَةِ أَعْدَائِهِمْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَأَنَّ قَوْمَ مُوسَى الْمُؤْمِنِينَ قَدْ امْتَثَلُوا أَمْرَهُ، فَقَالُوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أَي: بِهِ وَثِقْنَا، وَإِلَيْهِ فَوَّضْنَا أَمْرَنَا، وَعَلَيْهِ وَحْدَهُ اعْتَمَدْنَا، ثُمَّ دَعَوْا رَبَّهُمْ، فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وَفِي مَعْنَى هَذَا الدَّعَاءِ قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ:

* فَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا، وَلَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا، فَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا سُلِّطُوا لِأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَنَحْنُ عَلَى الْبَاطِلِ؛ فَيُفْتَنُوا بِذَلِكَ وَيَزْدَادُوا طَغْيَانًا وَكُفْرًا.

* وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَا تُعَذِّبْنَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ، وَلَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَيَقُولُوا: لَوْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ لَمَا عَذَّبُوا، وَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنَّا، فَيُفْتَنُوا بِذَلِكَ.

وَقَالُوا تَكْمِلَةَ دَعَائِهِمْ: ﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ أَي: وَخَلَّصْنَا - يَا رَبَّنَا - بِرَحْمَتِكَ مِنْ أَيْدِي الْكَافِرِينَ؛ لِنَسْلَمَ مِنْ شَرِّهِمْ، وَنَقِيمَ عَلَى دِينِنَا؛ عَلَى وَجْهِ تَمَكُّنٍ بِهِ مِنْ إِقَامَةِ شَرَائِعِهِ، وَإِظْهَارِهِ مِنْ غَيْرِ مُعَارِضٍ وَلَا مَنَازِعٍ.

وأشار بعضُ المفسرين إلى أنَّ في تقديم التوكُّلِ على الدعاءِ تنبيهاً على أنَّ الداعيَ ينبغي أن يتوكَّلَ على الله أولاً، لَتَجَابَ دَعْوَتُهُ^(١)؛ وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تَنْصِلَنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)^(٢).

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْعَظِيمَةِ الْوَاردَةِ فِي الْقُرْآنِ: دَعَاءُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

وهذا إخبارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الْفِتْيَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِن دُونِهِ ءَالِهًا لَّكَ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَّى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَضْنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا﴾ [الكهف].

فهؤلاءِ فِتْيَةٌ مُّؤْمِنُونَ اتَّفَقُوا عَلَى الْإِنْحِيَاذِ عَنْ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّبَرُّيِّ مِنْهُمْ، وَالخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ مِنْهُمْ، وَهُوَ الْمَشْرُوعُ حَالِ الْفِتَنِ وَظُهُورِ الشَّرُورِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَوْلَئِكَ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ قَرُّوا

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (٣٣٨٨/٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧١٧)، ورواه البخاري (٧٣٨٣) مختصراً.

بدينهم مِنْ قومهم؛ لئلا يفتنهم عنه، فَهَرَبُوا مِنْهُمْ، فُلَجُّوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ؛ لِيَخْتَفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا حِينَ دَخَلُوا سَائِلِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾؛ أَي: هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تَرْحَمُنَا بِهَا، وَتَسْتُرْنَا عَنْ قَوْمِنَا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾؛ أَي: اجْعَلْ عَاقِبَتَنَا رَشَدًا؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: (وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ، فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا)^(١)، وَفِي «الْمُسْنَدِ»^(٢)، مِنْ حَدِيثِ بُسْرِ بْنِ أَبِي أَرْطَاةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: (اللَّهُمَّ، أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ)^(٣).

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَعُوا بَيْنَ السَّعْيِ فِي الْخَيْرِ، وَالْفِرَارِ مِنَ الْفِتْنَةِ إِلَى مَكَانٍ يُمَكِّنُ الْاسْتِخْفَاءَ فِيهِ، وَبَيْنَ تَضَرُّعِهِمْ وَسُؤَالِهِمُ اللَّهَ تَعَالَى تَسِيرَ أُمُورِهِمْ، وَعَدَمَ اتِّكَالِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى الْخَلْقِ؛ فَلِذَلِكَ اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى دَعَاءَهُمْ، وَقَبِلَ لَهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]؛ أَي: أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حِينَ دَخَلُوا الْكَهْفَ، فَنَامُوا سِنِينَ كَثِيرَةً، وَمَنْعْنَا نَفُودَ الْأَصْوَاتِ إِلَى مَسَامِعِهِمْ؛ فَإِنَّ النَّائِمَ إِذَا سَمِعَ الصَّوْتَ يَنْتَبِهْ؛ وَفِي هَذَا النَّوْمِ الْمَذْكُورِ حِفْظُ لِقُلُوبِهِمْ مِنَ الْاضْطِرَابِ وَالْخَوْفِ، وَحِفْظُ لَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَلِيَكُونَ آيَةً بَيِّنَةً لِلْمُتَعَبِّرِينَ.

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وَهَذَا كَلَامٌ يَقُولُهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَهْلِ النَّارِ تَذْكِيرًا لَهُمْ بِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، الَّذِينَ كَانُوا الْكُفَّارَ أَهْلُ النَّارِ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ، وَيَضْحَكُونَ مِنْهُمْ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» (٦٣٩)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» (٤٩٨).

(٢) «مُسْنَدُ أَحْمَدَ» (١٨١/٤)، وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الضَّعِيفَةِ» (٢٩٠٧).

(٣) «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (١٣٥/٥ - ١٣٦).

فَبَيَّنَ تَعَالَى مِنْ حَالِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاعْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: «فَجَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ الْمَقْتَضِي لِأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ،
وَالدُّعَاءِ لِرَبِّهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ بِرَبُوبِيَّتِهِ وَمِثَّتِهِ عَلَيْهِمُ بِالْإِيمَانِ،
وَبِالْإِخْبَارِ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَعَمُومِ إِحْسَانِهِ، وَفِي ضِمْنِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى خُضُوعِهِمْ
وَخُشُوعِهِمْ، وَانْكَسَارِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَخَوْفِهِمْ وَرَجَائِهِمْ؛ فَهَؤُلَاءِ سَادَاتُ النَّاسِ
وَفَضْلَاؤُهُمْ»^(١).

جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، وَأَلْحَقَنَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَهَدَانَا سَبِيلَهُ
الْقَوِيمَ، وَصِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



(١) «تفسير ابن سعدى» (ص ٦٥٥).

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٩)

* وَمِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَظِيمَةِ الْوَارِدِ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: مَا جَاءَ فِي ضَمَنِ سِيَاقِ عَدِّ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ، الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا هَذِهِ الْإِضَافَةَ التَّشْرِيفِيَّةَ إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ لِمَا قَامُوا بِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ التَّامَّةِ الْخَالِصَةِ لِرَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ صَدَّرَ صِفَاتِهِمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ فَأَضَافَهُمْ لِنَفْسِهِ؛ تَعْلِيَةً لِّشَأْنِهِمْ، وَتَشْرِيقًا لِقُدْرَتِهِمْ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ جُمْلَةِ صِفَاتِهِمُ الْحَمِيدَةِ، وَنَعَوْتِهِمُ الرَّشِيدَةِ، الدَّعَاءَ، وَحُسْنَ الْإِلْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ ﷻ.

فَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥ - ٦٦]؛ وَهَذِهِ دَعْوَةٌ مَبَارَكَةٌ حَكَاهَا اللَّهُ عَنْهُمْ فِي جُمْلَةِ صِفَاتِهِمُ الْكَرِيمَةِ.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾؛ أَي: اذْفَعُهُ عَنَّا بِالْوَقَايَةِ مِنْ أَسْبَابِهِ فِي الدُّنْيَا، وَمَغْفِرَةٍ مَا وَقَعَ مِنَّا مَا هُوَ مُقْتَضٍ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ - مَعَ طَاعَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ ﷻ - مُشْفِقُونَ وَجُلُونَ مِنْ عَذَابِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ الْكُمَّلِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أَي: يَقْدَمُونَ مَا يَقْدَمُونَ مِنَ الطَّاعَاتِ وَهُمْ مُشْفِقُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، خَائِفُونَ مِنْ عِقَابِهِ؛ كَمَا ثَبَتَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، عَنْ أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَهَا قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾؛ أَهْوِ الرَّجُلُ يَزْنِي،

وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: (لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ) ^(١).

قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا» ^(٢).

وقولهم: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: لازماً دائماً غير مُفَارِقٍ.
وقولهم: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ أي: بُسَسَ المنزلُ مُنْظَرًا، وَبُسَسَ المَقِيلُ مُقَامًا.

«وهذا منهم على وَجْهِ التَضَرُّعِ لِرَبِّهِمْ، وَبَيَانِ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ لَيْسَ فِي طَاقَتِهِمْ احْتِمَالُ هَذَا الْعَذَابِ، وَلِيَتَذَكَّرُوا مِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ صَرْفَ الشِدَّةِ بِحَسَبِ شِدَّتِهَا وَفِظَاعَتِهَا يَعْظُمُ وَقَعُهَا، وَيَشْتَدُّ الْفَرْحُ بِصَرْفِهَا» ^(٣).

* وَمِنْ دَعَوَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ: مَا جَاءَ فِي ضَمْنِ أَوْصَافِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقولهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ﴾؛ أي: ارْزُقْنَا أَزْوَاجًا وَأَوْلَادًا تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنُنَا.

وعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «يَعْنُونَ: مَنْ يَعْمَلُ لَكَ بِالطَّاعَةِ، فَتَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنُنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وعن مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرَظِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَقَرَّ لِعَيْنِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَرَى أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ أَتَقِيَاءَ بَرَرَةً».

وعن ابن زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «يَسْأَلُونَ اللَّهَ لِأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أَنْ يَهْدِيَهُمُ لِلْإِسْلَامِ» ^(٤).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).

(١) سبق تخريجه (ص ٧٧٤).

(٣) «تفسير ابن سعد» (ص ٦٨٦).

(٤) انظر هذه الآثار في: «تفسير الطبري» (١٧/٥٢٩ - ٥٣١)، و«تفسير أبي المظفر السمعاني» (٣٦/٤).

وقال العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا كما أنه دُعَاءٌ لأزواجهم وذُرِّيَّاتهم في صلاحهم؛ فإنه دُعَاءٌ لأنفسهم؛ لأنَّ نفعه يعودُ عليهم؛ ولهذا جَعَلُوا ذلك هبةً لهم، فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾، بل دعاؤُهُمْ يعودُ إلى نفعِ عمومِ المسلمين؛ لأنَّ بصلاح مَنْ ذُكِرَ يكونُ سبباً لصلاح كثيرٍ ممَّن يتعلَّقُ بهم وينتفعُ بهم»^(١).

وقولهم: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قال ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أئمةٌ هُدى لِيُهْتَدَى بنا، ولا تَجْعَلْنَا أئمةً ضلالةٍ؛ لأنه قال لأهل السعادة: ﴿وَجَعَلْنَهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ولأهل الشقاوة: ﴿وَجَعَلْنَهُمْ أئِمَّةً يَذْعُونَ إِلَى النِّكَارِ﴾ [القصص: ٤١]»^(٢).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «قَادَةٌ في الخير، ودُعَاءَةٌ وهداةٌ يُؤْتَمُّ بنا في الخير»^(٣).

والخلاصة: أنَّ عبادَ الرحمنِ دَعَوْا الله تعالى أنْ يُوصِلَهُمْ إلى درجةِ الإمامةِ في الدين، وأن يكونوا قُدْوَةً للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يُقْتَدَى بأفعالهم، وَيُظَمَّانُ لأقوالهم، ويسيرُ أهلُ الخيرِ خَلْفَهُمْ، فَيَهْدُونَ وَيَهْتَدُونَ.

قال العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنَ المَعْلُومِ أنَّ الدُّعَاءَ يَبْلُوغُ شَيْءَ دُعَاءٍ بما لا يَتِمُّ إِلَّا به، وهذه الدرجة - درجةُ الإمامةِ في الدين - لا تَتِمُّ إِلَّا بالصَّبْرِ واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فهذا الدُّعَاءُ يستلزمُ من الأعمالِ، والصَّبْرِ على طاعةِ الله، وعن معصيته، وأقداره المؤلمة، وَمِنَ العِلْمِ التَّامِّ الذي يُوصِلُ صاحبه إلى درجةِ اليقين، خيراً كثيراً، وعطاءً جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يُمكنُ من درجاتِ الخَلْقِ بعدَ الرسل»^(٤).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «فالحاصلُ: أنهم سألوا ربَّهم أن يكونوا كاملين مكملين لغيرهم، هادين مهتدين؛ وهذه أعلى الحالات»^(٥).

(١) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٦٨٨). (٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٧٤٢/٨).

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢٨٥/٦).

(٤) «تفسير ابن سَعْدِي» (ص ٦٨٨).

(٥) «المواهب الربانية، من الآيات القرآنية» (ص ٣٣).

وقد ختم الله تعالى ما ذكره عن عباد الرحمن من الأوصافِ الكريمة،
والدعاء العظيم بقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ
فِيهَا نَحْوَةً وَسَلَامًا ۖ ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان].
فبين تعالى جزاءَهُ لهم على هَمَمِهِمُ العالية، وَمَطَالِبِهِمُ النبيلة، وحُسنِ
سؤالِهِم، وكمالِ تَذَلُّلِهِم وافتقارِهِم، بأنَّ لهم الجنةَ يُتَدَرَّوْنَ فِيهَا بالتحية
والإكرام، وَيُلَقَّوْنَ التَّوْقِيرَ والاحترام، فلهم السلامُ وعليهم السلام،
﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ ﴿٧٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ﴾
[الرعد]، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.



مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَنْقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف].

ففي هذه الآية الكريمة يذكرُ الله تعالى وصيَّته للإنسانِ بربِّ والدَيْهِ؛ لِمَا تَحَمَّلَاهُ مِنَ الْمَتَاعِبِ فِي حَمْلِهِ وَوِلَادَتِهِ، وَأَنَّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا صَالِحًا مِنَ الْأَوْلَادِ، فَإِنَّهُ يَتَذَكَّرُ نِعْمَةَ رَبِّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَالِدَيْنِ، فَيَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى وَيَسْأَلُهُ، فَيَقُولُ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أَي: أَلْهِمْنِي وَوَفَّقْنِي.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ أَي: نِعَمَ الدِّينِ وَنِعَمَ الدُّنْيَا، وَشُكْرُهَا بِصَرْفِهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي الشُّعْرِ عَلَى اللَّهِ، وَحَمْدِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى وَلَدَيَّ﴾؛ أَي: وَالنَّعَمَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَى الْوَالِدَيْنِ مِنْ قَبْلِي، وَالنَّعَمَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ نِعَمٌ عَلَى أَوْلَادِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَدَّ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنْهَا وَمِنْ أَسْبَابِهَا وَأَثَارِهَا، خُصُوصًا نِعَمُ الدِّينِ؛ فَإِنَّ صِلَاحَ الْوَالِدَيْنِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ لِصِلَاحِ أَوْلَادِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾؛ أَي: وَأَلْهِمْنِي أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

في المستقبل؛ وذلك بأن يكون جامعًا لِمَا يُصْلِحُهُ، سَالِمًا مِمَّا يُفْسِدُهُ؛ فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، وَيُثَبِّتُ عَلَيْهِ.

وقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾: دعاءٌ لِذُرِّيَّتِهِ بِالصَّلَاحِ بعدما دعا لنفسه، وذكرَ أَنَّ صَلَاحَ الذَّرِيَّةِ يعودُ نفعُهُ على والديهم؛ لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي﴾.

وقوله: ﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تَبْتُ مِنْ ذُنُوبِي الَّتِي سَلَفَتْ مِنِّي فِي سَالِفِ أَيَّامِي، وَرَجَعْتُ إِلَى طَاعَتِكَ.

وقوله: ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مِنَ الْمُسْتَسْلِمِينَ لِأَمْرِكَ وَنَهْيِكَ، الْمُنْقَادِينَ لِحُكْمِكَ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾؛ أي: هؤلاء الذين هذه الصفةُ صِفَتُهُمْ، هم الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا - وهو الطاعات؛ لأنهم عَمِلُوا غَيْرَهَا أَيْضًا - ونصفحُ عَنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِم الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا، فنفعلُ ذَلِكَ بِهِمْ فَعَلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَحَصَلَ لَهُمُ الْخَيْرُ وَالْمَحْبُوبُ، وَزَالَ عَنْهُمْ الشَّرُّ وَالْمَكْرُوهُ، وَهَذَا هُوَ الْوَعْدُ الصَّادِقُ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: مَا نَعَتَ اللَّهُ بِهِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ مِنَ التَّابِعِينَ وَاتَّبَاعِهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

قال أهل العلم: إن هذه الآية نَزَلَتْ فِي التَّابِعِينَ - الَّذِينَ أَتَوْا بَعْدَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَكُلُّ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فعن ابن أبي لَيْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «النَّاسُ عَلَى ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ: الْمُهَاجِرُونَ، وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ (الْأَنْصَارُ)، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاجْتَهِدْ أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْمَنَازِلِ».

وعن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «النَّاسُ عَلَى ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ، فَمَضَتْ مَنَزِلَتَانِ، وَبَقِيَتْ مَنَزَلَةٌ، فَأَحْسَنُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونُوا بِهَذِهِ الْمَنَزَلَةِ الَّتِي بَقِيَتْ»^(١).

والمقصود: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ لِلْسَّابِقِينَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ، فيقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

فَجَمَعُوا فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ بَيْنَ سَلَامَةِ الْقُلُوبِ، وَسَلَامَةِ الْأَلْسُنِ؛ فَلَيْسَ فِي الْقُلُوبِ غِلٌّ وَلَا حِقْدٌ وَلَا ضَغِينَةٌ، وَلَيْسَ فِي الْأَلْسُنِ شَتْمٌ وَلَا ثَلَبٌ وَلَا وَقِيعَةٌ، بَلْ فِي الْقُلُوبِ الْمَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ وَالْإِخَاءُ، وَفِي الْأَلْسُنِ الذِّكْرُ الْحَسَنُ وَالِدُّعَاءُ، وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ دَلَائِلِ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ، وَالْوَفَاءِ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالسَّبْقِ وَالْإِحْسَانِ.

قَالَ أَبُو الْمَظْفَرِ السَّمْعَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّرَحُّمَ لِلْسَّلَفِ، وَالِدُّعَاءَ لَهُمْ بِالْخَيْرِ، وَتَرْكُ ذِكْرِهِمْ بِالسُّوءِ مِنْ عِلَامَةِ الْمُؤْمِنِينَ. وَرُوي أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَجَعَلَ يَقَعُ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ مِثْلَ: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَغَيْرِهِمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ مِنَ الْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَنْتَ مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ لَسْتَ مِنَ الَّذِينَ: ﴿جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾»^(٢).

* وَمِنْ دَعَوَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ: مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّحْرِيمُ: ٨].

(١) ذَكَرَهُمَا الْقُرْطُبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢١/١٨).

(٢) «تَفْسِيرُ أَبِي الْمَظْفَرِ السَّمْعَانِيِّ» (٤٠٢/٥ - ٤٠٣).

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره هذه الآية، قال: «ليس أحدٌ مِنَ الموحِّدين إِلَّا يُعْطَى نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا الْمُنَافِقُ، فَيُطْفَأُ نُورُهُ، وَالْمُؤْمِنُ يُشْفِقُ مِمَّا يَرَى مِنْ إطفاءِ نُورِ الْمُنَافِقِ؛ فهو يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورًا﴾»^(١).

فهذا دعاءُ المؤمنينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يسألونَ اللهَ تعالى أَنْ يُتِمَّمَ لَهُمْ نُورَهُمْ، وَيُبَلِّغَهُمْ بِهِ الْجَنَّةَ، وقد قال الله تعالى - في آيةٍ أخرى -: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ بَعْرَى مِنْ نَحْيِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يُؤْتَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا: مَنْ نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِهِ، يُطْفَأُ مَرَّةً وَيَقْدُ أُخْرَى»^(٢).

وبدعاءِ المؤمنينَ بِاتِّمَامِ النُّورِ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَمَّ الْمُرَادُ جَمْعُهُ مِنْ أَدْعِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.



(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٨/٨).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤٧٨/٢)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، فتعقبه الذهبي بقوله: «على شرط البخاري».

دُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ ﷺ

إِنَّ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: دُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَدُخُولِ الْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر].

في هذه الآيات يُخْبِرُ اللهُ تعالى عن ملائكتِهِ الْكَرَامِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ عَرْشَهُ الْمَجِيدِ، وَالَّذِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ، أَنَّهُمْ يُمَجِّدُونَهُ تَعَالَى، وَيُنْزِلُونَهُ، وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ، وَأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ، فَيَقْرُونَ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ، وَيَذِلُّونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ الَّذِينَ أَقْرَأُوا بِمِثْلِ إِقْرَارِهِمْ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ، وَالْبِرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، فَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ، وَيَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ هُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَأَنْ يَقِيَهُمُ اللهُ سُوءَ عَاقِبَةِ سَيِّئَاتِهِمُ الَّتِي أَتَوْهَا، وَأَنْ يَتَعَمَّدَهُمْ بِرَحْمَتِهِ؛ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

ودُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ هَذَا لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ فَوَائِدِ الْإِيمَانِ وَفَضَائِلِهِ وَثَمَارِهِ الْكَثِيرَةِ؛ حَيْثُ قَيَّضَ اللهُ سَبْحَانَهُ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ أَنْ يَدْعُوا لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ؛ فَالْمُؤْمِنُ بِإِيمَانِهِ تَسَبَّبَ لِهَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَفِي الْآيَاتِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ رَابِطَةَ الْإِيمَانِ أَعْظَمُ الرُّوَابِطِ وَأَوْثَقُهَا،

بل هي الرابطة الحقيقية التي لا تَنْقُصُ، والوِشَاجُ الْمُحْكَمُ الذي لا يَنْثَلِمُ.

قال العلامة مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَبِينًا دَلَالَةً هذا السياقُ الكريمُ على ذلك: «فقد أشار تعالى إلى أَنَّ الرابطةَ التي رَبَطَتْ بين حَمَلَةِ العرشِ وَمَنْ حوله وبين بني آدَمَ في الأرضِ حتى دَعَوْا اللهَ لهم هذا الدعاءُ الصالحُ العظيمُ، إِنَّمَا هي الإِيمَانُ باللهِ جَلَّ وعلا؛ لأنه قال عن الملائكة: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ فوصفهم بالإيمان، وقال عن بني آدَمَ في استغفارِ الملائكةِ لهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ فوصفهم أيضًا بالإيمان؛ فدلَّ ذلك على أَنَّ الرابطةَ بينهم هي الإِيمَانُ، وهو أعظمُ رابطة... إلى أن قال: وبالجملَةِ: فلا خلافَ بين المسلمين أَنَّ الرابطةَ التي تَرْبِطُ أفرادَ أهلِ الأرضِ بَعْضُهُمْ ببعضٍ، وتربطُ بين أهلِ الأرضِ والسماءِ هي رابطةٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ^(١). اهـ.

وهذا يَدُلُّ على عظيمِ فضلِ الإيمانِ، وكَبَرِ أثرِهِ على أهله، وعِظَمِ كرامةِ المؤمنِ عندَ رَبِّهِ؛ كما قال سُلَيْمٌ بن عيسى رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أكرمَ المؤمنَ على اللهِ نائمًا على فراشِهِ والملائكةُ يستغفرون له!»^(٢)، وليس الذي يدعو له الملائكةُ فقط، بل دعا له كذلك أنبياءُ اللهِ والصالحونَ مِنْ عباده.

روى أبو نُعَيْمٍ في «الحِلْيَةِ»، عن يحيى بن عُمَرَ بن راشد التَّيْمِيِّ، قال: «كنتُ أَطْلُبُ الْعَرَضَ^(٣)، فَأَنْفَقْتُ ما كان معي، وَأَتَانِي سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ حينَ بَلَغَهُ خبري، فقال لي: لا تَأْسَ على ما فاتك، واعْلَمْ أنك لو رُزِقْتَ لَأَتَاكَ، ثم قال لي: أَبَشِّرْ؛ فَإِنَّكَ على خيرٍ، أَتَدْرِي مَنْ دعا لك؟ قلتُ: وَمَنْ دعا لي؟ قال: دعا لك حَمَلَةُ العرشِ، قلتُ: دعا لي حَمَلَةُ العرشِ! قال: نَعَمْ، ودعا لك نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قلتُ: ودعا لي نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ! قال: نَعَمْ، ودعا لك إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قلتُ: ودعا لي إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ! قال: نَعَمْ، ودعا لك مُحَمَّدٌ ﷺ، قلتُ: أَيْنَ دَعَوْا لي؟ قال: أَمَا سَمِعْتَ قوله تعالى:

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤٤٧ - ٤٤٨). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٩٣).

(٣) أي: التجارة والرزق.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾، الآية، قلتُ: وأين دعا لي نُوحٌ ﷺ؟ قال: أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، قلتُ: وأين دعا لي إبراهيمُ ﷺ؟ قال: أما سمعتَ قولَ الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، قلتُ: فأين دعا لي مُحَمَّدٌ ﷺ؟ قال: فهزَّ رأسه، ثم قال: أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فكان أَطْوَعَ لله، وأَرَأَفَ بنا^(١)، وأرحمَ أن يأمره الله بشيءٍ ثم لا يفعلهُ^(٢).

وأما دعوة المؤمنين، فقد مرَّ معنا قريبًا الكلامُ على دَعَوَتِهِمْ عندَ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ١٠].

ثم إنَّ هذه الدعوةَ مِنَ الملائكةِ تَضَمَّنَتْ مِنْ كَمَالِ الأدبِ فِي الدِّعَاءِ، وَحُسْنِ السُّؤَالِ، وَمَحَبَّةِ الْخَيْرِ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا عَظِيمًا.

وفي هذا يقول العلامة ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تَضَمَّنَ هذا الدِّعَاءُ مِنَ الملائكةِ كَمَالَ معرفتهم بِرَبِّهِمْ، والتَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى الَّتِي يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ التَّوَسُّلَ بِهَا إِلَيْهِ، والدِّعَاءَ بِمَا يَنَاسِبُ مَا دَعَاؤُ اللَّهِ فِيهِ، فَلَمَّا كَانَ دَعَاؤُهُمْ بِحَصُولِ الرَّحْمَةِ، وَإِزَالَةِ أَثَرِ مَا اقْتَضَتْهُ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي عَلِمَ اللَّهُ نَقْصَهَا وَاقْتِضَاءَهَا لِمَا اقْتَضَتْهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمُبَادِيِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا عِلْمًا، تَوَسَّلُوا بِالرَّحِيمِ الْعَلِيمِ.

وَتَضَمَّنَ كَمَالَ أَدَبِهِمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِقْرَارِهِمْ بِرَبُوبِيَّتِهِ لَهُمُ الرُّبُوبِيَّةَ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا دَعَاؤُهُمْ لِرَبِّهِمْ صَدَرَ مِنْ فَقِيرٍ بِالذَّاتِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، لَا يُذْلِي عَلَى رَبِّهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا فَضْلُ اللَّهِ وَكَرَمُهُ وَإِحْسَانُهُ!!

(١) فِي الْأَصْلِ: (بِهَا).

(٢) «الْحَلِيَّةُ» (٧/ ٢٧٩).

وَتَضَمَّنَ موافقتهم لرَبِّهم تمامَ الموافقةِ بِمَحَبَّةٍ ما يَحِبُّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ التي هي العباداتُ التي قاموا بها، واجتهدُوا اجتِهَادَ المحبِّين، وَمِنَ الْعَمَالِ الذين هم المؤمنون، الذين يَحِبُّهم الله تعالى مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، فسائرُ الخلقِ المكلفين يُبْغِضُهُمُ اللهُ إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ منهم، فَمِنْ مَحَبَّةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ دَعَاؤُ اللهِ، واجتهدُوا في صلاح أحوالهم؛ لَأَنَّ الدُّعَاءَ لِلشَّخْصِ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى مَحَبَّتِهِ؛ لَأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَّا لِمَنْ يَحِبُّهُ^(١).

وفي هذا أَيْضًا دَلَالَةٌ عَلَى نُصْحِهِمْ لِعِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَالَ مَطَرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشَّخِيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنْصَحُ عِبَادَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ: الْمَلَائِكَةُ، وَأَعِشْ عِبَادَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ: الشَّيَاطِينُ»^(٢).

وإِنَّا لَنَتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ بِحُبِّ الْمَلَائِكَةِ، الذين لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ، يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، كَمَا نَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِبُغْضِ الشَّيَاطِينِ، الذين يُفْسِدُونَ فِي النَّاسِ وَلَا يُصْلِحُونَ، وَعَنْ عِبَادَةِ اللهِ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ، وَعَنْ الْخَيْرِ نَاكِبُونَ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ ضَالُّونَ، وَلِغَيْرِهِمْ مُضِلُّونَ؛ حَمَانَا اللهُ مِنْهُمْ، وَأَعَاذَنَا مِنْ شَرِّهِمْ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



(١) «تفسير ابن سعدى» (ص ٨٦٢).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١٢٢/٧).

دَعَوَاتُ جَامِعَةٍ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (١)

لقد ثَبَتَ عن النبي ﷺ في سُنَّتِهِ المَطْهَرَةِ، وأَحَادِيثِهِ المَبَارَكَةِ، أَدْعِيَةٌ كَثِيرَةٌ فِيهَا مِنَ المَعَانِي الجَامِعَةِ، والمَطَالِبِ العَالِيَةِ، والمَصَالِحِ العَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ مَا يَسْتَدْعِي المَزِيدَ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِمَعْرِفَتِهَا، والتَّأَمُّلِ فِي مَعَانِيهَا وَدَلَالَاتِهَا، والتَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالدَّعَاءِ وَالسُّؤَالِ بِهَا.

وفيما يلي وَقَفَاتٌ مَعَ نُخْبَةٍ مَبَارَكَةٍ، وَطَائِفَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ دَعَوَاتِهِ الشَّرِيفَةِ، وَسُؤَالَاتِهِ المُنِيفَةِ، مَعَ بَيَانٍ وَإِضَاحٍ لشيءٍ مِنْ مَعَانِيهَا وَدَلَالَاتِهَا، وَتَنْبِيهِ وَإِرْشَادٍ لشيءٍ مِنْ فَوَائِدِهَا وَثَمَرَاتِهَا.

١ - فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى)؛ رواه مسلم^(١).

وهو دَعَاءٌ عَظِيمٌ جَامِعٌ، اشْتَمَلَ عَلَى أَرْبَعَةِ مَطَالِبٍ عَظِيمَةٍ؛ وَهِيَ: الْهَدَايَةُ، وَالتَّقْوَى، وَالْعِفَّةُ، وَالْغِنَى.

قَالَ الطَّبِيبِيُّ رحمته الله: «أَطْلَقَ الْهُدَى وَالتَّقَى؛ لِيَتَنَاوَلَ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُهْتَدَى إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكُلِّ مَا يَجِبُ أَنْ يُتَّقَى مِنْهُ مِنَ الشَّرِكِ وَالْمَعَاصِي وَرِذَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَطَلَبُ الْعَفَافِ وَالْغِنَى تَخْصِيصٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ»^(٢).

وَقَالَ النُّوويُّ رحمته الله: «أَمَّا الْعَفَافُ وَالْعِفَّةُ: فَهُوَ التَّنَزُّهُ عَمَّا لَا يُبَاحُ، وَالْكَفْ عَنْهُ، وَالْغِنَى هُنَا: غِنَى النَّفْسِ، وَالِاسْتِغْنَاءُ عَنِ النَّاسِ، وَعَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ»^(٣).

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢١).

(٢) انظر: «تحفة الأحوذى» (٤٦١/٩).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (٤/١٧).

وفي شرح لطيف لهذا الحديث يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الدعاء مِنْ أَجْمَعَ الْأَدْعِيَةِ وَأَنْفَعِهَا، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ سُؤَالَ خَيْرِ الدِّينِ، وَخَيْرِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْهُدَى هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالتَّقَى الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَتَرَكُّ مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ، وَبِذَلِكَ يَصْلُحُ الدِّينُ؛ فَإِنَّ الدِّينَ عِلْمٌ نَافِعٌ، وَمَعَارِفٌ صَادِقَةٌ، فَهِيَ الْهُدَى، وَقِيَامٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهُوَ التَّقَى.

وَالْعَفَافُ وَالْغِنَى يَتَضَمَّنُ الْعَفَافَ عَنِ الْخَلْقِ، وَعَدَمَ تَعْلِيْقِ الْقَلْبِ بِهِمْ، وَالْغِنَى بِاللَّهِ وَبِرِزْقِهِ، وَالْقَنَاعَةَ بِمَا فِيهِ، وَحَصُولَ مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ مِنَ الْكِفَايَةِ؛ وَبِذَلِكَ تَتِمُّ سَعَادَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالرَّاحَةُ الْقَلْبِيَّةِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الطَّيْبَةُ. فَمَنْ رُزِقَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى نَالَ السَّعَادَتَيْنِ، وَحَصَلَ كُلُّ مَطْلُوبٍ، وَنَجَا مِنْ كُلِّ مَرْهُوبٍ»^(١).

٢ - وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قُلِ: اللَّهُمَّ، اهْدِنِي وَسَلِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْهُدَى: هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادَ: سَدَادَ السَّهْمِ)، وَفِي رَوَايَةٍ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

وهذا الدعاء المبارك يَتَضَمَّنُ طَلَبَ الْهُدَى وَالسَّدَادِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمَا أَجْلُ مَطَالِبِ الْعَبْدِ، وَأَشْرَفُ مَوَاهِبِهِ، وَلَا يَحْصُلُ الْفَلَاحُ وَلَا السَّعَادَةُ إِلَّا بِهِمَا؛ لِذَا كَانَ التَّرغِيبُ فِي هَذَا عَظِيمَ الْأَهْمِيَّةِ.

وقوله: (اللَّهُمَّ، اهْدِنِي وَسَلِّدْنِي)، كَقَوْلِهِ - فِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى -: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ)، فِيهِمَا طَلَبُ الْهُدَى وَالسَّدَادِ.

أَمَّا الْهُدَى: فَهُوَ الْمَعْرِفَةُ بِالْحَقِّ تَفْصِيلاً وَإِجْمَالاً، وَالتَّوْفِيقُ لِاتِّبَاعِهِ ظَاهِراً وَبَاطِناً.

وَأَمَّا السَّدَادُ، فَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَمَّا السَّدَادُ هُنَا - بَفَتْحِ السِّينِ - وَسَلِّدَ السَّهْمِ: تَقْوِيمُهُ؛ وَمَعْنَى (سَلِّدْنِي): وَقَّفْنِي، وَاجْعَلْنِي مُنْتَصِباً فِي جَمِيعِ أُمُورِي،

(١) «بهجة قلوب الأبرار» (ص ٢٤٩).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٥).

مستقيماً، وأصلُ السَّدَادِ: الاستقامةُ والقصدُ في الأمور»^(١).

وقوله ﷺ: (وَاذْكُرْ بِالْهُدَى: هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ: سَدَادَ السَّهْمِ).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «أَي: تَذَكَّرْ ذَلِكَ فِي حَالِ دُعَايِكَ بِهِذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ؛ لِأَنَّ هَادِيَ الطَّرِيقِ لَا يَزِيغُ عَنْهُ، وَمَسَدُّ السَّهْمِ يَحْرِصُ عَلَى تَقْوِيمِهِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ رَمْيُهُ حَتَّى يُقَوِّمَهُ، وَكَذَا الدَّاعِي يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَى تَسْدِيدِ عِلْمِهِ وَتَقْوِيمِهِ وَلِزَوْمِهِ السُّنَّةَ، وَقِيلَ: لِيَتَذَكَّرَ بِهَذَا اللَّفْظِ السَّدَادَ وَالْهُدَى لئَلَّا يَنْسَاهُ»^(٢).

وقال الخطَّابي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: (وَاذْكُرْ بِالْهُدَى: هِدَايَةَ الطَّرِيقِ)، معناه: أَنَّ سَالِكََ الطَّرِيقِ وَالْفَلَاحَ إِنَّمَا يَوْمُ سَمَتِ الطَّرِيقِ، وَلَا يَكَادُ يَفَارِقُ الْجَادَّةَ، وَلَا يَعْدِلُ عَنْهَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً خَوْفًا مِنَ الضَّلَالِ، وَبِذَلِكَ يُصِيبُ الْهَدَايَةَ، وَيَنَالُ السَّلَامَةَ؛ يَقُولُ: إِذَا سَأَلْتَ اللَّهَ الْهُدَى، فَاحْطَرُ بِقَلْبِكَ هِدَايَةَ الطَّرِيقِ، وَسَلِّ اللَّهَ الْهُدَى وَالِاسْتِقَامَةَ؛ كَمَا تَتَحَرَّاهُ فِي هِدَايَةِ الطَّرِيقِ إِذَا سَلَكَتَهَا.

وقوله: (وَاذْكُرْ بِالسَّدَادِ: تَسْدِيدَكَ السَّهْمِ)، معناه: أَنَّ الرَّامِيَ إِذَا رَمَى غَرَضًا سَدَّدَ بِالسَّهْمِ نَحْوَ الْغَرَضِ، وَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا؛ لِيُصِيبَ الرَّمِيَّةَ، فَلَا يَطِيشُ سَهْمَهُ، وَلَا يُخْفِقُ سَعْيُهُ؛ يَقُولُ: فَاحْطَرِ الْمَعْنَى بِقَلْبِكَ حِينَ تَسْأَلُ اللَّهَ السَّدَادَ؛ لِيَكُونَ مَا تَنْوِيهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى شَاكِلَةٍ مَا تَسْتَعْمَلُهُ فِي الرَّمْيِ»^(٣).

وهذا مِنْ كَمَالِ نَصَحِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحُسْنِ بَيَانِهِ وَتَوْجِيهِهِ، جَعَلَ مَعَ هَذَيْنِ الْمُطْلَبَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ مَا يُذَكَّرُ بِهِمَا وَبِمَدْلُولِهِمَا مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ الْمَشَاهِدَةِ؛ لِيَتَحَقَّقَ ذِكْرُ اللَّفْظِ وَعَدَمُ نَسْيَانِهِ، وَفَهْمُ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، وَاسْتِحْضَارُهُ وَعَدَمُ إِغْفَالِهِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا مِنْ أَبْلَغِ التَّعْلِيمِ وَالنَّصَحِ؛ حَيْثُ أَمَرَهُ أَنْ يَذْكُرَ - إِذَا سَأَلَ اللَّهَ الْهُدَى إِلَى طَرِيقِ رِضَاهُ وَجَنَّتِهِ - كَوْنَهُ مُسَافِرًا، وَقَدْ ضَلَّ عَنْ

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٧/٤٤).

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٧/٤٣).

(٣) «معالم السنن» (٤/١٩٩).

الطريق، ولا يَدْرِي أين يَتَوَجَّه، فَطَلَعَ له رجلٌ خَبِيرٌ بالطريق، عالمٌ بها، فسأله أَنْ يَدُلَّهُ على الطريق؛ فهكذا شَأْنُ طريقِ الآخرة، تَمْثِيلًا لها بالطريقِ المحسوسِ للمسافرِ، وحاجة المسافرِ إلى الله سبحانه إلى أَنْ يَهْدِيَهُ تلكَ الطريقَ، أَعْظَمُ من حاجةِ المسافرِ إلى بلدٍ إلى مَنْ يَدُلُّهُ على الطريقِ الموصِلِ إليها، وكذلك السَّدَادُ - وهو إصابةُ القصدِ قولًا وعملاً - فَمَثَلُهُ مَثَلُ رامي السهم، إذا وَقَعَ سَهْمُهُ في نفسِ الشيء الذي رماه، فقد سَدَدَ سَهْمُهُ وأصاب، ولم يَقَعْ باطلاً، كذا المصِيبُ للحقِّ في قوله وعمله بمنزلةِ المصِيبِ في رمية^(١).

فهذه دعوةٌ عظيمةٌ، وألفاظها يسيرة، إلا أنها اشْتَمَلَتْ على خيرٍ عظيم، وفضلٍ عميم، وهي مِنْ جوامِعِ كَلِمِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ، وَتَضَمَّنَتْ كَذَلِكَ جَمَالَ نُصْحِهِ، وَحُسْنَ بَيَانِهِ؛ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.



دَعَوَاتُ جَامِعَةِ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٢)

٣ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أنه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)، ثم قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)؛ رواه مسلم^(١).

هذا الدعاء: (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ) قد بين النبي ﷺ الدَّاعِيَ القويَّ إليه، والمُوجِبَ للاهتمام به والإكثار منه؛ وذلك بقوله - قبله -: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ).

وجاء مثْلُ ذلك أيضًا في حديث أنس رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وبما جِئْتَ به، فهل تخافُ علينا؟ قال: (نَعَمْ؛ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)»؛ رواه الترمذي، وابن ماجه^(٢).

وكذلك في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «دَعَوَاتُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ يَدْعُو بِهَا: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)، قالت: فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُكْثِرُ تدعو بهذا الدعاء؟ فقال: (إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ

(١) تقدم تخريجه ص (٨٧١).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١١٢/٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٢١٤٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٤٤٤/٢).

إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ ﷻ؛ فَإِذَا شَاءَ أَرَاغَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ»؛ رواه أحمد^(١).

قال البغوي رحمه الله: «فيه بيان أن العبد ليس إليه شيء من أمر سعادته أو شقاوته، بل إن اهتدى بهداية الله إياه، وإن ثبت على الإيمان فبشئته، وإن ضلّ فبصرفه عن الهدى؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال الله ﷻ إخباراً عن حمد أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]^(٢).

فتبين بهذا أن الله تعالى هو الذي يتولى قلوب عباده، فيتصرف فيها بما شاء، لا يمتنع عليه شيء منها، ولا تفوته إرادة، ولا يكلها إلى أحد من خلقه. وعلى العبد أن يلجأ إلى الله تعالى ويكثر من هذا الدعاء، كما كان رسول الله ﷺ يكثر منه، وفي هذا إعلام للأمة بأن نفسه الزكية إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجأ إلى الله سبحانه لتثبيت قلبه، فكيف الأمر بمن هو دونه؟! وكلّ العباد دونه، فما أحوج المسلم إلى تثبيت الله له على دينه القويم، الذي هو سبب النجاة والفلاح والوقاية من الذنوب وغوائلها، والله يقول: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والعبد - مع هذا - محتاج إلى بذل المساعي النافعة، وسلوك المسالك الصالحة؛ لينال رضا الله وهدايته وتوفيقه؛ ﴿وَالَّذِينَ ءَاهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقُونَهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

٤ - وعن أبي موسى الأشعري رحمه الله، عن النبي ﷺ: «أنه كان يدعو بهذا الدعاء: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطْئِي وَعَمْدِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي،

(١) تقدم تخريجه (ص ٧٩٤).

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١/١٦٧).

اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ رواه البخاري ومسلم^(١).

❏ وهذا الدعاء مِنْ أَجْمَعِ الْأَدْعِيَةِ فِي الاستغفار؛ لأنه دعاءٌ بِالْفَاظِ التَّعْمِيمِ والشمول، مَعَ الْبَسْطِ والتفصيلِ بذكرِ كُلِّ مَعْنَى بصريحِ لفظِهِ، دُونَ الاكتفاءِ بِدَلَالَةِ الْلفْظِ الْآخِرِ عَلَيْهِ؛ لِيَأْتِيَ الاستغفارُ عَلَى مَا عَلِمَهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَا لَمْ يَعْلَمْهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: اغْفِرْ لِي كُلَّ مَا صَنَعْتُ، كَانَ أَوْجَزَ، وَلَكِنَّ الْفَاظَ الْحَدِيثِ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَإِظْهَارِ الْعِبُودِيَّةِ وَالافتقارِ، وَاسْتِحْضَارِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي يَتَوَبُّ الْعَبْدُ مِنْهَا تَفْصِيلاً أَحْسَنُ وَأَبْلَغُ مِنَ الْإيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ^(٢).

وهذا الدعاء والاستغفارُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْافتِقَارِ وَالْعِبُودِيَّةِ لِرَبِّهِ ﷻ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَمْتِهِ، وَأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْعِبَادِ لَا يَكُونُ فِي غِنًى عَنْ رَبِّهِ وَعَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، بَلْ حَاجَةٌ الْعِبَادِ إِلَى مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ، كَحَاجَتِهِمْ إِلَى حِفْظِهِ وَكَلَاءَتِهِ وَرِزْقِهِ، فَإِنْ لَمْ يَحْفَظْهُمْ هَلَكُوا، وَإِنْ لَمْ يَرْزُقْهُمْ هَلَكُوا، وَإِنْ لَمْ يَغْفِرْ لَهُمْ وَيَرْحَمْهُمْ هَلَكُوا وَخَسِرُوا؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُوهُمْ آدَمُ وَأُمُّهُمْ حَوَاءُ ۖ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ وَهَذَا شَأْنٌ وَلَدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا^(٣).

٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعْتُ دُعَاءَكَ اللَّيْلَةَ، فَكَانَ الَّذِي وَصَلَ إِلَيَّ مِنْهُ أَنْكَ تَقُولُ: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي)، قَالَ: (فَهَلْ تَرَاهُنَّ تَرَكْنَ شَيْئًا؟!)»؛ رواه الترمذي^(٤)، وَفِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ؛ إِلَّا أَنَّ الدُّعَاءَ الْمَذْكُورَ وَرَدَ مَا يَشْهَدُ لَهُ عِنْدَ

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٧٦).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٣)، و«جلاء الأفهام» (ص ٢٠٣)؛ كلاهما لابن القيم.

(٣) انظر: «شفاء العليل» (١/ ٣٥٧ - ٣٥٩).

(٤) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٠)، قال الألباني في «ضعيف الترمذي» (ص ٤٠٧): «ضعيف، لكن الدعاء حسن».

أحمد^(١)، مِنْ حَدِيثِ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَعِنْدَ النَّسَائِيِّ وَابْنِ السُّنِّيِّ^(٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وَهِيَ دَعْوَةٌ عَظِيمَةٌ مَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا تَنَاوَلْتُهُ. فَقَوْلُهُ: (اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي)؛ أَي: مَا وَقَعَ مِنِّي مِنْ زَلَلٍ وَتَقْصِيرٍ وَفَعَلٍ لِمَا لَا يَلِيقُ، وَغُفْرَانُ الذُّنُوبِ أَسَاسٌ لِكُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]؛ وَلِهَذَا نَاسَبَ تَقْدِيمَ طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ عَلَى سُؤَالِ اللَّهِ سَعَةَ الدَّارِ، وَالْبَرَكَةَ فِي الرِّزْقِ.

وقوله: (وَوَسَّعْ لِي فِي دَارِي)؛ أَي: وَسَّعْ لِي فِي مَسْكَنِي فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ سَعَتَهُ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا، أَوِ الْمَرَادُ الْقَبْرُ؛ فَإِنَّهُ الدَّارُ الْحَقِيقِيَّةُ، أَوِ الْمَرَادُ الْجَنَّةُ، فَهِيَ دَارُ الْخُلُودِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ مُتَنَاوِلًا لِذَلِكَ كُلِّهِ.

وقوله: (وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي)؛ أَي: اجْعَلْهُ مُبَارَكًا مُحْفُوفًا بِالْخَيْرِ، وَالْبَرَكَةُ فِي الرِّزْقِ؛ تَعْنِي: ثَبَاتُهُ وَزِيَادَتُهُ.



(١) «المسند» (٦٣/٤).

(٢) «عمل اليوم والليلة» للنسائي رقم (٨٠)، و«عمل اليوم والليلة» لابن السني رقم (٢٨).

دَعَوَاتُ جَامِعَةِ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٣)

٦ - عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يدعو: (رَبِّ، أَعْنِي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَأَمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَأَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مَطْوَعًا، لَكَ مُحِبًّا، إِلَيْكَ أَوَاهًا مُنِيبًا، رَبِّ، تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي)؛ رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه ^(١).

وهذا الدعاء العظيم اشتمل على اثنين وعشرين سؤالاً ومطلباً؛ هي من أهم مطالب العبد، وأسباب صلاحه وسعادته في الدنيا وفي الآخرة:

فأول ذلك: قوله: (رَبِّ، أَعْنِي)، وهو طلبُ العونِ مِنَ الله؛ أي: وفَّقني لِذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادتك، وفي مقابلة الأعداءِ أمدني بمعونتك وتوفيقك.

والثاني: قوله: (وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ)؛ أي: لا تُغَلِّبْ عَلَيَّ مَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ طاعتك؛ مِنَ النفسِ الأمَّارةِ بالسوء، وَمِنْ شياطينِ الإنسِ والجنِّ.

والثالث: قوله: (وَأَنْصُرْنِي)، وهو طلبُ النصر؛ أي: اغلبني على الكفار أعدائي وأعداء دينك، وقيل: أنصُرني على نفسي الأمَّارةِ بالسوء؛ فإنها أعدى أعدائي.

والرابع: قوله: (وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ)؛ بمعنى: لا تُسَلِّطْ عَلَيَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٢٧/١)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥١٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٥١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤١٤/١).

والخامس: قوله: (وَأْمُرْ لِي)؛ أي: أَلْحِقْ مَكْرَكَ بِأَعْدَائِي، وارزقني الحيلة السليمة، والفكر القويم للسلامة مِنْ شَرِّهِمْ وَدَفْعِ كَيْدِهِمْ؛ بحيثُ لَا يَشْعُرُ العدوُّ بما هَدَيْتَنِي إِلَيْهِ مِنْ سُبُلِ دَفْعِ كَيْدِهِمْ وَعَدْوَانِهِمْ.

والسادس: قوله: (وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ)؛ أي: وَلَا تَهْدِ عَدُوِّي إِلَى طَرِيقِ دَفْعِهِ إِيَّايَ عَنْ نَفْسِهِ.

والسابع: قوله: (وَاهْدِنِي)؛ أي: دُلَّنِي عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ، وَمُنَّ عَلَيَّ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَبَصِّرْنِي بَعُيُوبِ نَفْسِي.

والثامن: قوله: (وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي)؛ أي: وَسَهِّلْ لِي اتِّبَاعَ الْهَدَايَةِ، وَسُلُوكَ طَرِيقِهَا، وَهَيِّئْ لِي أَسْبَابَ الْخَيْرِ، حَتَّى لَا أَسْتَثْقِلَ الطَّاعَةَ، وَلَا أَشْتَغِلَ عَنِ الْعِبَادَةِ.

والتاسع: قوله: (وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ)؛ أي: وَاَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي وَتَعَدَّى عَلَيَّ؛ وَهَذَا تَخْصِيصٌ بَعْدَ قَوْلِهِ أَوَّلًا: (وَاَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فقوله: (وَاَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ): دَعَاءٌ عَادِلٌ لَا دَعَاءٌ مَعْتَدٍ؛ يَقُولُ: اَنْصُرْنِي عَلَى عَدُوِّي مُطْلَقًا»^(١).

والعاشر: قوله: (اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا)؛ أي: أَلْهِمْنِي شُكْرَكَ عَلَى نِعْمَاتِكَ وَآلَائِكَ عَلَيَّ.

والحادي عشر: قوله: (لَكَ ذَاكِرًا)؛ أي: فِي الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا؛ قَائِمًا، وَقَاعِدًا، وَعَلَى جَنْبٍ.

والثاني عشر: قوله: (لَكَ رَاهِبًا)؛ أي: خَائِفًا مِنْكَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

والثالث عشر: قوله: (لَكَ مِطْوَاعًا)؛ أي: كَثِيرَ الطَّوْعِ، وَهُوَ الْإِنْقِيَادُ وَالْإِمْتِثَالُ وَالطَّاعَةُ.

(١) «الرد على البكري» (١/٢٠٧).

والرابعَ عَشَرَ: قوله: (لَكَ مُخِبَتَا): مِنَ الْإِخْبَاتِ، وهو الخشوعُ والتواضعُ والخضوعُ؛ والمعنى: اجعلني لك خاشعًا متواضعًا خاضعًا.

ويقالُ: أَخْبَتَ إِلَى اللَّهِ: اطمأنَّ إِلَيْهِ، وَخَشَعَ لَهُ وَخَضَعَ، وَعَلَامَتُهُ أَنْ يَذِلَّ الْقَلْبُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ إِجْلَالًا وَذُلًّا لَهُ وَانكسارًا.

والخامسَ عَشَرَ: قوله: (إِلَيْكَ أَوَاهَا مُنِيْبًا)؛ الْأَوَاهُ: هو كثيرُ الدعاءِ والتضرُّعِ والبكاءِ، والمُنِيْبُ: هو التائبُ الراجعُ إِلَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِ.

واكتفى فِي قوله: (أَوَاهَا مُنِيْبًا)، بِصَلَةِ وَاحِدَةٍ؛ لَكُونِ الْإِنَابَةِ لَازِمَةً لِلتَّأَوُّهِ وَرَدِيْفًا لَهُ؛ فَكَأَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيْبٌ﴾ [هود: ٧٥].

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ فِي هذا وفيما قَبْلَهُ لِلإِهْتِمَامِ وَالإِخْتِصَاصِ، وَتَحْقِيقِ الْإِخْلَاصِ.

والسادسَ عَشَرَ: قوله: (رَبِّ، تَقَبَّلْ تَوْبَتِي)؛ أَي: بِجَعْلِهَا صَحِيحَةً بِشَرَائِطِهَا وَاسْتِجْمَاعِ آدَابِهَا.

والسابعَ عَشَرَ: قوله: (وَاعْسِلْ حَوْبَتِي)؛ أَي: وَامْحُ ذَنْبِي وَإِثْمِي.

والثامنَ عَشَرَ: قوله: (وَأَجِبْ دَعْوَتِي)؛ أَي: دَعَائِي.

والتاسعَ عَشَرَ: قوله: (وَوَبَّتْ حُجَّتِي)؛ أَي: عَلَى أَعْدَائِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى، وَبَّتْ قَوْلِي وَتَصَدَّقِي فِي الدُّنْيَا وَعِنْدَ سُؤْلِ الْمَلَائِكِينَ.

والعِشْرُونَ: قوله: (وَاهْدِ قَلْبِي)؛ أَي: إِلَى مَعْرِفَةِ رَبِّي، وَمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْهَدَى الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَبَعَثَ بِهِ رَسَلَهُ.

والحادي والعِشْرُونَ: قوله: (وَسَدِّدْ لِسَانِي)؛ أَي: صَوِّبْ وَقَوِّمْ لِسَانِي حَتَّى لَا يَنْطِقَ إِلَّا بِالْصَدَقِ وَالْقَوْلِ السَّيِّدِ.

والثاني والعِشْرُونَ: قوله: (وَاسْلُلْ سَخِيْمَةً صَدْرِي)؛ أَي: وَأَخْرِجْ سَخِيْمَةً صَدْرِي، وَهِيَ غِشَّةٌ وَغِلَّةٌ، وَحِقْدُهُ وَحَسَدُهُ، وَنَحْوُهَا؛ مِمَّا يَنْشَأُ مِنَ الصَّدْرِ وَيَسْكُنُ فِي الْقَلْبِ مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ.

وبهذا الشرح الموجز لما اشتمل عليه هذا الدعاء من المسائل العظيمة،
والمطالب الجليلة: يتبين عظم شأن هذا الدعاء، وأنه مما ينبغي الاهتمام به،
وملازمة التضرع به إلى الله تعالى.

وقد ذكر الحافظ البزار في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا الدعاء
كان غالب دعائه رَحِمَهُ اللهُ ^(١).



(١) «الأعلام العلية، في مناقب ابن تيمية» (ص ٣٧).

دَعَوَاتُ جَامِعَةٍ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٤)

٧ - عن عائشة رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَهَا هَذَا الدُّعَاءَ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ مِمَّا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا)؛ رواه ابن ماجه، والبخاري في «الأدب المفرد»^(١).

وفي رواية البخاري في «الأدب المفرد»، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِجُمَلِ الدُّعَاءِ وَجَوَامِعِهِ»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا جُمَلُ الدُّعَاءِ وَجَوَامِعُهُ؟ قَالَ: (قُولِي: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ...)، إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ.

فدلَّتْ هذه الرواية على أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ جَوَامِعِ الْأَدْعِيَةِ الَّتِي تَجْمَعُ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةَ، وَالْمَقَاصِدَ الصَّحِيحَةَ، وَالْأَغْرَاضَ الصَّالِحَةَ، بِالْفَافِظِ يَسِيرَةٍ. وهذا ظاهرٌ في الحديث؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ)، شَمِلَ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الظَّاهِرَةَ مِنْهَا وَالْبَاطِنَةَ.

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٤٦)، و«الأدب المفرد» للبخاري رقم (٦٣٩)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٤٢).

وقوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ)، شَمِلَ جميعَ الشرورِ في الدنيا والآخرة، الظاهرة منها والباطنة.

وقوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ): تأكيدٌ لِمَا قبله، وتفضيلٌ لاختيارِ رسولِ الله ﷺ على اختيارِ الداعي؛ لكمالِ نصحِهِ، ولِعَظَمِ حِرْصِهِ، ولكونه أَوْلَى بالمؤمنينَ من أنفسهم، وأنصحَ لأنفسهم منهم، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه.

وقوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ): دعاءٌ بالفوزِ بالجنةِ، والتمكُّنِ مِنَ الأسبابِ الموصِلةِ إليها، وهو تخصيصُ مِنَ الخيرِ بطلبِ الجنةِ؛ لأنها أعظمُ الخيرِ وأكملُهُ وأبقاه.

وقوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ): دعاءٌ بالوقايةِ مِنَ النارِ وَمِنَ الأسبابِ المُوجِبةِ لدخولِها، وهو كذلك تخصيصُ مِنَ الشرِّ بالاستعاذةِ مِنَ النارِ خاصَّةً؛ لأنها أشدُّ الشرِّ وأدهاه وأبقاه.

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا)، في رواية البخاري - في «الأدب المفرد» -: (وَمَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ، فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا)، وهي مفسرةٌ للرواية الأخرى؛ أي: أن تكونَ عواقبُ ما يقضيه الله على عبده المؤمنِ حميدةً، ومآلاتُها رشيدةً؛ إن قضى له بنعمةٍ، نالَ بها ثوابَ الشاكرين، وإن قضى له بمصيبةٍ، نالَ بها ثوابَ الصابرين المحتسبين.

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْحَدِيثِ: أُهُمِيَّةُ تَعْلِيمِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ الدُّعَاءَ؛ قَالَ الصَّنْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه: أنه ينبغي للعبدِ تعلِيمُ أَهْلِهِ أَحْسَنَ الْأَدْعِيَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ خَيْرٍ يَنَالُونَهُ فَهُوَ لَهُ، وَكُلِّ شَرٍّ يَصِيبُهُمْ فَهُوَ مَضَرَّةٌ عَلَيْهِ»^(١).

٨ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ،

وَأَجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ^(١).

وهو كذلك مِنْ جَوَامِعِ دَعَوَاتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ اشْتَمَلَ عَلَى سِوَالِ اللَّهِ صَلَاحَ الدِّينِ وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَبَدَأَ بِالْدِّينِ؛ لِأَنَّهُ بِصَلَاحِهِ يَصْلُحُ مَا سِوَاهُ.

قوله: (اللَّهُمَّ، أَصْلِحْ لِي دِينِي): دَعَاءٌ بِإِصْلَاحِ الدِّينِ؛ أَي: بِأَنْ تُوفِّقَنِي لِلْقِيَامِ بِوُجُوبَاتِهِ وَأَدَائِهِ وَمُقْتَضِيَاتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ وَالْأَتَمِّ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يُوفِّقَ اللَّهُ الْعَبْدَ لِلتَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفُقْ هَذِي السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالْأَثَمَةِ الصَّالِحِينَ؛ فِي أُمُورِ الْإِعْتِقَادِ، وَالْعِبَادَاتِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالسَّلُوكِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَامِ.

وقوله: (الَّذِي هُوَ عِصْمَةٌ أَمْرِي)؛ أَي: مَا أَعْتَصِمُ بِهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِي؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفيه: أَنَّ التَّمَسُّكَ بِالْدِّينِ عَلَى الْمَنْهَجِ الصَّحِيحِ عِصْمَةٌ لِلْعَبْدِ مِنْ مُضَلَّاتِ الْفِتَنِ، وَمِنْ الْوُقُوعِ فِي الْإِنْحِرَافَاتِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، وَأَنَّ إِضَاعَةَ الدِّينِ بِهِ انْفِرَاطُ الْأَمْرِ وَضْيَاعُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: (وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ): دَعَاءٌ بِإِصْلَاحِ الدُّنْيَا؛ أَي: بِإِعْطَاءِ الْكَفَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَبِأَنْ يَكُونَ حَلَالًا وَمُعِينًا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله: (الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي)؛ أَي: فِيهَا مَكَانُ عَيْشِي وَزَمَانُ حَيَاتِي، وَفِي هَذَا أَنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَعَاشًا مَحْدُودًا وَرِزْقًا مُقَدَّرًا لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَمِتَهُ.

وقوله: (وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي): دَعَاءٌ بِإِصْلَاحِ الْآخِرَةِ، وَإِصْلَاحُهَا بِاللَّطْفِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالتَّوْفِيقِ مِنْهُ لِلْإِخْلَاصِ فِي الطَّاعَةِ، وَحُسْنِ الْخَاتِمَةِ، وَالْفُوزِ بِالنَّبْعِ الْمَقِيمِ فِي الْجَنَّةِ.

وقوله: (الَّتِي فِيهَا مَعَادِي)؛ أي: فيها مكان رجوعي، وَزَمَنُ إِعَادَتِي إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: (وَأَجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ)؛ أي: اجْعَلْ طُولَ عَمْرِي فُرْصَةً وَسَبَبًا لِي فِي إِتْيَانِ الْخَيْرِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

وفيه: أَنَّ طَوْلَ عُمُرِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ مَدْعَاةٌ لِلزِّيَادَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ. وقوله: (وَأَجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)؛ أي: واجْعَلْ مَوْتِي وَخُرُوجِي مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَاحَةً لِي مِنَ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ، وَالْإِبْتِلَاءِ بِالْمَعْصِيَةِ وَالْغَفْلَةِ.

وفيه: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَرِيحُ غَايَةَ الرَّاحَةِ، وَيَسْلَمُ كَامِلَ السَّلَامَةِ بِلِقَاءِ رَبِّهِ ﷻ، وَيُظْفَرُ بِثَوَابِهِ الْعَظِيمِ، وَنَعِيمِهِ الْمَقِيمِ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.



دَعَوَاتُ جَامِعَةٍ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٥)

٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا)؛ رواه الترمذي، وابن ماجه ^(١).

فهذا الحديث اشتمل على دعوة جامعة تتعلق بالعلم، وما ينبغي أن يكون عليه شأن المسلم مع العلم، وهو يتكوّن من جملٍ ثلاثٍ في تحقيق هذا المطلب الجليل، والمقصود العظيم:

الأولى: قوله: (اللَّهُمَّ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي)، وفيها سؤال الله الانتفاع بما يتعلّمه من العلوم المفيدة؛ لأنّ مقصود العلم العمل، وكلُّ علم شرعيّ، فطلب الشارع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعلّد به لله؛ لأنّ الشرع إنما جاء بالتعلّد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء ﷺ، بل جاءت النصوص مشتملة على التهديد الشديد، والتغليظ والوعيد لمن لم يعمل بعلمه، وأنّ المرء يسأل يوم القيامة عن علمه ماذا عمل به، وأنّ من لم يعمل بعلمه يكون علمه وبألاً عليه وحسرةً وندامةً.

فليعظم هذا المقام وأهميته، وكونه هو المقصود الأساس لطلب العلم، قدّم هنا في هذه الدعوة على سؤال العلم، ومتى لم يحصل انتفاع بالعلم، فإنه يكون وبألاً وحجّة على صاحبه؛ كما قال ﷺ: (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ) ^(٢)؛ فهو حجة لصاحبه إن عمل به، وحجة عليه إن فرط في العمل.

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٣)، وصحّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٤٧٦/٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٦٩).

ولربما سَعِدَ النَّاسُ بِعِلْمِ الْإِنْسَانِ سَعَادَةً لَمْ يَنْلُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِهِ؛ لِتَفْرِيطِهِ بِالْعَمَلِ؛ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَحْسَنِ الدَّعَاءِ قَوْلُهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي عَبْرَةً لْغَيْرِي، وَلَا تَجْعَلْ أَحَدًا أَسْعَدَ بِمَا عَلَّمْتَنِي مِنِّي»^(١).

وهي دعوة مأثورة عن مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ، رواها عنه الإمام أحمد في كتابه «الزهد»^(٢).

الثانية: قوله: (وَعَلَّمَنِي مَا يَنْفَعُنِي)، وفيها سؤال الله أن يَمَنَّ عليه بالعلم النافع، وهو علم الشريعة الذي يُفِيدُ الْمُكَلَّفَ ما يجبُ عليه مِنْ أَمْرِ دِينِهِ، فِي عِبَادَتِهِ وَمَعَامَلَاتِهِ، وَالْعِلْمُ بِاللَّهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ وَتَحْقِيقِ طَاعَتِهِ. وَمِنْ عِلَامَةِ إِرَادَةِ اللَّهِ الْخَيْرَ بَعْدَهُ أَنْ يُوَفِّقَ عَبْدَهُ لَطَلَبِ هَذَا الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)^(٣).

وَلَا تُنَالُ هَذِهِ الْخَيْرِيَّةُ بِمَجَرَّدِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، بَلْ لَا بَدَّ مِنَ الْعَمَلِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَفْهُومُ الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَفْقَهُهُ فِي دِينِهِ لَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا، كَمَا أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا فَقَّهَهُ فِي دِينِهِ، وَمَنْ فَقَّهَهُ فِي دِينِهِ، فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، إِذَا أُرِيدَ بِالْفَقْهِ الْعِلْمُ الْمُسْتَلَزِمُ لِلْعَمَلِ، وَأَمَّا إِنْ أُرِيدَ بِهِ مَجَرَّدُ الْعِلْمِ، فَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ فَقَّهَ فِي الدِّينِ فَقَدْ أُرِيدَ بِهِ خَيْرًا، فَإِنَّ الْفَقْهَ حِينَئِذٍ يَكُونُ شَرْطًا لِإِرَادَةِ الْخَيْرِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ مُوجِبًا»^(٤).

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ^(٥).

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٠٧/١٤).

(٢) «الزهد» للإمام أحمد رقم (١٣٥٨).

(٣) رواه البخاري رقم (٧١)، ومسلم رقم (١٠٣٧).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (٢٤٦/١).

(٥) رواه مسلم رقم (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثالثة: قوله: (وَزِدْنِي عِلْمًا)، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؛ حيثُ أَمَرَ سبحانه نبيّه ﷺ أن يسأله زيادة العلم؛ فإنَّ العلمَ خيرٌ، وكثرةُ الخيرِ مطلوبةٌ، وهي من الله ﷻ، والطريقُ إليها: الاجتهادُ، والشوقُ للعلمِ، وسؤالُ الله، والاستعانةُ به، والافتقارُ إليه في كلِّ وقت.

والعبدُ لا يزالُ بخيرٍ ما كان على هذه الحالِ، مجتهدًا في تعلُّم ما ينفعه، منتفعًا بما يتعلَّمه، وفي ازديادٍ من ذلك إلى أن يَلْقَى الله ﷻ، فَأَنعَمَ بها مِنْ حالٍ! وأكرَمَ به مِنْ مآلٍ!

❦ وههنا لا بدَّ مِنَ التنبيةِ إلى أن مَنْ يدعو الله بأن يَمَنَحَهُ العلمَ النافع، وأن ينفعَهُ بما علَّمه، وأن يَزِيدَهُ علمًا، لا بدَّ له - معَ هذا - مِنْ بذلِ الأسبابِ المشروعةِ لتحصيلِ العلمِ، وحُسْنِ الانتفاعِ به؛ مِنْ خلالِ التدرُّجِ في مراتبه، والترقيِّ في منازلِهِ، والسلوكِ في طريقه، لا أن يَقْتَصِرَ على الدعاءِ دُونَ بذلِ للأسبابِ؛ فإنَّ «الأدعيةَ القرآنيَّةَ والنبويَّةَ الأُمْرُ بها أو الثناءَ على الداعين بها يَسْتَتَبِعُ لوازمَها ومتمماتِها، فسؤالُ الله الهدايةَ يستدعي فعلَ جميعِ الأسبابِ التي تُدْرِكُ بها الهدايةَ العلميَّةَ والعَمَلِيَّةَ»^(١)، وكذلك سؤالُ الله العلمَ يستدعي فعلَ جميعِ الأسبابِ التي يُنالُ بها العلمُ، وَيَتَحَقَّقُ مِنْ خلالها الانتفاعُ به.

وقد لَخَّصَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ فِي سِتِّ نِقَاطٍ؛ فَقَالَ: «لِلْعَلْمِ سِتُّ مَرَاتِبَ: (أولها): حُسْنُ السُّؤَالِ، (الثانية): حُسْنُ الْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ، (الثالثة): حُسْنُ الْفَهْمِ، (الرابعة): الْحِفْظُ، (الخامسة): التَّعْلِيمُ، (السادسة) - وهي ثَمَرَتُهُ -: وهي الْعَمَلُ بِهِ وَمِرَاعَاةُ حَدُودِهِ»^(٢)، ثُمَّ بَيَّنَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ حِرْمَانَ الْعِلْمِ يَكُونُ بِأَضْدَادِ هَذِهِ الْأُمُورِ: بِتَرْكِ السُّؤَالِ، وَسُوءِ الْإِنْصَاتِ وَعَدَمِ الْإِقَاءِ السَّمْعِ، وَسُوءِ الْفَهْمِ، وَعَدَمِ الْحِفْظِ، وَعَدَمِ نَشْرِ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمِهِ، وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ.

(١) «مجموع الفوائد» لابن سعدي (ص ٩٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١١).

وكم هو جميلٌ بالمسلم أن يُذركَ حاجتَهُ إلى العلم، وضرورتهُ إليه،
 فيسألَ ربَّهُ أن يسلِّكَ به طريقَ العلمِ النافع، وأن يُوفِّقَهُ للانتفاعِ والارتفاعِ في
 درجاتِ العلمِ والعمل. وحاجةُ العبدِ إلى العلمِ أعظمُ مِنْ حاجتِهِ إلى الطعامِ
 والشراب؛ لأنَّ حاجةَ المرءِ إلى الطعامِ والشرابِ في اليومِ مرَّاتٍ معدودةً، وأمَّا
 حاجتُهُ إلى العلمِ، ففي جميعِ الأوقات.

قال الإمام أحمد رحمته الله: «الناسُ أحوَجُ إلى العلمِ منهم إلى الطعامِ
 والشراب؛ لأنَّ الطعامَ والشرابَ يُحتَاجُ إليه في اليومِ مرَّةً أو مرتين، والعلمُ
 يُحتَاجُ إليه في كلِّ وقت»^(١).

هذا، وإنا لنسألُ الله أن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يُعلِّمنا ما ينفعنا، وأن
 يزيدنا علمًا؛ إنه سميعٌ مجيبٌ قريب.



(١) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/٣٠١).

أَحَادِيثُ الْأَسْتِعَاذَةِ (١)

إِنَّ الاستعاذَةَ بَابٌ مَهْمٌ فِي الْأَدْعِيَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالْأَحَادِيثُ الثَّابِتَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْبَابِ دَالَّةٌ كُلُّهَا عَلَى عَظِيمِ عَنَانِيَّتِهِ، وَشِدَّةِ اهْتِمَامِهِ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الدُّعَاءِ، فَأَحَادِيثُ الْإِسْتِعَاذَةِ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ كَذَلِكَ مُتَنَوِّعَةٌ مِنْ حَيْثُ الْأُمُورُ الَّتِي اسْتَعَاذَ مِنْهَا ﷺ، أَوْ أَمَرَ بِالْإِسْتِعَاذَةِ مِنْهَا.

وَلَا بَدَّ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ مَعْرِفَةِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

الأول: معرفة معنى الاستعاذَةِ:

وَهِيَ طَلَبُ الْعَوْدِ؛ قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ: «عَاذَ» وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى التَّحَرُّزِ وَالتَّحْصُنِ وَالنَّجَاةِ، وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهَا: الْهَرُوبُ مِنْ شَيْءٍ تَخَافُهُ إِلَى مَنْ يَعْصِمُكَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا يُسَمَّى الْمُسْتَعَاذُ بِهِ مَعَاذًا، كَمَا يُسَمَّى مَلَجًا وَوَزْرًا»^(١).

الثاني: معرفة الْمُسْتَعَاذِ بِهِ:

وَالْمُسْتَعَاذُ بِهِ الَّذِي يُطَلَبُ مِنْهُ الْعَوْدُ، وَيُعْتَصَمُ بِهِ، وَيُلْتَجَأُ وَيُهْرَبُ إِلَيْهِ: هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَلَا يُسْتَعَاذُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُسْتَعَاذُ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْمُسْتَعِيزِينَ، وَيَعْصِمُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذُوا مِنْ شَرِّهِ.

فَالْإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، يَجِبُ إِفْرَادُهَا سُبْحَانَهُ بِهَا، وَعَدَمُ

(١) «بدائع الفوائد» (٢/٢٠٠).

إِشْرَاكِ شَيْءٍ آخَرَ مَعَهُ فِيهَا؛ وَهَذَا مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، الَّذِي هُوَ أَسَاسُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ، وَفَلَاحِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الْإِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْخَلْقِ، فَإِنَّهَا طُغْيَانٌ وَشَرٌّ عَظِيمٌ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ مُؤْمِنِي الْجَنِّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه - فِي هَذِهِ الْآيَةِ -: «كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَبْتَغُونَ أَعُوذَهُمْ بِالْوَادِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَقُولُونَ: أَعُوذُ بِعَزِيزِ هَذَا الْوَادِي، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ إِثْمًا»^(١).
لَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الشُّرْكِ؛ وَلِذَا نَزَلَتْ سُورَتَا الْمَعُودَتَيْنِ لِتُعَلِّمَ الْإِسْتِعَاذَةَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَالتَّبَرُّؤَ مِنَ الْإِسْتِعَاذَةِ بِغَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ أَذْكَارُ الْإِسْتِعَاذَةِ الْمَأْثُورَةِ، فَإِنَّهَا إِرْشَادٌ لِلذَلِكَ.

وَعَلَى كُلِّ، فَإِنَّ مِنَ الضَّرُورِيِّ مَعْرِفَةَ الْعَبْدِ أَنَّ لَيْسَ لِلْخَلْقِ مَعَاذٌ وَلَا مَلْجَأٌ وَلَا مَنْجَى سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ يُسْتَعَاذُ مِنْهُ إِلَّا بِاللَّهِ رَبِّهِ وَخَالِقِهِ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ.

وَهَذَا كُلُّهُ تَحْقِيقٌ لِلتَّوْحِيدِ وَالْقَدَرِ، وَأَنَّهُ لَا رَبَّ غَيْرَهُ، وَلَا خَالِقَ سِوَاهُ، وَلَا يَمْلِكُ الْمَخْلُوقُ لِنَفْسِهِ وَلَا لْغَيْرِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ مِنْهُ شَيْءٌ.

الثالث: معرفة أنواع المستعاذ منه:

فَقَدْ وَرَدَ فِي السُّنَنِ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ أَنْوَاعٍ عَدِيدَةٍ مِمَّا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِيَعَصِمَهُ مِنْهَا، وَهِيَ فِي الْجُمْلَةِ نَوْعَانِ: مَوْجُودٌ يُطْلَبُ رَفْعُهُ، وَمَعْدُومٌ يُطْلَبُ بَقَاؤُهُ عَلَى الْعَدَمِ، وَأَنْ لَا يُوجَدَ؛ كَمَا أَنَّ الْخَيْرَ الْمَطْلُوقَ نَوْعَانِ: مَوْجُودٌ يُطْلَبُ دَوَامُهُ وَثَبَاتُهُ وَأَنْ لَا يُسْلَبَ، وَمَعْدُومٌ يُطْلَبُ وَجُودُهُ وَحَصُولُهُ.

فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ هِيَ أَمَّهَاتُ مَطَالِبِ السَّائِلِينَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلَيْهَا مَدَارُ طَلِبَاتِهِمْ.

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٣٢٢/٢٣).

وإذا تبين هذا، فينبغي للعبد المسلم معرفة أنواع ما جاءت السنة النبوية بالاستعاذة منها، لاسيما ما كان من ذلك بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد، وأعمه استعاذة.

وسنقف بإذن الله ﷻ على جملة طيبة من الأحاديث الواردة في هذا الباب، مع بيان لشيء من معانيها ودلالاتها:

١ - فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِلشُّرْكَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتُهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟)، قَالَ: (قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)؛ رواه البخاري في «الأدب المفرد»^(١).

وله شاهد من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشُّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ)، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (قُولُوا: اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ)»؛ رواه أحمد في «المسند»^(٢).

وقد اشتمل هذا الحديث على أعظم شئ يستعاذ بالله منه؛ فإن الشرك بالله أظلم الظلم، وأعظم الإثم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، والآيات في بيان خطر الشرك وعظم جرمه كثيرة.

وفي الحديث السابق بيان أن الشرك قد يكون خفياً كخفاء دبيب النمل، حتى إنه لخفائه قد يقع فيه العبد ويتسلل إلى نفسه وهو لا يعلم؛ وهذا مما

(١) «الأدب المفرد» رقم (٧١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٥٤).

(٢) «مسند أحمد» (٤٠٣/٤)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٣٦).

يوجبُ شِدَّةَ الحذرِ منه، وضرُورةَ معرفتهِ لِيُتَّقَى وَيُجْتَنَّبَ، مَعَ الاعتصامِ باللهِ تعالى والالتجاءِ إليه لِيَعَصِمَ العبدُ مِنَ الشُّرِكِ بِأَنْوَاعِهِ، وَيَقِيَهُ مِنْ شَرِّهِ وَعَوَاقِبِهِ الْوَحِيمَةِ؛ وَهَذَا مَا أُرْشِدَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ؛ حَيْثُ عَلَّمَ أُمَّتَهُ الْإِسْتِعَاذَةَ بِاللَّهِ مِنَ الشُّرِكِ كُلِّهِ مَا عَلَّمَهُ الْعَبْدُ وَمَا لَمْ يَعْلَمْهُ؛ قَالَ: (قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)، فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ دَعْوَةٍ! وَمَا أَشَدَّ حَاجَةَ الْعَبْدِ إِلَى الْعَنَايَةِ بِهَا! أَعَاذَنَا اللَّهُ أَجْمَعِينَ مِنَ الشُّرِكِ مَا عَلَّمْنَا مِنْهُ وَمَا لَمْ نَعْلَمْ، وَهَدَانَا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا.



أَحَادِيثُ الْأَسْتِعَاذَةِ (٢)

٢ - عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحَيُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)؛ رواه مسلم ^(١).

وفي هذا الدعاء التَعَوُّذُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَالِ، وهو الانحرافُ عن صراطِ اللَّهِ المستقيم، وسبيلِهِ القويم، ودينِهِ الحنيف.

وقوله: (اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ)؛ أي: اسْتَسَلَمْتُ وانقذتُ لأمرِكَ ونهيكَ، وقَدَّم الجارَّ والمجرور: «لَكَ»؛ لإفادة القصرِ والاختصاص؛ أي: أسلمتُ لك وَحْدَكَ لا لغيرِكَ.

وقوله: (وَبِكَ آمَنْتُ)؛ أي: بذاتِكَ العليَّة، وما يليقُ بها مِنْ صفاتِ الكمالِ آمَنْتُ؛ أي: صَدَّقْتُ وأقررتُ، ويدخُلُ في الإيمانِ به سبحانه الإيمانُ بكلِّ ما أَمَرَ عباده بالإيمانِ به؛ كالملائكة، والكُتُبِ، والرسلِ، واليومِ الآخر.

وقوله: (وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ)؛ أي: فَوَضَّتُ أمري إليك دون غيرِكَ.

وقوله: (وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ): مِنَ الْإِنَابَةِ؛ أي: رجعتُ إلى عبادتِكَ وما يُقَرِّبُ إليك، وأعرضتُ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ.

وقوله: (وَبِكَ خَاصَمْتُ)؛ أي: بك أحتجُّ وأدافع، وبما أُعْطِيتَنِي مِنَ الْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ خَاصَمْتُ أَعْدَاءَكَ أَعْدَاءَ الدِّينِ، فَقَصَمْتُ ظُهُورَهُم بِالْبَرَاهِينِ

(١) تقدم تخريجه (ص ٨٨٧).

القُوَّةَ، وَفَلَجْتُ حُجَّتَهُم بِالْحَجَجِ السَّنِيَّةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْإِعْتِصَامِ بِاللَّهِ؛ ﴿وَمَنْ يَتَّصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ)، هو استعاذةٌ بصفةٍ مِنْ صفاتِ الله، وهي العِزَّةُ، والعِزُّ فِي الْأَصْلِ: الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ، وَالْغَلْبَةُ وَالْمَنْعَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ﴾ [المنافقون: ٨]؛ أَي: لَهُ الْقُوَّةُ وَالْغَلْبَةُ.

وقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)، شَهَادَةٌ وَإِقْرَارٌ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ.

وقوله: (أَنْ تُضِلَّنِي)؛ أَي: مِنْ أَنْ تُضِلَّنِي، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بـ (أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ)؛ وَفِي هَذَا أَنَّ الْهَدَايَةَ وَالضَّلَالَ بِيَدِ اللَّهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلِّلْهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقوله: (أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ): ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ التَّامَّةُ الْمُنْزَهَةُ عَنِ النِّقْصِ وَالْفَنَاءِ.

وقوله: (وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ): تَأْكِيدٌ لِانْفِرَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِكَمَالِ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْإِعْتِمَادَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَأَمَّا الْأَحْيَاءُ الَّذِينَ يَمُوتُونَ، فَلَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِمْ؛ فَكَيْفَ بِالْأَمْوَاتِ وَالْمَقْبُورِينَ؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغِيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

٣ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِكَلِمَاتِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِهِنَّ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ)»^(١).

وقد اشتمَلَ هذا الحديثُ على التَعَوُّذِ بالله مِنْ خمسة أمور:

أحدها: قوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ)، وهو تَعَوُّذٌ مِنَ الْجُبْنِ، وهو ضِدُّ الشَّجَاعَةِ؛ أي: المَهَابَةِ لِلْأَشْيَاءِ والتَّأَخُّرِ عَنْ فَعْلِهَا، وهو نَاتِجٌ عَنْ ضَعْفِ الْقَلْبِ، وخَشْيَةِ النَّفْسِ، وهو مِنَ الْخِلَالِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ فِي الْمُؤْمِنِ.

الثاني: قوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ)، وهو تَعَوُّذٌ مِنَ الْبُخْلِ، وهو مَنَعُ الْوَاجِبِ، أَوْ مَنَعُ السَّائِلِ عَمَّا يَفْضُلُ عِنْدَهُ، أَوْ أَنْ لَا يُعْطِيَ شَيْئًا، وهو مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

والثالث: قوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ)، وهو تَعَوُّذٌ مِنَ الرَّدِّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ؛ أي: الرجوع إلى أَرْدَلِ الْعُمَرِ، وهو الْبُلُوغُ إِلَى حَدٍّ فِي كِبَرِ السِّنِّ، يَعُودُ مَعَهُ كَالطُّفْلِ فِي ضَعْفِ عَقْلِهِ، وَقِلَّةِ فَهْمِهِ، وَوَهْنِ قَوَاهِ.

فالرُّدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ حَالَةٌ مُنَافِيَةٌ لِمَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ عَلَى وَجْهِهَا الْأَكْمَلِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْهُ مَطْلُوبَةً؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤَفِّكُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

والرابع: قوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا)، وهو تَعَوُّذٌ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَفِتْنَتُهَا: شَهَوَاتُهَا الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُلْهِيَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَنِ عِبَادَتِهِ، وَتُطْمَسَ الْقَلْبُ عَنْ التَّطَلُّعِ إِلَى شُهُودِ آيَاتِهِ وَمِنْهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾

[آل عمران: ١٤].

والخامس: قوله: (وَعَذَابِ الْقَبْرِ)؛ أي: وأعوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وهو ما يكونُ فِي الْبَرْزَخِ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى الرُّوحِ وَالْبَدَنِ لِمَنْ اسْتَحَقَّ ذَلِكَ؛ كما قال تعالى عَنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۖ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]، وفي هذا التَّعَوُّذُ دَلِيلٌ عَلَى إِبْطَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ؛ خِلَافًا لِمَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ.



أَحَادِيثُ الْإِسْتِعَاذَةِ

(٣)

٤ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان نبيُّ الله ﷺ يقول: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ)؛ رواه البخاري ومسلم^(١).

وهذا الدعاء المبارك اشتمل على الاستعاذة من سبعة أمور:

أحدها: قوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ)، وهو تعوُّذٌ مِنَ الْعَجْزِ، وهو ضِدُّ الْقُدْرَةِ، وأصله: التأخُّرُ عن الشيء، مأخوذٌ مِنَ الْعَجْزِ، وهو مؤخَّرُ الشيء، ولِلزُّومِ الضعفُ عن الإتيانِ بالشيءِ استُعْمِلَ في مقابلِ الْقُدْرَةِ؛ فقليل: هو ذهابُ الْقُدْرَةِ، وكلاهما يَحْسُنُ التَّعَوُّذُ منه؛ والاستعاذةُ مِنَ الْعَجْزِ لئلا يَعْجِزَ العبدُ عن القيامِ بمهمَّاتِ العباداتِ الناشئة عن ارتكابِ الذنوب؛ لأنها تُوجِبُ لمرتكبها تَوَالِيَّ العَوَاقِبِ، وتَسَابُقُ المَوَانِعِ إليه.

والثاني: قوله: (وَالْكَسَلِ)، وهو معطوفٌ على الْعَجْزِ؛ أي: وأعوذُ بك من الكسلِ، وهو فَتْرَةُ النَّفْسِ والتثاقُلُ عن صالحِ الأَعْمَالِ مَعَ الْقُدْرَةِ عليه؛ إيثَارًا لراحةِ الْبَدَنِ على التعبِ، ويكونُ ذلك لعدمِ انبعاثِ النَّفْسِ للخيرِ، وضعفِ الرِّغْبَةِ فيه.

قال العلامة ابن القيم رحمته الله: «وَالْعَجْزُ وَالْكَسَلُ قرينان؛ فَإِنَّ تَخَلُّفَ مصلحةِ الْعَبْدِ وكماله وَلَدَّتِهِ وسروره عنه: إمَّا أَنْ يَكُونَ مصدرُهُ عَدَمُ الْقُدْرَةِ - فهو الْعَجْزُ - أَوْ يَكُونَ قَادِرًا، لَكِنْ تَخَلَّفَ لعدمِ إِرَادَتِهِ - فهو الْكَسَلُ - وصاحبه يُلَاحِظُ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٦).

عليه ما لا يُلَامُ على العجز، وقد يَكُونُ العجزُ ثَمَرَةَ الكسلِ، فيلَامُ عليه أيضًا، فكثيرًا ما يَكْسَلُ المرءُ عَنِ الشَّيْءِ الذي هو قَادِرٌ عليه، وَتَضَعُفُ عنه إرادته، فيُفْضِي به إلى العجزِ عنه»^(١).

وإنَّما استعاذَ النبي ﷺ مِنَ العجزِ والكسلِ؛ لأنَّهما يَمْنَعَانِ العبدَ مِنْ أَدَاءِ الحقوقِ الواجبةِ عليه، وَمِنْ تحصيلِ مصلحتهِ النافعةِ له.

والثالث: قوله: (وَالْجُبْنُ)؛ أي: وأعوذُ بك مِنَ الْجُبْنِ، وقد تقدَّمَ الكلامُ عنه، وَذَكَرُ التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَمِنْ الْبُخْلِ.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْجُبْنُ والبخلُ قرينان؛ فَإِنَّ الإحسانَ يُفْرِحُ القلبَ، وَيُشْرَحُ الصدرَ، وَيَجْلِبُ النِّعَمَ، ويدفعُ النِّقَمَ، وَتَرْكُهُ يوجبُ الضَّيْمَ والضَّيْقَ، وَيَمْنَعُ وُصُولَ النِّعَمِ إليه؛ فَالْجُبْنُ: تركُ الإحسانِ بالبدنِ، وَالبُخْلُ: تركُ الإحسانِ بالمالِ»^(٢).

وقال أيضًا: «فإنَّ الإحسانَ المتوقَّعَ مِنَ العبدِ إمَّا بماله، وإمَّا ببدنه؛ فالْبُخْلُ مانعٌ لنفعِ ماله، والجبانُ مانعٌ لنفعِ بدنه»^(٣).

والرابع: قوله: (وَالْهَرَمُ)؛ أي: وأعوذُ بك مِنَ الْهَرَمِ، وهو البلوغُ في العمرِ إلى سِنِّ تَضَعُفٍ فِيهِ الْحَوَاسُّ وَالْقُوَى، ويضطربُ فِيهِ الْفَهْمُ وَالْعَقْلُ، وهو أَرْدَلُ الْعُمْرِ الذي جاءَ التَّعَوُّذُ مِنْهُ فِي قوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ)، وقد سبقَ ذِكْرُهُ وبيانُ معناه.

قال العلامة الشُّوكَانِي رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا مجردُ طولِ الْعُمْرِ مع سلامةِ الْحَوَاسِّ وصِحَّةِ الإدراكِ، فذلك مما ينبغي الدعاءُ به؛ لِأَنَّ بقاءَ الْمُؤْمِنِ ممتَّعًا بحواسِّه، قائمًا بما يجبُ عليه، متجنِّبًا لِمَا لَا يَحِلُّ لَهُ فِيهِ حصولُ الثَّوَابِ، وزيادةُ الْخَيْرِ»^(٤). وفي الحديث: (خَيْرُ النَّاسِ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسَنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّ

(١) «مفتاح دار السعادة» (٣٧٦/١).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٤٦٠).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (٣٧٦/١ - ٣٧٧).

(٤) «تحفة الذاكرين» (ص ٣٤٨).

النَّاسِ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ^(١)؛ رواه أحمد^(٢).

وأعظم ما يُعِينُ على سَلَامَةِ الْحَوَاسِّ وَصِحَّةِ الْإِدْرَاكِ حَالُ الْكِبَرِ: المحافظةُ على الطاعة، والمواظبةُ على العبادة، وفي الحديث: (أَحْفَظُ اللَّهِ يَحْفَظُكَ)^(٣)، وكذلك ذكرُ الله، وتلاوةُ كتابه؛ قال عبد الملك بن عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَبْقَى النَّاسِ عَقُولًا قَرَأَةُ الْقُرْآنِ»، وقال الشَّعْبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَخْرَفْ»^(٤).

والخامس: قوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ) وقد تَقَدَّمَ الْكَلَامُ على مثله في حديثٍ سابق، وعَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ، وقد قال ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ)^(٥).

والسادس والسابع: قوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ)، وهو تَعَوُّذٌ مِنْ فِتْنَةِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ.

قال ابن دَقِيقِ الْعِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَفِتْنَةُ الْمَحْيَا): مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ الْإِنْسَانُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ مِنَ الْإِفْتِتَانِ بِالْدُنْيَا وَالشَّهَوَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، وَأَشَدُّهَا وَأَعْظَمُهَا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى - أَمْرُ الْخَاتِمَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ.

وَفِتْنَةُ الْمَمَاتِ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الْفِتْنَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ، أُضِيفَتْ إِلَى الْمَوْتِ لِقُرْبِهَا مِنْهُ، وَيَكُونُ فِتْنَةُ الْمَحْيَا - عَلَى هَذَا - مَا يَقَعُ قَبْلَ ذَلِكَ فِي مُدَّةِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَتَصَرُّفِهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَا قَارَبَ شَيْئًا يُعْطَى حُكْمُهُ، فَحَالَةُ الْمَوْتِ شَبَّهَ بِالْمَوْتِ، وَلَا تُعَدُّ مِنَ الدُّنْيَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِفِتْنَةِ الْمَمَاتِ فِتْنَةُ الْقَبْرِ... وَلَا يَكُونُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مُتَكَرِّرًا مَعَ قَوْلِهِ: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ

(١) «مسند أحمد» (٤٠/٥)، ورواه الترمذي (٢٣٣٠)؛ من حديث أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه لغيره الألباني في «صحيح الترمذي والترهيب» (٣٣٦٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٦١).

(٣) رواهما ابن أبي الدنيا في كتاب «العمر والشيب» (ص ٧٥).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٨١/٦)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٧).

القَبْرِ)؛ لَأَنَّ الْعَذَابَ مُرْتَبِّ عَلَى الْفِتْنَةِ، وَالسَّبَبُ غَيْرُ الْمُسَبَّبِ، وَلَا يُقَالُ: إِنَّ الْمَقْصُودَ زَوَالَ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ لَأَنَّ الْفِتْنَةَ نَفْسُهَا أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ شَدِيدٌ مُسْتَعَاذٌ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ»^(١).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا فِتْنَةُ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، فَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: هَذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ، وَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَرْغَبَ إِلَى رَبِّهِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ»^(٢).

وَالشَّيْطَانُ أَحْرَصُ مَا يَكُونُ عَلَى إِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ وَقَتَ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّهُ وَقْتُ الْحَاجَةِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: (الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا)^(٣)، وَعَدُوُّ اللَّهِ أَحْرَصُ مَا يَكُونُ عَلَى أَنْ لَا يُخْتَمَ لِعَبْدِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِ بِالْخَاتِمَةِ الْحَسَنَةِ الطَّيِّبَةِ؛ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ: «لَمَّا خَضَرَتْ أَبِي الْوَفَاءُ، جَعَلَ يَقُولُ: لَا بَعْدُ، لَا بَعْدُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟ فَقَالَ: إِبْلِيسُ قَائِمٌ حِذَائِي، عَاضُ عَلَى أَنْفِئِهِ، يَقُولُ لِي: يَا أَحْمَدُ، فُتِّنِي، وَأَنَا أَقُولُ لَهُ: لَا بَعْدُ، حَتَّى أَمُوتَ»^(٤)؛ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ!



(١) «إِحْكَامُ الْأَحْكَامِ، شَرْحُ عَمْدَةِ الْأَحْكَامِ» (٢/ ٧٥ - ٧٦).

(٢) «فَتْحُ الْبَارِي» (١١/ ١٧٦).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَقْمَ (٦٤٩٣)؛ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

(٤) انْظُرْ: «مَنَاقِبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» لِابْنِ الْجَوَازِيِّ (ص ٤٩٥).

أَحَادِيثُ الْأِسْتِعَاذَةِ (٤)

٥ - عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: «لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا، أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا)»؛ رواه مسلم^(١).

أول هذا الحديث، وهو قوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ)؛ اشتمل على التَعَوُّذِ مِنْ سِتَّةِ أُمُورٍ تَقَدَّمَ الكلامُ عنها في الأحاديثِ المذكورةِ قبله.

وقوله: (اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا...)، إلى آخرِ الحديثِ، تَضَمَّنَ الدَّعَاءَ بِتَقْوَى النَّفْسِ وَتَرْكِتِهَا، والاستعاذةِ مِنْ أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا؛ وهي أُمُورٌ عَظِيمَةٌ، ومطالبٌ جَلِيلَةٌ؛ يَحْسُنُ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا، وتَأْمَلُ مَعَانِيهَا وَمَقَاصِدَهَا.

قال العَلَّامةُ الشُّوكَانِي رحمته الله: «وقد اشتملَ هذا الحديثُ على الدَّعَاءِ مِنْهُ ﷺ بِأَنْ يُعْطِيَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ نَفْسَهُ تَقْوَاهَا وَأَنْ يَزَكِّيَهَا؛ أَي: يَجْعَلَهَا زَاكِيَةً كَامِلَةً فِي الْإِيمَانِ.

ثم استعاذَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ وَبَالًا عَلَى صَاحِبِهِ، وَحُجَّةً عَلَيْهِ،

واستعاذَ أَيضًا مِنَ الْقَلْبِ الَّذِي لَا يَخْشَعُ؛ لَأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ قَاسِيًا، لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَلَا نَصِيحَةٌ، وَلَا يَرْغَبُ فِي تَرْغِيبٍ، وَلَا يَرْهَبُ مِنْ تَرْهيبٍ.

واستعاذَ مِنَ النَّفْسِ الَّتِي لَا تَشْبَعُ؛ لِأَنَّهَا تَكُونُ مُتَكَالِبَةً عَلَى الْحُطَامِ، مُتَجَرِّئَةً عَلَى الْمَالِ الْحَرَامِ، غَيْرَ قَانِعَةٍ بِمَا يَكْفِيهَا مِنَ الرِّزْقِ، فَلَا تَزَالُ فِي تَعَبِ الدُّنْيَا، وَعَقُوبَةِ الْآخِرَةِ.

واستعاذَ مِنَ الدَّعْوَةِ الَّتِي لَا يُسْتَجَابُ لَهَا؛ لِأَنَّ الرَّبَّ سَبْحَانَهُ هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعَ، الْبَاسِطُ الْقَابِضُ، الضَّارُّ النَّافِعُ، فَإِذَا تَوَجَّهَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ فِي دَعَائِهِ، وَلَمْ يَسْتَجِبْ دَعْوَتَهُ، فَقَدْ خَابَ الدَّاعِي وَخَسِرَ؛ لَأَنَّهُ طُرِدَ مِنَ الْبَابِ الَّذِي لَا يُسْتَجْلَبُ الْخَيْرُ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُسْتَدْفَعُ الضَّرُّ إِلَّا بِهِ^(١).

وقوله: (اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا)؛ فِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَالْمَهْمَا مُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس].

وفيه بيانٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ أَفْعَالَ الْعَبْدِ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، وَهُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي النَّفْسِ بِمَا أَرَادَ مِنْ إعْطَائِهَا التَّقْوَى، وَمِنْ التَّزْكِيَةِ لَهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالْآثَامِ؛ فَالْعَبْدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ حَيَاتِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَى رَبِّهِ، إِلَى هِدَايَةِ يَجْعَلُهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي قَلْبِهِ، وَحَرَكَاتٍ يُحَرِّكُهُ بِهَا فِي طَاعَتِهِ، وَقَدْ كَانَ عَامَّةُ أَدْعِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ مُتَضَمِّنَةً لَطَلْبِ تَوْفِيقِ رَبِّهِ، وَتَزْكِيَتِهِ لَهُ، وَاسْتِعْمَالِهِ فِي مَحَابَّتِهِ، فَمَنْ هَذَاهُ وَصْلَاحُهُ وَأَسْبَابُ نَجَاتِهِ بِيَدِ غَيْرِهِ؟! وَهُوَ الْمَالِكُ لَهُ وَلِهَا، الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ، لَيْسَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ، مَنْ أَحَقُّ بِالْخَوْفِ مِنْهُ؟!!

وقوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا):

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «اعْلَمْ أَنَّ فِي كُلِّ مِنَ الْقَرَائِنِ الْأَرْبَعِ مَا يُشْعِرُ بَأْنَ وَجُودَهُ مَبْنِيٍّ عَلَى غَايَتِهِ، وَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْهُ تِلْكَ الْغَايَةُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ تَحْصِيلَ الْعُلُومِ

إنما هو للانتفاع بها، فإذا لم ينتفع بها، لم يخلص منها كفافاً، بل كان عليه وبالاً؛ ولذا استعاذ من ذلك.

وَأَنَّ الْقَلْبَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَتَخَشَّعَ لِلرَّبِّ، وينشرح بذلك الصدر، ويُقْذَفَ فيه النورُ، فإذا لم يكن كذلك كان قاسياً، فيجب أن يُستعاذ منه؛ قال تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْفَنَاسَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وَأَنَّ النَّفْسَ يُعْتَدُّ بِهَا إِذَا تَجَافَتْ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَأَنَابَتْ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ؛ فإذا كانت منهومة لا تشبع، وحريصة على الدنيا لا تقنع، كانت أعدى عدو المرء؛ فأولَى شيء يُستعاذ منه هي.

وعدم استجابة الدعاء دليل على أَنَّ الداعي لم ينتفع بعلمه وعمله، ولم يخشع قلبه، ولم تشبع نفسه، والله أعلم^(١).

٦ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان النبي ﷺ يقول: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدِّينِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)؛ رواه البخاري^(٢).

وقد اشتمل هذا الحديث على التعوذ بالله من ثمانية أمور:

الأول والثاني: (الْهَمُّ وَالْحَزَنُ)، وهما ألم يصيب القلب، والهم متعلق بالمستقبل، والحزن متعلق بالماضي.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «الْهَمُّ وَالْحَزَنُ قرينان؛ والفرق بينهما: أَنَّ المكروه الوارد على القلب: إمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى مَا مَضَى، أَوْ لِمَا يَسْتَقْبَلُ؛ فالأوَّلُ هو الْحَزَنُ، والثاني: الْهَمُّ»^(٣).

والثالث والرابع: (الْعَجْزُ وَالْكَسَلُ) وقد تقدَّم بيان معناه.

(١) انظر: «الفتوحات الربانية» لابن علان (٢٠٧/٧).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٩)، وروى مسلم رقم (٢٧٠٦) بعضه.

(٣) «مفتاح دار السعادة» (٣٧٦/١).

والخامس والسادس: (الْجُبْنُ وَالْبُخْلُ)، وقد تَقَدَّمَ بيانُ معنَاهما أيضًا.

والسابع والثامن: (ضَلَعُ الدِّينِ، وَغَلَبَةُ الرِّجَالِ)؛ أَمَّا ضَلَعُ الدِّينِ: أي: ثِقَلُهُ وَشِدَّتُهُ، حَتَّى يَمِيلَ صَاحِبُهُ عَنِ الْإِسْتِوَاءِ لِثِقَلِهِ؛ وَذَلِكَ حِينَ لَا يَجِدُ مَنْ عَلَيْهِ الدِّينُ وَفَاءً، وَلَا سَيِّمًا مَعَ الْمَطَالِبَةِ.

وَأَمَّا غَلَبَةُ الرِّجَالِ: فَتَسَلُّطُهُمْ وَبَطْشُهُمْ، وَظُلْمُهُمْ وَعُدْوَانُهُمْ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «القهرُ الذي ينالُ العبدَ نوعان: أحدهما: قهرٌ بحقٍّ، وهو ضَلَعُ الدِّينِ، الثاني: قهرٌ بباطلٍ، وهو غَلَبَةُ الرِّجَالِ، فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على مَنْ أُوتِيَ جِوَامِعَ الْكَلِمِ، واقتُبِسَتْ كُنُوزُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مِنْ أَلْفَاظِهِ»^(١).



(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٣٧٧).

أَحَادِيثُ الْإِسْتِعَاذَةِ (٥)

٧ - عن عائشة رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ، وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، اللَّهُمَّ، اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلَجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)؛ رواه البخاري ومسلم ^(١).

وهذا الدعاء مشتملٌ على الاستعاذة مِنْ أَحَدَ عَشَرَ أَمْرًا، والدعاء بثلاثة أمورٍ أخرى.

فأما الأمورُ المستعاذُ منها، فهي:

الأول: قوله: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ)، وقد سَبَقَ الكلامُ عنه.

الثاني: قوله: (وَالْهَرَمِ)، وقد سَبَقَ الكلامُ عنه أيضًا.

الثالث: قوله: (وَالْمَأْثَمِ)، وهو ما يُوجِبُ الْإِثْمَ؛ أي: يكونُ سببًا للوقوعِ فيه.

الرابع: قوله: (وَالْمَغْرَمِ)، هو ما يقتضي الغُرْمَ، وهو الدَّيْنُ؛ أي: ما يلزمُ الإنسانَ أداؤه بسببِ جنايةٍ أو معاملةٍ ونحوه.

وفي الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيدُ مِنَ الْمَغْرَمِ؟

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٩) [بعد الحديث (٢٧٠٥)].

فقال: (إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَّبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ)، رواه البخاري ومسلم^(١).

والمأثم والمغرم يتضمنان الإشارة إلى حق الله وحق العبد، فالمأثم: إشارة إلى حق الله، والمغرم: إشارة إلى حق العبد.

الخامس: قوله: (وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ)، هي سؤال الملكين في القبر.

السادس: قوله: (وَعَذَابِ الْقَبْرِ)، سبق الكلام عنه.

السابع: قوله: (وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ)، وهي سؤال الخزنة على سبيل التوبيخ والتقريع؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ فِيهَا قَوْحًا سَالِمًا خَزَنَتَهَا أَلَّا يَأْتِكُم مِّنْ ذَّيْبٍ﴾ [الملك: ٨].

الثامن: قوله: (وَعَذَابِ النَّارِ)، سبق الكلام عنه.

التاسع: قوله: (وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى) ومعناه: ما يحصل بسببه من البطر والأشر، والشح بما يجب إخراجه من واجبات المال ومندوباته.

العاشر: قوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ)، يراد به الفقر المدقع، الذي لا يضحبه خير ولا ورع؛ حتى يتورط صاحبه بسببه فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة، ولا يبالي بسبب فاقته على أي حرام وثب، ولا في أي حالة تورط، وقيل: فتنة الفقر: ما يحصل بسببه من السخط والقنوط لمن لا صبر له يمنعه من ذلك، ولا إيمان قوي يدفعه عن ذلك، وقيل: المراد بالفقر: فقر النفس الذي لا يردّه ملك الدنيا بحذافيرها.

قال النووي رحمته الله: «وأما استعاذته ﷺ من فتنة الغنى، وفتنة الفقر، فلأنهما حالتان تخشى الفتنة فيهما بالتسخط، وقلة الصبر، والوقوع في حرام أو شبهة للحاجة، ويخاف في الغنى من الأشر والبطر والبخل بحقوق المال، أو إنفاقه في إسراف وفي باطل، أو في مفاخر»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٣٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٩)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «شرح صحيح مسلم» (٢٨/١٧).

الحادي عشر: قوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ)، وهو تعوُّدٌ بالله مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، وهي أعظمُ الفِتَنِ الكائِنَةِ فِي الدُّنْيَا؛ كما فِي حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَالِ)؛ رواه مسلمٌ، وَفِي رِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: (فِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ)^(١).

قال الشوكاني رحمته الله: «والمراودُ بِفِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ: هِيَ مَا يَظْهَرُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُضِلُّ بِهَا مَنْ ضَعُفَ إِيْمَانُهُ، كَمَا اسْتَمَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى ذِكْرِهِ وَذِكْرِ خُرُوجِهِ، وَمَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ»^(٢).

وأما الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي دَعَا بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، فَهِيَ:

أَوَّلًا: قوله: (اللَّهُمَّ، اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ):

قال ابن القيم رحمته الله: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَقْهِ: أَنَّ الدَّاءَ يُدَاوَى بِضِدِّهِ؛ فَإِنَّ فِي الْخَطَايَا مِنَ الْحَرَارَةِ وَالْحَرِيقِ مَا يُضَادُّهُ الثَّلْجُ وَالْبَرَدُ وَالْمَاءُ الْبَارِدُ، وَلَا يَقَالُ: إِنَّ الْمَاءَ الْحَارَّ أَبْلَغُ فِي إِزَالَةِ الْوَسَخِ؛ لِأَنَّ فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ مِنْ تَصْلِيْبِ الْجِسْمِ وَتَقْوِيَّتِهِ مَا لَيْسَ فِي الْحَارِّ، وَالْخَطَايَا تُوجِبُ أَثَرَيْنِ: التَّنَدُّيسُ، وَالْإِرْخَاءُ، فَالْمَطْلُوبُ مَدَاوِيئُهَا بِمَا يُنْظَفُ الْقَلْبَ وَيَصْلِبُهُ، فَذَكَرَ الْمَاءَ الْبَارِدَ وَالثَّلْجَ وَالْبَرَدَ إِشَارَةً إِلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ»^(٣).

ثَانِيًا: قوله: (وَنَقَّى قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ)؛ أَي: نَظَّفْتُ قَلْبِي مِنَ الذَّنُوبِ كَمَا نَظَّفْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ؛ شَبَّهَ نَظَافَةَ قَلْبِهِ مِنَ الذَّنُوبِ بِنَظَافَةِ الثَّوْبِ الْأَبْيَضِ مِنَ الدَّنَسِ؛ لِأَنَّ زَوَالَ الدَّنَسِ فِي الثَّوْبِ الْأَبْيَضِ أَظْهَرُ، بِخِلَافِ سَائِرِ الْأَلْوَانِ؛ فَإِنَّهُ رَبَّمَا يَبْقَى فِيهِ أَثَرُ الدَّنَسِ بَعْدَ الْغَسْلِ، وَلَمْ يَظْهَرْ ذَلِكَ لِمَانِعٍ فِيهِ، بِخِلَافِ الْأَبْيَضِ؛ فَإِنَّهُ يَظْهَرُ كُلُّ أَثَرٍ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٤٦)، و«مسند أحمد» (٢٠/٤).

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص ١٤٤). (٣) «زاد المعاد» (٢٩٣/٤).

فيه، والقصدُ من هذا التشبيه أن يُنْظَفَ قلبُهُ مِنَ الذُّنُوبِ كَنَظَافَةِ الثَّوْبِ الْأَبْيَضِ
الْمُنْظَفِ مِنَ الدَّنَسِ، فلم يَبْقَ فيه أثرٌ ما.

ثالثًا: قوله: (وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ)، والمرادُ بالمباعدة هنا: مَحْوُ ما حَصَلَ مِنَ الْخَطَايَا، وَتَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ
بِهَا، وَالْوَقَايَةُ مِمَّا لَمْ يَقَعْ مِنْهَا، وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِبُعْدِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مِبَالِغَةً فِي
الْبُعْدِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الْمَشَاهِدَاتِ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلِأَنَّ
الْتِقَاءَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُسْتَحِيلٌ، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ لَا يَبْقَى لَهَا مِنْهُ اقْتِرَابٌ
بِالْكَلِيَّةِ.

قال الْكِرْمَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي الدَّعَوَاتِ الثَّلَاثِ إِشَارَةٌ إِلَى
الْأَزْمَنَةِ الثَّلَاثَةِ؛ فَالْمُبَاعَدَةُ لِلْمُسْتَقْبَلِ، وَالتَّنْقِيَةُ لِلْحَالِ، وَالْعَسْلُ لِلْمَاضِي»^(١).



أَحَادِيثُ الْإِسْتِعَاذَةِ (٦)

٨ - عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ)؛ رواه البخاري ومسلم ^(١).

وفي بعض روايات الحديث: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ (يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ)» ^(٢).

وهذا الحديث فيه التَعَوُّذُ بِاللَّهِ مِنْ أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ:

الأول: (جَهْدُ الْبَلَاءِ)، وهو كُلُّ مَا يُصِيبُ الْمَرْءَ مِنْ شِدَّةٍ وَمَشَقَّةٍ، وما لا طاقةَ له بِحَمْلِهِ، ولا يَقْدِرُ على دَفْعِهِ.

الثاني: (دَرَكُ الشَّقَاءِ)؛ الدَّرَكُ: هو اللُّحُوقُ والوصولُ إلى الشيء، والشَّقَاءُ: نقيضُ السعادة، وهو الهلاك، أو ما يُوَدِّي إلى الهلاك، ويكونُ ذلك في أُمُورِ الدنيا، وفي أُمُورِ الآخرة.

الثالث: (سُوءُ الْقَضَاءِ)؛ أي: سُوءُ الْمَقْضِيِّ، وهو ما يسوءُ الإنسانَ أو يُوقِعُهُ في المكروه، وهو عامٌّ في النفسِ والمالِ، والأهلِ والولدِ، والخاتِمَةِ.

الرابع: (شَمَاتَةُ الْأَعْدَاءِ): ما يَنْكَأُ الْقَلْبَ، وَيَبْلُغُ مِنَ النَّفْسِ أَشَدَّ مَبْلَغٍ، بفرح العدوِّ بِبَلِيَّةٍ تَنْزِلُ بِمَنْ يَعَادِيهِ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٦١٦)، وهو عند مسلم رقم (٢٧٠٧)، مِنْ فَعْلِهِ ﷺ.

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٤٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٧).

٩ - وعن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنه، قال: «كَانَ مِنْ دَعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)»؛ رواه مسلم^(١).

قال الشوكاني رحمته الله: «استعاذَ رسولُ الله ﷺ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ عَدَمِ شُكْرِهَا وَالْمُضِيِّ عَلَى مَا تَسْتَحِقُّهُ وَتَقْتَضِيهِ؛ كَالْبَخْلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ النِّعْمُ عَلَى صَاحِبِهَا مِنْ تَأْدِيَةٍ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ، وَالْمَوَاسَاةِ، وَإِخْرَاجِ مَا يَجِبُ إِخْرَاجُهُ.

وَاسْتِعَاذَ أَيْضًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَحَوُّلِ عَافِيَتِهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ اخْتَصَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِعَافِيَتِهِ، فَقَدْ ظَفِرَ بِخَيْرِ الدَّارَيْنِ، فَإِنْ تَحَوَّلَتْ عَنْهُ، فَقَدْ أُصِيبَ بِشَرِّ الدَّارَيْنِ؛ فَإِنَّ الْعَافِيَةَ يَكُونُ بِهَا صَلَاحُ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَاسْتِعَاذَ ﷺ مِنْ فُجَاءَةِ نِقْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا انْتَقَمَ مِنَ الْعَبْدِ، فَقَدْ أَحْلَلَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ، وَلَا يُسْتَدْفَعُ بِسَائِرِ الْمَخْلُوقِينَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا جَمِيعًا، وَالْفُجَاءَةُ مِنْ فَاجَأَةٍ مُفَاجَأَةٍ: إِذَا جَاءَهُ بَغْتَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ بِذَلِكَ.

وَاسْتِعَاذَ ﷺ مِنْ جَمِيعِ سَخَطِهِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا سَخَطَ عَلَى الْعَبْدِ، فَقَدْ هَلَكَ وَخَابَ وَخَسِرَ، وَلَوْ كَانَ السَّخَطُ فِي أَدْنَى شَيْءٍ وَبِأَيْسَرِ سَبَبٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: (وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)، وَجَاءَ بِهِذِهِ الْعِبَارَةُ شَامِلَةً لِكُلِّ سَخَطٍ^(٢).

١٠ - وعن زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ، عَنْ عَمِّهِ رضي الله عنه، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ)»؛ رواه الترمذي^(٣).

اشْتَمَلَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى الْإِسْتِعَاذَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ مُنْكَرَاتٍ:

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٩).

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص ٣٥١ - ٣٥٢) باختصار يسير.

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩١)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٤٧٣/٣).

أحدها: (مُنْكَرَاتُ الْأَخْلَاقِ)، وهذا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ؛ أَي: الْأَخْلَاقُ الْمُنْكَرَةُ، وَاسْتِعَاذُ مِنْهَا ﷺ؛ لِأَنَّ الْأَخْلَاقَ الْمُنْكَرَةَ تَكُونُ سَبَبًا لَجَلْبِ كُلِّ شَرٍّ، وَدَفْعِ كُلِّ خَيْرٍ.

والثاني: (مُنْكَرَاتُ الْأَعْمَالِ)؛ أَي: الْأَعْمَالُ الْمُنْكَرَةُ، وَهِيَ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي.

وقال بعضُ العلماء: المرادُ بِالْأَخْلَاقِ: الْأَعْمَالُ الْبَاطِنَةُ، وَالْمَرَادُ بِالْأَعْمَالِ: الْأَفْعَالُ الظَّاهِرَةُ^(١)، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ) اسْتِعَاذَةً مِنَ الذُّنُوبِ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا.

والثالث: (مُنْكَرَاتُ الْأَهْوَاءِ): جَمْعُ هَوًى، وَاسْتِعَاذُ ﷺ مِنَ الْأَهْوَاءِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُوقِعُ فِي الشَّرِّ، وَتَنْشَأُ عَنْهَا أَنْوَاعُ الْمَخَالَفَاتِ وَالْانْحِرَافَاتِ.

١١ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلْتُ وَشَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ)»^(٢).

وهذه الاستعاذة مِنَ الاستعاذاتِ الْجَامِعَةِ الَّتِي تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ مِمَّا عَمِلَهُ الْعَبْدُ، وَمِمَّا لَمْ يَعْمَلْهُ.

قال الشوكاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقَدْ اسْتَعَاذَ ﷺ مِنْ شَرِّ أَعْمَالِهِ الَّتِي قَدْ عَمِلَهَا، وَمِنْ شَرِّ أَعْمَالِهِ الَّتِي سَيَعْمَلُهَا، كَمَا اسْتَعَاذَ ﷺ - فِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى - مِنْ شَرِّ الْأُمُورِ الَّتِي يَعْلَمُهَا، وَمِنْ شُرُورِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا؛ وَهَذَا تَعْلِيمٌ مِنْهُ ﷺ لِأَمْتِهِ لِيَقْتَدُوا بِهِ، وَإِلَّا فَجَمِيعُ أَعْمَالِهِ - سَابِقُهَا وَلاحِقُهَا - كُلُّهَا خَيْرٌ لَا شَرَّ فِيهَا، وَجَمِيعُ مَا يَعْلَمُهُ - سَابِقُهُ وَلاحِقُهُ - هُوَ مُيسَّرٌ وَمَعْصُومٌ مِنْ شَرِّهِ»^(٣).

وفي هذه الاستعاذة إشارةٌ إِلَى أَنَّ مَا يَصِيبُ الْعَبْدَ مِنَ الشَّرِّ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ مَا عَمِلَتْهُ يَدَاهُ، أَوْ بِسَبَبِ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِي النَّاسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْعَامِلُ

(١) . انظر: «تحفة الأحوذى» (٥٠/١٠).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧١٦).

(٣) «تحفة الذاكرين» (ص ٣٥١).

المباشر؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفيهما أيضًا: دَلَالَةٌ عَلَى ضَعْفِ الْإِنْسَانِ، وَشِدَّةِ افْتِقَارِهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي صَلَاحِ شُؤُونِهِ، وَاسْتِقَامَةِ أُمُورِهِ، وَالْوَقَايَةِ مِنْ شُرُورِ نَفْسِهِ، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى لَهُ عَنْ رَبِّهِ وَسَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، وَالْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْعِبَادِ، لَا رَبَّ سِوَاهُ.

وبهذا التَعَوُّذُ الْجَامِعُ تَمَّ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مَا أَرَدْتُ جَمْعَهُ فِي هَذَا

الْبَابِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَلَهُ الشُّكْرُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ

وَالْيَاقِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿رَبَّنَا نَقْبَلُ مِنَّا

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]

وكان الفراغُ منه صَبِيحَةَ يَوْمِ الْأَحَدِ الْخَامِسِ

عَشَرَ، مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الْآخِرَةِ، عَامِ أَلْفِ

وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَخَمْسٍ وَعَشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا

مُحَمَّدَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ

أَجْمَعِينَ

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

صفحة

موضوع

أ - ب	* مقدمة هذه الطبعة
٥	* تقديم سماحة المفتي الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ
٧	* مقدِّمة المؤلف

❖ القسم الأول ❖

٢٥٥ - ١٣	الدُّكْرُ: فضائله وأنواعه
١٥	١ - أهمية الدُّكْرِ وفضله
١٩	٢ - من فوائد الأذكار
٢٣	٣ - فوائد أخرى للدُّكْرِ
٢٨	٤ - فضل مجالس الدُّكْرِ
٣٣	٥ - دِكْرُ اللهِ هو أزكى الأعمال وأفضلها
٣٨	٦ - فضل الإكثار من ذكر الله
٤٣	٧ - تنوع الأدلة الدالة على فضل الذكر
٤٨	٨ - ذم الغفلة عن ذكر الله
٥٢	٩ - من آداب الذكر
٥٦	١٠ - أفضل الذكر: القرآن الكريم
٦٠	١١ - نزول القرآن في شهر رمضان
٦٥	١٢ - المطلوب من القرآن: فهم معانيه، والعمل به
٦٩	١٣ - آداب حملة القرآن
٧٣	١٤ - تفاضل سور القرآن، وفضل سورة الفاتحة
٧٨	١٥ - فضل آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وسور أخرى
٨٣	١٦ - وسطية أهل القرآن
٨٧	١٧ - أفضلية القرآن على مجرد الذكر
٩١	١٨ - فضل طلب العلم
٩٥	١٩ - أركان التعبد القلبية للذكر وغيره من العبادات

- ٢٠ - ذكر الله بذكر أسمائه وصفاته ٩٩
- ٢١ - أهمية العلم بأسماء الله وصفاته ١٠٣
- ٢٢ - اقتضاء الأسماء والصفات لآثارها من العبودية لله ١٠٧
- ٢٣ - العلم بأسماء الله وصفاته، ومنهج أهل السنة في ذلك ١١١
- ٢٤ - وصف أسماء الله بأنها حسنى، ومدلول ذلك ١١٥
- ٢٥ - التحذير من الإلحاد في أسماء الله ١١٩
- ٢٦ - تدبر أسماء الله وصفاته وعدم تعطيلها وعظم أثر ذلك على العبد ١٢٣
- ٢٧ - أسماء الله الحسنى غير محصورة بعدد معين، وبيان المراد بقوله ﷺ: (مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) ١٢٧
- ٢٨ - تفاضل الأسماء الحسنى، وذكر الاسم الأعظم ١٣١
- ٢٩ - فضائل الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ١٣٦
- ٣٠ - فضائل أخرى لهؤلاء الكلمات الأربع ١٤٠
- ٣١ - فضائل كلمة التوحيد: لا إله إلا الله ١٤٤
- ٣٢ - فضائل أخرى لكلمة التوحيد: لا إله إلا الله ١٤٩
- ٣٣ - شروط: لا إله إلا الله ١٥٤
- ٣٤ - مدلول ومعنى كلمة التوحيد: لا إله إلا الله ١٥٩
- ٣٥ - نواقض شهادة: أن لا إله إلا الله ١٦٣
- ٣٦ - بيان فساد الذكر بالاسم المفرد مظهرًا أو مضمّرًا ١٦٧
- ٣٧ - فضل التسييح ١٧٢
- ٣٨ - من فضائل التسييح في السنّة ١٧٦
- ٣٩ - تسييح جميع الكائنات لله ١٨١
- ٤٠ - معنى التسييح ١٨٦
- ٤١ - فضل الحمد والأدلة عليه من القرآن الكريم ١٩١
- ٤٢ - الأدلة من السنّة على فضل الحمد ١٩٦
- ٤٣ - المَوَاطِنُ التي يَتَأَكَّدُ فيها الحمد ٢٠١
- ٤٤ - أعظم مُوجِبَاتِ الحمد: العلمُ بأسماء الربِّ وصفاته ٢٠٦
- ٤٥ - حَمْدُ الله على نعمه وآلائه ٢١١
- ٤٦ - حَمْدُ الله هو أفضل النعم ٢١٥
- ٤٧ - أفضل صيغ الحمد وأكملها ٢١٩

- ٤٨ - تعريف الحمد، والفرق بينه وبين الشكر ٢٢٣
- ٤٩ - فضل الشكر ٢٢٧
- ٥٠ - حقيقة الشكر، ومكانته عند السلف ٢٣١
- ٥١ - فضل التكبير، ومكانته من الدين ٢٣٥
- ٥٢ - معنى التكبير، وبيان مدلوله ٢٣٩
- ٥٣ - التلازم بين الكلمات الأربع ٢٤٣
- ٥٤ - فضل: لا حول ولا قوة إلا بالله ٢٤٧
- ٥٥ - حقيقة: لا حول ولا قوة إلا بالله ٢٥٢

❖ القسم الثاني ❖

الدُّعَاءُ: مَنْزِلَتُهُ وَأَدَابُهُ

٢٥٧ - ٤٧٨

- * المقدمة ٢٥٩
- ٥٦ - فضل الدعاء ٢٦١
- ٥٧ - من أدلة السنة على فضل الدعاء، وذكر ضابط في المفاضلة بين الذكر والدعاء . ٢٦٥
- ٥٨ - ومن فضائل الدعاء ٢٦٩
- ٥٩ - افتقار العبد إلى الله وحاجته إلى دعائه ٢٧٢
- ٦٠ - إجابة الله سبحانه للداعين ٢٧٦
- ٦١ - إجابة الدعاء موقوفة على توفر شروط، وانتفاء موانع ٢٧٩
- ٦٢ - أربعة أسباب لإجابة الدعاء ٢٨٢
- ٦٣ - الدعاء حق خالص لله ٢٨٦
- ٦٤ - أهمية اتباع السُّنَّة في الدعاء ٢٨٩
- ٦٥ - التحذير من الأدعية المُحَدَّثَة ٢٩٣
- ٦٦ - الآثار السيئة للأدعية المُحَدَّثَة ٢٩٧
- ٦٧ - جوامع الكلم، والأدعية المأثورة ٣٠٠
- ٦٨ - أهمية العناية بالألفاظ النبوية في الذكر والدعاء ٣٠٤
- ٦٩ - التحذير من الاعتداء في الدعاء ٣٠٩
- ٧٠ - من الاعتداء في الدعاء ٣١٢
- ٧١ - من آداب الدعاء: إخفاؤه ٣١٦
- ٧٢ - أنواع التوسل المشروع ٣٢٠
- ٧٣ - التحذير من الانحراف في فهم معنى التوسل ٣٢٤

- ٧٤ - من التوسل الباطل: دعاء الصالحين من دون الله ٣٢٨
- ٧٥ - أوقات يستجاب فيها الدعاء ٣٣٢
- ٧٦ - أحوال للمسلم يستجاب فيها الدعاء ٣٣٦
- ٧٧ - من تستجاب دعوتهم؟ ٣٤٠
- ٧٨ - التحذير من الأدعية المُبتدعة ٣٤٤
- ٧٩ - خطورة دعاة الباطل وأئمة الضلال ٣٤٨
- ٨٠ - خطورة التعلق بالقبور ٣٥٢
- ٨١ - الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبَد ٣٥٦
- ٨٢ - إِذَا سَأَلْتُ فَاسْأَلِ اللَّه ٣٦٠
- ٨٣ - ترويج أهل الباطل للأدعية الباطلة بالحكايات المُلَفَّقة ٣٦٤
- ٨٤ - من آداب الدعاء: عدم استعجال الإجابة ٣٦٨
- ٨٥ - أهمية حضور القلب في الدعاء، وجملة من الآداب الأخرى ٣٧٢
- ٨٦ - افتقار العبد إلى الله ٣٧٦
- ٨٧ - جملة من آداب الدعاء ٣٨٠
- ٨٨ - تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ ٣٨٤
- ٨٩ - رفع اليدين في الدعاء ٣٨٨
- ٩٠ - مراتب رفع اليدين في الدعاء ٣٩٣
- ٩١ - الدلائل والمعاني المستفادة من رفع اليدين ٣٩٧
- ٩٢ - رَفَعَ الْأَيْدِيَ إِلَى اللَّهِ: من دلائل عُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ ٤٠١
- ٩٣ - الأخطاء المتعلقة برفع اليدين ٤٠٥
- ٩٤ - استقبال الداعي القبلة ٤٠٩
- ٩٥ - من آداب الدعاء ٤١٣
- ٩٦ - من آداب الدعاء ٤١٧
- ٩٧ - التحذير من السماعات المُبتدعة ٤٢١
- ٩٨ - الفرق بين السماع المشروع والسماع المُحَدَّث ٤٢٥
- ٩٩ - الدعاء للمسلمين ٤٢٩
- ١٠٠ - الاستغفار للمسلمين ٤٣٣
- ١٠١ - فضل الدعاء للمؤمنين، والإمساك عن الطعن فيهم ٤٣٧
- ١٠٢ - الدعاء للوالدين ولذوي القربى ٤٤٢
- ١٠٣ - الدعاء لولاية أمر المسلمين ٤٤٦

- ١٠٤ - أقسام الدعاء باعتبار المدعو له ٤٥٠
- ١٠٥ - خطورة الدعاء على النفس أو الغير ٤٥٤
- ١٠٦ - التوبة من الذنوب بين يدي الدعاء ٤٥٨
- ١٠٧ - المبادرة إلى التوبة والنُصْح فيها ٤٦٢
- ١٠٨ - قرن التوبة بالاستغفار، وقرن الاستغفار بالتوحيد ٤٦٦
- ١٠٩ - مكانة الاستغفار، وحال المستغفرين ٤٧٠
- ١١٠ - ملازمة النبي ﷺ للاستغفار ٤٧٤

❖ القسم الثالث ❖

٧٥٢ - ٤٧٩

عَمَلُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ

- * المقدمة ٤٨١
- ١١١ - فضل الأذكار المتعلقة بعمل اليوم واللييلة ٤٨٣
- ١١٢ - أذكار طرفي النَّهَار ٤٨٧
- ١١٣ - ومن أذكار طرفي النَّهَار ٤٩١
- ١١٤ - ومن أذكار طرفي النَّهَار ٤٩٤
- ١١٥ - ومن أذكار طرفي النَّهَار ٤٩٨
- ١١٦ - ومن أذكار طرفي النَّهَار ٥٠٢
- ١١٧ - ومن أذكار الصَّبَاح ٥٠٦
- ١١٨ - ومن أذكار الصَّبَاح ٥١٠
- ١١٩ - ومن أذكار الصَّبَاح ٥١٤
- ١٢٠ - فضلُ الصَّبَاحِ وَبَرَكَتُهُ ٥١٧
- ١٢١ - أذكار النَّوْم ٥٢١
- ١٢٢ - ومن أذكار النوم ٥٢٥
- ١٢٣ - فضل قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة كلَّ ليلة ٥٢٩
- ١٢٤ - من أذكار النَّوْم ٥٣٣
- ١٢٥ - ومن أذكار النَّوْم ٥٣٧
- ١٢٦ - ومن أذكار النَّوْم ٥٤١
- ١٢٧ - ومن أذكار النَّوْم ٥٤٥
- ١٢٨ - أذكار الانتباه من النَّوْم ٥٤٩
- ١٢٩ - أذكار الاستيقاظ من النوم ٥٥٣

- ١٣٠ - ما يقال عند الفزع في النوم ٥٥٧
- ١٣١ - ما يقوله من رأى في منامه ما يحبُّ أو يكره ٥٦١
- ١٣٢ - أذكار الخروج من المنزل ٥٦٥
- ١٣٣ - من أذكار الخروج من المنزل ٥٦٩
- ١٣٤ - أذكار دخول المنزل ٥٧٣
- ١٣٥ - آداب الخلاء وأذكاره ٥٧٧
- ١٣٦ - أذكار الوضوء ٥٨٢
- ١٣٧ - أذكار الخروج إلى الصلاة، ودخول المسجد والخروج منه ٥٨٦
- ١٣٨ - ما يقوله مَنْ سَمِعَ الأَذَانَ ٥٩٠
- ١٣٩ - أذكار استفتاح الصلاة ٥٩٤
- ١٤٠ - أنواع استفتاحات الصلاة ٥٩٨
- ١٤١ - أذكار الركوع والقيام منه، والسجود والجلُوس بين السجَدَتَيْنِ ٦٠٢
- ١٤٢ - ومن أذكار الصلاة ٦٠٦
- ١٤٣ - ومن الأذكار المتعلقة بالصلاة ٦١٠
- ١٤٤ - أذكار التشهُد ٦١٤
- ١٤٥ - الدعاء الوارد ما بين التشهُد والتسليم ٦١٨
- ١٤٦ - شرح حديث عَمَّارٍ فِي الذِّكْرِ بَيْنَ التَّشَهُدِ وَالتَّسْلِيمِ ٦٢٢
- ١٤٧ - الأذكار بعد السَّلَام ٦٢٦
- ١٤٨ - دعاء القنوت في صلاة الوُتْر ٦٣١
- ١٤٩ - دعاء الاستخارة ٦٣٥
- ١٥٠ - أذكار الكَرْب ٦٣٩
- ١٥١ - دعاء الغَمِّ وَالْهَمِّ وَالْحَزَنِ ٦٤٣
- ١٥٢ - ما يقال عند لقاء العَدُوِّ ٦٤٧
- ١٥٣ - ما يقول إذا أصابته مصيبةٌ ٦٥١
- ١٥٤ - ما يقوله مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ٦٥٥
- ١٥٥ - الأذكار التي تَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ٦٥٦
- ١٥٦ - ما يُرَقَى بِهِ الْمَرِيضُ ٦٦٣
- ١٥٧ - التَّعَوُّدُ مِنَ السَّحْرِ وَالْعَيْنِ وَالْحَسَدِ ٦٦٨
- ١٥٨ - ما يقال للمريض ٦٧٣
- ١٥٩ - ما يقال عند مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ ٦٧٨

- ١٦٠ - ما يقال في الصلاة على الجنازة ٦٨٣
- ١٦١ - ما يقال عند دفن الميت وبعده، وعند التعزية، وزيارة المقابر ٦٨٧
- ١٦٢ - دعاء الاستسقاء ٦٩١
- ١٦٣ - ما يقال عند نزول الغيث ٦٩٥
- ١٦٤ - ما يقال عند كُسُوفِ الشمس، أو حُسُوفِ القمر ٦٩٩
- ١٦٥ - ما يقال عند رؤية الهلال ٧٠٣
- ١٦٦ - الدعاء ليلة القَدَر ٧٠٧
- ١٦٧ - أذكار ركوب الدَّابَّةِ وَالسَّفَر ٧١١
- ١٦٨ - ما يقوله إذا نزل منزلاً، أو رأى قريةً أو بلدةً يريدُ دخولَها ٧١٦
- ١٦٩ - أذكار الطعام والشراب ٧٢٠
- ١٧٠ - ما ورد في السَّلَام ٧٢٥
- ١٧١ - ما يقال عند العُطَّاس، وما يُفَعَّلُ عند الثَّأْب ٧٣٠
- ١٧٢ - ذكر النِّكَاحِ وَالتَّهْنِئَةِ بِهِ وَالدُّخُولِ بِالزَّوْجَةِ، وَالدُّكْرِ الْمُتَعَلِّقُ بِالْأَبْنَاءِ ٧٣٥
- ١٧٣ - ما يقال عند الغضب ٧٤٠
- ١٧٤ - أدعيةٌ مأثورةٌ في أبواب متفرقة ٧٤٤
- ١٧٥ - كَفَّارَةُ الْمَجْلِسِ ٧٤٩

❖ القسم الرابع ❖

جَوَامِعُ الْأَدْعِيَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ٧٥٣ - ٩٤٥

- * المقدمة ٧٥٥
- ١٧٦ - مكانة الأدعية الواردة في الكتاب والسُّنَّة ٧٥٧
- ١٧٧ - مكانة الدعاء الوارد في سورة الفاتحة ٧٦٠
- ١٧٨ - مضامين سورة الفاتحة ٧٦٤
- ١٧٩ - مكانة دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاء ﷺ ٧٦٨
- ١٨٠ - استغفار الأنبياء ﷺ ٧٧١
- ١٨١ - دعاء آدم ﷺ ٧٧٤
- ١٨٢ - دعاء نوح ﷺ (١) ٧٧٧
- ١٨٣ - دعاء نوح ﷺ (٢) ٧٨٠
- ١٨٤ - دعاء إبراهيم ﷺ (١) ٧٨٣
- ١٨٥ - دعاء إبراهيم ﷺ (٢) ٧٨٧

صفحة

موضوع

٧٩٠	١٨٦ - دعاء إبراهيم عليه السلام (٣)
٧٩٣	١٨٧ - دعاء إبراهيم عليه السلام (٤)
٧٩٧	١٨٨ - دعاء إبراهيم عليه السلام (٥)
٨٠١	١٨٩ - دعاء إبراهيم عليه السلام (٦)
٨٠٥	١٩٠ - دعاء لُوط عليه السلام
٨٠٨	١٩١ - دعاء شُعَيْب عليه السلام
٨١٢	١٩٢ - دعاء يُوسُف عليه السلام
٨١٦	١٩٣ - دعاء أَيُّوب عليه السلام
٨٢٠	١٩٤ - دعاء يُوسُف عليه السلام
٨٢٤	١٩٥ - دعاء موسى عليه السلام (١)
٨٢٨	١٩٦ - دعاء موسى عليه السلام (٢)
٨٣٢	١٩٧ - دعاء موسى عليه السلام (٣)
٨٣٦	١٩٨ - دعاء سليمان عليه السلام
٨٣٩	١٩٩ - دعاء زكريا عليه السلام
٨٤٣	٢٠٠ - دعاء نبينا محمد ﷺ (١)
٨٤٧	٢٠١ - دعاء نبينا محمد ﷺ (٢)
٨٥١	٢٠٢ - دعاء نبينا محمد ﷺ (٣)
٨٥٥	٢٠٣ - دعاء نبينا محمد ﷺ (٤)
٨٥٩	٢٠٤ - دَعَوَاتُ الْمُؤْمِنِينَ (١)
٨٦٣	٢٠٥ - دعاء المؤمنين في خاتمة سورة البقرة (٢)
٨٦٦	٢٠٦ - دعاء المؤمنين في خاتمة سورة البقرة (٣)
٨٧٠	٢٠٧ - من دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٤)
٨٧٤	٢٠٨ - من دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٥)
٨٧٨	٢٠٩ - من دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٦)
٨٨٢	٢١٠ - من دعوات المؤمنين (٧)
٨٨٦	٢١١ - من دعوات المؤمنين (٨)
٨٩٠	٢١٢ - من دعوات المؤمنين (٩)
٨٩٤	٢١٣ - من دعوات المؤمنين (١٠)
٨٩٨	٢١٤ - دعاء الملائكة عليهم السلام
٩٠٢	٢١٥ - دعوات جامعة من السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (١)

صفحة

موضوع

٩٠٦	٢١٦ - دعوات جامعة من السُّنَّة النبوية (٢)
٩١٠	٢١٧ - دعوات جامعة من السُّنَّة النبوية (٣)
٩١٤	٢١٨ - دعوات جامعة من السُّنَّة النبوية (٤)
٩١٨	٢١٩ - دعوات جامعة من السُّنَّة النبوية (٥)
٩٢٢	٢٢٠ - أحاديث الاستعاذة (١)
٩٢٦	٢٢١ - أحاديث الاستعاذة (٢)
٩٣٠	٢٢٢ - أحاديث الاستعاذة (٣)
٩٣٤	٢٢٣ - أحاديث الاستعاذة (٤)
٩٣٨	٢٢٤ - أحاديث الاستعاذة (٥)
٩٤٢	٢٢٥ - أحاديث الاستعاذة (٦)
٩٤٥	* فَهْرُسُ الْمَوْضُوعَاتِ